مِنبَريّــات

مُنتخَبة

د. محمد بن عبدالله بن ابراهيم السحيم

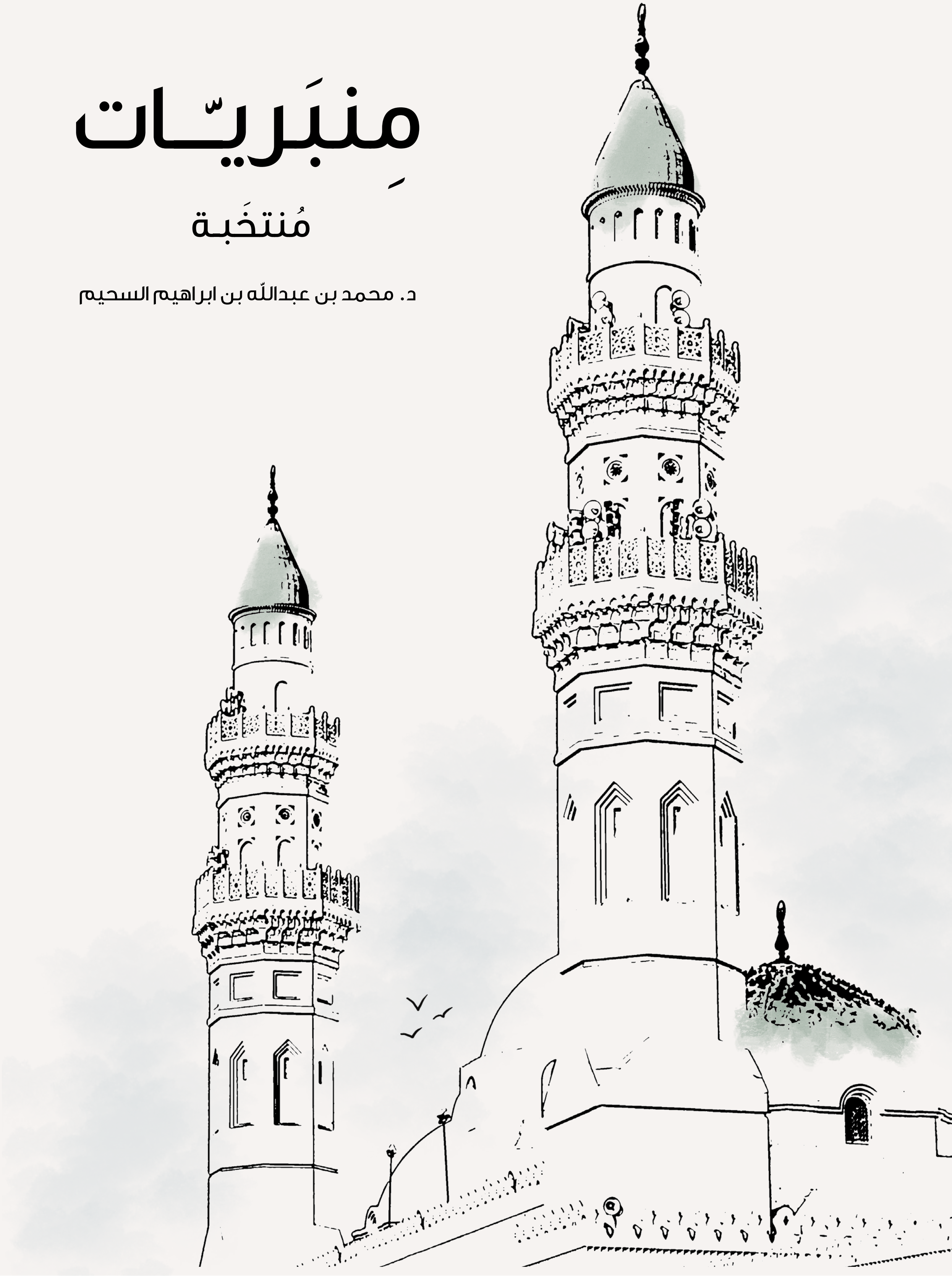

منبريات منتخبة

الطبعة الأولى
١٤٤٤هـ
٢٠٢٣م

المحتويات

العقيدة ---------- **١٥**
العروة الوثقى ---------- ١٧
إِنَّ الشِّرْكَ لظلمٌ عظيمٌ ---------- ٢٤
أَوْهَنُ البيوتِ ---------- ٣٢
فكأنما خرَّ من السماء ---------- ٣٧
قوةُ التوحيد ---------- ٤٤
وإنْ تُطيعوه تَهتدُوا ---------- ٥٢
إنّا كفيْناكَ المستهزئينَ ---------- ٥٨
مكانةُ النبيِّ ﷺ وجريمةُ السُّخريةِ به ---------- ٦٤
السابقون الأولون ---------- ٧٠
كيدُ الكافرين ---------- ٧٧
صفاءُ اليقين ---------- ٨٣
ورثةُ الصّفَويّة ---------- ٨٩
توقيرُ اليمينِ ---------- ٩٦
العبادات ---------- **١٠٣**
قُربةُ الفريضة ---------- ١٠٥
فَتْحُ الدعاءِ ---------- ١١٠
الإلحاح في الدعاء ---------- ١١٧
دعاءُ المسلمِ الجديدِ ---------- ١٢٤
دعاءُ الغريقِ ---------- ١٣١
دعوةُ السَّحَرِ ---------- ١٣٧
دعوةُ المظلومِ ---------- ١٤٣

دعوةُ الوالدِ -- ١٥٠
فقهُ الاغتسال -- ١٥٧
نداءُ الفلاح -- ١٦٣
مقامُ المصلِّي -- ١٦٩
مناجاةُ المصلِّي -- ١٧٥
دعاءُ المُصلِّي -- ١٨٠
مَفزَعُ المأزومِ -- ١٨٦
وقرآنَ الفجرِ -- ١٩١
فضلُ صلاةِ الجماعة -- ١٩٧
صلاةُ الاستخارة -- ٢٠٢
سجودُ السهوِ -- ٢٠٨
مسائلُ في زكاةِ المالِ النقديِّ يكثرُ السؤالُ عنها -- ٢١٥
استقبالُ رمضانَ -- ٢٢٠
الريحُ المرسَلةُ -- ٢٢٥
ختام رمضان -- ٢٣١
وليالٍ عشر -- ٢٣٦
من معاني الحجِّ -- ٢٤٢
خطبة عيد الأضحى -- ٢٤٨
- شعيرة الأضحية -- ٢٤٨
- أضحيةٌ وتضحيةٌ -- ٢٥٢
- أضحيةٌ وتوحيدٌ -- ٢٥٩
- رسالة الإسلام -- ٢٦٤
- وَحدةِ العيدِ -- ٢٦٨
خطبةُ عيدِ الفطرِ -- ٢٧٣

- فتنة تسلط الأعداء ---------- ٢٧٣
- حسن الظن بالله ---------- ٢٨١
- القبول ---------- ٢٨٨
- صفاءُ العيدِ ---------- ٢٩٥
- صلة العيد ---------- ٣٠٢
- الدّينُ الغالبُ ---------- ٣٠٨

المعاملات ---------- ٣١٥

سفينةُ المجتمعِ ---------- ٣١٧

نُزُلُ المحتَسبينَ ---------- ٣٢٣

الجار ---------- ٣٢٩

اليتيمُ ---------- ٣٣٦

دعائمُ العرشِ الزوجيّ ---------- ٣٤٣

وأصلحنا له زوجَه ---------- ٣٤٩

الخلافُ الزوجيُّ ---------- ٣٥٥

حتى يكونَ الطلاقُ علاجـًا ---------- ٣٦٢

تحصينُ الطفلِ من تسلُّطِ الشيطانِ ---------- ٣٦٩

نحو وصيةٍ شرعية ---------- ٣٧٤

حتى لا يكونَ في الميراثِ نزاعٌ ---------- ٣٨١

المالُ الحرامُ ---------- ٣٨٧

فقهُ الحاجةِ إلى الناسِ ---------- ٣٩٤

فقهُ الاستشارة ---------- ٤٠٠

السلوكُ والأخلاقُ والدعوةُ ---------- ٤٠٧

ولا يستخفنك الذين لا يوقنون ---------- ٤٠٩

إصلاحُ ذاتِ البيْنِ ---------- ٤١٧

سُمُوُّ الاعتذارِ -- ٤٢٤
كرمُ التغافلِ -- ٤٣١
الأناةُ -- ٤٣٨
أدبُ المِزاحِ -- ٤٤٤
العزَّةُ -- ٤٥٢
الكِبرُ -- ٤٥٨
أولئكَ همُ الراشدونَ -- ٤٦٥
بركةُ الصُّبْحِ -- ٤٧١
بصيرةٌ في الدعوةِ -- ٤٧٦
الشيطانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ -- ٤٨٢
حسنُ التعاملِ -- ٤٩١
حسنُ الخُلقِ -- ٤٩٧
عفةُ المرأةِ بينَ رَعْي الشريعةِ وجَنَفِ الزّائغينَ -- ٥٠٢
كنزُ القناعةِ -- ٥٠٨
لسانُ الصدقِ -- ٥١٤
معلِّمُ الخيرِ -- ٥١٩
نصيحةُ المسلمين -- ٥٢٥
نفعُ الناسِ -- ٥٢٩
ولا تُفسِدُوا في الأرضِ بعدَ إصلاحِها -- ٥٣٥
ولْيعفُوا ولْيَصْفحُوا -- ٥٤٠
الرقاق والمواعظ -- ٥٤٩
شهرةٌ في السماءِ -- ٥٥١
الشهرة -- ٥٥٩
برحمتِك أستغيثُ -- ٥٦٥

واقيةُ الوليدِ ---٥٧١
أدومُه وإنْ قَلَّ ---٥٧٩
استعاذاتٌ نَبَوِيَّةٌ ---٥٨٥
السرورُ بالحسنةِ --٥٩١
أعظمُ نعيمٍ --٥٩٩
الفِرْدَوْسُ ---٦٠٧
آكلةُ الديانةِ ---٦١٣
الاستغفارُ للمؤمنين ---٦٢٠
التثبيتُ القرآنيُّ في الأزماتِ --------------------------------------٦٢٥
الاستغناء بالقرآن --٦٣٢
التماسُ الرِّضا --٦٣٩
الخبيئةُ الصالحةُ ---٦٤٤
الدُّنيا بين همّينِ ---٦٥١
الذينَ يخشوْنَ ربَّهم بالغيبِ --٦٥٧
العقوباتُ الخفيّةُ ---٦٦٤
العِوَضُ الربانيُّ --٦٧٠
المُستظلّون السبعةُ ---٦٧٥
المُفلسُ --٦٨١
المنعُ الربانيُّ ---٦٨٧
المؤلماتُ الثمانيةُ ---٦٩٤
النّفسُ المُطْمئنّةُ --٧٠١
امتحانُ اليقينِ ---٧٠٥
انتصاراتُ رمضانَ ---٧١١
إنزالُ الحوائجِ ---٧١٦

إنّما أشكُو بثِّي وحُزْني إلى اللهِ ---------- ٧٢٢
انوِ الخيرَ ---------- ٧٢٨
أولئكَ يسارعونَ في الخيراتِ ---------- ٧٣٣
أيُّ دعوةٍ كان يدعو بها النبيُّ ﷺ أكثرَ؟ ---------- ٧٤٠
اللهم إني أسألُك من رحمتك وفضلك ---------- ٧٤٥
تزكيةُ النفسِ ---------- ٧٥٢
توكّلُ الأرزاقِ ---------- ٧٥٨
حُبُّ المساكينِ ---------- ٧٦٣
خبايا الخلواتِ ---------- ٧٦٩
ذكرى الدار ---------- ٧٧٦
ذكرى الاحتضارِ ---------- ٧٨٢
ذكرى الوباءِ ---------- ٧٩٠
راحةُ التوكلِ ---------- ٧٩٥
رِزْقُ الطيرِ ---------- ٨٠١
معالمُ في الدَّيْن ---------- ٨٠٦
زيغُ القلوبِ ---------- ٨١٥
سيّدُ الاستغفارِ ---------- ٨٢٠
شُؤْمُ العقوقِ ---------- ٨٢٧
طريقُ التوفيقِ ---------- ٨٣٥
عبرةُ انصرامِ عامٍ ---------- ٨٤٠
عُدَّةُ الشَّدائدِ ---------- ٨٤٦
عزاءُ المرضِ ---------- ٨٥٣
الاستشفاءُ بالصدقةِ ---------- ٨٥٩
غنيمةُ الوعدِ الإلهيّ ---------- ٨٦٧

فتنةُ القلبِ -- ٨٧٤
فتنةُ النظرِ التِّقنيِّ -- ٨٨٠
فرحُ اللهِ بالتائبِ -- ٨٨٦
مَن بوركَ له في شيءٍ فلْيلزمْه ------------------------------ ٨٩٢
فقهُ القَبولِ -- ٨٩٨
لعلّهم يضّرّعونَ --- ٩٠٤
قوَامُ العيشِ --- ٩٠٧
معركةُ الشيطانِ -- ٩١٢
مَن تُصلِّي عليهم الملائكةُ ---------------------------------- ٩١٩
هلْ تريدُ بيتاً في الجنةِ ------------------------------------- ٩٢٥
وألْحِقْني بالصّالحينَ -- ٩٣٢
والوزنُ يومئذٍ الحقُّ --- ٩٣٨
وجَعلنِي مُبارَكاً -- ٩٤٥
وصيةُ جبريلَ - عليه السلامُ - ------------------------------ ٩٥١
وظيفةُ بلاءِ الوباءِ -- ٩٥٨
من وحي الفَسِيلةِ --- ٩٦٢
ومضاتٌ في تربيةِ الأولادِ ------------------------------------ ٩٦٨
وكانَ أبوهُما صالحاً --- ٩٧٤
القصص --- **٩٨١**
البلاءُ المبينُ -- ٩٨٣
معالم إصلاحية في نبأ بناء البيت ----------------------------- ٩٨٩
وما هي من الظالمين ببعيد ----------------------------------- ٩٩٦
أنت مع من أحببتَ --- ١٠٠٣
لكنّي أَفقدُ جُلَيْبِيباً -- ١٠٠٩

حوارٌ نبويٌّ مع مُراهقٍ ---------------------------------------١٠١٦
خصومةُ المُثُلِ --١٠٢٢
صبراً آلَ ياسرٍ---١٠٢٧
عِبرةُ أصحابِ الكهفِ---------------------------------------١٠٣٤
عِبرةُ التِّيهِ ---١٠٣٩
عِبرةُ السامريّ ---١٠٤٤
عِبرَةُ أصحابِ الغارِ --١٠٥١
عِبرةُ ذِي النُّونِ — عليه السلامُ - -----------------------------١٠٥٧
القيمُ في خبرِ صاحبِ الجنتَيْنِ-----------------------------------١٠٦٤
عِبرةُ طالوتَ --١٠٧٠
في ظلالِ الهجرةِ --١٠٧٧
لأتصدقنّ الليلةَ بصدقة ------------------------------------١٠٨٣
مشهدُ حنانٍ--١٠٨٩
معالمُ تربويّةٌ في وصايا لقمانَ -------------------------------١٠٩٤
معالمُ من تربيةِ أمِّ سُلَيمٍ — رضيَ اللهُ عنها - -------------------١١٠٢
منْ وحيِ نبأ البقرةِ --١١٠٩
نصرُ عاشوراءَ --١١١٣
هدايةُ مسجدِ الضِّرارِ --------------------------------------١١١٨
وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ ---١١٢٤
يا مَوْلَى الزُّبيْرِ--١١٣٠
توبةٌ صادقةٌ ---١١٣٥
عبرةُ ابنيْ آدمَ ---١١٤١
ألا أُريكَ امرأةً مِن أهلِ الجنةِ؟ -------------------------------١١٤٧
تَوَلَّوْا وأعينُهم تفيضُ مِن الدمعِ----------------------------------١١٥٣

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيم
الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.

أمَّـا بعـدُ، فـإنَّ خطبـةَ الجمعـةِ شـعيرةٌ مـن شـعائرِ الإسـلامِ الكُـبرى؛ ذاتُ أثـرٍ بليغِ النفعِ في الفـردِ والمجتمـعِ، إن أُقِيمَـتْ وَفـقَ مقصودِهـا الشَّـرعيِّ، وأُسـلوبِها الـذي كانَ النبـيُّ ﷺ يؤدِّيهـا بـه، وعالجَـتْ مـا تَعظُـمُ حاجـةُ النـاسِ إليـه. وكانَ مِـنْ فضـلِ اللهِ —سـبحانه- أن يسَّـرَ مِنـبرَ جمعـةٍ لِعبـدِهِ الفقيـرِ زُهَـاءَ عَقديْـنِ مـن الزَّمـانِ؛ جـرى خِلالَهـا رقْـمُ جمهـرةٍ مـن الخُطَـبِ، أُنتُخِـبَ منهـا مـا تَضمَّنَـهُ هـذا السِّفرُ «منبريات منتخبة»(١)، وكانَ أساسُ غايتِه تحقيقَ النّفعِ بمحاولـةِ تلَمُّسِ ما تعظـمُ الحاجـةُ العامَّـةُ إلى بيانِـهِ بِهُـدَى الكتـابِ وثابـتِ السُّـنةِ وحَسَـنِ آثـارِ السَّـلفِ الصَّـالحِ وتابِعِهِـم بإحسـانٍ، بأسـلوبٍ مُقتضَـبٍ مُراعًـى فيـه الوضـوحُ والاسـتدلالُ والترتيـبُ والرجـوعُ للمصـادرِ الأصيلـةِ دونَ ذِكْـرِ رقـمِ صفحاتِهَـا؛ لِيُسْـرِ الرُّجـوعِ إليْهَـا عبْـرَ (البرامـجِ الإلكترونيَّـةِ)، ولِئـلَّا يَكْبُـرَ حجـمُ الكتـابِ. والأمـلُ معقـودٌ في إكـرامِ القـارئِ الكريـمِ أخـاهُ بنُصحِـهِ وإرشـادِهِ، غيـرَ محـرومٍ بـرّاً ولا أجـراً ولا دعـاءً في ظهـرِ الغيـبِ بـإذنِ اللهِ. اللَّهُـمَّ تقبَّـلْ هـذهِ البضاعـةَ المُزْجَـاةَ، واجعـلْ نفعَهَـا وبركَتَهـا عامّيـنَ نامييْـنَ إلـى يـومِ الديـنِ!

(١) قال أستاذ النحو العربي أ. د. سليمان العيوني: «إطلاق (منبريات) على الخطب الملقاة فوق المنابر صحيح؛ إذ النسب واسع الدلالة، على كل ما يمت له بسبب، والخطب لها سبب واتصال قوي بالمنابر، فالمنابر مكانها، فنسبت إليها».

العقيدة

العروة الوثقى

إنَّ الحمدَ لله؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، منْ يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومنْ يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه.

أما بعدُ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ... ﴾.

أيّها المؤمنونَ!

للقرآنِ الكريمِ أسلوبُ إقناعٍ أخّاذٍ، تتنوَّعُ صورُه، وتَتَّحِدُ في إرساءِ الحقيقةِ غايتُه. ومن تلك الأساليبِ القرآنيةِ التي كثيراً ما تُجلّى بها الحقائقُ الكبرى إيضاحُها بالتشبيهِ الحسيِّ وضرْبِ المَثَلِ، وأعظمُ تلك الحقائقِ حقيقةُ التوحيدِ؛ فهي قَطْبُ رَحى الكتابِ العزيزِ الذي تدورُ عليه هداياتُ آياتِه ودلائلُها، وأكثرُها حضوراً فيه؛ ولا غرْوَ في ذلك؛ إذِ التوحيدُ غايةُ الوجودِ، وطوْقُ النجاةِ السرمديِّ من الخسارِ يومَ الدينِ. ومن التشبيهاتِ القرآنيةِ التي جسَّدت حقيقةَ التوحيدِ وثمرتَه تشبيهُه بالحلْقةِ القويةِ المُحْكَمةِ التي مَن استمسكَ بها نجا وفازَ بغنيمةِ الخيرِ والسلامةِ من غوائلِ الشرِّ، وقد ورَدَ ذلك التشبيهُ في موضعين من كتابِ اللهِ؛ قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، وقال سبحانه: ﴿مَن

يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾.

أيها المسلمون!

إنَّ حقيقةَ التوحيدِ الناصعةَ تقومُ على ركنين؛ لا يُشادُ صرحُ التوحيدِ إلا باستيفائِهما؛ الكفرُ بما يُعبدُ من دون اللهِ، واعتقادُ إنكارِ استحقاقِه لأيِّ جزءٍ من العبوديةِ وإنْ دقَّ؛ أيّاً كان ذلك المعبودُ الطاغوتيُّ الذي صُرِفَ له حقٌّ من حقوقِ عبوديةِ الألوهيةِ الخالصةِ للهِ؛ من التعظيمِ والتشريعِ والمحبةِ والخوفِ والرجاءِ والدعاءِ والتوكلِ والذبحِ والحَلِفِ والنذرِ والحُكْمِ ونحوِها؛ آدمياً كان، أو ملائكياً، أو مادياً، أو نظامياً؛ إذ لا مستحِقَّ للعبادةِ إلا اللهُ، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. وثاني الأركانِ الإيمانُ باللهِ والإقرارُ بانفرادِه -سبحانه- بالألوهيةِ؛ وأنه الإلهُ المعبودُ المستحِقُّ لإفرادِه بكمالِ المحبةِ والذُّلِ والتعظيمِ، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾. وذلكم هو إسلامُ العبدِ وجهَه للهِ، الذي يَحْمِلُ في معانيه إخلاصَ القصدِ للهِ، والتذللَ له، وتفويضَ الأمرِ إليه، مع إتقانِ الطاعةِ بتحقيقِ مقامِ الإحسانِ فيها مع اللهِ ومع الخلْقِ؛ باستحضارِ قرْبِ اللهِ منه واطلاعِه عليه؛ فيعبدُه كأنه يَراه، فإنْ لم يكن يراه فإنَّ اللهَ يَراه، وتقديمِ مُسْتطاعِه من نفعِ العبادِ محتسباً أجرَه على اللهِ؛ لا يريدُ منهم جزاءً ولا شكوراً.

عبادَ اللهِ!

إنَّ الاستمساكَ بالعروةِ الوثقى تعامُلٌ أوجَبْته الشريعةُ مع أعظمِ حقيقةٍ في الوجودِ؛ توحيدِ اللهِ؛ إذ ذاك الاستمساكُ هو غايةُ القوةِ في التشبُّثِ والتمكُّنِ من العَلَقِ بها، وقد عُبِّرَ عنها بصيغةِ الفعلِ الماضي الدالِ على الثبوتِ بالتحققِّ المؤكَّدِ: «فقد استمسك بالعروة الوثقى»، والذي كان ثمرةَ دوامِ الكفرِ بالطاغوتِ والإيمانِ باللهِ وغلبةِ تحقيقِ مقامِ الإحسانِ مع اللهِ ومع الخلْقِ. والاستمساكُ بالتوحيدِ أجلى صورِ أخْذِ الكتابِ بقوةٍ، وذاك ما أوصى اللهُ به أنبياءَه -عليهم الصلاةُ والسلامُ-؛ فقال ليحيى - عليه السلامُ-: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾، وقال لموسى -عليه السلامُ-: ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ﴾، وقال لمحمدٍ ﷺ -وأمتُه تَبَعٌ له-: ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، وغدا ذلك الاستمساكُ سِمَةً وخصيصةً لأيِّ دعوةٍ إصلاحيةٍ راشدةٍ مؤثِّرةٍ، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾.

عبادَ اللهِ!

إنَّ لتشبيهِ التوحيدِ بالعروةِ الوثقى ذاتِ الصلابةِ وشدةِ الإحكامِ، والتعصِّي على الانكسارِ والانفصالِ والثَّلْمِ، والمتدلِّيةِ من علوٍّ سماويٍّ برباطٍ وثيقٍ، وتصويرِ حالِ التعلُّقِ بها بالاستمساكِ -إن لذلك دلائلَ تستدعي التأملَ والادكارَ؛ إذ في معانيها وهدايتِها القوةُ المفْعَمةُ التي يضخُّها التوحيدُ في قلبِ

صاحبِه؛ جزاءً لقوةِ استمساكِه به. ومن شأنِ قوةِ التوحيدِ حين يملأُ القلبَ إكسابُه الشجاعةَ والطمأنينةَ، كما كان فقْدُه سببَ ذُعْرِه ورُعْبِه، قال تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًاۖ﴾. والقلبُ إنْ أُفعِمَ بقوةِ التوحيدِ وشجاعتِه شَمَخَ وأَنِفَ وأُتْرِعَ بالعزةِ الإيمانيةِ وغدا مرهوبَ الخُطَى مُهابَ الجَنابِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وقال النبيُّ ﷺ: «نُصِرتُ بالرعبِ مسيرةَ شهرٍ» رواه البخاريُّ، وذلك العزُّ ظاهرٌ في تشبيهِ العروةِ الوثقى حين علا المستمسكُ بها وسَما عن مَن جَفاها أو تخلّى عنها. وولايةُ اللهِ عبدَه وعدمُ خذلانِه من هدايةِ استمساكِه بالعروةِ الوثقى، وفي تلك الولايةِ الربانيةِ المحبةُ والكفايةُ والأمانُ والنجاةُ في الدنيا والآخرةِ، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾، وقال سبحانه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾. ورسوخُ قَدَمِ الثباتِ على الصراطِ المستقيمِ من إشارةِ الاستمساكِ بالعروةِ الوثقى المُفْضِي إلى وراثةِ الجنةِ، قالَ قَيْسُ بْنِ عُبَادٍ: كُنْتُ جَالِسًا فِي مَسْجِدِ المَدِينَةِ، فَدَخَلَ رَجُلٌ عَلَى وَجْهِهِ أَثَرُ الخُشُوعِ، فَقَالُوا: هَذَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ تَجَوَّزَ فِيهِمَا، ثُمَّ خَرَجَ، وَتَبِعْتُهُ، فَقُلْتُ: إِنَّكَ حِينَ دَخَلْتَ المَسْجِدَ قَالُوا: هَذَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، قَالَ: وَاللهِ مَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ مَا لاَ يَعْلَمُ، وَسَأُحَدِّثُكَ لِمَ ذَاكَ: رَأَيْتُ رُؤْيَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَصَصْتُهَا عَلَيْهِ، وَرَأَيْتُ كَأَنِّي فِي رَوْضَةٍ - ذَكَرَ مِنْ سَعَتِهَا وَخُضْرَتِهَا -، وَسْطَهَا عَمُودٌ مِنْ حَدِيدٍ، أَسْفَلُهُ فِي الأَرْضِ، وَأَعْلاَهُ فِي السَّمَاءِ، فِي أَعْلاَهُ عُرْوَةٌ، فَقِيلَ لِي: ارْقَ،

قُلْتُ: لاَ أَسْتَطِيعُ، فَأَتَانِي مِنْصَفٌ (أي: خادم)، فَرَفَعَ ثِيَابِي مِنْ خَلْفِي، فَرَقِيتُ حَتَّى كُنْتُ فِي أَعْلاَهَا، فَأَخَذْتُ بِالعُرْوَةِ، فَقِيلَ لَهُ: اسْتَمْسِكْ فَاسْتَيْقَظْتُ، وَإِنَّهَا لَفِي يَدِي، فَقَصَصْتُهَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «تِلْكَ الرَّوْضَةُ الإِسْلاَمُ، وَذَلِكَ العَمُودُ عَمُودُ الإِسْلاَمِ، وَتِلْكَ العُرْوَةُ عُرْوَةُ الوُثْقَى؛ فَأَنْتَ عَلَى الإِسْلاَمِ حَتَّى تَمُوتَ» وَذَاكَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلاَمٍ". رواه البخاري ومسلم.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أما بعدُ، فاعلموا أن أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

وفي مَثَلِ الاستمساكِ بالعروةِ الوثقى إيماءٌ لثمرةِ الطمأنينةِ والسكينةِ والبصيرةِ وإنْ تنوعتْ صورُ البلاءِ وبَلَغَ الخَطْبُ ذُراه؛ إذ هو معتصِمٌ بعروةٍ من اللهِ وثقى؛ لا تنقطعُ ولا تَهِنُ ولا تخونُ ممْسكًا بها في سراءٍ أو ضراءٍ، ولا يَضلُّ مَن يَشُدُّ عليها في الطريقِ الوعرِ والليلةِ المظلمةِ، بين العواصفِ والأنواءِ! هذه العروةُ الوثقى هي الصلةُ الوثيقةُ الثابتةُ المطمئنةُ بين قلبِ المؤمنِ المستسلمِ وربِّه. هي الطمأنينةُ إلى كلِّ ما يأتي به قدَرُ اللهِ في رضى وفي ثقةٍ وفي قبولٍ، طمأنينةٌ تحفظُ للنفْسِ هدوءَها وسكينتَها ورباطةَ جأْشِها في مواجهةِ الأحداثِ، وفي الاستعلاءِ على السراءِ فلا تَبْطُرُ، وعلى الضراءِ فلا تَصْغُرُ، وعلى المفاجئاتِ فلا تُذْهَلُ، وعلى اللّأْواءِ في طريقِ الإيمانِ، والعقباتُ تتناثرُ فيه من هنا ومن هناك. قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۗۦ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

وبالجملةِ، فالفلاحُ معقودٌ بناصيةِ الاستمساكِ بالعروةِ الوثقى، عادَ أبو الدرداءِ -رضيَ اللهُ عنه- مريضًا من جيرتِه، فوجدَه في السَّوْقِ وهو يغَرْغِرُ، لا يفقهون ما يريد، فسألَهم: يريدُ أنْ يَنْطِقَ؟ قالوا: نعم، يريدُ أنْ يقولَ: آمنتُ باللهِ، وكفرتُ بالطاغوتِ، قال أبو الدرداءِ: وما عِلْمُكم بذلك؟ قالوا: لم يزلْ يردِدُها حتى انكسرَ لسانُه، فنحن نعلمُ أنه إنما يريدُ أن يَنْطِقَ بها، فقال أبو الدرداءِ: أفلحَ صاحبُكم! إنَّ اللهَ يقول: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

إِنَّ الشّرْكَ لظلمٌ عظيمٌ

إنَّ الحمدَ للهِ؛ نَحمدُهُ ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شُرُورِ أَنفسِنَا وسيئاتِ أعمالِنا، مَنْ يهدِه اللهُ فلا مُضِلّ له، ومن يُضللْ فلا هاديَ له،وأشهد ألا إلهَ إلا اللهُ وحدهُ لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ...﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ...﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا...﴾.

أيّها المؤمنون!

إدراكُ المخاطرِ من أقوى سُبُلِ تَوقِّيها، وذاكَ من سماتِ استواءِ العقلِ ونُضْجِه؛ إذْ دفْعُ الخطرِ أهونُ من رفعِه، والعاقلُ مَنْ توقّى الشّرَّ قبل حُلولِه.

عَرَفتُ الشّرَّ لا للشّرِّ لكنْ لتَوقِّيهِ ... ومَنْ لَا يعرفِ الشّرَ من الشّرِّ يقعْ فيه

قالَ حُذَيفةُ - رضيَ اللهُ عنه -: "كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ؛ مَخافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي" رواه البخاريُّ ومسلمٌ. ويقولُ عمرُ - رضيَ اللهُ عنه -: "إنّما تنقضُ عُرى الإسلامِ عُرْوةً عُرْوةً، إذا نشأَ في الإسلامِ مَنْ لا يعرفُ الجاهليّةَ"، وقال شيخُ الإسلامِ: "مَنْ لَمْ يَعْرِفْ إِلَّا الْخَيْرَ فَقَدْ يَأْتِيهِ الشَّرُّ فَلَا يَعْرِفُ أَنَّهُ شَرٌّ، فَإِمَّا أَنْ يَقَعَ فِيهِ، وَإِمَّا أَنْ لَا يُنْكِرَهُ

كَمَا أَنْكَرَهُ الَّذِي عَرَفَهُ"، وقال ابنُ القيِّم مبينـًا فضلَ الصَّحابةِ - رضي اللهُ عنهم - وحُسْنَ فَهمِهم للدينِ: "فَإِنَّهُم نَشَؤُوا في سَبِيلِ الضَّلالِ وَالْكفْرِ والشركِ والسُّبلِ المُوَصّلةِ إِلَى الْهَلَاكِ وعَرَفوها مُفصّلةً، ثمَّ جَاءَهُم الرَّسُولُ فَأخرجَهُمْ من تِلْكَ الظُّلُمَاتِ إِلَى سَبِيلِ الْهُدى وصراطِ اللهِ الْمُسْتَقيمِ؛ فَخَرجُوا من الظُّلمَةِ الشَّدِيدَةِ إِلَى النُّورِ التَّامِّ، وَمن الشّركِ إِلَى التَّوْحِيدِ، وَمن الْجَهْل إِلَى العلْمِ، وَمن الغيّ إِلَى الرَّشادِ وَمنَ الظُّلم إِلَى الْعدْلِ، وَمِنَ الْحَيْرَةِ والعَمَىٰ إِلَى الْهُدى والبَصائرِ؛ فعَرفُوا مِقْدَارَ مَا نالُوه وظفَروا بِهِ، وَمِقْدَارَ مَا كَانُوا فِيهِ؛ فإِنَّ الضِّدّ يظْهرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ، وَإِنَّمَا تتبَيَّنُ الْأَشْيَاءُ بِأَضْدَادِها؛ فازْدادُوا رَغْبَةً ومحبةً فِيمَا انْتقلُوا إِلَيْهِ، ونفرةً وبُغْضًا لما انْتقلُوا عَنهُ، وَكَانُوا أحبَّ النَّاسِ فِي التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ، وَأبْغضَ النَّاسِ فِي ضِدّه عَالمِينَ بالسَّبيلِ على التَّفْصِيلِ. وَأمّا مَن جَاءَ بعدَ الصَّحَابَةِ: فَمنهمْ مَنْ نَشأَ فِي الْإِسْلَام غيرَ عَالمٍ تَفْصِيلَ ضِدِّه؛ فَالْتبسَ عَلَيْهِ بعضُ تفاصيلِ سَبِيلِ الْمُؤمنِينَ بسبيلِ الْمُجْرمينَ؛ فَإِنَّ اللّبْسَ إِنَّمَا يَقعُ إِذا ضَعُفَ الْعلمُ بالسّبيلَيْنِ أَو أَحدِهمَا". وتزدادُ أهميَّةُ العلمِ بالخطرِ بازْديادِ درجةِ خَطَرِه؛ فمِنَ الأخْطَارِ ما يُؤذي، ومنها ما يُهْلكُ. فإنْ سألتَ عن أخطرِ خطرٍ في الوجودِ؛ مِمَّا يُوبِقُ دُنيا العبدِ وآخرتَه، ويُحُطُّ نزلَه دونَ نُزلِ البهائمِ الراتعةِ؛ فذاكَ هو الشركُ باللهِ الذي فيه صرفُ العبادةِ كالدُّعاءِ والذَّبحِ والحُكمِ لغيرِ اللهِ - تعالى - أو يُشرَكُ فيها معه غيرُه، يقولُ أبو الدرداءِ - رضي اللهُ عنه -: "الشركُ قتلٌ، والمعاصي جراحاتٌ".

أيُّها المسلمون!

إنّ الشركَ شؤمٌ يفتكُ لَظَاهُ بالفردِ والمجتمعِ؛ فهو أعظمُ ذنبٍ عُصِيَ اللهُ به، فقد سألَ عبدُالله بنُ مسعودٍ - رضيَ اللهُ عنه - رسولَ اللهِ ﷺ: أيُّ الذنبِ أعظمُ عند اللهِ؟ قال: أنْ تجعلَ للهِ نداً وقد خلقكَ " رواه البخاريُّ. والشرْكُ ذنبٌ لا يُغفرُ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾؛ فهو مانعٌ من الجنةِ ومُوجِبٌ لخلودِ النارِ، ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾. والشركُ أعظمُ المظالمِ، ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾. والشركُ ضلالٌ بعيدٌ، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾. والشركُ افتراءٌ مُبينٌ، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾. والشركُ مُحبِطٌ للعملِ ومُوجِبٌ لخسارِ صاحبِه كائناً مَنْ كانَ، ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾. والشركُ سببٌ لتخلِّي المَوْلَى عن العبدِ وإسلامِه لعدوٍ لا يرحمُه، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾. والشركُ نجاسةٌ تدنّسُ من تلَطَّخَ بوَضَرِها، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾. والشركُ سببٌ لاختلالِ التَّصَوُّرِ واسْتِجلابِ الخُرافةِ وارتعابِ القلبِ، قال اللهُ - تعالى -: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾. وانْتِشارُ الشركِ مُؤذِنٌ بالخرابِ، قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: "لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ: اللهُ، اللهُ" رواه مسلمٌ.

ويَزيدُ في خطرِ الشركِ دقةُ المَساربِ المُفْضِيةِ إليه، يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: "يا أيُّها الناسُ، اتقوا هذا الشركَ؛ فإنّه أَخْفَى من دَبيبِ النَّمْلِ" رواه أحمدُ وحسَّنهُ الألبانيُّ لغيره. ومما يَزيدُ خطرَه كثرةُ الواقعينَ فيه، كما قال الخليلُ - عليه السّلامُ -: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾. وذاكَ ما جلبَ خوفَ الراسخينَ؛ فهذا خليلُ الرحمنِ يسألُ ربَّهُ النَّجاءَ له ولِبَنِيهِ من عبادةِ الأصْنامِ، ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾، قال إبراهيمُ التيميُّ: "ومَنْ يأْمنِ البلاءَ بعدَ إبراهيمَ"، وقال: "مَا عَرَضْتُ قَوْلِي عَلَى عَمَلِي إِلَّا خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ مُكَذِّبًا "، وَقَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: "أَدْرَكْتُ ثَلاَثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ: إِنَّهُ عَلَى إِيمَانِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ "، وقال الحَسَنُ عن النِّفاقِ: "مَا خَافَهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلاَ أَمِنَهُ إِلَّا مُنَافِقٌ "، وبوّبَ البخاريُّ في صحيحِه: "بَابُ خَوْفِ المُؤْمِنِ مِنْ أَنْ يَحْبَطَ عَمَلُهُ وَهُوَ لاَ يَشْعُرُ".

عبادَ الله!

لِمَ كان هذا التشديدُ في شأنِ الشركِ والفظاعةِ في عُقباه؟ إنّما كان ذلك؛ لاشْتمالِ الشركِ على أقْبحِ القبائحِ وأظْلمِ المَظالمِ؛ فالشركُ تنقّصٌ لرب العالمينَ، وصَرْفُ خالصِ حقّه لغيرِه، وعدولٌ به بالمخلوقِ الضعيفِ، كما أنّه مناقضٌ لمقصودِ الخَلْقِ؛ فحقيقتُه معاندةٌ للخالقِ، واستكبارٌ عن طاعتِه والذلّ له والانقيادِ لأمرِه، وتشبيهٌ للمخلوقِ بالخالقِ في خصائصِ الألوهيةِ: مِنْ مُلكِ الضُّرِّ والنفعِ، والعطاءِ والمنعِ؛ فجَعَلَ مَنْ لا يملكُ ضراً ولا نفعاً ولا موتاً

ولا حياةً ولا نُشُوراً شبيهًا بمن له الحمدُ كلُّه والخلقُ كُلّه والمُلكُ كلّه وبيده الخيرُ كلّه وإليه يَرجعُ الأمرُ كلّه.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أما بعدُ، فاعلموا أن أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها الإخوةُ في اللهِ!

إن أحقَّ ما أوْلاهُ المَرْءُ هِمَّتَهُ تبصّرُ سُبُلِ الوقَايةِ من بَرَاثِنِ الشركِ وحبائلِه، ومِنْ أجَلِّ سُبُلِ تلك الوقايةِ: الخوفُ منه والحَذَرُ؛ فمَنْ خافَ سلِمَ، وقد كان هذا منهجَ الأنبياءِ وأهلِ العلمِ الرّاسِخينَ؛ فَلَعَمْرُ اللهِ! إنّ ذلك الخوفَ أوْجبُ على المرءِ من خوفِ الضّعيفِ الأعْزَلِ سَبُعًا ضامراً مجموعًا معه في قفصٍ مُحْكَمِ الغلْقِ؛ إذْ فناءُ الدّنيا غايةُ فتكِ ذاك السبعِ، وبفتكِ الشركِ خرابُ الدّنيا والآخرةِ. ومَنْ يأْمنِ الشركَ بعد إمامِ الحُنَفَاءِ؟! وذلك الخوفُ موجبٌ لتعلُّمِ التوحيدِ وتعاهدِ مَعاقدِه في مُعترَكِ الحياةِ بحُلوِها ومرِّها؛ فالتّوْحِيدُ نورٌ يبدّدُ حَنادسَ الشركِ وشبهَهُ، كما قال اللهُ — تعالى -: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾. ونشرُ التوحيدِ وبيانُ نواقضِه ونواقصِه في حياةِ النّاسِ والتنويعُ في عرضِ ذلك باختيارِ الوسيلةِ الأسهلِ فهمًا والأجْذَبِ تابعًا مِن أجَلّ سُبُلِ سلامةِ المجتمعِ من الشركِ. والدعاءُ بالسلامةِ من الشركِ من جوادّ العافيةِ منه، فقد قال النبي ﷺ لأبي بكرٍ الصّدّيقِ — رضي الله عنه -: "يَا أَبَا بَكْرٍ، لَلشِّرْكُ فِيكُمْ أَخْفَى

مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ". فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَهَلِ الشِّرْكُ إِلَّا مَنْ جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَلشِّرْكُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ، أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى شَيْءٍ إِذَا قُلْتَهُ ذَهَبَ عَنْكَ قَلِيلُهُ وَكَثِيرُهُ؟"، قَالَ: "قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ" رواه البخاريّ في الأدبِ المُفردِ وصححه الألبانيّ.

عباد الله!

ومِنْ أهمّ سبلِ الوقايةِ من الشركِ معْرِفةُ وسائلِه المُفْضِيَةِ إليه؛ لتُجتَنَبَ، سواءً كانتْ أقوالاً أم أفعالاً، كالحلِفِ بغيرِ اللهِ منْ غيرِ تعظيمٍ، وعَطْفِ مَشيئتِه على مشيئةِ المخلوقِ، والبِناءِ على القُبُورِ والكتابةِ عليها، وتعليقِ التّمائمِ والحروزِ، والتشاؤمِ، وقراءةِ الأبراجِ، ومُشاهدةِ قنواتِ السّحرِ والشّعْوذةِ وإن لم تُصدَّقْ، ويسيرُ الرياءِ، والغُلُوّ في الصالحين. وعادةُ الأنامِ المطّردةِ: أنّ الشيءَ كلّما ازدادَ أهميةً حسُنَ الازديادُ في حِرْزِه والتوقّي في وسائلِ هَتْكِه، وهل ثمّ شيءٌ أنْفَسُ من توحيدِ اللهِ؟!

والبَراءةُ من المشركينَ من أعظمِ أسبابِ التّنائي عن الشركِ؛ لبَراءةِ اللهِ ورسولِه منهم كما أعْلَمَ بقوله: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾، وأصلُ البراءةِ البُغْضُ، كما أَبْداه الخليلُ وأتباعُه المؤمنون لقومِهم المشركين إذْ قالوا: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾. ومن

لـوازمِ تلـك البـراءةِ عـدمُ مناصرتِهـم علـى المسـلمين، وتـركُ التشـبُّهِ بهـم فيمـا هـو مـن خصائصِهـم وإن كان لباسـًا أو عـادةً، وحرمـةُ الإقامـةِ فـي دارِهـم إنْ كان المسلمُ عاجزاً عـن إظهـارِ شعائرِ دينِه وقَـدِرَ على الهجرةِ. وإنّما كانـت البَـراءَةُ؛ لئـلّا يـذُوبَ توحيـدُ المسـلمِ؛ إذْ بكثـرةِ الإمْسـاسِ بَلَـدُ الإحسـاسِ، وبالمخالطـةِ تقـلُّ النّفـرةُ. غيـرَ أنّ ذلـك لا يعنـي الاعتـداءَ والظلـمَ؛ فالـذي أوْجـبَ البـراءَةَ مـن المشـركينَ هـو الـذي أمـرَ بالعـدلِ معهـم وحـرّمَ ظُلْمَهُـم. وبتلـك السـبلِ ينْجـو المؤمـنُ سـالمـًا مـن حبائـلِ الشـركِ وفِخَاخِـه وذَرائِعـه.

أَوْهَنُ البيوتِ

إنَّ الحمدَ لله؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، منْ يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومنْ يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه.

أما بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ...﴾.

أيُّها المؤمنونَ!

القرآنُ هِدايةٌ ربانيةٌ، بدّدَ نورُها حَلكةَ غياهبِ الجهلِ، وأجْلَى صفاؤها الحقائقَ المغيَّبةَ والمشوَّشةَ؛ في آياتٍ مُصرّفةٍ وأساليبَ منوّعةٍ، كان ضرْبُ المَثَلِ أبرزَها؛ إذْ حَوى القرآنُ في ثَنايا آياتِه المُحكمةِ بضعةً وأرْبعينَ مثلاً، تَعلّقتْ بقَضايا كلّيةٍ كُبرى؛ إيضاحاً للمعنى الخفيّ، وتقريباً للشيءِ المعقولِ من الشيءِ المحسُوسِ، وعرضاً للغائبِ في صورةِ الحاضرِ؛ ليكونَ المعنى الذي ضُرِبَ له المثلُ، أوقعَ في القلوبِ، وأثْبتَ في النفوسِ. والغالبُ على أمثالِ القرآنِ الكريمِ تناولُها لأعظمِ خطرٍ في الوجودِ خالفَ الحكمةَ من إيجادِ الخلقِ؛ ذلكُم هو الشركُ؛ الظّلمُ الأكبرُ والذنبُ الذي لا يُغفرُ! ومن أجْلى الأمثلةِ القرآنيةِ في بيانِ حقيقةِ هذا الخطرِ، وعدمِ غنائِه عن أهلِه شيئاً قولُ اللهِ -تعالى-: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾.

أيّها المسلمون!

في مَثل بيتِ العنكبوتِ تتجلّى غايةُ المُشركِ من شركِه، ومعاناتُه النصَبَ في مخاضةِ ذلك الظلمِ العظيمِ، وحقيقةُ بنائِه الشركيّ، ومآلُ مصيرِه البائسِ. إن المخلوقَ كائنٌ جُبِلَ على الضّعفِ، ولا بُدّ له من رُكنٍ يَأْوي إليه؛ منه يستمدّ قُوّتَه، ويطلبُ حاجتَه، ويَحْتمِي بحِماه، ولذا فهو يقصدُه بعُبوديتِه؛ محبةً وخوفاً ورجاءً؛ فلا بُدّ للمخلوقِ من معبودٍ؛ فإنْ أَخْلصَ للهِ عُبوديتَه، وإلا فإنّه يتَّخِذُ أولياءَ يرجو منهم جلبَ النفعِ أو دفعَ الضُرِّ، ولا بدّ! والمشركُ حين حادَ عن صراطِ اللهِ المُستقيمِ احتوتْه الشياطينُ فأضلتْه حتى طفقَ يبحثُ عمَّن يتخذُه وليـاً من الذلّ؛ فمنهم من اتّخذَ الأصنامَ، ومنهم مَن عَبَدَ الملائكةَ والكواكبَ وقبورَ الصالحينَ، ومنهم من تأيّدَ بذوي الجَاهِ أو المالِ أو الصناعةِ أو التِّقْنيةِ واتّخذَهُم أرباباً من دونِ اللهِ، ومنهم منْ ازدادَ انحطاطُه حتى صارَ معبودُه حيواناً بهيماً.

عبادَ الله!

إنّ اتخاذَ معبودِ الشركِ يُمَثَّل بمتّخِذِ البيتِ مَقَرّاً يُتّقى به مضارُّ تسلُّطِ الأشرارِ وزمهريرِ البردِ وسمومِ الصّيفِ وبَللِ المطرِ ولفحِ الهواءِ، ويُتّخذُ مأنساً يؤلَفُ، ومسكناً يؤرزُ إليه؛ فما حالُ ذاك البناءِ الشركيّ؟! شبّهَ القرآنُ ذلك البناءَ وإنْ ضَخُمَ بأَضْعفِ البيوتِ وأوْهنِها؛ بيتِ العنكبوتِ الذي تواطَأَ العربُ على ضربِ المثلِ به في الوَهَنِ والضّعفِ؛ فكان من مَثلِهم السائرِ: "أوهنُ من بيتِ العنكبوتِ". يمضي العنكبوتُ زمناً في نسْجِ بيتِه، ويجعلُ له هالةَ غرورٍ

هندسيةٍ تُوهِمُ الناظرَ بمتانةِ البناءِ واتّساعِه، وحقيقتُه أنّه لا يحمي،ولا يسترُ، بل سريعًا ما يتداعَى بلمسةٍ أو نَفثَةِ نفَسٍ! وهكذا وهاءُ بناءِ الشركِ وإنْ تقادمَ به الزمنُ؛ تُجْعَلُ له الهالاتُ والتقديسُ وفخامةُ الألقابِ، وتُعلَّقُ عليه الآمالُ من النّصرِ والعزّ والحمايةِ والرزقِ والعافيةِ، ويُسعى إليه بالتقرّبِ والتذلّلِ، ويُوالَى ويُعادَى عليه، بينما حقيقةُ أمرِه الوهنُ والضعفُ كما هو حالُ بيتِ العنكبوتِ، بل إنّ بيتَ العنكبوتِ على وَهنِه أشدُّ من آلهةِ الشركِ؛ إذ بيتُ العنكبوتِ له حقيقةٌ موجودةٌ، بينما لا حقيقةَ لألوهيةِ الشركِ؛ ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ﴾؛ فزادوا على ضعفِ العابدِ ضَعفَ المعبودِ؛ وكانوا كالمُسْتجيرِ من الرّمْضاءِ بالنارِ، وغدا من مُرِّ ثمارِ بناءِ ذلك الضَعفِ المتراكمِ سرعةُ انهيارِه واضْمحلالِه متى ما دُمغَ بقذيفةِ الحقّ الربانيّةِ، كما قال -تعالى-: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ﴾، مع ما يملَؤُه ذلك الباطلُ من ارتيابٍ وتردّدٍ في قلوبِ أصحابِه، كما قال -تعالى-: ﴿لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ﴾، وما يسببُه من رعبٍ يتملّكُ تلك القلوبَ البائسةَ، كما قال -جلّ وعلا-: ﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ﴾.

أيّها المؤمنون!

إنّ أصلَ الشركِ تعلّقٌ بغيرِ اللهِ وقد يكبُرُ ذلك التعلقُ وقد يصغرُ، وقد يقلُّ وقد يكثرُ. قال ابنُ القيّمِ: " وهذا (أي: التعلقُ بغيرِ اللهِ) أعظمُ مُفْسِداتِه (أي:

مفسداتِ القلبِ) على الإطلاقِ؛ فليس عليه أضرُّ من ذلك، ولا أقْطعُ له عن مصالحِه وسعادتِه منه، فإنّه إذا تعلّقَ بغيرِ اللهِ وكّله اللهُ إلى ما تعلقَ به، وخذلَه من جهةِ ما تعلقَ به، وفاتَه تحصيلُ مقصودِه من اللهِ -عزّ وجلّ- بتعلُّقِه بغيره والتفاتِه إلى سواهُ؛ فلا على نصيبِه من الله حصلَ، ولا إلى ما أمّلَه ممّن تعلقَ به وصلَ، قال اللهُ -تعالى-: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ٨١ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾، وقال -تعالى-: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ ٧٤ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ﴾؛ فأعظمُ الناسِ خُذلانـًا مَن تعلقَ بغيرِ اللهِ؛ فإنّ ما فاتَه من مصالحِه وسعادَتِه وفلاحِه أعظمُ ممّا حَصَلَ له ممّن تعلّقَ به، وهو مُعْرضٌ للزّوالِ والفَواتِ. ومثَلُ المتعلقِ بغيرِ اللهِ كَمَثلِ المُسْتظِلّ من الحرّ والبردِ ببيتِ العنكبوتِ، وأَوْهنِ البيوتِ. وبالجُمْلةِ فأساسُ الشركِ وقاعِدَتُه التي بُني عليها التعلقُ بغيرِ اللهِ، ولصاحبِه الذمُّ والخُذلانُ، كما قال -تعالى-:﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا﴾؛ مذمومـًا لا حامدَ لك، مخذولاً لا ناصرَ لك".

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أما بعدُ، فاعلموا أن أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنون!

إنّ عَقْلَ مثَلِ بيتِ العنكبوتِ، واستحضارَه، والعيشَ به في الحياةِ يقطِّعُ أصلَ كلِّ شركٍ، ويحسمُ موادَّه؛ حين قطعَ كلَّ تعلقٍ بغيرِ اللهِ كائنًا مَنْ كان. وشتّانَ بين حال من تعلّقَ بغيرِ اللهِ؛ فكان مَثَلُه مثلَ بيتِ العنكبوتِ الواهي، وبين حالِ من علّقَ أمرَه باللهِ؛ فكان متمكّنَ الاسْتمسَاكِ بالعُروةِ من الحبلِ الوثيقِ المُحكمِ، المأمونِ انفصامُها وانقطاعُها، كما قال –تعالى-: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، قال أهلُ العلمِ: مُثِّلتْ حالُ المؤمنِ بحالِ مَنْ أرادَ أنْ يتدلَّى من شاهقٍ، فاحتاطَ لنفسه بأنِ استمسكَ بأوثقِ عروةٍ من حبلٍ متينٍ مأمونٍ انقطاعُه؛ فكان له حالُ الحمايةِ والسّلامةِ ما دامَ مستمسكًا بذلك الحبلِ المتينِ. و مَثَلُ بيتِ العنكبوتِ لا يغيبُ عن قلبِ المؤمنِ وهو يباشرُ طلبَ حاجاتِه المُنوّعةِ عندَ البشرِ؛ إذْ هم لا يَعدُون أنْ يكونوا أسبابًا تُسلكُ، والتعلقُ باللهِ وحدَه لا شريكَ له؛ إنْ شاءَ نفعَ بهذه الأسبابِ، وإنْ شاءَ منعَ. قال محمدُ بنُ واسعٍ لأحدِ الوُجهاءِ وقد جاءَه في حاجةٍ: إنِّي أتيتُك في حاجةٍ رفعتُها إلى اللهِ قبلكَ، فإنْ أذنَ اللهُ فيها قضيتَها وحَمِدناك، وإن لم يأذنِ اللهُ فيها لم تقضِها وعَذَرْناك.

فكأنما خرَّ من السماء

إنَّ الحمدَ لله؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، منْ يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومنْ يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه.

أما بعدُ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ... ﴾.

أيّها المؤمنونَ!

الشركُ أخطرُ خطرٍ دَهَمَ الوجودَ، وأدهى فسادٍ دمَّرَ الحياةَ؛ به خَسِرَ المجرمُ الدنيا والآخرةَ حين ارتكب أعظمَ جنايةٍ وتقحّمَ أكبرَ ذنبٍ عُصيَ اللهُ به؛ لاشتمالِه على أبشعِ الظلمِ والجحودِ الذي به تنكَّرَ المشركُ لربِّه الذي أوجدَه من العدمِ وغذّاه بالنعمِ، فصرفَ العبادةَ لغيرِه وهي خالصُ حقِّه الذي ما أوجدَ الثقلين وسخّرَ لهمُ الكونَ إلا لأجلِ تحقيقِه، كما قال -سبحانه-: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. فالشركُ الجُرْمُ الأكبرُ والذنبُ الذي لا يُغفرُ إنْ مات صاحبُه عليه ولم يتبْ، كما قال -تعالى-: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾. ولعظمِ خطرِه باتتْ قضيتُه أكبرَ القضايا حضوراً في القرآنِ الكريمِ؛ تحذيراً منه، وبياناً لخطرِه وصورِه ومضادتِه غايةَ الوجودِ، وتجليةً لمصيرِ أهلِه البائسين. وكان ضربُ المَثَلِ وتصويرُه بالمشهدِ المحسوسِ من أكثرِ الأساليبِ

القرآنيةِ المستعملةِ في بيانِ تلك الحقيقةِ؛ لقوةِ إيضاحِها وتأثيرِها في نفْسِ مَن كان له قلبٌ أو ألقى السمعَ وهو شهيدٌ. هذا وإنّ من بليغِ المَثَلِ القرآنيِّ في تصويرِ شقاءِ المشركِ وبُؤْسِ حالِه ومآلِه ما ذكرَه اللهُ -تعالى- في قولِه: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾.

عبادَ اللهِ!

إنّ هذا المَثَلَ قد حوى في ثنايا أجزائِه تصويرَ حالَ المرءِ قبلَ أنْ يَتلطَّخَ بنجاسةِ الشركِ؛ فكان باقياً على نقاءِ فطرةِ التوحيدِ الطاهرةِ التي فَطَرَ اللهُ عليها العبادَ وِفْقَ قولِه تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ويقول النبي ﷺ: "مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ»، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾ الآيةَ (رواه البخاريُّ ومسلمٌ). شُبِّهَتْ تلك الفطرةُ التوحيديةُ وما دامتْ عليه قبل فسادِها بالشركِ بالسماءِ في العلوِّ والسموِّ والسَّعَةِ والشرفِ والحُسْنِ؛ إذ السماءُ رمزٌ لتلك المعاني الرفعيةِ؛ فمَن ذا الذي يُداني السماءَ في علوِّها وشرفِها وحُسْنِ استوائِها وسَعَتِها، وهكذا هو الإيمانُ؛ يُكْسِبُ أهلَه تلك المعانيَ الجزْلةَ؛ فأهلُ الإيمانِ هم أهلُها وأبناءُ بَجْدَتِها المستحقون لها، كما قال -تعالى-: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ

إن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. والإيمانُ رحابةُ رحمةٍ يتسعُ معها كلُّ ضيقٍ، ويُفَكُّ بها كلُّ خَنْقٍ؛ إذ لا حقيقةَ للضيقِ إلا ضيقُ الصدرِ الذي لا يكونُ ما دامَ القلبُ مُنشرِحًا بالإيمانِ وذائقًا حلاوةَ استشعارِ معيةِ اللهِ له وعظيمِ أجرِه، كما قال -تعالى-: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. تلك الرحمةُ التي غدا بها ضِيقُ الكهفِ الموحشِ -حين نَشَرَها اللهُ فيه- موضعَ أُنْسٍ يُحْفَظُ به الإيمانُ ويُصانُ، كما حكى اللهُ عن فتيةِ الكهفِ إذ قالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾. بينما لم تُغْنِ عن المشركين سَعَةُ حالِهِمُ الماديِّ حين كان ضَنْكُ الشركِ جاثمًا على قلوبِهم، بل كانت تلك السَّعَةُ سببًا في زيادةِ عذابِهم ونكَدِهم في الدنيا قبلَ الآخرةِ، كما قال — تعالى-: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

أيها المسلمون!

إنّ الشركَ سقوطٌ بالإنسانِ خطيرٍ؛ لا يُقارَنُ خطرُه بخطرِ سقوطِ طائرةٍ مشحونةٍ بركّابِها من جوِّ السماءِ الشاهقِ؛ حين بدَّلَ المشركُ —أيًا كان نسبُه أو جاهُه أو منصبُه أو مالُه أو عملُه الخيريُّ من إغاثةِ ملهوفٍ أو نصرةِ

مظلوم؛ أخذاً من دلالةِ عمومِ الاسمِ الموصولِ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾- حين بدّلَ ذلك المشركُ فطرةَ التوحيدِ بمجافاتِه دينَ الإسلامِ أو ارتدادِه عنه، فهَوَى في سَفْحٍ هابطٍ هُوِيَّ الهلاكِ الذي لا يكونُ فيه رجعةٌ ولا طمعٌ في نجاةٍ. وقد صورّه المَثَلُ القرآنيُّ بأحدِ حالين منطبقيْنِ على المشركِ إنْ مات على شركِه؛ جِماعُها سرعةُ الهُوِيِّ من علوٍّ شاهقٍ، وشِدَّتُه، وخفاءُ القَعْرِ الذي ينتهي إليه وبُعْدُه، وانعدامُ الحيلةِ في النجاةِ، وامتلاءُ القلبِ بالخوفِ والضيقِ والألمِ المزعجِ وهو يُصارِعُ الموتَ وقد توارى عن ناظرِه القاعُ الذي ينتهي إليه، ورأى الطيورَ الجارحَةَ السابحَةَ في السماءِ بِمَخَالِبِها ومَناقِرِها تَنْهَشُ لحْمَه وعُضْوَه تمزيقاً وتقطيعاً وقد باتا ذاهبيْنِ بين المخالبِ والحواصلِ وهو هاوٍ إلى قَعْرٍ من الأرضِ سحيقٍ، فإنْ سَلِمَ مِن هَرْشِ الطيرِ الهاجمِ لم يَسْلَمْ من تطويحِ الريحِ العاتيةِ التي تتقاذفُه هَبَّاتُها وهو هاوٍ من السماءِ حتى تلقيه في مكان قصيٍّ هالكاً بوَجْبَةِ الخُرُورِ الشديدِ مدفوعاً بالريحِ الشديدِ. والمتأمِّلُ في نَسَقِ آيةِ المَثَلِ يَلحظُ مشهدَ السرعةِ الذي يُفْصِحُ عنه حرفُ الفاءِ العاطفُ الدالُّ على المبادرةِ والسرعةِ: ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ﴾؛ وذاك مُفْصِحٌ عن سرعةِ تفَصِّي لحظاتِ الشركِ، ومُتَعِه، ودُنُوِّ أجلِه وانقضاءِ مُهَلِه وإنْ بلغتْ مئاتِ السنين مع امتزاجِها بآلامِ الشركِ المُبَرِّحَةِ، كما أنّ ذاك مُفْصِحٌ عن قُربِ حلولِ عذابِ الشركِ وموافاةِ أهلِه به وخلودِهم فيه؛ إذْ كان الهلاكُ

خَتْمَ تصويرِ المآلِ الذي أُقْفِلَ به التشبيهُ، كما قال -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ۝٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٥ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٧٦ وَنَادَوْاْ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ﴾. وفي تبصُّرِ مَثَلِ خرورِ المشركِ بيانُ أنّ سببَ الإفضاءِ الغالبَ لبَوَارِ الشركِ يكونُ من أحدِ طريقين -كما استنبطَ ابنُ القيمِ وغيرُه-: تنكُّبُ الصراطِ المستقيمِ باتباعِ ما توحيه شياطينُ الجنِّ والإنسِ الذين شُبِّهُوا بالطيرِ الهارشةِ حين كان لكلِّ شيطانٍ مُتَّبَعٍ مِزْعَةٌ مِن دينِ المشركِ وقلبه؛ فكان لكلِّ طيرٍ مِزْعَةٌ من لحمِه وعُضْوِه يومَ خرَّ من السماءِ، وذلك أَزُّ الشياطينِ الذي تمكَّنوا به من الكافرين حين تخلّى اللهُ عنهم؛ إذ أشركوا به ما لم يُنَزِّلْ به عليهم سلطانًا، كما قال -تعالى-: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾. والطريقُ الآخرُ للإسقاطِ في هُوَّةِ الشركِ يكونُ باتباعِ الهوى المُشَبَّهِ بالريحِ العاتيةِ؛ لاتفاق ما بينهما في قوةِ التقلّبِ، والإضلالِ عن الهدايةِ، والطَّرْحِ في مَهَامِهِ الهلاكِ التي لا يكونُ معها بَصِيصُ أملٍ في نجاةٍ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أما بعدُ، فاعلموا أن أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنون!

إنّ في وحيِ مَثَلِ خُرورِ الشركِ المُفْزِعِ بيانـاً لهبوطِ قدْرِ المشركِ في الدنيا؛ فكان في منزلةٍ أحطَّ من منزلةِ الأنعامِ المُعْجَمَةِ، كما قال —تعالى-: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾، والذي كان به المشركُ حلالَ الدمِ والمالِ ما لم يُحَطْ بعقدِ أمانٍ أو ذمةٍ. ومن تجسيدِ حالِ هبوطِ الشركِ بصاحبه أنْ كان سببَ طَرْحِ روحِه من السماءِ إلى أسفلِ سافلين، كما قال النبي ﷺ: "وإنَّ العبدَ الكافرَ إذا كان في انقطاعٍ من الدنيا وإقبالٍ من الآخرةِ، نزلَ إليه من السماءِ ملائكةٌ سُودُ الوجوهِ، معهم المُسُوحُ، فيجلسون منه مَدَّ البَصرِ، ثم يَجيءُ مَلَكُ الموتِ، حتى يجلسَ عند رأسِه، فيقولُ: أيتها النفْسُ الخبيثةُ، اخرجي إلى سخطٍ من اللهِ وغضبٍ، فتَفَرَّقَ في جسدِه، فينتزِعُها كما يُنْتَزَعُ السُّفُودُ من الصُّوفِ المَبْلولِ، فيأخذُها، فإذا أخذها لم يَدعوها في يدِه طرفةَ عينٍ حتى يجعلوها في تلك المُسُوحِ، ويَخْرُجُ منها كأنتنِ ريحِ جِيفةٍ وُجِدتْ على وجهِ الأرضِ، فيصعدون بها، فلا يَمُرُّون بها على ملأٍ من الملائكةِ، إلا

قالوا: ما هذا الروحُ الخبيثُ؟ فيقولون: فلانُ بنُ فلانٍ بأقبحِ أسمائِه التي كان يُسمّى بها في الدنيا، حتى يُنتَهى به إلى السماءِ الدنيا، فيُستَفْتَحُ له، فلا يُفْتَحُ له "، ثم قرأ رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾، فيقولُ اللهُ -عزّ وجلّ-: "اكتبوا كتابَه في سِجِّينٍ في الأرضِ السُّفْلى، فتُطْرَحُ روحُه طَرْحاً". ثم قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ " رواه أحمدُ وصححَّه الحاكمُ وابنُ القيمِ.

عبادَ اللهِ!

إنّ مَثَلَ خُرورِ الشركِ صورةٌ صادقةٌ لحالِ مَن يشركُ باللهِ، فيهوي من أفقِ الإيمانِ السامقِ إلى حيثُ الفناءُ والانطواءُ؛ إذ يَفْقِدُ القاعدةَ الثابتةَ التي يَطمئِنُّ إليها؛ قاعدةَ التوحيدِ، ويَفقِدُ المُسْتَقَرَّ الآمنَ الذي يَثُوبُ إليه؛ فتتخطَّفُه الأهواءُ تَخَطُّفَ الجوارحِ، وتتقاذَفُه الأوهامُ تَقاذُفَ الرياحِ، وهو لا يُمسكُ بالعروةِ الوثقى، ولا يَستقِرُّ على القاعدةِ الثابتةِ التي تربطُه بهذا الوجودِ الذي يعيشُ فيه. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

قوةُ التوحيد

الحمدُ للهِ ناصرِ المؤمنينَ، وماحقِ الكافرينَ، ديّانِ يومِ الدينِ، إيّاه نعبدُ وإيّاه نستعينُ. وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ الحقّ المبينُ، وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه خيرَ المرسلينَ، صلى اللهُ وسلمَ عليه وعلى آلهِ وصحبِه أجمعين.

أمّا بعدُ، فاتقوا الله — عبادَ اللهِ -؛ فتلك وصيتُه للأوّلين والآخرين: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ...﴾.

أيّها المؤمنون!

القوّةُ مطلبٌ مستقرٌ حُسنُه في الفِطَرِ على تفاوتِ الأعمارِ والطبقاتِ والدّياناتِ؛ إذ لا حِمى إلا بقوةٍ، وما اسْتُرِدّتِ الحقوقُ ولا حُفِظَتِ الهيْبةُ ولا رُعِيَ الذمامُ بمثلِ القوةِ. وظلّ طلبُ تلك القوةِ مُنى مَنْ يبغي السيادةَ وعيشَ الكرامةِ، وطفقَ أولئك يَنشُدون من كلّ طريقٍ يرونه موصّلاً لها. وبطُغيانِ النظرةِ الماديّةِ انْجفلَ الأغلبُ خلف طَلبِ القوةِ الحسيّةِ، وقَصرُوا مفهومَ القوةِ عليها؛ الأمرُ الذي أدّى إلى تشويهِ حقيقتِها، وافتتانِ فئامٍ من المسلمين بها، وإصابتِهم بهزيمةٍ نفسيةٍ حين يروْن تفوّقَ أعدائِهم عليهم فيها. ومع أهميةِ القوةِ الحسيةِ وضرورةِ الأخذِ بها، إلا أنّها تتقاصرُ عن قوةٍ تميّزَ أهلُ الإيمان بها وتفرّدوا ؛ إذْ كانت قوةُ غيرِهم جامدةً أرضيةً تكتنفُ اللّحاءَ والمظهرَ وتنتهي بعمرٍ محدودٍ؛

فما من شيءٍ من أمورِ الدنيا ارتفعَ إلا وضعَه اللهُ، بينما كانت قوةُ المؤمنين إلهيةً تبني اللُبابَ والأصولَ ولا يقفُ مَداها ما دامَ في النفْسِ عرْقٌ ينبِضُ، تلكم هي قوةُ التوحيدِ والإيمانِ باللهِ — جلّ وعلا -.

أيّها المسلمون!

إنّ قوةَ التوحيدِ مسْتمدّةٌ من قوةِ مَن وُحِّد — سبحانه -؛ ومَن ذا الذي يغالبُ المولى في سلطانِه؟! أو يَفوتُ من قدرتِه؟! يقولُ تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾. وذلك ما جعل المؤمنَ يعادلُ عشَرةً من الكَفرةِ في ميدانِ المعركةِ، وإنْ ضَعُفَ فلا أقلّ منْ أنْ يكونَ نِصابُه الضِّعفَ، يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾. ويقولُ الرسولُ ﷺ: «خَيْرُ الصَّحابَةِ أَرْبَعَةٌ، وَخَيْرُ السَّرَايَا أَرْبَعُ مِائَةٍ، وَخَيْرُ الْجُيُوشِ أَرْبَعَةُ آلافٍ، وَلَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قِلَّةٍ» رواه أبو داودَ والترمذيُّ وحسّنه وصحّحه الحاكمُ. والتاريخُ شاهدٌ على أنّه ما مِن معركةٍ خاضَها المسلمون وانتصروا فيها إلا وهم أقلُّ من عدوِّهم عدداً وعُدّةً، وما زالتْ الأيامُ تُثْبِتُ تلك الحقيقةَ.

عبادَ الله!

إنّ العالـمَ مُطبقٌ على تفوقِ القوةِ المعنويّـةِ على الحسيّةِ؛ إذِ القُوى الحسيةِ لا تُجدي شيئًا إنْ كانتِ الروحُ المعنويةُ مُنهارةً أو ضعيفةً؛ ولذا باتتِ الحربُ النفسيةُ وإرهابُ الخصومِ أنْكى أنواعِ الحروبِ وأقواها مفعولاً وأقلَّها كلفةً. وقوةُ التوحيدِ قد تفرّدتْ في بناءِ الروحِ المعنويةِ للمؤمنينَ بناءً محكمًا لا يُضاهَى ولا يُبارَى؛ قوةٌ في المبدأِ، والإرادةِ، والقلبِ، والصّفِّ.

أمّا قوةُ المَبدأِ؛ فإنّ توحيدَ اللهِ هو سرُّ الوجودِ وحكمةُ الحياةِ، وإعدادُ القوةِ منْ لدنْ أهلِ الإيمانِ إنّما هو لأجلِ تحقيقِ هذه الغايةِ الساميةِ ومجاهدةِ مَنْ عارضَها، يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾. وكذلك، فإنّ من قوةِ المبدأِ الذي يحملُه أهلُ التوحيدِ سموَّ الوسيلةِ في قتالِ المشركين؛ إذْ لم يُبَحْ إلا قتالُ من كان منهم صاداً عن دينِ اللهِ أو صائلاً على عبادِه، فقد كان النبيُّ ﷺ يوصِي أُمراءَ جيوشِه قائلاً: "اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَمْثُلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ - أَوْ خِلَالٍ - فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ، فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ" رواه مسلمٌ.

أيّها الإخوةُ في اللهِ!

وقوةُ الإرادةِ التي يصنعُها التوحيدُ في أهلِه تحملُهم على أَنَفَةِ الاستعبادِ لغيرِ اللهِ — جلّ وعلا — والتخلصِ من ربقةِ التبعيّةِ المَهينةِ لأعدائِه، كما قال اللهُ — تعالى -: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ﴾. وذلك ما يجعلُهم ذوي صبرٍ وثباتٍ تندقُّ على جلامدِه فؤوسُ اليأسِ والاستعجالِ، يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾. والنّصرُ - كما قيل — صبرُ ساعةٍ.

معشرَ المؤمنين!

والتوحيدُ أقوى قوةٍ تحُلّ في القلبِ؛ إذْ فيه التوكلُ الذي به ولايةُ اللهِ — سبحانه — عبدَه، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾، وذلك حين يكونُ اعتمادُه وثقتُه بمَوْلاه، ومِن ثَمّ تكونُ مُباشرتُه — حسْبَ اسْتطاعتِه - أسبابَ القوةِ الحسيةِ بشتّى صورِها: العسكريةِ والاقتصاديةِ والسياسيةِ والتّقنيةِ، وفَرْقٌ بين مَنْ يباشرُ الأسبابَ واعْتمادُه على اللهِ وبين مَنْ يُباشرُها وعليها مُعتمدُه. وبالتوحيدِ تُطرَدُ المخاوفُ والأوهامُ من القلبِ؛ فيغدُو قلباً شجاعاً لا تُزعزعُه الخُطوبُ والكروبُ؛ وذلك ما يُفهَمُ مِن قوْلِ اللهِ — تعالى -: ﴿سَنُلۡقِي فِي

قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًاۖ﴾. والتوحيدُ يَفيضُ على القلبِ اليقينَ الذي ما أُعطِي العبدُ خيراً منه؛ فلا يهابُ المنونَ والنّزالَ وصولةَ العَداةِ وتهديداتِهم، كما أخبرَ اللهُ — سبحانه — عن المؤمنين: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، كتب خالدُ بنُ الوليدِ — رضيَ اللهُ عنه – لملكِ مدائنِ كِسرى: " أَمَّا بَعْدُ، فَإِذَا جَاءَكُمْ كِتَابِي فَابْعَثُوا إليَّ بالرهنِ وَاعْتَقِدُوا منِّي الذمّةَ، وَإِلَّا فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ لأبعثنَّ إِلَيْكُمْ قَوْمًا يحبُّون الْمَوْتَ كَمَا تحبُّون أَنْتُمُ الْحَيَاةَ ". والتوحيدُ يُكْسِبُ قلبَ صاحبِه طَمَأْنينةً برضَاه بالقدَرِ والصبرِ عليه؛ فلا يجزعُ للأهوالِ والمَجازرِ والفظائع، ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾. بل يقارعُ القدرَ بالقدرِ، والدّنيا بتوحيدِه في عينيْه أهونُ من جَناحِ بَعُوضةٍ، وهو موعودٌ بإحدى حسنييْنِ؛ نصرٍ أو شهادةٍ، وقد احتسبَ مُصابَه حين علمَ أنْ قدْ فاقَ عدوَّه بالأجرِ بعد أنْ اسْتَوَيَا في الألمِ، ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، سَيّما والكونُ كلُّه معه سائرٌ في فلَكِ العبوديةِ للخالقِ — جلّ وعلا — إلا شُذّاذُ الكفرةِ، كما قالَ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ

مَـا يَشَـاءُ﴾، بـل لرُبَّمـا سـخّرَ اللهُ لعبادِه المؤمنيـنَ بعـضَ عظيـمِ خلقِـه كالملائكـةِ والبحـارِ والريـحِ والرُّعـبِ؛ تثَبتُهـم وتقاتـلُ معهـم، ﴿وَمَـا يَعۡلَـمُ جُنُـودَ رَبِّـكَ إِلَّا هُـوَۚ﴾؛ فـأيُّ قـوةِ قلـبٍ تفـوق قـوةَ قلـبِ الموحِّـد؟!

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أما بعدُ، فاعلموا أن أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنون!

وقوةُ الصّفّ تُبنى بالتوحيدِ بناءً محكماً مرصوصاً؛ إذْ بالتوحيدِ تتمايزُ الصفوفُ وتصفو، ويَبِينُ العدوُّ مِنَ الوليّ؛ وذلك ما تُمليه عقيدةُ الولاءِ للمؤمنين ومناصرتِهم ومعاداةِ الكافرين وعدمِ مظاهرتِهم، كما قال اللهُ — تعالى -: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾. وأَكثرُ ما تُختَرَقُ صفوفُ أهلِ الإسلامِ وتُهترَأُ بتركِ هذه العقيدةِ؛ وذلك هو الفتنةُ والفسادُ الكبيرُ كما قال اللهُ — تعالى -: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾. وعقيدةُ التوحيدِ ذاتُ أثرٍ وثيقٍ في تماسُكِ الصفّ المؤمنِ بنُصْرةِ المظلومِ ورِفدِ الضعيفِ وإعانةِ العاجزِ؛ فإنّ دَعَّ اليتيمِ وتركَ الحضِّ على طعامِ المسكينِ من صفاتِ المكذِّبِ بالدينِ، ولَيْسَ الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَشْبَعُ وَجَارُهُ جَائِعٌ، وقال النَّبِيُّ ﷺ: «هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ» رواه البخاريّ. والنصيحةُ والسمعُ والطاعةُ في غيرِ معصيةِ اللهِ لِمَنْ ولّاه اللهُ أمرَ الأمةِ ممّا يُمليهِ الإيمانُ، وبه يُحفظُ تماسكُ الصفّ المؤمنِ

من الانفلاتِ والاضطّرابِ. يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾.

أيّها المسلمون!

ذلكمْ وميضٌ من سنا التوحيدِ، وأثرِه في بناءِ قوةِ الفردِ والأمةِ. وتاللهِ ما ضُربتْ أمةُ الإسلامِ بالذِّلةِ والصّغارِ والهوانِ على الأعداءِ إلا حينَما ضعُفتْ في قلبِها هذه العقيدةُ التي جعلَها اللهُ قَدَرَها في القوةِ. قال طارقُ بنُ شهابٍ — رضيَ اللهُ عنه -: خَرَجَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى الشَّامِ وَمَعَنَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ فَأَتَوْا عَلَى مَخَاضَةٍ وَعُمَرُ عَلَى نَاقَةٍ لَهُ فَنَزَلَ عَنْهَا وَخَلَعَ خُفَّيْهِ فَوَضَعَهُمَا عَلَى عَاتِقِهِ، وَأَخَذَ بِزِمَامِ نَاقَتِهِ فَخَاضَ بِهَا الْمَخَاضَةَ، فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْتَ تَفْعَلُ هَذَا؟! تَخْلَعُ خُفَّيْكَ وَتَضَعُهُمَا عَلَى عَاتِقِكَ، وَتَأْخُذُ بِزِمَامِ نَاقَتِكَ، وَتَخُوضُ بِهَا الْمَخَاضَةَ؟! مَا يَسُرُّنِي أَنَّ أَهْلَ الْبَلَدِ اسْتَشْرَفُوكَ، فَقَالَ عُمَرُ: «أَوَّهْ! لو لَمْ يَقُلْ ذَا غَيْرُكَ أَبَا عُبَيْدَةَ لجعَلْتُهُ نَكَالًا لأُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ إِنَّا كُنَّا أَذَلَّ قَوْمٍ فَأَعَزَّنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ؛ فَمَهْمَا نَطْلُبُ الْعِزَّةَ بِغَيْرِ مَا أَعَزَّنَا اللَّهُ بِهِ أَذَلَّنَا اللَّهُ» رواه الحاكمُ وصحّحه على شرطِ البخاريِّ ومسلمٍ ووافقَه الذهبيُّ. ألا ما أحوجَ الأمّةَ إلى الرجوعِ إلى سرِّ قوتِها؛ وذلك يوجبُ نشرَ التوحيدِ وتعليمَه ومحاربةَ ما يضادُّه من بِدَعٍ وشركيَّاتٍ تجْني على المجتمعِ وأمنِه.

وإنْ تُطيعوه تَهتدُوا

الحمدُ للهِ الذي لم يَزَلْ حميداً مجيداً، دانَ له الخلْقُ فكانوا له عبيداً، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ إقراراً به وتوحيداً، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه ﷺ تسليمًا مزيداً.

أمّا بعدُ، فاتقوا اللهَ — عبادَ اللهِ –، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ...﴾.

أيّها المؤمنون!

إنّ الهدايةَ للصراطِ المستقيمِ أعظمُ منةٍ يمنّها اللهُ على عبادِه، وهي أعظمُ مطلوبٍ يُلِحُّ العبدُ في سؤالِه ربَّه فَرْضًا سبعَ عشرةَ مرةً في يومِه، يقولُ — تعالى–: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَـٰنِ﴾. ولأجلِ غايةِ هدايةِ الخلقِ أنزل اللهُ الكتبَ، وأرسل الرسلَ؛ فكانت منّتُه بذلك أعظمَ المننِ التي لا تساويها مننُ الدنيا جمعاءَ، كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَـٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَـٰلٖ مُّبِينٍ﴾. وقد أَوْصَدَ اللهُ برحمته كلَّ الطرقِ إليه إلا طريقَ الهدايةِ المستقيمَ الذي مَن حادَ عنه ضلَّ وشقي، ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾. وكان مضربُ المثلِ للناس في اتّباعِ الرسولِ ﷺ كمَثلِ قومٍ تائهين؛ كانوا في بَيْداءَ من الأرضِ

موحشةٍ، ذاتِ آفاتٍ وسباعٍ وهلكةٍ وقطاعِ طريق، وليس لهم منها مخرجٌ آمنٌ إلا مخرجـًا واحداً، لا يهتدي لـه، ولا يعرفُ تفاصيلَ سبيلِه والعقباتِ التي تعرِضُ لـه إلا شـخصٌ منهـم واحـدٌ ذو علـمٍ دقيـقٍ بالطريـق بِدْئـًا وانتهـاءً، وذو صـدقٍ ونصـحٍ وعقـلٍ ورأيٍ ورحمـةٍ وشـفقةٍ ورفـقٍ وحـرصٍ علـى رُفقتِـه، وذو نزاهـةٍ وعفـةٍ عـن سـؤالهمُ الأجـرَ أيـًا كان لقـاءَ دلالتهـم وهدايتهـم، وهـم لا يجهلـون ذلـك كلَّـه منه؛ لِما قـام لهـم في ذلـك مـن كثرةِ الأدلـةِ والشـواهدِ التـي لا ينكرُهـا إلا معانـدٌ مكابـرٌ، فقـامَ فيهـم ناصحـًا؛ أن اتّبعـوني أهدِكـم طريـقَ النجاةِ مـن تلـك الهلكـةِ، وتنعمـوا بجمـالِ ذلـك الطريـقِ واسـتقامتِه، ورحابتِـه، واختصـارِه وقِصَـرِه، وأُنْسِـه، وحسـنِ عاقبتـه؛ وتُكْفَـوْا عنـاءَ البحـث، وحيـرةَ الاختيـار، واضطّـرابَ الآراءِ؛ فـكان منهـم الموفَّقـون الذيـن أسـلموا قيادَهـم لـه؛ ووثِقـوا برسـوخِ علمِـه وحسـنِ دلالتِـه، فاقتفَـوْا أثـرَه، ونهجـوا نهجَـه، ولـم يتقدمـوا بيـن يديْـه، وأَنِسُـوا بطيـبِ حديثِـه، وقوّاهـم جميـلُ حدائـه؛ فلـم تُذْعِرْهـم المخـاوفُ، ولـم يرهبْهـم كيـدُ المتربصيـن، ولـم يسـتطيلوا الطريـقَ وإن تـوارتْ عـن نواظِرهـم علائـمُ نهايتِـه ولـم يَثْنِهـم عـن السـيرِ نكـوصُ الناكصيـن، ولـم تُعْيِهـم مراهـقُ السـيرِ التـي لا بُـدّ مـن تكبّدهـا؛ ليقينِهـم بعصمـةِ قائدِهـم، وحسـنِ المـآلِ الـذي ينتظرُهـم؛ فمَـن يعـرفْ مـا يطلـبُ يهـنْ عليـه مـا يبـذلُ، كيـف وهـم يـرون المَثَلَ في قائدِهـم الـذي لـم تُحْفَـظْ عليـه يومـًا زرايـةٌ، أو يَـرَوْا فيـه أيَّ تناقـضٍ بيـن قـولٍ وعمـلٍ وحـالٍ! فسَـار بهـم سـيراً رفيقـًا؛ يَسـبِقُ بـه السـابقَ، ويلحـقُ بـه اللاحـقُ، يحمـلُ ضعيفَهـم، ويعلِّـمُ جاهلَهـم، ويَحْلُـمُ علـى سـفيهِهم، ولا يكلفُهـمُ المشـاقَّ، ويصبِّرُهـم مُشَـجِّعـًا علـى تخطّـي العقبـاتِ التـي لا بـد مـن مرورِهـا في طريـقِ النجـاة، وهـم يتمتعـون بالطيِّبـات أثنـاءَ

مسيرِهم دون أن ينشغلوا بها عن غايتِهم التي يَرُومونها، فما زال ذلك دَأبَهم حتى وصلوا إلى مخْرجِ النجاةِ، ونعِموا بالسلامةِ والهناءِ. وكان مِن أولئك الركبِ قومٌ مخذولون؛ قد انخدعوا لغرورِ خِطَابِ قُطَّاعِ الطريقِ حين زَعموا أن ثَمّةَ طرقاً أهدى من سبيلِ الهدايةِ الوحيدِ، وطفِقوا يزيِّنونها للناس ببهارجَ من شبهاتٍ وشهوات؛ تَخْلِبُ الأبصارَ، وتَغُرُّ الجاهلَ والغافلَ؛ تزعم أنها سبلٌ للهدايةِ والنجاة، فاتَّبَعُوا أولئك الغواةَ، وشَقُوا بوَعْثاءِ الطريقِ مع شقاءِ ضَلالِه، وما لبثوا إلا أن انكشفَ لهم الغطاءُ، وبان لهم السرابُ وغرورُ الأمانيِّ؛ فصاروا يندبون نفوسَهم، ويلعنون مَن أضلّهم حين احْتَوَشَتْهمُ المهالكُ، ووقعوا صرعَى تحت رَحى الخزيِّ والحرمانِ والأحزانِ! وبمِثل ذلك المصرعِ الوخيمِ كان حتْفُ مَن تكايسَ وظنَّ أن بإمكانِه الاهتداءَ لدربِ النجاةِ الوحيدِ بعقلِه البشريِّ وإن خالف طريقَ الهادي، سيّما إنْ عَرضتْ له عقباتٌ في طريقِ الهدى، أو رأى شيئاً من عناءِ السفرِ الذي لا بدّ منه، وانغرّ بسهولةِ مَمَرٍّ عَرَضَ له، أو بَهَرَه جمالُ ظاهرِه، أو ظنّ أنه دربٌ أقصرُ من جادّةِ الهداية؛ فتخلّى عن رَكْبِ الهُداةِ سالكاً درباً كان يظنّه سبيلَ نجاةٍ وإذْ به يُفضي إلى هلكةٍ وبَوار؛ فنَدِمَ ولاتَ ساعةَ مَنْدَمٍ.

بذلكمُ المَثلِ تبين به حقيقةُ الاهتداءِ ببركةِ الاقتداءِ بالنبيِّ ﷺ في في هذه الحياةِ، كما قال — تعالى -: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾؛ فالهدايةُ والسعادةُ ثمرةُ الطاعةِ والاتّباعِ لنبيّ الرحمةِ — عليه الصلاةُ والسلامُ -، والغوايةُ والشقاءُ ثمرةُ المخالفةِ والابتداع.

عبادَ الله!

إن طاعـةَ النبيّ ﷺ قضيـةُ النجـاةِ الكـبرى، كمـا قـال النبيُّ ﷺ: "مَثَلِي ومَثَلُكـم كمَثَـل رجـلٍ أوْقـدَ نـاراً، فجعـل الجنـادبُ والفَـراشُ يَقَعْـنَ فيهـا، وهـو يَذُبُّهـن عنهـا، وأنـا آخِـذٌ بحُجَزِكـم عـن النـار، وأنتـم تَفَلَّتُـون مـن يـدي" رواه مسـلمٌ. وتلـك الطاعـةُ النبويـةُ ألـزمُ مـا يجـبُ أن يحاسـبَ المـرءُ نفسَـه عليهـا؛ علمـاً، وعمـلاً، وحـالاً، سيِّما في أوقـاتِ الفتـنِ العامّـةِ والخاصّـةِ ووجـودِ الأئمـةِ المضلّيـن وجـدالِ المنافقيـن عليمِـي اللسـانِ وإعجـابِ كلِّ ذي رأيٍ برأيـه وبُـروزِ النّزْعـةِ العقليـةِ ومسـاربِ الهـوى في تحكيـم النصـوصِ الشـرعيةُ؛ إذ لا نجـاةَ مـن تلـك الفتـن الخطِـرةِ التـي عـادةً مـا يهـوي في حُفَرهـا الكثيـرُ، ولا يسـلمُ مِـن إضلالهـا إلا مَـن عَصَمَـهُ الله بحبـلِ التمسُّـكِ باتّبـاع النبـيّ ﷺ وطاعتِـه. قـال الإمـامُ مالـكٌ: "السـنةُ سـفينةُ نـوحٍ؛ مَـن ركِبهـا نجـا، ومَـن تخلّـفَ عنهـا غَـرِق".

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أما بعدُ، فاعلموا أن أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنون!

إن تحقيقَ طاعةِ النبيِّ ﷺ يكونُ في خَبَرِه وأَمْرِه؛ تصديقاً للخَبَر، سيّما ما تعلّقَ بالغيب الذي لا يمكنُ للحسِّ إدراكُه، وامتثالاً للأمْر؛ أداءً وكَفًّا واتباعاً، سيّما ما خَفِيتْ حكمتُه، أو خالف الهوى. يُجلّي حقيقةَ تلك الطاعةِ النبويةِ حالُ أبي بكرٍ الصديقِ — رضي الله عنه -في تصديقِ خبرِ النبي ﷺ وامتثالِ أمرِه وإن اعترضها مِن دواعي الاعتراضِ ما دَعَاها؛ وذلك في خبرِ الإسراءِ، وأحكامِ صلحِ الحُدَيبيّة، قالت عائشةُ — رضي اللهُ عنها-: "لما أُسري بالنبيّ ﷺ إلى المسجدِ الأقصى أصبحَ يتحدّثُ الناسُ بذلك، فارتدَّ ناسٌ ممّن كانوا آمنوا به وصدّقوه، وسَعْوا بذلك إلى أبي بكرٍ -رضي اللهُ عنه-، فقالوا: هل لك إلى صاحبِك، يزعمُ أنه أُسري به الليلةَ إلى بيتِ المَقْدسِ؟ قال: أَوَ قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئِن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: أَوَ تُصَدِّقُه أنه ذهب الليلةَ إلى بيتِ المقْدسِ وجاءَ قبل أن يُصْبِحَ؟! قال: نعم! إني لأصدِّقُه فيما هو أبعدُ من ذلك، أصدِّقُه بخبر السماءِ في غُدْوةٍ أو رَوْحة؛ فلذلك سُمِّي أبو بكرٍ الصديقُ" رواه الحاكمُ وصحّحه ووافقه الذهبيُّ. ولما اشترطتْ قريشٌ شروطَها الجائرةَ في صلحِ الحديبيَّةِ أتى عمرُ بنُ الخطاب — رضي اللهُ عنه-

نبيَّ الله ﷺ، فقال: ألستَ نبيَّ اللهِ حقًّا؟ قال: «بلى»، قال عمرُ: ألسْنا على الحقّ، وعدوُّنا على الباطل؟ قال: «بلى»، قال: فلِمَ نعطي الدَّنيّةَ في دِيننا إذاً؟ قال: «إني رسولُ الله، ولستُ أعصيه، وهو ناصري»، قال: أوَليس كنتَ تحدثُنا أنَّا سنأتي البيتَ فنطوفُ به؟ قال: «بلى، فأخبرتُكَ أنَّا نأتيه العامَ»؟ قال: لا، قال: «فإنك آتيه ومُطَوِّفٌ به»، قال عمرُ: فأتيتُ أبا بكرٍ، فقلتُ: يا أبا بكرٍ، أليس هذا نبيَّ الله حقًّا؟ قال: بلى، قلتُ: ألسنا على الحقّ وعدوُنا على الباطلُ؟ قال: بلى، قلتُ: فلمَ نعطي الدنيّةَ في دينِنا إذاً؟ قال: أيها الرجلُ، إنه لَرسولُ اللهِ ﷺ، وليس يعصي ربَّه، وهو ناصرُه؛ فاستمسكْ بغَرْزِه؛ فواللهِ إنّه على الحقّ! رواه البخاريُّ ومسلمٌ.

إنّا كفيْناكَ المستهزئينَ

الحمدُ للهِ الذي أرسلَ رسولَه بالهُدى ودينِ الحق؛ ليظهرَه على الدينِ كلّه، وكفى باللهِ شهيداً. وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له؛ إقراراً به وتوحيداً. وأشهد أنّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلى الله عليه وعلى آلِه وصحبِه وسلم تسليماً مزيداً.

أما بعد، فاتقوا اللهَ — عبادَ اللهِ –، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ...﴾.

أيها المسلمون!

إنَّ من قلةِ عقلِ المرءِ وسوءِ تدبيرِهِ أن يُطاولَ ما لا يقدرُ على مطاولتِهِ، أو يُغالبَ ما لا يقدرُ على مغالبتِه؛ فإنّ ذاك ضربٌ من الخَسار والسفهِ. وهو مسلكٌ وَعِرٌ نهَجَه أعداءُ الرسالة المحمديةِ في قديم الزمانِ وحديثه لردِّ رسالةِ الإسلام في صورٍ متعدِّدةٍ وأساليبَ شتّى، بلغ قَصارى أذاها الهزءَ والسخريةَ بنبيّها ﷺ، ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾. وليس نبيُّنا بدعاً من الرسلِ المسخورِ بهم،بل جعل له ربُّه سلوةً في إخوتِه الأنبياءِ؛ إذْ لم ينفكّ أحدٌ منهم من هُزءِ عُداتِه وسخريتِهم، ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾. ومع أن الاستهزاءَ كان الأسلوبَ الأبرزَ ممّا سلكه الطّغاةُ وكثُر امتطاؤهم صهوتَه – سيّما حالَ ضعفِ المسلمين –، إلا أنّ اللهَ — جلّ شأنُه — قد كفى نبيَّه ﷺ وَضَرَ ذلك الاستهزاءِ وأهلِه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾: كفايةً خاصةً بعد كفايته العامة من شرِّ

كلّ شانئٍ: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ﴾، بل ومن كيدِ الناسِ أجمعَ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾.

أَلَسْـتَ مُنْتهِياً مِنْ نحْـتِ أثْلَتِنَا ... ولَسْتَ ضائِرَهَا ما أَطَّتِ الإِبِـلُ

كَناطِـحٍ صَخْرةً يوماً ليقلعَهـا ... فَلَمْ يَضِرْهَـا وَأَوْهَى قَرْنَهُ الوَعِلُ

أيّها المؤمنون!

إنّ كفايـةَ اللهِ نبيَّـه كيـدَ المستهزئين ذو عمـومٍ يتخطّـى تطـاولَ الحُقَـبِ وتنـوعَ الأعـداءِ واختـلافَ البقـاعِ وتنـوعَ أسـلوبِ السـخريةِ وحجمِهـا والدافـعِ إليهـا؛ إذ إنّ رسـالتَه ختـامُ الرسـالاتِ، وقـد تكفّـل اللهُ بخلودِهـا إلـى أنْ يـرثَ الأرضَ ومَـن عليها، ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾؛ فلا يمكـن لسـخريةِ عـدوٍّ أن تُعـارضَ خلـوداً أراده اللهُ وتكفّـل بـه. كمـا أنّ حكمـةَ اللهِ ورحمتَـه تأبـى أنْ يكـونَ لهـذا الهُـزْءِ أثـرٌ في تجفيـلِ النـاسِ عـن اتّبـاعِ الحقّ الـذي جـاء بـه نبيُّـه ﷺ، أو بقـاءٌ تُشـوَّه بـه شـريعةُ اللهِ. وكذلـك، فـإنّ عفـنَ السـخريةِ يذهـبُ هبـاءً إزاءَ رفعـةِ ذكـرِ النبيِّ ﷺ الـذي أخبـرَ اللهُ عنه بقولِـه: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾. والسـاخرُ بالنبيِّ ﷺ عـدوٌّ لأعظـمِ أوليـاءِ اللهِ، وقـد تولّـى اللهُ حـربَ مَـن عـادى وليـاً مـن أوليائـه؛ فكيـف إذا كان سـيّدَ الأوليـاء؟! يقـول رَسُـولُ اللهِ ﷺ: "إِنَّ اللهَ قَـالَ: مَـنْ عَـادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْب" رواه البخاريُّ ومسلمٌ. فهي حـربٌ معلنـةٌ محسـومةُ النتائـجِ. ومَـن كان اللهُ حسبَه كفاه أذى عدوِّه، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

عبادَ اللهِ!

﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾: وعْدٌ منَ اللهِ لرسولِه ﷺ أنْ لا يضرُّه المستهزئون، وأنْ يكفيَه اللهُ إيّاهم بما شاءَ من أنواعِ العقوبةِ، كفايةً عامةً لا تُحصرُ أنواعُها، ولا أفرادُها، كفايةً لا تجعلُ للسخرية أثراً. ومن صورِ هذه الكفايةِ: بترُ الشانئ، ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾، فكلُّ مَن شنأه أو أبغضَه وعاداه فإنّ اللهَ يقطعُ دابرَه ويمحقُ عينَه وأثرَه، فأين ذكرُ عُداةِ النبيّ ﷺ على مدى التاريخ مِن ذكرِه؟ وانتقامُ اللهِ من الساخرِ من صورِ هذه الكفايةِ؛ فما تظاهرَ أحدٌ بالاستهزاءِ برسولِ اللهِ ﷺ وبما جاءَ به إلا أهلكَه اللهُ وقتله شرَّ قِتلةٍ. وغالباً ما يكونُ ذلك الانتقامُ معجّلاً. يقول شيخُ الإسلام: "وقد ذكرْنا ما جرّبه المسلمون من تعجيلِ الانتقامِ من الكفارِ إذا تعرضّوا لسبِّ رسولِ اللهِ ﷺ، وبلغَنا مثلُ ذلك في وقائعَ متعددةٍ وهذا بابٌ واسعٌ لا يُحاطُ به". وقد يُجري اللهُ ذلك الانتقامَ على يدِ البشرِ، ومِن أجْلى مظاهرِ ذلك قتلُ سابِّ النبيّ ﷺ كما أجمعَ عليه علماءُ الإسلامِ على خلافٍ بينهم في استتابتِه. وفي حال تعذُّرِ إقامةِ الحدِّ عليه، فإنّ اللهَ هو الذي يتولّى ذلك الانتقامَ كما قرّره العلماءُ. وقد يُجريه بحيوانٍ بهيمٍ، كما روى الحاكمُ وصحّحه ووافقه الذهبيُّ أن لَهَبَ بْنَ أَبِي لَهَبٍ كان يَسُبُّ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ سَلِّطْ عَلَيْهِ كَلْبَكَ»، فَخَرَجَ فِي قَافِلَةٍ يُرِيدُ الشَّامَ فَنَزَلَ مَنْزِلًا، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ دَعْوَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ قَالُوا لَهُ: كَلَّا، فَحَطُّوا مَتَاعَهُمْ حَوْلَهُ وَقَعَدُوا يَحْرُسُونَهُ، فَجَاءَ الْأَسَدُ فَانْتَزَعَهُ فَذَهَبَ بِه. وقد يُجري الله ذلك الانتقامَ بجمادٍ وإنْ خالفَ سُنَنَ الكون، فقد روى البخاريُّ في صحيحِه عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَجُلٌ

نَصْرَانِيًّا فَأَسْلَمَ، وَقَرَأَ البَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ، فَكَانَ يَكْتُبُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَعَادَ نَصْرَانِيًّا، فَكَانَ يَقُولُ: مَا يَدْرِي مُحَمَّدٌ إِلَّا مَا كَتَبْتُ لَهُ، فَأَمَاتَهُ اللهُ فَدَفَنُوهُ، فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْهُ الأَرْضُ، فَقَالُوا: هَذَا فِعْلُ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ لَمَّا هَرَبَ مِنْهُمْ، نَبَشُوا عَنْ صَاحِبِنَا فَأَلْقُوهُ، فَحَفَرُوا لَهُ فَأَعْمَقُوا، فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْهُ الأَرْضُ، فَقَالُوا: هَذَا فِعْلُ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ، نَبَشُوا عَنْ صَاحِبِنَا لَمَّا هَرَبَ مِنْهُمْ فَأَلْقُوه، فَحَفَرُوا لَهُ وَأَعْمَقُوا لَهُ فِي الأَرْضِ مَا اسْتَطَاعُوا، فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْهُ الأَرْضُ، فَعَلِمُوا: أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ، فَأَلْقُوهُ".

معشرَ المؤمنين!

ومن صورِ كفايةِ اللهِ نبيَّه استهزاءَ المستهزئين: تجديدُ محبّتِه في قلوبِ المؤمنين مع كلِّ حدثِ إساءةٍ؛ لتكونَ تلك الإساءةُ جمراً يُتَضوّعُ به طيبُ محبةِ النبيِّ ﷺ الكامنُ في قلوبِ المؤمنين؛ فيفوحُ مِسكاً تطيبُ به أنحاءُ المعمورةِ. وها أنت ترى جموعَ المؤمنين الغفيرةَ تهبُّ ذابّةً عن عرضِ نبيّها وقُرّةِ عينِها ومُطالِبةً بمعاقبةِ المجرمين، وإن كان أولئك المؤمنون في لأواءَ من تسلُّطِ عدوٍّ ونَزفِ جراحٍ وحقٍّ مسلوبٍ. ولعل ذلك من أسرارِ إقبالِ الكفرةِ على قراءةِ سيرةِ نبيّنا ﷺ؛ لمعرفةِ سرِّ غضْبةِ تلك الجماهيرِ الهائلةِ التي لا يُعرفُ لها في التأريخ نظيرٌ؛ فيقودُهم ذلك إلى اتّباعِه ونشرِ سنتِه - بأبي هو وأمي -. وتلك أخرى من صورِ الكفايةِ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ وكفى، وصلاةً وسلاماً على رسولِه المُجتبى. وبعد:
فاعلموا أن أحسنَ الحديثِ ...

أيّها المؤمنون!

ومن صورِ كفايةِ اللهِ نبيّه سخريةَ الشانئين أنْ يُلحقَ الدمارَ بدولِهم التي شجعتْهم على السخريةِ أو سمحتْ لهم أو دافعتْ عنهم. يقول شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ: "وَمِنَ الْمَعْرُوفِ الْمَشْهُورِ الْمُجَرَّبِ عِنْدَ عَسَاكِرِ الْمُسْلِمِينَ بِالشَّامِ إِذَا حَاصَرُوا بَعْضَ حُصُونِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنَّهُ يَتَعَسَّرُ عَلَيْهِمْ فَتْحُ الْحِصْنِ، وَيَطُولُ الْحِصَارُ إِلَى أَنْ يَسُبَّ الْعَدُوُّ الرَّسُولَ ﷺ حِينَئِذٍ يَسْتَبْشِرُ الْمُسْلِمُونَ بِفَتْحِ الْحِصْنِ، وَانْتِقَامِ اللَّهِ مِنَ الْعَدُوِّ؛ فَإِنَّهُ يَكُونُ ذَلِكَ قَرِيبًا، كَمَا قَدْ جَرَّبَهُ الْمُسْلِمُونَ غَيْرَ مَرَّةٍ؛ تَحْقِيقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾، وَلَمَّا مَزَّقَ كِسْرَى كِتَابَهُ مَزَّقَ اللَّهُ مُلْكَ الْأَكَاسِرَةِ كُلَّ مُمَزَّقٍ، وَلَمَّا أَكْرَمَ هِرَقْلُ وَالْمُقَوْقِسُ كِتَابَهُ بَقِيَ لَهُمْ مُلْكُهُمْ". ويقول: "ونظيرُ هذا ما حدّثناه أعدادٌ من المسلمينَ العدولِ أهلِ الفقهِ والخبرةِ عمّا جرّبوه مراتٍ متعددةً في حصرِ الحصونِ والمدائنِ التي بالسواحلِ الشّاميّةِ لما حصرَ المسلمون فيها بني الأصفرَ في زمانِنا، قالوا: كنّا نحن نحصرُ الحِصنَ أو المدينةَ الشّهرَ أو أكثرَ من الشّهرِ وهو ممتنعٌ علينا حتى نكادَ نيأسُ منه حتى إذْ تعرّضَ أهلُه لسبِّ رسول الله ﷺ والوقيعةِ في عرضِه عجّلنا فتحَه وتيسرَ ولم يكدْ يتأخرُ إلا يوماً أو يومينِ أو نحوَ ذلك، ثم يُفتحُ

المكانُ عنوةً، ويكونُ فيهم ملحمةٌ عظيمة، قالوا: حتى إنْ كنا لنتباشَرُ بتعجيلِ الفتح إذا سمعْناهم يقعون فيه مع امتلاءِ القلوبِ غيظًا عليهم بما قالوا فيه. وهكذا حدَّثني بعضُ أصحابِنا الثّقاتِ أنّ المسلمين منْ أهلِ المغربِ حالُهم مع النَّصارى كذلك". أهـ

أيّها المؤمنون!

ومع كفايةِ الله نبيَّه سخريةَ المستهزئين، إلا أنّ واجبَ نُصرتِه وتعزيرِه لاحقٌ كلَّ مسلم بما يُطيق، ولا يتحققُ الفلاحُ إلا بذلك، ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾. ومن أجْلى صور المناصرةِ والتعزيرِ: اتباعُ سنّتِه حالَ الغضبِ والرضى والمَنشط والمكْره والعدلِ والأثرةِ، ونشرِها والصَّدعِ بها، والذَّودِ عنها، وجهادِ شانئها. هكذا تكونُ نصرتُه. وبقدر تلك النصرةِ تكونُ كفايةُ اللهِ للعبد وتخليدِ عملِه، قِيلَ لِأَبِي بَكْرِ بْنِ عَيَّاشٍ: إنَّ بِالْمَسْجِدِ قَوْمًا يَجْلِسُونَ وَيُجْلَسُ إلَيْهِمْ فَقَالَ: "مَنْ جَلَسَ لِلنَّاسِ جَلَسَ النَّاسُ إلَيْهِ. وَلَكِنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ يَمُوتُونَ وَيَحْيَى ذِكْرُهُمْ وَأَهْلَ الْبِدْعَةِ يَمُوتُونَ وَيَمُوتُ ذِكْرُهُمْ"؛ لِأَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ أَحْيَوْا مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ فَكَانَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾، وَأَهْلَ الْبِدْعَةِ شَنَؤوا مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ فَكَانَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾.

مكانةُ النبيِّ ﷺ وجريمةُ السُّخريةِ به

الحمدُ للهِ الذي أرسلَ رسولَه بالهدى ودينِ الحقِّ ليُظهرَه على الدينِ كلِّه وكفى باللهِ حميداً، الذي خلق السمواتِ والأرضَ ولم يزلْ عزيزاً مجيداً، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ إقراراً به وتوحيداً، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه المبعوثُ رحمةً وشهيداً، صلى اللهُ عليه وعلى آلِه وصحبِه وسلّم تسليمًا مزيداً.

أمّا بعد، فاتقوا اللهَ عبادَ الله ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾...

أيّها المؤمنون!

إنّ أعظمَ منّةٍ إلهيةٍ أُكرِم العبادُ بها مبعثُ النبيِّ ﷺ إثرَ فترةٍ من الرُّسُلِ، بعد أنْ اسْتحكمَ الضَّلالُ وارتكستِ الفطرُ، فكان كالغيثِ للأرضِ القَفْرِ، بل هو أعظمُ. يقولُ اللهُ تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾، نبيٌّ علّق الله باتِّباعه النجاةَ والفلاحَ والسعادةَ والخيرَ أجمعَ، وجعلَ الذُّلَّ والصَّغارَ والخَسارَ والبَوارَ لمن شنَأَه وخالف أمرَه، قطعَ اللهُ سبحانه سُبلَ الوصولِ لرضاه إلا من خلالِ سبيلِه واقتفاءِ أثرِه، وجعل الجنةَ حرامًا على مَن حاد عن سُنَّتِه ونبَذَ شرعَه. أكرمُ الخلقِ على ربِّه، وأقْوَمُهم بأمره، وأصبرُهم لقَدَره، ذاقَ مُرّ الأذى، وصُنوفَ

البلاء، وخاضَ موطنَ الرَّدى،وأشرف على الهَلَكة كي يُنقذَ أمّتَه. حريصٌ عليهم، رؤوفٌ بهم، ناصحٌ لهم، يشقُّ عليه عنتُهم،، يدعو لهم، ويبكي لأجلِهم، وادَّخر شفاعتَه لهم، لم يعلمْ خيراً إلا دلّهم عليه، ولا شراً إلا حذَّرهم منه؛ حتى قال المشركون للصّحابةِ رضي اللهُ عنهم: "إِنَّا نَرَى صَاحِبَكُمْ يُعَلِّمُكُمْ حَتَّى يُعَلِّمَكُمُ الْخِرَاءَةَ" رواه مسلمٌ. وهو مع هذا العطاءِ الغَدِقِ طيِّبُ المعْشَرِ، كريمُ الخُلُقِ،تامُّ السَّجيّةِ، طلْقُ المُحيّا، عفُّ اللسانِ، رحبُ الفؤادِ، لا تناقضَ بين فعلِه وقولِه، وسرِه وجهرِه، وسرورِه وحزنِه؛ فكان قدوةً للمُؤْتَسِين ورحمةً للعالمين.

معشرَ المؤمنين!

لِعظمِ مِنّة النبيّ ﷺ، وعلوّ منزلتِه، وكرامتِه على ربه؛ أوجب اللهُ سبحانه محبّتَه وتوقيرَه، وجعل ذلك من أجْلى مظاهرِ التوحيدِ والإيمانِ فقال عزّ وجل: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾،ويقولُ النبيُّ ﷺ: «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» رواه البخاريُّ. وقد أدرك الصحابةُ -رضي اللهُ عنهم- هذا الأمرَ وأعطُوه قدرَه؛ حتى قال عنهم عروةُ بنُ مسعودٍ -رضي اللهُ عنه- حين كان مشركاً: "وَاللهِ لَقَدْ وَفَدْتُّ عَلَى المُلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ، وَكِسْرَى، وَالنَّجَاشِيِّ، وَاللهِ ما رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺمُحَمَّدًا، وَاللهِ إِنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمُ ابْتَدَرُوا

أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ" رواه البخاريّ. ولَمَّا صَلبتْ قريشٌ خُبيبَ بنَ عدي رضي اللهُ عنه ووضعتْ فيه السلاحَ ليقتلوه نَادُوهُ ونَاشَدُوهُ: أَتُحِبُّ مُحَمَّدًا مَكَانَكَ؟ فَقَالَ: لَا وَاللهِ الْعَظِيمِ مَا أَحَبُّ أَنْ يُفَدِّيَنِي بِشَوْكَةٍ يُشَاكُهَا فِي قَدَمِه. رواه الطبرانيّ وأصلُه في صحيحِ البخاريّ. بل عرف قدرَه المنصفون من الكفرةِ المعاصرين؛ فهذا أحدُهم يقول: "إذا كانتِ الضوابطُ التي نقيسُ بها عبْقريةَ الإنسانِ هي سموُّ الغايةِ والنتائجِ المُذهلةِ لذلك رغم قلةِ الوسيلةِ، فمَن ذا الذي يجرؤ أن يقارِن أيّاً من عظماءِ التاريخِ الحديثِ بالنبيّ محمدٍ في عبقريتِه؟"، ويقولُ آخرُ: "إنّ اختياري محمداً، ليكونَ الأولَ في أهمِّ رجالِ التاريخِ، قد يدهِشُ القرّاءَ، ولكنه الرجلُ الوحيدُ في التاريخِ كلّه الذي نجحَ أعلى نجاحٍ على المستويينْ: الدينيِّ والدنيوي".

أيُّها المسلمون!

إنّ عِداء الحقِّ، والشَّرَقِ بنورِه، والسّخريةَ بحملتِه، سنةٌ في الكونِ ماضيةٌ، وللأنبياءِ في ذلك النصيبُ الوافرُ كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾، ويقولُ سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، ومِنْ آخرِ أولئك المجرمينَ مأفونٌ من جِلدتِنا يتحدثُ بلسانِنا ويتسمّى باسمِنا، بلغ به السوءُ الغايةَ حين تنقَّصَ الذاتَ الإلهيةَ وسخِر بالنبيّ ﷺ في تغريداتٍ كُفريةٍ بثّها عبر أشهرِ المواقعِ الإلكترونيَّةِ؛ فهبَّ المجتمعُ، خاصةً وعامةً، ذكوراً

وإناثـًا، كبـاراً وصغـاراً، مدافعين عـن قُرّة عيونهـم، ومُوقِفيـن شـانئيه عنـدَ حدِّهـم، ومطالبيـن بإقامـةِ حـدّ اللهِ عليهـم؛ فبـانَ بذلـك الموقـفِ المشـرِّفِ عظيـمُ المحبـةِ التي وقـرتْ في قلوبهـم لهـذا النبيِّ الكريـمِ ﷺ، ومستوى إدراكِ مكانتِه،واستشعارُ مسيسِ الحاجة لنشرِ سنتِه وسيرتِه وتقريبِها للنّاس، وإبـرازُ متانـةِ لُحمـةِ المبـادئِ التـي تربـطُ بيـن المؤمنيـن، وتُمايـزُ المؤمـنَ مـن المنافـقِ، والصـادقِ مـن الـكاذبِ، وإظهـارُ شـعيرةِ الأمـرِ بالمعـروف والنَّهـي عـن المنكـرِ، وتجليـةُ أثرِهـا في صيانـةِ المُجتمعِ،وزيـادةِ إيمانِه،وتقويـةِ أواصرِه، ونفْيِ خَبَثه،وجلّـى ذلـك الموقـفُ أهميـةَ الوعـي بإعطـاءِ الحـدثِ أهميّتَـه، ونبـذَ تهميشِـه بزعـمِ عـدمِ إشـهارِ أمـرِ المجـرمِ لئـلّا يصبـحَ رمزاً،وحسـنَ توظيـف التقنيـةِ في نشـر الديـن والـذَّودِ عنـه. ومـن أهـم مـا عـرّاه ذلـك الحـدثُ إيضـاحُ جـذورِه التـي نشـأ عنهـا، فمِـن عبـاءةِ الليبراليـةِ خـرج ذلـك المجـرمُ، وعلـى رموزِهـا تتلمـذَ، ومـن كتبِهـا نهـلَ، وعلـى موائـدِ ملتقياتهـا العفِنـةِ عكـف، ولـم يبـقَ مدافعـًا عنـه إلا مجـرمٌ مثلُـه أو سـاذَجٌ أو جاهـلٌ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ حقَّ حمدِه، والصلاةُ والسّلامُ على رسولِه وعبدِه، وبعد:
فاعلموا...

أيّها المؤمنون!

إنّ بشاعةَ جُرمِ السّاحرِ بالنبيّ ﷺ أوجبتْ شدةَ الحكمِ عليه وعقوبتِه؛ فحكمُه -إن كان مسلماً- أنّه مرتدٌّ كافرٌ يُقتَلُ بإجماعِ علماءِ الإسلامِ، يقولُ القاضي عِياض: "وَأَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَى قتل متنَقِّصِه مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَسَابِّهِ". قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْۚ﴾، ويقولُ سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾، وقال النبيُّ ﷺ: «مَنْ لِكَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ، فَإِنَّهُ قَدْ آذَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ رواه البخاريّ ومسلمٌ، وممّن حكى الإجماعَ ابنُ المنذرِ والخطّابيُّ وابنُ سحنون وابنُ عتابٍ وابنُ رشدٍ وشيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ. وذهب جمعٌ من أهلِ العلمِ إلى عدمِ استتابتِه كالإمامِ أحمدَ وشيخِ الإسلامِ، وإن كانت توبتُه مقبولةً فيما بينه وبين اللهِ. غيرَ أنّ إقامةَ ذلك الحدِّ من واجباتِ الإمامِ التي ينفردُ بها، ولا يُفْتاتُ عليه فيه. وذلك الحدّ لا يسقطُ بالتقادُم؛ فكلُّ مَن صدر منه سخريةٌ بالرسول ﷺ وجبَ رفعُ أمرِه للقضاءِ؛ كي ينالَ جزاءه، ويُشرّدَ به مَن خلفَه، وذلك من أعظمِ مقاصدِ الحدودِ.

معاشرَ الأحبةِ!

يحسُنُ التنبيهُ في هذا المقامِ إلى لُزومِ العدلِ في التعاملِ مع المستهزئِ؛ فلا يشنّعُ على نسبِه، أو بلدِه، أو يُؤذى أهلُه بما لا جريرةَ لهم فيه، فالذي أوجبَ الحدّ عليه أوجبَ العدلَ معه، ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾.

السابقون الأولون

إنَّ الحمدَ لله؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، منْ يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومنْ يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه.

أما بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ...﴾.

أيّها المؤمنونَ!

مِن أجلِّ الاصطفاءِ الربانيِّ ذلكمُ الاصطفاءُ الذي خَصَّ اللهُ به صحابةَ رسولِ اللهِ ﷺ؛ فخلعَ عليهم به خِلَعَ الفضائلِ التي فاقوا بها مَن سواهم من البشرِ سوى الأنبياءِ؛ إذ اختارهمُ الله خياراً مِن بشرٍ لصحبةِ خيرِ البشرِ ﷺ؛ حماةً لدينِه، وأنصاراً لملتِه، ونقلةً لشريعتِه. يقولُ عبدُاللهِ بنُ مسعودٍ –رضي اللهُ عنه–: "إنَّ اللهَ نَظَرَ في قلوبِ العبادِ، فوجدَ قلبَ محمدٍ ﷺ خيرَ قلوبِ العبادِ، فاصطفاه لنفسِه، فابْتعثَهُ برسالتِه، ثم نظرَ في قلوبِ العبادِ بعد قلبِ محمدٍ، فوجد قلوبَ أصحابِه خيرَ قلوبِ العبادِ، فجعلهم وزراءَ نبيِّه، يقاتلون على دينِه" رواه أحمدُ وصحّحه الحاكمُ ووافقه الذهبيُّ. قومٌ شهدَ اللهُ برضاه عنهم كما رضوا عنه، ووعَدهم بالمغفرةِ والأجرِ العظيمِ، فقال: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ

أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾. وشهدَ لهم رسولُه بالخيريةِ المطلقةِ على سائرِ القرونِ، فقال: "خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ" رواه البخاريُّ ومسلمٌ. وعلى ذاك بنى شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ تفضيلَهم على الناسِ قاطبةً سوى الأنبياءِ —عليهم السلامُ-، فقال: "وَمَنْ نَظَرَ فِي سِيرَةِ الْقَوْمِ بِعِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ، وَمَا مَنَّ اللهُ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْفَضَائِلِ؛ عَلِمَ يَقِينًا أَنَّهُمْ خَيْرُ الْخَلْقِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ؛ لَا كَانَ وَلَا يَكُونُ مِثْلُهُمْ، وَأَنَّهُمْ هُمْ صَفْوَةُ الصَّفْوَةِ مِنْ قُرُونِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، الَّتِي هِيَ خَيْرُ الْأُمَمِ وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ".

أيها المسلمون!

لئِنْ كان الوفاءُ لذي الفضلِ مِن محمودِ الخصالِ؛ فإنَّ وفاءَ الإسلامِ لأصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ قد بلغَ ذُرى سمائه؛ وفاءً لجليلِ تضحيتِهم وجهادِهم، وصدقِهم فيما عاهدوا اللهَ عليه، «ومن أوفى بعهده من الله»؟ إنّ المتأملَ في سيرةِ أصحابِ النبيِّ ﷺ ليدرِكُ حجمَ البذلِ العظيمِ الذي استحقوا به — بعد فضلِ اللهِ — كرامةَ الوفاءِ الربانيِّ؛ إذ لم يَرَوْا معنى لحياتهم ولا قيمةً إلا بالدينِ الذي رفعهمُ اللهُ به مِن سفْحِ الجاهليةِ الهابطِ وشتاتِها إلى عُلا الخيريةِ بين الأممِ وسيادتِها، عبَّرَ عن ذلك المعنى العميقِ قولاً وفعلاً وحالاً الفاروقُ —رضي اللهُ عنه-، قال طارقُ بنُ شهابٍ — رضي اللهُ عنه -: "خَرَجَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى الشَّامِ وَمَعَنَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ، فَأَتَوْا عَلَى مَخَاضَةٍ وَعُمَرُ عَلَى نَاقَةٍ لَهُ، فَنَزَلَ عَنْهَا، وَخَلَعَ خُفَّيْهِ فَوَضَعَهُمَا عَلَى عَاتِقِهِ، وَأَخَذَ بِزِمَامِ نَاقَتِهِ فَخَاضَ بِهَا الْمَخَاضَةَ، فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْتَ تَفْعَلُ هَذَا؟! تَخْلَعُ خُفَّيْكَ

وَتَضَعُهُمَا عَلَى عَاتِقِكَ، وَتَأْخُذُ بِزِمَامِ نَاقَتِكَ، وَتَخُوضُ بِهَا الْمَخَاضَةَ؟! مَا يَسُرُّنِي أَنَّ أَهْلَ الْبَلَدِ اسْتَشْرَفُوكَ، فَقَالَ عُمَرُ: «أَوَّهْ! لو لَمْ يَقُلْ ذَا غَيْرُكَ أَبَا عُبَيْدَةَ لجَعَلْتُهُ نَكَالًا لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ إِنَّا كُنَّا أَذَلَّ قَوْمٍ فَأَعَزَّنَا اللهُ بِالْإِسْلَامِ؛ فَمَهْمَا نَطْلُبِ الْعِزَّةَ بِغَيْرِ مَا أَعَزَّنَا اللهُ بِهِ أَذَلَّنَا اللهُ» " رواه الحاكمُ وصحّحه على شرطِ البخاريِّ ومسلمٍ ووافقه الذهبيُّ. أولئك الصحبُ الأطهارُ حين رأوا ألا معنى للحياةِ ولا قيمةَ إلا بالدينِ؛ جعلوه مِحْوَرَ اهتمامِهم، ومَحَطَّ ولائِهم وبَرائِهم، وأوقفوا عليه حياتَهم؛ فكانوا له أنصاراً بحمايتِهم رسولَ اللهِ ونصرتِه؛ كيما يُبَلِّغَ رسالةَ اللهِ للعالمين، مُجرِّدين سيوفَهم على كلِّ شقيٍّ حاولَ إعاقةَ البلاغِ؛ فصارت نفوسُهم أرخصَ ما تكونُ عليهم إن كانت مبذولةً في سبيلِ اللهِ وابتغاءِ رضوانِه. يُنْبِي عن ذاك الحالِ موقفُ خُبيبِ بنِ عديٍّ —رضي اللهُ عنه— حين صلبتْهُ قريشٌ، وأشهرتْ سيفَ قتْلِه، فنادوه وهو شامخٌ بإيمانِه شموخَ الشُّمِّ الرواسي: أتحبُّ محمداً مكانَك؟ فقال: لا —واللهِ العظيمِ!—، ما أحبُّ أنْ يُفَدِّيَني بشوكةٍ يُشاكها في قدمِه! رواه الطبرانيُّ في الكبيرِ وقال الهيثميُّ: "رجالُه رجالُ الصحيحِ"، وأصلُه في صحيحِ البخاريِّ. وكما كان أولئك الأخيارُ حماةَ الشريعةِ؛ فهم أوعيةُ نقْلِها المأمونِ؛ نقَلُوها بعلمٍ وفهْمٍ، ومشاهدةٍ لمواضعِ تنزُّلِ الآياتِ والسننِ، ومعرفةٍ لأسبابِ الورودِ، وإدراكٍ لمقاصدِ الشريعةِ، وخبرةٍ بلسانِ العربِ الذي نزلَ به الوحيُ؛ نقلاً عاماً لتفاصيلِ الشريعةِ في أدقِّ الجزئياتِ؛ مما أكملَ اللهُ به الدينَ، وأتمَّ به النعمةَ، ورضي به لنا الإسلامَ ديناً؛ نقلاً أميناً دقيقاً بلغَ إحصاءَ عددِ شعراتِ الشيبِ البادي على رسولِ اللهِ ﷺ—بأبي هو وأمي—! فالصحبةُ والنصرةُ والبلاغُ الصادقُ خصالٌ للقومِ

أوجبتْ على الأمةِ شعيرةَ الوفاءِ لحقِّهم، بل غدا ذلك الوفاءُ حقيقةً من حقائقِ الإيمانِ التي لا يصحُّ إلا بها، وعلامةً فارقةً بين الإيمانِ والكفرِ، والسنةِ والبدعةِ!

عبادَ اللهِ!

إنّ فريضةَ الوفاءِ لأصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ لا يقومُ عمادُها إلا باستيفاءِ ركنِ محبتِهمُ القائمِ على معرفةِ فضائلِهم؛ محبةً شرعيةً دون غلوٍّ ولا جفاءٍ، كما سطّرَ علماءُ أهلِ السنةِ في بيانِ مُعْتَقَدِهم إذ قالوا: "وَنُحِبُّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَا نُفَرِّطُ فِي حُبِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ، وَلَا نَتَبَرَّأُ مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ، وَنُبْغِضُ مَنْ يُبْغِضُهُمْ وَبِغَيْرِ الْخَيْرِ يَذْكُرُهُمْ، وَلَا نَذْكُرُهُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ. وَحُبُّهُمْ دِينٌ وَإِيمَانٌ وَإِحْسَانٌ، وَبُغْضُهُمْ كُفْرٌ وَنِفَاقٌ وطغيان". تلكمُ المحبةُ ذاتُ أثرٍ عمليٍّ يتبدَّى بالدعاءِ لهم والترضِّي عنهم، ونشْرِ محاسنِهم، والدفاعِ عنهم، والكفِّ عن معائبِهم، وعدمِ الخوضِ فيما شجَرَ بينهم؛ فعلى ذلكمُ النَّقاء رَسَوخُ اعتقادِ أهلِ السنةِ، يقولُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ: "وَيُمْسِكُونَ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ، وَيَقُولُونَ: إِنَّ هَذِهِ الْآثَارَ الْمَرْوِيَّةَ فِي مَسَاوِيهِمْ، مِنْهَا مَا هُوَ كَذِبٌ، وَمِنْهَا مَا قَدْ زِيدَ فِيهِ وَنُقِصَ، وَغُيِّرَ عَنْ وَجْهِهِ، وَالصَّحِيحُ مِنْهُ هُمْ فِيهِ مَعْذُورُونَ؛ إِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُصِيبُونَ، وَإِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُخْطِئُونَ. وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مَعْصُومٌ عَنْ كَبَائِرِ الْإِثْمِ وَصَغَائِرِهِ، بَلْ يَجُوزُ عَلَيْهِمُ الذُّنُوبُ فِي الْجُمْلَةِ. وَلَهُمْ مِنَ السَّوَابِقِ وَالْفَضَائِلِ مَا يُوجِبُ مَغْفِرَةَ مَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ إِنْ صَدَرَ. حَتَّى إِنَّهُ يُغْفَرُ لَهُمْ مِنَ السَّيِّئَاتِ مَا لَا يُغْفَرُ لِمَنْ بَعْدَهُمْ؛ لِأَنَّ لَهُمْ مِنَ

الْحَسَنَاتِ الَّتِي تَمْحُو السَّيِّئَاتِ مَا لَيْسَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ... ثُمَّ الْقَدْرُ الَّذِي يُنْكَرُ مِنْ فِعْلِ بَعْضِهِمْ قَلِيلٌ نَزْرٌ مَغْمُورٌ فِي جَنْبِ فَضَائِلِ الْقَوْمِ وَمَحَاسِنِهِمْ؛ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَالْهِجْرَةِ، وَالنُّصْرَةِ، وَالْعِلْمِ النَّافِعِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ".

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.

أما بعدُ، فاعلموا أنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنون!

ومِن لازمِ الوفاءِ الشرعيِّ لأصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ الذي يكونُ به الاهتداءُ إحسانُ الاتباعِ بتَقَفِّي علومِهم، ودراسةِ آثارهم، وفقهِ فقهِهم فيما تكلموا فيه وأمسكوا عنه، كتبَ عمرُ بنُ عبدِالعزيزِ موصياً سائلاً: "أَمَّا بَعْدُ، أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالِاقْتِصَادِ فِي أَمْرِهِ وَاتِّبَاعِ سُنَّةِ رَسُولِهِ وَتَرْكِ مَا أَحْدَثَ الْمُحْدِثُونَ بَعْدَمَا جَرَتْ سُنَّتُهُ وَكُفُوا مُؤْنَتَهُ فَعَلَيْكَ بِلُزُومِ السُّنَّةِ؛ فَإِنَّهَا لَكَ بِإِذْنِ اللَّهِ عِصْمَةٌ. ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّهُ لَمْ يَبْتَدِعِ النَّاسُ بِدْعَةً إِلَّا وَقَدْ مَضَى قَبْلَهَا مَا هُوَ دَلِيلٌ عَلَيْهَا أَوْ عِبْرَةٌ فِيهَا؛ فَإِنَّ السُّنَّةَ إِنَّمَا سَنَّهَا مَنْ قَدْ عَلِمَ فِي خِلَافِهَا مِنَ الْخَطَإِ وَالزَّلَلِ وَالْحُمْقِ وَالتَّعَمُّقِ فَارْضَ لِنَفْسِكَ مَا رَضِيَ الْقَوْمُ لِأَنْفُسِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ عَنْ عِلْمٍ وَقَفُوا وَبِبَصَرٍ نَافِذٍ كُفُوا لَهُمْ عَلَى كَشْفِ الْأُمُورِ كَانُوا أَقْدَرَ وَبِفَضْلِ مَا فِيهِ كَانُوا أَوْلَى فَإِنْ كَانَ الْهُدَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ لَقَدْ سَبَقْتُمُوهُمْ إِلَيْهِ وَلَئِنْ قُلْتُمْ: إِنَّ مَا حَدَثَ بَعْدَهُمْ؛ مَا أَحْدَثَهُ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَ غَيْرَ سَبِيلِهِمْ، أَوْ رَغِبَ بِنَفْسِهِ عَنْهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ هُمُ السَّابِقُونَ وَقَدْ تَكَلَّمُوا فِيهِ بِمَا يَكْفِي وَوَصَفُوا مَا يَشْفِي فَمَا دُونَهُمْ مِنْ مُقَصِّرٍ وَمَا فَوْقَهُمْ مِنْ مُحْسِنٍ قَدْ قَصَّرَ قَوْمٌ دُونَهُمْ فَجَفَوْا وَطَمَحَ عَنْهُمْ أَقْوَامٌ فَغَلَوْا وَإِنَّهُمْ بَيْنَ ذَلِكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ".

أيها المؤمنون!

إنَّ انتقاصَ حقِّ الوفاءِ لأصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ بالإزراءِ عليهم، والطعنِ فيهم، وانتهاكِ حرمتِهم، والتَّنَكُبِ عن هديهم مُؤْذِنٌ بشرٍّ ذريعٍ وضلالٍ مبينٍ؛ إذ في ذلك تكذيبٌ لشهادةِ اللهِ لهم بالاهتداءِ والتزكيةِ، وطعنٌ في أساسِ الشريعةِ، وهدمٌ لأصلِها؛ إذ الطعنُ في نَقَلَتِها طعنٌ في روايتِهم لها؛ لتكونَ الشريعةُ محلَّ ريبةٍ ونقصٍ وتحريفٍ، وكلُّ ذلك مناقضٌ لإتمامِ الملةِ الذي شهدَ اللهُ به بقولِه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾. وعليه فلا غرابةَ من تشديدِ النهي عن التعرّضِ لأصحاب النبي ﷺ، ولحوقِ اللعنةِ سابَّهم، يقول النبي ﷺ: "لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ، ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلاَ نَصِيفَه" رواه البخاري ومسلم، ويقول: "مَنْ سَبَّ أَصْحَابِي فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ" رواه أحمد وحسنه الألباني بطرقه. ومن هنا برزَ الخطرُ الداهمُ للمَسْلكِ المَشينِ الذي خطَّه الضالون المعتدون على مقامِ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ، وباتَ من أفرضِ الواجبِ الاحتسابُ على أولئك الأشرارِ، ودَفْعُ عادِيَتِهم بالسلطانِ والبيانِ؛ وفاءً لأصحابِ النبيِّ ﷺ، ونصرةً لشريعتِه!

كيدُ الكافرين

الحمدُ للهِ الوليّ القاهرِ، المولى الناصرِ، الأوّلِ الآخرِ، عالمِ الغيبِ ومكنونِ الضمائرِ، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ شهادةَ موقنٍ إليه صائرُ، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلى اللهُ وسلم عليه وعلى آلِه وصحبِه الطّواهرِ.

أمّا بعدُ، فاتقوا الله — عبادَ اللهِ -، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ...﴾

أيُّها المؤمنون!

عَداءُ الكفرِ لأهلِ الإيمانِ عداءٌ أزليٌّ وُجِدَ مع وجودِ البشرِ، وهو عداءٌ مسْتعِرٌ لا تُطفئُ لهيبَه المجاملاتُ واصطناعُ الابتساماتِ؛ فقد أفصح المولى العليمُ عن تلك الحقيقةِ التي لا تَزيدُها الأحداثُ إلا يقيناً وجلاءً إذ يقولُ - ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ﴾ -: ﴿إِنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمۡ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾. ومِن أخطرِ جوانبِ العداءِ وأساليبِه الكيدُ والمكرُ الذي ينْطوي على تقصُّدِ بالغِ الإضرارِ بالمؤمنين خِفيةً واستتاراً وتمويهاً. كيدٌ كبيرٌ، ومكرٌ خطيرٌ، حتى كاد بضراوتِه أن يقتلعَ الجبالَ الرواسيَ عن مكينِ قرارِها، كما قال تعالى: ﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾. ومع ضخامةِ هذا الكيد فإنّه كيدٌ دائبٌ لا يعرفُ الكللَ والمللَ. كيدٌ تحوكُه مراكزُ أبحاثٍ ودراساتٍ، ولأجلِه تُضَخُّ قناطيرُ الأموالِ وتُقامُ قلاعُ الإعلامِ، كما دلّ على ذلك حرفُ التأكيدِ المقوّى بالفعلِ المضارعِ المستمرِّ المستقبَل

المؤكَّدِ بالمفعولِ المطلقِ المنوّنِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾. يحْدوهم في ذلك حسدُ الضلالِ، وأزُّ الشياطينِ، وتزيينُهم لهم ذلك المكرَ السيءَ، كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾، وقال: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

أيها المسلمون!

هكذا هو مكرُ الكافرين، فماذا عن مكرِ خيرِ الماكرين؟! إنّ مكرَ الكافرين مُفردةٌ من قَدَرِ الله الذي لا يندُّ مِن نظمِه شيءٌ من الخلقِ، قد علِمه وقدّره وأحاط به، كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾. فهم في قبضةِ تصرُّفِه، لا يخفى عليه مكرُهم، وإنّما أَمْلى لهم؛ ليمتحنَ سرائرَ الإيمانِ ويبلوَ الأخبارَ. وقد كشف لعبادِه الموقنين حقيقةَ مكرِ الكافرين وكيدِهم، وأرْشدَهم للتعامُل الأمثلِ إزاءَ ذلك المكرِ والكيدِ؛ رحمةً بهم، وتسليةً لهم، وتقويةً لقلوبِهم، ورصّاً لصفوفِهم. إن كيدَ الكافرين مهما بلغ في قوّتِه وإحكامِه ووسائلِه ودهائه، فإن اللهَ مُضعفُه، ومُحِلُّ بَرْمَ عُقَده، ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وفي قراءة ﴿مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، والتشديدُ في صيغةِ اسمِ الفاعلِ دليلُ المبالغةِ في إضعافِ ذلك الكيدِ في الحالِ والاستقبال. ولا عجبَ في ذلك؛ إذْ ضَعفُ كيدِ الكفرِ مُسْتمدٌّ من ضعفِ كيدِ مَصدرِه ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾. ومن صورِ إيهانِ اللهِ كيدَ الكافرين إلقاءُ الرعبِ في قلوبِهم، كما قال

تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًاۖ﴾، وتفرّقُ كلمتِهم، وفشوُّ العداوةِ والبغضاءِ بينهم، كما قال تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰۚ﴾. ومكرُ أولئك الكافرينَ السوءَ راجعٌ بالسوءِ عليهم، وسيصْطلون بنارِه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦۚ﴾. ومكرُ اللهِ بأولئك الماكرين متينٌ؛ لا يدركُ بُعْدَه إلا مَن أنارَ اللهُ بصيرتَه بنورِ الوحي، وعمّر قلبَه باليقين، وكان له بصرٌ بتاريخِ الأممِ، ولم تغرّه ظواهرُ الأحوالِ، ولم تأسِرْه اللحظةُ الحاضرةُ؛ فالكيدُ الإلهيُّ للكافرين كيدٌ قويٌ شديدٌ، خفيٌ، متدرّجٌ، طويلُ الأمدِ، يأتي من مأمنٍ، ويصيبُ في مقتلٍ، وينقضّ على أصولِ مكرِهم السيءِ، ويقوّضُ أساسَ بنائِه حتى يتهاوَى السقفُ على أهلِه، كما قال تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾، ويقولُ تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾. وكذلك، فإنّ مِن شأنِ ذلك الكيدِ الكفريّ أن يوقظَ جَذوةَ الإيمانِ في القلوبِ، ويسوقَ أهلَ الإيمانِ للاحتماءِ بربِّهم، والرجوعِ لدينِه، والتمسكِ به. يقول شيخُ الإسلام ابنُ تيميةَ: "ومِن سنّةِ الله: أنّه إذا أرادَ إظهارَ دينِه أقامَ مَن يعارضُه، فيُحقُّ الحقَّ بكلماته، ويقذفُ بالحقّ على الباطلِ؛ فيدمغُه؛ فإذا هو زَاهقٌ". وهكذا ينقلبُ كيدُهم نقيضَ ما أرادوا وخطّطوا ودبروا وموّهوا، كما حكى اللهُ عاقبةَ كيدِ قومِ إبراهيمَ — عليه السلامُ — به، فقال: ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ وفي الآية الأخرى: ﴿ٱلْأَخْسَرِينَ﴾. وذلك

مـن تَبَـاب كيـدِ الكافريـن، وضـلالِ سـعيِهم، وخسـارةِ جَهدِهـم، كمـا قـال اللهُ — تعالـى -: ﴿وَمَـا كَيۡـدُ ٱلۡكَٰفِرِيـنَ إِلَّا فِي ضَلَٰـلٖ﴾.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أما بعدُ، فاعلموا أنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنون!

ومع شدةِ ضَراوةِ كيدِ الكافرين ومكرِهم، فإنّ اللهَ أرشدَ إلى التّعاملِ الأمثلِ معه، حين وجّه نبيَّه ﷺ بألا يكترثَ لهذا الكيدِ مهما بلغتْ قوّتُه، ومن أي جهةٍ كان، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾. ولكنّ هذا التطمينَ إنما يكونُ لأهلِ الإيمانِ الذين جمعوا بين التّقوى والصّبرِ والإحسانِ؛ إذْ هؤلاء هم أولياءُ اللهِ الذين يحوطُهم بكلاءتِه، ويحرسُهم بعينِه التي لا تنامُ، ويحفظُهم بأمرِه الكائنِ بعد الكافِ والنُّونِ، كما قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾، وقال: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾. والتوكلُ على اللهِ وتفويضُ الأمرِ له جُنّةٌ مانعةٌ من كيدِ الكافرين، كما ذكر اللهُ - تعالى — عن نبيِّه هودٍ — عليه السلام — إذْ تحدّى قومَه قائلاً: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وذكر وقايتَه مؤمنَ آلِ

فرعونَ من كيدِ قومِه حين قال بلسانِ الحالِ والمقالِ: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ۝٤٤ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾. وتربيةُ الفردِ والمُجْتمعِ على رعايةِ هذه الضماناتِ الإلهيةِ من كيدِ الكافرين مِن ألْزمِ واجباتِ الولاةِ والدعاةِ والمربين وحقوقِ من يرعوْنهم، وهذا لا ينافي الأخذَ بأسبابِ السلامةِ من ذلك الكيدِ الكبّارِ؛ من الحذرِ، وعدمِ جعْلِ الكفار بِطانةً من دون المؤمنين، وإعدادِ القوةِ الحسّيّةِ والمعنويةِ، بل ذلك من تمامِ التوكلِ.

صفاءُ اليقين

إنَّ الحمدَ لله؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، منْ يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومنْ يضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أما بعدُ، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ... ﴾.

أيها المؤمنون!

اليقينُ أعظمُ منّةٍ ربانيةٍ يُكرَم بها العبدُ، وأجزلُ هِبَةٍ يُعطاها، كما قال النبيُّ ﷺ: "سَلُوا اللهَ العفوَ والعافيةَ، واليقينَ في الأولى والآخرةِ؛ فإنه ما أُوتيَ العبدُ بعْدَ اليقينِ خيراً من العافيةِ" رواه الحاكمُ وصحّحه. بذلك اليقينِ يَستقرُّ في القلبِ التصديقُ الجازمُ بأن ما جاءَ عن اللهِ ورسولِه ﷺ حقٌ وصدقٌ؛ لا يَتسرَّبُ إليه رَيبٌ، أو يُعارضُ بشبهةٍ، أو يُؤوَّلُ بشهوةٍ، بل يَراه حقّاً ماثلاً كما يَرى الواقعَ إذا وَقَع؛ وِفْقَ ما وَصَفَ عبدُاللهِ بنُ رواحةَ- رضي اللهُ عنه-ذاك الحالَ بقولِه:

وفينا رسولُ اللهِ يتلو كتابَه إذا انشقَّ معروفٌ من الفجرِ ساطعُ
أَرانا الهُدى بعد العمَى فقلوبُنا بـه موقِناتٌ أنّ ما قال واقعُ

إن اليقينَ نورٌ متى حَلَّ في القلب أكْسبَه صفاءً يُبْصِرُ به خَطَلَ الضلالِ وظلمتَه، ويُورِثُه ذلك حساسيةً مُرْهَفَةً تُنَفِّرُ عن الباطلِ؛ فلا يَقرَبُ منه، فضلاً

عـن أن يمازجَـه أو يتقبلَـه. واليقيـنُ مـع رِقَّـةِ صفائِـه صلـبٌ ذو رسـوخٍ يَقـوى بـه القلـبُ أيّمـا قـوةٍ، ويَثْبُتُ أمـامَ جَحَافِـلِ الشُّـبَهِ الشَّرِسَـةِ؛ فترجـعُ منكسِـرةً لـم تَظْفـرْ منه بشـيءٍ سـوى زيـادةِ مخزونِ القـوةِ فيه حيـن عـلا عليهـا. وشِيمةُ البُصَـرَاءِ إزاءَ النِّعـمِ الجِـدُّ في طلبهـا، وتقييدُهـا -بَعْـدَ حَوْزِهـا- بزمـامِ الحفـظِ والشـكرِ؛ وكلمـا عـلا شـأنُ النعمـةِ حَسُـنَ التَّحـوُّطُ في حفظِهـا والزيـادةُ في شـكرِها؛ كيـف إذا كانـت تلـك النعمـةُ اليقيـنَ سـيدَ النعـم وواسـطةَ عِقْدِهـا؟!

عبادَ اللهِ!

إنَّ أعظـمَ خطـرٍ يُهـدِّدُ صفـاءَ اليقيـنِ عاديـاتُ الشُّـبَهِ التـي لا تَنِـي عـن الإجْـلابِ علـى القلـبِ بُغْيـةَ زعزعـةِ يقينِـه؛ إذ هـو الحـارسُ الـذي إنْ ضَعُـفَ عاثـتْ جنـودُ الفَسـادِ في مملكـةِ القلـبِ دون ردعٍ أو مقاومـةٍ تخريبـاً وهدْمـاً، سـيّما وأن لهـذه الشـبهاتِ بَريقـاً ودَهْشَـةً إن وقعـتْ في زمـنِ غلبـةِ الجهـلِ وانحسـارِ العلـمِ وبُـروزِ أئمـةِ الضـلالِ والمنافقيـن عليمـي اللسـانِ ولُبِّسـتْ بشـعارٍ جـذابٍ ومَسْـحةٍ شـرعيةٍ تضليليـةٍ وسَـهُلَ وصولُهـا والوصـولُ إليهـا وتناقلتْهـا القنـواتُ ووسـائلُ التواصـلِ ولـم تقـمْ الكفايـةُ بواجـبِ دَحْضِهـا وإبطالِهـا؛ وذاك مـا يجعـلُ المؤمـنَ يبحـثُ عـن جـادةِ النجـاةِ التـي إنْ سَـلَكَها سَـلِمَ لـه يقينُـه الـذي بـه نجاتُـه. إنّ أعظـمَ أسـبابِ حفـظِ اليقيـنِ وإبقـاءِ صفائِـه إدراكُ العبـدِ ضعفَـه وعجزَه، وأنـه لا غنـى لـه عـن إعانـةِ اللهِ لـه طرفـةَ عيـنٍ؛ وذاك مـا يدعـوه إلـى دوامِ الافتقـارِ إلـى ربِّـه، وإدمـانِ سـؤالِه الهدايـةَ والثبـاتَ عليهـا التـي يلـزمُ كلَّ مسـلمٍ طلبُهـا مـن ربِّـه كلَّ يـومٍ وليلـةٍ سـبعَ عشـرةَ مـرةً. ومـن لازِمِ استشـعارِ الضعـفِ البشـريِّ أمـامَ الشُّـبَهِ الـذي بـه العصمـةُ

منها الابتعادُ عن مواطنِها، وعدمُ الاقترابِ منها، فَضْلاً عن البحثِ عنها، ومتابعةِ أصحابِها، كما قال اللهُ -تعالى-: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وقال رسول اللهِ ﷺ: "مَنْ سَمِعَ بالدجالِ فلينأَ عنه، فواللهِ إن الرجلَ ليأتيه وهو يحسبُ أنه مؤمنٌ فيتبعُه، ممّا يبعثُ به من الشبهاتِ" رواه أبو داودَ وصحَّحه الألبانيُّ. قال مَعْمَرٌ: "كنتُ عند ابنِ طاووسَ في غديرٍ له، إذ أتاه رجلٌ يقال له صالحٌ، يتكلَّمُ في القَدَرِ، فتكلَّمَ بشيءٍ منه، فأدخلَ ابنُ طاووسَ أصبعيْه في أذنيْه وقال لابنِه: أدخلْ أصبعيك في أذنيك واشْدُدْ؛ حتى لا تسمعَ من قولِه شيئًا؛ فإنَّ القلبَ ضعيفٌ". وأمّا إنِ اغْتَرَّ العبدُ بحالِه وعِصمتِه، فخاضَ لُجَّةَ الشُّبَهِ، وقَلَّبَ نظرَه بين سطورِها ومواقعِها وقنواتِها، وأرخى سمعَه لأهلها؛ فإنّ اللهَ يَكِلُهُ لنفسه؛ فسريعًا ما يَتداعى بناؤه، ويَتهاوى في حَمْأَةِ الشُّبهاتِ قلبُه، قال سفيانُ الثوريُّ: "مَنْ أَصْغى بسمعِه إلى صاحبِ بدعةٍ خرجَ مِن عِصمةِ اللهِ؛ وَوُكِلَ إلى نفسه". قال ابنُ الجوزيِّ: "ما رأيتُ أعظمَ فتنةً مِن مقاربةِ الفتنةِ، وقلَّ أن يقاربَها إلا مَن يقعُ فيها، ومَن حَامَ حول الحِمى يُوشِكُ أن يقعَ فيه". قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ: "فهذه المحنُ والفتنُ إذا لم يطلبْها المرءُ، ولم يتعرضْ لها، بل ابْتُليَ بها ابتداءً أعانه اللهُ -تعالى- عليها بحسبِ حالِ ذلك العبدِ عنده؛ لأنه لم يكن منه في طلبِها فعلٌ ولا قَصْدٌ؛ حتى يكونَ ذلك ذنبًا يُعاقَبُ عليه، ولا كان منه كِبْرٌ واختيالٌ مِثْلُ دعوى قوةٍ، أو ظَنِّ كفايةٍ بنفسه حتى يُخذَلَ بتركِ توكُّلِه ويُوكَلَ إلى نفسه، فإنَّ العبدَ يُؤْتَى مِنْ تَرْكِ ما أُمِرَ به". قال ابنُ بطَّةَ العَكْبُرِي: "فاللهَ اللهَ

معشرَ المسلمين! لا يَحْمِلَنَّ أحداً منكم حُسْنُ ظَنِّه بنفسه! وما عَهِدَه مِن معرفتِه بصحةِ مذهبِه على المخاطرةِ بدينِه في مُجالسةِ بعضِ أهلِ هذه الأهواءِ! فيقولَ: أُداخِلُه لأناظرَه، أو لأستخرجَ منه مذهبَه؛ فإنهم أشدُّ فتنةً مِن الدَّجالِ،وكلامُهم ألصقُ من الجَرَبِ، وأحْرَقُ للقلوبِ من اللَّهبِ. ولقد رأيتُ جماعةً من الناسِ كانوا يلعنونهم، ويسبُّونهم، فجالسوهم على سبيلِ الإنكارِ والردِّ عليهم، فما زالتْ بهم المُباسطةُ وخفيُّ المَكْرِ ودقيقُ الكفرِ حتى صَبَوْا إليهم". وإنْ عَجَبٌ فَعَجَبٌ حالُ أولئك الذين تقحَّموا مواطنَ الشُّبَهِ حباً للاستطلاع ومعرفةِ ما لدى أصحابِها زاعمين تحصُّنَهم وعدمَ تأثُّرِهم، بينما يُرَوْنَ مُتَّخذين أشدَّ إجراءاتِ التَّحَرُّزِ التي تقرُبُ من الوسْوسةِ مِن مخالطةِ ذَوي المرضِ المعدي، وغِشيانِ الأماكنِ التي مَرُّوا عليها، وتَرْكِ ما مَسَّتْه أيديهم، فضلاً عن مُخالطتِهم، وما عَلِموا أنَّ سلامةَ يقينِ قلوبِهم أولى بالرعايةِ والوقايةِ من سلامةِ أبدانِهم؛ إذ هو مَعْقِدُ النجاةِ يومَ الدِّين؛ ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أما بعدُ، فاعلموا أنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنون!

رُبَّما عَرَضَتِ الشبهةُ على القلبِ دون أن يَتَعَرَّضَ لها؛ فِتنةً واختباراً، ومِن خيرِ ما تُدفعُ به إن عَرَضَتْ الانتهاءُ والإعراضُ، وألا يقفَ المؤمنُ عندها، وأن يَلْهَجَ بإظهارِ لفْظِ الإيمانِ والاستعاذةِ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ واستشعارِ معناهما، قال رسولُ اللهِ ﷺ: "يأتي الشيطانُ أحدَكم فيقولُ: مَنْ خَلَقَ كذا وكذا؟ حتى يقولَ له: مَن خَلَقَ ربَّك؟ فإذا بلغ ذلك، فليستعذْ بالله، وليَنْتَهِ" رواه مسلمٌ، وقال ﷺ: "لا يزالُ الناسُ يتساءلون حتى يُقال: هذا خَلْقُ اللهِ الخَلْقَ، فمَن خَلَقَ اللهَ؟ فمَن وجدَ مِن ذلك شيئًا، فليقلْ: آمنتُ بالله" رواه مسلمٌ. والمبادرةُ بإزالةِ الشبهةِ مِن حين تَعْلَقُ بالقلبِ بسؤالِ أهلِ العلمِ الراسخين عن كَشْفِها مما يجبُ الاهتمامُ به؛ حتى لا تتراكمَ الشبهةُ وتُفْسِدَ القلبَ أو تُورِثَه الحيرةَ والاضطرابَ؛ إذ هي كالسُّوسِ النَّاخِرِ جِذْعَ الشجرِ الباسقِ، فإنْ تُرِكَ تَمَادَى في نخْرِه حتى تَسقطَ، وإنْ كُوفِحَ وطُرِدَ سلِمتْ تلك الشجرةُ. وإن لم يجدْ من يجلِّيها له؛ فليوقِنْ ببطلانِها وإن لم يهتدِ لدَحْضِها؛ فذاك ممّا يُحْفَظُ به اليقينُ، قال الأوزاعيُّ: "قَدِمَ علينا غَيْلَانُ القدريُّ في خلافةِ هشامِ بنِ عبدِالملكِ، فتكلَّمَ غيلانُ – وكان رجلاً مُفَوَّهًا –، فلما فَرَغَ مِن كلامِه

قال لحسان بنِ عطيةَ: ما تقولُ فيما سمعتَ من كلامي؟ فقال له حسانُ: يا غيلانَ، إن يكنْ لساني يَكِلُّ عن جوابِك؛ فإنَّ قلبيَ يُنْكِرُ ما تقولُ، وإنَّا لَنَعرفُ باطلَ ما تأتي به ". ومِن خيرِ ما تُدْفَعُ به الشُّبَهُ، ويَسلمُ به اليقينُ ما أوصى به شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ تلميذَه ابنَ القيمِ في التعاملِ مع الشُّبَهِ، قال ابنُ القيمِ: " قال لي شيخُ الاسلامِ -رضي اللهُ عنه- وقد جعلتُ أُورِدُ عليه إيراداً بعد إيرادٍ: لا تجعلْ قلبَك للإيراداتِ والشبهاتِ مِثْلَ الإسفنجةِ؛ فيَتشرَّبَها، فلا يَنْضَحُ إلا بها، ولكن اجعلْهُ كالزجاجةِ المُصْمَتَةِ؛ تَمُرُّ الشبهاتُ بظاهرِها، ولا تستقرُّ فيها؛ فيراها بصفائِه، ويدفعُها بصلابتِه، وإلا فإذا أُشْرِبَ قلبُك كلَّ شبهةٍ تَمُرُّ عليه صار مَقَراً للشبهاتِ، أو كما قال. فما أعلمُ أنّي انتفعتُ بوصيةٍ في دفْعِ الشُّبهاتِ كانتفاعي بذلك".

ورثةُ الصّفَويّة

إنّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالنا، مَن يهدِه الله فلا مضلَّ له، ومَن يضللْ فلا هاديَ له،وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريك له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ...﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ...﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ ...﴾.

أيّها المؤمنون!

التاريخُ شاهدُ صدقٍ لا يكذبُ، ومرآةُ حدثٍ محايدةٍ، تتشابهُ فيه مضامينُ الأحداثِ؛ وتتقاربُ النتائجُ وإن اختلفَ الأشخاصُ وتناءتِ الأقطارُ. فمَن وعى التاريخَ بَعُد نظرُه، ودقتْ رؤيتُه، ونضجَ رأيُه، وكثرَ اعتبارُه، وأضافَ إلى عمرِه سنيَّ مَن سَبرَ تاريخَهم، ورأى الأحداثَ بمشهدِ الحقائقِ والعواقبِ لا بمرآةِ المظاهرِ والمقدماتِ.

بصيرٌ بأعقابِ الأمورِ كأنّما يرى بصوابِ الرأيِ ما هو واقعُ

ولهذا أمرَ اللهُ — سبحانه — بالنّظرِ في حالِ سالفِ الأممِ وصرمِ الأيام، فقال: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ

عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾، وقال: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾.

إخوةَ العقيدة!

من أجلّ عِبرِ التاريخ بيانُ الأعداءِ، وكشفُ كيدِهم، وفضحُ وارثِهم؛ إذْ لكلِّ قوم وارثٌ؛ فلا تُلدَغُ الأمةُ به كما نُكيتْ بسالِفه. هذا وإنّ من أشدِّ الناسِ عداوةً لأمةِ الإسلامِ على مرّ التاريخِ الصفويين الذين اتّخذوا التشيُّعَ وحبَّ آلِ البيتِ غطاءً في حربِ الإسلامِ والقضاءِ على أهلِه. فقد قامتْ دولةُ الصفويينَ على يدِ مؤسِّسها إسماعيلَ بنِ حيدر الصفويِّ سنةَ تِسعمائة وسبعةٍ للهجرةِ بعد حشدِ أتباعٍ وإحداثِ ثوراتٍ ومعاركَ تحت شعارِ الإسلامِ ورفعِ الظلمِ عن المضطَّهدين ومحبةِ آلِ البيت. ولمّا تهيأ المُلكُ له تغيرتِ الأمورُ وأَعلن مذهبَ الرافضةِ مذهباً عامّاً للبلادِ، ومَن أبى الدخولَ فيه فهو ناصبيٌّ يستحقُّ القتلَ، وقال قولتَه المشهورةَ حين حُذِّر من جبرِ الناسِ على التشيّعِ: " إنني لا أخافُ من أحدٍ؛ إنْ تنطقِ الرعيَّةُ بحرفٍ واحدٍ فسوف امتشقُ الحُسامَ ولن أتركَ أحداً على قيد الحياة ". ففرضَ التشيُّعَ على أهلِها قسراً بالقتلِ الجماعيِّ والتعذيبِ وانتهاكِ الأعراضِ؛ وانتشر المذهبُ الإماميُّ الإثنا عشريُّ في ذلك المجتمعِ بعد أنْ كان مجتمعاً يدينُ غالبُ أهله بالسُّنةِ، وكانت المحكّمةُ فيه طيلةَ تسعةِ قرونٍ. وأَدخلَ ذلك الطاغيةُ وذريتُه الحاكمةُ من بعده في بدعةِ التّشيُّعِ ما ليس منها؛ فأوغلوا في الابتداعِ حتى انتهَوْا إلى الكفرِ الصُّراحِ؛ فهمُ الذين أَمروا بسبِّ الصّحابةِ والخلفاءِ الثلاثةِ الراشدين أبي بكرٍ وعمرَ وعثمانَ — رضي اللهُ عنهم -، وإظهارِ ذلك في المنابرِ والشوارعِ، وهم الذين

ابتَدَعوا الاحتفالَ بيومِ مَقْتلِ الحسينِ بنِ عليٍّ — رضي اللهُ عنهما — في العاشرِ من شهرِ مُحرّمَ وممارسةَ التطبيرِ فيه باللّطمِ والضربِ بالأيدي والحديدِ وارتداءِ السوادِ والنياحةَ بأشعارِ البُكَائياتِ، وهم الذين أدخلوا الشهادةَ بولايةِ عليٍّ — رضي اللهُ عنه — في الأذانِ، ونقشوه على عملتِهم النقديّةِ، وهم الذين أسّسوا الخُمسَ الذي يُدفعُ لرجالِ الدينِ الشِّيعةِ من قِبلِ العامّةِ، وهم الذين أجازوا سجودَ الإنسانِ للإنسانِ، وابتدعوا السجودَ على التربةِ الحُسيْنيّةِ التي تُجلبُ من كربلاءَ، وأظهروا تقديسَ الأئمةِ الإثنيْ عشرَ وعِصمتَهم، والقولَ بتحريفِ القرآنِ، وأحدثوا ما يُسمى بالحجّ إلى مراقدِ الأئمةِ أضرحتِهم بالذهبِ والفضةِ، بل وعظّموا قبرَ أبي لؤلؤةَ المجوسيّ قاتلِ الفاروقِ - رضي اللهُ عنه-، وجعلوا من ضريحِه مَزارًا إلى يومِنا هذا.

أيّها المؤمنون!

اتّخذتِ الدولةُ الصفويةُ من خُراسانَ مقراً، واختطتْ مدينةَ تِبريزَ عاصمةً لها، وبدؤوا في سياسةِ التّوسُّع القمعيّ في ظل انشغالِ الدولةِ العثمانيةِ بحربِ الصليبيين، حتى انتهى ملكُهُم إلى العراقِ بعد أنِ ارتكبوا فيه الفظائعَ؛ إذْ قتلوا فيه ما يَزيدُ عن مليونِ سنيٍّ دون تفريقٍ بين كبيرٍ وصغيرٍ وذكرٍ وأنثى، واغتصَبوا النساءَ، وعذّبوا العزّلَ، ونبَشوا قبورَ بعضِ العلماءِ وأحرقوا عظامَهم، وهدموا المساجدَ ودورَ العلمِ وجعلوها اصْطبلاتٍ لخيولِهم ودوابّهم؛ حتى قال بعضُ مؤرخي الشيعةِ عن إسماعيلَ الصفويّ: "كان قاسيًا متعطّشًا للدماءِ إلى حدٍّ لا يكاد يُوصفُ"، ولحِق المسلمين بذلك نكبةٌ لا يُقادَرُ قدرُها. وعندما وصلتْ

أخبارُ المجازرِ الصفويّةِ إلى السلطان العثمانيّ سليمِ الأوّلِ قام بتجهيزِ جيشِه، واتّجه به إلى بغدادَ، فحرّرها بعد ستِّ سنواتٍ من الاحتلالِ الصفويّ. وبدأت الحربُ بين الدولةِ العثمانيّةِ والصّفويّةِ واستمرت قرابةَ مائتين وخمسين سنةً؛ إذْ تمّ بها القضاءُ على الدولةِ الصفويةِ عام ثمانيةٍ وأربعينَ ومائةٍ وألفٍ للهجرة. وكانت تلك الحروبُ من أبرز أسبابِ ضعفِ الدولة العثمانية وسقوطِها؛ فقد كان من خيانة الصفويين لأهلِ الإسلامِ تواطُؤهم مع عُداتِه الصليبين، والتمكينُ لهم، ومعونتُهم في طعنِ خاصرةِ المسلمين واستباحةِ بَيْضَتِهم، وتعويقِهم الفتوحاتِ الإسلاميّةِ؛ حتى قال أحدُ ساسةِ الصليبيينَ إذْ ذاك: "إن ظهورَ الصفويينَ قد حال بيننا وبين التّهلُكةِ". يقولُ شيخُ الإسلام: "وَدَعْ مَا يُسْمَعُ وَيُنْقَلُ عَمَّنْ خَلَا، وَلْيَنْظُرْ كُلُّ عَاقِلٍ فِيمَا يَحْدُثُ فِي زَمَانِهِ، وَمَا يَقْرُبُ مِنْ زَمَانِهِ مِنَ الْفِتَنِ وَالشُّرُورِ وَالْفَسَادِ فِي الْإِسْلَامِ، فَإِنَّهُ يَجِدُ مُعْظَمَ ذَلِكَ مِنْ قِبَلِ الرَّافِضَةِ، وَتَجِدُهُمْ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ فِتَنًا وَشَرًّا، وَأَنَّهُمْ لَا يَقْعُدُونَ عَمَّا يُمْكِنُهُمْ مِنَ الْفِتَنِ وَالشَّرِّ وَإِيقَاعِ الْفَسَادِ بَيْنَ الْأُمَّةِ". وبذلك يتبينُ — أيّها الإخوةُ — أن الحكمَ الصفويَّ قد تميّزَ بثلاثِ خَزايا مُهلكةٍ: الغلوِّ في التشيع اعتقاداً ونشراً، وبغضِ السنةِ والنكايةِ بأهلِها، ومُظاهرةِ أعداءِ الإسلام من الصليبينَ وغيرِهم على أهل الإسلام. وهكذا أضحتِ الدولةُ الصفويةُ مثلاً يُحتذَى به في قمعالسنّة ونشرِ التشيُّعِ وفرضِه بسلطانِ الدولةِ وثرواتِها. وظلّ إرجاعُ سَهامِها[1] البائدِ حلماً يراودُ فكرَ سودِ الكبودِ من ورثةِ الصفويّةِ

(١) السَّهام: وهج الصيف وغبراته.

الفارسيَّةِ حتى كانت الثورةُ الخُمينيَّةُ التي حكمتْ إيرانَ منذُ سنةِ تسعٍ وسبعين وتِسْعِمائةٍ وألفٍ من الميلاد؛ إذِ انتهجَتْ هدفَ الصّفويَّةِ المتمثلَ في إخراج أهلِ السنّةِ من دينِهم أو إضعافِهم إن لم يمكنِ القضاءُ عليهم، ومارسوا ذلك الأسلوبَ الذي مارسه الصفويون بنشر خُزعبلاتِهم والدّعوةِ إلى التشيُّع ونشرِه في الآفاق سيّما في البلادِ الفقيرة والبلادِ التي تعاني من ضعفِ انتشارِ السنّة، والتآمرِ مع الكفرةِ في إسقاطِ الحكوماتِ السنيّة وإحداثِ القلاقلِ في بلدانها، والعيثِ في أراضيها التي يتمكّنون منها فساداً؛ وقتلاً، وترويعاً، واغتصاباً — وسوريا والعراق والأحوازُ ولبنان واليمنُ خيرُ شاهدٍ على ذلك -. كلُّ هذا بُغيةَ السيطرةِ التامّة على أمة الإسلام وأوطانِها وشعوبِها ومقدّراتِها، واستعادةِ أمجاد الإمبراطوريّة الفارسيَّة الآفلةِ على أيدي العرب والمسلمين منذُ مرحلةِ صدرِ الإسلام، بعد أن فرضوا على شعبِهم ثقافةَ الفُرسِ ومسمَّياتِهم ولغتِهم؛ تذكيراً لألَقِهم، وإرهاصاً لعودتِهم.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ حقَّ حمدِه، والصلاةُ والسلامُ على رسولِه وعبدِه.
وبعد، فاعلموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله...

أيّها المسلمون!

إنّ النبيَّ ﷺ قد بشّر أمّتَه بزوالِ دولةِ الفرسِ وعدم قائمتِها وسيادتِها في العالم حين قال: «إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلاَ كِسْرَى بَعْدَهُ، وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرُ فَلاَ قَيْصَرَ بَعْدَهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَتُنْفَقَنَّ كُنُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» رواه البخاريُّ ومسلمٌ. قال النوويُّ: "قال الشافعيُّ وسائرُ العلماءِ: معناه: لا يكونُ كسرى بالعراقِ ولا قيصرُ بِالشَّام كَمَا كَانَ فِي زَمَنِهِ ﷺ؛ فَعَلَّمَنَا ﷺبِانْقِطَاعِ مُلْكِهِمَا فِي هَذَيْنِ الْإِقْلِيمَيْنِ، فَكَانَ كَمَا قَالَ ﷺ؛ فَأَمَّا كِسْرَى فَانْقَطَعَ مُلْكُهُ وَزَالَ بِالْكُلِّيَّةِ مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ وَتَمَزَّقَ مُلْكُهُ كُلَّ مُمَزَّقٍ وَاضْمَحَلَّ بِدَعْوَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَمَّا قَيْصَرُ فَانْهَزَمَ مِنَ الشَّامِ وَدَخَلَ أَقَاصِي بِلَادِهِ فَافْتَتَحَ الْمُسْلِمُونَ بِلَادَهُمَا وَاسْتَقَرَّتْ لِلْمُسْلِمِينَ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ". ولَعَمرُ الله! إن تلك البشارةِ النبويّة لهي أكبرُ حافزٍ للمؤمنينَ في مُقاومة المشروعِ الصفويّ؛ لمعرفةِ مآلِه الذي سيصيرُ إليه. وذلك يُوجبُ على المسلمين – قادةً ورعيةً – الاجتماعَ على السُّنَّةِ وإعزازَها وعدمَ التفرُّقِ عليها، والتنبُّهَ لمكائد الصفويّة، وعدمَ الانخداعِ ببهرجِ قولهم واتخاذِهم بطانةً من دونِ المؤمنين، ومتاركةَ التقاربِ معهم، وفضحَ مخططاتِهم، وبيانَ حقيقتِهم، وإبطالَ شُبهِهم وخُزعبلاتهم، والسعيَ الدؤوبَ

فـي نشـرِ السـنةِ فـي أصْقـاعِ المعمـورةِ وتوعيـةِ أهلِهـا، ودعمِهـم بـكلِّ وسـيلةٍ فـي مقاومـةِ المـدِّ الصفـويِّ، ووقـفِ عدوانِـه. وفـي حـال التخـاذُلِ عـن هـذا الواجـبِ فـإنّ الخَطْـبَ فـادحٌ، والنتائـجَ وخيمـةٌ، والتاريـخُ شـاهدٌ بذلـك، والواقـعُ يصدّقُـه.

توقيرُ اليمينِ

الحمدُ للهِ ذي العظمةِ والكبرياءِ، والمجدِ والحياءِ، جاعلِ النورِ والظَّلماءِ، ومالكِ الإماتةِ والإحياءِ. وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له في الأرضِ ولا في السماءِ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه إمامُ الحنفاءِ، صلى اللهُ وسلمَ عليهِ وعلى آلِه وصحبِهِ الأوفياءِ.

أمَّا بعدُ، فاتّقوا اللهَ — عبادَ اللهِ -، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ...﴾.

أيُّها المؤمنونَ!

التعظيمُ عمادٌ في الدينِ، وسياجٌ يحوطُ الإيمانَ، وخيريَّةٌ للعبدِ عند ربِّه، ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ﴾، ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾. ألا وإنَّ ممّا عظّمه الشرعُ وأمرَ بتعظيمِه الأيْمانَ التي بها يُحقَّقُ الأمرُ أو يُؤكَّدُ بذكرِ اسمِ اللهِ — سبحانه — أو صفةٍ من صفاتِه؛ فقد جعلَها اللهُ سبيلاً لإثباتِ الحقوقِ، ورفْعِ المظالمِ، ودفْعِ الرِّيَبِ، وسبباً مشروعاً في استباحةِ المالِ والدماءِ إنْ حكمَ بها القضاءُ، وموْثقاً غليظاً في الاستيثاقِ. ولا يمكنُ تعظيمُ هذه الأيمانِ وتوقيرُها إلا بفقْهِها ولزومِ حُكمِ الشِّريعةِ فيها؛ فذاكَ تعظيمُ مَن عظّمها وأمرَ بتعظيمِها — سبحانَه-.

عبادَ اللهِ!

إنَّ أعظمَ تعظيمٍ لليَمينِ أن تُصانَ عن الحَلِفِ بغيرِ اللهِ؛ إذِ اليَمينُ تعظيمٌ لا

يكونُ إلا للهِ؛ فكيف يُصرَف إلى ما دونِه؟! يقولُ النبيُّ ﷺ: "مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ، فقد أشركَ" رواه أبو داودَ وصحَّحه ابنُ حِبانَ. وذاكَ ما جعل النبيَّ ﷺ يتبرأُ من صاحبِها وإنْ حلفَ بما يتفقُّ الناسُ على استحسانِه في قولِه: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ حَلَفَ بِالْأَمَانَةِ» رواه الحاكمُ وصحَّحه ووافقَهُ الذهبيُّ. بل إنَّ إثْمَ الكذبِ في اليَمينِ باللهِ على شدَّةِ وِزرِهِ أخفُّ من اليمينِ الصَّادقةِ بغيرِه، قال عبدُالله بنُ مسعودٍ — رضيَ اللهُ عنه -: "لِأَنْ أَحْلِفَ بِاللهِ كَاذِبًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ صَادِقًا" رواه عبدُالرزَّاقِ. وصوْنُ اليمينِ على الابتذالِ والكثرةِ من تعظيمِها، كما قال اللهُ — تعالى —: ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾؛ فإنَّ في الإكثارِ تخفيفاً للمهابةِ، وإدناءً للحنْث وعدمِ البِرِّ. وقد كانتِ العربُ في جاهليَّتِها تمتدحُ الإقلالَ في اليَمينِ؛ حتى قالَ قائلُهم:

قَلِيلُ الْأَلَايَا حَافِظٌ لِيَمِينِهِ وَإِنْ صَدَرَتْ مِنْهُ الْأَلِيَّةُ بَرَّتْ

والوفاءُ باليمينِ البارّةِ من سُبل تعظيمِها؛ فما فَوْدُ عقدٍ معظَّمٍ لا يوفَّى به؟! ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾. ولا يُتركُ الوفاءُ فيها إلا لِما هو خيرٌ كما قالَ اللهُ — تعالى -: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾، ويقولُ النبيُّ ﷺ: «إنِّي واللهِ - إنْ شاءَ اللهُ - لا أحلفُ على يَمينٍ، فأرى غيرَها خيراً منها، إلا كفّرتُ عن يميني، وأتيتُ الذي هو خيرٌ » رواه البخاريُّ ومسلمٌ. والصدقُ في اليمينِ من تعظيمِها؛ إذِ الكذبُ قحَّةٌ في عَرَضِ الحديثِ؛ فكيفَ بالعهدِ الموثّقِ باللهِ؟! وصونِ الأيْمانِ التي وردَ

الشَّرعُ بتغليظِها من أعظمِ التعظيم. ومِن أعظمِ تلكَ الأيمانِ اليمينُ الغَموسُ الصابِرةُ التي يحلفُ عليها الفاجرُ كذباً وزوراً؛ ليأخذَ ما لا يحلُّ له أخْذُه، أو يمنعَ ما لا يحلُّ له منعُه. فتلك اليمينُ الظالمةُ لا تقبلُ التَّوْريَةَ، ولا يُجدِي معها التأويلُ بإجماعِ أهلِ العلمِ، كما قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «يمينُك على ما يصدِّقُكَ عليه صاحبُك» رواه مسلمٌ. قال الإمامُ النوويُّ: "هذا الحديثُ محمولٌ على الحلِفِ باستحلافِ القاضِي؛ فإذا ادَّعى رجلٌ على رجلٍ حقاً، فحلَّفَه القاضي، فحلفَ وورّى؛ فنَوى غيرَ ما نوَى القاضي - انعقدتْ يمينُه على ما نواهُ القاضي، ولا تنفعُه التوريةُ. وهذا مجمَعٌ عليه". ولَعَمرُ اللهِ! إنَّ تلك اليمينَ شؤمٌ من البلاءِ ماحقٌ، وغضبٌ من الجبَّارِ سابقٌ، ونُزُلٌ من النارِ لاحقٌ، يقولُ النبيُّ ﷺ: "اليمينُ الفاجرةُ تدعُ الديارَ بَلاقِعَ" رواه البيهقيُّ وصحَّحه الألبانيُّ، قال ابنُ الأثيرِ: "يريدُ: أنَّ الحالفَ بها يَفتقِرُ، ويذهبُ ما في بيتِه من الرِّزقِ. وقيل: هو أنْ يفرّقَ اللهُ شملَه، ويغيّرَ عليه ما أوْلاهُ من نِعمِه". وقد قصَّ الشيخُ محمدُ بنُ عثيْمينَ خبرَ رجلٍ جحدَ مالَ رجلٍ، فاشْتكاهُ للقاضي، ولم تكنْ له بيِّنةٌ، فطلبَ يمينَه على إنكارِه، فحلّفَهُ القاضي وحلفَ اليمينَ الغَموسَ، فلما خرجَ من مجلسِ الحكمِ، تعثَّرَ في مشيِه وسقطَ ميِّتاً. يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَن حلفَ على يمينِ صَبْرٍ، يقتطعُ بها مالَ امرئٍ مسلمٍ هو فيها فاجرٌ، لقيَ اللهَ وهو عليه غضبانٌ» رواه مسلمٌ، ويقولُ: «من اقتطعَ حقَّ امرئٍ مسلمٍ بيمينِه، فقد أوجبَ اللهُ له النارَ، وحرّم عليه الجنةَ»، فقال له رجلٌ: وإنْ كان شيئا يسيراً يا رسولَ اللهِ؟ قال: «وإنْ قضيباً من أرَاكٍ» رواه مسلمٌ. ومن تلك الأيمانِ المعظّمةِ اليمينُ عند منبَرِ رسولِ اللهِ ﷺ، فقد قال: «لا يحلفُ أحدٌ عند منبري

هـذا، علـى يميـنٍ آثمـةٍ، ولـو علـى سـواكٍ أخضـرَ، إلا تبـوّأ مقعـدَه مـن النـارِ - أو وجبـتْ لـه النـارُ -» رواه أبـو داودَ وصحَّحـه الحاكـمُ ووافقـه الذهبـيُّ. ومـن تلـك الأيمـانِ اليميـنُ التي تكـونُ وقـتَ العصـرِ، كمـا قـال النبـيُّ ﷺ: "ثلاثـةٌ لا يكلمُهـمُ اللهُ يـومَ القيامـةِ، ولا ينظـرُ إليهـم"، وذكـرَ منهـم: "ورجـلٌ حلـفَ علـى يميـنٍ كاذبـةٍ بعـد العصـرِ؛ ليقتطـعَ بهـا مـالَ رجـلٍ مسـلمٍ" رواه البخـاريُّ ومسـلمٌ.

عبادَ اللهِ!

وإبـرارُ قسَـمِ المسلمِ بفعـلِ غيـرِ مـا حلـفَ عليـه فيمـا ليـسَ بمعصيـةٍ ولا يكـونُ مشـقةً مـن تعظيـمِ اليميـنِ وأداءِ حـقِّ الأخـوةِ، كمـا قـال البـراءُ بـنُ عـازبٍ — رضـيَ اللهُ عنـه -: "أمرَنَـا النبـيُّ ﷺ بإبـرارِ المُقسِـمِ" رواه البخـاريُّ. ومـن تعظيـمِ اليميـنِ تصديـقُ الحالـفِ إذا لـمْ يبِـنْ كذبُـه، كمـا قـال النبـيُّ ﷺ: "مَـنْ حُلِـفَ لَـهُ بِـاللهِ فَلْيَرْضَ، وَمَـنْ لَـمْ يَـرْضَ بِـاللهِ فَلَيْسَ مِـنَ اللهِ" رواه ابـنُ ماجـه و حسّـنه ابـنُ حَجَـرٍ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على رسولِ اللهِ.

وبعدُ، فاعلمُوا أنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيُّها المؤمنونَ!

ومنْ تعظيمِ اليمينِ التكفيرُ عنها حالَ الحنْثِ، كما قالَ اللهُ — تعالى -: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ﴾. وإنَّما تكونُ الكفَّارةُ في اليمينِ المنعَقدةِ على فعلِ أمرٍ أو تركِهِ في المستقْبلِ. وأمَّا غيرُ المُنعقدةِ، وهي اللّغوُ التي تجري على اللسانِ دونَ قصْدٍ، أو كانتْ على أمرٍ كان يظنُّه الحالفُ صحيحاً فبان خطأً، أو كانَ قد استثْنى في يمينِه قائلاً فيها: "إنْ شاءَ اللهُ" — فإنّ ذلكَ كلَّه لا كفارةَ فيه. والكفارةُ محدَّدةٌ مرتَّبةٌ شرعاً في خِصالٍ أربعٍ؛ ثلاثٍ مخيَّرٍ فيها، فإن لم يستطِعْ انتقلَ إلى الرابعةِ. والثلاثُ المخيّرُ فيها هي: إطعامُ عشَرةِ مساكينَ بأنْ يُطعمَ أو يُعطَى كلُّ مسكينٍ ما يكْفيهِ غذاءً أو عشاءً، سواءً كان نيِّئا أو مطبوخاً، وقد حدّه بعضُ العلماءِ بكيلُو ونصفٍ من الطَّعامِ الغالبِ في البلدِ. أو كِسوةُ هؤلاءِ العشَرةِ لكلِّ واحدٍ ثوباً، أو عتقُ رقبةٍ مؤمنةٍ. فمَنْ لم يستطِعْ على واحدةٍ منها فإنَّه يصومُ ثلاثةَ أيَّامٍ متتابعةٍ. تلكَ كفَّارةُ اليمينِ، سواءً كانتْ

يمينـًا واحدةً، أو أيمانـًا متعـدِّدةً في موضـوعٍ واحـدٍ وأمّـا إنِ اختلفَ موضوعُها، فلكلِّ يمينٍ كفَّارةٌ. وإنْ ماتَ ولم يكفِّرْ كفَّرَ عنه وليُّه من تركةِ المتوفَى، وإنْ تبرَّعَ جازَ. وثَمّةَ كفَّارةٌ لِمَن حلفَ بغيرِ اللهِ، أرشدَ إليها النبيُّ ﷺ في قولِه: "مَن حلفَ فقالَ في حَلفِه: والَّلاتِ والعُزَّى، فليقلْ: لا إلهَ إلا اللهُ، ومَن قالَ لصاحبِه: تعالَ أُقمرْكَ، فلْيتصدَّقْ" رواه البخاريُّ ومسلمٌ.

وبعدُ — معشَرَ الإخوةِ — هكذا تُعّظَّمُ الأيمانُ وتُحفظُ وفقَ ما شرعَ اللهُ — سبحانَه -؛ فعظِّموا ما عظَّمهُ، واحفَظُوا أمرَه، واحذرُوا سخَطَه، وافعَلوا الخيرَ؛ لعلكُم تفلِحونَ.

العبادات

قُربةُ الفريضة

إنّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مضلّ له، ومَن يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ...﴾.

أيّها المؤمنونَ!

شرْعُ العباداتِ رحمةٌ من اللهِ سابغةٌ؛ أفاضَها على عبادِه، يتقرّبون بها إليه؛ ليظفَروا بمحبتِه ورضاه؛ فكان ذلك التقرُّبُ وابتغاءُ الوسيلةِ محصوراً فيما أذنَ به الشرعُ، وقام عليه دليلُه. وفاوَتَ سبحانه بين منازلِ تلك القُرَب كما فاوتَ بين أهلِها؛ فكانت تلك القرُباتُ على درجتيْنِ: الفرائضِ وهي أصلُ القرُباتِ وأعظمُها، وفروعٍ هي النوافلُ. وانقسمَ الطائعون بقَدْرِ ما حققّوا من القُرَب؛ فكان منهم المقرّبون السابقون المُداومون على النوافلِ مع حفظِ الفرائضِ، والمُقتصِدون أصحابُ اليمينِ المحافظون على الفرائضِ دونَ النّوافلِ. وإنما عظُمتِ الفرائضُ؛ لمحلّها عند اللهِ حينَ أوجبَها، ورتّب الإثمَ على مُخالفتِها؛ وشرعَ الكفّاراتِ علاجاً لتلك المخالفاتِ دونَ النوافلِ؛ فكان ظهورُ الامتثالِ فيها للأمرِ أجْلى، والتعظيمُ للآمرِ — سبحانَه - فيها أعظمَ، وإظهارُ ذلّ العبوديّةِ فيها أبلغَ؛ فلا صلاحَ للعبدِ ولا للكونِ إلا برعايةِ تلك الفرائضِ التي هي أصلُ

الإسلامِ. قال ابنُ أبي الوردِ: "أصلُ الإسلامِ في هذه الفرائضِ، وهذه الفرائضُ في حرفيْنِ: ما قال اللهُ ورسولُه: افعلْ؛ فهو فريضةٌ ينبغي أنْ يُفعل، وما قال اللهُ ورسولُه: لا تفعلْ؛ فينبغي أنْ يُنتَهى عنه؛ فتركُه فريضةٌ".

أيّها المسلمون!

إنّ الفرائضَ أفضلُ العباداتِ، وأحبُّ القُرباتِ إلى اللهِ، وأعظمُ أسبابِ ولايتِه، كما قال سبحانَه في الحديثِ القدْسيّ: "مَن عادَى لي وليًا فقد آذنتُه بالحربِ، وما تقرّبَ إليّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليّ مما افترضتُ عليه" رواه البخاريّ. قال عمرُ — رضيَ اللهُ عنه -: "أفضلُ الأعمالِ أداءُ ما افترضَ اللهُ". وما دامتِ الفرائضُ أحبَّ العباداتِ إلى اللهِ؛ فهي أسرعُ سبلِ تحقيقِ رضاه وأرْجاها. قال الفُضَيْلُ بنُ عِياضٍ: "لن يتقربَ العبادُ إلى اللهِ بشيءٍ أفضلَ من الفرائضِ؛ الفرائضُ رؤوسُ الأموالِ، والنوافلُ الأرباحُ". ومَن رعَى حقَّ الفرائضِ كان هو المتَّقي حقًا، قال عمرُ بنُ عبدِالعزيزِ: "ليستِ التّقوى قيامَ الليلِ، وصيامَ النّهارِ، والتخليطَ فيما بَيْنَ ذلك، ولكنّ التقوى أداءُ ما افترضَ اللهُ، وتركُ ما حرَّم اللهُ، فإنْ كان مع ذلك عملٌ، فهو خيرٌ إلى خيرٍ"، وسُئل الفُضَيلُ بنُ عِيَاضٍ: ما العبادةُ؟ فقال: "أداءُ الفرائضِ"، وقال أبو عبدِالله الجلاءُ:"مَن حافظَ على الفرائضِ في أوّلِ مواقيتِها؛ فهو عابدٌ". وحفظُ الفرائضِ مفتاحُ الفلاحِ ودخولِ الجنةِ، روى طلحةُ بنُ عبيدِ اللهِ — رضيَ اللهُ عنه - أنّ أعرابيًا جاء إلى رسولِ الله ﷺ ثائرَ الرأسِ، فقال: يا رسولَ اللهِ، أخبرْني ماذا فرضَ اللهُ عليّ من الصلاةِ؟ فقال: «الصلواتِ الخمْسِ إلا أن تطّوّع شيئًا»، فقال: أخبرْني ما فرضَ

اللهُ عليّ من الصيامِ؟ فقال: « شهرِ رمضانَ إلّا أن تطّوّع شيئًا »، فقال: أخبرْني بما فرضَ اللهُ عليّ من الزّكاةِ؟ فقال: فأخبرَه رسولُ اللهِ ﷺ شرائعَ الإسلامِ، قال: والذي أكرمَك، لا أتطوّعُ شيئًا، ولا أنقُصُ ممّا فرضَ اللهُ عليّ شيئًا، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «أفلحَ إنْ صدقَ، أو دخلَ الجنةَ إنْ صدقَ» رواه البخاريّ. قال السري السقطيُّ: "من أدّى الفرائضَ، واجتنبَ المحارمَ، وشَكَرَ النّعمةَ عنده؛ فما لأحدٍ عليه سبيلٌ". وبمحافظةِ العبدِ على الفرائضِ يُعانُ على النّوافلِ، قال مُقاتلٌ في قولِه عزّ وجلّ: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾: " استعينوا على طلبِ الآخرةِ بالصبرِ على الفرائضِ والصّلاةِ". وسُئل ذو النونِ: ما لنا لا نقْوَى على النّوافلِ؟ قال: لأنّكم لا تُصِحُّون الفرائضَ. وبالمحافظةِ على الفرائضِ يُرزقُ العبدُ الصبرَ، وتهونُ عليه المصائبُ، قال الضحّاكُ في قول اللهِ — تعالى-: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾، قال: "هي لِمَن أخذَ بالتّقوى، وأدّى الفرائضَ". ورعايةُ الفرائضَ انضباطٌ يتربّى به العبدُ على الالتزامِ بالمشروعِ، وتكونُ حائلاً مَنيعًا دونَ غشيانِ الحُرُماتِ؛ وذاك سبيلُ الوَرَعِ، الذي ما صان عبدٌ دينَه بمثلِه. قال سفيانُ الثوريُّ: "أَوْلى الفرائضِ الانتهاءُ عن الحرامِ والمظالمِ"، وقال مهديُّ بنُ ميمونٍ: كان أبو صادقٍ لا يتطوّعُ من السّنَّةِ، ولا يصلِّي غيرَ الفريضةِ، ولا يصومُ يومًا واحداً غيرَ شهرِ رمضانَ، وكان به من الوَرَع شيءٌ عجيبٌ. ورعايةُ الفرائضِ من أرْجى أسبابِ حُسنِ الخاتمةِ، قال عطاءُ بنُ السائبِ: دخلْنا على أبي عبدِالرحمنِ السُّلَميّ عند موتِه، فقال: إنّي لأرجو ربِّي وقد صمْتُ ثمانينَ رمضانَ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أمّا بعدُ، فاعلمُوا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

إذا كانَ هذا قدْرُ الفريضةِ في ميزانِ اللهِ وشرعِه؛ فحقُّها جديرٌ بالرّعْيِ والحفايةِ؛ من الاهتمامِ بإدراكِ أهميتِها، وتعلّم فضائلِها، وفقهِ أحكامِها، ورجاءِ قَبولِها، وترتيبِ أولويّتِها سيّما عند العجزِ أو الازدحامِ. ولا يزالُ استشعارُ الاهتمامِ بالفريضةِ يحدُو العبدَ على إتقانِها بحضورِ قلبه أثناءَ أدائها، واستحضارِ نظرِ اللهِ إليه وهو يتقرّبُ إليه بأحبِّ الأعمالِ لديه، ويختمُها متيقناً بعدمِ وفائها حقَّها بالاستغفارِ واستذكارِ نعمةِ اللهِ عليه حينَ هداهُ لها وأعانَه عليها، ويرجوه أنْ كما هداه لها وأعانَه عليها أنْ يتقبّلَها منه؛ كرماً وفضلاً؛ فالخيرُ منه ابتداءً وانتهاءً وإيجاداً وإمداداً، ويحرصُ على جبرِ نُقصَانِ الفريضةِ بما شُرِعَ من نوافلِ ترقعُ الخللَ وتُكملُ النقصَ، حاذراً آفتيْنِ طالما نغّصَتا صفوَ الفريضةِ وأنقصتا أجرَها أو أذهبتاه؛ الآفةَ الأولى: السدورَ في الذنوبِ؛ اغتراراً بأداءِ الفرائضِ، كمن لجّ في عصيانِه؛ اتّكالاً على مغفرةِ الحجّ والصيامِ، والآفةَ الأخرى لمَن كان له حظٌّ من العبادةِ؛ وذلك بأنْ يَشغل الشيطانُ العبدَ عن الفرضِ بالنافلةِ، كمن حَمَلَه طلبُ الصلاةِ خلفَ ذي الصّوتِ الحسنِ على تفويتِ فريضةِ صلاةِ الجماعةِ، أو مَن شغلتْه نافلةُ العملِ التطوُّعيّ عن رعايةِ حقّ أسرتِه الواجبِ. قال ابنُ أبي

الـوردِ: "آفـةُ الخَلـقِ في حرفيْـن: اشـتغالٍ بنافلـةٍ وتضييـعِ فريضـةٍ، وعمـلِ جـوارحٍ بلا مُواطـأةِ القلـبِ، وإنّمـا مُنعـوا الوصـولَ بتضييـعِ الأصـول".

فَتْحُ الدعاءِ

إنّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مضلّ له، ومَن يضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ...﴾.

أيّها المؤمنونَ!

إن من مراشدِ الأمورِ وهناءِ المنحِ الربانيةِ المباركةِ أن يَفتحَ اللهُ لعبدِه بابَ رحمةٍ؛ بطاعةٍ تقرِّبُه لمولاه؛ تكونُ له قرةَ عينٍ؛ يُدْمِنُ قَرْعَ بابِها، ويُلازمُ محرابَها، ويدومُ له بها عملٌ صالحٌ مرفوعٌ. كيف إذا كان هذا الفتحُ في صُلْبِ العبادةِ وأجلِّها عند اللهِ قدْراً وأوفرِها أجراً؛ وذلك حين يَفْتَحُ اللهُ على عبدِه بابَ الدعاءِ؛ فيَشْرَحُ صدرَه لملازمتِه والإدمانِ عليه، مُلتزِماً آدابَه في جميعِ شأنِه الخاصِّ والعامِ والسهلِ والهامِّ؛ مُحقِّقاً بذلك غايةَ العبوديةِ التي من أجْلِها خُلِق الخلْقُ؛ بإظهارِ استحقاقِ اللهِ — جلَّ وتعالى -الألوهيّةَ، وإشهارِه الافتقارَ الذي به يكونُ أقربَ ما يكونُ من ربِّه؛ فما شيءٌ أكرمُ على اللهِ مِن الدعاءِ، كما قال النبيُّ ﷺ: "لَيسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللهِ مِنَ الدُّعَاءِ" رواه أحمدُ وحسّنَه الألبانيُّ، وقد بلغَ مِن الكرمِ عند اللهِ مَوْضِعاً أنْ جعلَ الأصلَ إجابتَه ما لم يقترنْ به ما يَمْنَعُهُ، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾،

وقال رسولُ اللهِ ﷺ: "ما من مسلمٍ يدعو بدعوةٍ ليس فيها إثمٌ، ولا قطيعةُ رحمٍ؛ إلا أعطاه اللهُ بها إحدى ثلاثٍ: إمّا أنْ تُعَجَّلَ له دعوتُه، وإما أنْ يَدَّخِرَها له في الآخرةِ، وإما أنْ يَصرِفَ عنه من السوءِ مثلَها"، قالوا: إذاً نُكْثِرُ، قال: «اللهُ أكثرُ» رواه أحمدُ وصحّحَه الحاكمُ والألبانيُّ. بل بلغَ الإكرامُ الربانيُّ للدعاءِ منزلةَ حياءِ اللهِ من صاحبِه أنْ يَرُدَّ بالخيبةِ يديْه، كما قال النبيُّ ﷺ: «إِنَّ رَبَّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ، أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا» رواه أبو داودَ وصحَّحَه ابنُ حبانَ والألبانيُّ.

عبادَ اللهِ!

قد وعى السلفُ الصالحُ قدْرَ الدعاءِ وأثرَه؛ فكان همُّهم الشاغِلُ فيه أنْ يَفتحَ اللهُ عليهم فيه؛ لِيَظَلُّوا دوماً مستمسكينَ بحبلٍ من اللهِ متينٍ؛ فيه النجاةُ، والتوفيقُ، وقضاءُ الحوائجِ، وتفريجُ الكروبِ. قال عمرُ بنُ الخطابِ -رضي اللهُ عنه-: "إنّي لا أحمِلُ همَّ الإجابةِ، وإنما أحملُ همَّ الدعاءِ؛ فإذا أُلْهِمْتُ الدُّعاءَ فإنَّ الإجابةَ معه". وكانوا يروْنَ البركةَ فيما يُهَيِّجُ العبدَ إلى الدعاءِ وإنْ كان أبلغَ ما يكونُ من الألمِ، قال سفيانُ بنُ عيينةَ: "مَرَّ محمدُ بنُ عليٍّ بمحمدِ بنِ المنْكَدِرِ فقالَ: ما لي أراك مغموماً؟ فقال أبو حازمٍ: ذلك لدَيْنٍ قد فَدَحَه قال محمدُ بنُ عليٍّ: أَفُتِحَ له في الدعاءِ؟ قال: نعم، فقال: لقد بُورِكَ لعبدٍ مِن حاجةٍ أَكْثَرَ فيها دعاءَ ربِّه كائنةً ما كانت". وقال سفيانُ بنُ عيينةَ: "مَا يكرَه العَبْدُ خيرٌ لَهُ مِمَّا يُحِبُّ؛ لِأَن مَا يكرَهُ يُهَيِّجُه على الدُّعَاء، وَمَا يُحِبُّ يُلْهيه عَنهُ".

أيُّها المسلمون!

إنَّ فَتْحَ اللهِ بابَ الدعاءِ لعبدِه، وتحبيبَه إليه، وإذاقتَه حلاوتَه إيذانٌ بمحبةِ اللهِ له واصطفائه ورحمتِه وإرادةِ الخيرِ له؛ إذْ فَتَحَ عليه في أكرمِ شيءٍ عليه، قال مُطَرِّفُ بنُ عبدِالله: "تذكَّرتُ ما جماعُ الخيرِ، فإذا الخيرُ كثيرٌ: الصومُ، والصلاةُ، وإذا هو في يدِ اللهِ -عزَّ وجلَّ-، وإذا أنت لا تقْدِرُ على ما في يدِ اللهِ -عزَّ وجلَّ- إلا أنْ تسألَه فيعطيَك؛ فإذاً جماعُ الخيرِ الدعاءُ". قال ابنُ القيم: "وقد أجمعَ العارفون على أنَّ كلَّ خيرٍ فأصلُه بتوفيقِ اللهِ للعبدِ، وكلَّ شرٍّ فأصلُه خذلانُه لعبدِه، وأجمعوا أنّ التوفيقَ أن لا يكلَك اللهُ نفسَك، وأن الخذلانَ أن يخلّيَ بينك وبين نفسِك. فإذا كان كلُّ خيرٍ فأصلُه التوفيقُ وهو بيَدِ اللهِ إلى نفسك وأن لا بيد العبد فمفتاحُه الدعاءُ والافتقارُ وصدقُ اللجْء والرغبةِ والرهبةِ إليه فمتى أعطى العبدَ هذا المِفتاحَ فقد أرادَ أن يفتحَ له ومتى أضلّه عن المفتاحِ بقيَ بابُ الخيرِ مُرتجَى دونه". وفي فَتْحِ الدعاءِ علامةٌ على قُرْبِ الإجابةِ، قال بعضُ أهلِ العلمِ: "متى أطلقَ لسانَك بالطلبِ؛ فاعلمْ أنه يريدُ أنْ يعطيَك. وعند الفتْحِ تتوجَّهُ رحمةُ اللهِ للعبدِ، وإذا توجَّهتْ لا يتعاظمُها شيءٌ؛ لأنّها وَسِعتْ كلَّ شيءٍ"، "وَكَيْفَ لَا يُجِيبُهُ؟ وَهُوَ يُحِبُّ صَوْتَهُ، وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا فَتَحَ عَلَيْهِ الدُّعَاءَ لَه"، فـ" مَنْ وُفِّقَ لكثرةِ الدعاءِ؛ فلْيُبْشِرْ بقُرْبِ الإجابةِ". وممّا يُدْنِي إجابةَ دعاءِ مَن فُتِحَ له فيه إلحاحُه ودوامُ ضراعتِه، قال الأوزاعيُّ: "كان يُقال: أفضلُ الدعاءِ الإلحاحُ على اللهِ -عزَّ وجلَّ-، والتضرعُ إليه". وفي فَتْحِ الدعاءِ فتوحُ الخيرِ والنعيمِ، يقولُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ: "لكنَّ العبدَ قد تنزِلُ به النازلةُ، فيكونُ مقصودُه طلبَ حاجتِه، وتفريجَ كرباتِه، فيسعى في ذلك

بالسؤالِ والتضرعِ -وإنْ كان ذلك من العبادةِ والطاعةِ-، ثمَّ يكونُ في أولِ الأمرِ قصدُه حصولَ ذلك المطلوبِ من الرزقِ والنصرِ والعافيةِ مطلقًا، ثم الدعاءُ والتضرعُ يَفْتَحُ له من أبوابِ الإيمانِ باللهِ -عز وجل-، ومعرفتِه ومحبتِه، والتَّنعمِ بذكرِه ودعائه، ما يكونُ هو أحبَّ إليه وأعظمَ قدْراً عنده من تلك الحاجةِ التي هَمَّتْهُ. وهذا من رحمةِ اللهِ بعبادِه؛ يَسوقُهم بالحاجاتِ الدنيويةِ إلى المقاصدِ العَليةِ الدينيةِ". ومن لوازمِ فتْحِ اللهِ لعبدِه الدعاءَ ذوقُ حلاوتِه بالتَّلَذُّذِ بمناجاةِ اللهِ التي قال عنها مُسْلِمُ بْنُ يَسَارٍ: "مَا تَلَذَّذَ الْمُتَلَذِّذُونَ بِمِثْلِ الْخَلْوَةِ بِمُنَاجَاةِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-"، "وقال بعضُ الشيوخِ: إنَّه لَيكونُ لي إلى اللهِ حاجةٌ، فأدعوه، فيفتحُ لي من لذيذِ معرفتِه وحلاوةِ مناجاتِه ما لا أحبُّ معه أنْ يُعَجِّلَ قضاءَ حاجتي؛ خشيةَ أنْ تنْصَرِفَ نفسي".

عبادَ اللهِ!

إنَّ فتْح اللهِ لعبدِه بابَ الدعاءِ منَّةٌ عظمى؛ قد جَعَلَ لها أسبابًا موصِلَةً؛ يَهدي لها مِن عبادِه مَن سبقتْ له الحسنى؛ وأعظمُ تلك الأسبابِ استفتاحُ العبدِ ربَّه بصدقِ الافتقارِ أنْ يَفتح له بابَ الدعاءِ، قال أبو الدرداءِ —رضي اللهُ عنه-: "مَنْ يُكْثِرْ قَرْعَ الْبَابِ، بَابِ الْمَلِكِ، يُوشِكْ أَنْ يُفْتَحَ لَهُ، وَمَنْ يُكْثِرِ الدُّعَاءَ يُوشِكْ أَنْ يُسْتَجَابَ لَهُ"، وقال الذهبيُّ: "من أدمنَ الدعاءَ، ولازَمَ قرْعَ البابِ؛ فُتِحَ له". قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ: "وإذا توجَّه إلى اللهِ بصدقِ الافتقارِ إليه، واستغاثَ به مخلِصًا له الدينَ؛ أجابَ دعاءَه؛ وأزالَ ضررَه، وفتَحَ له أبوابَ الرحمةِ". والمجاهدةُ على لزومِ المداومةِ بجَعْلِ وِرْدٍ يوميٍّ للدعاءِ ممّا يُفْتَحُ

به بابُه، وقد كان لِعُروةَ بنِ الزبيرِ من الدعاءِ حِزْبٌ يوميٌّ يُواظِبُ عليه، كَمَا يُوَاظِبُ عَلَى حِزْبِهِ مِنَ الْقُرْآنِ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أما بعدُ، فاعلموا أن أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيها المؤمنون!

وملاحظةُ مقصودِ الدعاءِ الأساسِ من التعبدِ وإظهارِ الافتقارِ إقْلِيدٌ يُفْتَحُ به بابُ الدعاءِ وإن لم يَرَ الداعي الإجابةَ زمناً طويلاً، قال مُوَرِّقٌ الْعِجْلِيُّ: "دَعَوْتُ رَبِّي فِي حَاجَةٍ عِشْرِينَ سَنَةً، فَلَمْ يَقْضِهَا لِي، وَلَمْ أَيْأَسْ مِنْهَا"،قال بعضُ أهلِ العلمِ: "إنَّما يَعْجَلُ العبدُ إذا كان غرضُه من الدعاءِ نيلَ ما سَأَلَ، وإذا لم يَنَلْ ما يريدُ ثَقُلَ عليه الدعاءُ. ويجبُ أنْ يكونَ غَرَضُ العبدِ من الدعاءِ هو الدعاءَ لله، والسؤالَ منه، والافتقارَ إليه أبدًا، ولا يفارقُ سِمَةَ العبوديةِ وعلامةَ الرِّقِّ، والانقيادَ للأمرِ والنهي". ودعاءُ المرءِ على سَجِيَّتِه دونَ تكلُّفٍ مما يُعينُ على الخشوعِ الذي به فَتْحُ الدعاءِ، قال ابنُ تيميةَ: "ومَن جَعَلَ همَّتَه في الدعاءِ تقويمَ لسانِه؛ أَضْعَفَ توجّهَ قلبِه؛ ولهذا يدعو المضطرُ بقلبِه دعاءً يُفتَحُ عليه؛ لا يَحْضرُه قبلَ ذلك، وهذا أمرٌ يجدُه كلُّ مؤمنٍ في قلبِه". وعبادةُ المرءِ في السرِّ وتركُه ما لا يَعْنِيه ممّا يَفْتَحُ اللهُ به له بابَ الدعاءِ، قال الإمامُ مالكٌ: "مَن أحبَّ أنْ يُفتحَ له فُرْجَةٌ في قلبِه، وينجُوَ من غَمَراتِ الموتِ وأهوالِ يومِ القيامةِ؛ فليكنْ في عملِه في السرِّ أكثرَ منه في العلانيةِ"، وقال: "لا يصلُحُ الرجلُ حتى يتركَ ما لا يَعنيه، فإذا كان كذلك أَوْشَكَ أنْ يَفْتَحَ اللهُ في قلبِه".

وحفْظُ نعمةِ فتحِ الدعاءِ بالشكرِ وعدمِ الزهدِ فيها مما يُدِيمُ اللهُ به ذلك الفضلَ على العبدِ، ويَزيدُه منه، قال ابنُ القيمِ: "واللهُ —سبحانه- يُعاقِبُ مَن فَتَحَ له باباً مِن الخيرِ فلم ينتهزْه، بأنْ يَحُولَ بين قلبِه وإرادتِه، فلا يُمْكِنُه بَعْدُ مِن إرادتِه؛ عقوبةً له، فمَن لم يستجبْ للهِ ورسولِه إذا دعاه حَالَ بينه وبين قلبِه وإرادتِه، فلا يُمْكِنُه الاستجابةَ عدَ ذلك، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾، وقد صرَّحَ اللهُ —سبحانَه- بهذا في قولِه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾،وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾،وقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمَۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، وهو كثيرٌ في القرآنِ".

الإلحاح في الدعاء

الحمدُ للهِ ذي الجلالِ والإكرامِ، والطَّوْلِ والإنعامِ، عمّ خيرُه الأنامَ، ووسعت مغفرتُه الآثامَ، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ الملِكُ السلامُ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلى اللهُ وسلمَ عليه وعلى آله وصحبِه الكرامِ.

أما بعدُ، فاتقوا اللهَ -عبادَ اللهِ-، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ...﴾.

أيها المؤمنونَ!

تيقُّنُ العبدِ عجزَه، وإبداؤه دوماً إلى اللهِ فقرَه أكملُ حالٍ للعبدِ يراه عليه مولاه، ويَتقربُ إليه به؛ لتحقيقِه الغايةَ التي خلقَ اللهُ الخلقَ لأجلِها. وكلما ازدادَ شعورُ العبدِ بذاك الحالِ، وعَظُمَ إظهارُه له؛ ازدادت للهِ عبوديتُه، وعَلَتْ منزلتُه لديه. يقولُ ابنُ القيمِ: "مَن أرادَ اللهُ به خيراً فَتحَ له بابَ الذلِّ والانكسارِ، ودوامِ اللجأِ إلى اللهِ -تعالى- والافتقارِ إليه، ورؤيةِ عيوبِ نفسِه وجهلِها وعدوانِها، ومشاهدةِ فضلِ ربِّه وإحسانِه ورحمتِه وجودِه وبرِّه وغناه وحمدِه". هذا وإنَّ الدعاءَ أعظمُ عبادةٍ تجلّى فيها هذا الحالُ؛ فكان أكرمَ شيءٍ على اللهِ، قال رسولُ اللهِ ﷺ: "ليس شيءٌ أكرمَ على اللهِ من الدعاءِ" رواه أحمدُ وصحَّحه ابنُ حبانَ والحاكمُ. وأجْلى تجلياتِ الافتقارِ في افتقارِ الدعاءِ أنْ يُلِحَّ العبدُ على ربِّه في مسألتِه؛ بإقبالِه على دعائِه، وملازمتِه له، ومواظبتِه عليه، وتكريرِه له دون فتورٍ أو مللٍ أو استعجالٍ، وألا يزيدَه أَمَدُ الإجابةِ إلا حسنَ ظنٍّ بربِّه،

واستدناءً لعطائه وفَرَجه؛ فالمُلِحُّ "هو الملازمُ لسؤالِ ربِّه في جميعِ حالاتِه، اللائذُ ببابِ كرمِ ربِّه في فاقتِه ومُهِمَّاتِه، لا تقْطعُه المحنُ عن الرجوعِ إليه، ولا النِّعمُ عن الإقبالِ عليه؛ لأنَّ دعاءَ المُلِحِّ دائمٌ غيرُ منقطعٍ؛ فهو يسألُ ولا يَرى إجابةً، ثم يَسألُ، ثم يَسألُ فلا يَرى، وهكذا، فلا يزالُ يُلِحُّ، ولا يزالُ رجاؤه يتزايدُ؛ وذلك دلالةً على صحةِ قلبِه، وصدقِ عبوديتِه، واستقامةِ وجهتِه؛ فقلبُ المُلِحِّ معلَّقٌ دائمًا بمشيئتِه -سبحانَه-، واستعمالُه اللسانَ في الدعاءِ عبادةٌ، وانتظارُ مشيئتِه للقضاءِ به عبادةٌ؛ فهو بين عبادتين سِرِّيتين، ووِجهتين فاضلتين؛ فلذلك أحبَّه اللهُ -تعالى-"؛ قال ابنُ القيمِ: "الإلحاحُ عينُ العبوديةِ"، وهو من أعظمِ الأدبِ الذي لا يَصلحُ ولا يَجملُ إلا مع اللهِ -كما حكاه ابنُ عبدُالبَرِّ عن السلفِ-؛ ولذا كان دعاءُ الإلحاحِ أفضلَ الدعاءِ، قَالَ الْأَوْزَاعِيُّ: "يُقَالُ: أَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْإِلْحَاحُ عَلَى اللهِ، وَالتَّضَرُّعُ إِلَيْهِ". وقال ابنُ القيمِ: "ومن أنفعِ الأدويةِ الإلحاحُ في الدعاءِ". ولعظيمِ خيرِ الإلحاحِ وبركتِه استحبَّه أكثرُ أهلِ العلمِ -بل أوجبَه بعضُهم-، سيما فيما يعظُمُ أمرُه من خيرِ الدينِ والدنيا. وخيرُ حالِ الإلحاحِ ما تواطأَ فيه القلبُ مع اللسانِ والهيئةِ؛ حين يكونُ القلبُ مستشعِراً الافتقارَ والحاجةَ، وانفرادَ اللهِ بقضائها، وينطلقُ اللسانُ بالطلبِ المُكَرَّرِ الذي لا يَقلُّ عن ثلاثِ مراتٍ؛ إذ هو أقلُ الإلحاحِ ومُبْتَدأُ الكثرةِ في لغةِ العربِ، مُكثراً الحمدَ لله والثناءَ عليه والصلاةَ على نبيِّه ﷺ والتوسلَ بأسماءِ اللهِ وصفاتِه؛ خاصةً ما وردَ الدليلُ بتكرارِه كـ "الربِّ" و"الحيِّ القيوم" و "الودودِ" و"ذي الجلالِ والإكرامِ". قال عطاءُ بنُ أبي رباحٍ: ما قال عبدٌ: "يا ربِّ يا ربِّ" ثلاثَ مراتٍ، إلا نظرَ اللهُ إليه، فذُكِرَ ذلك للحسنِ، فقال: أما تقرؤون القرآنَ؟ ثم تلا

قولـه تعالـى: ﴿الَّذِيـنَ يَذْكُـرُونَ اللَّهَ قِيَامًـا وَقُعُـودًا وَعَلَى جُنُوبِهِـمْ وَيَتَفَكَّـرُونَ فِي خَلْـقِ السَّـمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَـا مَـا خَلَقْـتَ هَـذَا بَاطِـلًا سُـبْحَانَكَ فَقِنَـا عَـذَابَ النَّـارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَـا إِنَّـكَ مَـنْ تُدْخِـلِ النَّـارَ فَقَـدْ أَخْزَيْتَـهُ وَمَـا لِلظَّالِمِـينَ مِـنْ أَنْصَـارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَـا إِنَّنَـا سَـمِعْنَا مُنَادِيًـا يُنَـادِي لِلْإِيمَـانِ أَنْ آمِنُـوا بِرَبِّكُـمْ فَآمَنَّـا رَبَّنَـا فَاغْفِـرْ لَنَـا ذُنُوبَنَـا وَكَفِّـرْ عَنَّـا سَـيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَـا مَـعَ الْأَبْـرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَـا وَآتِنَـا مَـا وَعَدْتَنَـا عَلَى رُسُـلِكَ وَلَا تُخْزِنَـا يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ إِنَّـكَ لَا تُخْلِـفُ الْمِيعَـادَ ﴿١٩٤﴾ فَاسْـتَجَابَ لَهُـمْ رَبُّهُـمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَـلَ عَامِـلٍ مِنْكُـمْ﴾. قال ابـنُ مسـعودٍ –رضـي اللهُ عنـه–: "كَانَ النبـيُّ ﷺ إِذَا دَعَـا دَعَـا ثَلَاثًـا، وَإِذَا سَـأَلَ سَـأَلَ ثَلَاثًـا" رواه مسلمٌ. ويَجْمُلُ الإلحاحُ باستقبالِ القبلةِ ورفعِ الأيـدي، قـال عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ –رضي الله عنه–: "لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُـمْ أَلْفٌ، وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ الْقِبْلَةَ، ثُـمَّ مَـدَّ يَدَيْـهِ، فَجَعَـلَ يَهْتِـفُ بِرَبِّـهِ: «اللهُـمَّ أَنْجِزْ لِـي مَـا وَعَدْتَنِـي، اللهُـمَّ آتِ مَـا وَعَدْتَنِي، اللهُـمَّ إِنْ تُهْلِـكْ هَـذِهِ الْعِصَابَـةَ مِـنْ أَهْـلِ الْإِسْـلَامِ لَا تُعْبَدْ فِـي الْأَرْضِ»، فَمَـا زَالَ يَهْتِـفُ بِرَبِّـهِ، مَـادًّا يَدَيْـهِ مُسْـتَقْبِلَ الْقِبْلَـةِ، حَتَّـى سَـقَطَ رِدَاؤُهُ عَـنْ مَنْكِبَيْـهِ، فَأَتَـاهُ أَبُـو بَكْـرٍ فَأَخَـذَ رِدَاءَهُ، فَأَلْقَاهُ عَلَـى مَنْكِبَيْـهِ، ثُـمَّ الْتَزَمَـهُ مِـنْ وَرَائِـهِ، وَقَـالَ: يَـا نَبِـيَّ اللهِ، كَفَـاكَ مُنَاشَـدَتُكَ رَبَّـكَ، فَإِنَّـهُ سَـيُنْجِزُ لَـكَ مَـا وَعَـدَكَ، فَأَنْـزَلَ اللهُ عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿إِذْ تَسْـتَغِيثُونَ رَبَّكُـمْ فَاسْـتَجَابَ لَكُـمْ أَنِّي مُمِدُّكُـم بِأَلْـفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَـةِ مُرْدِفِـينَ﴾ فَأَمَدَّهُ اللهُ بِالْمَلَائِكَةِ" رواه مسلمٌ، وفي روايةِ ابنِ عباسٍ –رضي اللهُ عنهما– عند البخاريِّ: "فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ بِيَدِهِ، وَقَالَ: حَسْبُكَ يَا رَسُولَ اللهِ؛ فَقَدْ أَلْحَحْتَ عَلَى رَبِّكَ!". بـل بَلَغَ إلحاحُ النبيِّ ﷺ في دعـاءِ ربِّـه اليوميِّ أنْ

كان يسألُه غُفرانَ ذنوبِه كلَّ يومٍ مائةَ مرةٍ إذ يقولُ: "إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ، فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةً" رواه مسلمٌ. وبأدبِ دعاءِ الإلحاحِ كان أهلُ العلمِ والإيمانِ يسألون ربَّهم، ويستنزلون فضلَه، ويستدعون حِماه. قَالَ مُوَرِّقٌ الْعِجْلِيُّ: "لَقَدْ سَأَلْتُ اللهَ حَاجَةً كَذَا وَكَذَا مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً فَمَا أُعْطِيتُهَا وَلَا أَيِسْتُ مِنْهَا"، وقَالَ: "ما وجدتُ للمؤمنِ مَثَلاً إلا رجلاً في البحرِ على خشبةٍ؛ فهو يدعو: يا ربِّ يا ربِّ؛ لعلَّه أنْ يُنَجِّيَه". وقال الإمامُ مالكٌ: "رُبَّمَا خَرَجَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ مُنْصَرِفًا مِنَ الْعَتَمَةِ (صلاةِ العشاءِ) مِنْ مَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَيَعْرِضُ لَهُ الدُّعَاءُ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى مَنْزِلِهِ فَيَرْفَعُ يَدَيْهِ، فَمَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُنَادَى بِالصُّبْحِ، فَيَرْجِعَ إِلَى الْمَسْجِدِ يُصَلِّي الصُّبْحَ بِوُضُوءِ الْعَتَمَةِ". وقال الذهبيُّ في تَرجمةِ العالِمِ إبراهيمَ بنِ عبدِالواحدِ المقدسيِّ: "وكان كثيرَ الدعاءِ بالليلِ والنهارِ، إذا دعا كان القلبُ يشهدُ بإجابةِ دعائه من كثرةِ ابتهالِه وإخلاصِه، وقد رُوي أنَّ اللهَ يحبُّ المُلِحِّين في الدعاءِ". هذا وإنه ليس من أدبِ الإلحاحِ رفعُ الصوتِ بالمسألةِ والعويلِ بالبكاءِ، بل كان إلحاحُ السلفِ الصالحِ في دعائهم لا يُعلمُ إلا بالهمْسِ وطولِ المناجاةِ إنْ دَعَوا منفردين، قال الحسنُ البصريُّ: "كَانُوا يَجْتَهِدُونَ فِي الدُّعَاءِ وَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا".

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أما بعدُ، فاعلموا أنَّ أحسنَ الحديثِ...

أيها المؤمنون!

إنَّ الإلحاحَ في الدعاءِ من مظاهرِ الرضا باللهِ ربًا، وليس فيه منافاةٌ للرضا بقضائه؛ إذ هو -سبحانه- مَن أحبَّ الإلحاحَ عليه كما أحبَّ الرضا بقضائه. هذا وإن مما يُستعان به على الوصولِ إلى درجةِ الإلحاحِ السامقةِ استشعارَ الداعي حقائقَ العبوديةِ الكبرى التي انطوى عليها شرفُ الإلحاحِ؛ ففي الإلحاحِ إظهارُ الافتقارِ إلى اللهِ، وانفرادِه بالإجابةِ، والاستسلامِ لأمرِه، وحسنِ الظنِّ به، وانتظارِ نوالِه وفرَجِه، والديمومةِ على أكملِ حالٍ يحبُّه اللهُ مِن عبدِه. واستشعارُ العبدِ محبةَ اللهِ للإلحاحِ وصاحبِه وقُرْبَ إجابتِه دعاءَه مِن أعظمِ ما يَجعلُه مُلازِمًا له في دعائه، قال ابنُ القيمِ: "فإنَّ الدعاءَ عبوديةٌ للهِ -تعالى-، وافتقارٌ إليه، وتذللٌ بين يديه؛ فكلما كثَّره العبدُ وطوَّلَه وأعادَه وأبداه ونوَّعَ جُمَلَه؛ كان ذلك أبلغَ في عبوديته وإظهارِ فقرِه وتذللِه وحاجتِه، وكان ذلك أقربَ له من ربِّه، وأعظمَ لثوابِه. وهذا بخلافِ المخلوقِ؛ فإنك كلما كثَّرتَ سؤالَه وكرَّرتَ حوائجَك إليه أبْرمتَه وثَقُلْتَ عليه وهِنْتَ عليه، وكلما تركتَ سؤالَه كان أعظمَ عنده وأحبَّ إليه، واللهُ -سبحانه وتعالى- كلما سألتَه كنتَ أقربَ إليه، وأحبَّ إليه، وكلما ألححتَ عليه في الدعاء أحبَّك، ومَن لم يسألْه يغضبْ عليه.

فاللهُ يَغضبُ إنْ تركتَ سؤالَه وبُنَيُّ آدمَ حين يُسْأَلُ يَغضبُ

وقال ابنُ رجبٍ: "فما دام العبدُ يُلحُّ في الدّعاءِ، ويَطمعُ في الإجابةِ من غيرِ قطع الرَّجاءِ، فهو قريبٌ من الإجابةِ، ومنْ أدْمَنَ قرع البابِ، يُوشك أن يُفتح له". ومِن أعظمِ ما يَحملُ الداعيَ على الإلحاحِ استحضارُه غايةَ الدعاءِ ومقصودَه التي عبَّرَ عنه بعضُ العلماءِ بقولِه: "إنما يَعْجلُ العبدُ إذا كان غرضُه من الدعاءِ نيلَ ما سألَ، وإذا لم يَنلْ ما يريدُ ثَقُلَ عليه الدعاءُ، ويجبُ أنْ يكونَ غرضُ العبدِ من الدعاءِ هو الدعاءُ للهِ، والسؤالُ منه، والافتقارُ إليه أبدًا، ولا يفارقُ سِمَةَ العبوديةِ وعلامةَ الرِّقِّ، والانقيادُ للأمرِ والنهيِ والاستسلامُ لربِّه تعالى بالذّلةِ والخشوعِ، فإنَّ اللهَ -تعالى- يحبُّ الإلحاحَ في الدعاءِ". و"لا يكنْ تأخُّرُ أمدِ العطاءِ مع الالحاحِ في الدعاءِ موجِبًا ليأسِكَ؛ فهو ضامنٌ لك الإجابةَ فيما يَختارُ لك لا فيما تختارُ لنفسِكَ، وفي الوقتِ الذي يريدُ لا في الوقتِ الذي تريد. ولا يُشَكِّكُ في الوعدِ عدمُ وقوعِ الموعودِ وإنْ تعيّنَ زمنُه... ويكفي العبدَ عِوضًا من إجابتِه ما أُقيمَ فيه من المناجاةِ وإظهارِ الافتقارِ والانكسارِ. وقد يُمْنَعُ العبدُ الإجابةَ لرفعةِ مقامِه عند اللهِ، وقد يُجابُ كراهةً لسماعِ صوتِه... فليحذرِ الداعي أنْ يكونَ حالَ دعائه ممَّن قُضِيَتْ حاجتُه لكراهةِ اللهِ له لا لمحبتِه". وجَعْلُ وِرْدٍ يوميٍّ للدعاءِ مما يتحققُ به الإلحاحُ، وكان ذاك من هديِ السلفِ؛ كَانَ عروةُ بنُ الزبيرِ يُوَاظِبُ عَلَى حِزْبِهِ مِنَ الدُّعَاءِ كَمَا يُوَاظِبُ عَلَى حِزْبِهِ مِنَ الْقُرْآن. وإنْ أُكرِمَ العبدُ بخالصةِ الإلحاحِ ذاق حلاوةَ الدعاءِ، وتلذَّذَ بطولِ المناجاةِ الربانيةِ وانتظارِ المَنْحِ والفَرَجِ، والتي فاقتْ حلاوتُها كلَّ

حلاوةٍ، قال مسلمُ بنُ يَسَارٍ: "ما تلذَّذَ المتلذِّذون بمثلِ الخلوةِ بمناجاةِ اللهِ -عزَّ وجلَّ". قال بعضُ العلماءِ: "إنه لَتكونُ لي حاجةٌ إلى اللهِ، فأسألُه إياها، فيَفْتَحُ عليَّ من مناجاتِه ومعرفتِه، والتذلّلِ له، والتَّمَلُّقِ بين يديه- ما أُحِبُّ معه أنْ يُؤخِّرَ عني قضاءَها، وتدومَ ليَ تلك الحالُ!".

وهو الذي يُرجَّى لكلِّ عظيمةٍ ... ومَن استجارَ به فنِعمَ الجارُ
وهو الذي رفعتُ إليه ضراعتي ... في غَفْرِ ذنبي إنَّه غفَّارُ
وهو الذي عمَّ الورى إحسانُه ... ما غاضَه الإلحاحُ والإكثارُ
وهو الذي ما زلتُ أرجو فضلَه ... لأنالَ ما أَهوى وما أَختارُ
وهو الذي إنْ جئتُه أَلْفَيْتُه ... ما دُونَ ما أمَّلْتُه أستارُ
وبه ندافِعُ ما نخافُ مِن الأذى ... لا ما تحاوِلُه لنا الأنصارُ
وبه العنايةُ في المطالبِ كلِّها ... ما صرَّحتْ أولى به الأشعارُ

دعاءُ المسلمِ الجديدِ

إنّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مُضلّ له، ومَن يضللْ فلا هاديَ له،وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ...﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ...﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ ..﴾.

أيّها المؤمنونَ!

الضعفُ فطرةُ البشرِ، والسمةُ الجامعةُ بينهم، والأمارةُ الدالةُ عليهم، ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾. قدَرٌ من اللهِ كونيٌّ؛ ليركَنوا إليه، وتتعلقَ آمالُهم به، وينقطعَ رجاؤهم فيما سواهُ، ولا يطغَوْا، ولا يبغَوْا. وشرعَ لهم سُبلاً موصلةً به، تجبرُ الكسرَ، وترفعُ الضعفَ، ويحصلُ بها الاستكفاءُ، ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ﴾. ألا وإنّ الدعاءَ أجلُّ سبيلٍ يصلُ العبدَ بربِّه، ويُدْنيه منهُ، ويرفعُه بهِ؛ ولذا لم يرتضِ اللهُ — سبحانَه — من عبدِه تركَه أو صرفَه لغيرِه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾. وما ذاكَ إلا أنّ الدعاءَ جِماعُ التوحيدِ وواسطةُ عِقدِهِ وقطبُ رحاهُ؛ إذْ بهِ إثباتُ ربوبيّةِ الخالقِ وألوهيتِه وأسمائِه وصفاتِه،

وفيه الإظهارُ الحقيقيُّ للعبوديةِ، يقولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ»، وَقَرَأَ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿دَاخِرِينَ﴾ رواه الترمذيُّ وقال: حسنٌ صحيحٌ. وبهِ غدا الدعاءُ أكرمَ شيءٍ على اللهِ، يقولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللهِ مِنَ الدُّعَاءِ» رواه الترمذيُّ وصحّحه ابنُ حِبانَ. وقد قامَ النبيُّ ﷺ بتلكَ العبادةِ خيرَ قيامٍ حتى تورمتْ قدماه وقوفاً بينَ يديْ خالقِه، وَفاقَ استغفارُه المائةَ عدَّاً في المجلسِ الواحدِ، وسقطَ الرداءُ من على مَنكبيْه بضراعةِ الابتهالِ حتى يقولَ مَن سمعَه: كفاك مناشدتُك ربَّك!

عبادَ اللهِ!

إنَّ هديَ النبيِّ ﷺ في الدّعاءِ أتمُّ الهدي وأحسنُه. ومن أظهرِ معالمِ هذا الهديِ إتيانُه بجوامعِ الدعاءِ؛ إذْ ذاكَ أبلغُ في عمومِ النفعِ، والأليقُ بسؤالِ أكرمِ الأكرمينَ، تقولُ عائشةُ — رضي اللهُ عنها -: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَسْتَحِبُّ الْجَوَامِعَ مِنَ الدُّعَاءِ، وَيَدَعُ مَا سِوَى ذَلِكَ» رواه أبو داودَ وصحّحه ابنُ حِبانَ والحاكمُ. وإنّ من جوامعِ تلكَ الأدعيةِ دعاءً كان النبيُّ ﷺ يعلمُه كلَّ داخلٍ في الإسلامِ مع نقائِه من وضَرِ الخطيئةِ ورقَّةِ قلبِه وصفاءِ رُوحِه؛ فكيف بمَن طال عليه الأمَدُ وقسا قلبُه؛ فقد روى مسلمٌ عن أَبِي مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ إِذَا أَسْلَمَ، عَلَّمَهُ النَّبِيُّ ﷺ الصَّلَاةَ، ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يَدْعُوَ بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ: « اللهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَاهْدِنِي، وَعَافِنِي، وَارْزُقْنِي»، وفي روايةٍ لمسلمٍ: "فإنّ هؤلاءِ تجمعُ لكَ دنياكَ وآخرتَكَ".

أيّها الإخوةُ في اللهِ!

إنّ استغراقَ هذه الكلماتِ لخيرِ الدنيا والآخرةِ إنّما كان لاشتمالِها مصالحَ الدينِ والدّنيا؛ فمصالحُ الدينِ تكمنُ في التوفيقِ لفعلِ الطاعاتِ والعِصمةِ من السيئاتِ ومحوِها إنْ وقعتْ؛ وذاكَ ما حواهُ سؤالُ المغفرةِ والرحمةِ والهدايةِ. أما مصالحُ الدّنيا فمردُّها إلى نعمتيْنِ لا تطيبُ الدّنيا إلا بهما: العافيةِ والغِنَى، كما قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا» رواه الترمذيُّ وصحّحه ابنُ حِبانَ. وفِقهُ هذه الدعواتِ الخمْسِ من خيرِ ما يعينُ على حضورِ القلبِ عند سؤالِها، وذلكَ الحضورُ من أحرى ما يُجابُ به الدعاءُ.

عبادَ اللهِ!

سؤالُ المغفرةِ انكسارٌ للقلبِ، واعترافٌ بالذنبِ، وإقرارٌ من العبدِ أنّ لهُ ربًّا يحصي ذنوبَه، يأخذُ بها عدلاً، ويعفو عنها فضلاً، وأنّ مغفرتَه واسعةٌ لا تضيقُ بذنوبِ العبادِ مهما بلغتْ إنْ لم يغشَها شركٌ، يقولُ اللهُ — تعالى — في الحديثِ القدُسيِّ: " مَنْ لَقِيَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً " رواه مسلمٌ . فإذا ما أفاض بجُودِه مغفرةً لعبدِه؛ فلا بقاءَ للذنبِ ولا أثرَ؛ إذ المغفرةُ محوٌ للذنبِ ونسخٌ لأثرِه وإضفاءٌ بالسِترِ الربانيِّ على المستغفِرِ؛ فلا يُعذّبُ ولا يُفضحُ؛ سِترٌ في الأرضِ وتحت الأرضِ ويومَ العرضِ، وأمانٌ من العذابِ. يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ

مَـا فَعَلُـواْ وَهُـمۡ يَعۡلَمُـونَ ١٣٥ أُوْلَـٰٓئِـكَ جَزَآؤُهُـم مَّغۡفِـرَةٞ مِّـن رَّبِّهِـمۡ وَجَنَّـٰتٞ تَجۡرِي مِـن تَحۡتِهَـا ٱلۡأَنۡهَـٰرُ خَٰلِدِيـنَ فِيهَـاۚ وَنِعۡـمَ أَجۡـرُ ٱلۡعَٰمِلِـينَ﴾.

معشرَ المؤمنينَ!

ولما كانتِ المغفرةُ سبباً للنجاةِ من المرهوبِ الذي سلفَ أُعْقِبَتْ بسؤالِ الرحمةِ طريقِ الظَّفرِ بالمطلوبِ؛ فطلبُ العبدِ ربَّه رحمتَه استعطافٌ أن يدخلَه إيّاها؛ فقد وسعتْ كلَّ شيءٍ؛ عمّ جزءٌ منها كلَّ نواحي الحياةِ حتى البهائمَ المعجمةَ، وادّخرَ ربُّنا الرحيمُ منها لعبادِه المؤمنينَ تسعةً وتسعينَ جزءًا ليوم الدينِ، يقولُ النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ، أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» رواه مسلمٌ . وأعظمُ تلكَ الرّحماتِ التي يشملُها ذلكَ الدعاءُ دخولُ الجنةِ — لا حرمَنا اللهُ إيّاها -، ففي الحديثِ القدُسي يقولُ اللهُ — تعالى -للجنةِ: "أَنْتِ رَحْمَتِي؛ أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي" رواه مسلمٌ.

أيّها المؤمنونَ!

بالمغفرةِ والرَّحمةِ تكونُ العافيةُ من السيئاتِ، وبالهدايةِ يكونُ التوفيقُ للطَّاعاتِ؛ فالهدايةُ علمٌ نافعٌ يثمرُ عملاً صالحاً مأجوراً، يَسلكُ به المؤمنُ صراطَ ربِّه المستقيمَ، وتكونُ وَتَدَ ثباتٍ عليهِ، يقولُ اللهُ — جلّ وعلا -: ﴿وَلَـوۡ أَنَّهُـمۡ فَعَلُـواْ مَـا يُوعَظُـونَ بِـهِۦ لَـكَانَ خَـيۡرٗا لَّهُـمۡ وَأَشَـدَّ تَثۡبِيتٗـا ٦٦ وَإِذٗا

﴿لَأَتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ۝٦٧ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾. ولَعَمرُ اللهِ! إنّ العبدَ أحوجُ ما يكونُ لتلكَ الهدايةِ التي يُعصَمُ بها من طريقِ المغضوبِ عليهم الذينَ علِموا ولم يعمَلوا، ومن طريقِ الضّالّينَ الذينَ عمِلوا بلا علمٍ؛ وبذلكَ يُدرَكُ سرُّ افتراضِ سؤالِها على كلِّ مكلَّفٍ سبعَ عشْرةَ مرةً كلَّ يومٍ وليلةٍ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾؛ قولاً وتأميناً. وبالرحمةِ والمغفرةِ والهدايةِ تتمُّ نعمةُ الدينِ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
وبعدُ، فاعلمُوا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

وسؤالُ العافيةِ استمناحٌ لأمرٍ لا تصفو الدّنيا إلا بهِ؛ تكونُ به السلامةُ من كلِّ داءٍ. ولا تُحصَرُ تلكَ السلامةُ بمعافاةِ البدنِ الحسيّةِ، بل تشملُ عافيةَ الروحِ؛ وهي العافيةُ المقدَّمةُ الباقيةُ؛ فيسلمُ القلبُ بها من الاعتراضِ على أقدارِ اللهِ وأحكامِه، ويُعافَى من النفاقِ والرِّياءِ والحسدِ والرَّيْبِ وسوءِ الظنِّ والكِبرِ والعُجبِ ؛ عندها يطيبُ العيْشُ ويسودُ فيه الرِّضى والطُّمأنينةُ والأُنسُ والانشراحُ، ويغدو ذلكَ القلبُ قلبًا سليمًا ينفعُ صاحبَه حين يلقى اللهَ — تعالى -. قال العَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ — رضي اللهُ عنه -: يَا رَسُولَ اللهِ، عَلِّمْنِي شَيْئًا أَسْأَلُهُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: « سَلِ اللهَ العَافِيَةَ »، قال: فَمَكَثْتُ أَيَّامًا ثُمَّ جِئْتُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، عَلِّمْنِي شَيْئًا أَسْأَلُهُ اللهَ، فَقَالَ لِي: «يَا عَبَّاسُ يَا عَمَّ رَسُولِ اللهِ، سَلِ اللهَ العَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ » رواه الترمذيُّ وصحّحه.

أيّها الإخوةُ!

والأمرُ الآخرُ الذي تطيبُ به الحياةُ وتتمّ حصولُ الرزقِ، فحينَ يتيقنُ المؤمنُ عجزَه عن جلبِه رزقَ نفسِه — فضلاً عن رزقِ غيرِه - وانفرادَ ربِّه

الـرازقِ بـه؛ فـإنَّ رغبتَـه تحـدوهُ لسـؤالِه، وأملَـه وخوفَـه ينقطـعُ فيمـا عـداه، ؛ فيَـدُ الـرزّاقِ مـلأى؛ لا يَغيضُهـا نفقـةٌ، سـحّاءُ الليـلَ والنهـارَ. ورزقُ اللهِ — جـلّ وعلا — عـامٌّ لـكلِّ بَـرٍّ وفاجـرٍ، غيـرَ أنّ رزقَ اللهِ للمؤمـنِ حيـنَ يطلبُـه بتلـكَ الدعـواتِ إعانـةٌ لـه علـى الـبرِّ، وزيـادةٌ لـه في الخيـرِ، وتمـامٌ للحسنى عليـه، كمـا كان عليـه أكثرُ دعـاءِ النبيّ ﷺ، يقـولُ أنـسُ بـنُ مالـكٍ — رضـيَ اللهُ عنـه -: كَانَ أَكْثَرُ دُعَـاءِ النَّبِـيِّ ﷺ: «اللَّهُـمَّ رَبَّنَـا آتِنَـا فِـي الدُّنْيَـا حَسَـنَةً، وَفِـي الآخِـرَةِ حَسَـنَةً، وَقِنَـا عَـذَابَ النَّـارِ». رواه البخـاريُّ ومسـلمٌ.

وبعـدُ — أخـي -، ألـظَّ بسـؤالِ ربِّـك تلـك الكلمـاتِ: «اللهُـمَّ اغْفِـرْ لِـي، وَارْحَمْنِـي، وَاهْدِنِـي، وَعَافِنِـي، وَارْزُقْنِـي»، واعتـنِ بأسـبابِ القَبـولِ، وانـأَ عـن موانـعِ الإجابـةِ؛ يجمـعِ اللهُ لـك بهـا خيـرَيّ الدنيـا والآخـرةِ.

دعاءُ الغريقِ

الحمدُ للهِ مجيبِ دعوةِ المضطرِ، وكاشفِ الكَرْبِ والضُرِّ، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له عالمُ الجهرِ والسرِّ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلى اللهُ وسلمَ عليه وعلى آلِهِ وصحبِه ذوي اليُمْنِ والطُّهْرِ.

أما بعدُ، فاتقوا اللهَ —عبادَ اللهِ-. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ...﴾

أيها المؤمنون!

دعاءُ الغريقِ أبلغُ وصْفٍ شُبِّهَ به تمامُ حالِ الداعي، وبلوغُه الغايةَ التي بها تكونُ إجابةُ دعائه متحققةً؛ لا يحولُ دونها حائلٌ، ولا يمنعُ منها مانعٌ؛ لِيبقى ذلك الدعاءُ بكرامتِه على اللهِ عماداً صامداً في استجلابِ فرجِ اللهِ ونعمائِه حين تتهاوى بقيةُ الأسبابِ ولم تَعُدْ تُجْدي على أربابِها شيئاً. يقول النبيُّ ﷺ: "يأتي عليكم زمانٌ لا ينجو فيه إلا مَن دعا دعاءَ الغريقِ " رواه الحاكمُ وصحّحه ووافقه الذهبيُّ. فما سِرُّ حَفاوةِ اللهِ بهذا الدعاءِ وكرامتِه عليه؟ إنَّ حالَ الغَرَقِ أجلى صورِ الاضطرارِ الذي أخبرَ اللهُ بإجابتِه دعاءَ أهلِه، كما قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾. وانفردتْ دعوةُ الغريقِ بما حَوَتْهُ مِن جُللِ معاني العبوديةِ بمزيدِ اضطرارٍ غَدَتْ به كريمةً عند اللهِ، أثيرةً عليه. إنَّ دعاءَ الغريقِ قد بلغَ في سماءِ التعلقِ المَحْضِ باللهِ -تعالى- والإفلاسِ مما عداه ذِروةَ السَّنامِ؛ وذاك أشرفُ حالٍ للعبدِ وأعزُّه عند اللهِ، يقولُ ابنُ القيمِ:

"وأقربُ بابٍ دخلَ منه العبدُ على اللهِ -تعالى- هو الإفلاسُ؛ فلا يَرى لنفسه حالاً، ولا مقاماً، ولا سبباً يتعلق به، ولا وسيلة منه يَمُنُّ بها، بل يَدخلُ على اللهِ -تعالى- من بابِ الافتقارِ الصِّرْفِ، والافلاسِ المَحْضِ، دخولَ مَن كسَرَ الفقرُ والمسكنةُ قلبَه حتى وصلتْ تلك الكَسْرةُ إلى سويدائه فانصدعَ وشَمِلَتْه الكَسْرةُ مِن كلِّ جهاتِه، وشَهِدَ ضرورتَه إلى ربِّه -عزَّ وجلَّ-، وكمالَ فاقتِه وفقرِه إليه، وأنَّ في كل ذرةٍ من ذراتِه الظاهرةِ والباطنةِ فاقةً تامةً، وضرورةً كاملةً إلى ربِّه -تبارك وتعالى-، وأنَّه إنْ تخلَّى عنه طرفةَ عينٍ هلَكَ وخَسِرَ خسارةً لا تُجْبَرُ، إلا أنْ يعودَ اللهُ -تعالى- عليه ويتداركَه برحمتِه. ولا طريقَ إلى اللهِ أقربُ من العبوديةِ". والغريقُ إذ يدعو فإنه قد تيّقنَ بَوارَ حيلتِه وانقطاعَ قوَّتِه؛ حتى باتَ مِن مَضْربِ المثلِ بالمعدومِ تشبيهُهُ بحيلةِ الغريقِ، وكان ذلك العدمُ عينَ حقيقةِ تعلُّقِ المخلوقِ بالمخلوقِ دون الخالقِ، قال أبو يزيدَ البسطاميُّ: "استغاثةُ المخلوقِ بالمخلوقِ كاستغاثةِ الغريقِ بالغريقِ". ودعوةُ مَن رأى بعينِ اليقينِ إفلاسَ حيلتِه وانقطاعَ حيلةِ كلِّ مخلوقٍ قد بلغتْ مِن صدقِ الافتقارِ ما لا تفي العبارةُ وصْفَه! ودعوةُ الغريقِ قد ارْتوتْ مِن مَعينِ الإخلاصِ الصافي ما أزاحَ الحُجُبَ دونها ونقّاها مِن كلِّ شائبةٍ تُضْعِفُ الإجابةَ؛ فمَن ذا الذي -سوى اللهِ- يَخْطُرُ على قلبِ الغريقِ حين يدعو مُصارِعاً غمراتِ الموتِ والأمواجُ مُطِيفةً به؟! بذلك الإخلاصِ اللَّحْظِي نجّا اللهُ المشركين حين دعَوْه، ولم يكنْ في قلوبِهم مَرْجُوّاً سواه. قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾. ودعوةُ الغريقِ قد أُتْرِعَتْ مِن زُلالِ كأسِ حُسْنِ الظنِّ باللهِ الدِّهاقِ أقوى ما يكونُ من الرجاءِ

في اللهِ والانقطاعِ مما عداه؛ فجاءتْ إجابةُ اللهِ لها مِن جنسِ ظنِّها، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: يَقُولُ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: "أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي" رواه البخاريُّ ومسلمٌ. قال يحيى بنُ معاذٍ: "أَوْثَقُ الرَّجَاءِ رَجَاءُ الْعَبْدِ رَبَّهُ، وَأَصْدَقُ الظُّنُونِ حُسْنُ الظَّنِّ بِاللّهِ"، وقال إبراهيمُ بنُ شيبانَ: "حسْنُ الظنِّ باللهِ هو اليأسُ عن كلِّ شيءٍ سوى اللهِ -عزَّ وجلَّ-". ولئن كانت تلك المعاني قد أكسبتْ دعاءَ الغريقِ تلك المكانةَ عند اللهِ؛ فكيف إنْ كانت دعوةً مِن نبيٍّ مُعَلَّمٍ، دعا بها غريقًا في بطنِ حوتٍ في ظلماتِ البحرِ اللُّجيِّ؛ فنجّاه اللهُ بها، يقولُ اللهُ -تعالى-: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، يقولُ النبيُّ ﷺ: "دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلاَّ اسْتَجَابَ اللهُ لَه" رواه الترمذيُّ وصحّحه الحاكمُ. قال ابنُ القيمِ: "وَأَمَّا دَعْوَةُ ذِي النُّونِ، فَإِنَّ فِيهَا مِنْ كَمَالِ التَّوْحِيدِ وَالتَّنْزِيهِ لِلرَّبِّ -تَعَالَى- وَاعْتِرَافِ الْعَبْدِ بِظُلْمِهِ وَذَنْبِهِ مَا هُوَ مِنْ أَبْلَغِ أَدْوِيَةِ الْكَرْبِ وَالْهَمِّ وَالْغَمِّ، وَأَبْلَغِ الْوَسَائِلِ إِلَى اللهِ- سُبْحَانَهُ- فِي قَضَاءِ الْحَوَائِجِ؛ فَإِنَّ التَّوْحِيدَ والتنزيه يتضمّنانِ إثباتَ كلِّ كمالٍ للهِ، وَسَلْبَ كُلِّ نَقْصٍ وَعَيْبٍ وَتَمْثِيلٍ عَنْهُ. وَالِاعْتِرَافُ بِالظُّلْمِ يَتَضَمَّنُ إِيمَانَ الْعَبْدِ بِالشَّرْعِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَيُوجِبُ انْكِسَارَهُ وَرُجُوعَهُ إِلَى اللهِ، وَاسْتِقَالَتَهُ عَثْرَتَهُ، والاعترافَ بعبوديته، وافتقارَه إلى ربِّه، فها هنا أَرْبَعَةُ أُمُورٍ قَدْ وَقَعَ التَّوَسُّلُ بِهَا: التَّوْحِيدُ، وَالتَّنْزِيهُ، وَالْعُبُودِيَّةُ، وَالِاعْتِرَافُ"، "فالتوحيدُ يُدْخِلُ العبدَ على اللهِ، والاستغفارُ والتوبةُ

يَرْفَعُ المانـعَ، ويُزِيـلُ الحجـابَ الـذي يحْجِـبُ القلـبَ عـن الوصـولِ إليـه؛ فـإذا وصـلَ القلـبُ إليـه زالَ عنه همُّه وغمُّـه وحزنُـه، وإذا انقطـعَ عنـه حَصَرَتْـهُ الهمـومُ والغمـومُ والأحـزانُ وأَتَتْـهُ مِـن كلِّ طريـقٍ ودخلـتْ عليـه مِـن كلِّ بـابٍ".

عبادَ اللهِ!

إنَّ استشـعارَ الداعـي حالَـه إنْ تخلّـى اللهُ عنـه وخَذَلَـه كحـالِ الغريـقِ، وإبصـارَه المعـانيَ الكـبرى التـي جعلـتْ لدعـوةِ الغريـقِ الحظْـوةَ عنـد اللهِ؛ لَمِـنْ أعظـمِ مـا يَحْمِلُـه على لـزومِ عَتَبَـةِ الدعـاءِ الـذي بـه نجاتُـه، كمـا كانـت دعـوةُ الغريـقِ سببَ نجاتِـه، يقـولُ شيخُ الإسـلامِ ابـنُ تيميـةَ: "فالمسـؤولُ كائنـًا مَـن كان لا يَفعـلُ شيئًا إلا بمشـيئةِ اللهِ وقدرتِـه؛ فهـو أحـوجُ إلـى معونـةِ اللهِ مِـن الغريـقِ إلـى مَـن يُخلِّصُـه؛ فـإنَّ الغريـقَ غايتُـه أن يمـوتَ؛ وهـذا إنْ لـم يُغِثْـهُ اللهُ لـم يفعـلْ شيئًا قطُّ؛ بـل هَلَكَ، فافتقـارُ الخلْـقِ إلـى الخالـقِ أعظـمُ مِـن افتقـارِ الغريـقِ إلـى المُنْقِـذِ، والمسجـونِ إلـى مَـن يرسلُه، ولهـذا قيـل: استغاثةُ المخلـوقِ بالمخلـوقِ أبلـغُ مِـن هـذا، كالاستغاثةِ بالمعـدومِ". هـذا مـع مـا تُفْضـي إليـه بَرَكـةُ الدعـاءِ مِـن ثمـارٍ تَطِيـبُ بهـا الحيـاةُ، وتُقضـى بهـا الحوائـجُ، وتُدفـع بهـا الشـرورُ، وتُـدرَكُ بهـا عـزةُ الإيمـانِ والسـموُّ عـن مِنّـةِ المخلوقيـن وإذلالِهـم.

يـا ربِّ مَـن للهالـكِ الغريـقِ ليـس لـه سـواك مِـن رفيـقِ

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أما بعدُ، فاعلموا أن أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيها المؤمنون!

لَئن كان استشعارُ المؤمنِ افتقارَه إلى اللهِ كحالِ الغريقِ مطلوبـًا في كلِّ شأنِه؛ فإنَّ ذلك الاستشعارَ يتأكَّدُ حالَ شدةِ الخطرِ الذي يَدْهَمُ الدِّينَ كحالِ الفتنِ، أو كان كرْبـًا يتعلَّقُ بعمومِ الأمةِ، ومن هنا تواطأتْ وصايا أهلِ العلمِ بلزومِ دعاءِ الغريقِ في هذه الأحوالِ؛ إذ هو أرجى أسبابِ الخلاصِ من تلك المخاطرِ والأهوالِ، قال أبو هريرةَ -رضي اللهُ عنه-: "تكونُ فتنةٌ لا ينجِّي منها إلا دعاءٌ كدعاءِ الغريقِ"، وقالت فاطمةُ النيسابوريةُ: "الصادقُ المقرَّبُ في بحرٍ تضطربُ عليه أمواجٌ، يدعو ربَّه دعاءَ الغريقِ يسأل ربَّه الخلاصَ والنجاةَ"، وقال العنبريُّ: "اجتمع أصحابُ الحديثِ على بابِ الفضيلِ بنِ عياضٍ، فاطلَّعَ عليهم مِن كُوَّةٍ (أي: نافذةٍ) وهو يبكي ولحيتُه تَرْجُفُ، فقال: عليكم بالقرآنِ، عليكم بالصلاةِ... إنما هذا زمانُ بكاءٍ وتضرّعٍ واستكانةٍ ودعاءٍ كدعاءِ الغريقِ، إنما هذا زمانُ احفظْ لسانَك وأَخْفِ مكانَك وعالجْ قلبَك وخذْ ما تَعْرِفُ ودعْ ما تُنْكِرُ "، وكَتَبَ سفيانُ الثوريُّ موصيـًا أحدَ إخوانِه قائلاً: "وقد كدَّرَ هذا الزمانَ، أنه لَيشتَبِهُ الحقُّ والباطلُ، ولا ينجو مِن شرِّه إلا مَن دعا بدعاءِ الغريقِ"، ولما تولى عمرُ بنُ عبدِالعزيزِ الخلافةَ كَتَبَ إليه أحدُ العلماءِ: "اعْتصمَ بِالله

-يَا عمر- اعتصامَ الغريقِ بِمَا ينجّيه مِن الْغَرق، وَليكنْ دعاؤك دُعَاء الْمُنْقَطعِ الْمُشْرِفِ على الهَلَكَةِ؛ فإنّك قد أَصبَحتَ عَظِيمَ الْحَاجةِ، شَدِيدَ الإشرافِ على المعاطِبِ". وكان مِن إرشادِ العالِمِ الألبانيِّ للناسِ في فتنةٍ قد حلَّتْ بالأمةِ أنْ قالَ: "ليس لنا إلا أنْ ندعوَ دعاءَ الغريقِ". "فَإِذَا كَانَ اللهُ -تَعَالَى- لَا يَرُدُّ يَدَ مَنْ يَرْفَعُهَا إِلَيْهِ صِفْرًا، وَهُوَ لَهُ عَاصٍ وَلِأَمْرِهِ تَارِكٌ، وَعَنْ أَدَاءِ حُقُوقِهِ مُعْرِضٌ؛ فَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ يَرْفَعُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ مُفْتَقِرًا إِلَيْهِ، مُتَذَلِّلًا لَهُ، مُعْتَذِرًا إِلَيْهِ، مُقْبِلًا عَلَيْهِ، يَسْأَلُهُ سُؤَالَ الْمُضْطَرِّينَ، وَيَدْعُوهُ دُعَاءَ الْغَرِيقِ، وَيَتَضَرَّعُ لِعَفْوِهِ تَعَرُّضَ مَنْ لَا يَسْتَأْهِلُ لِنَفْسِهِ حَالًا، وَلَا يَرَى لِنَفْسِهِ فضلاً، لَا يَرْجُو إِلَّا فَضْلَهُ، وَلَا يَعْتَمِدُ إِلَّا عَلَى كَرَمِهِ، سُبْحَانَ الْكَرِيمِ ذِي الْفَضْلِ الْعَظِيمِ".

أَرَى عِلَلَ الدُّنْيَا تَرُوحُ وَتَغْتَدِي ... عَلَيْنَا كَأَطْرَافِ الْأَسِنَّةِ فِي الْقَنَا
أَخُوضُ مِنَ الدُّنْيَا غُرُورًا كَأَنَّهُ ... سَرَابٌ مِنَ الْآمَالِ وَاللَّهْوِ وَالْمُنَى
وَلِي كُلَّ يَوْمٍ بِالْمَنَايَا مُعَرِّضٌ ... مِنَ الْحَادِثَاتِ لَيْسَ غَيْرِي بِهَا عَنَى
كَفَى عَجَبًا أَنِّي أَمُوتُ وَأَنَّنِي ... مُكِبٌّ عَلَى الدُّنْيَا وَأَبْنِي بِهَا الْبِنَا
تَعَلَّقْتُ بِالدُّنْيَا غُرُورًا بِلَهْوِهَا ... إِذَا اسْتَحَيَتِ الدُّنْيَا هُنَا قُلْتُ ها هُنَا
وَمَا أَنَا إِلَّا كَالْغَرِيقِ تَشَبَّثَتْ ... يَدَاهُ الْتِمَاسًا لِلْحَيَاةِ بِمَا دَنَا
وَمَا أَنَا إِنْ لَمْ يُلْبِسِ اللهُ سِتْرَهُ ... وَمَا أَنَا إِنْ لَمْ يَرْحَمِ اللهُ مَنْ أَنَا

دعوةُ السَّحَرِ

إنّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مضلّ له، ومَن يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ...﴾.

أيّها المؤمنونَ!

للهِ — سبحانَه — أنْ يختارَ ما يشاءُ من خلقِه؛ أشخاصًا، وأوقاتًا، وأماكنَ، وأحوالاً، ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ﴾. وذلكَ الاختيارُ الربانيُّ اصطفاءٌ بعلمٍ وحكمةٍ؛ وذاكَ ما يجعلُ المؤمنَ يحرصُ على ما يختارُه اللهُ ويصطَفيهِ، ويهتمُّ لهُ أيَّما اهتمامٍ؛ بحثًا، وتعظيمًا، واستغلالاً. وممّا اختارَه اللهُ من الأوقاتِ اليوميّةِ وخصّه بمزايا انفردَ بها عمّا سواه وقتُ السَّحرِ حينَ يبقَى ثُلثُ الليلِ الآخرِ؛ إذْ جعلَه اللهُ — جلّ وعلا — وقتَ نزولِه كلَّ ليلةٍ إلى السماءِ الدنيا نزولاً يليقُ بهِ — سبحانَه وتعالى -، باسطًا توبتَه للمذنبينَ، وعارضًا مغفرتَه للمستغفرينَ، وفاتحًا خزائنَه للسائلينَ، وعارضًا شفاءَه للسَّقيمينَ. يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: "إذا مضى شَطرُ الليلِ، أو ثُلثاه، ينزلُ اللهُ تباركَ وتعالى إلى السماءِ الدّنيا، فيقولُ: هل من سائلٍ يُعطى؟ هل من داعٍ يُستجابُ لهُ؟ هل من مستغفرٍ يُغفرُلهُ؟ حتى ينفجرَ الصّبحُ" رواه مسلمٌ، وفي روايةِ النّسائيِّ: "أَلا من دَاعٍ؛ فيُستجابُ لَهُ؟ ألا من مَريضٍ يستَشفي؛ فيُشفى؟ ألا من مذنبٍ يسْتَغْفرُ؟".

أيّها المسلمونَ!

هـذْأةُ السَّـحَرِ وسـكونُه، وغفلـةُ الخلـقِ فيـه بالإخـلادِ للنَّـومِ والتلـذُّذِ بالتّقلُّـب علـى الفـرُشِ، ومجاهـدةُ النفـسِ في تلـكَ الرغبـةِ، وكـونُ السَّـحَرِ مبتـدأَ انتشـارِ الأنـوارِ مزايا أكسبتْه شرفَ اختيارِ اللهِ لـهُ وقتـاً لنزولِـه إلى السماءِ الدنيا -كما قـال أهـلُ العلـمُ-؛ فكان وقتـاً شـريفاً؛ أقـربَ مـا يكـونُ إلـى الإجابـةِ والإعطـاءِ والمغفـرةِ، وإنْ كان اللهُ -تعالـى- يسـتجيبُ دعـوةَ الدّاعيـنَ، ويعطـي سـؤالَ السـائلينَ، ويغفـرُ ذنـوبَ المسـتغفرينَ في جميـعِ الأوقـاتِ.

وَقُلْ: يَنْـزِلُ الْجَبَّارُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ ... بِلَا كَيْفٍ جَلَّ الْوَاحِدُ الْمُتَمَدَّحُ
إِلَـى طَبَـقِ الدُّنْيَا يَمُـنُّ بِفَضْلِهِ ... فَتُفْـرَجُ أَبْوَابُ السَّـمَاءِ وَتُفْتَحُ
يَقُولُ: أَلَا مُسْـتَغْفِرٌ يَلْقَى غَافِرًا ... وَمُسْـتَمْنِحٌ خَيْرًا وَرِزْقًا فَيُمْنَحُ

أيّها المؤمنونَ!

في السَّـحَر أقـربُ مـا يكـونُ الـربُّ مـن عبـدِه، سـأل عمـرُو بـنُ عبسـةَ -رضـي اللهُ عنهُ- رسـولَ اللهِ ﷺ فقـال: يـا رسـولَ اللهِ، هـل مـن سـاعةٍ أقـربَ مـن الأخـرى أو هـل مـن سـاعةٍ يُبتغـى ذكرُهـا؟ قـال: «نعـمْ، إن أقـربَ مـا يكـونُ الـربُّ -عـزّ وجلّ- مـن العبـدِ جـوفَ الليـلِ الآخِـرِ، فـإنِ اسـتطعتَ أن تكـونَ ممّـن يذكـرُ اللهَ- عـزّ وجـلّ- في تلـكَ السـاعةِ فكـنْ؛ فـإنّ الصـلاةَ محضـورةٌ مشـهودةٌ إلـى طلـوعِ الشَّـمسِ" رواه النَّسـائيُّ وصحّحـه الألبـانيُّ. ومـن ثمـارِ ذلـك القـربِ أنْ كانَ دعـاءُ السَّـحَرِ مسـموعـاً مُجابـاً، سُـئِل رسـولُ اللهُ ﷺ: أيُّ الدعـاءِ أسـمعُ؟ قـال: "جـوفُ

الليلِ الآخرِ، ودُبرَ الصلواتِ المكتوباتِ" رواه الترمذيُّ وحسّنه، وقال النبيُّ ﷺ: " جوفُ الليلِ أجوبُه دعوةً" رواه أحمدُ وصحّحه أحمدُ شاكر.

عباد الله!

إنّ لدعوةِ الأسحارِ قدْراً عندَ أهلِ الإيمانِ، ولذةً فاقتْ لذةَ الكَرى على وثيرِ الفراشِ، لذةً جعلتِ المتقينَ يثورونَ من مَراقدِهم لمناجاةِ ربِّهم، يستقيلونَهُ العِثارَ، ويستمنِحونهُ العطاءَ، ويبثّونَ له الهمَّ الذي أرهقَهم، كما قال اللهُ — تعالى-: ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾. قالتْ عائشةُ — رضي اللهُ عنها-: "كلُّ الليلِ أَوْترَ رسولُ اللهِ ﷺ، وانتهى وَترُه إلى السَّحرِ" رواه البخاريُّ. قال الإمامُ ابنُ عبدِ البَرِّ: "لم يزلِ الصالحونَ يرغبونَ في الدعاءِ والاستغفارِ بالأسحارِ لهذا الحديثِ (حديثِ: ينزلُ ربُّنا حين يبقى الثلثُ الآخرُ إلى السماءِ...) وما كان مثلُه ولقولِه تعالى: ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾. روى محاربُ بنُ دثارٍ عن عمِّه قال: كنتُ آتي المسجدَ في السَّحرِ، فأمرُّ بدارِ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ، فأسمعُه يقولُ: اللهمّ أمرتَني فأطعتُ، ودعوتَني فأجبتُ، وهذا السَّحرُ؛ فاغفرْ لي، فلقيتُ ابنَ مسعودٍ، فقلتُ لهُ: كلماتٍ سمعتُك تقولهنَّ في السَّحرِ، فقال: إنّ يعقوبَ أخّرَ بَنيه إلى السّحرِ حين قال لهم: ﴿سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓ﴾". قال لقمانُ الحكيمُ لابنِه: "يا بُنيَّ، لا تكن أعجزَ من هذا الديكِ؛ يصوّتُ من الأسحارُ وأنت نائمٌ على فراشِكَ". قال موسى بنُ عيسى المُقرِئُ: "مضيتُ إلى أبي عبدِاللهِ أحمدَ بنَ حنبلٍ، فقلتُ له: يا أبا عبدِاللهِ، قد ركبَني دَينٌ وأنا مغمومٌ به، قال: عليكَ بالسَّحَرِ". قال عبدُالرحمنِ بنُ عونِ بنِ حبيبٍ: "كنتُ

أنـا وأخـي عبدُالملـكِ بحـرَّانَ نيامـًا، فلمـا كان في السَّـحَر، جـاء أبـي فقـال لنـا: يـا بَنـيّ، تنامـون في هـذا الوقـتِ؟! مـا طلـعَ الفجـرُ منذُ ستين سـنةً إلا وثيابـي علـيَّ".

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أمّا بعدُ، فاعلَموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

إنّ اللّهجَ بالاستغفارِ أعظمُ ما يدعو به المؤمنُ في مُختَتمِ سُدْفَةِ الأسحارِ؛ فذاكَ دأْبُ المتقين وَرَّاثي الجِنانِ، كما قال اللهُ -تعالى-: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ١٥ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٦ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾، قال الحسنُ البصريُّ: "مَدّوا الصلاةَ إلى الأسحارِ، ثم أخذوا بالأسحارِ في الاستغفارِ". قال أنسُ بنُ مالكٍ -رضي اللهُ عنه-: "كنَّا نؤمرُ إذا صلَّيْنا من الليلِ أن نستغفرَ في آخرِ السَّحرِ سبعينَ مرةً". وقال نافعٌ مَولى ابنِ عمرَ -رضي اللهُ عنهما-: كان ابنُ عمرَ -رضيَ اللهُ عنهما- يُحيّي الليلَ، ثم يقولُ: يا نافعُ أسحرْنا؟ فأقولُ: لا، فيعاودُ الصلاةَ، فإذا قلتُ: نعمْ، قعدَ وأخذَ يستغفرُ اللهَ، ويدعو حتى يصبحَ. ذكرَ الحافظُ عبدُالحقِّ الإشبيليُّ أنّ أحدَ الصالحينَ رُئي في المَنامِ في الجنةِ، فقيلَ له: بمَ نلتَ هذا؟ قال: بذلكَ التضرُّعِ والاستغاثةِ في الأسحارِ.

وَاذْكُرْ وقُوفَكَ فِي المَعَادِ وَأَنْتَ فِي كَرْبِ الحِسَــابِ وَأَنْتَ عَبْدٌ مُفْرَدًا
سَــوَّفْتَ حَتَّى ضَاعَ عُمْرُكَ بَاطِلاً وَأَطَعْتَ شَــيْطَانَ الغِوَايَــةِ وَالعِدَا
فَانْهَضْ وَتُبْ مِمَّا جَنَيْتَ وَقُمْ إلى بَــابِ الكَرِيْــمِ وَلُــذْ بِــهِ مَتَفَــرِّدًا
وَادْعُوهُ فِي الأَسْــحَارِ دَعْوَةَ مُذْنِبٍ وَاعْزِمْ وَتُبْ وَاحْــذَرْ تَكُنْ مُتَرَددًا
وَاضْرَعْ وَقُلْ يَا رَبِّ جِئْتُكَ أَرْتجي عَفْــوًا وَمَغْفِــرَةً بِهَــا كَيْ أَسْــعَدَا
فَلَعَــلَّ رَحْمَتَــهُ تعُــمُّ فإِنَّهَــا تَسَعُ العِبَادَ وَمَنْ بَغَى وَمَن اعْتَدَى

عبادَ اللهِ!

إنّ دعوةَ السحرِ غنيمةٌ ربانيّةٌ جزلاءُ؛ لا ينبغي الزهدُ فيها ولو لبضْعِ دقائقَ؛ فهي — لَعَمرُ اللهِ — أرجَى موطنٌ تُقضى فيه حاجاتُ الدّنيا والآخرةِ، قال بعضُ أهلِ العلمِ: "ليس بفقيهٍ مَن كان له إلى اللهِ حاجةٌ، فنام عنها في الأسحارِ".

دعوةُ المظلومِ

الحمدُ للهِ الحكمِ العدلِ، قولُه الفصلُ، وعطاؤه الجزْلُ. وأشهدُ ألا إلـهَ إلا اللهُ ذو المنِّ والفضلِ، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلى اللهُ وسلمَ عليه وعلى آلِه وأصحابِه ذَوي الهُدى والنُّبلِ.

أمّا بعدُ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾.

أيّها المؤمنون!

لمّا كان الظلمُ من شيمِ النفوسِ، وكان فشْوُّه سبباً في خرابِ الديارِ وفسادِ العيشِ واضطّرابِ الأمورِ؛ أقام اللهُ — سبحانَه — دونَ تقحُّمِ دركاتِه حواجزَ تمنعُ من قربانِه والاسترواحِ إليهِ أوالسّكوتِ عن قبيحِ صَنيعِ أهلِه، فضلاً عن إعانتِهم والرضى بفعلِهم! ألا وإنّ من أشدِّ تلكَ الحواجزِ إزالةَ الحُجبِ عن دعوةِ المظلومِ، وسرعةَ إجابةِ اللهِ لها؛ وذاكَ ما يوجبُ الوجلَ من وُلوجِ مُسْتنقَعِ المظالمِ والتلطّخِ بأوضارِها. يقولُ النبيُّ ﷺ: "اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ حِجَاب" رواه البخاريُّ ومسلمٌ. والتعبيرُ بمنعِ الحجابِ دونَ دعوةِ المظلومِ أبلغُ في تحقُّقِ الاستجابةِ؛ ولذا جاءَ نفيُ الارتيابِ في وقوعِها فقال ﷺ: "ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لَا شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ الْوَالِدِ، وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ" رواه أبو داودَ وحسّنه الألبانيُّ. ودعوةُ المظلومِ لها شأنٌ

في السماءِ، يقولُ النبيُّ ﷺ: "دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ تُحْمَلُ عَلَى الْغَمَامِ، وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاوَاتِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: وَعِزَّتِي لَأَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ" رواه أحمدُ وهو صحيحٌ بشواهدِه. ومَعْنَى ذلكَ — كما قال أهلُ العلمِ -: أَنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - يُوَكِّلُ مَلَائِكَتَهُ بِتَلَقِّي دَعْوَةِ الْمَظْلُومِ وَبِحَمْلِهَا عَلَى الْغَمَامِ، فَيَعْرُجُونَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ - وَالسَّمَاءُ قِبْلَةُ الدُّعَاءِ -؛ لِيَرَاهَا الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ، فَيَظْهَرُ مِنْهُ مُعَاوَنَةُ الْمَظْلُومِ، وَشَفَاعَةً مِنْهُمْ لَهُ فِي إِجَابَةِ دَعْوَتِهِ؛ رَحْمَةً لَهُ. يقول أبو الدرداءِ — رضي اللهُ عنه -: «إِيَّاكَ وَدَعْوَةَ الْمَظْلُومِ! فَإِنَّهَا تَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ كَشَرَارَاتِ نَارٍ حَتَّى يُفْتَحَ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ» رواه ابنُ أبي شيبةَ.

أيّها المسلمون!

وسرُّ سرعةِ إجابةِ دعوةِ المظلومِ اضطِّرارُه، وإخلاصُه، وانكسارُ قلبِه، ونِشدانُه ربَّه حقَّه القائلَ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾؛ ولذا فإنّ دعوةَ المظلومِ مُجابةٌ وإنْ كانَ فاجراً أو كافراً، يقولُ النبيُّ ﷺ: "دعوةُ المظلومِ مُستَجَابَةٌ وإنْ كان فاجراً؛ ففجورُه على نفسِه" رواه أحمدُ وحسّنه الهيثميُّ وابنُ حجرٍ؛ فسِعَةُ عدلِ اللهِ تُوعِبُ المؤمنَ والكافرَ والبَرَّ والفاجرَ. وأحرَى دعواتِ المظلومينَ بالإجابةِ دعوةُ عاجزٍ عن ردِّ الظلمِ عنهُ إلا بدعائِه وماءِ عينِه؛ لعِظَمِ انكسارِ قلبِه، وإفلاسِه من الخَلقِ، واللهُ عند المنكَسرةِ قلوبُهم لأجلِه، يقولُ أبو الدرداءِ — رضي اللهُ عنهُ -: "إِنَّ أَبْغَضَ النَّاسِ إِلَيَّ أَنْ أَظْلِمَهُ لَرَجُلٌ لَا يَجِدُ أَحَدًا يَسْتَعِينُهُ عَلَيَّ إِلَّا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ"، وكان يزيدُ بنُ حكيمٍ يقولُ: "ما هِبتُ شيئاً قطُّ هَيْبتي رجلاً ظلمتُه، وأنا أعلمُ أنّه لا ناصرَ له إلا اللهُ؛ فيقولُ لي:

حسبُكَ اللهُ! اللهُ بيني وبينَك "، وقال الحكماءُ: أعجلُ الأمورِ عقوبةً وأسرعُها لصاحبِها ظلمُ مَن لا ناصرَ لهُ إلا اللهُ، وقيلَ: خافوا ظلمَ مَن لا ينتصرُ من ظُلمِه إلا بدمعِ عينيْه!

احذرْ عداوةَ مَن ينامُ وطرفُه ... باكٍ يقلِّب وجهَه نحو السَّما
يرمي سهاماً ما لها غرضٌ سوى الـ ... أحشاءِ منكَ فربُّما ولعلّما

قال عمرُو بنُ دينارٍ: "كان من بَني إسرائيلَ رجلٌ قائمٌ على ساحلِ البحرِ، فرأى رجلا وهو ينادي بأعلى صوتِه: ألا مَن رآني فلا يظلمْ أحدا، قال: فدنوْتُ منه، وقلتُ له: يا عبدَ اللهِ، ما قصتُك؟ وما الذي بكَ؟ فقال: ادنُ منّي أخبرْك؛ كنتُ رجلا شرطيّا، فجئتُ إلى هذا الساحلِ، فرأيتُ رجلا صيّادا قد اصطاد سمكةً، فسألتُه أن يهبَها لي، فأبى، فسألتُه أن يبيعَنِيها، فأبى، فضربتُ رأسَه بسوطٍ كان معي وأخذتُ منه السمكةَ وحملتُها إلى منزلي وقد ضُربتُ (آلمتني) علي إصْبعِي التي علقَتْ بها السمكةُ، وأصلحوها وقُدِّمتْ إليّ فضَربتْ علي إصبعِي حتى صِحتُ وبكيتُ، وكان لي جارٌ معالجٌ فأتيتُه وقلتُ: إصبعِي، فقال: هو أكَلةٌ (مرضٌ كالغَرْغَرينا) إن أنت رميتَ بها وإلا هلكتَ، فرميتُ بها فوقعَ الضربانُ (الألمُ) في عضُدي فخرجتُ من منزلي هاربا على وجهِي أصيحُ وأبكي، فبيْنا أنا أسيحُ في البلادِ وقعتْ لي شجرةٌ دوحاءُ فأويتُ إليها ونعَستُ، وأتاني آتٍ فقال لي: لمَ تقطعُ أعضاءَك وترميها؟! رُدَّ الحقَّ إلى أهلِه وانجُ، قال: فانتبهتُ فعلمتُ أنّ ذاكَ من قِبَلِ اللهِ عزّ وجلّ، فأتيتُ الصيادَ فوجدتُه يُخرجُ

شبكتَه فانتظرتُه حتى أخرجَها وإذا فيها سمكةٌ كبيرةٌ، فدنوْتُ منه وقلتُ: يا عبدَ اللهِ! إني مملوكُك فأعتقْني، فقال: ما أعرفُك، قلتُ: أنا الشرطيُّ الذي ضربتُ رأسَك بالسَّوطِ وأخذتُ سمكتَك، وأريتُه يدي فلمّا رآني على تلك الحالةِ رَقَّ لي وقال: أنت في حِلٍّ، فأقبل الدودُ يتناثرُ من يدي ويسقطُ على الأرضِ فهالَه ذلك وانصرفَ، فاستوقفتُه وأخذتُه إلى منزلي ودعوتُ بابْني وقلتُ له: احفرْ في هذه الزاويةِ فأخرجَ منها جَرَّةً فيها ثلاثونَ ألفَ درهمٍ، فقلتُ: اعددْ منها عشْرةَ آلافٍ،خذْها فاستعنْ بها، ثم قلتُ: خذْ منها عشْرةَ آلافٍ زيادةً أخرى اجعلْها في فقراءِ جيرانِك وقراباتِك، فقام لينصرفَ، فقلتُ: أخبرْني؛ دعوتَ عليَّ؟ فقال: أنا أخبرُك، لما أخذتَ السمكةَ مني وضربتَ رأسي رفعتُ رأسِي إلى السماءِ وبكيتُ وقلتُ: يا ربِّ خلقْتَني وخلقتَه، وجعلتَه قويا وجعلتَني ضعيفا، ثم سلطتَّه عليَّ؛ فلا أنت منعتَني من ظلمِه، ولا أنت جعلتَني قويا فأمتنعَ من ظلمِه، فأسألُك بالذي خلقتَه قويا وجعلتَني ضعيفا أن تجعلَه عِبرةً لخلقِك؛ فبكيتُ وقلتُ: لقد سمع اللهُ عزّ وجلّ دعاءَك وجعلَني عِبرةً".

عبادَ اللهِ!

وإعجابُ الظالمِ بقوّتِه وغفلتُه عن دعوةِ المظلومِ واستخفافُه بها من أعظمِ أسبابِ صَرعتِه وأخْذِ اللهِ له على غِرّةٍ، كَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى بَعْضِ عُمَّالِهِ: "أَمَّا بَعْدُ، فَاتَّقِ اللهَ فِيمَنْ وُلِّيتَ أَمْرَهُ، وَلَا تَأْمَنْ مِنْ مَكْرِهِ فِي تَأْخِيرِ عُقُوبَتِهِ، فَإِنَّمَا يُعَجِّلُ الْعُقُوبَةَ مَنْ يَخَافُ الْفَوْتَ". وحينَ حلَّتِ النكبةُ بالبَرَامِكَةِ على يدِ هارونَ الرشيدِ، وزجّ بهم في السِّجونِ والقيودِ بعد أنْ كانوا وزراءَه، قال

ابنٌ ليَحيى بنِ خالدٍ البرمكيِّ: يَا أَبَتِ! بَعْدَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالنِّعْمَةِ صِرْنَا إِلَى هَذَا الْحَالِ! فَقَالَ: يَا بُنَيَّ! دَعْوَةُ مَظْلُومٍ سَرَتْ بِلَيْلٍ وَنَحْنُ عَنْهَا غَافِلُونَ وَلَمْ يَغْفُلِ اللهُ عَنْهَا. ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

رُبَّ قَوْمٍ قَدْ غَدَوْا فِي نِعْمَةٍ زَمَنًا وَالدَّهْرُ رَيَّانُ غَدَقْ
سَكَتَ الدَّهْرُ زَمَانًا عَنْهُمُ ثُمَّ أَبْكَاهُمْ دَمًا حِينَ نَطَقْ

يقولُ ابنُ الجوزيُّ: "يا معاشرَ الظَّلَمةِ! لا تُعرْبِدوا في سُكْرِ القدرةِ؛ فصاحبُ الشرطةِ بالمرصادِ... وقد رأيتُ وفي الأيامِ تجريبٌ". كتبَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ إلى بعضِ عمّالِه: "أمّا بعدُ، فإذا دعتْك قدرتُك على الناسِ إلى ظلمِهم فاذكرْ قدرةَ اللهِ عليكَ وفناءَ ما تُؤتِي إليهم وبقاءَ ما يؤتُون إليكَ، والسلامُ". وقال ابنُ القيمِ: "لا تحتقرْ دعاءَ المظلومِ؛ فشَرَرُ قلبِه محمولٌ بعجيجِ صوتِه إلى سقفِ بيتِك. ويحكَ! نِبالُ أدعيتِه مصيبةٌ وإن تأخرَ الوقتُ. قوْسُه قلبُه المَقروحُ، ووَتَرُه سوادُ الليلِ، وأستاذُه صاحبُ "لأنصرنّكَ ولو بعد حينٍ". وقد رأيتَ ولكنْ لستَ تعتبرُ. احذرْ عداوةَ مَن ينامُ وطرفُهُ باكٍ يقلِّبُ وجهَه في السماءِ يرمي سهاما ما لها غرضٌ سوى الأحشاءِ منكَ!".

فإياكَ من ظلمِ العبادِ فإنَّما إلى اللهِ من أكبادِهم تصعدُ الشّكوَى

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
وبعدُ، فاعلمُوا أنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

إنّ إجابةَ اللهِ دعوةَ المظلومِ حقٌّ أوجبهُ على نفسِه وإن كان الظُّلمُ لم يقعْ إلا على واحدٍ؛ فكيف بما زادَ واستمرّ؟! وإجابةُ تلك الدعوةِ قد تكونُ بِالنُّصْرَةِ عَلَى الظَّالِمِ بِمَا شَاءَ سُبْحَانَهُ مِنْ قَهْرٍ لَهُ، أَوِ اقْتِصَاصٍ مِنْهُ، أَوْ تَسْلِيطِ ظَالِمٍ آخَرَ عَلَيْهِ يَقْهَرُهُ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾، وأشدُّ من ذلكَ أنْ يُملَى للظالمِ سادراً في ظلمِه؛ زيادةً له في إثمِه؛ كيْمَا يزادَ عليه في عذابِ الآخرةِ، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأٓخِرَةِ أَكْبَرُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾. قيل لعمرَ رضي اللهُ عنه: كان الرجلُ في الجاهليةِ يُظلمُ، فيدعو على مَن ظلمَه فيجابُ عاجلا ولا نرى ذلكَ في الإسلام! فقال: كان هذا جزاءً بينهم وبين الظُّلمِ، وإنّ موعدَكم الآنَ الساعةُ، والساعةُ أدهى وأمرُّ!

هذا، وإن ممّا يمنعُ إجابةَ دعوةِ المظلومِ أن يتجاوزَ في دعائِه على ظالمِه قدرَ مَظلَمتِه؛ فيكونَ ظالماً بذلك الدعاءِ؛ كأنْ يدعوَ على أولادِ الظالمِ وزوجِه مع عدمِ جنايتِهم. قال رَبَاحُ بْنُ عُبَيْدَةَ: " كُنْتُ قَاعِدًا عِنْدَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ،

فَذُكِرَ الْحَجَّاجُ فَشَتَمْتُهُ، وَوَقَعْتُ فِيهِ، فَقَالَ عُمَرُ: مَهْلًا يَا رَبَاحُ، إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ الرَّجُلَ لَيُظْلَمُ بِالْمَظْلَمَةِ، فَلَا يَزَالُ الْمَظْلُومُ يَشْتِمُ الظَّالِمَ وَيَنْتَقِصُهُ حَتَّى يَسْتَوْفِيَ حَقَّهُ؛ فَيكُونُ لِلظَّالِمِ عَلَيْهِ الْفَضْلُ"، وسمعَ محمدُ بنُ سيرينَ رجلاً يدعو على مَن ظلمَه، فقال: أقصرْ يا هذا؛ لا يربحْ عليك ظالمُك! وسمع مُسْلِمُ بْنُ يَسَارٍ رَجُلاً يدعو عَلَى رَجُلٍ ظَلَمَهُ، فَقَالَ لَهُ مُسْلِمٌ: "كِلِ الظَّالِمَ إِلَى ظُلْمِهِ؛ فَإِنَّهُ أَسْرَعُ إِلَيْهِ مِنْ دُعَائِكَ عَلَيْهِ، إِلَّا أَنْ يَتَدَارَكَهُ بِعَمَلٍ، وَقَمِنٌ أَنْ لَا يَفْعَلَ!". فطُوبى لمَن سلمَ من سهامِ دعاءِ المظلومينَ وبرئَ من ظلمِهم وخصامِهم يومَ الدينِ! وذاكَ ما كان النبيُّ ﷺ يتعوّذُ منه في وقتِ إجابةِ الدعاءِ، فقد كان من دعائِه أثناءَ سفرِه: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ، اللَّهُمَّ اصْحَبْنَا فِي سَفَرِنَا، وَاخْلُفْنَا فِي أَهْلِنَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ، وَمِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ، وَمِنْ دَعْوَةِ الْمَظْلُومِ، وَمِنْ سُوءِ الْمَنْظَرِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ» رواه الترمذيُّ وقال: حسنٌ صحيحٌ.

دعوةُ الوالدِ

الحمدُ للهِ خالقِ الوالدِ والولدِ، منّ على مَن شاءَ بالتوفيقِ والسَّنَدِ، وأضلّ مَن شاءَ فباءَ بالخَسارِ والنَّكدِ. وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ الأحدُ الصّمَدُ، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلى اللهُ وسلمَ عليهِ وعلى آلِه وصحبِه ذَوي اليُمْنِ والسَّعَدِ.

أيّها المؤمنونَ!

إنّ أمانةَ تربيةِ الأولادِ من مشاقّ الأماناتِ وكَبَدِها التي كلّفَ اللهُ بها الوالدَيْنِ، وعنها يكونُ سؤالُهم يومَ الحسابِ . وقد ازدادتْ تلك الأمانةُ في هذا الزمنِ رهَقًا على رهقِها؛ بما انفتحَ من فتَنِ الدنيا، وتيسَّر من أسبابِ المآثمِ. وذلك ممّا يحتمُّ التذكيرَ والتّواصي بأعظمِ سببٍ يُرجى أن يصلحَ اللهُ به الولدَ؛ ذكراً كان أم أنثى؛ وذلكم السببُ ممّا يملكُه كلُّ والدٍ؛ أبًا كان أو أمًا؛ ذلكم هو دعاءُ الوالدِ لولدِه. إنّ تلك الدعوةَ رحمةٌ رحمَ اللهُ بها الوالدَ والولدَ حينَ جعلَها مُجابةً؛ لا يعتري إجابتَها شكٌ، يقولُ النبيُّ ﷺ: "ثلاثُ دعواتٍ مستَجاباتٌ لا شكَّ فيهنّ: دعوةُ الوالدِ، ودعوةُ المسافرِ، ودعوةُ المظلومِ" رواه أبو داودَ وحسّنه الألبانيُّ. قال مُجاهدٌ: "دعوةُ الوالدِ لا تُحجَبُ دونَ اللهِ — عزّ وجلّ —". والسرُّ في استجابةِ تلكَ الدعوةِ — كما قال أهلُ العلمِ — ما قام في الوالدِ من صدقِ الطلبِ، وتبرؤٍ من الحولِ، وحسنِ ظنٍ باللهِ، ورِقّةِ القلبِ، وانكسارِ الخاطرِ، وشفقةٍ ورحمةٍ - والراحمونَ يرحمُهم اللهُ عزّ وجلّ — .

أيّها المسلمونَ!

إنّ الدعاءَ للأولادِ عمادٌ رئيسٌ في منهجِ الأنبياءِ – عليهمُ السلامُ – في تربيةِ أولادِهم. هذا خليلُ اللهِ إبراهيمُ ونبيُّه زكريا – عليهما الصلاةُ والسلامُ – دَعَوَا بصلاحِ الولدِ، وطيبِه، وولايتِه، ورضاهُ قبلَ أن يلدَ لهما الولدُ وكانا شيخَيْنِ كبيرَيْنِ وزوْجتاهُما عقيمَيْنِ؛ دعا إبراهيمُ: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، ودعا زكريا: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا﴾. وقد سارَ على خُطَى الأنبياءِ في اتّخاذِ الدعاءِ عُدةَ التربيةِ عبادُ الرحمنِ الذينَ غدا هذا الدعاءُ شعاراً لهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾. شكى أبو معشرٍ ابنَه إلى طلحةَ بنِ مصرفٍ، فقال: استعنْ عليه بهذهِ الآيةِ: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ﴾. وسبلُ الصلاحِ التي كان الأنبياءُ يدعونَ بها لأولادِهم دائرةٌ بين تحقيقِ التوحيدِ، والسلامةِ من الشركِ، وإقامةِ الصلاةِ، وطلبِ البركةِ، وتعويذِهم من الشرِّ والأشرارِ، كما قال إبراهيمُ – عليهِ السلامُ –: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾، وقال: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾، وكان النبيُّ ﷺ يدعو بهذا الدعاءِ:

"اللهـمّ بـاركْ لنـا في أسـماعِنا، وأبصارِنـا، وقلوبِنـا، وأزواجِنا، وذُرِّياتِنـا" رواه أبـو داودَ وصحّحـه الألبـانيّ،، وكان يعـوِّذُ الحسـنَ والحُسـينَ، ويقـولُ: "إنّ أباكُمـا كان يعـوِّذُ بهـا إسـماعيلَ وإسـحاقَ: أعـوذُ بكلمـاتِ اللهِ التامّـةِ، مـن كلِّ شـيطانٍ وهامّـةٍ، ومـن كلِّ عيـنٍ لامّـةٍ" رواه البخـاريُّ.

عبادَ اللهِ!

وأرْجَى مـا تكـونُ إجابـةُ دعـوةِ الوالـدِ إن كانَ ذلـكَ الوالـدُ مسـارعـًا للخيـرِ، ومازجـًا بيـن دعـاءِ الرغبـةِ والرَّهبـةِ، وملازمـًا التواضـعَ، كمـا قـال اللهُ – تعالـى – عـن نبيِّـه زكريـا – عليـه السلامُ – : ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾، وتقـوى تلـكَ الإجابـةُ إنْ جمـعَ مـع دعائـه لذرِّيتـه دعـاءه لوالديْـه، كمـا قـال تعالـى: ﴿قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾.

إنَّ دعـاءَ الوالـدِ مـن أعظـمِ التوفيـقِ الربانيِّ للولـدِ، قـال حـزمُ بـنُ مهـرانٍ: سـمعتُ رجـلاً سـأل الحسـنَ البصـريَّ، فقـال: يـا أبـا سـعيدٍ، مـا تقـولُ في دعـاءِ الوالـدِ لولـدِه؟ قـال: نجـاةٌ، وقـال بيـدِه هكـذا – كأنَّـه يرفـعُ شـيئـًا مـن الأرضِ –، قـال: فمـا دعـاؤه عليـه؟ قـال: استئصـالٌ، وقـال بيـدِه – كأنّـه يخفـضُ شـيئـًا –. وقـال الغزالـيُّ: "دعـاءُ الوالـدِ أعظـمُ ذخـراً وعـدةً في الدّنيـا والآخـرةِ". وطالَمـا كان ذلـكَ الدعـاءُ سـببـًا في صـلاحِ الولـدِ. كان للفُضَيْـلِ بـنِ عيـاضٍ ابـنٌ اسـمُه علـيٌّ، وكان يدعـو لـه

قائـلاً: "اللهـمّ إني اجتهـدتُ أن أؤدبَ عليـًا، فلـم أقـدرْ علـى تأديبِـه؛ فأدِّبْـه أنـت لـي"، فاستجاب اللهُ دعـاءه، وأصلـحَ ابنَـه، ومـات علـيٌ باكيـًا وهـو يستمعُ القرآنَ. ولفقـدانِ هـذا الدعـاءِ كان حزنُ الأولادِ الموفَّقيـنَ على فقْدِ والديهـم، لمّا ماتـتْ أمُّ إيـاسٍ بـنِ معاويـةَ بكـى، فقيـلَ: مـا يُبكيـكَ، يـا أبـا واثلـةَ؟ قـال: كان لـي بابـان مفتوحـان مـن الجنـةِ، فأُغلـقَ أحدُهمـا.

والله مـا أسَـفي إلا لواحـدةٍ ... أن لا أكونَ تقدمتُ المنونَ أبي
فكان يُؤجـرُ في ثكْلي وينفعُني ... دعـاؤه ودعاءُ الوالـدِ الحدبِ

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أمّا بعدُ، فاعلمُوا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ... أيّها المؤمنونَ!

لئِنْ كان دعاءُ الوالدِ لولدِه من أعظمِ المغانمِ؛ فإنّ دعاءَه عليه من أشدِّ المغارمِ؛ وذلكَ أنّ دعوةَ الوالدِ على ولدِه إنْ كانتْ بحقٍّ؛ فهيَ دعوةٌ خطيرةٌ مُجابةٌ، كما أجابَ اللهُ دعوةَ أمِّ جُرَيْجٍ العابدِ حين لم يجِبْ نداءها؛ انشغالاً بصلاتِه، فدعتْ عليهِ بألا يموتَ حتى يرى وجوهَ المُومِساتِ؛ فكان ما دعتْ به – كما جاء ذلكَ في الصّحيحيْنِ –. يقولُ الرسولُ ﷺ: "لا تدْعوا على أولادِكم، ولا تدْعوا على أموالِكم؛ لا توافِقوا من اللهِ ساعةً يُسألُ فيها عطاءً، فيستَجيبَ لكم" رواه مسلمٌ. رُوي أن الحسنَ بنَ عليٍّ – رضي اللهُ عنهما – قال: بيْنا أنا أطوفُ مع أبي حولَ البيتِ في ليلةٍ ظلماءَ وقد رقَدتِ العيونُ وهدأتِ الأصواتُ إذْ سمعَ أبي هاتفًا يهتفُ بصوتٍ حزينٍ شجيٍّ وهو يقولُ:

يا مَن يجيبُ دعا المضطَرِ في الظُّلَمِ ... يا كاشفَ الضُّرِّ والبَلوى مع السّقمِ
قد نام وفدُك حولَ البيتِ وانتبَهوا ... وأنت عينُك يا قيُّومُ لم تَنمِ
هبْ لي بجُودِك فضلَ العفوِ عن جُرْمي ... يا مَن إليهِ أشارَ الخَلقُ في الحَرَمِ
إنْ كان عفوُك لا يدركُه ذو سَرَفٍ ... فمَن يجودُ على العاصينَ بالكرمِ

فقال أبي: يا بُنيَّ! أمَا تسمعُ صوتَ النَّادبِ لذنبِه المُستقيلِ لربِّه؟ الحقْهُ

فلعلّ أن تأتيَني بهِ. فخرجتُ أسعى حولَ البيتِ أطلبُه فلم أجدْه حتى انتهيْتُ إلى المقامِ وإذا هو قائمٌ يصلّي، فقلتُ: أجبِ ابنَ عمِّ رسولِ اللهِ ﷺ فأوجزَ في صلاتِه واتّبعَني، فأتيتُ أبي فقلتُ: هذا الرجلُ يا أبتِ، فقال لهُ أبي: ما شأنُك وما قصتُك؟ قال: وما قصةُ مَن أسلمتْه ذنوبُه، وأوبقتْه عيوبُه؛ فهو مرتَطِمٌ في بحرِ الخطايا، فقال له أبي: عليَّ ذلكَ فاشرحْ لي خبرَك، قال: كنتُ شابا على اللّهوِ والطربِ لا أفيقُ عنهُ، وكان لي والدٌ يعِظُني كثيرا ويقولُ: يا بُنيَّ! احذرْ هفَوَاتِ الشبابِ وعَثَراتِه؛ فإنّ للهِ سطَوَاتٍ ونقَماتٍ ما هي من الظالمينَ ببعيدٍ، وكان إذا ألحَّ عليَّ بالموعظةِ ألْحَحْتُ عليهِ بالضّربِ، فلمّا كان يومٌ من الأيامِ ألحَّ عليَّ بالموعظةِ، فأوجعتُه ضربا، فحلفَ باللهِ مجتَهدا لَيَأتينّ بيتَ اللهِ الحرامِ فيتعلقَ بأستارِ الكعبةِ ويدعوَ عليَّ، فخرجَ حتى انتَهى إلى البيتِ فتعلّقَ بأستارِ الكعبةِ، وأنشأ يقولُ:

يا مَن إليهِ أتى الحُجّاجُ قد قطَعوا ... عرضَ المَهَامِهِ من قربٍ ومن بُعُدِ
إني أتيتُك يا مَن لا يخيبُ مَن ... يدْعوه مُبتَهلا بالواحدِ الصَّمَدِ
هذا منازلُ لا يرتدُّ عن عقَقِي ... فخذْ بحقِّي يا رَحمانُ من ولدِي
وشُلّ منهُ بحولٍ منكَ جانبَه ... يا مَن تقدَّس لم يولدْ ولم يلدِ

قال: فوَاللهِ ما استتمّ كلامَه حتى نزلَ بي ما ترى، ثم كشفَ عن شِقِّه الأيْمنِ فإذا هو يابسٌ. قال الحسنُ: وكان أبي يقولُ لنا: احذرُوا دعاءَ الوالدَيْنِ! فإنّ في دعائهما النماءُ والانجبارُ والاستئصالُ والبَوارُ. وذُكرَ أنّ الأديبَ جارَ

اللهِ الزمخشريَّ سُئل عن سببِ قطعِ رجلِه، فقال: دعاءُ الوالدةِ؛ وذلكَ أنّي أمسكتُ عصفوراً وأنا صبيّ صغيرٌ، وربطتُ برجلِه خَيْطاً، فأفلتَ من يدِي، ودخل خرقاً، فجذبتُه، فانقطعتْ رجلُه، فتألمتْ له والدتِي، وقالت: قطعَ اللهُ رجلَك كما قطعتَ رجلَه، فلمّا رحلتُ إلى بُخارَى في طلبِ العلمِ سقطتُ عن الدابةِ في أثناءِ الطريقِ، فانكسرتْ رجلِي، وأصابَني من الألمِ ما أوجبَ قطعَها.
هذا وإنّ من رحمةِ اللهِ بالوالدِ والولدِ ألا يجيبَ دعاءه على ولدِه إنْ غلبَ عليه الغضبُ ولم يقصدِ الدعاءَ، كما قال اللهُ – تعالى -: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾، قال ابنُ القيمِ: "قال بعضُ السلفِ: هو دعاءُ الإنسانِ على نفسِه وولدِه وأهلِه في حالِ الغضبِ، ولو استجابَه اللهُ – تعالى – لأهلكَه وأهلكَ مَن يدعو عليهِ، ولكنَّه لا يستجيبُه؛ لعلمِه بأنّ الدّاعي لم يقصدْه".

فقهُ الاغتسال

الحمدُ للهِ الذي شَرَع دينًا قويمًا، وهدى مَن أحبّ صراطًا مستقيمًا، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له؛ إجلالاً وتعظيمًا، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلى اللهُ عليه وعلى آلِه وصحبِه وسلمَ تسليمًا.

أمّا بعدُ، فاتّقوا اللهَ — عبادَ اللهِ -، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ...﴾.

أيّها المؤمنونَ!

العباداتُ شُرعتْ لغاياتٍ وحِكَمٍ، ينظمُ عِقدَها تحقيقُ العبوديّةِ للهِ — سبحانه —، والانقيادُ لأمرِه، والتّطهُّرُ من وَضَرِ الخطيئةِ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، وقال سبحانه: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. وإدراكُ تلك الغاياتِ من أعظمِ ما يُعينُ على القيامِ بالعبادةِ واستتْمامِها، سيّما ما تكرّر حصولُه منها، وكثُر فعلُه. هذا وإنّ من أعظمِ العباداتِ التي تنُمّ عن قوةِ الإيمانِ، واستشعارِ مُطالعةِ الربّ، وعمارةِ القلبِ بالخوفِ منه حال الغيبِ— الاغتسالَ من الجنابةِ. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "خمسٌ مَن جَاءَ بِهِنّ مَعَ إِيمَانٍ دخل الْجنَّةَ: مَن حَافظَ على الصَّلَوَاتِ الْخمسِ على وضوئهنّ وركوعِهنّ وسجودِهنّ ومواقيتِهنّ، وَصَامَ رَمَضَان، وَحجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلا، وَآتى الزَّكَاة طيّبَةً بهَا نَفسُه، وَأدّى الْأَمَانَة"، قيل: يا

رَسُولَ الله، وَمَا أَدَاءُ الْأَمَانَةِ؟ قَالَ: "الْغُسْلُ من الْجَنَابَةِ؛ إِنّ اللهَ لم يَأْمَنِ ابْنَ آدمَ على شَيْءٍ من دينِه غيرَهَا"رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ بِإِسْنَادٍ جيدٍ كما قال المنذريُّ.

غُسْلُ الجَنابةِ في الرِّقاب أمانةٌ فأداؤها مِن أكملِ الإيمانِ

وذلك الاغتسالُ من أعظمِ ما تُكفّرُ به الذنوبُ، كما قال اللهُ — سبحانه — إثرَ الأمرِ به: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾، وقال رسولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ - أَوِ الْمُؤْمِنُ -؛ فَغَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنَيْهِ مَعَ الْمَاءِ - أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ -، فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَ مِنْ يَدَيْهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ كَانَ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مَعَ الْمَاءِ أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ -، فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَشَتْهَا رِجْلَاهُ مَعَ الْمَاءِ - أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ - حَتَّى يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنَ الذُّنُوبِ» رواه مسلمٌ. هذا في الوضوءِ الذي تختصُّ به بعضُ الأعضاءِ؛ فكيف بالغُسلِ الذي يعمُّ البدنَ؟!

أيّها المسلمون!

وفِقْه الاغتسالِ من ألْزمِ ما ينبغي للعبدِ علمُه؛ وذلك من خلالِ معرفةِ أسبابِه، ومحظوراتِه، وصِفتِه، وآدابِه؛ ليؤديَ تلك الأمانةَ كاملةً كما شرعَ اللهُ ورضيَ. فالاغتسالُ عبادةٌ تجِبُ بالمُعاشرةِ الزوجيّةِ ولو لم يكنْ هناك إنزالٌ؛ لقولِ النبيّ ﷺ: «إِذَا جَلَسَ بَيْنَ شُعَبِهَا الْأَرْبَعِ ثُمَّ جَهَدَهَا، فَقَدْ وَجَبَ عَلَيْهِ الْغُسْلُ، وإن لم يُنزِلْ » رواه مسلمٌ. وهكذا يجبُ الاغتسالُ بخروجِ المنيّ حالَ

النومِ مطلقـاً، وكـذا حـالَ اليقظةِ إن كان خروجُه بشـهوةٍ؛ فقـد جَـاءَتْ أُمُّ سُـلَيْمٍ – رضيَ اللهُ عنهـا – إِلَـى رَسُـولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَـتْ: يَـا رَسُـولَ اللهِ، إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الحَقِّ، فَهَلْ عَلَـى المَرْأَةِ مِنْ غُسْلٍ إِذَا احْتَلَمَـتْ؟ قَـالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِذَا رَأَتِ المَـاءَ» (أي: المنـيَّ) رواه البخـاريُّ ومسـلمٌ، وقـال: «إِذَا رَأَيْـتَ الْمَـذْيَ فَاغْسِـلْ ذَكَـرَكَ، وَتَوَضَّـأْ وُضُـوءَكَ لِلصَّـلَاةِ، فَـإِذَا فَضَخْـتَ الْمَـاءَ فَاغْتَسِـلْ» رواه أبـو داودَ وصحّحه ابنُ حِبّانَ. وعلامـةُ المنيِّ أن يكـونَ كثيراً لزِجـاً ثخينـاً؛ وذاك مـا يميزُه عـن غيـره. وإن شـكَّ في الخـارجِ: هـل هـو منيٌّ أولا؟ فالأصـلُ عـدمُ المنيّ؛ فـلا يلزمُه الغسـلُ، وإنمـا يلزمُـه غَسـلُ ذكـرِه والوضـوءُ إن أرادَ الصّـلاةَ ونحوَهـا. وانقطـاعُ دمِ الحيـضِ والنِّفـاسِ للمـرأة ممـا يجـبُ بـه الغُسـلُ؛ لقولـه تعالـى: ﴿فَٱعْتَزِلُـواْ ٱلنِّسَـآءَ فِى ٱلْمَحِيـضِ وَلَا تَقْرَبُوهُـنَّ حَتَّىٰ يَطْهُـرْنَ فَـإِذَا تَطَهَّـرْنَ فَأْتُوهُـنَّ مِـنْ حَيْـثُ أَمَرَكُـمُ ٱللَّهُ﴾. ومَـن أصابَـه حـدثٌ أكـبرُ فإنّـه يُمنـعُ مـن العبـاداتِ التـي تُشـترطُ لهـا الطَّهـارةُ حتى يغتسـلَ، وتلـك العبـاداتُ هـي الصَّـلاةُ والطَّـوافُ وتـلاوةُ القـرآن ومسُّ المصحـفِ والمُكـثُ في المسـجدِ، غيـرَ أنـه لـم يثبُـتِ الدليـلُ في منـعِ الحائـضِ والنُفَسـاءِ مـن تـلاوةِ القـرآن ومـسّ المُصحـفِ مـن وراء حائـلٍ، سـيّما إن احتاجـتْ إلـى ذلـك، كمُراجعـةِ حفـظٍ ودراسـةٍ وتدريـسٍ؛ فيُبـاحُ لهـا ذلـك؛ لعـدمِ المانـعِ، كمـا اختـار ذلـك شـيخُ الإسـلامِ. ومـا عـدا هـذه العبـاداتِ فـإنّ مَـن عليـه حـدثٌ أكـبرُ لا يُمنـعُ منـه، كالأذكـارِ، والأدعيـةِ، والاسـتغفارِ، وردّ السـلامِ، وتشـميتِ العاطـسِ. وإنْ لـم يجـدِ الجنـبُ المـاءَ أو كان عاجـزاً عـن اسـتعمالِه حقيقـةً أو حكمـاً؛ فإنـه يعـدِلُ إلـى التيمُّـمِ؛ فهـو في مقـامِ المـاءِ؛ كمـا أخـبر اللهُ – جـلّ شـأنُه –، ومتـى مـا وجـدَ المـاء أو قـدرَ عليـه؛ فلْيتـقِ اللهَ وليمسّـه بشـرتَه.

أيّها المؤمنون!

والاغتسالُ على نوعينِ، تحصلُ الطهارة بأيّهما، وهكذا ارتفاعُ الحدَثِ، قالت عائشةُ — رضيَ اللهُ عنها -: "كان النَّبِيُّ ﷺ لَا يتَوَضَّأ بعد الْغسْلِ" رَوَاهُ النَّسَائِيّ، وَالتِّرْمِذِيّ، وَقَالَ: "حسنٌ صَحِيحٌ". النوعُ الأوّلُ: الاغتسالُ المُجزئُ؛ وذلك بأن يفيضَ الماءُ على بدَنِه؛ فيعمَّه؛ فقد أَعْطَى النبيُّ ﷺ الَّذِي أَصَابَتْهُ الجَنَابَةُ إِنَاءً مِنْ مَاءٍ، قَالَ: «اذْهَبْ فَأَفْرِغْهُ عَلَيْكَ» رواه البخاريُّ، وهذا هو القدْرُ الواجبُ في الغسلِ. والنَّوعُ الثاني الاغتسالُ الكاملُ؛ وذلك بأنْ يغسلَ يديْه ثلاثًا، ثم يغسلُ فَرجَه وما أصابَه المنيُّ، ثم يتوضأُ وضوءه للصّلاةِ، ثم يحثو على رأسِه ثلاثَ حثواتٍ من الماء تُروي أصولَ شعرِه، ثم يفيضُ الماءُ على بدنِه مبتدئًا بشقِّه الأيمنِ. وذاك ما كان يفعلُه النبيُّ ﷺ، كما وصفَ ذلك زوجتَاه عائشةُ وميمونةُ — رضي اللهُ عنهما — فيما روى البخاريُّ ومسلمٌ. وإن مسّتْ يدُه فرجَه أثناءَ اغتساله انتقضَتْ طهارتُه، ولزمَه الوضوءُ. ولا يجبُ المبادرةُ بالاغتسالِ إلا عند حضورِ عبادةٍ يُشترَطُ لها الطَّهارةُ. ويحرُمُ الإسرافُ في استعمالِ الماءِ ولو في الاغتسالِ؛ فقد كان النبيُّ — ﷺ — يتوضأُ بالمُدّ، ويغتسلُ بالصّاعِ، كما روى أنسٌ — رضي اللهُ عنه — في الصّحيحيْن. ويُنبَّه إلى عنايةِ المغتسلِ بالمغابنِ كالإبطِ وما بين الإليتيْنِ وما يبعُد وصولُ الماء إليه مثل ما يكونُ تحت الشَّعر، قال رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ تَرَكَ مَوْضِعَ شَعْرَةٍ مِنْ جَنَابَةٍ لَمْ يَغْسِلْهَا فُعِلَ بِهَا كَذَا وَكَذَا مِنَ النَّارِ» رواه أبو داودَ وسكتَ عنه وصحّحه ابنُ حَجَرٍ والقرطبيّ . ولا يبلغُ به ذلك حدَّ الوَسواسِ، وإنما هو التعاهدُ بما يغلبُ على الظنّ. ومَن أصبحَ صائمًا وهو جنبٌ صحَّ صومُه، ولا يفسدُ الصومُ إلا بجماعٍ أو نزولِ منيّ بشهوةٍ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسّلامُ على رسولِ اللهِ.

وبعدُ، فاعلَموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيُّها المؤمنونَ!

ومِن سننِ الغُسلِ المستحبَّةِ الاغتسالُ يومَ الجمُعةِ؛ فإنّ استحبابَه متأكّدٌ، بل قال بعضُهم بوجوبِه؛ أخذاً بقولِ النبيّ ﷺ: "غُسلُ الجمُعةِ واجبٌ على كلِّ مُحتلِمٍ " رواه البخاريُّ ومسلمٌ، وفي فضلِه يقولُ: «مَنِ اغْتَسَلَ، ثُمَّ أَتَى الْجُمُعَةَ، فَصَلَّى مَا قُدِّرَ لَهُ، ثُمَّ أَنْصتَ حَتَّى يَفْرُغَ الإمامُ مِنْ خُطْبَتِهِ، ثُمَّ يُصَلِّي مَعَهُ، غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْأُخْرَى، وَفَضْلُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ» رواه مسلمٌ. ويُسنُّ للجُنُبِ الوضوءُ عند إرادتِه الطعامَ والشّرابَ والنومَ، تقولُ عائشةُ — رضي اللهُ عنها-: "كان النبيّ ﷺ إذا أرادَ أنْ يأكلَ، أو ينامَ، وهو جُنُبٌ، توضَّأ وضوءَه للصَّلاةِ" رواه مسلمٌ. وهكذا يسنُّ له الوضوءُ إن أرادَ معاودةَ معاشرةِ أهلِه قبل أن يغتسلَ، يقولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا أَتَى أَحَدُكُمْ أَهْلَهُ، ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يَعُودَ، فَلْيَتَوَضَّأْ» رواه مسلمٌ.وبعدُ ـ إخوةَ الإيمانِ -، هكذا يصبغُ دينُ الإسلام حياةَ أهلِه بالعبوديّة الشاملةِ لله — تعالى -؛ حتى فيما يمارِسُونه وِفقَ شهوتِهم التي أباحَها، ورأيْنا كيف يُنقِّلُهم في مدارج الإيمانِ برعايةِ ما استأمنَهم عليه، وكيف كانت تلكَ الشعائرُ مُطهّرةً لذنوبِهم كما كانت مطهّرةً لقلوبِهم وذنوبِهم؛ فالحمدُ لله الذي هدانا لهذا؛ وما كنّا لنهتديَ لولا أنْ هدانا اللهُ.

وشـــريعةُ الإســـلامِ أفضلُ شِرعةٍ ... ديـــنُ النبـــيّ الصـــادقِ العدنـــانِ
هو ديـــنُ ربّ العالمينَ وشـــرعُه ... وهو القديمُ وسيّدُ الأديـــــانِ
هـــو ديـــنُ آدمَ والملائـــكِ قبلَـــه ... هو دينُ نوحٍ صاحبِ الطوفـــانِ
وكمـــالُ ديـــنِ اللهِ شـــرعُ محمدٍ ... صلّى عليـــه منـــزِّلُ القـــرآنِ

نداءُ الفلاح

الحمدُ للهِ عددَ خلقِه، ورِضا نفسِه، وزنةَ عرشِه، ومِدادَ كلماتِه، عمّ خيرُه كلَّ مخلوقاتِه، ووسعَ علمُه أرضَه وسماواتِه، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له في أسمائه وصفاتِه، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلى اللهُ وسلمَ عليه وعلى أصحابِه وذريّاتِه.

أمّا بعدُ، فاتّقوا اللهَ — عبادَ اللهِ –، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ...﴾.

أيُّها المؤمنونَ!

لنداءِ الفلاحِ حينَ تصْدحُ به الحناجرُ وقعٌ إيمانيٌّ مجلِّلٌ في رُدّهاتِ الكونِ وأعماقِ النَّفسِ المؤمنةِ لا تملكُ التعبيرَ عنه إلا بدمعِ العينِ وتهدّجِ الكلِمِ، كما حدّث أبو بكرِ بنِ أبي طالبٍ عن أذانِ معروفٍ الكرخيِّ قائلاً: دخلتُ مسجدَ معروفٍ، ثم أذَّن، فلما أخذَ في الأذانِ اضطّربَ وارْتعدَ حين قال: أشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ، فقام شَعرُ حاجبيْه ولحيتِه حتى خِفتُ أن لا يتمَّ أذانَه، وانْحنى حتى كاد أن يسقطَ. في ذلك النداءِ تتوالى كلماتُ الأذانِ النديّ على المسامعِ مُجددةً حقيقةَ الإيمانِ، ومذكرةً بالقضايا الكليَّةِ الكُبرى التي شهدَ عليها الوجودُ وصلُحَ بها أمرُ الحياةِ. حتى بات الكونُ الصَّامتُ بدوابِّه وحَجَرِه ومدَرِه وشجرِه وما لا يُرى فيه شاهداً للصَّادحِ بذلك النّداءِ الإيمانيِّ العظيمِ إن بلغَه صوتُه، قال أبو سعيدٍ الخُدَريُّ- رضي اللهُ عنه — لعبدِاللهِ بنِ عبدالرحمنِ بنِ أبي صعْصعةَ:

إني أراك تحبُّ الغنمَ والباديةَ، فإذا كنتَ في غنمِك، أو باديتِك، فأذَّنتَ بالصّلاة فارفعْ صوتَك بالنّداء، فإنّه: «لا يسمعُ مدى صوتِ المؤذّن، جنٌّ ولا إنسٌ ولا شيءٌ، إلا شهدَ له يومَ القيامةِ»، قال أبو سعيدٍ: سمعتُه من رسولِ اللهِ ﷺ (رواه البخاريُّ). وبلوغُ الغايةِ من المغفرةِ ببلوغِ الغايةِ في رفعِ الصوتِ بالنداءِ كما قال النبيُّ ﷺ: "المؤذنُ يُغفرُ له مدى صوتِه" رواه أحمدُ بإسنادٍ حسنٍ جيّدٍ كما قال المُنذريُّ. وبرفع ذاك النداءِ تُرفعُ الأعناقُ وتشرفُ يوم القيامةِ، قال رسولُ اللهِ ﷺ: "المؤذنونَ أطولُ الناسِ أعناقًا يومَ القيامةِ" رواه مسلمٌ. ولأولئك الصادحينَ أجرُ مَن لبّى النداءَ وأمّ المساجدَ للصّلاةِ؛ فهم مَن دعاهم إليها ودلّهم عليها، و" مَن دلّ على هُدًى كان له من الأجرِ مثلُ أجورِ مَن تبعَه". وبنداءِ الفلاحِ تُطلبُ السّكينةُ والأمنُ وتُطردُ الشياطينُ وتُبعدُ، قال النبيُّ ﷺ: "إذا نُودي للصلاةِ أدبر الشيطانُ، وله ضراطٌ؛ حتى لا يَسمعَ التَّأذين" رواه البخاريُّ ومسلم. ومَن لازَم نداءَ السّكينةِ أمّنه اللهُ يومَ الفزعِ الأكبرِ، قال رسولُ اللهِ ﷺ: "ثلاثةٌ لا يهوِّلهم الفزعُ الأكبرُ، ولا ينالُهم الحسابُ، هم على كثبٍ من مِسك حتى يُفرغَ من حسابِ الخلائقِ" وذكرَ منهم: "وداعٍ يدعو إلى الصَّلاة ابتغاءَ وجهِ اللهِ" رواه الطبرانيُّ بإسنادٍ لا بأسَ به كما قال المنذريُّ. ولأذانِ الفَلاةِ والقِفارِ والوَحدةِ مزيةٌ وأجرٌ عظيمٌ؛ لِعظمِ ما قام فيها من دلالةِ الخشيةِ والإيمانِ بالغيب، قال رسولُ اللهِ ﷺ: "يعجَب ربُّك - عزّ وجلّ - من راعي غنمٍ في رأسِ شظيةٍ (أي: قطعةٍ) بجبلٍ يؤذِّن للصلاة ويصلي، فيقولُ الله - عز وجل -: انظُروا إلى عبدِي هذا يؤذِّنُ ويقيمُ للصَّلاةِ؛ يخافُ منِّي؛ قد غفرتُ لعبدي، وأدخلتُه الجنةَ" رواه أبو داودَ وصحّحه الألبانيُّ. ولو علم الناسُ ما

يحوِيـه الأذانُ مـن فضائـلَ وذخائـرَ؛ لمـا سـبقَ إليـه سـابقٌ إلا اقتراعـاً؛ لتنافُسِـهم عليـه، وتشـاحّهم فيـه، يقـولُ النبـيُّ ﷺ: "لـو يعلـمُ النـاسُ مـا في النـداءِ والصَّـفِّ الأولِ، ثـم لـم يجـدوا إلا أن يستهِموا عليـه لاستَهَموا" رواه البخـاريُّ ومسـلمٌ.

أيّها المسلمون!

إن لِجَلجلـةِ المـآذنِ بالنـداءِ اليومـيّ للصلـواتِ الخمـسِ معنـىً عميقـاً، تُربـطُ بـه مناحـي الحيـاةِ بسـرّ الوجـودِ وغايـةِ الخَلـقِ، وتُصحَّـحُ الاهتمامـاتُ، وتُرتَّـبُ الأولويّـاتُ. يفتتحُ المـؤذِّن نـداءَ الفـلاحِ بتكبيرِ الله المُتَوالي؛ تكبيرةً إثـر تكبيرةٍ؛ ليسـمعَ الكـونُ ومـا حـواه بـأنّ اللهَ أكـبرُ مـن كلِّ شـأنٍ بالغـاً في الشّـأن مـا بلـغ؛ اللهُ أكـبرُ مـن كلّ هـمٍّ، الله أكـبرُ مـن كلِّ مكـرٍ، اللهُ أكـبرُ مـن كلِّ فقـرٍ، اللهُ أكـبرُ مـن كلِّ قهـرٍ، اللهُ أكـبرُ مـن كلِّ خـوفٍ، اللهُ أكـبرُ مـن كلِّ طـاغٍ جبَّـارٍ، اللهُ أكـبرُ مـن مكـرِ اللّيـلِ والنَّهـارِ. فـإذا مـا تشـرّبتْ نفسُ العبـدِ معنى هـذا التكبيرِ، وعـاشَ مع دلائـلِ حقائقِـه؛ عـاد ذلـكَ على قلبِه بالسَّكينةِ والرّضـا بأنّـه عبـدٌ للكبيرِ المتعـالِ، وأنّـه في تدبيرِ أكـبرِ شـاهدٍ، وصـحَّ ميزانُـه الـذي أقـام قِسطَه على ألا أحـدَ أكـبرُ مـن اللهِ؛ فـلا يُعظِّـمُ شـيئاً حقّـره اللهُ، ولا يحقّـرُ شـيئاً عظّمـه الله، ولا يقـدّمُ بين يـديْ مـولاه رأيـاً أو شـخصاً أو همـاً، وقـاده ذلـك التكبيرُ إلـى إحضـارِ قلبِـه في صلاتِـه وانكسـارِه أمـام خالقِـه الـذي كبّـره. ولتكبيرِ الأذانِ رسـالةٌ للأمّـة؛ أنـه لـن يكـبرَ عليكـم شـيءٌ مـا دامـت كلمتُكـم: اللهُ أكـبرُ! فـإذا اسـتتمَّ الصّـادحُ بتكبيرِه المُربَّـعِ أعقبـه بشـهادةِ التوحيـد المثنّـاة؛ أعظـمُ شـهادةٍ نطقـتْ بهـا شـفاهٌ، جعلـتِ النبـيَّ ﷺ حيـن سـمعَ المـؤذنَ يـدّوي بهـا يقـولُ: "خرجـتَ مـن النـارِ" رواه مسـلمٌ. شـهادةٌ تشـعُّ بالتوحيـدِ

الـذي أضـاءتْ بسناه القلوبَ كمـا أضـاء بـه الوجـودَ؛ شـهادةٌ تجوب الدُّنـا؛ لتقطعَ الشـركَ مـن جـذوره، وتنقّـي دنسَـه ورجـزَه، وتُبقـي الوجـودَ علـى فطـرةِ التوحيـدِ التي بَراه اللهُ عليهـا، وتجعـلُ العبدَ حاضرَ الغايـةِ التي خُلـق لأجلِهـا، مؤمّـلاً عيشَـه في ظلِّهـا، وموتَـه عليهـا، وحشـرَه في زُمـرةِ أهلِهـا، وفـوزَه بثوابِهـا. وإتْبـاعُ شـهادةِ توحيـد الإلهيـةِ بشـهادة الرسـالةِ المحمَّديـةِ مـن أجْلـى صـورِ رفـعِ الذكـرِ النبـويِّ.

"وعجيبٌ أن يجهـلَ المسـلمونَ حكمـةَ ذكـرِ النبـيِّ العظيـمِ خمسَ مـراتٍ في الأذان كلَّ يـوم، ينـادَى باسـمِه الشـريفِ مـلءَ الجـوِّ! وهـل الحكمـةُ مـن ذلـك إلا الفـرضُ عليهـم ألا ينقطِعـوا عـن نبيّهـم ولا يومـاً واحـدًا مـن التاريـخ، ولا جـزءًا واحـداً مـن اليـوم؛ فيمتـدُّ الزمـنُ مهمـا امتـدَّ والإسـلامُ كأنّـه علـى أوَّلِـه، وكأنّـه في يومِـه لا في دهـرٍ بعيـدٍ؛ والمسـلمُ كأنَّـه مـع نبيّـه بيـن يديْـه تبعثُـه روحُ الرسـالةِ، ويسْـطعُ في نفسـه إشـراقُ النبـوَّةِ، فيكـونُ دائمـاً في أمـرِه كالمسـلمِ الأولِ الـذي غيّـرَ وجـهَ الأرضِ".

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصَّلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.

ودعـوةُ المـؤذنِ العبـادَ إلـى الصَّـلاةِ بالدعـوةِ المثنَّـاةِ استـحثاثٌ لهـم بالإقبـالِ عليهـا والمبـادرةِ بهـا؛ إقبـالاً بحضـورِ قلـبٍ وذلّ بـدنٍ، دون تلكـؤٍ أو تباطـؤٍ أو تشاغلٍ. وقد كان ذا شأنَ النبيِّ ﷺ في إجابةِ مُنادِي الصلاةِ، فقد سأل الأسودُ بنُ يزيدَ عائشةَ – رضي اللهُ عنها –: ما كان النبيُّ ﷺ يصنعُ في البيتِ؟ قالت: «كان يكونُ في مهنةِ أهلِه، فإذا سمعَ الأذانَ خرجَ» رواه البخاريُّ. وقد جاء في تفسير قولِه تعالى: ﴿لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ أنَّهم كانوا حدَّادينَ وخرَّازينَ؛ فكان أحدُهم إذا رفعَ المِطرقةَ أو غرزَ الإشفى، فسمعَ الأذانَ لم يُخرجِ الإشفى من المغْرزِ، ولم يُوقع المطرقةَ ورمى بها، وقام إلى الصَّلاة. هكذا كان ينهزُهمُ داعي الصلاةِ بالمبادرةِ إذْ يدعوهم أنْ هلمّوا إليها سِراعًا، ولا يشغلنَّكم عنها شاغلٌ. ويزيدُ حدْوَهم إلى الإقبالِ وإسلام الوجهِ إعقابُ الصادحِ دعوتَه إلى الصلاةِ بالدَّعوة إلى الفلاح بالنِّداء المثنَّى " حي على الفلاحِ "؛ دعوةٌ إلى الفوزِ والنجاةِ الباقِيَيْنِ بإقامِ الصلاةِ التي هي أعظمُ أسبابِه بعد الإيمانِ، والتي كان بها مُفتتحُ صفاتِ المُفلحينَ وختمُه كما حواه صدرُ سورةِ (المؤمنون). وذا ما جعلَ الربيعَ بنَ خثيمٍ يتناسَى آلامَ إعاقتِه بعدما سقطَ شقُّه، فكان يُهادَى بين رجليْنِ الى مسجدِ قومِه، فكان أصحابُه يقولون: يا أبا يزيدَ! لقد رخّصَ اللهُ لك، لو صلَّيتَ في بيتك؟ فيقولُ: إنّه كما تقولونَ،

ولكنّي سمعتُه ينادي: "حيّ على الفلاح"؛ فمَن سمعَ منكم ينادي: "حيّ على الفلاحِ"؛ فليجبْه ولو زحفاً، ولو حبواً. وللتّكبير المثنّى رجعةٌ في ختمِ النّداء كما كان مربّعاً في ابتدائه؛ ليظلَّ العبدُ مستحضِراً كبرياءَ ربِّه التي عمَّتِ السمواتِ والأرضَ ومن فيهنَّ؛ فـ ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. وللنِّداء ختامُ مِسكٍ بكلمةِ التوحيد التي مَن كانتْ آخرَ كلامِه من الدُّنيا دخل الجنةَ. إنَّ الأذانَ دعوةٌ تامةٌ كاملةٌ لا نقصَ فيها؛ إذْ هو دعاءٌ إلى أشرفِ العباداتِ، ونداءٌ للقيام في مقام القُربِ والمُناجاةِ الإلهيّةِ؛ فهلمّوا لإجابته.

مقامُ المصلِّي

إنَّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، من يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومن يضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له، وأشهد أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ...﴾.

أيُّها المؤمنونَ!

إنّ من أجلّ مقاماتِ العبدِ شأناً، وأرفعِها حالاً، وأعظمِها قدراً وقوفَه بين يديْ ربِّه في صلاتِه؛ مُقامٌ عظيمٌ؛ مَن وعى قدرَه وفّاه قدرَه؛ فكانَ له بذلك المقامِ عند الله — سبحانه – خيرُ المُقام. إن المصّلي إذا قامَ في صلاتِه فإنّما يقابلُ اللهَ — جلَّ وعلا –، وما ظنّكم بمُقام يقابلُ العبدُ فيه ربَّه؟! قال جابرُ بنُ عبدِاللهِ — رضيَ اللهُ عنهما –: "أتانا رسولُ اللهِ ﷺ في مسجدِنا هذا، وفي يدِه عُرجونُ ابنِ طاب، فرأى في قبلةِ المسجدِ نُخامةً فحكّها بالعُرجونِ، ثم أقبلَ علينا، فقالَ: « أيُّكم يحبُّ أن يُعرضَ اللهُ عنه؟ »، قال: فخشعْنا (أي: خِفنا)، ثم قال: « أيُّكم يحبُّ أن يُعرضَ اللهُ عنه؟ »، قال: فخشَعْنا، ثم قال: «أيُّكم يحبُّ أن يُعرضَ اللهُ عنه؟ »، قلنا: لا أيّنا – يا رسولَ الله –، قال: «فإنَّ أحدَكم إذا قامَ يصلِّي؛ فإنَّ اللهَ – تباركَ وتعالى – قِبَلَ وجهِه؛ فلا يبصقنَّ قِبلَ وجهِه، ولا عن يمينِه، ولْيبصقْ عن يسارِه، تحتَ رجلِه اليُسرى" رواه مسلمٌ.

عبادَ اللهِ!

وكما أنَّ مُقامَ المُصلّي مقامُ مقابلةٍ لربّه؛ فإنه مُقامُ مُناجاةِ عليٍّ مع مولاه السميعِ البصير، يقولُ النبيُّ ﷺ: "«إن أحدَكم إذا قام في صلاتِه، فإنَّما يناجي ربَّه، أو ربُّه بينه وبين قبلتِه " رواه البخاريُّ. وتلك المناجاةُ تحملُ المصلِّي على استحضارِ قربِه من ربِّه، واستشعارِه نظرَ اللهِ إليه، وسماعِه دعاءَه، وقربِ إجابتِه له، وخَفضِه صوتَه في مناجاتِه. قال ابنُ رجبٍ: "فمَنِ استشعرَ هذا في صلاتِه؛ أوْجبَ له ذلك حضورَ قلبِه بين يديْ ربِّه، وخشوعَه له، وتأدُّبَه في وقوفِه بين يديْه؛ فلا يلتفتُ إلى غيرِه بقلبِه ولا ببدنِه، ولا يعبثُ وهو واقفٌ بين يديْه، ولا يبصُقُ أمامَه؛ فيصيرَ في عبادته في مقامِ الإحسانِ؛ يعبدُ اللهَ كأنَّه يراه ". قال البيهقيُّ: "كان العلماءُ إذا قام أحدُهم في الصلاةِ يهابُ الرحمنَ أنْ يشدَّ بصرَه، أو يلتفتَ، أو يعبثَ بشيءٍ، أو يقلِّبَ الحصا، أو يحدّثَ نفسَه من شأنِ الدُّنيا إلا نسِّياً". قال أبو هريرةَ — رضي اللهُ عنه -: "إذا قام الرجلُ إلى الصلاةِ؛ فإنَّه في مُقامٍ عظيمٍ، واقفٌ فيه على اللهِ؛ يناجيه، ويرضاه قائماً بين يديْ الرحمنِ، يسمعُ لقيلِه، ويرى عملَه، ويعلمُ ما يوَسوسُ به نفسَه؛ فلْيقبلْ على اللهِ بقلبِه وجسدِه، ثم ليرمِ ببصرِه قصدَ وجهِه خاشعاً، أو ليخفضْه؛ فهو أقلُّ لسهوِه، ولا يلتفتْ، ولا يحركْ شيئاً بيدِه ولا برجليْه ولا شيءٍ من جوارحِه حتى يفرُغَ من صلاتِه، وليُبْشرْ مَن فعل هذا، ولا قوةَ إلا بالله". وذاك الشعورُ الإيمانيُّ العظيمُ سرٌّ من أسرار استلذاذِهم بطولِ القيام، يقولُ مسلمُ بنُ يسارٍ: "ما تلذَّذَ المتلذذونَ بمثلِ الخَلوةِ بمناجاةِ اللهِ – عزَّ وجلَّ -". قال بكرُ بنُ عبدِ اللهِ المُزَنيُّ: "مَن مثلُك يا ابنَ آدمَ؟! خُلِّي بينك وبين الماءِ والمحرابِ؛ متى

شئتَ دخلتَ على ربِّك؛ ليس بينك وبينّه حجابٌ، ولا تُرجُمانٍ". ولأولئك الأخيارِ مع طولِ القيامِ عظيمُ إخبارٍ؛ قالتِ ابنةٌ لجارِ منصورِ بنِ المُعتمِر: "يا أبتِ، أين الخشبةُ التي كانتْ في سطحِ منصورٍ قائمةٌ؟ قال: يا بُنيَّةُ، ذاك منصورُ كان يقومُ الليلَ. وكان العنبسُ بنُ عقبةَ إذا قام في الصّلاةِ كأنّه جَذْمُ (أي: أصلُ) حائطٍ، وكان إذا سجدَ وقعتِ العصافيرُ على ظهرِه من طولِ سجودِه. وقال محمدُ بنُ المُنكَدرِ: "لو رأيتَ ابنَ الزُّبيرِ يصلّي، كأنّه غصنُ شجرةٍ يصفِّقُها الريحُ وحجرُ المنجنيقِ يقعُ ههنا وههنا". وكان عطاءُ بنُ رباحٍ بعدما كبُر وضعُفَ يقومُ إلى الصلاةِ، فيقرأُ مائتي آيةٍ من البقرةِ وهو قائمٌ؛ ما يزولُ منه شيءٌ، ولا يتحركُ. وكان مسلمُ بنُ يسارٍ إذا صلّى كأنّه وتدٌ؛ لا يقولُ هكذا ولا هكذا.

أيُّها المسلمون!

ووقوفُ المصلّي في مصلَّاه إيذانٌ برحمةٍ عظيمةٍ مِن أرحمِ الراحمينَ تستقبلُه وتغشاه إنْ هو شرع في صلاتِه وكان مُقبلاً عليها بقلبِه ووجهِه، يقولُ النبيُّ ﷺ: «إذا قامَ أحدُكم في الصلاةِ فلا يمسحِ الحَصى؛ فإنَّ الرحمةَ تواجهُه» رواه أبو داودَ وصحّحه ابنُ حجر. وفي ذلك الموقفِ العظيمِ تتنزَّلُ من اللهِ — سبحانه — على عبدِه بشائرُ وذخائرُ؛ فذاك — لعَمرُ اللهِ — أرْجى ما يكونُ حصولُها وإن جلّتْ؛ فقد كان ذلك الموقفُ موطنَ تبشيرِ الملائكةِ زكريّا — عليه السلامُ — بالغُلامِ النبيِّ الزكي مع عتوّ السنّ وعقمِ الزوجِ: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ

وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، قال ثابتُ البُناني: "الصلاةُ خدمةُ اللهِ في الأرضِ، ولو علم اللهُ شيئًا في الأرضِ أفضلَ من الصلاةِ ما قال: ﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ﴾". وطولُ القيامِ في الصلاةِ من أعظمِ ما يكونُ به شكرُ النّعمِ وأداءُ زكاةِ الاصطفاءِ الربانيّ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٢ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾. قالت عائشةُ رضي اللهُ عنها: كان النبيُّ ﷺ يقومُ من اللّيلِ حتى تتفطّرَ قدماه، فقالت عائشةُ: لمَ تصنعُ هذا - يا رسولَ اللهِ - وقد غفرَ اللهُ لك ما تقدّم من ذنبِك وما تأخرَ؟! قال: «أفلا أحبُّ أن أكونَ عبداً شكوراً؟!» رواه البخاريُّ ومسلمٌ. وما ذاك إلا أنَّ الصلاةَ خيرُ الأعمالِ، وخيرُ تلك الصلاةِ طولُ القيامِ فيها، يقولُ النبيُّ ﷺ: «أفضلُ الصلاةِ طولُ القنوتِ» رواه مسلمٌ. والقنوتُ هو القيامُ باتّفاقِ العلماءِ، كما قال النَّوويُّ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسّلامُ على رسولِ اللهِ.
أمّا بعدُ، فاعلموا أنّ أحسنَ الحديث كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنون!

وفي موقفِ القيامِ في الصلاةِ ذكرى القيامِ بين يديْ ربِّ العالمينَ يومَ القيامةِ؛ وذا ما دعا أهلَ العلمِ إلى الإكثارِ من ذلك القيامِ وتطويلِه؛ رجاءَ أن يهوّنَ اللهُ به عليهم قيامَ اليومِ الثّقيلِ، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾. يقولُ ابنُ القيِّم: "للعبدِ بين يدي اللهِ موقفان؛ موقفٌ بين يديْه في الصلاةِ، وموقفٌ بين يديْه يومَ لقائِه؛ فمَن قام بحقِّ الموقفِ الأوّل هوَّن عليه الموقفَ الآخرَ، ومَن استهانَ بهذا الموقفِ، ولم يوفِّه حقَّه؛ شَدَّد عليه ذلك الموقفَ، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾". كان عليُّ بنُ الحُسينِ بنِ عليّ بنِ أبي طالبٍ — رحمَه اللهُ - إذا توضَّأ اصفرَّ، فيقولُ له أهلُه: ما هذا الذي يعتادُك عند الوضوءِ؟ فيقولُ: أتدرونَ بين يديْ من أريدُ أنْ أقومَ؟! ومِن صورِ استشعارِ ذكرى الآخرةِ في مُقامِ الصلاةِ جوابُ حاتمِ الأصمِّ حين سُئل عن صلاتِه، فقال: "إذا حانتِ الصلاةُ أسبغتُ الوضوءَ، وأتيتُ الموضعَ الذي أريدُ الصّلاةَ فيه، فأقعدُ فيه حتى تجتمعَ

جوارحي، ثم أقومُ إلى صلاتي، وأجعلُ الكعبةَ بين حاجبيَّ، والصراطَ تحت قدميَّ، والجنةَ عن يميني، والنارَ عن شِمالي، وملَكُ الموتِ ورائي؛ أظنُّها آخرَ صلاتي، ثم أقومُ بين الرّجاءِ والخوفِ، وأُكبّر تكبيراً بتحقيقٍ، وأقرأُ قراءةً بترتيلٍ، وأركعُ ركوعاً بتواضعٍ، وأسجدُ سجوداً بتخشُّعٍ، وأقعدُ على الوركِ الأيسرِ، وأفرشُ ظَهرَ قدمِها، وأنصَبُ القدمَ اليُمنى على الإبهام، وأتبعُها الإخلاصَ، ثمّ لا أدري أقُبلَتْ منّي أم لا؟!".

مناجاةُ المصلِّي

الحمدُ للهِ القريبِ، لدعوةِ الداعي مجيبٌ، ولمسِّ الضُّرِّ طبيبٌ، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له علَّامُ الغيوبِ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلى اللهُ عليه وعلى آلِه وصحبِه وسلَّمَ تسليماً كثيراً لا يَفنى ولا يغيبُ .

أمّا بعدُ، فاتّقوا اللهَ — عبادَ اللهِ -، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ...﴾

أيّها المؤمنون!

الصلاةُ ذاتُ شأنٍ وجيهٍ عند اللهِ - عزّ وجلّ -؛ جعلَ لها من الخصائصِ ما ليس لغيرِها من العباداتِ. ومن أجلّ خصائصِها أنها موطنٌ عظيمٌ لمناجاةِ العبدِ الضعيفِ ربَّه المتعالِ من حين افتتاحِها بالتّكبيرِ إلى حينِ اختتامِها بالتّسليمِ، بل قال بعضُ أهلِ العلمِ: إنّ "مناجاةَ اللهِ لا تحصلُ للعبدِ إلا فيها خاصّةً"[١]، و" مناجاةُ الربِّ — جلّ جلالُه - أرفعُ درجاتِ العبدِ"[٢] . يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: "إن المؤمنَ إذا كان في الصلاةِ، فإنّما يناجي ربَّه" رواه البخاريّ، وفي روايةِ أحمد: "إن المصلّيَ إذا صلّى فإنما يناجي ربَّه — تبارك وتعالى -؛ فلْيعلمْ بما يناجيه، ولا يجهرْ بعضُكم على بعضٍ". وباستشعارِ تلك المناجاةِ يكونُ استحضارُ مقصودِ الصلاةِ، وتحقيقُ ثمرتِها، قال عبدُاللهِ بنُ المباركِ: سألتُ سفيانَ الثوريَّ عن

(١) عمدة القاري (٥/ ١٨).

(٢) فتح الباري (٢/ ١٤).

الرجلِ يصلي؛ أيَّ شيءٍ ينوي بصلاتِه؟ قال: ينوي أنْ يناجيَ ربَّه.

أيّها المسلمون!

إنّ مناجاةَ العبدِ ربَّه في صلاتِه بالقراءةِ والذكرِ والدُّعاءِ مُسارَرةٌ خفيّةٌ، وخطابٌ شريفٌ بين العبدِ المملوكِ و المَلِكِ العظيمِ؛ يستشعرُ من خلالِها المصلّي عظمةَ الموقفِ الذي شرّفه اللهُ بالوقوفِ فيه، وقُرْبَ ربِّه منه قرباً يليقُ بجلاله وعظيمِ سلطانه، قال رسولُ الله ﷺ: "إنّ أحدَكم إذا قام في صلاتِه فإنّه يناجي ربّه، أو إن ربَّه بينه وبين القبلة" رواه البخاريُّ. وأقربُ ما يكونُ ذلك القربُ عند تعفيرِ الجباهِ بالسجودِ، يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: "أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربّه، وهو ساجدٌ؛ فأكثِرُوا الدعاءَ" رواه مسلمٌ. ويالَعظمةِ تلك المناجاةِ التي تكونُ بين العبدِ وربِّه حين يجيبُ اللهُ عبدَه إن تلا آيَ الفاتحةِ في صلاتِه! قال النبيُّ ﷺ: "قال اللهُ تعالى: قسمتُ الصلاةَ بيني وبين عبدِي نصفينِ، ولِعبدي ما سأل، فإذا قال العبدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال اللهُ تعالى: حمدَني عبدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قال اللهُ تعالى: أثْنى عليَّ عبدي، وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، قال: مجّدني عبدي، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قال: هذا بيني وبينَ عبدي، ولعبدي ما سألَ، فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل" رواه مسلمٌ. ويا لِهناء المصلي حين يُكرَمُ بتلك المناجاةِ الحتميَّةِ كلَّ يومٍ وليلةٍ خمسَ مراتٍ! ويزيدُ من ذلك الشرفِ والفضلِ بقدرِ ما زاد من صلاتِه وأتقنَ، قال بكرُ بنُ عبدِ الله المزنيُّ:

" مَن مثلُك يابنَ آدم، خُلِّي بينك وبين الماءِ والمحرابِ؛ تدخلُ إذا شئتَ على ربّك؛ ليس بينك وبينه حجابٌ، ولا ترجمانٌ". وتأمّل — رحمك اللهُ — الأدبَ الشرعيَّ للمناجاةِ الإلهيةِ في الصلاةِ مُبتدَءاً ومُنْصرَفاً، قال أهلُ العلم: "ولمّا كانتِ الصلاةُ صلةً بين العبدِ وربّه، وكان المُصلّي يناجي ربَّه، وربُّه يُقرِّبُه منه؛ لم يصلحْ للدُّخولِ في الصلاةِ إلا مَن كان طاهراً في ظاهرِه وباطنِه؛ ولذلك شُرع للمصلي أن يتطهرَ بالماءِ، فيكفرَ ذنوبَه بالوضوءِ، ثم يمشي إلى المساجدِ فيكفرَ ذنوبَه بالمشيّ، فإنْ بقيَ من ذنوبِه شيءٌ كفَّرتْه الصلاةُ". وأدبُ المناجاةِ في المنصَرَفِ بالتّحياتِ والسلامِ، قال أهلُ العلمِ: "المصلِّي يناجي ربَّه ما دام يصلّي؛ فلا ينصرفْ حتى يختمَ مناجاتِه بتحيةٍ تليقُ به، ثم يحيّي خواصَّ خلقِه، ثم يدعو لنفسِه، ثم يسلمُ على الحاضرينَ معه، ثم ينصرفُ".

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسّلامُ على رسولِ اللهِ.

أيّها المؤمنون!

إنّ لاستشعارِ مناجاةِ العبدِ ربَّه في صلاتِه، واستحضارِ عظمتِها، والتحلّي بآدابِها أثراً بالغَ الحُسنِ؛ إذْ بها يحقّقُ العبدُ مقامَ الإحسانِ، قال ابنُ رجبٍ: "فمَن استشعرَ هذا في صلاتِه أوجبَ له ذلك حضورُ قلبِه بين يديْ ربِّه، وخشوعُه له، وتأدُّبُه في وقوفِه بين يديْه؛ فلا يلتفتُ إلى غيرِه بقلبِه ولا ببدنِه، ولا يعبثُ وهو واقفٌ بين يديْه، ولا يبصقُ أمامه؛ فيصيرَ في عبادتِه في مقام الإحسانِ؛ يعبدُ اللهَ كأنّه يراه". وباستشعارِ تلك المناجاةِ يكونُ تلذّذُ العبد بصلاتِه، وتغدو قرّةَ عينٍ له، ومسلاةً لهمّه، ومقضاةً لحاجتِه، كما كانت قرةَ عينٍ لنبيّه - عليه الصلاةُ والسلامُ - ومَهرعًا إليه كلّما حزَبَه أمرٌ وأهمّه، قال مسلمُ بنُ يسارٍ: "ما تلذّذ المتلذذُونَ بمثلِ الخَلوةِ بمُناجاةِ اللهِ - عزّ وجلّ -"، وقال عونُ بنُ عبدِاللهِ: "اجعلوا حوائجَكم اللاتي تهمّكم في الصلاةِ المكتوبةِ؛ فإن الدُّعاءَ فيها كفضلِها على النَّافلةِ". وبالمسارعةِ إلى تلك المناجاةِ، وحسنِ مراعاتِها يكونُ رضا المَولى — جلّ وعلا -، قال ابنُ رجبٍ: " ويُستدلُّ لذلك بأنّ اللهَ تعالى لمّا استدعى موسى - عليه السلامُ - لمناجاتِه وكلامِه أسرعَ إليه، فقال له ربُّه: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾؛ فدلّ على أنّ المسارعةَ إلى مناجاةِ

الله تُوجبُ رضاه". ونهْيُ الصلاةِ عن الفحشاءِ والمنكرِ، وتحقيقُها ذكرَ اللهِ أكبرُ إنِ استشعرَ المصلي مناجاتِه ربَّه في صلاتِه؛ إذْ به تكونُ إقامةَ الصلاةِ، ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾.

دعاءُ المُصلِّي

إنَّ الحمدَ لله؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، منْ يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومنْ يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه.

أما بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ...﴾.

أيّها المؤمنون!

للدعاءِ عند الله -جلّ وعلا- شأنٌ عليٌّ؛ فهو أكرمُ شيءٍ عليه، كما قال النبيُ ﷺ: "لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللهِ مِنَ الدُّعَاء" رواه أحمدُ وصحَّحه الحاكمُ. ومِن جليلِ كرمِه على اللهِ حياؤُه -سبحانَه- مِن عبدِه إذا دعاه أن يردَّه خائبًا، كما قال رسولُ اللهِ ﷺ: "إِنَّ رَبَّكُمْ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ، أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا" رواه أبو داودَ وصحَّحه ابنُ حبانَ. ولئِنْ كان هذا قدْرَ الدعاءِ بعامّةٍ فإن لدعاءِ الصلاةِ مزيدَ شرفٍ وحظوةٍ؛ إذْ هو أعظمُ الدعاءِ، وأرجاه قَبولاً، وأسرعُه تحققًا؛ وذلك أن مَقامَ الصلاةِ أقربُ مقاماتِ العبدِ مِن ربِّه؛ كما قالَ اللهُ -تعالى-: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب۩﴾، وقالَ النبيُّ ﷺ: "أقربُ ما يكونُ العبدُ مِن ربِّه وهو ساجدٌ؛ فأكثروا الدعاءَ" رواه مسلمٌ. ومِن ثَمّ كانت الصلاةُ موطنَ مناجاةِ العبدِ ربَّه، بل قال بعضُ أهلِ العلمِ: هي الموطنُ الوحيدُ لمناجاةِ العبدِ ربَّه. قال رسولُ اللهِ ﷺ: "إنَّ المؤمنَ إذا كان في الصلاةِ،

فإنّما يناجي ربَّه" رواه البخاريُّ. والمناجاةُ مسارَرَةٌ خفيّةٌ، وخطابٌ شريفٌ بين العبدِ المملوكِ والملكِ العظيم؛ يَستشعرُ مِن خِلالها المصلي عَظَمةَ الموقفِ الذي شرّفَه اللهُ بالوقوفِ فيه، وقُرْبَ ربِّه منه قُرباً يَليقُ بجلالِه وعظيمِ سلطانِه، ومقامُ المناجاةِ أرفعُ درجاتِ العبدِ كما قال أهلُ العلمِ. ودعاءُ الصلاةِ قد حوى خيريْ الأعمالِ وأحبَّها إلى اللهِ -سبحانه-: الدعاءَ والصلاةَ؛ فما ظنُّكم بقدْرِه عند اللهِ -تعالى-؟! قال النبيُ ﷺ: "اعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةَ" رواه أحمدُ وصحَّحه ابنُ حبانَ. والصلاةُ أعظمُ مواطنِ الذُّلِ والخضوعِ للهِ -جلَّ وعلا- وإظهارِ الافتقارِ إليه؛ قولاً وفعلاً وحالاً، كما كان النبيُّ ﷺ يقولُ في ركوعِه مستشعِراً ذلك الخضوعَ والافتقارَ في تفاصيلِ أجزاءِ بدنِه: "اللهمَّ لك ركعتُ، وبك آمنتُ، ولك أسلمتُ، خَشَعَ لك سمعي، وبصري، ومُخِّي، وعَظمي، وعَصَبي" رواه مسلمٌ. ودعاءُ الافتقارِ والخُضوعِ والانكسارِ لا يَكادُ يُردُّ. والصلاةُ أشرفُ مواطنِ الثناءِ على اللهِ -سبحانه-، والدعاءُ بعد الثناءِ لا يَخِيبُ، كما قال النبيُّ ﷺ: "قال اللهُ -تعالى-: قَسَمْتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي نِصْفَين، ولِعبدي ما سألَ، فإذا قال العبدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال اللهُ -تعالى-: حَمِدَني عبدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قال اللهُ -تعالى-: أَثْنَى عليَّ عبدي، وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، قال: مَجَّدَني عبدي - وقال مَرَّةً: فوّضَ إليَّ عبدي -، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولِعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال: هذا لِعبدي، ولِعبدي ما سألَ"رواه مسلمٌ. وجاءت أمُّ سُلَيمٍ -

رضي اللهُ عنها- إلى النبيِّ ﷺ، فقالت: يا رسولَ اللهِ، علِّمني كلماتٍ أدعو بهنَّ في صلاتي، قال: "سبِّحي اللهَ عَشْراً، واحمديه عشراً، وكبِّريه عشراً، ثم سَليه حاجتَك، يقول: نعمْ، نعمْ" رواه النسائيُّ وحسَّنه الحافظُ عبدُالغنيِّ المقدسيُّ.

وبالإلحاحِ على اللهِ — سبحانه- بالدعاءِ ترتفعُ درجةُ العبدِ عند ربِّه، وتزدادُ محبتُه له، وتكونُ إجابةُ دعائِه أقربَ ما يكونُ؛ إذ في تكريرِ العبدِ الدعاءَ إظهارٌ لموضعِ الفقرِ والحاجةِ إلى اللهِ والتذلّلِ له والخضوعِ؛ ولذا كان النبيُّ ﷺ إذا دَعا دَعا ثلاثاً (رواه مسلمٌ)، قال الأوزاعيُّ: "كان يقال: أفضلُ الدعاءِ الإلحاحُ على اللهِ -تباركَ وتعالى-، والتضرعُ إليه". والصلاةُ موطنُ إلحاحٍ على اللهِ بالدعاءِ؛ إذ فيها ستةُ مواطنٍ لم يكنِ النبيُّ ﷺ يتركُ الدعاءَ فيها، قال الحافظُ ابنُ حَجَرٍ: "مُحَصَّلُ ما ثَبَتَ عنه ﷺ من المواضعِ التي كان يدعو فيها داخلَ الصلاة ستةُ مواطنٍ؛ الأولُ: عَقِبَ تكبيرةِ الإحرامِ، ففيه حديثُ أبي هريرةَ في الصّحيحيْن: "اللهمَّ باعدْ بيني وبين خطاياي" الحديثَ، الثاني: في الاعتدالِ، ففيه حديثُ ابنِ أبي أوفى عند مسلمٍ أنه كان يقولُ بعد قولِه: " مِن شيءٍ بَعْدُ": "اللهمَّ طهِّرني بالثلجِ والبَرَدِ والماءِ الباردِ"، الثالثُ: في الركوعِ، وفيه حديثُ عائشةَ: "كان يُكثرُ أن يقولَ في ركوعِه وسجودِه: سبحانك اللهمَّ ربَّنا وبحمدِك، اللهمَّ اغفرْ لي " أخرجاه، الرابعُ: في السجودِ، وهو أكثرُ ما كان يدعو فيه، وقد أَمَرَ به فيه، الخامسُ: بين السجدتين "اللهمَّ اغفرْ لي"، السادسُ: في التشهدِ... وكان —أيضاً- يدعو في القُنوتِ، وفي حالِ القراءةِ إذا مَرَّ بآيةِ رحمةٍ سألَ، وإذا مَرَّ بآيةِ عذابٍ استعاذَ".

عبادَ اللهِ!

إنَّ دعاءَ الصلاةِ أنجحُ أسبابِ قضاءِ الحوائجِ وتحقيقِ الغاياتِ؛ كبيرةً كانت أو صغيرةً، دينيةً أو دنيويةً؛ كما أجابَ اللهُ —سبحانه- سؤالَ نبيِّه زكريا —عليه السلام-الولدَ الصالحَ مع عتوِّ سنِّه وعُقْمِ زوجِه حين دعاه قائمًا يصلّي في المحرابِ؛ ومِن هنا سأل أعلمُ الصحابةِ أبو بكرٍ الصديقُ —رضي اللهُ عنه- رسولَ اللهِ ﷺ أنْ يعلِّمَه دعاءً يدعو به في صلاتِه؛ فأرشدَه رسولُ اللهِ ﷺ إلى سؤالِ أعظمِ غايةٍ ينشدُها المؤمنُ في أعظمِ مواطنِ الإجابةِ، فقال: "قلْ: اللهمَّ إني ظلمتُ نفسيَ ظلمًا كثيراً، ولا يَغفِرُ الذنوبَ إلا أنت؛ فاغفرْ لي مغفرةً مِن عندك، وارحمْني؛ إنك أنت الغفورُ الرحيمُ" رواه البخاريُّ ومسلمٌ. قال الطَّبَريُّ: "في حديثِ أبي بكرٍ مِن الفقهِ أنَّ للمصلّي أن يدعوَ اللهَ في جميعِ صلواتِه بما بَدا له مِن حاجاتِ دنياه وآخرتِه؛ وذلك أنه ﷺ علَّمَ أبا بكرٍ مسألةَ ربِّه المغفرةَ لذنوبِه في صلاتِه، وذلك مِن أعظمِ حاجاتِ العبدِ إلى ربِّه؛ فكذلك حُكْمُ مسألتِه إياه سائرَ حاجاتِه". وكان السلفُ الصالحُ في أدعيةِ الصلاةِ يحرصون على الأدعيةِ الجامعةِ، سُئِلَ محمدُ بنُ سيرينَ عن الدعاءِ في الصلاةِ، فقال: "كان أحبُّ دعائِهم ما وافقَ القرآنَ".

الخطبة الثانية

الحمـدُ للهِ، والصـلاةُ والسـلامُ علـى رسـولِ اللهِ. أمّـا بعـدُ، فاعلمـوا أنّ أحسـنَ الحديـثِ كتـابُ اللهِ... أيّهـا المؤمنـون!

قـد وَعَـى السـلفُ الصالـحُ عِظَـمَ شـأنِ دعـاءِ الصـلاةِ، وأدركـوا سِـرَّ إجابـةِ اللهِ —سبحانه-له؛ فكانـت صلاتُـهم باحـةَ استنجاحِ حاجاتِـهم الدينيـةِ والدنيويـةِ بِطلبِهـا مِـن ربِّ العالميـنَ بدعـاءِ الصـلاةِ، وكانـوا يُطِيلـونَ ذاك الدعـاءَ، ويسـتلِذُّون تلـك المناجـاةَ الربانيـةَ إنِ انفـردوا بصـلاةِ النافلـةِ خاصـةً حـالَ السـجودِ وبَعْـدَ التشـهُّدِ سـيّما في صـلاةِ تهجُّـدِ الليـلِ. قـال ثابـتٌ البُنـانيُّ: " الصـلاةُ خِدمـةُ اللهِ في الأرضِ، ولـو عَلِـمَ اللهُ شـيئاً في الأرضِ أفضـلَ مِـن الصـلاةِ مـا قـالَ: ﴿فَنَادَتْـهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَـةُ وَهُـوَ قَآئِـمٌ يُصَـلِّي فِى ٱلْمِحْـرَابِ﴾"، واستعانَ بـه رجـلٌ علـى القاضـي في حاجـةٍ، فجعـلَ لا يَمُـرُّ بمسـجدٍ إلا نـزلَ فصلَّـى حتـى انتهـى إلـى القاضـي، فكلَّمَـه في حاجـةِ الرجـلِ، فقَضَاهـا، فأقبـلَ ثابـتٌ علـى الرجـلِ، فقـال: لعلَّـه شَـقَّ عليـك مـا رأيـتَ؟ قـال: نعـم، قـال: مـا صليـتُ صـلاةً إلا طلبـتُ إلـى اللهِ —تعالـى- في حاجتِـك. ورأى عـروةُ بـنُ الزبيـرِ رجـلاً يصلّـي فخفَّـفَ، فدعـاه، فقـال: أمَـا كان لـك إلـى ربـك حاجـةٌ؟! إني لَأَسـأَلُ اللهَ -عـزَّ وجـلَّ- في صـلاتي، حتـى أسـأَلُه المِلْـحَ! وقـال عـونُ بـنُ عبدِاللهِ: "اجعلـوا حوائجَكـم الـلاتي تُهِمُّكـم في الصـلاةِ المكتوبـةِ؛ فـإنَّ الدعـاءَ فيهـا كفضْلِهـا علـى النافلـةِ". وقـال الشـافعيُّ: "كلُّ مـا جـازَ للمـرءِ أنْ يدعـوَ اللهَ بـه في غيـرِ صـلاةٍ، فجائـزٌ أن يدعـوَ اللهَ بـه في صلاتِـه، بـل أسـتحِبُّ ذلـك لـه؛ لأنـه موضـعٌ

يُرجَى سرعةُ الإجابةِ فيه، وإنما الصلاةُ القراءةُ والدعاءُ".

وبعدُ، فهذا قَبَسٌ مِن سَنَا دعاءِ الصلاةِ؛ فيا طُوبى مَنْ فَتَحَ اللهُ عليه بدعاءِ الصلاةِ، ورَزَقَه لذةَ المناجاةِ؛ فكان دعاءُ صلاتِه مَبَثَّةَ همومِه، ومَسْلَاةَ أحزانِه، ومَقْضَاةَ حوائجِه، ومَطْلَبًا لعزِّ أمتِه وإرغام عُداتِها؛ فَفَازَ بالحَظْوةِ لدى مولاه، وكانت صلاتُه قُرَّةَ عينِه، وبركةً على أمتِه، ومَفْزِعَه إنْ حَزَبَه أَمْرٌ!

كنوزُ البِرِّ تَتْرى بامتنانٍ يُجادُ بها على داعي الصلاةِ

مَفزَعُ المأزومِ

الحمدُ للهِ ذي الحكمةِ البالغةِ، والنعمةِ السابغةِ، عمّ خَلْقَه بالنّوالِ، وفاضَ عطاؤه على السؤالِ، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ الكبيرُ المتعالِ، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلى اللهُ وسلمَ عليه وعلى أصحابِه والآلِ.

أمّا بعدُ، فاتقوا اللهَ — عبادَ اللهِ –، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ...﴾.

أيُّها المؤمنون!

الكبَدُ والرهقُ قدَرٌ قد فُطِرتْ عليه الدُّنيا، واصطَبغتْ أيامُها به، وتناوبَ حالُها بالمُراوحةِ عليه. وذا ما أكّده المَولى — جلّ وعلا — في قولِه: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَـٰنَ فِي كَبَدٍ﴾؛ فالمشقةُ لا تكادُ تنفكُّ من حياتِه من حينِ كونِه نُطفةً إلى أن يُوارَى في رمسِه دفيناً. والمشقةُ تعظُمُ بعظَمِ البلاءِ، وتطولُ ساعتُها بامتدادِ ليلِه الحالِكِ، سيّما إنْ لم يكنْ للمرء يدٌ في دَفعِه أو رفعِه، وتوالَى صبُّه، وتعدّدتْ طُرقُه. ومع تجهُّم ذلك الحالِ، وانسدادِ أُفُقِه بحجْبِ الهُمومِ إلا أنّ للمؤمنِ فيه مُسْتراحاً يفيءُ إليه، ويُطفِئُ بنميرِه لهيبَ رهَقِه، ويُندّي جفافَ رُوحِه الذي أيْبَسَتْه فواجعُ الأحداثِ. ذلكم — عبادَ اللهِ — مَعينُ الصلاةِ التي هي عُدّةُ المؤمنِ في بلائِه، وسلوتُه في ضرّائه، وأُنسُه في وَحشتِه.

أيُّها المؤمنونَ!

إنّ مَن يتأملِ التوجيهَ الربانيَّ للمؤمنينَ حالَ حلولِ الكُروبِ وإطافةِ الأزماتِ

بهم؛ يلحظْ – وبجلاءٍ – تلك الحَظوةَ التي أوْلتها الشَّريعةُ للصّلاةِ باعتبارها عُدةً وزاداً يُتخطّى به البلاءُ أيّاً كان حجمُه ومداه ومصدرُه وأدواتُه؛ فعلى الصّعيدِ الشخصيِّ كان النبيُّ ﷺ يتدرَّعُ بالصلاةِ كلّما أهمّه أمرٌ، قال حُذيفةُ — رضي اللهُ عنه –: "كان النبيُّ ﷺ إذا حزَبَه أمرٌ، صلّى" رواه أبوداودَ وحسّنه الألبانيُّ. بل ذاك دأبُ الأنبياءِ قاطبةً، كما قال النبيُّ ﷺ: "وكانوا يفزَعونَ إذا فزَعوا إلى الصلاةِ" رواه أحمدُ بإسنادٍ صحيحٍ. وذلك شاملٌ ما يخصُّ من الأمرِ وما يعمّ ُ. فحين استطَال فرعونُ في طغيانِه، واشتدَّ البلاءُ ببني إسْرائيلَ ولم يكنْ لهم قدرةٌ على المُصاولةِ؛ أوْحى اللهُ إلى نبيَّيْه موسى وهارونَ بأمرِ قومِهم بالإكثارِ من الصلاةِ وأنّها بِشارةُ النصرِ القريبِ، قال تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾. بلِ الصلاةُ علاجٌ للأزماتِ الكونيةِ وإنْ لم يكنِ البشرُ طرفاً فيها؛ فحين يتأخرُ المطرُ، وتنكسِفُ الشّمسُ، وينخسِفُ القمرُ؛ فإنَّ الصلاةَ هي المَفزعُ لانتظامِ حالِها ودوامِ صلاحِها. قال أنسٌ — رضي اللهُ عنه–: "إنْ كانتِ الريحُ لتشتدُّ، فنبادرُ إلى المسجدِ؛ مخافةَ القيامة" رواه أبوداودَ وحسّنه النوويُّ. قال علقمةُ: "إذا فزِعتُم من أفقٍ من آفاقِ السماءِ؛ فافزَعوا إلى الصلاةِ". إنَّ الصلاةَ صلةٌ ولقاءٌ بين العبدِ والربِّ؛ صلةٌ يستمدُّ منها القلبُ قوةً، وتحسُّ فيها الروحُ صلةً، وتجدُ فيها النفسُ زاداً أنفسَ من أعراضِ الحياة الدُّنيا. ولقد كان رسولُ اللهِ ﷺ إذا حزنَه أمرٌ فزِعَ إلى الصلاةِ، وهو الوثيقُ الصلةِ بربّه الموصولُ الروحِ بالوحْيِ والإلهامِ. وما يزالُ هذا اليُنبوعُ الدّافقُ في مُتناوَلِ كلِّ مؤمنٍ يريدُ زاداً للطريقِ، وريّاً في الهجير، ومدداً حين ينقطعُ المددُ، ورصيداً حين ينفدُ الرصيدُ.

أيُّها المؤمنون!

إنَّ للصلاةِ أثراً في تبدُّل الأزماتِ العامَّةِ والخاصَّةِ وفكِّ خنقِها وحلّ عُقَدها؛ وما ذاك إلا لما حوَتْه من زخائرَ يفيضُ خيرُها على النفسِ ويمتدُّ فيضُه على الوجودِ؛ فبالصلاة استمدادُ العوْن الإلهيِّ الذي لا تصمُدُ أمامه قوةٌ ولا تبقى معه أزمةٌ، قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾. ومن ذلك العونُ ما تسكبُه الصلاةُ في قلبِ صاحبِها من قوةٍ يطمئنُّ بها في مُدلَهِمِّ الخُطوبِ وحالِكِ الكُروبِ؛ فلا تفزعُه الأوهامُ ولا يتملَّكُه الذُّعرُ؛ ولذا فإنّها لم تسقطْ عن المقاتلينَ وأيديهم قابضةٌ أزنُدَ سلاحِهم. وبالصلاةِ استشعارُ مناجاةِ اللهِ وقُربه الذي يبدِّدُ كلَّ وَحشةٍ، ولا يُبقي في النفسِ همّاً إلا وبثّه المصلّي إلى ربِّه القريبِ السميعِ المجيبِ — جلّ وعلا -، يقولُ رسولُ الله ﷺ: «إنّ أحدَكم إذا قامَ في صلاتِه، فإنّما يناجي ربَّه أو ربُّه بينه وبين قبلتِه» رواه البخاريُّ ومسلمٌ. والصلاةُ مسْلاةٌ من الهمومِ التي ينوءُ ثقلُها عن الأحْمالِ، فكأنَّها فسحةٌ تحلُّ في القلب تبلتعُ الهمَّ وتسكّنُ الرَوْعَ وتشرحُ الخاطرَ؛ فتنقلُ المصلِّي من عالمِ الشَّهادةِ إلى عالمِ الغيبِ، ومِن ضيقِ المحسوسِ إلى سعةِ الأملِ، ومن نكَدِ الأرضِ إلى صفاءِ السماءِ، ومن صِغرِ الدُّنيا إلى رَحابةِ الآخرةِ؛ وذا ما أرشدَ اللهُ نبيَّه إليه حين يضيقُ صدرُه بإعراضِ المعرضينَ وتهديدِ المجرمينَ، فقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾. والصلاةُ رِباطُ رحمٍ بين المصلِّي وجُزئياتِ الكونِ المسبِّحةِ بحمدِ ربِّها؛ فلا يتملكُه اليأسُ والاستذلالُ وانتشارُ الفسادِ وهو يرى

الكـونَ الهائـلَ بسَـمائه وأرضِـه وجبالِـه وشَـجَرِه ودوابِّـه ونَجمِـه منتظمـاً في سـلكِ الطائعيـنَ وشُـذَّاذُ الفَجَـرةِ منبـوذونَ مـن هـذا الكـونِ والكـونُ يتحيَّـنُ المُسـتراحَ منهـم. والصـلاةُ مَنهـاةٌ عـن فعـلِ القبيـحِ، مَطهـرةٌ مـن أثـرِه القبيـحِ؛ فمـاذا يبقـى بعدهـا للذنـبِ مـن شـؤمٍ يُناكَـد بـه العبـدُ المنيـبُ؟!

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
وبعدُ، فاعلموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنون!

وحتى يكونَ للصَّلاةِ أثرٌ في تبديلِ الحالِ وانفراجِ الأزمةِ؛ فإنَّه لا بدَّ من مراجعةٍ صادقةٍ لحالِنا معها أفراداً ومُجتمعاً؛ فهي أوْلى ما تنبغي مراجعتُه بعد توحيدِ اللهِ! ما مدى حفاظُنا عليها وتَواصينا بها؟ ما قدْرُ خشوعِنا فيها؟ كيف أمرُنا لأهلِنا ومَن ولّانا اللهُ بها؟ ما أثرُ منعِها لنا من العصيانِ؟ هل أحدثتِ الخطوبُ لنا عنايةً بها وبُعداً عمّا يُلهي عنها؟

أيّها المسلمونَ!

إنّ الأزماتِ سياطٌ ربانيةٌ؛ يسوقُ اللهُ بها العبادَ إليه؛ فمَن كانتِ الأزمةُ سبباً في إنابتِه لربِّه والفيئةِ له فنِعمَ ما ظفِرَ، ومَن لم تزدْه الأزمةُ إلا بعداً من موْلاه فيا خيبةَ مَسعاه! ويا بَوارَ مثواه! فأخسرُ الخاسرينَ هو مَن يعاني كَبَدَ الحياةِ الدُّنيا لينتهيَ إلى الكَبَدِ الأشقِّ الأمرّ في الأُخرى، وأفلحُ الفالحينَ مَن يكدحُ في الطَّريقِ إلى ربِّه ليلقاه بمؤهلاتٍ تُنهي عنه كبدَ الحياةِ، وتنتهي به إلى الراحةِ الكُبرى في جنةِ اللهِ، والصلاةُ قنطرةُ ذلك بعد توحيدِ اللهِ؛ فأبصِروا شأنكم معها. أعوذُ بالله من الشيطانِ الرجيم: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾.

وقرآنَ الفجرِ

الحمدُ للهِ مُسدي النعماءِ، ودافعِ البلاءِ، له الحمدُ في الضراءِ كما له الحمدُ في السَّراءِ. وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له في الأرضِ ولا في السماءِ، وأشهد أنّ محمداً عبدُه ورسولُه إمامُ الحنفاءِ، صلى اللهُ وسلمَ عليه وعلى آلِه وصحبِه الشرفاءِ. أمّا بعدُ، فاتقوا اللهَ — عبادَ اللهِ –، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ...﴾.

أيّها المؤمنون!

من أعظمِ مشاهدِ الإيمانِ وأوقعِها أثراً في النّفس مشهدُ المُصلينَ في المساجدِ حالَ تراصّهم في الصفوفِ؛ لمقابلةِ خالقِهم في أحبِّ فرائضِه إليه. ويزدادُ ذلك الموكبُ هيْبةً ويزدانُ جمالاً بكثرة من يأرِزُ إليه وينضَوي فيه. وبالعكسِ من ذلك إنْ تقالّ روّادُه، وكثُر هاجِروه. وذاك أجْلى ما يكونُ عند صلاةِ الفجرِ — وللأسف – ! إذْ ترى الصفوفَ وقد انكمشتْ إلى ما يقربُ من النِّصفِ بل قد تزيدُ، والمتخلفونَ على الفرُشِ يتقلبونَ! وفي استبانةٍ أُجريتْ على مِائتينِ وسبعةَ عشرَ طالباً في المرحلةِ الثانويةِ؛ لمعرفةِ حجمِ التخلُّفِ عن شهودِ صلاةِ الفجرِ؛ تبيّنَ أنّ مِائةً وأربعةَ عشرَ منهم لا يشهدونَ تلك الصلاةَ مع الجماعةِ في المسجدِ! غيرُهم من بركاتِ هذه الصلاةِ ينهلُ، وهم من فضلِها في نقصٍ وحرمانٍ!

أيّها المسلمون!

صلاةُ الفجرِ فيصلٌ بين نَشْطِ الإيمان وثِقْلِ النّفاقِ، يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: «أَثْقَلُ الصَّلاَةِ عَلَى المُنَافِقِينَ العِشَاءُ وَالفَجْرُ» رواه البخاريُّ، وقال أُبيّ بنُ كعبٍ — رضي اللهُ عنه -: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا الصُّبْحَ، فَقَالَ: أَشَاهِدٌ فُلَانٌ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: أَشَاهِدٌ فُلَانٌ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: "إِنَّ هَاتَيْنِ الصَّلَاتَيْنِ أَثْقَلُ الصَّلَوَاتِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ. وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَيْتُمُوهُمَا، وَلَوْ حَبْوًا عَلَى الرُّكَبِ" رواه أبو داودَ وحسّنه الألبانيُّ. ومن هنا كانت غلبةُ تركِ الجماعةِ فيها سببًا مشروعًا في إساءةِ الظنّ بالمتخلّفِ، يقول ابنُ عمرَ — رضي اللهُ عنهما-: "كُنَّا إِذَا فَقَدْنَا الرَّجُلَ فِي صَلَاةِ الْعِشَاءِ، وَصَلَاةِ الصُّبْحِ أَسَأْنَا بِهِ الظَّنَّ" رواه ابنُ خزيمةَ بإسنادٍ صحيحٍ كما قال ابنُ رجبٍ. والنومُ أكبرُ مضيّعٌ لتلك الصلاةِ، وهو من أسبابِ عذابِ البرزخ إنِ اقترنَ به تفريطٌ ، ففي صحيح البخاريّ رؤيا النبيِّ ﷺ مع الملكينِ أنهم أَتَوْا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ، وَإِذَا هُوَ يَهْوِي بِالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ فَيَثْلَغُ رَأْسَهُ، فَيَتَدَهْدَهُ الحَجَرُ هَا هُنَا، فَيَتْبَعُ الحَجَرَ فَيَأْخُذُهُ، فَلاَ يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَتَّى يَصِحَّ رَأْسُهُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ المَرَّةَ الأُولَى، وأخبراه أنّه الرجلُ يأخذُ القرآنَ فيرفضه وينامُ عن الصلاةِ المكتوبةِ.

عبادَ الله!

﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ قَسَمٌ من اللهِ العظيمِ بوقتِ هذه الصلاةِ؛ فكيف بها هي؟! قَسَمٌ يدعو إلى تساؤلٍ عن غُنْمِها الذي بوّأها هذا النُّزلَ العليَّ، وأضحى به شهودُها

مطلبـاً وإنْ كان حبْواً على الرُّكَب كما يحبو الصغيرُ الدارِجُ ؟ في ذلك الشهودِ حفظُ اللهِ بالدخولِ في ذمّتِه، وجَارُ اللهِ آمنٌ غَيْرُ مَخْذُولٍ، يقولُ النبيُّ ﷺ:"مَن صلّى الصُّبْحَ فَهُوَ فِي ذمَّةِ اللهِ" رواه مسلمٌ. وفي حنادسِ ظُلَمِ الفجرِ بشارةُ النورِ التامِّ في ظُلَمِ القيامةِ، يقولُ النبيُّ ﷺ: "«بَشِّرِ الْمَشَّائِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَى الْمَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» رواه أبو داودَ وصحّحه الحاكمُ على شرطِ الشيخَينِ ووافقهُ الذهبيُّ. وشهودُ صلاتَي الفجرِ والعشاءِ مع جماعةِ المسجدِ تعدِلُ ثوابَ إحياءِ الليلِ كلِّه بالصّلاةِ، يقولُ النبيُّ ﷺ: «مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا صَلَّى اللَّيْلَ كُلَّهُ» رواه مسلمٌ. وملائكةُ الليلِ تجتمعُ بملائكةِ النهارِ صلاةَ الفجرِ في المسجدِ، وتسجّلُ شهادتَها عند اللهِ كلَّ يوم للمصلينَ في ذلك المشهدِ، يقولُ النبيُّ ﷺ: "المَلاَئِكَةُ يَتَعَاقَبُونَ؛ مَلاَئِكَةٌ بِاللَّيْلِ، وَمَلاَئِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاَةِ الفَجْرِ، وَصَلاَةِ العَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ، فَيَقُولُ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ يُصَلُّونَ" رواه البخاريُّ ومسلمٌ. وهذا هو شهودُ قرآنِ الفجرِ الذي نوّه اللهُ به، وحثَّ عليه في قيلِه: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾. وصلاةُ الفجرِ عاصمةٌ من ولوجِ النارِ، يقولُ النبيُّ ﷺ: «لَنْ يَلِجَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَقَبْلَ غُرُوبِهَا» - يَعْنِي: الْفَجْرَ وَالْعَصْرَ — رواه مسلمٌ. وإذا كانت تلك الصلاةُ عاصمةً من النارِ؛ فإنّها سببٌ عظيمٌ للفوزِ بالجنةِ، يقولُ النبيُّ ﷺ: «مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»، والبردان: الفجرُ والعصرُ، رواه البخاريُّ ومسلمٌ. قَالَ إبراهيمُ النخعيُّ: "كانوا يروْن أنّ المشيَ إلى الصلاةِ فِي

الليلةِ الظلماءِ موجبةٌ"، أي: تُوجبُ لصاحبِها الجنةَ. بل إنّ صلاةَ الفجر سبيلٌ للظفَرِ برؤيةِ اللهِ — جلّ وعلا -؛ أعظمِ نعيمِ أهلِ الجنةِ، يقولُ جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ — رضي اللهُ عنه -: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَظَرَ إِلَى القَمَرِ لَيْلَةً - يَعْنِي البَدْرَ -، فقَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ، لاَ تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لاَ تُغْلَبُوا عَلَى صَلاَةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾، قَالَ إِسْمَاعِيلُ — أحدُ الرُّواةِ -: «افْعَلُوا؛ لاَ تَفُوتَنَّكُمْ» رواه البخاريُّ. ومُصلُّو الفجرِ جماعةً في المسجدِ دروعٌ يقي اللهُ بهمُ البلادَ والعبادَ من العذابِ، يقولُ شدادُ بنُ أوسٍ — رضي اللهُ عنه-: "مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَجْعَلَهُ اللهُ مِنَ الَّذِينَ يَدْفَعُ بِهِمُ الْعَذَابَ عَنْ أَهْلِ الْأَرْضِ فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَاتَيْنِ الصَّلَاتَيْنِ فِي الْجَمَاعَةِ؛ الصُّبْحِ، وَالْعَتَمَةِ". رواه ابنُ عبدالبرِّ.

أيّها المسلمون!

وما يزالُ فيضُ خيرِ تلك الصلاةِ دفّاقاً على ما احتفَّ به من نوافلِ الطّاعةِ؛ إذْ شرُفتْ بشرفِه، وعظُمَتْ بقدْرِه. ومن تلك الطاعاتِ: راتبةُ الفجرِ التي فاقتْ نعيمَ الدُّنيا بأسرِه، هذه السُّنةُ؛ كيف الفريضةُ؟! يقول النبيُّ ﷺ: «رَكْعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» رواه مسلمٌ. ولذا كان النبيُّ ﷺ لا يتركُها حضراً ولا سفراً. وللذّكرِ بعد صلاةِ الفجرِ مَزيّةٌ جعلتِ النبيَّ ﷺ لا يدعُ الذكرَ وقتئذٍ، روى جابرُ بنُ سمُرةَ — رضي اللهُ عنه -: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا صَلَّى الْفَجْرَ جَلَسَ فِي مُصَلَّاهُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ حَسَنًا (مرتفعةً)» رواه مسلمٌ. وقَالَ

رَسُولُ اللهِ ﷺ: "مَنْ صَلَّى الغَدَاةَ فِي جَمَاعَةٍ، ثُمَّ قَعَدَ يَذْكُرُ اللهَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ كَانَتْ لَهُ كَأَجْرِ حَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ تَامَّةٍ تَامَّةٍ تَامَّةٍ" رواه الترمذيُّ وحسنه الألبانيُّ. يقولُ ابنُ القيِّم: "وَمِنَ الْمَكْرُوهِ عِنْدَهُمُ النَّوْمُ بَيْنَ صَلَاةِ الصُّبْحِ وَطُلُوعِ الشَّمْسِ؛ فَإِنَّهُ وَقْتُ غَنِيمَةٍ، وَلِلسَّيْرِ ذَلِكَ الْوَقْتَ عِنْدَ السَّالِكِينَ مَزِيَّةٌ عَظِيمَةٌ، حَتَّى لَوْ سَارُوا طُولَ لَيْلِهِمْ لَمْ يَسْمَحُوا بِالْقُعُودِ عَنِ السَّيْرِ ذَلِكَ الْوَقْتَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، فَإِنَّهُ أَوَّلُ النَّهَارِ وَمِفْتَاحُهُ، وَوَقْتُ نُزُولِ الْأَرْزَاقِ، وَحُصُولِ الْقَسْمِ، وَحُلُولِ الْبَرَكَةِ، وَمِنْهُ يَنْشَأُ النَّهَارُ، وَيَنْسَحِبُ حُكْمُ جَمِيعِهِ عَلَى حُكْمِ تِلْكَ الْحِصَّةِ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ نَوْمُهَا كَنَوْمِ الْمُضْطَرِ". وقال: "حضرتُ شيخَ الإسلامِ ابنَ تيميةَ مرةً صلى الفجرَ، ثم جلس يذكرُ اللهَ تعالى إلى قريبٍ من انتصافِ النّهارِ، ثمّ التفتَ إليّ، وقال: هذه غَدوتي، ولو لم أتغدّ الغداءَ سقطتْ قوّتي".

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
وبعدُ، فاعلموا أنّ أحسنَ الحديث كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنون!

لئنْ كان لصلاةِ الفجرِ مع جماعةِ المسجدِ هذا القدرُ العليُّ في الإسلامِ، وكان للتفريطِ فيها شؤمُ العاقبةِ؛ فإنّ المسلمَ مأمورٌ أنْ يأخذَ بالحزمِ في أسبابِ رعْيها؛ بصونِ الجوارحِ عن الحُرماتِ يومَه وليلتَه، والبعدِ عن السّهر إن كان حائلاً عن شهودِ الصلاةِ، وأن ينامَ على طهارةٍ وطاعةٍ وذكرٍ،خاصةً أورادَ النومِ، وأن يهيءَ وسائلَ الإيقاظِ، وأنْ يلحّ على اللهِ بإعانتِه عليها، ويحاسبَ نفسَه على التقصيرِ فيها، وأن يحرصَ على إيقاظِ أهلِ بيتِه؛ لشهودِ قرآنِ الفجرِ. وليحرصْ على القربِ من الإمامِ في كلِّ صلاةٍ، وخاصةً صلاةَ الفجرِ، قال ابنُ القيمِ: "إنّ للقربِ من الإمامِ تأثيراً فى سرّ الصلاة، ولهذا القربِ تأْثيرٌ في صلاةِ الفجرِ خاصةً يعرفُه مَن عرف قولَه تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾".

فضلُ صلاةِ الجماعة

إنّ الحمدَلله، نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه. ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا. مَن يهدِه اللهُ فلا مُضلّ له، ومن يضلِلْ فلا هاديَ له. وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ..﴾.

أيُّها المؤمنونَ!

فضائلُ الأعمالِ علمٌ شريفٌ،تَنافسَ في طلبِه ذَوو الهممِ العاليةِ؛ حين أدركوا أنه سبيلُ الفضائلِ، وحَاديها، والباعثُ إليها. وصلاةُ الجماعةِ من العباداتِ التي أوْلاها الشّرعُ رعايتَه، وأغدقَ عليها فضلَه، من حينِ العزمِ عليها إلى القُفولِ منها. خُطاها محسوبةٌ بثلاثٍ: حسنةٍ تُكتبُ، وسيّئةٍ تُكفَّرُ، ودرجةٍ في الجنةِ تُرفعُ. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "صَلاَةُ الرَّجُلِ فِي الجَمَاعَةِ تُضَعَّفُ عَلَى صَلاَتِهِ فِي بَيْتِهِ، وَفِي سُوقِهِ، خَمْسًا وَعِشْرِينَ ضِعْفًا، وَذَلِكَ أَنَّهُ: إِذَا تَوَضَّأَ، فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى المَسْجِدِ، لاَ يُخْرِجُهُ إِلَّا الصَّلاَةُ، لَمْ يَخْطُ خَطْوَةً، إِلَّا رُفِعَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ" رواه البخاريُّ. وذلك ما جعل النبيَّ ﷺ يحثُّ بني سلَمَةَ على الإبقاءِ في مكانِهم وعدمِ التحوُّلِ عنه، روى مسلمٌ عن جابرِ بنِ عبدِالله — رضي اللهُ عنهما — أنّه قال: خَلَتِ البِقاعُ حولَ المسجدِ،

فأرادَ بَنو سَلمَةَ أنْ ينتقِلوا إلى قربِ المسجدِ، فبلغَ ذلك رسولَ اللهِ ﷺ، فقال لهم: «إنّه بلغَني أنّكم تريدونَ أنْ تنتقلوا قربَ المسجد»، قالوا: نَعَم، - يا رسولَ اللهِ - قد أردْنا ذلك، فقال: «يا بَني سلمَةَ، ديارَكم تُكتبُ آثارُكم، ديارَكم تُكتبُ آثارُكم». وكتابةُ تلك الخُطى تشملُ الإيابَ من المسجدِ كما شَملتْ مجيئَه، قال أُبيُّ بنُ كعبٍ — رضي اللهُ عنه -: كان رجلٌ لا أعلمُ رجلا أبعدَ من المسجدِ منه، وكان لا تُخطئُه صلاةٌ، فقيل له: أوْ قلتُ له: لو اشتريتَ حمارا تركبُه في الظَّلماء، وفي الرَّمضاءِ، قال: ما يسرُّني أنّ منزِلي إلى جنبِ المسجدِ؛ إنِّي أريدُ أنْ يُكتبَ لي ممشايَ إلى المسجدِ، ورجوعي إذا رجعتُ إلى أهلي، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «قد جمع اللهُ لك ذلك كلَّه» رواه مسلمٌ. ولأجْلِ مُكاثرةِ الفضلِ كان بعضُهم يُقاربُ بين خُطاه إلى المسجدِ، قال ثابتٌ البُنانيُّ: كنتُ أمشي مع أنسِ بنِ مالك، وقد أُقيمتِ الصلاةُ فجعل يقربُ خُطاه، فقال: ألا تسألُني لِمَ أفعلُ هذا؟ قال: ولـمَ تفعلُه؟ قال: ليكونَ أكثرَ لخُطانا.

عبادَ الله!

وبمُناقلةِ الخُطى إلى صلاةِ الجماعة يهيءُ اللهُ — سبحانه — كرامةَ الضِّيافةِ في الجنةِ ، قال النبيُّ ﷺ، «مَن غدا إلى المسجدِ، أو راح، أعدَّ اللهُ له في الجنة نُزلا، كلَّما غدا، أو راح» رواه مسلمٌ. وفرَحُ اللهِ بالقادمِ إلى صلاةِ المسجدِ من تُحفِ الكرامةِ، قال رسولُ اللهِ ﷺ: «لا يتوضأُ أحدُكم فيُحسنُ وضوءَه ويسبغُه، ثم يأتي المسجدَ لا يريدُ إلا الصلاةَ فيه، إلا تبَشْبَشَ اللهُ إليه كما يتبَشْبَشُ أهلُ الغائبُ بطَلْعتِه» رواه أحمدُ وصحّحه ابنُ خُزيمةَ. والقادمُ إلى المسجدِ للصَّلاة

قد ضَمِنَ اللهُ إحدى غنيمتيْنِ، قال رسولُ الله ﷺ: "ثلاثةٌ كلُّهم ضامنٌ على اللهِ عزَّ وجلَّ"، وذكر منهم: "رجلاً راح إلى المسجدِ، فهو ضامنٌ على اللهِ حتى يتوفَّاه فيدخلَه الجنةَ، أو يردَّه بما نال من أجرٍ وغَنيمةٍ" رواه أبو داودَ وصحَّحه الألبانيُّ. والمشيُ إلى صلاةِ الجماعة من أسبابِ هناءِ العيشِ وحسنِ الخاتمة، قال النبيُّ ﷺ: "أتانى ربي عزَّ وجلَّ الليلةَ في أحسنِ صورةٍ- يعني في النَّوم-... فقال: يا محمدُ! هل تدري فيمَ يختصمُ الملأُ الأعلى؟ قلتُ: نعم، يختصمونَ في الكفَّاراتِ والدرجاتِ، قال: وما الكفاراتُ والدرجاتُ؟ قال: المُكثُ في المساجدِ، والمشيُ على الأقدامِ إلى الجُمُعاتِ، وإبلاغُ الوضوءِ في المَكاره، ومَن فعل ذلك عاش بخيرٍ، ومات بخيرٍ، وكان من خطيئتِه كيومِ ولدتْه أمُّه " رواه أحمدُ وصحَّحه الألبانيُ. وصلاةُ الجماعةِ الواجبةُ فاقتْ صلاةَ المنفردِ بسبعٍ وعشرينَ ضعفاً كما صحَّ ذلك عن رسولِ اللهِ ﷺ. قال سعيدُ بنُ المسيِّبِ: «مَن حافظ على الصلواتِ الخمسِ في جماعةٍ فقد ملأ البرَّ والبحرَ عبادةً». قال أبو زرعةَ الرازيُّ:"كنتُ منذُ سنين نحوِ عشرين سنةً ربما خطرَ ببالي تقصيري وتقصيرُ الناسِ في الأعمالِ في النوافلِ والحجِّ والصيامِ والجهادِ، فكثُرَ ذلك في قلبي، فرأيتُ ليلةً فيما يَرى النائمُ كأنَّ آتياً أتاني فضربَ يدَه بين كتفي، فقال: قد أكثرتَ من العبادةِ، وأيُّ عبادةٍ أفضلَ من الصلواتِ الخمسِ في جماعةٍ؟!". والعصمةُ من الشيطانِ من بركاتِ صلاةِ الجماعةِ، قال رسولُ اللهِ ﷺ: «ما مِن ثلاثةٍ في قريةٍ ولا بَدوٍ لا تقامُ فيهمُ الصلاةُ إلا قد استحوذَ عليهم الشيطانُ؛ فعليك بالجماعة؛ فإنَّما يأكُلُ الذئبُ القاصيةَ» قال السائبُ: يعني بالجماعةِ: الصَّلاةَ في الجماعةِ. (رواه أبو داودَ وحسّنه الألبانيُّ).

عبادَ الله!

لأجلِ تلك الفضائلِ وغيرِها لم تسقطْ صلاةُ الجماعةِ حالَ الخوفِ إنْ أمكنَ أداؤها، ولم يعذرِ النبيُّ ﷺ الأعمى الذي جاء يستأذنُه في تركِ الجماعةِ متذرعًا بكفِّ بصرِه مع عدمِ وجودِ المرشدِ الذي يأخذُ بيدِه كما روى مسلمٌ. ولأجلِها كان السلفُ الصالحُ يُعنْونُ بشأنِ صلاةِ الجماعةِ أيَّما عنايةٍ! قال سعيدُ بنُ المسيبِ: "ما فاتتْني التكبيرةُ الأولى منذُ خمسينَ سنةً، وما نظرتُ في أقفيةِ الناسِ منذ خمسينَ سنةً"، يعني في صلاةِ الجماعةِ. و كان سعيدُ بنُ عبدِالعزيزِ التّنوخيُّ إذا فاتتْه صلاةُ الجماعةِ بكى. وقال القاضي ابنُ سماعةٍ: "مكثتُ أربعينَ سنةً لم تفتْني التّكبيرةُ الأولى إلا يوما واحدا ماتتْ فيه أمِّي فاتتني صلاةُ الجماعةِ". وقال قاضي الشَّامِ سليمانُ بنُ حمزةَ المقدسيُّ: "لم أصلِّ الفريضةَ منفردًا إلا مرتيْنِ وكأنِّي لم أصلِّهما قطُّ" مع أنَّه قارب التسعينَ! وأتى ميمونُ بنُ مهرانَ المسجدَ فقيل له: إنَّ الناسَ قد انصرفوا، فقال: إنَّا للهِ وإنَّا إليه راجعون! لَفضلُ هذه الصلاةِ أحبُّ إليَّ من ولايةِ العراقِ. وكان الربيعُ بنُ خُثيمٍ يُقادُ إلى الصلاةِ وبه الفالِجُ فيُقالُ له: يا أبا يزيد، قد رُخِّص لك، قال: إني أسمعُ حيّ على الصلاة حيّ على الفلاحِ؛ فإنِ استطعتُم أن تأتوها ولو حبواً. وقال مخلدُ بنُ الحُسينِ: "كان بالبصرةِ رجلٌ يُقالُ له شدّادٌ أصابَه الجُذامُ فانقطعَ فدخلَ عليه عُوّادُه فقالوا: كيف تجدُك؟ قال: بخيرٍ؛ ما فاتني حزبي من الليلِ منذُ سقطتُ. وما بي إلا أنّي لا أقدرُ على أنْ أحضرَ صلاةَ الجماعةِ".

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ السلامُ على رسولِ اللهِ.

وبعدُ، فاعلموا أنّ أحسنَ الحديثُ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

إنّ صلاةَ الجماعةِ من العلاماتِ الفارقةِ التي كان يستدلُّ بها الصّحابةُ — رضيَ اللهُ عنهم — على الإيمانِ والنفاقِ، يقولُ عبدُالله بنُ مسعودٍ — رضي اللهُ عنه -: "«مَن سرّه أنْ يَلقى اللهَ غدا مسلما، فلْيحافظْ على هؤلاءِ الصلواتِ حيثُ يُنادَى بهنَّ، فإنَّ اللهَ شرعَ لنبيِّكم ﷺ سُننَ الهدى، وإنهنَّ من سننِ الهدى، ولو أنّكم صليتُم في بيوتِكم كما يصلّي هذا المتخلّفُ في بيته، لتركتم سنّةَ نبيّكم، ولو تركتُم سنّةَ نبيِّكم لضللتُم، وما من رجلٍ يتطهرُ فيُحسنُ الطُّهورَ، ثم يعمدُ إلى مسجدٍ من هذه المساجدِ، إلا كتبَ اللهُ له بكلِّ خُطوةٍ يخطوها حسنةً، ويرفعُه بها درجةً، ويحطُّ عنه بها سيِّئةً، ولقد رأيتُنا وما يتخلّفُ عنها إلا منافقٌ معلومُ النفاقِ، ولقد كان الرجلُ يُؤتَى به يُهادَى بين الرجليْنِ حتى يُقامَ في الصَّف» رواه مسلمٌ.

أيّها المسلمون!

ما كان لصلاةِ الجماعةِ أنْ تتبوّأَ هذا النُّزلَ العليَّ في ميزانِ الشرعِ إلا لعظَمِ أثرِها في صلاحِ الفردِ والمجتمعِ؛ فعظِّموا ما عظّمَ اللهُ، واقدُروا قدرَه، وتواصَوْا بذلك، ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾.

صلاةُ الاستخارة

إنَّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، من يهدِه اللهُ فلا مُضلَّ له، ومن يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريك له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ...﴾.

أيُّها المؤمنون!

مِن عجيبِ شأنِ الصَّلاةِ جبْرُها ضعفَ العبدِ وعجزَه، ومدُّه بقوةٍ تعينُه على تخطّي مشاقَّ الكبَد الذي صُبِغت حياتُه به. ومن أوجُه جبرِ الصلاةِ ذلك الضعفَ البشريَّ، أن تكونَ مرشدةً له في اختيارِ الرأيِ الصائبِ واتخاذِ الموقفِ الراشدِ؛ إذْ كثيراً ما يَخفى على المرءِ وجهُ الصوابِ فيما يشتبهُ عليه أمرُه، أو لا يَعلمُ عاقبتَه ومآلَه وإنْ تبدّى له استحسانُه ابتداءً مع ما جُبل عليه من نقْصِ العجلةِ، سيّما فيما عظُم خطرُه؛ من تعلُّقٍ بأمرِ جماعةٍ، أو جهةٍ قد تقلّد أمرَها، أو كان أمراً ذا علاقةٍ بحقوقِ الخَلق. فمِن رحمةِ اللهِ بعبادِه ولُطفه بهم، ولِما للصلاةِ ذاتِ الدعاءِ من قدرٍ عظيمٍ عنده؛ فقد ندب عبدَه إن همّ بأمرٍ ولم يتضحْ له رشدُه أو تعارضَ مع أمرِ رشدٍ آخرَ سواءً كان أمرَ دينٍ أو دنيا - أن يَسبرَ خِيرتَه وصوابَه وأولويتَه، وأنْ يستشرفَ مآلَه؛ وذلك بما شرعَ من صلاةِ الاستخارةِ التي بلغتْ من اهتمامِ النبيّ ﷺ شأناً جعلتْه كثيرَ التعاهُدِ لأصحابِه

بتعليمِهم الاستخارةَ كما كان يعلمُهم السورةَ من القرآنِ. قال جابرُ بنُ عبدِالله- رضي اللهُ عنهما -: كان رسولُ الله ﷺ يعلمُنا الاستخارةَ في الأمورِ كلِّها، كما يعلمُنا السورةَ من القرآن، يقولُ: "إذا همّ أحدُكم بالأمرِ؛ فلْيركعْ ركعتيْنِ من غيرِ الفريضةِ، ثم ليقلْ: اللّهمّ إني أستخيرُك بعلمِكَ، وأستقدرُك بقدرتِك، وأسألُك من فضلِك العظيمِ؛ فإنّك تقدرُ ولا أقدرُ، وتعلمُ ولا أعلمُ، وأنت علامُ الغيوبِ، اللّهمّ إن كنتَ تعلمُ أنّ هذا الأمرَ خيرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبةِ أمري - أو قال عاجلَ أمري وآجلَه -؛ فاقدرْه لي، ويسِّرْه لي، ثم بارِكْ لي فيه، وإن كنتَ تعلمُ أنّ هذا الأمرَ شرٌّ لي في ديني ومعاشي وعاقبةِ أمري - أو قال في عاجلِ أمري وآجلِه -؛ فاصرفْه عني، واصرفْني عنه، واقدِر ليَ الخيرَ حيثُ كانَ، ثم أرضِني"، قال: «ويسمِّي حاجتَه» رواه البخاريُّ.

عبادَ الله!

إنّ الاستخارةَ توحيدٌ لله خالصٌ؛ يحوي إقرارَ العبدِ بعجزِه علماً وقدرةً، وتوكلَه على ربّه، واستعانتَه به، وتفويضَه الأمرَ إليه، واستقسامَه بقدرته وعلمِه وحسنَ اختيارِه له، وهي من لوازمِ الرضى بالله رباً، ومن سُبلِ إرضائه عبدَه؛ ولذا كانتِ الاستخارةُ من أجلِّ أسبابِ سعادةِ العبدِ في دينِه ودنياه، يقولُ النبيُّ ﷺ: "من سعادةِ ابنِ آدمَ استخارتُه للهِ" رواه أحمدُ وحسّنه ابنُ حجَر. قال ابنُ القيمِ: "المقدورُ يكتنفُه أمرانِ: الاستخارةُ قبل وقوعِه، والرضى بعد وقوعِه؛ فمن سعادةِ العبدِ أنْ يجمعَ بينهما". والاستخارةُ أخذٌ للنجاحِ من جميعِ طُرقِه؛ إذْ هي سبيلُ الظفَرِ بالخِيرةِ التي لا يعلمُها سوى اللهِ، قال بعضُ الحكماءِ: "مَن أُعطيَ

الاستخارةَ لم يُمنعِ الخيَرةَ "، قال عبدُاللهِ بنُ عمرَ — رضي اللهُ عنهما-: "إنّ الرجلَ يستخيرُ اللهَ - تبارك وتعالى-، فيختارُ له، فيسخطُ على ربّه - عزّ وجلّ -، فلا يلبثُ أن ينظرَ في العاقبةِ، فإذا هو خيرٌ له". والاستخارةُ أمانٌ من العجلةِ والندمِ وإنْ وقع بعدها ما يُكرَه؛ إذْ كيف يكونُ ندمٌ من العبدِ مع بذلِه ما كلّفه اللهُ به في تلمُّسِه خيرةَ ربِّه؟! قال سعيدُ بنُ عبدِالعزيزِ: "مَن استخارَ واستشارَ؛ فقد قضى ما عليه". وقال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ: "ما ندِم مَنِ استخارالخالقَ، وشاورَ المخلوقينَ، وثبتَ في أمرِه". وبركةُ الاستخارة عظيمةٌ جدُّ عظيمةٍ، يقولُ ابنُ تيميةَ: "إذا عنّ للإنسانِ جهةٌ؛ فلْيستخرِ اللهَ - تعالى - فيها الاستخارةَ المتلقاةَ عن مُعلمِ الخيرِ ﷺ؛ فإنَّ فيها من البركةِ ما لا يُحاطُ به".

أيُّها المسلمون!

وبركةُ الاستخارةِ لا تحصلُ بمجرّدِ نطقِ اللسانِ، وإنّما تحصلُ لمَن دعا بها مُستشعراً عجزَه وجهلَه بمَصالحِه، وعلّقَ أملَه بربِّه، واستحضرَ المعانيَ العظيمةَ وآدابَ العبوديّةِ التي حواها دعاءُ الاستخارةِ حين يُناجي ربَّه طالباً الخيَرةَ من العالِم بعواقبِ الأمورِ وتفاصيلِها وخيرِها وشرِّها، وطالباً من ربِّه القديرِ إقدارَه؛ فإنَّه إن لم يُقْدِرْه؛ فهو العبدُ العاجزُ، وطالباً من ربِّه الكريمِ فضلاً من فضلِه العظيمِ، فإن لم ييسِّرْه له، ويهيئْه له؛ وإلا فهو متعذَّرٌ عليه، ثم إذا اختارَه له بعلمِه، وأعانَه عليه بقدرتِه، ويسَّره له من فضلِه، فهو مُحتاجٌ إلى أن يُبقيَه عليه ويُديمَه بالبركةِ التي يضعُها فيه، والبركةُ تتضمَّنُ ثبوتَه ونموَّه، وهذا قدرٌ زائدٌ على إقداره عليه وتيسيرِه له، ثم إذا فعل ذلك كلَّه فهو محتاجٌ

إلى أن يرضيَه به؛ فإنه قد يهيءُ له ما يكرهُه فيظلُّ ساخطًا ويكونُ قد خار اللهُ له فيه. فما أجلَّ رحمةَ اللهِ بعبده! يختارُ له ما يعلمُ صلاحَه له، وييسّرُه له، ويُقْدِرُه عليه، ويُرضيه به، ويباركُ له فيه، ويرزقُه السلوَّ عمَّا لا خيرةَ له فيه وإن تعلَّقتْ نفسُ عبدِه به. قال أبو عبدِاللهِ الدينوريُّ: "اختيارُ اللهِ — تعالى – لعبدِه مع علمِه بعبدِه خيرٌ من اختيارِ العبدِ لنفسِه مع جهلِه بربِّه".

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أمَّا بعدُ، فاعلموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيُّها المسلمون!

الاستخارةُ مكوَّنةٌ من صلاةٍ ودعاء؛ فالصلاةُ ركعتانِ من غيرِ الصلواتِ المفروضةِ، ويصحُّ أن تكونَ سنّةً راتبةً أو تحيةَ مسجدٍ أو ركعتيْ طوافٍ وصلاةَ ضُحى على الرّاجحِ من قوليْ العلماءِ، واستخارةُ الحائضِ والنُفَساءِ بالدعاءِ دونَ الصلاةِ. ولا تُصلّى الاستخارةُ وقتَ نهيٍ إلا في أمرٍ يفوتُ ولا يُمكنُ استدراكُه؛ فتكونُ من ذواتِ الأسبابِ التي يجوزُ فعلُها في أوقاتِ النهي. ويقرأُ المصلّي في صلاةِ الاستخارةِ مع الفاتحةِ ما شاء. وأما الدعاءُ، فالأفضلُ أن يكونَ مع رفع اليديْنِ بعد السلامِ على الأظهرِ من قوليْ العلماءِ. وعلى المُستخيرِ أن يتجرّدَ من كلِّ هوىً، وأن يصدُقَ في الافتقارِ وطلبِ الخيرةِ والتبرؤِ من كلّ ما سوى اللهِ — تعالى - . وعلامةُ الخيرةِ بعد الاستخارةِ — كما ذكر أهلُ العلمِ — انشراحُ الصدرِ وما سبقَ ورودُه إلى القلبِ، وتيسُّرُ الأمر، وضدُّ ذلك علامةُ انتفاءِ الخيرةِ من عدمِ انشراحِ الصدرِ، وتعسُّرِ الأمرِ. فإنْ لم يظهرْ شيءٌ من تلكَ العلاماتِ؛ فعلى العبدِ أن يستفتحَ ربَّه بتكرارِ الاستخارةِ والاستشارةِ، فإن لمْ يظهرْ له شيءٌ بعد هذا التكرارِ؛ فليفعلْ ما اتَّفقَ له؛ فتلك هي الخيرةُ، وقد وردَ ما يشهدُ لها في روايةِ الطبرانيِّ لحديثِ ابنِ مسعودٍ في

الاستخارةِ، فقد وردَ في ختمِها ما رُوي أن النبيَّ ﷺ قال: "ثم يعزمُ". ويجوزُ أن يجمعَ في الاستخارةِ الواحدةِ أكثرَ من حاجةٍ وإن تنوَّعتْ وتعدَّدتْ.

سجودُ السهوِ

إنَّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومَن يضللْ فلا هاديَ له،وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ...﴾

أيُّها المؤمنون!

معركةُ الشيطانِ مع المؤمنِ أزليّةُ الوجودِ، دائبةُ الأحداثِ، منوَّعةُ الوسائلِ. يجلبُ فيها الشيطانُ بخيْلِه ورَجِلِه؛ بُغيةَ حَرْفِ العبادِ عن صراطِ اللهِ المستقيمِ إنِ استطاعَ، وإلا رضيَ بإفلاسِهم من الثوابِ، أو بَخْسِ الأجرِ إن لم يمكنِ الإفلاسُ. ويزدادُ ذلك التسلطُ حالَ ملابسةِ العبدِ قُربةً يطلبُ بها رضى موْلاهُ، وللصَّلاةِ من ذلك أوفرُ الحظِّ وأظهرُه؛ إذْ بصلاحِها صلاحُ حالِ العبدِ الدينيِّ والدُّنيويِّ والأُخروي؛ حين تنهاهُ صلاتُه عن الفحشاءِ والمنكرِ. يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: "إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ؛ حَتَّى لاَ يَسْمَعَ التَّأْذِينَ، فَإِذَا قَضَى النِّدَاءَ أَقْبَلَ، حَتَّى إِذَا ثُوِّبَ بِالصَّلاَةِ أَدْبَرَ، حَتَّى إِذَا قَضَى التَّثْوِيبَ أَقْبَلَ، حَتَّى يَخْطِرَ بَيْنَ المَرْءِ وَنَفْسِهِ، يَقُولُ: اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا، لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ حَتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ لاَ يَدْرِي كَمْ صَلَّى" رواه البخاريُّ ومسلمٌ. ولمّا كانتْ شريعةُ اللهِ رحمةً للعبادِ، وكانت مراعيةً ضعفَهمُ الذاتيَّ، وعِصمةً لهم من تسلُّطِ

الشيطانِ، وإرغامـًا لـه، وإبطـالاً لكيـدِه؛ فـإنّ اللهَ — سـبحانه - قـد شـرع لهـم مـا يتخلصـونَ بـه مـن كيـدِ الشيطانِ، ويعالِجـون بـه زللَهـم، ويجبرونَ وَكْسَ طاعاتِهم. ومـن ذلـك شـرعيَّةُ سـجدتيْ السَّـهوِ، وهمـا السّـجدتانِ اللتـان يسـجدُهما المصلّـي؛ لجبرِ الخللِ الحاصلِ في صلاتِـه مـن أجلِ السَّـهوِ. قَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا شَـكَّ أَحَدُكُـمْ فِـي صَلَاتِـهِ، فَلَـمْ يَـدْرِ كَـمْ صَلَّـى ثَلَاثًـا أَمْ أَرْبَعًـا، فَلْيَطْـرَحِ الشَّـكَّ وَلْيَبْـنِ عَلَى مَـا اسْـتَيْقَنَ، ثُـمَّ يَسْـجُدُ سَـجْدَتَيْنِ قَبْـلَ أَنْ يُسَـلِّمَ، فَـإِنْ كَانَ صَلَّـى خَمْسًـا شَـفَعْنَ لَـهُ صَلَاتَـهُ، وَإِنْ كَانَ صَلَّـى إِتْمَامًـا لِأَرْبَـعٍ كَانَتَـا تَرْغِيمًـا لِلشَّـيْطَانِ» رواه مسـلمٌ.

أيُّها المسلمون!

إنَّ لسجودِ السهوِ أسباباً ثلاثـًا، لا يُشرعُ إلا بها: الزيادةَ، والنقصَ، والشكَّ.

فالسـببُ الأوّلُ: الزيـادةُ، وذلـك أنّ المصلّـيَ إذا زادَ في صلاتِـه قيامـًا، أو قعـوداً، أو ركوعـًا، أو سـجوداً متعمـداً بطُلـت صلاتُـه. وإن كان ناسـيًا ولـم يذكـرِ الزيـادةَ حتـى فـرغ منهـا فليـس عليـه إلا سـجودُ السـهوِ، وصلاتُـه صحيحـةٌ. وإن ذكـرَ الزيـادةَ في أثنائهـا وجـبَ عليـه الرجـوعُ عنهـا ووجـب عليـه سـجودُ السـهوِ، وصلاتُـه صحيحـةٌ. فـإن لـم يذكـرِ الزيـادةَ إلا بعـد السَـلامِ سـجدَ للسـهوِ وسـلَّم، وإن ذكـرَ الزيـادةَ وهـو في أثنـاءِ الرَّكعـةِ الخامسـةِ جلـس في الحـال فيتشـهَّدُ ويسـلِّمُ ثـم يسـجدُ للسّـهو ويسـلِّمُ؛ لأنَّ النبـيَّ ﷺ صلَّـى الظهـرَ خمسـًا، فقيـل لـه: أزيـدَ في الصـلاةِ؟ فقـال: «ومـا ذاك؟» قالـوا: صليـتَ خمسـًا، فثنـى رجليْـه واسـتقبل القبلـةَ فسـجد سـجدتيْنِ ثـم سـلَّم. رواه البخـاريُّ ومسـلمٌ.

عبادَ الله!

والسببُ الثاني للسهوِ: النّقصُ: فإذا نقص المصلّي ركنـًا من صلاتِه، فإنْ كان تكبيرةَ الإحرامِ فلا صلاةَ له سواءً تركَها عمداً أم سهواً؛ لأنَّ صلاتَه لم تنعقدْ. وإن كان غيرَ تكبيرةِ الإحرامِ فإنْ ترَكَه متعمداً بطلتْ صلاتُه. وإنْ تركَه سهواً، فإنْ وصلَ إلى موضِعِه من الركعةِ الثانيةِ لَغتِ الركعةُ التي تركه منها، وقامت التي تليها مَقامها، وإن لم يصِلْ إلى موضعِه من الركعةِ الثانيةِ وجبَ عليه أن يعودَ إلى الركنِ المتروكِ فيأتيَ به وبما بعدَه، وفي كلتا الحالتيْنِ يجبُ عليه أن يسجدَ للسهو. مثالُ ذلك: شخصٌ نسيَ السجدةَ الثانيةَ من الركعةِ الأولى فذكر ذلك وهو جالسٌ بين السجدتيْنِ في الركعةِ الثانيةِ فتلْغُو الركعةُ الأولى وتقومُ الثانيةُ مقامَها، فيعتبرُها الركعةَ الأولى ويكملُ عليها صلاتَه ويسلِّم، ثم يسجدُ للسهوِ ويسلِّم. ومثالٌ آخرُ: شخصٌ نسيَ السجدةَ الثانيةَ والجلوسَ قبلها من الركعةِ الأولى فذكر ذلك بعد أنْ قام من الركوعِ في الركعةِ الثانيةِ فإنَّه يعودُ ويجلسُ ويسجدُ، ثم يكملُ صلاتَه ويسلِّمُ، ثم يسجدُ للسهوِ ويسلِّمُ. وإن ترك ركنـًا ولم يذكرْه إلا بعد الصلاةِ، فإنْ كان وقتُ انفصالِه منه يسيراً كالخمْسِ الدَّقائقِ، فإنه يرجعُ ويأتي به وما وراءَه ممَّا يُفعلُ في ركعةٍ واحدةٍ ثم يجلسُ للتَّحيَّاتِ ويسلمُ ثم يسجُدُ للسهوِ. وإنْ طال الوقتُ، فإنه يعيدُ الصلاةَ.

أيُّها الإخوةُ!

وأما إنْ كان النقصُ بتركِ واجبٍ، فإنْ تركَه متعمداً بطلَتْ صلاتُه. وإنْ كان

ناسيًا وذكرَه قبل أنْ يفارقَ محِلَّه من الصلاةِ أتى به ولا شيءَ عليه. وإنْ ذكرَه بعد مُفارقةِ محلِّه قبل أن يصِلَ إلى الرُّكنِ الذي يليه رجعَ فأتى به ثم يكْملُ صلاتَه ويسلِّم، ثم يسجدُ للسّهوِ ويسلِّمُ. وإن ذكره بعد وصولِه الركنَ الذي يليه سقطَ فلا يرجعُ إليه، بل يستمرُّ في صلاتِه ويسجدُ للسهوِ قبل أن يسلِّمَ. مثالُ ذلك: شخصٌ رفع من السجودِ الثاني في الركعةِ الثانيةِ ليقومَ إلى الثالثةِ ناسيًا التشهُّدَ الأوَّلَ فذكر قبل أن ينهضَ فإنَّه يستقرُّ جالسًا فيتشهدُ، ثم يكملُ صلاتَه ولا شيءَ عليه. وإن ذكر بعد أن نهض قبل أن يستتمَّ قائمًا رجع فجلسَ وتشهدَ، ثم يكملُ صلاتَه ويسلِّمُ، ثم يسجدُ للسهوِ ويسلِّمُ. وإن ذكر بعد أن استتمَّ قائمًا سقط عنه التشهدُ فلا يرجعُ إليه، فيكمل صلاتَه ويسجدُ للسهوِ قبل أن يسلِّمَ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ صلَّى بهمُ الظهرَ فقام في الركعتيْنِ الأوليَيْنِ ولم يجلسْ (يعني للتشهدِ الأوَّل) فقام الناسُ معه حتى إذا قضى الصلاةَ وانتظر الناسُ تسليمَه كبَّر وهو جالسٌ فسجدَ سجدتيْنِ قبل أن يسلِّمَ ثم سلَّمَ رواه البخاريُّ.

معشرَ الإخوةِ!

والسببُ الثالثُ لسجودِ السهوِ: الشكُّ. والشكُّ المُعتبَرُ هو الذي يكونُ أثناءَ الصلاةِ من غيرِ ذي الوَسْوسةِ. وذلك بأن يتردَّدَ المصلي بين فعلِ واجبٍ أو ركنٍ وتركِه، كأن شكَّ هل صلّى الظهرَ ثلاثًا أو أربعًا، فإن ترجَّحَ عنده أحدُ الأمريْنِ دون جزمٍ عملَ به وسجدَ للسهوِ؛ لقول النبيِّ ﷺ: "إذا شكَّ أحدُكم في صلاتِه، فلْيتحرَّ الصَّوابَ فليتمَّ عليه، ثم ليسلمْ، ثم يسجدْ سجدتيْنِ"

رواه البخاريُّ. وإن لـم يترجحْ عنده أحـدُ الأمريْـنِ أخذ باليقيـنِ، وهـو الأقـلُّ؛ فيجعلُها ثلاثـاً إن وقعَ الشكُّ لديه: هل هي الركعةُ الثالثةُ أو الرابعةُ ولم يترجحْ أحدُهما؛ لقولِ النبيِّ ﷺ: "إذا شكَّ أحدُكم في صلاتِه فلم يدرِ كم صلَّى ثلاثـاً أم أربعـاً؟ فلْيطرحِ الشكَّ وليبنِ على ما استيقنَ ثم يسجدْ سجدتينِ قبل أن يسلِّمَ، فإن كان صلَّى خمساً شفعنَ له صلاتَه، وإن كان صلَّى إتمامـاً لأربعٍ كانتا ترغيمـاً للشيطانِ" رواه مسلمٌ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.

وبعدُ، فاعلموا أنَّ أحسن الحديث كتابُ اللهِ...

أيُّها المؤمنون!

وسجودُ السهوِ كلُّه قبل السلامِ، إلا في موضعيْنِ يُستحبُّ أن يكونَ سجودُ السهوِ فيها قبل السلامِ؛ اتِّباعًا للأحاديثِ الواردةِ في ذلك. وذلك الموضعان هما إنْ سلَّمَ عن نقصٍ، أو صلّى على الظنِّ الغالبِ عند ورودِ الشكِّ عليه. ولو جعل السجودَ كلَّه قبل السلامِ فلا حرَجَ. والمأمومُ مأمورٌ بمتابعةِ الإمام، فإنْ سجد الإمامُ فإنَّه يسجدُ معه، إلا إنْ كان المأمومُ مسبوقًا وكان سجودُ الإمامِ بعد السلامِ فإنَّه لا يتابعُه، وإنما يمضي في صلاتِه ثم يسجُدُ للسهوِ. وإذا سلَّم الإمامُ قبل تمامِ صلاتِه وفي المأمومينَ مَن فاتَهم بعضُ الصلاةِ فقاموا لقضاءِ ما فاتهم، ثم ذكر الإمامُ أنَّ عليه نقصًا في صلاتِه فقام ليتمَّها، فإن المأمومينَ الذين قاموا لقضاءِ ما فاتَهم يُخيَّرونَ بين أن يستمرُّوا في قضاءِ ما فاتَهم ويسجدوا للسهوِ، وبين أنْ يرجعوا مع الإمامِ فيتابعوه، فإذا سلَّم قضَوْا ما فاتهم، وسجدوا للسهوِ بعد السلامِ. وهذا أوْلى وأحْوطُ. وإن سها المأمومُ في صلاتِه فلا سجودَ عليه إلا مع إمامِه، إلا إن كان سهوُه بعد مفارقتِه الإمامَ كالمسبوقِ فإنّه يسجدُ للسهوِ.

أيُّها المسلمون!

هذه أهمُّ أحكامِ سجودِ السهوِ الذي به يُستدركُ الخللُ، ويُرغَمُ الشيطانُ. فالحمدُ للهِ الذي هدانا لدينِه، ونسألُه أن يفقِّهَنا فيه، ويثبِّتَنا عليه حتى المماتِ.

مسائلُ في زكاةِ المالِ النقديِّ يكثرُ السؤالُ عنها

إنَّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيِّئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مُضلَّ له، ومَن يضللْ فلا هاديَ له،وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمَّا بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ...﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ...﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ... ﴾.

أيُّها المؤمنون!

إنّ من ألزمِ ما يجبُ على المرءِ فقهُه والتبصُّرُ فيه معرفةَ أحكامِ العبادةِ التي يلزمُه أداؤها؛ فإنَّ ذلك أحدُ شرطيْ قَبولِها؛ إذْ لا تصحُّ العبادةُ إلا بالإخلاصِ للهِ والمتابعةِ لشرعِه. ومن العباداتِ التي يكثرُ وقوعُها في شهرِ رمضانَ إخراجُ زكاةِ المالِ النقديِّ، وذلك يقتضي التذكيرُ بأبرزِ مسائلِها التي يكثرُ السؤالُ عنها والتنبيهُ لها؛ فيخرجُ المسلمُ من عهدةِ الواجبِ برضى المولى وبراءةِ الذمَّةِ وزكاةِ النفسِ وطُهرةِ المالِ ومواساةِ البائسِ وإرساءِ دعائمِ المجتمعِ وتقويةِ أواصرِه حين يعطي الحقَّ لمستحقِّه طيبةً بذلك نفسُه. يقولُ اللهُ تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾.

أيُّها المسلمون!

إنَّ من أهمِّ ما يجبُ مراعاتُه في شروطِ وجوبِ زكاةِ المالِ النَّقديِّ بلوغَه النصابَ المحدّدَ شرعًا بالذَّهبِ والفضَّةِ، فإذا بلغَ المالُ نصابَ أقلِّهما وهو الفضَّةُ فقد بلغ نصابَ الزكاةِ، ونصابُ زكاةِ الفضةِ خَمسُمِائةٍ وخمسةٌ وتسعونَ جرامًا، وتحديدُها بالرِّيال المعاصِرِ يختلفُ باختلافِ قيمةِ جرامِ الفضَّةِ. ومِن الشُّروطِ اللازمِ وجودُها في زكاةِ المالِ النقديِّ دَورانُ الحوْلِ بأن تمرَّ عليه سنةٌ كاملةٌ بعد بلوغِه النِّصابَ، فإنْ كان المالُ بلغ هذا القدرَ ودار عليه الحولُ ففيه الزّكاةُ وإن كان لصغيرٍ أو مجنونٍ، وإن نقصَ عنه فلا زكاةَ فيه، وإن كان المالُ يردُ من مصادرَ مختلفةٍ، كأنْ يردَ من تجارةٍ ومرتَّبِ وظيفةٍ وميراثٍ، أو بأوقاتٍ مختلفةٍ كالأُجرةِ والرَّاتبِ، فإنّ الأحوطَ والأرفقَ والأجزلَ أن يجعلَ له يومًا محدّداً في السنة -وهو أولُ يومٍ بلغ المالُ فيه النِّصابَ ولا يجبُ أن يكونَ في رمضانَ -فيزكّي فيه ما عنده من المالِ كلِّه، وإن جعل لكلِّ مالٍ حَوْلاً فلا حرجَ ولكنَّ المشقةَ لاحقةٌ به. وإن كان بعضُ ماله لدى غيره وبلغ النصابَ ودار عليه الحولُ ففيه الزَّكاةُ إلا إنْ كان الذي عنده المالُ مُعسراً أو مماطلاً فلا زكاةَ فيه إلا إن قبضَه صاحبُه فيزكّيه عن عامٍ واحدٍ. وطَريقةُ إخراجِ زكاةِ المالِ النقديِّ بإخراجِ رُبعِ عُشْرِه(٥ , ٢٪)؛ فيقسَّمُ مجموعُ المالِ على أربعينَ، والناتجُ هو الذي يُخرَجُ. والمالُ الذي ليس له مالكٌ معيَّنٌ، كالأوقافِ والجمعيَّاتِ الخيريَّةِ والمالِ العامِّ، لا زكاةَ فيه.

معشرَ الإخوة!

والمالُ الناتجُ عن التجارةِ فيه الزكاةُ دونَ أصلِه الذي لم يُعَدّ للبيعِ؛ كأُجرةِ العمارةِ المُعدَّةِ للتَّأجيرِ إنْ دار عليها الحولُ فتجبُ الزكاةُ في الأجرةِ لا أصلِ العمارةِ، وإن كانت معروضةً للبيع ودارتِ السَّنةُ على عزمِ صاحبِها على البيعِ دونَ شكٍّ أو رجوعٍ ففي قيمتِها السوقيَّةِ الزَّكاةُ وقتَ الحوْلِ سواءً كانتْ أرفعَ من قيمتِها وقتَ الشِّراءِ أو أقلَّ. والأسهمُ فيها الزكاةُ؛ فإن كان المساهمُ مُضارباً (يبيعُ ويشتري)، فإنَّه يقيّمُ أسهمَه وقتَ الحوْلِ ويُخرجُ رُبعَ عُشرِ قيمتِها من الأصولِ والأرباحِ، وإن كان مستثمراً(يشتري ولا يبيعُ وإنّما يستفيدُ من الأرباحِ) فتكفيه زكاةُ الشَّركةِ، فإن لم تُزكِ فيُخرجُ زكاةَ الأرباحِ قدرَ رُبعِ العُشرِ بالقيمةِ السُّوقيَّةِ عند تمامِ الحوْلِ.

أيُّها الأحبَّةُ!

والأصنافُ الثمانيَّةُ المحدَّدُ صرفُ الزكاةِ لهم في القرآنِ لا يجبُ استيعابُهم بالزكاةِ؛ فيجوزُ صرفُها في صِنفٍ واحدٍ أو أكثرَ. والأفضلُ ما كان أكثرَ مصلحةً ونفعاً. والفقيرُ المستحِقُّ للزكاةِ مَن لا يجدُ كفايتَه وكفايةَ عائلتِه مدةَ سنةٍ، وذلك يختلفُ حسْبَ الزمانِ والمكانِ والحالِ. ويجوزُ تسليمُ الزكاةِ للقريبِ الفقيرِ الذي لا تلزمُ نفقتُه كالإخوةِ والأعمامِ والأخْوالِ وأولادِهم وهكذا الزوجُ الفقيرُ، بل ذلك أوْلى؛ لأنه صدقةٌ وصلةٌ. وهكذا يجوزُ إعطاءُ الأُجراءِ الفقراءِ كالخَدمِ من الزكاةِ على ألا تُحسَبَ من رواتبِهم؛ إذِ الزكاةُ لا يدفعُ بها المرءُ أمراً وجب عليه. وأما إخراجُ الزكاةِ في الأعمالِ الخيريَّةِ كتحفيظِ القرآنِ

وبناءِ المساجدِ وحفرِ الآبارِ فالأكثرُ من أهلِ العلمِ على عدمِ جوازِه؛ لأنه ليس من مصارفِ الزكاةِ الثمانيةِ. والزكاةُ تمليكُ مالٍ لمستحقِّه؛ فيسلمُه له نقداً إلا إنْ كان لا يُحسنُ التصرفَ فيه؛ فيشتري المزكِّي بزكاتِه لهذا الفقيرِ ما يحتاجُه عينـًا كالطعامِ أو الأجهزةِ المنزليَّةِ أو تسديدِ أجرةِ منزلِه. ولا يُشترطُ الإخبارُ بأنَّها زكاةٌ إلا عند مَن يأبى أخذَها إن علم أنها زكاةٌ فينبغي أن يُعلمَه. ويجبُ التحرِّي عن المُستحقِّ، ويُكتفى بدلالةِ الحالِ. ويجوزُ تسليمُها للجمعيَّاتِ الخيريةِ الموْثوقةِ. ولا يجوزُ احتسابُ الزكاةِ من الدَّيْنِ الذي له على غيرِه. ويجوزُ تعجيلُ الزكاةِ لعاميْنِ إن كان ثمَّ حاجةٌ، ولا يجوزُ تأخيرُها إلا لعذرٍ كعدمِ وجودِ سيولةٍ أو خوفِ هبوطِ ثمنِ السلعةِ التي سيبيعُها لإخراجِ ثمَنِ الزكاةِ منها أو وجودِ مصلحةٍ للفقيرِ بتأخيرِها. وإن أخرجَ من مالِه الخاصِّ زكاةَ غيرِه كالأبِّ يُخرجُ زكاةَ ابنِه فينبغي أن يُعلِمَه؛ لأنَّ النيَّةَ شرطٌ في العبادةِ. ولا بأسَ بنقلِ الزكاةِ إلى غيرِ بلدِ المُزكِّي إن كان ثمّ مصلحةٌ. ولا يجوزُ إعطاءُ الزكاةِ للأصحاءِ الأقوياءِ الذين يستطيعونَ الكسبَ ويجدونَ فُرَصَه.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ وحدَه، والصلاةُ والسَّلامُ على مَن لا نبيَّ بعدَه. وبعدُ:
فاعلموا أنَّ...

أيُّها المسلمون!

إنَّ الناظرَ في قدْرِ الزكاةِ الواجبِ من خلالِ أرْصدةِ المصارفِ ومَحافظِها الاستثماريةِ وقدرِ الزكاةِ المُخرجِ لَيُصابُ بالحسرةِ؛ إذِ المُخرَجُ أقلُّ بكثيرٍ من الواجبِ؛ فقد بلغَ مقدارُ الزكاةِ من خلالِ حساباتِ المصارفِ الخليجيَّةِ فقط عامَ ١٤٢٧هـ مائةً وعشرينَ مليارَ ريالٍ الذي لو صُرف على وجهِه الشرعيِّ لتضاءلَ عددُ الفقراءِ في الخليجِ إلى أضيقِ حدّ، ألم يقرؤوا قولَ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾. فمَن عليه زكاةٌ لم يُخرجْها وقد مضى وقتُها فعليه أن يتوبَ ويبادرَ بإخراجِها ولو مضى عليها سنواتٌ، فيجتهدَ في تحرِّي مقدارِها حسْبَ وقت وجوبِها.

استقبالُ رمضانَ

الحمدُ للهِ مُقلِّبِ الأيامِ، وبارئِ الأنامِ، قيُّوم لا ينامُ، وقاهرٍ لا يَظلمُ أو يُضامُ. وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ الواحدُ السَّلامُ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلى اللهُ عليه وعلى آلِه وصحبِه وسلمَ على الدوامِ.

أمّا بعدُ، فاتقوا اللهَ — عبادَ اللهِ -. ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ...﴾

أيُّها المسلمون!

كرمُ وِفادةِ الضيفِ، وحسنِ استقبالِه، والإبقاءِ على صفْوِ مُعاشَرتِه عادةُ أهلِ الكرمِ المستقرُّ حسنُها في الطِّباعِ. وتزدادُ تلك الكرامةُ وتزدانُ بحسْبِ ما قام في الضيفِ من فضلٍ ومعنىً يعودُ بالخيرِ على مُضَيِّفه. ورمضانُ منحةٌ ربانيَّةٌ، وضيفٌ من المولى كريمٌ، قد دنا حَلُّه، واستقرَّ رَحْلُه، بعد أن كانتْ مُقَلُ أهلِ الإيمانِ ترقبُه، وأفئدتُهم تهفو له، ونفوسُهم تشتاقُ إليه. يحْدوهم في ذلك رغبةُ الزُّلفى لدى مولاهم، والأُروزُ إلى ظلِّ رحمتِه بعد لفحِ الخَطايا وهجيرِ السيِّئاتِ، والخوفِ أن يُحالَ بينهم وبين ذلك الضيفِ، الذي ظلُّوا عامـًا منتظرينَ مَقدمِه؛ لا يدرونَ هل لهم مع رمضانَ لقاءٌ أو يحولُ دون ذلك الأجلُ. وما إن تفصّت عُرى الأيامِ والليالي، وتبدّى وجهُ الشهرِ الفضيلِ بهلالِه الميمونِ، إلا ودموعُ شوقِ المؤمنينَ تنساحُ على وجَناتِهم، وألسنتُهم لهِجةٌ بدعواتِهم: "اللَّهُمَّ سَلِّمْنَا لِرَمَضَانَ، وَسَلِّمْ رَمَضَانَ لَنَا، وَسَلِّمْ مِنَّا شَهْرَ رَمَضَانَ،

وَتَقَبَّلْهُ مِنَّا"، فابتهجتْ نفوسُهم بذاك اللقاءِ بعد أن عدّوا للضيفِ كريمَ النُّزلِ، ونفيسَ الحُللِ؛ حتى إذا ما ترحلَّ عنهم ترحلّ بودائعِ الذُّخر التي أوْدعوها خزائنَه ممّا تقرُّ عيونُهم بالجزاءِ عليه يومَ الدِّين. ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾.

أيُّها المؤمنون!

إنَّ حسنَ استقبالِ شهرِ رمضانَ مؤْذنٌ بحسنِ استغلالِه وخَتمِه. وخيرُ ما يُستقبلُ به رمضانُ التخلصُ من وضَرِ الذنبِ بالتوبةِ النّصوحِ التي يجِبُّ اللهُ بها الأوزارَ، ويزكّي بها النفوسَ؛ ليَصلُحَ ما بين العبدِ وبين ربِّه، وما بين العبدِ وما بين الناسِ. فإن الذنوبَ أثقالٌ تقعِدُ المرءَ عن دربِ الطَّاعة، ووَهنٌ يكسرُ سَوْرَةَ النشاطِ لفعلِ الخيرِ، وعقَبةٌ كأْداءُ تصدّ عن سبيلِ الفلاح، وشؤمٌ مفقدُ حلاوةَ الطاعةِ. قال مالكُ بنُ دينارٍ: «إِنَّ لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ — عُقُوبَاتٍ؛ فَتَعَاهَدُوهُنَّ مِنْ أَنْفُسِكُمْ فِي الْقُلُوبِ وَالْأَبْدَانِ، وَضَنْكٍ فِي الْمَعِيشَةِ، وَوَهَنٍ فِي الْعِبَادَةِ، وَسَخَطٍ فِي الرِّزْقِ». والتخلُّصُ من تلك الأغلالِ بالتوبِ النصوحِ أقوى دافعٍ لانطلاقِ المرءِ في المسارعةِ للخيرِ والمُسابقةِ في ميْدانِه؛ إذ لا ثقلَ يُعيقُه أو يُقعدُه. والتَّوْبَةُ النَّصُوحُ أَنْ يَهْجُرَ الْعَبْدُ الذَّنْبَ وَهُوَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ أَنْ لَا يَعُودَ إِلَيْهِ أَبَدًا، كما قال الحسنُ البصريُّ.

عبادَ الله!

ومن خصائصِ أهلِ الإيمانِ التي يستقبلونَ بها شهرَهم دركُ فضائلِه؛

فإدراكُ الفضائلِ سبيلُ دركِها. ورمضانُ أسٌّ لصرحِ الفضائلِ؛ إذْ دوافعُ فعلِ الخيرِ وافرةٌ، وهكذا موانعُ الشرِّ؛ فالحسناتُ مضاعفَةٌ، وأبوابُ الجنةِ مُشْرعةٌ، وأبوابُ النيرانِ مغلقةٌ، والمَرَدةُ مصفَّدةٌ، ولله في كلِّ ليلةٍ عتقاءُ من النارِ؛ فلا يُحرمُ من مغفرةِ رمضانَ إلا شقيٌّ لا يستحقُّ إلا الطردَ والإبعادَ. قال كعبُ بنُ عجرةَ – رضي اللهُ عنه –: "قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «احْضَرُوا الْمِنبَرَ»؛ فَحَضَرْنَا. فَلَمَّا ارْتَقَى دَرَجَةً قَالَ: «آمِينَ»، فَلَمَّا ارْتَقَى الدَّرَجَةَ الثَّانِيَةَ قَالَ: «آمِينَ» فَلَمَّا ارْتَقَى الدَّرَجَةَ الثَّالِثَةَ قَالَ: «آمِينَ»، فَلَمَّا نَزَلَ قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، لَقَدْ سَمِعْنَا مِنْكَ الْيَوْمَ شَيْئًا مَا كُنَّا نَسْمَعُهُ، قَالَ: " إِنَّ جِبْرِيلَ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – عَرَضَ لِي فَقَالَ: بُعْدًا لِمَنْ أَدْرَكَ رَمَضَانَ فَلَمْ يَغْفَرْ لَهُ قُلْتُ: آمِينَ، فَلَمَّا رَقِيتُ الثَّانِيَةَ قَالَ: بُعْدًا لِمَنْ ذُكِرتَ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ قُلْتُ: آمِينَ، فَلَمَّا رَقِيتُ الثَّالِثَةَ قَالَ: بُعْدًا لِمَنْ أَدْرَكَ أَبَوَاهُ الْكِبَرَ عِنْدَهُ أَوْ أَحَدُهُمَا فَلَمْ يُدْخِلَاهُ الْجَنَّةَ قُلْتُ: آمِينَ" رواه الحاكمُ وصحّحه ووافقه الذهبيُّ.

أيُّها المؤمنون!

والعزيمةُ الجازمةُ على استغلالِ موسمِ الخيرِ من كرمِ النُّزُلِ الذي يُستقبَلُ به رمضانُ. وذاك يقضي بحسنِ التَّخطيطِ، ووضعُ الغاياتِ الإيمانيَّة الساميةِ التي يُرامُ تحقيقُها في هذا الشهرِ للظَّفَرِ بالتقوى، والموازنةِ بين العبادةِ والحقوقِ اللازمةِ، وإحسانِ تقسيمِ الوقتِ الذي يكونُ للعبادةِ فيه حظٌّ غالبٌ، سيّما تلك الطاعاتِ التي حثّ الشرعُ على فعلها في رمضانَ، كالتّلاوةِ، والقيامِ، والصدقةِ، والدعاءِ، والعُمرةِ، الاعتكافِ. وعزيمةِ فعلِ الخيرِ في هذا الشهرِ توجبُ على

المؤمنِ التفقُّهَ في الطاعاتِ التي يُتقربُ بها؛ ليوقعَها على ما رضيَه اللهُ وشَرَعَه، كما أن هذه العزيمةَ تقضي بالاحترازِ من كلِّ ما يخرِقُ حِمى العبادةِ ويُنقصُ أجرَها. يقولُ النَّبيُّ ﷺ: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالعَمَلَ بِهِ وَالجَهْلَ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ» رواه البخاريُّ. واستشعارُ دنوّ الأجلِ، وتذكُّرِ المصيرِ المحتومِ من أعظمِ ما يَحملُ المرءَ على استباقِ الخيراتِ، واهتبالِ مواسمِ النَّفحاتِ. يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾.

هذا هلالُ الصومِ من رمضانَ … بالأفْقِ بانَ فلا تكنْ بالواني
وافاكَ ضيفا فالتزمْ تعظيمَه … واجعلْ قِراه قراءةَ القرآنِ
صمْه وصُنه واغتنمْ أيامَه … واجبُر ذما الضعفاءِ بالإحسانِ
واغسلْ به خطَّ الخطايا جاهدا … بهمولِ وابلِ دمعِك الهتّانِ
لا غروَ أنَّ الدمعَ يمحو جريُه … بالخدّ سكبا ما جناه الجاني
للّه قومٌ أخلصوا فتخلّصوا … من آفةِ الخُسرانِ والخُذلانِ

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ الله.

وبعدُ، فاعلموا أنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله...

أيُّها المؤمنون!

إنَّ من قبيحِ خصالِ التفريطِ تضييعَ المواسمِ المُعظَّمةِ. وأقبحُ من ذا تسخيرُ تلك الساعاتِ على الناسِ؛ صداً عن الهُدى، وإبعاداً عن المولى، وإشغالاً بالمآثمِ عن المغانمِ. ولئن كان لأهلِ الإيمانِ عُدةٌ يستقبلونَ بها منحَ الربِّ الكريمِ، فإنَّ لهؤلاءِ الأشرارِ عُدةً يبارزونَ بها الجبارَ العظيمَ، وشتَّانَ بين العُدَّتينِ! وبُعدانَ بين الفريقينِ! حشروا في ليالي رمضانَ من سبلِ الإعراضِ ما لم يَحشروا في غيرِها؛ سخريةٌ بالشعائرِ ومجونٌ شاهرٌ غدتْ شعاراً لبرامجَ هؤلاءِ الفجّارِ في رمضانَ؛ فأيُّ حرمةٍ رعوْها؟! وأيُّ منحةٍ وعوها؟! وأيُّ خيبةٍ جنوْها؟! ولذا باتَ من ألْزمِ الفرضِ صونُ المسلمِ بيتَه من أولئك الجُناةِ الذين فاقَ خطرُهم خطرَ السرَّاقِ وقُطّاع الطريقِ، حين جنوْا على الدِّينِ والخُلقِ والعفافِ! فإن مثلَ هؤلاءِ في الدُّورِ مثلُ السُّوسِ الناخرِ في أصلِ الشجرةِ الباسقةِ، ينخرُ بخفاءٍ؛ ليكونَ السقوطُ والهلاكُ عاقبةَ نخرِه. أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيم: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾.

الريحُ المرسَلةُ

إنّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومَن يضللْ فلا هاديَ له،وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمَّا بعدُ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ...﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ...﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ... ﴾.

أيّها المؤمنونَ!

الجودُ عطاءٌ واسعٌ قد وُضِعَ موضعَه، وهو من أرفعِ درجاتِ الكرمِ ممّا أحبَّ اللهُ — سبحانَه - وتَسمّى به، يقولُ النبيُّ ﷺ: «إنّ اللهَ تعالى جَوادٌ، يحبُّ الجودَ، ويحبُّ مَعاليَ الأخلاقِ، ويكرهُ سفسافَها» رواه ابنُ أبي شَيبةَ وصحّحه الألبانيُّ. حدّث جبيرُ بنُ مُطْعمٍ — رضيَ عنه - أَنَّهُ بَيْنَا هُوَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَمَعَهُ النَّاسُ، مُقْبِلًا مِنْ حُنَيْنٍ، عَلِقَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ الأَعْرَابُ يَسْأَلُونَهُ حَتَّى اضْطَرُّوهُ إِلَى سَمُرَةٍ، فَخَطِفَتْ رِدَاءَهُ، فَوَقَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «أَعْطُونِي رِدَائِي، فَلَوْ كَانَ عَدَدُ هَذِهِ العِضَاهِ نَعَمًا، لَقَسَمْتُهُ بَيْنَكُمْ، ثُمَّ لاَ تَجِدُونِي بَخِيلًا، وَلاَ كَذُوبًا، وَلاَ جَبَانًا» رواه البخاريُّ، وقد سألَه رجلٌ غنمًا بَيْنَ جبلَيْنِ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ، فَأَتَى قَوْمَهُ فَقَالَ: «أَيْ قَوْمِ، أَسْلِمُوا؛ فَوَاللهِ! إِنَّ مُحَمَّدًا لَيُعْطِي عَطَاءً؛ مَا

يَخَافُ الْفَقْرَ!» رواه مسلمٌ. كان ذا شأنَه ﷺ؛ يعطي عطاءً يعجزُ عنه الملوكُ، ويعيشُ مع ذويه عيْشَ الفقراءِ.

عبادَ اللهِ!

وفي رمضانَ يتضاعفُ جودُ النبيِّ ﷺ ويعظُمُ؛ حتى وصفَ ابنُ عباسٍ — رضي اللهُ عنهُما — ذلكَ الجودَ بمثَلٍ تقريبيٍّ فاقَ فيهِ المشبَّهُ المشبَّهَ به فقال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدُ بِالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ» رواه البخاريُّ ومسلمٌ. جودٌ فاقَ سرعةَ الريحِ المطلقةِ التي تسوقُ الخيرَ والرحمةَ، وعطاءَها، ومدَّتَها، ومساحتَها؛ إذْ ليس لجودِه الرمضانيِّ حدٌّ ينتهي إليهِ كما الريحُ، وليس له انقطاعٌ؛ فما سُئل شيئًا إلا أعطاه.

أيّها المسلمونَ!

ومضاعفةُ جودِه ﷺ في رمضانَ متابعةٌ لسنّةِ اللهِ في عبادِه؛ لِأَنَّ نِعَمَ اللهِ عَلَى العِبَاد فِيهِ زَائِدَةٌ عَلَى غَيْرِهِ. ومضاعفةُ الجُودِ من آثارِ معاشرةِ القرآنِ ومُخالطَةِ مَن نزلَ به؛ فقد كان النبيُّ ﷺ يتدارسُه مع جبريلَ — عليه السلامُ — في رمضانَ؛ فتُجَدِّدُ لَهُ تلكَ المُدارَسةُ والمخالَطةُ الْعَهْدَ بِمَزِيدِ غِنَى النَّفْسِ، وَالْغِنَى سَبَبُ الْجُودِ. واستشعارُ شرفِ الزمانِ الذي تعظمُ فيه الأجورُ وفضيلةُ إعانةِ الآخرينَ على الطاعةِ من الأسبابِ الدّاعيةِ لمضاعفةِ الجودِ في رمضانَ؛

لِيسْتوجبَ المعينُ لهم مثلَ أجرِهم؛ كما أنّ مَن جهّز غازيًا أو خَلَفه في أهلِه فقد غزا، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ فَطَّرَ صَائِمًا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِ الصَّائِمِ شَيْءٌ» رواه الترمذيُّ وقال: حسنٌ صحيحٌ. وطلَبُ الرحمةِ من دَواعِي مُضاعفةِ الجودِ؛ فرمضانُ شهرٌ يجودُ اللهُ فيهِ على عبادِه بالرّحمةِ والمغفرةِ والعتقِ من النارِ - لا سيّما في ليلةِ القدْرِ -، وأرجَى ما تكونُ رحمةُ الله بالرُّحماءِ، كما قال ﷺ: "إنّما يرحمُ اللهُ من عبادِه الرُّحماءَ" رواه البخاريُّ ومسلمٌ؛ فمَن جادَ على العبادِ بالرحمةِ جاد اللهُ عليه بالعطاءِ والفضلِ، والجزاءُ من جنسُ العملِ، واللهُ أحقُّ بالإحسانِ من عبدِه. واجتماعُ الجودِ مع الصيامِ من أحرَى أسبابِ دخولِ الجنةِ، روى مسلمٌ أنّ النبيَّ ﷺ قال: "مَن أصبحَ منكم اليومَ صائمًا "؟ قال أبو بكرٍ: أنا، قال: "مَن تبعَ منكم اليومَ جَنازةً "؟ قال أبو بكرٍ: أنا، قال: "مَن تصدّق بصدقةٍ"؟ قال أبو بكرٍ: أنا، قال: " فمَن عاد منكم مريضًا"؟ قال أبو بكرٍ: أنا، قال: "ما اجتمعْنَ في امرئٍ إلا دخلَ الجنةَ". والجمعُ بين الصيامِ والصدقةِ من أبلغِ ما تُكفّرُ به الخطَايا، وتُتّقى به النارُ وتُبعدُ، خاصةً إنِ انضمّ إليها قيامُ الليلِ، قال رسولُ اللهِ ﷺ: "الصيامُ جنةٌ من النارِ كجُنةِ أحدِكم من القتالِ " رواه أحمدُ وصحّحه ابنُ خُزيمةَ، وقال: "الصدقةُ تطفئُ الخطيئةَ كما يطفئُ الماءُ النارَ، وقيامُ الرجلِ من جوفِ الليلِ" - أي: أنّه يطفئُ الخطيئةَ — رواه الترمذيُّ وقال: حسنٌ صحيحٌ. والصيامُ من جِماعِ الصبرِ، وفي اقترانِه بالجودِ جِماعُ الخُلقِ الحسنِ، قال شيخُ الإسلام: "وَمَا ذَكَرَهُ فِي قِصَّةِ أَهْلِ الْجَنَّةِ مِنْ أَمْرِ السَّخَاءِ وَالْجُودِ وَمَا ذَكَرَهُ هُنَا مِنْ الْحِلْمِ وَالصَّبْرِ: هُوَ جِمَاعُ الْخُلُقِ الْحَسَنِ، كَمَا جَمَعَ بَيْنَهُمَا فِي قَوْلِهِ:

﴿الَّذِيـنَ يُنْفِقُـونَ فِي الـسَّرَّاءِ وَالـضَّرَّاءِ﴾ الْآيَـةَ، كَمَا قِيلَ:

بِحِلْمٍ وَبَذْلٍ سَـادَ فِي قَوْمِهِ الْفَتَى وَكَوْنُـكَ إِيَّـاهُ عَلَيْك يَسِـيرُ" أهـ

والجـودُ مـن أسـبابِ جبرِ النقـصِ وترقيـعِ الخلـلِ الـذي يكتنفُ الطّاعـةَ ممّـا لا يـكادُ أحـدٌ أن ينفـكَّ عنـه؛ ولـذا شُـرعتْ زكاةُ الفطـرِ طُهـرةً للصائـمِ مـن اللّغـوِ الرَّفَـثُ.

أيّها المسلمونَ!

ليس الجـودُ حِكـراً على المـالِ، بـل هـو صُنـوفٌ ودرجـاتٌ كمـا ذكـرَ ابـنُ القيـمِ — رحمـهُ اللهُ -، والجـودُ بالمـالِ مـن أقـلِّ هـذهِ الأنـواعِ مـع عظيـمِ فضلِـه وجزيـلِ أجرِه. ومـن صنـوفِ الجـودِ: الجـودُ بالنفسِ فيمـا شـرع اللهُ، وذلـكَ أعلـى درجـاتِ الجـودِ وأسـماها ، والجـودُ بالمنصـبِ بالزُّهـدِ فيـه والتّسـامِي عنـه وعـدمِ التكبُّـرِ بـه، والجـودُ براحـةِ البـدنِ ورَفاهيتِـه في مصلحـةِ الغيـرِ ممّـا يُستحسَـنِ، والجـودُ بالعلـمِ وبذلُـه، والجـودُ بنفـعِ الجـاهِ في بـذلِ شـفاعةِ الخيـرِ، والجـودُ بنفـعِ البـدنِ على اختـلافِ أنواعِـه، والجـودُ بالصبرِ واحتمـالِ الأذى والعفـوِ، والجـودُ بالخُلـقِ والبِشـرِ والبشاشـةِ، والجـودُ بالزُّهـدِ عمّـا في أيـدِي النـاسِ وعـدمِ الاستشـرافِ لـه. فمَـن عجـزَ عـن واحـدةٍ فثـمّ غيرُهـا، ويـا طُوبَـى مـن سَـمَتْ همّتُـه؛ فضـربَ بـكلِّ جـودٍ سـهمًا، خاصّـةً في مواسـمِ الخيـرِ كشـهرِ رمضـانَ، والتـزمَ بـآدابِ الجـودِ؛ فبَذَلَـه خالصـًا للهِ، متّبِعـًا هـدْيَ رسـولِ اللهِ ﷺ، غيـرَ مـانٍّ ولا مـؤذٍ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.

وبعدُ، فاعلمُوا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

لئنْ كانتْ خصائصُ رمضانَ داعيةً لمضاعفةِ الجودِ فيهِ؛ ففي حالِ حلولِ البلاءُ بأهلِ الإسلامِ يعظُمُ ذلكَ الدّاعي ويتأكدُ، كيف وقد اجتمعَ على بعضِ أهلِ الإسلام هذه الأيامَ حصارٌ خانقٌ وقصفٌ دامٍ دائمٌ من عدوٍّ أثيمٍ لا يرقبُ في مؤمنٍ إلَّا ولا ذمّةً؛ ممّا أفضى إلى مسغبةٍ اضطَّرتْهم لأكلِ لحمِ القططِ سدّاً للرّمقِ! وبات أنينُ الأطفالِ المتضوّرينَ جوعاً يصيخُ سمعَ مَن لا يملكُ سدَّ جوْعتِهم! في امتحانٍ رهيبٍ لإيمانِنا؛ إذْ ليس المؤمنُ بالذي يشبعُ وإخوانُه لا يجِدونَ ما يسدُّونَ به الرَّمقَ إلا لحومَ القططِ. فطِيبُوا لهم بالنّفقةِ، وأجْزِلوا لهم العطاءَ، وثِقوا بالخَلَفِ. أعينُوهم بأموالِكم في جهادِهم؛ تجهيزاً للمجاهدينَ، وخلَفاً لأسرِهم، وإغاثةً للّاجئينَ، وعلاجاً للمرضَى، وإشباعاً للجوْعى، وكِسوةً للعاري، وفكّاً للعانِي، ودعماً لمشاريعِهم التعليميّةِ والدعويّةِ والإعلاميّةِ، ولو أنْ تخصِّصوا زكاتَكم لهم، وتُعجّلوا زكاةَ العاميْنِ القادميْنِ، وتتصدّقوا بتكاليفِ رحلةِ العمرةِ؛ فلَعَمْرُ اللهِ! إنّ ذاكَ من خيرِ ما بُذلَ فيه المالُ، وجادتْ به النفوسُ، ونُسّقتْ له المشاريعُ، وتنافسَ فيه المتنافسُونَ؛ فهو تفريجُ كُربةٍ، ونُصرةُ مظلومٍ، وقَمعُ ظالمٍ، ودفعُ صائلٍ، ونشرُ سنّةٍ، ودَحْرُ

كفرٍ، وجهادٌ في سبيلِ اللهِ، وبُرهانٌ على صدقِ الإيمانِ؛ فلَنعمَ البيعُ ذلكَ البيعُ! ولَنعمَ المربَحُ ذلكَ المربَحُ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾.

اللهُ أعطاكَ فابذلْ من عطيّتِه فالمالُ عاريةٌ والعمرُ رحّالُ

المالُ كالماءِ إنْ تُحبَسْ سواقيهِ يأسَنْ وإنْ يجرِ عذبٌ منه سِلسال

ختام رمضان

الحمدُ للهِ الذي جعلَ لكل شيءٍ أمداً، الذي برأ الخلقَ وأحصاهم عداً، وكلُّهم آتيه يومَ القيامةِ فرداً، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ الصَّمدُ الذي لم يتخذْ ولداً، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه أزكى البريةِ نفساً وأوفاهم عهداً، صلى اللهُ وسلم عليه وعلى آلِه وصحبِه أصدقِ الناس قولاً وجهداً.

أمَّا بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ...﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ...﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ... ﴾.

أيُّها المؤمنون!

ما بعد التمامِ إلا النقصُ، وما بعد البزوغِ إلا الأفولُ، وما بعد الابتداءِ إلا الانتهاءُ. هذا قدرُ ربِّنا المحتومُ في الدُّنيا وما درجَ عليها. خلا زمنٌ نرقبُ فيه طَلعةَ شهرِنا البهيِّ، وانطوتْ عجلةُ الزمنِ فما شعرْنا إلا ونحن على شفيرِ وداعِه. أيامٌ وليالٍ فيها صُفدتِ الشياطينُ وفُتحتْ أبوابُ الجِنانِ وأوصِدتْ أبوابُ النيرانِ والمنادي ينادي كلَّ ليلةٍ: يا باغيَ الخيرِ أقبِلْ ويا باغيَ الشرِّ أقصرْ ولله عتقاءُ من النارِ. أدركتْ فيه رحمةُ الله مَن اصطفاه فكان له رمضانُ مَزادةَ برٍ وعُجالةَ سيرٍ لرضى ربِّه، وشقيَ آخرونَ حين لم يقدّروا للشَّهر حقَّه؛ إذِ العزيزُ ضانٌّ بخيرِه لمن لم يرعَ قدرَه.

عبادَ الله!

قال كَعْبُ بْنُ عُجْرَة رضي الله عنه: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَحْضَرُوا الْمِنْبَرَ»، فَحَضَرْنَا، فَلَمَّا ارْتَقَى دَرَجَةً قَالَ: «آمِينَ»، فَلَمَّا ارْتَقَى الدَّرَجَةَ الثَّانِيَةَ قَالَ: «آمِينَ» فَلَمَّا ارْتَقَى الدَّرَجَةَ الثَّالِثَةَ قَالَ: «آمِينَ»، فَلَمَّا نَزَلَ قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ لَقَدْ سَمِعْنَا مِنْكَ الْيَوْمَ شَيْئًا مَا كُنَّا نَسْمَعُهُ قَالَ: "إِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَرَضَ لِي فَقَالَ: بُعْدًا لِمَنْ أَدْرَكَ رَمَضَانَ فَلَمْ يَغْفَرْ لَهُ قُلْتُ: آمِينَ، فَلَمَّا رَقِيتُ الثَّانِيَةَ قَالَ: بُعْدًا لِمَنْ ذُكِرْتَ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ قُلْتُ: آمِينَ، فَلَمَّا رَقِيتُ الثَّالِثَةَ قَالَ: بُعْدًا لِمَنْ أَدْرَكَ أَبَوَاهُ الْكِبَرَ عِنْدَهُ أَوْ أَحَدُهُمَا فَلَمْ يُدْخِلَاهُ الْجَنَّةَ قُلْتُ: آمِينَ. رواه الحاكمُ وصحّحه ووافقه الذهبيُّ. دعاءُ الطَّردِ والإبعادِ من الرُّوح الأمينِ وتأمينُ سيِّدِ المرسلينَ على ذلك الشقيّ الذي أدرك رمضانَ ولم تشملْه مغفرةُ الغفورِ الواسعةِ؛ إذْ لا موسمَ تفوقُ أسبابُ المغفرةِ فيه موسمَ رمضانَ. ومن فُرصِ إدراكِ مغفرةِ هذا الشهرِ والازديادِ منها إحسانُ ختامِه؛ فهاهو قد عزم على الرّحيلِ، ولم يبقَ منه إلا القليلُ، فمَن منكم أحسنَ فيه فعليه التمامُ، ومَن فرَّط فليختمْه بالحُسنى، والعملُ بالختامِ؛ فاستغنِموا منه ما بقيَ من الليالي اليسيرةِ والأيامِ، واستودِعوه عملاً صالحاً يشهدْ لكم به عند الملِك العلّامِ، وودِّعوه عند فُراقِه بأزكى تحيةٍ وسلامٍ. ومن صالحِ أعمالِ الختامِ —معشرَ الصائمينَ- كثرةُ الاستغفارِ، قال الحسنُ: "أكثروا من الاستغفارِ؛ فإنّكم لا تدرونَ متى تنزلُ الرحمةُ"، وقال لقمانُ لابنِه: "يا بُنيَّ، عوّدْ لسانَك الاستغفارَ؛ فإنَّ لله ساعاتٍ لا يردُّ فيهنَّ سائلاً". وفي بعضِ الآثارِ: أنَّ إبليسَ قال: "أهلكتُ

الناسَ بالذنوبِ وأهلكوني بلا إلهَ إلا اللهُ والاستغفارِ". والاستغفارُ ختامُ الأعمالِ الصالحةِ كلِّها: فيُختَمُ به الصلاةُ والحجُّ وقيامُ الليلِ، وتُختَمُ به المجالسُ: فإنْ كانتْ ذكراً كان كالطابعِ عليها، وإن كانتْ لغواً كان كفارةً لها؛ فكذلك ينبغي أن يُختمَ صيامُ رمضانَ بالاستغفار. كتب عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ إلى الأمصارِ يأمرُهم بختمِ رمضانَ بالاستغفارِ وصدقةِ الفطرِ؛ فإن الفطرَ طُهرةٌ للصائمِ من اللغوِ والرَّفَثِ، والاستغفارُ يرقعُ ما تخرَّق من الصيامِ باللغوِ والرفثِ. وقال في كتابه: "قولوا كما قال أبوكم آدمُ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، وقولوا كما قالَ نوحٌ عليه السلامُ: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، وقولوا كما قالَ موسى عليه السلامُ: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾، وقولوا كما قال ذو النونِ عليه السلامُ: ﴿سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾". وأنفعُ الاستغفارِ ما قارنتْه التوبةُ، وهي حلُّ عُقدةِ الإصرارِ؛ فاختمْ شهرَك بتوبةٍ نصوحٍ؛ فلَعمرُ اللهِ! إنَّ ذلك خيرُ ما تختمُ به شهرَك.

معشرَ الصائمين!

ومن صالحِ الختامِ الضراعةُ إلى الله بسؤالِ القَبولِ؛ هكذا كان ديدنَ سلفِنا الصالحِ في طاعاتِهم، كانوا يجتهدونَ في إتمامِ العملِ وإكمالِه وإتقانِه، ثم يهتمونَ بعد ذلك بقَبولِه ويخافونَ من ردِّه، وهؤلاءِ الذين: ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾. رُوي عن عليٍّ رضي اللهُ عنه قال: "كونوا لقَبولِ العملِ أشدَّ اهتماما منكم بالعملِ؛ ألَم تسمعوا اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ

مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾"؟ وعن فَضالةَ بنِ عبيدٍ قال: "لَأنْ أكونَ أعلمُ أنَّ اللهَ قد تقبَّل مني مثقالَ حبةٍ من خردلٍ أحبَّ إليَّ من الدُّنيا وما فيها؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾"، قال ابنُ دينارٍ: "الخوفُ على العملِ أن لا يُتقبّلَ أشدُّ من العمل"، وقال عطاءٌ السلميُّ: "الحذرُ: الاتِّقاءُ على العملِ أن لا يكونَ للهِ "، وقال عبدُ العزيزِ بنُ أبي رواد: "أدركتُهم يجتهدونَ في العملِ الصالحِ، فإذا فعلوه وقع عليهم الهمُّ: أيُقبلُ منهم أم لا؟ ". قال بعضُ السَّلف: "كانوا يدعونَ اللهَ ستةَ أشهرٍ أن يبلِّغَهم شهرَ رمضانَ ثم يدعونَ اللهَ ستةَ أشهرٍ أن يتقبلَه منهم". خرج عمرُ بنُ عبد العزيز رحمه اللهُ في يومِ عيدِ فطرٍ، فقال في خُطبتِه: "أيّها الناسُ إنكم صمتُم لله ثلاثينَ يوما وقمتُم ثلاثينَ ليلةً وخرجتُم اليومَ تطلبونَ من الله أن يتقبلَ منكم".

ومن صالح الختامِ أداءُ فرائضِ العيدِ وسننِه: إظهاراً للتكبيرِ من غروب شمسِ ليلةِ العيدِ حتى شروعِ الإمامِ بالصّلاةِ، واغتسالاً، ولبساً لأحسنِ الثيابِ، وأكلاً لتمراتٍ وتراً، وشهوداً لصلاة العيدِ مع أهله، ومخالفةً للطريقِ، وإظهاراً للفرحِ، وتوسعةً للأهلِ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسَّلامُ على رسولِ اللهِ. وبعد:
فاعلموا أنَّ ...

أيُّها المؤمنون!

ومن صالح ما يُختمُ به الشهرُ: إخراجُ صدقةِ الفطرِ؛ فيُخرجُ المرءُ ممّا يطعَمُه الناسُ ويقتاتونَه عن نفسِه وعمّن تلزمُه نفقتُهم صاعًا عن كلِّ واحدٍ بما يعادلُ ثلاثةَ كيلو تقريبًا. ويدفعُها للفقراءِ قبل صلاةِ العيدِ، ويجوزُ إخراجُها قبل العيدِ بليْلتيْنِ، ولا تجزئُ بعد الصلاةِ إلا عن معذورٍ بجهلٍ أو عجزٍ أو نسيانٍ. ولا يجزئُ إخراجُها نقداً على الراجح من قوليْ العلماءِ. وتُدفعُ لفقراءِ البلدِ الذي هو فيه، ويجوزُ دفعُها لخارجِ بلدِه إن كان ثمّ مصلحةٌ. ولا حرجَ في إعطاءِ الفقيرِ الواحدِ فطرتيْنِ أو أكثرَ. ومَن لم يكنْ لديه صاعٌ يومَ العيدِ وليلتِه زائدٌ عن قُوتِه وقوتِ عيالِه لم تجبْ عليه زكاةُ الفطرِ. وإذا أخذ الفقيرُ زكاةَ الفطرِ من غيرِه وفضُلَ عنده منه صاعٌ وجب عليه إخراجُه عن نفسِه، فإن فضُل منها آصُعُ أخرجَها عمَّن يمونُ، وقدَّم الأقربَ فالأقربَ.

وليالٍ عشر

إنَّ الحمدَ لله؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَنْ يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومَنْ يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه.

أما بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ...﴾.

أيّها المؤمنون!

فَضْلُ الله على أمةِ محمدٍ ﷺ غَدِقٌ عظيمٌ، ومِن أجلِّ هذه الأفضالِ — وكلُّها جليلٌ- أنْ جعلَ لهم مواسمَ للخيرِ سابغةً؛ تُضاعَفُ فيها الأجورُ، وتُحَطُّ الأوزارُ، وتَنْعَمُ الرُّوحُ بالقربِ مِن مولاها، وتذوقُ مِن برْدِ عفوِه وكرمِه ما تَطيبُ به حياتُها، ويكونُ لها زاداً في سيرِها إلى اللهِ، وتصحيحاً لعِثَارِ المسيرِ. وعشْرُ ذي الحِجَّةِ أَجَلُّ هذه المواسمِ، وأوفرُها مِن الخيرِ حظاً، أبانَ النبيُّ ﷺ عظيمَ هذا الفضلِ في محاورةٍ علميةٍ ذاتِ بُعْدٍ عمليٍّ جَرَتْ بينه وبين أصحابِه؛ بُغْيةَ العلمِ بقدْرِ هذه الأيامِ؛ كيما تُوفَّى كِفَاءَها من العملِ الصالحِ؛ إذ إدراكُ الفضائلِ سبيلُ إدراكِها، قال النبيُّ ﷺ: «ما العملُ في أيامٍ أفضلَ منها في هذه؟» قالوا: ولا الجهادُ؟ قال: «ولا الجهادُ، إلا رجلٌ خَرَجَ يخاطِرُ بنفسِه ومالِه، فلمْ يرجعْ بشيءٍ» رواه البخاريُّ، وفي روايةِ أبي داودَ: «مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ»، يَعْنِي أَيَّامَ الْعَشْرِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَلَا

الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ قَالَ: «وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ، إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ». بهذا التفصيلِ الكليِّ لهذه العشرِ فَهِمَ الصحابةُ أنَّ العملَ الصالحَ فيها هو المقدَّمُ المفضَّلُ على غيرِه بإطلاقٍ، فسألوا النبيَّ ﷺ؛ طلباً لتأكيدِ فَهْمِ ذلك الإطلاقِ، عن فَوْقِ عملِ العشرِ وأفضليتِه على ذِرْوَةِ سنامِ الإسلامِ؛ الجهادِ في سبيلِ اللهِ؛ إذ فيه مِن المشقةِ والخطرِ ما ليس في غيرِه، فأبانَ النبيُّ ﷺ أنها تفوقُه إلا في صورةٍ مفردةٍ نادرةِ الحُدُوثِ؛ حين يخرجُ المجاهدُ بروحِه ويستاقُ كلَّ مالِه؛ ممّا ثَقُلَ وخفَّ، وكَثُرَ وقَلَّ؛ فلمْ يدعْ منه شيئاً؛ فتزهقُ روحُه وينفضُّ مالُه في سبيلِ اللهِ؛ فلا تبقى له نفسٌ ولا مالٌ، فذلك هو العملُ الوحيدُ الذي يفوقُ ثوابُه ثوابَ العملِ الصالحِ في عشرِ ذي الحجةِ.

عبادَ اللهِ!

إنَّ صالحاتِ العشرِ ذاتُ موْقعٍ ومحبةٍ عندَ اللهِ؛ فحَظِيتْ بالزكاءِ والقداسةِ والتعظيمِ المطْلَقِ؛ فكان أجرُها بالتعظيمِ مطلقاً، كما قال النبيُّ ﷺ: «ما مِن عملٍ أزكى عندَ اللهِ -عزَّ وجلَّ- ولا أعظمَ أجراً مِن خيرٍ يعملُه في عشرِ الأضْحى» رواه الدارميُّ وجوّدَه الألبانيُّ، وقال:"ما مِن أيامٍ أعظمَ عندَ اللهِ، ولا أحبَّ إليه مِن العملِ فيهنَّ مِن هذه الأيامِ العشرِ، فأكثروا فيهنَّ من التهليلِ، والتكبيرِ، والتحميدِ" رواه أحمدُ وجوّدَه المنذريُّ، وقال كعبُ الأحْبار: "اختارَ اللهُ الزمانَ، وأحبُّ الزمانِ إلى اللهِ الأشهرُ الحُرُمُ، وأحبُّ الأشهرِ الحرمِ إلى اللهِ ذو الحجةِ، وأحبُّ ذي الحجةِ إلى اللهِ العشرُ الأولُ". وبذلك يَظهرُ سِرُّ

تعظيمِ اللهِ لها حينَ أقسمَ بها؛ إذِ القَسَمُ لا يكونُ إلا بعظيمٍ، قال اللهُ —تعالى-: ﴿وَلَيَالٍ عَشۡرٖ﴾، قالَ مسروقٌ: "هي أفضلُ أيامِ السَّنَةِ". وبَيَّنَ الحافظُ ابنُ حَجَرٍ سببَ اختصاصِها بهذا التفضيلِ فقالَ: "والذي يظهرُ أنَّ السببَ في امتيازِ عشرِ ذي الحجةِ؛ لمكانِ اجتماعِ أمهاتِ العبادةِ فيه، وهي الصلاةُ، والصيامُ، والصدقةُ، والحجُ، ولا يتأتَّى ذلك في غيرِه". وقال ابنُ رجبٍ: "لمّا كان اللهُ — سبحانه وتعالى- قد وضعَ في نفوسِ المؤمنين حنيناً إلى مشاهدةِ بيتِه الحرام، وليس كلُّ أحدٍ قادراً على مشاهدتِه في كلِّ عامٍ؛ فَرَضَ على المستطيعِ الحجَّ مرةً واحدةً في عُمُرِه، وجعلَ موسمَ العشرِ مشتركًا بين السائرين والقاعدين؛ فمَن عَجَزَ عنِ الحجِّ في عامٍ قَدِرَ في العشرِ على عملٍ يعملُه في بيتِه يكونُ أفضلَ مِن الجهادِ الذي هو أفضلُ مِن الحج". وممّا يَحْفِزُ المؤمنين على اهتبالِ مِنْحةِ العشرِ استشعارُ قِلّةِ أيامِها وسرعةِ انقضائِها، على ما فسَّر به ابنُ عباس — رضي اللهُ عنهما- قولَه تعالى: ﴿وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ﴾ بأنها عشرُ ذي الحجةِ.

عبادَ اللهِ!

والاستعدادُ الصادقُ في استقبالِ العشرِ مؤْذِنٌ بحُسْنِ استغلالِها، وخيرُ ما تُستقبَل به العشرُ تقديمُ التوبةِ النصوحِ بين يديْها؛ إذ الذنوبُ أثقالٌ؛ تُعِيقُ المرءَ عن السيرِ إلى اللهِ، وتُقْعِدُ همَّتَه عن لُحوقِ رَكْبِ الأخيارِ. وعزيمةُ الرُّشْدِ على العملِ الصالحِ في هذه العشرِ مِن الصدقِ الذي لا يُخيِّبُ اللهُ به سعْيَ صاحبِه، ويَفْتَحُ به عليه الخيرَ مِن أوسعِ أبوابِه وأقربِها، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ

ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾. وإدمانُ الدعاءِ بالافتقارِ إلى اللهِ بُغيةَ توفيقِه للعملِ الصالحِ في هذه العشرِ سبيلٌ مؤكَّدٌ للظفَر بخيرِها العظيمِ.

وتعْظُمُ الاستفادةُ من موسمِ العشرِ بحُسْنِ تقسيمِ الوقتِ، والتنويعِ بين العباداتِ من صلاةٍ ودعاءٍ وتلاوةِ القرآن وذكرٍ ودعوةٍ إلى اللهِ ومحاسبةِ النفسِ وتفكُّرٍ في آياتِ اللهِ ومخلوقاتِه وتذكُّرِ القبورِ واليومِ الآخرِ وصدقةٍ وعفوٍ عنِ الناسِ وصلةِ الأرحامِ وتعاهدِ الجيرانِ وبذلِ السلامِ والتبسمِ في وجوهِ المؤمنين وبذلِ المعروفِ وأداءِ مناسكِ الحجِّ وإعانةٍ عليها وقيامٍ بشعيرةِ الأضحيةِ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.

أما بعدُ، فاعلموا أن أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيها المؤمنون!

حين أدركَ السلفُ الصالحُ نفاسةَ أيامِ عشرِ ذي الحجةِ، وسرعةَ تفصِّي زمنِها، وعظيمَ ثوابِ العملِ الصالحِ فيها؛ شمَّروا عن ساعدِ الجِدِّ في التقربِ إلى اللهِ بالطاعاتِ فيها؛ قال أبو عثمانَ النَّهْدِيُّ: "كانوا يعظِّمون ثلاثَ عَشْراتٍ: العشرَ الأخيرَ من رمضانَ، والعشرَ الأُوَلَ من ذي الحجةِ، والعشرَ الأُوَلَ من محرَّمٍ"، وكان ابنُ عمرَ وأبو هريرةَ -رضي اللهُ عنهما- يخرجان إلى السوقِ في أيام العشرِ يُكَبِّرَان، ويُكَبِّرُ الناسُ بتكبيرِهما، وكان سعيدُ بنُ جبيرٍ -وهو أحدُ رواةِ حديثِ فضلِ العشْرِ- إذا دخلَ العشرُ اجتهدَ اجتهاداً حتى ما يَكادُ يُقْدَرُ عليه، وكان يقولُ: لا تطفِئوا سرجَكم لياليَ العشرِ؛ تُعْجبُه العبادةُ، وقال الأثرمُ: "أتينا أبا عبدِاللهِ -يعني الإمامَ أحمدَ في عشرِ الأضحى، فقال: قال أبو عوانةَ: كنَّا نأتي سعيدَ الجُرَيْرِيَّ في العشرِ، فيقولُ: هذه أيامُ شغلٍ، وللناسِ حاجاتٌ".

عبادَ اللهِ!

إنَّ استشعارَ تعظيمِ اللهِ لعشرِ ذي الحجةِ، وعظيمِ فضلِها، وعِظَمِ أجرِ العملِ الصالحِ فيها، واستصحابَ قِصَرِ الدنيا وسرعةِ انقضائِها، ودوامِ البقاءِ في الدارِ

الآخـرةِ، ومسـيسِ حاجـةِ المـرءِ يـومَ الديـنِ لِحَسَـنَةٍ تبْقـى لـه وسـيئةٍ تُمحـى عنـه، وأنَّ الجـزاءَ في الآخـرةِ علـى مـا أسـلفَ العبـدُ في الدنيـا، كمـا يقـالُ لأهـلِ الجنـةِ: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾-إنَّ ذلـك كلَّـه مـن التوفيـقِ الإلهـيِّ للعبـدِ؛ ممّـا يصـونُ بـه عمـرَه مـن ذهابـِه سـدى، أو أنْ تنفَصِـلَ عنـه أيـامُ العشـرِ بَـدَدَاً؛ فـلا تفوتنَّكـم!

من معاني الحجِّ

الحمدُ للهِ الذي جعل بيتَه مثابةً للناس وأمنـًا، وسنّ له شرعًا ذا رسْمٍ ومعنى، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريك له شهادةَ مَن يرجو له بها في الجنةِ سُكنى، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه صلى اللهُ وسلّمَ عليه وعلى أزواجِه وأصحابِه، ورضيَ عنهم وعنّا. أمّا بعدُ، فاتقوا اللهَ عبادَ اللهِ -؛ فإنّ التقوى خيرُ الزادِ ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ...﴾.

معشرَ المؤمنين!

إنّ من عظيمِ الفقهِ وسدادِ البصيرةِ إدراكَ مقاصدِ العباداتِ التي لأجلِها شرعَها اللهُ — سبحانه -، والسموَّ عن أدائها صوراً لا روحَ فيها ولا حياةَ، كما قال اللهُ — جلّ وعلا -: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون﴾، وقال في القرابينَ: ﴿لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِين﴾. فإدراكُ مثلِ هذه المقاصدِ سبيلٌ للصبرِ على مُكابدةِ الطاعةِ، وتحمُّلِ مشاقِّها، وأدائِها بتؤدَةٍ وإتقانٍ وِفقَ ما شرع اللهُ — سبحانه -، ومن ثمّ تيسُّرُها، واستعذابُ نَصَبِها، وذوقُ طعمِها، والتلذُّذُ بها،؛ ليظهرَ — بعد ذلك — أثرُها النافعُ على فاعلِها، ويكونَ أحرى ما يكونُ قَبولُها.

أيُّها المسلمون!

في هذه الأيامِ يتوافدُ ضيوفُ الرحمنِ إلى بيتِه الحرامِ من كلِّ فجٍّ زرافاتٍ ووحدانـًا؛ لأداءِ مناسكِ الحجِّ؛ يزدلفونَ إلى ربِّهم ويبغونَ رضاه. ولتلك العبادةِ معانٍ ومقاصدُ يجمُلُ الوقوفُ معها واصطحابُها؛ لتحقَّقَ الثمرةَ، ولا يضيعَ الجهدُ هباءً. فمن تلك المعاني والمقاصدِ إقامةُ ذكرِ اللهِ الذي انفردَ بالكبرِ الذي لا مزيدَ عليه: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾. يقولُ اللهُ — تعالى- : ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ﴾، ويقولُ سبحانه: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾، ويقولُ الرسولُ ﷺ: "إنما جُعِلَ الطّوافُ بالبيتِ والصَّفا والمَروةَ ورميُ الجمارِ؛ لإقامةِ ذكرِ اللهِ تعالى وحدَه" رواه أحمدُ وأبو داودَ والترمذيُّ وقال: حسَنٌ صحيحٌ. وذلك حادٍ كلَّ حاجٍّ ألا يُضيِّعَ وقتَ نسُكِه بغيرِ ذكرِ اللهِ — تعالى — قولاً وفعلاً.

معشرَ المؤمنين!

ومن مقاصدِ الحجِّ الكبرى تحقيقُ الانقيادِ للشرعِ المطهَّرِ واتِّباعُه؛ فكثيرٌ من أفعالِ الحجِّ غيرُ معقولةِ المعنى، كالطَّوافِ والسَّعيِ وأعدادِهما، والرمْيِ وعددِه وتكرُّرِه، وتقبيلِه الحجرَ، والوقوفِ بعرفةَ، والمبيتِ بمُزدلِفةَ ومِنىً، ومع ذلك تُفعلُ؛ اتباعـًا لأمرِ اللهِ ورسولِه ﷺ، لا غيرَ. روى البخاريُّ في صحيحِه أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ لِلرُّكْنِ(الحجرِ الأسودِ): «أَمَا وَاللهِ، إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لاَ تَضُرُّ وَلاَ تَنْفَعُ، وَلَوْلاَ أَنِّي رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَلَمَكَ مَا اسْتَلَمْتُكَ»، فَاسْتَلَمَهُ، ثُمَّ قَالَ: «فَمَا لَنَا وَلِلرَّمَلِ! إِنَّمَا كُنَّا رَاءَيْنَا بِهِ المُشْرِكِينَ

وَقَدْ أَهْلَكَهُمُ اللهُ»، ثُمَّ قَالَ: «شَيْءٌ صَنَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ لاَ نُحِبُّ أَنْ نَتْرُكَهُ». فالحجُّ تربيةٌ مكثفةٌ لتحقيقِ ذلك الاتباعِ ولو لم تَبِنْ حكمةُ التشريع. وذلك مُقتضى العبوديَّةِ والرضى باللهِ ربـاً وبالإسلام دينـاً وبمحمدٍ ﷺ نبيـاً ورسولاً.

أيُّها المسلمون!

ومن مقاصد الحجِّ العظيمةِ تحقيقُ التقوى، يقولُ اللهُ — سبحانه - : ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾. ومن سبُلِ تحقيقِ التقوى في الحجِّ تعظيمُ شعائره وحُرُماتِه، وذلك ما تفصحُ عنه أسئلةُ الحُجّاجِ المتكرِّرةِ للمفتينَ، كالسؤالِ عن حكم سقوطِ شعرةٍ منه، أو نقصِ حَصَاةٍ في رمي، أو كسرِ غُصنِ شجرٍ. ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾. وبالحجِّ تكفَّرُ الذُّنوبُ، وذلك التكفيرُ من أعظمِ خصالِ التقوى. يقولُ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ» رواه البخاريُّ. وتفصيلُ تلك المغفرةِ بيّنها رسولُ الله - ﷺ- بقولِه: "إنَّك إذا خرجْتَ من بيتِك تؤمُّ البيتَ الحرامَ لا تضعُ ناقتَك خُفَّـاً ولا ترفعُه إلا كتب اللهُ لك به حسنةً ومحا عنك خطيئةً. وأمّا ركعتاكَ بعد الطَّوافِ كعتقِ رقبةٍ من بني إسماعيلَ عليه السلامُ. وأما طوافُك بالصَّفا والمرْوةِ كعتقِ سبعينَ رقبةً. وأما وقوفُك عشيَّةَ عرفةَ فإنَّ اللهَ يهبطُ إلى سماءِ الدُّنيا فيُباهي بكمُ الملائكةَ؛ يقول: "عبادي جاؤوني شُعثاً من كلِّ فجٍّ عميقٍ يرجونَ جنَّتي فلو كانتْ ذنوبُكم كعددِ الرَّملِ أو كقَطْرِ المطرِ

أو كزَبَدِ البحرِ لغفرتُها أفيضوا عبادي مغفوراً لكم ولِمن شَفعتُم له". وأما رميُك الجِمارَ فلك بكلِّ حَصاةٍ رميتَها تكفيرُ كبيرةٍ من الموبِقاتِ. وأما نحرُك فمذخورٌ لك عند ربِّك. وأما حلاقُك رأسَك فلك بكلِّ شعرةٍ حلقتَها حسنةٌ ويُمحى عنك بها خطيئةٌ. وأما طوافُك بالبيت بعد ذلك فإنَّك تطوفُ ولا ذنبَ لك يأتي ملَكٌ حتى يضعَ يديْه بين كتفيْك فيقولُ: اعملْ فيما تستقبلُ فقد غُفر لك ما مضى " رواه البزَّارُ وحسَّنه الألبانيُّ. وفي الحجِّ استشعارُ مراقبةِ اللهِ واستحضارُ قربِه، وتلك خصيصةُ أهل التُّقى، فقد قال النبيُّ ﷺ للشابِّ الذي نظر إلى امرأةٍ يومَ عرفة:«ابْنَ أَخِي، إِنَّ هَذَا يَوْمٌ مَنْ مَلَكَ فِيهِ سَمْعَهُ، وَبَصَرَهُ، وَلِسَانَهُ، غُفِرَ لَهُ» رواه أحمدُ وابنُ خُزيمةَ في صحيحِه. وفي الحجِّ ذكرى الآخرةِ؛ إذ به فراقُ الأهلِ والموطنِ والمالِ وارتداءٍ لوضيعِ الثيابِ وفيه مُزدحَمٌ كَالخَلْقِ، وذكرُ الآخرةِ من صفاتِ المتقين.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ حقَّ حمدِه، والصلاةُ والسَّلامُ على رسولِه وعبدِه.
وبعدُ، فاعلموا أنَّ أحسنَ...

أيُّها المؤمنون!

ومن مقاصدِ الحجِّ الساميةِ تربيةُ النُّفوسِ على الأخلاقِ الفاضلةِ؛ فقد جعل اللهُ تكفيرَ الحجِّ للذنوبِ مشروطًا بحُسنِ الخُلق، كما قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ» رواه البخاريُّ ومسلمٌ. بل إن برَّ الحجِّ الذي ثوابُه الجنة لا يكونُ إلا بحسنِ الخُلق، يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: "الحجُّ المبرورُ ليس له جزاءٌ إلا الجنَّةَ"، قيل: وما برُّه؟ قال: "إطعامُ الطّعامِ وطيبُ الكلامِ" رواه أحمدُ وحسَّنه المنذريُّ.

معشرَ الأحبَّةِ!

ومن مقاصدِ الحجِّ العُظمى إظهارُ وحدةِ المسلمينَ وائتلافِهم؛ فربُّهم واحدٌ، ورسولُهم واحدٌ، وشعارُهم واحدٌ، وموقفُهم واحدٌ، ومنسكُهم واحدٌ. تلاشتْ في تلك الشَّعيرةِ اختلافُ البلدانِ والأعراقِ واللُّغاتِ؛ حتى غدا الحجُّ شعارَ وَحدةِ المسلمين، والتعارفِ والتراحمِ بينهم، والتسامي عن كلِّ رباطٍ عارَض رباطَ الدِّينِ وآصرتِه.

عبادَ الله!

إنَّ فقهَ تلك المقاصدِ والمعاني واصطحابَها مَعينٌ لا ينضبُ من منافع الحجِّ التي جعل اللهُ شهودَها من أسبابِ تشريعِه، كما قال سبحانَه: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾. ومن شأنِ مَن تشرَّبتْ نفسُه تلك المعانيَ وظفِر بها في نُسُكِه ورعاها بعد حجِّه أن يبقى بها صالحًا في نفسِه نافعًا في مجتمعِه؛ ليكونَ قريبًا من اللهِ، قريبًا من خلْقهِ، مباركًا أينما حلّ وارتحلَ.

خطبة عيد الأضحى

شعيرة الأضحية

الحمدُ للهِ واهبِ العطاءِ، مُسدي النعماءِ، جزيلِ الثناءِ، دانتْ له الأرضُ والسماءُ، وتفرّدَ بالدوامِ والبقاءِ، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ ذو المجدِ والكبرياءِ، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه إمامُ الحنفاءِ، صلى اللهُ وسلمَ عليه وعلى صحبِه الشُّرفاءِ.

اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إلهَ إلا اللهُ اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ وللهِ الحمدُ، اللهُ أكبرُ ما وحّدَ أهلُ الإسلامِ، اللهُ أكبرُ ما علا برٌّ ودامَ، اللهُ أكبرُ ما وسع عفوُه الآثامَ، اللهُ أكبرُ ما عمَّ جودُه الأنامَ، اللهُ أكبرُ ما تعاقبتِ الليالي والأيامُ، اللهُ أكبرُ ما أمّ ناسكٌ بيتَه الحرامَ، اللهُ أكبرُ ما أُشعِرَ هديٌ وأُريقَ دمٌ من بَهيمةِ الأنعامِ، اللهُ أكبرُ ما لبّى مُلبٍ وصامَ، اللهُ أكبرُ ما تلا تالٍ وقامَ، اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إلهَ إلا اللهُ اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ وللهِ الحمد.

أيُّها المؤمنونَ!

شعائرُ اللهِ معالمُ دينِه الظاهرةُ؛ رسومٌ ذاتُ معانٍ ومقاصدَ، يحملُ استشعارُها على تعظيمِها في القلوبِ، واصطباغِ النَّفسِ بروحِها، وإجلالِها عن الفعلِ الأجوفِ الذي لا يتعدّى الرسمَ والصورةَ؛ فلا تُذهِبُ العادةُ وإلفُ الفعلِ وكثرةُ مشاهدةِ الفاعلينَ حلاوةَ إدراكِ هذه المعاني وحُسنِ استصحابِها، ﴿ذَٰلِكَ

وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾. هذا، وإنّ الأضحيةَ لمن أعظمِ الشعائرِ التي يتقرّبُ بها العبدُ لمولاه، كما قال اللهُ — تعالى -: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾. الأضحيةُ شعيرةٌ اتَّفقتْ عليها دعوةُ الرسلِ وجاءتْ بها شرائعُهم؛ لتضمُّنِها إفرادُ اللهِ بالعبادةِ التي من أبرزِ مظاهرِها شعيرةُ النُّسكِ، كما قال اللهُ — سبحانه -: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾؛ ففي الأضحيةِ تذكيرٌ بسببِ الخَلقِ والإيجادِ، وتأكيدٌ على الوفاءِ بأعظمِ حقٍّ أوْجبه اللهُ على العبادِ بإظهارِ الإسلامِ له توحيداً وبراءةً من الشركِ؛ امتثالاً لقولِ اللهِ — جل وعلا -: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾، وقولِه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

أيُّها المسلمون!

وفي الأضحيةِ تحقيقٌ عمليٌّ للتَّقوى التي تمايزَ الناسُ في كرامتِهم عند اللهِ بقدْرِ ما حقَّقوا منها، كما قال اللهُ — تعالى -: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾. وفي الأضحيةِ ذكرٌ لاسمِ اللهِ الأعلى وتكبيرٌ له؛ مما يشي في رَوْعِ المؤمنِ أنّ حياتَه موقّفةٌ لموْلاه، وأنّه لا تعظيمَ لديه يفوقُ تعظيمَ خالقِه؛ إذْ هو المستحقُّ للتَّعظيمِ جزاءَ منّةِ هدايتِه التي لا تُدانيها منّةٌ، يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ﴾، ويقولُ: ﴿كَذَٰلِكَ

سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْۗ﴾، وروى البخاريُّ في صحيحِه عن أنسٍ — رضيَ اللهُ عنه — أنه قال: «ضَحَّى النَّبِيُّ ﷺ بِكَبْشَيْنِ أَمْلَحَيْنِ، فَرَأَيْتُهُ وَاضِعًا قَدَمَهُ عَلَى صِفَاحِهِمَا، يُسَمِّي وَيُكَبِّرُ، فَذَبَحَهُمَا بِيَدِهِ».

معشرَ الإخوة!

وفي الأضحيةِ تذكيرٌ بأهمِّ ما ينبغي للمؤمنِ أن يراعيَه في عبادتِه، وهو الإخلاصُ للهِ؛ إذْ هو محطُّ نظرِ المولى — تباركَ وتقدّس -، كما قال سبحانه: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ﴾، ويقولُ النبيُّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ» رواه مسلمٌ. وفي الأضحيةِ لفتُ أنظارِ العبادِ لاستحضارِ جزيلِ مِننِ اللهِ عليهم؛ إذ كيف سخَّر هذه البهائمَ لهم درّاً ونسلاً ولحماً وصبغاً؟ وذلّلها طائعةً منقادةً مستسلمةً لمن يذبحُها أو ينحرُها؟ وأنَّ جزاءَ ذلك الشكرُ الدائمُ الذي يتواطأُ فيه اعتقادُ القلبِ مع ذكرِ اللسانِ وحسنِ العملِ، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

عبادَ الله!

وفي الأضحيةِ تذكيرٌ بالبلاءِ العظيمِ الذي مُحِّصَ به الخليلُ - عليه السلامُ— حين جاءه الولدُ بعد كِبرٍ وضعفٍ واشتدادِ حاجةٍ، فامتلأ فؤادُه بمحبتِه واكتحلتْ عيناه برؤيتِه، حتى إذًا ما غدا الغلامُ شابّاً يافعاً يبلغُ السعيَ ويطيقُ الحملَ جاءتْ الرؤيا الحقُّ بذبحِه؛ ليصفوَ قلبُ الخليلِ لموْلاه؛ فلا

تراحمُ خُلتَه أيُّ محبةٍ، ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فالأضحيةُ ذكرى المؤمنِ بتفقُّدِ قلبِه، ومواطنِ محابّه، وتقديمِ محابِّ اللهِ — سبحانَه — على ما عداها؛ فبذلك تُدرَكُ حلاوةُ الإيمانِ، كما قال رسولُ اللهِ ﷺ: "ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ" رواه البخاريُّ ومسلمٌ، وأنّ عُقبى ذلك الإيثارِ حسنُ العِوَضِ، والذِّكرُ الحسنُ، وسلامةُ الدِّينِ والدّنيا. وفي الأضحيةِ تجسيدُ شعورِ الجسدِ الواحدِ، ومراعاةُ حقِّ الضعيفِ والقريبِ؛ إذْ فيها معنى التوْسعةِ على الأهلِ وتعاهُدِ الفقراءِ بالصَّدقةِ وذوي الرحمِ والحقِّ بالهديَّةِ من تلك الأضاحي، كما قال اللهُ — تعالى -: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ﴾، أي: الفقيرَ المتعففَ والسائلَ. اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إلهَ إلا اللهُ اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ ولله الحمدُ.

خطبةُ عيدِ الأضحى

أضحيةٌ وتضحيةٌ

الحمدُ للهِ الحكيمِ الخبيرِ، السميعِ البصيرِ، العلي الكبيرِ، أحاط علمُه الدقيقَ والكبيرَ، وعمّ خيرُه القليلَ والكثيرَ، والجليَّ الظاهرَ والخفيَ المستورَ، كريمٌ ستيرٌ، ودودٌ شكورٌ،عفوٌ غفورٌ. وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له ولا نظيرَ،ولا مُعينَ له ولا مشيرَ، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه النذيرَ، والسراجَ المنيرَ، صلى اللهُ عليه وعلى آلِه وصحبِه وسلّم التسليمَ الوفيرَ.

اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إلهَ إلا اللهُ، الله أكبرُ اللهُ أكبرُ وللهِ الحمدُ،اللهُ أكبرُ ما أهلّ حاجٌّ ولبّى، اللهُ أكبرُ ما أفاض عامرٌ وأضْحى، اللهُ أكبرُ ما جاد ناسكٌ وضحّى، اللهُ أكبرُ ما كبّر عبدٌ وصلّى، اللهُ أكبرُ ما قام خاشعٌ وتلا، اللهُ أكبرُ ما رقّ جَفْنٌ وهمَى، اللهُ أكبرُ ما أوْجد وأفنى، اللهُ أكبرُ ما أغْنى وأقْنى، اللهُ أكبرُ ما أضحكَ وأبكى،اللهُ أكبرُ ما أسقمَ وعافَى، اللهُ أكبرُ ما هبّ ريحٌ وأسفَا، اللهُ أكبرُ ما هلّ وَدْقٌ وأرْبى، اللهُ أكبرُ ما اخضرّ غصنٌ وأدلى، اللهُ أكبرُ ما علا طوْدٌ وأبقى، اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إلهَ إلا اللهُ، اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ وللهِ الحمدُ.

أيّها المؤمنونَ والمؤمناتُ!

شعائرُ اللهِ معالمُ دينِه الظاهرةُ؛ رسومٌ ذاتُ معانٍ ومقاصدَ، يحملُ استشعارُها على تعظيمِها في القلوبِ، واصطِباغِ النفسِ بروحِها، وإجلالِها عن الفعلِ

الأجوفِ الذي لا يتعدّى الرسمَ والصورة؛ فلا تُذهِبُ العادةُ وإلفُ الفعل وكثرةُ مُشاهدةِ الفاعلينَ حلاوةَ إدراكِ هذه المعاني وحسنِ استصحابها، ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾. هذا، وإنَّ الأُضحيةَ لمِن أعظمِ الشّعائرِ التي يتقربُ بها العبدُ لموْلاه، كما قال اللهُ — تعالى –: ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ﴾. وإنَّ من أجلِّ ما تحملُه تلكمُ الشعيرةُ من معانٍ: معنى التضحيةِ في سبيلِ الله؛ ببذل النفيسِ ابتغاءَ رضوانِ اللهِ وثوابِه دونَ طلبِ جزاءِ الخلقِ وشكرِهم. فلِلأضحيةِ رباطٌ وثيقٌ بالتضحيةِ في سبيلِ اللهِ مذْ سنّها الله؛ فداءً لتضحيةِ خليلِه إبراهيمَ بفَلذةِ كبِدِه إسماعيلَ — عليهما الصّلاةُ والسلامُ —؛ إذِ ابتلاه اللهُ بذبحِه وقد جاءه بعد كبَر وضعفٍ وعُقمٍ ومسِّ الحاجةِ إلى نفعِ ذلك الغلامِ اليافعِ!

عبادَ الله!

إنَّ التضحيةَ في سبيلِ اللهِ من لوازمِ أخْذِ الدِّينِ بقوَّةٍ والعضِّ بالنواجذِ عليه، وذاك ما أوصى اللهُ به أنبياءَه وأتْباعَهم، كما قال تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾، وقال: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾. كما أنَّ التضحيةَ من أجْلى براهينِ الإيمانِ الصادقِ، يقولُ النبيُّ ﷺ: "والصدقةُ برهانٌ" رواه مسلمٌ. وهي كذلك من أعظمِ مُثبِّتاتِ الدِّينِ، وأبلغِ وسائلِ تبليغِه ودعوةِ الناسِ إلى اتِّباعِه؛ وذاك ما تُرشِّحُ به سيَرُ الأنبياءِ

والمُصلحينَ على مرّ الدُّهورِ. وبالتضحيةِ يشتدُّ بناءُ المجتمعِ المسلمِ، ويقْوى عمادُه؛ يقول النبيُّ ﷺ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» رواه مسلمٌ. ورايةُ العزِّ وذُرى المهابةِ معقودةٌ برسوّ ميطدةِ[1] التضحيةِ، كما قيل:

لا يسلمُ العِرْضُ الشّريفُ من الأذى ... حتى يُراقَ على جوانبِه الدمُ

إن التضحيةَ مقامٌ رفيعٌ؛ يسمو بصاحبِه عن الرُّكونِ للأرضِ، والانكفاءِ على الذاتِ، والعيشِ على هامشِ الحياةِ. ولن يُنالَ البرُّ إلا بجسرِ التضحيةِ، كما قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾. والأمَّةُ إن تخلَّفتْ تضحيتُها وضنتْ بأَثَرتِها حقتْ عليها سنةُ اللهِ في الاستبدالِ؛ إذْ ليست صالحةً لحملِ رسالةِ اللهِ في الدُّنيا، ولن تُطيقَ القيامَ بتكاليفِ تبليغِ دينِه للعالمينَ، كما قال سبحانه: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾.

معشرَ المؤمنينَ والمؤمناتِ!

إنَّ الوصولَ لنُزلِ التضحيةِ السّامي، والإبقاءَ عليه، وقطْعُ قفارِه الشاقَّةِ، لَيستوجبُ من المؤمنِ اليقينَ بالخُلفِ من الله لكلِّ فائتٍ وذاهبٍ بالتضحيةِ؛

(١) المِيطَدَةُ: خَشَبَةٌ يُوَطَّدُ بِهَا الْمَكَانُ مِنْ أَساسِ بناءٍ أَو غَيْرِهِ لِيَصْلُب.

فهو القائلُ سبحانَه: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾. كما أنَّ السيرَ في درْب التضحيةِ يستدعي همةً طُلَعةً عليّةً؛ تندقّ على صلادِها مَعاولُ الأنانيةِ والانهزاميّةِ أمام مُغرياتِ النفسِ ومُرهِّباتِها. ولن تُقطعَ تلك الدروبُ إلا بقِصَر الأملِ وذكرِ فناءِ الدُّنيا وعظيمِ ما أعدَّ اللهُ من النعيمِ لمَن ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾. وعزاءُ السائرِ في سبيلِ التضحيةِ في أسلافٍ سابقينَ من الأنبياءِ والصالحينَ، ضربوا في سماءِ التَّضحيةِ أروعَ الصُّورِ والمُثلِ؛ حتى غدتْ مطالعةُ سِيَرهم والعيشُ مع أخبارِهم زاداً لا يُستغنى عنه في تلك المسيرةِ. ولْيحذرِ السائرُ في دربِ التضحيةِ عقابيلَ الطَّريقِ ومنعطَفاتِه: من ضعفِ الإيمانِ واليقينِ، والبخلِ والأثَرةِ، والتَّرَفِ والتعلُّقِ بالدنيا؛ فإنها حائلةٌ دونَ حوزِ المجدِ بالدُّنيا.

عبادَ الله!

لمّا كانتِ الطِّباعُ متفاوتةً، ودروبُ الخيرِ شتّى، كلٌّ يسلكُ منها ما يصلحُ له؛ جعل اللهُ الإيمانَ شُعباً، وأبوابُ الجنةِ ثمانيةٌ. وهكذا هي التضحيةُ في سبيلِ اللهِ؛ صنوفٌ وأنواعٌ، لا تُحصرُ في نوعٍ أو عددٍ؛ والمحرومُ من أَفْلسَ منها كلِّها. فمِن صورِ التضحيةِ: سخاءُ المالِ، وبثُّ العلمِ، وبذلُ الجاهِ بالشّفاعةِ الحسَنةِ، والإيثارُ، وكرَمُ المشاعرِ، ونفعُ البَدَنِ، ونشرُ الخيرِ، ونُصْرةُ المظلومِ، ورحْمةُ الضعيفِ، وإصلاحُ ذاتِ البيْنِ، وكظمُ الغيظِ، والعفوُ عن الإساءةِ، والجِهادُ، والصَّدعُ بكلمةِ الحقِّ، إلى غيرِها من الصورِ التي لا تتناهَى ممّا ينضَوي تحت إطارِ المشروعيَّةِ ممّا شرعَ اللهُ وابتُغي به وجهُه.

بيتٌ دعائمُه نُبْلٌ وتضحيةٌ إذا بنى الناسُ من ضَمْرٍ(١) ومن شِيدِ(٢)

ومَن تنكّبَ جادةَ التضحيةِ المشروعةِ - بأنْ كانتْ لغيرِ اللهِ، أو في غيرِ ما شرعَ - باءَ بالحرمانِ. وأشدُّ ذلك الحرمانِ أن تكونَ التضحيةُ في محادَّةِ أمرِ اللهِ ومضادَّة شرعِه وإيذاءِ عبادِه؛ فذاك - لَعَمرُ اللهِ - الخَسارُ البيّنُ!!

اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إلهَ إلا اللهُ، اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ وللهِ الحمدُ.

(١) الهزال.
(٢) كلُّ مَا طُلِيَ بِهِ الحائطُ من جِصٍّ أَو بَلاط.

الخطبة الثانية(١)

الحمدُ للهِ عددَ خلقِه ورضا نفسِه ومِدادَ كلماتِه، والصلاةُ والسلامُ على رسولِه خيرتِه من بَرِيّاتِه. اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إلهَ إلا اللهُ اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ وللهِ الحمدُ.

أيُّها المؤمنون!

عبادَ الله!

إنَّ يومَكم هذا هو يومُ الحجِّ الأكبرِ، وهو عيدُ الأضحى والنَّحرِ، وإنَّ من أعظمِ ما يؤدَّى في هذا اليومِ الأضحيةَ الشرعيةَ التي ما عملَ ابنُ آدمَ يومَ النَّحرِ عملاً أحبَّ إلى اللهِ من إراقةِ دم، وإنَّ للمضحِّي بكلِّ شعرةٍ وبكلِّ صوفةٍ حسنةً، وهي سنةُ أبينا إبراهيمَ المؤكَّدةُ، ويُكرَه تركُها لمن قدِرَ عليها، وذبحُها أفضلُ من التصدُّقِ بثمنِها. وتُجزئُ الشاةُ عن واحدٍ، والبَدَنَةُ والبقرةُ عن سبعةٍ. والانفرادُ بالشاةِ أفضلُ من سُبعِ البقرةِ والبَدَنةِ. ثم اعلموا أنَّ للأضحيةِ شروطًا ثلاثةً: الأوَّلُ: أن تبلغَ السنّ المُعتبرَ شرعًا، وهو خمسُ سنينَ للإبلِ، وسنتان للبقرِ، وسنةٌ كاملةٌ للمعزِ، وستةُ أشهرٍ للضَّأنِ. والشرطُ الثاني: أن تكونَ سالمةً من العيوبِ التي نهى عنها الشرعُ، وهي أربعةُ عيوبٍ: العرجاءُ

(١) تنبيه: اقتصر على هذه الخطبة في كل خطبة ثانية لصلاة الأضحى، وهي مأخوذة في جملتها من إحدى خطب فضيلة الشيخ أ.د. سعود بن إبراهيم الشريم إمام وخطيب المسجد الحرام —جزاه الله خيراً—.

التـي لا تعانِـقُ الصحيحـةَ في المَمْشـى، والمريضـةُ البيّـنُ مرضُهـا، والعـوراءُ البيـنُ عورُهـا، والعجفـاء، وهـي الهزيلـةُ التـي لا مُـخَّ فيهـا. وكلمـا كانـتْ أكمـلَ في ذاتِهـا وصفاتِهـا فهـي أفضـلُ. والشـرطُ الثالـثُ: أن تقـعَ الأضحيـةُ في الوقـتِ المحـدَّدِ شـرعـاً والـذي يبـدأُ مـن الفـراغِ مـن صـلاةِ العيـدِ وينتهـي بغـروبِ شـمسِ اليـومِ الثالـثِ بعـد العيـدِ؛ فصـارتِ الأيـامُ أربعـةً. ومَـن كان منكـم يحسـنُ الذبـحَ فلْيذبـحْ أضحيتَـه بنفسِـه، ومَـن كان لا يحسـنُ فلْيـوكّلْ مـن يذبحُهـا عنـه ممّـن يحسـنُه ولـو بأجـرٍ، لكـنْ لا يكـونُ ذلـك الأجـرَ مـن الأضحيـةِ، ولْيرفـقِ الجميـعُ بالبَهيمـةِ، ولْيُـرِحْ أحدُكـم ذبيحتَـه وليحـدَّ شـفرتَه لا أمامَهـا؛ فـإنَّ اللهَ قـد كتـب الإحسـانَ على كلِّ شيءٍ،ويوجهُها للقبلةِ عند الذبحِ، ويسمّي قائلاً: بسمِ اللهِ، واللهُ أكبرُ، اللهمّ هـذا منكَ ولـكَ، اللهـمَّ هـذا عـن فـلانٍ أو فلانـةٍ، ويسـمِّي صاحبَهـا. والأفضـلُ أنْ يُهـديَ منهـا ويتصـدقَ ويَطعـمَ إن فعـل واحـدةً منـه جـازَ. هـذا، ويُسـتحَبُّ إظهـارُ الفـرحِ والسـرورِ في هـذا اليـومِ بمـا لا ليُتجـاوَزُ فيـه حـدَّ المشـروعِ، وأن تُوصـلَ الأرحـامُ، ويُعفَـى عـن المظالِـمِ، وأن يوسَّـعَ علـى العيـالِ.

خطبةُ عيدِ الأضْحى

أضحيةٌ وتوحيدٌ

الحمدُ للهِ واهبِ العطاءِ، مُسدي النعماءِ، جزيلِ الثَّناءِ، دانتْ له الأرضُ والسماءُ، وتفرّد بالدَّوامِ والبقاءِ، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ ذو المجدِ والكبرياءِ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه إمامُ الحُنَفاءِ، صلى اللهُ وسلمَ عليه وعلى صحبِه الشُّرفاءِ.

اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إلهَ إلا اللهُ اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ وللهِ الحمدُ، اللهُ أكبرُ ما وحّدَ أهلُ الإسلامِ، اللهُ أكبرُ ما علا بِرٌّ ودامَ، اللهُ أكبرُ ما وسعَ عفوُه الآثامَ، اللهُ أكبرُ ما عمّ جودُه الأنامَ، اللهُ أكبرُ ما تعاقبتِ الليالي والأيَّامُ، اللهُ أكبرُ ما أمّ ناسكٌ بيتَه الحرامَ، اللهُ أكبرُ ما أُشعِر هديٌ وأُريق دمٌ من بهيمةِ الأنعامِ، اللهُ أكبرُ ما لبّى ملبٍ وصامَ، اللهُ أكبرُ ما تلا تالٍ وقامَ، اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إلهَ إلا اللهُ اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ وللهِ الحمدُ.

أيُّها المؤمنون!

الأضحيةُ شعِيرةٌ معظَّمةٌ؛ تذكّر الخلقَ بغايةِ الإيجادِ ونَوالِ الإمدادِ وِفْقَ قولِ الحقّ سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾. فلمشروعيّتِها نبأٌ امتزجتْ أحداثُه بتجريدِ التوحيدِ للهِ ونفي كلِّ محبةٍ

زاحمتْ ذلك التجريدَ. وذلك حين رأى الخليلُ — عليه السلامُ - أنّ اللهَ قد أمره بذبحِ غلامِه الشابّ الزكيّ؛ امتحانـًا لإيمانِه، وإثباتـًا لخُلتِه التي لا تقبلُ المشاركةَ أو المُزاحمةَ؛ إذ قد أَخَذَ بِكرُه شُعْبَةً مِنْ قَلْبِه فجَاءَتْ غَيْرَةُ الْخُلَّةِ تَنْتَزِعُهَا مِنْ قَلْبِ الْخَلِيل بهذا البلاءِ المبينِ الذي تكونُ فيه نهايةُ حياةِ الضَّنَى ذبحـًا بيدِ الوالدِ الذي شابَ عارضُه انتظاراً لمجيئه واكتحلتْ مقلتُه بمنظرِ شُبُوبِه واستروحتْ نفسُه لطَوْعه ونفعِه. وقد وفّى إبراهيمُ الإيمانَ في ذلك البلاءِ؛ فلم يجزعْ أو يعترضْ أو يتلكّأْ في الأمرِ أو يستأنِ انتظاراً للنّسخِ، كلا، بل أذْعنَ وانقاد لأمرِ اللهِ بكلّ طَمأنينةٍ وتسليمٍ، وهكذا كان ابنُه البارُّ. ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾. وكان ذلك بدْءَ مشروعيةِ الأضحيةِ المتكرّرِ كلّ عامٍ؛ تذكيراً للعبادِ بغايةِ إيجادِهم، وحثـًا للأمَّةِ على اقتفاءِ ملّةِ أبيها،الأمةِ التي جعل اللهُ اقتفاءَها حنيفيّةً نابذةً للشركِ وعاصمةً منه. ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾. اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إلهَ إلا اللهُ اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ وللهِ الحمدُ.

أيّها المسلمون!

وفي الأضحيةِ إظهارٌ لتعظيمِ الشعائرِ والحُرماتِ وضخٌّ لمنبعِها في القلوبِ؛ وذلك التعظيمُ أساسٌ متينٌ من أُسسِ تجريدِ التوحيدِ للهِ — سبحانَه -، ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾. بل إنَّ ذلك التعظيمَ مُلاحظٌ في هيئةِ الأضحيةِ وشكلِها؛ فقد جعل ابنُ عبّاسٍ — رضيَ اللهُ عنهما— استسْمانَ القرابينَ من تعظيمِ الشعائرِ، وقال أبو أُمامةَ بنُ سهلٍ رضيَ اللهُ عنه-: "كنا نسمّنُ الأضحيةَ بالمدينةِ، وكان المسلمونَ يسمّنونَ" رواه البخاريُّ. قال القرطبيُّ: "إذا عظّمها مع حصولِ الإجزاءِ بما دونَه فلا يظهرُ له عملٌ إلا تعظيمُ الشَّرعِ، وهو من تقوى القلوبِ". وفي الأضحيةِ مظهرُ جلاءٍ للتجرُّدِ التوحيديِّ الكاملِ للهِ؛ لتشكّلَ مع نظائرِها رسمَ الصِّراطِ المستقيمِ الذي رضيَه اللهُ دينًا قيمًا لعبادِه، وقد تسامَى في كمالِه وعِصمتِه عن عبوديةِ الخلقِ وخُزعبلاتِ الخُرافةِ. ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾. إنه التجرُّدُ الكاملُ للهِ بكلِّ خالجةٍ في القلبِ، وبكلِّ حركةٍ في الحياةِ؛ بالصّلاةِ والاعتكافِ، وبالمحْيا والمَماتِ، بالشعائرِ التعبديَّةِ، وبالحياةِ الواقعيَّةِ، وبالمماتِ وما وراءَه. اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إلهَ إلا اللهُ اللهُ أكبرُ وللهِ الحمدُ.

أيُّها المؤمنون!

وفي الأضحيةِ تجريدُ شكرِ المُنعمِ بالاعترافِ بالنّعمةِ وتسخيرِها في الطاعةِ وإعلانِ التوحيدِ والبراءةِ من الشركِ. قال جابرُ بنُ عبدِ اللهِ — رضيَ اللهُ عنهما-: ذبح النبيُّ ﷺ يومَ الذبحِ كبشيْنِ أقرنيْن أملحيْنِ موجأيْن (خَصيَّين)، فلما وجَّههما قال: «إنِّي وجهتُ وجهيَ للذي فطر السمواتِ والأرضَ على ملةِ إبراهيمَ حنيفًا، وما أنا من المشركينَ، إنَّ صلاتي ونُسُكي ومحيايَ ومماتي للهِ ربِّ العالمينَ لا شريكَ له، وبذلك أُمِرتُ وأنا من المسلمين، اللهمَّ منكَ ولكَ، وعن محمدٍ وأمَّتِه باسمِ اللهِ، واللهُ أكبرُ» ثم ذبح (رواه أبو داودَ وصحَّحه الألبانيُّ). اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إلهَ إلا اللهُ،اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ وللهِ الحمدُ.

عبادَ الله!

وضبطُ توحيدِ الطَّاعةِ والاتِّباعِ؛ فلا يُعبدُ اللهُ إلا بما شرع — من مقاصدِ تشريعِ الأضحيةِ؛ فإنَّ لها من المحدّداتِ الشرعيةِ مِن مراعاةِ سنِّ الأضحيةِ، ونوعِها، وعيوبِها المانعةِ من الإجزاء، ووقتِ نحرِها، وكيفيَّةِ ذبحِها، والإمساكِ عن أخذِ الشعرِ والظُّفر حتى تُذبحَ -ما يربّي النفوسَ على ذلك المنهجِ المعصومِ في التَّلقِّي والعملِ؛ لتكونَ الأضحيةُ دورةً عمليةً مركَّزةً في تطويعِ الهوى لما جاءَ به الهُدى.

بتلك المعاني جاءتْ الأضحيةُ تذكرةً سنويّةً لنبصرَ عهدَ التوحيدِ في حياتِنا، ونعرفَ من خلالِها مدى وفائِنا لذلك العهدِ الوثيقِ، ونستبصرَ العاملَ المؤثرَ

في قوةِ الأمةِ وضعفِها برعايةِ هذا العهدِ الغليظِ الذي به نصرُها إن تمسكتْ به وخذلانُها إن ضيَّعتْه! أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيم: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾. وندركُ بتلك المعاني سرَّ تعظيمِ اللهِ لذلك المَنسكِ، وأنه لا عملَ يعدِلُه يومَنا هذا، قال رسولُ اللهِ ﷺ: «ما عملَ ابنُ آدمَ من عملٍ يومَ النَّحرِ أحبَّ إلى اللهِ من إهراقِ الدمِ، وإنَّه ليُؤتى يومَ القيامةِ بقرونِها وأشعارِها وأظلافِها، وإنَّ الدمَ ليقعُ من اللهِ بمكانٍ قبل أن يقعَ بالأرضِ؛ فطيبوا بها نفسا». (رواه الترمذيّ وصحَّحه الألبانيُّ)

اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إلهَ إلا اللهُ اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ وللهِ الحمد.

خطبةُ عيدِ الأضحى

رسالة الإسلام

الحمدُ للهِ الحكيمِ الخبيرِ، السَّميعِ البصيرِ، العليِّ الكبيرِ، أحاط علمُه الدقيقَ والحقيرَ، والجليلَ والكبيرَ، وعمَّ خيرُه القليلَ والكثيرَ، والجليَّ الظاهرَ والخفيَّ المستورِ، كريمٌ ستيرٌ، ودودٌ عفوٌّ غفورٌ. وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له ولا نظيرَ،ولا معينَ له ولا مُشيرَ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه النذيرَ، والسِّراجُ المنيرُ، صلى اللهُ عليه وعلى آلهِ وصحبِه وسلَّمَ التسليمَ الوفيرَ.

اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إلهَ إلا اللهُ، اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ وللهِ الحمدُ،اللهُ أكبرُ ما أهلّ حاجٌّ ولبّى، اللهُ أكبرُ ما أفاض عامرٌ وأضحَى، اللهُ أكبرُ ما جادَ ناسكٌ وضحّى، اللهُ أكبرُ ما كبَّرَ عبدٌ وصلَّى، اللهُ أكبرُ ما قام خاشعٌ وتلا، اللهُ أكبرُ ما رقّ جَفنٌ وهمَى، اللهُ أكبرُ ما أوْجدَ وأفنى، اللهُ أكبرُ ما أغْنى وأقْنى، اللهُ أكبرُ ما أسرَّ وأبكى،اللهُ أكبرُ ما أسقمَ وعافَى، اللهُ أكبرُ ما هبّ ريحٌ وأسْفا، اللهُ أكبرُ ما هلّ وَدْقٌ وأربى، الله أكبر ما اخضرّ غصنٌ وأدْلى، اللهُ أكبرُ ما علا طوْدٌ وأبْقى، اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إلهَ إلا اللهُ، اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ وللهِ الحمد.

أيُّها المؤمنونَ والمؤمناتُ!

الإسلامُ شريعةٌ ضاربةٌ في عمقِ التاريخِ البشريِّ؛ ذاتُ سُلالةٍ ودلالةٍ؛ فهي وارثةُ الرسالاتِ، والمهيْمنُ عليها. اصطفى اللهُ لها خيرَ رسُلِه، وخصَّها بخيرِ

كتُبِه، وجعلها خيرَ أمَّةٍ أُخرجَتْ للناسِ. وسنّ لها من الشرائعِ والمناسكِ ما يذكِّرُها بسالِفِها الأصيلِ، ويربطُها بمنهجِها المعصومِ. وجعل موسمَ الحجِّ وقرابينَه من الأضاحي والهدايا شعاراً لامتدادِ سُلالةِ الحنيفيَّةِ السمحاءِ، ومَوْثقَ ربْطِ ختمِها بأُسِّها، وأنزلَ في يومِ عرفةَ عامَ حَجةِ الوَداعِ إعلامَ إكمالِ الدينِ وإتمامِ النِّعمةِ وارتضاءِ الإسلامِ ديناً: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾. كمالُ وتمامٌ تُجلّيه تلك النقلةُ النوعيَّةُ لأهلِ الجاهليَّةِ التي بُعثَ فيها - رسولُ اللهِ ﷺ بعد أنْ كانوا في سفحٍ من الضَّلالِ هابطٍ، فارتفعُوا باتِّباع هذا النبيِّ ذُروةَ المجدِ السَّامقِ في مدىً زمنيٍ وجيزٍ في تاريخِ الأممِ والحضاراتِ، وغدَوْا خيرَ أمّةٍ أُخرِجتْ للناسِ بعد أن كانوا في ضلالٍ مبينٍ! غدَوْا عبيداً للهِ أحراراً من عبوديةِ ما سواه؛ فلم يذلُّوا، ولم يهِنوا، وكانوا بإيمانِهمُ الذي يُحتِّمُ عليهمُ الأخذَ بأسبابِ القوةِ الأعلَيْنَ، وصار ذلك السببَ الأوحدَ لعزِّ اللهِ لهم، وكان معولَ هدمِ عروشِ الطُّغيانِ والكفرِ المتهاويةِ تحت تكبيرِ المصلِّين وسيوفِ المُجاهدينَ.

عبادَ الله!

حينَ أدركَ الأعداءُ سرَّ تلك القوةِ الإسلاميَّةِ، وعلموا يقيناً أنَّهم لا يدَ لمقاومتِها؛ طفِقوا بكلِّ قوتِهم في صدِّ المسلمينَ عن دينِهم. وكان من أخبثِ أساليبِهم المعاصرةِ في ذلك - بعد فشلِ أسلوبِ السِّلاحِ، وشَرَقِهم بجَحافلِ أهلِ السُّنةِ العائدينَ للدِّينِ بشُمولِه علماً وعملاً -إبرازُ مفهومٍ منحرفٍ

للإسلامِ، يتناغمُ مع مصالحِهم، ويكونُ أداةً طيّعةً في أيديهِم، ولا يشكِّلُ خطراً عليهم؛ يُرضُونَ به عاطفةَ الدهماءِ بمَسحةِ المسمّى الدينيِّ — لا الحقيقيِّ - وبعضِ مظاهرِه الجُزئيَّةِ التي لا تقيمُ ديناً ولا ترعى حُرُماً، كما جهِدوا على شيْطنةِ المتمسكينَ بالسنةِ سلفاً وخلفاً، وخلْقِ الأباطيلِ عليهم، ووصْمهم بالنقائصِ والتخلّفِ، وسخّروا في ذلك طائلَ الأموالِ، ووسائلَ الإعلامِ، واشْترَوْا ذُمَمَ مُرْتزَقةِ أهلِ الفنِّ والصحافةِ والمنافقينَ عليمي اللسانِ! وكان من آخرِ ما تمخّضَ عنه مؤتمرُهم - جرياً على قصدِ صدِّ الناسِ عن الدينِ الحقِّ بأسلوبِ التفريغِ والتشويهِ - حصرُ مسمّى أهلِ السُّنةِ في طوائفَ ضالةٍ من مبتَدَعةِ الصوفيةِ وغيرِهم وإخراجُ السَّلفِ الصالحِ من مسمّى أهلِ السنَّةِ كذباً وتدليساً!

أيُّها المؤمنونَ والمؤمناتُ!

إنَّ ذلك المكرَ الكُبّارَ يوجبُ على الأمّةِ الوعيَ بسرِّ نهضتِها وقوتِها؛ فلا تتيهُ في طلب المَخرجِ وقد استبانَ طريقُه. إنّه التمسُّكُ بما جاء به محمدٌ ﷺ؛ علماً، وعملاً، وحكماً، وتحكيماً، وسياسةً، وخُلقاً، وسلوكاً، وتربيةً، ودعوةً، وجهاداً، وأُلفةً؛ كما قال اللهُ — تعالى — في ختامِ سورةِ الحجِّ: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ

وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾. كما أنّ هذا الكيدَ المحمومَ يَشي ببشارةِ الفتحِ القريبِ، ويؤْذنُ باتِّساعِ نفوذِ الدينِ، وإنشاءِ اللهِ لدينِه حماةً ينْفونَ عن دينه تحريفَ الغالِينَ، وانتحالَ المبطلينَ، وتأويلَ الجاهلينَ. ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إلهَ إلا اللهُ، اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ وللهِ الحمد.

خطبة عيد الأضحى

وَحدةِ العيدِ

الحمدُ للهِ ذي الحكمةِ البالغةِ، جادَ على الخلقِ بالنِّعمِ السابغةِ، وأظهرَ الحقَّ بالحُججِ الدَّامغةِ؛ فبلغ دينُه من الحُسنِ مبلغَه، ومن الكمالِ أسبغَه. والصلاةُ والسلامُ الأتمَّانِ على مَن بعثه للعالمينَ رحمةً مهداةً ونعمةً مسداةً؛ محمدِ بنِ عبدِالله، وعلى آلِه وصحبِه ومَن اهتدى بهُداه.

اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ، لا إلهَ إلا اللهُ، اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ، وللهِ الحمدُ. اللهُ أكبرُ ما أهلَّ حاجٌّ وكبّرَ، اللهُ أكبرُ ما أهدى مُهدٍ وأشعرَ، اللهُ أكبرُ ما أريقَ يومَ المنحرِ، اللهُ أكبرُ ما دعا وأكثرَ، اللهُ أكبرُ ما تلا تالٍ وحبّرَ، اللهُ أكبرُ ما أبلى مجاهدٌ وغبّرَ، الله أكبرُ ما رقّ خاشعٌ وأعبرَ، اللهُ أكبرُ ما همَى وابلٌ وأمطرَ، اللهُ أكبرُ ما سبّح ملَكٌ وسطّرَ، اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ، لا إلهَ إلا اللهُ، اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ، وللهِ الحمد.

أيُّها المؤمنونَ والمؤمناتُ!

إنَّ من أجْلى مظاهرِ العيدِ الدالةِ على أجلِّ مقاصدِه إظهارَ لُحمةِ الأمّةِ المسلمةِ، وتذكيرَها بالأُلفةِ التي أمرَ اللهُ — سبحانَه — بها، وأبدى فيها وأعادَ، وجعلَها محوراً تُنسجُ على منوالِه التكاليفُ الشرعيَّةُ؛ كي تبقى حافظةً له وراعيةً. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾، وقال جلَّ وعزّ: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ

وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾. ورقَبَ هذا المعنى في أدقِّ التكاليفِ التي بلغتْ حدَّ تحريمِ البيعِ على بيعِ أخيه، والخِطبةِ على خِطبتِه، وتحريمِ تناجي الاثنيْنِ دونَ الثالثِ؛ كي لا يحزنَ!

كيف ومقوماتُ ائتلافِ المسلمينَ ووفاقِهم مدركةٌ بالفطرةِ والبديهةِ ونصوصِ الوحيَيْنِ القطعيَّةِ! أليس ربُّهم واحداً؟ ودينُهم واحداً؟ ونبيُّهم واحداً، وكتابُهم واحداً؟ ونسُكُهم واحداً؟ وقبلتُهم واحدةً؟ وغايتُهم الأخرويَّةُ واحدةً؟ فما بالُهم إذاً يتفرّقونَ؟! ويتقاطعونَ؟! ويعتدي بعضُهم على بعضٍ؟! ويبخسُ بعضُهم حقّ بعضٍ؟!

بحثتُ عن الأديانِ في الأرضِ كلِّها ... وجُبتُ بلادَ اللهِ غرباً ومشرقاً
فلم أرَ كالإسلامِ أدعى لألُفةٍ ... ولا مثلِ أهلِه أشدَّ تفرُّقا

إنَّ مردَّ ذلك إلى تركِهم ما أمرَ اللهُ، وتزدادُ النُّفرةُ و القطيعةُ ويفدحُ الاعتداءُ بقدرِ ما تركوا من أمرِ اللهِ، كما قال تعالى: ﴿فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾.

إذا أدركْنا هذه الحقيقةَ، وتشرَّبتْها نفوسُنا؛ تفتَّحتْ بصائرُنا للسَّببِ الذي وصلتْ به الأمّةُ إلى ما وصلتْ إليه من هذا التَّشرذُمِ والاستضعافِ والهوانِ، وسمتْ نفوسُنا لاستصلاحِ الحالِ، والْتماسِ معونةِ اللهِ في التغييرِ الإلهيِّ المقرونِ

بتغييرِ النفوسِ؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

أيُّها المسلمونَ والمسلماتُ!

وحينَ نمعنُ في دركَاتِ نسيانِنا لِمَا ذُكِّرنا به من أوامرِ ربِّنا؛ نجدُ أنّ ثَمَّةَ أموراً تكثُرُ المخالفةُ فيها، ويظهرُ أثرُ ذلك الزّلَلِ جلياً في الفُرقةِ وفشوِّ البغضاءِ بيننا. ومن أبرزِ هذه الأسبابِ: التعلقُ بالدنيا، وقَصْرُ الهمِّ عليها، وجعلُها أكبرَ الهمّ. وهذا ما خوّفَ النبيُّ ﷺ به صحابتَه الكرامَ وحذّرَهم منه وأشفقَ عليهم به. قدِم أبو عبيدةَ بنُ الجرّاحِ — رضيَ اللهُ عنه - بمالٍ من البَحْريْنِ، فسمعتِ الأنصارُ بقدومِه، فوافتْ صلاةَ الصُّبحِ مع النبيِّ ﷺ، فلمّا صلَّى بهِمُ الفجرَ انصرف، فتعرَّضوا له، فتبسّم رسولُ اللهِ ﷺ حين رآهم، وقال: «أظنُّكم قد سمعتُم أن أبا عبيدة قد جاء بشيءٍ؟»، قالوا: أجلْ يا رسولَ اللهِ، قال: «فأبشروا وأمِّلوا ما يسرُّكم؛ فواللهِ لا الفقرَ أخشى عليكُم، ولكنْ أخشى عليكم أن تُبسط عليكُمُ الدُّنيا كما بُسطتْ على مَن كان قبلكم، فتَنافَسُوها كما تنافسُوها، وتهلكَكُم كما أهلكَتْهم» رواه البخاريُّ ومسلمٌ. والتاريخُ والواقعُ شاهدان على مصداقِ ما أخبر النبيُّ ﷺ. وتركُ شعيرةِ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكرِ، وضعفُ الاحتسابِ وإضعافُه من أسبابِ هوانِ الأمةِ وفُرقتِها؛ يقولُ النبيُّ ﷺ: "إنّ أولَ ما دخلَ النَّقصُ في بني إسرائيلَ أنه كان الرجُلُ يَلقى الرجلَ فيقولُ: يا هذا اتقِ اللهَ، ودعْ ما تصنعُ؛ فإنَّه لا يحلُّ لك، ثم يلقاه من الغدِ وهو على حالِه، فلا يمنعُه ذلك من أنْ يكونَ أكيلَه وشريبَه وقعيدَه، فلمّا فعلوا ذلك ضربَ اللهُ قلوبَ بعضِهم ببعضٍ"، ثم قال: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ

عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَٰسِقُونَ﴾، ثم قال: "كلا واللهِ لتأمرُنَّ بالمعروفِ، ولتنهوُّن عن المنكرِ، ولتأخذُنّ على يدِ الظالمِ، ولتأطُرُنّه على الحقِّ أَطْراً، ولتقصُرُنَّه على الحقِّ قَصْراً؛ أو لَيضربَنَّ اللهُ بقلوبِ بعضِكم على بعضٍ، ثم ليلعنكم كما لَعنهم" رواه أبو داودَ والترمذيُّ وحسّنه. والتحريشُ سلاحٌ شيطانيٌّ فاتكٌ يُفضِي إلى البغضاءِ. وأبرزُ ما يكونُ فيه، ويبعثُ عليه، ويصطَنِعُه أعداءُ الأمّةِ أو يستغلُّونه ثلاثٌ؛ الكلمةُ الخشنةُ، وسوءُ الظنِّ، والغيْبةُ، وكلُّ ذلك ممّا نهى عنه في قوله: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْۚ﴾، وقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌۖ﴾، وقولِه: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ﴾. والبِدَعُ والأهواءُ تُشَظّي وحدةَ الأمّةِ، وتزرعُ فيهاالفُرقةَ والبغضاءَ، قال أبو العاليةِ: "إيَّاكم وهذه الأهواءَ؛ فإنها تُوقعُ العداوةَ والبغضاءَ بينكم". ووصَفَ كعبُ بنُ مالكٍ — رضي اللهُ عنه — حالَ قتلَةِ عثمانَ بنِ عفانٍ — رضيَ الله عنه -، وهم أولُ من أحدثَ الأهواءَ في الأمّةِ:

فكفّ يديْه ثم أغلقَ بابَه — وأيقنَ أنَّ اللهَ ليس بغافلِ
وقال لأهلِ الدَّارِ: لا تقتلوهمُ — عفا اللهُ عن كلّ امرئٍ لم يقاتلِ
فكيف رأيتَ اللهَ صبّ عليهمُ الـ — ـعداوةَ والبغضاءَ بعد التواصلِ

وكيـف رأيـتَ الخيرَ أدبـرَ بعدَه عن الناسِ إدبارَ النّعـامِ الجوافلِ

وبـإدراكِ سببِ الـداءِ يُعلَـمُ ناجـعُ الـدواءِ؛ إذِ الأدواءُ تُعالَـجُ بمعالجـةِ سـببِ الـداءِ.

اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ، لا إلهَ إلا اللهُ، اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ. وللهِ الحمد.

خطبةُ عيدِ الفطرِ

فتنة تسلط الأعداء

الحمدُ للهِ مُولي الآلاءِ، ومُسدي النعماءِ، جزيلِ العطاءِ، عظيمِ الثناءِ، تفرَّدَ بالبقاءِ، وارتدى الكِبريَاءَ، وقضى على خلقِه بالفناءِ، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ ربُّ الأرضِ والسماءِ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه خِيرةُ الأنبياءِ، وإمامُ الحنفاءِ، قام بالشُّكرِ لربِّه حتى تفطَّرتْ قَدَماه بالدِّماءِ، ولزِمَ مقامَ الخشيةِ فلم تجفَّ عينُه بالبُكاءِ، صلى اللهُ وسلّم عليه وعلى آلِهِ وصحْبِه الأوْفياءِ.

اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إلهَ إلا اللهُ،اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ وللهِ الحمدُ، اللهُ أكبرُ ما بَزغتْ شمسٌ بشروقٍ، اللهُ أكبرُ ما لمعتْ بالأفقِ بُروقٌ ، اللهُ أكبرُ ما همَلت بالدمعِ جُفونٌ، اللهُ أكبرُ ما سهِرتْ للدِّين عُيونٌ، اللهُ أكبرُ ما حسُنتْ بالمولى ظُنونٌ، اللهُ أكبرُ ما صدحَ بالآي لسانٌ، اللهُ أكبرُ ما سكنَ بالذِّكر جَنانٌ،اللهُ أكبرُ ما ظَمِئتْ كبِدٌ بصِيامٍ، اللهُ أكبرُ ما شرُفتْ قدمٌ بقيامٍ، اللهُ أكبرُ ما دعا عبدٌ ورجا، اللهُ أكبرُ ما جاد محسنٌ وعلا، اللهُ أكبرُ ما أجلَّ أفضالَه، اللهُ أكبرُ ما أحكمَ أفعالَه، اللهُ أكبرُ ما أكثرَ نوالَه، اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إلهَ إلا اللهُ،اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ وللهِ الحمدُ.

أيُّها المؤمنون!

لِيهْنِكُم تمامُ موْسمِ الخيرِ وعيدُه السعيدُ بعد أن تنافسَ المشمِّرونَ في ابتغاءِ الحَظْوةِ عند ربِّهم أيُّهم أقربُ ويرجونَ رحمتَه ويخافونَ عذابَه؛ فلكلٍّ كدْحُه

الذي سيُلاقيهِ أوْفَى ما يكونُ عند مَن يوفِّيه حسابَه، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾؛ فطُوبَى لِمن كان حظُّه من رمضانَ القَبولَ والغفرانَ! ويا بؤْسَ مَن باءَ بالبُعدِ والحرمانِ!

أمَّةَ الإسلام!

إنّ أشدَّ المراحلِ التي تنْتابُ الأمةَ وأحْلكَ ساعاتِها ظُلمةً زمنُ أزمةِ تسلُّطِ الأعداءِ، وذاك ما تعيشُه أمّتُنا الوقتَ الرّاهنَ؛ إذْ تقاطعَتْ في أوطانِها المُمَزَّقةِ مصالحُ الأعداءِ في مشاريعَ توسُّعيةٍ؛ استئثاراً بمقَدَّراتِ الدولِ الإسلاميةِ وانفراداً بخيْراتِها وإبقاءً لها لتعيشَ في هامشٍ لا يتجاوزُ مدى المصالحِ الفرديَّةِ والاحْتِرابِ من أجلِها؛ فترضَى بالأدنَى عن الأعلى، والتافهِ عن الجلَلِ. ومعارَضةِ تلك الرؤيةِ العُدوانيّةِ المأفونةِ لإرادةِ اللهِ سبحانَه التمكينَ لهذه الأمةِ تجعلُ لذلك التسلُّطِ أمداً وحدّاً، يقولُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ وقولُه: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ فاللهُ يريدُ الصَّدارةَ لأمةِ الإسلامِ والتمكينَ في الأرضِ. ومن هنا وجبَ التبصّرُ بمقاصدِ إدالةِ اللهِ أعداءَه على أوليائِه، وإدراكُ أسرارِ هذا الابتلاءِ؛ فليس ذاك ضرباً من الشرِّ المحضِ، كلا، ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾، ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ﴾.

معشرَ المؤمنين!

إن ثمَّتْ مقصِدَيْنِ عظيمَيْنِ وراءَ هـذا الابتـلاءِ؛ ليكـونَ ممـرَّ التصفيـةِ لمجـدِ التحليـةِ، والطريـقَ لاستعادةِ الأمـةِ عرشَـها المفقـودَ وعزَّهـا المنشـودَ: أولُ هذيـن المقصدَيْـنِ: التمحيـصُ وتنقيـةُ الصـفِّ المؤمـنِ مـن الشـوائبِ، يقـولُ اللهُ تعالـى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ ومـا بـاللهِ- حاشـا لله- أنْ يعـذِّبَ المؤمنيـنَ بالابتـلاءِ، وأنْ يؤذيَهـم بالفتنـةِ، ولكنَّـه الإعـدادُ الحقيقـيُّ لتحمُّـلِ الأمانـةِ. فيتسـاقطُ بالابتـلاءِ الأدْعيـاءُ ومـن اتَّخـذَ الإسـلامَ سـرٰبالاً لأطماعِـه. وفي وقـتِ الشـدائدِ يُظهِـرُ العـدوُّ ضراوةَ إحَنِه، ويَظهـرُ النفاقُ ويبرزُ أهلُه بأجْلى صورةٍ؛ فيَبينُ الوليُّ مـن الدّعيِّ والمُوالي مـن المُعـادي. وفي وقـتِ الشِّـدةِ -حيـن يُنفَـى الخبَـثُ- يـتراصَّ الصـفُّ المؤمـنُ ويحْـدُبُ بعضُـه علـى بعـضٍ. ومِـن رحِـمِ الأزمـاتِ يولـدُ روَّادُ الإصـلاحِ وقـادةُ الفتـحِ وفي مخاضِهـا العَسِـرِ يُصقَلـونَ. كلُّ ذلـك أثـرٌ لنقـاءِ الصـفِّ بالتمحيـصِ.
والمقصـدُ الآخـرُ لابتـلاءِ الأمـةِ بالشِّـدَّةِ: الأوْبـةُ إلـى اللهِ والضّراعـةُ لـه، يقـولُ اللهُ تعالـى: ﴿ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾، وهـل غايـةُ إيجـادِ الخلـقِ إلا ذلك؟ فالابتلاءُ باللَّأْواءِ تذكيرٌ بغايـةِ الوجـودِ وحثٌّ على الفـرارِ إلـى الخالـقِ سبحانَه،﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾؛ ضَراعـةٌ واستكانةٌ وانكسـارٌ تحمِـلُ الأمـةَ على التعلُّـقِ بربِّهـا واللِّيَـاذِ بـه والانتصـارِ والتـبرؤِ مـن كلِّ شـيءٍ سِـواه، عندهـا لا يكِلُهـا اللهُ إلا لنفسِـه، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾؛ فيكـونُ اللهُ مولاهـا؛ ولَنعـمَ المَولـى ولَنعـمَ النصيـرُ.

معشر الإخوة!

إنَّ مِنْ أَلْزمِ ما يجبُ العلمُ به والأطْرُ عليه وقتَ الأزَماتِ تبصرَ منهجِ الأنبياءِ —عليهم صلواتُ اللهِ وسلامُه- في التعاملِ مع هذه الشِّدةِ وسبلِ الخروجِ منها؛ إذْ هو الطريقُ المعصومُ الأقومُ والأسلمُ والأرحمُ. ومن أبرزِ معالمِ هذا المنهجِ: حسنُ الظنِّ باللهِ والتفاؤلُ بفَرجِه، فما كان قولُ إبراهيمَ — عليه السلامُ —حين قُذف في النارِ ومحمدٍ ﷺ حين تألبَ الأحزابُ عليه إلا: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾، ولما حُصِرَ موسى — عليه السلامُ — وقومُه بين بحرٍ متلاطمٍ وعدوٍّ غاشمٍ قال: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ وقال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ﴾، ومن معالمِ هذا المنهجِ — يا عبادَ اللهِ — الصبرُ وعدمُ الاستكانةِ والخُنوعِ ومحاسبةُ النفس والاستغفارُ، يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، ومِن أقوى الوسائلِ المُعينةِ على ذلك إقامةُ الصلاةِ؛ فقد أمرَ اللهُ سبحانَه بني إسرائيلَ بها حين أمضّهم طغيانُ فرعونَ وجبروتُه، يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، ومن معالمِ منهجِ الأنبياءِ في الخروجِ من أزمةِ تسلُّطِ الكافرينَ الإلحاحُ على اللهِ بدعاءِ إنزالِ النَّصرِ، فقد كان دعاءُ موسى وهارونَ — عليهما السلامُ — الذي أجابه اللهُ سبحانَه: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا

﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾، ودعا نوحٌ -عليه السَّلامُ-: ﴿أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ﴾. والتوكلُ على اللهِ وتفويضُ الأمرِ له ممّا يجبُ الاسْتمساكُ به للخروجِ من أزمةِ تسلُّطِ الكفرةِ، فذلك ما أرشدَ إليه موسى -عليه السلامُ- قومَه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ٨٤ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٥ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، ولا عذرَ لأمةٍ مُستَضعَفةٍ في ترْكِ إعدادِ القوة؛ إذِ اللهُ لم يكلفْها في ذلك الإعدادِ إلا بمُستطاعِها، ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ﴾، إعدادٌ في كافَّةِ صورِ القوةِ: الإيمانيَّةِ، والعلميَّةِ، والتربويَّةِ، والتقنيَّةِ، والعسكريةِ، والسياسيةِ، والاقتصاديةِ، والاجتماعيةِ. فالقليلُ مع إعانةِ اللهِ يُبارَكُ ويَغلبُ، ﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾.

أيُّها المسلمونَ!

إنَّ الأخذَ بذلك المنهجِ النبويِّ للانعِتاقِ من رَبَقِ سيطرةِ الكفَرةِ كفيلٌ بالنتائجِ المضمونةِ؛ إذْ هو شرعُ مَن خلَق الكونَ ودبّره. والسرُّ في تغييرِ كِفةِ الإدالةِ عند الأخذِ بهذا المنهجِ تغييرُ نفوسِ المؤمنينَ والتزامُها بمنهجِ اللهِ، ألم يقلِ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾؟ وهذه العاقبةُ المحمودةُ

نـرى تباشـيرَها قـد تبدّتْ حيـن تخلَّى العالـمُ عـن نُصـرةِ المظلـومِ، وأسـلمَه لظالمِـه الـذي لا يرحـمُ، وبـاتَ ذلـك الأعـزلُ يواجـهُ حربـاً طائفيَّـةً طاحنـةً وسَـطَ خُـذلانِ القريـبِ وتجهُّـمِ البعيـدِ؛ ممّـا جعـل رغبـاءَ المظلوميـن إلـى المَوْلـى وفألَهـم الكبيرَ فيـه حيـن انقطـعَ رجاؤهـم إلا منـه وخـابَ أملُهـم إلا فيـه وضعُـفَ اعتمادُهـم إلا عليـه ولا حـولَ لهـم ولا قـوةَ إلا بـه؛ فبُحّـتْ أصواتُهـم دونَ انقطـاعٍ: "مـا لَنـا غيرُك يـا الله!"؛ فـكأن اللهَ اصطفـى نصْرَهـم؛ فلـم يجعـلْ لعـدوٍّ فيـه يـداً، وهاهـي أيـامُ الشِّـدةِ التي اسـتحكمَ بلاؤهـا و بـان فيهـا التمحيصُ والأوبـةُ قـد حملـتْ - بحكمـةِ اللهِ ورحمتِـه — علـى اقتفـاءِ منهـجِ الأنبيـاءِ في الخـروجِ مـن الأزمـةِ، والتطهُّـرِ مـن رجسِ البعـدِ والتيـهِ، وسـيتحققُ النصـرُ بـإذنِ اللهِ؛ وتتأهَّـلُ الأمـةُ وتسـمو في تغذيـةِ السيرِ لفتـوحٍ أعظـمَ. ذلـك ظنُّنـا في ربِّنـا، واللهُ عنـد ظـنِّ عبـدِه. فسـبحانَ مَـن جعـلَ رحمتَـه في بلائِـه! ومِنَحَـه في مِحَنِـه وفَرَجَـه في شـدَّتِه! وتلـك البشـائرُ —لعَمـرُ اللهِ- فـرحٌ يضـافُ لفـرحِ العيـدِ وبهجتِـه.

اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إلهَ إلا اللهُ،اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ وللهِ الحمدُ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ وليِّ المتقينَ، وماحقِ الكافرينَ، والصلاةُ والسلامُ على النبيِّ الأمينِ نبيِّنا محمدٍ وعلى آله وصحْبِه والتابعينَ.

اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إلهَ إلا اللهُ،اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ وللهِ الحمدُ.

أيُّها المؤمنونَ!

اللهَ اللهَ بمُحكَماتِ الدينِ وثوابتِه؛ وخاصةً ما رُتِّب التمكينُ بإقامتِه، وذلك بتوحيدِ اللهِ وإقامةِ الصلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ والأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المنكرِ، وإيَّاكم وما يجلبُ الشحناءَ بين المؤمنينَ، وابنُوا صرْحَ مجتمعِكم بلَبِناتِ الصَّلاحِ والإصلاحِ وصيانتِه عن مَن يَرومُ تقويضُه؛ بحسنِ تربيةِ مَن ولّاكم اللهُ أمرَه، والقيامِ بشأنِ الضعيفِ، وأداءِ الأمانةِ، ونُصرةِ المظلومِ، والأخذِ على يدِ السفيهِ والظالمِ، والتثبُّتِ في الأمورِ، والصدورِ عن العلماءِ الراسخينَ، واستشارةِ المؤهَّلينَ،والحرصِ على اجتماعِ كلمةِ الحقِّ، والتعاونِ على البرِّ والتقوى وعدمِ التعاونِ على الإثمِ والعدوانِ. وأكمِلوا مسيرةَ الخيرِ التي اختتمتُموها في رمضانَ؛ فإنَّ ربَّ الشهورِ واحدٌ، وأمَدُ العملِ الصالحِ للمؤمنِ لا ينقضِي إلا بالموتِ.

أيَّتها المؤمناتُ!

وراءَ كلِّ أمةٍ عظيمةٍ تربيةٌ عظيمةٌ؛ وإنكنّ أعظمُ محْضنٍ للتربيةِ؛ تعاهدْنَ أولادكنَّ ومَن ولَّاكُنَّ اللهُ مسؤوليتَه بحسنِ الرعايةِ، وأدرِكْنَ حجمَ المكرِ

الكُبّارَ الذي يُرامُ به إفسادُ المجتمعِ من خلالِ إفسادِ نسائِه بنزعِ جلبابِ الحياءِ والحِشمةِ وإبداءِ المفاتنِ وتهوينِ مخالطتِهنَّ بالرِّجال الأجانبِ بذرائعَ تنطِقُ خُبثًا وشراً. يقولُ أحدُ المفكرينَ: "أدرك الغرب بأنَّ تفكيكَ التديُّنِ الإسلاميِّ يأتي من خلالِ ملفِّ المرأةِ". وذلك ما حذَّر منه النبيُّ ﷺ بقولِه: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ» رواه البخاريُّ ومسلمٌ. وذلك يقتضي الحذَرَ من كلِّ ما يمسُّ الحِشمةَ والحياءَ والعفةَ والتحذيرَ ممَّن يعبثُ بها، كما أنَّه يوجبُ السعيَ الجادَّ في بناءِ محاضِنِ التوعيةِ والإرشادِ للمرأةِ المسلمةِ، وإعدادِها لتكونَ حصنًا واقيًا لبناتِ جنسِها وغُصّةً في حلوقِ دُعاةِ الفسادِ ورموزِه.

اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إلهَ إلا اللهُ، اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ وللهِ الحمدُ.

خطبةُ عيدِ الفطرِ

حسن الظن بالله

الحمدُ للهِ الذي بنعمتِه تتمُّ الصالحاتُ، وبفضلِه تُدرَك الهِباتُ، وبعفوِه تقالُ العثَراتُ، بارئِ الكائناتِ، وفاطرِ السمواتِ، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ رفيعُ الدرجاتِ، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه أوْفى الخلقِ في طاعةٍ وإخباتٍ، صلى اللهُ وسلمَ عليه وعلى آلِه وصحبِه ذَوي اليُمنِ والمَكرُماتِ.

اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إلهَ إلا اللهُ، اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ وللهِ الحمدُ، اللهُ أكبرُ ما أجلَّ إحسانَه، اللهُ أكبرُ ما أعظمَ سلطانَه، اللهُ أكبرُ ما أكثرَ أفضالَه، اللهُ أكبرُ ما أجْزلَ نَوالَه، اللهُ أكبرُ ما أقربَه ممَّن دعاه، اللهُ أكبرُ ما أرأفَه بمَن رجاه، اللهُ أكبرُ ما أحلمَه على مَن عصاه، اللهُ أكبرُ ما أفرحَه بمَن تابَ إليه وأتاه، اللهُ أكبرُ ما أحكمَ أمرَه، اللهُ أكبرُ ما أنفذَ قدَرَه، اللهُ أكبرُ ما أبلغَ حُجَّتَه، اللهُ أكبرُ ما أبهرَ حكمتَه، اللهُ أكبرُ ما صامَ صائمٌ، اللهُ أكبرُ ما قامَ قائمٌ، اللهُ أكبرُ ما تلا تالٍ وخشعَ، اللهُ أكبرُ ما فاضتْ عينٌ بالدمعِ، اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إلهَ إلا اللهُ، اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ وللهِ الحمدُ.

أيُّها الصائمونَ!

هنيئًا لكم بلوغَ التمامِ وإدراكَ العيدِ السعيدِ، ورُزقتُم قَبولاً موصَّلاً لرضىً لا سَخطَ بعده، وهُديتُم لحالِ رُشدٍ مستقيمٍ، فقد خلَّفتم موسمَ خيرٍ أوْدعتُم في خزائنِه ما ترَوْنه يومَ القيامةِ في كتابِكم مسطوراً؛ فيا حَظوةَ مَن كان خلاقُه من

رمضانَ القَبولَ والغفرانَ! ويا بؤسَ من كان نصيبُه الخيبةَ والحرمانَ!

أيُّها المؤمنون!

في العيد تتجلَّى معانٍ كبرى ذاتُ أثرٍ في تصحيحِ مسارِ الأمةِ وترشيدِ سيرِها. ومن أبرزِ تلك المعاني التي يحملُها العيدُ ويكرِّرُها: حسنُ الظنِّ بالله تعالى وتوقُّعُ الخيرِ منه؛ إذ يُظهِرُ المسلمونَ يومَ العيدِ فرحَهم بتمامِ نعمةِ اللهِ عليهم حين ظَفِروا بدرَكِ موسمِ الرحمةِ وتنافَسوا في عمارتِه بالباقياتِ الصالحاتِ، وظنِّهم في ربِّهمُ القَبولَ وسعدَ الفألِ؛ فخرجوا بأجملِ حُلّة مستصحبينَ أهلِيهم وذَويهم يشهدونَ الخيرَ ودعوةَ المسلمينَ؛ متيمّنينَ حبورَ أهلِ الجنةِ حين ينادَوْن: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾.

أيُّها الإخوةُ في اللهِ!

إنَّ حسنَ الظنِّ باللهِ من جَللِ العباداتِ التي لا تستقيمُ حياةُ الأمةِ — أفراداً أو جماعاتٍ – إلا بها، يقولُ الرسولُ ﷺ: «إِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ بِاللهِ تَعَالَى مِنْ عِبَادَةِ اللهِ» رواه الحاكمُ وصحّحه على شرطِ مسلمٍ ووافقه الذهبيُّ. وإنما اعتلى حسنُ الظنِّ المقامَ العليَّ في رُتبِ العبادةِ؛ لتجسيدِه توحيدَ اللهِ، وتطبيقِه فعلاً؛ ففي حُسنِ الظنِّ باللهِ اليقينُ بعلمِ اللهِ وحكمتِه وقدرتِه ورحمتِه وفضلِه وكَرَمِه وقهرِه وعفوِه ومنّتِه وقيُّوميّتِه وقوتِه وعزتِه؛ وفيه الإقرارُ بألوهيَّتِه ورُبوبيتِه وأسمائِه وصفاتِه. وفي حسنِ الظنِّ باللهِ تحقيقُ التوكلِ وحسنِ الرجاءِ، يقولُ داودُ بنُ عبدِاللهِ: "أَرَى التَّوَكُّلَ حُسْنَ الظَّنِّ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ". وفي حسنِ الظنِّ باللهِ

الوثوقُ به والاطمئنانُ إليه، يقولُ يَحيى بنُ معاذٍ: "أَوْثَقُ الرَّجَاءِ رَجَاءُ الْعَبْدِ رَبَّهُ، وَأَصْدَقُ الظُّنُونِ حُسْنُ الظَّنِّ بِاللهِ". وفي حسنِ الظنِّ باللهِ إقرارٌ بضعفِ العبدِ وعجزِه عن إدراكِ مصالِحه إنْ لم يكنْ عونٌ من اللهِ له، وفي حسنِ الظنِّ باللهِ قطعُ الرجاءِ بالخلائقِ، يقولُ إبراهيمُ بنُ شَيبانَ: "حُسْنُ الظَّنِّ بِاللهِ هُوَ الْيَأْسُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سِوَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ". بهذا صارَ حسنُ الظنِّ باللهِ من جليلِ العملِ وعُمَدِ الصالحاتِ، يقولُ عبدُالله بنُ مسعودٍ - رضيَ اللهُ عنه -: "«وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا أُعْطِيَ عَبْدٌ مُؤْمِنٌ شَيْئًا خَيْرًا مِنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ لَا يُحْسِنُ عَبْدٌ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ الظَّنَّ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ظَنَّهُ؛ ذَلِكَ بِأَنَّ الْخَيْرَ فِي يَدِهِ». ومن كرامتِه على الله أن جعلَ جزاءَه من جنسِه، فهناءُ العطاءِ بحسنِ الظنِّ والرجاءِ، يقولُ الرسولُ ﷺ: "يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: "أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي" رواه البخاريُّ ومسلمٌ.

أيُّها المسلمون!

لئنْ كانتِ الحاجةُ إلى حسنِ الظنِّ باللهِ في عمومِ الأحوالِ ففي حالِ الشَّدائدِ واحتلاكِ الخُطوبِ — كما تعيشُه الأمةُ - تعظُمُ الحاجةُ وتتأكَّدُ؛ ولذا كان ذلك الظنُّ زادَ الأنبياءِ حالَ الكربِ؛ فهذا إبراهيمُ - عليه الصلاةُ والسلامُ - لمّا أُلقيَ في النارِ قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، وموسى - عليه الصلاةُ والسلامُ - لما حُصرَ مع قومِه بين بحرٍ مُتلاطمٍ وعدوٍّ غاشمٍ قال: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، ويعقوبُ - عليهِ الصلاةُ والسلامُ - لما افتقدَ فلْذتَي كبِدِه قال: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ

ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾،وكان قولُ طالوتَ وجندِه لما برزوا لجالوتَ وجندِه الذين فاقوهم عدداً وعُدَّةً كما أخبرَ اللهُ عنهم: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، ولما هُدّدَ رسولُ اللهِ ﷺ وأصحابُه بتآلُبِ الناسِ عليهِم قالوا: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾، ولما عَرَضتْ لهم فِي حفرِ الْخَنْدَقِ صَخْرَةٌ لا تَأْخُذُ فِيهَا الْمَعَاوِلُ اشتكَوْا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَجَاءَ فَأَخَذَ الْمِعْوَلَ فَقَالَ: "بِسْمِ اللهِ"، فَضَرَبَ ضَرْبَةً فَكَسَرَ ثُلُثَهَا وَقَالَ: "اللهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ السَّاعَةَ"، ثُمَّ ضَرَبَ الثَّانِيَةَ فَقَطَعَ الثُّلُثَ الْآخَرَ، فَقَالَ: "اللهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسٍ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قَصْرَ الْمَدَائِنِ أَبْيَضَ"، ثُمَّ ضَرَبَ الثَّالِثَةَ وَقَالَ: "بِسْمِ اللهِ"، فَقَطَعَ بَقِيَّةَ الْحَجَرِ، فَقَالَ: "اللهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا السَّاعَةَ" رواه أحمدُ وحسّنه ابنُ حجَرٍ. بل حسنُ الظنِّ باللهِ عبادةٌ واجبةٌ متأكّدةُ الوجوبِ في أشدِّ ساعةٍ تمرُّ على المرءِ؛ حين الاحتضارِ وخروجِ الرّوحِ، كما قال رسولُ اللهِ ﷺ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللهِ الظَّنَّ» رواه مسلمٌ، وهلْ بعد الموتِ من شدائدِ الدُّنيا شدةٌ؟! حضر عَبْدُ الْأَعْلَى التَّيْمِيُّ إلى جَارٍ لَهُ قَدْ حَضَرَهُ الْمَوْتُ: "أَيَا فُلَانٍ، لِيَكُنْ جَزَعُكَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ أَكْثَرَ مِنْ جَزَعِكَ مِنَ الْمَوْتِ، وَأَعِدَّ لِعَظِيمِ الْأُمُورِ حُسْنَ الظَّنِّ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ".

معشرَ المؤمنين!

إنَّ لحسنِ الظنِّ باللهِ حالَ الشدائدِ أثراً حسيًّا إيجابيـاً في النظرةِ للكوارثِ وحسنِ التعامُلِ معها؛ فقوةُ القلبِ وشجاعتُه وثباتُه أمامَ الزّوابعِ وطمأنينتُه واستواءُ فكرِه في خِضَمِ الأعاصيرِ من عُقبَى حسنِ الظنِّ في اللهِ — جلَّ وعلا-، قال ابنُ القيمِ: "إِنَّهُ لَا أَشْرَحَ لِلصَّدْرِ، وَلَا أَوْسَعَ لَهُ بَعْدَ الْإِيمَانِ مِنْ ثِقَتِهِ بِاللهِ وَرَجَائِهِ لَهُ وَحُسْنِ ظَنِّهِ بِهِ". والفألُ الحسَنُ ونبذُ اليأسِ من آثارِ حسنِ الظنِّ؛ وذلك مَدْعاةٌ لأنْ يباشرَ المرءُ الأسبابَ بنشاطٍ متلمساً فرجَ مَن بيدِه مفاتِحُ الفرَجِ، كلما سُدَّ في وجهِه بابٌ بحثَ عن آخرَ دونَ يأسٍ أو إحباطٍ. والثباتُ على المبادئِ والصبرُ عليها من أثرِ حسنِ الظنِّ؛ فلا مساومةَ عند الظانِّينَ بربِّهم حُسناً على المبادئِ والثوابتِ ولا تمييعَ عندهم لها؛ إذْ رجاءُ حسنِ العاقبةِ مانعٌ من استعجالِ تبدُّلِ الحالِ بما حرّمَه اللهُ. ودوامُ الإلحاحِ بالدُّعاءِ من ثمارِ حسنِ الظنِّ، فكلما قوِي ظنُّ الخيرِ باللهِ انطلقَ اللسانُ بطلبِه. ومَن كان قويَّ القلبِ منشرحَ الصدرِ عظيمَ التفاؤلِ ثابتَ المبادئِ باذلاً الأسبابَ المشروعةَ في دفعِ الشدائدِ مِلحاحاً في الدعاءِ كان جديراً بتبديلِ اللهِ لحالِه؛ وتلك ثمرةٌ لحسنِ ظنِّه بربِّه.

فلا تظنّنّ بربِّك ظنَّ سوءٍ   فإنَّ اللهَ أَوْلى بالجميلِ

اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إلهَ إلا اللهُ، اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ وللهِ الحمدُ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ الـذي لـه الحمـدُ في الأولـى والآخـرةِ، ذي النِّعَـم الباطنـةِ والظاهـرةِ، والصـلاةُ والسـلامُ على نبيِّنا محمـدٍ ذي الهَـدي القويـمِ والطَّلعـةِ الناضـرةِ، وعلى أزواجِـه وأصحابِـه أُولـي النفـوسِ الزّكيـةِ والخصـالِ الطاهـرةِ.

اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إلهَ إلا اللهُ، اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ وللهِ الحمدُ.

أيُّها المؤمنون!

وإنَّمـا يحسـنُ الظـنُّ بـاللهِ بحسـنِ العمـلِ؛ فاطلبـوا نصـرَه بإقامـةِ شـرعِه؛ تمسُّـكًا بثوابـتِ الدِّيـنِ ومُحكماتِـه، خاصـةً مـا رُتِّـبَ التمكيـنُ عليـه؛ بتحقيـقِ الإيمـانِ، والعمـلِ الصالـحِ الـذي يـأتي في مقدِّمتِـه إقامُ الصـلاةِ وإيتاءُ الـزكاةِ والأمـرُ بالمعروفِ والنهـيُ عـن المنكـرِ، وبنـاءُ جسـورِ التآلـفِ بيـن المؤمنيـنَ، والنَّـأْيُ عـن كلِّ داخلـةٍ تقـوّضُ صِـرحَ المُجتمـعِ وتُضعِـفُ وحدتَـه، والسـمعُ والطاعـةُ بالمعـروفِ لمَـن ولّاه اللهُ أمرَكـم، ومناصحتُـه، والصـدورُ عـن العلمـاءِ الراسـخينَ، والتثبُّـتُ في نقـلِ الأخبـارِ، ورعايـةُ الضعيـفِ، ونُصـرةُ المظلـومِ، والأخـذُ علـى يـدِ السَّـفيهِ والظالـمِ، والقيـامُ بواجـبِ الدعـوةِ إلـى اللهِ — تعالـى — والجهـادُ في سـبيلِه حسـبَ القـدرةِ.

أيتُها المؤمناتُ!

إنكـنَّ مُرتكـزٌ راسـخٌ في حسـنِ بنـاءِ المجتمـعِ وصيانتِـه إن قُمتـنَّ بمـا فـرضَ اللهُ عليكـنَّ؛ فأنتـنّ الأمهـاتُ والزوجـاتُ؛ بصلاحِكُـنّ تطيـبُ البيـوتُ و يزكـو النمـاءُ؛

فاصدُقْنَ اللهَ في تنشئةِ الجيلِ الصالحِ؛ ألا ترغبْنَ في أجورٍ دفّاقةٍ لا توقفُها الأعمارُ ولا تحدُّها الأمصارُ؟ وأدركْنَ حجمَ المكرِ الكُبّار الذي يُرامُ به إفسادُ المجتمعِ من خلالِ إفسادِ نسائِه بنزعِ جلبابِ الحياءِ والحِشمةِ وإبداءِ المفاتنِ وتهوينِ سبلِ الفواحشِ بذرائعَ تقطُرُ خُبثاً وشراً، وقى اللهُ المسلمينَ شرَّها!

اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إلهَ إلا اللهُ اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ وللهِ الحمدُ.

خطبة عيد الفطر

القبول

الحمـدُ للهِ العلـيِّ الغفـورِ، الكريـمِ الشـكورِ،مقلّبِ الشـهورِ، ومصـرفِ الدهورِ،ومدبّـرِ الأمورِ،شـرع لعبـادِه مواسـمَ الخيـراتِ وأعظـمَ الأجـورَ، وجـادَ بالعفـوِّ فأقـالَ العثـورَ، وجـبرَ الكسـورَ، وجمَّـل بالسِّـترِ فكانَ لـه الظهورُ،وأشـهدُ ألا إلـهَ إلا اللهُ وحـده لا شـريكَ لـه شـهادةَ مطمئـنٍّ يرجـو بها الزُّلفـى لديـه في دارِ الحُبـور، وأشـهدُ أنّ محمـداً عبـدُه ورسـولُه ذا الفضـلِ والنـورِ والقـدرِ العلـيِّ المسـطورِ، صلـى اللهُ وسـلم عليـهِ وعلـى آلـه وصحبِـه صـلاةً وسـلاماً إلـى يـومِ النُّشـورِ.

اللهُ أكـبرُ اللهُ أكـبرُ لا إلـهَ إلا اللهُ،اللهُ أكـبرُ اللهُ أكـبرُ وللهِ الحمـدُ، اللهُ أكـبرُ مـا أشـرق صبحٌ بسَـناه، اللهُ أكـبرُ مـا داجَ ليلٌ بغَشـاه، اللهُ أكـبرُ مـا هـبّ ريحٌ بـذُراه، اللهُ أكـبرُ مـا مـاجَ بحرٌ برُبـاه، اللهُ أكـبرُ مـا سـبّح خلـقٌ بفَـلاة، اللهُ أكـبرُ مـا خشـعَ طـودٌ برَسـاه،اللهُ أكـبرُ مـا قصـمَ مـن ظهـرِ طُغـاة، اللهُ أكـبرُ مـا نطقـتْ بسَـناه شـفاه،اللهُ أكـبرُ مـا ذَرَفـتْ مـن عيـنِ تُقـاة،اللهُ أكـبرُ مـا سـجدتْ للهِ جِبـاه،اللهُ أكـبرُ مـا ظَمِئـتْ كبـدٌ لله، اللهُ أكـبرُ اللهُ أكـبرُ لا إلـهَ إلا اللهُ،اللهُ أكـبرُ اللهُ أكـبرُ وللهِ الحمـدُ.

أيُّها المسلمونَ!

ليهْنِكـم تمـامُ شـهرِ الصـومِ وإتمـامُ عِدّتِـه، وليهْنِكـم حـلُّ عيـدِ الفطـرِ المبـاركِ. ذلكـمُ العيـدُ الـذي تسـتفيضُ فيـه الأفـواهُ بدعـواتِ القَبـولِ حتـى لا تـكادَ تهانيـه

تنفصمُ عن تلك المسائلِ. ولا عجبَ في ذلك! إذِ القَبولُ قبلةُ العابدينَ ومُبتغاهم، يقولُ عليٌّ — رضيَ اللهُ عنه -: «كُونُوا لِقَبُولِ الْعَمَلِ أَشَدَّ اهْتِمَامًا بِالْعَمَلِ؛ فَإِنَّهُ لَنْ يُقْبَلَ عَمَلٌ إِلَّا مَعَ التَّقْوَى. وَكَيْفَ يَقِلُّ عَمَلٌ يُتَقَبَّلُ؟ كَانُوا بِاللهِ عَالِمِينَ وِلِعِبَادِهِ نَاصِحِينَ»، ويقولُ عبدُالعزيزِ بنِ أبي روادَ: "أدركتُهم يجتهدونَ في العملِ الصالحِ، فإذا فعلوه وقعَ عليهمُ الهمُّ: أيقبلُ منهم أم لا؟". وذاك من أسبابِ إخفاءِ القَبولِ؛ فالقبولُ أمرٌ غيبيٌّ قد أخفاه اللهُ؛ رحمةً بعبادِه؛ كيْما يجدُّوا ويجتهدُوا في القُرَبِ وإتقانِها، ويخشوْا ردَّها؛ فلا يخالجُهم إعجابٌ واتكالٌ بقبولٍ يُقعِدُهم عن تطَلُّبِ الكمالِ وبذلِ المزيدِ.

هذا، وإنَّ للقَبولِ شرائطَ لا يتحقّقُ إلا بها، وأسباباً تُدْني نوالَه. فالإيمانُ، والإخلاصُ المنافي للرياءِ والعُجبِ، وموافقةُ السنةِ شروطٌ إنِ انخرمَ أحدُها ذهبَ القَبولُ واستحالَ. وذاك جليٌّ في ثوابتِ الدينِ ومُحكَماتِه.

و التقوى — يا عبادَ اللهِ — من أقْوى أسبابِ القَبولِ، كما قال اللهُ —تعالى-: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾. وهكذا برُّ الوالديْنِ سببٌ لقبولِ الطاعةِ، يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾.

والخوفُ من عدمِ قَبولِ القُربةِ استشعاراً بقصورِها -لا قنوطًا من رحمةِ اللهِ — من أسبابِ قَبولِها، تقولُ عائشةُ — رضي اللهُ عنها - سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾، قَالَتْ عَائِشَةُ: أَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟ قَالَ: "لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا تُقْبَلَ مِنْهُمْ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾" رواه الترمذيُّ وصحّحه الألباني. وسؤالُ اللهِ القبولَ وختمُ ذلك السؤالِ باسميْ "السميعِ العليمِ" من أسبابِ القَبولِ، كما أجابَ اللهُ دعاءَ خليلِه وابنِه — عليهما السلامُ - حين كانا يرفعانِ قواعدَ الكعبةِ ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، وهو ما كانتْ — أيضًا — تسألُه امرأةُ عِمرانَ حين نذرتْ حملَها خادمًا لبيتِ اللهِ المُقدّسِ ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

عباد الله!

الحذرَ الحذرَ ممّا يمنعُ قَبولَ العملِ، وذلك باختلالِ أحدِ شروطِه، أو ملابستِه أحدَ الموانعِ، ومنها: المنُّ والأذى، يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾، ومنها: أكلُ الحرامِ، فقد ذكر رسولُ اللهِ ﷺ فيما رواه مسلمٌ مَن تلبّسَ بأسبابِ إجابةِ الدعاءِ، ومع ذلك حُرِم الإجابةَ بأكلِ الحرامِ؛ "ومطعمُه حرامٌ ومَشربُه حرامٌ وغُذِّيَ بالحرامِ؛ فأنّى يُستجابُ له!"، ومنها: التكاسلُ في أداءِ الصلاةِ، والقيامُ بالعبادةِ على وجهِ

الكراهيةِ والتبرُّم، يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾.

اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إلهَ إلا اللهُ، اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ وللهِ الحمدُ.

أيُّها المؤمنون!

ومع تصاريفِ الزمنِ وتقلُّبِ أحوالِه واضطِّرابِ إحَنِه تعظُمُ الحاجةُ وتشتدُّ إلى التشبُّثِ بمُحكمَاتِ الدِّينِ وثوابتِه؛ إذْ لا بقاءَ ولا بناءَ ولا سدادَ ولا عزَّ إلا بها،فنحن قومٌ أعزَّنا اللهُ بالإسلامِ، فمهما ابتغيْنا العزَّةَ بغيرِه أذلَّنا اللهُ. وبالتَّجافي عن تلك المُحْكَماتِ انتكاسُ المفاهيمِ وارتكاسُ الفطَرِ واستشراءُ الفسادِ. ومن أهمِّ المُحكَماتِ التي راعَاها الإسلامُ: تحقيقُ التوحيدِ ورسوخُ دعائمِه في القلوبِ ونشرُه في الآفاقِ، والحذرُ من الشركِ والبدعِ، ومحاربتُها، وجهادُ أعداءِ الملَّةِ، ونُصرةُ المظلومِ، والصدورُ عن العلماءِ الراسخينَ، وتعظيمُ شعائرِ اللهِ وحُرُماتُه خاصةً ما عظَّمَ اللهُ تحريمُه من المُوبقاتِ وأكبرِ الكبائرِ؛ وهي الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ، وشهادةُ الزورِ التي راجتْ في سوقِ المصالحِ والتَّطلُّعاتِ ونسفِ المبادئِ. واحرصوا على إقامةِ الدينِ وعدمِ الاختلافِ فيه، ومُوالاةِ المؤمنينَ والبراءةِ من المشركينَ وعلى إقامِ الصلاةِ، والأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ والأخذِ على يدِ السفيهِ، والقيامِ بواجبِ النصيحةِ للخلقِ، والسمعِ والطاعةِ بالمعروفِ

لمَـن ولّاه اللهُ الأمـرَ، وأداءِ الحقـوقِ وعـدمِ بخْـسِ النـاسِ أشياءَهم،واستشـعارِ المسـؤوليةِ والقيـامِ بها،ورعايةِ البيوتِ،وحسـنِ الخُلـقِ، وتجديـدِ التوبـةِ، والحـذرِ مـن كيـدِ الأعـداءِ، والرُّكـونِ إليهـم. اللهُ أكـبرُ اللهُ أكـبرُ لا إلـهَ إلا اللهُ،اللهُ أكـبرُ اللهُ أكـبرُ وللهِ الحمـدُ.

الخطبة الثانية

الحمـدُ للهِ ذي العطـاءِ المزيـدِ والعـرشِ المجيـدِ، الفعّـالِ لمـا يريـدُ، والصـلاةُ علـى خيـرِ العبيـدِ؛ نبيِّنـا محمـدٍ وعلـى آلـه وصحبِـه وسـلمَ التسـليمَ المزيـدَ.

اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إلهَ إلا اللهُ،اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ وللهِ الحمدُ.

أيُّها المؤمنون!

في العيـدِ مظاهـرُ تجسّـدُ معنـى الجسـدِ الواحـدِ، وتُحيِّـي ذكـرَه، وتنبِّـهُ إلـى استشعارِ عِظَمِ حقِّ المسلمِ على أخيه،فلا يُلهيه الفرحُ عن مُصابِ إخوانِه بـل يسعى جَهدَه في دفعِ المُصابِ أو تخفيفِه؛ فقلبُ المسلمِ فضاءٌ رحْبٌ لإخوانِه يتَّسـعُ لفرحِهـم وترَحِهـم؛ فلـكلِّ مسـلمٍ مظلـومٍ أو منكـوبٍ مشـهدٌ ماثـلٌ أمامَـه ينصـرُه بالدعـاءِ ومـا في طوقِـه، ولا يشـغلُه عنـه شـأنٌ، ليـس استِجراراً للأحـزانِ، وتنكبـاً لفـرحِ العيـدِ وتنكّـراً لبهجتِـه، كلا، إنَّمـا شـعورٌ بالجسـدِ الواحـدِ الـذي إنِ اشـتكى منـه عضـوٌ تداعَـى لـه باقـي الجسـدِ بالسَّـهرِ والحمَّـى؛ إذْ مَـن شـرعَ فـرحَ العيـدِ هـو مَـن أوْجـبَ نُصـرةَ المظلـومِ وغـوثَ المنكـوبِ.

أيتُها المؤمناتُ!

أنتـنَّ حاضنـاتُ الأجيـالِ، ومصانـعُ الرجـالِ؛ فكـمْ نُصِـرَتِ الأمـةُ بتربيـةِ أمٍّ؟! وكـم عـزّتْ بوعيِّهـا؟! ألا فليكُـنْ لـكِ مشـروعُ عمْـرٍ بإعـدادِ جيـلٍ يخـدمُ الأمـةَ ويرفـعُ شـأنَها، كمـا قَالَـتْ أُمُّ سُـفْيَانَ الثـوريِّ لِسُـفْيَانَ: "اذْهـبْ، فَاطْلُـبِ العِلْـمَ،

حَتَّى أَعُولَكَ بِمِغْزَلِي، فَإِذَا كَتَبت عِدَّةَ عَشْرَةِ أَحَادِيْثَ، فَانْظُرْ هَلْ تَجِدُ فِي نَفْسِكَ زِيَادَةً، فَاتَّبِعْهُ، وَإِلاَّ فَلاَ تَتَعَنَّ"؛ فكان سفيانُ طودَ إمامةٍ كما أرادات وربّتْ. ولتعلمي أن إفسادَ المرأةِ سبيلٌ قويٌّ المفعولِ يسلكُه العُداةُ في تغريبِ المجتمعِ وإضعافِ تديُّنِه؛ إذْ ما من فتنةٍ أضرَّ على الرجالِ من النساءِ؛ فكوني صداً منيعاً لهم بالوعي والحِشمةِ والقدوةِ والدعوةِ والتربيةِ والنأيِ عن مخالطةِ الرجالِ الأجانبِ.

اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إلهَ إلا اللهُ، اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ وللهِ الحمدُ.

خطبةُ عيدِ الفطرِ

صفاءُ العيدِ

الحمدُ للهِ الحكيمِ الخبيرِ، السميعِ البصيرِ، العليِّ الكبيرِ، أحاط علمُه الدقيقَ والحقيرَ، والجليلَ والكبيرَ، وعم خيرُه القليلَ والكثيرَ، والجليَّ الظاهرَ والخفيَّ المستورَ، كريمٌ ستيرٌ، ودودٌ عفوٌّ غفورٌ. وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له ولا نظيرَ،ولا معينَ له ولا مشيرَ، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه النذيرَ، والسراجَ المنيرَ، صلى اللهُ عليه وعلى آلِه وصحبِه وسلّمَ التسليمَ الوفيرَ.

اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إلهَ إلا اللهُ، اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ وللهِ الحمدُ،اللهُ أكبرُ ما صامَ صائمٌ وأبْلى، اللهُ أكبرُ ما أفاضَ عامرٌ وأضحَى، اللهُ أكبرُ ما جاد ناسكٌ وضحّى، اللهُ أكبرُ ما كبّر عبدٌ وصلّى، اللهُ أكبرُ ما قام خاشعٌ وتلا، اللهُ أكبرُ ما رقّ جفنٌ وهمَى، اللهُ أكبرُ ما أوْجدَ وأفنى، اللهُ أكبرُ ما أغْنى وأقنى، اللهُ أكبرُ ما أسرَّ وأبكى،اللهُ أكبرُ ما أسقمَ وعافى، اللهُ أكبرُ ما هبّ ريحٌ وأسفا، اللهُ أكبرُ ما هلّ وَدْقٌ وأربَى، اللهُ أكبرُ ما اخضرّ غصنٌ وأدْلى، اللهُ أكبرُ ما علا طَوْدٌ وأبقى، اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إلهَ إلا اللهُ، اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ وللهِ الحمدُ.

ليهْنِكم تمامُ موسمِ الخيرِ. أيامٌ وليالٍ أُودِع في خزائنِها ذخائرُ من الصالحاتِ ذهب نصَبُها وبقيَ برُّها بإذنِ اللهِ. فطُوبَى لمَن منّ عليه المنَّانُ بالقَبولِ! ويا شقاءَ مَن باءَ بالحرمانِ! تقبّل اللهُ منّا بكرمِه صالحَ العملِ! وتجاوَز برحمتِه عن

الزّلـلِ! وجعلَ حالنا بعد رمضانَ خيراً مما كانَ! وأحسنَ لنا العواقبَ والختامَ!

أيُّها المؤمنون!

ها قد حلّ العيدُ بحُلَّتِه القشيبةِ، يحملُ في أعطافِه حُلَلَ المعاني، والذي من أجلِّها شيوعُ الصفاءِ بين المؤمنينَ. تبدّت علائمُ هذا الصفاءِ في بِشرٍ مرتَسمٍ على الوجوه، وأيدٍ ممتدَّةٍ للمصافحةِ، وألسُنٍ لهِجةٍ بالدعاءِ، وأيمانٍ جائدةٍ بالصَّدقةِ والهدايا، واجتماعاتٍ تُقوّي الآصِرَةَ وتقطعُ القطيعةَ، ورسائلَ متبادَلةٍ حاملةٍ معانيَ التقديرِ والذكرى. ولعلَّ من أسرارِ ذلك الابتهاجِ والفرحِ سالفَ الخيرِ الذي تقرّبَ به المتقربونَ إلى مولاهم؛ فإنّه ربٌّ شكورٌ؛ جعل للطاعةِ ثواباً معجَّلاً مع ما وعدَ به من جزيلِ ثوابِ الآخرةِ المؤجّلِ. صفاءُ العيدِ نهرٌ يفيضُ على الحياةِ مباهجَ تنعمُ بها الروحُ، وتقرُّ بها العينُ؛ حين تصافتِ القلوبُ، وتناستِ الأحقادَ والضغائنَ. وتلك سُنَّةٌ ربانيّةٌ جَبلَ اللهُ النفوسَ عليها؛ إذْ جعل صفاءَ حياتِها بصفاءِ قلوبِها، وكدرَها بكدرِ قلوبِها. ولا طريقَ إلى صفاءِ القلبِ إلا بلزومِ مركبِ العفوِ والصفحِ. قال الفُضيْلُ بنُ عياضٍ: "صاحبُ العفوِ ينامُ الليلَ على فراشِه، وصاحبُ الانتصارِ يقلّبُ الأمورَ".

فإنَّكَ حِينَ تَبْلُغُهم أذاةً ... وإنْ ظَلموا لَمحترِقُ الضَّميرِ

والعفوُ ضمانةُ عزٍّ وسُؤدُدٍ، يقولُ الرسولُ ﷺ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ» رواه مسلمٌ. والعفوُ عند الناسِ جالبٌ محبتَهم، وكاسبٌ قلوبَهم، ومطيّبٌ خواطرَهم، يقولُ

اللهُ — تعالى -: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِۖ﴾. والعفوُ من أدقّ معاييرِ المفاضلةِ بين الناسِ، قال قتادةُ: "أفضلُ الناسِ أعظمُهم عند الناسِ عفواً، وأوسعُهم له صدراً". والعفوُ سببٌ لمغفرةِ الذنوبِ، يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ﴾. ويقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: "تُعْرَضُ الْأَعْمَالُ فِي كُلِّ يَوْمِ خَمِيسٍ وَإِثْنَيْنِ — وفي روايةٍ: "تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ"-، فَيَغْفِرُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لِكُلِّ امْرِئٍ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا، إِلَّا امْرَأً كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيُقَالُ: ارْكُوا (أي: أخِّروا) هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، ارْكُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا" رواه مسلمٌ. ثلاثةُ محاسنَ أخرَ يمنحُها اللهُ لأهلِ العفوِ، رُويت من قولِ النبيّ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ آوَاهُ اللهُ فِي كَنَفِهِ، وَسَتَرَ عَلَيْهِ بِرَحْمَتِهِ، وَأَدْخَلَهُ فِي مَحَبَّتِهِ» قِيلَ: مَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «مَنْ إِذَا أُعْطِيَ شُكَرَ، وَإِذَا قَدَرَ غَفَرَ، وَإِذَا غَضِبَ فَتَرَ» رواه الحاكمُ وصحّحه. وتمامُ المكافأةِ الإلهيةِ لأهلِ العفوِ دخولُ الجنةِ، يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. وتخييرُ العافي من الحورِ من تلك المكافأةِ، يقولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - عَلَى رُؤوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ حَتَّى يُخَيِّرَهُ اللهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ مَا شَاءَ» رواه أبو داودَ والترمذيُّ وحسّنه. جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَمْ نَعْفُو عَنِ الْخَادِمِ؟ فَصَمَتَ، ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِ

الْـكَلَامَ، فَصَمَـتَ، فَلَمَّـا كَانَ فِـي الثَّالِثَـةِ، قَـالَ: «اعْفُـوا عَنْـهُ فِـي كُلِّ يَـوْمٍ سَـبْعِينَ مَـرَّةً» رواه أبـو داودَ وصحّحـه الألبـانيُّ. سـبعونَ عفـواً في يـومٍ واحـدٍ مـع خـادمٍ! ألا مـا أعظـمَ حاجتَنـا لهـذا الخُلـقِ النبيـلِ مع النـاسِ عامـةً، ومـع القرابـةِ خاصـةً! وإن العجـبَ لَيبلـغُ مبلغَـه حيـن تـرى قطيعـةً بيـن أقـاربَ ربّمـا امتـدتْ أعوامـًا وعقـوداً لأجـلِ لَعاعـةٍ مـن الدُّنيـا وعَـرَضٍ زائـلٍ! أفـلا يتقـي اللهَ أولئـك؟! ويثِبـونَ إلـى رشـدِهم؟! ويطمحـونَ في رفـعِ صالحتِهـم وتكفيـرِ ذنوبِهـم؟! ألا يُرعبُهـم قـولُ رسـولِ اللهِ ﷺ: «لَا يَحِـلُّ لِمُسْـلِمٍ أَنْ يَهْجُـرَ أَخَـاهُ فَـوْقَ ثَـلَاثٍ، فَمَـنْ هَجَـرَ فَـوْقَ ثَـلَاثٍ فَمَـاتَ دَخَـلَ النَّـارَ» رواه أبـو داودَ بإسـنادٍ علـى شـرطِ البخـاريِّ ومسـلمٍ كمـا قـال النـوويُّ؟! ألا يخيفُهـم قـولُ رسـولِ اللهِ ﷺ: "مَـن هجـرَ أخـاه سـنةً فهـو كسـفكِ دمِـه " رواه أبـو داودَ وصحّحـه النـوويُّ؟! كـنْ شـجاعًا، وانتصـرْ علـى حـظِّ نفسِـك، واسـمُ بهمّتِـك لِمـا عنـد اللهِ، ولا تُطـعْ هـوى نفسِـك؛ فإنـه مُقعِـدٌ بـك عـن قمـمِ الخيـراتِ، واجعـل مـن هـذا العيـدِ مِقَصًّـا تقـصُّ بـه قيـودَ الضغائـنِ؛ فتعفـو عمّـن ظلمَـك، وتعطـي مَـن حرمَـك، وتصـلُ مَـن قطعـك؛ فأنـت الرابـحُ بنعيـمِ الدُّنيـا والآخـرةِ. ولْيكـنْ لـك في سـلفِك الصالـحِ أُسـوةٌ وسَـلوةٌ. قـال ابـنُ مسـعودٍ — رضـيَ اللهُ عنـه -: كَأَنِّـي أَنْظُـرُ إِلَـى النَّبِـيِّ ﷺ، يَحْكِـي نَبِيًّـا مِـنَ الأَنْبِيَـاءِ، ضَرَبَـهُ قَوْمُـهُ فَأَدْمَـوْهُ، وَهُـوَ يَمْسَـحُ الـدَّمَ عَـنْ وَجْهِـهِ وَيَقُـولُ: «اللَّهُـمَّ اغْفِـرْ لِقَوْمِـي؛ فَإِنَّهُـمْ لاَ يَعْلَمُـونَ» رواه البخـاريُّ. وقـال عمـرُ بـنُ الخطـابِ — رضـي اللهُ عنـه -: "كلُّ النـاسِ منِّـي في حِـلٍّ". وقالـت عائشـةُ — رضـيَ اللهُ عنهـا -: "هُـزِمَ المُشْـرِكُونَ يَـوْمَ أُحُـدٍ هَزِيمَـةً تُعْـرَفُ فِيهِـمْ، فَصَـرَخَ إِبْلِيـسُ: أَيْ عِبَـادَ اللهِ، أُخْرَاكُـمْ، فَرَجَعَـتْ أُولاَهُـمْ فَاجْتَلَـدَتْ هِـيَ وَأُخْرَاهُـمْ، فَنَظَـرَ حُذَيْفَـةُ بْـنُ اليَمَـانِ فَـإِذَا هُـوَ بِأَبِيـهِ، فَقَـالَ: أَبِـي

أَبِي! قَالَتْ: "فَوَاللهِ! مَا انْحَجَزُوا حَتَّى قَتَلُوهُ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ: غَفَرَ اللهُ لَكُمْ"، قَالَ عُرْوَةُ: فَوَاللهِ مَا زَالَتْ فِي حُذَيْفَةَ مِنْهَا بَقِيَّةُ خَيْرٍ حَتَّى لَقِيَ اللهَ رواه البخاريُّ.

وسقى مولىً عمرَ بنَ عبدِالعزيز سمّاً لقتلِه، فلما علم دعَاهُ، فَقَالَ: وَيْحَكَ! مَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ سَقَيْتَنِي السُّمَّ؟ قَالَ: أَلْفُ دِينَارٍ أُعْطِيتُهَا، وَعَلَى أَنْ أُعْتَقَ، قَالَ: هَاتِهَا، فَجَاءَ بِهَا، فَأَلْقَاهَا فِي بَيْتِ المَالِ، وَقَالَ: اذْهَبْ حَيْثُ لاَ يَرَاكَ أَحَدٌ. وقال الإمامُ أحمدُ: "كُلُّ مَنْ ذَكَرَنِي فَفِي حِلٍّ إِلاَّ مُبتدِعًا، وَقَدْ جَعَلتُ أَبَا إِسْحَاقَ -يَعْنِي: المُعْتَصِمَ- فِي حِلٍّ، وَرَأَيْتُ اللهَ يَقُوْلُ: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ﴾، وَأَمَرَ النَّبِيُّ -ﷺ- أَبَا بَكْرٍ بِالعفوِ فِي قِصَّةِ مِسْطَحٍ، وَمَا ينفعُكَ أَنْ يُعَذِّبَ اللهُ أَخَاكَ المُسْلِمَ فِي سَبَبِكَ؟!". وكَانَ بَيْنَ حَسَنِ بنِ حَسَنٍ وَبَيْنَ ابْنِ عَمِّهِ عَلِيِّ بنِ الحُسَيْنِ شَيْءٌ، فَمَا تَرَكَ حَسَنٌ شَيْئًا إِلاَّ قَالَهُ، وَعَلِيٌّ سَاكِتٌ، فَذَهَبَ حَسَنٌ، فَلَمَّا كَانَ فِي اللَّيْلِ، أَتَاهُ عَلِيٌّ، فَخَرَجَ، فَقَالَ عَلِيٌّ: يَا ابْنَ عَمِّي، إِنْ كُنْتَ صَادِقًا، فَغَفَرَ اللهُ لِي! وَإِنْ كُنْتَ كَاذِبًا، فَغَفَرَ اللهُ لَكَ! السَّلاَمُ عَلَيْكَ؛ فَالْتَزَمَهُ حَسَنٌ، وَبَكَى، حَتَّى رُثِي لَهُ.

اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إلهَ إلا اللهُ، اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ وللهِ الحمدُ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إلهَ إلا اللهُ، اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ وللهِ الحمدُ.

أيُّها المؤمنونَ!

لـم يشـهدِ التاريـخُ المعاصـرُ تآمـراً على أهـلِ السُّـنّةِ كمـا هـو حـادثٌ الآنَ؛ فقـد تداعـى النَّصـارى الصليبيُّـونَ، والفـرسُ المجـوسُ، والصهاينـةُ المجرمـونَ، وخـوارجُ أهـلِ الملّـةِ، والمنافقـون العـربُ، والعمـلاءُ الخوَنـةُ علـى الكيـدِ بأهـلِ الإسـلامِ. وهـا هـي حملاتُهـم المُمَنهجـةُ ذاتُ الأسـاليبِ المُتعـدِّدةِ توجَّـهُ إلـى بـلادِ الإسـلامِ بغيـةَ حَرْفِهـا عـن نهـجِ الشـريعةِ الـذي قامـتْ عليـه، وخلخلـةِ أمنِهـا، وتفتيـتِ وحدتِهـا، وإنهـاكِ اقتصادِهـا. وذاك مـا يوجـبُ علينـا محاسـبةُ النفـسِ، ومراجعـةُ العلاقـةِ مـع اللهِ سـبحانَه، والحـذرُ مـن الانسـياقِ وراءَ تلـك الحمـلاتِ بشـعاراتِها البراقـةِ، ويقظـةُ الجميـعِ ؛ ليكونـوا صفـاً مرصُوصـاً في وجـهِ العـدوِّ، ويقطعـوا عليـهِ ذرائعَـه الموصِّلـةَ لمأربِـه السيءِ؛ اعتـزازاً بالكتـابِ والسّـنةِ، واعتصامـاً بهمـا، وتحكيمَهمـا في صغيـرِ الأمـرِ وكبيـرِه، ودحـضَ شُـبهِ الغاليـنَ فيهمـا والجافيـنَ عنهمـا، ونشـرَ هديهمـا بالدعـوةِ في أنحـاءِ المعمـورةِ، وتطبيـقَ شـعيرةِ الأمـرِ بالمعـروفِ والنهـيِ عـن المنكـرِ، والسـمعَ والطاعـةَ بالمعـروفِ لمَـن ولّاه اللهُ الأمـرَ، ورفـعَ المظالـمِ، وتحقيـقَ العـدلِ، والـورودَ علـى معيـنِ العلمـاءِ الاسـخينَ والصـدورَ عنـه، وألا نكـونَ سـمّاعين للعُـداةِ والأسـماءِ والمُعرّفـاتِ المجهولـةِ بتصديـقِ أباطِلِهـم، ونشـرِ

شائعتِهم، وألا نمكِّنَ لهم باستغلالِ الأخطاءِ وحظوظِ النفسِ؛ ليفرِّقوا الصفَّ، ويُوغِروا الصدورَ؛ فالجميعُ في لجَّةٍ يعْتلونَ مركباً واحداً؛ نجاةُ فردِه بنجاةِ جمعِه، وهلاكُ جمعِه بعطَبِ فردِه.

أيتُها المؤمنات!

احفظنَ اللهَ في أنفسِكنّ وأزواجِكنّ وأولادِكنّ وأمتِكنّ، واعلمْنَ أنكنّ من أعظمِ وسائلِ بناءِ المجتمعِ وحفظِه إنْ قمتُنّ بما أوجبَ اللهُ عليكنّ،ارعيْنَ أزواجَكنّ،ونشئْنَ أولادكنّ نشأةً صالحةً،وانشرْنَ الخيرَ في بناتِ جنسِكُنّ،واجتبْنَ سبلَ الافتتانِ والذوبانِ في مستنقعِ التقليدِ المذمومِ واصنعْنَ المجد كما صنعتْه أمُّ الإمامِ البخاريِّ ومالكٍ وأحمدَ وسفيانَ الثوريّ اللائي وُلّين عبءَ إعدادِ النشءِ بعد فقْدِ الآباءِ؛ فكان المجدُ نابعاً من تلك المحاضِن العليَّة.

اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إلهَ إلا اللهُ، اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ وللهِ الحمدُ.

خطبة عيد الفطر

صلة العيد

الحمدُ للهِ الذي بنعمتِه تتمُّ الصالحاتُ، وبفضلِه تُدركُ الهباتُ، وبعفوِه تقالُ العثَراتُ، بارئِ الكائناتِ، وفاطرِ السمواتِ، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ رفيعُ الدرجاتِ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه أوْفى الخَلقِ في طاعةٍ وإخباتٍ، صلى اللهُ وسلمَ عليه وعلى آلِه وصحبِه ذوي اليُمنِ والمَكرماتِ.

اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إلهَ إلا اللهُ، اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ وللهِ الحمدُ، اللهُ أكبرُ ما أجلَّ إحسانَه، اللهُ أكبرُ ما أعظمَ سلطانَه، اللهُ أكبرُ ما أكثرَ أفضالَه، اللهُ أكبرُ ما أجزلَ نَوالَه، اللهُ أكبرُ ما أقربَه ممّن دعاه، اللهُ أكبرُ ما أرأفَه بمَن رجاه، اللهُ أكبرُ ما أحلمَه على مَن عصاه، اللهُ أكبرُ ما أفرحَه بمَن تابَ إليه وأتاه، اللهُ أكبرُ ما أحكمَ أمرَه، اللهُ أكبرُ ما أنفذ قدَرَه، اللهُ أكبرُ ما أبلغَ حجَّتَه، اللهُ أكبرُ ما أبهرَ حكمتَه، اللهُ أكبرُ ما صام صائم، اللهُ أكبرُ ما قام قائم، اللهُ أكبرُ ما تلا تالٍ وخشع، اللهُ أكبرُ ما فاضتْ عينٌ بدمعٍ، اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إلهَ إلا اللهُ، اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ وللهِ الحمدُ.

أيُّها الصائمونَ!

هنيئاً لكم بلوغَ التمامِ وإدراكَ العيدِ السعيدِ، ورُزقتُم قَبولاً موصلاً لرضىً لا سَخطَ بعده، وهُديتُم لحالِ رشدٍ مستقيمٍ، فقد خلّفتم موسمَ خيرٍ أودعتُم في خزائنِه ما ترونَه يومَ القيامةِ في كتابِكم مسطوراً؛ فيا حَظوةَ مَن كان خلاقُه من رمضانَ القَبولَ والغفرانَ! ويا بؤسَ مَن كان نصيبُه الخيبةَ والحرمانَ!

أيُّها المؤمنون!

في العيدِ تتجلّى معانٍ كبرى ذاتُ أثرٍ في تصحيحِ مسارِ الأمةِ وترشيدِ سيرِها. ومن أبرزِ تلك المعاني التي يحملُها العيدُ ويكرِّرُها تقويةُ آصرةِ رباطِ المجتمعِ الإسلاميِّ، والذي تأتي آصرةُ الرَّحمِ في مقدَّمِ عِقدِها. آصرةٌ اشتُقَّ اسمُها من اسمِ الرحمنِ؛ فهي رحمةٌ لمن راعاها، ولا تُنزَعُ الرحمةُ إلا من شقيٍّ. وخلعَ المولى — جلَّ جلالُه - عليها من العهدِ والجزاءِ ما جعلها حقيقةً بالرعايةِ والصلةِ. فحبلُ الخيرِ موصولٌ بوصلِها مقطوعٌ بقطعِها، يقولُ النبيُّ ﷺ: "إنَّ اللهَ خلقَ الخلقَ، حتى إذا فرغَ من خلقِه، قالت الرحمُ: هذا مَقامُ العائذِ بك من القطيعةِ، قال: نعم، أمَا ترضيْنَ أن أصلَ من وصلك، وأقطعَ مَن قطعكِ؟ قالت: بلى يا ربِّ، قال: فهو لك" رواه البخاريُّ. وأعظمُ قطيعةٍ يُمنى بها قاطعُ الرحمِ حرمانُ دخولِ الجنةِ كما قال النبيُّ ﷺ: "لا يدخلُ الجنةَ قاطعٌ" رواه البخاريُّ. ولا عجبَ في ذلك؛ إذْ قطيعةُ الرحمِ سببٌ لحلولِ لعنةِ الجبارِ على القاطعِ، يقولُ اللهُ تعالى: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ۝٢٢ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾. وكذلك فإنَّ ذنبَ القطيعةِ مُعجَّلٌ في الدُّنيا مع بقاءِ عذابِ الآخرةِ؛ لسوءِ أثرِه وقبحِ جُرمِه، يقولُ النبيُّ ﷺ: "مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللهُ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرحمِ" رواه ابنُ حِبانَ وصحّحه الألبانيُّ. وهذا ما نراه واقعاً في حياةِ القاطعينَ؛ نكدٌ، وتفرقُ شملٍ، وعقوقٌ، وقضايا، وحنقٌ وشتائمُ.

معشرَ المؤمنينَ!

إنَّ الأسى لَيبلغُ بالفؤادِ مبلغَه حين ترى من يعلمُ هذه الزواجرَ وغيرَها ثم يصرُّ على غيِّه! ابنٌ يهجرُ أباه! وأخٌ يهجرُ أخاه! وقريبٌ يصرِمُ حبلَ قريبه سنينَ عدداً! لأجلِ ماذا؟! ما السببُ الحاملُ لتقحُّمِ دركاتِ القطيعةِ وتحمُّلِ تبعاتِها الخطيرةِ في الدُّنيا مع ما يُنتظَر من نكالِ الآخرةِ؟! لو كانَ سببُ القطيعة الدُّنيا بما حوتْ لكان القاطعُ مغبوناً بحلولِ اللعنةِ عليه ووعيدِه بحرمانِ الجنةِ! كيف إذا كان سببُ القطيعةِ نزاعاً في عَقارٍ أو لَعاعةٍ من مالٍ أو موقفاً شخصياً أو نزقاً صبيانياً.

معشرَ الكرامِ!

إنَّ لِحظِّ النفسِ هوىً يهوي بصاحبِه إلى حضيضِ السفاسفِ والمخاطر. وغالباً ما يكونُ ذلك حاضراً مع الأرحامِ. وهذا ما يوجِبُ على الحصيفِ كبحُ جِماحِ نفسِه، وأطرِها على الحقِّ أطراً؛ فلئِنْ تُقادْ للحقِّ راغِمةً خيرٌ من ندامةِ التفريطِ وحسرةِ الفوْتِ! وإن أنسى لا أنسى عَبرةَ رجلٍ اشتكى أمَّه المُقْعدةَ ذاتَ التسعينَ عاماً في المحكمةِ، ولم يرعوِ لنصحِ القاضي، فجاءَه في الجلسةِ القضائيَّةِ الثانيةِ باكياً حين ماتتْ أمُّه وهي عليه غضبى! فكنْ شجاعاً، وكن أنت المبادرَ بقطعِ القطيعةِ؛ فخيرُهما الذي يبدأ بالسَّلامِ! في يومِ العيدِ المباركِ هاتفْ من كانتْ بينك وبينه قطيعةٌ من الرَّحمِ أو راسلْه، وأعلنْ طويَ صفحةِ الماضي، وقلْ: عفا اللهُ عمّا سلفَ! وعشْ بطمأنينةِ السماحةِ والصفاءِ!

وإنَّ الـذي بيني وبيـن بنِـي أبـي ... وبيـن بنـي عمِّـي لمختلـفٌ جـداً
فـإنْ أكَلوا لحمـي وفَـرْتُ لحومَهمُ ... وإنْ هدمُـوا مجدِي بنيـتُ لهم مجدا
وإنْ ضيَّعـوا غيبِي حفِظـتُ غيوبَهمُ ... وإنْ هم هوَوْا غَيِّي هَويتُ لهم رُشـدا
ولا أحمـلُ الحقـدَ القديـمَ عليهـمُ ... وليس رئيسُ القومِ مَن يحملُ الحِقدا
وإنْ أجمعُـوا صَرمي معـًا وقطيعتي ... جمعـتُ لهم منِّي مـع الصلـةِ الوُّدا
لهـم جُلُّ مـا لـي إنْ تتابعَ لـي غنىً ... وإنْ قـلَّ مالـي لـمْ أكلفْهـم رِفـدا

اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إلهَ إلا اللهُ، اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ وللهِ الحمدُ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إلهَ إلا اللهُ، اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ وللهِ الحمدُ.

أيُّها المؤمنون!

إنَّ من البادي للناظرِ حجمَ المكرِ الكبّارِ الذي يحيكُه أعداءُ الإسلامِ ضدّه، حين أدركوا يقيناً أنّه الخطرُ الدَّاهمُ الذي لا يمكنُ القضاءُ عليه؛ فسعَوْا بكلِّ قوةٍ في مساريْنِ خبيثَيْنِ: مسارِ تشويهِ صورتِه وإلحاقِ القبيحِ به، ومسارِ تفريغِه من مضمونِه الصحيحِ وتقديمِه بصورةٍ مُبدَّلةٍ مُحرّفةٍ يرتضِيها الأعداءُ الألدَّاءُ؛ بُغيةَ تنفيرِ الناسِ عنه، وتأخيرِ يقظةِ أهلِه بصدِّهم عن التمسُّكِ به. وكان من أخطرِ أساليبِهم الخبيثةِ في ذلك - ممّا أفصحتْ عنه مراكزُ بحثِهم ودراساتِهم - هذه الأيامُ والتي فاقتْ وحشيةَ الحربِ العسكريةِ أثراً — صناعةُ بؤرِ العنفِ المتشدِّدِ واستثمارِ طيْشِها والنفخِ في نارِها؛ لتكونَ خِنجراً مسموماً في خاصرةِ الأمَّةِ؛ تكفيراً، وتفجيراً، وتخويفاً. وغدا غلوُّهم مرتعاً خصباً لأعداءِ الدينِ من الكفَرةِ وذوي النفاقِ في النَّيْلِ من ثوابتِه وعلمائِه ودعاتِه وإجهاضِ مشاريعِ الرشدِ في الأمةِ، ومثراةً لمكاسبِ الأعداءِالدينيةِ والسياسيةِ والاقتصاديةِ والعسكريةِ. واكتوتْ بنارِ ذلك الغلوِّ البلدانُ الآمنةُ، والمشاريعُ الدعويةُ، ومحاضنُ التربيةِ، والأسرِ، والمجتمعاتِ. حتى بلغ الغلوُّ ذُروتَه وعتوَّه؛ فاختاروا من المكانِ مأرزَ الإيمانِ مدينةَ النبيِّ ﷺ، ومن المباني المساجدَ،

ومن الزمانِ رمضانَ، ومن البشَرِ الوالديْنِ والمصلينَ والصائمينَ، فهل ذاك من الدينِ؟! سبحانَك هذا بهتانٌ عظيمٌ!

أيُّها المؤمنون!

وأسلوبٌ آخرُ يمتطِيه الأعداءُ في تشويهِ صورةِ الإسلامِ؛ وذلك بتفريغِه من مضمونِه الحقِّ الذي أنزلَه اللهُ، والضربِ على أصولِه والطعنِ في أئمّتِه عبر كتاباتٍ صحفيةٍ وحواراتٍ إعلاميةٍ ذاتِ غطاءٍ دينيٍّ، يُستضافُ فيها زائغونَ ذلِقو الألسنِ، قد تكسو اللّحى وجوهَهم، يبثُّونَ الشُّبهَ للعامةِ، ويقدحونَ في حَمَلةِ العلمِ الراسخينَ، ويقدمونَ إسلاماً عصرياً مائعاً لا يبني أمةً ولا يحفظُ مهابةً ولا يردُّ عدواً، وهل هذا دينُ اللهِ المنزّلِ؟!

يا أهلَ العلمِ!

إنَّ واجبَ الجهادِ بالكلمةِ لا يقلُّ عن واجبِ جهادِ السِّنانِ؛ وذاك يوجبُ على أهلِ العلمِ القيامَ بواجبِهم، وبيانَ الحقِّ للناسِ بوضوحٍ وإقناعٍ، ودحضَ الشُّبَهِ المضلِّلَةِ. كما أنَّ ذلك يوجبُ إعادةَ النظرِ في البرامجِ العلميةِ التي تبني الرسوخَ العلميَّ لطلابِ العلمِ والمناعةَ الفكريةَ للمجتمعِ، وإعادةَ النظرِ في الخطابِ الدعويِّ للارتقاءِ به لمواكبةِ ما تستدعِيه ظروفُ المرحلةِ. وذاك — بإذنِ اللهِ — ممّا يتحققُ به حفظُ الدينِ وتجدُّدِ ما اندرسَ من معالمِه. يقولُ شيخُ الإسلامِ: "ومن سنّةِ اللهِ: أنّه إذا أرادَ إظهارَ دينِه أقامَ مَن يعارضُه، فيُحقُّ الحقَّ بكلماتِه ويقذفُ بالحقِّ على الباطلِ، فيدمغُه؛ فإذا هو زاهقٌ".

اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إلهَ إلا اللهُ، اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ وللهِ الحمدُ.

خطبةُ عيدِ الفطرِ

الدّينُ الغالبُ

الحمدُ للهِ مسبغِ نعمائه، وضامنِ الزيادةِ بشكرِ عطائه، وجاعلِ الفرجِ قرينَ بلائه. وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له في صفاتِه وأسمائِه، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلى اللهُ وسلمَ عليه وعلى آلِه وصحبِه وأوليائه.

أمّا بعدُ، اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إلهَ إلا اللهُ، اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ وللهِ الحمدُ، اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ كبيراً.

أيّها المؤمنونَ والمؤمناتُ!

ليهْنكُم تمامُ موسمِكم، وما أودعتُموه من صالحِ عملِكم، وشهودُ عيدِكم. ووهبَ اللهُ لنا في عطاياه أجزلَ الثوابِ والنصيبِ، وجعل عملَنا في الخيرِ دِيمةً، ورزقَنا القَبولَ وحسنَ الختامِ.

عبادَ اللهِ!

كانَ الناسُ قبلَ بُزوغِ شمسِ الإسلامِ في ظلامِ الجاهليةِ الدَّامسِ ومستنقعِها الآسنِ؛ يأكلُ القويُّ الضعيفَ، وتُخفَرُ الذمامُ، ويفشو فيهمُ الشركُ والمنكرُ والرذيلةُ، أنهكَهم تطاحنُ النَّعَراتِ، وقسّمتْ مجتمعَهم، وقزّمتْ عقولَهم واهتماماتِهم؛ يعيشونَ في هامشِ الحياةِ مؤخَّرينَ في ذيلِ الأممِ؛ لا يُرقبُ فيهم

عهدٌ، ولا يُحسبُ لهم حسابٌ. وبينا هم كانوا غارقينَ في سفحٍ هابطٍ من الضَّلالِ والبؤسِ إذ بعثَ اللهُ فيهم نبياً منهم يعرفونَ نسَبَه وخُلقَه؛ ليكونَ هو المنقذَ؛ وليترقّوْا في سُلمِ هداه من سفح ﴿ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ إلى سامقِ قمةِ ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، والتي لم تبلغْها أمةٌ غيرَ أمتِه ﷺ، وذلك خلالَ ثلاثٍ وعشرينَ عاماً؛ انقلبتْ فيها بنورِ الهُدى موازينُ تلك الأمةِ وقيمُها؛ فانقلبتْ نظرةُ الأممِ إليها وتعامُلِها معها من ازدراءٍ وتهميشٍ إلى رعبٍ وتحريشٍ. إنها أعظمُ منَّةٍ ربانيةٍ سابغةٍ عليها؛ ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾. حتى إذا ما أتمّ النبيُّ ﷺ البلاغَ، وأكملَ الدينَ، وتمتِ النعمةُ، ودخل الناسُ في دينِ اللهِ أفواجاً، وشهدَ له ربُّه والخَلقُ بنجاحِ البلاغِ وأداءِ الرسالةِ؛ ترحّلَ بعد أن أقامَ مجتمعاً ربانياً لم يُعرفْ له في تاريخِ البشريةِ نظيرٌ، مجتمعاً مؤتَمنًا على نشرِ الدينِ والذَّوْدِ عن حِيَاضِه؛ فترامتْ أطرافُ رُقعةِ الدولةِ الإسلاميةِ بفتوحِ الكتابِ المنيرِ والسِنانِ الشهيرِ حتى عمّتْ ما بين المحيطيْنِ، وغدتْ دولةُ الإسلامِ أعظمَ دولةٍ عرفها التاريخُ ديناً، وقيماً، وحضارةً، وشكيمةً، رغم ضراوةِ خصومةِ الأعداءِ الفجّارِ ومكرِهم الكُبّارِ؛ إذْ كانَ المؤمنونَ لازمينَ غرزَ النبوةِ، والآخرةُ غايةُ قصدِهم. وبدأ النقصُ الغالبُ يدخلُ على الأمةِ بقدرِ ما تركتْ من دينِها، وأخلدتْ إلى الأرضِ، حتى آلَ حالُها إلى زرايةٍ يُرثَى لها، أخبرَ عنها النبيُّ ﷺ بقولِه: «يوشكُ الأممُ أن تداعَى عليكم كما تداعَى الأكَلةُ إلى قصعتِها»، فقال قائلٌ: ومن قلةٍ نحن يومئذٍ؟ قال: «بل أنتم يومئذٍ كثيرٌ، ولكنّكم غثاءٌ كغثاءِ

السيلِ، ولَينْزِعنّ اللهُ من صدورِ عدوِّكم المهابةَ منكم، ولَيقذِفنّ اللهُ في قلوبكم الوَهَنَ»، فقال قائلٌ: يا رسولَ اللهِ، وما الوَهَنُ؟ قال: «حبُّ الدُّنيا، وكراهيةُ الموتِ» رواه أبو داودَ وصحّحه الألبانيُّ.

عبادَ الله!

ومع جثُومِ غاشيةِ الضعفِ على واقعِ المسلمينَ، وإغراقِهم من قبَل أعدائهم بما يصدُّهم عن دينِهم، إلا أنَّ هؤلاءِ الأعداءَ يخشَوْن - أيَّما خشيةٍ - يقظَةَ القلوبِ بحياةِ الإيمانِ، وحنينَها للأوبةِ إلى عزِّ دينِها، واستعادةِ مجدِها المفقودِ، بعد أن ذاقتْ مرارةَ هوانِ التَّركِ والتفريطِ، وسئمتْ من ذلِّ التسوُّلِ على موائدِ اللئامِ لاستعادةِ شيءٍ من حقوقِها المسلوبةِ. فطفقَ أولئك الأعداءُ الأشرارُ على الحيلولةِ دونَ تمسُّكِ الأمةِ بدينِها الحقِّ؛ من خلالِ أساليبَ ماكرةٍ تنقطُ خبثًا، تتفتَّقُ عن خبراتٍ ومراكزَ أبحاثٍ ودراساتٍ، كان من أخطرِها أسلوبُ تفريغِ الدينِ من محتواه، والإبقاءِ على مسمّاه وبعضِ المظاهرِ التعبُّديَّةِ المحرَّفةِ، والفصلِ بين الإيمانِ والعملِ الصالحِ، وزَعزعَةِ الثوابتِ، وتصديرِ أهلِ الزَّيْغِ والمنافقينَ عليمي اللسانِ، واستحداثِ الشعاراتِ والمصطلحاتِ العائمةِ وشيطنتِها لمحاربةِ الإسلامِ؛ لعلمِهم أن محاربةَ الدينِ مكاشفةً سببٌ للفشلِ. فلهم في كلِّ مرحلةٍ شعارٌ أو مصطلحٌ يحارَبُ الاسلامُ من خلالِه حتى إذا استُهلِك استُعيضَ بآخرَ. ولا عجبَ من كيدِ الكافرينَ؛ إذْ قد أبانَ اللهُ دافعَه بقولِه: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾.

أيُّها المؤمنونَ والمؤمناتُ!

إنَّ انتصارَ دينِ الإسلامِ حتميُّ الاطِّرادِ في الحُجّةِ والبرهانِ وإنْ تخلّفَ السيفُ والسِّنانُ؛ ولذا فإنّ كيْدَ الكافرينَ والمنافقينَ لا يزيدُ الإسلامَ إلا قوةً ونَصاعةً وانتشاراً؛ إذ هو الدينُ الذي تكفَّلَ اللهُ بحفظِه وهيمنتِه؛ فهو القائلُ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ويقولُ النبيُّ ﷺ: "لَيبلُغنّ هذا الأمرُ ما بلغ الليلُ والنهارُ، ولا يتركُ اللهُ بيتَ مدَرٍ ولا وبَرٍ إلا أدخلَه اللهُ هذا الدينَ، بعزِّ عزيزٍ أو بذلِّ ذليلٍ، عزاً يعزُّ اللهُ به الإسلامَ، وذُلّا يذلُّ اللهُ به الكفرَ" رواه أحمدُ وصحّحه ابنُ حبانَ. والتاريخُ والواقعُ شاهدانِ على هذه الحقيقةِ؛ فأينَ مَن ناصبَ الإسلامَ العداءَ من الأشخاصِ والجماعاتِ والدولِ السابقةِ؟! لقد فنَوْا واضمحلُّوا وبقيَ الإسلامُ — كما نزلَ - حياً شامخًا محفوظًا، وهو الأكثرُ تبعًا. بل غدا من إرهاصِ عودةِ أهلِه إليه شراسةُ المقاومةِ والكيدِ ضدَّه؛ إذْ قوةُ المقاومةِ دالةٌ على قوةِ الأثرِ، يقولُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ: "ومن سنةِ اللهِ: أنّه إذا أرادَ إظهارَ دينِه أقامَ مَن يعارضُه، فيحقُّ الحقَّ بكلماتِه، ويقذفُ بالحقِّ على الباطلِ، فيدمغُه؛ فإذا هو زاهقٌ".

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إلهَ إلا اللهُ، اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ وللهِ الحمدُ.

أيُّها المؤمنونَ والمؤمناتُ!

إنَّ اليقينَ بانتصارِ الدينِ وحفظِ اللهِ له يسكبُ الطمأنينةَ في قلبِ المؤمنِ، ويمدّه بالطاقةِ المتجدِّدةِ في نشرِه والذَّوْدِ عنه والاعتزازِ به، ويجعلُه دائمَ الوصولِ بخالقِه، محاسباً نفسَه تجاه التفريطِ في جنبِ مولاه، منكسراً لربِّه، مفتقراً إليه في جميعِ شأنِه، و يمدُّه بزادِ الصبرِ الذي لا تستنفدُه وساوسُ اليأسِ، وسوسُ الانهزاميةِ، واستخفافُ المستهزئينَ، وعجلةُ المتعجلينَ، ويغذِّيه ببلسمِ رحمةٍ تجاه الخَلقِ، ويكونُ سبباً للتجرُّدِ ونسيانِ حظوظِ النفسِ، ودافعاً للِّينِ في أيدي إخوانِه الذين يشارِكُونه واجبَ البلاغِ المبينِ للناسِ أجمعينَ في أيِّ مجالٍ من مجالاتِ دعوةِ الخيرِ وعطاءاتِه. وهؤلاءِ الشرفاءُ هم أجلُّ أسبابِ حفظِ اللهِ للدينِ، فإنْ هم تخلَّوْا عن ذلك الواجبِ، وركَنوا للإخلادِ إلى الأرضِ، وتفرّقوا في إقامةِ الدينِ؛ جرتْ عليهم السُّنةُ الإلهيةُ في الاستبدالِ التي لا تُحابي أحداً؛ ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾.

أيُّها المؤمناتُ!

إنكنَّ مُرتكزٌ أساسٌ في حفظِ الملّةِ؛ لعظيمِ الأثرِ الذي تترُكْنَه في نفوسِ

الناشـئةِ إنْ أجدتُـم تربيتَهـا، فاسـتقامةُ العُـودِ باسـتقامةِ غَرسِـه، ووراء كلِّ أمّـةٍ طيبـةٍ أمٌّ مربيـةٌ، وزوجـةٌ صالحـةٌ، وداعيـةٌ مباركـةٌ، وامـرأةٌ محتشـمةٌ واعيـةٌ.

المعاملات

سفينةُ المجتمعِ

الحمدُ للهِ وليِّ النعم، ودافعِ النقَم، بارئِ النَّسَمِ، وشافي السّقَمِ، منّ على مَنْ أحبّ فأنقذَه من التيهِ والألمِ، وعدلَ مع مَن شاءَ فأبقاهُ في الضّنكِ والظُّلَم، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ قلبٍ وعملٍ وكَلِمٍ، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه صلى اللهُ وسلمَ عليه وعلى آلِه وصحبِه ذوي المناقبِ والشّيَمِ.

أمّا بعدُ، فاتّقوا اللهَ - عبادَ اللهِ -؛ فالتقوى وصيةُ ربّنا للأوّلينَ والآخرينَ، ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ...﴾.

أيُّها المسلمونَ!

الإقناعُ مسلَكٌ عقليٌّ يحملُ على الفَهمِ والقَبولِ والاتّباعِ؛ ولذا تنوّعَ أسلوبُه في نصوصِ الوحيّ؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ﴾؛ أي: ننوّعُها. ومن أساليبِ الإقناعِ التي أكثرَ منها الوحيُ - خاصةً فيما يتعلقُ بالقضَايا الكُبرى - ضرْبُ الأمثالِ؛ فقد بلغتْ أمثالُ القرآنِ بِضعةً وأربعينَ مثلاً، ويقولُ عمرُو بنُ العاصِ رضيَ اللهُ عنه: "عَقَلْتُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَلْفَ مَثَلٍ" رواه أحمدُ وحسّنه الهيثميُّ. ومن القضايَا الكبرَى التي جلاّها الوحيُ بالمثالِ الحسيِّ الدقيقِ: نجاةُ المجتمعِ وهلاكُه؛ وذلكَ فيمَا رواه

البخاريُّ في صحيحِه عن النُّعمانِ بنِ بشيرٍ رضيَ اللهُ عنهما أنّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: "مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا (وفي رواية للبخاريّ: "مَثَلُ المُدْهِنِ فِي حُدُودِ اللهِ، وَالوَاقِعِ فِيهَا")، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا ". فهذا المثلُ يصورُ المجتمعَ بالسفينةِ الماخرةِ عبابَ الحياةِ وقد أقلّتْ على ظهرِها فئامَ ذلك المجتمعِ، وهم ثلاثُ طوائفَ: طائفةٌ قائمةٌ على حدودِ اللهِ، أي: آمرةٌ بالمعروفِ فاعلةٌ له ناهيةٌ عن المنكرِ تاركةٌ له، وطائفةٌ واقعةٌ في حدودِ اللهِ منتهكةٌ لحُرُماتِه معطِّلةٌ، وطائفة مداهنةٌ مجامِلةٌ مُرائيةٌ ترى المنكرَ فلا تنْهى عنه وتدركُ المعروفَ ولَا تأمرُ به قد جعلَها النبيُّ ﷺ بمنزلةِ الطائفةِ الثانيةِ الفاعلةِ للحرامِ رُتبةً وحكماً؛ إذ الرّاضي كالفاعلِ.

أيُّها المسلمونَ!

إنَّ المثلَ يفصِّلُ قضيةَ هلاكِ المجتمعِ ونجاتِه: بياناً للسببِ، وأهلِه، وأثرِهم على المجتمعِ. فسببُ هلاكِ المجتمعِ وخرقُ سفينتِه فشوُّ المنكرِ وظهورُه فيه وإن كانَ المنكرُ خاصّاً بأصحابِه. فقد سألتْ أمُّ المؤمنينَ زينبُ بنتُ جحشٍ رضيَ اللهُ عنها رسولَ اللهِ ﷺ: أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: «نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ» رواه البخاريُّ ومسلمٌ. ويقولُ الخليفةُ الراشدُ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ:"كَانَ يُقَالُ: «إِنَّ اللهَ –تَبَارَكَ وَتَعَالَى– لَا يُعَذِّبُ الْعَامَّةَ بِذَنْبِ الْخَاصَّةِ،

وَلَكِنْ إِذَا عُمِلَ الْمُنْكَرُ جِهَارًا، اسْتَحَقُّوا الْعُقُوبَةَ كُلُّهُمْ" رواه مالكٌ في الموطّأ. والخارقونَ هم المضيِّعون لحدودِ اللهِ والساكتونَ عن الإنكارِ عليهم. ويكفي أولئكَ شؤمًا على مجتمعِهم أنهم سببُ هلاكِه الذي أبانَ اللهُ كيفيّةَ إنزالِه بهم بقولِه: ﴿إِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرًا﴾، أي: أمرناهم بالطاعةِ، فتمرّدَ المُترفون المنعّمونَ عن الطّاعةِ وأظهروا فسادَهم وفسقَهم في المجتمعِ؛ فحقّتْ على الجميعِ كلمةُ العذابِ التي تعمُّ الصالحَ بسكوتِه عن الإنكارِ والطالحَ بفسْقِه. ومن أظهرِ صورِ الهلاكِ: ألفةُ المنكرِ واستمراؤه وإضفاءُ الصِّبغةِ الشرعيةِ عليه وتصدُّرِ الزائغينَ وتجرؤُ الفسقةِ على الأخيارِ بل والعلماءِ، وأخطرُ من ذلك كلِّه عدمُ استجابةِ الدعاءِ؛ كما قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ» رواه الترمذيُّ وحسّنه. ومَن نحن بلا دعاءٍ ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ﴾.

معشرَ المؤمنينَ!

ومَثَلُ السفينةِ يوضّحُ — وبجلاءٍ — سببَ نجاةِ المجتمعِ، والمتمثلَ بالقيامِ بشَعيرةِ الاحتسابِ والأمرِ بالمعروفِ والنّهي عن المنكرِ والأخذِ على أيدي السفهاءِ؛ ليُمنَعوا من خَرْقِ السفينةِ. والقائمونَ بهذه المَهمةِ هم خيارُ الأمةِ ومُفلحوها، ولهم في عنقِ كلِّ فردٍ من الأمّةِ منّةٌ حينَ كانوا طوقَ نجاتِه وصمّامَ أمانِه من العذابِ؛ ولذا كانَ لهم المنزلُ العليُّ في مركبِ السفينةِ، ﴿وَلۡتَكُن

مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، هكذا وَصَفَهم أصدقُ الصادقينَ؛ فليسوا مغْتصبِين ولا فُضوليّين، بل هم أخيارٌ، مفلحونَ، يقِظونَ، يتحسّسونَ المنكرَ الظاهرَ، ويبادِرونَ إنكارَه، ويصبرونَ على الأذى فيه؛ فما أعظمَ أثرُهم على الناسِ! وما أقبحَ أثرَ الناسِ عليهم!

أيّها الأحبةُ!

وفي مثَلِ السفينةِ تفنيدٌ لشُبهتيْنِ متكررتيْنِ مدى الزمانِ يتذرعُ بهما مَن ضعُفتْ بصيرتُه أو ساءتْ طويّتُه في تركِ الاحتسابِ والإنكارِ، فزعمَ أنّ الإنكارَ من قبيلِ تقييدِ حريةِ الغيرِ والتدخُّلِ في خصوصِيَّتِهِ، وأنّ بعضَ الواقعينَ في المنكرِ يريدونَ الخيرَ بنوايا حسنةٍ فلِمَ الإنكارُ عليهم؟ وليس في ذلك مَمسكٌ لهم؛ إذْ خارِقُوا السفينةِ كانوا كذلكَ؛ فخرقُهم كان في نصيبِهم الخاصِّ، ودافعُه حسنٌ؛ حتى لا يؤذُوا مَن فوقَهم، ومع ذلك كان الأخذُ على أيديهِم واجبًا؛ لئلا تغرقَ السفينةُ ومَن فيها، فأمنُ المجتمعِ حقٌّ لكلّ فردٍ فيه ومطلبٌ عنده منشودٌ، والعابثُ بهذا الأمنِ عابثٌ بحقوقِ الآخرينَ، وإن كان عبثُه فيما هو من خاصّتِه.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ وكفى، والصّلاةُ والسّلامُ على الرسولِ المصْطَفى، وبعدُ:

معاشرَ المؤمنينَ!

إنَّ شرفَ مهمةِ الاحتسابِ لا ينحصرُ في تقلّدِها بوظيفةٍ رسميّةٍ، بل هي واجبٌ على الجميع إنْ قامَ بها مَن يكفِي سقطَ الإثمُ عن البقيّةِ، وإنْ لمْ تقُمِ الكفايةُ فالإثمُ لاحقٌ كلَّ قادرٍ تاركٍ، كما قالَ النبيُّ ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ» رواه مسلمٌ.

هذا، وإنّ ممّا ينبَغي العلمُ به إدراكَ صفاتِ المُحتَسِبِ اللازمِ توفرُّها فيه؛ لئلا ينشأَ عن الإنكارِ منكَرٌ أكبرُ، وأبرزُ تلكَ الصفاتِ: الإخلاصُ؛ فمقصودُ المحتَسبِ وجهُ اللهِ سبحانَه،والعلمُ؛ فلا يُنكِر إلا ما عَلِم تحريمَه بدليلٍ شرعيٍّ، والتثبُّتُ؛ فلا ينكرُ إلا ما ظهرَ وجودُه من المنكراتِ دونَ تجسُّسٍ، واتّباعُ درجةِ الإنكارِ حسبَ الطاقةِ والمصلحةِ ابتداءً باليدِ ثمّ اللسانُ ثم القلبُ الذي يحوي بُغضَ المنكرِ ومفارقةَ مكانِه، والرفقُ إلا فيما ظهرتْ مصلحةُ الشّدةِ فيه، والصبرُ على الأذى؛ فتلكَ خصالٌ ستٌّ للمحتسبِ. يقولُ شيخُ الإسلامِ: "«مَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلِيمًا بِمَا يَأْمُرُ بِهِ؛ عَلِيمًا بِمَا يَنْهَى عَنْهُ، رَفِيقًا فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ،رَفِيقًا فِيمَا يَنْهَى عَنْهُ، حَلِيمًا فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ، حَلِيمًا فِيمَا يَنْهَى عَنْهُ. فَالْعِلْمُ قَبْلَ الْأَمْرِ، وَالرِّفْقُ مَعَ الْأَمْرِ، وَالْحِلْمُ بَعْدَ الْأَمْرِ؛

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَالِمًا لَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يَقْفُوَ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ، وَإِنْ كَانَ عَالِمًا وَلَمْ يَكُنْ رَفِيقًا، كَانَ كَالطَّبِيبِ الَّذِي لَا رِفْقَ فِيهِ، فَيُغْلِظُ عَلَى الْمَرِيضِ فَلَا يُقْبَلُ مِنْهُ، وَكَالْمُؤَدِّبِ الْغَلِيظِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ مِنْهُ الْوَلَدُ. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى لِمُوسَى وَهَارُونَ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾. ثُمَّ إِذَا أَمَرَ وَنَهَى فَلَا بُدَّ أَنْ يُؤْذَى فِي الْعَادَةِ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَصْبِرَ وَيَحْلُمَ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾" أهـ.

وبعدُ - معشرَ الإخوةِ -، تلكُمْ خبرُ سفينةِ المجتمعِ، ونبأُ هلاكِها ونجاتِها؛ فكونوا ممّن نجا وأنجى غيرَه. أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

نُزُلُ المحتَسبينَ

الحمدُ للهِ الذي أرسلَ رسولَه بالهُدى ودينِ الحقِّ؛ ليظهرَه على الدينِ كلِّه، وكان اللهُ غنياً حميداً. وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له؛ إقراراً به وتوحيداً. وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه، أرسلَه اللهُ للخيرِ دليلاً، وعلى العالمينَ شهيداً، صلى اللهُ عليه وعلى آلِه وصحبِه وسلمَ تسليماً مزيداً.

أمّا بعدُ، فاتّقوا اللهَ — عبادَ اللهِ -، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ...﴾.

أيّها المؤمنون!

لا يُعرَفُ للشيءِ قَدْرُه إلا إنْ عُرِفَ شرفُه، وفضلُه، وبليغُ نفعِه. وبإدراكِ المقادرِ يجمُلُ التعاملُ، ويَبِينُ الحَصَفُ، وتؤدّى الحقوقُ؛ وذاكَ مهيَعُ الشرعِ الرشيدِ في إنزالِ الناسِ منازلَهم، تقولُ عائشةُ — رضيَ اللهُ عنها -: «أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ نُنْزِلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ» رواه أبو يعلَى وصحّحه الحاكمُ. ألا وإنّ من أولئكَ الذينَ رفعَ الإسلامُ قدرَهم، وأعلى وصفَهم، وخلّدَ ذكرَهم، وعظّمَ مظلَمتَهم وإذالَهم — أهلَ الحِسبةِ: الآمرينَ بالمعروفِ، والنّاهينَ عن المنكرِ. فقد حباهُم المولى من خُلعِ الفضائلِ ما أعلَى به نُزُلَهم؛ فهم المؤمنونَ الذينَ حرّكهم الإيمانُ لتغييرِ ما لم يرتضِ اللهُ وقوعَه من تركِ المأمورِ أو فعلِ المحظورِ، يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾. فالارتباطُ بين الإيمانِ

والاحتسابِ وثيقٌ ما دامَ في القلبِ حبةُ خردلٍ من إيمانٍ، يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ» رواه مسلمٌ. وباحتسابِ أولئكَ الأخيارِ تحفَظُ الملةُ، وتُحرَسُ الديانةُ، ويُقمعُ الفسادُ، يقولُ اللهُ — تعالَى -: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ﴾. أهلُ الحِسبةِ أمَنَةٌ للمجتمعِ من حلولِ القَوارعِ والمَثُلاتِ، والبوْءِ بلعنةِ الجبّارِ والهلَكةِ، يقولُ اللهُ — سبحانَه-: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾، ويقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي، ثُمَّ يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا، ثُمَّ لَا يُغَيِّرُوا، إِلَّا يُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ مِنْهُ بِعِقَابٍ» رواه أبو داودَ وصحّحه ابنُ حِبان والألبانيُّ، وسألتْ أمُّ المؤمنينَ زينبُ بنتُ جحشٍ — رضيَ اللهُ عنها — رسولَ اللهِ ﷺ، فقالتْ: أنهلَكُ وفينا الصالحونَ؟ قال: « نعمْ، إذا كثُرَ الخبَثُ» رواه البخاريُّ. وهاكمُ المثلَ النبويَّ المجسّدَ حفظَ المجتمعِ بأهلِ الحِسبةِ، يقولُ النبيُّ ﷺ: "مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا" رواه البخاريُّ ومسلمٌ، قال الحسنُ البصريُّ: "مُروا بالمعروفِ، وانهَوْا عن المنكرِ؛ وإلا كنتُم أنتم الموعظاتُ".

عباد الله!

إنَّ قيامَ الكفايةِ بأهلِ الحِسبةِ من أجلِّ ما ينعمُ اللهُ به على العبادِ؛ يُرحمونَ بهم، يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وكذلك يُنصرونَ، ويُمكّنون، يقولُ اللهُ —سبحانه -: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾. ووجودُ الكفايةِ من أولئكَ المحتسبينَ كرامةٌ يجيبُ اللهُ بها الدعاءَ، وهكذا يمنعُه إنْ فُقدتْ تلكَ الكرامةُ، يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: «مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، قَبْلَ أَنْ تَدْعُوا فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ» رواه ابنُ ماجه وحسّنه الألبانيُّ. وبأهلِ الحِسبةِ يُشدُّ ظهرُ المؤمنِ، وتقْوى عزيمتُه، ويُرغَمُ الفاجرُ والمنافقُ والسفيهُ، ويُحسبُ لارتكابِ المنكرِ شؤمُه، فضلاً عن إشهارِه! أو فَرْضِه! يقولُ سفيانُ الثوريُّ: "إذا أمرتَ بالمعروفِ شددتَ ظهرَ المؤمنِ، وإذا نهيْتَ عن المنكرِ أرغمتَ أنفَ المنافقِ". ولن تقومَ للأمةِ في الخيرِ قائمةٌ، ولن تستروِحَ عبَقَ السيادةِ بين الأممِ إلا بأولئكَ الأخيارِ، وإن ملكتْ من الإمكاناتِ والعقولِ ما ملكتْ؛ ذاكَ قدَرُ اللهِ فيها، يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾. والفلاحُ أجمعُ كلمةٍ قالتْها العربُ في حِياطةِ الخيرِ والنجاءِ من الشرِّ، وهو وصفٌ قد

حكمَ به خيرُ الحاكمينَ لأهلِ الحِسبةِ، يقولُ جلّ وعلا: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾. ولئنْ كانَ شديدُ الوعيدِ لاحقاً مَن آذى عمومَ المؤمنينَ؛ فإنّ أذيّةَ أهلِ الاحتسابِ أشدُّ وأعظمُ، يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

عباد الله!

ذاكم وميضٌ من سَنا نُزُلِ أهلِ الحِسبةِ عند ربِّهم، وعظيمُ حفاوتِه بهم؛ فعظِّموا ما عظّم اللهُ؛ ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾، وارْعَوْا عظيمَ حقِّهم. فـ" مَن عرَفَ الحقوقَ راعَى وصانا".

هذا، وإنَّ من رعايةِ ذلكَ الحقِّ: محبّتَهم، ونُصرتَهم، ونُصحَهم، والدعاءَ لهم، والذبَّ عن أعراضِهم، والكفَّ عن معابهم، والتثبتَ في نبأ زلِّهم، سيّما ما لاكَهُ الإعلامُ المشبوهُ وطارَ به كلَّ مطارٍ، وأنْ يُحسَنَ التعاملُ مع أخطائهم؛ فلا يكونُ نقدُها بخساً للمحاسنِ، وإيغاراً لصدورِ الدّهماءِ، وإذهاباً لهيبةِ شَعيرةِ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِّ عن المنكرِ من النفوسِ، وصدّاً عن واجبِ الحِسبة الذي لا يُناطُ تكليفُها بولايةِ الوظيفةِ، وإعانةً لتُبّاعِ الشّهواتِ في نشرِ الفسادِ وأذَى المحتسبينَ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.

وبعدُ، فاعلمُوا أنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيُّها المحتسبُ المباركُ!

ليهْنكَ هذا الحَباءُ الربانيُّ، والاصطفاءُ الإلهيُّ، ولْتنعمْ بأجرِ مولاكَ الذي يُرجَى نوالُك له من مثلِ أجورِ الصّحابةِ الكرامِ — رضيَ اللهُ عنهم -، يقولُ النبيُّ ﷺ: "إنّ من أمّتي قوماً يعطَوْن مثلَ أجورِ أوّلِهم؛ ينكِرونَ المنكرَ" رواه أحمدُ وجوّدَ الألبانيُّ إسنادَه. ولِتنعمَ بهذا الخيرِ الزمْ جادّةَ الشرعِ في تعامُلِ المحتَسِبِ الذي جعلَ الإخلاصَ للهِ والمتابعةَ لرسولِه ﷺ مبعثَه ومدارَه. ولا تغبْ عنك ثلاثيةُ قِوامِ الحُسْنِ في تعامُلِ المحتَسبِ والتي أبانَها سفيانُ الثوريُّ بقولِه: "لا يأمرُ بالمعروفِ ولا ينهَى عن المنكرِ إلا مَن كانَ فيه خصالٌ ثلاثٌ: رفيقٌ بمَا يأمرُ، رفيقٌ بما ينهَى، عدلٌ بما يأمرُ، عدلٌ بمَا ينهَى، عالمٌ بما يأمرُ، عالمٌ بما ينهَى"، قال شيخُ الإسلامِ: "فلا بدّ من هذه الثلاثةِ: العلمِ، والرفقِ، والصبرِ. العلمُ قبلَ الأمرِ والنهيِّ، والرفقُ معهُ، والصبرُ بعدَه". أوْصَى بعضُ السلفِ بَنيه قائلاً: "إنْ أرادَ أحدُكم أنْ يأمرَ بالمعروفِ فليوطِّنْ نفسَه على الصبرِ، وليثقْ بالثوابِ من اللهِ — تعالى -؛ فمَن وثِق بالثّوابِ لم يجدْ مسَّ الأذى. ولقدْ كان اللهُ — تعالى — يحفظُ أكثرَهم من بأسِ الظالمينَ ببركةِ إخلاصِهم، وحسنِ مقصدِهم، وقوةِ توكُّلِهم، وابتغائهم بكلامِهم وجهَ اللهِ — تعالى — ".

لله أنتم تسحقونَ المُنكرا ... وتمعّرون الوجهَ منه تأثُّرا
لله أنتم كيفَ يغرقُ مركبٌ ... أنتم به هيهاتَ لا لن ينخَرا
يا خيرَنا يا فخرَنا يا ذُخرَنا ... حقٌّ عليّ بمثلِكم أنْ أفخَرا
مَن يدعُ للمعروفِ يجزَ بمثلِه ... واللهُ أكْثَرَ للفتى إنْ أكثَرا
هم للورَى ركبُ النجاةِ تقدُّمًا ... وبدونِهم تمضي الركابُ إلى الورَا

الجار

إنَّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُ به، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، من يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومن يضللْ فلا هاديَ له،وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ ...﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ... ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ... ﴾.

أيُّها المؤمنون!

المجتمعُ الإسلاميُّ نسيجٌ متماسكٌ، ولُحمةٌ قويةٌ؛ تقومُ على أداءِ الحقوقِ، ورعايةِ الذِّمامِ، وإظهارِ المحاسنِ؛ فيقوى به الفردُ، ويَلِجُ فيه الراغبُ، ويُرهَبُ المتربصُ. وإن الجوارَ من أبرزِ العُمَدِ التي أقامَ عليها الإسلامُ كيانَ المجتمعِ ورعى أزمّتَها؛ وما ذاك إلا لبالغِ أثرِه في استقرارِ المجتمعِ وأمنِه وقوّتِه وتقبّلِه؛ ولذا وجبَ رَقْبُ هذا الحقِّ حتى مع الجارِ الكافرِ الذي لا يؤمنُ باللهِ العظيمِ. يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾. وَصاةُ الإسلام بالجارِ شديدةٌ بلغتْ منزلةَ القرابةِ الموجبةِ للتّوارُثِ، فعن رجلٍ من الْأَنْصَارِ أنّه قَالَ: خرجتُ مَعَ أَهلي أريدُ النَّبِيَّ ﷺ وَإذا بِهِ قَائِمٌ،

وَإذا رجلٌ مقبلٌ عَلَيْـهِ، فظَنَنْتُ أَن لَـهُ حَاجَـةً، فَجَلَسـتُ، فـوَاللهِ! لقـد قَـامَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ حَتَّى جعلتُ أُرثي لَـهُ مـن طولِ الْقيامِ، ثـمَّ انْصَرفَ، فَقُمْتُ إِلَيْـهِ، فقلتُ: يَـا رَسُـولَ اللهِ، لقـد قَـامَ بـك هَـذَا الرجـلُ حَتَّـى جعلتُ أرثـي لَـك مـن طـولِ الْقيـامِ، قَـالَ: " أَتَـدْرِي مَـن هَـذَا"؟ قلتُ: لَا، قَـالَ: جِبْرِيـلُ ﷺ مَـا زَالَ يوصيني بالجارِ؛ حَتَّـى ظَنَنْتُ أَنـه سيورِّثُه". رواه أحمدُ وجوّدَه المنذريُّ. وقـال أبـو أُمَامَـةَ- رَضِـيَ اللهُ عَنـهُ -: سَـمِعتُ رَسُـولَ اللهِ ﷺ وَهُـوَ على نَاقَتِـه الجدعـاءِ فِـي حَجَّـة الْـوَدَاعِ يَقُـولُ: "أُوصيكُـم بالجـارِ" حَتَّـى أَكثـرَ، فَقلـتُ: إِنَّـه يورِّثُـه. رَوَاهُ الطَّبَرَانِـيُّ بِإِسْـنَادٍ جيـدٍ. وبـات الجـوارُ معيـاراً لإيمـانِ المـرءِ زيـادةً ونقصـاً، يقـولُ رسـولُ اللهِ ﷺ: "مَـنْ كَانَ يُؤْمِـنُ بِـاللهِ وَاليَـوْمِ الآخِـرِ فَلْيُكْـرِمْ جَـارَه " رواه البخـاريُّ ومسـلمٌ، وقـال: "«وَاللهِ لاَ يُؤْمِـنُ، وَاللهِ لاَ يُؤْمِـنُ، وَاللهِ لاَ يُؤْمِـنُ» قِيـلَ: وَمَـنْ يَـا رَسُـولَ اللهِ؟ قَـالَ: «الَّـذِي لاَ يَأْمَـنُ جَـارُهُ بَوَايِقَـهُ» أي: شـروره. رواه البخـاريُّ. ومنزلـةُ العبـدِ المؤمـنِ مـن ربِّـه بمنزلتِـه عنـد جيرانِـه، يقـولُ رسـولُ اللهِ ﷺ: «خَيْـرُ الأَصْحَـابِ عِنْدَ اللهِ خَيْرُهُـمْ لِصَاحِبِهِ، وَخَيْـرُ الجِيـرَانِ عِنْدَ اللهِ خَيْرُهُـمْ لِجَـارِهِ » رواه الترمـذيُّ وصحّحه الحاكـمُ ووافقه الذهبيُّ وحُسنُ الجوارِ سببٌ لمحبةِ اللهِ وتوفيقِه عبدَه لحسـنِ الخاتمـةِ، يقـولُ رسـولُ اللهِ ﷺ: "إذا أحـبَّ اللهُ عبـداً عسّـلَه (أي: طيّـبَ ذكـرَه في النـاسِ)" قالـوا: مـا عسّـلَه يـا رسـولَ اللهِ؟ قـال: "يوفِّـقُ لـه عمـلاً صالحـاً بيـن يـديْ أجلِـه؛ حتـى يرضـى عنـه جيرانُـه "، أو قـال: "مَـن حولَـه" رواه ابـنُ حبَّـانَ في صحيحِـه والحاكـمُ وجـوّده العراقـيُّ. وحسـنُ الجـوارِ سـبيلٌ لشـهادةِ الجيـرانِ بالخيرِ، ومَـن شُـهدَ لـه بذلـك غُفر لـه، يقـولُ الرسـولُ ﷺ: "مـا مـن مسـلمٍ يمـوتُ فيَشـهدُ لـه أربعـةٌ أهـلُ أبيـاتٍ مـن جيرانِـه الأدنيْـنَ أنهـم لا يعلمـونَ إلا خيـراً، إلا قـال

اللهُ: قد قبلتُ علمَكم فيه، وغفرتُ له ما لا تعلمونَ" رواه أحمدُ وابنُ حبَّانَ في صحيحِه وصحّحه الحاكمُ على شرطِ مسلمٍ، وفي رواية: "ثلاثة". وقليلُ البرِّ في حقِّ الجارِ كثيرٌ، يقولُ الرسولُ ﷺ: «يَا نِسَاءَ المُسْلِمَاتِ، لاَ تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا، وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ (أي: عظمًا قليلَ اللحمِ)» رواه البخاريُّ ومسلمٌ.

أيُّها المسلمون!

وكما حظِيَ حسنُ الجوارِ بالأجر الجزيلِ؛ فقد باء سوؤه بالوِزرِ الوبيلِ، فالذنبُ في الجارِ مضاعفٌ عشراً، فقد سأل رسولُ اللهِ ﷺ أَصْحَابَهُ عَنِ الزِّنَا فقَالُوا: حَرَامٌ؛ حَرَّمَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، فَقَالَ: "لِأَنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بِعَشْرِ نِسْوَةٍ أيسرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَزْنِيَ بِامْرَأَةِ جَارِهِ"، وَسَأَلَهُمْ عَنِ السَّرِقَةِ فقَالُوا: حَرَامٌ حَرَّمَهَا اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ — وَرَسُولُهُ، فَقَالَ: "لِأَنْ يَسْرِقَ مِنْ عَشَرَةِ أَهْلِ أَبْيَاتٍ أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يسرق من بيت جاره". رواه البخاريُّ في الأدبِ المفردِ وصحّحه الألبانيُّ. وإيذاءُ الجارِ سببٌ للعنةِ الجبَّارِ — جلَّ وعلا — ولعنةُ الخلقِ، شَكَا رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ جَارَهُ، فَقَالَ: "احْمِلْ مَتَاعَكَ، فَضَعْهُ عَلَى الطَّرِيقِ، فَمَنْ مَرَّ بِهِ يلعنُه". فَجَعَلَ كُلُّ مَنْ مَرَّ بِهِ يَلْعَنُهُ، فَجَاءَ إِلَى النَّبِيِّ - ﷺ— فَقَالَ: مَا لَقِيتُ مِنَ الناس؟ فقال: "إِنَّ لَعْنَةَ اللهِ فَوْقَ لَعْنَتِهِمْ " رواه البيهقيُّ وقال الألبانيُّ: حسنٌ صحيحٌ. فإنْ تسبَّبَ أذاهُ في خروجِ جارِه من منزلِه فقد باءَ بالهلاكِ، كان ثوبانُ — رضيَ اللهُ عنه -يقولُ: "مَا مِنْ جَارٍ يَظْلِمُ جَارَهُ وَيَقْهَرُهُ حَتَّى يَحْمِلَهُ ذَلِكَ عَلَى أَنْ يَخْرُجَ مِنْ مَنْزِلِهِ إِلَّا هَلَكَ" رواه البخاريُّ في الأدبِ المفردِ وصحّحه الألبانيُّ. وأذى الجارِ قد يمنعُ من قَبولِ العملِ الصالحِ، ويكونُ سبباً لدخولِ

النـارِ، قـال رسـولُ اللهِ ﷺ: «لَا يَدْخُـلُ الْجَنَّـةَ مَـنْ لَا يَأْمَـنُ جَـارُهُ بَوَائِقَـهُ» رواه مسـلمٌ. وقِيـلَ لِلنَّبِـيِّ ﷺ: يَـا رَسُـولَ اللهِ، إِنَّ فُلَانَـةَ تَقُـومُ اللَّيْـلَ، وَتَصُـومُ النَّهَـارَ، وَتَفْعَـلُ، وَتَصَّدَّقُ، وَتُؤْذِي جِيرَانَهَـا بِلِسَـانِهَا؟ فَقَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: «لَا خَيْـرَ فِيهَـا، هِـيَ مِـنْ أَهْـلِ النَّـارِ»، قَالُـوا: وَفُلَانَـةُ تُصَلِّـي الْمَكْتُوبَـةَ، وَتَصَّدَّقُ بِأَثْـوَارٍ (قطعٍ مـن الإقـط)، وَلَا تُـؤْذِي أَحَـدًا؟ فَقَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: «هِـيَ مِـنْ أَهْـلِ الْجَنَّـةِ» رواه البخـاريُّ في الأدبِ المفـردِ وصحَّحـه الألبـانيُّ. وخصومـةُ الجـارِ أولُ مـا يُقضَـى فيـه بيـن العبـادِ يـومَ القيامـةِ، يقـولُ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: «أَوَّلُ خَصْمَيْـنِ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ جَـارَانِ» رواه أحمدُ وجوّده المنذريُّ. وسوءُ الجوارِ خَصلةُ الأشرارِ؛ ولـذا فإنَّهـا تكثـرُ في نهايـةِ الزمـانِ؛ إيذانـًا بدنـوِّ السـاعةِ التـي لا تقـومُ إلا علـى شـرارِ الخلـقِ، يقـولُ رسـولُ اللهِ ﷺ: "لَا تَقُـومُ السَّـاعَةُ حَتَّـى يَظْهَـرَ الْفُحْشُ وَالتَّفَحُّشُ وَقَطِيعَـةُ الرَّحِـمِ وَسُوءُ الْمُجَـاوَرَةِ، وَيُخَوَّنُ الْأَمِيـنُ، وَيُؤْتَمَـنُ الْخَائِـنُ" رواه أحمـدُ وصحَّحه الحاكـمُ. ويقـولُ ﷺ: «لَا تَقُـومُ السَّـاعَةُ حَتَّـى يَقْتُـلَ الرَّجُـلُ جَـارَهُ وَأَخَـاهُ وَأَبَـاهُ» رواه البخـاريُّ في الأدبِ المفـردِ وحسـنه الألبـانيُّ. والـدُّورُ إنّمـا ترخـصُ وتغلـو بجوارِهـا. كان لعبـدِ اللهِ بـنِ المبـاركِ جـارٌ يهـوديٌّ، فـأرادَ أن يبيـعَ دارَه؛ فقيـل لـه: بكـمْ تبيعُ؟ قـال: بألفيـنِ؛ فقيـلَ لـه: إنَّهـا لا تُسـاوي إلا ألفـًا؛ قـال: صدقتُـم؛ ولكـنْ ألـفٌ للدارِ؛ وألـفٌ لجوارِ عبـدِ اللهِ بـنِ المبـارَكِ؛ فأُخبر ابـنُ المبـاركِ بذلـك؛ فدعـاهُ فأعطـاه ثمَـنَ دارِه، وقـال: لا تبعْهـا.

يلومونَني أنْ بِعتُ بالرُّخصِ منزلي ... ولـم يعلموا جـارًا هنـاك ينغِّصُ

فقلـــتُ لهم: كفّوا الملامَ؛ فإنّما ... بجيرانِهـا تغلـو الديـارُ وترخَصُ

قال لقمانُ الحكيمُ لابنِه: "يَا بُنَيَّ، قَدْ حَمَلْتُ الْحِجَارَةَ وَالْحَدِيدَ وَالْحِمْلَ الثَّقِيلَ، فَلَمْ أَجِدْ شَيْئًا قَطُّ أَثْقَلَ مِنْ جَارِ السَّوْءِ". وجارُ السوءِ شرٌّ استعاذَ منه النبيُّ ﷺ، وأمر بالاستعاذةِ منه، فقال: «تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ جَارِ السَّوْءِ فِي دَارِ الْمُقَامِ؛ فَإِنَّ جَارَ الْبَادِيَةِ يَتَحَوَّلُ عَنْكَ» رواه النَّسائيُّ وصحَحه العراقيُّ، وكان من دعاءِ النبيِّ ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ جَارِ السُّوءِ فِي دَارِ الْمُقَامَةِ؛ فَإِنَّ جَارَ الْبَادِيَةِ يَتَحَوَّلُ» رواه ابنُ أبي شيبةَ وصحّحه الحاكمُ على شرطِ مسلمٍ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.

وبعد، فاعلموا أن أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيُّها المؤمنونَ!

الجوارُ وصفٌ لكلِّ ذي مسكنٍ قريبٍ ممّا تعارفَ عليه الناسُ. وحقوقُ أهلِه متفاوتةٌ بحسب بُعدِهم وقربِهم؛ فليس الجارُ ذو القربَى كالجارِ الغريبِ، وليس المسلمُ كالكافرِ، ولا التقيُّ كالفاسقِ، ولا الملاصقُ كالمقابلِ، ولا المقابلُ كالبعيدِ. وحسنُ جوارِ أولئك يكونُ بكفِّ الأذى عنهم؛ قولاً كانَ أو فعلاً، وإن كانَ رائحةَ طعامٍ، وتلك أقلُّ درجاتِ حسنِ الجوارِ. والدرجةُ الأعلى تكونُ ببذلِ النّفعِ لهم؛ دينياً كان أو دنيوياً، كالأمرِ بالمعروفِ والنهيَ عن المنكرِ، وإرشادِ الجاهلِ، وإعانةِ الفقيرِ، والوقوفِ معهم حالَ نكبتِهم، والسؤالِ عنهم حالَ الافتقادِ، ومشاركتِهم أفراحَهم وأتراحَهم، وإهدائهم، والدعاءِ لهم، ومياسرةِ الأمورِ معهم، وإنهاءِ الخصامِ بالصَّفحِ والصلحِ، وعدمِ التقصِّي في مطالبةِ الحقِّ. ولْيحذرِ المؤمنُ مِن منعِ جارِه معروفَه؛ لئلا ينقصَ إيمانُه، يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَبِيتُ وَجَارُهُ إِلَى جَنْبِهِ جَائِعٌ» رواه أبو يَعلى وصحَحه الحاكمُ ووافقه الذهبيُّ؛ وحسابُ الآخرةِ في ذلك مشهودٌ، قال رسولُ اللهِ ﷺ: "كَمْ من جارٍ متعلقٍ بجارِه، يقولُ: يا ربِّ، سلْ هذا: لِمَ أغلقَ

عني بابَه ومنعني فضلَه؟" رواه الأصبهانيُّ وحسنه الألبانيُّ.

وبعدُ -أيُّها الإخوةُ- قد تجلّى سموُّ قدرِ الجوارِ في الإسلامِ، وسوءُ إخفارِ ذمةِ اللهِ فيه. وذلك يقضي أن نرعى ما رعَى اللهُ بالقيامِ بما أوْجبَ من حقِّ الجوارِ؛ كفاً للأذى، وبذلاً للمعروفِ، والنصحَ والوعظَ لمن قصّرَ في ذلك الحقِّ، ومباشرةَ الإصلاحِ بين الجيرانِ المتخاصمينَ بجهدٍ فرديٍّ أو جماعيٍّ ينبثقُ من لجانِ الإصلاحِ التي يحسُن إقامتُها في الحاراتِ[1].

وَلِلْجَارِ حَقٌّ فَاحْتَرِزْ مِنْ إيذائه وَمَا خَيْرُ جَارٍ لَا يَزَالُ مُؤَاذِيَا

(١) في لسان العرب (٤/ ٢٢٥): "والحَارَة: كُلُّ مَحَلَّةٍ دَنَتْ مَنازِلُهم؛ فَهُمْ أَهل حارَةٍ".

اليتيمُ

الحمدُ للهِ البرِّ الرَّحيمِ، الرؤوفِ الكريمِ، عمّنا بخيرِه العظيمِ، وهدانا صراطَه المستقيمَ، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له ذو السلطانِ القديمِ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلى اللهُ عليه وعلى آله أوْفى صلاةٍ وأزْكى تسليمٍ.

أمَّا بعدُ، فاتَّقوا اللهَ – عبادَ اللهِ –. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ...﴾.

أيُّها المؤمنون!

جاءَ الإسلامُ بمنهجِ إقامةِ مجتمعٍ ذي قوةٍ ولُحمةٍ، وطوّقه بآصِرةِ مودةٍ مرحميَّةٍ تكافليّةٍ؛ ترعى الحقَّ، وتصونُ الحُرمةَ، وتجبرُ الكسرَ، وترفدُ الضعيفَ، كما قال اللهُ – تعالى –: ﴿وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ ، وقال رسولُ اللهِ ﷺ: «ترى المؤمنينَ في تراحُمِهم وتوادِّهم وتعاطُفِهم، كمثلِ الجسدِ إذا اشتكى عضوٌ تداعَى له سائرُ جسدِه بالسَّهرِ والحمَّى» رواه البخاريُّ. هذا، وإنَّ أجْلى صورِ تلك الآصِرةِ رعيُ حقِّ الضعيفِ الذي لا حولَ له ولا طولَ في تحصيلِ حقِّه وكفِّ الأذى عنه؛ فللضعيفِ في الإسلامِ وزنٌ وقيمةٌ، يقوَى بها ذلك الضعيفُ، ويقوى بها مَن يقومُ بأمرِه. وذاك ما استفتحَ به الخليفةُ الراشدُ أبو بكرٍ الصِّديقُ — رضيَ اللهُ عنه — منهجَ سياستِه رعيّتَه مطلعَ خلافتِه إذْ خطبَ فيهم قائلاً: "إنَّ أقواكُم عندي الضعيفُ حتى آخذَ له بحقِّه، وإن أضعفَكم عندي القويُّ حتى آخذَ الحقَّ منه" رواه ابنُ سعدٍ. وما ذاك إلا لعلمِه أن طهارةَ

المجتمعِ من السوءِ لا تقومُ إلا بذلك النَّصَفِ، كما قال رسولُ اللهِ ﷺ: "إنَّ اللهَ لا يقدِّسُ أمةً لا يعطونَ الضعيفَ منهم حقَّه" رواه الطبرانيُّ وصحَّحه الألبانيُّ. هذا وإنّ من الضَّعَفةِ الذين شددَ الإسلامُ أمرَهم يتيماً ماتَ أبوه ولمَّا يبلغِ الحُلُمَ، فذاق مرارةَ فقدِه، ولوعةَ فُراقِه؛ فكان اليتيمُ قرينَ البكاءِ، بل ومضربَ المثلِ فيه، كما قالتِ العربُ في مثَلِها السائرِ: "لا تعلِّم اليتيمَ البكاءَ" و "أبكى من يتيمٍ"!

أيُّها المسلمون!

اليُتْمُ شَجَنٌ سكَنَ قلبَ ذاك الصغيرِ؛ فكبُرَ همُّه، وتفاقمَ حزنُه؛ حتى ترحلَ من قلبِه سلوةُ الطفولةِ إلا أنْ يجدَ راحماً! ترْجَمَ لواعجَ اليُتمِ يتيمٌ ناجى أمَّه قائلاً:

قال الصغيرُ ودمعُه مدرارُ ... أمَّاه أشعرُ أنَّني أنْهارُ
الماءُ أشربُهُ ليُبردَ غُلتي ... فكأنَّما تبريدُه إسعارُ
رِجْلايَ خانتْني فليس تُقِلُّني ... فبقِيتُ مأسوراً ولا أسوارُ
ها هم رِفاقِي في الطّريقِ تواثبُوا ... في خفَّةٍ فكأنَّهم أطيارُ
وحْدي بقِيتُ أنا أُجرّعُ غُصّةً ... في غُصّةٍ وبعينيَ استِعْبارُ
أمّاه أينَ أبي فما حلّتْ بنا ... إذْ كان يَعمُرُ بيتَنا أضرارُ
أمّاه أين أبي وأين حنانُه ... قد كان نهراً دونه أنهارُ
لا زلتُ أذكرُ كم حبوْتُ لحجرِه ... فتلقّفنَّ يداه والأبصارُ

لا زلتُ أذكرُ كيف أضحَى راكبًا لي صدرُه وبوجهِه استبشارُ
كم دغْدغتْ خدّي يداه ومِلؤها حبٌّ وعطفٌ غامرٌ فوّارُ
وكأنّ في رأسي نعومةَ كفِّه لم تمحُها الأيامُ والإعصارُ
أمّاه قولي أين سار فإنّني ماضٍ إليه فقد جَفَتني الدارُ
فتلَجْلجَتْ أمُّ الصبيِّ وأجْهشَتْ تبكي وتنشِجُ هاجَها التذكارُ
ضمّتْه للصّدرِ الضعيفِ وقلبُها في لوْعةٍ ودمعُها أنهارُ
اصبرْ تعلّلْ بالرحيلِ فما لنا في الأرضِ توطينٌ ولا استقرارُ
للهِ نشكو ما نُعاني إنّه بَرٌّ رحيمٌ فضلُه مدرارُ

أيُّها المؤمنون!

إنْ شئتُم أن تذرِفوا الدمعَ ساخنًا فاذكروا ساعةَ الاحتضارِ ودنوِّ الأجلِ، وتذكّروا حالَ الصبيةِ الصغارِ والذريةِ الضعافِ الذين يتركُهم هذا المحتضَر وراءه؛ يخشى عليهم ظروفَ الحياةِ، وبلاءَ الدهرِ، يتمنّى لهم وليًا مرشداً يرعاهم كرعايتِه، ويربيهم كتربيتِه، ويعوّضُهم برّه وعطفَه كما قال اللهُ -تعالى-: ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا﴾. بهذا الشعورِ المرهَفِ ينطلقُ المؤمنُ في تعاملِه مع اليتيمِ، كما قال قَتادةُ: "كنْ لليتيمِ كالأبِ الرحيمِ"، وقال عمرو بنُ قيسٍ: "كانوا يكرهونَ أنْ يُعطيَ الرّجلُ صبيَّه شيئًا، فيُخرجَه، فيراه المسكينُ، فيبكي على أهلِه، ويراه اليتيمُ، فيبكي على أهلِه". خرج ابنٌ صغيرٌ لعمرَ بنِ

عبدِالعزيزِ يلعبُ مع الغلمانِ فشجّه صبيٌّ منهم، فاحتملوا الصبيَّ الذي شجَّ ابنَه وجاؤوا به إلى عمرَ، فسمع الجلبةَ فخرجَ إليهم، فإذا امرأةٌ تقولُ: إنه ابني وإنّه يتيمٌ! فقال لها عمرُ: هوّني عليكِ، ثم قال لها عمرُ: ألَهُ عطاءٌ في الديوانِ؟ قالت: لا! قال: فاكتُبوه في الذُّريَّةِ. فقالتْ زوجتُه فاطمةُ: أتفعلُ هذا به وقد شجّ ابنَك؟! فعلَ اللهُ به وفعلَ! المرةَ الأخرى يشجُّ ابنَك ثانيةً! فقال: ويْحكِ! إنه يتيمٌ وقد أفْزعتُموه. يعاملُه مسْتشعِراً امتثالَ أمرِ اللهِ بالإحسانِ إلى اليتامَى، كما قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾. ويستصحِبُ في ذلك الإحسانَ رجاءَ حسنِ العاقبةِ، كما بشَّر النبيُّ ﷺ كافلَ اليتيمِ بقولِه: "أنا وكافلُ اليتيمِ في الجنَّةِ هكذا" وأشار بالسَّبابَةِ والوُسطَى وفرّج بينهما شيئًا (رواه البخاريُّ)؛ فلَنِعمَ الجارُ! ولَنِعمَ الدارُ! ويحضُّه على بذلِ مزيدِ الإحسانِ علمُه أنَّه سببٌ لنيلِ الكتابِ باليمينِ، كما قال اللهُ — تعالى -: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ١٣ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ١٤ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ١٥ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ١٧ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾. هذا ثوابُ الآخرةِ، فما ثوابُ الدُّنيا؟ الإحسانُ لليتيمِ ذو ثوابٍ معجَّلٍ في الدُّنيا مع ما يُدَّخرُ في الآخرةِ وإنْ كان مسحةً على رأسٍ؛ فذلك الإحسانُ سببٌ لِلِينِ القلبِ ونداوةِ العينِ، شكا رجلٌ لرسولِ اللهِ ﷺ قسوةَ قلبِه، فقال له: "امسحْ رأسَ اليتيمِ، وأطْعمِ المسكينَ " (رواه أحمدُ وحسنه الألبانيُّ). وضمانُ النصرِ والرزقِ قرينُ الإحسانِ لليتيمِ، كما قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "هل تُنصرونَ وتُرزَقونَ إلا بضُعفائِكم؟!" (رواه البخاريُّ).

وذلك الإحسانُ مَطْهَرةٌ للمالِ، ويغدو به نعمةً على صاحبِه، قال النبيُّ ﷺ: "إنَّ هذا المالَ خضِرةٌ حُلوةٌ، فنِعمَ صاحبُ المسلمِ ما أعطى منه المسكينَ واليتيمَ وابنَ السبيلِ" (رواه البخاريُّ). قال أبو الوفاءِ ابنُ عقيلٍ:"كان السلفُ – رحمهمُ اللهُ – يُذهبون حزنَ الأيتامِ والأراملِ، ويزيلون ذلَّ اليتيمِ بأنواعِ البرِّ حتى صاروا كالآباءِ والأمهاتِ لليتيمِ؛ لا يتركونَه يُضامُ، ويتناضلون عنه. وفي الجملةِ: الكرامُ لا يَبِينُ بينهم يُتْمُ أولادِ الجيرانِ، ولا النازلِ من القاطنين".

أيُّها المؤمنون!

وكَما وردَ ثوابُ الإحسانِ فقد جاءَ شؤمُ الحرمانِ إنْ دُعَّ اليتيمُ؛ إذْ قد نهى اللهُ عنه بقولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾. وجعل ذلك علامةً جليّةً على تواري الإيمانِ، فقالَ: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ﴾. وألحقَ النبيُّ ﷺ الحرجَ والإثمَ بمن قصّر في رعايةِ حقِّ اليتيمِ، فقال: «إِنِّي أُحَرِّجُ عَلَيْكُمْ حَقَّ الضَّعِيفَيْنِ الْيَتِيمِ وَالْمَرْأَةِ» (رواه الحاكمُ وصحّحه على شرطِ مسلمٍ ووافقه الذهبيُّ). ويزدادُ ذلك الحرجُ غلظةً وشدةً إن كان جنايةً على مالِ اليتيمِ؛ فربَّما أغرى ضعفُ اليتيمِ ذا القلبِ القاسي على الاعتداءِ على مالِه، وما علمَ هذا الظالمُ أنّه ارتكبَ مهلكةً أوجبتْ لبطنِه النارَ والسَّعيرَ، يقول النبيُّ ﷺ: "اجتنبُوا السبعَ الموبقاتِ" (أي: المهلكاتِ)، وذكَرَ منها: "وأكلُ مالِ اليتيمِ" (رواه البخاريُّ ومسلمٌ)، ويقولُ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، الصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
وبعدُ، فاعلموا أنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيُّها المؤمنونَ!

بسماعِ الفضائلِ تظهرُ الفضائلُ؛ فتسمو همَّةُ المرءِ لمرافقةِ النبيِّ ﷺ في الجنةِ بكفالةِ يتيمٍ، فما حقيقةُ هذه الكفالةِ؟ وما طريقُ الوصولِ إليها؟ تتحققُ كفالةُ اليتيمِ بالقيامِ على شأنِه الدينيِّ أو الدنيويِّ، سواءً كانَ الكافلُ مباشراً أو متبرعاً بالمالِ لمن يباشرُ رعايةَ اليتيمِ، يستوي في ذلك إنْ كان اليتيمُ في بلدِ الكافلِ أو خارجِه، علِمَ الكافلُ ذلك اليتيمَ أو لم يعلمْه؛ فاللهُ لا يضيعُ أجرَ مَن أحسنَ عملاً. وكلَّما عظمتْ حاجةُ اليتيمِ ازدادَ ثوابُ كفالتِه، سيّما أولئك الأيتامِ الذين قتلَ العُداةُ آباءَهم في بلادِ الإسلامِ الجريحةِ ولم يبقَ لهم وليٌّ يرعاهم!

أيُّها المسلمون!

وثمَّة أيتامٌ لكنّ آباءَهم أحياءٌ، قد تخلوْا عن واجبِهم، وأهملوا تربيةَ فلذاتِ الأكبادِ

ليس اليتيمُ من انتهى أبواه ... من همِّ الحياة وخلّفاه ذليلا
إنّ اليتيمَ هو الذي تلقَى له ... أمّاً تخلتْ أو أباً مشغولا

أيُّها اليتيم!

اعلـمْ أنَّ اللهَ — سـبحانه — قـد ارتضَـى لـك مـا ارتضى لنبيِّـه ﷺ. ولْتعلـمْ أنَّ اليتـمَ مظنـةُ نبـوغٍ ومسـؤوليةٍ وعصاميـةٍ. فكـمْ مـن يتيـمٍ خلّـدَ التاريـخُ مآثـرَه؟! مـن لـدُنْ محمـدٍ ﷺ إلـى حاضـرِ العصـرِ: عبـدِاللهِ بـنِ جعفـرَ بـنِ أبـي طالـبٍ، وأحمـدَ بـنِ حنبـلٍ، وسـفيانَ الثـوريِّ، وعبدِالعزيـزِ بـنِ بـاز - أيتـامٍ غـدوْا أنجمـاً في سـماءِ المجدِ؛ فكـنْ واحـداً من أولئـكَ الركـبِ الميمـونِ؛ فمـا أحـراك بذلـك! ومـا أجـدرَك بـه!

دعائمُ العرشِ الزوجيّ

الحمدُ للهِ الذي بنعمتِه تتمُّ الصالحاتُ، وبعفوِه تقالُ العثراتُ، وبفضلِه تُنالُ الحسناتُ ، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له في الأرضِ والسماواتِ، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلى اللهُ وسلمَ عليه وعلى آلِه وصحبِه ذوي القدْرِ والمكرماتِ.

أمَّا بعدُ، فاتّقوا اللهَ — عبادَ اللهِ -. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ...﴾

أيُّها المؤمنون!

النكاحُ آيٌ ربانيةٌ يُستدرُّ قبسُها بالتفكُّرِ؛ إذْ كيفَ جُعلتْ هذه العلاقةُ أساساً للتناسلِ وعمارةِ الأرضِ وبناءِ المجتمعِ وتعارفِ أهلِه، وفرَضَتْ تلكُمُ العلقةُ على فرديْها رباطاً وثيقاً صيّر بعضَهما لباساً لبعضٍ؛ يسترُ السوءَ، ويُظهرُ الحُسنَ. وأفاضتْ محبةً جمعتْ بين قلبيْنِ متناكريْنِ بالميثاقِ الغليظِ؛ حتى تصافيا في أمَدٍ قليلٍ. يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿وَمِنۡ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾. وباتَ ذاك الصرحُ الزوجيُّ من أقوى ما رعى الإسلامُ حفظَه، ومن أشدِّ ما سلّطَ عليه الشيطانُ حربَه؛ لبركةِ ثمرِ نجاحِه، وفَدْحِ خَسَرِ إخفاقِه. يقولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ

كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا، قَالَ ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، قَالَ: فَيُدْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ" رواه مسلمٌ.

أيُّها المسلمون!

إنّ أعظمَ صائنٍ لعرشِ الزوجيَّةِ من التصدُّعِ والتقويضِ إدراكُ دعائمِ ذلك البناءِ التي يقومُ عليها وتعاهُدُها بالرعايةِ. وقد أبانَ القرآنُ الكريمُ تلك الدعائمَ في قولِ اللهِ — تعالى -: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ فالسكنُ والمودةُ والرحمةُ ثلاثُ دعائمَ لعرشِ الزوجيةِ المَنيفِ.

وَمَا لِمَثاباتِ العُرُوشِ بَقِيَّةٌ إِذَا اسْتُلَّ مِنْ تَحْتِ العُرُوشِ الدَّعائمُ

ومن رحمةِ اللهِ أنْ جعلَ عرشَ الزواجِ يقومُ بوجودِ واحدةٍ من هذه الدعائمِ، وإنِ اختلَّ بقيتُها، والتمامُ بالتمام، والهدْم بالعدَم. يقولُ ابنُ كثيرٍ — رحمه اللهُ-: "مِنْ تَمَامِ رَحْمَتِهِ بِبَنِي آدَمَ أَنْ جَعَلَ أَزْوَاجَهُمْ مِنْ جِنْسِهِمْ، وَجَعَلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُنَّ مَوَدَّةً، وَهِيَ الْمَحَبَّةُ، وَرَحْمَةً، وَهِيَ الرَّأْفَةُ؛ فَإِنَّ الرَّجُلَ يُمْسِكُ الْمَرْأَةَ إِمَّا لِمَحَبَّتِهِ لَهَا، أَوْ لِرَحْمَةٍ بِهَا، بِأَنْ يَكُونَ لَهَا مِنْهُ وَلَدٌ، أَوْ مُحْتَاجَةٌ إِلَيْهِ فِي الْإِنْفَاقِ، أَوْ لِلْأُلْفَةِ بَيْنَهُمَا، وَغَيْرِ ذَلِكَ". روى الخرائطيُّ بسندٍ صحيحٍ أَنَّ رجلاً قَالَ لامْرَأَتِه: نشدتُكِ بالله هَل تحبّيني؟ فقَالَت: أمَا إِذْ نشدتّني بِاللهِ، فَلَا، فَخرج حَتَّى أَتَى عُمَرَ بنَ الخطابِ — رضيَ اللهُ عنه -، فَأرسل إِلَيْهَا، فقَالَ: أَنْتِ الّتي

تَقُولِينَ لزوجِكِ: لَا أحبُّك؟ فقَالَت: يَا أَمِيرَ الْمُؤمنِينَ نشدَني بِاللهِ، أفأكذبُ؟ قَالَ: نعم، فاكذِبيه؛ لَيْسَ كلُّ الْبيُوتِ تُبنى عَلَى الْحبّ، وَلَكِن النَّاسَ يتعاشرونَ بِالْإِسْلَامِ والأحسابِ.

أيُّها الإخوةُ في اللهِ!

السكنُ الزوجيُّ من أعظمِ مقاصدِ تشريعِ النِّكاحِ؛ إذْ يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾. فهو طمأنينةٌ وأُنسٌ وأُلفةٌ تكْتَنفُ الزوجيْنِ، تغشَى روحَهما وجسديْهما؛ فينشأُ من ذلك الاستقرارُ الذي هو من أهمِّ حاجاتِ البشرِ الفطريةِ. وقد أبانَ النبيُّ ﷺ أثرَ ذلك في تسكينِ اضطِّرابِ الرجلِ بهيْجِ غُلْمته إذ يقولُ: «إِنَّ الْمَرْأَةَ تُقْبِلُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ، وَتُدْبِرُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ، فَإِذَا أَبْصَرَ أَحَدُكُمُ امْرَأَةً فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَرُدُّ مَا فِي نَفْسِهِ» رواه مسلمٌ. والأبحاثُ الطبيةُ تؤكدُ ما للنكاحِ من أثرٍ على الزوجيْنِ في تحسينِ صحتِهما الجسديةِ والنفسيةِ.

معشرَ الإخوةِ!

إن لرعايةِ السكنِ الزوجيِّ أثراً حَسناً في العلاقةِ الزوجيةِ، وذلك يقضي على الزوجيْنِ بالاهتمامِ بما يفيضُ حُسناً على سكنِهما، ومعالجةِ منغِّصاتِ استقرارِ السكنِ؛ فعمارةُ البيتِ بالطاعةِ، وتحصينُه بالأذكارِ، وإقامتُه على العدلِ حالَ التعدُّدِ، وقيامُ الرجلِ بدورِ القوامةِ الشرعيِّ، واستقلالُ المنزلِ، ونظافتُه، وزكاءُ رائحتِه، وحسنُ اختيارِ جوارِه، وتجميلُ أثاثِه، وتغييرُ هذا الأثاثِ أو تغييرُ

ترتيبِه بين الوقتِ والآخرِ، وإزالةُ مهيِّجاتِ الاضطِّرابِ، كالصُراخِ، ووجودُ ما يمنعُ دخولَ الملائكةِ كالكلابِ والصورِ، ونأيُ الزوجيْنِ بنقاشِهما الحادِّ عن الأولادِ، واحتواءُ خلافاتِهما داخلَ أروقةِ المنزلِ دونَ نشرِها للأقاربِ والأصدقاءِ — كلُّ ذلك من أسبابِ طمأنينةِ البيوتِ وزيادتِها. ومن شأنِ اطمئنانِ البيتِ صحةُ نفسيّةِ أهلِه، ونجاحِهم في الحياةِ، والعكسُ بالعكسِ.

أيُّها المؤمنون!

والمودةُ من دعائمِ العرشِ الزوجيِّ، وهي المحبةُ الخالصةُ التي يجعلُها الودودُ — سبحانَه — بين الزوجيْنِ؛ فيفيضُ بركتَه عليهما لينًا في التعاملِ، وتركًا للتكلُّفِ، وبعداً عن الاستقصاءِ، وبشاشةً في المُحيَّا، ومؤانسةً في الحديثِ، وملاطفةً وممازحةً مقبولةً، وتوسعةً في العطاءِ، وتغافراً للزَّلاتِ، ومبادرةً بالاعتذارِ حال الخطإ، وإكرامًا للأهلِ والصديقِ، وبحثًا عن المحاسنِ دونَ اقتصارٍ على المساوئِ. وكلُّ ذلك فيضٌ من غيضِ هديِ النبيِّ ﷺ في موادَّتِه أهلَه. ألا وإنّ من حصافةِ الزوجيْنِ وجودةِ عقلِهما إظهارَ التوادِّ بينهما؛ بإفصاحٍ عن الحبِّ قولاً وفعلاً، وإظهارٍ للاشتياقِ والإعجابِ، وترخيمٍ للاسمِ والتكنيةِ، والميلِ لما يهوى الآخرُ مما لا يُحرّمُ، وتعاهدِ الإهداءِ، والتشاورِ بينهما، والاختلاءِ ببعضهما في نُزَهٍ وسفرٍ، وإشهارِ كلِّ واحدٍ منهما تقديرَه للآخرِ أمامَ الأولادِ — كلُّ هذه الأمورِ من شأنِها زيادةُ مخزونِ المودةِ في قلبِ الزوجيْنِ نحو بعضِهما، ولذلك كانت عاقبةُ الحمدِ في العلاقةِ الزوجيةِ؛ فيضًا في المحبةِ، واستصلاحًا للخللِ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ وحده، والصلاةُ والسلامُ على مَن لا نبيَّ بعده.
وبعدُ، فاعلموا أنّ أصدقَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها الإخوةُ في اللهِ!

والرحمـةُ رأفـةٌ وعطـفٌ ورِقـةٌ تقتضِـي الإحسـانَ إلـى المرحـومِ. وهـي آخرُ دعائـمِ عـرشِ النّكاحِ وأشـملِها؛ فقـد لا توجَـدُ المـودةُ ولا السكنُ، ولكـن تبقى الرحمـةُ عاصمـةً لهـذا البنـاءِ مـن الصَّـدعِ والانهيـارِ. وشـمولُ تلـك الرحمـةِ مـن اتِّسـاعِ أسـبابِها بخـلافِ المـودّةِ والسكنِ؛ فقـد يرحـمُ الـزوجُ زوجتَـه لضعفِهـا، أو كـبرِ سنِّها، أوعـدمِ القائـمِ بأمرِهـا، أو يمسكُـها رحمـةً بأولادِهـا، أو خشـيةً مـن قطيعـةِ الرحـمِ. ومـن علائـمِ إرادةِ اللهِ الخيـرَ بالزوجيْـنِ جعـل الرحمـةَ في قلبيْهمـا نحوَ بعضِهما؛ إذْ لتلكَ الرحمةِ دورٌ ظاهـرٌ في دوامِ العشرةِ وحسنِها. ومـن مظاهـرِ تلك الرحمـةِ: البعدُ عـن القسوةِ، والمراعاةُ حالَ الأزمةِ والضيقِ، والوقـوفُ مع بعضِهمـا وقـتَ الحاجـةِ، وتفهُّـمِ الطبـاعِ، والتغاضِـي عن الهفـواتِ، والصبرِ، وكظْمِ الغيـظِ، والحمايـةِ، دونَ أن تـؤدي هـذه الرحمـةُ إلـى فعـلِ مـا حـرّمَ اللهُ أو الرضـى بـه. وذاك ومـضٌ مـن هـدي تعامـلِ النبـيِّ ﷺ مـع نسـائِه — رضـيَ اللهُ عنهـنّ -.

معشرَ المؤمنينَ!

إن فقـهَ هـذه الدعائـمِ، وتعاهـدَ الزوجيْـنِ بتذكُّرِهـا ورعايتِها كفيـلٌ بـإذنِ اللهِ —

سبحانَه — بدوامِ العشرةِ بينهما وحسنِها، وإهمالُها وبالٌ على تلك الحياةِ؛ إذْ ذاك مجافاةٌ لسَنَن مَن جعل النكاحَ من آياتِه.

وأصلحنا له زوجَه

الحمدُ للهِ ذي الجلالِ والكمالِ، عمَّ الخلقَ بالنوالِ، وأصلحَ لأوليائه البالَ، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له الكبيرُ المتعالُ، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلى اللهُ عليه وعلى صحبِه والآلِ وسلّمَ تسليماً كثيراً إلى يومِ المآلِ.

أما بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ... ﴾

أيها المؤمنون!

صلاحُ الزوجةِ مِن جُلَلِ النعمِ التي تَطيبُ بها الحياةُ وتزدانُ، بل ذاك خيرُ مُتَعِها بإطلاقٍ؛ فلا متعةَ تفوقُ قدْرَها، أو تبلغُ في الحُسْنِ أثرَها، يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: "الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ" رواه مسلمٌ، وفي روايةِ ابنِ ماجه: "إِنَّمَا الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَلَيْسَ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا شَيْءٌ أَفْضَلَ مِنَ الْمَرْأَةِ الصَّالِحَةِ". بتلك المرأةِ الصالحةِ يتحققُ مقصِدُ السكنِ والطمأنينةِ الذي هو أكبرُ عونٍ للرجلِ في مواجهةِ أعباءِ الحياةِ وكبدِها، وبها يحفظُ دينَه، ويزدادُ من زادِ الحسناتِ، يقولُ النبيُّ ﷺ: "من رزقَه اللهُ امرأةً صالحةً، فقد أعانَه على شطْرِ دينِه، فليتقِّ اللهَ في الشطْرِ الثاني" رواه الطبرانيُّ وحسَّنه الألبانيُّ. قال ابنُ العربيِّ: "إِذَا لَمْ يَبْعَثْ اللهُ -سُبْحَانَهُ- لِلرَّجُلِ زَوْجَةً صَالِحَةً وَعَبْدًا مُسْتَقِيمًا؛ فَإِنَّهُ لَا يَسْتَقِيمُ أَمْرُهُ مَعَهُمَا إِلَّا بِذَهَابِ جُزْءٍ مِنْ دِينِهِ، وَذَلِكَ مُشَاهَدٌ مَعْلُومٌ بِالتَّجْرِبَةِ".

وتلك المرأةُ الصالحةُ خيرُ ما يُحرصُ عليه من الكنوزِ، ويُدَّخرُ؛ ليبقى خيرُه ناميًا بعدَ المماتِ، قال ابنُ عباسٍ —رضي اللهُ عنهما-: "لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾، قَالَ: كَبُرَ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ عُمَرُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: أَنَا أُفَرِّجُ عَنْكُمْ، فَانْطَلَقَ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، إِنَّهُ كَبُرَ عَلَى أَصْحَابِكَ هَذِهِ الْآيَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَمْ يَفْرِضِ الزَّكَاةَ، إِلَّا لِيُطَيِّبَ مَا بَقِيَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ، وَإِنَّمَا فَرَضَ الْمَوَارِيثَ لِتَكُونَ لِمَنْ بَعْدَكُمْ»، فَكَبَّرَ عُمَرُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِخَيْرِ مَا يَكْنِزُ الْمَرْءُ؟ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ، إِذَا نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّتْهُ، وَإِذَا أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ، وَإِذَا غَابَ عَنْهَا حَفِظَتْهُ» رواه أبو داودَ وسكتَ عنه وصحَّحه الحاكمُ. قال بعضُ العلماءِ: "لَمَّا بَيَّنَ لَهُم ﷺ أَنَّهُ لَا حَرَجَ عَلَيْهِمْ فِي جَمْعِ الْمَالِ وَكَنْزِهِ مَا دَامُوا يُؤَدُّونَ الزَّكَاةَ وَرَأَى اسْتِبْشَارَهُمْ بِهِ، رَغَّبَهُمْ عَنْهُ إِلَى مَا هُوَ خَيْرٌ وَأَبْقَى، وَهِيَ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ الْجَمِيلَةُ؛ فَإِنَّ الذَّهَبَ لَا يَنْفَعُكَ إِلَّا بَعْدَ الذَّهَابِ عَنْكَ، وَهِيَ مَا دَامَتْ مَعَكَ تَكُونُ رَفِيقَكَ؛ تَنْظُرُ إِلَيْهَا فَتَسُرُّكَ، وَتَقْضِي عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا وَطَرَكَ، وَتُشَاوِرُهَا فِيمَا يَعِنُّ لَكَ فَتَحْفَظُ عَلَيْكَ سِرَّكَ، وَتَسْتَمِدُّ مِنْهَا فِي حَوَائِجِكَ، فَتُطِيعُ أَمْرَكَ، وَإِذَا غِبْتَ عَنْهَا تُحَامِي مَالَكَ وَتُرَاعِي عِيَالَكَ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَهَا إِلَّا أَنَّهَا تَحْفَظُ بَذْرَكَ، وَتُرَبِّي زَرْعَكَ، فَيَحْصُلُ لَكَ بِسَبَبِهَا وَلَدٌ، يَكُونُ لَكَ وَزِيرًا فِي حَيَاتِكَ، وَخَلِيفَةً بَعْدَ وَفَاتِكَ، لَكَانَ لَهَا بِذَلِكَ فَضْلٌ كَثِيرٌ". وقد قالتِ العربُ في مَثَلِها السائرِ: "خيرُ القُرَناءِ في المكْسبةِ المرأةُ الصالحةُ". وصارتْ ببركتِها عنوانَ سعادةِ بَعْلِها، وحسنةَ الدنيا المطلوبةَ فيها، قال رسولُ اللهِ ﷺ: "أَرْبَعٌ مِنَ السَّعَادَةِ؛ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ، وَالْمَسْكَنُ الْوَاسِعُ، وَالْجَارُ الصَّالِحُ، وَالْمَرْكَبُ الْهَنِيُّ. وَأَرْبَعٌ مِنَ الشَّقَاوَةِ؛ الْجَارُ السُّوءِ،

وَالْمَـرْأَةُ السُّـوءُ، وَالْمَسْكَنُ الضَّيِّـقُ، وَالْمَرْكَـبُ السُّـوءُ" رواه ابـنُ حبـانَ وصحَّحه الضياءُ المقدسيُّ. وقـد فسَّـرَ عليُّ بنُ أبي طالـبٍ -رضي اللهُ عنه- حسنةَ الدنيا المطلوبـةَ في قولِـه تعالـى: ﴿رَبَّنَـآ ءَاتِنَـا فِى ٱلدُّنْيَـا حَسَـنَةً﴾ بصـلاحِ الزوجـةِ. وبركـةُ صلاحِ الزوجـةِ لا تُقْصَـرُ على نطاقِ بيتِها الزوجيِّ، بـل تَفيضُ وتمتـدُّ لِتعمَّ رقعـةً واسـعةً مـن الوجـودِ وتتجـاوزَ أَمَـدَ العمـرِ الزوجيِّ المحدودِ بغرْسِـها الـذي أنجبتْـه وربَّتْـه مـن علمـاءَ ودعـاةِ خيـرٍ وقـادةٍ وأثريـاءَ محسـنين وموجِّهيـن مربِّيـن ممـن بـاركَ اللهُ نفعَهـم إلـى حيـنٍ لا ينتهـي إلا بفنـاءِ الدنيـا. قالـت أمُّ الإمـامِ سـفيانَ الثـوريِّ لابنِهـا سـفيانَ: اذهـبْ، فاطلـبِ العلـمَ، حتـى أعُولَـك بمِغْزلـي، فـإذا كتبـتَ عُـدَّةَ عشـرةِ أحاديـثَ، فانظـرْ هـل تجـدُ في نفسِـك زيـادةً؛ فاتَّبعْـه، وإلا فـلا تتعـنَّ. وقـال الإمـامُ مالـكٌ:"قُلْتُ لِأُمِّـي: أَذْهَـبُ فَأَكْتُبُ الْعِلْـمَ، فَقَالَـتْ لِـي أُمِّـي: تَعَـالَ فَالْبَسْ ثِيَـابَ الْعُلَمَـاءِ، ثُـمَّ اذْهَـبْ فَاكْتُـبْ، قَـالَ: فَأَخَذَتْنِي فَأَلْبَسَـتْنِي ثِيَابًـا مُشَـمَّرَةً، وَوَضَعَـتِ الطَّوِيلَـةَ عَلَـى رَأْسِـي وَعَمَّمَتْنِـي فَوْقَهَـا، ثُـمَّ قَالَـتِ: اذْهَـبِ الْآنَ فَاكْتُـبْ". قـال سَـلْمُ بـنُ قتيبـةَ: "قـال بعـضُ حكمـاءِ العـربِ: مـا أعـانَ علـى نَظْـمِ مـروءاتِ الرجـالِ كالنسـاءِ الصوالـحِ".

عبادَ اللهِ!

ولمـا كانـت فضائـلُ صـلاحِ الزوجـةِ عظيمـةَ الأثـرِ والبركـةِ؛ كانـت سـنةُ النُّـدْرةِ دارجـةً عليهـا وإنْ كانـت لا تفـوتُ طالبـاً بصـدقٍ، قـال طـاووسُ بـنُ كَيْسـانَ: "الْمَـرْأَةُ الصَّالِحَـةُ مَثَلُهَـا فِـي النِّسَـاءِ كَمَثَـلِ الْغُـرَابِ الْأَبْيَـضِ فِـي أَلْـفِ غُـرَابٍ". ولأجـلِ إدراكِ غنيمـةِ ذاتِ الصـلاحِ وغلبـةِ نُدْرَتِهـا؛ كان إغـراءُ النبـيِّ ﷺ علـى

الزواج بها بصيغةِ الظَّفَرِ الذي يُفهَمُ منه المبادرةُ وعدمُ التواني، وإيثارُها على المرغِّباتِ الأخرى وإنْ راجتْ في المجتمعِ وقُدِّمتْ، يقولُ النبيُّ ﷺ: "تُنْكَحُ المَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا؛ فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ، تَرِبَتْ يَدَاكَ" رواه البخاريُّ ومسلمٌ.

ولم أرَ للخلائقِ مِن مَحَلّ | يهذِّبُها كحضْنِ الأمهاتِ
فحضنُ الأمِّ مدرسةٌ تسامتْ | بتربيةِ البنينِ أو البناتِ
وأخلاقُ الوليدِ تُقاسُ حُسْنًا | بأخلاقِ النساءِ الوالداتِ
وليس ربيبُ عاليةِ المزايا | كمِثْلِ ربيبِ سافلةِ الصفاتِ
وليس النبْتُ ينبتُ في جِنانٍ | كمِثْلِ النبْتِ يَنْبُتُ في الفلاةِ

أيها الإخوةُ في اللهِ!

إنَّ مدارَ صلاحِ المرأةِ الذي هو مناطُ طَلَبِها، ومرتكزُ تربيةِ الوالدَيْن بناتَهم منذُ نعومةِ أظفارِهن عليها يَكْمُنُ في خَصْلتين بيَّنَها الخالقُ البصيرُ بخلْقِه العالِمُ بمصالحِهم الرحيمُ بهم في قوله: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾؛ القنوتُ الذي يَعني طاعةَ اللهِ ورسولِه ﷺ وطاعةَ الزوجِ فيما لا إثمَ فيه ولا بالغَ مشقةٍ، وحِفْظُ الزوجِ حالَ غيبتِه في عِرْضِه وولدِه ومالِه، وحفْظُه حالَ شهودِه من بابِ أولى. سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَيُّ النِّسَاءِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «الَّذِي تَسُرُّهُ إِذَا نَظَرَ، وَتُطِيعُهُ إِذَا أَمَرَ، وَلَا تُخَالِفُهُ فِيمَا يَكْرَهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهِ» رواه أحمدُ وصحَّحَه الحاكمُ والعراقيُّ. وقال ﷺ: "خَيْرُ نِسَاءٍ رَكِبْنَ الإِبِلَ صَالِحُ نِسَاءِ قُرَيْشٍ؛ أَحْنَاهُ عَلَى وَلَدٍ فِي صِغَرِهِ، وَأَرْعَاهُ عَلَى زَوْجٍ فِي ذَاتِ يَدِهِ" رواه البخاريُّ ومسلمٌ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أما بعدُ، فاعلموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيها المؤمنون!

إنَّ صلاحَ الزوجةِ مَحْضُ مِنَّةٍ ربانيةٍ يختصُّ اللهُ بها مَن اصطفى، كما منّ بذلك على نبيه زكريا -عليه السلامُ- فقال: ﴿وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ﴾، وقد أبانَ -سبحانه- السبيلَ الذي أصلحَ به لزكريا -عليه السلامُ- زوجَه وولدَه الذي أنجبتْه بعدَ عُقْمٍ وطعنٍ في السنِّ؛ كيما يأتسيَ الراغبُ، ويَستدرِكَ المفرِّطُ، ويسلوَ المحزونُ، ويأملَ الآيسُ. وإنَّ الأخذَ بذلك السبيلِ من أهمِّ ما ينبغي أنْ يُعنى به كلُّ زوجٍ راغبٍ في استصلاحِ زوجِه وذريتِه، وأنْ يجعلَه نَصْبَ عينِه ومَحطَّ اهتمامِه ومحاسبتِه، وجادَّةُ ذلك السبيلِ المسارعةُ في الخيراتِ بالحرصِ والمبادرةِ والمثابرةِ، والعبادةُ الملازِمةُ للرجاءِ والخوف والدعاءِ كما كان لَهَجُ عِبادِ الرحمنِ في دعائِهم: ﴿رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾، والتواضعُ للهِ بالخشوعِ والخضوعِ، والتواضعُ لخلْقِه بنبذِ الكِبرِ والاحتقارِ وردِّ الحقِّ، كما قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾. فالتوفيق إلى إصلاحِ الزوجةِ والذرية، وثباته،

ونمائه، وتعديلِ عِوَجِه إنْ وقعَ جزاءُ مَن وفّى بهذه الخلالِ الثلاثِ، وصارتْ سَجيَّةً راسخةً فيه. فإنْ مَنَعَ اللهُ ذلك الصلاحَ مع لزومِ سبيلِه ابتلاءً؛ فقد برئتِ الذمةُ، ونالَ الصادقُ أجرَ صلاحِهم كأنما وَقَعَ؛ وِفْقًا لأجرِ الصدقِ الواردِ في قولِه ﷺ: "منْ سألَ اللهَ الشهادةَ بصدقٍ؛ بلَّغَهُ اللهُ منازلَ الشهداءِ وإنْ ماتَ على فراشِه" رواه مسلمٌ، وكان العوضُ من العليمِ الحكيمِ أرحمِ الراحمين خيراً وأبقى!

الخلافُ الزوجيُّ

الحمدُ للهِ خالقِ النَّسَمِ ومُحصيهم عدداً، الذي لم يتخذْ صاحبةً ولا ولداً، وكلُّهم آتيهِ يومَ القيامةِ فرداً. وأشهد ألا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له أبداً، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلى اللهُ وسلمَ عليه وعلى آلِه وصحبِه ومَنِ اهتدى.

أمَّا بعدُ، فاتَّقوا اللهَ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ... ﴾.

أيُّها المؤمنونَ!

الزواجُ آيةٌ من آيِ اللهِ الباهرةِ؛ جعلَه اللهُ قَوامـًا للبقاءِ البشريِّ، وسكنِه، ومودتِه، ورحمتِه. وحاطَه بميثاقِ رعايةٍ غليظٍ؛ كي لا تنفصمَ عُراه، وتُوهَن دعائمُه. هذا وإنَّ أخطرَ ما ينوبُ عرشَ الزواجِ العتيدِ قوارضُ الخلافاتِ الزوجيَّةِ التي لا يحسنُ الزوجان احتواءَها وكيفيةَ حلِّها؛ ليكونَ الحلُّ الحاضرُ — بل والوحيدُ — إيقاعَ الطلاقِ، ونقضَ ذلك الميثاقِ الغليظِ، الذي لم يبلغْ شيءٌ مبلغَه في فرحِ إبليسَ، كما قالَ النبيُّ ﷺ: "إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا، قَالَ ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، قَالَ: فَيُدْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ" رواه مسلمٌ.

أيُّها المسلمونَ!

وجودُ الخلافِ بين الزوجيْنِ أمرٌ طبعيٌّ، وسنّةٌ كونيَّةٌ يرضخُ لها البشرُ، ولا يسلمُ منها بيتٌ حتى بيتِ النبوَّةِ. ينشأُ ذلك من اختلافِ الطِّباعِ، وظروفِ الحياةِ، وما تكسبُه الأيادي من الآثامِ. وليس ذاك من قبيلِ محضِ الشرِّ، بل فيه من المصالحِ ما يجعلُ الزوجَ الحصيفَ يستثمرُه في صيانةِ بيتِه الزوجيِّ، وتنميةِ مودَّتِه واستقرارِه. فالخلافاتُ الزوجيَّةُ — إنْ أُحسِنَ علاجُها — تُضفي على البيتِ تجديداً وحيويّةً؛ تطردُ الملَلَ والسآمةَ، ويعرفُ الزوجان من خلالِها قدْرَ الحياةِ الهانئةِ، ويظفرانِ بغنيمةِ محوِ السيئاتِ، يقولُ النبيُّ ﷺ: «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ، وَلاَ وَصَبٍ، وَلاَ هَمٍّ، وَلاَ حُزْنٍ، وَلاَ أَذًى، وَلاَ غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ» رواه البخاريُّ ومسلمٌ. بيْدَ أنَّ المشكلاتِ الزوجيَّةَ ليستْ على وزانٍ واحدٍ؛ فمنها العُضلُ الكبرى ذاتُ الخطرِ، كتركِ الصلاةِ، واستعمالِ المُسْكراتِ والمخدِّراتِ، وخيانةِ الفراشِ. وذلك مما تعظُمُ فيه الحاجةُ لاستشارةِ أهلِ العلمِ والرأيِ، ولا يستقلُّ الزوجانِ بحلّه. ومنها المشكلاتُ الصغرى، كرفْعِ الصوتِ، وعصيانِ بعضِ الأوامرِ، والتأخُّرِ في المواعيدِ، وعدمِ تحقيقِ بعضِ الرغائبِ. وتلك المشاكلُ الصغرى— وللأسفِ — هي أبرزُ أسبابِ الطلاقِ؛ إذْ هي أكثرُ ما يقعُ فيه النزاعُ بين الأزواجِ، ويحصلُ به التنافرُ، والنكَدُ، إنْ لم يحسِنُ الزوجانِ التعاملَ معها! وذا ما يجعلُ معرفةَ أساليبِ احتوائِها، والتعاملِ معها، وطرقِ علاجِها من ألْزمِ ما ينبغي للزوجيْنِ العنايةُ به. وثَمّةَ أمورٌ خمسةٌ يكونُ بها حكمةُ

التعامـلِ مـع ذلـك النـوعِ مـن المشـكلاتِ:

أوَّلُهـا: كـرمُ التغاضـي والتغافـلِ، وتـركُ المحاققَـةِ والاسـتقصاءِ. فإحصـاءُ الأخطـاءِ، والتذكيـرُ بها، والوقـوفُ مع كلِّ زَلَّـةٍ مفضٍ إلى فشلِ الحياةِ الزوجيَّـةِ. وكان ذلـك التغافُـلُ هـديَ النبيِّ ﷺ مع خطإ أهلِـه، كمـا قـالَ اللهُ — تعالـى –: ﴿عَـرَّفَ بَعۡضَـهُۥ وَأَعۡـرَضَ عَـنۢ بَعۡـضٖۖ﴾، وقـال عليٌّ — رضـيَ اللهُ عنـه –: "مـا استقْصى كريـمٌ قـطّ"، وقيـل للإمـامِ أحمـدَ: الْعَافِيَـةُ عَشَـرَةُ أَجْزَاءٍ، تِسْـعَةٌ مِنْهَـا فِـي التَّغَافُـلِ، فَقَـالَ: الْعَافِيَـةُ عَشَـرَةُ أَجْزَاءٍ، كُلُّهَـا فِـي التَّغَافُـلِ. وإنّ مـن أعظـمِ المعيناتِ على التحلِّي بهذه الخَصلةِ الحميدةِ معرفـةَ الطبيعـةِ البشريةِ التي جُبِل عليهـا الزوجـانِ. فالرجـلُ ميّـالٌ للسيطرةِ، وحـبِّ التفـرُّدِ بالـرأيِ، والاسـتقلالِ بالأمـرِ دونَ تدخُّـلِ غيره، والمـرأةُ مجبولـةٌ على اعوِجـاجٍ، كمـا قـال النبيُّ ﷺ: «إِنَّ الْمَـرْأَةَ خُلِقَـتْ مِـنْ ضِلَـعٍ؛ لَـنْ تَسْـتَقِيمَ لَـكَ عَلَـى طَرِيقَـةٍ، فَـإِنِ اسْـتَمْتَعْتَ بِهَـا اسْـتَمْتَعْتَ بِهَـا وَبِهَـا عِـوَجٌ، وَإِنْ ذَهَبْـتَ تُقِيمُهَـا كَسَـرْتَهَا، وَكَسْـرُهَا طَلَاقُهَـا» رواه مسـلمٌ. ومـن غالـبِ صـورِ ذلـك الاعوجـاجِ الـذي تفشـو منه الخلافـاتُ: فـرطُ الغَيْـرةِ، وتنكّـرِ المعروفِ، وسـرعةُ الانفعـالِ. وبمراعـاةِ تلك الطبائـعِ يخفُّ وطءُ خطئهـا؛ فيسـهلُ التغافُـلُ عنهـا. ونظرةُ كلٍّ مـن الزوجيْـنِ لمحاسـنِ الآخـرِ – دونَ قصـرٍ علـى جانـبِ المثالـبِ — ممّـا تتحققُ بـه الموازنـةُ وتـركُ الاسـتقصاءِ. وذاك مـا أوْصـى بـه النبيُّ ﷺ في قولِـه: «لَا يَفْـرَكْ (يبغـض) مُؤْمِـنٌ مُؤْمِنَـةً؛ إِنْ كَـرِهَ مِنْهَـا خُلُقًـا رَضِـيَ مِنْهَـا آخَـرَ» رواه مسلمٌ. وجـاء عمـرَ — رضـي الله عنـه – رجـلٌ شـاكيًـا رفـع صـوتِ زوجِـه عليـه، فلمـا دنـا سـمع صـوتَ امـرأةِ عمـرَ يعلـو صوتَـه، فرجـعَ، فأحـسّ بـه عمـرُ، فدعـاه وسـأله، فقـال: جئتُـكَ أشـكو علـوَّ صـوتِ امـرأتي علـيّ،

وسمعتُ صوتَ امرأتِك يعلو صوتَك! فقال عمرُ: يا بن أخي، إنَّها امرأتي، ترضعُ صغيري، وتصنعُ طعامي، وتغسلُ ثوبي. هكذا يكونُ التغافلُ؛ إغضاءٌ كريمٌ عن خطإ يحسنُ تجاوزَه.

وثاني ما تعالَجُ به المشكلاتُ: التحالمُ، وكظمُ الغيظِ؛ إذِ الغضبُ أعظمُ ما تفاقمَ به المشكلاتُ، ويقعُ به الطلاقُ. دقائقُ معدودةٌ يختلُّ فيها اتِّزانُ عقلِ الغاضبِ، ويتسلَّطُ بها الشيْطانُ، وتصعبُ عندها السيطرةُ؛ فيطلِقُ كلمةَ الطلاقِ، فإذا ما سكنَ أسَفُه تحسّرَ، وطفقَ يبحثُ عمَّن يُفتيه برجوعِ زوجِه له. ولذا كان من حَصافةِ رأيِّ الزوجِ ألا يتكلمَ حالَ غضبِه، وأن يخرجَ من منزلِه حتى يسكتَ غضبُه. فقد تعاهدَ أبو ذرٍّ مع زوجِه أمِّ ذرٍّ — رضيَ اللهُ عنهما — إنْ غضبَ أحدُهما أنْ يسكتَ الآخرُ. ومَن عوّدَ نفسَه ذلك تخطّى خلافاتِه الأسريَّةِ بيسرٍ وسلامٍ.

وثالثُ ما تُحلُّ به الخلافاتُ الزوجيَّةُ: احتواءُ الخلافِ؛ بقَصْرِه على الزَّوْجيْنِ، وعدمِ توسيعِ نطاقِه؛ بإدخالِ مَن ليس أهلاً للاستشارةِ، فضلاً عن مُجرَّدِ التحدُّثِ بالمشكلةِ دونَ طلبٍ لحلٍّ. فالمشكلةُ كلما ضُيِّق محيطُها سهُلَ حلُّها، وكلّما توسّعَ عسُرَ؛ كما أبانَ ذلك عملُ المحاكمِ ومراكزِ الاستشاراتِ الأسريَّةِ. غيرَ أنه لا يُفهَم من ذلك تركُ الاستشارةِ، بل الاستشارةُ مطلوبةٌ، ولكنّ الشأنَ فيمَن يُستشارُ.

خصائصُ مَن تشـاورُه ثلاثٌ فخذْ منهـا جميعـًا بالوثيقة
وِدادٌ خالـصٌ ووفـورُ عقـلٍ ومعرفةٌ بحالكَ بالحقيقـة
فمَن حصلتْ هـذي المعاني فتابـعْ رأيَه والزمْ طريقَـه

فمـن فقـدَ إحـدى هـذه الصفـاتِ الثـلاثِ، فإنَّـه لا يُستشـارُ وإنْ كان الأبُ الشـفيقُ أو الأخُ الشقيقُ!

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.

وبعدُ، فاعلموا أنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله...

أيُّها المؤمنونَ!

ورابعُ ما تُعالَجُ به الخلافاتُ الزوجيَّةُ: الحوارُ بين الزوجيْنِ. ولا يجمُلُ ذلك الحوارُ، ولا يؤتِي ثمارَه إلا بالهدوءِ والاحترامِ واللِّينِ ونُشدانِ الحقِّ والرضوخِ له، خاصةً من الزوجِ. ولذلك الحوارِ الراقي المفعولُ القويُّ في تجاوُزِ هُوَّةِ الخلافِ وتضييقِ قُطْرِها. قالتْ عائشةُ — رضيَ اللهُ عنها -: خَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ، فَأَخْرَجَ مَعَهُ نِسَاءَهُ، وَكَانَ مَتَاعِي فِيهِ خِفٌّ فَكُنْتُ عَلَى جَمَلٍ نَاجٍ (سريع)، وَكَانَ مَتَاعُ صَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيٍّ فِيهِ ثِقَلٌ، وَكَانَتْ عَلَى جَمَلٍ بَطِيءٍ فَتَبَاطَأْنَا، فقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «حَوِّلُوا مَتَاعَ عَائِشَةَ عَلَى جَمَلِ صَفِيَّةَ، وَحَوِّلُوا مَتَاعَ صَفِيَّةَ عَلَى جَمَلِ عَائِشَةَ؛ لِيَمْضِيَ الرَّكْبُ»، فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ قُلْتُ: يَالَعَبْدِ اللهِ، غَلَبَتْنَا هَذِهِ الْيَهُودِيَّةُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أُمَّ عَبْدِ اللهِ، إِنَّ مَتَاعَكِ كَانَ فِيهِ خِفٌّ، وَمَتَاعُ صَفِيَّةَ كَانَ فِيهِ ثِقَلٌ فَبَطَّأَ بِالرَّكْبِ؛ فَحَوَّلْنَا مَتَاعَكِ عَلَى بَعِيرِهَا، وَحَوَّلْنَا مَتَاعَهَا عَلَى بَعِيرِكِ»، قُلْتُ: أَلَسْتَ تَزْعُمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ؟ قَالَ: فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «أَفِي شَكٍّ أَنْتِ يَا أُمَّ عَبْدِ اللهِ؟» قُلْتُ: أَلَسْتَ تَزْعُمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ؟ فَهَلَّا عَدَلْتَ؟ فَسَمِعَنِي أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -، وَكَانَ فِيهِ ضَرْبٌ مِنْ حِدَّةٍ؛ فَأَقْبَلَ عَلَيَّ

يَلْطِمُ وَجْهِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَهْلًا يَا أَبَا بَكْرٍ»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَمَا سَمِعْتَ مَا قَالَتْ؟! قَالَ: «إِنَّ الْغَيْرَى لَا تُبْصِرُ أَسْفَلَ الْوَادِي مِنْ أَعْلَاهُ» رواه أبو الشيخِ وأبو يعلَى بإسنادٍ لا بأسَ به كما قال ابنُ حجَر.

وخامسُ هذه الأمورِ: لزومُ الاستغفارِ والأوْبةِ إلى اللهِ — سبحانَه –؛ إذْ ما من مُصيبةٍ تقعُ إلا بذنبٍ اقترفَه العبدُ، ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾. والاستغفارُ دواءُ الذنوبِ، وسببُ محوِها. وما أجملَ أن يتواصَى الزوجانِ حالَ وقوعِ خصامٍ بينهما أنْ يلزما الاستغفارَ! فما أحرَاهما بعدُ بالوفاقِ ونفيِّ الشقاقِ!

أَيُّها الإخوةُ في اللهِ!

إنَّ من شأنِ رعايةِ هذه الأمورِ الخمسةِ وتعاهدِها تحاتَّ عوالقِ الخلافاتِ الزوجيَّةِ، وتخفيفَ حدَّتِها، وتقليصَ أمَدِها؛ فتكونُ الخلافاتُ معها في حجمِها الطبعيِّ، ويسهلُ حلُّها سريعًا؛ ويتحققُ بذلكَ مقصودُ المحبةِ والسكنِ والرحمةِ التي لأجلِها شُرعَ النِّكاحُ.

حتى يكونَ الطلاقُ علاجـًا

الحمدُ للهِ الذي أحكمَ شرعَه، وأبرمَ قدرَه، وأنفذَ أمرَه. خلقَ فسوَّى، وقدّر فهدى. وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلى اللهُ عليه وعلى آلِه وصحبِه وسلمَ تسليماً كثيراً إلى يومِ الدينِ.

أمَّا بعدُ، فاتَّقوا اللهَ – عبادَ اللهِ –، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ... ﴾.

أيُّها المؤمنونَ!

بناءُ الإسلامِ مجتمعَه بناءٌ قويٌّ محكَمٌ في التوسُّعِ والتماسُكِ والوشائجِ. يأتي النكاحُ ركناً متيناً في ذلك البناءِ؛ لا يقومُ البناءُ إلا عليه، ولا يشتدُّ إلا به. ولذا، فلا غَرْوَ في حرصِ الشرعِ على بقاءِ هذه الوَشيجةِ ورعيِها، وشدةِ كراهتِه لحلّها وفَصْمِ عُراها إلا فيما لا بُدّ منه؛ وذلك لما ينطَوي على حلّ هذا الميثاقِ الغليظِ من الشرورِ التي لا يعلمُ مداها إلا اللهُ. يقولُ النبيُّ ﷺ: "ما أحلَّ اللهُ شيئًا أبغضَ إليه من الطَّلاقِ" رواه أبو داودَ وصحّحه الحاكمُ، ويقولُ ﷺ: "مَن سألتْ زوجَها الطلاقَ من غيرِ ما بأسٍ، فالجنةُ عليها حرامٌ" رواه أحمدُ وصحّحه الألبانيُّ. يقولُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ: "الأصلُ: أنَّ الطلاقَ أبغضُ الحلالِ إلى اللهِ، وإنّما يُباحُ لِمَا لا بدَّ منه، كالمُحرّماتِ تُباحُ حالَ الحاجةِ".

إنَّ مضارَّ الطلاقِ لا تتوقفُ عند حدودِ الأزواجِ. كلّا، بل الطلاقُ هادمٌ عرشَ الزوجيِّةِ، ومشتّتٌ شملَ الأولادِ، وهو قاطعٌ للرحمِ، وموغِرٌ للصدورِ، وناشرٌ

للعقوقِ، وصارمٌ للحقوقِ. حتى غدا أعظمَ سلاحٍ شيطانيٍّ يُلحِقُ المجتمعَ به أذاه، ويُقطِّعُ به آصِرَته، يقولُ النبيُّ ﷺ: "إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا، قَالَ ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، قَالَ: فَيُدْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ" رواه مسلمٌ.

أيّها المسلمونَ!

ومع هذا التشديدِالشرعيِّ في كراهةِ الطلاقِ، وتبصُّرِ مآسيه، نجدُ أن نِسبَ الطّلاقِ في تصاعدٍ ملحوظٍ؛ وذلك داعٍ للتساؤلِ عن سببِ هذا؛ لتُحجّمَ مُعضلةُ الطلاقِ في إطارِها الشرعيِّ المعقولِ المقبولِ، ويُحصَرَ في زاويةِ الاختيارِ الصحيحِ. والمتأمّلُ لغالبِ حالاتِ الطلاقِ من خلالِ مراكزِ الفُتيا والاستشارةِ ودُورِ التقاضِي يلحَظُ أنّ لها أسباباً متكررةً أو متشابهةً، لا يسوغُ بها الطّلاقُ غالباً — وللأسفِ -؛ لإمكانيَّةِ تَلافيها قبلَ حصولِها، ومعالجتِها بعد الوقوعِ كذلك؛ لا أنْ يكونَ رميُ كلمةِ الطلاقِ هو ختمُ حياةِ الميثاقِ الغليظِ!

هذا، وإنّ عدمَ حسنِ اختيارِ الزوجيْنِ لبعضِهما، والغضبَ، والاستعجالَ، وعدمَ تبصُّرِ العواقبِ، وإساءةَ الظنِّ، وعدمَ احتواءِ الخلافِ الزوجيِّ، وتوسيعَ دائرتِه، واستشارةَ غيرِ الأكْفاءِ، والعنادَ والتشنُّجَ في الآراءِ وتصلبَ المواقفِ وعدمَ المرونةِ - لهي الأسبابُ الغالبةُ التي ينشأُ منها الطلاقُ.

أيُّها الأحبةُ في اللهِ!

حتى يكونَ الطلاقُ حلاً ناجعًا للمشكلاتِ الزوجيَّةِ، لا أن يكونَ مُذكيًا لأُوارِ نيرانِ مشكلاتٍ تقزِّم إزاءَها المشكلةَ الزوجيةَ؛ فإنَّه ينبغي أنْ تُراعَى فيه أحوالٌ ثلاثة:

الحالُ الأولى: ما قبل الطّلاقِ: وذلك بأنْ يحسنَ كِلا الزوجيْنِ اختيارَ شريكِهما؛ فلا يرتبطانِ إلا بالرضا والقناعةِ. فإذا ما تمَّ ارتباطُهما وعَرضتْ لهما مشكلةٌ وظُنَّ أن علاجَها الطلاقُ، فعليهما ألا يعجِّلا بطلبِه وإيقاعِه. ومن لازمِ ذلك ألا يتكلّما في وقتِ غضبٍ أو توترٍ، وأن يلزَما الاستغفارَ والدعاءَ بصلاحِ الشأنِ والهدوءَ والصمتَ، ولو استلزمَ الأمرُ خروجَ الزوجِ من بيتِه مّدةً تسكنُ فيها نفسُه وتهدأُ ثائرتُه. فإذا سكنتِ النفوسُ شرعَ الزوجانِ في حلِّ خلافَيْهما بحوارٍ هادئٍ يسودُه الاحترامُ وإرادةُ الإصلاحِ ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾. ولْيعلما أنّ الحياةَ الزوجيّةَ تقومُ بواحدٍ من أساسَيِ العرشِ الزوجيِّ، الذي يكونُ تمامُه بتمامِ هذينِ الأساسيْنِ: الحبِّ والرحمةِ، كما قالَ اللهُ -تعالى-: ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً﴾. فلو لم يكنِ الحبُّ؛ فالرحمةُ؛ بأنْ يرحمَ الزوجُ حالَ زوجتِه أو حالَ أولادِه الذي سيعصفُ الطلاقُ بصفوِه. فإن توصَّلا إلى الحلِّ، وإلا استشَارا العقلاءَ الناصحينَ من الأفرادِ وبيوتِ الاستشارةِ المأمونةِ. فإذا كان الطلاقُ هو رأيُّ ذوِي الاستشارةِ، فعلى الزوجيْنِ ألّا يعجِّلا في الطلاقِ، بل عليهما تكرارُ الاستخارةِ في ذلك، وإعادةُ النظرِ الموازِنِ بين مصالحِ الطلاقِ ومضارِّه. فإذا اجتازَ الزوجُ هذه المرحلةَ، وكان

رأيُ الطلاقِ ثمرةَ الاستشارةِ والاستخارةِ؛ فعليه أن يتبصَّرَ الحالَ الثاني المقارِن للطلاقِ. وذلك بأن يُوقِعَ الطلاقَ على وجهِه الذي شرعَ اللهُ: طلقةً واحدةً حالَ طُهرِ زوجِه من الحيضِ الذي لم يجامعْها بعدَه؛ وتلك العِدّةُ التي أمرَ اللهُ – سبحانَه – أن تطلَّقَ النساءُ لها. وممّا يؤسَفُ له أنّ جُلَّ حالاتِ الطلاقِ لا تكونُ على هذا الوجهِ الشرعيِّ؛ إذْ ما أكثرَ ما يُطلِّقُ الأزواجُ زوجاتِهم حالَ حيضهِنَّ، أو يطلقونَهنّ بعد جِماعِهِنّ قبل أن يحضْنَ ثم يَطهرْنَ، أو يجمعونَ كلماتِ الطلاقِ الثلاثِ في وقتٍ واحدٍ؛ فكلُّ ذلك من مخالفةِ شريعةِ اللهِ – جلّ وعلا –.

وما أجملَ فعلَ بعضِ ذوي الحِجَى حين لا يُوقِعون طلاقَهم إلا بسؤالِ أهلِ العلمِ أو لدى المحاكمِ. ولْيبادرِ الزوجُ بتسجيلِ واقعةِ طلاقِه في الوثائقِ الرسميّةِ؛ إثباتًا للحالِ وحفظًا، ولئلّا تتضرَّرَ الزوجةُ بتركِ هذا الإثباتِ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ وحدَه، والصلاةُ والسلامُ على مَن لا نبيَّ بعده.
وبعدُ، فاعلموا أنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيُّها الإخوةُ في اللهِ!

والحالُ الثالثُ الذي يجبُ رعيُه في الطلاقِ: ما يكونُ بعد الطلاقِ: وذلك إذا تمّ الطلاقُ على وجهِه المشروعِ؛ طلقةً واحدةً في طهرٍ لم يُجامعْ فيه"، فإنَّ الزوجةَ لا تخرجُ من بيتِها؛ إذْ هي في حكمِ الزوجاتِ، بل عليها أن تحسنَ التبعّلَ لزوجِها، وتتزيّنَ له وتتعرّضَ؛ لعل الأمورَ تعودُ إلى مجارِيها؛ فيُرجعُها الزوجُ، وتبقى عُقدةُ النكاحِ الغليظِ، كما قال اللهُ - تعالى -: ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾. ويُلحظُ هنا خطأُ كثيرٍ من الأزواجِ حين يبادرُ بإيصالِ زوجتِه لأهلِها حالَ طلاقِها المرةَ الأولى أوالثانيةَ، أو هي تبادرُ بالاتصالِ عليهم؛ لِيأخذوها؛ فكلُّ ذلك مخالفٌ لأمرِ اللهِ - سبحانَه -. فإذا انقضتِ العِدةُ ولم يراجعِ الزوجُ زوجتَه أو كانتْ هذه الطلقةُ هي الطلقةُ الثالثةُ؛ فقد بانَ النكاحُ، وحُلَّ عقدُه.

لكنْ هلِ انقضتِ الحقوقُ بذلك؟ كلا، بل بقيَ على الزوجيْنِ من الحقوقِ ما يلزمُ القيامُ به؛ ليكونَ الطلاقُ حلاً صائباً وسبباً يُغني اللهُ به كُلاً من سَعتِه.

ومن تلك الحقوقِ: ذكرُ كلٍّ من الزوجيْنِ صاحبَه بالخيرِ والجميلِ كما قال اللهُ — تعالى -: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾، وأن يكفَّ كلٌّ منهما عن مساوئِ الآخرِ، وألا يجعلا الطلاقَ سبباً في إثارةِ قضايا تعجُّ بها المحاكمُ ويئنُّ من وطأتِها المجتمعُ، وألا يصيّرا الأولادَ حلبةَ صراعٍ وميداناً لتصفيةِ حساباتِهما الشخصيةِ؛ فيضارَّ أحدُهما الآخرَ بطلبِ حضانتِهم أو نبذِها، أو منعِه رؤيتَهم وزيارتَهم، أو حرمانِ الحقوقِ مناكدةً، أو يؤلِّبَهم عليه، ويوغِرَ صدورَهم بذكرِ مساوئِ صاحبِه. فالواجبُ على الأبِ المطلِّقِ حثُّ أولادِه على برِّ أمِّهمُ المطلقةِ، وهكذا هو الواجبُ على الأمِ. وكذلك، فإنّ الأقاربَ شركاءُ في نجاحِ الطلاقِ الذي لا بدَّ منه حين تسمو نفوسُهم عن وضَرِ القطيعةِ بهذا الطلاقِ، وعليهم أنْ يعلموا أنّه قدرٌ من اللهِ محكمٌ؛ فلا يتجاوزا حدودَه فيبُوءا بلعنةِ اللهِ التي أنزلَها على قاطعِ الرحمِ كما قال سبحانَه: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ﴾. والمجتمعُ كذلك شريكٌ في نجاحِ الطلاقِ حين يكونُ واعياً في حسنِ التعاملِ مع المطلَّقاتِ خاصةً؛ فلا يزْدَري نظرَه إليهنّ، ويحكمْ عليهنّ بالفشلِ والنقصِ؛ فما هذا شأنُ أهلِ الإيمانِ.

معشرَ الأحبةِ!

أرأيتُم كيف هو الطلاقُ في الإسلامِ؟! تقليصٌ لوقوعِه، وتريّثٌ في إيقاعِه، وحفظٌ للحقوقِ معه من كافةِ الجهاتِ. هكذا يُحكَمُ بناءُ المجتمعِ الإسلاميِّ مع تقويضِ ركنِ الطلاقِ الوثيقِ فيه؛ لنخرجَ بنتيجةٍ مؤدّاها أنَّ الطلاقَ الناجحَ

ما جمع ثلاثةَ أمورٍ: أن يكونَ هو الحلُّ الوحيدُ، وأن يُوقعَ على الوجهِ المشروع، وأن تُرعى الحقوقُ بعد وقوعِه. أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾.

تحصينُ الطفلِ من تسلُّطِ الشيطانِ

إنَّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، من يهدِه اللهُ فلا مضلّ له، ومن يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ...﴾

أيّها المؤمنونَ!

إنَّ عداوةَ الشيطانِ للإنسانِ أقدمُ عداوةٍ شهدتْها الدنْيا، وأشرسُها حرباً، وأخبثُها أسلوباً، وأبلغُها ضحايا! تبدأُ من حينِ الولادةِ، وتوعبُ العمرَ كلَّه. ومن أشدِّ مواطنِ نكايةِ الشيطانِ بالآدميِّ موطنُ الضعفِ، وللأطفالِ العُزَّلِ في ذلك نصيبٌ بالغٌ! يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: "«ما من مولودٍ يُولدُ إلا نخسَه الشيطانُ، فيستهلُّ صارخا من نخسةِالشيطانِ، إلا ابنَ مريمَ وأمَّه» ثم قال أبو هريرةُ: اقرؤوا إنْ شئتُم: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ رواه مسلمٌ. إنَّ عداوةَ الشيطانِ الشانئةَ تحملُه على استغلالِ ضعفِ الأطفالِ وسذاجتِهم في إلحاقِ صنوفِ الأذى بهم، كما تحملُه تلك العداوةُ على إزاحةِ تنشئةِ الطفلِ على أساسٍ من حِرزِ الدينِ المتينِ؛ ليسهلَ عليه إغواؤه عند كبرِه؛ فالمبدأُ عنوانُ الختامِ. ومن هُنا أضحى من ضرورةِ الأمرِ فقهُ وليِ الطفلِ في التحصينِ الوقائيِّ لطفلِه من تسلُّطِ الشيطانِ عليه، وذلك من خلالِ الأسبابِ

المحصِّنةِ التي شرعَها الحفيظُ العليمُ — سبحانَه —، سيّما ووسائلُ الإغواءِ وشياطينُه في هذا العصرِ قد تفاقموا كثرةً وخبثًا، ولا عاصمَ من شرِّهم إلا اللهُ!

أيُّها المسلمونَ!

إنَّ المتأملَ في الأسبابِ الشرعيةِ لتحصينِ الطفلِ من الشيطانِ يرى أنّها تسبقُ ولادتَه وتستمرُّ معه حالَ طفولتِه، ومن أبرزِ تلك الأسبابِ الإتيانُ بالذكرِ المشروعِ عند جِماعِ الزوجةِ، كما قال النبيُّ ﷺ: "أمَا إنَّ أحدَكم إذا أتى أهلَه، وقال: بسمِ اللهِ، اللهمّ جنبْنا الشيطانَ وجنبِ الشيطانَ ما رزقتَنا، فرُزقا ولدا لم يضرُّه الشيطانُ" رواه البخاريُّ ومسلمٌ. قال أهلُ العلمِ: والمرادُ بنفي الضررِ حفظُ الطفلِ من الضلالِ والغوايةِ، وتوفيقُه حالَ الزللِ للتوبةِ. والتأذينُ في أذنِ المولودِ حين الولادةِ من وسائلِ الحِرز، قال أبو رافعٍ — رضيَ اللهُ عنه —: "رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ أذّن في أُذُنِ الحسنِ بنِ عليٍّ حينَ ولدتْه فاطمةُ بالصلاةِ" رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح. يقولُ ابنُ القيمِ: "غيرُ مستنكرٍ وصولُ أثرِ التأذينِ إلى قلبِه وتأثيرُه به وانْ لم يَشعُرْ، مع ما في ذلك من فائدةٍ أخرى، وهي هروبُ الشيطانِ من كلماتِ الأذانِ وهو كان يرصدُه حتى يولَدَ فيقارنَه للمحنةِ التي قدَّرها اللهُ وشاءها فيسمعَ شيطانُه ما يضعفُه ويغيظُه أولَ أوقاتِ تعلقِه به". والعقيقةُ عن المولودِ من وسائلِ تحريزِه من كيدِ الشيطانِ، يقولُ ابنُ القيمِ: "وغيرُ مستبعدٍ في حكمةِ اللهِ في شرعِه وقدَرِه أن يكونَ (العقيقة) سببًا لحسنِ إنباتِ الولدِ ودوامِ سلامتِه وطولِ حياتِه في حفظِه من ضررِ الشيطانِ حتى يكونَ كلُّ عضوٍ منها فداءَ كلِّ عضوٍ منه".

عبادَ اللهِ!

وتعويـذُ الأطفـالِ مـن الشـيطانِ مـن أبلـغِ وسـائلِ تحصينِهـم؛ فقـد كان ذا منهـجَ الأنبيـاءِ مـع صبيانِهـم، قـال ابـنُ عبـاسٍ رضـيَ اللهُ عنهمـا: "كان النبـيُّ ﷺ يعـوذُ الحسـنَ والحسينَ، ويقـول: "إنَّ أباكُمـا كان يعـوِّذُ بهـا إسـماعيلَ وإسـحاقَ: أعـوذُ بكلمـاتِ اللهِ التامـةِ، مـن كلِّ شـيطانٍ وهامَّـةٍ، ومـن كلِّ عيـنٍ لامَّـةٍ" رواه البخـاريُّ، وفي روايـةِ الترمـذيِّ كيفيـةُ تعويـذِه لهمـا: "أعيذُكمـا بكلمـاتِ اللهِ...". بـل إنّ بُعـدَ نظـرِ الولـيِّ الصالـحِ واستشـرافَه مسـتقبلَ الصـلاحِ لنسـلِه ورجـاءَه يحـدوه إلـى تعويـذِ ذريـةِ المولـودِ مـن حيـنِ وضعِـه علـى تعاقـبِ بطونِهـم، كمـا دعـتِ امـرأةُ عِمرانَ مولـدَ ابنتِهـا مريـمَ: ﴿فَلَمَّـا وَضَعَتۡهَـا قَالَـتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَـآ أُنثَـىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَـمُ بِمَـا وَضَعَـتۡ وَلَيۡـسَ ٱلذَّكَـرُ كَٱلۡأُنثَـىٰۖ وَإِنِّي سَـمَّيۡتُهَا مَرۡيَـمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَـا بِـكَ وَذُرِّيَّتَهَـا مِـنَ ٱلشَّـيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيـمِ﴾. ولا ينفـثُ حـالَ التعويـذِ أو يمسـحُ؛ لعـدمِ ورودِه. ويقـالُ هـذا التعويـذُ بحضورِهـم وغيبتِهـم. وليـس لـه وقـتٌ محـددٌ، وإنّمـا يتأكـدُ حـالَ الحاجـةِ كالخـروجِ مـن المنـزلِ، وإقبـالِ المسـاءِ، ونـزولِ منـزلِ البرِّيَّـةِ.

واسـتيداعُ اللهِ — سـبحانَه — هـؤلاءِ الصبيـةِ مـن أبلـغِ مـا يُعصَمـون بـه مـن تسـلُّطِ الشـيطانِ، يقـولُ النبـيُّ ﷺ: "إذا اسـتُودِع اللهُ شـيئًا حفظَـه " رواه النَّسـائيُّ وجـوَّده العراقـيُّ. ومنْـعُ الأطفـالِ مـن الخـروجِ مـن المنـزلِ وقـتَ دخـولِ المسـاءِ مـن وسـائلِ حفظِهـم؛ لكثـرةِ انتشـارِ الشـياطينِ ذلـك الوقـتَ، يقـولُ النبـيُّ ﷺ: "«إذا كان جُنْـحُ الليـلِ، أو أمسيتُم، فكفُّـوا صبيانكـم؛ فـإنّ الشـياطينَ تنتشـرُ حينئـذٍ، فـإذا ذهبـتْ سـاعةٌ مـن الليـلِ فخلُّوهـم، وأغلِقـوا الأبـوابَ واذكـروا اسـمَ اللهِ؛ فـإنَّ الشـيطانَ لا يفتـحُ بابـًا مغلقـًا " رواه البخـاريُّ ومسـلمٌ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.

وبعدُ، فاعلموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيُّها المؤمنونَ!

وتعليمُ الطفلِ الأذكارَ عند تمييزِه من وسائلِ حفظِه من كيدِ الشيطانِ؛ خاصةً آيةَ الكرسيِّ والمعوِّذتيْنِ؛ فقد ثبتَ تحصينُهما من الشيطانِ عن النبيِّ ﷺ. وهكذا قراءةُ سورةِ البقرةِ في البيتِ؛ فإنها طاردةٌ للشياطينِ، ولو أن تُقرأَ بتسجيلٍ، يقولُ النبيُّ ﷺ: "إنَّ الشيطانَ ينفرُ من البيتِ الذي تُقرَأُ فيه سورةُ البقرةِ" رواه مسلمٌ. وتطهيرُ البيتِ من الصورِ المحرمةِ والكلابِ منقاةٌ من حضورِ الشياطينِ — فضلاً عن تسلُّطِهم -، يقولُ النبيُّ ﷺ: «لا تدخلُ الملائكةُ بيتا فيه كلبٌ ولا صورةٌ» يريدُ التماثيلَ التي فيها الأرواحُ (رواه البخاريُّ ومسلمٌ)، وإذا خلتِ الملائكةُ حضرتِ الشياطينُ!

أيُّها المسلمون!

إنَّ هذه الوسائلَ من أعظمِ ما ينبغي لوليِّ الطفلِ أن يوليَه عنايتَه إنْ رام فلاحَ طفلِه وسلامتِه من تسلُّطِ الشيطانِ؛ إذْ حبلُها الناظمُ تبرؤٌ من الحولِ، وافتقارٌ للمولَى القديرِ، واستجداءٌ لعونِه، واستمناحٌ لفضلِه، وتعلقٌ بحبلِه، ومَن ذا الذي أمّ فضلَ ربِّه فخابَ؟! لكنْ ليُعلمْ أنّما هذه الأسبابُ إنّما تنفعُ بإذنِ اللهِ

مَـن باشـرَها مُوقنـًا بهـا، ممتنِعـًا ممّـا قـد يمنـعُ أثَرَهـا؛ مِـن شـكٍّ نفعِهـا، أو تلطّـخٍ بمـالٍ حـرامٍ مانـعٍ مـن إجابـة الدعـاء!

نحو وصيةٍ شرعية

إنَّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، من يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومن يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ ...﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ...﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ...﴾

أيُّها المؤمنونَ!

الإسلامُ دينُ رحمةٍ سابغةٍ، تتجذرُ في تفاصيلِ التكليفِ، وتمتدُّ حالَ الحياةِ إلى ما بعدَ المماتِ؛ فطُوبَى لِمَن فقُه حكمَه وعملَ بهديِه. ألَا وإنَّ من وجوهِ رحمةِ الإسلامِ بأهلِه دلالتَهم على الأعمالِ التي يدومُ أجرُها بعدَ وفاتِهم، وإرشادَهم إلى الوسيلةِ التي بها يرعوْن براءَةَ الذممِ إنْ هم فارقُوا الحياةَ؛ بيانًا للحقوقِ، وحفظًا لها وأداءً. وذلك ما يشِي به تشريعُ الوصيةِ في الإسلامِ الذي من مقاصدِه: حفظُ الحقوقِ وأداؤها، واستدامةُ الأجورِ.

أيُّها المؤمنونَ!

الوصيةُ وسيلةٌ شرعيةٌ للتبرعِ بالمالِ بعد الوفاةِ، ووثيقةٌ تُثْبَتُ بها حقوقُ الغيرِ، ويُعهَدُ بأدائِها. وقد لقيتْ من عنايةِ الشرعِ المطهَّرِ فائقَ الأمرِ والرِّعايةِ؛

حثـًا عليها، وترهيبـًا مـن تحريفِها أو تضييعِها. يقـولُ اللهُ — تعالـى -: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ۝١٨٠ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، ويقـول رَسُولَ اللهِ ﷺ: «مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَهُ شَيْءٌ يُوصِي فِيهِ، يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ إِلَّا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ» رواه البخاريُّ ومسلمٌ واللفظُ للبخاريِّ، ويقولُ: «إن اللهَ أعطاكم ثُلثَ أموالِكم عند وفاتِكم؛ زيادةً في أعمالِكم» رواه الطبرانيُّ وحسّنه الهيثميُّ والألبانيُّ؛ لـذا كان فقهُها ممّا ينبغي طلبُه والسؤالُ عنه؛ لتقعَ على وجهِها المشروعِ، وتسلمَ من أخطاءٍ قد تقلبُها إثمـًا أو تمنعُ تنفيذَها.

معشرَ المؤمنينَ!

حكمُ الوصيّةِ يدورُ بين الوجوبِ والاستحبابِ والتحريمِ والكراهةِ والإباحةِ: فتجبُ الوصيةُ حالَ وجودِ حقٍّ على المرءِ لم يكنْ عليه بيّنةٌ موجودةٌ موثوقةٌ معلومةٌ؛ لئلا يُحرَمَ صاحبُ الحقِّ حقَّه. وهكذا تجبُ الوصيةُ على الموسِرِ لأقاربِه الفقراءِ الذين لا حظَّ لهم في الميراثِ —على الراجحِ من أقوالِ أهلِ العلمِ -. وتُكرَه الوصيةُ إن كان مالُ المرءِ قليلاً وورثتُه محتاجونَ؛ لقولِ الرسولِ ﷺ: "إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاس" رواه البخاريُّ ومسلمٌ. وتحرُم الوصيةُ إن كانتْ لأحدِ الورثةِ؛ لقولِ رسولِ اللهِ ﷺ: "إِنَّ اللهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ؛ فَلَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ" رواه أبو داودَ والترمذيُّ وحسَّنه ابنُ حجرٍ، وهكذا تحرُمُ الوصيةُ إن زادتْ عن ثلُثِ

التركـةِ؛ لقـولِ رسـولِ اللهِ - ﷺ- لسعدِ بـنِ أبـي وقـاصٍ - رضـيَ اللهُ عنـه - حيـن أرادَ أن يوصِـي: "الثُّلُـثُ -يَـا سَـعْدُ-، وَالثُّلُـثُ كَثِيـر" رواه البخـاريُّ ومسـلمٌ واللفـظ للبخـاريِّ. ومـا عَـدا هـذه الأحـوالَ فالحكـمُ فيهـا دائـرٌ بيـن الاسـتحبابِ والإباحـةِ. والأفضـلُ أن تكـونَ الوصيـةُ بأقـلَّ مـن الثُلُـثِ؛ يقـولُ ابـنُ عبـاسٍ - رضـيَ اللهُ عنهمـا -: "ودِدتُ لـو أنَّ النـاسَ غَضـوا مـن الثلـثِ؛ لقـولِ النبـيِّ ﷺ: "والثلـثُ كثيـرٌ"". رواه البخـاريُّ ومسـلمٌ.

أيُّها الإخوةُ في اللهِ!

والمتأملُ لواقعِ الوصايا وكثرةِ النزاعاتِ الناشئةِ منها في أروقةِ المحاكمِ، وما تُفضِي به كثيرٌ من تلك النِّزاعاتِ إلى تعطيلِ الوصيةِ أو تأخيرِها أو تقليصِها أو حصولِ قطيعةٍ في الرحمِ بسببِها؛ مما يعارضُ مقصِدَ التشريعِ وغرضَ المُوصِي الموافقِ للشرعِ -لَيَتساءلُ عن الأسبابِ التي أدتْ لذلك، والضماناتِ التي يُرجىٰ بها سلامةُ الوصيةِ من تلك الآفاتِ. وبالنظرِ يتضحُ أن مخالفةَ هدي الشريعةِ في الوصيةِ يُعدُّ السببَ الأبرزَ والأظهرَ أثراً. ومن أجْلى صورِ المخالفةِ من جهةِ المُوصِي: عدمُ كتابةِ الوصيةِ وتوثيقِها، أو تضمّنُ وصيَّتِه الإضرارَ بالورثةِ، كالزيادةِ في الوصيةِ على الثلثِ، أو الوصيةِ لأحدِ الورثةِ ولو بطريقِ الحيلةِ، كالإقرارِ كذباً بدَيْنٍ لأحدِ الورثةِ عليه، أو وصيتِه لأولادِ بناتِه قصداً لوصولِ ذلك لبَناتِه، فإن لم يكنْ ذلك قصداً فلا حرجَ . ومن صورِ المخالفةِ: جعلُ نظرِ الوصيةِ في غيرِ الكفءِ الذي يضيِّعُ ولا يرعى، أو التضييقُ في مصارفِها وحصرِها في أعمالٍ مفضولةٍ، أو حصولِ اللبسِ في عباراتِها؛ مما يمنعُ تنفيذَها؛

لجهالتِها. وأما صورُ مخالفةِ أولياءِ المُوصِي، فمِن أجْلاها: كتمانُ الوصيةِ، أو تحريفُها، أو تنقيصُها، أو منعُهمُ الأرباحَ لها إن كانتِ الوصيةُ في شركةٍ أو سهمٍ أو عقارٍ ذي ربحٍ، وقسمتُهم التركةَ قبل إخراجِها، أو التعدِّي على غلَّتِها، أو الكذبُ في ادِّعاءِ حقٍّ لهم على المُوصِي الميِّتِ، أو المنازعةُ في ثبوتِ الوصيةِ مع علمِهم بثبوتِها، أو ممانعتُهم الموصيَ أثناءَ حياتِه من إنشاءِ وصيتِه التي لا تخالفُ الشرعَ، واتهامُهم له زُوراً وبهتاناً بالقصورِ العقليِّ والسفهِ؛ خشيةً من نقصِ ميراثِهم منه بهذه الوصيةِ. وكلُّ أولئك مُتوعَدونَ بتحملِ الإثمِ والوزرِ الجسيم، يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾.

أيُّها الأحبةُ!

لذلك كانَ جديراً بالمُوصِي إن أرادَ سلامةَ وصيتِه وبقاءَ نفعِها أن يُراعِيَ الوصايا السبعةَ التاليةَ:

١. الإخلاصُ للهِ في وصيتِه، ومتابعةُ هدْيِ الرسولِ ﷺ فيها؛ إذ ذاك شرطُ القَبولِ. وسؤالُ اللهِ دوامَ نفعِها وبركتِها.

٢. كتابةُ الوصيةِ بأسلوبٍ واضحٍ وخطٍّ حسنٍ، وأن تُعرَضَ على أهلِ العلمِ والرأيِّ؛ لتنقيحِها، وإزالةِ اللبسِ عنها.

٣. أن يبادرَ المُوصِي بها حالَ نشاطِه وقوتِه، وذلك لا يمنعُه من تغييرِها أو التعديلِ فيها أو إلغائِها متى ما أرادَ إن رأى المصلحةَ في ذلك. والصدقةُ

حالَ الحياةِ أفضلُ منها حالَ الوفاةِ، فقد جاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: يا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْرًا؟ قَالَ: «أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَى الفَقْرَ وَتَأْمُلُ الغِنَى، وَلاَ تُمْهِلُ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ، قُلْتَ لِفُلاَنٍ كَذَا، وَلِفُلاَنٍ كَذَا وَقَدْ كَانَ لِفُلاَنٍ» رواه البخاريُّ ومسلمٌ.

٤. الإشهادُ عليها وتوثيقُها لدى الجهةِ الرسميةِ، وأن يجعلَ المُوصِي نُسَخًا منها عند ثقاتٍ؛ لئلا تُجهلَ أو تُكتمَ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ حقَّ حمدِه، والصلاةُ والسلامُ على رسولِه وعبدِه.
وبعدُ، فاعلموا أنَّ أحسنَ الحديثِ...

عبادَ اللهِ!

وخامسُ الوصايا: ٥- حسنُ تقسيمِ المصارفِ، وذلك بأنْ يستشرفَ المُوصِي مستقبلَ وصيتِه وما يرغبُ أن تكونَ عليه بعد تطاوُلِ السنينَ، ويستشيرَ أهلَ الخبرةِ والمجربينَ، وألا يحصُرَها في أعمالٍ قد يكونُ غيرُها أفضلَ منها؛ ولذا كان من المُستحسَنِ تركُ عمومٍ في تحديدِ نوعِ المصارفِ أو تغييرِه وتقييدِ ذلك بالأنفعِ والأكثرِ أجراً حسبَ ما يقررُه أهلُ العلمِ والنظرِ. ومن أمثلةِ المصارفِ العظيمِ نفعُها: بناءُ دورِ تحفيظِ القرآنِ ودعمِها، وعمارةُ المساجدِ وصيانتُها، وكفالةُ الدُعاةِ وطلبةِ العلمِ واعتمادُ المِنحِ الدراسيةِ النوعيةِ التي يحتاجُها المسلمونَ، وإقامةُ الكلياتِ والجامعاتِ ممّا تمسُّ حاجةُ الأمةِ إليه، وإنشاءُ القنواتِ الفضائيةِ النافعةِ ودعمُها، ومراكزِ الأبحاثِ، والمراكزِ الإسلاميةِ، والمصحَّاتِ الطبيةِ، ومراكزِ كشفِ الأمراضِ والتثقيفِ بها، وعياداتِ معالجةِ إدمانِ المخدِّراتِ والتدخينِ، ومراكزِ الاستشاراتِ الأسريةِ، والمبراتِ الخيريةِ.

٦. تقديمُ مصلحةِ الوصيةِ على غيرِها، وذلك بأن يجعلَ أولويَّةَ غَلةِ الوصيةِ لصيانتِها وتنميتِها واستبدالِها بالأصلحِ حالَ تعطُّلِها أو نقصِ منفعتِها.

٧. حسنُ اختيارِ ناظرِ الوصيةِ؛ وذلك بأنْ يكونَ مسلماً مكلّفاً عدلاً رشيداً. ويصحُّ تعدُّدُه بأن يكونَ اثنيْنِ أو أكثرَ. ولو كانتِ الوصيةُ كبيرةً فالأصلحُ إقامةُ مجلسِ نظارةٍ لها يضمُّ جمعاً متنوعينَ من الأكْفاءِ، ويجعلُ لهم أجرةً مقابلَ قيامِهم بالوصيةِ. ويدوَّنُ النّاظرُ باسمِه أو وصفِه في الوصيةِ، ومَن تنتقلُ إليه النّظارةُ حالَ موتِه أو فقدِه، وطريقةُ هذا الانتقالِ؛ لئلا يقعَ النزاعُ وتتعطلَ الوصيةُ.

حتى لا يكونَ في الميراثِ نزاعٌ

إنَّ الحمدَ لله؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، منْ يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومنْ يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه.

أما بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ...﴾.

أيُّها المؤمنونَ!

حمايةُ الحقوقِ -عامةً كانت أو خاصةً- سِمَةٌ مطَّردةٌ في شريعةِ الإسلامِ؛ بياناً لها، وحَفْزاً لأدائِها، وترهيباً من إخفارِها. وبقدْرِ تمسُّكِ المجتمعِ برعايةِ الإسلامِ للحقوقِ تكونُ قوَّتُه ولُحْمتُه، سِيّما في ما كان له للنفسِ فيه أَرَبٌ وحُبٌّ مفطورٌ والذي يأتي في مُقدَّمِه المالُ، كما قال اللهُ -تعالى-: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾؛ مما غدا به المالُ أكبرَ سببِ نزاعِ الناسِ. ولَمَّا كان المالُ بهذه المَثابةِ، وكان هَضْمُ الحقِّ فيه فَاشِياً، خاصةً بين مَن يشتركون فيه بسببٍ، كما حكى -تعالى- عن نبيِّه داودَ -عليه السلامُ-: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾، ولَمَّا كانتِ الرحمُ سببَ شراكةٍ قسريٍّ بين الورثةِ، ولِمَا خصَّ اللهُ به الرحمَ مِن متينِ المكانةِ؛ فقد أبانَ اللهُ بنفسه جُلَّ أحكامِ الميراثِ تفصيلاً في كتابهِ الكريمِ؛ حَسْماً للنزاعِ المؤدِّي للقطعيةِ والبغضاءِ، ورتَّبَ على رعايةِ تلك الأحكامِ الوعدَ الجميلَ، كما رتَّبَ

على إخفارها الوعيدَ الوبيلَ، فقالَ إِثْرَ آياتِ المواريثِ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾. فرعايةُ هَدْيِ الشريعةِ في الميراثِ ضمانةٌ لوصولِ الحقِّ وافيـًا للورثةِ مع بقاءِ اللُّحْمَةِ والأُلْفَةِ بينهم، وسلامتِهم مِن شؤمِ التنازعِ ومَعَرَّةِ القطعيةِ.

عبادَ اللهِ!

إنَّ المتأمِّلَ للتشريعِ الإسلاميِّ في الميراثِ يُدْرِكُ أنَّ الإجراءاتِ الاحترازيةَ الاستباقيةَ للمورِّثِ في حياتِه تُجَنِّبُ الورثةَ النزاعَ إلى حدٍّ كبيرٍ؛ وذلك مِن خلالِ امتثالِ المورِّثِ منهجَ التقوى والقولِ السديدِ، كما قال -تعالى-: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾؛ فاللهُ -سبحانه- وليُّ المتَّقي حين يراعي السدادَ في قولِه، خاصةً في إرشادِه الآخرينَ بلزومِ جادَّةِ العدلِ في الميراثِ بين ورثتِهم، واللهُ هو الخليفةُ في أهلِ ذلك المتقي، والوكيلُ على شأنِه، ومَن كان اللهُ وكيلَه؛ فلا ضَيْعَةَ عليه، هذا إن كان ورثتُه ضعافـًا؛ فكيف وإن كانوا أشدَّاءَ راشدِين. هذا، وإنَّ مِن أجْلَى خصالِ التقوى التي لها أثرٌ في إبقاءِ الألفةِ بين الورثةِ طِيبَ كَسْبِ المورِّثِ؛ إذ البركةُ والهناءُ مِن ثَمَرِ طِيبِ المَكْسَبِ؛ مما يُرجى به للقرابةِ حِفظُ حقِّها وَبقاءُ وُدِّها. وعدْلُ المورِّثِ بين ورثتِه سواءً من الزوجاتِ أو الأولادِ مِن ألزمِ خصالِ التقوى التي تَحفظُ الألفةَ بين الورثةِ وتُبْعِدُ عنهم النزاعَ، وذلك يحتِّمُ عليه ألا يَخُصَّ بعضَهم بالتفضيلِ دونَ بعضٍ. كما أنَّ مِن

الهداياتِ الشرعيةِ في إبعادِ الخصامِ بين الورثةِ حَصْرَ المورِّثِ أثناءَ حياتِه تركتَه بالبيانِ المفصَّلِ، وإثباتَه الحقوقَ التي له وعليه، وتوثيقَها شرعاً، ومِن أهمِّ هذه الحقوقِ الديونُ، والأوقافُ، والوصايا، وإثباتَ نصيبِ شركائِه إنْ لم تُدَوَّنْ أسماؤهم في الأوراقِ الرسميةِ، وبيانَ حقوقِ الأولادِ الذين انفردوا بالعمل معه في تجارته، وليس في ذلك ما يُدْنِي الأجلَ، أو ينكِّدُ العيشَ. ومن تلك الهداياتِ حِرْصُ المورِّثِ على إغناءِ ورثتِه، كما قال النبيُّ ﷺ: "إنَّك إنْ تَذَرْ ورثتَك أغنياءَ، خيرٌ مِن أنْ تذرَهم عَالةً يتكَفَّفُونَ الناسَ" رواه البخاريُّ ومسلمٌ؛ وذلك يقضي بألّا يوصيَ في مالِه بما يُفْقِرُ ورثتَه، أو يؤخِّرُ قِسمةَ التركةِ بينهم. ومِن هنا كان من المستحسنِ للمورِّثِ إنْ أرادَ أن يوصيَ بشيءٍ بعد وفاتِه أن يجعلَه في شيءٍ مُفْرَزٍ محدَّدٍ، لا أنْ يكونَ مُشاعاً. وإن كان المورِّثُ ذا يسارٍ، وخشيَ مِن وقوعِ النزاعِ بين ورثتِه؛ فمن الأفضلِ أن يقسمَ تركتَه أثناءَ حياتِه، ويُبْقِيَ له ما يحتاجُ إليه، ويتوسعُ فيه.

أيُّها المسلمون!

وكما وجَّهتِ الشريعةُ الغراءُ المورِّثَ بما يكونُ فيه إقصاءُ النزاعِ بين الورثةِ؛ فكذلك أوصتِ الورثةَ؛ فإنّ عليهم واجباً عظيماً في حفظِ حقِّ الرحمِ بينهم؛ ولئن كان لهم حقٌّ في التركةِ؛ فإنَّ عليهم حقاً قد يعظمُ عن حقِّهم في الميراثِ؛ وذلك بألا تكونَ هذه التركةُ سبباً للشحناءِ والقطعيةِ بينهم. ومن توجيهاتِ الشريعةِ في ذلك إشعارُهم بوشيجةِ الرحمِ، وخَطَرِ قطيعتِها التي كثيراً ما يُفْضي إليها نزاعُ الميراثِ، وأنْ يُفصحَ كلٌّ منهم عمّا في ذمتِه من أموالِ المورِّثِ دون

كتمانٍ أو بخسٍ، وأن يأخذوا بالسماحةِ في تحصيلِ الحقوقِ، كما قال النبيُّ ﷺ: "رَحِمَ اللهُ رجلاً سَمْحاً إذا باعَ، وإذا اشترى، وإذا اقتضى" رواه البخاريُّ. ومِن غالبِ شأنِ تلك الرحمةِ التي دعا النبيُّ ﷺ لصاحبِها بها أن يُنْزِلَ اللهُ البركةَ للوارثِ السَّمْحِ في قَسْمِه؛ والواقعُ شاهدٌ بذلك. وتعجيلُ قسمةِ التركةِ بعد وفاءِ الديونِ وإخراجِ الوصيةِ —إن وجدتْ- ممّا يُجَنِّبُ الورثةَ النزاعَ، فإنْ قُسِمَتْ بالرضا والاختيارِ بينهم فذلك خيرٌ دون ضغطٍ على بعضِ الورثةِ أو إحراجٍ، وإلا فليبادرِ الورثةُ أو بعضُهم بالتقديمِ على القضاءِ طَلَباً لقسمةِ التركةِ إجباراً، وليس في ذلك غضاضةٌ على أحدٍ منهم، بل اللائمةُ تلحقُهم حين يُحْجِمُون عنِ القسمةِ مجاملةً أو خَجَلاً وقلوبُهم بالشحناءِ مملوءةٌ على بعضِهم. وإنْ كان مِن الورثةِ مَن ائْتَمَنَه الورثةُ أو مورِّثُهم، أو كان مُطاعاً نافذَ الكلمةِ فيهم؛ فالواجبُ عليه أكبرُ؛ فلا يستغلَّ ذلك في الضغطِ عليهم وإحراجِهم بما فيه ظلمٌ لهم، كالتنازلِ عن حصصِهم، أو إجبارِهم على اختيارِ ما لا يرضونَه منها، أو جعلِ التركةِ شركةً عائليةً بينهم. وإن رأى الورثةُ الأصلحَ في جعْلِ ميراثِهم شركةً عائليةً؛ فليُحْتَطْ في توثيقِها، وبيانِ أعمالِها، وتسهيلِ اطلاعِ الوارثِ الشريكِ على ذلك، وتمكينِه من مراجعةِ حساباتِها متى شاءَ، وتدوينِ ذلك في عقد التأسيس، وإلا فمصيرُها إلى النزاعِ غالبٌ كما هو الواقعُ —وللأسف!-. وعلى الورثةِ المبادرةُ بقسمةِ التركةِ الجَلِيِّةِ الثابتةِ التي ليس فيها نزاعٌ، وتأجيلُ ما لم يَثْبُتْ أو ما فيه نزاعٌ بعد قسمةِ المتفقِ عليه؛ إذ إنَّ مِن أبرزِ أسبابِ تأخُّرِ قسمةِ الميراثِ جعلَه جملةً واحدةً دون فصْلٍ بين ما هو ثابتٌ متفقٌ عليه وغيرُ ثابتٍ أو مختلفٌ فيه.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أما بعدُ، فاعلموا أنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيُّها المؤمنون!

ولأنَّ المجتمعَ المسلمَ في الشعورِ كالجسدِ الواحدِ؛ فإنَّ عليه مسؤوليةً في علاجِ نزاعِ الورثةِ. وعلى أهلِ العلمِ في ذلك واجبٌ ومسؤوليةٌ؛ وذلك مِن خلالِ تبيينِ أحكامِ الميراثِ للناس، وتذكيرِهم بالعقوبةِ الشديدةِ المترتبةِ على تعدي حدودِ اللهِ في تلك المواريثِ، كحرمانِ النساءِ من الإرثِ أو بعضِه، وأكلِ مالِ اليتيمِ، والإرشادِ إلى الطرقِ المُثلى في قسمةِ الإرثِ ومعالجةِ إشكالاتِه. والمبادرةُ بالإصلاحِ بين الورثةِ حالَ نزاعِهم، وتكرارُ عَرْضِ الصلحِ بينهم، والصبرُ على نَزَقِهم ونِفَارِهم مِن واجبِ عقلاءِ العوائلِ ومؤسساتِ المجتمعِ. وتسهيلُ إجراءاتِ التقاضي في قضايا المواريثِ أمامَ المحاكمِ، وتسريعُها، وترشيدُها له أكبرُ الأثرِ في إنجازِ قسمةِ التركاتِ وتقليلِ أَمَدِ النزاعِ بين الورثةِ. وعلى مؤسساتِ المجتمعِ وأفرادِه الوقوفُ مع الضعيفِ من الورثةِ حتى يستوفيَ حقَّه، سيّما إن كان المتحكِّمُ في التركةِ ظالماً أو مراوغاً؛ فلا قَدَاسَةَ لأُمَّةٍ لا يؤخذُ لِضعيفِها الحقُّ من قَوِيِّها. وعلى وكلاءِ الورثةِ —خاصةً المحامينَ- مسؤوليةٌ عظيمةٌ في تقريبِ وجهاتِ النظرِ ورَأْبِ صدعِ الشقاقِ بين الورثةِ إنْ وَقَعَ، وألَّا يَحْمِلَنَّهم حبُّ المالِ على إعانةِ الظالمِ وكتمانِ الحقِّ ورفضِ

الصلحِ العادلِ وإطالةِ مدةِ النزاعِ وتوسيعِ هُوَّتِه والإشقاقِ على الورثةِ؛ فإنَّ بركةَ الأجرِ الربانيِّ العظيمِ بالإسهامِ في الإصلاحِ وإبقاءِ الألفةِ بين الورثةِ وإزالةِ الشوائبِ منها وتقليصِ النزاعِ لا تُقارنُ بالمالِ وإنْ كَثُرَ. قال اللهُ -تعالى-: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

المالُ الحرامُ

إنَّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مضلّ له، ومَن يضللْ فلا هاديَ له،وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ ...﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ... ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ... ﴾

أيُّها المؤمنون!

إنّ من خصالِ النفسِ كَلَفَها بما جُبلتْ على محبتِه، وشدةَ تمسُّكِها به. ومن شأنِ ذلك عَماها عن رؤيةِ معائبِه، وصمُّها عن سماعِ قبائحِه، كما قال أبو الدَّرداءِ — رضيَ اللهُ عنه -: "حُبّك الشيءَ يعمي ويصم". والمالُ ممّا جُبلتِ النفوسُ على حبِّه، كما قال اللهُ — تعالى -: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾؛ لذا كان لها فتنةً كما قال اللهُ — تعالى -: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، بل هو من أمَضِّ الفتنِ الواقعةِ على أمةِ محمدٍ ﷺ، يقولُ النبيُّ ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً، وَفِتْنَةُ أُمَّتِي المَالُ» رواه أحمدُ وصحّحه ابنُ حبّانَ. هذا، وإنَّ أخطرَ فِتَنِه على النفوسِ جَرْؤها على تقحُّمِ سُحْتِه، ولجُّها في درَكاتِه، سِيّما إن سال وادي الحرامِ وفاض وُرّادُه، وشحَّ قَطْرُ الحلالِ وانقلصَ رُوّادُه.

عبادَ اللهِ!

إنَّ حُرمـةَ المـالِ تكمُـنُ في كلِّ مـا يُكسـبُ بطريـقٍ غيـرِ مشـروعٍ، سـواءً كان الحـرامُ أصيـلاً في ذلـك الكسـبِ كبيـعِ المُسكراتِ، وآلاتِ اللهـوِ، وأطبـاقِ الرذيلـةِ، وروايـاتِ العُهـرِ،أو كان الحـرامُ محتفًّـا بسببِ ذلـك الكسـبِ، كالسـرقةِ، والغَصْـبِ، والرِّبـا، والرِّشـوةِ، وسـؤالِ النـاسِ تكثُـراً، وتأجيـرِ العقـارِ علـى محـالّ معاقـرةِ الحـرامِ أو بيعِـه، والكـذبِ والخـداعِ في التعامُـلِ المالـيِّ، والإخـلالِ بواجـبِ الوظيفـةِ. ولَعَمـرُ اللهِ! لَخطرُ ذلـك الكسـبِ مـن ألْـزمِ مـا ينبغـي للمـرءِ استحضارُه واستشـعارُه؛ فالمـالُ الحـرامُ مفسـدٌ للصالحـاتِ ومانـعٌ مـن قَبولِهـا، يقـولُ النبـيُّ ﷺ: "إنَّ اللهَ طيـبٌ؛ لا يقبـلُ إلا طيبـاً" رواه مسـلمٌ. قـال أهـلُ العلـمِ: "وَفِـي هَـذَا الْحَدِيـثِ إِشَـارَةٌ إِلَـى أَنَّـهُ لَا يَقْبَـلُ الْعَمَـلُ وَلَا يَزْكُـو إِلَّا بِـأَكْلِ الْحَـلَالِ، وَأَنَّ أَكْلَ الْحَـرَامِ يُفْسِدُ الْعَمَلَ، وَيَمْنَعُ قَبُولَـهُ "، قَـالَ وَهْـبُ بْـنُ الْـوَرْدِ: "لَـوْ قُمْـتَ مَقَـامَ هَـذِهِ السَّـارِيَةِ لَـمْ يَنْفَعْـكَ شَـيْءٌ حَتَّـى تَنْظُـرَ مَـا يَدْخُـلُ بُطْنَـكَ حَـلَالٌ أَوْ حَـرَامٌ". وصدقـةُ المـالِ الحـرامِ مـردودةٌ وإنْ تصـدقَ بـه صاحبُـه كلِّـه، يقـول النبـيُّ ﷺ: "مَـن جمـعَ مـالاً حرامـاً ثـم تصـدَّقَ بـه لـم يكـنْ لـه فيـه أجـرٌ، وكان إصـرُه عليـه" رواه ابـنُ خُزيمَـةَ وصحّحـه الحاكـمُ وحسّـنه الألبـانيُّ، وقـال سـفيانُ الثـوريُّ: "مَـن أنفـقَ الحـرامَ في الطَّاعـةِ فهـو كَمَـن طهّـر الثـوبَ بالبَـولِ، والثـوبُ لا يُطهَّـرُ إلا بالمـاءِ، والذنـبُ لا يكفـرُه إلا الحـلالُ". والمـالُ الحـرامُ مانـعٌ مـن إجابـةِ الدعـاءِ وإن جيءَ بأسبابِ الإجابةِ؛ فقـد ذكـر النبـيُّ ﷺ الرَّجُـلَ يُطِيـلُ السَّـفَرَ: أَشْـعَثَ أَغْبَـرَ، يَمُـدُّ يَدَيْـهِ إِلَـى السَّـمَاءِ: يَـا رَبِّ يَـا رَبِّ، وَمَطْعَمُـهُ حَـرَامٌ، وَمَشْـرَبُهُ حَـرَامٌ، وَمَلْبَسُـهُ حَـرَامٌ، وَغُـذِّيَ بِالْحَـرَامِ، فَأَنَّـى يُسْـتَجَابُ لِذَلِـكَ؟». رَوَاهُ مُسْـلِمٌ. والبركـةُ ممحوقـةٌ

من ذلك المالِ؛ لذا فإنَّ صاحبَه لا يشبعُ وإن أثْرى؛ فبريقُ الحرامِ يستهْويهِ، وحلاوةُ طعمِه تُغريه، فلا يُرى عن غيّه نازعاً إلا إنْ رحمَه اللهُ، يقولُ النبيُّ ﷺ: " مَنْ يَأْخُذْ مَالًا بِحَقِّهِ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ يَأْخُذْ مَالًا بِغَيْرِ حَقِّهِ فَمَثَلُهُ، كَمَثَلِ الَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ" رواه مسلمٌ.

أيُّها المؤمنونَ!

إنَّ سؤالَ المالِ في الآخرةِ لازمٌ كلَّ عبدٍ، يقولُ الرسولُ ﷺ: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ» رواه الترمذيُّ وقال: حسنٌ صحيحٌ. وعذابُ الآخرةِ من شؤمِ حُرمةِ المالِ على صاحبِه؛ إذْ لم يؤدِّ حقَّه، يقولُ النبيُّ ﷺ: "مَنْ كَانَ لَهُ مَالٌ فَلَمْ يُؤَدِّ حَقَّهُ، جُعِلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعاً (ذكرُ الحيّات) أَقْرَعَ (ذَهَبَ شَعْرُ رَأْسِهِ مِنَ السُّم)، لِفِيهِ زَبِيبَتَانِ، يَتْبَعُهُ حَتَّى يَضَعَ يَدَهُ فِي فِيهِ، فَلَا يَزَالُ يَقْضِمُهَا حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ" رواه أحمدُ وهو حديثٌ حسنٌ. وأكلُ الحرامِ ونماءُ الجسدِ به ممّا يمنعُ دخولَ الجنةِ ويهدي إلى النارِ، يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: «يَا كَعْبَ بْنَ عُجْرَةَ، إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ لَحْمٌ وَدَمٌ نَبَتَا عَلَى سُحْتٍ؛ النَّارُ أَوْلَى بِهِ، يَا كَعْبَ بْنَ عُجْرَةَ، النَّاسُ غَادِيَانِ: فَغَادٍ فِي فَكَاكِ نَفْسِهِ فَمُعْتِقُهَا، وَغَادٍ مُوبِقُهَا» رواه ابنُ حبانَ وصحّحه الألبانيُّ لغيره. إن آكلَ الحرامِ مطرودٌ من خيرِ اللهِ، ألا ترَوْن أنّ الجُنُبَ ممنوعٌ من دخولِ بيتِ اللهِ، والمُحدثَ محرّمٌ عليه مسُّ كتابِه، مع أنّ الجنابةَ والحدثَ أثران مباحان، فكيف بمَن هو منغمسٌ في قذَرِ الحرامِ؟! وقد كان من عادةِ

نساءِ السّلفِ الصالحاتِ إذا خرجَ الرجلُ من منزلِه طالبـًا الرزقَ تقولُ له امرأتُه أو ابنتُه: "إياكَ وكسبَ الحرامِ! فإنّا نصبرُ على الجوعِ والضرِّ، ولا نصبرُ على النارِ". وتزدادُ خطورةُ الحرامِ إنْ كان أكلاً لحقّ ضعيفٍ أو خيانةً لمالٍ استُرعِي على حفظِه، يقولُ اللهُ — تعالى — : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾، ويقولُ النبيُّ ﷺ: «إِنَّ رِجَالًا يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللهِ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ القِيَامَةِ» رواه البخاريُّ. كَانَ مُعَيْقِيبٌ عَلَى بَيْتِ مَالِ عُمَرَ، فَكَنَسَ بَيْتَ الْمَالِ يَوْمًا، فَوَجَدَ فِيهِ دِرْهَمًا، فَدَفَعَهُ إِلَى ابْنٍ لِعُمَرَ، قَالَ مُعَيْقِيبٌ: ثُمَّ انْصَرَفْتُ إِلَى بَيْتِي، فَإِذَا رَسُولُ عُمَرَ قَدْ جَاءَنِي يَدْعُونِي، فَجِئْتُ، فَإِذَا الدِّرْهَمُ فِي يَدِهِ فَقَالَ لِي: «وَيْحَكَ يَا مُعَيْقِيبُ! أَوَجَدْتَ عَلِيَّ فِي نَفْسِكَ شَيْئًا؟» قَالَ: قُلْتُ: مَا ذَاكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: «أَرَدْتَ أَنْ تُخَاصِمَنِي أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي هَذَا الدِّرْهَمِ».

عبادَ اللهِ!

ما أخذَ العبدُ ما حُرِّمَ عليه إلا من جهتَيْنِ: إحداهما: سوءِ ظنِّه بربِّه، وأنّه لو أطاعَه وآثرَه لم يعطِه خيراً منه حلالاً، والثانيةِ: أن يكونَ عالمـًا بذلك، وأنَّ مَن ترك للهِ شيئـًا أعاضَه خيراً منه، ولكنْ تغلبُ شهوتُه صبرَه وهواه عقلَه؛ فالأولُ من ضعفِ علمِه، والثاني من ضعفِ عقلِه وبصيرتِه، ومَن كمُل له ذلك هانَ عليه تركُ الحرامِ. كَانَ لِأَبِي بَكْرٍ غُلَامٌ يُخْرِجُ لَهُ الخَرَاجَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يَأْكُلُ مِنْ خَرَاجِهِ، فَجَاءَ يَوْمًا بِشَيْءٍ فَأَكَلَ مِنْهُ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ لَهُ الغُلَامُ: أَتَدْرِي مَا هَذَا؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: كُنْتُ تَكَهَّنْتُ لِإِنْسَانٍ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَمَا

أُحْسِنُ الكِهَانَةَ، إِلَّا أَنِّي خَدَعْتُهُ، فَلَقِيَنِي فَأَعْطَانِي بِذَلِكَ، فَهَذَا الَّذِي أَكَلْتَ مِنْهُ، فَأَدْخَلَ أَبُو بَكْرٍ يَدَهُ، فَقَاءَ كُلَّ شَيْءٍ فِي بَطْنِه. رواه البخاريُّ. وكَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَقْسِمُ تُفَّاحًا بَيْنَ النَّاسِ، فَجَاءَ ابْنٌ لَهُ وَأَخَذَ تُفَّاحَةً مِنْ ذَلِكَ التُّفَّاحِ، فَوَثَبَ إِلَيْهِ فَفَكَّ يَدَهُ فَأَخَذَ تِلْكَ التُّفَّاحَةَ فَطَرَحَهَا فِي التُّفَّاحِ، فَذَهَبَ الابنُ إِلَى أُمِّهِ مُسْتَغِيثًا فَقَالَتْ لَهُ: مَالَكَ أَيْ بُنَيَّ؟ فَأَخْبَرَهَا، فَأَرْسَلَتْ بِدِرْهَمَيْنِ فَاشْتَرَتْ تُفَّاحًا، فَأَكَلَتْ وَأَطْعَمَتْهُ، وَرَفَعَتْ لِعُمَرَ، فَلَمَّا فَرَغَ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ دَخَلَ إِلَيْهَا، فَأَخْرَجَتْ لَهُ طَبَقًا مِنْ تُفَّاحٍ، فَقَالَ: «مِنْ أَيْنَ هَذَا يَا فَاطِمَةُ؟» فَأَخْبَرَتْهُ فَقَالَ: «رَحِمَكِ اللهُ، وَاللهِ إِنْ كُنْتُ لَأَشْتَهِيهِ». وطلب حاملاً لمصحفِه، فأُتي برحْلٍ فأعجبَه، فقال: من أين أصبتُموه؟ فقيلَ: عُمِلَ من خشبةٍ وُجدتْ في بعضِ الخزائنِ، قال: قوِّموه في السوقِ، فقوِّم بنصفِ دينارٍ، فقال: ضَعوا في بيتِ المالِ ديناراً، فقيل: لم يقوَّمْ إلا بنصفِ دينارٍ، فقال: ضعُوا في بيتِ المالِ دينارَيْنِ. وتركَ محمدُ بنُ سيرينَ ربحَ أربعينَ ألفاً في شيءٍ دخلَه. وذكر الْعَبَّاسُ بْنُ سَهْمٍ: «أَنَّ امْرَأَةً مِنَ الصَّالِحَاتِ أَتَاهَا نَعْيُ زَوْجِهَا وَهِيَ تَعْجِنُ، فَرَفَعَتْ يَدَيْهَا مِنَ الْعَجِينِ، وَقَالَتْ: هَذَا طَعَامٌ قَدْ صَارَ لَنَا فِيهِ شَرِيكٌ».

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.

وبعدُ، فاعلموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنون!

إنّ عِصمةَ اللهِ عبدَه من أكلِ الحرامِ من سوابغِ النِّعمِ التي تخفُّ بها التبِعةُ، وتُبارَكُ بها الحسنةُ، وتحسُنُ بها الخاتمةُ، ويسْلَمُ بها الدينُ. قال شعيبُ بنُ حربٍ: "لا تُحقِّرنّ فلساً تطيعُ اللهَ في كسبِه، ليس الفلسُ يُرادُ؛ إنّما الطاعةُ تُرادُ، عسى أن تشتريَ به بَقلاً فلا يستقرُّ في جوفِك حتى يُغفرَ لك"، وقال عبدُ اللهِ بنُ المبارَكِ: "لئنْ أرُدَّ درهماً من شُبهةٍ أحبُّ إليّ من أن أتصدقَ بستِمائةٍ"، ويقولُ سفيانُ الثوريُّ: «عَلَيْكَ بِالْوَرَعِ يُخَفِّفِ اللهُ حِسَابَكَ، وَدَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ، وَادْفَعِ الشَّكَّ بِالْيَقِينِ يَسْلَمْ لَكَ دِينُكَ». قال أحمدُ بنُ حفصٍ: دخلْتُ على أبي الحسنِ البخاريِّ عند موتِه فقال: "لا أعلمُ من مالي درهماً من حرامٍ، ولا درهماً من شبهةٍ".

أيُّها الإخوةُ!

وإنَّ من سبلِ تحصيلِ العِصمةِ من أكل الحرامِ ذكرَ حقارةِ الدنْيا وسرعةِ انقضائها، والتعوذَ باللهِ من فتْنتِها، وادِّكارَ دقةِ الحسابِ وشدتِه يومَ القيامةِ، والتحققَّ في المكاسبِ بالسؤالِ عند الجهلِ أو الاشتباهِ، وتركَ ما يُشتبَه في أمرِه.

يقولُ سفيانُ الثوريُّ: "انظرْ درهمَك؛ من أين هو؟ "، وقال أبو يوسفَ الغوليُّ: "ما زلتُ أتفقَّهُ في مطعمي منذ ستينَ سنةً"، و سَقَطَ مِنْ يَدِ كَهْمَس دِينَارٌ فَقَامَ يَطْلُبُهُ، فقِيلَ له: مَا تَطْلُبُ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ؟ قَالَ: «دِينَارًا سَقَطَ مِنِّي»، فَأَخَذُوا غُرْبَالًا فَغَرْبَلُوا التُّرَابَ فَوَجَدُوا دِينَارًا، فَأَبَى أَنْ يَأْخُذَهُ، وَقَالَ: « لَعَلَّهُ لَيْسَ دِينَارِي». وإنَّ أخذَ مالاً حراماً بادرَ بالتوبةِ التي من شروطِها ردُّ الحقوقِ إلى أهلِها، فإنْ لم يعرفْهم، أو كان ما أخذ منهم عِوضاً عن حرامٍ في ذاتِه تصدقَ بثمنِه في وجوهِ البِرِّ كما قررَ ذلك المحققونَ من أهلِ العلمِ.

الْمَالُ يَذْهَبُ حِلُّهُ وَحَرَامُهُ ... يَوْمًا وَتَبْقَى فِي غَدٍ آثَامُه
لَيْسَ التَّقِيُّ بِمُتَّقٍ لِإِلَهِه ... حَتَّى يَطِيبَ شَرَابُهُ وَطَعَامُه
وَيَطِيبَ مَا يَحْوِي وَيَكْسِبُ كَفُّهُ ... وَيَكُونَ فِي حُسْنِ الْحَدِيثِ كَلَامُه
نَطَقَ النَّبِيُّ لَنَا بِهِ عَنْ رَبِّهِ ... فَعَلَى النَّبِيِّ صَلَاتُهُ وَسَلَامُه

فقهُ الحاجةِ إلى الناسِ

إنَّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسنا وسيئاتِ أعمالِنا، من يهدِه الله فلا مضلَّ له، ومن يضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمَّا بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ...﴾

أيُّها المؤمنون!

تسخيرُ الخَلقِ لبعضِهم، وبثُّ حاجاتِهم بينهم سنَّةٌ ربانيَّةٌ تنطَوي على حِكَمٍ ومصالحَ لا تنتظِمُ الحياةُ إلا بها، كما أنَّها مُبتلَىً تُمتحَنُ عنده النفوسُ، كما قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾. ومن أشدِّ ابتلاءِ ذاكَ المحكِّ مُراعاةُ سُنَّةِ عزَّةِ الإيمانِ عند عُروضِ الحاجةِ للخَلقِ التي لا بُدَّ من وقوعِها وتكرُّرِها؛ إذْ قدرُ اللهِ الشرعيُّ في أهلِ الإيمانِ بقاؤهم أعزَّةً وإنْ بلغَتْ بهمُ الحاجةُ مَبلغَها، يقولُ اللهُ — عزَّ وجلَّ -: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

إنَّ احتِفاظَ المؤمنِ بخُلعةِ العزَّةِ وهو يخوضُ عَبابَ الحياةِ الماخرَ وأمواجُ حاجتِه للناسِ تطيفُ بمَرْكبِه وتدقُّ أنحاءَه باستمرارٍ، إن ذلك ليستدعِي منه تبصُّرَ المنهجِ الشرعيِّ في طلبِ الحاجةِ من الناسِ؛ لئلّا يُريقَ ماءَ عزِّهِ على عتَباتِ الخَلقِ المَهازيلِ سواءً أَعطُوه أو منعُوه، يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: "لا ينبَغي

للمؤمـنِ أن يُـذِلَّ نفسَـه" رواه الترمـذيُّ وصحَّحـهُ. بـل لربَّمـا كان ذلـك التعلُّـقُ بالمخلوقيـنَ سببـًا للخُـذلانِ والحرمـانِ والهـوانِ تجرِبـةً واسـتقراءً — كمـا قـال ابنُ القيـمِ -. بـل قـد يصـلُ بـه البـؤسُ إلـى قـاعِ الحـالِ حيـن يتنـازلُ عـن دينِـه ابتغـاءَ حصـولِ حاجتِـهِ! وكـمْ أفسـدَتِ الحاجـةُ مـن ديَانـةٍ؟!

عبادَ اللهِ!

ثَمَّـةَ معالـمُ شـرعيَّةٌ في التعامُـلِ مـع فتْنـةِ الحاجـةِ إلـى الخَلـقِ؛ يصـلُ بهـا العبـدُ إلـى بُغيتِـه وكِسـاءُ العـزِّ سـابغٌ عليـه وسَـنا بـرقِ دينِـه يُعجِـبُ الأبصـارَ. يـأتي في مُقدّمِ تلك المعالـمِ إنزالُ الحاجـةِ — أيّـًا كانـتْ - بـاللهِ القديرِ؛ وذلـكَ بالاعتِقـادِ الجازمِ ألّا قاضيَ لها إلا هـو سبحانَهُ؛ فلا مانعَ لِما أَعطَى، ولا مُعطيَ لما منعَ. كما أنَّ ذلكَ الإنْـزالَ يقضِي بقوّةِ التوكُّلِ على اللهِ وحسنِ الظنِّ بـهِ ورجاءِ فرَجِهِ ورحمتِـه، وعـدمِ الاسـتعجالِ والقُنـوطِ، وكذلـكَ يقضِـي بالإلحَـاحِ في الدعـاءِ وتجديـدِ التوبـةِ؛ للتَّخلُّـص مـن كلِّ ذنـبٍ مانـعٍ. إنَّ إنـزالَ الحاجـةِ بـاللهِ طريـقُ قضَائِها الذي لا يَخيبُ قاصدُه، يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: "من نزلـتْ به فاقةٌ فأنْزلَها بالنـاسِ لـم تُسـدَّ فاقتُـه، ومـن نزَلـتْ بـه فاقـةٌ فأنزلَهـا بـاللهِ فيوشِـكُ اللهُ لـه بـرزقٍ عاجـلٍ أو آجـلٍ" رواه الترمـذيُّ وقـال: حسـنٌ صحيـحٌ.

أيُّها المسلمونَ!

والاستِغناءُ عـن النـاسِ أصـلٌ شـرعيٌّ يقِـي مـن الاحتِيـاجِ إليهـم؛ وذلـكَ بـأنْ يلـزمَ المؤمـنُ عتبَـةَ القَناعـةِ، وألا يتطلَّـعَ لِمـا في أيـدي الخَلـقِ، كمـا أنَّ ذاكَ يُوجِـبُ

حُسنَ تدبيرِ المعيشَةِ والاقتِصادِ فيها، واتِّخاذِ التَّدابيرِ الوقائيَّةِ التي تمنعُ من عُروضِ الحاجَةِ؛ إذِ العُقلاءُ مجمِعونَ على أنَّ الاستِغناءَ عنِ الشيءِ أَوْلَى من الاستغناءِ به، وأنَّ دفعَ البلاءِ أهْونُ من رفعِه. وكلُّ ذلك من لوازمِ القَناعةِ التي هي أعظمُ كَنْزٍ يغتَني به المرْءُ، كما قال رسولُ اللهِ ﷺ: "ومَن يستعفَّ يُعفُّه اللهُ، ومَن يستغْنِ يغنِه اللهُ" رواه البخاريُّ.

عبادَ اللهِ!

ومُباشرةُ الأسبابِ المشروعةِ خاصّةً ما وردَ الشرعُ بذكرِه تحديداً نافعٌ في قضاءِ الحاجةِ، كما قال تعالى: ﴿فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾. والمؤمنُ حينَ يباشرُ الأسبابَ في قضاءِ حاجتِه إنَّما هو يلتمسُ فرَجَ اللهِ الذي أوْدعَه في هذه الأسبابِ، لا أنَّ الأسبابَ نافعةٌ بذاتِها. ومِثلُ هذا لا يمكنُ لجرَاثيمِ اليأسِ أن تقربَ من قلبِه فضلاً عن أن تتملَّكَه. وإن كان أحدٌ من الناسِ قد جعلَه اللهُ سبباً لقضاءِ حاجتِه فهو كغيرِه من الأسبابِ غيرَ أنَّه يُراعى معه أمورٌ ثلاثةٌ: الأوّلُ: الاقتصارُ على قدرِ الحاجةِ، كما أرشدَ النبيُّ ﷺ في قوْلِه: "«إنَّ المسائلَ كُدُوحٌ، يكدَحُ بها الرجلُ وجهَهُ، فمَن شاءَ كَدَحَ وجهَهُ، ومَن شاء ترَكَ إلا أنْ يسألَ الرجلُ ذا سُلطانٍ، أو شيئا لا يجدُ منه بُدّا» رواه النَّسائيُّ وصحَّحه الألبانيُّ. والثَّاني: عدمُ الإلحاحِ إلّا إنْ كانَ ما يطلبُه حقًا له؛ فإنَّ لِصاحبِ الحقّ مَقالاً، يقولُ النبيُّ ﷺ: «لا تُلحِفوا في المسألةِ، فَوَاللهِ، لا يسألُني أحدٌ منكم شيئا، فتَخرجَ له مسألتُه مني شيئا، وأنا له كارهٌ، فيبَارَكُ له فيما أعطيتُه» رواه مسلمٌ. والثالثُ: المُكافأةُ على المعروفِ، كما قال رسولُ

اللهِ ﷺ: "مَن صنعَ إليكم معروفا فكافئُوهُ، فإنْ لمْ تجِدوا ما تكافِئُونَه، فادعُوا له حتى ترَوْا أنَّكم قد كافأْتمُوه" رواه أبو داودَ وصحَّحه ابنُ حِبَّانَ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على رسولُ اللهِ.

وبعدُ، فاعلموا أنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيُّها المؤمنونَ!

إنَّ الأخذَ بالمنهجِ الشرعيِّ في التعامُلِ مع الحاجةِ إلى الناسِ مؤْذنٌ بثمارٍ يانعةٍ يجْنيها صاحبُ ذلك التعامُلِ. ومن تلكَ الثمارِ علوُّ المنْزلةِ عندَ اللهِ وعند الخَلْقِ، يقولُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيْميةَ: "فالربُّ - سبحانَه- أكرمُ ما تكونُ عليه أحوجَ ما تكونُ إليهِ وأفقرُ ما تكونُ إليه، والخلقُ أهونُ ما يكونُ عليهم أحوجَ ما يكونُ إليهم"، "فأعظمُ ما يكونُ العبدُ قدْراً وحُرْمةً عند الخلقِ إذا لمْ يحتَجْ إليهم بوَجهٍ من الوُجُوهِ، فإنْ أحسنْتَ إليهمْ مع الاستغناءِ عنهم؛ كنتَ أعظمَ ما يكونُ عندهم، ومتى احتجْتَ إليهم - ولو في شَرْبةِ ماءٍ - نقَصَ قدرُك عندهم بقَدْرِ حاجتِكَ إليهم، وهذا من حكمةِ اللهِ ورحمتِه؛ ليكونَ الدينُ كلُّه للهِ، ولا يُشرَكُ به شيءٌ". ومن تلك الثمارِ فتحُ بابِ الافتقارِ إلى اللهِ والاستِلذاذِ بمُناجاتِه، قال بعضُ السَّلفِ: يا بنَ آدمَ! لقد بُورِكَ لك في حاجةٍ أكثرْتَ فيها من قَرْعِ بابِ سيِّدِكَ، وقالَ بعضُ الشُّيوخِ: إنَّه لَيكونُ لي إلى اللهِ حاجةٌ فأدْعُوه فيَفتحُ لي من لذيذِ معرفتِه وحلاوةِ مُناجاتِه ما لا أحبُّ معه أنْ يُعجِّلَ قضاءَ حاجتِي؛ خشيةَ أنْ تنصَرفَ نفسِي عن ذلك؛ لأنَّ النفسَ لا تريدُ إلا حظَّها فإذا قضَى انصرفتْ. ومن تلكَ الثمارِ الحرِّيةُ وعزَّةُ النفسِ وغِنَاها، يقولُ شيْخُ

الإسلامِ: "كلَّما قَوِيَ طمَعُ العبدِ في فضلِ اللهِ ورحمتِه ورجائِه لقضاءِ حاجتِه ودفعِ ضَرُورتِه؛ قَوِيَتْ عُبُوديَّتُه له وحُرِّيَّتُه ممّا سِواهُ؛ فكما أنَّ طمَعَه في المخلوقِ يوجِبُ عُبودِيتَه له؛ فيأْسُه منه يُوجِب غِنى قلبِه عنه". كما أنَّ من تلكَ الثمارِ الراحةَ النَّفسيّةَ وحُسنَ الخُلقِ مع الخَلقِ والتماسَ المَعاذِرِ لهم، قال محمدُ بنُ واسعٍ لقُتيْبَةَ بنِ مسلمٍ: "إنِّي أتيتُكَ في حاجَةٍ رفعتُها إلى اللهِ قبلكَ،فإنْ يأذنِ اللهُ فيها قضيتَها وحمِدناكَ، وإنْ لم يأذنْ فيها لم تقضِها وعذَرْناكَ".

فقهُ الاستشارة

الحمدُ للهِ الذي هدَانا صراطاً مستقيماً، وحبَانا ديناً قويماً. لم يزَلْ بعبادِهِ رحيماً، وللسائلين كريماً. وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ لا شريكَ له؛ محبةً وتعظيماً. وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلى اللهُ عليه وعلى آلِه وصحبِه وسلمَ تسليماً.

أمّا بعدُ، فاتَّقوا اللهَ — عبادَ اللهِ -. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ... ﴾.

أيُّها المؤمنونَ!

من مُستحسَنِ الحزمِ الذي يكونُ به الظَّفَرُ والقرارُ النَّجيحُ، ويسلمُ به المرءُ من نَزَقِ ضَعْفِه البشريِّ وصلَفِ الرأيِ الأُحاديّ وبادِيهِ، طلبُ صائبِ الرأيِّ من أهلِه بالاستشارَةِ واختيارِ راجحِ الآراءِ. فما تلك الاستِشارةُ؟ وما ميزانُها الشرعيُّ؟ ومتى تكونُ؟ وما صفاتُ المُستشَارِ؟ وما العملُ عند تعدُّدِ الآراءِ؟ تسَاؤلاتٌ تقودُ إلى فقهٍ صحيحٍ لاستشَارةٍ راشدةٍ، وبناءِ موقفٍ سليمٍ.

الاستشَارةُ طلبٌ للرأيِّ من أهلِه، وتدقيقٌ في معاييرِ الاختيارِ عند التعارُضِ. ولها في الشرعِ المطهَّرِ منزلٌ سامٍ ووزنٌ رجيحٌ؛ فقد أثْنى المولَى على أهلِه، وبيّنَ أنَّها من أخصِّ صفاتِ أهلِ الإيمانِ، يقولُ اللهُ — تعالَى -: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا

غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾. ولِعظَمِ شأنِها أمَرَ اللهُ — سبحانَه — نبيَّه المعصومَ ﷺ فقالَ: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾. وقد امتثلَ ذلكَ الأمرَ في خاصَّةِ أمرِه وعامَّةِ أمرِ الأمَّةِ؛ حتى غدتْ شُوراهُ مَضرِبَ مَثلٍ في الكثرةِ. يقولُ أنسُ بنُ مالكٍ — رضيَ اللهُ عنه -: "ما رأيتُ أحداً أكثرَ مشاوَرةً لأصحابِه من رسولِ اللهِ ﷺ" (رواه البيْهقيُّ، وقال ابنُ حَجَرٍ: رجالُهُ ثِقاتٌ). وقد ورِث عنه أصحابُه تلك الغنيمةَ كابراً عن كابرٍ، قال ابنُ عبدِالبرِّ: "كان عمرُ بنُ الخطَّابِ — رضيَ اللهُ عنه- يسْتشِيرُ في الأمرِ، حتى إنْ كانَ ربَّما استشارَ المرأةَ؛ فأبْصرَ في رأيِّها فضلاً"، ولا غنىً لأعقلِ الألِبّاءِ عن فيضِ المشُورةِ.

أيُّها المسلمونَ!

بالشُّورى يُدرَكُ الصّوابُ والرُّشدُ، وتتَّضحُ الغوامضُ، وتُحلُّ العُقَدُ. يقولُ الحسنُ البصريُّ: "ما تشاوَر قومٌ إلا هُدوا لأرشدِ الأمورِ" . وقالَ عمرُ بنُ عبدِالعزيزِ: "إنَّ المشورةَ والمناظرَةَ بابَا رحمةٍ، ومِفتاحَا بركَةٍ؛ لا يضلُّ معهما رأيٌ، ولايُفقَدُ معهما عزمٌ". قيل لرجلٍ مِن بَني عبْسٍ: ما أكثرَ صوابَكم! فقال: نحنُ ألفٌ وفينا حازمٌ واحدٌ، ونحنُ نشاوِرُه ونطيعُه؛ فصِرنا ألفَ حازمٍ. وقال عمرُ بنُ الخطّابِ — رضيَ اللهُ عنه -: "الرأيُ الفردُ كالخيطِ السّحيلِ (غيرِ المُبرَمِ)، والرَّأيانِ كالخيطَينِ المبرمَينِ، والثلاثةُ مرارٌ (الحبلُ الذي أُجيدَ فتلُه)؛ لا يكادُ يُنقضُ".

إذا بلـغَ الـرأيُ النصيحةَ فاسـتعنْ ... بـرأيِ نصيـحٍ أو نصيحـةِ حـازمِ
ولا تحْسبِ الشّورى عليك غضاضَةً ... فـإنّ الخـوافيَ رافِـداتُ القَـوادمِ

عبادَ اللهِ!

بالشـورَى يدفـعُ الإنسـانُ عـن نفسِـه اللّائمـةَ وإنْ أخطـأَ؛ ولـذا قيـلَ: المشـورةُ حصـنٌ مـن النَّدامـةِ، وأمـانٌ مـن الملامَـةِ. وقـالَ عمـرُو بـنُ العـاصِ — رضـيَ اللهُ عنه -: "مـا نزلـتْ بي قـطُّ عظيمـةٌ فأبرمتُهـا حتى أشـاورَ عشْـرةً مـن قريشٍ مرتيْـنِ؛ فـإن أصبْـتُ كان لـيَ الحظُّ دونَهـم، وإن أخطـأتُ لـم أرجـعْ على نفسِـي بلائمـةٍ". والشـورَى رحمـةٌ تُطيِّـبُ نفسَ المُسْتشَـارِ، وتُذهِـبُ نفـارَه؛ ولـذا باتـتْ مـن سُـبلِ كسـبِ القلـوبِ التـي أمـرَ اللهُ بهـا نبيَّـه ﷺ بقولِـه: ﴿فَبِمَـا رَحۡمَـةٖ مِّـنَ ٱللَّهِ لِنـتَ لَهُـمۡۖ وَلَـوۡ كُنـتَ فَظًّـا غَلِيـظَ ٱلۡقَلۡـبِ لَٱنفَضُّـواْ مِـنۡ حَوۡلِـكَۖ فَٱعۡـفُ عَنۡهُـمۡ وَٱسۡـتَغۡفِرۡ لَهُـمۡ وَشَـاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡـرِۖ﴾. بـل رُبّمـا قلبـتِ الشـورَى حُـرَقَ الضغينـةِ وشـائجَ مـودّةٍ، يقـولُ معاويـةُ بـنُ أبـي سـفيانَ — رضـيَ اللهُ عنهُمـا -: «لقـد كنـتُ ألقَـى الرجـلَ مـن العـربِ، أعلـمُ أنَّ في قلبِـه علـيّ ضغنـاً، فأستشيرُه، فيثيرُ إلـيّ منه بقـدرِ مـا يجدُه في نفسِـه، فـلا يـزالُ يوسِـعُني شَـتماً وأُوسـعُه حِلمـاً حتـى يرجـعَ صديقـاً، أسـتعينُ بـه فيُعينُنـي، وأسـتنجدُه فينجـدُني». هكـذا كان قـدْرَ الشُّـورى في مِيـزانِ الشـرعِ والعقـلِ؛ ولـذا قـال ابـنُ عبدِالبَـرِّ: "الاسـتبدادُ مذمـومٌ عنـد جماعـةِ الحكَمـاءِ، والمشـورةُ محمـودةٌ عنـد العلمـاءِ، ولا أعلـمُ أحـداً رضـيَ الاسـتبدادَ وحمـدَه".

أيُّها المؤمنونَ!

إنَّ مِدحةَ الشُّورى ساريةٌ في كلِّ موضِعٍ، وتتأكدُ حالَ الجهلِ أو الاشتباهِ، ويزدادُ التأكُّدُ إن كانَ الأمرُ عظيماً كبيرَ الخطَرِ والمتعلَّقِ والمآلِ. ويُرعَى فيمَن يشاوَرُ أنْ يكونَ ذا عقلٍ وتجربةٍ؛ إذْ بكثرةِ التجارِبِ تصقلُ الفكرةُ وتتَّضحُ الرؤيةُ؛ ولذا قالتِ العربُ في مثَلِها السائرِ: "لا حكيمَ إلا ذو تجرِبةٍ"، "وكلُّ شيءٍ يحتاجُ إلى العقلِ، والعقلُ يحتاجُ التجارِبَ"، و"الأيامُ تهتكُ لك الأستارَ الكامنةَ". قال لقمانُ الحكيمُ لابنِه: "شاورْ مَن جرّبَ الأمورَ؛ فإنَّه يُعطيك مِن رأيِه ما قامَ عليه بالغلاءِ، وأنت تأخذُه مجاناً". ومِن هنا غدتْ شورى كبارِ السنِّ ذاتَ قيمةٍ، كما قالَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ — رضيَ اللهُ عنه -: "رأيُ الشيخِ خيرٌ من مشهدِ الغلامِ" والدِّيانةُ والتقوَى من خصالِ المستشارِ؛ لأمانِ سيرتِه، كما قالَ عمرُ بنُ الخطابِ — رضيَ اللهُ عنه -: "شاورْ في أمرِكَ مَن يخافُ اللهَ —عزَّ وجلَّ —". ومن صفاتِ المستشارِ النُّصحُ والمودةُ؛ فبالنصحِ تصدُقُ الفكرةُ، ويتمحَّضُ الرأيُ. قال حكيمٌ: إذا كنتَ مستشيراً فتوخَّ ذا الرأيِ والنصيحةِ؛ فإنَّه لا يُكتفَى برأيِ مَن لا ينصحُ، ولا نصيحةِ مَن لا رأيَ له. وقال آخرُ: لا تشاورْ إلا الحازمَ غيرَ الحسودِ، واللبيبَ غيرَ الحقودِ.

وأنفعُ مَن شاورتَ مَن كان ناصحاً ... شفيقاً فأبصرْ بعدها مَن تُشاورُ
وليس بشافيكَ الشفيقُ ورأيُه ... عزيبٌ ولا ذو الرأيِ والصَّدرُ واغرُ

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصّلاةُ والسّلامُ على رسولِ اللهِ.

وبعدُ، فاعلموا أنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيُّها المسلمونَ!

وحتى يُستدَرَّ الرأيُ المصيبُ من أهلِه فإنَّه لا بدّ من تحيُّنِ الوقتِ المناسبِ للاستشارةِ؛ فإنَّ مَن عارضتْ فكرَه شوائبُ الهمومِ لا يسلمُ له رأيٌ، ولا يستقيمُ له خاطرٌ. مرَّ حارثةُ بنُ زيدٍ بالأحنفِ بنِ قيسٍ، فقالَ: لولا أنَّك عجلانُ لشاورتُك في بعضِ الأمرِ، فقال الأحنفُ: يا حارثةُ! كانوا لا يشاورنَ الجائعَ حتى يشبعَ، والعطشانَ حتى ينقعَ (يُروى)، والأسيرَ حتى يُطلَق، والمضِلَّ (من ضاع له شيء) حتى يجدَ، والراغبَ حتى يُمنحَ. وليُحذَرْ مِن استشارةِ مَن له غرضٌ أو هوىً فيما يُستشَارُ فيه؛ فالهوى صادٌّ، والأغراضُ جاذبةٌ. والرأيُ إذا عارضَه هوىً، وجاذبتْه الأغراضُ؛ فسدَ.

أيُّها الإخوةُ في اللهِ!

ولعلَّ من أمثلِ طُرقِ ما تُطلَبُ به المشورةُ وتُعرَضُ: أن يسوقَ المستشيرُ للمستشارِ الأمرَ الذي يرغبُ الاستشارةَ فيه بتفاصيلِه المؤثِّرةِ بصيغةِ الاستفهامِ والاسترشادِ، دونَ إبداءِ رأيِه فيهِ، ويكونَ عرْضُ المستشارِ رأيَه بعدَ التأمُّلِ وتقليبِ النَّظرِ بصيغةٍ يُفهمُ منها الرأيُ ظنًا دونَ جزمٍ، كما قالَ الأحنفُ بنُ

قيسٍ: "اضربوا الرأيَ بعضَه ببعضٍ يتولّدْ منه الصَّوابُ، وتجنّبوا منه شدةَ الحزمِ، واتَّهموا عقولَكم؛ فإنَّ فيها نتائجَ الخطإ وذمَّ العاقبةِ". وبعد استتمامِ المستشيرِ الاستشارةَ، فإنَّه ينظرُ في نتائجِ الآراءِ؛ ليختارَ أقربَها للإصابةِ بتأمُلِ محاسنِ الرأيِ ومساويهِ وإجراءِ الموازنةِ بينها وفعلِ صلاةِ الاستخَارةِ. فإذا أتمَّ ذلك فقد استكملَ الأمرَ الشرعيَّ، وفعلَ ما أرشدَ اللهُ إليه في طلبِ الرأيِ الراشدِ. هكذا هو فقهُ الاستشارةِ. فما أحْرانا باتباعِه في عامِّ شأنِنا وخاصِّه؛ لنوفَّقَ إلى جادَّة الصوابِ، ونسلمَ من معرةِ اللائمةِ.

السلوكُ والأخلاقُ
والدعوةُ

ولا يستخفنك الذين لا يوقنون

الحمدُ للهِ الذي أحكمَ شرعَه، وأبرمَ قدرَه، وأنفذَ أمرَه. خلقَ فسوَّى، وقدّر فهدى. وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، صلى اللهُ عليه وعلى آلِه وصحبِه وسلمَ تسليمًا كثيرًا إلى يومِ الدينِ؛ أمَّا بعدُ:

فاتَّقوا اللهَ - عبادَ اللهِ -، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ... ﴾ [الحشر: 18].

أيُّها المؤمنونَ!

الوقارُ والرزانةُ من جمالِ حليةِ الإيمانِ التي يُكساها أهلُه الصادقون حين مازجتْ حياتَهم، واصطبغتْ بها أقوالُهم وأفعالُهم وأحوالُهم، من سكينةِ المشيِ على الأرضِ هَوْنًا، وغضِّ الصوتِ إلى ناصيةِ مَلْكِ النفْسِ عند سَوْرةِ الغضبِ، وعدمِ التبرُّمِ مما يقضيه اللهُ، والتسليمِ المطلقِ لأمرِه، والتصديقِ بخبرِه. وما كان ضياءُ تلك الحليةِ إلا قبَسًا من سَنا شمسِ السكينةِ والثباتِ التي وقرتْ في قلبِ ذاك المؤمنِ حين تأذّنَ اللهُ بنزولِها فيه؛ فسرى ضوؤها على الجوارحِ، فكان سائرًا إلى ربِّه على نورٍ وبصيرةٍ؛ بثقةِ التصديقِ بوعدِ اللهِ ووعيدِه، وطمأنينةِ الإيمانِ بالقدَرِ المكتوبِ، ورجاءِ العزاءِ في كلِّ مفقودٍ والجبْرِ مع كلِّ مُصابٍ، وانتظارِ حُسْنِ العاقبةِ وعِظَمِ الجزاءِ مع كلِّ ما يقضيه اللهُ له، وإدراكِ فداحةِ النَّزَقِ والاستجابةِ لرُعوناتِ النفْسِ واستخفافِ الذين لا

يوقنون، وتيقُّنِ حُسْنِ عُقبى الثباتِ على صراطِ اللهِ المستقيم في الدنيا والآخرةِ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: 91 - 22]، ويقولُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم: "عجبًا لأمْرِ المؤمنِ! إنَّ أمرَه كلَّه خيرٌ، وليس ذاك لأحدٍ إلا للمؤمنِ؛ إنْ أصابتْهُ سراءُ شَكَرَ؛ فكان خيرًا له، وإنْ أصابتْهُ ضراءُ صبرَ؛ فكان خيرًا له"؛ رواه مسلمٌ. وعلى حالِ الرزانةِ والوقارِ سار السلفُ الأخيارُ؛ فكان من بليغ وصْفِ أعرابيٍّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنَّه: "يَغلِبُ فَلَا يَبْطُرُ، ويُغلَبُ فَلَا يَضْجَرُ". وَبِهَذَا وَصَفَ كَعْبُ بنُ زُهَيْرٍ الصَّحَابَةَ الْمُهَاجِرين حَيْثُ قَالَ:

لَيْسُوا مفاريحَ إنْ نَالَتْ رماحُهمُ قومًا وَلَيْسوا مجازيعًا إذا نِيلوا

وَكَذَلِكَ قَالَ حسانُ بنُ ثَابتٍ فِي صفةِ الأنصارِ -رضيَ اللهُ عنهم جميعًا-:

لَا فَخْرَ إنْ همْ أصابوا مِن عدوِّهمُ وإنْ أُصيبوا فَلَا خَوَرٌ وَلَا هَلَعُ

فحالُ المؤمنِ البصيرِ في سَيْرِه الرَّزينِ كحالِ الماءِ في صَفْوِه جاريًا؛ يمشي بنفعِه رُويدًا على كلِّ ما يَمُرُّ عليه؛ إرواءً وتنقيةً، مُبصرًا درْبَه ومستقرَّه، وإنْ عاقَه شيءٌ تحاملَ حتى يَتخطَّاه، أو سلكَ دربًا آخرَ لِيصلَ إلى قرارِه الذي يكونُ به النفعُ والانتفاعُ.

أيها المسلمون!

إنَّ سَيْرَ الوقارِ الإيمانيِّ الدالِّ على قوةِ الاستمساكِ والثقةِ بسلامةِ الطريقِ إلى اللهِ -سيّما في أوقاتِ المحنِ- من أقوى وسائلِ تبليغ دينِ اللهِ للناسِ، وتحبيبِهم فيه، وتثبيتِهم عليه، والنكايةِ في أعدائه المتربصين؛ فكان نورًا يَفتحُ الأعينَ على صحةِ ما يحملُه أولئك الصادقون من دينٍ، وغدا مصدرَ جذْبٍ للناسِ للدخولِ في دينِ اللهِ حين رأوا ثباتَ أهلِه مُطَّرِدًا بحليةِ الوقارِ الصادقِ، كما دخل الناسُ أفواجًا إثْرَ رَقْبِهمُ الدقيقِ ثباتَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم وصحبِه الكرامِ -رضوانُ اللهِ عليهم- على منهجِ اللهِ مع طولِ الزمنِ وتقلُّبِ أحوالِ الدنيا عليهم والذي كان به تحوُّلُهم من حالِ الاستضعافِ إلى حالِ القوةِ والتمكينِ. وذلك ما جعل خصومَ دينِ اللهِ وأعداءَه يَسْلكون في سبيلِ الصدِّ عنه والفتِّ في عَضُدِ دعاتِه ما يستطيعون من مكرٍ تكادُ تزولُ من هَوْلِه الجبالُ. ومن أخطرِ تلك المكائدِ أسلوبُ الاستخفافِ الذي يَستفِزُّ به أهلُ الكفرِ أهلَ الإيمانِ؛ بتسليطِ ما يكونُ به تشكيكُهم في دينِهم وتخلِّيهم عنه، واحتقارُهم، والطعنُ في غاياتِهم، وإغراؤهم، وحملُهم على صدورِ الأفعالِ الطائشةِ منهم المجافيةِ لوقارِ الإيمانِ؛ بُغيةَ تشويهِ صورتِه الناصعةِ أمامَ الناسِ وإظهارِ أهلِه ودعاتِه بمظهرِ الشَّيْنِ المُنَفِّرِ عنهم وما يحملونَه من دينٍ ويدعون إليه من قيمٍ. وطالما نبّهَ القرآنُ على التحذيرِ من استخفافِ المبطلين، وألا يكونَ ذلك سببًا في تركِ الحقِّ أو الشكِّ فيه، أو يكونَ ذلك مثبِّطًا من المضيِّ في الدعوةِ إلى دينِ اللهِ القويمِ، أو حاملًا على صدورِ ما ينافي وقارَ الإيمانِ من خِفَّةٍ وجهلٍ واستعجالٍ واستغضابٍ وخنوعٍ وخوفٍ وبَغْيٍ؛ كما قال تعالى:

﴿وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: 60]؛ نهيًا عامًا يشملُ جميعَ أوجهِ الاستخفافِ والاستفزازِ، والذي كان ختْمُ سورةِ الرومِ به مناسِبًا لمطْلعِها المبدوءِ بوعدِ الغيبِ بانتصارِ الرومِ في بضعِ سنين، وكانت معطياتُه على الواقعِ لا تدلُّ عليه، فاتخذَه كفارُ قريشٍ تُكْأَةً في الطعنِ في دينِ اللهِ، وتكذيبِ وعدِهِ والاستخفافِ بتصديقِ المؤمنين ذلك الوعدَ، فكان أمرُ اللهِ غالبًا، وقدَرُه نافذًا، ووقعَ وعدُ اللهِ كما وعدَ، وفَرِحَ المؤمنون يومئذٍ بنصرِ اللهِ.

عبادَ اللهِ!

إنَّ شجرةَ الثباتِ على جادَّةِ الدينِ والتزيِّ بسِرْبالِ وقارِه إنما تَغتذي وتشتدُّ وتزدانُ بما يَمُدُّها من معينِ الصبرِ واليقينِ؛ تلكمُ العينانِ النَّضَّاختانِ قرينانِ متلازمانِ؛ لا يتصور انفكاك أحدهما عن قرينِه، قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ:"ولا يُمكنُ العبدَ أنْ يصبرَ إنْ لم يكنْ له ما يطمئنُّ به، ويتنعَّمُ به، ويَغتذي به؛ وهو اليقينُ"، "وعلى حسب اليقين بالمشروع يكون الصبر على المقدور". قال -تعالى-: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: 60]، قال ابنُ القيمِ: "فأمَرَه أنْ يَصبرَ، ولا يتشبهَ بالذين لا يقينَ عندهم في عدمِ الصبرِ، فإنهم لعدمِ يقينِهم عُدِمَ صبرُهم، وخَفُّوا واستخفُّوا قومَهم، ولو حصلَ لهم اليَقينُ والحقُّ لصبروا وما خَفُّوا ولا استخفُّوا. فمَن قلَّ يقينُه قلَّ صبرُه، ومَن قلَّ صبرُه خفَّ واستخفَّ؛ فالموقنُ الصابرُ رزينٌ؛ لأنه ذو لُبٍّ وعقلٍ، ومَن لا يقينَ له ولا صبرَ عنده خفيفٌ طائشٌ تلعبُ به الأهواءُ والشهواتُ كما تلعبُ الرياحُ بالشيءِ الخفيفِ "،" فَمَنْ وَفَّى الصَّبْرَ حَقَّهُ، وَتَيَقَّنَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ

حَقٌّ لَمْ يَسْتَفِزَّهُ الْمُبْطِلُونَ، وَلَمْ يَسْتَخِفَّهُ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ. وَمَتَى ضَعُفَ صَبْرُهُ وَيَقِينُهُ أَوْ كِلَاهُمَا اسْتَفَزَّهُ هَؤُلَاءِ وَاسْتَخَفَّهُ هَؤُلَاءِ، فَجَذَبُوهُ إِلَيْهِمْ بِحَسَبِ ضَعْفِ قُوَّةِ صَبْرِهِ وَيَقِينِهِ، فَكُلَّمَا ضَعُفَ ذَلِكَ مِنْهُ قَوِيَ جَذْبُهُمْ لَهُ، وَكُلَّمَا قَوِيَ صَبْرُهُ وَيَقِينُهُ قَوِيَ انْجِذَابُهُ مِنْهُمْ وَجَذْبُهُ لَهُمْ". إنه الصبرُ وسيلةُ المؤمنين في الطريقِ الطويلِ الشائكِ الذي قد يبدو أحيانًا بلا نهايةٍ! والثقةُ بوعدِ اللهِ الحقِّ، والثباتُ بلا قلقٍ ولا زعزعةٍ ولا حيرةٍ ولا شكوكٍ. الصبرُ والثقةُ والثباتُ على الرغمِ من اضطرابِ الآخرين، ومن تكذيبِهم للحقِّ وشكِّهم في وعدِ اللهِ؛ ذلك أنهم محجوبون عن العلمِ، محرومون من أسبابِ اليقينِ. فأما المؤمنون الواصلون الممسكون بحبلِ اللهِ فطريقُهم هو طريقُ الصبرِ والثقةِ واليقينِ، مهما يَطُلْ هذا الطريقُ، ومهما تحتجبْ نهايتُه وراءَ الضبابِ والغيومِ!

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ؛ أما بعدُ:

فاعلموا أنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيها المؤمنون!

إنَّ النهيَ الربانيَّ المؤكَّدَ لنبيه بعدمِ استخفافِ المبطلين له يُلقي بظلالِه على أتباعِه من أهلِ الإيمانِ بضرورةِ تيقُّظِهم حِيالَ ذلك الأسلوبِ الماكرِ، وأنهم مأمورون باقتفاءِ آثارِ نبيِّهم في التعاملِ مع استخفافِ الكافرين؛ وذلك بألا يزيدَهم ذلك الاستخفافُ إلا ثباتًا على الحقِّ؛ يقينًا به، وصبرًا عليه، ودعوةً إليه، وتواصيًا به، وتحليًا بوقارِه ورزانتِه، وأنْ يأخذوا بالأسبابِ التي تزيدُ من ذلك اليقينِ والصبرِ؛ من قوةِ الاستمساكِ بالقرآن العظيمِ؛ علمًا وعملًا وتلاوةً وتدبُّرًا؛ إذ هو مَنْجَمُ التثبيتِ، كما قال -تعالى-: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: 201]، ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: 34]. وأنْ يكونَ لهم وِرْدٌ مستمرٌّ من دعاءِ ربِّهم وسؤالِه الثباتَ حتى المماتِ، كما وصفَ اللهُ حالَ الثابتين وقولَهم في أعظمِ الأزماتِ إذ يقولُ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ

قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: 641 - 741]. وكان من دعاءِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم الذي كان يوصي باكتنازِه: "اللّهمّ إنّي أسألُك الثباتَ في الأمرِ، والعزيمةَ على الرُّشْدِ" رواه الترمذيُّ وصحَّحه ابنُ حبانَ. قال ابنُ القيمِ: "وهاتانِ الكلمتانِ هما جِماعُ الفلاحِ، وما أُتِيَ العبدُ إلا من تضييعِهما أو تضييعِ أحدِهما، فما أُتِيَ أحدٌ إلا من بابِ العجلةِ والطَّيشِ واستفزازِ البَدَواتِ له، أو من بابِ التهاونِ والتماوُت وتضييعِ الفرصةِ بعدَ مُواتاتِها، فإذا حصلَ الثباتُ أوَّلًا والعزمُ ثانيًا أفلحَ كلَّ الفلاحِ". ومطالعةُ سِيَرِ الراسخين الثابتين من الرسلِ -عليهم صلواتُ اللهِ وسلامُه- ومَن اقتفى آثارَهم، ورَقْبُ وقارِهم، والعيشُ مع حياتِهم وتخطِّيهم عقابيلَ الطريقِ أوتادٌ صمٌّ تُدَقُّ في سُلَّمِ الثباتِ وحليةٌ تُزيِّنُ جمالَ رزانتِه؛ فبها كان يُثبِّتُ اللهُ نبيَّه صلى الله عليه وسلم إذ يقولُ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: 021]، وبها كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يثبِّتُ أصحابَه الأطهارَ، قال خبَّابُ بْنُ الأرتِّ -رضي الله عنه-: شَكَوْنَا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وَهُوَ متوسِّد بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، فَقُلْنَا: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُو لَنَا؟ فَقَالَ: "قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ، يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللهِ ليتمَّنَّ هَذَا الْأَمْرُ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ، وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، ولكنكم تستعجلون" رواه البخاريُّ. قال بعضُ العلماءِ: "الحكاياتُ جندٌ من

جنودِ اللهِ يثبِّتُ بها قلوبَ أوليائه". وعبادةُ السرِّ السالمةُ من العُجْبِ حيث لا يراها إلا اللهُ مِن أعظم وسائلِ التثبيتِ، خاصةً صلاةَ التهجدِ في سُدْفةِ الليلِ البهيمِ؛ وذاك ما يُؤخذُ من هدايةِ فرْضِ قيام الليلِ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم حين أُمِرَ بالبلاغِ والدعوةِ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: 1 – 6]. واستحضارُ حقارةِ الدنيا وسرعةِ فنائِها وجزالةِ الآخرةِ ودوامِ بقائِها زادٌ للثباتِ عظيمٌ؛ فقد كان ذاك عزاءَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم لأصحابِه وتسليتَه لهم في ما يَعْرِضُ لهم من مشاقِّ البلاءِ وأليمِ استخفافِ المبطلين، فقد مَرَّ بِعَمَّارٍ وَأَهْلِهِ –رضيَ اللهُ عنهم– وَهُمْ يُعَذَّبُونَ، فَقَالَ: «أَبْشِرُوا آلَ عَمَّارٍ، وَآلَ يَاسِرٍ؛ فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْجَنَّةُ» رواه الحاكمُ وصحّحه على شرطِ مسلمٍ ووافقهُ الذهبيُّ. كما أن تلك الذكرى الدنيويةَ والأخرويةَ كنزٌ للتحلِّي بالخُلُقِ الزَّكيِّ الوقورِ، كما قال –تعالى–: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ [الحجر: 58].

كنْ كالجبالِ عن الإسلامِ لا تَحِدِ ... وغُذَّ سعيَك فالكُتّابُ بالرَّصدِ
ودعْ مَن اتّجهوا للزيغِ واتخذوا ... من الشياطينِ أصحابًا بلا رَشَدِ
المرجفون بدينِ اللهِ قد خسئوا ... والخائنون لهم حبلٌ من المَسَدِ
والثابتون لهم في الخُلْدِ منزلةٌ ... فكن مع اللهِ كي تَلقى ثوابَ غدِ

إصلاحُ ذاتِ البيْنِ

إنّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، من يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ ...﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ... ﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ... ﴾

أيُّها المؤمنونَ!

البنيانُ المرصوصُ والجسدُ الواحدُ ذو الأعضاءِ المتعاطفةِ تصويرٌ لحالِ المجتمعِ المسلمِ الذي أرادَهُ اللهُ وشرَعَه. ومِن شأنِ ذلكَ البنيانِ والجسدِ حصولُ التصدُّعِ، والنُّفرةِ بينَ بعضِ أعضائِه، وحصولُ التقاطعِ في أحايينَ قد تقلُّ أو تكثرُ حسبَ ابتعادِهم عن منهجِ الأُلفةِ والرّحمةِ ممَّا شرعَه اللهُ — تعالَى —، واتِّباعِهم لأهواءِ النفوسِ، وضَعفِها، ونزغاتِ الشيطانِ وحزبِه. وبعدَ ذلكَ تبقى مَهمةُ ترميمِ البناءِ ورأْبِ صدعِه وإصلاحِ ذاتِ البَيْنِ وتأليفِ أعضاءِ الجسدِ المُتشاكسينَ هي الواجبَ المحتّمَ، والوسيلةَ التي ترتقِي بالمجتمعِ للغايةِ المُرادةِ شرعًا، والوظيفةَ الساميةَ التي لا يُكرَمُ بها إلا الأخيارُ؛ فبها تُسلُّ السَّخائمُ، وتصفو القلوبُ، وتُخمَدُ نيرانُ الفتنِ بين الأفرادِ والجماعاتِ

والـدولِ؛ فكـمْ مـن بيـتٍ شـارفٍ منهـارٍ فأُنقِـذَ بمُصلـحٍ، وكـمْ مـن قطيعـةٍ قُطِعـتْ بمُصلـحٍ، وكـمْ مـن نفسٍ عُتِقَـتْ بمُصلـحٍ، وكـمْ مـن فتنـةٍ وُئـدتْ بمُصلـحٍ، وكـمْ مـن دمـاءٍ حُقنـتْ بمصلـحٍ، وكـم مـن حـقٍّ أُرجِـعَ بمُصلـحٍ، وكـمْ مـن حـربٍ قـد دُقّـتْ طبولُهـا فوُضِعـتْ أوزارُهـا بمصلـحٍ. وبـذا غـدا إصلاحُ ذاتِ البيْـنِ عمـاداً لا يرتفـعُ بنـاءُ المجتمـعِ إلا بـهِ، ولبنـةَ تأسـيسٍ لا يقـومُ إلا عليْهـا، روى أحمـدُ وابـنُ أبـي شـيْبةَ عـن ابـنِ عبّـاسٍ — رضـيَ اللهُ عنهمـا — أنّـه قـالَ: «كَتَـبَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ كِتَابًـا بَيْـنَ الْمُهَاجِرِيـنَ وَالْأَنْصَـارِ: أَنْ يَعْقِلُـوا مَعَاقِلَهُـمْ، وَأَنْ يُفْـدُوا عَانِيَهُـمْ بِالْمَعْـرُوفِ، وَالْإِصْـلَاحَ بَيْـنَ الْمُسْـلِمِينَ»، روى البيهقـيُّ في الشُّـعَبِ أنَّ عمـرَ ابـنَ الخطـابِ — رضـيَ اللهُ عنـه - لَمَّـا دَخَـلَ الشَّـامَ حَمِـدَ اللهَ وَأَثْنَـى عَلَيْـهِ وَوَعَـظَ وَذَكَّـرَ، وَأَمَـرَ بِالْمَعْـرُوفِ، وَنَهَـى عَـنِ الْمُنْكَـرِ، ثُـمَّ قَـالَ: "إِنَّ رَسُـولَ اللهِ ﷺ قَـامَ فِينَـا خَطِيبًـا كَقِيَامِـي فِيكُـمْ فَأَمَـرَ بِتَقْـوَى اللهِ وَصِلَـةِ الرَّحِـمِ وَصَـلَاحِ ذَاتِ الْبَيْـنِ...".

أيُّها المؤمنونَ!

إنَّ عمـلاً بهذه المثابـةِ لجديرٌ أنْ يكـونَ مـن خيـرِ الأعمـالِ وأبرِّهـا، يقـولُ رسـولُ اللهِ ﷺ: "مـا عَمِـلَ ابـنُ آدم شـيئًا أفضـلَ مـن الصـلاةِ، وصـلاحِ ذاتِ البيْـنِ، وخُلـقٍ حسـنٍ" رواه البخـاريُّ في تاريخِه وحسّنه السـيوطيُّ والألبـانيُّ. وأجرُ العمـلِ بمنزلتِه عند اللهِ؛ ولإصلاحِ ذاتِ البيْـنِ من ذلـكَ الخَلاقِ العريضِ، يقـولُ اللهُ — تعالـى-: ﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾. و تنكيـرُ الأجـرِ دَلالـةُ كثـرةٍ وتعظيـمٍ وإغـراءٍ وإنْ كانَ إصلاحـًا بيـن

أطفالٍ. ولا غَرْوَ في ذلكَ؛ فإصلاحُ ذاتِ البيْنِ أفضلُ الصدقاتِ، يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: "أفضلُ الصّدقةِ إصلاحُ ذاتِ البيْنِ" رواه البزّارُ والطبرانيُّ وحسَّنه المنذريُّ والألبانيُّ. وتلك الصدقةُ لا يُضاهيها تطوعٌ بصلاةٍ أو صيامٍ أو صدقةٍ ماليّةٍ مهما بلغتْ، يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ؟» قَالُوا: بَلَى، يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ. وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ الْحَالِقَةُ - أي: الخَصْلة الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَحْلِق الدِّينَ، أي: تُهْلِكُه وتَستأصِلُه كَمَا يَسْتَأصِلُ المُوسَى الشَّعَرَ - » رواه أبو داودَ وصحَّحه البزارُ. وظهورُ الإصلاحِ في المجتمعِ أَمَنَةٌ له من العذابِ، يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾، وحينَ أمطرتْ سماءُ العراقِ عامَ الجماعةِ سنةَ إحدى وأربعين للهجرةِ بالدمِ العبيطِ وارتعبَ الناسُ وظنُّوا القيامةَ قامتْ خطبَ فيهم عمرُو بنُ العاصِ — رضيَ اللهُ عنهُ — فقالَ: "أَيُّهَا النَّاسُ، أَصْلِحُوا مَا بَيْنَكُم، وَلاَ يَضُرُّكُم لَوِ اصْطَدَمَ هَذَانِ الجَبَلاَنِ". وإصلاحُ ذاتِ البيْنِ من لوازمِ الإيمانِ ومقتضياتِه، يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، قال ابنُ عبّاسٍ — رضيَ اللهُ عنهما -: "هَذَا تحريجٌ مِنَ اللهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ: أَنْ يَتَّقُوا اللهَ، وَأَنْ يُصْلحوا ذاتَ بينهم". وذلكَ الإصلاحُ من آثارِ الأُخوةِ وحقوقِها اللازمةِ، يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ﴾.

معشرَ المؤمنينَ!

ولِعظمِ فضيلةِ إصلاحِ ذاتِ البيْنِ وحسنِ أثرِه وعاقبتِه أُبيحَ لأجلِه بعضُ الحرامِ كالكذبِ، والنّميمةِ، وسؤالِ الناسِ المالَ، وتأخيرِ الصلاةِ. يقولُ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: «لَيْسَ الكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، فَيَنْمِي خَيْرًا، أَوْ يَقُولُ خَيْرًا» رواه البخاريُّ ومسلمٌ واللفظُ للبخاريِّ، تقولُ أمُّ كُلثومٍ بنتُ عقبةَ بنِ أبي مَعيطٍ — رضيَ اللهُ عنها -: "وَلَمْ أَسْمَعْ يُرَخَّصُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَقُولُ النَّاسُ كَذِبٌ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ: الْحَرْبُ، وَالْإِصْلَاحُ بَيْنَ النَّاسِ، وَحَدِيثُ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ وَحَدِيثُ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا" رواه مسلمٌ، قال ابنُ بابويهِ: " إنَّ اللهَ أحبَّ الكذبَ في الإصلاحِ، وأبغضَ الصدقَ في الإفسادِ". ويقولُ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: "إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدِ ثَلَاثَةٍ: رَجُلٍ تَحَمَّلَ حَمَالَةً؛ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا، ثُمَّ يُمْسِكُ..." رواه مسلمٌ. وقد خرجَ النبيُّ ﷺ بنفرٍ من أصحابِه للإصلاحِ بين أُناسٍ من بَني عَمرِو بنِ عوفٍ حتى صلى الناسُ عنه كما روَى البخاريُّ في صحيحِه. قال الأوزاعيُّ: "ما خُطوةٍ أحبُّ إلى اللهِ - عزَّ وجلَّ - من خُطوةِ إصلاحِ ذاتِ البيْنِ". وقالَ محمدُ بنُ كعبٍ القرظيُّ: "مَن أصلحَ بين قومٍ فهو كالمُجاهدِ في سبيلِ اللهِ". وقد باشرَ النبيُّ ﷺ الإصلاحَ بنفسِه حتى بين المماليكِ، فقد روى ابنُ عبَّاسٍ — رضيَ اللهُ عنهما -: أَنَّ زَوْجَ بَرِيرَةَ كَانَ عَبْدًا يُقَالُ لَهُ مُغِيثٌ، كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ يَطُوفُ خَلْفَهَا يَبْكِي وَدُمُوعُهُ تَسِيلُ عَلَى لِحْيَتِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعبَّاسٍ: «يَا عَبَّاسُ، أَلاَ تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثٍ بَرِيرَةَ، وَمِنْ بُغْضِ بَرِيرَةَ مُغِيثًا»، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَوْ رَاجَعْتِهِ»، قَالَتْ: يَا رَسُولَ

اللهِ، تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: «إِنَّمَا أَنَا أَشْفَعُ»، قَالَتْ: لاَ حَاجَةَ لِي فِيهِ. رواه البخاريُّ. فالخيرُ كامنٌ في الصلحِ ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ﴾ إنْ وُضِعَ مَوْضِعَه المبنيَّ على العلمِ والعدلِ، يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ ويقولُ الرسولُ ﷺ: «الصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، إِلَّا صُلْحًا حَرَّمَ حَلَالًا، أَوْ أَحَلَّ حَرَامًا» رواه الترمذيُّ وقال: حسنٌ صحيحٌ. فإنْ ندّ العدلُ أو العلمُ عن الصلحِ؛ فلا خيرَ فيه، بل هو فسادٌ وإفسادٌ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصّلاةُ والسّلامُ على رسولِ اللهِ.
وبعدُ، فاعلمُوا أنَّ أحسنَ الحديثِ...

عبادَ اللهِ!

إنَّ القيامَ بهذهِ الشعيرةِ العظيمةِ والمهمّةِ النبويّةِ سببٌ للفوزِ برضا اللهِ؛ ممّا يكونُ سبباً لوضْعِ القَبولِ لصاحبِها في الناسِ. فقد سُئلَ الشيخُ عبدُ العزيزِ بنُ بازٍ — رحمَه اللهُ - عن سببِ قَبولِ الناسِ له، فقالَ: ما أرجُوه من فضلِ اللهِ عليَّ: أنْ وهبَني صدراً سليماً على المسلمينَ، ومسارعةً بالإصلاحِ بين كلِّ متخاصميْنِ منهم مُذْ علمِي بخصومتِهم. والتشرّفُ بالسيرِ في ركابِ المصلحينَ يستدْعي ممَّن رَغبَ في الانضمامِ إليهم إلماماً بآدابِ الإصلاحِ، ومن أبرزِ تلكَ الآدابِ: صدقُ الإخلاصِ وابتغاءُ ثوابِ اللهِ بقطعِ دابرِ الشّحناءِ بين المؤمنينَ، وتلكَ الغايةُ السامقةُ لا تتوافقُ وجعلَ الإصلاحِ مصدرَ تكسُّبٍ ماليٍ وبناءِ علاقاتٍ وتسنّمِ جاهٍ وبَهرجِ إعلامٍ. فلَعَمرُ اللهِ! لَذلكمُ الصدقُ جادةُ التوفيقِ المنشودِ: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾. ومن الآدابِ: التوكّلُ على اللهِ، وحسنُ الظنِّ به، ولزومُ سؤالِه التوفيقَ، والفألُ بحلِّ القضيةِ، والاضطّلاعُ بالحِلمِ والأَناةِ وسعةِ النفَسِ والتروّي وحسنِ التثبُّتِ واحتمالِ الأذى وعدمِ اليأسِ. ومنها: التصورُ التامُّ للقضيَّةِ، والقدرةُ على الدخولِ فيها بالإصلاحِ، والاستعانةُ بالمُعينِ الراشدِ، وإعطاءُ الإصلاحِ الوقتَ الكافيَ ليخفَّ احتقانُ

النفوسِ وتُعْمَلَ العقولُ، والحكمةُ في التعامُلِ مع أطرافِ النِّزاعِ بالتَّوددُّدِ إليهم، والرفعِ من قيمتِهم، والانفرادُ بكل واحدٍ منهم، وحسنُ الإصغاءِ إليه، وعدمُ مقاطعةِ حديثِه، وتكرارُ الجلوسِ معه، والمحافظةُ على أسرارِه، وعدمُ الوقيعةِ في خصمِه، وتذكيرُه بحقِّ الأخوةِ بينهما، والعاقبةِ الحميدةِ للصّلحِ. فإنْ حصلَ له مُرادُه — وذلكَ هو الغالبُ -، وإلا فقد أدّى ما لزِمَه، ولا تثريبَ عليه.

وبعدُ — معشرَ الإخوانِ -، فإنَّ من مُستحسَنِ الرأيِ وسدادِ البصيرةِ الجِدَّ في إنشاءِ ورعايةِ مراكزَ إصلاحِ ذاتِ البيْنِ في دوائرِ المجتمعِ كبيرةً كانت أو صغيرةً: في المناطقِ، والمحافظاتِ، والمراكزِ، والأحياءِ، والقطاعاتِ الحكوميّةِ والأهليّةِ، ودُورِ التعليمِ، والعوائلِ، بل والمنازلِ؛ لتحفظَ البناءَ وتُقوّيَ دعائمَه، فليس إنشاءُ قسمٍ لصيانةِ المُعداتِ فيها بأوْلى من صيانةِ أُلفةِ القائمينَ عليها والمستفيدينَ منها.

سُمُوُّ الاعتذارِ

الحمدُ للهِ الرزاقِ، واهبِ العطاءِ ومُقَسِّمِ الأخلاقِ، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له العظيمُ الخلَّاقُ، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلى اللهُ وسلّمَ عليه وعلى آله وصحبِه إلى يومِ التَّلاقِ.

أما بعدُ، فاتقوا اللهَ –عبادَ اللهِ–، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ... ﴾.

أيُّها المؤمنون!

إنَّ من شأنِ الشريعةِ الربانيةِ رَعْيَ الفِطَرِ التي جُبِلَ عليها البَشَرُ، وتقويمَ مُعْوَجِّها، وتهذيبَ ما نَدَّ منها. والخطأُ على الغَيْرِ وانتقاصُ حقِّه من مُقتضى الطبيعةِ البشريةِ اللازمةِ؛ فجاءتِ الشريعةُ الغَرَّاءُ بِرَأْبِ ذلك الصَّدْعِ المؤثِّرِ في جدارِ الحقوقِ، وسدِّ ما انثلمَ منه، وتقويمِ خَلَلِه، وإكسابِ صاحبِه جَلالةً وتقديراً؛ بشرْعِ مبدإ الاعتذارِ السامي؛ فنِعْمَ البديلُ من الزّلةِ الاعتذارُ، قال إسحاقُ الموصليُّ: "كان يُقالُ: "الاعترافُ يَهْدِمُ الاقترافَ"، سواءً كان ذلك الخطأُ والتقصيرُ واقعاً في حقِّ اللهِ –جلَّ وعلا–، أو كان واقعاً في حقِّ الخلْقِ؛ فالاعتذارُ طريقُ المذنبِ في حقِّ اللهِ إلى الإنابةِ بإبداءِ التوبةِ؛ فهي أسمى صورِ الاعتذارِ، وأجلّها قدْراً عند اللهِ؛ حين يُقِرُّ العبدُ بزلله، ويندمُ عليه، ويُقْلِعُ عنه، ويَعزِمُ ألا يعودَ إليه؛ فيكونُ ذلك الاعتذارُ مِعْراجاً للفوزِ بمحبةِ اللهِ وفَرَحِه ومغفرتِه. قال ابنُ الجوزيِّ مُعَلِّقاً على قولِ النبيِّ ﷺ الذي رواه البخاريُ في

صحيحه: "قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْۚ﴾، فَبَدَّلُوا، فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ، وَقَالُوا: حَبَّةٌ فِي شَعَرَةٍ": "مَن تأملَ هذا الحديثَ عَلِمَ فَرْقَ ما بين أُمَّتِنا وبني إسرائيلَ، فإنَّ أولئك لما أذنبوا دُلُّوا على طريقِ التوبةِ وأَتَوْها متلاعبين بالدِّينِ، وهذا يدلُ على أنَّ الذنوبَ ما آلمتْهم، ولا دَخَلَ خوفُ الجزاءِ عليها في قلوبِهم، ولا اكْترثوا بالتحذيرِ من عواقبِها، ولا سُرُّوا بالدلالةِ على طريقِ النجاةِ من شرِّها. ومن كان تلاعبُه في أصْلِ دينِه ومع نبيِّه وفي بابِ توبتِه فهو في غايةِ البُعْدِ. وهذه الأُمّةُ إذا أذنبَ مُذِنبُهم انكسرَ وبكى واعتذرَ، ثمّ لا يزالُ يَنْصِبُ ذنبَه بين عينيه، ويَوَدُّ أنْ لو مُحِيَ بكلِّ ما يَقْدِرُ عليه، فالحمدُ للهِ الذي جعلنا من هذه الأمّةِ".

عبادَ اللهِ!

ولئن كان الاعتذارُ هو التعاملُ الأمثلُ مع خطإ العبدِ في حقِّ ربِّه؛ فكذلك هو التعاملُ الأمثلُ في خطئِه على الخلْق؛ بل هو ألزمُ؛ إذ حقوقُ اللهِ قائمةٌ على الكرمِ والمسامحةِ، وحقوقُ الخلْقِ قائمةٌ على المُشاحَّةِ والمطالَبةِ. وذاك ما يستدعي التحرُّزَ من فعْلِ ما يُوجبُ الاعتذارَ؛ بأنْ يَتبصَّرَ المرءُ موْضِعَ فعلِه وقولِه قبلَ أنْ يُوقِعَه ويُمْضيَه، خاصةً عندَ سَوْرَةِ الغضبِ؛ فهو قرينُ الزللِ الذي لا يَكادُ أنْ ينفكَّ عنه، قال أحدُ الحكماءِ: "أمْلكُ الناسِ جميعًا لنفسِه مَن استغنى عن الاعتذارِ عند سكونِ الغضبِ"؛ فليس لكلِّ خطأٍ عذرٌ، ولا كلُّ عذرٍ مقبولٌ، وليس كلُّ مَن يُعتذَرُ إليه يَقبلُ الاعتذارَ، وكثيراً ما يكتنِفُ الاعتذارَ سَوْءَةُ الكذبِ، كما قيل: "أمران لا يَسْلمان من الكذبِ: كثرةُ المواعيدِ، وشدةُ

الاعتذارِ"؛ فتركُ الذنبِ أيسرُ من التماسِ العُذْرِ، يقول النبيُّ ﷺ: "إياك وما يُعْتَذَرُ منه"، وفي روايةٍ: "انظرْ إلى ما تَعتذِرُ منه من القولِ والفعلِ؛ فاجتنبْهُ" رواه الطبرانيُّ وحسَّنه الألبانيُّ. ومع ذا فلا بُدَّ مِن بُدورِ الخطأِ، وليس ثمةَ مَخْرَجٌ منه إلا سبيلُ الاعتذارِ الذي يَحْمِلُ في معانيه العِظامِ ما يُسَهِّلُ على المخطئِ المبادرةَ بإبدائِه نحْوَ مَن أخطأَ عليه؛ كائناً مَن كان، كما تُرَغِّبُ تلك المعاني مَن وَقَعَ عليه الخطأُ بقبولِ الاعتذارِ وحَمْدِ فاعلِه. فالاعتذارُ سُمُوٌّ دالٌّ على ما قام في صاحبِه مِن تواضعٍ يَمْنعُه من السُّدُورِ في الخطأِ واحتقارِ الخلْقِ وردِّ الحقِّ؛ وكفى بالتواضعِ رفعةً إنْ كان للهِ! يقولُ النبيُّ ﷺ: "مَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ" رواه مسلمٌ. والاعتذارُ قوةٌ وشجاعةٌ في الانتصارِ على نفخةِ الشيطانِ وحظِّ النفسِ، سيّما إنْ وَقَعَ الخطأُ مِن ذي شأنٍ على مَن لا يُؤْبَهُ بشأنِه. وفي الاعتذارِ إظهارٌ لقيمةِ المرءِ وسُمُوٌّ نفسِه باحترامِه الحقَّ الذي فاقتْ رُتْبَتُه كلَّ رُتْبةٍ، كما أنَّ فيه إظهاراً لاحترامِ الآخرين وتنويهاً بشأنِهم الذي جاءَ الاعتذارُ جَبْراً لانتقاصِه بالزللِ، واستبقاءً لحبْلِ الوُدِّ الذي أَوْهَى فَتْلَه حَزُّ الخطأِ الحادِّ، وترطيباً ورَوَاءً ليَبْسِ الجَفاءِ الذي أَحْدَثَه وَقْعُ الزَّلةِ في أرضِ المحبةِ. ذُكِرَ مَرّةً في مجلسِ الوزيرِ العالمِ ابنِ هُبيرَةٍ قولٌ للإمامِ أحمدَ تفرَّدَ به عن الأئمةِ الثلاثةِ، فادّعى أَبُو محمدٍ الأشتريُّ أنها روايةٌ عن مالكٍ، ولم يوافقْه على ذلك أحدٌ، وأَحضرَ الوزيرُ كتبَ مفرداتِ أحمدَ، وهي منها، والمالكيُّ مُقيمٌ على دعواه، فقال له الوزيرُ: بهيمةٌ أنت؟! أما تسمعُ هؤلاء الأئمةَ يَشهدون بانفرادِ أحمدَ بها، والكتبَ المُصَنَّفةَ، وأنت تُنازِعُ؟! وتَفرَّقَ المجلسُ، فلما كان المجلسُ الثاني، واجتمع الخلْقُ للسماعِ أَخذَ القارئُ في

القـراءةِ، فمَنَعَـه الوزيـرُ، وقـال: قـد كان الفقيـهُ أَبُـو محمـدٍ جَرِيئًـا في مسـألةِ أمـسِ على مـا يَليقُ بـه عـن العـدولِ عـن الأدبِ والانحـرافِ عـن نَهْـجِ النظـرِ حتـى قلـتُ تلـك الكلمـةَ، وهـا أنـا فليقـلْ لـي كمـا قلـتُ لـه؛ فلسـتُ بخيـرٍ منكـم، ولا أنـا إلا كأحدِكـم، فضـجَّ المجلـسُ بالبـكاءِ، وارتفعـتِ الأصـواتُ بالدعـاءِ والثنـاءِ، وأَخـذَ الأشـتريُّ يَعتـذرُ، ويقـولُ: أنـا المذنـبُ، والأَوْلـى بالاعتـذارِ مِـن مولانـا الوزيـرِ، والوزيـرُ يقـولُ: القِصـاصَ، القصـاصَ، فقـالَ أحـدُ العلمـاءِ الحاضريـن: يـا مولانـا، إذا أبـى القصـاصَ فالفـداءَ، فقـال الوزيـرُ: لـه حكمُـه، فقـال الأشـتريُّ: نِعَمُـك علـيَّ كثيـرةٌ، فـأيُّ حُكـمٍ بقـيَ لـي؟! فقـالَ: قـد جعـلَ اللهُ لـك الحكـمَ علينـا بمـا أَلجأْتَنـا بـه إلـى الافتيـاتِ عليـك، فقـال: علـيَّ بقيـةُ دَيْـنٍ منـذُ كنـتُ بالشـامِ، فقـال الوزيـرُ: يُعطَـى مائـةَ دينـارٍ لإبـراءِ ذمتِـه وذمتـي، فأُحضـرَ لـه مائـةٌ، فقـال لـه الوزيـرُ: عفـا اللهُ عنـك وعنـي! وغفـرَ لـك ولـي! وسَـحَابُ الاعتـذارِ وارِفٌ؛ عطـاؤه مبـاركٌ مِـدْرارٌ؛ سـريعـًا مـا يُثْمِـرُ إنْ هَمَـى علـى مَغـارسِ الوئـامِ؛ فتنبُـتُ مـن ثمـارِ الألفـةِ مـا يُبْهِـجُ القلـوبَ ويَسُـرُّ الناظريـن. وفي الاعتـذارِ طَلَـبُ السـلامةِ مـن رِبْقـةِ المظالـمِ، وصيانـةٌ لكنْـزِ الحسـناتِ مـن قِصـاصِ الإفـلاسِ يـومَ الدِّيـنِ. وإذا كان بلـغَ شـأنُ الاعتـذارِ في سـماءِ الحُسْـنِ عنـد اللهِ وعنـد خلْقِـه مبلـغَ الـذُّرَى؛ فـلا غَـرْوَ أنْ يعيـشَ صاحبُـه مُرْتـاحَ الضميـرِ، طيِّـبَ النفْـسِ، محمـودَ المُنْقلَـبِ، محبوبـًا عنـد اللهِ وعنـد خلْقِـه.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أما بعدُ، فاعلموا أنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيها المؤمنون!

وحتى يقعَ الاعتذارُ موْقعَ الحُسْنِ؛ فلا بدَّ من الإتيانِ بأدَبِه؛ وذلك بأنْ يُبادِرَ المعتذِرُ ببيانِ وجهِ عُذْرِه المقبولِ إنْ فُهِمَ من تصرفِه غيرُ ما أرادَ من الخيرِ، أو خَشِيَ أنْ يَقذفَ الشيطانُ بهذا التصرفِ في قلوبِ الناسِ نحوَه شراً؛ فرَحِمَ اللهُ مَن ردَّ عن نفسِه ظنَّ السَّوْءِ وقالتَه. وإنْ ظَهرَ الخطأُ في التصرفِ، أو لم يكنْ له فيه عذرٌ مقبولٌ؛ فليس ثمَّ إلا المبادرةُ بالاعترافِ الصادقِ بالزللِ وانعدامِ العُذْرِ، وطَلَبِ المسامحةِ؛ فماءُ الاعترافِ يمحو دَنَسَ الاقترافِ.

إذا كان وجهُ العذرِ ليس بواضحٍ فإنَّ اطِّراحَ العذرِ خيرٌ من العذرِ

والمبادرةُ بالاعتذارِ والاستسماحِ من قبيلِ المسارعةِ في الخيراتِ المأمورِ بها شرعاً والمتفَقِ على استحسانِها طَبْعاً. واختيارُ الأسلوبِ الأمثلِ في الاعتذارِ بحسْبِ ما يناسبُ الخطأَ ومن وقعَ عليه مما لا يَكْمُلُ ولا يَجْمُلُ الاعتذارُ إلا به؛ إذ جنايةُ العلنِ لا تُعالَجُ باعتذارِ السرِّ، والجنايةُ المتعديةُ لا يمسحُها إلا الاعتذارُ الذي يتعدَّى ويصلُ كلَّ مَن طالَه ضررُ الجنايةِ وإنْ تعدَّدُوا. وتمهيدُ لقاءِ المعتذِرِ بالمُعتذَرِ منه، وإلانةُ الحديثِ له مِن خيرِ ما تُسَلُّ به سَخِيمَةُ

قلبِه، قال ابنُ حزْمٍ: "اللِّقَاءُ يَذْهَبُ بالسخائمِ (أي: الضغائنِ)؛ فَكَأَنَّ نظرَ الْعينِ للعينِ يُصْلِحُ الْقُلُوبَ".

عبادَ اللهِ!

وكما أنَّ للاعتذارِ أَدَباً يَلْزَمُ المعتذِرَ؛ فإنَّ له أدباً ينبغي للمعتَذَرِ منه أنْ يراعيَه؛ وذلك أنْ يَبْذلَ وسْعَه في تلمُّسِ الأعذارِ لمن أخطأَ عليه؛ فذاك من استواءِ عقلِه وإراحةِ نفسِه، قال عمرُ — رضي اللهُ عنه-: "أعقلُ الناسِ أعذرُهم"، قال جعفرُ بنُ محمدٍ: "إذا بَلَغَك عن أخيك الشيءُ تُنْكِرُه؛ فالتمسْ له عذراً واحداً إلى سبعينَ عذراً، فإنْ أصبْتَه وإلا قُلْ: لعلَّ له عذراً لا أعرفُه".

تَأَنَّ ولا تَعْجَلْ بِلَوْمِكَ صاحِباً لَعَلَ لَهُ عُذْراً وأنْتَ تَلُومُ

وإنْ جاءه معتذِرٌ يوماً؛ فليقبلْ عذرَه وإن كان أعوجَ، دون مُحَاقَقَةٍ واستقصاءٍ؛ فذاك علامةُ رفعةٍ وسموٍ وكرمٍ وتواضعٍ، سيّما إنْ ضاقَ بالمعتذِرِ وجهُ العُذْرِ، قال حكيمٌ: "أوسعُ مَا يكونُ الْكَرِيمُ مغْفرَةً، إذا ضَاقَتْ بالمذنبِ المعذرةُ".

إذا اعتذرَ المسيءُ إليك يوماً من التقصيرِ عُذْرَ فتىً مُقِرِّ
فَصُنْهُ عن عتابِك واعفُ عنه فإنَّ العفوَ شيمةُ كلِّ حُرِّ

ويَعْظُمُ ذلك مع كلِّ ذي حقٍّ وفضلٍ، كالزوجِ، والقريبِ، والجارِ، والعالِمِ، يقولُ ابنُ القيمِ: "مَن أساءَ إليك، ثم جاءَ يعتذِرُ من إساءتِه؛ فإنَّ التواضعَ يوجبُ عليك قبولَ معذرتِه، حقاً كانت أو باطلاً، وتَكِلُ سريرتَه إلى اللهِ -تعالى-، كما

فعَلَ رسولُ اللهِ ﷺ في المنافقين الذين تخلَّفوا عنه في الغزوِ، فلما قَدِمَ جاؤوا يَعْتذرون إليه، فقَبِلَ أعذارَهم، ووَكَلَ سرائرَهم إلى اللهِ- تعالى-. وعلامةُ الكرمِ والتواضعِ: أنك إذا رأيتَ الخللَ في عذرِه لا توقِفُه عليه، ولا تحاجُّه، وقلْ: يمكنُ أنْ يكونَ الأمرُ كما تقولُ، ولو قُضِيَ شيءٌ لكان، والمقدورُ لا مَدْفَعَ له، ونحوَ ذلك".

إِذَا اعْتَذَرَ الْجَانِي مَحَا الْعُذْرُ ذَنْبَهُ وَكُلُّ الَّذِي لَا يَقْبَلُ الْعُذْرَ جَانِيَا

كرمُ التغافلِ

الحمدُ للهِ الحليمِ الغفورِ، شارحِ الصدورِ وميسِّرِ الأمورِ، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ البَرُّ الشكورُ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلى اللهُ وسلمَ عليه وعلى آلِهِ وصحبِهِ إلى يومِ النشورِ.

أما بعدُ، فاتقوا اللهَ -عبادَ اللهِ-؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ... ﴾.

أيها المؤمنون!

إنَّ من مظاهرِ سنةِ الابتلاءِ في التعاملِ البشريِّ ذلكمُ العسرُ الذي يكونُ في التعاملِ مع هفواتِهم الناشئةِ من تفاوتِهم في الطباعِ والمداركِ والأخلاقِ والدوافعِ والظروفِ المحيطةِ بهم؛ مما هو مُنْضَوٍ في فَلَكِ السنةِ الربانيةِ الواردةِ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾، والذي قد رُتِّبَ على حُسْنِ التعاملِ معها وتخطِّيها بجميلِ الأخلاقِ أجرٌ كريمٌ مدَّخَرٌ؛ كان أثقلَ شيءٍ في ميزانِ العبدِ يومَ القيامةِ، كما قال النبيُّ ﷺ: "مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُق" رواه أبو داودَ وصحَّحه الألبانيُّ. هذا وإن مِن جليلِ الخُلُقِ الذي رغَّبتِ الشريعةُ في التحلِّي به، وامتطاءِ صَهْوةِ شَرَفِه في التعاملِ مع أخطاءِ البَشرِ والتّسامي عن الهبوطِ لسفْحِها- التغافلَ الكريمَ الذي يترفَّعُ به المرءُ عن التنقيرِ عن العيوبِ والمحاسبةِ على الأخطاءِ، ويُبْدي إزاءَها تجاهلاً وإغضاءً؛ فلا يحقِّقُ فيها، ولا يدقِّقُ، ولا يستقصي، بل يجعلُها

بتغافلِه معدومةً كأنْ لم توجدْ، أو قليلةً لا تستحقُ الاهتمامَ؛ فهو خلُقٌ كريمٌ جامعٌ بين أمهاتِ المحاسنِ؛ من الفطنةِ، والحِلْمِ، والرفقِ، والعفوِ، والحكمةِ؛ فالتغافلُ المحمودُ فضيلةٌ تَكْمنُ بين رذيلتين؛ رذيلةِ الغفلةِ والبلادةِ، ورذيلةِ التنقيرِ والإشقاقِ. ذلكمُ التغافلُ كان سجيةَ أصفياءِ اللهِ من أنبيائه وأوليائه؛ حكاها اللهُ عن نبيِّه يوسفَ -عليه السلامُ- إثْرَ إمعانِ إخوتِه في ظلمِهم له، وتجنِّيهم عليه حين لم يكتفوا بتغييبِه عن وجهِ أبيه بإلقائه في غيابةِ الجُبِّ، وحرمانِه منه، بل كالوا له إفكَ تهمةِ السرقةِ في قولِهم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُۚ﴾، فما كان من خُلُقِه الزاكي إلا أنْ جادَ بمُزنةِ التغافلِ الكريمِ، وأَمَرَّ جِراحَ إساءةِ ذوي القربى مرورَ الكرامِ المتغافلين حين أسرَّها في نفسِه ولم يُبْدِها لهم، وكأنها لا تعنيه. وعلى دربِ الاقتداءِ وَرِثَ النبيُّ محمدٌ ﷺ ذلك الخُلُقَ الكريمَ، وكان ابنَ بَجْدَتِه، وسيِّدَ سُراتِه، وواسطةَ عِقْدِه؛ قال أنسُ بنُ مالكٍ -رضي اللهُ عنه-: "خَدَمْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، وَاللهِ مَا قَالَ لِي: أُفًّا قَطُّ، وَلَا قَالَ لِي لِشَيْءٍ: لِمَ فَعَلْتَ كَذَا؟ وَهَلَّا فَعَلْتَ كَذَا؟" رواه مسلم، وحين عاتب إحدى زوجاتِه لإفشائِها سرَّه ما استقصى في عتابِه، بل ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍۖ﴾. وعلى رسْمِ الاهتداءِ سارَ عبادُ الرحمنِ الذين وصَفَهمُ اللهُ بقولِه: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾، وقولِه: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾، قال الغزاليُّ: "سَتْرُ الْعُيُوبِ وَالتَّجَاهُلُ والتغافلُ عنها شيمةُ أهلِ الدِّينِ". وكما أنَّ التغافلَ الكريمَ من محمودِ السجايا؛ فإنه من ضرورةِ التعاملِ الذي تُوجِبُه طبيعةُ الحياةِ التي فُطِرتْ على النَّكَدِ والكَبَدِ، وما تقتضيه جِبِلَّةُ البشرِ الجهولةُ الظلومةُ؛ وذاك ما جعل العقلاءَ ينْتخِبون

سجيةَ التغافلِ الكريمِ أساساً في التعاملِ الناجحِ الذي تستقيمُ به أمورُ الحياةِ أيّاً كانت، كما قال محمدُ بنُ عليِّ بنِ الحسينِ: "صلاحُ شأنِ جميعِ التعايشِ والتعاشرِ مِلءُ مكيالٍ؛ ثلثاه فطنةٌ، وثلثُه تغافلٌ"، وقال ابنُ حبانَ: "مَن لم يعاشرِ الناسَ على لزومِ الإغضاءِ عمّا يأتونَ من المكروهِ، وتَرْكِ التوقُّعِ لما يأتون من المحبوبِ؛ كان إلى تكديرِ عيشِه أقربَ منه إلى صفائِه، وإلى أنْ يدْفعَه الوقتُ إلى العداوةِ والبغضاءِ أقربَ منه إلى أنْ يَنالَ منهمُ الودادَ وتركَ الشَّحناءِ"، وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: "وَجَدتُّ أَكْثَرَ أُمُورِ الدُّنْيَا لَا تَجُوزُ إلَّا بِالتَّغَافُلِ".

معشرَ الإخوةِ!

إنَّ للتغافلِ المحمودِ حليةً تُكْسِبُ صاحبَها شرفاً أدركتْهُ العربُ بفطرتِها إذ كانت قابِعةً في غياهبِ الجاهليةِ، فقالت في مَثَلِها السائرِ: "الشرفُ في التغافلِ"، وقال حكيمُها أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ: "مَنْ شَدَّدَ نَفَّرَ، وَمَنْ تَرَاخَى تَأَلَّفَ، وَالشَّرَفُ والسرورُ فِي التَّغَافُلِ". وما زال العقلاءُ يُوصون بصَوْنِ المَقادرِ وتعزيزِها بمِعْطفِ التغافلِ، قال جعفرُ الصادقُ: "عَظِّموا أقدارَكم بالتغافلِ"، قال الحافظُ زينُ الدينِ العراقيُّ: "وَهَذَا الْكَلَامُ مِمَّا كَانَ وَالِدِي - رَحِمَهُ اللهُ - يُؤَدِّبُنِي بِهِ فِي مَبْدَأِ شَبَابِي حِينَ يَرَى غَضَبِي مِنْ كَلِمَاتٍ تَرِدُ عَلَيَّ".

وتغافِلْ عن أمورٍ إنَّه ... لم يَفُزْ بالحمدِ إلا مَن غَفل

والمروءةُ قرينةُ التغافلِ حين يُحْمدُ، بل هو عمادُها الذي عليه تقومُ، قال عمروُ بنُ عثمانَ المكيُّ: "المروءةُ التغافلُ عن زللِ الإخوانِ"، وقال ابنُ القيمِ:

"وأما مروءةُ التَرْكِ: فترْكُ الخصامِ، والمعاتبةِ، والمطالبةِ، والمماراةِ، والإغضاءُ عن عيبِ ما يأخذه من حقِّك، وتركُ الاستقصاءِ في طلبِه، والتغافلُ عن عثراتِ الناسِ، وإشعارُهم أنك لا تعلمُ لأحدٍ منهم عَثْرةً". وعبيرُ ريحِ الكرمِ يَفُوحُ من حُسْنِ تغافلِ الكرامِ، قال سفيانُ بنُ عيينةَ: "ما استقصى كريمٌ قطُّ؛ ألم تسمعْ إلى قولِ اللهِ –تعالى-: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍۖ﴾؟". ونفوسُ البشرِ مجبولةٌ على محبةِ مَن لم يحصِ عليها المثالبَ؛ وذاك من أسرارِ انجذابِهم إلى مَن يتغافلُ عن معايبِهم، كما كان إحصاءُ تلك المعائبِ سببَ نِفارِهم ممَّن أحصاها.

تغافلْ في الأمورِ ولا تناقِشْ فيقْطعَك القريبُ وذو المودة

وكساءُ التغافلِ سابغٌ؛ يواري عيبَ صاحبِه، ويُظْهِرُ جميلَ خصالِه؛ وذاك من أسبابِ سلامةِ دينِه وعرضِه، وسرٌّ من أسرارِ محبةِ الناسِ له، قال ابنُ سعديٍّ: "ومَن تغافلَ عن عيوبِ الناسِ، وأمسكَ لسانَه عن تتبعِ أحوالِهم التي لا يحبونَ إظهارَها؛ سَلِمَ دينُه وعرضُه، وألقى اللهُ محبتَه في قلوبِ العبادِ، وسَتَرَ اللهُ عورتَه؛ فإنَّ الجزاءَ من جنسِ العملِ". وذلكُم التغافلُ أمارةُ استواءِ عقْلٍ ورشدٍ، قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ –"الْكَيِّسُ الْعَاقِلُ هُوَ الْفَطِنُ الْمُتَغَافِلُ"، وقال ابنُ الْمُقَفَّعِ: "ما رأيتُ حكيماً إلا وتغافلُه أكثرُ من فطنتِه". فبوابلِ التغافلِ تُطْفأُ جمْرُ الشرورِ، قال الأعمشُ: "التغافلُ يُطفئ شراً كثيراً"، وقال المهلَّبُ بن أبي صفرةِ لولدِه: "إذا سمعَ أحدُكم العَوْراءَ (أي: الكلمةَ القبيحةَ)؛ فليتطأطأْ لها؛ تخْطِه"، وقال ابنُ القيمِ: "إذا خرجتْ مِن عدوِّك لفظةَ سفهٍ؛ فلا تُلْحِقْها بمثلِها؛

تلْقِحّها، ونسلُ الخصامِ نسلٌ مذمومٌ". وبِلجامِ التغافلِ يدرِكُ الأحمقُ المعتدي ضَعَةَ قدْرِه وقبْحَ فعلِه، ويُسْلَمُ مِن مجاراتِه في حضيضِ السفهِ الهابطِ. جاء رجلٌ، فشَتَمَ الأحنفَ بنَ قيسٍ، فسكتَ عنه، وأعادَ فسكتَ، فقال: والهفاه! ما يمنعُه مِن أنْ يَرَدَّ عليَّ إلّا هواني عليه.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أما بعدُ، فاعلموا أنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيها المؤمنون!

ورياحُ التغافلِ تُسَرِّعُ مرورَ وارداتِ السوءِ وخواطرِه حين تَهْجمُ على العقلِ بُغيةَ إضعافِه؛ فيَسْلُمُ من شرِّها، كما أرشدَ إلى ذلك ابنُ القيمِ بقولِه: "ويتغافلُ عنها ما أمكنَهُ؛ فإنها تَمُرُّ بالمكاثرةِ والتغافلِ مَرّاً سريعًا، لا يوسِّعُ دوائرَها؛ فإنه كلما وسَّعَها اتسعتْ، ووجدتْ مجالاً فسيحًا، فصالتْ فيه وجالتْ، ولو ضيَّقَها -بالإعراضِ عنها والتغافلِ- لاضمحلَّتْ وتلاشتْ". وذلك التغافلُ أقومُ سُبُلِ العافيةِ والراحةِ النفسيةِ من رَهَقِ المَنَاكِدِ والمخاصماتِ، كما أنه من أعظمِ العوْنِ على التفرغِ للمهمِّ من الشأنِ، قال محمدُ بنُ عبدِاللهِ الخزاعيُّ: "سمعتُ عثمانَ بنَ زائدةَ، يقولُ: العافيةُ عشرةُ أجزاءٍ، تسعةٌ منها في التغافلِ، فحدَّثتُ به أحمدَ بنَ حنبلَ، فقال: العافيةُ عشرةُ أجزاءٍ، كلُّها في التغافلِ". ولأَجْلِ ما انضمَّ في التغافلِ من راقي القِيمِ والمعاني كان صاحبُه جديراً بالسيادةِ في قومِه، قال أيوبُ السختيانيُّ: "لا يَسُودُ العبدُ حتى تكونَ فيه خصلتان: اليأسُ مما في أيدي الناسِ، والتغافلُ عما يكونُ منهم". ولا غَرْوَ في ذلك؛ إذ عِزُّ التغافلِ فرعٌ ناشئٌ من أصلِ عزِّ العفوِ الذي ما زادَ اللهُ صاحبَه به إلا عزاً.

ليـس الغبـيُّ بسـيِّدٍ في قومِـه   لكـنَّ سـيِّدَ قومِـه المتغابـي

أيها المسلمون!

ولئـن كان حَمْـدُ التغافـلِ مـع أخطـاءِ النـاسِ ومعايبِهـم محمـوداً مشـهوداً؛ فإنـه مع ذي الفضـلِ والقرابـةِ ومَـن يـدومُ تعاملُـه أحـقُّ وأحمـدُ؛ إذ لا بقـاءَ لحفـظِ حبـلِ الوصـلِ والـودِّ إلا بوثـاقِ التغافـلِ، وإلا كان الصَّـرْمُ والوَهَـاءُ عُقبى ذلـك الحبْـلِ. هـذا وإنمـا يُحْمـدُ التغافـلُ فيمـا لا يَغْلِـبُ ضـررُ تجاهلِـه، وتكـونُ مفسـدةُ إغفالِـه أكـبرَ مـن مصلحـةِ إحصائِـه وذكـرِه؛ وذلـك في تـرْكِ الواجبـاتِ وإقـرارِ المحرمـاتِ، كالإغضـاءِ عـن بيـانِ الحـقِّ الواجـبِ، وإنـكارِ المنكـرِ، وإقـرارِ الباطـلِ، مـع مراعـاةِ فِقْـهِ الأمـرِ بالمعروفِ والنهـيِ عـن المنكـرِ رتبـةً وأسـلوبـاً، والأخْـذِ بسُـلَّمِ الأولويـاتِ التـي جـاء برعْيهـا الشـرعُ الحنيـفُ.

ولا تَسـألنْ عن ما عَهِدتَّ وغَضَّ عنْ   عَـوَارٍ إذا لـمْ يَذمُمِ الشـرعُ تَرْشُـدِ

الأناةُ

إنَّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مُضلَّ له، ومَن يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ ... ﴾.

أيّها المؤمنون!

قالَ الحسنُ البصريُّ: "تُوُفِّيَ رجلٌ، وَتَرَكَ ابْنًا لَهُ وَمَوْلًى لَهُ، فَأَوْصَى مَوْلَاهُ بِابْنِهِ، فَلَمْ يَأْلُوهُ حَتَّى أَدْرَكَ وَزَوَّجَهُ. فَقَالَ لَهُ: جَهِّزْنِي أَطْلُبِ الْعِلْمَ، فَجَهَّزَهُ، فَأَتَى عَالِمًا فَسَأَلَهُ. فَقَالَ: إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَنْطَلِقَ فَقُلْ لِي: أُعَلِّمْكَ. فَقَالَ: حَضَرَ مِنِّي الْخُرُوجُ، فَعَلِّمْنِي. فَقَالَ: "اتَّقِ اللهَ، وَاصْبِرْ، وَلَا تَسْتَعْجِلْ". قَالَ الْحَسَنُ: فِي هَذَا الْخَيْرُ كُلُّهُ - فَجَاءَ وَلَا يَكَادُ يَنْسَاهُنَّ؛ إِنَّمَا هُنَّ ثَلَاثٌ- فَلَمَّا جَاءَ أَهْلَهُ، نَزَلَ عَنْ رَاحِلَتِهِ، فَلَمَّا نَزَلَ الدَّارَ إِذَا هُوَ بِرَجُلٍ نَائِمٍ مُتَرَاخٍ عَنِ الْمَرْأَةِ، وَإِذَا امْرَأَتُهُ نَائِمَةٌ! قَالَ: وَاللهِ مَا أُرِيدُ مَا أَنْتَظِرُ بِهَذَا؟ فَرَجَعَ إِلَى رَاحِلَتِهِ، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَأْخُذَ السَّيْفَ قَالَ: "اتَّقِ اللهَ، وَاصْبِرْ وَلَا تَسْتَعْجِلْ" فَرَجَعَ، فَلَمَّا قَامَ عَلَى رَأْسِهِ قَالَ: مَا أَنْتَظِرُ بهذا شيئًا، فرجع على رَاحِلَتِهِ، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَأْخُذَ سَيْفَهُ ذَكَرَهُ، فَرَجَعَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا قَامَ عَلَى رَأْسِهِ اسْتَيْقَظَ الرَّجُلُ (فإذا هو مولاهم الذي رباه)، فَلَمَّا رَآهُ وَثَبَ إِلَيْهِ، فَعَانَقَهُ، وقبّله، وسأله. قال: مَا أَصَبْتَ بَعْدِي؟ قَالَ: أَصَبْتُ

وَاللهِ بَعْدَكَ خَيْرًا كَثِيرًا، أَصَبْتُ وَاللهِ بَعْدَكَ: أَنِّي مَشَيْتُ اللَّيْلَةَ بَيْنَ السَّيْفِ وَبَيْنَ رَأْسِكَ ثَلَاثَ مِرَارٍ، فَحَجَزَنِي مَا أَصَبْتُ مِنَ الْعِلْمِ عَنْ قَتْلِكَ" رواه البخاريُّ في الأدبِ المفردِ وحسّنه الألبانيُّ. نَعمْ هذا شأنُ الأناةِ والتؤدَةِ وتبيّنِ الأمرِ؛ حكمةُ موقفٍ، وصوابُ رأيٍ، وسلامةٌ من أسى الندامةِ والنّزَقِ.

عبادَ اللهِ!

الأناةُ رِفقٌ قد اتّصفَ اللهُ به، وأحبَّ تخلّقَ العبدِ به؛ إذِ الأناةُ — بالنسبةِ للمخلوقِ - رِفقٌ لاستبانةِ صوابٍ؛ صيّرتِ الخيرَ قرينَ المتأني وفألَه الذي لا يُخطيهُ؛ فكان الزّيْنُ شعارَ تصرّفِه ودثارَه. يقولُ الرسولُ ﷺ: "«التَّأَنِّي مِنْ اللهِ، وَالْعَجَلَةُ مِنْ الشَّيْطَانِ» رواه البيهقيّ وقال ابنُ القيمِ: إسنادُه جيدٌ، وقال: "إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ "رواه مسلمٌ، وقال لأشجِّ عبدالقيس: "إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ، وَالْأَنَاةُ"رواه مسلمٌ، ويقولُ: : «مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الْخَيْرَ» رواه مسلمٌ، ويقولُ: «إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ» رواه مسلمٌ. وبالأناةِ يكونُ الظّفرُ و دركُ النجاحِ، كَتَبَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ إِلَى مُعَاوِيَةَ بن أبي سفيانَ — رضي اللهُ عنهم - فِي الْأَنَاةِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ مُعَاوِيَةُ: « أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ التَّفَهُّمَ فِي الْخَيْرِ زِيَادَةٌ وَرُشْدٌ، وَإِنَّ الرَّشِيدَ مَنْ رَشَدَ عَنِ الْعَجَلَةِ، وَإِنَّ الْخَائِبَ مَنْ خَابَ عَنِ الْأَنَاةِ، وَإِنَّ الْمُتَثَبِّتَ مُصِيبٌ، أَوْ كَادَ أَنْ يَكُونَ مُصِيبًا، وَإِنَّ الْمُعَجِّلَ مُخْطِئٌ، أَوْ كَادَ أَنْ يَكُونَ مُخْطِئًا، وَإِنَّهُ مَنْ لَا يَنْفَعُهُ الرِّفْقُ يَضُرُّهُ الْخَرَقُ وَمَنْ لَا تَنْفَعُهُ التَّجَارِبُ لَا يُدْرِكُ الْمَعَالِي، وَلَنْ يَبْلُغَ الرَّجُلُ مَبْلَغَ الرَّأْيِ

حَتَّى يَغْلِبَ حِلْمُهُ جَهْلَهُ وَشَهْوَتَهُ»، قال حبيشُ بنُ زهيرٍ: "عليكَ بالأناةِ؛ فإنَّ بها تُنالُ الفرصةُ"، وأوْصَى مالكُ بنُ المنذِرِ بنيه قائلاً: "يا بَنيّ، الزموا الأناةَ، واغتنِموا الفرصةَ؛ تظْفروا"، ألا ترْوْن أنَّ الماءَ على لينِه يقطعُ الحجرَ على شدّتِه!

الرفقُ يُمْنٌ والأناةُ سعادةٌ   فاستأنِ في رفقٍ تُلاقِ نجاحا

أيّها المؤمنونَ!

الأناةُ سجيةٌ قد يُطبعُ المرءُ عليها، وتلكَ من جُللِ نعمِ المَوْلى عليه، لكنّ العجلةَ هي الحالُ الغالبُ في الناسِ، كما قال اللهُ — تعالَى -: — ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ﴾، ومع ذا؛ فإنّ في الإمكانِ تغييرَ تلكَ الطبيعةِ المستهجَنةِ بالمراسِ والمجاهدةِ وسلوكِ أسبابِ التغييرِ. ومِن أنفعِ تلكَ الأسبابِ تبصّرُ العواقبِ واستشرافُ أواخرِ الأمورِ وما تؤولُ إليه دونَ اغترارٍ ببريقِ مبادِيها؛ فالْعَاقِلُ من افْتتح فِي كلّ أَمرٍ خاتمتَه، وَعلمَ من بَدْءِ كلّ شَيْءٍ عاقبتَه، وبقدرِ ذلك التبصّرِ يبلغُ التأنّي.

بصيرٌ بأعقابِ الأمورِ إذا الْتوتْ   كأنّ له في اليومِ عينًا على غدِ

ومِن أجْدى أنواعِ تبصّرِ العواقبِ استشعارُ وخيمِ عاقبةِ العجلةِ ومرارةِ غُصصِها؛ فكمْ جنتْ على أهلِها؟! كم منعتْ من إجابةِ دعاءٍ؟ وحملتْ على كفرٍ؟ وأَيْقَظَتْ من فتنةٍ؟ وسفكتْ من دمٍ؟ وأذكتْ من حربٍ؟ وشتّتتْ من

أُسرٍ؟ وقطّعتْ من أواصِرَ؟ وأهدرتْ من مالٍ؟ وهتكتْ من عرضٍ؟ وجرّتْ إلى خجلٍ وذلٍّ وإسقاطٍ في يدٍ؟ ذلكُم غَيضٌ من فيضِ عُقبى العجلةِ أمِّ النداماتِ كما كانتْ تكَنِّيها العربُ.

أيّها الإخوةُ!

وفي اتّهامِ المرءِ رأيَه وعدمِ جَزْمِه بصوابِه كبحٌ لجماحِ العجَلةِ، وإلجامٌ لنفسِه بحَكَمَة الأناةِ، وذاك منهجٌ غالبٌ في تعامُلِ الصّحابةِ — رضيَ اللهُ عنهم — مع آرائِهم. يقولُ ابنُ القيمِ — رحمَه اللهُ -: "واتّهامُ الصحابةِ لآرائهم كثيرٌ مشهورٌ، وهم أبَرُّ الأمةِ قلوباً، وأعمقُها علماً، وأبعدُها من الشيطانِ، فكانوا أتبعَ الأمةِ للسنّةِ، وأشدَّهم اتهاماً لآرائهم" أهـ. وفي استشارةِ ذوي الرأيِّ استتمامُ الأناةِ خاصةً إنْ كانوا مجرِّبينَ؛ ولذا غلبَ رأيُ الأشياخِ مشهدَ الشبابِ.

إنّ الأمورَ إذا قامَ الشبابُ بها ... دونَ الشّيوخِ ترى في بعضِها زللا
إنّ الشبابَ لهم في الأمرِ بادرةٌ ... وللشيوخِ أناةٌ ترفعُ الخللا

قالَ عمرُو بنُ العاصِ — رضيَ اللهُ عنه -: "ما نزلتْ بي قطّ عظيمةٌ فأبرمتُها حتى أشاورَ عشرةً من قريشٍ مرّتيْنِ، فإنْ أصبتُ كانَ الحظّ لي دونَهم، وإنْ أخطأتُ لم أرجعْ على نفسِي بلائمةٍ".

الرأيُ كالليلِ مسْودٌّ جوانبُه ... والليلُ لا ينجلِي إلّا بإصباحِ
فاضمُمْ مصابيحَ آراءِ الرجالِ إلى ... مصباحِ رأيك تزددْ ضوءَ مِصباحِ

معشرَ المؤمنينَ!

ومن خيرِ ما تُستجلَبُ به الأناةُ الانعتاقُ من ربقةِ ضغطِ اللحظةِ الحاضرةِ والاستغراقِ فيها؛ فإنّها أقوى حاملٍ على العجلةِ، كالغضبِ، والفرحِ، والخوفِ، والطمعِ، واليأسِ، والاستفزازِ، وتأثيرِ الجماهيرِ، وابتغاءِ تسجيلِ موقفٍ مع كلِّ حدثٍ. وذلكَ يستلزمُ صونَ المنطقِ بالصّمتِ وقتَها، وتركِ اتخاذِ القرارِ، واعتزالِ موضعِ تَهَيُّجِها ريْثَما تَسْكُنُ المثيراتُ ويُستجمَعُ الفكرُ. يقولُ الرسولُ ﷺ: "إذا غضِبتَ فاسكتْ" رواه ابنُ شاهينَ وحسّنه الألبانيُّ، قَالَ الأَوْزَاعِيُّ: "كَانَ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيْزِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُعَاقِبَ رَجُلاً، حَبَسَهُ ثَلاَثاً، ثُمَّ عَاقَبَهُ؛ كَرَاهِيَةَ أَنْ يَعْجَلَ فِي أَوَّلِ غَضَبِهِ".

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصّلاةُ والسّلامُ على رسولِ اللهِ.

وبعدُ، فاعلمُوا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيُّها المسلمونَ!

إنّ يُمنَ الأناةِ يستدعي تبصُّرَها في كلِّ أمرٍ؛ إذْ هو الأصلُ في مباشرةِ الأمورِ خاصةً ما عمّ أثرُه ولم يُقصَر على صاحبِه؛ فخطأُ الأناةِ خيرٌ من خطأِ العجلةِ. ولا يُستثنَى من ذلكَ إلا ما استبانَ خيرُه كالأعمالِ الصالحةِ القاصرةِ. يقولُ النَّبيُّ ﷺ: «التُّؤَدَةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا فِي عَمَلِ الْآخِرَةِ» رواه أبو داودَ وصحّحه الحاكمُ على شرطِ الشيْخيْنِ ووافقَه الذهبيُّ، قَالَ الأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ: "الرِّفْقُ وَالأَنَاةُ مَحْمُودٌ، إلا فِي ثَلاثٍ"، قَالُوا: مَا هُنَّ يَا أَبَا بَحْرٍ؟ قَالَ: "تُبَادِرُ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَتُعَجِّلُ إِخْرَاجَ مَيِّتِكَ، وَتُنْكِحُ الْكُفْءَ أَيِّمَكَ". ولا تَهْجُنُ الأناةُ إلا بصرفِها عن وجهِها؛ وذلكَ عند تضييعِ الفرصةِ بعد إمكانِها واستيضَاحِ نفعِها، قال حكيمٌ: « الْعَجَلَةُ فِي الْأَمْرِ خَرَقٌ، وَأَخْرَقُ مِنْ ذَلِكَ التَّفْرِيطُ فِي الْأَمْرِ بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ ». وأسوأُ من ذلكَ، أنْ تُتَّخَذَ الأناةُ والحكمةُ غطاءً لتسويغِ العجْزِ والخَورِ وتركِ العملِ؛ ففرقُ ما بينَ انتظارِ الأناةِ والعجزِ تحقُّقُ الهمّ الصادقِ للعملِ والبحثِ عن فرَصِه.

وبعدُ — أخِي -، إليكَ قاعدةُ النجاحِ التي أوْصى بها أحدُ الحكماءِ إذْ يقولُ: «روِّ بحزمٍ، فإذا استوْضَحتَ فاعزمْ».

أدبُ المِزاحِ

الحمدُ للهِ الذي أضحكَ وأبكى، وأماتَ وأحيا، ذي الأسماءِ الحُسنى والصفاتِ العُلى. وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له العظيمُ الموْلى، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه؛ نبيَّ الهدى، ونذيرَ الورَى، صلى اللهُ وسلمَ عليه وعلى آلِه وصحبِه أولي النُّبلِ والنُّهى.

أمّا بعدُ، فاتّقوا اللهَ — عبادَ اللهِ -، — ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ... ﴾.

أيُّها المؤمنونَ!

مراعاةُ الفِطرِ وسجايا البَشرِ، وتهذيبُها، خصِيصةٌ للإسلامِ ماثلةٌ؛ إذْ هو دينُ الفطرةِ والسّماحةِ والخُلُقِ الكريمِ. وإنّ ممّا طُبعتْ عليه النفوسُ نزعَها للاسترواحِ والإجمامِ وطلبِ المباهجِ في الحياةِ. ولأهلِها في ذلكَ مذاهبُ ومشاربُ، يأتي المِزاحُ والدُّعابةُ في مقادِمِها؛ فهي مباسطَةٌ إلى الغيرِ على جهةِ التلطُّفِ والاستعطافِ؛ تجِمُّ بها القلوبُ، وتنشطُ النفوسُ، وتماطُ الكُلُفُ، ويُسْتقرَبُ البعيدُ، ويأنسُ المستوحِشُ. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ — رضيَ اللهُ عنه -: "أجمّوا هَذِه الْقُلُوبَ؛ فَإِنَّهَا تملُّ، كَمَا تملُّ الأبدانُ"، وقال أبو الدَّرْدَاءِ— رضيَ اللهُ عنه -: "إِنِّي أستجمُّ بِبَعْضِ الْبَاطِلِ (والمرادُ به اللهوُ المباحُ)؛ ليكونَ أنشطَ لي فِي الْحقِّ"، وقيلَ: "الناسُ في سجنٍ ما لم يتمازحُوا، وقد ينفّسُ عن جَدّ الفتى اللعبُ". غيرَ أنّ الإسلامَ بمنهجِه العدلِ الرحيمِ

قد زمّ خُطامَ جنحِ النفسِ للمزاحِ بضبطٍ يحققُ من المصالحِ أرجاها، ويمنعُ من المفاسدِ أعلاها؛ إذْ شرعَ من المِزاحِ ما كان سالماً من المساوئِ، ومنعَ ما ليس كذلكَ، قيل لسُفْيَانِ بْنِ عُيَيْنَةَ: المِزاحُ هجنةٌ (قبح)؟ قَالَ: بل سنّةٌ، وَلَكِنّ الشَّأْنَ فِيمَن يُحسِنهُ، ويضعُه مواضعَه. وقال بَكْرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: "كَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ يَتبَادَحُونَ بالبَّطِيخ، فإذا كَانَتِ الحَقَائِقُ كَانُوا هُمُ الرِّجَالُ "رواه البخاريُّ في الأدبِ المفردِ وصحّحه الألبانيُّ، وسئلَ محمدُ بنُ سيرينَ عن أصحابِ النبيِّ ﷺ: هَلْ كَانُوا يَتَمَازَحُونَ؟ فَقَالَ: مَا كَانُوا إلَّا كَالنَّاسِ، وسئلَ إبراهيمُ النخعيُّ: كان أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ يضحكونَ؟ قالَ: نعمْ، والإيمانُ في قلوبِهم أمثالُ الجبالِ الرواسي. هذا، وإنّ من شأنِ إطلاقِ عَنانِ المِزاحِ دونَ رعيِّ هُدى الشريعةِ وسَننِ الاعتدالِ إيقاعَ العداوةِ، وزرعَ الضَّغينةِ، وذهابَ المهابةِ، وتجرؤَ السفهاءِ، وخفّةَ القدْرِ، يقولُ عمرُ بنُ الخطابِ — رضيَ اللهُ عنه -: "إِيَّايَ وَالْمُزَاحَةَ؛ فَإِنَّهَا تَجُرُّ الْقَبِيحَةَ، وَتُورِّثُ الضَّغِينَةَ"، وقال الأحنفُ بنُ قيسٍ: "دَعوا المِزاحَ؛ فإنّه يؤرثُ الضغائنَ"، وكتبَ عمرُ بنُ عبدِالعزيزِ لأحدِ وُلاتِه: " " انهَ مَنْ قِبَلَكَ عَنِ الْمِزَاحِ؛ فَإِنَّهُ يَذْهَبُ بِالْمُرُوءَةِ، وَيُوغِرُ الصَّدْرَ"، وقال أكثمُ بنُ صيفيٍّ: "المُزاحةُ تُذهِبُ المهابةَ "، وأوْصَى عيينةُ بنُ حصْنٍ بَنيهِ فقالَ: "إيّاكم وغلباتِ المِزاحِ"! وقالَ بعضُ الحكماءِ: "تجنّبْ سوءَ المِزاحِ ونكَدَ الهزْلِ؛ فإنّهما بابانِ إذا فُتحا لم يُغلقا إلا بعد غمّ "، وقال آخرُ: "لكلِّ شيءٍ بذرٌ، وبذرُ العداوةِ المِزاحُ". ونصح مسعرُ بنُ كدامٍ ابنَه كداماً قائلاً:

ولقد حبوتُـك يا كـدامُ نصيحتِي فاسـمعْ لقـولِ أبٍ عليكَ شـفيقُ
أمّـا المُزاحـةُ والمِـراءُ فدعْهمـا خلُقـانِ لا أرضاهمـا لصديـقِ
ولقـد بلوتُهمـا فلـم أحمدْهمـا لمجـاورٍ جاورتُـه ولا لرفيـقِ

وقال آخرُ:

فإيّـاك إيّاك المـزاحَ فإنّـه يُجري عليـك الطفـلَ والرجـلَ النّـذْلا
ويُذهِـبُ مـاءَ الوجـهِ بعـد بهائِه ويُورِثُ بعـد العزِّ صاحبَـــه ذلّا

عبادَ اللهِ!

إنّما يُحمدُ من المَزحِ ما عُري عن المحظورِ، وكانَ قصداً. وإنَّ من المحرّماتِ ما يكثرُ اقترانُه بالمِزاحِ؛ فيبوءُ صاحبُه بالوِزرِ، وقُبحِ الفعلِ. ومن أشنعِ تلكَ المحرماتِ أنْ يكونَ المِزاحُ سخريةً بدينِ اللهِ وشعائرِه وحمَلَتِه؛ فذاك الكفرُ الذي حكمَ به أحكمُ الحاكمينَ في قولِه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ٦٥ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْۚ﴾. والمِزاح بالكذبِ محظورٌ نهى عنه النبيُّ ﷺ، ولم يَعذرْ به، فقد سألَه أصحابُه – رضيَ اللهُ عنهم –، فقالُوا: "يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّكَ تُدَاعِبُنَا؟ قَالَ: لَا أَقُولُ إِلا حَقًّا" رواهُ الترمذيُّ وحسّنه البغويُّ. وجعل عمرُ – رضيَ اللهُ عنه – مجافاةَ الكذبِ في المِزاحِ برهانًا على دركِ الإيمانِ إذْ يقولُ: " «لَا تَبْلُغُ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى تَدَعَ الْكَذِبَ فِي الْمُزَاحِ» رواه

ابنُ أبي شيبةَ. وإن كان دافعَ الكذابِ في المزاحِ إضحاكُ الآخرينَ، فالويْلُ المؤكَّدُ لصاحبِه! يقولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ، فَيَكْذِبُ؛ لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمَ! وَيْلٌ لَهُ! وَيْلٌ لَهُ! » رواه أبو داودَ والترمذيُّ وحسّنه الألبانيُّ. والمِزاحُ بالفُحشِ وبذيءِ اللفظِ ممّا حرّمَه الدينُ الحنيفُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ، وَلَا اللَّعَّانِ، وَلَا الفَاحِشِ، وَلَا البَذِيءِ» رواه الترمذيُّ وصحّحه ابنُ حِبانَ وحسّنه الألبانيُّ. والأذى في المِزاحِ محرَمٌ وإن كان يسيراً؛ كما قال النبيُّ ﷺ: «لَا يَأْخُذُ أَحَدُكُمْ مَتَاعَ صَاحِبِهِ لَاعِبًا وَلَا جَادًّا، فَإِذَا أَخَذَ أَحَدُكُمْ عَصَا صَاحِبِهِ فَلْيَرُدَّهَا إِلَيْهِ» رواه أبو داودَ وحسّنه البيهقيُّ، وقال عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى حَدَّثَنَا أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ: أَنَّهُمْ كَانُوا يَسِيرُونَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ، فَانْطَلَقَ بَعْضُهُمْ إِلَى حَبْلٍ مَعَهُ فَأَخَذَهُ، فَفَزِعَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُرَوِّعَ مُسْلِمًا» رواه أبو داودَ وصحّحه الألبانيُّ. وذلك الأذى يشملُ صنوفَ الأذى الحسيّةَ كالضربِ وأخذِ المالِ والمتاعِ، والمعنويّةَ كالسخريةِ والترويعِ والإحراجِ واستغلالِ النزقِ وضيقِ العطنِ واتخاذِ ضعيفِ الشخصيّةِ غرضاً للتعليقِ وإضحاكِ القومِ.

جراحاتُ الطّعانِ لها التئامُ ... ولا يلتامُ ما جرحَ اللّسانُ

تلقَى الفتى يلْقى أخاه وخِدنَه ... في لحنِ منطقِه بما لا يغفَرُ

ويقولُ كنتُ ممازحاً وملاعباً ... هيهاتَ نارُك في الحشا تستعرُ

ألهبتَها وطفِقتَ تضحَكُ لاهياً ... عمّا به وفؤادُه يتفطّرُ

أوَ ما علمتَ ومثلُ جهلك غالبٌ ... أنّ المِزاحَ هو السِّبابُ الأصغرُ

أيُّها الإخوةُ في اللهِ!

والقصدُ ممّا يجمُلُ به المِزاحُ، ويصونُ عن الإسفافِ ونُقصانِ القدرِ؛ إذ هو حكمةٌ تملي على صاحبِها حسنَ اختيارِ وقتِ المِزاحِ والشخصِ الذي يُمزَحُ معه، والتزامَ الاعتدالِ فيه. فمن أمثلِ أوقاتِ المِزاحِ ما كانَ مع الأسرةِ، قَالَ عُمَرُ: " إِنَّه ليُعجبُني أَنْ يكونَ الرجلُ فِي أَهلِه مثلَ الصَّبِي، ثُمَّ إذا بُغِي مِنْهُ، وُجِد رجلاً "، وَقَالَ ثَابتُ بْنُ عُبَيْدٍ: "كَانَ زيدُ بنُ ثَابتٍ مِن أفكهِ النّاسِ فِي بيتِه، فَإِذا خرجَ كَانَ رجلاً مِن الرِّجَال". وهكذا، يحسنُ المِزاحُ حالَ الإملالِ والتعبِ، يقولُ ربيعةُ بنُ عبدِالرحمنِ: "المروءةُ سِتُّ خِصَالٍ: ثَلَاثٌ فِي الْحَضَرِ، وَثَلَاثٌ فِي السّفرِ؛ فَفِي الْحَضَرِ: تلاوةُ الْقُرْآنِ، وَعمارَةُ مَسَاجِدِ اللهِ، واتخاذُ الْقرى فِي اللهِ، وَالَّتِي فِي السّفرِ: فبذلُ الزَّادِ، وحسنُ الْخُلقِ، وَكَثْرَةُ المِزاحِ فِي غيرِ مَعْصِيةٍ". ومما يقتضِيه القصدُ في المِزاحِ ألّا يكثرَ منه؛ فيُعرفَ به، قال سعيدُ بنُ العاصِ لابنِه: " اقتصدْ في مِزاحِكَ؛ فالإفراطُ به يُذهبُ البهاءَ، ويجرئُ عليكَ السفهاءَ، وتركُه يقبضُ المؤانسينَ، ويوحشُ المخالطينَ"، وقال عمرُ — رضيَ اللهُ عنه -: "مَن كثُرَ مِزاحُه استُخِفّ به". ومن حُسنِ مراعاةِ القصدِ حسنُ اختيارِ مَن يُمزحُ معه؛ فإنّ لكلّ مقامٍ مقالاً، وليسَ الناسُ في قَبولِ المِزاحِ وردِّه سواءً؛ إذْ منهم ذوو الظروفِ المشغِلةِ أو الطّباعِ الجادّةِ المتأذيةِ بالمزاحِ وإن قلّ، ومنهم السفهَةُ الذينَ يجترئونَ بالمزاحِ، كما قيلَ: "لا تمازحِ الشريفَ؛ فيحقدَ عليكَ، ولا الدنيءَ؛ فيتجرأَ عليكَ "، وقال محمدُ بنُ المنكدرِ: "قالتْ لي أمي: يا بُنيَّ! لا تمازحِ الصبيانَ؛ فتهونَ عليهم". ومن مراعاةِ القصدِ في المِزاحِ محاذرةُ المواضعِ التي سوّى الإسلامُ فيها بينَ حكمِ الجدّ والهزْلِ، كما قال

النبيُّ ﷺ: "ثَلَاثٌ جَدُّهُنَّ جَدٌّ، وَهَزْلُهُنَّ جَدٌّ: النِّكَاحُ، وَالطَّلَاقُ، وَالرَّجْعَةُ" رواه أبو داودَ وصحَّحه الحاكمُ .

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ وحدَه، والصّلاةُ والسّلامُ على من لا نبيَّ بعدَه.
وبعدُ، فاعلموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيُّها المسلمونَ!

إنّ المتأملَ لهديُ النبيِّ ﷺ في المِزاحِ، لَيرى وضاءةَ الاحترامِ مع مَن يمازحُه، وحسنَ جذبِه له بالمحبةِ وإزالةِ الكُلفةِ، مع مراعاةِ مناسبةِ الوقتِ والأسلوبِ، دونَ جرحِ مشاعرٍ، أو إكثارٍ. ومن صورِ ذلكَ: ما رواه أَنَسٌ – رضيَ اللهُ عنه –: أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، احْمِلْنِي، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّا حَامِلُوكَ عَلَى وَلَدِ نَاقَةٍ» قَالَ: وَمَا أَصْنَعُ بِوَلَدِ النَّاقَةِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَهَلْ تَلِدُ الْإِبِلَ إِلَّا النُّوقُ» رواه أبو داودَ وصحّحه الألبانيُّ. واسْتَأْذَنَ أَبُو بَكْرٍ – رَضي اللهُ عنه – عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَمِعَ صَوْتَ عَائِشَةَ عَالِيًا، فَلَمَّا دَخَلَ تَنَاوَلَهَا لِيَلْطِمَهَا، وَقَالَ: أَلَا أَرَاكِ تَرْفَعِينَ صَوْتَكِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَحْجِزُهُ، وَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُغْضَبًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ: «كَيْفَ رَأَيْتِنِي أَنْقَذْتُكِ مِنَ الرَّجُلِ؟»، فَمَكَثَ أَبُو بَكْرٍ أَيَّامًا، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَوَجَدَهُمَا قَدِ اصْطَلَحَا، فَقَالَ لَهُمَا: أَدْخِلَانِي فِي سِلْمِكُمَا كَمَا أَدْخَلْتُمَانِي فِي حَرْبِكُمَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قَدْ فَعَلْنَا، قَدْ فَعَلْنَا» رواه أحمدُ وأبو داودَ وسكتَ عنه. وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – أَتَى رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ يُقَالُ: لَهُ زَاهِرُ بْنُ حَرَامٍ وَهُوَ يَبِيعُ مَتَاعَهُ، فَاحْتَضَنَهُ مِنْ خَلْفِهِ وَالرَّجُلُ لَا

يُبْصِرُهُ، فَقَالَ: أَرْسِلْنِي، مَنْ هَذَا؟ فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا عَرَفَ أَنَّهُ النَّبِيُّ ﷺ جَعَلَ يُلْزِقُ ظَهْرَهُ بِصَدْرِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "مَنْ يَشْتَرِي هَذَا الْعَبْدَ؟"، فَقَالَ زَاهِرٌ: تَجِدُنِي - يَا رَسُولَ اللهِ - كَاسِدًا، قَالَ: "لَكِنَّكَ عِنْدَ اللهِ لَسْتَ بِكَاسِدٍ"، أَوْ قَالَ ﷺ: "بَلْ أَنْتَ عِنْدَ اللهِ غَالٍ" رواه أحمدُ وصحّحه ابنُ حِبان، وقال أنسٌ — رضيَ الله عنه -: إِنْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَيُخَالِطُنَا، حَتَّى يَقُولَ لِأَخٍ لِي صَغِيرٍ: «يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟» رواه البخاريُّ ومسلمٌ. وقال أبو هريرةَ — رضيَ اللهُ عنه -: أَخَذَ النَّبِيُ ﷺ بِيَدِ الحسنِ أَوِ الحُسَينِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -، ثُمَّ وَضَعَ قَدَمَيهِ عَلَى قَدَمَيهِ، ثُم قَالَ: "تَرَقَّ" رواه البخاريُّ في الأدبِ المفردِ وصحّحه الألبانيُّ.

العزَّةُ

الحمدُ للهِ ذي العزَّةِ التي لا تُرام، والمُلكِ الذي لا يُضام، قيُّومٌ لا ينام، وعزيزٌ ذو انْتقام، وأشهدُ ألا إلهَ إلا البَرُّ السلامُ، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه خيرةَ الأنامِ، صلى اللهُ عليه وعلى آلِه وصحبِه وسلّمَ أزكى سلامٍ.

أمّا بعدُ، فاتّقوا اللهَ — عبادَ اللهِ -، — ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ...﴾.

أيّها المؤمنونَ!

إنّ الشعورَ بالدونيّةِ والهزيمةَ النفسيّةَ شرُّ هزيمةٍ تُمْنى بها أمةٌ؛ تفتُّ عضُدَها، وتفلُّ حدَّها، وتغيّبُ قُدَرَها، وتجرّئُ عُداتَها، ولا تقومُ معه للحقِّ قائمةٌ. وذا ما يعارضُ إرادةَ العزِّ لأمةِ الإسلامِ، وقدرَه الذي ارتضاه اللهُ لها بقولِه: — ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ مهما بلغَ قرْحُها وغارَ جرحُها واستشرسَ عدوُّها — ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ حتى غدا سنامُ العزِّ لأهلِ الإيمانِ شعاراً ودثاراً، يصفُ ذلكَ الحالَ إبراهيمُ النخعيُّ بقولِه: "كَانُوا يكْرهُونَ للْمُؤْمِنين أَن يُستذَلوا؛ فيجترئَ عَلَيْهِمُ الْفُسَّاقُ".

العِزةُ حقيقةٌ متى استقرّتْ في القلبِ قوّتُهُ؛ فاستعلَى بها على كلّ أسبابِ الذِّلةِ والانحناءِ لغيرِ اللهِ، وهي منزلةٌ شريفةٌ تنشأُ عن معرفةِ المرءِ بقدْرِ نفسِه وإكرامِها عن الضّراعةِ للأغراضِ والأعراضِ الدنيّةِ؛ فيترفّعُ بها عمّا يُلحِقُه غضاضةً. وليس ذلكَ من الكِبْرِ في شيءٍ؛ إذِ الكبرُ جهلٌ بقدرِ النفْسِ وإنزالٌ

لها فوق منزلتِها؛ ولهذا لمّا قيل للحسنِ البصريِّ — رحمَه اللهُ -: ما أعظمَكَ في نفسِكَ! فقالَ: لستُ بعظيمٍ، ولكنّي عزيزٌ.

أيّها المسلمونَ!

لقد أكّدَ اللهُ — سبحانَه — استئثارَه بالعزّةِ جميعاً في ثلاثِ آياتٍ من كتابِه العزيزِ؛ فلن يجدَها إلا مَن يتولّاه، ويطلبُها عنده، ويرتكنُ إلى حِماه، يقولُ اللهُ — تعالى -: — ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾، قال أبو بكرٍ الشبليُّ: " مَن اعتزّ بذي العزّ فذو العزّ له عَزَّ "، وقالَ رجلٌ للحسنِ: إني أريدُ السِّندَ؛ فأوصِني، قال: أعِزَّ أمرَ الله حيث ما كنتَ يعزَّك اللهُ، قال: فلقد كنتُ بالسِّندِ وما بها أحدٌ أعزُّ مني".

وَإِذَا تَذَلَّلَتِ الرِّقَابُ تَخَشُّعًا   مِنَّا إِلَيْكَ فَعِزُّهَا فِي ذُلِّهَا

ولما كانتِ العزةُ للهِ، وهو ربُّها؛ صار سبيلُها مقطوعاً إلا من سبيلِه؛ فلا تطلبْ إلا منهُ. وأعظمُ سبيلٍ لتحصيلِها: الإيمانُ باللهِ — جلّ وعلا -، وبقدرِ ما حققَ العبدُ من الإيمانِ يكونُ حظُّه من العزةِ، كما قال اللهُ — سبحانَه -: — ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ إذْ بالإيمانِ تكونُ وِلايةُ اللهِ التي لا يُذلُّ بها متمسّكٌ، ولا يُعزُّ بتركِها عادٍ، كما قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "إِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، وَلَا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ" رواه أبو داودَ وصحّحه العراقيُّ. قال طارقُ بنُ شهابٍ — رضيَ اللهُ عنه -: "خَرَجَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى الشَّامِ وَمَعَنَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ فَأَتَوْا عَلَى مَخَاضَةٍ وَعُمَرُ عَلَى

نَاقَةٍ لَهُ فَنَزَلَ عَنْهَا وَخَلَعَ خُفَّيْهِ فَوَضَعَهُمَا عَلَى عَاتِقِهِ، وَأَخَذَ بِزِمَامِ نَاقَتِهِ فَخَاضَ بِهَا الْمَخَاضَةَ، فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْتَ تَفْعَلُ هَذَا؟! تَخْلَعُ خُفَّيْكَ وَتَضَعُهُمَا عَلَى عَاتِقِكَ، وَتَأْخُذُ بِزِمَامِ نَاقَتِكَ، وَتَخُوضُ بِهَا الْمَخَاضَةَ؟! مَا يَسُرُّنِي أَنَّ أَهْلَ الْبَلَدِ اسْتَشْرَفُوكَ، فَقَالَ عُمَرُ: «أَوَّهْ! لَوْ لَمْ يَقُلْ ذَا غَيْرُكَ أَبَا عُبَيْدَةَ لجَعَلْتُهُ نَكَالًا لأُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ إِنَّا كُنَّا أَذَلَّ قَوْمٍ فَأَعَزَّنَا اللهُ بِالإِسْلَامِ؛ فَمَهْمَا نَطْلُبُ الْعِزَّةَ بِغَيْرِ مَا أَعَزَّنَا اللهُ بِهِ أَذَلَّنَا اللهُ»" رواه الحاكمُ وصحّحه على شرطِ البخاريُّ ومسلمٌ ووافقَه الذهبيُّ. ومن أجْلى حقائقِ الإيمانِ التي تكمنُ فيها العزةُ حسنُ الطاعةِ والاستجابةِ للهِ ورسولِه ﷺ، يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: "جُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي" رواه أحمدُ وصحّحه الألبانيُّ، ويقولُ سفيانُ الثوريُّ: "كَانَ يُقَالُ: مَنْ أَرَادَ عِزًّا بِلا عَشِيرَةٍ، وَهَيْبَةً بِلا سُلْطَانٍ؛ فَلْيَخْرُجْ مِنْ ذُلِّ مَعْصِيَةِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - إِلَى عِزِّ طَاعَتِهِ". وأنّى لمَن كبّرَ اللهَ حالَ أذانِه وصلاتِه ونُسُكِه ونحْرِه وتعجّبِه، وكانَ ذلكَ التكبيرُ أولَ ما طرقَ سمعَه حينَ ولادتِه - أنْ يذلّ لغيرِه!

ألا إنّما التّقوى هي العزُّ والكرمُ وحبُّك للدّنيا هو الذلّ والسقَمْ

وليس على عبدٍ تَقيٍّ نقيصةٌ إذا حققَ التقوى وإنْ حاكَ أو حجَمْ

يقول الحسنُ البصريُّ: "مَنْ تَعَزَّزَ بِالْمَعْصِيَةِ أَوْرَثَهُ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - الذِّلَّةَ، وَلا يَزَالُ الْعَبْدُ بِخَيْرٍ مَا كَانَ لَهُ وَاعِظٌ مِنْ نَفْسِهِ"، ويقولُ عن المنعّمينَ الفجرةِ: "إِنَّهُمْ وَإِنْ طَقْطَقَتْ بِهِمُ الْبِغَالُ، وَهَمْلَجَتْ بِهِمُ الْبَرَاذِينُ، إِنَّ ذُلَّ الْمَعْصِيَةِ لَا يُفَارِقُ قُلُوبَهُمْ، أَبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُذِلَّ مَنْ عَصَاهُ". ألا وإنّ من أجلِّ الطاعاتِ التي

رُتِّبَ على فعلِها تحققُ العزةِ وعلى تركِها الذلةُ الجهادَ في سبيلِ اللهِ، يقولُ اللهُ — تعالى -: — يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾، ويقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: "إذا تبايعتُم بالعِينَةِ (نوعٌ من الرّبا)، وأخذتُم أَذْنَابَ الْبَقَرِ، ورضيتُم بالزّرعِ، وتركتُمُ الْجِهَادَ؛ سلّطَ اللهُ عَلَيْكُم ذلاً لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى ترجِعوا إِلَى دِينِكُمْ " رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وصحّحه الألبانيُّ. والجهادُ طريقُ نخوةِ المؤمنينَ المستَضعَفينَ ونجدتِهم، وَمن كَانَتِ النجدةُ طبعا لَهُ حدثتْ فِيهِ عزةٌ، فكيف إنْ كانَ الباعثُ لها دينـًا.

عباد الله!

والاستغناءُ عن الناسِ من جوادّ العزةِ؛ فإنما تُذلُّ الناسَ شهواتُهم ورغباتُهم، ومخاوفُهم ومطامُعهم، أوصى جبريلُ — عليه السلامُ — النبيَّ — ﷺ —فقال: "يا محمدُ، شرفُ المؤمنِ قيامُ الليلِ، وعزُّه استغناؤه عن الناسِ" رواه الحاكمُ وصحّحه ووافقه الذهبيُّ. قال حكيمٌ: "مَنْ غَرَسَ الزُّهْدَ اجْتَنَى العِزَّةَ، وَمَنْ غَرَسَ الحِرْصَ اجْتَنَى الذِّلَّةَ، وَمَنْ غَرَسَ الطَّمَعَ اجْتَنَى الخِزْيَ". قدم البصرةَ أعرابيٌّ فقال لخالدِ بنِ صفوانَ: أخبرْني عن سيدِ هذا المصرِ، قال: هو الحسنُ بنُ أبي الحسنِ (البصري)، قال: عربيٌّ أم مولي؟ قال: مولى، قال: وبم سادَهم؟ قال: احتاجُوا إليه في دينِهم، واستغنى عن دُنياهم، فقال الأعرابيُّ: كفى بهذا سؤدداً! قال عَبْدُ اللهِ بْنُ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ: « لَا يَنْبَغِي لِمَنْ

أَخَـذَ بِالتَّقْـوَى، وَرُزِقَ بِالْـوَرَعِ، أَنْ يَـذِلَّ لِصَاحِـبِ الدُّنْيَـا».

أرى النـاسَ مَن دانَهم هانَ عندَهم   ومـن أكرمتْه عـزةُ النفـسِ أُكرِما

أيُّها الإخوةُ في اللهِ!

والعفوُ المحمودُ عن المسيءِ من سبلِ نيلِ العزةِ، كما قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "ما زادَ اللهُ عبداً بعفوٍ إلا عزاً" رواه مسلمٌ، وظاهرُ الحديثِ: أَنَّ مَنْ عُرِفَ بِالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ سَادَ وَعَظُمَ فِي الْقُلُوبِ وَزَادَ عِزُّهُ وَإِكْرَامُهُ، قال إبراهيم النخعي واصفـاً حال السلف: «كَانُوا يَكْرَهُونَ أَنْ يُسْتَذَلُّوا، فَإِذَا قَدَرُوا عَفَوْا». والصبرُ والثباتُ طريقٌ للظفرِ بحُلّة العزِّ، قال اللهُ — تعالى -: — ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾. ومن أجلّ سبلِ العزةِ العياذُ باللهِ من وصْمِ الذلةِ؛ فقد كان ذاكَ دعاءَ النبيِّ ﷺ الغالبَ، قال أبو هريرةَ — رضيَ اللهُ عنه -: "كَانَ النَّبِيُّ - ﷺ— يَقُولُ: "اللهُمَّ إِنِّي أَعوذُ بك مِن الفقرِ والقِلةِ والذِّلةِ، وأَعوذُ بِك أنْ أَظلِم أَو أُظلَم" رواه البخاريُّ في الأدبِ المفردِ وصحّحه الألبانيُّ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصّلاةُ والسَّلامُ على رسولِ اللهِ.

وبعدُ، فاعلموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

بالعزةِ عيشُ الكرامةِ، وقناعةُ السرورِ، ورضا الميسورِ، ونيْلُ الحقوقِ، وإباءُ الاهتضامِ، والسموُّ عن الدّنايا، والثباتُ على راسخِ المبادئِ، والحدبُ على المؤمنينَ، وهيبُ العِدى، والحملُ على حسنِ التربيةِ والاقتداءِ، والنّصرُ على النفسِ الهَلوعِ المَنوعِ، والظفرُ بمحبّةِ اللهِ خيرٌ من ذلكَ كلِّه. غيرَ أنّ العزةَ لا تحملُ المؤمنَ على تحمّلِ ما لا يطيقُ من البلاءِ، والعاقلُ خصيمُ نفسِه؛ فقد قال رسولُ اللهِ ﷺ: "لا ينبغي لمؤمنٍ أن يَذلّ نفسَه"، قالوا: وكيف يَذلُّ نفسَه؟ قال: "يتعرضُ من البلاءِ ما لا يُطيقُ" رواه الترمذيُّ وقال: حسنٌ غريبٌ وهو في الصّحيحةِ.

وبعدُ — معشرَ المؤمنينَ -، دونكُم مهيعَ العزِّ الشامخِ ومعقِدِ لوائِه الأشمِّ؛ فتوشَّحوا به، وارفعوا رايتَه، واسلكوا سُبلَه، وربّوا على منهجِه الأبيِّ أهلَ بيوتِكم ومَن ولّاكم اللهُ مسؤوليّتَه؛ فالمرءُ على عُودِ نشئاتِه، والأمةُ اليومَ أحوجُ ما تكونُ إلى ذلكَ، وقد تكالبَ عليها العُداةُ، وانبهرَ الكثيرُ بتفوُّقِ الكفرةِ، وتبدّتْ صورُ الانهزاميّةِ، وتباينتْ سبلُ الاعتزازِ، وبوارقُ الأملِ لاحتْ بالفجرِ الصادقِ المبدّدِ لحنادسِ الظُلَمِ، واللهُ غالبٌ على أمرِه ولكنّ أكثرَ الناسِ لا يعلمونَ.

الكِبرُ

إنَّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، من يهدِه اللهُ فلا مضل له، ومن يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ...﴾.

أيُّها المؤمنونَ!

تجاهلُ الأقدارِ من سماتِ الخَرَقِ وضروبِ السفَهِ. ويقبحُ ذلكَ إنْ ترفّعَ به المرءُ وتاهَ إعجاباً بنفسِه وكِبراً على غيرِه؛ فالكِبرُ فضلُ حُمقٍ لم يدرِ صاحبُه أين يضعُه. وشؤمُ وبالِه على صاحبِه مذهِبٌ شرفَ دنياه وآخرتِه. فالمتكبرُ مُهانٌ وضيعُ القدرِ، يقولُ عبدُاللهِ بنُ مسعودٍ — رضيَ اللهُ عنه -: "مَنْ تَطَاوَلَ تعظُّماً خفَضَهُ الله"، وقال الحسنُ البصريُّ: "المتكبرُ كالصّاعدِ فوق الجبلِ يرى الناسَ صغاراً ويرونَه صغيراً"، وما تكبّر امرؤٌ على مَن دونَه إلا ابتلاه اللهُ بالذِّلةِ لمَن فوقَه. والكبرُ مطيّةُ السّفهِ والزللِ؛ لأنّه أعظمُ مانعٍ من قَبولِ الحقِّ وإنْ تجلّى، يقولُ اللهُ تعالى: — ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، ويقولُ الرسولُ ﷺ: «مَا مِنْ آدَمِيٍّ إِلَّا فِي رَأْسِهِ حِكْمَةٌ (وهو مَا يَجْعَلُ تَحت حنكِ الدَّابَّةِ يمْنَعُهَا الْمُخَالفَةَ) بِيَدِ مَلَكٍ، فَإِذَا تَوَاضَعَ قِيلَ لِلْمَلَكِ: ارْفَعْ حِكْمَتَهُ، وَإِذَا تَكَبَّرَ قِيلَ لِلْمَلَكِ: ضَعْ حِكْمَتَهُ» رواه الطبرانيُّ

وحسّنه الهيثميُّ والمنذريُّ وجوّدَه الذهبيُّ. وما اكتُسبتْ البغضاءُ بمثلِ الكبر؛ لاشتماله خسيسَ المعايبِ، يقولُ الشافعيُّ: "الْكِبْرُ فِيهِ كُلُّ عَيْبٍ".

عبادَ اللهِ!

والدارُ الآخرةُ إنّما جُعلتْ للذينَ سلِموا من وضَرِ الكبرِ ودنسِه، يقولُ اللهُ — تعالى -: — ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ﴾؛ إذِ الوعيدُ بالعذابِ لاحقٌ كلَّ متكبرٍ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْعِزُّ إِزَارُهُ، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ، فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ» رواه مسلمٌ. عذابُ مهانةٍ في الحشرِ والمصيرِ، يقولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ الرِّجَالِ يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَيُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ تَعْلُوهُمْ نَارُ الأَنْيَارِ يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ طِينَةَ الْخَبَالِ» رواه الترمذيُّ وحسّنه البغويُّ والألبانيُّ. وأشدُّ الوعيدِ حرمانُ دخولِ الجنةِ بحبةِ خردلٍ من كبرٍ تحلُّ في القلبِ، يقولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرِيَاءٍ" رواه مسلمٌ. وذلكَ الوعيدُ الشديدُ متحقّقُ بأقلِ مقدارٍ: مثقالُ حبةٍ من خردلٍ، وأسهلِ تصرُّفٍ: جرِّ إزارٍ، يقولُ الرسولُ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»، فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللهِ - ﷺ- ثَلَاثَ مِرَارٍ، قَالَ أَبُو ذَرٍّ: خَابُوا وَخَسِرُوا! مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «الْمُسْبِلُ، وَالْمَنَّانُ، وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ» رواه مسلمٌ.

أيُّها المسلمونَ!

إنّما كانَ هذا الوعيدُ والعذابُ الشديدُ على تلكمُ الخَصلةِ الذميمةِ؛ لأجلِ منازعةِ العبدِ الحقيرِ ربَّه القديرَ فيما هو من خصائصِه التي لا يشاركُه فيها أحدٌ؛ فالكبرياءُ من خصائصِ الربوبيّةِ، كما أنّ فيهِ — بل هو الأصلُ الذي نشأَ منه – العجبَ بالنفسِ والتِّيهَ بتعظيمِها فوقَ قدرِها وجحودَ نعمةِ الربِّ — سبحانه –ونسيانَها. وكذلكَ، فإنّ هذا التكبرَ من أعظمِ ما يستطيلُ به العبدُ على الخلقِ ويغرقُ في ظلمِهم، يقولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ: أَنْ تَوَاضَعُوا؛ حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ» رواه مسلمٌ.

معشرَ المؤمنينَ!

وحقيقةُ الكبرِ الذي يمنعُ من دخولِ الجنةِ مثقالُ الذرّةِ منه بيّنها رسولُ اللهِ ﷺأوضحَ البيانِ فيما رواه مسلمٌ إذْ يقولُ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»، فقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ». فالكبرُ يكونُ بفعلِ أحدِ أمريْنِ: ردِّ الحقّ بعد اتّضاحِه وعدمِ قَبولِه، واحتقارِ الناسِ بأيِّ صورةٍ: في هيئةٍ أو نسبٍ أو مهنةٍ أو مالٍ أو جنسيَّةٍ. فليس الكبرُ بسُكنَى القصورِ وركوبِ الفوارهِ وارتداءِ نفيسِ الثيابِ واقتناءِ جيِّدِ المتاعِ. كلا، بل هو ردُّ الحقّ واحتقارُ الناسِ. فأبصرْ — يا رعاكَ اللهُ — ذيْنكَ الأمريْنِ في قلبِك وفعلِك؛ فالميزانُ مثقالُ ذرةٍ!! والعقابُ حرمانُ جنةٍ!!

عبادَ اللهِ!

وداءُ الكبرِ كامنٌ في نفوسِ البشرِ الظلومةِ الجهولةِ إلا مَن سلّمَه اللهُ، وغالباً ما يبدُو عند إهمالِ النفسِ وتَرْكِها تَلَغُ في أهوائِها دون تزكيةٍ أو مُجاهدَةٍ، سيّما إن أذكى أوارَ الكبرِ مهيّجٌ مما قد تضعُفُ النفوسُ أمامَهُ. ومن تلك المهيّجاتِ الشهرةُ وكثرةُ الأتْباعِ، فقد رَأَى ابْنَ مَسْعُودٍ — رضي الله عنه - نَاسٌ فَجَعَلُوا يَمْشُونَ خَلْفَهُ، فَقَالَ: «أَلَكُمْ حَاجَةٌ؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: «ارْجِعُوا؛ فَإِنَّهَا ذِلَّةٌ لِلتَّابِعِ فِتْنَةٌ لِلْمَتْبُوعِ» رواه ابنُ أبي شيبةَ. والثّراءُ الماليُّ من مُهيّجاتِ الكبرِ، كما قالَ اللهُ — تعالى -: — ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾. والقُدراتُ والمواهبُ التي يفيضُها المولَى على العبادِ ويختبرُهم بها كثيراً ما تحملُ أصحابَها على الكبرِ والبطرِ، وأيُّ إعجابٍ بشيءٍ ليس للمرءِ يدٌ في إيجادِه؟!. والمنصبُ والجاهُ قرينانِ للكبرِ إلا مَن عصمَهُ اللهُ. والتعصّبُ الجاهليّ الباطلُ ممّا لم يُبنَ على أساسٍ متينٍ من الحقّ مهيّجٌ للكبر، يقولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَفَخْرَهَا بِالْآبَاءِ. مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ. أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ. لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ، إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللهِ مِنَ الْجِعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتِنَ». رواهُ أبو داودَ وحسّنه المنذريُّ والألبانيُّ.

وأمّا أسوأُ المتكبرينَ حالاً وأبأسُهم عذاباً، فهو ذلكَ الشقيُّ الذي زَهَا بنفسِه وتكبّرَ على غيرِه ولم يكنْ عنده ما يدعو إلى ذلكَ كالفقيرِ المستكبرِ، يقولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، - قَالَ أَبُو

مُعَاوِيَةَ: وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ -، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ" رواه مسلمٌ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصّلاةُ والسَّلامُ على رسولِ اللهِ.
وبعدُ، فاعلموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيُّها الإخوةُ في اللهِ!

وشفاءُ داءِ الكبرِ المقيتِ إدراكُ مغبّةِ خطرِه وألمِ عقابِه، ولزومُ خَصلةِ التواضُعِ؛ وذلكَ بأنْ يستحضِرَ المرءُ حقيقةَ حالِهِ؛ كما قالَ الأحنفُ بنُ قيسٍ — رضيَ اللهُ عنهُ -: "مَا يَنْبَغِي لِمَنْ خَرَجَ مِنْ مَخْرَجِ الْبَوْلِ مَرَّتَيْنِ أَنْ يَفْخَرَ"، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: "مَا بَالُ مَنْ أَوَّلُهُ نُطْفَةٌ مَذِرَةٌ، وَآخِرُهُ جِيفَةٌ قَذِرَةٌ، وَهُوَ بَيْنَ ذَلِكَ وِعَاءٌ لِقَذَرِهِ أَنْ يَفْخَرَ".

يا مظهـرَ الكبرِ إعجابـاً بصورتِه	انظرْ خـلاكَ فإنّ النتنَ تثريـبُ
لو فكّـرَ النـاسُ فيمـا في بطونِهمُ	ما استشْعرَ الكِبْرَ شُبـّانٌ ولا شيبُ
هل في ابـنِ آدمَ مثلُ الرأسِ مكرمةٌ	وهو بخمسٍ من الأقذارِ مضروبُ
أنـفٌ يسيلُ وأذنٌ ريحُها سـهكٌ	والعيـنُ مرفظـةٌ والثّغـرُ ملعوبُ
يا بنَ الـترابِ ومأكولَ الترابِ غداً	أقصِـرْ فإنّـك مأكولٌ ومشـروبُ

ولْيلزمْ مريدُ السلامةِ نظرةَ التواضُعِ التي أبانَها بكرُ بنُ عبدِاللهِ المُزَنيُّ — رحمَهُ اللهُ — في قولِه: "إذا رأيتَ أكبرَ منكَ فقلْ: سبقَني بالإسلامِ والعملِ الصالحِ؛ فهو

خيرٌ منّي، وإذا رأيتَ أصغرَ منك فقلْ: سبقتُه بالذنوبِ والمعاصِي؛ فهو خيرٌ منّي، وإذا رأيتَ إخوانَك يكرمونَك فقلْ: نعمةٌ أحدثُوها، وإذا رأيتَ منهم تقصيراً فقل: بذنبٍ أحدثتُه". ولْيباشرْ من الأعمالِ ما يَكْسِرُ به شَرَهَ نفسِه حين تنازعُه للكبر دونَ إذلالٍ، فقد مرّ عبدُ اللهِ بنُ سَلامٍ - رَضِيَ اللهُ عَنهُ - فِي السُّوقِ وَعَليهِ حِزمةٌ من حطبٍ، فَقيلَ لَهُ: مَا يحملُك على هَذَا وَقد أَغْنَاك اللهُ عَن هَذَا؟ قَالَ: أردْتُ أَن أدفَعَ الكبرَ؛ سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ - ﷺ - يَقُولُ: "لَا يدْخلُ الْجنَّةَ مَن فِي قلبِه خردلةٌ من كبرٍ" رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ وحسنَه المنذريُّ، وكَانَ أَبُو سِنَانٍ يَشْتَرِي الشَّيْءَ مِنَ السُّوقِ فَيَحْمِلُهُ، فَيَأْتِيهِ الرَّجُلُ، فَيَقُولُ لَهُ: يَا أَبَا سِنَانٍ، أَنَا أَحْمِلُهُ لَكَ، فَيَأْبَى، وَيَقُولُ: "إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ".

اللَّهُمَّ اهْدِنا لِأَحْسَنِ الْأَعْمَالِ وَأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَقِنا سَيِّءَ الْأَعْمَالِ وَسَيِّءَ الْأَخْلَاقِ لَا يَقِي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْت،نعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ مِنْ نَفْخِهِ وَنَفْثِهِ وَهَمْزِه.

أولئكَ همُ الراشدونَ

الحمدُ للهِ الهادِي إلى صراطِه المستقيمِ، الداعي إلى دارِ النعيمِ، ذي الفضلِ العظيمِ، والسلطانِ القديمِ، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ البرُّ الرحيمُ، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه النبيُّ الكريمُ، صلى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وصحبِه وسلمَ أوْفى تسليمٍ.

أمّا بعدُ، فاتّقوا اللهَ — أيُّها المؤمنونَ -؛ فإنَّها وصيةُ اللهِ للأوّلينَ والآخرينَ: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾.

عبادَ اللهِ!

الرشدُ مقامٌ رفيعٌ، يستقيمُ به صاحبُه على طريقِ الحقِّ، والعملِ به، والثّباتِ عليه. وذاكَ مهيَعٌ جليٌّ لا غموضَ فيه، ولا لبسَ، كما قال اللهُ — تعالَى -: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾. وكان النبيُّ ﷺ يكثرُ سؤالَ ربّه إيّاه إذْ يقولُ: "اللهمّ قني شرّ نفسِي، واعزمْ لي على أرشدِ أمري" رواه أحمدُ وصحّحه ابنُ حِبّانَ. وكان يتفاءلُ بحصولِه إذا رأى هلالَ كلِّ شهرٍ باديـاً؛ فقد كان إذا رأى الهلالَ قال: "اللهمَّ أهلَّه علينا بالأمنِ والإيمانِ، والسّلامةِ والإسلامِ، ربّي وربُّك اللهُ، هلالُ رُشدٍ وخيرٍ" رواه الترمذيُّ وحسّنه. فإنْ سألتَ عن عُمُدِ الرُّشدِ التي يقومُ عليها ساقُه ويُشيَّدُ عليها بناؤه، فإنَّها محضُ منّةٍ ربانيَّةٍ؛ يتفضّلُ بها العليمُ الحكيمُ على مَن سبقتْ له منه الحُسْنى؛ حين يحبِّبُ

إليه الإيمانَ، ويزيِّنُه في قلبه، ويبغِّضُ إليه الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ؛ يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةًۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

أيُّها المؤمنونَ!

إنَّ محبةَ القلبِ للإيمانِ وإصغاءَه إليه واستحسانَه له، ونفرتَه من المعاصِي وبغضَها بشتى صوَرِها، أجلُّ ما يُكرِمُ اللهُ به عبدَه؛ فبها يُشرَحُ الصدرُ للهُدى، وتُحفَّزُ النفسُ للطّاعةِ، وتَصبرُ على مشاقِّها، وتُستعذَبُ لأْواءُ الأقدارِ، وتُجتَنبُ مواطنُ المساخطِ والقبائحِ؛ وذاك سبيلُ الرّشدِ اللاحبُ، وقرارُه المَعينُ؛ إذْ هو بصيرةٌ نافذةٌ وافقتْ أمرَ اللهِ في تحسينِ ما حسّنَ، وتقبيحِ ما قبّحَ؛ إقراراً وقولاً، تركًا وفعلاً، وهل الرّشدُ إلا هذا؟! يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، ويقولُ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ﴾. وهذا ما جعلَ النبيَّ ﷺ يسألُ ربَّه تلكَ الكرامةَ، ومودَّةَ من أُكرِم بها، ومودَّةَ كلِّ سببٍ موصلٍ لها؛ إذْ كان يدعُو قائلاً: "أَسْأَلُكَ حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَى حُبِّكَ " رواه الترمذيُّ وقال: حسنٌ صحيحٌ. فالفضلُ من اللهِ وحدَه، والعبدُ مأمورٌ بالسَّعيِ إليه، ومعاتَبٌ على التفريطِ فيه والنُّكوصِ عنه.

عبادَ اللهِ!

إنَّ لـدركِ الرّشـدِ أسـباباً يـأتي أوّلُهـا طاعـةُ اللهِ — عـزّ وجـلّ — ورسـولِه — عليـه الصلاةُ والسلامُ -؛ فقـد قـالَ ﷺ: "مَـن يُطـعِ اللهَ ورسـولَه فقـد رَشَـدَ" رواه مسلمٌ. واتّبـاعُ القـرآنِ جـادّةُ مَـن طلـبَ الرَّشـادَ، كمـا قـال اللهُ — سـبحانَه — عـن مؤمنِـي الجـنِّ: ﴿إِنَّـا سَـمِعۡنَا قُرۡءَانًـا عَجَبًـا ۝١ يَهۡـدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡـدِ﴾. وطلـبُ العلـمِ النافـعِ مـن سبلِ تحصيلِ الرشـادِ، كمـا قـال اللهُ — تعالـى — علـى لسـانِ كليمِـه موسـى للخضـرِ — عليهمـا السّـلامُ -: ﴿هَـلۡ أَتَّبِعُـكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَـنِ مِمَّـا عُلِّمۡـتَ رُشۡـدًا﴾. وسـؤالُ اللهِ — سـبحانَه — تلـكَ المنزلـةَ طريـقٌ قويـمٌ لنوالِهـا؛ فقد سـألَها فتيـةُ الكهـفِ حيـن أوَوْا إلـى كهفِهـم؛ ﴿فَقَالُـواْ رَبَّنَـآ ءَاتِنَـا مِـن لَّدُنـكَ رَحۡمَـةً وَهَيِّـئۡ لَنَـا مِـنۡ أَمۡرِنَـا رَشَـدًا﴾، وأَمَـرَ اللهُ — تعالـى — نبيَّـه —عليه السلامُ — بذلـك السـؤالِ في ذاتِ سـورةِ الكهـفِ إذْ يقـولُ: ﴿وَقُـلۡ عَـسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَـنِ رَبِّي لِأَقۡـرَبَ مِـنۡ هَـٰـذَا رَشَـدًا﴾، وامتثَـلَ النبـيُّ ﷺ أمـرَ ربِّـه؛ فـكان مـن سُـؤالِه الرُّشْـدَ قولُـه: "اللهـمَّ ألهِمْني رُشـدِي، وقِني شـرَّ نفسـي!" رواه الترمـذيُّ وصحّحـه الحاكـمُ، وقولُـه: "اللَّهُـمَّ إِنِّـي أَسْـأَلُكَ الثَّبَـاتَ فِـي الْأَمْـرِ، وَالْعَزِيمَـةَ عَلَـى الرُّشْـدِ" رواه أحمـدُ وصحَّحـه ابـنُ حِبـانَ، وقولُـه: "وَأَسْـأَلُكَ مَـا قَضَيْـتَ لِـي مِـنْ أَمْـرٍ أَنْ تَجْعَـلَ عَاقِبَتَـهُ رَشَـدًا" رواه أحمـدُ وصحّحـه الحاكـمُ، وقولُـه: "اللهُـمَّ حَبِّـبْ إِلَيْنَـا الْإِيمَـانَ، وَزَيِّنْـهُ فِـي قُلُوبِنَـا، وَكَـرِّهْ إِلَيْنَـا الْكُفْـرَ، وَالْفُسُـوقَ، وَالْعِصْيَـانَ، وَاجْعَلْنَـا مِـنَ الرَّاشِـدِينَ!" رواه أحمـدُ وصحَّحـه الحاكـمُ.

فاضرَعْ إلى اللهِ فيمَـا أنت تقصدُه　　　يهديكَ للرُّشـدِ في الأفعالِ والكَلِمِ

وطاعةُ خليفتَيْ رسولِ اللهِ ﷺ بِمَا اتَّفقا عليه من سبُلِ إدراكِ الرُّشدِ؛ فقد قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "إنْ يطِعِ الناسُ أبا بكرٍ وعمرَ فقد أُرشِدُوا" رواه ابنُ حِبانَ في صحيحِه. والتُّؤَدةُ في الأمرِ وملازمةُ الأناةِ من أنجحِ سبلِ الرُّشدِ، كَتَبَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ إِلَى مُعَاوِيَةَ — رضيَ اللهُ عنهما – فِي الْأَنَاةِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ مُعَاوِيَةُ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ التَّفَهُّمَ فِي الْخَيْرِ زِيَادَةٌ وَرُشْدٌ، وَإِنَّ الرَّشِيدَ مَنْ رَشَدَ عَنِ الْعَجَلَةِ، وَإِنَّ الْخَائِبَ مَنْ خَابَ عَنِ الْأَنَاةِ، وَإِنَّ الْمُتَثَبِّتَ مُصِيبٌ، أَوْ كَادَ أَنْ يَكُونَ مُصِيبًا، وَإِنَّ الْمُعَجِّلَ مُخْطِئٌ، أَوْ كَادَ أَنْ يَكُونَ مُخْطِئًا، وَإِنَّهُ مَنْ لَا يَنْفَعُهُ الرِّفْقُ يَضُرُّهُ الْخَرَقُ، وَمَنْ لَا تَنْفَعُهُ التَّجَارِبُ لَا يُدْرِكُ الْمَعَالِيَ، وَلَنْ يَبْلُغَ الرَّجُلُ مَبْلَغَ الرَّأْيِ حَتَّى يَغْلِبَ حِلْمُهُ جَهْلَهُ، وَصبرُهُ شَهْوَتَهُ، ولا يُدركُ ذلك إلا بقوةِ الحِلم »، وذاك هو الصبرُ الذي يقولُ عنه شيخُ الإسلامِ: "لا يُنالُ الرَّشادُ إلا بالصبر". واستشارةُ ذوي العلمِ والرَّأيِ استرشادٌ يقودُ إلى رشادٍ، قال الحسنُ البصريُّ: "ما تشاورَ قومٌ قطُّ إلا هُدوا لأرشدِ أمرِهم"، وذكرَ ابنُ قُتيبَةَ أنّ واعظًا نصحَ الخليفةَ أبا جعفرِ المنصورَ فقال: "يا أميرَ المؤمنينَ! إنّ للناسِ أعلامًا (علماءَ راسخينَ) يفزعُونَ إليهم في دينِهم، ويرضَوْن بهم في دُنياهم؛ فاجعلْهم بِطانتَك يُرشدوكَ، وشاوِرْهم في أمرِكَ يسدِّدُوكَ "، وصارَ من أمثلةِ العربِ السائرةِ قولُهم: "لن يعدِمَ المشاورُ مُرشداً، والمستبدُّ برأيه موقوفٌ على مداحضِ الزَّلَلِ".

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصّلاةُ والسَّلامُ على رسولِ اللهِ.

وبعدُ، فاعلموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيُّها المؤمنونَ!

إنَّ الارتواءَ من منهلِ الرُّشدِ والاصْطباغَ بشعارِه مؤذنٌ بثمارٍ يانعةِ الأثرِ والمنظرِ والمخْبرِ، وأجلُّ تلك الثمارِ ذوقُ حلاوةِ الإيمانِ، كما قال النبيُّ ﷺ: "ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ" رواه البخاريُّ ومسلمٌ. ومن شأنِ هذه الحلاوةِ ثباتُ صاحبِها على الحقِّ وعدمُ نكوصِه عنه مهما كان الثمنُ؛ فقد سأل هرقلُ أبا سفيانَ — رضيَ اللهُ عنه–عن أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ، فقال: "أَيَتَّبِعُهُ أَشْرَافُ النَّاسِ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ قَالَ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ، قَالَ: يَزِيدُونَ أَوْ يَنْقُصُونَ؟ قَالَ: لاَ، بَلْ يَزِيدُونَ، قَالَ: هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ سَخْطَةً لَهُ؟ فقال: لا، فقال هرقلُ: سَأَلْتُكَ هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ سَخْطَةً لَهُ، فَزَعَمْتَ أَنْ لاَ، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ إِذَا خَالَطَ بَشَاشَةَ القُلُوبِ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ، فَزَعَمْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حَتَّى يَتِمّ" رواه البخاريُّ ومسلمٌ، ويقولُ القرطبيُّ: "الرُّشدُ: الاستقامةُ على طريقِ الحقِّ مع تصلُّبٍ فيه؛ من الرَّشادِ، وهي الصخرةُ". وأداءُ الأمانةِ، والسّلامةُ من الخيانةِ

من أجْلى ثمارِ الرُّشدِ وأجلِّها، يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ أُفْتِيَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ إِثْمُهُ عَلَى مَنْ أَفْتَاهُ، وَمَنْ أَشَارَ عَلَى أَخِيهِ بِأَمْرٍ يَعْلَمُ أَنَّ الرُّشْدَ فِي غَيْرِهِ فَقَدْ خَانَهُ» رواه أبو داودَ وحسّنه الألبانيُّ. ونُضجُ العقلِ واستواؤه ومقاربةُ كمالِه من شأنِ تحصيلِ الرُّشدِ؛ وذلكَ مؤذنٌ بحصافةِ الرأيِّ، وسدادُ الأفعالِ والأقوالِ؛ ممّا تعلو به المنزلةُ، وتتحقّقُ الرِّفعةُ في الدّنيا والآخرةِ؛ عند اللهِ وعند خلقِه؛ فما جزاءُ مَن أكرمَه اللهُ بالإيمانِ، وثبّتهُ عليه، ورعَى الأمانةَ، وكان ذا عقلٍ وسدادِ منطقٍ وفعلٍ – إلا العلوُّ والرفعةُ، وذاك فحْوى الإشارةِ الإلهيةِ إلى مقامِ الراشدينَ الرفيعِ بأداةِ البعيدِ في قولِه — عزّ وجلّ -: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾.

يا ربّ هيّئْ لنا من أمرِنا رشدا | واجعلْ معونتَك الحسنى لنا مدَدا
ولا تكِلنا إلى تدبيرِ أنفسِنا | فالنفسُ تعجزُ عن إصلاحِ ما فسدا
أنت الكريمُ وقد جهّزتُ من أملي | إلى أيادِيكَ وجهاً سائلاً ويدا

بركةُ الصُّبْحِ

الحمدُ للهِ الحميدِ، المبدئِ المعيدِ، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له ذو العرشِ المجيدِ، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه خيرَ العبيدِ، صلى اللهُ عليه وعلى آلهِ وصحبِه وسلّمَ التسليمَ المزيدَ.

أمّا بعدُ، فاتّقوا اللهَ — عبادَ اللهِ -، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ... ﴾.

أيّها المؤمنونَ!

الإسلامُ دينُ عملٍ إيجابيٍّ مثمرٍ؛ يعودُ بالنّفعِ على العاملِ ومجتمعِه في الدّنيا والآخرةِ. ومن أخصِّ ما نبّه الدينُ على توخِّيهِ في العملِ المثمرِ تلمّسِ جوانبِ البركةِ فيه من حيثُ العملُ نفسُه، وزمنُه، ومكانُه؛ لتحُلَّ البركةُ فيه؛ فتُكسِبَه ثبوتاً مانعاً من الانقطاعِ، وزيادةً تحميه من النقصِ، وأثراً محموداً باقياً، وأجراً مُدّخراً؛ وذلك ممّا يُقتصَرُ فيه على ما وردَ به النصُّ الشرعيُّ؛ إذِ البركةُ أمرٌ غيبيٌّ لا يثبتُ إلا بدليلٍ شرعيٍّ. هذا وإنَّ من الأزمنةِ المباركةِ التي تعمُّ بركتُها الأعمالَ الواقعةَ فيها وقتَ الصبحِ أولَ النهارِ؛ فذاك وقتٌ عظيمٌ أقسمَ اللهُ به في موضعيْنِ من القرآنِ؛ كما قال سبحانَه: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾، ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾، والمعروفُ في أقسامِ القرآنِ أن تكونَ بالأشياءِ العظيمةِ الدّالةِ على قدرةِ اللهِ أو الأشياءِ المباركةِ. وقد دعا النبيُّ ﷺ لأمتِه بالبركةِ أولَ النهارِ، وكان ذلكَ الوقتُ وقتَ إنفاذِهِ مهامَّ الجهادِ ذاتِ الأهميّةِ والأثرِ، روى

صخرٌ الغامديُّ — رضيَ اللهُ عنه - أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «اللهمّ بارِكْ لأمّتي في بُكُورِها»، قال: وكان إذا بعثَ سريةً، أو جيشاً، بعثَهم أولَ النّهارِ، وكان صخرٌ رجلاً تاجراً، وكان إذا بعثَ تجارةً بعثَهم أولَ النهارِ، فأثْرى وكثُر مالُه (رواه الترمذيُّ وحسّنَه، عبدُالحقِّ الإشبيليُّ). بل ذكرَ أهلُ العلمِ أنَّ حُسنَ استغلالِ الصُّبحِ بافتتاحِه بالطَّاعةِ مؤذنٌ بامتدادِ بركتِه على اليومِ كلِّه، قال أبو ذرٍ –رضيَ اللهُ عنه –: "يومُك جَمَلُكَ؛ إذا أخذْتَ برأسِه أتاكَ ذَنَبُه"، أي: إذا كنتَ في أوّلِ النّهارِ بخيرٍ لم تزلْ فيه إلى آخرِه. قال ابنُ القيمِ: "ومن المكروهِ عندَهم النّومُ بين صلاةِ الصبحِ وطلوعِ الشمسِ؛ فإنّه وقتُ غنيمةٍ، وللسّيرِ ذلكَ الوقتِ عند السالكينَ مَزيّةٌ عظيمةٌ، حتى لو ساروا طولَ ليلِهم لم يسمَحوا بالقُعودِ عن السيرِ ذلكَ الوقتَ حتى تطلُعَ الشمسُ؛ فإنّه أوّلُ النّهارِ ومِفتاحُه، ووقتُ نزولِ الأرزاقِ، وحصولُ القسْمِ، وحلولُ البركةِ، ومنه ينشأُ النهارُ، وينسحبُ حكمُ جميعِه على حكمِ تلكَ الحصّةِ؛ فينبغي أن يكونَ نومُها كنومِ المضْطّرِّ". وكان عمرُ - رضيَ اللهُ عنه - يقولُ للتُّجارِ: "اجعلوا أولَ نهارِكم لآخرتِكم، وما بعده لدُنياكُم"، قال الغزاليُّ: "وكان صالِحو السلفِ يجعلونَ أوّلَ النّهارِ وآخرَه للآخرةِ، والوسَطَ للتجارةِ، ولم يكنْ يبيعُ الهريسةَ والرؤوسَ بُكرةً إلا الصبيانُ وأهلُ الذمةِ؛ لأنّهم كانوا في المساجدِ بعدُ".

أيُّها المسلمون!

إنّ حُسنَ استغلالِ أوّلِ النهارِ بالطاعةِ من إصابةِ الخيرِ الذي ينبَغي التهيُّؤُ له ليلاً؛ بالعزيمةِ الصادقةِ، والنومِ الكافِي، والإتيانِ بأذكارِ النومِ خاصّةً قولَ:

«اللهـمّ أسـلمْتُ نفسِـي إليـكَ، ووجهْـتُ وجهِـي إليـكَ، وألجـأتُ ظهْـري إليـكَ، وفوضـتُ أمـري إليـكَ، رغبـةً ورهبـةً إليـكَ، لا ملجـأَ ولا منْجَـا منـكَ إلا إليـكَ، آمنـتُ بكتابِـكَ الـذي أنزلْـتَ، وبنبيّـك الـذي أرسـلْتَ "، فقـد قـالَ النبـيُّ ﷺ في جزائِهـا: "فـإنّ مِـتَّ مـن ليلتِـك مِـتَّ علـى الفِطْـرةِ، وإنْ أصبحْـتَ أصبـتَ خيـراً" رواه مسـلمٌ. وخيرُ افتتـاحٍ لليـومِ وأسـاسُ بركتِـه أداءُ صـلاةِ الفجـرِ في وقتِهـا جماعـةً في المسـجدِ؛ فإنّـه ذِكْـرٌ شـريفٌ لاسـمِ المصلِّـي عند اللهِ حيـن ترفعُـه الملائكـةُ إليـه، يقـولُ النبيُّ: "يتعاقَبـونَ فيكُـم ملائكـةٌ بالّليـلِ وملائكـةٌ بالنّهـارِ، ويجتمِعـونَ في صـلاةِ الفجـرِ وصـلاةِ العصـرِ، ثـمّ يعـرجُ الذيـنَ باتُـوا فيكـم، فيسـألُهم وهـو أعلـمُ بهـم: كيـف تركتُـم عبـادِي؟ فيقولـونَ: تركْناهـم وهـم يصلُّـونَ، وأتيْناهـم وهـم يصلـونَ" رواه البخـاريُّ ومسـلمٌ. وهـو مـن أسـبابِ حفـظِ اللهِ لعبـدِه، وقيامِـه بحاجتِـه، يقـولُ النبيُّ ﷺ: "مَـن صلّـى الصبـحَ فهـو في ذمـةِ اللهِ، فـلا يطلُبنّكـم اللهُ مـن ذمَّتـه بشـيءٍ" رواه مسـلمٌ. وللذِّكـرِ وتـلاوةِ القـرآنِ بعـد صـلاةِ الفجـرِ حتـى تطلُـعَ الشـمسُ مزيّـةٌ؛ ولـذا كان النبـيُّ ﷺ لا يدعُـه، قـال جابـرُ بـنُ سـمُرةَ — رضـيَ اللهُ عنـه -: «كان النبـيُّ ﷺ لا يقـومُ مـن مُصَـلّاه الـذي يصلّـي فيـه الصبـحَ أو الغَـداةَ، حتـى تطلـعَ الشـمسُ، فـإذا طلعـتِ الشـمسُ قـامَ" رواه مسـلمٌ. والمبـادرةُ بالصّدقـةِ أولَ النهـارِ مـن أسـبابِ الظّفـرِ بدعـاءِ الملائكـةِ المُجـابِ بالخلَـفِ المبـارَكِ، يقـولُ النبـيُّ ﷺ: "مـا مـن يـوم يصبـحُ العبـادُ فيـه، إلا ملَـكانِ ينـزلانِ، فيقـولُ أحدُهمـا: اللهـمّ أعـطِ منفقـًا خلفـًا، ويقـولُ الآخـرُ: اللهـمّ أعـطِ مُمسـكًا تلفـًا" رواه البخـاريُّ ومسـلمٌ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصّلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أمّا بعدُ، فاعلمُوا أنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيُّها المؤمنونَ!

بمُفتتَحِ الصّباحِ بأعمالِ البرِّ يُنزِلُ اللهُ على اليومِ بركتَه، ويوفّقُ عبدَه لحسنِ استغلالِه، ويفتحُ اللهُ عليه من فتوحِ الأعمالِ والأحوالِ والأرزاقِ ما تطيبُ به نفسُه وتقرُّ به عينُه، ومن ذلكَ: انشراحُ الصدرِ، وطيبُ النفسِ، وقوّةُ البدنِ ونشاطُه، كما قالَ النبيُّ ﷺ: "يعقِدُ الشيطانُ على قافيةِ رأسِ أحدِكم إذا هو نامَ ثلاثَ عُقَدٍ يضربُ كلّ عُقْدةٍ عليكَ ليلٌ طويلٌ؛ فارقدْ، فإن استيقظَ فذكرَ اللهَ؛ انحلتْ عُقدةٌ، فإن توضأَ؛ انحلتْ عقدةٌ، فإنْ صلّى؛ انحلتْ عقدةٌ؛ فأصبحَ نشيطاً طيبَ النفسِ، وإلا أصبحَ خبيثَ النفسِ كسلانَ". قال ابنُ القيمِ: "وحضرْتُ شيخَ الاسلامِ ابنَ تيميةَ مرةً صلّى الفجرَ ثم جلسَ يذكرُ اللهَ - تعالى - إلى قريبٍ من انتصافِ النهارِ، ثم التفتَ إليّ، وقال: هذه غُدوتي؛ ولو لم أتغدَ الغداءَ سقطتْ قوّتي". وفي افتتاحِ العبدِ يومَه بأعمالِ البرِّ إصباحٌ منه على همّ الآخرةِ، وحضورٌ لذكرِها في قلبِه، وقد وعدَ النبيُّ ﷺ مَن أصبحَ والآخرةُ همُّه بالبركةِ وتيسُّرِ الأمرِ وراحةِ البالِ وغنَى النفسِ، يقولُ: "مَن كانتِ الآخرةُ همَّه؛ جعلَ اللهُ غناه في قلبِه، وجمعَ له شملَه، وأتتْه الدّنيا وهي راغمةٌ" رواه الترمذيُّ وصحّحه ابنُ حِبانَ. وبركةُ الرزقِ وتيسّرُه حاصلانِ إنْ طُلبَ وقتَ

البُكورِ وقتَ ارتزاقِ الطّيورِ، كما مرَّ في حديثِ صخرٍ الغامديِّ — رضيَ اللهُ عنه -، خاصّةً إنْ سُبقَ بأعمالِ البرِّ مطلعَ النهارِ. رأى عبدُ اللهِ بنُ عبّاسٍ — رضيَ اللهُ عنهما — ابناً له نائماً نومةَ الصَّبحةِ، فقال له: قُمْ؛ أتنامُ في الساعةِ التي تُقسّم فيها الأرزاقُ؟!، قال ابنُ القيمِ: "نَومةَ الضُّحى تشغلُ عن أمرِ الدّنيا والآخرةِ". فالصباحُ وقتُ الأرباحِ، قال ابنُ عبدِالبرِّ: "النجاحُ في البُكورِ"، وقال حكيمٌ: "إذا أرادَ أحدُكم حاجةً؛ فلْيبكّرْ إليها؛ فإنّ البركاتِ في البكورِ".

بكِّرا صاحبيَّ قبلَ الهجيرِ   إنّ ذاكَ النجاحَ في التبكيرِ

بصيرةٌ في الدعوةِ

إنّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، من يهدِه اللهُ فلا مضلّ له، ومن يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ...﴾.

أيُّها المؤمنونَ!

الدعوةُ إلى اللهِ — سبحانَه — أشرفُ الوظائفِ؛ فهي وظيفةُ الأنبياءِ — عليهمُ الصّلاةُ والسّلامُ -، وميراثُهم الذي ورّثوه لِمن كان له من الخيرِ حظٌّ وافرٌ. وظهورُ تلكَ الدعوةِ ومتانتُها ضمانةٌ لفلاحِ المجتمعِ وأمانِه من الغوائلِ والشرورِ، كما قالَ تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، ويقولُ سبحانَه: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ﴾. وتعظُمُ الحاجةُ إلى تلكَ الدعوةِ كلّما ازدادَ الجهلُ، واستحكمَ داءُ الغفلةِ، وأخلدَ الناسُ إلى الأرضِ، وصارتِ الدّنيا غايتَهم، وقلَّ الداعونَ إلى اللهِ.

إنّ مَن شرَع تلكَ الدعوةَ، ورغّبَ فيها، وحثّ عليها؛ شرعَ منهجَها وأبانَ أساسَها الذي يكونُ به نجاحُها وبركتُها ونفعُها، فكانَ ذلكَ المنهجُ هو خطٌّ

البصيرةِ الذي تقفّاه نبيُّ اللهِ ﷺ في دعوتِه ولم يَحِدْ عنه قَيْدَ أُنمُلةٍ؛ كما نوّه اللهُ بقولِه: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾. وقد أَوْضحَ اللهُ أبرزَ معالمِ ذلكَ المنهجِ بقولِه: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾؛ بيانٌ لشرفِ رسالةِ الدعْوةِ إلى اللهِ، وأربعةٌ من الأسُسِ التي لا يقومُ عِمادُها إلا عليها، والتي غدا بها حسنُها فائقًا حُسْنَ كلِّ قولٍ وعملٍ؛ بركةً، ونفعًا.

عبادَ اللهِ!

إنَّ نجاحَ الدّعوةِ معقودٌ بقدْرِ ما تَحقّقَ فيها من حفاظٍ لهذه الأسُسِ؛ لا بما حقَّقتْ من شُهرةٍ وعددٍ وسعةِ انتشارٍ؛ وذلكَ مُوجبٌ على الدّاعي إلى اللهِ أنْ يعتنيَ بها أيّما عنايةٍ؛ ليقبلَ اللهُ منه دعوتَه، ويكرمَه بإحْلالِ البَركةِ فيها وإبْقاءِ النّفعِ بها.

أَوّلُ تلك الأسُسِ الإخلاصُ المستلهَم من دلالةِ الحصْرِ في قولِه سبحانَه: ﴿دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ وذلكَ بألّا يرجوَ الدّاعي حظًا على دعوتِه سوى ابتغاءِ مرضاةِ اللهِ، كما كان ذلكَ منهجَ الأنبياءِ قاطِبةً في دعوتِهم، وصرّحوا به جليًّا في دعوةِ قومِهم: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾؛ فما ابتغَوْا بدعوتِهم منصبًا، ولا جاهًا، ولا وظيفةً، ولا مالاً، ولا حَظوةً، ولا ذِكراً، ولا شُهرةً، ولا ترفُّعًا. جعلوا رِضا اللهِ قِبلةَ قلوبِهم؛ فما شيءٌ يحُولُ بينهم وبينه؛ إنْ تكلّموا تكلّموا للهِ، وإنْ سكَتوا سكَتوا للهِ، وإنْ عمِلوا عمِلُوا للهِ، وإنْ قامُوا قامُوا للهِ، وإن بذلُوا بذلُوا للهِ، وإنْ عَفَوْا عفَوْا للهِ، وإنْ غضِبوا غضِبوا للهِ، وإنْ جاهَدوا جاهَدوا للهِ، لا يضرُّهم

نُكرانُ المعروفِ، وتجاهُلُ الذِّكرِ، ومصادرةُ الجهودِ؛ فقادَهم ذلكَ الإخلاصُ إلى مقامِ الصدقِ الذي به كانتْ هدايتُهم لسُبلِ البِرِّ، كما قال النبيُّ ﷺ: "إنّ الصدقَ يهدي إلى البِرِّ، وإنّ البرَّ يهدي إلى الجنةِ" متّفقٌ عليه.

أيُّها المؤمنونَ!

وثاني تلكَ الأسُسِ التي يكونُ عليها عمادُ الدعْوةِ الرّبانيّةِ قيامُها على بصيرةٍ من علمٍ راسخٍ؛ إذْ كيف يدعو إلى اللهِ، ويدلُّ على طريقِه مَن لا يعرفُ هذا الطريقَ وإنْ كان مخلصاً في دعوتِه ودلالتِه؟! ألَا وإنّ من أخطرِ ما يكتنفُ بعضَ الدعواتِ قيامَها على الحماسِ غيرِ المزمومِ بزمامِ العلمِ، وتصدّرَ الجهلةِ فيها، والتزهيدَ في العلمِ، وانتقاصَ العلماءِ الراسخينَ، وامتزاجَها بالبدعِ والخُرافاتِ. وليس من شرطِ تحقُّقِ العلمِ في الدعوةِ بلوغُ الذُّروةِ في سُلَّمِه، بل يكفي المرءَ تبليغُ ما علِمَه من دينِ اللهِ — سبحانَه –، وإنْ كان آيةً واحدةً؛ أخذاً بقولِ رسولِ اللهِ ﷺ: "بلِّغُوا عنِّي ولو آيةً" رواه البخاريُّ.

عبادَ اللهِ!

والقُدوةُ أساسٌ ثالثٌ من أسُسِ المنهجِ الشرعيِّ للدعْوةِ مُستلهَمٌ من قولِ المولى: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، وذاكَ ما تميّزتْ باطّرادِه دعواتُ الأنبياءِ — عليهمُ الصّلاةُ والسّلامُ –، كما حكى حالَهم نبيُّ اللهِ شعيبٌ — عليه الصلاةُ والسلامُ— بقولِه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾؛ وذلكَ بألّا يناقضَ فعلُ الدّاعي قولَه، بل كثيراً ما تكونُ أفعالُه ومواقفُه أبلغَ تأثيرٍ من أقوالِه؛ إذْ

تلكَ القدوةُ من أدْعى ما يحمِلُ الناسَ على اتّباعِ دعوةِ الخيرِ، كما قالَ مؤمنُ أصحابِ القريةِ: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾. قال ابنُ الجوزيُّ: "لقيتُ مشايخَ أحوالُهم مختلفةٌ، يتفاوتونَ في مقاديرِهم في العلمِ، وكان أنفعَهم لي في صُحبتِه العاملُ منهم بعلمِه، وإنْ كانَ غيرُه أعلمَ منه. ولقيتُ جماعةً من علماءِ الحديثِ يحفظونَ ويعرفونَ، ولكنّهم كانوا يتسامَحونَ بغَيْبةٍ يُخرجونَها مخرجَ جَرحٍ وتعديلٍ، ويأخذونَ على قراءةِ الحديثِ أجرةً، ويُسرعونَ بالجوابِ؛ لئلا ينكسرَ الجاهُ، وإنْ وقعَ خطأٌ. ولقيتُ عبدَ الوهّابِ الأنماطيَّ، فكان على قانونِ السلفِ؛ لم تُسمعْ في مجلسِه غَيْبةٌ، ولا كان يطلبُ أجرًا على سماعِ الحديثِ، وكنتُ إذا قرأتُ عليه أحاديثَ الرقائقِ، بكى، واتّصل بكاؤه؛ فكان -وأنا صغيرُ السنِّ حينئذٍ- يعملُ بكاؤه في قلبي، ويبني قواعدَ، وكان على سمْتِ المشايخِ الذينَ سمعْنا أوصافَهم في النَّقلِ" أهـ. وكما أنّ رعْيَ القدوةِ من أعظمِ ما يحملُ على الاتِّباعِ؛ فإنّ إخفارَها من أقوى ما يحملُ على النُّفورِ والإعراضِ، كما قالَ اللهُ عن علماءِ السّوءِ من بني إسرائيلَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصّلاةُ والسّلامُ على رسولِ اللهِ.
أمّا بعدُ، فاعلموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيُّها المسلمونَ!

ورابعُ أسُسِ نجاحِ الدعوةِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ يُبينُ أنّ الاعتزازَ بالدينِ، وقوةَ تأكيدِ الانتظامِ لجمْعِ المسلمينَ، وحسنَ الظنّ فيهم، والسعيَ في توحيدِ صفّهم وجمعِ كلمتِهم، والحفاظَ على مُسمّى أهلِه الذي سماهُم اللهُ به، ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾، وتفهُّمَ تنوّعِ مجالِ الدعوةِ ووسائلِها المشروعةِ ما دامتْ في حيّزِ مُسمّى الإسلامِ من أعظمِ أسبابِ توفيقِ الداعي في دعوتِه، وأنّ مخالفةَ ذلكَ؛ من تمزيقِ الصفِّ الإسلاميِّ بتصنيفاتٍ ما أنزلَ اللهُ بها من سلطانٍ، وتضييقِ سعةِ الإسلامِ بمسمَّياتٍ وشعاراتٍ تحملُ على التعصُّبِ، واحتكارِ الحقِّ بالدعوَى، وحصرِ نطاقِ الدعوةِ إلى الإسلامِ بوسائلَ ومجالاتٍ محدَّدةٍ من أعظمِ ما يجلبُ الإخفاقَ والتّشرذُمَ؛ وليس وراءَ ذلكَ إلا الفشلُ وذهابُ القوةِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ﴾.

عبادَ اللهِ!

إنّ قولَ اللهِ — تعالى -: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ

صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ قد حوَى من أسُسِ البصيرةِ معنىً غزيراً؛ فهلمَّ هلمَّ إلى مَعينِه!

الشيطانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ

إنَّ الحمدَ لله؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، منْ يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومنْ يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه.

أما بعدُ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ...﴾.

أيها المؤمنون!

عِداءُ الشيطانِ للبشرِ عداءٌ أزليٌّ؛ وُجِدَ منذُ نشأتِهم، ولن تَنِيَ ضراوتُه حتى يَفنى آخرُ دارجٍ منهم. وله في حربِهم وإضلالِهم أساليبُ شتّى، يأتي في مُقَدَّمِها أسلوبُ التخويفِ، سيما ما يتعلّقُ بإملاقِ الرزقِ وانقطاعِه والوعدِ بالفقرِ، كما قال تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾. وما تسلَّطَ على الخلْقِ بمثْلِ ذلك التخويفِ والتهديدِ، وأجلبَ عليهم فيه؛ إلا لِعلمِه بما جُبِلَتْ عليه نفوسُهم من حبِّ المالِ، كما قال سبحانَه: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾، وولعِهم بالمحسوسِ المُعاينِ عن الغائبِ الموعودِ، وإيثارِهِمُ العاجلةَ وحبَّ التَّرَفُّهِ، وانفتانِهم بسوابغِ نعمِ الدنيا التي يُبتلى بها البعضُ، وما يُحدثُه ذلك التخويفُ في قلوبِهم من هزِّ الثوابتِ، وتسهيلِ ارتكابِ المآثمِ، بل الموبقاتِ! فما مُنِعتِ الحقوقُ، ولا امتدتْ يدُ الإثمِ بأخذِ المالِ المصونِ، ولا سُفِكَ الدمُ المعصومُ، ولا اسْتُبيحَ الفرجُ الحرامُ، ولا أُسيءَ الظنُّ باللهِ، ولا انقطعَ الرِّفْدُ ورعايةُ الضعيفِ، وفَشَتِ الأَثَرةُ، وغدا المالُ مَعْقِدَ الإخاءِ والقطعيةِ

بمثْلِ ذلك التخويفِ الشيطانيِّ؛ ولذا قُرِنَ وعْدُ الشيطانِ بأمْرِه بالفحشاءِ، وهي المنكراتُ البالغةُ في السوءِ والفُحْشِ مبْلغاً عظيماً؛ لقوةِ إفضائه لها. قال سفيانُ الثوريُّ: "ليس للشيطانِ سلاحٌ كخوفِ الفقرِ، فإذا قَبِلَ ذلك منه؛ أخذَ بالباطلِ، ومنعَ من الحقِّ، وتكلَّمَ بالهوى، وظنَّ بربِّه ظنَّ السوءِ". وربما نفَثَ الشيطانُ سُمَّ ذلك التخويفِ في النفوسِ بإلقاءِ الوساوسِ، وربما اكتفى بما يُلقيه على ألسنِ مَن فتَنَهم وأسكرَهم حبُّ الدنيا؛ فباتوا يُخوِّفون الناسَ من المستقبلِ المجهولِ، والفقرِ المائيِّ، والتَّصَحُّرِ الجُغرافيِّ، والانفجارِ السكانيِّ، وتفشِّي البطالةِ، ونُضوبِ الثرواتِ. فكيف كان العلاجُ الربانيُّ للسلامةِ من ذلك التخويفِ الشيطانيِ؟

عبادَ اللهِ!

إنَّ خالقَ الإنسانِ، وعالِمَ ضعْفِه، والخبيرَ بتسلُّطِ الشيطانِ عليه؛ قد أرشدَ برحمتِه وهدايتِه إلى طريقِ النجاةِ من ذلك الفخِّ الوخيمِ؛ الذي به يُحقَّقُ الإيمانُ، وينخَنسُ الشيطانُ، ويَملأُ حسنُ الظنِّ باللهِ أركانَ الوجودِ، ويُضيءُ بنورِه حنادسَ المضائقِ، ويُبدِّدُ بقوتِه جحافلَ المخاوفِ، وتَطِيبُ الحياةُ، ويُبارَكُ الرزقُ، وتُقامُ الحقوقُ، وتُحفظُ الكرامةُ، ويُنصَرُ الدِّينُ. وأساسُ بناءِ تلكمُ النجاةِ اليقينُ الجازمُ بتفردِ اللهِ بالرزقِ، وتقديرِه له قبلَ خلْقِ الخلْقِ، وتكفُّلِه به، وأنه لا معطيَ لما مَنَعَ، ولا مانعَ لما أعطى، وأنَّ رِزقَ اللهِ لا يَجُرُّه حِرْصُ حريصٍ، ولا يردُّه كراهيةُ كارهٍ، وأنَّ نفساً لن تموتَ حتى تستوفيَ رزقَها، وأنَّ خزائنَ اللهِ المَلأى لا تضيقُ عن مطالبِ أرزاقِ الخلقِ قاطبةً، ولا تُنْقِصُها

تلكمُ المطالبُ إلا كما تُنْقِصُ الإبرةُ ماءَ البحرِ الخِضَمِّ إنْ أُدخلتْ فيه. قال اللهُ —تعالى-: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾، ويقولُ الرسولُ ﷺ: "إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيد" رواه مسلمٌ، ويقولُ: " إنَّ رُوحَ القدُسِ نَفَثَ في رُوعِي أنَّ نفساً لن تموتَ حتى تستكملَ رزقَها؛ فاتقوا اللهَ، وأجْمِلُوا في الطَّلَبِ" رواه أبو عبيدٍ وصحّحه الألبانيُّ، ويقولُ: "لا تستبطئوا الرزقَ؛ فإنه لم يكنْ عبدٌ ليموتَ حتى يَبلغَ آخرَ رزقٍ هو له، فأجملوا في الطَّلبِ؛ أَخْذُ الحلالِ، وتَرْكُ الحرامِ" رواه الحاكمُ وصحّحه على شرطِ الشيخين ووافقه الذهبيُّ. قال أبو سليمانَ الدارانيُّ:"مَن وَثِقَ باللهِ في رزقِه؛ زاد في حُسْنِ خُلُقِه، وأعْقبَه الحِلْمَ، وسَخَتْ نفسُه في نفقتِه، وقلّتْ وساوسُه في صلاتِه". والالتجاءُ إلى اللهِ، والاحتماءُ بحِماه عاصمٌ بإذنه من ذلك النزغ الشيطانيِّ، يقولُ تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، وإنْ جُمِعَ مع الاستعاذةِ الاستغفارُ فذاك أقوى في طلبِ السلامةِ؛ إذ ما سُلِّطَ الشيطانُ إلا بذنبٍ، يقولُ عبدُاللهِ بنُ مسعودٍ —رضي اللهُ عنه-: "إِنَّ لِلْمَلِكِ لَمَّةً، وَإِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً، فَلَمَّةُ الْمَلِكِ إِيعَادٌ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَهَا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَلَمَّةُ الشَّيْطَانِ إِيعَادٌ بِالشَّرِّ، وَتَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَهَا فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ" رواه عبدُالرزاقِ وحسَّنه الألبانيُّ، وفي روايةِ الطبرانيِّ: "وإذا وجدتم لمّةَ الشيطانِ؛ فاستعيذوا باللهِ، واستغفروه". والقناعةُ بقسمةِ اللهِ الرزقَ،

والرضا عنه، واستحضارُ حياةِ الواثقين باللهِ الذين عاشوا هذه القناعةَ والرضا واليقينَ حالاً وواقعاً في حياتِهم؛ فكانت مواقفُهم للمؤتسين عزاءً وسَلْوةً- من أبلغِ ما تُطْرَدُ به وساوسُ الشيطانِ ومخاوفُه، ومن أقوى ما يقوّي قلبَ المرءِ إزاءَ إجلابه عليه بسلاحِ الفقرِ، وإمامُهم الرائدُ في ذلك رسولُ اللهِ ﷺ الذي كان يُخرجُه الجوعُ من بيته بحثاً عن لقمةٍ تُسَكِّنُه، وكان يربطُ الحجرَ على بطنِه، ويَمضي عليه الشهران لا يجدُ طعاماً سوى الأسودين؛ الماءِ والتمرِ. وعلى نَهْجِه سارَ أئمةُ الهدى من أصحابِه وتابِعِهم بإحسانٍ؛ لا يَحملُهم تخويفُ الشيطانِ وتهديدُه بقطْعِ الأرزاقِ على سوءِ الظنِّ بربِّهم، أو يصدُّهم خوفُ الإقتارِ عن الإنفاقِ، أو يُلْجِؤُهم إلى الدَّنيةِ والمذلةِ؛ ثقةً بحسنِ جزاءِ ربِّهم، وجزيلِ خلَفِه، وحفْظِه لمن قامَ بأمرِه. قيل لبعضِهم: مِن أينَ تأكلُ؟ وقال: الذي خلَقَ الرَّحى يأتيها بالطحينِ، والذي شَدَقَ الأشداقَ هو خالقُ الأرزاقِ. وقيل لأبي أُسيدٍ: من أين تأكلُ؟ فقال: سبحانه اللهُ! واللهُ أكبرُ! إنَّ اللهَ يرزقُ الكلبَ؛ أفلا يرزقُ أبا أُسيدٍ؟! وقيل لحاتمٍ الأصمِّ: من أين تأكلُ؟ فقال: من عندِ اللهِ، فقيل له: اللهُ يُنزِلُ لك دنانيرَ ودراهمَ من السماءِ؟! فقال: كأنَّ ما له إلا السماءُ؟! يا هذا، الأرضُ له، والسماءُ له، فإنْ لم يُؤْتني رزقي من السماءِ ساقه لي من الأرضِ، وأنشدَ:

وكيفَ أخافُ الفقرَ واللهُ رازقي ... ورازقُ هذا الخلْقِ في العسرِ واليسرِ
تكفَّلَ بالأرزاقِ للخلْقِ كلِّهم ... وللضبِّ في البيداءِ والحوتِ في البحرِ

وَقَالَ أَبُو حَازِمٍ: كَيْفَ أَخَافُ الْفَقْرَ، وَلِمَوْلايَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ، وَمَنْ فِيهِمَا، وَمَا تَحْتَ الثَّرَى؟! وقيل له: أرأيتَ أنَّ السعرَ غلا؟! قال: وما يُغِمُّكم من ذلك؛ إنَّ الذي رزقنا في الرخصِ يرزقُنا في الغلاءِ! قال بعضُ أهلِ العلمِ: "قرأتُ في تسعينَ موضعًا من القرآنِ أنَّ اللهَ قدَّرَ الأرزاقَ وضمِنها لخلْقِه، وقرأتُ في موضعٍ واحدٍ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ﴾، فشككنا في قولِ الصادقِ في تسعين موضعًا، وصدَّقنا الكاذبَ في موضعٍ واحدٍ! شكى رجلٌ إلى إبراهيمَ بنِ أدهمَ كثرةَ العيالِ، فقال: ابعثْ إليّ منهم مَن لا رزقهُ على اللهِ؛ فسكتَ الرجلُ. وقال حاتمُ الأصمُّ: "لي أربعةُ نسوةٍ، وتسعةٌ من الأولاد، ما طَمِعَ الشيطانُ أنْ يوسوسَ إليَّ في شيءٍ من أرزاقِهم". وقال مسروقُ بنُ الأجدعِ: "أوْثقُ ما أكونُ بالرزقِ حين يجيءُ الخادمُ، فيقولُ: ما في البيتِ طعامٌ، ولا دقيقٌ، ولا ماءٌ". وأصبحَ يومًا وليس لعيالِه رزقٌ، فجاءتْه امرأتُه قُميرٌ، فقالت له: يا أبا عائشةَ، إنه ما أصبحَ لعيالِك اليومَ رزقٌ، فتبسمَ وقال: واللهِ ليأتينَّهم اللهُ برزقٍ. وَقَالَ أَبُو عَبْدِالرَّحْمَنِ الْعُمَرِيُّ: "كُنْتُ جَنِينًا فِي بَطْنِ أُمِّي، وَكَانَ يُؤْتَى بِرِزْقِي حَتَّى يُوضَعَ فِي فَمِي، حَتَّى إِذَا كَبِرْتُ وَعَرَفْتُ رَبِّي سَاءَ ظَنِّي، فَأَيُّ عَبْدٍ أَشَرُّ مِنِّي؟!"، قال عبدُاللهِ بنُ عبدِالحكمِ للشافعيِّ: إنْ عزمتَ أنْ تسكنَ مصرَ؛ فليكنْ لك قوتُ سنةٍ، ومجلسٌ من السلطانِ تتعزَّزُ به، فقال له الشافعيُّ: يا أبا محمدٍ، مَن لم تُعِزَّه التقوى فلا عزَّ له، ولقد وُلِدتُ بغزةَ، ورُبِّيتُ بالحجازِ، وما عندنا قوتُ ليلةٍ، وما بِتْنَا جياعًا، وقال: "لا يستوحشْ أحدُكم من الإفلاسِ؛ فإني قد أفلستُ ثلاثَ مراتٍ، ثم أيْسَرْتُ". وقال مُحَمَّدُ بن بَحرٍ الشجينيُّ: "كنتُ أخافُ الفقرَ مع ما كنتُ أملكُ من المالِ، فَقَالَ لي

يَوْمًا أبُو حَفْصٍ النيسابوري: إنْ قضى اللهُ عَلَيْك الفقرَ لا يقدرُ أحدٌ أنْ يُغْنِيك؛ فَذهبَ خوفُ الفقرِ من قلبِي رَأْسًا!". وقال أحمدُ بنُ سلمانَ القطيعيُّ: "أضقتُ إضاقةً، فمضيتُ إلى إبراهيمَ الحربيِّ؛ لأبثَّه ما أنا فيه، فقال لي: لا يضيقُ صدرُك؛ فإنَّ اللهَ من وراءِ المعونةِ، وإني أضقتُ مرةً حتى انتهى أمري في الإضاقةِ إلى أنْ عَدِمَ عيالي قوتَهم، فقالت لي الزوجةُ: هبْ أنّي وإياك نصبرُ؛ فكيف نصنعُ بهاتين الصبيتين؟! فهاتِ شيئًا من كتبِك حتى نبيعَه أو نرهنَه، فضننتُ بذاك، وقلتُ: اقترضي لهما شيئًا، وأنظريني بقيةَ اليومِ والليلةِ، وكان لي بيتٌ في دهليزِ داري فيه كتبي، فكنتُ أجلسُ فيه للنسخِ والنظرِ، فلما كان في تلك الليلةِ إذا داقٌّ يدقُّ البابَ، فقلتُ: مَن هذا؟ فقال: رجلٌ من الجيرانِ، فقلتُ: ادخلْ، فقال: اطفئِ السراجَ حتى أدخلَ، فكببتُ على السراجِ شيئًا، وقلتُ: ادخلْ، فدخلَ وتركَ إلى جانبي شيئًا، وانصرفَ، فكشفتُ عن السراجِ ونظرتُ فإذا منديلٌ له قيمةٌ، وفيه أنواعٌ من الطعامِ، وكاغدٌ فيه خمسمائةِ درهمٍ، فدعوتُ الزوجةَ، وقلتُ: أنبهي الصبيانَ حتى يأكلوا، ولمّا كان من الغدِ قضينا دَيْنًا كان علينا من تلك الدراهمِ، وكان وقتَ مجيءِ الحاجِّ من خراسانَ، فجلستُ على بابي من غدِ تلك الليلةِ، وإذا جمّالٌ يقود جملين عليهما حِمْلانِ وَرِقًا (فضةً) وهو يسألُ عن منزلِ إبراهيمَ الحربيِّ، فانتهى إلي، فقلت: أنا إبراهيمُ الحربيُّ، فحطَّ الحِملينِ، وقال: هذان الحِمْلانِ أنفذَهما لك رجلٌ من أهلِ خراسانَ، فقلتُ: مَن هو؟ فقال: قد استحلفني أن لا أقولَ مَن هو!". وزرعَ قومٌ مِنَ الأَعْرَابِ زَرْعًا، فَلَمَّا بَلَغَ أَصَابَتْهُ آفَةٌ فَذَهَبَتْ بِهِ، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، حَتَّى رُؤِيَ فِيهِمْ، فَخَرَجَتْ أَعْرَابِيَّةٌ مِنْهُمْ، فَقَالَتْ: مَا لِي أَرَاكُمْ مُتَغَيِّرَةً أَلْوَانُكُمْ،

مَيِّتَةً قُلُوبُكُمْ؛ هُوَ رَبُّنَا؛ فَلْيَفْعَلْ بِنَا مَا يَشَاءُ، وَرِزْقُنَا عَلَيْهِ، يَأْتِي بِهِ مِنْ حَيْثُ يَشَاءُ، ثُمَّ أَنْشَدَتْ تَقُولُ:

لَوْ كَانَ فِي صَخْرَةٍ فِي الْبَحْرِ رَاسِيَةٍ صَمَّاءَ مَلْمُومَةٍ مُلْسٍ نَوَاحِيهَا
رِزْقُ نَفْسٍ بَرَاهَا اللهُ لانْفَلَقَتْ حَتَّى تُؤَدِّي إِلَيْهِ كُلَّ مَا فِيهَا
أَوْ كَانَ بَيْنَ طِبَاقِ السَّبْعِ مَسْلَكُهَا لَسَهَّلَ اللهُ فِي الْمَرَاقِي مَرَاقِيهَا
حَتَّى تنَالَ الَّذِي فِي اللَّوْحِ خُطَّ لَهَا فَإِنْ أَتَتْهُ وَإِلا سَوْفَ يَأْتِيهَا

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أما بعدُ، فاعلموا أن أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيها المؤمنون!

شتانَ بين وعْدِ الفقرِ الشيطانيِّ ووعْدِ الفضلِ الربانيِّ؛ ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾! قال ابنُ القيمِ: "هذا، وإنَّ وعْدَه له الفقرَ ليسَ شفقةً عليه، ولا نصيحةً له كما ينصحُ الرجلُ أخاه، ولا محبةً في بقائه غنيًا، بل لا شيءَ أحبَّ إليه من فقرِه وحاجتِه، وإنما وعْدُه له بالفقرِ وأمْرُه إياه بالبخلِ؛ ليسيءَ ظنَّه بربِّه، ويتركَ ما يحبُّه من الإنفاقِ لوجهِه؛ فيستوجبَ منه الحرمانَ. وأمّا اللهُ -سبحانَه-، فإنَّه يَعِدُ عبدَه مغفرةً منه لذنوبِه، وفضلًا بأنْ يَخْلِفَ عليه أكثرَ مما أنفقَ وأضعافَه؛ إمّا في الدنيا، أو في الدنيا والآخرةِ، فهذا وعْدُ اللهِ، وذاك وعْدُ الشيطانِ؛ فلينظرِ البخيلُ والمنفقُ أيَّ الوعْدين هو أوثقُ؟ وإلى أيِّهما يطمئنُ قلبُه وتسكنُ نفسُه؟ واللهُ يوفقُ مَن يشاءُ، ويخذلُ مَن يشاءُ، وهو الواسعُ العليمُ".

دلّاهمُ بغُرورٍ ثم أوْردهمْ إنَّ الخبيثَ لمن والاه غرَّارُ

هذا، وإن مما يُعلمُ ضرورةً من الدِّينِ أنه لا تعارضَ بين تيقُّنِ الرزقِ وعدمِ الخوفِ من الفقرِ وسعْيِ المرءِ في طلبِ الرزقِ من أسبابِه المشروعةِ، وحسنِ

تدبيرِه نفقتَه ومعيشتَه؛ بل ذاك من تكليفِ الشرعِ، وحصيفِ الأمرِ، ومما يقوي الثقةَ باللهِ؛ إذ ذاك أمْرُه كما كان تفردُّه بالرزقِ وتخويفُ الشيطانِ بالفقرِ خبرُه؛ وكَانَ يُقَالُ: "حُسْنُ التَّدْبِيرِ مِفْتَاحُ الرُّشْدِ، وَبَابُ السَّلَامَةِ الِاقْتِصَادُ"، وقال أَبُو الْأَسْوَدِ الدُّؤَلِيُّ لِابْنِهِ: "يَا بُنَيَّ، إِذَا وَسَّعَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- عَلَيْكَ فَوَسِّعْ، وَإِذَا قَتَّرَ عَلَيْكَ فَاقْتُرْ، وَلَا تُجَاوِدِ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ-؛ فَإِنَّهُ أَكْرَمُ، وَأَقْدَرُ، وَأَجْوَدُ".

حسنُ التعاملِ

إنّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مضلّ له، ومَن يضللْ فلا هادي له،وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ ...﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ... ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ... ﴾

أيّها المؤمنونَ!

حسنُ التعاملِ وجوْدةُ بناءِ العلاقةِ من أبلغِ وسائلِ الرّضى وكسبِ المحبةِ والظفرِ بالمطلوبِ، وإنّ ثَمّتْ علاقاتٍ ثلاثاً هي أهمُّ ما أوْلى المرءُ همّتَه بتعلُّمِها ومجاهدةِ نفسِه على حسنِ أدائها وتقويمِ اعوجاجِها؛ لدوامِ مباشَرتِه لها في كلّ وقتٍ وعظيمِ عاقبتِها دُنيا وأُخرى، تلكُم هي العَلاقةُ مع اللهِ ومع النفسِ ومع الناسِ. والفهمُ السليمُ لتلكَ العلائقِ لا يكونُ إلا من خلالِ نصوصِ الوحيِ المعصومِ،ومن أبرزِ تلكَ النصوصِ المبيِّنةِ لهذه العلائقِ ما أوْصى به النبيُّ ﷺ مُعاذَ بنَ جبلٍ - رضيَ اللهُ عنه — فقالَ: «اتَّقِ اللهِ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ» رواه الترمذيُّ وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

أيُّها الأحبةُ!

أفصحتْ هذه الوصيّةُ — بجلاءٍ - تلكَ العلائقَ وسبلَ التعاملِ الحسنِ معها:

أمّا العلاقةُ الأولى: فمعَ الخالقِ - سبحانَه — مُوجِدِ العدمِ وبارئِ النّسَمِ ومُسبغِ النعمِ ودافعِ النقمِ ومَن إليه المعادُ يومَ الدينِ. وجِماعُها التقوى، وذلكَ ما أوصَى اللهُ به الأوّلينَ والآخِرينَ فقال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾،التقوى محطُّ الكرامةِ، ومناطُ تفاوُتِ نُزُلِ الناسِ عند ربِّ العالمينَ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، التقوى سبيلُ وُلوجِ الجِنانِ والسّلامةِ من سقرَ ﴿إن المتقينَ في جناتٍ ونعيمٍ﴾. وَأَصْلُ التَّقْوَى أَنْ يَجْعَلَ الْعَبْدُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَخَافُهُ وَيَحْذَرُهُ وِقَايَةً تَقِيهِ مِنْهُ، فَتَقْوَى الْعَبْدِ لِرَبِّهِ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَخْشَاهُ مِنْ رَبِّهِ مِنْ غَضَبِهِ وَسُخْطِهِ وَعِقَابِهِ وِقَايَةً تَقِيهِ مِنْ ذَلِكَ، وَتلك الوقايةُ هيَ فِعْلُ طَاعَتِهِ وَاجْتِنَابُ مَعَاصِيهِ؛ فيعلمُ ما يُتقَى أولاً ثم يتّقي بعد ذلكَ. قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: لَيْسَ تَقْوَى اللهِ بِصِيَامِ النَّهَارِ، وَلَا بِقِيَامِ اللَّيْلِ، وَالتَّخْلِيطِ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ تَقْوَى اللهِ تَرْكُ مَا حَرَّمَ اللهُ، وَأَدَاءُ مَا افْتَرَضَ اللهُ، فَمَنْ رُزِقَ بَعْدَ ذَلِكَ خَيْرًا، فَهُوَ خَيْرٌ إِلَى خَيْرٍ. وَقَالَ طَلْقُ بْنُ حَبِيبٍ: التَّقْوَى أَنْ تَعْمَلَ بِطَاعَةِ اللهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللهِ تَرْجُو ثَوَابَ اللهِ، وَأَنْ تَتْرُكَ مَعْصِيَةَ اللهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللهِ تَخَافُ عِقَابَ اللهِ. ولا تجمُلُ التقوى إلا باطرادّها في غالبِ الحالِ "اتقِ اللهَ حيثُما كنتَ" في خَلوتِكَ وجَلوتِكَ، وحزنِك وسلوتِك، وسقَمِك وصحتِك، وغناك ومتربتِك، وظعنِك وإقامتِك. وَمَنْ صَارَ لَهُ هَذَا الْمَقَامُ حَالًا دَائِمًا أَوْ غَالِبًا، فَهُوَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ اللهَ كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَهُ،

وَمِـنَ الْمُحْسِـنِينَ الَّذِيـنَ يَجْتَنِبُـونَ كَبَائِـرَ الْإِثْـمِ وَالْفَوَاحِـشَ إِلَّا اللَّمَـم. بهـذا تكـونُ العلاقـةُ مـع المولـى — جـلّ وعـلا -. وهـي أهـمُّ العلائـقِ؛ ولـذا كان الصالحـونَ يتعاهدونَهـا مـع إخوانِهم،كَتَبَ رَجُـلٌ مِـنَ السَّـلَفِ إِلَـى أَخٍ لَـهُ: أُوصِيـكَ بِتَقْـوَى اللهِ، فَإِنَّهَـا أَكْـرَمُ مَـا أَسْـرَرْتَ، وَأَزْيَـنُ مَـا أَظْهَـرْتَ، وَأَفْضَـلُ مَـا ادَّخَـرْتَ، أَعَانَنَـا اللهُ وَإِيَّـاكَ عَلَيْهَـا، وَأَوْجَـبَ لَنَـا وَلَـكَ ثَوَابَهَـا. وَكَتَـبَ رَجُـلٌ مِنْهُـمْ إِلَـى أَخٍ لَـهُ: أُوصِيـكَ وَنفسي، بِالتَّقْـوَى فَإِنَّهَـا خَيْـرُ زَادِ الْآخِـرَةِ وَالْأُولَـى، وَاجْعَلْهَـا إِلَـى كُلِّ خَيْـرٍ سَـبِيلَكَ، وَمِـنْ كُلِّ شَـرٍّ مَهْرَبَـكَ، فَقَـدْ تَـوَكَّلَ اللهُ عَـزَّ وَجَـلَّ لِأَهْلِهَـا بِالنَّجَـاةِ مِمَّـا يَحْـذَرُونَ، وَالـرِّزْقِ مِـنْ حَيْـثُ لَا يَحْتَسِـبُونَ.

وأمـا العَلاقـةُ الثانيـةُ — أيّهـا الإخـوةُ - فالعلاقـةُ مـع النفسِ: وإذا عـرفَ المـرءُ نفسَـه عـرف كيـف يعاملُهـا. هـذا، وقـد أبـان المولـى — وهـو مَـن خَلـقَ النفـوسَ وعلـمَ مـا يصْلِحُهـا —صفتيْـنِ ذميمتيْـنِ جُبلـتْ عليهـا النفـوسُ البشـريةُ همـا كثـرةُ الظلـمِ والجهـلِ، كمـا قـال اللهُ — تعالـى -: ﴿وَحَمَلَهَـا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّـهُۥ كَانَ ظَلُومًـا جَهُـولًا﴾، ومَـن كان كثيـرَ الظلـمِ والجهـلِ كان كثيـرَ الزلـلِ،بـل إنّ ذلـكَ لاحـقٌ أهـلَ التُّقـى، وعـلاجُ ذلـكَ: إتْبـاعُ السـيئةِ الحسـنةِ: "وأتبـع السَّـيِّئَةَ الحَسَـنَةَ تَمْحُهَـا". وخيـرُ الحسـناتِ - بعـد التوحيـدِ - التوبـةُ النّصُـوحُ التي يكـونُ بهـا الإقـلاعُ عـن الذنـبِ والنـدمُ عليـه والعـزمُ على عـدمِ العـودِ لـه وردُّ المظالـمِ واسـتحلالُ أهلِهـا، عندهـا تُمحَـى الذنـوبُ، بـل يقلبُهـا اللهُ حسـناتٍ وإنْ كانـتِ الذنـوبُ مـن الكبائـرِ، يقـولُ اللهُ تعالـى في صفـاتِ عبـادِ الرحمـنِ: ﴿وَٱلَّذِيـنَ لَا يَدْعُـونَ مَـعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًـا ءَاخَـرَ وَلَا يَقْتُلُـونَ ٱلنَّفْـسَ ٱلَّـتِي حَـرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُـونَ ۚ وَمَـن يَفْعَـلْ ذَٰلِـكَ يَلْـقَ أَثَامًـا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَـفْ لَهُ ٱلْعَـذَابُ يَـوْمَ ٱلْقِيَٰمَـةِ وَيَخْلُـدْ فِيـهِۦ مُهَانًـا

﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، بهذا يكونُ الفلاحُ كما قال اللهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾، ولأجلِ تحصيلِ الفلاحِ أمرَ اللهُ جميعَ المؤمنينَ بالتوبةِ فقال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. يلي التوبةَ في جبِّ الأوزارِ أعمالٌ صالحةٌ متفاوتةُ الأجورِ؛ فالصلاةُ والصيامُ والزكاةُ والحجُّ والعمرةُ والأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكرِ والوضوءُ وذكرُ اللهِ وحضورُ مجالسِ الذكرِ والبكاءُ من خشيةِ اللهِ وقيامُ الليلِ وليلةُ القدرِ والصدقةُ كفاراتٌ للذنوبِ إنِ اجتُنبتِ الكبائرُ، وأمّا الكبائرُ فلا يكفرُها إلا التوبةُ. هذا، وإنّ من حسنِ إتْباعِ الحسنةِ تعجيلَها؛ لتكونَ في أثرِ السيّئةِ؛ فيمحو الأثرُ الحسنُ سيّءَ الأثرِ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾. فتلكَ زكاةُ النفسِ و ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسّلامُ على رسولِ اللهِ.
وبعدُ، فاعلموا أنّ أحسنَ الحديثِ...أيُّها المؤمنونَ!

والعَلاقـةُ الثالثـةُ مـع النـاسِ: وجِماعُهـا حسـنُ الخُلـقِ، "وخالـقِ النـاسَ بخُلـقٍ حسـنٍ"، وحسـنُ الخُلـقِ مـن خصـالِ التّقـوى، وإنّمـا أُفـردَ لأهميتِـه؛ إذْ كثيـرونَ يظنُّونَ التّقوى محصورةً في القيامِ بحقِّ اللهِ دونَ عبادِه. وحسـنُ الخُلُـقِ أثقلُ شيءٍ في الميزانِ، بـل يبلغْ بصاحبِـه درجـةَ الصائـمِ القائـمِ، يقـولُ الرسـولُ ﷺ: «مَـا مِـنْ شَـيْءٍ يُوضَـعُ فِـي المِيـزَانِ أَثْقَـلُ مِـنْ حُسْـنِ الخُلُـقِ، وَإِنَّ صَاحِـبَ حُسْـنِ الخُلُـقِ لَيَبْلُـغُ بِـهِ دَرَجَـةَ صَاحِـبِ الصَّـوْمِ وَالصَّـلَاةِ». رواه الترمـذيُّ، وصحّحـه الألبـانيُّ. وقُـرْبِ المنزلـةِ مـن النبـيِّ ﷺ بقـدرِ حسـنِ الأخـلاقِ، يقـولُ الرسـولُ ﷺ: "ألا أخبرُكـم بأحبِّكـم إلـيَّ وأقربِكـم منّـي مجلسـًا يـومَ القيامةِ؟"،فأعادَهـا مرتيـنِ أو ثلاثـًا ، قالـوا: نعـم يـا رسـولَ اللهِ، قال:"أحسـنُكم خُلقـًا" رواه أحمـدُ وابـنُ حِبـانَ في صحِيحِـه. وقـوامُ حسـنِ الخُلـقِ رُكنـانِ: بـذلُ المعروفِ وكـفُّ الأذى، فكلُّ مـا تعـارفَ النـاسُ على حسنِه فبذلُـه مـن حسـنِ الخلـقِ، ومـن صـوَرِه التي لا تتناهـىَ: التبسُّـمُ وبسْـطُ الوجـهِ وبـذلُ السـلامِ وإعانـةُ الملهـوفِ وإرشـادُ الحائـرِ وإدخـالُ السـرورِ وتـركُ الغضـبِ والعفـوُ عـن الزَّلـلِ. وذُروةِ حسـنِ الخلـقِ مـا رُوي عـن النبـيِّ ﷺ أنـه قـالَ: "يَـا عُقْبَـةُ، أَلَا أُخْبِـرُكَ بِأَفْضَـلِ أَخْـلَاقِ أَهْـلِ الدُّنْيَـا وَالْآخِـرَةِ: تَصِـلُ مَـنْ قَطَعَـكَ وَتُعْطِـي مَـنْ حَرَمَـكَ وَتَعْفُـو عَمَّـنْ ظَلَمَـكَ" رواه الحاكمُ وسكتَ

عنه الذهبيُّ وحسّنه بعضُهم. وأمّا كفُّ الأذَى فهو الدرجةُ التي لا يُعذَرُ المرءُ بتركِها وإنْ ضعُفَ عن عملِ الخيرِ، وتلكَ أقلُّ درجاتِ حسنِ الخلقِ، فقد سألَ أبو ذرٍ - رضيَ اللهُ عنه - رسولَ اللهِ ﷺ، فقالَ: أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «الْإِيمَانُ بِاللهِ وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ» قَالَ: قُلْتُ: أَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «أَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا وَأَكْثَرُهَا ثَمَنًا» قَالَ: قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ؟ قَالَ: «تُعِينُ صَانِعًا أَوْ تَصْنَعُ لِأَخْرَقَ» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ ضَعُفْتُ عَنْ بَعْضِ الْعَمَلِ؟ قَالَ: «تَكُفُّ شَرَّكَ عَنِ النَّاسِ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ» رواه مسلمٌ، فلا يؤذي بلسانِه أو بصرِه أو سمعِه أو قلمِه أو سيارتِه أو رائحتِه؛ فإن شؤمَ الأذيّةِ بالغٌ، فقد قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: إِنَّ فُلَانَةَ تُصَلِّي اللَّيْلَ وَتَصُومُ النَّهَارَ وَفِي لِسَانِهَا شَيْءٌ يُؤْذِي جِيرَانَهَا؛ سَلِيطَةٌ، قَالَ: «لَا خَيْرَ فِيهَا هِيَ فِي النَّارِ» وَقِيلَ لَهُ: إِنَّ فُلَانَةَ تُصَلِّي الْمَكْتُوبَةَ وَتَصُومُ رَمَضَانَ وَتَتَصَدَّقُ بِالْأَثْوَارِ(الأقط) وَلَيْسَ لَهَا شَيْءٌ غَيْرُهُ وَلَا تُؤْذِي أَحَدًا، قَالَ: «هِيَ فِي الْجَنَّةِ». رواه الحاكمُ وصحّحه ووافقه الذهبيُّ.

وبعدُ، معشرَ المؤمنينَ!

هذه العلائقُ الثلاثُ، وتلكُم سبلُ إقامتِها، وثمرتُها نعيمُ الدّنيا والآخرةِ.

حسنُ الخُلقِ

إنَّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مُضلَّ له، ومَن يضللْ فلا هاديَ له،وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ ...﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ...﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ...﴾

أيُّها المؤمنونَ!

لا يُدرَكُ القَدْرُ إلا بإدراكِ الفضلِ، وأزهدُ الناسِ في الفضائلِ أجهلُهم بقدرِها. وباتَ من أسمَى العلومِ شرفاً وأنفعِها عُقبى علمُ الفضائلِ التي جاءَ بها الوحيُ المعصومُ. ألا وإنّ من أجلّ تلكَ الفضائلِ التي ذهبتْ بخيريْ الدنيا والآخرةِ، وكانتْ يُمناً على صاحبِها المؤمنِ ونماءً وأمارةَ سُعْدٍ وحسنَ اصطفاءٍ من خالِقه -حسنَ الخُلقِ.

إذا رُزِقت خليقةً محمودةً فَقَدْ اصْطَفَاكَ مُقَسِّمُ الأَرْزَاقِ

أيُّها المسلمونَ!

حُسنُ الأخلاقِ ميزانُ معرفةِ مستوى الإيمانِ وسبيلُ رفعِه، كما قالَ رَسُولُ

اللهِ ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا» رواه أبو داودَ والترمذيُّ وقال: حسنٌ صحيحٌ . وتبعًا لذلكَ، كان حُسنُ الخُلقِ معيارَ خيريّةِ المرءِ؛ طبقًا لقولِ الرسولِ ﷺ الذي طالمَا كرّره في أماكنَ شتّى: «إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلاَقًا» رواه البخاريُّ ومسلمٌ. والبِرُّ مجتمِعٌ في حُسنِ الأخلاقِ، فعَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سِمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ فَقَالَ: «الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ» رواه مسلمٌ. وحسنُ الخُلقِ علوُّ درجةٍ وبقاءُ أجرٍ كدرجةِ القائمِ الصائمِ الذي لا يفْتُرُ ولا يفطُرُ ، يقولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ» رواه أبو داودَ وفي روايةِ الحاكمِ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَاتِ قَائِمِ اللَّيْلِ صَائِمِ النَّهَارِ» وصحّحه ووافقَه الذهبيُّ. وحسنُ الخلقِ مانعٌ من النارِ، كما قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "ألا أخبركم بمَنْ يحَرّمُ على النارِ ومن تحرَّمُ عليه النارُ؟ على كلّ قريبٍ هيّنٍ سهل" رواه الترمذيُّ وجوّده المنذريُّ.

وحسنُ الخلقِ أكثرُ سببٍ مُدخِلِ الجنةِ، يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾. بلِ الفردوسُ الأعلى نزُلُ مَن حسُنَ خلقُه بضمانِ النبيِّ ﷺ إذْ يقولُ: "«أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ

لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ» رواه أبو داودَ والترمذيُّ وحسّنه. وقربُ النُّزُلِ من النبيِّ ﷺ من قربِ المحبةِ، وحَسنُ الأخلاقِ من أولئكَ المقربينَ، يقولُ الرسولُ ﷺ: "إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا" رواه الترمذيُّ وصحّحه ابنُ حِبانَ ولفظُه " إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي فِي الْآخِرَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي فِي الْآخِرَةِ أَسْوَؤُكُمْ أَخْلَاقًا...".

عبادَ اللهِ!

ومع هذا النّعيمِ المؤجَّلِ لحُسنِ الخلقِ ثَمّ نعيمٌ معجَّلٌ في الدُّنيا، فإنّ حُسنَ الخلقِ عِوضٌ عمّا فاتَ من حُطَامِها، يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: "أربعٌ إذا كنّ فيكَ فلا عليكَ ما فاتَكَ من الدُّنيا: حفظُ أمانةٍ، وصدقُ حديثٍ، وحسنُ خَليقةٍ، وعفّةٌ في طُعمةٍ" رواه أحمدُ والطبرانيُّ وحسّنه المنذريُّ والألبانيُّ. وحُسنُ الخلقِ عطاءٌ يأسرُ قلوبَ الخلقِ على اختلافِ مشاربِهم حين عجزَ المالُ عن ذلكَ، يقولُ الرسولُ ﷺ: "إنّكم لن تسَعوا الناسَ بأموالِكم ولكن يسَعُهُم منكم بسطُ الوجهِ وحسنُ الخُلقِ" رواه البزّارُ وجوّده المنذريُّ. وقال بعضُ السلفِ: الحَسنُ الخلقِ ذو قرابةٍ عند الأجانبِ، والسيءِ الخلقِ أجنبيٌّ عند أهلِه.

والمَرْءُ بِالأَخْلاقِ يَسْمُو ذِكْرُهُ   وبِهَا يُفَضَّلُ فِي الوَرَى وَيُوَقَّرُ

أيُّها المؤمنونَ!

لعلَّ من حِكمِ تفضيلِ الخُلقِ الحسنِ وجعلِه في المنزلِ العليِّ حينَ يتّخذُه المرءُ قُربةً يسترْضِي بها موْلاه - ما يتحققُ به من صلاحِ الدّنيا والدينِ؛ فبهذه الأخلاقِ دخل فئامٌ دينَ اللهِ أفواجاً في غابرِ الزمنِ وحاضِره، وتمكَّن الإيمانُ من سويداءِ قلوبِهم. وبهذه الأخلاقِ تُبنى المجتمعاتُ الإسلاميةُ وتُحفَظُ. وذلكَ من مقاصدِ مَبعَثِ النبيِّ ﷺ وتَحلّيه بتلكَ الأخلاقِ الزّكيةِ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، ويقولُ الرّسولُ ﷺ: "إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ" رواه أحمدُ وصحّحه الحاكمُ ووافَقه الذهبيُّ.

أيُّها الإخوةُ!

حُسنُ الخلقِ بذلٌ وكفٌّ؛ فما تعارفِ الناسُ على حسنِه من قولٍ وفعلٍ فبذلُه من حسنِ الخلقِ، وما تعارَفوا على قبحِه فالكفُّ عنه من حُسْنِ الخلقِ. وذلك البذلُ والكفّ مما قد يُطبَعُ عليه المرءُ؛ فيكونُ حسنُ الخلقِ من سجيَّتِه، ومنهم من يُحرَمُ ذلكَ، فكانَ علاجُه بالمُجاهدةِ والتهذيبِ،ولا يعذَرُ بتركِها، ومَن يتصبّرْ يصبّرْه اللهُ، وإنّما العلمُ بالتّعلّمِ والحلمُ بالتحلّمِ. وليُعلمْ أنَّ ثَمتَ أحوالاً ومحكّاتٍ يبينُ فيها صدقُ الخلقِ الحسنِ من زَيْفه وحقيقتُه من صورتِه، ومِن أبرزِ تلكَ المَواطنِ: الاستمرارُ والديمومةُ، والقوةُ والقدرةُ، والغضبُ والاختلافُ، والطّمعُ والجَزَعُ. فمَن حافظَ على حسنِ أخلاقِه فيها كان في غيرِها أحفظَ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ وحدَه، والصّلاةُ والسّلامُ على مَن لا نبيَّ بعدَه، وبعدُ:
فاعلمُوا أنّ أحسنَ الحديثِ...

أيُّها المؤمنونَ!

إنَّ المجاهَدةَ في التحلِّي بالأخلاقِ الفاضلةِ وترشيدَ النافرِ منها ومحاسبةَ النفسِ عليها وسؤالَ اللهِ تلكَ النّعمةِ ومصاحبةَ ذوي الخلقِ القويمِ والوقوفَ على أخبارِهم خاصّةً سيرة نبيِّنا ﷺ من أحسنِ ما يدعُو إلى اكتسابِ تلكَ الفضائلُ والنأْيِّ عن أضدادِها. هذا، وإنّ أحقّ مَن يُصاحَب بهذه الأخلاقِ الزاكيةِ مَن كانَ له حقٌّ على المرءِ كالوالدِ والزوجِ والولدِ والقريبِ والعالمِ وجارِ المنزلِ والمهنةِ، ويعظمُ التعاملُ بالحُسنِ بعظَمِ الحقِّ. ولذا باتَ من عظيمِ الجهلِ وقلةِ التوفيقِ أن ترى أشْقى الناسِ بسوءِ أخلاقِ المرءِ أهلَه وذويه، وأنعمَهم بحسنِها خلانَه ونُدماءه. روى الترمذيُّ وحسّنه عن رَسُولِ اللهِ ﷺ ولَه: «مِنِ أَكْمَلِ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا وَأَلْطَفُهُمْ بِأَهْلِهِ». وقالَ عُمَرُ: إنَّه ليعجبُني أن يكونَ الرجلُ فِي أَهلِه مثلَ الصَّبِي، ثُمَّ إذا بُغي مِنْهُ وُجِدَ رجلاً. وَقَالَ ثَابتُ بْنُ عُبَيْدٍ: كَانَ زيدُ بْنُ ثَابتٍ مِن أفكهِ النّاس فِي بَيتِه، فَإِذا خرَج كَانَ رجلاً مِن الرِّجَال.

صَلاحُ أَمْرِكَ لِلأَخْلاقِ مَرْجِعُهُ ... فَقَوِّمِ النَّفْسَ بِالأَخْلاقِ تَسْتَقِمِ

عفةُ المرأةِ بينَ رَعْيِ الشريعةِ وجَنَفِ الزّائغينَ

إنّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه الله فلا مضلّ له، ومَن يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ ...﴾.

أيّها المؤمنونَ!

عيْفُ الباطلِ واستهجانُه سجيّةٌ جُبِلتْ عليها النفوسُ؛ ولذا غدا من شأنِ المبطلينَ تلبيسُ باطِلِهم لَبوسَ الحقّ، وتزويقُه بمسوحِه؛ ليُروّجَ ذلك الباطلُ، ويُتقبلَ دونَ نُفرةٍ أو نُكرةٍ. هذا، وإنّ قضيةَ حقوقِ المرأةِ ممّا فحُشَ فيه تلبيسُ الزّائغينَ، واتّخذوه مَطيّةً لبلوغِ دنيّ المآربِ. وحين يبزُغُ النّورُ يخْنَسُ الديجورُ، وبإحراقِ الشُّهبِ تُدحَرُ الشياطينُ؛ وذلك ما يستَحِثُّ المنصفَ على معرفةِ منهجِ الخالقِ في خلقِه؛ إذْ هو الأعلمُ بمَن خلقَ وما يُصلحُه، ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾، ويُدرِكُ به زيفَ قولِ كلّ مَن حادَ عنه. وإنّ المتأملَ في هدايةِ الشّريعةِ ليُوقِنُ جازماً أنّ صيانةَ المرأةِ وحسنَ رعايتِها من أجلِّ مقاصدِ الشريعةِ الغرّاءِ؛ وذلك لما جُبلتْ عليه من ضعفٍ بشريٍّ، وما لصلاحِها من أثرٍ بالغٍ على صلاحِ المجتمعِ، وهكذا فسادُه إنْ هي فسدتْ.

عبادَ اللهِ!

إنّ اقترانَ الرّعايةِ بالمرأةِ في الإسلامِ مبتدأُ بوجودِها، وانظرْ كيف رغّبَ الرسولُ ﷺ ي صونِ تلك الرِّعايةِ إذْ يقولُ: "مَن ابتُلي من هذه البناتِ بشيءٍ، فأحسنَ إليهنّ؛ كنّ له سِتراً من النارِ" رواه البخاريّ ومسلمٌ، وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "«مَنْ كُنَّ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ يُؤْوِيهِنَّ وَيَرْحَمُهُنَّ وَيَكْفُلُهُنَّ، وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ أَلْبَتَّةَ". قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَإِنْ كَانَتِ اثْنَتَيْنِ؟ قَالَ: "وَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ". قَالَ: فَرَأَى بَعْضُ الْقَوْمِ أَنْ لَوْ قَالَ: وَاحِدَةً، لَقَالَ: " وَاحِدَةٌ»". رَوَاهُ أَحْمَدُ وقالَ الهيثميُّ: إسنادُه جيدٌ. ومن أجلّ معالمِ رعايةِ الإسلامِ المرأةَ إحاطةُ عفتِها بحمىً منيعٍ وسياجٍ رفيعٍ لا تبلغُه أيدي تُبّاعِ الشهواتِ إن هو صِينَ؛ إذْ فرَضَ عليها الحجابَ الضافيَ الساترَ للبدنِ الخاليَ من دواعي الفتنةِ، وزجَرَها عن إبداءِ الزينةِ لغيرِ المَحرَمِ، وجعلَ اللعنَ جزاءَ تشبُّهِها بالرجالِ، ووَصَفَها بالزّنا إنْ مرّتْ مُتعطّرةً بين أجانبِهم، ومنَعها من الخضوعِ بالقولِ وتلييّنِه، ونهى عن الخُلوةِ بها، وحظَرَ الدخولَ عليها والسفرَمعها دونَ مَحرَمٍ قادرٍ على صيانتِها، وأمرَها بالقرارِ في البيتِ، وجعلَ صلاتَها في دارِها أفضلَ من صلاةِ المسجدِ وإنْ كانَ البيتَ الحرامَ، واشترَطَ عقدَ الولي المرشدِ لصحةِ نِكاحِها، وجعلَ القَوامةَ بيد الزوجِ، ومنعَها من تولّي الوَلاياتِ.العامّة كالإمارةِ والقضاءِ.

عبادَ اللهِ!

ألا وإنّ من أمنعِ وسائلِ الشّرعِ المُطهّر في صيانةِ عفّةِ المرأةِ زجرَها عن

الاختـلاطِ بالرّجـالِ الأجانـبِ وإنْ كانَ المَجمَـعُ فرضـاً مـؤدّى، قـال أبـو أُسَـيدٍ الأنصـاريُّ — رضـيَ اللهُ عنـه —: "سـمعتُ رَسُـولَ اللهِ ﷺ، يَقُـولُ وَهُـوَ خَـارِجٌ مِـنَ الْمَسْـجِدِ فَاخْتَلَـطَ الرِّجَـالُ مَـعَ النِّسَـاءِ فِـي الطَّرِيـقِ، فَقَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ لِلنِّسَـاءِ: «اسْـتَأْخِرْنَ؛ فَإِنَّـهُ لَيْـسَ لَكُـنَّ أَنْ تَحْقُقْـنَ الطَّرِيـقَ، عَلَيْكُـنَّ بِحَافَّـاتِ الطَّرِيـقِ"، فَكَانَـتِ الْمَـرْأَةُ تَلْتَصِـقُ بِالْجِـدَارِ حَتَّـى إِنَّ ثَوْبَهَـا لَيَتَعَلَّـقُ بِالْجِـدَارِ مِـنْ لُصُوقِهَـا بِـه" رواه أبـوداودَ وحسّـنه الألبـانيُّ. قـال ابـنُ القيـم — رحمـهُ اللهُ -: "وَلَا رَيْـبَ أَنَّ تَمْكِيـنَ النِّسَـاءِ مِـنْ اخْتِلَاطِهِـنَّ بِالرِّجَـالِ: أَصْـلُ كُلِّ بَلِيَّـةٍ وَشَـرٍّ، وَهُـوَ مِـنْ أَعْظَـمِ أَسْـبَابِ نُـزُولِ الْعُقُوبَـاتِ الْعَامَّـةِ، كَمَـا أَنَّـهُ مِـنْ أَسْـبَابِ فَسَـادِ أُمُـورِ الْعَامَّـةِ وَالْخَاصَّـةِ، وَاخْتِـلَاطُ الرِّجَـالِ بِالنِّسَـاءِ سَـبَبٌ لِكَثْـرَةِ الْفَوَاحِـشِ وَالزِّنَـا، وَهُـوَ مِـنْ أَسْـبَابِ الْمَـوْتِ الْعَـامِّ وَالطَّوَاعِيـنِ الْمُتَّصِلَـةِ. وَلَمَّـا اخْتَلَـطَ الْبَغَايَـا بِعَسْكَرِ مُوسَـى، وَفَشَـتْ فِيهِـمْ الْفَاحِشَـةُ،أَرْسَـلَ اللهُ إِلَيْهِـمْ الطَّاعُـونَ، فَمَـاتَ فِـي يَـوْمٍ وَاحِـدٍ سَـبْعُونَ أَلْفًـا، وَالْقِصَّـةُ مَشْـهُورَةٌ فِـي كُتُـبِ التَّفَاسِـيرِ. فَمِـنْ أَعْظَـمِ أَسْـبَابِ الْمَـوْتِ الْعَـامِّ كَثْـرَةُ الزِّنَـا بِسَـبَبِ تَمْكِيـنِ النِّسَـاءِ مِـنْ اخْتِلَاطِهِـنَّ بِالرِّجَـالِ، وَالْمَشْـيِ بَيْنَهُـمْ مُتَبَرِّجَـاتٍ مُتَجَمِّـلَاتٍ، وَلَـوْ عَلِـمَ أَوْلِيَـاءُ الْأَمْـرِ مَـا فِـي ذَلِـكَ مِـنْ فَسَـادِ الدُّنْيَـا وَالرَّعِيَّـةِ – قَبْـلَ الدِّيـنِ – لَكَانُـوا أَشَـدَّ شَـيْءٍ مَنْعًـا لِذَلِـكَ " أهـ. ولا غـروَ في ذلـك والنبيُّ ﷺ يقـولُ: "مـا تركـتُ بعـدي فتنـةً هـي أضـرُّ على الرجـالِ مـن النسـاءِ" رواه البخـاريّ ومسـلمٌ، ويقـولُ: « إِنَّ الدُّنْيَـا حُلْـوَةٌ خَضِـرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْـتَخْلِفُكُمْ فِيهَـا، فَيَنْظُـرُ كَيْـفَ تَعْمَلُـونَ، فَاتَّقُـوا الدُّنْيَـا وَاتَّقُـوا النِّسَـاءَ؛ فَـإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَـةِ بَنِـي إِسْـرَائِيلَ كَانَـتْ فِـي النِّسَـاءِ » رواه مسـلمٌ. والأمـرُ المعتـادُ عقـلاً: أنّ الشـيءَ كلّمـا زادَ قـدْرُه زيـدَ في حفظِـه وصيانتِـه، سـيّما عمّـن لـه هـوىً فيـه. ذلـكَ يُقـالُ والحـرجُ لاحـقٌ كلَّ مَـن ضيّـعَ حـقّ الضعيفـةِ

أو استغلّ ضعفَها في مآربِ السوءِ، يقولُ النبيّ — ﷺ —: "اللَّهُمَّ إِنِّي أحرجُ حقّ الضعيفيْنِ اليتيمِ وَالْمَرْأَةِ" رواه ابنُ ماجه وصحّحه الحاكمُ.

أيّها المسلمونَ!

إنّ المتأمّلَ في تلكَ الهدايةِ الرّبانيّةِ الصائنةِ عفافَ المرأةِ ليدركَ – من غيرِ ريبةٍ أو مُواربةٍ – فدحَ انحرافِ الناكصينَ عن ذلك النّهجِ الإلهيّ، ممّن تشدّقَ — زوراً وبهتاناً — بنُصرةِ المرأةِ والمطالبةِ بحقوقِها في دعاوى برّاقةٍ، وحملاتٍ مسعورةٍ، ظاهرُها الرحمةُ وباطنُها العذابُ، لم تتعدَ قصدَ الابتذالِ ونزعَ الحياءِ وتهوينَ الاحتشامِ بُغيةَ تغييرِ تركيبةِ المجتمعِ الدينيّةِ بذرائعَ تنطقُ خبثاً ومكراً، واستغلُّوا بعضَ المُمارساتِ المُنكَرةِ في تعنيفِ المرأةِ ذريعةً لإظهارِ حسنِ النّوايا في المطالبةِ بالحقوقِ المُفْتراةِ. وأخذوا من الخلافِ الفقهيّ وشاذِّ القولِ وفتوَى الزّائغينَ ما يتفقُّ مع مآربِهم ؛ لتكونَ هي المِسحةُ الشرعيّةُ؛ ذراً للرّمادِ في عيونِ الدهماءِ. حملاتٌ محمومةٌ، تسعّرُ بأقلامٍ مأجورةٍ، وحساباتٍ مأفونةٍ، تُستغَلُّ فيه الحاجةُ، وتُستدَرُّ له العواطفُ، وتُسطّحُ فيه البصائرُ. ويبقى — بعد ذلكَ – طهرُ المجتمعِ وعفافُه الفيصلَ بينَ ما يريدُه اللهُ وما يريدُه هؤلاءِ كما قالَ اللهُ — تعالى –: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾، وتغدو أفعالُ القومِ ودوافعُها ومآلاتُها هي الحقيقةُ الناطقةُ التي تفضحُ زخرفَ قولِهم وتُعرّي خطلَه؛ فاللهُ لا يصلحُ عملَ المفسدينَ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.

وبعدُ، فاعلموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

المرأةُ ميدانٌ رحبٌ لاحبٌ لسلامةِ المجتمعِ وتقويةِ دعائِمِه وإعدادِ بُناتِه وروّادِه، ولن يكونَ ذلكَ إلا بلزومِ أمرِ اللهِ القائمِ على البناءِ والحمايةِ؛ فتُبنى المرأةُ بناءً تربويًا متكاملَ الجوانبِ مذْ نعومةِ أظفارِها: في الإيمانِ والعلمِ والخُلُقِ والسلوكِ والحشمةِ والوعيِ والمسؤوليّةِ الخاصّةِ بها، من قِبَلِ المنزلِ والمدرسةِ ودُورِ التربيةِ ومعاقلِ العلمِ والرِعايةِ والتوجيهِ، وِفْقَ برامجَ مدروسةٍ وتجارِبَ ناجحةٍ تخضَعُ للتقييمِ الدوريّ والتطويرِ. وأمّا الحمايةُ، فتُحقَّقُ بالتوجيهِ الرّشيدِ المقنِعِ بالتّنائي عنْ ما يُنقِصُ الإيمانَ ويخدشُ الحياءَ ويُزري بالحشمةِ في اللّباسِ والسُّلوكِ والكلامِ واستخدامِ التّقنيَةِ. وممّا تقتضِيه تلكَ الحمايةُ فضحُ خططِ التغريبِ في المجتمعِ، والردُّ على شبهِهِ، وكشفُ عوارِه وتناقُضَاتِه ومآربِه، والتواصلُ مع ولاةِ الأمرِ من الأمراءِ والعلماءِ في مواجهتِه والأخذِ على يدِ سفهائِه، والعملُ الجادُّ المؤسَّسُ في بناءِ الحصانةِ الفكريّةِ للمجتمعِ من تشرُّبِ سمومِ أفكارِ التغريبِ التي اشتدّت حمَأتُها هذه الأيّامَ. وما أجملَ تلك العبارةَ التي سطّرَها غيورٌ من ذوي العقلِ والخبرةِ إذْ يقولُ: "أدركَ الغربُ أنّ تفكيكَ التديُّنِ في الجزيرةِ العربيّةِ يأتي من خلالِ ملفِّ المرأةِ".

مـــنْ لـــي بتربيـــةِ النســـاءِ فإنَّهـــا في الشّـــرقِ علَّةُ ذلكَ الإخفـــاقِ
الأمُّ مدرســـةٌ إذا أعدَدْتَهـــا أعدَدْتَ شعباً طيّبَ الأعـــراقِ
الأمُّ روضٌ تعهّـــدهُ الحيـــا بالـــرِّيّ، أورقَ أيّمـــا إيـــراقِ
الأمُّ أســـتاذُ الأســـاتذةِ الأُلَـــى شـــغلتْ مآثرُهم مدى الآفـــاقِ
أنا لا أقولُ: دَعوا النســـاءَ سوافراً بين الرِّجالِ يجُلنَ في الأســـواقِ
يدرُجنَ حيثُ أردْنَ، لا من وازعٍ يحـــذرْن رِقْبَتَـــهُ، ولا مـــن واقِ
يفعلْـــنَ أفعـــالَ الرجـــالِ لواهيًا عن واجباتِ نواعسِ الأحـــداقِ
في دُورِهـــنّ شـــؤونُهنّ كثيـــرةٌ كشؤونِ ربِّ السيفِ والمِـزْراقِ
كلاّ، ولا أدعُوكـــم أنْ تُســـرِفوا في الحَجبِ والتضييقِ والإرهاقِ
ليست نســـاؤكمُ حُليًا وجوهراً خوفَ الضَّياع تُصانُ في الأحقاقِ
ليســـت نســـاؤكمُ أثاثـــاً يُقتَنـــى في الـــدُّور بين مخادعٍ وطِبـــاقِ
تتشـــكَّلُ الأزمـــانُ في أدوارِهـــا دُولاً، وهنَّ على الجمـودِ بَواقِ
فتوسَّطوا في الحالتين، وأنصِفوا فالشـــرُّ في التقييدِ والإطـــلاقِ
ربُّوا البناتِ علـــى الفضيلةِ، إنّها في الموقفـــيْنِ لهنَّ خيرُ وَثـــاقِ
وعليكـــمُ أن تســـتبينَ بناتُكـــم نورَ الهُدى وعلى الحياءِ الباقـــي

كنزُ القناعةِ

الحمدُ للهِ ذي المننِ الضَّافيةِ، والآلاءِ الوافيةِ، عمّ خيرُه كلّ ناحيةٍ، وحاطَ علمُه كلَّ خافيَة. أحمدُه على البلاءِ كما أحمدُه على العافيَة. وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ ذو الأسماءِ الحُسنى والأوصافِ العاليَة، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلى اللهُ وسلمَ عليه وعلى آلِه وصحبِه ذوي المكارمِ السّامية.

أمّا بعدُ، فاتّقوا اللهَ — عبادَاللهِ -. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ... ﴾.

أيّها المؤمنونَ!

تفاوُتُ الأرزاقِ واختلافُ المعايشِ فتنةٌ تُبلَى بها المَخابرُ ويُمحَّصُ بها الإيمانُ؛ نجَمَ عن تركِ امتثالِ الهُدى فيها آفاتٌ تودِي لمهالكِ الهمِّ والحزنِ والحسدِ والبغيِ واستباحةِ الحُرَمِ والدماءِ وسوءِ الظنِّ باللهِ. هذا وإنَّ من أنجحِ سبلِ النجاةِ التي أبانَها الشرعُ المُطهّرُ من تلكَ المهالكِ لزومَ القناعةِ والرّضا بما قسمَ اللهُ — سبحانَه -، ممّا لا يعارِضُ بذلَ الأسبابِ المشروعةِ التي يرامُ من خلالِها إصلاحُ الحالِ وتحسينُه.

إنّ القناعةَ رضىً يحلُّ في القلبِ؛ وسكينةٌ يزيدُ بها الإيمانُ، ورحمةٌ توسّعُ فضاءَ القلبِ، وبصيرةٌ تجلُو النظرَ عن سرابِ المظاهرِ، وشجرةٌ تُخرجُ يانعَ الثمرِ. فالقناعةُ من سبلِ الفلاحِ المؤكّدِ الذي به حيازةُ الخيرِ والسلامةُ من الشرِّ في الدّنيا والآخرةِ، يقولُ النبيُّ ﷺ: «قد أفلحَ من أسلمَ، ورُزِقَ كَفافا،

وقنّعَه اللهُ بما آتاه» رواه مسلمٌ. وعيْشُ القَنوعِ هانئٌ طيبٌ، وحالُه حالُ سعيدٌ، يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾، وفسّرَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ — رضيَ اللهُ عنه – الحياةَ الطَّيّبةَ بالقناعةِ. قالَ حكيمٌ: "وجدتُ أطولَ الناسِ همًّا الحسودَ، وأهنأَهم عيشًا القنوعَ". قال شعبةُ بنُ الحجّاجِ: " إذا كانَ عندي دقيقٌ وقصبٌ، ما أُبالي ما فاتَني من الدُّنيا".

إنّ القناعةَ مَن يحْللْ بساحتِها لم يلقَ في ظلّها همًّا يؤرقُه

أيُّها المسلمونَ!

والقناعةُ مرآةٌ صقيلةٌ تُري صاحبَها عظيمَ مِنَنِ اللهِ عليهِ؛ فتلفَاهُ لهِجًا بشُكرِها، والثّناءِ على مُسْدِيها بها؛ إذْ تبصُّرُ الموجودِ عزاءٌ عن تحسُّرِ المفقودِ. يقولُ النبيُّ ﷺ: "كنْ قنعًا؛ تكنْ أشكرَ الناسِ" رواه ابنُ ماجه وحسّنه البوصيريُّ. جاء رجلٌ إلى يونُسَ بنِ عُبيدٍ فشكَا إليه ضِيقًا من حالِه ومعاشِه واغتماما بذلكَ، فقالَ: أيسُرُّكَ ببصرِك مائةُ ألفٍ؟ قالَ: لا، قال: فبسمعِك؟ قال: لا، قال: فبلسانِك؟ قال: لا، قال: فبعقلِك؟ قال: لا – في خلال، وذكّره نعمَ اللهِ عليه – ثم قال يونسُ: أرى لك مِئِينَ ألوفا، وأنت تشْكو الحاجةَ؟! وقلبُ القَنوعِ سليمٌ من داءِ الحسدِ؛ إذْ رِضاهُ بحالِه حاجزٌ عن تطلُّعِه إلى ما عندَ غيرِه؛ فضلاً أنْ يحسدَه! كان سُوَيدُ بنُ غفلةَ إذا قيلَ له: أُعطي فلانٌ، ووُلي فلانٌ، قالَ: حسْبِي كِسرتِي ومِلحي! قال النضرُ: أقامَ الخليلُ بنُ أحمدَ في خُصٍّ (بيتٍ من قصبٍ)

له بالبصرةِ، لا يقدرُ على فلسيْنِ، وتلامذتُه يكسِبونَ بعلمِه الأموالَ، وكانَ كثيرا ما يُنشدُ:

وإذا افتقَرتَ إلى الذخائرِ لم تجِدْ   ذُخرا يكونُ كصالحِ الأعمالِ

وشجرةُ القناعةِ الوارِفةِ تثمرُ جَنى العزّ والحريةِ؛ فالقَنوعُ حرٌّ من حرصٍ يذلّه، وجزَعٍ يستعبدُه. قال إبراهيمُ بنُ شيْبانَ: " الشرفُ في التواضُعِ، والعزُّ في التّقوى، والحريّةُ في القناعةِ ". سئلَ بشرُ بنُ الحارثِ عن القناعةِ، فقالَ: لو لمْ يكنْ في القناعةِ شيءٌ إلا التمتّعُ بعزّ الغناءِ لكانَ ذلكَ يُجزئُ، ثم أنشأ يقولُ:

أفادَتْني القناعةُ أيَّ عزّ   ولا عزَّ أعزُّ من القناعةِ

كتبَ الخليفةُ سُليْمانُ بنُ عبدِالملِكِ إلى الإمامِ أبي حازمٍ: ارفعْ إليّ حاجتَك، قالَ: "هيْهاتَ! رفعتُ حاجَتِي إلى مَن لا يختزنُ الحوائجَ، فما أعطاني منها قنَعتُ، وما أمسكَ عنّي منها رضيتُ ". وقال عيسى بنُ يونُسَ: "لم نرَ مثلَ الأعمشِ؛ ما رُئي الأغنياءُ عند أحدٍ أحقرَ منهم عندَه مع فقرِه وحاجتِه! ". والقناعةُ هي الغِنَى الحقيقيُّ؛ إذْ هي غِنى النفسِ الذي جعلَ النبيُّ ﷺ حقيقةَ الغِنى فيه إذْ يقولُ: «ليس الغِنى عن كثرةِ العَرَضِ، ولكنّ الغنَى غنَى النفسِ» رواه البخاريُّ ومسلمٌ. قيل لأبي حازمٍ: ما مالُك؟ قال: مالان: القَناعةُ بما في يدِي، واليأسُ ممّا في أيدي الناسِ.

طلبتُ غنىً يدومُ بلا افتقارٍ   فما ألفيتُ إلا في القَناعةِ

والقَناعـةُ مـن أسـبابِ بركـةِ الـرزقِ وتَناميـهِ، يقـولُ النبـيُّ ﷺ: "إنَّ هـذا المـالَ خضِرٌ حلوٌ، فمَـن أخـذه بِسَـخاوةِ نفسٍ، بُـوركَ لـهُ فيـهِ ومـن أخـذَه بإشـرافِ نفـسٍ، لـم يبـارَكْ لـهُ فيـهِ، وكـانَ كالـذي يـأكلُ ولا يشـبعُ". قـال سـعدُ بـنُ أبـي وقّـاصٍ — رضـيَ اللهُ عنـه — لابنِـه: "يـا بُنـيَّ! إذا طلبـتَ الغِنـى فاطلبْـه بالقناعـةِ؛ فإنّـه مَـن لـم يكـنْ لـه قناعـةٌ لـم يُغنِـه مـالٌ". والقناعـةُ سـببٌ جالـبٌ لمحبـةِ النـاسِ لصاحبِهـا؛ لسُـموّه عمّـا في أيدِيهـم، سـيّما إنْ كانَ بـاذلاً نفعَـه لهـم. قـدِمَ البصـرةَ أعرابيٌ فقـالَ لخالـدِ بـنِ صفـوانٍ: أخـبرْني عـن سـيّد هـذا المِصْـرِ، قـال: هـو الحسـنُ بـنُ أبـي الحسـنِ (البصريُّ): قـال: عربيٌّ أم مَوْلى؟ قـال: موْلـى، قـالَ: وبـمَ سـادَهم؟ قـال: احتاجُـوا إليـه في دينِهـم، واسـتغنَى عـن دُنياهُـم، فقـال الأعرابيُّ: كفـى بهـذا سـؤدُداً!

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصّلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.

وبعدُ، فاعلموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيُّها المؤمنونَ!

إنّ تشرّبَ النفسِ بأهميةِ اكتسابِ خلُقِ القناعةِ حاملٌ لها على المُجاهدةِ في سبيلِ تحصيلِها والأخذِ بأسبابِ كسبِها. وأهمُّ تلكَ الأسبابِ اليقينُ الجازمُ الذي لا يعتَريهِ رَيبٌ بحكمةِ اللهِ — تعالى — البالغةِ ورحمتِه السّابغةِ؛ فيدركُ أنّ المنعَ والعطاءَ والضّراءَ والسراءَ والصحةَ واللأواءَ كلَّها أقدارٌ ربانيّةٌ جرتْ وِفقَ حكمةٍ ربانيّةٍ في فلَكِ رحمتِه الواسعةِ، وأنّ الذي قدّرَ الضُّرّ بحكمتِه قادرٌ على رفعِه برحمتِه. ونظرةُ القناعةِ إلى مَن هو دونَه في النعمةِ حاملٌ على قناعةِ القلبِ، كما قال النبيُّ ﷺ: «انظرُوا إلى مَن أسفلَ منكم، ولا تنظُروا إلى مَن هو فوقكُم؛ فهو أجْدرُ أنْ لا تزْدرُوا نعمةَ اللهِ عليكم» رواه مسلمٌ. والإيَاسُ عمّا في أيدِي الناسِ من سبلِ تحصيلِ القناعةِ، قال عمرُ بنُ الخطابِ — رضِيَ اللهُ عنه -: "إنّ الطمعَ فقرٌ، وإنّ اليأسَ غنىً؛ إنّه مَن ييأسُ عمّا في أيدِي الناسِ يستغْنِ عنهم". يقولُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ: "العبدُ إنّما يمنعُه من الرّضا والقناعةِ طلبُ نفسِه لفضُولِ شهواتِها، فاذا لمْ يحصلْ سخطٌ، فإذا سلا عن شهواتِ نفسِه رضيَ بما قسمَ اللهُ له من الرزقِ".

والنفـسُ راغبـةٌ إذا رغّبتَهـا وإذا تُـردُّ إلـى قليـلٍ تَقنـعُ

والعيشُ مع سِيَرِ أهلِ القناعةِ حادٍ للّحاقِ بركابِهم. فقائدُهم ﷺ كان يمضِي على بيتِه الشّهرانِ وليس لهم طعامٌ إلا الماءَ والتمرَ، وكان ينامُ على الليفِ، ويفترشُ الحصيرَ، ويسكّنُ جوعَه بالحجرِ المربوطِ على بطنِه، وكان من دُعائه المأثورِ: "«ربِّ قنّعنِي بما رزقتَني، وبارِكْ لي فيه، واخلُفْ على كلِّ غائبةٍ لي بخيرٍ» رواه الحاكمُ وصحَّحه ووافقهُ الذهبيُّ.

لسانُ الصدقِ

إنَّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مضلّ له، ومَن يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ...﴾

أيّها المؤمنونَ!

حبُّ الثناءِ جِبلةٌ؛ فُطرَ عليها البشرُ، وما زالَ السويُّ منهم باحثاً عن سبيلِها، وحافظاً لها إنْ ظفرَ بها، ومدافعاً عنها إن مُسّ جنابُها بسوءٍ.

يهوى الثناءَ مُبَرِّزٌ ومقصّرٌ حبّ الثناءِ طبيعةُ الإنسانِ

وذلك الثناءُ إنّما يكونُ حقاً، وله اعتبارٌ ووزنٌ وأثرٌ في ميزانِ الشرعِ حين يُرفعُ بلسانِ الصدقِ الذي قامَ شاهداً على صدقِ الفِعالِ وحسنِ الحالِ، قال ابنُ القيمِ: "إنَّ قلوبَ الصادقينَ لا تشهدُ بالزُّورِ ألبتةَ، فإذا أُخفيَ عليكَ شأنُك وحالُك، فاسألْ عنك قلوبَ الصادقينَ؛ فإنّها تخبرُك عن حالِك". قال ابنُ حِبانَ: "خيرُ الثناءِ ما كان على أفواهِ الأخيارِ". وذلك الذكرُ الحسنُ عاجلُ بشرى للمؤمنِ، قيل لرسولِ اللهِ ﷺ: أرأيتَ الرجلَ يعملُ العملَ من الخيرِ، ويحمدُه الناسُ عليه؟ قال: «تلكَ عاجلُ بشرى المؤمنِ» رواه مسلمٌ. وهو من

إيتاءِ اللهِ عبدَه أجرَه في الدّنيا، كما فسَّر ابنُ عباسٍ — رضيَ اللهُ عنهما – قولَه تعالى عن نبيّه إبراهيمَ — عليه السلامُ -: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾. والذكرُ الحسنُ تِركةٌ مبارَكةٌ، وحياةُ خيرٍ تبقى للمرْءِ وإنْ مات، يُذْكَر بجميلِ مآثرِه، ويستَدْعي الدعاءَ لصاحبِه، بل يمتدُّ خيرُه لوارِثه؛ إذْ هو من خيرِ ما ورّثَ له. قال حكيمٌ: "أفضلُ ما يورِّث الآباءُ الأبناءَ: الثناءُ الحسنُ، والأدبُ النافعُ، والإخوانُ الصالحونَ". كلُّ الأمورِ تزولُ عنكَ وتنقضِي... إلا الثناءَ فإنّه لك باقٍ.

والذِّكرُ بلسانِ الثناءِ الصادقِ من أبرزِ علاماتِ الجزاءِ الأخرويِّ المدَّخرِ، يقولُ النبيُّ ﷺ: «يوشَكُ أنْ تعرفوا أهلَ الجنةِ، من أهلِ النارِ»، قالوا: بمَ ذاكَ، يا رسولَ اللهِ؟ قال: «بالثناءِ الحسنِ، والثناءِ السيءِ؛ أنتم شهداءُ اللهِ بعضُكم على بعضٍ» رواه ابنُ ماجه وصحّحه البوصيريّ. ومن هنا باتَ طلبُ لسانِ الثناءِ الصّادقِ بفعلِ العملِ الصالحِ سنّةً نبويّةً سألها النبيونَ ربَّهم، وكانت من ربِّهم كرامةً لهم، كما سألَ الخليلُ — عليه السلامُ — إذْ يقولُ: ﴿واجعلْ لي لسانَ صدقٍ في الآخِرينَ﴾،قال مُجاهدٌ: "ما أرادَ إلا الثناءَ الحسنَ"؛ فكانَ له ذاكَ جزاءً معجّلاً، كما كان لنوحٍ وإلياسَ وذريةِ إبراهيمَ — عليهمُ السلامُ —، كما عقّبَ اللهُ — سبحانَه — ذكرَهم إذ يقولُ: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْأَخِرِينَ﴾، ويقولُ: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾.

عبادَ اللهِ!

إنّ لسانَ الصدقِ ثناءٌ باقٍ لا تعْفيه الأيامُ، ولا تشوِّهُ حُسنَه أذيّةُ الإساءةِ

والبُهتانِ وإن كان لها صَوْلةٌ وجَوْلةٌ؛ إذْ هو رفعةٌ ربانيّةٌ؛ ومَن ذا يُطيقُ خفضَ ما قدْ رفعَه العليُّ؟! وذاكَ سرُّ بقائِه، بخلافِ لسانِ الثناءِ الأرضيِّ الكاذبِ وإنْ ملأ الدّنيا؛ إذْ هو من الباطلِ الزّاهقِ الذي يضمحلُّ سريعًا. سمعَ عامرُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ الزُّبيْرِ ابنًا له يتنقَّصُ عليَّ بنَ أبي طالبٍ — رضيَ اللهُ عنه –، فقالَ: "إيّاك والعودةَ إلى ذلكَ! فإن بَني مرْوانَ شتَموه ستينَ سنةً، فلم يَزدْه اللهُ بذلكَ إلا رِفعةً، وإنّ الدينَ لم يبنِ شيئًا فهدمتْه الدّنيا، وإن الدّنيا لم تبنِ شيئًا إلا عاودَتْ على ما بَنَتْ فهدمتْه". قال كعبُ الأحبارِ: «واللهِ، ما استقرَّ لعبدٍ ثناءٌ في الأرضِ حتى يستقرَّ له في أهلِ السماءِ». وذاكَ الثناءُ السماويُّ أثرٌ من محبةِ اللهِ للعبدِ بما قامَ به من حقِّ العبوديَّةِ، قال رسولُ اللهِ ﷺ: "إذا أحبَّ اللهُ العبدَ نادَى جبريلُ: إنّ اللهَ يحبّ فلانًا فأحببْه، فيحبُّه جبريلُ، فينادي جبريلُ في أهلِ السماءِ: إنّ اللهَ يحبّ فلانًا فأحبُّوه، فيحبُّه أهلُ السماءِ، ثم يُوضَعُ له القَبولُ في الأرضِ" رواه البخاريُّ ومسلمٌ. والعملُ الصالحُ سبيلُ نيلِ تلكَ المحبةِ الربانيّةِ، ومن جَللِ تلكَ الصالحاتِ الإخلاصُ للهِ؛ فقد سألَ أبو ذرٍ — رضيَ اللهُ عنه — رسولَ اللهِ ﷺ، فقالَ: الرجلُ يعملُ العملَ للهِ، فيحبُّه الناسُ عليه، قالَ: « ذلكَ عاجلُ بُشرى المؤمنِ » رواه ابنُ ماجه وصحّحه الألبانيُّ. ولخَبيئةِ الإخلاصِ وعملِ السرِّ أثرٌ بليغٌ في نشرِ لسانِ الثناءِ الصادقِ بين الملأ، قال عبدُاللهِ بنُ المُباركِ: رأيتُ مالكًا، فرأيتُه من الخاشعينَ؛ وإنّما رفعَهُ اللهُ بسَريرةٍ بينَه وبينَه؛ وذلكَ أنّي كثيراً ما كنتُ أسمعُه يقولُ: "مَن أحبَّ أن يُفتحَ له فُرجةٌ في قلبِه، وينجوَ من غمَراتِ الموتِ وأهوالِ يومِ القيامةِ؛ فليكنْ في عملِه في السرِّ أكثرَ منه في العلانيةِ". والعنايةُ بالقرآنِ الكريمِ من سبلِ الظفرِ بلسانِ الثناءِ الصادقِ،

كما قالَ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾. وتحقيقُ مَقامِ الإحسانِ مع الخالقِ والخَلقِ سببٌ لنشرِ الثناءِ الصّادقِ وخلودِه، كما قالَ تعالى تعقيباً لقولِهِ: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾. ومن أعظمِ صورِ الإحسانِ إلى الخلقِ الجالبِ لثناءِ الصدقِ وحسنِ السُّمعةِ السعيُ في قضاءِ حوائجِ الناسِ، قال ابنُ حِبانَ: "أيسرُ ما يكونُ في قضاءِ الحوائجِ استحقاقُ الثناءِ". ومن أعظمِ أسبابِ استحقاقِ الثناءِ كثرةُ الصلاةِ والسلامِ على النبيِّ ﷺ؛ فقد ذكرَ ابنُ القيّمِ أنّ من فوائدِ الصلاةِ على النبيِّ ﷺ: "أنّها سببٌ لإبقاءِ اللهِ - سُبحانَه - الثناءَ الحسنَ للمصلّي عليه بين أهلِ السماءِ والأرضِ؛ لأنّ المصلّي طالبٌ من اللهِ أنْ يُثنيَ على رسولِه ويكرمَه ويشرّفَه، والجزاءُ من جنسِ العملِ؛ فلا بدّ أنْ يحصلَ للمصلّي نوعٌ من ذلكَ".

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أمَّا بعدُ، فاعلمُوا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

إنّ من بركاتِ الثناءِ الصادقِ على العبدِ أنّه يكسرُ العبدَ لربّه؛ حينَ يسرُّه ذلكَ الثناءُ، ولا يغرّه؛ فيستشعرَ عظيمَ منّةِ اللهِ عليه بتيسُّرِه الخيرَ عليه، وجعلُه القَبولَ له بين الناسِ، مع استشعارِه عظيمَ تقصيرِه في حقِّ ربّه؛ وذاكَ سبيلُ السلامةِ من فتنةِ الثناءِ العظيمةِ، قال الحسنُ البصريُّ: «كم من مُستدرَجٍ بالإحسانِ إليه؟! وكم من مفتونٍ بالثناءِ عليه؟! وكم من مغرورٍ بالسِّترِ عليه؟!». قال عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ لخالدِ بنِ صفوانَ: عظْنِي وأوْجزْ، فقال خالدٌ: يا أميرَ المؤمنينَ! إنَ أقواماً غرّهم سترُ اللهِ - عزّ وجلّ -، وفَتَنَهم حسنُ الثناءِ؛ فلا يغلبنّ جهلُ غيرِك بك علمَك بنفسِك! أعاذَنا اللهُ وإيّاكَ أنْ نكونَ بالسِّترِ مغرورينَ، وبثناءِ الناسِ مسرورينَ! وعن ما افترضَ اللهُ متخلّفينَ مقصّرينَ، وإلى الأهواءِ مائلينَ؛ فبكى عمرُ، ثم قالَ: أعاذنا الله وإياك من إيقاع الهوى. ومَن رُزقَ لسانَ صدقٍ في الثناءِ توارتْ عنه حظوظُ نفسِه؛ فكان أبعدَ الناسِ عن الثناءِ على نفسِه، وإشهارِها، وكان جزاءُ اللهِ له بالثناءِ الصادقِ من جنسِ عملِه الصادقِ. قال إبراهيمُ بنُ أدهمَ: "ما صدقَ اللهَ عبدٌ أحبّ الشّهرةَ"، وقال أيوبُ السختيانيُّ: "واللهِ، ما صدقَ اللهَ عبدٌ إلا سرّه أنْ لا يُشعرَ بمكانِه".

معلِّمُ الخيرِ

الحمدُ للهِ العليمِ الخبيرِ السميعِ البصيرِ، عمّ علمُه كلّ شيءٍ، وهو على كلّ شيءٍ قديرٌ. وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، تعالَى عن النّظيرِ والمُشيرِ، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلى اللهُ عليه وعلى آلِه وصحبِه وسلّم التسليمَ الكثيرَ.

أمّا بعدُ، فاتّقوا اللهَ — عبادَ اللهِ -، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ... ﴾.

أيّها المؤمنونَ!

التعليمُ المربّي رسالةٌ ساميةٌ ذاتُ أثرٍ بالغٍ في صلاحِ الأمةِ وسيادتِها؛ ولأجلِها أُرسلتِ الرسلُ، كما قالَ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾. والمعلِّمُ يقْفو أثرَ الرُّسلِ في مسلكِ التربيةِ وإعدادِ الأمةِ، وله من بركةِ هذا السبيلِ قدرُ ما حقّقَ من رسمِ الاقتداءِ وحقوقِ الأداءِ. وقد فسّرَ مجاهدٌ وسفيانُ الثوريُّ قولَه تعالَى عن نبيّه عيسى — عليه السّلامُ-: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ بأنّه معلِّمٌ للخيرِ حيثُ كانَ؛ إذِ التعليمُ من أخصبِ ميادينِ التأثيرِ، وزرْعِ القيَمِ والمبادئِ، وبناءِ الوعْيِ الذي يمتدُّ أثرُه وينْمو ثمرُه ويتّسعُ مداهُ مع مرِّ الأيامِ وكرِّ الأعوامِ؛ لِمَا لنظرةِ تقديرِ التلميذِ لأستاذِه إنْ أحسنَ الأستاذُ صنعَها واستغلالَها، وطولِ مخالطتِه له، وخصوصيةِ اللقاءِ في محلِّ الدرسِ.

أيّها المسلمونَ!

ولكـي يكـونَ حسـنُ الأثـرِ والتأثيـرِ؛ فـلا بُـدَّ للمُعلِّـمِ أنْ يتشـرّبَ قـدرَ معلّـمِ النـاسِ الخيـرَ في الكـونِ حتى عنـدَ البهائـمِ المُعجمـةِ والكائنـاتِ الخفيَّـةِ؛ ليعـرفَ حقيقـةَ منزلـةِ التعليـمِ إنْ بخَـسَ قدْرَهـا بعـضُ البشـرِ، يقـولُ رسـولُ اللهِ ﷺ: "إنَّ اللهَ، وملائكتَـه، وأهـلَ السـمواتِ، والأرَضيـنَ، حتـى النملـةَ في جُحرِهـا، وحتـى الحوتَ، لَيصلُّونَ على مُعلِّمِ الناسِ الخيرَ" رواه الترمذيُّ وقال: حسنٌ صحيحٌ. ومَـن سـمَتْ همَّتُـه لنيـلِ تلـكَ المنزلـةِ الرّفيعـةِ، والظَّفـرِ بلسـانِ الصـدقِ الملـئِ آفـاقَ الكـونِ؛ فلْيأخـذْ بأسـبابِ التأثيـرِ بالخيـرِ في نفـوسِ المُتعلِّميـنَ والتـي يقـومُ أساسُـها على إخـلاصِ القصـدِ للهِ ونيّـةِ التقـرُّبِ إليـه بهـذا العمـلِ والنُّصـحِ لعبـادِه وإنْ تقاضَـى عليـه أجـراً دُنيويّـاً؛ فتلـكَ النيّـةُ مركـبٌ لا يكبـو صاحبُهـا حتى يظفـرَ بكَنـزِ التوفيـقِ والتأثيـرِ. قـال الفقيـهُ المالكـيُّ أبـو إسـحاقَ الجبنيـانيُّ: "بلغَنـا عـن معلِّـمٍ عفيـفٍ، رُئـي وهـو يدْعـو حـولَ الكعبـةِ ويقـولُ: اللهـمّ أيُّمـا غـلامٍ علَّمتُـه، فاجعلْـه في عبـادِكَ الصالحيـنَ، فبلغَـني أنّـه خـرجَ علـى يديْـه نحـوٌ مـن تسـعينَ عالمـاً وصالحـاً". والمهـارةُ المعرفيـةُ القائمـةُ علـى التمكّـنِ مـن المعلومـةِ الصّحيحـةِ، وإيصالُـها بمـا يناسـبُ المتلقِّـي، وقـولُ: "لا أدرِي" فيمَـا لا علـمَ للمـرءِ بـه، والبحـثُ عنـه والسـؤالُ، وشـجاعةُ الاعتـذارِ والرجـوعُ عـن الخطـأِ، وقَبـولُ الصّـوابِ ممّـن جـاءَ بـه كائنـاً مَـن كانَ؛ تجعـلُ للمعلّـمِ قـدراً في نفـوسِ طلابِـه. وقلـوبُ الطـلابِ موطـنُ التأثيـرِ؛ ولـذا علـى المعلِّـمِ أنْ يسـعى في كسـبِها؛ لتفتـحَ مغاليقَهـا لتوجيهِـه، وتتقبلَـه. ومـن أقـوى مـا يأخـذُ مجامـعَ القلـبِ ويُطامـنُ كبرياءه ويعالـجُ نفارَه الرفـقُ بالمتعلّـمِ الـذي يراعِـي تفـاوُتَ القـدراتِ، وتفهّـمَ الدوافـعِ، والتغافـلَ المحمـودَ؛

فالرفقُ ما كان في شيءٍ إلا زانَه، ولا نُزعَ من شيءٍ إلا شانَه. وافتتاحُ الدرسِ بالسّلامِ والتحيّةِ مع الابتسامةِ تزرعُ الوُدَّ في القلبِ سيَّما إنْ كانَ ذلك سجيَّةً للدرسِ. والعدلُ بين الطلابِ عمادٌ في كسبِ احترامِهم لأستاذِهم وهيبتِهم له. واستشارةُ المعلّم تلاميذَه والدّعاءُ لهم من خيرِ ما يُجلَبُ به الاحترامُ والمحبةُ؛ وهذا ما أرشدَ اللهُ إليه نبيَّه ﷺ بقولِه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾. واحترامُ الأستاذِ لطلابِه ينعكسُ باحترامِهم له، وذلكَ من خلالِ لغةِ التخاطُبِ والحوارِ، وأسلوبِ التعامُلِ في الدرسِ وخارجِه. وارتسامُ المعلّمِ معالمَ القُدوةِ التي يطابقُ فيها القولُ العملَ من أقوى ما يحملُ على تقبُّلِ توجيهِه ونُصحِه، وكم كانَ عملُ الأستاذِ أشدَّ أثراً من قولِه. قال ابنُ الجوزيِّ: "لقيتُ مشايخَ، أحوالُهم مختلفَةٌ، يتفاوتُونَ في مقاديرِهم في العلمِ، وكان أنفعُهم لي في صحبتِه العاملَ منهم بعلمِه، وإن كانَ غيرُه أعلمَ منه... ولقيتُ عبدَ الوهّابِ الأنماطيَّ، فكانَ على قانونِ السَّلفِ، لم تُسمعْ في مجلسِه غيبَةٌ، ولا كان يطلبُ أجرًا على سماعِ الحديثِ، وكنتُ إذا قرأتُ عليه أحاديثَ الرَّقائقِ، بكى، واتّصل بكاؤه، فكانَ -وأنا صغيرُ السنِّ حينئذٍ- يعملُ بكاؤه في قلبِي، ويبنِي قواعدَ.. ولقيتُ الشيخَ أبا منصورٍ الجَوَالِيْقِيَّ، فكانَ كثيرَ الصّمتِ، شديدَ التحرِّي فيما يقولُ، متقنًا، محققًا، وربّما سُئل المسألَةَ الظاهرةَ، التي يبادِرُ بجوابِها بعضُ غلمانِه، فيتوقفَ فيها حتى يتيقنَ، وكان كثيرَ الصومِ والصمتِ، فانتفعتُ برؤيةِ هذينِ الرجليْنِ أكثرَ من انتفاعِي بغيرِهما؛ ففهمتُ من هذه الحالةِ أنَّ الدليلَ بالفعلِ أرشدَ من الدليلِ بالقولِ".

وحفاظُ المعلِّمِ على وَقارِه، وتوازُنُه بين المرحِ والجدِّ، والثوابِ والعقابِ مما يَبنِي هيبتَه في نفوسِ طلابِه. والهيبةُ لا تُنافي المحبةَ. ومهارةُ التوجيهِ ذاتُ بُعدٍ في التأثيرِ؛ فتضْمينُ التوجيهِ في تَضاعيفِ القصّةِ، واستغلالِ المواقفِ، وضربِ المَثلِ المسموعِ والمرسومِ من أبلغِ وسائلِ التوجيهِ. هكذا تكونُ بركةُ التعليمِ وتأثيرُه الذي يُرْجَى امتدادُ نفعِه.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصّلاةُ والسّلامُ على رسولِ اللهِ.

وبعدُ، فاعلمُوا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

معلِّمُ الخيرِ!

هنيئـاً لـك شـرفُ رسـالتِك، ودعـاءُ الكـونِ لـكَ، والأجـرُ الـذي لا ينقطـعُ بموتِـك. وسـتنعمُ بـإذنِ اللهِ بطيـبِ غرسِـك الـذي تجـدُه موفـوراً لـكَ عنـد اللهِ؛ وذلـكَ إنْ صدقـتَ في مهنتِك وأديتَ واجبَها طيّبـةً بها نفسُـك؛ فليس للإحسـانِ عندَ اللهِ جزاءٌ إلا الإحسانُ. وستبقى أمّتُك مدينةً لك بالفضلِ؛ إذْ كنتَ مصنعَ إعـدادِ روادِ نهضتِهـا وحُمـاةِ عرينِهـا، وسـتبقَى بصمتُـك الخيِّـرةُ في مآثـرِ أولئـكَ الأجيـالِ وإنْ دُرِس اسـمُك؛ فالمعـروفُ عنـد اللهِ لا يضيـعُ. ولا يَضيـرُك تحبيـطُ المُثْبطيـنَ وهـزءُ السـاخرينَ عـن المضيّ في أداءِ رسـالتِك؛ فلـن يجهـلَ قـدرَك إلا جاهـلٌ أو جاحـدٌ. وانظرْ كلَّ مَـن لـه مآثـرُ خيرٍ سـابغةٌ علـى الأمـةِ تجـدْ أنّ وراءَه معلمـاً مربيـاً. فطِـبْ نفسـاً بـأداءِ رسـالتِك، واجهـدْ في الرُّقـيِّ بأسـاليبِها، وتعاهـدِ التواصِـي بالحـقِّ والصبـرِ مـع زملائِـك؛ عسـى اللهُ أنْ يُكثـرَ أمثالَكـم، ويبـاركَ غرسَـكم، ويتقبـلَ منكـم.

فـلا تحتَقـرْ عالمـاً أنـتَ فيهِ ... ولا تجحـدِ الآخَـرَ المُنتظَـر

وخـذْ لـك زادَيْنِ: من سـيرةٍ ... ومـن عمـلٍ صالـحٍ يُدخَـر

وكنْ في الطريـقِ عفيفَ الخُطا شـريفَ السـماعِ، كريمَ النّظر
ولا تخـلُ مـن عمـلٍ فوقـهُ تعـشْ غيـرَ عبـدٍ، ولا محتَقَر
وكـنْ رجـلاً إن أتَـوْا بعـدَه يقولـونَ: مـرَّ وهـذا الأثَـر

نصيحةُ المسلمين

الحمدُ للهِ الذي هدَانا وما كنّا لنهتديَ لولا أنْ هدانا اللهُ، والشكرُ له دائمٌ لا حدّ لمنتهاه، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ، ولا نعبدُ إلا إيّاه، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه ومصْطَفاه، صلى اللهُ وسلمَ عليه وعلى آلِه وصحبِه ومَن استنّ بهداه.

أمّا بعدُ، فاتّقوا اللهَ — عبادَ اللهِ -. ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ... ﴾.

أيّها المؤمنونَ!

المجتمعُ الإسلاميُّ نقيٌّ بنقاءِ شريعتِه، قويٌّ بقوةِ مُعتقدِه، متلاحمٌ بتأليفِ إلهِه بين قلوبِ أفرادِه. وشأنُ المؤمنِ حيالَ هذا المجتمعِ الإبقاءُ على خِيرتِه، ومحبّةِ الخيرِ لأهلِه، وإرادتِه لهم، ومكافحةِ كلِّ خطرٍ يدهمُه. فذلك ضمانُ النّقاءِ والقوةِ والألفةِ في ذلك المجتمعِ، وهو تجسيدٌ لمعنى النُّصحِ لأهلِ الإسلامِ. ومن هُنَا غدا للنَّصيحةِ علوُّ المقامِ في ميزانِ الشرعِ؛ إذْ جعلَها عمادَ الدينِ الذي لا يقومُ إلا بها، يقولُ النبيُّ ﷺ: «الدينُ النّصيحةُ» قلنا: لِمَن؟ قالَ: «للهِ ولكتابِه ولرسولِه ولأئمةِ المسلمينَ وعامَّتِهم» رواه مسلمٌ. وكانتْ هي خيرُ أعمالِ العبادِ، أوْصَى سفيانُ الثوريُّ أبا عبدِاللهِ الرازيَّ قائلاً: "يا أبا عبدِاللهِ! عليك بالنُّصحِ للهِ في خلقِه؛ فلن تلقَاه بعملٍ أفضلَ منه"، وقال الفُضَيْلُ بنُ عِياضٍ: "ما أدركَ عندنا مَن أدركَ بكثرةِ الصّلاةِ والصِّيامِ، وإنّما أدركَ عندنا بسخاءِ الأنفسِ وسلامةِ الصدورِ والنصحِ للأمةِ". ولعظَمِ أثرِ النصيحةِ في بناءِ

الفردِ والمجتمعِ كان النبيُّ ﷺ يبايعُ عليها المسلمَ الجديدَ، كما قال جريرُ بنُ عبدِاللهِ — رضيَ اللهُ عنه -: "بايعتُ رسولَ اللهِ ﷺ على إقامِ الصلاةِ، وإيتاءِ الزكاةِ، والنُّصحِ لكلِّ مسلمٍ" رواه مسلمٌ. وهي حقٌّ من حقوقِ المسلمِ على أخيهِ، كما قال النبيُّ ﷺ: "حقُّ المسلمِ على أخيهِ ستٌّ"، وذكرَ منها: "وينصحُ له إذا غابَ أو شهدَ" رواه الترمذيُّ وقال: حسنٌ صحيحٌ.

أيّها المسلمونَ!

بالنصيحةِ يُحفظُ القلبُ من آفاتِه المُهلكةِ، يقولُ النبيُّ ﷺ: "ثلاثٌ لا يُغِلُّ عليهنّ قلبُ امرئٍ مسلمٍ؛ إخلاصُ العملِ للهِ، والنُّصحُ لأئمةِ المسلمينَ، ولزومُ جماعتِهم " رواه أحمدُ وصحّحه ابنُ حِبانَ. وهي سببٌ من أسبابِ بركةِ الرزقِ وهنائِه، يقولُ النبيُّ ﷺ: "خيرُ الكَسبِ كسبُ يدِ العاملِ إذا نصحَ" رواه أحمدُ وصحّحه أحمدُ شاكرٌ. ولئن كان للنصيحةِ هذا الاهتمامُ؛ فإنّها تتأكدُ في حقِّ الولاةِ؛ كبُرتْ ولايتُهم أو صغُرتْ، يقولُ النبيُّ ﷺ: «ما من عبدٍ استَرعاهُ اللهُ رعيّةً، فلم يحطْها بنصيحةٍ، إلا لم يجدْ رائحةَ الجنةِ» رواه البخاريُّ. وكذلك فإنّها تتأكدُ فيمَا تعلّقَ بدينِ المجتمعِ؛ ولئن كانتْ النصيحةُ واجبةٌ لهم في أمورِ دنْياهُم؛ فإن وجوبَها في أمرِ دينِهم أوجبُ. وتتأكدُ عند طلبِها من الآخَرِ أو استشارتِه، كما قال النبيُّ ﷺ: "وإذا استنصَحَكَ فانصحْ له" رواه مسلمٌ. وأيضًا، فإن النَّصيحةَ تتأكدُ حالَ غيْبةِ المنصوحِ أو ضعفِه، يقولُ النبيُ ﷺ: "حقُّ المسلمِ على المسلمِ ستٌّ"، وذكرَ منها: "وإذا غابَ فانصحْ له" رواه الترمذيُّ وصحّحه الألبانيُّ.

أيُّها المؤمنونَ!

إنَّ للسلفِ الصالحِ في بذلِ النُّصحِ منهجاً فريداً متميّزاً في الدّافعِ والوسيلةِ والأسلوبِ والزّمانِ والمكانِ. فالإخلاصُ وحبُّ الخيرِ دافعُهم للنُّصحِ. قال الشافعيُّ: "ما ناظرتُ أحداً إلا على النصيحةِ"، وكان يُقالُ: أنصحُ الناسِ لك مَن خافَ اللهَ فيك.

إذا خلَتِ النّصيحةُ حين تُسدى　　　من الإخلاصِ مجّتها القلوبُ

وحسنُ النُّصحِ ما كانَ سراً بين الناصحِ والمنصوحِ، يقولُ ابنُ رجبٍ: "كان السلفُ إذا أرادُوا نصحَ أحدٍ وعظوه سرّاً". وقال الفُضَيلُ بنُ عُياضٍ: "المؤمنُ يسترُ وينصحُ، والفاجرُ يهْتكُ ويعيّرُ". وخيرُ النصحِ ما كانَ برفقٍ ولينٍ؛ وذاك ما أرشدَ اللهُ إليه نبيَّه موسى ﷺ في مناصحةِ فرعونَ أعتى الطُّغاةِ إذْ يقولُ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾. وللشدّةِ موضعُها إنِ اقتضاها الحالُ وكانتْ بقدرِ الحاجةِ. ومن شأنِ النصيحةِ أنْ تكونَ ثقيلةً على المنصوحِ؛ ولابدّ فيها من لينٍ يخفّفُ وطأةَ ثقلِها. قال عبدُالعزيزُ بنُ أبي روادٍ: "كان مَن كانَ قبلَكم إذا رأى الرجلُ من أخيهِ شيئاً؛ يأمرُه في رفقٍ؛ فيؤجَرُ في أمرِه ونهيِه. وإنّ أحدَ هؤلاءِ يخرقُ بصاحبِه؛ فيستغْضِبُ أخاه، ويهتكُ سترَه"، وقلّ أنْ تُغضبَ أحداً؛ فيقبلَ منك. ومن الترفُّقِ الاكتفاءُ بالتّعريضِ إنْ عاضَ عن التعيينِ، والأقتصارُ على الإشارةِ إن أغنتْ عن العبارةِ، والقناعةُ بالكتابِ إنْ نابَ عن الخطابِ، والتسلُّلُ لفتحِ غَلقِ قلبِ المنصوحِ بالتمهيدِ وذكرِ الفضائلِ والدعاءِ، وتحيُّنِ الوقتِ المناسبِ. كان الحسنُ بنُ صالحٍ إذا أرادَ أنْ يعظَ أحداً؛ كتبَ في ألواحِه ثمّ ناولَه.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصّلاةُ والسّلامُ على رسولِ اللهِ.
وبعدُ، فاعلموا أنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

ليس ردُّ النصيحةِ سبباً في تركِ بذْلِها — سيّما ما عظُمَ أمرُه وكبُرَ متعلَّقُه -؛ إذِ النصحُ ليس مشروطاً بالقَبولِ. نصحَ حكيمٌ أخاً له قائلاً: "انصحْ للهِ نُصحَ الكلبِ لأهلِه؛ يُجيعونَه، ويطْرُدونَه، ويضْربونه؛ ويأبى إلا أنْ ينصحَ لهم". والعاقلُ يقبلُ النُّصحَ ممَّن بذلَه وإنْ جفا في أسلوبِه، قال ابنُ القيمِ: "النصيحةُ لِقاحُ العقلِ؛ فكلَّما قويتْ قويَ العقلُ واستنارَ".

والنُّصحُ أرخصُ ما باحَ الرجالُ فلا ... تردُدْ على ناصحٍ نُصحاً ولا تلُمِ
إنَّ النصائحَ لا تخفَى مناهلُها ... على الرجالِ ذوي الألبابِ والفهمِ

ولئنْ كانتِ النصيحةُ مكْنزَ خيرٍ؛ فإنّ خيرَها يعظُمُ بعِظَمِ علمِ مَن صدرَتْ منه؛ ولذا غدا لنصحِ العالِمِ والحكيمِ والمجرِّبِ وقْعٌ ونفعٌ واختصارُ زمنٍ وإضافةُ عمرٍ. وخيرُ أولئكَ النَّصَحَةِ مَن جمعَ مع العلمِ والخبْرةِ الرحمةَ والبيانَ؛ ويأتي في مقدِّمِهم رسولُ اللهِ ﷺ؛ فطُوبَى لمَن وعى نُصحَه، وامتثَلَه!

نفعُ الناسِ

الحمدُ للهِ ذي الفضلِ والكرَمِ، حاطَ فضلُه الأمَمَ، وفاضَ خيرُه وعمّ، كريمٍ يُؤمّ، وجبّارٍ منتقم. وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له توحيداً بالفعلِ والكلِمِ. وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه النبيَّ الأشمّ، صلى اللهُ وسلمَ عليه وعلى آلِه وأصحابِه ذوي المناقبِ والشِّيَمِ.

أمّا بعدُ، فاتّقوا اللهَ — عبادَ اللهِ -. ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ... ﴾.

أيّها المسلمونَ!

نَفْعُ الناسِ عمادٌ في بناءِ العطاءِ السّامِي ونبذِ الانكفاءِ على حدِّ الأنانيةِ المَقيتِ والضنّ بالنّعَمِ. وذاكَ ما وجّهَ إليه الإسلامُ أتْباعَه، وحفّزَهم إليه، وربّاهم عليه؛ تطْهيراً للنّفوسِ من وضَرِ الشحِّ، وإقامةً لجُسورِ اللُّحمةِ المجتمعيّةِ والوحدةِ الشعوريّةِ ووشَائجِ المودّةِ بين أفرادِه. بل جعلَ ذلكَ النفعَ من معاييرِ التفاوتِ في محبةِ اللهِ لذَويهِ. يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: "أحبُّ الناسِ إلى اللهِ تعالى أنفعُهم للناسِ" (رواه ابنُ أبي الدُّنيا وحسّنه الألبانيُّ). وقد بثّ اللهُ المواهبَ ونوّعَ القُدَرَ بين العبادِ؛ فكان أعظمُهم منّةً عليه أكثرَهم عليه نعمةً. وجعلَ تلكَ النعمَ اختباراً لإيمانِ العبدِ صبراً وشُكراً، يجيءُ نفعُ الناسِ في مقدَّمِ ما تُشكَرُ به النعمُ وتُقَرُّ وتزدادُ. قال أبو نصرٍ العامليُّ: "كان يُقالُ: "زكاةُ النِّعمِ اتّخاذُ الصنائعِ والمعروفِ""، وقال محمدُ ابنُ الحنفيَّةِ، "أيُّها الناسُ! اعلمُوا أنّ

حوائجَ الناسِ إليكم نِعَمُ اللهِ - عزّ وجلّ — إليكم؛ فلا تملّوها فتُحوّلَ نقَماً. واعلموا أنّ أفضلَ المالِ ما أفادَ ذُخْرا، وأورثَ ذِكرا، وأوجبَ أجرا. ولو رأيتُم المعروفَ رجُلًا لرأيتُموهُ حَسَناً جميلاً يسرُّ الناظرينَ، ويفوقُ العالمينَ".

أيّها المؤمنونَ!

إنّ نفعَ الناسِ من أعظمِ الأعمالِ الصّالحةِ التي فاقَ أجرُها عند اللهِ عبادةَ التطَوُّعِ ذاتَ النفعِ الخاصِّ، يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: "إِنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ سُرُورٌ تَدْخِلُهُ عَلَى مُؤْمِنٍ: تَكْشِفُ عَنْهُ كَرْبًا، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلَأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخِي الْمُسْلِمِ فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ شَهْرَيْنِ فِي مَسْجِدٍ، وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ، وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ، مَلأَ اللهُ قَلْبَهُ رِضًى، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى يُثْبِتَهَا لَهُ ثَبَّتَ اللهُ قَدَمَيْهِ يَوْمَ تَزِلُّ الْأَقْدَامُ" (رواه ابنُ أبي الدُّنيا وحسّنه الألبانيُّ). ونفعُ الناسِ جَنَّةٌ مُعجّلةٌ من سرورٍ يغْشى الروحَ فتسعدُ، فقد عدّها ابنُ القيمِ من أسبابِ السعادةِ وانشراحِ الصدرِ إذْ يقولُ: "ومنها: الإحسانُ إلى الخلقِ ونفعُهم بما يمكِنُه من المالِ والجاهِ والنفعِ بالبدَنِ وأنواعِ الإحسانِ. فإنّ الكريمَ المحسنَ أشرحُ الناسِ صدرا، وأطيبُهم نفسا، وأنعمُهم قلبا، والبخيلُ الذي ليس فيه إحسانٌ أضيَقُ الناسِ صدرا، وأنكدُهم عيشا، وأعظمُهم همّا وغمّا". وفي نفعِ الناسِ تخليدُ الأجورِ مع طيبِ الذكرِ والمآثرِ، يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾. أوصَى زهيْرُ بنُ خبابٍ بَنيهِ فقالَ: "يا بَني! عليكم باصطِناعِ المعروفِ واكتسابِه،

وتَلـذَّذوا بمـودّاتِ صُـدورِ الرجـالِ، ورُبّ رجـلٍ صفُـرَ مـن مالِـه فعـاش بذلـكَ، وعقِبُـه مـن بعـدِه ".

فمَن عاشَ حتى ينفـعَ الناسَ علمُه فـلا زال ممتـدّاً له العيـشُ والعمرُ
ومـا الخُلْـدُ إلا للذيـنَ إذا انتهتْ حياتُهـمُ بالخيـرِ دامَ بها الذكــرُ

وفي نفعِ الناسِ استجلابُ موادِّهم، وإذهابُ وحرِ صدورِهم. قال المهلبُ بنُ أبي صفرةَ: «عجبتُ لمَن يشتري المماليكَ بمالِه، كيف لا يشتري الأحرارَ بمعروفِه؟!». وحَبلُ عونِ اللهِ للعبدِ ممدودٌ بالرزقِ والنصرِ وتيسيرِ قضاءِ الحاجةِ ما دام حبلُ نفعِه للناسِ باقياً، يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: "واللهُ في عوْنِ العبدِ ما كانَ العبدُ في عوْنِ أخيهِ" (رواه مسلمٌ). أوصَى عليُّ بنُ أبي طالبٍ — رضيَ اللهُ عنه — كميلَ بنَ زيادٍ قائلاً: "يا كميلُ! مُرْ أهلَك أنْ يَروحُوا في كسبِ المكارمِ ويُدلجُوا في حاجةِ مَن هو نائمٌ، فوَ الذي وسِعَ سمعُه الأصواتَ ما من أحدٍ أوْدعَ قلبا سرورا إلا خلقَ اللهُ تعالى من ذلكَ السرورِ لطفا، فإذا نابتْه نائبةٌ جرى إليها كالماءِ في انحدارِه حتى يطردَها عنه كما تُطردُ غريبةُ الابلِ!". ونفْعُ النّاسِ من أسبابِ الوقايةِ من المَخَازي والمهالكِ وسبيلٌ للظّفرِ بحسنِ الخاتمةِ، يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: "صنائعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مصَارِعَ السُّوءِ" (رواه الطّبرانيُّ وحسّنه المُنذريُّ). وقد قالتْ خديجةُ — رضيَ اللهُ عنها – للنبيِّ ﷺ لما جاءَه الوحيُّ وخافَ على نفسِه: "كلّا! واللهِ لا يُخزيكَ اللهُ أبداً! إنّك لتصلُ الرحمَ، وتَصدقُ الحديثَ، وتحمِلُ الكلَّ، وتُكسبُ المعدومَ، وتُقري الضيفَ، وتُعينُ على نوائبِ الحقّ". قالَ شيخُ الإسلامِ: "فاستدلّتْ بعقلِها على أنّ مَن جعلَ اللهُ فيه هذه المحاسنَ والمكارمَ

التي جعلها من أعظمِ أسبابِ السعادةِ لم تكنْ من سنّةِ اللهِ وحكمتِه وعدلِه أن يُخزيَه، بل يكرمَه ويعظّمَه". وبَركةُ العبدِ تُدرَكُ بمدى نَفعِه؛ فقد فسّرَ مُجاهدٌ قولَ اللهِ حكايةً عن المسيحِ — عليه السلامُ -: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ أي: نافعًا للناسِ.

عبادَ اللهِ!

بتلكَ المزايا تنافسَ طلابُ العُلا في نفْعِ الناسِ ولم يُقعدْهم عنهم منصبٌ أو تشاغُلٌ، فقد كان أبو بكرٍ الصّديقُ — رضيَ اللهُ عنه -يحلبُ للحيِّ أغنامَهم، فلما استُخلِفَ، قالتْ جاريةٌ منهم: الآن لا يحلبُها، فقال أبو بكرٍ: بلى! وإنِّي لأرجو أنْ لا يُغيّرَنِي ما دخلتُ فيه عن شيءٍ كنتُ أفعلُه. وكان عمرُ — رضيَ اللهُ عنه- يتعاهدُ الأراملَ يستقي لهنّ الماءَ بالليلِ. ورآه طلحةُ بالليلِ يدخلُ بيتَ امرأةٍ، فدخلَ إليها طلحةُ نهارا، فإذا هي عجوزٌ عمياءُ مُقعدَةٌ، فسألَها: ما يصنعُ هذا الرجلُ عندكِ؟ قالتْ: هذا مذْ كذا وكذا يتعاهدُني يأتينِي بما يصْلحُني، ويُخرجُ عنّي الأذى، فقال طلحةُ: ثَكلتْكَ أمُّك طلحةُ! عثَراتِ عمرَ تتبعُ؟! وبعثَ الحسنُ البصريُّ قوما من أصحابِه في قضاءِ حاجةٍ لرجلٍ وقال لهم: مرّوا بثابتٍ البُنانيِّ، فخُذوه معكم، فأتوْا ثابتا، فقال: أنا معتكفٌ، فرجَعوا إلى الحسنِ فأخبَروه، فقالَ: قولوا له: يا أعمشُ! أمَا تعلمُ أنّ مشيَكَ في حاجةِ أخيكَ المسلمِ خيرٌ لك من حَجّةٍ بعد حَجّةٍ؟! فرجَعوا إلى ثابتٍ، فتركَ اعتكافَه، وذهبَ معهم. وكان أبو وائلٍ يطوفُ على نساءِ الحيِّ وعجائزِهم كلَّ يومٍ، فيشْتري لهنّ حوائجَهنّ وما يصلحُهنّ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصّلاةُ والسّلامُ على رسولِ اللهِ.
وبعدُ، فاعلمُوا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

إنّ مجالَ نفْعِ الناسِ وفرٌ رحْبٌ مقدورٌ، لا تخْلو نفسٌ من أحدِ خصالِه. وأعظمُه ما حُصِرتْ مشروعيّةُ الغِبْطةِ فيه: تعليمُ العلمِ والقضاءُ به، والجودُ بالمالِ، كما قالَ النبيُّ ﷺ: "لاَ حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا" (رواه البخاريُّ ومسلمٌ). وبذْلُ الجاهِ، وإعانةُ القُوةِ، وصنيعةُ المهنةِ، وإسداءُ المَشورةِ من تلكَ الخِصالِ اللاحبةِ. وأدناها نُبلُ المشاعرِ ولَطافةُ القَولِ وصادقُ الدُّعاءِ حين يجفُّ البذلُ، كما قالَ اللهُ — تعالى -: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾. فإنْ عُجزَ عن ذلكَ فإنَّ ثَمّةَ درجةً في النفْعِ دانيةً لا يُتنازَلُ عن إبقائِها؛ إذ لا نفعَ يُرْجى إنْ فُقدتْ؛ تِلكُم درجةُ كفِّ الأذى؛ فقد قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ»، قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: «فَيَعْمَلُ بِيَدَيْهِ؛ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ، وَيَتَصَدَّقُ»، قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَوْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ: «فَيُعِينُ ذَا الحَاجَةِ المَلْهُوفَ»، قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ: «فَيَأْمُرُ بِالخَيْرِ» أَوْ قَالَ: «بِالْمَعْرُوفِ»، قَالَ: فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ: «فَيُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ؛ فَإِنَّهُ لَهُ صَدَقَةٌ» (رواه البخاريُّ).

وإنِ امْـرأً لـم يربـح النـاسُ نفعَه ولـم يأمنـوا منـه الأذى لَلَئيـمُ

أيّها المسلمونَ!

وحتى يقعَ المعروفُ موْقعَه عند اللهِ وعند خلقِه فإنّه لابدّ من ملاحظَةِ الإخلاصِ للهِ وابتغاءِ الأجرِ من عندِه؛ فذاكَ مُبتغَى الأبْرارِ: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾. قالَ سعدونُ الرازيُّ: كنتُ مع حاتمٍ الخُراسانيِّ فكانَ يتكلمُ، فقلّ كلامُه، فقيلَ له في ذلكَ: قد كنتَ تتكلّمُ فتنفعُ الناسَ، فقالَ: إنّي لا أحبُّ أن أتكلمَ كلمةً قبل أنْ أستعدَّ جوابَها للهِ فإذا قالَ اللهُ — تعالى – لي يومَ القيامةِ: لمَ قلتَ كذا؟ قلتُ: يا ربِّ لكذا. وكذلكَ لابدّ من سلامةِ المعروفِ من معرّةِ المنّ والأذى وتذكيرِ المنفوعِ بتلكَ اليدِ؛ فإنّ ذلكَ مُحْبِطٌ لأجرِ العملِ، كما قال اللهُ — تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾. ولْيَعلمْ أنّ نفعَه لآخرَ لا يقلُّ عن نفعِ الآخرِ له إنْ لم يزدْ هذا المنفوعُ، يقولُ ابنُ القيمِ: "أنفعُ الناسِ لك رجلٌ مكّنَك من نفسِه حتى تزرعَ فيه خيرا أو تصنعَ إليه معروفاً؛ فإنّه نِعمَ العونُ لكَ على منفعَتِك وكمالِك؛ فانتفاعُك به في الحقيقةِ مثلُ انتفاعِه بكَ أو أكثرَ".

ولا تُفسِدُوا في الأرضِ بعدَ إصلاحِها

إنَّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مُضلَّ له، ومَن يضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ... ﴾.

أيّها المؤمنون!

فطرَ اللهُ الأرضَ نقيّةً طاهرةً صالحةً للأنامِ؛ يسكُنونَ فيها، ويتعيّشون منها، ويعمِّرونها حتى حينٍ، وسنّ لهم فيها سُنَنًا لا تَطيبُ حياتُهم إلا بمُراعاتِها والسيرِ معها وعدمِ مخالفتِها؛ إذْ في مخالفتِها النّكَدُ والشرورُ وسوءُ العاقبةِ. ومن تلكَ السُّننِ الإلهيّةِ سنّةُ الإصلاحِ الذي اصطَبَغَ به الكونُ بسمائه وأرضِه وشمسِه وقمرِه ونجمِه وبرِّه وبحرِه وسهلِه ووعْرِه، ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾. وبات الفسادُ شاذاً مناقضاً سنةَ صلاحِ الكونِ وعمارةَ الأرضِ، كما غدا أكبرَ خطرٍ داهمٍ عليها؛ يَشينُ حسنَها، وينغِّصُ عيشَ ساكنِيها، ويُدنيهم من حُلولِ نقمةِ الجبارِ. قال ابنُ القيمِ: "قال غيرُ واحدٍ من السلفِ: إذا قحطَ المطرُ، فإنَّ الدوابَّ تلعنُ عُصاةَ بَني آدمَ، وتقولُ: اللهمّ العنْهم؛ فبسببِهم أجدبتِ الأرضُ وقحطَ المطرُ". وعن أبي قَتادةَ بنِ رِبْعيٍّ الأنصاريِّ —رضيَ

اللهُ عنه-، أنهُ كان يحدِّثُ: أنّ رسولَ اللهِ ﷺ مُرَّ عليه بجنازةٍ، فقالَ: «مُستريحٌ ومستراحٌ منه»، قالوا: يا رسولَ اللهِ، ما المستريحُ والمستراحُ منه؟ قالَ: «العبدُ المؤمنُ يستريحُ من نصَبِ الدّنيا وأذاها إلى رحمةِ اللهِ، والعبدُ الفاجرُ يستريحُ منه العبادُ والبلادُ، والشجرُ والدوابُّ» رواه البخاريُّ ومسلمٌ.

عبادَ اللهِ!

الفسادُ ظُلمةٌ موحشةٌ تحْوي في حُلَكِها الهدمَ والخرابَ وكلَّ ما من شأنِه تقويضَ الإصلاحِ وإضعافَه، ولذا نهى اللهُ عنه نهياً عاماً لا يدَعُ من أفرادِه صغيراً ولا كبيراً إلا وشملَه ذلكَ النهيُ الصّارمُ؛ لعظَمِ ضررِه واستطارَةِ شرِّه، قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾. ومنبَعُ الفسادِ وأساسُه الذي ينشأُ منه ويتغذّى عليه المعاصِي التي يرتكبُها العبادُ ومخالفتُهم الأوامرَ الربانيّةَ، كما قالَ تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾، قال أبو العاليةِ: "مَن عصَى اللهَ في الأرضِ، أو أمرَ بمعصيةِ اللهِ؛ فقد أفسدَ في الأرضِ؛ لأنّ صلاحَ الأرضِ والسماءِ بالطّاعةِ". والفسادُ هاويَةٌ ذاتُ دركَاتٍ؛ بعضُها أعظمُ من بعضٍ، وأخطرُ الفسادِ من حيثُ الأجناسِ الكفرُ والشركُ، ثم النفاقُ، ثم البِدعُ، ثم الكبائرُ ثم الصغائرُ. ويعظُمُ الفسادُ إنْ كانَ فيه اعتداءٌ على حقّ الغيرِ بالأخذِ أو المنعِ -سيّما الضّعيفُ-، أو كان صاحبُه داعياً إليه، أو مزيِّناً له، أو مُجاهراً به، أو مُحتالاً فيه، أو فرِحاً به، أو خائناً لحقٍّ عامٍّ هو مؤتَمنٌ عليه، يقولُ النبيُّ ﷺ: "إنَّ رجالاً يتخوّضُون في مالِ اللهِ بغيرِ حقٍّ، فلهم النارُ يومَ القيامةِ" رواه البخاريُّ. وأخطرُ أهلِ الفسادِ أولئكَ المفسدونَ

المتدثِّرونَ في تسويغِ فسادِهم وترويجِه بشعارِ الإصلاحِ دون حقيقتِه؛ ليُموِّهوا فسادَهم بمُسوحِ الإصلاحِ وشعاراتِه دونَ أنْ يكونَ للإصلاحِ حقيقةٌ في واقعِ عملِهم المُشينِ، كما أبانَهم اللهُ بقولِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾؛ ليبقَى العملُ بعد ذلكَ هو الفيصلُ في بيانِ حقيقةِ حالِ المرْءِ الإصلاحيِّ أو الإفساديِّ دونَ كلامِه وشعاراتِه، كما قالَ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ۝٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾.

أيّها المسلمونَ!

الفسادُ والمفسِدونَ مَبغُوضُونَ عند اللهِ؛ فـ﴿ٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾، و﴿ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، ومن شأنِ ذلكَ البُغضِ الإلهيِّ أنْ جعلَ سبيلَ الإفسادِ والمُفسدينَ لا تُفضِي إلا إلى شرِّ مآلٍ في الدّنيا والآخرةِ، وأنّ صَوْلَةَ الفسادِ لا يطولُ وقتُها؛ لخطرِها على الكونِ؛ فإنّ من سُنَنِ اللهِ الجاريةِ أن يقيِّضَ للفسادِ يداً من الحقِّ حاصدَةً، كما قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ﴾، ويقولُ: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْۗ﴾، إضافةً إلى ما يحملُه الفسادُ في ذاتِه من أسبابِ سقوطِه واضْمِحْلالِه حين نزعَ اللهُ منه صلاحيةَ البقاءِ والقَبولِ واستمرارَ الصمودِ والظهورِ، كما قالَ اللهُ —

تعالى — حاكيـاً عـن نبيِّه موسى — عليه السلامُ -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، ونفـيُ اللهِ إصلاحَ أعمـالِ المفسِـدينَ بتركِهـا وشـأنِها وخُـذلانِ أهلِهـا، فسـريعـاً مـا تنكمشُ وتتهـاوَى؛ ولـذا فـإنّ مـن شـأنِ الفسـادِ أنْ يتضـاءَلَ مـع الزمـانِ حتـى يضْمَحلّ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصّلاةُ والسّلامُ على رسولِ اللهِ.

أمّا بعدُ، فاعلموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

إنّ الوازعَ الذاتيَّ باستشعارِ المرءِ اطّلاعَ اللهِ عليه، واستحْضارِه علمَ ربّه بمَغيبِه ومشهدِه، ويقينِه بحسابِه يومَ القيامةِ بين يديْه، وأنّ ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ﴾ -هو أعظمُ ما يُدرَأُ به الفسادُ ويُرفَعُ. وتنميَةُ هذهِ الرَّقابةِ في النفوسِ، وكثرةُ التذكيرِ بها من أهمِّ ما يجبُ التّواصِي به، ويُنشّأُ عليه الناشئةُ، يقولُ النبيُّ ﷺ: "مَن استعمَلْناه منكم على عملٍ، فكتَمَنا مِخْيَطًا، فما فوقَه كان غُلولاً يأتي به يومَ القيامةِ" رواه مسلمٌ، ويقولُ: "واللهِ لا يأخذُ أحدٌ منكم شيئًا بغيرِ حقِّه إلا لقيَ اللهَ يحملُه يومَ القيامةِ " رواه البخاريُّ. وسنّةُ المدافَعةِ بالنصيحةِ والأمرِ بالمعروفِ والنّهيِ عن المنكرِ وإقامةِ الحدودِ وسنِّ العُقوباتِ وإنشاءِ الأجهزةِ لمحاربةِ الفسادِ سبيلٌ شرعيٌّ قويمٌ لرفعِ الفسادِ ومنعِه، كما قالَ اللهُ — تعالَى-: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

ولْيعفُوا ولْيَصْفحُوا

الحمدُ للهِ العفوِّ الغفورِ، الحليمِ الشّكورِ، جاعلِ الظُّلمةِ والنورِ، ومقلِّبِ الّليالِي والدهورِ. وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له ولا نظيرَ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه البشيرَ النذيرَ والسّراجَ المنيرَ، صلى اللهُ عليه وعلى آلِه وصحبِه وسلمَ تسليماً كثيراً إلى يومِ النشورِ.

أمّا بعدُ، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ... ﴾.

أيّها المؤمنونَ!

ابتلاءُ الخلقِ ببعضٍ سنةٌ ربانيّةٌ، تكشفُ عن عزائمِ الصّبرِ في صُوَرِ الابتلاءِ المُختلفةِ وِفْقَ قولِ اللهِ — تعالى -: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾. وقد تميّزَ صبرُ أهلِ الإيمانِ بالسموِّ والقوةِ والاطِّرادِ وملازمةِ الهَدْيِ الربَّانِيِّ، وإنْ شقَّ رَهَقُ البلاءِ ووطْأتُه. هذا، وإنَّ من شديدِ ابتلاءِ النفسِ وشقّه عليها تعرُّضَها لإساءةِ الآخرينَ وظلمِهم. ومع ذا، فإنَّ الإسلامَ قد رسمَ طريقَ السموِّ في تخطِّي هذا البلاءِ الشاقِّ، وتجييرِه منحةً ينعمُ صاحبُها ببرِّها وذُخْرِها في الدّنيا والآخِرةِ. ذاكُم هو سبيلُ العفْوِ والصّفحِ الذي أمرَ اللهُ — تعالَى — به في قولِه: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ﴾؛ تجاوُزاً عن إساءةِ الناسِ، وتركًا لمعاقبتِهم.

أيّها المسلمونَ!

إنَّ للعفوِ مقامــًا ســاميًا عنـدَ اللهُ — سبحانَه -، وعنـد العافِي نفسِـه، وعنـد النـاسِ. أمّـا عنـد اللهِ؛ فالعفُوّ مـن أسمائه، والعَفْـوُ مـن جليـلِ صفاتِـه، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُـوًّا غَفُــورًا﴾. وقـد تكفّلَ بأجـرِ العافِـي؛ ممّـا تَقـرُّ بـه عينُـه، وتطِيـبُ نفسُـه، فقـالَ: ﴿فَمَــنْ عَفَــا وَأَصْلَــحَ فَأَجْـرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾، ويقـولُ أبـو بكـرٍ الصدّيـقُ — رضـيَ اللهُ عنـه -: "بلغَنـا أنَّ اللهَ — تعالـى — يأمـرُ مناديــًا فينـادِي: مَـن كانَ لـه عنـد اللهِ شـيءٌ فليقـمْ، فيقـومُ أهـلُ العفـوِ؛ فيكافئُهـم علـى مـا كان مـن عفوِهـم" رواه ابـنُ منيـعٍ" ومـن تلـكَ المكافـأةِ أنْ يمـلأَ اللهُ قلـبَ العافِـي رضـىً ورجـاءً يـومَ القيامـةِ، يقـولُ الرسـولُ ﷺ: " مَـن كظـمَ غيظَـه ولـو شـاءَ أنْ يُمضيَـه أمضَـاه، مـلأ اللهُ قلبَـه رجـاءً — وفي روايـةٍ: "أمنــًا وإيمانــًا" — يـومَ القيامـةِ" رواه الأصْبهـانيُّ وحسّـنه الألبـانيُّ. ومـن تلـكَ المكافـأةِ غفـرانُ الذنـوبِ، يقـولُ اللهُ — تعالـى -: ﴿وَلۡيَعۡفُـواْ وَلۡيَصۡفَحُــوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّـونَ أَن يَغۡفِـرَ ٱللَّهُ لَكُـمۡۚ﴾، ويقـولُ النبـيُّ — ﷺ —: "كَانَ تَاجِرٌ يُدَايِـنُ النَّـاسَ، فَـإِذَا رَأَى مُعْسِـرًا قَـالَ لِفِتْيَانِـهِ: تَجَـاوَزُوا عَنْـهُ؛ لَعَـلَّ اللهَ أَنْ يَتَجَـاوَزَ عَنَّـا؛ فَتَجَـاوَزَ اللهُ عَنْـهُ" رواه البخـاريُّ ومسـلمٌ. وتمـامُ تلـك المكافـأةِ الإلهيّـةِ دخـولُ الجنـةِ، يقـولُ اللهُ — تعالـى -: ﴿وَسَـارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِـرَةٖ مِّـن رَّبِّكُـمۡ وَجَنَّـةٍ عَرۡضُهَـا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِـدَّتۡ لِلۡمُتَّقِـينَ ١٣٣ ٱلَّذِيـنَ يُنفِقُـونَ فِي ٱلسَّـرَّآءِ وَٱلضَّـرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِـينَ ٱلۡغَيۡـظَ وَٱلۡعَافِـينَ عَـنِ ٱلنَّـاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِـبُّ ٱلۡمُحۡسِـنِينَ﴾. وتخييرُ العافِي من الحُورِ من تلكَ المكافأةِ، يقولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَـنْ كَظَـمَ غَيْظًـا وَهُـوَ قَـادِرٌ عَلَـى أَنْ يُنْفِـذَهُ، دَعَـاهُ اللهُ - عَـزَّ وَجَـلَّ - عَلَـى

رُؤوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ حَتَّى يُخَيِّرَهُ اللهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ مَا شَاءَ» رواه أبو داودَ والترمذيُّ وحسنَه. وثلاثُ محاسنَ أخرَ يمنحُها اللهُ لأهلِ العفوِ، رُويَتْ من قولِ النبيِّ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ آوَاهُ اللهُ فِي كَنَفِهِ، وَسَتَرَ عَلَيْهِ بِرَحْمَتِهِ، وَأَدْخَلَهُ فِي مَحَبَّتِهِ» قِيلَ: مَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «مَنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا قَدَرَ غَفَرَ، وَإِذَا غَضِبَ فَتَرَ» رواه الحاكمُ وصحّحه.

عبادَ اللهِ!

وعفوُ العافِي طريقٌ لظفرِه بخَصلَةِ التقوى والإحسان ؛ إذ العفووالإحسانِ؛ إذِ العفوُ من أخص صفات أهلهاأخصِّ صفاتِ أهلِها، كما قال اللهقالَ اللهُ — تعالى -: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، قالَ الحسن البصري: "أفضلالحسنُ البصريُّ: "أفضلُ أخلاقِ المؤمنِ العفوُ". والعفوُ سبيلُ راحةِ البالِ وطيبِ العيشِ، قال الفضيلُ بنُ عِياضٍ: "إذا أتاكَ رجلٌ يشْكو رجلاً، فقلْ: يا أخي، اعفُ عنه؛ فإن العفوَ أقربُ للتقْوى، فإنْ قالَ: لا يحتملُ قلبي العفوَ، ولكنْ أنتصرُ كما أمرَني اللهُ — عزّ وجلّ -، فقلْ: فإنْ كنتَ تحسنُ تنتصرُ مِثلاً بمِثلٍ، وإلا فارجعْ إلى بابِ العفوِ؛ فإنّه بابٌ أوسعُ؛ فإنّه مَن عفا وأصلحَ فأجرُه على اللهِ، وصاحبُ العفوِ ينامُ الليلَ على فراشِه، وصاحبُ الانتصارِ يقلّبُ الأمورَ".

فإنَّــكَ حِيــنَ تَبْلُغُهــم أذاةً   وإنْ ظَلمــوا لَمحــترِقُ الضَّميرِ
لمّا عفــوْتُ ولم أحقدْ على أحدٍ   أرحتُ نفســي من همّ العداواتِ

والعفوُ سبيلٌ لصفاءِ العقلِ ونجاحِ الرّأيِّ، وعقلُ المنتقمِ مكسوفٌ بانتقامِه، قالَ عمرُو بنُ العاصِ — رضيَ اللهُ عنه -:

وبعــضُ انتقامِ المرءِ يُــزري بعقلِه   وإنْ لــم يقــعْ إلا بأهــلِ الجرائمِ.

أيّها الإخوةُ في اللهِ!

والعفوُ عند الناسِ جالبُ محبّتَهم، وكاسبُ قلوبَهم، ومطيّبُ خواطرَهم، يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِۖ﴾. والعفوُ ضَمانةُ عزٍّ وسُؤدُدٍ، يقولُ الرسولُ ﷺ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ» رواه مسلمٌ. ومن هنا باتَ العفوُ من أدقّ معاييرِ المفاضَلةِ بين الناسِ، قال قَتادةُ: "أفضلُ الناسِ أعظمُهم عند الناسِ عفواً، وأوسعُهم له صدراً". والعفوُ عن خطأِ الكريمِ من أبلغِ ما يؤدّبُ به، كما قالَ القائلُ: وما قتل الأحرارَ كالعفوِ عنهمُ.

أيّها المؤمنونَ!

إنما يُمدَحُ العفوُ ويَشرُفُ إنْ وقعَ موقعَه، وإلا فالذمُّ أوْلى به. والعفوُ

الممدوحُ ما ضَوى ثلاثةَ أمورٍ؛ أولُها: ألا يكونَ فيما حُرّمَ فيه العفوُ، كالحدودِ إنْ بلغتِ السلطانَ؛ لقولِ النبيِّ ﷺ: "تعافُوا الحدودَ فيما بينكم، فما بلغني من حدٍّ فقد وجبَ" رواه أبو داودَ وصحّحه الحاكمُ. والثاني: أنْ يكونَ في العفوِ مصلحةٌ للمجتمعِ، ثم للمعفوِّ عنه؛ لقولِه تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾، وإن تُرُدّدَ بين المصلحةِ والمفسدةِ فالعفوُ أولى. والثالثُ: القدرةُ على الانتقامِ؛ لقولِ اللهِ — سبحانَه -: ﴿إِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ مع قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾، يقولُ إبراهيمُ النّخعيُ: "كانَ المؤمنونَ يكرهونَ أن يُستذَلوا، وكانوا إذا قدِروا عفوْا". وخيرُ العفوِ ما عُجِّلَ، سيّما مع اعتذارِ المخطئِ، يقولُ الحسنُ بنُ عليٍّ: "لو أنّ رجلاً شتمَني في أذُني هذه، واعتذرَ في أذُني هذه؛ لقبلتُ". ويتأكّدُ استحسانُ العفوِ عن زَللِ القريبِ والضعيفِ وذي الفضلِ ومَن تَكْثرُ مخالطتُه، يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وجَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَمْ نَعْفُو عَنِ الْخَادِمِ؟ فَصَمَتَ، ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِ الْكَلَامَ، فَصَمَتَ، فَلَمَّا كَانَ فِي الثَّالِثَةِ، قَالَ: «اعْفُوا عَنْهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً» رواه أبو داودَ وصحّحه الألبانيُّ. سبعونَ عفواً في يومٍ واحدٍ مع خادمٍ! فكيف مع الولدِ والزوجِ والقريبِ؟!

أيّها المسلمونَ!

ما أعظمَ حاجتَنا لهذا الخلقِ النبيلِ مع الناسِ عامّةً، ومع القرابةِ خاصّةً!

وإنّ العجبَ ليبلغُ مبلغَه حين ترى قطيعةً بين أقاربَ ربّما امتدتْ أعواماً وعقوداً لأجلِ لعاعةٍ من الدّنيا وعَرَضٍ زائلٍ! أفلا يتّقي اللهَ أولئكَ؟! ويثِبون إلى رُشدِهم؟! ويطمحُون في رفعِ صالحاتِهم وتكفيرِ ذنوبِهم؟! ألم يسمعوا قولَ رسولِ اللهِ ﷺ: "تُعْرَضُ الْأَعْمَالُ فِي كُلِّ يَوْمِ خَمِيسٍ وَاثْنَيْنِ — وفي رواية: "تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّة"-، فَيَغْفِرُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لِكُلِّ امْرِئٍ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا، إِلَّا امْرَأً كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيُقَالُ: ارْكُوا (أي: أخّروا) هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، ارْكُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا" رواه مسلمٌ؟! ألا يُرعبُهم قولُ رسولِ اللهِ ﷺ: «لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ، فَمَنْ هَجَرَ فَوْقَ ثَلَاثٍ فَمَاتَ دَخَلَ النَّارَ» رواه أبو داودَ بإسنادٍ على شرطِ البخاريِّ ومسلمٍ كما قالَ النوويُّ؟! ألا يخيفُهم قولُ رسولِ اللهِ ﷺ: "مَن هجرَ أخاه سنةً فهو كسَفكِ دمِه" رواه أبو داودَ وصحّحه النوويُّ؟!

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ وحدَه، والصّلاةُ والسّلامُ على مَن لا نبيَ بعدَه.
وبعدُ، فاعلَموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

مواقفُ العفوِ غايةٌ في حسنِ الأثرِ والتأثيرِ، ومن رائقِ أخبارِ روّادِها ما رواه أنسُ بنُ مالكٍ — رضيَ اللهُ عنه — إذْ يقولُ: "كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَذَبَهُ جَذْبَةً شَدِيدَةً، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ أَثَّرَتْ بِهِ حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَذْبَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ» رواه البخاريُّ ومسلمٌ. وقالتْ عائشةُ — رضيَ اللهُ عنها -: «مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا خَادِمًا، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ، فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ، إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللهِ، فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» رواه مسلمٌ. وقال ابنُ مسعودٍ — رضيَ اللهُ عنه -: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ، ضَرَبَهُ قَوْمُهُ ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي؛ فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ» رواه البخاريُّ. وقال عمرُ بنُ الخطّابِ— رضيَ اللهُ عنه -: "كلُّ الناسِ منّي في حِلٍّ". وقالتْ عائشةُ — رضيَ اللهُ عنها -: "هُزِمَ المُشْرِكُونَ يَوْمَ أُحُدٍ هَزِيمَةً تُعْرَفُ فِيهِمْ، فَصَرَخَ إِبْلِيسُ: أَيْ عِبَادَ اللهِ، أُخْرَاكُمْ، فَرَجَعَتْ أُولاَهُمْ فَاجْتَلَدَتْ هِيَ وَأُخْرَاهُمْ، فَنَظَرَ حُذَيْفَةُ بْنُ

اليَمَانِ فَإِذَا هُوَ بِأَبِيهِ، فَقَالَ: أَبِي أَبِي! قَالَتْ: "فَوَاللهِ! مَا انْحَجَزُوا حَتَّى قَتَلُوهُ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ: غَفَرَ اللهُ لَكُمْ"، قَالَ عُرْوَةُ: فَوَاللهِ مَا زَالَتْ فِي حُذَيْفَةَ مِنْهَا بَقِيَّةُ خَيْرٍ حَتَّى لَقِيَ اللهَ رواه البخاريُّ. واشترى ابنُ مسعودٍ — رضيَ اللهُ عنه — طعاماً من السوقِ وبحثَ عن الدراهمِ وكانتْ في عمامتِه، فوجدَها قد حُلّت، فقال: لقد جلستُ وإنها لَمعي، فجَعلوا يدعُون على مَن أخذَها، ويقولونَ: اللهمّ اقطعْ يدَ السارقِ الذي أخذَها! اللهمّ افعلْ به كذا! فقال ابنُ مسعودٍ: اللهمّ إنْ كانَ حملَه على أخذِها حاجةٌ؛ فبارِكْ له فيها! وإنْ كانَ حملَه جرأةٌ على الذنبِّ؛ فاجعلْه آخرَ ذنبِه!. وسقى مولىً عمرَ بنَ عبدِالعزيزِ سمّاً لقتلِه، فلمّا علمَ دعَاهُ، فقَالَ: وَيْحَكَ! مَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ سَقَيْتَنِي السُّمَّ؟ قَالَ: أَلْفُ دِيْنَارٍ أُعْطِيْتُهَا، وَعَلَى أَنْ أُعْتَقَ، قَالَ: هَاتِهَا، فَجَاءَ بِهَا، فَأَلْقَاهَا فِي بَيْتِ المَالِ، وَقَالَ: اذْهَبْ حَيْثُ لاَ يَرَاكَ أَحَدٌ. وكان لابنِ عونٍ ناقةٌ يغزُو عليها ويحجُّ، وكان بها معجَباً، فأمرَ غلاماً يستقي عليها، فجاء وقد ضرَبها على وجهِها فسالت عينُها على خدِّها، فقال أصحابُه: إنْ كان من ابنِ عوْنٍ شيءٌ فاليومَ، فلم يلبثْ أنْ نزلَ، فلمّا نظر إلى الناقةِ قال للغلامِ: سبحانَ اللهِ! أفلا غيرَ الوجهِ؟! باركَ اللهُ فيكَ! اخرجْ عنّي، اشهدُوا أنّه حرٌّ. وقال الإمامُ أحمدُ: "كُلُّ مَنْ ذَكَرَنِي فَفِي حِلٍّ إِلاَّ مُبتدِعاً، وَقَدْ جَعَلتُ أَبَا إِسْحَاقَ -يَعْنِي: المُعْتَصِمَ- فِي حِلٍّ، وَرَأَيْتُ اللهَ يَقُوْلُ: ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾، وَأَمَرَ النَّبِيُّ – ﷺ– أَبَا بَكْرٍ بِالعفوِ فِي قِصَّةِ مِسْطَحٍ، وَمَا ينفعُكَ أَنْ يُعَذِّبَ اللهُ أَخَاكَ المُسْلِمَ فِي سَبَبِكَ؟!". وكَانَ بَيْنَ حَسَنِ بنِ حَسَنٍ وَبَيْنَ ابْنِ عَمِّهِ عَلِيِّ بنِ الحُسَيْنِ شَيْءٌ، فَمَا تَرَكَ حَسَنٌ شَيْئاً إِلاَّ قَالَهُ، وَعَلِيٌّ سَاكِتٌ، فَذَهَبَ حَسَنٌ،

فَلَمَّا كَانَ فِي اللَّيْلِ، أَتَاهُ عَلِيٌّ، فَخَرَجَ، فَقَالَ عَلِيٌّ: يَا بْنَ عَمِّي، إِنْ كُنْتَ صَادِقًا، فَغَفَرَ اللهُ لِي! وَإِنْ كُنْتَ كَاذِبًا، فَغَفَرَ اللهُ لَكَ! السَّلامُ عَلَيْكَ؛ فَالْتَزَمَهُ حَسَنٌ، وَبَكَى، حَتَّى رُثِي لَهُ.

فتشبّهوا إنْ لم تكونُوا مثلَهم إنّ التشبّهَ بالكرامِ فلاحُ

الرقاق والمواعظ

شهرةٌ في السماءِ

الحمدُ للهِ العليمِ القديرِ، السميعِ البصيرِ، وسعَ كلَّ شيءٍ علماً ورحمةً وهو اللطيفُ الخبيرُ. وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له ولا نظيرَ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلى اللهُ عليه وعلى آلِه وصحبِه وسلّمَ التسليمَ الكثيرَ.

أما بعدُ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

أيها المؤمنون!

في السماءِ نبأُ شهرةٍ عظيمٌ لأقوامٍ قد ذاعَ بالخيرِ صيتُهم فيها؛ فلاسْمِهم دويٌّ في الملإِ الأعلى عليٌّ، ولمحبتِهم حفاوةٌ ورَواجٌ بين الملائكِ الكرامِ؛ إذ ظفروا بمحبةِ اللهِ الودودِ؛ فكان لهمُ الودُّ السماويُّ والقبولُ الأرضيُّ، كما قال -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾. فَسَرَّ ذلك الودَّ الربانيَّ رسولُ اللهِ ﷺ بقولِه: "إنّ اللهَ إذا أحبَّ عبداً دعا جبريلَ فقال: إني أحبُّ فلاناً؛ فأَحِبَّه. قال: فيحبُّه جبريلُ، ثم ينادي في السماءِ فيقولُ: إنَّ اللهَ يحِبُّ فلاناً؛ فأحِبُّوه؛ فيحبُّه أهلُ السماءِ. قال: ثمَّ يُوضعُ له القبولُ في الأرضِ. وإذا أبغضَ عبداً دعا جبريلَ فيقولُ: إني أبغضُ فلاناً؛ فأبْغِضْه. قال: فيبغضُه جبريلُ، ثم ينادي في أهلِ السماءِ: إنّ اللهَ يبغضُ فلاناً؛ فأبغضُوه. قال: فيبغضونَه، ثم تُوضعُ له البغضاءُ في الأرضِ" رواه البخاريُّ ومسلمٌ واللفظُ لمسلمٍ. فلا حقيقةَ ولا قرارَ لثناءِ أهلِ الأرضِ ما لم يكنْ موصولاً بثناءِ أهلِ

السماءِ، قال كعبُ الأحبارِ: "وَاللهِ، مَا اسْتَقَرَّ لِعَبْدٍ ثَنَاءٌ فِي الْأَرْضِ حَتَّى يستَقِرَّ لَهُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ".

عبادَ اللهِ!

ومن عَجَبِ شأْنِ مشاهيرِ السماءِ غلبةُ خفوتِهم في الأرضِ، وخمولِ ذكرِهم، وانزوائِهم عن بريقِ الأضواءِ، وتحامِيهم عن أسبابِ الشهرةِ، مع نُدرةِ ما يملكونَ من زهرةِ الدنيا؛ فليس لهم عندَ أهلِ الدنيا حظوةٌ ولا حفاوةٌ؛ لا يُحفلُ بهم إنْ حضروا، ولا يُفقدون إنْ غابوا، وليس لمَطْلبِهم مُجيبٌ، ولا لرأيِهم حظٌّ في شَوْرٍ أو حظوةٌ عند إصابةٍ، بل ربما دُفِعُوا عن الأبوابِ، وتُهُكِّمَ بهم لمسْكنةٍ أو نسبٍ أو عِرْقٍ أو عُجْمةٍ حَبستِ اللسانَ أو نَقْصٍ في نسبٍ أو خَلْقٍ أو لونِ بَشَرَةٍ! فليس لهم عند أهلِ الدنيا ذِكْرٌ ولا جاهٌ ولا وزنٌ ودويُّ ثنائِهم يَصْدُحُ في السماواتِ العُلى، بل ربَّما بَلَغَ حبُّ اللهِ وإكرامُه لأحدِهم أنْ لو أقسمَ عليه لأبَرَّهُ. يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: "ألا أخبرُكم بأهلِ الْجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعَّفٍ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ" رواه البخاريُّ ومسلمٌ، ويقولُ: "رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ" رواه مسلمٌ. مشاهيرُ السماءِ قد قرَّتْ في قلوبِهم ثلاثةٌ من أسبابِ المحبةِ الإلهيةِ؛ التقوى، وغنى القناعةِ، والتباعدُ عن الشُّهْرَةِ! قال عامرُ بنُ سعدٍ: كان سعدُ بنُ أبي وقاصٍ -رضي اللهُ عنه- في إبْلِه، فجاءه ابنُه عمرُ، فلما رآه سعدٌ قال: أعوذُ باللهِ من شرِّ هذا الراكبِ! فنزلَ، فقال له: أنزلتَ في إبلِك وغنمِك وتركتَ الناسَ يَتنازعون الملكَ بينهم؟! فضربَ سعدٌ في صدرِه، فقال: اسكتْ؛ سمعتُ رسولَ اللهِ

ﷺ يقـولُ: "إنَّ اللهَ يحبُّ العبدَ التقيَّ، الغنيَّ، الخفيَّ" رواه مسلمٌ. ومَن حازَ هذه الغنائمَ الثلاثَ كان من الصادقين الذين لهم لسانُ صدقٍ عندَ اللهِ، قال المَرُّوذي: سمعتُ رجلاً يقولُ لأبي عبدِاللهِ (الإمامِ أحمدَ) وذَكَرَ له الصدقَ والإخلاصَ، فقال أَبُو عَبْدِاللهِ: بهذا ارتفعَ القومُ! أوصى ابنُ مسعودٍ -رضي اللهُ عنه- أصحابَه يوماً قائلاً: " كُونُوا يَنَابِيعَ الْعِلْمِ، مَصَابِيحَ الْهُدَى، أَحْلَاسَ[1] الْبُيُوتِ، سُرُجَ اللَّيْلِ، جُدُدَ[2] الْقُلُوبِ، تُعْرَفُونَ فِي السَّمَاءِ، وَتَخْفَوْنَ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ "، وقال: "أَيُّكُمُ اسْتَطَاعَ أَنْ يَجْعَلَ فِي السَّمَاءِ كَنْزَهُ فَلْيَفْعَلْ، حَيْثُ لَا تَأْكُلُهُ السُّوسُ، وَلَا تَنَالُهُ السَّرِقَةُ؛ فَإِنَّ قَلْبَ كُلِّ امْرِئٍ عِنْدَ كَنْزِه". قال مُطرِّفُ بنُ عبدِاللهِ: "انظروا قوماً إذا ذُكِرُوا ذُكِرُوا بالقراءةِ؛ فلا تكونوا منهم، وانظروا قوماً إذا ذُكِرُوا ذُكِرُوا بالفجورِ؛ فلا تكونوا منهم؛ وكونوا بين ذلك". قال ابنُ رجبٍ معلِّقاً على ذلك: "وهذا هو الذِّكْرُ الخفيُّ المشارُ إليه في حديثِ سعدٍ، وهو من أعظمِ نعمِ اللهِ على عبدِه المؤمنِ، الذي رزقَه نصيباً مِن ذوقِ الإيمانِ، فهو يعيشُ به مع ربِّه عيشاً طيباً، ويَحجبُه عن خَلْقِه حتى لا يفسدوا عليه حالَه مع ربِّه؛ فهذه هي الغنيمةُ الباردةُ، فمن عرفَ قدْرَها، وشَكرَ عليها؛ فقد تمَّتْ عليه النعمةُ". ولخفاءِ ما انطوتْ عليه نفوسُ أولئك الصادقين من خبايا الصالحاتِ؛ كان أهلُ الرسوخِ في العلمِ يُجِلُّونَ ذوي المسكنةِ، ويَتحامَوْنَ احتقارَهم وازدراءَهم؛ إذ هم أكثرُ أهلِ الجنةِ، كما قال نوحٌ -عليه السلامُ-: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا

---

(١) جمع حِلْس، وهو نوع من البُسط التي يجلس عليها.
(٢) يريد بذلك تجديدها بالتوبة.

فِىٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّىٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وقال النبيُّ ﷺ: " اطَّلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ" رواه البخاريُّ ومسلمٌ. قال سليمانُ التَّيْميُّ: "كنّا إذا طَلَبنا عِليةُ أصحابِنا وجدناهم عند الفقراءِ والمساكينِ". وقال يَحْيَى بْنَ الْحُسَيْنِ الْقَاهِرِيَّ: "قَدِمْتُ مِصْرَ، فَجِئْتُ إِلَى حَلْقَةِ ذِي النُّونِ فَرَآنِي وَفِيَّ اسْتِظْهَارٌ عَلَى الْحَاضِرِينَ، فَقَالَ لِي: لَا تَفْعَلْ؛ فَإِنَّ اللهَ -تَعَالَى- أَخْفَى ثَلَاثًا فِي ثَلَاثٍ: أَخْفَى غَضَبَهُ فِي مَعْصِيَتِهِ، وَأَخْفَى رِضَاءَهُ فِي طَاعَتِهِ، وَأَخْفَى وَلَايَتَهُ فِي عِبَادِهِ؛ فَلَا تَحْقِرَنَّ شَيْئًا مِنْ مَعَاصِيهِ؛ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ غَضَبُهُ، وَلَا تَحْقِرَنَّ شَيْئًا مِنْ طَاعَتِهِ؛ فَلَعَلَّهُ يَكُونُ فِيهِ رِضَاؤُهُ، وَلَا تَحْقِرَنَّ أَحَدًا مِنْ خَلْقِ اللهِ؛ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ وَلِيًّا مِنْ أَوْلِيَائِهِ". وفي يومِ القيامةِ تكونُ الأمورُ على حقائقِها، ويزولُ عنها الغرورُ؛ فتَبينُ أقدارُ أولئك المغمورين في الدنيا، وتظهرُ آثارُ شهرتِهمُ السماويةِ، كما وصفَ -تعالى- نبأَ الواقعةِ بقولِه: ﴿خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ﴾، قال محمدُ بنُ كعبٍ: "تَخْفِضُ رِجَالًا كَانُوا فِي الدُّنْيَا مُرْتَفِعِينَ، وَتُرْفَعُ فِيهَا رِجَالًا كَانُوا فِيهَا مَخْفُوضِينَ".

عبادَ اللهِ!

وشهرةُ الصادقين في السماءِ جزاءٌ ربانيٌّ من جنسِ عملِهم؛ إذ أصلحوا ما بينهم وبين اللهِ، وأخفوْا ما يستطيعون إخفاءَه عن أعينِ الخلْقِ من عملٍ وحالٍ؛ اكتفاءً باطلاعِ الخالقِ حين طلبوا رضاه، وصوناً للطاعةِ أنْ يَنُوشَها من مُنقِصاتِ الأجرِ ومُذْهِباتِه ما يُنُوشُها. قال أبو حازمٍ: "اكتمْ حسناتِك أشدَّ مما تكتمُ سيئاتِك". فقد كانوا يَجْهدون أنفسَهم في كتمانِ صالحِ عملِهم حتى من

أقربِ الناسِ إليهم، قال الحسنُ البصريُّ: "إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ الْقَوْمُ أَوْ يَجْتَمِعُونَ يَتَذَاكَرُونَ فَتَجِيءُ الرَّجُلَ عَبْرَتُهُ فَيَرُدُّهَا، ثُمَّ تَجِيءُ فَيَرُدُّهَا، ثُمَّ تَجِيءُ فَيَرُدُّهَا، فَإِذَا خَشِيَ أَنْ يَفْلِتَ قَامَ"، وقال: "إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَكُونُ عِنْدَهُ الزُّوَّارُ، فَيُصَلِّي الصَّلَاةَ الطَّوِيلَةَ أَوِ الْكَثِيرَةَ مِنَ اللَّيْلِ مَا يَعْلَمُ بِهَا زُوَّارُهُ"، وقال محمدُ بنُ واسع: "إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَبْكِي عِشْرِينَ سَنَةً وَمَعَهُ امْرَأَتُهُ مَا تَعْلَمُ بِهِ"، وقال: "لَقَدْ أَدْرَكْتُ رِجَالًا كَانَ الرَّجُلُ يَكُونُ رَأْسُهُ وَرَأْسُ امْرَأَتِهِ عَلَى وِسَادٍ وَاحِدٍ قَدْ بَلَّ مَا تَحْتَ خَدِّهِ مِنْ دُمُوعِهِ لَا تَشْعُرُ بِهِ امْرَأَتُهُ، وَاللهِ لَقَدْ أَدْرَكْتُ رِجَالًا كَانَ أَحَدُهُمْ يَقُومُ فِي الصَّفِّ فَتَسِيلُ دُمُوعُهُ عَلَى خَدِّهِ لَا يَشْعُرُ الَّذِي إِلَى جَنْبِهِ".

وكان من أعظمِ مُصابِهم أنْ يشتهرَ أمرُهم بين الناسِ، حتى لربّما تمنى بعضُهم الموتَ خوفَ الفتنةِ، قال الإمامُ أحمدُ: "أُرِيْدُ أَنْ أَكُوْنَ فِي شِعْبٍ بِمَكَّةَ حَتَّى لَا أُعرَفَ، قَدْ بُلِيتُ بِالشُّهرَةِ، إِنِّي أَتَمنَّى المَوْتَ صَبَاحًا وَمسَاءً".

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أما بعدُ، فاعلموا أنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ ...

أيها المؤمنون!

ولأنباءِ مشاهيرِ السماءِ عِظَةٌ في النفسِ وأثرٌ؛ لِمَا أُتْرِعَ فيها من مَعينِ الصدقِ الذي يَفتحُ مغاليقَ القلوبِ ويؤثِّرُ حُسْناً فيها. من أولئكَ صحابيٌّ مغمورٌ يقال له: جليبيبٌ -رضيَ اللهُ عنه-، حدّثَ أبو بَرْزَةَ -رضيَ اللهُ عنه- أَنّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ فِي مَغْزًى لَهُ، فَأَفَاءَ اللهُ عَلَيْهِ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: "هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ"؟ قَالُوا: نَعَمْ، فُلَانًا وَفُلَانًا وَفُلَانًا. ثُمَّ قَالَ: "هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ"؟ قَالُوا: نَعَمْ، فُلَانًا وَفُلَانًا وَفُلَانًا. ثُمَّ قَالَ: "هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ"؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: "لكنّي أفقدُ جليبيباً؛ فَاطْلُبُوهُ"، فَطُلِبَ فِي الْقَتْلَى، فَوَجَدُوهُ إِلَى جَنْبِ سَبْعَةٍ قَدْ قَتَلَهُمْ، ثُمَّ قَتَلُوهُ، فَأَتَى النَّبِيُّ ﷺ فَوَقَفَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: "قَتَلَ سَبْعَةً، ثُمَّ قَتَلُوهُ! هَذَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ! هَذَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ!". قَالَ: فَوَضَعَهُ عَلَى سَاعِدَيْهِ، لَيْسَ لَهُ إِلَّا سَاعِدَا النَّبِيِّ ﷺ. قَالَ: فَحُفِرَ لَهُ، ووضع في قبره، ولم يَذْكُرْ غسلاً (رواه مسلم). وكان عُلَيَّةُ بنُ زيدٍ رجلاً من أصحابِ النبيّ ﷺ، فلمّا حَضَّ على الصدقةِ جاء كلُّ رجلٍ منهم بطاقتِه وما عندَه، فقال عُلَيّةُ بنُ زيدٍ: اللّهمّ إنه ليس عندي ما أتصدّقُ به، اللّهمّ إني أتصدّقُ بعِرْضِي على مَن ناله من خَلْقِكَ، فأمرَ رسولُ اللهِ ﷺ منادياً، فنادى: أين المتصدقُ بعِرضِه البارحةَ؟ فقام عليةُ، فقال: قد قُبلتْ صدقتُك.

رواه ابنُ مردويه والبيهقيُّ في الشُّعبِ بنحوِه وله شاهدٌ صحيحٌ كما قال الحافظُ. وكتبَ حذيفةُ بنُ اليمانِ بفتْحِ المدائنِ إلى عمرَ -رضي اللهُ عنهم- مع رجلٍ من المسلمين، فلما قَدِمَ عليه قال: أبشرْ -يا أميرَ المؤمنين- بفتْحِ أعزَّ اللهُ فيه الإسلامَ وأهلَه، وأذلَّ فيه الشركَ وأهلَه، قال عمرُ: النعمانُ بَعَثَكَ؟ (يريدُ النعمانَ بنَ مُقَرِّنٍ المزنيَّ -رضي اللهُ عنه-قائدَ المعركةِ) قال: احتسبِ النعمانَ -يا أميرَ المؤمنين-، فبكى عمرُ واسترجعَ، وقال: ومَنْ -ويحك-؟، فقال: فلانٌ، وفلانٌ، وفلانٌ، حتى عدَّ ناساً، ثم قال: وآخرين -يا أميرَ المؤمنين- لا تعرفُهم، فقال عمرُ -رضوانُ اللهِ عليه- وهو يبكي: لا يضرُّهم ألا يعرفَهم عمرُ، لكنَّ اللهَ يعرفُهم. رواه الهيثمي وصححه الألباني. قال عَبْدُاللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ: " كُنْتُ بِمَكَّةَ فَأَصَابَهُمْ قَحْطٌ، فَخَرَجُوا إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ يَسْتَسْقُونَ فَلَمْ يُسْقَوْا وَإِلَى جَانِبِي أَسْوَدُ مَنْهُوكٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اللَّهُمَّ قَدْ دَعَوْكَ فَلَمْ تُجِبْهُمْ، إِنِّي أُقْسِمُ عَلَيْكَ أَنْ تَسْقِينَا، قَالَ: فَوَاللهِ مَا لَبِثْنَا أَنْ سُقِينَا، قَالَ: فَانْصَرَفَ الْأَسْوَدُ وَاتَّبَعْتُهُ حَتَّى دَخَلَ دَارًا فِي الْحَنَّاطِينَ فَعَلِمْتُهَا، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَخَذْتُ دَنَانِيرَ، وَأَتَيْتُ الدَّارَ فَإِذَا رَجُلٌ عَلَى بَابِ الدَّارِ فَقُلْتُ: أَرَدْتُ رَبَّ هَذِهِ الدَّارِ قَالَ: أَنَا ، قُلْتُ: مَمْلُوكٌ لَكَ أَرَدْتُ شِرَاءَهُ، فَقَالَ لِي أَرْبَعَةَ عَشَرَ مَمْلُوكًا أُخْرِجُهُمْ إِلَيْكَ، قَالَ: فَلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ، فَقُلْتُ لَهُ: بَقِيَ شَيْءٌ؟ فَقَالَ لِي: غُلَامٌ مَرِيضٌ، فَأَخْرَجَهُ فَإِذَا هُوَ الْأَسْوَدُ، فَقُلْتُ: بِعْنِيهِ، فَقَالَ: هُوَ لَكَ -يَا أَبَا عَبْدِالرَّحْمَنِ- فَأَعْطَيْتُهُ الْأَرْبَعَةَ عَشَرَ دِينَارًا وَأَخَذْتُ الْمَمْلُوكَ، فَلَمَّا صِرْنَا إِلَى بَعْضِ الطَّرِيقِ قَالَ: يَا مَوْلَايَ، أَيُّ شَيْءٍ تَصْنَعُ بِي وَأَنَا مَرِيضٌ؟ فَقُلْتُ لَهُ: مَا رَأَيْتُهُ عَشِيَّةَ أَمْسِ، قَالَ: فَاتَّكَأَ عَلَى الْحَائِطِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَا تُشَهِّرْ بِي؛ فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ، قَالَ: فَخَرَّ مَيِّتًا، فَانْحَشَرَ عَلَيْهِ أَهْلُ مَكَّةَ ".

عبادَ اللهِ!

ألا ما أحرانا بتوجيهِ اهتمامِنا وتربيةِ نَشْئِنا على التعلقِ بالذِّكْرِ السماويِّ العليِّ الذي يَرقى ويَبقى، سيما ونحن نعيشُ فتنةَ المشاهيرِ وتصديرِ التافهين وصراعاتِ البروزِ حتى أخلَّتْ بعقيدةِ الحبِّ في اللهِ والبغضِ فيه لدى البعضِ، وأَوْدَتْ ببعضِهم إلى مستنقعٍ آسنٍ من وَحَلِ التنازلاتِ عن الثوابتِ والمبادئِ، وإلقاءِ كِساءِ الحياءِ والحشمةِ والوقارِ.

طوبى لعبدٍ بحبْلِ اللهِ مُعْتَصَمُه ... على صراطٍ سويٍّ ثابتٍ قَدَمُه
رثِّ اللباسِ جديدِ القلبِ مُسْتَتَرٍ ... في الأرضِ مُشْتَهِرٍ فوقَ السماءِ سِمُه
مازالَ يَستحقِرُ الدنيا بهمَّتِه ... حتى ترقَّتْ إلى الأخرى به هِمَمُه
فذاك أعظمُ مِن ذي التاجِ مُتَّكِئًا ... على النمارقِ مُحْتَفًّا به حَشَمُه

الشهرة

إنَّ الحمدَ لله؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَنْ يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومَن يضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ...﴾.

أيُّها المؤمنون!

إنّ مما غلَبَ في طباعِ النفسِ، وغدا خُلُقًا بارزاً فيها حبَّ العلوِّ وذيوعَ الصِّيتِ، وسعيَها في إبرازِ ذاتِها ونشْرِ ذِكْرِها، سيّما في هذا العصرِ الذي سَهُلَ فيه تناقلُ الخبرِ، وباتتْ فيه الشهرةُ من وسائلِ تحصيلِ الحَظوةِ وبناءِ العلاقةِ وكسبِ المالِ. فما ميزانُ الشريعةِ في التعاملِ مع هذه القضيةِ الخطِرةِ؟ وما مدى آثارِ الالتزامِ بهذا الميزانِ وإهمالِه؟ إنَّ من خصائصِ الميزانِ الشرعيِّ في النظرِ للأمورِ والتعاملِ معها رعيَ القِيمِ، وإيثارَ الباقي على الفاني، وتغليبَ رعايةِ أعلى المفاسدِ درءاً، وأعلى المصالحِ جَلْبًا، والشُّهرةُ من القضايا التي عالجتْها الشريعةُ الغرّاءُ بميزانٍ ضابطٍ للقِيمِ وكابحٍ لجِمَاحِ الشرِّ في النفوسِ.

عبادَ اللهِ!

إنّ رأسَ مالِ المؤمنِ دينُه الذي أُمِرَ بحفظِه؛ وذلك بألا يتعرّضَ لما قد يفتنُه عنه، ومن أعظمِ الفتنِ التي تَعصفُ بالدينِ حبُّ الجاهِ وطلبُ الشهرةِ؛

فقد شبّه النبيُّ ﷺ أثرَها على إفسادِ دينِ ذي الدينِ — فضلاً عن قليلِه -بأعظمَ من فتْكِ ذئبينِ جائعَينِ أُرسلا في زَريبةِ غنمٍ خاليةٍ من الحامي، قال ﷺ: «مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ» رواه أحمدُ والترمذيُّ وقال: حسنٌ صحيحٌ؛ ولذا كان الأصلُ المقرَّرُ شرعًا عند أهلِ العلمِ ذمَّ طلبِ الشهرةِ إن خلَتْ من المقصدِ المشروعِ وإنْ كانت في لباسٍ؛ فكيف بما زاد عنه؟! يقولُ النبيُّ ﷺ: "مَنْ لَبِسَ ثَوْبَ شُهْرَةٍ أَلْبَسَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَوْبَ مذلةٍ، ثُمَّ تُلَهَّبُ فِيهِ النَّار" رواه أبو داودَ وحسَّنه الألبانيُّ، وتزدادُ الشهرةُ قبحًا وإثمًا إن سُعيَ إليها؛ طلبًا للدنيا بالدينِ. قال ابنُ رجبٍ: "ما زال الصادقون من العُلَمَاء والصالحين يكرهون الشهرةَ، ويتباعدون عن أسبابِها، ويحبون الخمولَ (أي: خمولَ الذِّكْرِ)، ويجتهدون عَلَى حصولِه"، وقال ابنُ بطّالٍ: "ولا ينبغي للرجلِ المسلمِ أنْ يُشْهِرَ نفسَه في خيرٍ، ولا شرٍ"، وقال ابنُ تيميةَ: "السلفُ كانوا يكرهون الشهرتَيْن؛ المترفِّعَ، والمتخفِّضَ"، وقال بعضُ السلفِ: "ما اتقى اللهَ مَن أحبَّ الشهرةَ". وكان أيوبُ السِّخْتِياني يقولُ: "ما صَدَقَ عبدٌ إلا أحبَّ أن لا يُشعرَ بمكانِه"، وكان -لما اشتُهر بالبصرةِ- إذا خرجَ إلى موضعٍ يتحرى المشيَ في الطرقاتِ الخاليةِ، ويجتنبُ سلوكَ الأسواقِ والمواضعِ التي يُعرَفُ فيها. وكان بعضُ التابعين إذا جلس إليه أكثرُ من ثلاثةِ أنفسٍ قامَ خوفَ الشهرةِ. وما ذاك التخوُّفُ والتحوُّطُ والاحترازُ إلا لما تَلُفُّه الشهرةُ من آفاتٍ قد تُودي بصاحبِها إلى مهالكَ تَعِزُّ معها السلامةُ؛ فلربما حملتِ الشهرةُ صاحبَها على الرياءِ وحبِّ التزيُّنِ للخلْقِ والتقربِ بأمورِ الدِّين لأجلِ حظوةِ الجاهِ والمحافظةِ على بريقِ الشهرةِ الزائفِ،

ولربما كانت دافعـًا للإعجابِ بالنفسِ والتِّيه والكِبْرِ واحتقارِ الغيرِ وعدم قَبولِ الحقِّ، ولربما قادتْ إلى الحسدِ والبغيِ والعدوانِ على العبادِ، قَالَ الفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ: «مَا مِنْ أَحَدٍ أَحَبَّ الرِّئَاسَةَ إِلَّا حَسَدَ، وَبَغَى، وَتَتَبَّعَ عُيُوبَ النَّاسِ، وَكَرِهَ أَنْ يُذْكَرَ أَحَدٌ بِخَيْرٍ"، ولربما سهّلتِ الشهرةُ تقحُّمَ دركاتِ الكذبِ والقولِ على اللهِ بلا علمٍ، وطالما رخَّصتْ لصاحبِها قبولَ المدحِ الباطلِ، بل بَذْلَ الثمنِ البائرِ في طلبِه، كما رخَّصتْ له أَخْذَه إنْ طُلِبَ منه ذلك بالدعايةِ له، والشهرةُ مجْلَبَةٌ لعلاقاتِ سوءٍ قد يعظمُ ضَرُّها ويعسرُ علاجُها، كلُّ ذلك مع ما قد تسبِّبُه الشهرةُ من اعتلالٍ نفسيٍّ؛ بُغيةَ الحفاظِ على أَلَقِها؛ مما قد يَجْنَحُ بصاحبِها إلى ارتكابِ فجورٍ وحماقاتٍ وتفاهاتٍ يترفَّعُ عنها أهلُ الشرفِ. كَانَ مُحَمَّدُ بنُ إبراهيم الكَرْجيّ يَقولُ لابنِ أخيهِ - والنّاس ينتابون بابَه على طبقاتِهم لسُؤْدَدِه -: يا أسفي على ابنِ أبي القاسمِ! سَالَ بهِ السيلُ؛ أينَ هُوَ - والحالةُ هذه - مِنْ دِينهِ؟ وكان يقولُ إذا خلا بهِ: يا بُنيَّ! عليك بدينِك؛ فإنَّ خَفْقَ النّعالِ خَلْفَ الإنسانِ وعلى بَابِ دَارِه مَعَاولُ تهدمُ دينَه وعقلَه. وتعظمُ الجنايةُ في حقِّ الجاهلِ الصغيرِ المسكينِ إنْ سعى وليُّه في إشهارِه والزَّجِّ به سلعةً تتناقلُها مواقعُ التواصلِ، وتَسْلى بها عيونُ المشاهدين، وتُحكى يومياتُه في المنتدياتِ دون اكتراثٍ بمآلاتِ ذلك؛ مِن أثرٍ نفسيٍّ على الطفلِ، وتأثيرِه على سَوِيّةِ فطرةِ الطفولةِ، وتنشئتِه منذُ نعومةِ أظفارِه على ملاحظةِ الناسِ، مع ما قد يلحقُه من ضررِ إصابةِ العينِ؛ إعجابـًا، وحسداً.

عبادَ الله!

قد يُبتلى المرءُ باشتهارٍ دون قصدٍ منه ولا طلبٍ، وتلك من مواطنِ الابتلاءِ الشديدةِ التي كان الصادقون من أهلِ العلمِ يَحْذرون فيها غايةَ الحذرِ؛ لعظيمِ بلائِها، وكانوا لا يسْتَرْوحون لذلكَ إنْ وَقَعَ، بل يظلُّون حذرين من مَغبَّةِ الافتتانِ به، مستشعرين ضعفَهم وفقرَهم إلى اللهِ وعظيمَ حاجتِهم إليه وأنه لا غنى لهم عنه طرفةَ عينٍ. ومع ذلكَ، ما كان خوفُهم من الشهرةِ وتحوُّطُهم فيها يحملُهم على الانكفاءِ على النفسِ وتركِ المشاركةِ في أعمالِ البرِّ ونشرِه، بل كانوا يسخِّرونَها في الدعوةِ إلى الخيرِ وتحبيبِ الناسِ فيه والدفاعِ عنه ومقارعةِ الباطلِ؛ وبذلك غنموا خيرَها، وَوُقُوا شرَّها. ذُكِرَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - كَانَ إِذَا مُدِحَ قَالَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ أَعْلَمُ بِي مِنْ نَفْسِي، وَأَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْهُمْ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي خَيْرًا مِمَّا يَحْسَبُونَ وَاغْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ، وَلَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ، وكان سفيانُ الثوريُّ لما اشتُهِرَ يقول: وَدِدتُ أنّ يديَ قُطعت من إبطي، وأني لم أشتهرْ ولم أُعرفْ، ولما اشتُهِر ذِكرُ الإمامِ أحمدَ اشتدَّ غمُّه وحزنُه، وكَثُرَ لزومُه لمنزلِه، وقلَّ خروجُه في الجنائزِ وغيرِها؛ خشيةَ اجتماعِ الناسِ عليه.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أما بعدُ، فاعلموا أن أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيها المؤمنون!

وثمَّةَ شهرةٌ مطلوبةٌ محمودةٌ؛ قد سلِمتْ من كلِّ آفةٍ، ونَعِمتْ بكلِّ فضيلةٍ؛ حين دوّى ذِكْرُها بين أهلِ السماءِ بثناءِ اللهِ على صاحبِها التقيِّ الخفيِّ الذي لا يريدُ علواً في الأرضِ ولا فساداً، وغدا اسمُه ذائعاً بين الملائكةِ وإنْ كان مغموراً، بل ربما كان من أهلِ المسكنةِ الذين لا يُحْفلُ لهم بمحْضرٍ، ولا يُفْقدون بغياب. أوصى ابنُ مسعودٍ -رضي اللهُ عنه- أصحابَه يوماً قائلاً: «كُونُوا يَنَابِيعَ الْعِلْمِ، مَصَابِيحَ الْهُدَى، أَحْلَاسَ[1] الْبُيُوتِ، سُرُجَ اللَّيْلِ، جُدُدَ[2] الْقُلُوبِ، تُعْرَفُونَ فِي السَّمَاءِ، وَتَخْفَوْنَ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ»، وقال: "أَيُّكُمُ اسْتَطَاعَ أَنْ يَجْعَلَ فِي السَّمَاءِ كَنْزَهُ فَلْيَفْعَلْ، حَيْثُ لَا تَأْكُلُهُ السُّوسُ، وَلَا تَنَالُهُ السَّرِقَةُ؛ فَإِنَّ قَلْبَ كُلِّ امْرِئٍ عِنْدَ كَنْزِه". كان سعدُ بنُ أبي وقّاصٍ -رضي اللهُ عنه- في إبلِه، فجاءه ابنُه عمرُ، فلما رآه سعدٌ قال: أعوذُ باللهِ من شرِّ هذا الراكبِ، فنزلَ فقالَ له: أنزلتَ في إبلِك وغنمِك، وتركتَ الناسَ يتنازعون الملكَ بينهم؟! فضرب سعدٌ في صدرِه، فقال: اسكتْ، سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ

(١) جمع حِلْس، وهو نوع من البُسط التي يجلس عليها.
(٢) يريد بذلك تجديدها بالتوبة.

يقـولُ: «إنَّ اللهَ يحـبُّ العبـدَ التقـيَّ، الغنـيَّ، الخفـيَّ» رواه مسـلمٌ. قـال مُطـرِّفُ بـنُ عبدِاللهِ: "انظروا قومـًا إذا ذُكِرُوا ذُكِرُوا بالقـراءةِ؛ فلا تكونـوا منهم، وانظروا قومـًا إذا ذُكِرُوا ذُكِرُوا بالفجورِ؛ فلا تكونـوا منهـم؛ وكونـوا بيـن ذلـك". قـال ابـنُ رجـبٍ معلِّقـًا على ذلـك: "وهـذا هـو الذِّكْـرُ الخفـيُّ المشـارُ إليـه في حديـثِ سـعدٍ، وهـو مـن أعظـمِ نعـمِ اللهِ على عبدِه المؤمـنِ، الـذي رزقَـه نصيبـًا مِـن ذوقِ الإيمـانِ، فهـو يعيشُ بـه مع ربِّه عيشـًا طيبـًا، ويَحجبُه عـن خلقِه حتى لا يفسـدوا عليه حالَـه مع ربِّه؛ فهـذه هي الغنيمـةُ البـاردةُ، فمن عـرفَ قدْرَها، وشَـكرَ عليهـا؛ فقـد تمَّـتْ عليه النعمـةُ". كتـبَ حذيفـةُ بـنُ اليمـانِ بفتْـحِ المدائـنِ إلـى عمـرَ –رضـي اللهُ عنهـم– مـع رجـلٍ مـن المسـلمين، فلمـا قَـدِمَ عليه قـال: أبشـرْ –يـا أميـرَ المؤمنيـن– بفتْـحٍ أعـزَّ اللهُ فيـه الإسـلامَ وأهلَـه، وأذلَّ فيـه الشـركَ وأهلَـه، قـال عمـرُ: النعمـانُ بَعَثَـكَ؟ (يريـدُ النعمـانَ بـنَ مُقَـرِّنٍ المزنـيَّ –رضـي اللهُ عنه– قائـدَ المعركـةِ) قـال: احتسـبِ النعمـانَ –يـا أميـرَ المؤمنيـن–، فبكـى عمـرُ واسـترجعَ وقـال: ومَـنْ –ويحـك–؟، فقـال: فـلانٌ، وفـلانٌ، وفـلانٌ، حتـى عـدَّ ناسـًا، ثـم قـال: وآخريـن –يـا أميـرَ المؤمنيـن– لا تعرفُهـم، فقـال عمـرُ –رضـوانُ اللهِ عليـه– وهـو يبكـي: لا يضرُّهـم أن لا يعرفَهـم عمـرُ، لكـنَّ اللهَ يعرفُهـم.

برحمتِك أستغيثُ

الحمدُ للهِ ذي الفضلِ والكرمِ، والطَّوْلِ والنِّعمِ، عمَّ خيرُه الوجودَ، ووسعتْ رحمتُه الذنوبَ، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وصحبِه، وسلَّمَ تسليماً كثيراً إلى يومِ الدينِ.

أما بعدُ، فاتقوا اللهَ، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ... ﴾.

أيّها المؤمنونَ!

إنَّ من جوامعِ الأدعيةِ التي أحاطتْ -على وَجازةِ لفظِها- بحذافيرِ الخيرِ طَلَباً، والشرِّ استكفاءً ما كان النبيُّ ﷺ يواظِبُ على اللَّهَجِ به في ضراعةِ أَوْرَادِه إقبالَ ليلِه ونهارِه، وما كان يخصُّه في لحظاتِ الكرْبِ العصيبةِ، وهو ما أوصى به ضَنَاه ابنتَه فاطمةَ -رضي اللهُ عنها- إذِ استرعى سمْعَها واستَنْبَه حضورَ قلبِها بتشويقةِ التساؤلِ المتقرّرِ جوابُه؛ كيما تعيَ وصيتَه، وتظفرَ بعظيمِ الكنزِ الكامنِ فيها حين قالَ لها: " ما يمنعُكِ أنْ تسمعي ما أوصيكِ به؟ أنْ تقولي إذا أصبحتِ وإذا أمسيتِ: يا حيُّ يا قيومُ، برحمتِك أستغيثُ، أصلحْ لي شأني كلَّه، ولا تَكِلْني إلى نفسي طرفةَ عينٍ أبداً "رواه ابنُ السنيِّ وصحَّحه المنذريُّ، وكان إذا كَرَبَهُ أمرٌ قال: "يا حيُّ يا قيومُ! برحمتِك أستغيثُ" رواه الترمذيُّ وحسَّنَه الألبانيُّ. فما سِرُّ حَفَاوةِ النبيِّ ﷺ بهذه الدعوةِ، وملازمتِه لها، وجعْلِها عُدةً في استجلاءِ الكروبِ؟

عبادَ اللهِ!

إنَّ هـذه الدعـوةَ قـد ضمَّـتْ بيـن عَطِفَيْهـا إقـرارَ الداعـي بتوحيـدِ اللهِ، وتفـرُّدَه باستحقاقِ العبوديـةِ، وإظهـارَه الافتقـارَ إليـه والانكسـارَ بيـن يديـه؛ فـكان ذلـك شِعارَها ودِثارها، وتحقيقَ الرجاءِ لِمَنِ الخيرُ كلُّه بيديه، والاعتمادُ عليه وحدَه، وتفويضُ الأمرِ إليه، والتضرعُ إليه؛ مما صارَ به سبباً يُسْتَنْجَحُ به جماعُ الخيرِ والسلامةِ من الشرِّ، مع اشتمالِها على توسُّلٍ يحبُّه اللهُ ويرضاه؛ بذِكْرِ اسميْه الحيِّ القيومِ، واستغاثةٍ برحمتِه التي سبقتْ غضبَه ووسعتْ كلَّ شيءٍ، قال ابنُ القيمِ: " ولهذا كان هذا الدعاءُ من أدعيةِ الكرْبِ؛ لما تضمَّنَه من التوحيدِ، والاستغاثةِ برحمةِ أرحمِ الراحمين، متوسلاً إليه باسمين عليهما مدارُ الأسماءِ الحسنى كلِّها، وإليهما مرجعُ معانيها جميعِها؛ وهو اسمُ الحيِّ القيومِ". فمُفْتَتَحُ الدعاءِ نداءٌ للهِ وسؤالُه بذلك الاسمين؛ فإن " لاسمِ الحيِّ القيومِ تأثيراً خاصاً في إجابةِ الدعواتِ، وكَشْفِ الكُرباتِ "؛ إذ هو اسمُ اللهِ الأعظمُ الذي إذا سُئلَ به أعطى، وإذا دُعي به أجاب، قال النبيُّ ﷺ: "اسمُ اللهِ الأعظمُ في هاتين الآيتين: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾، وفاتحةِ آلِ عمرانَ: ﴿الم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾" رواه الترمذيُّ وصحَّحَه، وسَمِعَ رجلاً دعا، فقال: اللهمَّ إني أسألُك بأن لك الحمدَ، لا إلهَ إلا أنت المنانُ، بديعُ السماواتِ والأرضِ، يا ذا الجلالِ والإكرامِ، يا حيُّ يا قيومُ، فقال النبيُّ ﷺ: "لقد دعا اللهَ باسمِه الأعظمِ الذي إذا دُعي به أجابَ، وإذا سُئلَ به أَعطى" رواه أحمدُ وصحَّحَه ابنُ حبانَ والحاكمُ. وروى الترمذيُّ أنَّ النبيَّ ﷺ إذا اجتهدَ في الدعاءِ قال: "يا حيُّ يا قيومُ". "فانتظمَ هذان الاسمان صفاتِ

الكمالِ، والغنى التامِّ، والقدرةِ التامةِ؛ فكأنَّ المستغيثَ بهما مستغيثٌ بكل اسمٍ من أسماءِ الربِّ -تعالى-، وبكلِّ صفةٍ من صفاتِه؛ فما أولى الاستغاثةَ بهذين الاسمين أن يكونا في مَظِنَّةِ تفريجِ الكرباتِ، وإغاثةِ اللهفاتِ، وإنالةِ الطلباتِ!"، مع ما يَحْصُلُ للقلبِ مع إدمانِ الدعاءِ بها من حياةٍ واستنارةٍ، قال ابنُ القيم: "ومن تجريباتِ السالكين التي جرّبوها؛ فأَلِفُوها صحيحةً: أنَّ مَن أدمنَ " يا حيُّ يا قيومُ! لا إلهَ إلا أنت " أوْرثَه ذلك حياةَ القلبِ والعقلِ. وكان شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ -قدَّسَ اللهُ روحَه- شديدَ اللَّهجِ بها جِدًّا، وقال لي يومًا: "لهذين الاسمين -وهما الحيُّ القيومُ- تأثيرٌ عظيمٌ في حياةِ القلبِ"، وكان يشيرُ إلى أنهما الاسمُ الأعظمُ، وسمعتُه يقولُ: "مَن واظبَ على أربعينَ مرةً كلَّ يومٍ بين سنةِ الفجرِ وصلاةِ الفجرِ: يا حيُّ يا قيومُ، لا إلهَ إلا أنت، برحمتك أستغيثُ؛ حَصَلَتْ له حياةُ القلبِ، ولم يمتْ قلبُه" ". وكَتَبَ ناصِحًا إمامَ المسلمين بأنه " مضطرٌ إلى اللهِ -تعالى-، فإذا ناجى ربَّه في السَّحَرِ، واستغاثَ به، وقال: يا حيُّ يا قيومُ، لا إلهَ إلا أنت، برحمتِك أستغيثُ! أعطاه اللهُ من التمكينِ ما لا يَعْلَمُه إلا اللهُ".

أيها المسلمون!

والتوسُّلُ برحمةِ اللهِ التي عمَّ جزءٌ واحدٌ من مائتِها أهلَ الدنيا وفاضَ عليهم، والاستغاثةُ بها دعاءُ مكروبٍ بعظيمِ حالِ الافتقارِ إلى المولى القديرِ؛ وذلك أقربُ طريقٍ يُوصِلُ العبدَ إلى رضا ربِّه؛ فيَظْفَرُ بتعجيلِ إجابةِ دعائِه، وقضاءِ حاجتِه؛ فالاستغاثةُ باللهِ دعاءُ كَرْبٍ تُعَجَّلُ به الإجابةُ؛ فكيف إنْ قُرِنَتْ

بالتوسل برحمتِه؟! قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾، قال سهلُ بنُ عبدِاللهِ التَّسْتَريُّ: "ليس بين العبدِ وبين ربِّه طريقٌ أقربَ إليه من الافتقارِ". وبعدَ تقديمِ الداعي بين يديْ مسألتِه بليغَ التوسلِ طَلَبُهُ ربَّه إصلاحَ جميعِ شأنِه: "أصلحْ لي شأني كلَّه"؛ دينيَّه، ودنيويَّه، وأخرويَّه؛ فلا يبقى منه شيءٌ؛ كَبُرَ أو صَغُرَ، عَمَّ أو خَصَّ، مَضى أو بَقى أو يُنتظَرُ إلا وشمِلَه إصلاحُ اللهِ له؛ فلا فسادَ يَلْحقُه، وإنْ وقعَ فيه فسادٌ فسريعًا ما يكونُ استصلاحُه؛ وإذا صَلُحَ الشأنُ كلُّه لم يبقَ للهمِّ طريقٌ، ولم يَعُدْ للكَرْبِ سَطْوةٌ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أما بعدُ، فاعلموا أن أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيها المؤمنون!

واستشعارُ الداعي عظيمَ افتقارِه إلى اللهِ —سبحانه-، وعَيْشُه تفاصيلَ هذا الضَّعْفِ الذي أبداه أمامَ خالقِه أثناءَ مناجاتِه بهذا الدعاءِ العظيمِ من أعظمِ ما يَرْفَعُ درجتَه عند مولاه، ويكونُ به دعاؤه مسموعاً مُجاباً. وأجلى صورِ إظهارِ العبدِ ضَعْفَه وافتقارَه إلى الله شدةُ تعلُّقِه بربِّه، وأنه لا غنى له عنه، وتبرُّؤُه من كلِّ شيءٍ سوى اللهِ —عزَّ وجلَّ-بادِئاً بأقربِها وأرجاها وأقْدَرِه عليها؛ حَوْلِه وقُوَّتِه، فضلاً عن غيرِه؛ إذ لا أحدَ يَبْلُغُ في المحبةِ والنفعِ محبةَ المرءِ نفسَه ونفعَه إياها، وإنْ كان زمنُ الوكالةِ مقدارَ جزءٍ من الثانيةِ؛ قَدْرَ طَرْفةٍ واحدةٍ بالعينِ الباصرةِ؛ وذلك الدَّهْرَ كلَّه ما دامَ في الرُّوحِ رَمَقٌ: "ولا تَكِلْنِي إلى نفسي طَرْفَةَ عينٍ أبداً"؛ إذ ذاك هو الخذلانُ الذي ينعكِسُ به المقصدُ والحالُ؛ فلا يَصْلُحُ معه شيءٌ. قال ابنُ القيمِ: "وقد أجمعَ العارفون باللهِ أنَّ التوفيقَ هو أنْ لا يَكِلُكَ اللهُ إلى نفسِك، وأنَّ الخذلانَ هو أنْ يُخْلِيَ بينَك وبين نفسِك، فالعبيدُ متقلِّبونَ بين توفيقِه وخذلانِه، بل العبدُ في الساعةِ الواحدةِ يَنالُ نصيبَه من هذا وهذا، فيطيعُه ويرضيه ويذكرُه ويشكرُه بتوفيقِه له، ثمَّ يعصيه ويخالفُه ويُسْخِطُه ويغفلُ عنه بخذلانِه له؛ فهو دائرٌ بين توفيقِه وخذلانِه، فإنْ وفَّقَه

فبفضلِه ورحمتِه، وإنْ خذلَه فبعدلِه وحكمتِه، وهو المحمودُ على هذا وهذا، له أتمُّ حَمْدٍ وأكملُه، ولم يَمنع العبدَ شيئًا هو له، وإنما مَنَعَهُ ما هو مجردُ فضلِه وعطائِه، وهو أعلمُ حيثُ يضعُه وأين يجعلُه؟ فمتى شَهِدَ العبدُ هذا المشهدَ وأعطاه حقَّه؛ عَلِمَ شدةَ ضرورتِه وحاجتِه إلى التوفيقِ في كل نَفَسٍ، وكلِّ لحظةٍ وطرفةِ عينٍ، وأنَّ إيمانَه وتوحيدَه بيدِه تعالى، لو تخلّى عنه طرفةَ عينٍ لَثُلَّ عرْشُ توحيدِه، ولخرَّتْ سماءُ إيمانِه على الأرضِ، وأنَّ المُمْسِكَ له هو مَن يُمْسِكُ السماءَ أنْ تقعَ على الأرضِ إلا بإذنِه، فهَجِّيرَى قلبِه ودَأْبُ لسانِه: يا مُقَلِّبَ القلوبِ ثبِّتْ قلبي على دينِك، يا مُصَرِّفَ القلوبِ صَرِّفْ قلبي إلى طاعتِك، ودعواه: يا حيُّ يا قيومُ، يا بديعَ السماواتِ والأرضِ، يا ذا الجلالِ والإكرامِ، لا إلهَ إلا أنت، برحمتِك أستغيثُ، أصْلِحْ لي شأني كلَّه، ولا تَكِلْني إلى نفسي طرفةَ عينٍ، ولا إلى أحدٍ مِن خَلْقِك".

وبعدُ، فهذا وَمْضٌ مِن سِرِّ حفاوةِ النبيِّ ﷺ بهذا الدعاءِ العظيمِ؛ ولنا فيه أُسْوةٌ.

واقيةُ الوليدِ

إنَّ الحمدَ لله؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، منْ يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومنْ يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه.

أما بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ...﴾.

أيّها المؤمنونَ!

خَلْقُ الإنسانِ من عجيبِ صنْعِ اللهِ الدالِّ على وحدانيتِه وألوهيتِه، وهو مَحَطُّ اهتمامِ القرآنِ بلفْتِ النظرِ إليه والادِّكارِ بعِبرِه، كما قال -تعالى-: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؛ وذلك لما يُفضي إليه من تجليةِ حقيقةِ التوحيدِ وترسيخِها في النفوسِ، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾. ومن مواطنِ الادِّكارِ في خلْقِ الإنسانِ تنقّلُه في مراحلِ العمرِ حين يَبتدئُ مولوداً ضعيفاً، ويظلُّ مُصْعِداً في مرحلةِ القوةِ وبلوغِ الأَشُدِّ، حتى إذا استتمَّها وبلغَ ذُراها بدأ مُنْحَدِراً إلى مرحلةِ الضَّعْفِ تارةً أخرى حين يكونُ شيخاً كبيراً؛ فتكونُ قوتُه على ضَعفِها العامِّ محصورةً بين ضَعفيْنِ اثنيْنِ، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةًۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾. قالَ ابنُ الجوزيِّ:

"إنَّ اللهَ -عزَّ وجلَّ- جعلَ لأحوالِ الآدميِّ أمثلةً؛ ليَعتبِرَ بها. فمِن أمثلةِ أحوالِه القمرُ، الذي يَبتدئُ صغيرًا، ثم يتكاملُ بدْرًا، ثمَّ يتناقصُ بانْمحاقٍ، وقد يَطرأُ عليه ما يُفسدُه كالكسوفِ؛ فكذلك الآدميُّ أولُه نطفةٌ، ثم يترقَّى من الفسادِ إلى الصلاحِ؛ فإذا تمَّ، كان بمنزلةِ البدْرِ الكُمَّلِ، ثم تتناقصُ أحوالُه بالضَّعفِ، فربّما هجمَ الموتُ قبلَ ذلك هجومَ الكسوفِ على القمرِ، قال الشاعرُ:

والمرءُ مِثلُ هلالٍ عند طلعتِهِ ... يبدو ضئيلًا لطيفًا ثم يتسقُ
يزدادُ حتى إذا ما تمَّ أَعقبَهُ ... كرُّ الجديديْنِ نقْصًا ثم ينمحقُ

عبادَ اللهِ!

ومن أجلِّ عِبَرِ التأملِ في مرحلةِ الضَّعفِ البشريِّ النظرُ في ضَعْفِ الوليدِ، الذي غدا شعاراً يُعَبَّرُ به عن غايةِ الوَهَنِ، وانعدامِ الحيلةِ وخلوِّ الرَّشَدِ، وصارَ مَضْربَ المَثلِ في ذلك، والصورةَ البلاغيّةَ التي يَتخذُها الأدباءُ في مستحسنِ التشبيهِ. ومن عجيبِ لُطْفِ اللطيفِ بالوليدِ الضعيفِ أنْ خصَّه عن غيرِه بمزيدِ حفظٍ يصونُه به عن المخاطرِ التي تُطيفُ به، دون أنْ يَشعرَ بها ذلك الضعيفُ، فضلاً عن أنْ يُطيقَ دفعَ شيءٍ منها؛ فكانت شدةُ ضَعفِه وتمامُ عجزِه سرَّ قوةِ حفظِ اللهِ له ورحمتِه به، وللهِ في خلْقِه شؤونٌ! ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾. وذلك الحفظُ الربانيُّ للوليدِ ظاهرةٌ قد أدركتْها العربُ في جاهليَّتِها ووثنيَّتِها؛ فكانوا يطلبونَ من اللهِ -سبحانَه- إنْ أَحدقتْ به ضرورةٌ من خطرٍ حفظاً كحفظِ الوليدِ، فكانوا يقولون في دعاءِ ضرورتِهم: "اللهمَّ

واقيةً كواقيةِ الوليدِ"، قال الخطابيُّ: "إنما تُمثِّلُ (أي: العربُ) بالصبيِّ؛ لأنه قد يتعرضُ للمعاطبِ، ولا يبصرُ المحاذرَ، ثم يحفظُه اللهُ ويقيه". وقد سطّرَ القرآنُ في واقيةِ الوليدِ مَثَلاً بليغاً قد بلغَ في الحفظِ عَجَباً؛ وذلك بإنجاءِ اللهِ رضيعاً لتوِّهِ قد وُلِدَ، مِن سُنَّةِ ذَبْحِ الطغاةِ القساةِ للمواليدِ من حين تضعُهم أمهاتُهم، وكان السببُ الذي جعلَ اللهُ به نجاتَه ضَرْباً من الخطرِ العظيم الذي جرتِ العادةُ بكونِه سببَ هلاكٍ لا نجاةٍ! ولكنَّ قدَرَ اللهِ في كونِه نافذٌ، وكلُّ شيءٍ عليه هيِّنٌ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ. ذلكمْ حين وَضعتْ أمُّ موسى -عليهما السلامُ- مولودَها، وكانت سكينُ الطاغي مشحوذةً في حَزِّ رقابِ مواليدِ بني إسرائيلَ الذكورِ من حين خروجِهم من بطونِ أمهاتِهم، فأَلْهَمَها اللهُ أنْ ترضعَه باطمئنانٍ، فإذا خافتْ عليه أنْ تَصِلَه يدُ الطغاةِ الآثمةُ فلْتُيَمِّمْ وجهَها شطْرَ اليمِّ لتلقيَ رضيعَها وفَلْذَةَ كبدِها فيه، ولْتثقْ بأنَّ حفظَ اللهِ سيُطيفُ به، وأنَّ وراءَ البلاءِ من الفرجِ ما تقرُّ به عينُها، بل وعينُ كلِّ بني إسرائيلَ، وسينعمونَ بالتمكينِ ورؤيةِ سوءِ عاقبةِ مَن سامَهمْ سُوءَ العذابِ حين ذبّحَ أبناءَهم وأبقى نساءَهم في أعمالِ السُّخْرَةْ والذِّلةِ. فلمّا بدتْ مَخايلُ وصولِ الآثمين إلى الرضيعِ ماثلةً أمامَ مَرْأى الأمِ الرَّؤومِ، وبلغَ منها الخوفُ مبْلغَه؛ امتثلتْ أمرَ ربِّها الحفيظِ، فوضعتْ رضيعَها في وعاءٍ ليَمنعَ وصولَ الماءِ إليه أو غرقَه فيه، وما يغني ذلك الوعاءُ عن رضيع عاجزٍ في يمٍّ كَفَأَتْ أمواجُه المتلاطمةُ سُفُناً ماخرةً، لكنّ الآمِرَ هو اللهُ؛ ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾! استودعتْ تلك الأمُّ المكلومةُ رضيعَها وقلبُها يَكادُ يذوبُ حُزْناً وخوفاً لولا أنْ ربطَ اللهُ عليه! وكلما بدتْ خواطرُ الحزنِ والخوفِ تَدُبُّ في قلبِها طردَتها جنودُ تيقُّنِ حفْظِ

مَن أوحى إليها: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ فصَدَقَها اللهُ وعْدَه، واللهُ لا يُخلِفُ الميعادَ؛ فردَّ ابنَها لها بطلبِ مَنْ كانت تخافُ سَطْوتَه عليه ورعايتِه له حين دعاها إلى بيتِه الذي رَسَتْ عند عَتَبِه أمواجُ اليمِّ، مُسْلِمَةً ذلك الوعاءَ الذي حوى صبياً لا حولَ له، محفوظاً بحفظِ مَنِ استرعتْهُ أمُّ موسى رضيعَها حين تكفَّلَ لها بإنجائِه وإرجاعِه لها ﴿كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ لترضعَ ذلك الصبيَّ حين حَرَّمَ اللهُ عليه كلَّ مراضعِ البلادِ إلا أمَّه! قال ابنُ القيمِ: "كَمْ ذَبَحَ فرعونُ في طلبِ موسى من ولدٍ، ولسانُ القَدَرِ يقولُ: لا نُربِّيهِ إلّا في حِجْرِكَ؟!".

أيها المسلمون!

إنَّ حفظَ اللهِ ذلكمُ الرضيعَ في ظلِّ المخاطرِ التي مازجتْ وِلادتَه، ومرْأى منامِه الهانئِ على سطحِ وعاءٍ يطفو به بين أمواجِ اليمِّ، وحيداً محفوظاً بعينِ مَن لا تأخذُه سِنَةٌ ولا نومٌ - ليُلقي بظلالِ اليقينِ الوارفِ على قلبِ كلِّ مؤمنٍ أنَّ حفظَ اللهِ عبدَه ووقايتَه المخاطرَ إنّما يكونُ بقدْرِ ما قامَ في قلبِه من تيقُّنِ فقْرِه إلى ربِّه واستشعارِه ضَعْفَه وبوارَ حِيلتِه، وأنَّ خذلانَه له بقدْرِ ما نقصَ من ذلك وظنَّ من كفايةِ ما عدا اللهَ -جلَّ وعلا-. قالَ ابنُ القيمِ: "وأجمعوا أنَّ التوفيقَ ألا يَكِلَكَ اللهُ إلى نفسِك، وأنَّ الخذلانَ هو أنْ يُخليَ بينك وبين نفسِك. فإذا كان كلُّ خيرٍ أصلُه التوفيقُ، وهو بيدِ اللهِ لا بيدِ العبدِ؛ فمفتاحُه الدعاءُ والافتقارُ وصِدقُ اللَّجأِ والرغبةِ والرهبةِ إليه؛ فمتى أَعطى العبدَ هذا

المفتاحَ فقد أرادَ أنْ يَفتحَ له، ومتى أضلَّه عن المفتاحِ بقي بابُ الخيرِ مُرْتَجًا دونَه". وقال في قولِه -تعالى-: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾: "قال طاووسٌ ومقاتلٌ وغيرُهما: لا يَصْبِرُ عن النساءِ، وقال الحسنُ: هو خلْقُه من ماءٍ مَهينٍ، وقال الزَّجَّاجُ: ضَعْفُ عزمِه عن قهْرِ الهوى. والصوابُ أنَّ ضَعْفَه يَعُمُّ هذا كلَّه، وضَعْفُهُ أَعظمُ من هذا وأَكثرُ؛ فَإنه ضعيفُ البُنْيَةِ، ضعيفُ القوةِ، ضعيفُ الإرادةِ، ضعيفُ العلمِ، ضعيفُ الصبرِ، والآفاتُ إليه مع هذا الضعفِ أَسرعُ من السيلِ في صيِّب الحُدُورِ؛ فبالاضطرارِ لا بدَّ له من حافظٍ مُعِينٍ يقوِّيه ويعينُه وينصرُه ويساعدُه، فإنْ تخلَّى عنه هذا المساعدُ المُعينُ فالهلاكُ أَقربُ إليه من نفَسِه".

وقد خاطب -تعالى- جميعَ الناسِ مخبراً بحالِهم ووصْفِهم قائلاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾؛ فَهُمْ فقراءُ إليه من جميعِ الوجوهِ؛ فقراءُ في إيجادِهم، فلولا إيجادُه إياهم، لم يُوجدوا. فقراءُ في إعدادِهم بالقوى والأعضاءِ والجوارحِ، التي لولا إعدادُه إياهم بها لما استعدوا لأيِّ عملٍ كان. فقراءُ في إمدادِهم بالأقواتِ والأرزاقِ والنِّعمِ الظاهرةِ والباطنةِ، فلولا فضلُه وإحسانُه وتيسيرُه الأمورَ لما حصلَ لهم من الرزقِ والنِّعَمِ شيءٌ. فقراءُ في صرفِ النِّقَمِ عنهم، ودفْعِ المكارهِ، وإزالةِ الكروبِ والشدائدِ؛ فلولا دفْعُه عنهم، وتفريجُه لكرباتِهم، وإزالتُه لعُسْرِهم؛ لاستمرتْ عليهم المكارهُ والشدائدُ. فقراءُ إليه في تربيتِهم بأنواعِ التربيةِ، وأجناسِ التدبيرِ. فقراءُ إليه في تألُّهِهم له، وحبِّهم له، وتعبُّدِهم، وإخلاصِ العبادةِ له -تعالى-، فلو لم يوفِّقْهم لذلك؛ لهلكوا، وفسدتْ أرواحُهم وقلوبُهم وأحوالُهم. فقراءُ إليه في تعليمِهم ما لا يعلمونَ، وعملَهم بما يُصلحُهم، فلولا تعليمُه، لم يتعلمُوا،

ولـولا توفيقُـه، لـم يَصْلُحـوا. فهـم فقـراءُ بالـذاتِ إليـه، بـكلِّ معنـى، وبـكلِّ اعتبـارٍ، سـواءٌ شـعروا ببعـضِ أنـواعِ الفقـرِ أم لـم يشـعروا، ولكـنَّ الموفـقَ منهـم، الـذي لا يـزالُ يشـاهِدُ فقـرَه في كلِّ حـالٍ مـن أمـورِ دينِـه ودنيـاه، ويتضـرعُ لـه، ويسـألُه ألَّا يَكلَـهُ إلـى نفسِـه طرفـةَ عيـنٍ، وأنْ يعينَـه علـى جميـعِ أمـورِه، ويسـتصحبَ هـذا المعنـى في كلِّ وقـتٍ، فهـذا أحـرى بالإعانـةِ التامـةِ مـن ربِّـه وإلهِـهِ، الـذي هـو أرحـمُ بـه مـن الوالـدةِ بولِدِهـا" كمـا قـال ابـنُ سـعديٍّ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أما بعدُ، فاعلموا أنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ ...

باستشعارِ حقيقةِ الضعفِ البشريِّ والفقرِ الذاتيِّ واستحضارِ واقيةِ اللهِ الوليدَ حين لم يكنْ له مُعَوَّلٌ على حيلةٍ سوى حيلةِ ربِّه؛ كان الصالحون من أهلِ العلمِ يطلبون اللهَ ضارعين حفظَه ووقايتَه وإنْ باشروا من أسبابِها المشروعةِ ما باشروا؛ إذ كان مُعَوَّلُهم على كفايةِ اللهِ، ومعتمدُهم على حسنِ تدبيره وكمالِ لطفِه ونفاذِ قدرتِه ، فقد كان بعضُ السلفِ يَسألُ ربَّه ضارعًا الحفظَ بمثلِ حفظِ الوليدِ قائلاً: "اللهمَّ واقيةً كواقيةِ الوليدِ"، وقد روي ذلك عن رسولِ اللهِ ﷺ كما رواه الإمامُ أحمدُ في كتابِ الزهدِ. وروى ابنُ المباركِ في كتابِه الزهدِ عن عثمانَ بنِ عبدِاللهِ بنِ أوسٍ أنه قال: "بَلَغَنِي أَنَّ بَعْضَ الْأَنْبِيَاءِ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ احْفَظْنِي بِمَا تَحْفَظُ بِهِ الصَّبِيَّ». وذلك الحالُ مما يَجْدُرُ التنبيهُ عليه، والتذكيرُ به، والتربيةُ عليه، سيما في ظلِّ انفتاحِ بابِ الفتنِ بشُبهِها وشهواتِها، وخَلْبَةِ بَرِيقِها، وركونِ الكثيرِ إلى أسبابِ الحسِّ والتعلقِ بغيرِ اللهِ، وقلةِ استحضارِ ذكرِ الآخرةِ. أوصى ابنُ قدامةَ أحدَ إخوانِه قائلاً: "اعلمْ أن من هو في البحرِ على اللوحِ ليس بأحوجَ إلى اللهِ ولطفِه ممن هو في بيته بين أهلِه ومالِه؛ فإذا حققتَ هذا في قلبِك؛ فاعتمدْ على الله اعتمادَ الغريقِ الذي لا يَعلمُ له سببَ نجاةٍ غيرَ اللهِ".

يا مَن يَـرى ما في الضميرِ ويسـمعُ أنـت المُعَـدُّ لـكلِّ مـا يُتوقَّـعُ
يـا مَـن يُرجَّـى للشـدائدِ كلِّهـا يـا مَـن إليـه المشـتكى والمفْزَعُ
يـا مَـن خزائـنُ مُلْكِه في قـولِ كنْ امنـنْ فـإنَّ الخيـرَ عنـدك أجمـعُ
ما لي سـوى فقـري إليك وسـيلةٌ فبالافتقـارِ إليـك فقـري أَدفـعُ
ما لي سـوى قرعـي لبابِـك حيلةٌ ولئـنْ طُـردتُّ فـأيُّ بـابٍ أقـرعُ
ومـن الذي أدعـو وأَهْتِفُ باسـمِه إنْ كان فضلُـك عـن فقيـرِك يُمنَعُ
حاشـا لجـودِك أنْ تُقَنِّـطَ عاصيًا الفضلُ أجـزلُ والمواهبُ أوسـعُ
بالـذُّلِ قـد وافيـتُ بابَـك عالمًا إنَّ التذلـلَ عنـد بابِـك يَنفـعُ
وجعلـتُ معتمـدي عليك تـوكُّلاً وبسـطتُ كفـي سـائلاً أتضـرَّعُ
فاجعـلْ لنا مِن كلِّ ضيـقٍ مخرجًا والْطـفْ بنـا يا مـن إليـه المرجعُ
ثـم الصـلاةُ علـى النبـيِّ وآلِـه خيـرُ الخلائـقِ شـافِعٌ ومُشَـفَّعُ

أدومُه وإنْ قَلَّ

الحمدُ للهِ ذي الجلالِ والإكرامِ، والطَّوْلِ والإنعامِ، عمّ بخيرِه الأنامَ، ووسعت مغفرتُه الآثامَ، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ الملِكُ السلامُ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلى اللهُ وسلمَ عليه وعلى آله وصحبِه الكرامِ.

أما بعدُ، فاتقوا الله —عبادَ اللهِ-، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ... ﴾.

أيُّها المؤمنون!

ديمومةُ العملِ الصالحِ مقصدٌ شرعيٌّ كليٌّ أصيلٌ، وخيرٌ غَدِقٌ مباركٌ؛ تُصْبَغُ به الحياةُ بغايةِ العبادةِ التي لأجلِها خَلَقَ اللهُ الخَلقَ، وتكونُ هي اللونَ السائدَ فيها، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، فينعمُ فيها المؤمنُ برضى المولى وهناءِ العيشِ، ويذوقُ الجنةَ المعجَّلةَ مع ما ينتظرُه من جنةِ الآخرةِ. ولأجلِ بقاءِ ذلك الدوامِ التعبديِّ نَهَتْ الشريعةُ عن التشدّدِ في العبادةِ، وبيّنتْ أن خيرَها ما دامَ عليها صاحبُها وإن قلَّتْ، عن عائشةَ -رضي اللهُ عنها-: أنَّ النبيَّ ﷺ كان يَحْتَجِرُ حصيراً بالليلِ فيصلي عليه، ويبسطُه بالنهارِ فيجلسُ عليه، فجعلَ الناسُ يثوبون إلى النبيِّ ﷺ فيصلُّون بصلاته حتى كثروا، فأقبلَ فقال: «يا أيّها الناسُ، خذوا من الأعمالِ ما تطيقون؛ فإنَّ اللهَ لا يَمَلُّ حتى تَمَلُّوا، وإنَّ أحبَّ الأعمالِ إلى اللهِ ما دامَ وإنْ قَلَّ» وكان آلُ محمدٍ ﷺ إذا عملوا عملاً أثبتوه (رواه البخاريُّ ومسلمٌ،

واللفظُ له). وذلك يفْصِحُ عن كمالِ شفقتِه ﷺ ورأفتِه بأمتِه؛ إذْ أرشدَهم إلى ما يصلحُهم؛ وهو ما يُمْكِنُهم الدوامُ عليه بلا مشقةٍ؛ لأنَّ النفسَ تكونُ فيه أنشطَ، والقلبُ منشرحٌ، فتستمرُ العبادةُ، ويحصلُ مقصودُ الأعمالِ، وهو الخضوعُ فيها، واستلذاذُها، والدوامُ عليها، بخلافِ مَن تعاطى مِن الأعمالِ ما لا يمكنُه الدوامُ، وما يشقُّ عليه، فإنه مُعَرَّض لِأَنْ يتركَه كلَّه أو بعضَه، أو يفعلَه بكُلْفةٍ أو بغيرِ انشراحِ القلبِ فيفوتُه الخيرُ العظيمُ. قال طاووسٌ: "أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ أَخَفُّهَا"، قَالَ ابنُ عبدِالبرِّ: "يُرِيدُ: أَخَفَّهَا عَلَى الْقُلُوبِ، وَأَحَبَّهَا إِلَى النُّفُوسِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ أَحْرَى أَنْ يَدُومَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ حَتَّى يَصِيرَ لَهُ عَادَةً وَخُلُقًا".

عبادَ اللهِ!

بدوامِ العبادةِ -وإنْ قلَّتْ- سلامةٌ ممّا يُفضي إليه إثقالُها مِن تبغيضِها إلى النفسِ ولُحُوقِ مَنْقَصَةِ المللِ والفتورِ ومَعَرَّةِ الانقطاعِ والتي قد تحمِلُ في معانيها إعراضَ العبدِ عن اللهِ بعد الإقبالِ عليه، والرجوعَ فيما بَذَلَه مِن نفسِه لله، كما أنَّ ذلك قد يكونُ حاملاً لتركِ الفرائضِ، وفاتحاً لبابِ التهاونِ في عملِ الصالحاتِ؛ وكفى بذلك شُؤْماً. وذلك الدوامُ حبلٌ متينٌ موصولٌ باللهِ لا يَنْفَصِمُ أبداً؛ به يكونُ الثباتُ على الصراطِ المستقيمِ، والهدايةُ إلى حسنِ الختامِ، والبشارةُ بالوصولِ ووراثةِ الجِنانِ، كما قال النبيُّ ﷺ: «سَدِّدُوا وقارِبوا وأبشروا؛ فإنه لا يُدْخِلُ أحداً الجنةَ عملُه» قالوا: ولا أنت يا رسولَ اللهِ؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بمغفرةٍ ورحمةٍ» رواه البخاريُ. قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ: "وأحبُّ العملِ ما داومَ عليه صاحبُه؛ فإنَّ الأعمالَ بالخواتيمِ،

بخلافِ عملِ الأُجَرَاءِ في الدنيا؛ فإنَّ الأجرةَ تَتَقَسَّطُ على المنفعةِ، فإذا عَمِلَ بعضَ العملِ استحقَّ مِن الأجرةِ بقدْرِ ما عَمِلَ ولو لم يعملْ إلا قليلاً، فمَن خُتِمَ له بخيرٍ استحقَّ الثوابَ، وكفَّرَ اللهُ بتوبتِه سيئاتِه، ومَن خُتِمَ له بكفرٍ أحبطتْ رِدَّتُه حسناتِه؛ فلهذا كان العملُ الذي داومَ عليه صاحبُه إلى الموتِ خيراً ممّن أعطى قليلاً ثم أكْدى وكلّفَ نفسَه ما لا يطيقُ كما يفعلُه كثيرٌ مِن العمّالِ". وقليلُ العبادةِ الدائمُ ذو أثرٍ عظيمٍ في صلاحِ القلبِ؛ إذ مداومُ الخيرِ ملازمٌ للبرِّ والذكرِ والمراقبةِ والنيةِ والإخلاصِ والإقبالِ على اللهِ -سبحانَه-، فكأنَّه يترددُ إلى بابِ الطاعةِ كلَّ وقتٍ، فلا يُنسى من البرِّ لتردُّدِه، وليس كمَن لازَمَ البابَ يوماً دائماً ثُمَّ انقطعَ شهراً كاملاً. وبالدوامِ يُثْمِرُ القليلُ ويباركُه اللهُ ليزيدَ على الكثيرِ المنقطعِ أضعافاً كثيرةً؛ بدوامِ أجرِه، وفتحِه أبواباً مِن الخيراتِ لم تكنْ مِن قَبلُ؛ وذلك مِن ثوابِ الإبقاءِ على الحسناتِ، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾. كما أن استشعارَ المؤمنِ قلةَ عملِه حاملٌ له على انكسارِ قلبِه، واستصحابِ تقصيرِه وعجزِه، وعدمِ إدلائِه بالطاعةِ واغترارِه بها؛ ممّا يُصانُ به عملُه مِن آفةِ العُجبِ والرياءِ، ويكونُ قَبولُه وبركتُه حينئذٍ أحرى ما يكونُ.

عبادَ اللهِ!

إنَّ المواظبةَ على قليلِ العملِ الصالحِ أمنةٌ ربانيةٌ للعبدِ، وسلامةٌ عاصمةٌ له بأمرِ اللهِ مِن الزَّيغِ والضلالِ؛ وتلك المواظبةُ تقتضي رعايةَ الفرائضِ والواجباتِ، وتركَ المحرماتِ، وتعاهدَ التوبةِ حالَ الإخلالِ بالواجبِ أو انتهاكِ

المحرمِ، كما تقتضي تلك المواظبةُ الإبقاءَ على النوافلِ التي يَسْتَمِرُّ عليها العبدُ دون مللٍ؛ كقراءةٍ يوميةٍ للقرآنِ مدةَ ثلثِ ساعةٍ، أو قيامِ ركعةٍ بعد العشاءِ، أو صدقةٍ ببضعٍ من المالِ، أو دعاءٍ أو استغفارٍ شخصيٍّ أو عامٍّ للمؤمنين لبِضْعِ دقائقَ، أو تَبَسُّمٍ في وجهِ أخيه المسلمِ وابتدارِه بالسلامِ، أو تعلُّمِ مسألةٍ دينيةٍ، أو إرسالِ فائدةٍ أو نصيحةٍ، أو صيامِ ثلاثةِ أيامٍ مِن كلِّ شهرٍ، أو قيامٍ ببرنامجٍ دعويٍّ في الأسرةِ أو الحيِّ ولو في العامِ مرةً، أو أداءِ عمرةٍ سنويةٍ. ولا يتعارضُ الدوامُ على طاعةِ النافلةِ مع الازديادِ منها حالَ مواسمِ الخيرِ كرمضانَ وعشرِ ذي الحِجةِ واستغلالِ نشاطِ النفسِ وإقبالِها على الطاعةِ دون الإثقالِ عليها بما يسبِّبُ لها المللَ أو المشقةَ؛ فذاك كان إرشادَ النبيِّ ﷺ، كما هو حالُه. قال عمرُ — رضي اللهُ عنه-: "إن لهذه القلوبِ إقبالاً وإدباراً؛ فإذا أقبلتْ فخذوها بالنوافلِ، وإذا أدبرتْ فألزموها الفرائضَ"، وقال ابنُ مسعودٍ —رضي اللهُ عنه-: «إن لهذه القلوبِ شهوةً وإقبالاً، وإنَّ لها فترةً وإدباراً، فخذوها عند شهوتِها وإقبالِها، وذَرُوها عند فترْتِها وإدبارِها». وقال يحيى بنُ جَعْدةَ: "كان يُقال: اعملْ وأنت مشفقٌ وَدَعِ العملَ وأنت تشتهيه اعملٌ صالحٌ قليلٌ تدومُ عليه"، وقال ابنُ عثيمينَ: "والذي ينبغي للإنسانِ ألا يَخرُجَ من العبادةِ إلا وهو أرغبُ بها مِن دخولِه فيها؛ حتى يؤديَها على يسرٍ وسهولةٍ ونشاطٍ".

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.

أما بعدُ، فاعلموا أن أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيها المؤمنون!

إنَّ الديمومةَ على العملِ الصالحِ وإنْ قلَّ ذو أثرٍ حَسَنٍ قويِّ المفعولِ وطِيبِ العاقبةِ على النفسِ والمجتمعِ؛ فالواردُ الدائمُ القليلُ يؤثِّرُ في الصخْرِ على صلابتِه؛ فكيف بالقلوبِ وهي مُضَغٌ من اللحمِ. قال الْفَضْلُ بْنُ سَعِيدِ: "كَانَ رَجُلٌ يَطْلُبُ الْعِلْمَ فَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، فَعَزَمَ عَلَى تَرْكِهِ، فَمَرَّ بِمَاءٍ يَنْحَدِرُ مِنْ رَأْسِ جَبَلٍ عَلَى صَخْرَةٍ قَدْ أَثَّرَ الْمَاءُ فِيهَا، فَقَالَ: الْمَاءُ عَلَى لَطَافَتِهِ قَدْ أَثَّرَ فِي صَخْرَةٍ عَلَى كَثَافَتِهَا! وَاللهِ لَأَطْلُبَنَّ الْعِلْمَ؛ فطَلَبَ فَأَدْرَكَ". وجَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَى حَلَقَةِ أَبِي حَنِيفَةَ، وَكَانَ يَطْلُبُ الْكَلَامَ، فَسَأَلَتْهُ عَنْ مَسْأَلَةٍ لَهُ وَلِأَصْحَابِهِ، فَلَمْ يُحْسِنُوا فِيهَا شَيْئًا مِنَ الْجَوَابِ، فَانْصَرَفَتْ إِلَى حَمَّادِ بْنِ أَبِي سُلَيْمَانَ، فَسَأَلَتْهُ فَأَجَابَهَا، فَرَجَعَتْ إِلَيْهِ، فقَالَتْ: غَرَّرْتُمُونِي، سَمِعْتُ كَلَامَكُمْ، فَلَمْ تُحْسِنُوا شَيْئًا، فَقَامَ أَبُو حَنِيفَةَ فَأَتَى حَمَّادًا، فَقَالَ لَهُ: مَا جَاءَ بِكَ؟ قَالَ: أَطْلُبُ الْفِقْهَ قَالَ: تَعَلَّمْ كُلَّ يَوْم ثَلَاثَ مَسَائِلَ وَلَا تَزِدْ عَلَيْهَا شَيْئًا حَتَّى يَتَّفِقَ لَكَ شَيْءٌ مِنَ الْعِلْمِ فَفَعَلَ، وَلَزِمَ الْحَلَقَةَ حَتَّى فَقِهَ، فَكَانَ النَّاسُ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ.

عبادَ اللهِ!

ولئِنْ كان التأكيدُ على التَشَبُّثِ بقليلِ العملِ الصالحِ من لَدُنِ عهدِ القرونِ المفضَّلةِ؛ فإنَّ التأكيدَ عليه زمنَ فتنِ الشبهاتِ والشهواتِ والأثرةِ وانفتاحِ قنواتِ التواصلِ والتقنيةِ، وانكبابِ الناسِ على الدّنيا، وتنافسِهم فيها، وكثرةِ الانشغالِ بها، وانحسارِ العلمِ، وكثرةِ المتساقطين-آكدُ وألزمُ، والمعصومُ مَن عَصَمَه اللهُ، والمخذولُ مَن خَذَلَه، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾.

استعاذاتٌ نَبَوِيّةٌ

إنّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مضلّ له، ومَن يضللْ فلا هاديَ له،وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ ...﴾.

أيّها المؤمنون!

الضعفُ البشريُّ وهَنٌ لازمٌ لا يجبُرُه إلا ركونٌ إلى ركنٍ إلهيٍّ شديدٍ؛ يحوطُ العبدَ عمّا يؤذيه وينغّصُ عليه. والاستعاذةُ باللهِ حبلٌ إلهيٌّ ممدودٌ يصلُ العبدَ بمولاه، ويمدُّه بقوّتِه وحفظِه. وخيرُ تلكَ الاستعاذاتِ ما كان النبيُّ ﷺ يديمُ الدعاءَ به وهو العليمُ بربِّه الذي آتاهُ جوامعَ الكَلِمِ. ومن الاستعاذاتِ النبويّةِ ما رَوى مسلمٌ في صحيحِه عن عبدِ اللهِ بنِ عمرَ — رضيَ اللهُ عنهما — قال: كان من دعاءِ رسولِ اللهِ ﷺ: «اللهمّ إنّي أعوذُ بك من زوالِ نعمتِك، وتحوُّلِ عافيتِك، وفُجاءَةِ نِقمتِك، وجميعِ سَخَطِك». دعاءٌ جامعٌ لصلاحِ حالِ العبدِ؛ إذْ هو متقلِّبٌ بين نعمةٍ يحُوزُها ونِقمةٍ يحاذِرُها، في دينِه ودُنياه وآخرتِه. ولا ظَفَرَ بالنعمةِ إلا بإسداءِ مُولِيها، وإتمامِه، وإذنِه بدوامِها وتناميها وهنائها. ولا سلامةَ من النِّقمةِ إلا بدفعِ مُقدِّرِها، ولُطفِه، وعفوِه. ومن هُنا ضَرَعَ النبيُّ ﷺ إلى ربِّه بذلكَ الدعاءِ الذي به تبدو الاستكانةُ والافتقارُ والانكسارُ للمَلكِ الجبَّارِ واستمناحُه نوالَه الممدودَ.

عبادَ اللهِ!

إنَّ نعـمَ اللهِ — تعالـى — تعـمُّ سـوابغَ الديـنِ والدنيـا. والخطـرُ المخـوفُ إحاطتُـه بهـا إمـا زوَالٌ إلـى عـدَمٍ، أو زوالٌ مـع تحـوُّلٍ إلـى ضـدٍّ، وذلـك أخطـرُ. وكلُّ ذلـك ممّـا اسـتعاذَ منـه النبـيُّ ﷺ بقولِـه: «اللهـمّ إني أعـوذُ بـك مـن زَوالِ نعمتِك، وتحـوُّلِ عافيَتِك"، كذَهـابِ المـالِ بعـد الغِنَـى،" والتحـوُّلِ إلـى الفقـرِ بعـد الكَفـافُ، والمـرضِ بعـد الصّحـةِ، والفَضيحـةِ بعـد السّـترِ، والضّـلالِ بعـد الهُـدى، والتفـرُّقِ بعـد الاجتمـاعِ، والنُّفـرةِ بعـد الألفـةِ. والسـببُ الغالـبُ في ذلـكَ الـزوالِ والتحـوُّلِ — خاصـةً في النعـمِ الدينيّـةِ التي لا مُقارنـةَ بينهـا وبيـن نعـمِ الدنيـا كافّـة – إنمـا هـو مـن العبـدِ، كمـا قـال تعالـى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَـيِّرُ مَـا بِقَـوۡمٍ حَـتَّىٰ يُغَـيِّرُواْ مَـا بِأَنفُسِـهِمۡۗ﴾. فالاستعاذَةُ بـاللهِ مـن زوالِ النّعمـةِ وتحـوُّلِ العافيـةِ تعـوُّذٌ بـاللهِ مـن سببِها، واستِجداءٌ لدوامِها بشُكرِها والثّناءِ على اللهِ بها. قـال الحسـنُ: "كان أهـلُ قريـةٍ أوسَـعَ اللهُ عليهـم حتـى كانـوا يسـتنْجُون بالـخُبزِ، فبعـث اللهُ عليهـم الجُـوعَ حتـى إنّهـم كانـوا يأكلُـون مـا يَقعُـدون بـه"، وقـال أبـو العاليـةِ: "إنّـي لأرجـو أن لا يهلِـك عبـدٌ بيـن نعمـةٍ يحمـدُ اللهَ عليهـا وذنـبٍ يسـتغفرُ اللهَ منـه". ولحِـق بكـرُ بـنُ عبـدِاللهِ حمّـالاً عليـه حِملُـه وهـو يقـولُ: الحمـدُ للهِ، أسـتغفرُ اللهَ، قـال: فانتظرْتُـه حتـى وضـع مـا علـى ظهـرِه، وقلـتُ لـه: أمَـا تُحسـنُ غيـرَ هـذا؟ قـال: بلـى، أحسِـنُ خيـرا كثيـرا؛ أقـرأُ كتـابَ اللهِ عـزّ وجـلّ (أي أحفظُـه)، غيـرَ أنّ العبـدَ بيـن نعمـةٍ وذنـبٍ، فأحمـدُ اللهَ علـى نَعمائِـه السـابغةِ وأسـتغفرُه لذُنوبـي، فقـال بكـرٌ: الحمّـالُ فيهـا أفقـهُ مـن بكـرٍ!

أيّها المؤمنون!

وأشدُّ ما يعقُبُ النعمةَ إذا ذهبتْ حلولُ النقمةِ، وأشدُّها ما وقع بَغتةً دون مقدّماتٍ أو تدرُّجٍ ؛ وذلكَ لصُعوبةِ دفعِه وتدارُكِه؛ فتكونُ الحسرةُ حسرتينِ؛ حسرةَ فَقْدِ النعمةِ وحسرةَ حُلولِ النقمةِ؛ ولذا خصّه النبيُّ ﷺ وابتَدأ به حين استدفَعَ ربَّه نِقمتَه فقال: "وفُجاءةِ نِقمتِك". وأخطرُ من ذلكَ ما كان من النِّقمِ والعقابِ خفيًّا لا يُحسُّ بدَبيبِه إلا وقد أحاطَ بصاحبِه واستحْكمَ بساحِه وهو عنه غافلٌ لا يشعرُ. قال عبدُالله بنُ المبارَكِ: "إنّ البُصَراءَ لا يأمَنون من أربعِ خصالٍ: ذنبٍ قد مضى لا يدرِي ما يصنعُ الربُّ فيه، وعمرٍ قد بقِي لا يدرِي ماذا فيه من الهلَكاتِ، وفضلٍ قد أُعطي لعلّه مكرٌ واستدراجٌ وضلالةٍ وقد زُينتْ له فيراها هُدى، ومن زيغِ القلبِ ساعةً أسرعَ من طرفةِ عينٍ قد يَسلبُ دينَه وهو لا يشعرُ". ومن تلكَ النقَمِ الخَتمُ على القلوبِ والأسماعِ، والغَشاوةُ على الأبصار، والأقفالُ على القلوبِ، وجعلُ الأكنّةِ عليها والرّيْنُ عليها والطّبعُ وتقليبُ الأفئدةِوالأبصارِ، والحَيلُولةُ بين المرءِ وقلبِه، وإغفالُ القلبِ عن ذكرِ الربِّ، وإنساءُ الإنسانِ نفسَه، وتركُ إرادةِ اللهِ تطهيرَ القلبِ، وجعلُ الصّدرِ ضيّقا حَرَجا كأنّما يصّعدُ في السماءِ، وصَرفُ القلوبِ عن الحقِّ، وزيادتُها مرضا على مرضِها، وإركاسُها وإنكاسُها بحيثُ تبقى منكوسةً. فسُبحانَ اللهِ! كم من قلبٍ منكوسٍ وصاحبُه لا يشعرُ؟ وقلبٍ ممسوخٍ وقلبٍ مخسوفٍ به؟ وكم من مفتونٍ بثناءِ الناسِ عليه ومغرورٍ بسِترِ اللهِ عليه؟ ومستدرَجٍ بنعمِ اللهِ عليه؟ وكلُّ هذه عقوباتٌ وإهاناتٌ ويظنُّ الجاهلُ أنّها كرامةٌ! كما قال ابنُ القيمِ — رحمَه اللهُ -.

أيها المسلمون!

وكما استعاذ النبيُّ ﷺ من فَجأةِ النقمةِ استعاذَ باللهِ من جميعِ الأسبابِ التي تجلِبُ سخَطَه وغضبَه: "وجميعَ سخَطِك"؛ لأنه سبحانَه إذا سخِط على العبدِ فقد هلكَ وخابَ وخسرَ، ولو كان السخَطُ في أدنى شيءٍ وبأيسرِ سببٍ. فما من شيءٍ يكمنُ وراءه غضبُ اللهِ إلا وهو مشمولٌ بهذه الاستعاذةِ الجامعةِ؛ فيدخلُ في ذلكَ طلبُ العافيةِ من كلّ ذنبٍ؛ وقايةً قبل مقارفتِه، وتوبةً بعد تلك المقارفةِ، والتائبُ من الذّنبِ كمن لا ذنبَ له. قال يَحيَى بنُ الحسينِ القاهريُّ: قدِمتُ مِصرَ، فجئتُ إلى حلَقةِ ذي النّونِ فرآني وفيَّ استظهارٌ على الحاضرين، فقال لي: لا تفعلْ؛ فإن اللهَ تعالى أخفى ثلاثا في ثلاثٍ: أخفى غضبَه في معصيتِه، وأخفى رضاءَه في طاعتِه، وأخفى ولايتَه في عبادِه؛ فلا تُحقرنّ شيئا من معاصِيه؛ فلعله أن يكونَ فيه غضبُه، ولا تُحقرنَّ شيئا من طاعتِه؛ فلعله يكونُ فيه رِضاؤه، ولا تُحقرنَّ أحدا من خَلقِ اللهِ؛ فلعله أن يكونَ وليّا من أوليائه".

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.

وبعدُ، فاعلَموا أنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنون!

هكذا كان النبيُّ ﷺ يسأَلُ ربَّه دوامَ النعمِ، واستدفاعَ النِّقمِ. ألَا ما أحرانا باللّهَجِ بهذا الدعاءِ العظيمِ ونحن ننغمسُ في نعَمٍ من اللهِ سابغةٍ؛ حتى بتْنا مع أُلفةِ دوامِها وكثرةِ إمساسِها لا نشعرُ بها إلا مَن رحِمَ اللهُ، وهذه القوارعُ والنُّذُرُ تطيفُ بنا؛ علَّ رحمةً من اللهِ ينزلُها؛ يُصلِحُ بها حالَنا، ويُلمُّ بها شعْثَنا، ويُوزِعُنا بها شكرَ نعمتِه.

إذا كنتَ في نعمةٍ فارْعَها ... فإن المعاصي تُزيلُ النِّعمَ

وحافظْ عليها بتقوى الإلهِ ... فإن الإلهَ سريعُ النِّقَمِ

فإن تُعطِ نفسَك آمالَها ... فعند مُناها يحلُّ النَّدمُ

فأين القرونُ ومَن حولَهم ... تفانَوْا جميعا وربي الحَكَمْ

وكنْ موسِراً شئتَ أو معسِرا ... فلا بُدّ تلقى بدُنياكَ غمْ

ودُنياكَ بالغمِّ مقرونةٌ ... فلا يُقطَعُ العمرُ إلا بِهَمْ

حلاوةُ دنياك مسمومةٌ ... فلا تأكلُ الشهدَ إلا بسُمْ

محامـدُ دنيـاكَ مذمومـةٌ فلا تكسَـبُ الحمدَ إلا بذمْ
إذا تـمّ أمـرٌ بـدا نقصُـه تـوقَّ زوالا إذا قِيـل تـمْ
فكـمْ آمـنٍ عـاشَ في نعمةٍ فما حـسّ بالفقرِ حتى هجمْ
وكـم قـدَرٍ دبَّ في غفلـةٍ فلم يشعرِ الناسُ حتى هجمْ

السرورُ بالحسنةِ

الحمدُ للهِ الوهابِ، غافرِ الذنبِ وقابلِ التوبِ شديدِ العقابِ، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ له الملكُ التوابُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، صلى اللهُ عليه وعلى آلِه وصحبِه وسلمَ تسليمًا كثيرًا إلى يومِ المآبِ.

أمَّا بعدُ: فاتَّقوا اللهَ - عبادَ اللهِ -، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ... ﴾.

أيُّها المؤمنونَ!

الإيمانُ أجزلُ منحةٍ ربانيةٍ يُؤتاها عبدٌ؛ بها مَعْقَدُ الفلاحِ والنجاةِ، وأزمّةُ السرورِ مُوثَقَةٌ بشُعَبِها، وبنورِها تُكشفُ حنادسُ الظلماتِ ويُبْصَرُ دربُ الهدايةِ؛ فلا حياةَ إلا بها، ولا ضياءَ إلا بنورِها، يقولُ اللهُ -تعالى-: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾. ولمّا كان الإيمانُ أجلَّ المننِ؛ كان طلبُه، واستزادتُه، ورَقْبُ حالِه، وصونُه عمّا يُنْقِصُ تمامَه أو يُذْهِبُ أصلَه، وتعويضُ ما ذهبَ منه؛ ألزمَ ما أولاه المؤمنُ عنايتَه؛ فِقهًا وعملًا. ومن مجالي ذلك الفقهِ العمليِّ الشريفِ معرفةُ العلاماتِ الدالةِ على بقاءِ الإيمانِ وترحّلِه، وقوّتِه وضعفِه، وخَلْقِه وتجدُّدِه، واستطعامِ حلاوتِه مما وردَ بتحديدِه نصُّ الكتابِ والسنةِ، والتي من خلالها يَتبصَّرُ المرءُ حقيقةَ إيمانِه؛ ليُحْسِنَ رعْيَ حالِه؛ شُكرًا وصونًا عند وفورِه؛ خوفًا من استلابِه وخَلْقِه،

وتقويةً واستدراكًا عند ضعفِه ونقصانِه. هذا وإنَّ من علاماتِ صحةِ القلبِ بالإيمانِ وقرارِه فيه واستقامتِه عليه أنْ يفرحَ المرءُ بما يُوَفَّقُ إليه من عملِ الطاعةِ وإنْ كان من زهرةِ الدنيا مُعْدمًا، ويُسَرُّ بذلك، ويراه من عظيمِ إنعامِ الله عليه دون إعجابٍ بعملٍ؛ لتيقُّنِه أنه محضُ منَّةٍ ربانيةٍ، واستشعارِه القصورَ في توفيةِ العبادةِ حقَّها، وأنْ يحزنَ على ما اقترفتْ يداه من عملِ السيئاتِ، ويسوءه بقاؤها في صحيفتِه، وعَرْضُها عليه بين يدي اللهِ؛ فذاك -لَعَمْرُ اللهِ- مَعْلَمٌ للإيمانِ عظيمٌ. كما قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: "مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ، وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ؛ فَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ" رواه الترمذيُّ وصحّحَه الألبانيُّ. بغلبةِ حالِ السرورِ بالطاعةِ والحُزنِ بالسيئةِ يَبِينُ للإيمانِ كمالٌ، ولأصلِ شجرتِه تجذُّرٌ ورسوخٌ؛ يدلُّ عليه استغراقُ اللفظِ في سياقِ الشرْطِ والإشارةُ إليه بالاسمِ البعيدِ: "فذلك المؤمنُ". وذاك ما جعلَ أمَّ المؤمنينَ عائشةَ -رضيَ اللهُ عنها- تكتفي به في وصْفِها جُمَلَ الإيمانِ حين سألَها رجلٌ: مَا الْإِيمَانُ؟ فَقَالَتْ: أُفَسِّرُ أَوْ أُجْمِلُ؟ قَالَ: أَجْمِلِي، فَقَالَتْ: مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ، وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ؛ فَهُوَ مُؤْمِنٌ. (رواه ابنُ أبي شيبةَ).

أيها المسلمون!

إنّ الدلالةَ المستوحاةَ على صدقِ الإيمانِ من فرحِ العبدِ بالحسنةِ ومَساءتِه بالسيئةِ ناشئٌ من صدقِ اليقينِ بجعلِ اللهِ -سبحانه- تلك الحسنةَ حسنةً، وجعْلِه السيئةَ سيئةً، ومجازاتِه عليها ثوابًا وعقابًا؛ وذاك صريحُ الإيمانِ. كما أنّ ذلك يَحملُ في طياتِه التصديقَ بأسماءِ اللهِ وصفاتِه؛ حين يكونُ باعثَ سرورِ الطاعةِ رجاءُ قَبولِها من لدنْ ربِّه الكريمِ الرحيمِ المحسنِ التوابِ الشكورِ

الغفورِ؛ إذ هي مَحضُ مِنَّتِه وتوفيقِه -جلّ وعلا-؛ جادَ بها ابتداءً؛ فكان الرجاءُ فيه معقودًا بتقبُّلِها جزاءً. وهكذا الحُزنُ بمقارفةِ المآثمِ مُشْعِرٌ باستحضارِ اسمِ الرقيبِ والشهيدِ والحَكَمِ والعليِّ والمَلِكِ الذي لا يَعزُبُ عنه مثقالُ ذرةٍ في السماواتِ ولا في الأرضِ ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبرُ إلا في كتابٍ مبينٍ؛ فيَعْظُمُ خوفُه وحياؤه من ربه، وذاك دليلُ إيمانٍ! والفرحُ بالطاعةِ إيمانٌ؛ إذ هو فرحٌ بفضلِ اللهِ على عبدِه ورحمتِه به حين وفَّقَه لفعلِها؛ وذاك أعظمُ الفرحِ المأمورِ به شرعًا، كما قال -تعالى-: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾. وكيف لا يكونُ ذلك السرورُ وهو من حلاوةِ الإيمانِ التي هي مَظهرٌ من مظاهرِ حكمةِ اللهِ وكرمِه؛ إذ به يَرى العبدُ الأثرَ الحسنَ للطاعةِ؛ فينشرحُ صدرُه بها، ويُكْثِرُ الازديادَ منها، يقولُ ابنُ القيمِ: "وسمعتُ شيخَ الإسلامِ ابنَ تيميَّةَ ـ قدَّسَ اللهُ روحَه ـ يقولُ: إذا لم تجدْ للعملِ حلاوةً في قلبِك وانشراحًا فاتَّهِمْهُ، فإنَّ الربَّ -تعالى- شكورٌ. يعني: أنَّه لا بدَّ أنْ يُثيبَ العاملَ على عملِه في الدُّنيا مِن حلاوةٍ يجدُها في قلبِه وقوَّةٍ وانشراحٍ وقرَّةِ عينٍ، فحيثُ لم يجدْ ذلك فعملُه مدخولٌ. والقصدُ: أنَّ السرورَ باللهِ وقربِه وقرةَ العينِ به تبعثُ على الازديادِ من طاعتِه وتحثُّ على السيرِ إليه". قال ضَيغَمُ بنُ مالكٍ: "رَأَيْتُ الْمُجْتَهِدِينَ إِنَّمَا قَوُوا عَلَى الاجْتِهَادِ بِمَا يَدْخُلُ قُلُوبَهُمْ مِنَ الْحَلاوَةِ فِي الطَّاعَةِ". والسرورُ بالحسنةِ من تحقيقِ وعْدِ اللهِ بزيادةِ الحُسْنِ فيها، واللهُ لا يُخلِفُ الميعادَ، قال -تعالى-: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾. وغالبًا ما يكونُ السرورُ بالطاعةِ داعيًا إلى المداومةِ عليها، بل قد يكونُ سببًا في التوفيقِ لعملِ طاعاتٍ

أُخَرَ تُفضي به إلى صراطِ الثباتِ لِتُسْلِمَهُ إلى عُقبى حُسْنِ الخاتمةِ؛ وذلك من زيادةِ الحُسن في الحسنةِ. كانَ ابْنُ السمّاكِ يَقُولُ: "إِذا فعلتَ الْحَسَنَةَ؛ فافرحْ بِهَا، واستَقْلِلْها؛ فَإِنَّك إِذا استقللتَها زِدْتَّ عَلَيْهَا، وَإِذا فرحتَ بِهَا عدّتَ إِلَيْهَا". وذاك السرورُ من عاجلِ بشرى المؤمنِ إنْ أظهرَ اللهُ عملَه للناسِ، وأَثْنَوْا عليه به خيرًا، حين كان مبدؤه للهِ خالصًا. قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم: أَرَأَيْتَ الرجلَ يعملُ العملَ من الخيرِ، ويحمدُه الناسُ عليه؟ قال: "تلك عاجلُ بشرى المؤمنِ" رواه مسلمٌ." عَلِمَ أَنَّ اللهَ أَطْلَعَهُمْ، وَأَظْهَرَ الْجَمِيلَ مِنْ أَحْوَالِهِ؛ فَسُرَّ بِحُسْنِ صَنِيعِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، وَنَظَرِهِ لَهُ، وَلُطْفِهِ بِهِ حَيْثُ كَانَ يَسْتُرُ الطَّاعَةَ وَالْمَعْصِيَةَ، فَأَظْهَرَ اللهُ عَلَيْهِ الطَّاعَةَ وَسَتَرَ الْمَعْصِيَةَ؛ فَيَكُونُ فَرَحُهُ بِذَلِكَ،لَا بِحَمْدِ النَّاسِ وَقِيَامِ الْمَنْزِلَةِ فِي قُلُوبِهِمْ، أَوْ يَسْتَدِلُّ بِإِظْهَارِ اللهِ الْجَمِيلَ وَسَتْرِ الْقَبِيحِ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا أَنَّهُ كَذَلِكَ يَفْعَلُ بِهِ فِي الْآخِرَةِ" فيُسَرُّ بذلك، كما قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "مَنْ أَذْنَبَ فِي الدُّنْيَا ذَنْبًا، فَعُوقِبَ بِهِ، فَاللهُ أَعْدَلُ مِنْ أَنْ يُثَنِّيَ عُقُوبَتَهُ عَلَى عَبْدِهِ، وَمَنْ أَذْنَبَ ذَنْبًا فِي الدُّنْيَا، فَسَتَرَ اللهُ عَلَيْهِ، وَعَفَا عَنْهُ، فَاللهُ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَعُودَ فِي شَيْءٍ قَدْ عَفَا عَنْهُ" رواه أحمدُ وصحَّحَه الحاكمُ ووافقَهُ الذهبيُّ وحسَّنَه ابنُ حجرٍ. وهكذا يَرى المؤمنُ حين تسوؤه سيئتُه وتُحزِنُه شؤمَها عليه؛ فيندمُ عليها، ويَنْكَفُّ عنها، ويأتي بالحسناتِ الماحيةِ لها؛ وذاك برهانٌ على صحةِ إيمانِه.

أيها المسلمون!

إنّ لمآثرِ أهلِ الإيمانِ أحوالًا رائقةً مع سرورِهم بالطاعاتِ حين كانتْ قرةَ

عيونِهم؛ تُطْمِعُ العبدَ في محبتِهم واقتفاءِ آثارِهم؛ ليَبْلُغَ بصدقِ محبتِه ما قَصُرَ عنه عملُه في اللحاقِ بركبِ الفائزين. يقودُ أولئك الركبَ المباركَ قدوتُهم رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إذ كان يُفْصِحُ عن سلْوتِه وينبوعِ سعادتِه بقولِه: "وجُعلتْ قرةُ عيني في الصلاةِ" رواه أحمدُ وصحَّحَه الألبانيُّ، فكان يستريحُ من عناءِ الدنيا بتلك الصلاةِ التي كان بها سرورُه بمناجاتِه ربَّه –سبحانَه–؛ فكثيرًا ما كان يُخاطِبُ مؤذِّنَه بلالًا –رضيَ اللهُ عنه– قائلًا: "يَا بِلَالُ، أَقِمِ الصَّلَاةَ؛ أَرِحْنَا بِهَا" رواه أبوداودَ وصحَّحَه الألبانيُّ. قَالَ مُسْلِمُ بْنُ يَسَارٍ: "مَا تَلَذَّذُ بِمِثْلِ الْخَلْوَةِ بِمُنَاجَاةِ اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ–". ومنهم مَن كان تلذُّذُه في صَفِّ قدميه بين يدي ربِّه مُتهجِّدًا في جوفِ الليلِ البهيمِ، قال أبو سليمانَ الدَّارانيُّ: "أهلُ الطاعةِ في ليلِهم ألذُّ من أهلِ اللهوِ بلهوِهم، وربّما استقبلني الفرحُ في جوفِ الليلِ، وربّما رأيتُ القلبَ يضحكُ ضِحْكًا". وقال بعضُهم: "ما بقيَ من لذاتِ الدنيا إلا ثلاثٌ: قيامُ الليلِ، ولقاءُ الإخوانِ، وصلاةُ الجماعةِ". ومنهم مَن كان سرورُه الإيمانيُّ في سماعِ القرآنِ والتأثرِ به، قال فضلُ الرقاشيُّ: "مَا تَلَذَّذَ الْعَابِدُونَ، وَلَا اسْتَطَارَتْ قُلُوبُهُمْ بِشَيْءٍ كَحُسْنِ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ، وَكُلُّ قَلْبٍ لَا يُجِيبُ عَلَى حُسْنِ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ فَهُوَ قَلْبٌ مَيِّتٌ. وَأَيُّ عَيْنٍ لَا تَهْمُلُ عَلَى حُسْنِ الصَّوْتِ إِلَّا عَيْنُ غَافِلٍ أَوْ لَاهٍ؟". ومنهم مَن كانت لذتُه في ذِكْرِ ربِّه وحبِّه، قال أبو حازمٍ: "مَا تَلَذَّذَ الْمُتَلَذِّذُونَ وَلَا تَنَعَّمَ الْمُتَنَعِّمُونَ بِمِثْلِ حُبِّ اللهِ وَذِكْرِ الله". بل كان استشعارُهم بحِباء اللهِ لهم نعمةَ الإسلامِ أعظمَ ما تقرُّ به عيونُهم. قال عونُ بنُ عبدِاللهِ: "إنّ من أعظمِ الخيرِ أنْ ترى ما أُوتيتَ من الإسلامِ عظيمًا عند ما زُويَ عنك من الدنيا". قال ابنُ القيمِ: "وَلَوْلَا جهلُ الأكثرين بحلاوةِ هَذِه اللَّذَّةِ

وَعِظَمِ قدْرِهَا؛ لتجالدوا عَلَيْهَا بِالسُّيُوفِ، وَلَكِن حُفَّتْ بحجابٍ من المكارهِ، وحُجِبوا عَنْهَا بحجابٍ من الْجَهْلِ؛ لِيختصَّ اللهُ لَهَا من يَشَاءُ من عبادِهِ، وَاللهُ ذُو الْفضلِ الْعَظِيمِ".

الخطبة الثانية

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.
أما بعدُ: فاعلموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيها المؤمنون!

وثمَّـةَ فـرحٌ دالٌّ علـى وَهـاءِ الإيمـانِ في القلـبِ، وتعرُّضِـه لخطرٍ قـد يَجتـاحُ أصلَـه؛ ذلكـم الفـرحُ بتيسُّـرِ الذنـبِ ومقارفتِـه، ومـا يـدلُّ عليـه مـن الاستبشـارِ بـه، والمجاهـرةِ والتحـدثِ بـه، وتزيينِـه للنـاسِ، وذلـك مـن أشـدِّ الأمـورِ خطـرًا علـى صحـةِ الإيمـانِ؛ إذ كيـف يَجتمـعُ صـدقُ إيمـانٍ بـاللهِ مـع محبـةِ مـا يبغضُـه ويَنهـى عنـه؟! وذلـك لا يعنـي العصمـةَ مـن مقارفـةِ الذنـبِ؛ إذ ذاك لازمٌ كلَّ بشـرٍ، ولكـنَّ الشـأنَ بالفـرحِ بذلـك الأمـرِ المذمـوم. قـال رسـولُ اللهِ صلـى الله عليـه وسـلم: "كُلُّ أُمَّتِـي مُعَافًـى إِلَّا الْمُجَاهِرِيـنَ، وَإِنَّ مِـنَ الْمُجَاهَـرَةِ أَنْ يَعْمَـلَ الرَّجُـلُ بِاللَّيْـلِ عَمَـلًا، ثُـمَّ يُصْبِـحَ وَقَـدْ ستره الله، فَيَقُـولَ: يَـا فُـلَانُ، عَمِلْـتُ الْبَارِحَـةَ كَـذَا وَكَـذَا، وَقَـدْ بَـاتَ يَسْـتُرُهُ رَبُّـهُ، وَيُصْبِـحُ يَكْشِـفُ سِـتْرَ الله عنـه" رواه البخـاريُّ ومسـلمٌ. قـال العلمـاءُ:"وفي المجاهـرةِ بالمعاصـي استخفافٌ بحـقِّ اللهِ وحـقِّ رسـولِه، وضـربٌ مـن العنـادِ لهمـا؛ فلذلـك قـال -عليـه السـلامُ-: "كلُّ أمتـي معـافى إلا المجاهريـن"". قـال يونـسُ بـنُ العـوامِ: "كان يُقـال: الابتهـاجُ بالذنـبِ أشـدُّ مـن ركوبـه". وقـال ابـنُ القيـمِ: "الْفَـرَحُ بِالْمَعْصِيَـةِ دَلِيـلٌ عَلَـى شِـدَّةِ الرَّغْبَـةِ فِيهَـا، وَالْجَهْـلِ بِقَـدْرِ مَـنْ عَصَـاهُ، وَالْجَهْـلِ بِسُـوءِ عَاقِبَتِهَـا وَعِظَـمِ خَطَرِهَـا، فَفَرَحُـهُ بِهَـا غَطَّـى عَلَيْـهِ ذَلِـكَ كُلَّـهُ، وَفَرَحُـهُ

بِهَا أَشَدُّ ضَرَرًا عَلَيْهِ مِنْ مُوَاقَعَتِهَا. وَالْمُؤْمِنُ لَا تَتِمُّ لَهُ لَذَّةٌ بِمَعْصِيَةٍ أَبَدًا، وَلَا يَكْمُلُ بِهَا فَرَحُهُ، بَلْ لَا يُبَاشِرُهَا إِلَّا وَالْحُزْنُ مُخَالِطٌ لِقَلْبِهِ، وَلَكِنَّ سُكْرَ الشَّهْوَةِ يَحْجُبُهُ عَنِ الشُّعُورِ بِهِ، وَمَتَى خَلَا قَلْبُهُ مِنْ هَذَا الْحُزْنِ، وَاشْتَدَّتْ غِبْطَتُهُ وَسُرُورُهُ فَلْيَتَّهِمْ إِيمَانَهُ، وَلْيَبْكِ عَلَى مَوْتِ قَلْبِهِ؛ فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ حَيًّا لَأَحْزَنَهُ ارْتِكَابُهُ لِلذَّنْبِ، وَغَاظَهُ وَصَعُبَ عَلَيْهِ، وَلَا يُحِسُّ الْقَلْبُ بِذَلِكَ، فَحَيْثُ لَمْ يُحِسَّ بِهِ فَمَا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِيلَامٌ. وَهَذِهِ النُّكْتَةُ فِي الذَّنْبِ قَلَّ مَنْ يَهْتَدِي إِلَيْهَا أَوْ يَنْتَبِهُ لَهَا، وَهِيَ مَوْضِعٌ مَخُوفٌ جِدًّا، مُتَرَامٍ إِلَى هَلَاكٍ إِنْ لَمْ يُتَدَارَكْ بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: خَوْفٍ مِنَ الْمُوَافَاةِ عَلَيْهِ قَبْلَ التَّوْبَةِ، وَنَدَمٍ عَلَى مَا فَاتَهُ مِنَ اللهِ بِمُخَالَفَةِ أَمْرِهِ، وَتَشْمِيرٍ لِلْجِدِّ فِي اسْتِدْرَاكِهِ".

ذاكم –يا عبادَ اللهِ– قَبَسٌ مِن سَنا سرورِ الحسنةِ ولذَّةِ إيمانِها؛ فارقبوه في طاعاتِكم!

قسمًا بربِّك إنَّ لذةَ طاعةٍ ... لَتَفُوقُ لذاتِ الحُطامِ الفاني

أعظمُ نعيمٍ

الحمـدُ للهِ ذي الفضـلِ والإحسـانِ، والجـودِ والامتنـانِ؛ عـمّ بجـودِه الأنـامَ، ودعاهـم برحمتِـه إلـى دارِ السـلامِ، أحـقِ مـن عُبـدَ، وأجـلّ مَـن ذُكـر، وأرأفِ مَـن مَلَك،وأنصـرِ مـن ابتُغـيَ، وأسـمعِ مَـن دُعـي، وأجـودِ مـن أعطـى، وأعـدلِ مَـن قضـى. وأشـهدُ ألا إلـهَ إلا اللهُ وحـدَه لا شـريكَ لـه، وأشـهدُ أن محمـداً عبـدُه ورسولُه، صلى اللهُ عليه وعلى آلِه وصحبِه وسلمَ تسليماً كثيراً إلى يومِ الدينِ.

أمّا بعدُ، فاتّقوا اللهَ — عبادَ اللهِ -، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ... ﴾.

أيّها المؤمنونَ!

الجنةُ نعيـمٌ دائـمٌ؛ لا يعتريـهِ وكـسٌ، ولا انقطـاعٌ، ولا كَـدرٌ بوجـهٍ مـن الوجـوهِ، قـد صَفـتْ مـن المـرضِ، والأذى، والهـرَم، والسُّـباتِ، وسـدفةِ اللّيـلِ، كمـا قـال اللهُ ـ تعالـى-: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۚ﴾، وقـال رسـولُ اللهِ ﷺ: "يُنَادِي مُنَـادٍ: إِنَّ لَكُـمْ أَنْ تَصِحُّـوا؛ فَـلَا تَسْـقَمُوا أَبَـدًا، وَإِنَّ لَكُـمْ أَنْ تَحْيَـوْا؛ فَـلَا تَمُوتُـوا أَبَـدًا، وَإِنَّ لَكُـمْ أَنْ تَشِـبُّوا؛ فَـلَا تَهْرَمُـوا أَبَـدًا، وَإِنَّ لَكُـمْ أَنْ تَنْعَمُـوا؛ فَـلَا تَبْأَسُـوا أَبَـدًا ؛ فَذَلِـكَ قَوْلُـهُ عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾" رواه مسـلمٌ. وأقـلُّ نعيمِهـا عشـرةُ أضعـافِ أعظـمِ نعيـمِ أهـلِ الأرضِ قاطبـةً؛ وِفـقَ خـبرِ النبـيِّ ﷺ. أمـا أعظـمُ النعيـمِ، وأجـلّ التّكريـمِ، الـذي لأجلِـه

ثَبتَ الإيمانُ، وصُدِّق الغيبُ، وأُزهقتْ في سبيلِ اللهُ المُهَجُ، وذَرفتِ العيونُ، وكُوبِدتِ الأسحارُ، وسَخَتِ الأيادِي بالنّفقاتِ، وتَعالتِ النفوسُ عن الحُظوظِ، وهُجرتِ الشَّهواتُ؛ فذاكَ نعيمُ رؤيةِ وجهِ الكريمِ — سبحانَه -.

واللهِ لـولا رؤيةُ الرحمنِ في الـ	ـجنّاتِ ما طابتْ لذي العرفانِ
أعلى النعيمِ نعيمُ رؤيةِ وجهِه	وخطابُـه في جنـةِ الحيـوانِ
وأشدُّ شيءٍ في العذابِ حجابُه	سـبحانَه عن سـاكنِي النيرانِ

فمُنتهَى أملِ المؤمنِ، وغايةُ قصدِه، ومُنى عينِه أن يظفرَ برؤيةِ وجهِ ربِّه الذي خشَاه في غيبِه ومشهدِه مع عدمِ رؤيتِه، وخاف الرجوعَ إليه والوقوفَ بين يديْه، ورجا الزُلفَى عنده والوِفادةَ إليه ، ورأى في حياتِه عظيمَ منّتِه، وجليلَ صنعِه، وقديمَ إحسانِه، وتجدُّدَ آلائه، ولطيفَ حفظِه. سنونَ مضتْ، أوْدع فيها من صالحاتِ العملِ ما يرجو به لقاءَ ربِّه، والتنعُّمِ برؤيةِ وجهِه، والتلذُّذِ بالاستماعِ لخطابِه في الجنةِ، لا حرمَنا اللهُ ذلكَ بفضلِه! قال الحسنُ البصريُّ: "لو علم العابِدون في الدّنيا أنهم لا يرَوْن ربَّهم في الآخرةِ لذَابتْ أنفسُهم في الدّنيا"، وقال الشافعيُّ: "لو لم يوقنْ محمدُ بنُ إدريسَ — يعني نفسَه — أنه يرى اللهَ لما عبَدَ اللهَ — عزّ وجلّ —"، وقال أبو موسى الدارانيّ: "أيَّ شيءٍ أراد أهلُ المعرفةِ؟ والله ما أرادُوا إلا ما سأل موسى —عليه السلامُ -!"، أي: حينَ قال لربِّه: ﴿أَرِنِىٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾.

عبادَ اللهِ!

إن اعتقادَ أهلِ السُّنةِ والجماعةِ راسخٌ على إثباتِ رؤيةِ المؤمنين ربَّهم — سبحانَه — في عَرَصاتِ القيامةِ، وفي الجنةِ، كما قال اللهُ — تعالى -: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، قال أبو سليمانَ الداراني: " "لو لم يكنْ لأهلِ المعرفةِ إلا هذه الآيةُ الواحدةُ لاكتفوْا بها ". وقال اللهُ — جلّ وعلا -: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾؛ لمّا حجبَ أعداءَه عن رؤيتِه حينَ سخَط عليهم؛ أكرمَ أولياءَه برؤيتِه؛ لرضَاه عنهم. وقال اللهُ — سبحانَه -: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾، وقد فسّر النبيُّ ﷺ الزيادةَ بأنها النظرُ إلى وجهِ اللهِ — تعالى-.

أما تفاصيلُ تلكَ الرؤيةِ؛ زمنًا، ومكانًا، وكيفيّةً، فقد جلّاها رسولُ اللهِ ﷺ ي أحاديثَ عدةٍ؛ فرؤيةُ المؤمنين لربِّهم في عرَصَاتِ القيامةِ بيّنَها حديثُ أبي هريرةَ — رضي اللهُ عنه —: أن أُناسًا قالوا: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ القِيَامَةِ؟ فقَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ (أي: يضرّ بعضُكم بعضًا بالزحام) فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟» قَالُوا: لاَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ لَيْس دُونَهُ سَحَابٌ؟» قَالُوا: لاَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: "فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ كَذَلِكَ، يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ، فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْهُ، فَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ القَمَرَ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ، وَتَبْقَى هَذِهِ الأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقُوهَا، فَيَأْتِيهِمُ اللهُ فِي غَيْرِ الصُّورَةِ الَّتِي يَعْرِفُونَ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ، هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِينَا رَبُّنَا، فَإِذَا

أَتَانَا رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ، فَيَأْتِيهِمُ اللهُ فِي الصُّورَةِ الَّتِي يَعْرِفُونَ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا فَيَتْبَعُونَهُ" رواه البخاريُّ ومسلمٌ. وعلامةُ معرفةِ المؤمنين ربَّهم في ذاك الموضعِ أوضحها رسولُ اللهِ ﷺ ي قولِه: "فَيَأْتِيهِمُ الجَبَّارُ فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا، فَلاَ يُكَلِّمُهُ إِلَّا الأَنْبِيَاءُ، فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ تَعْرِفُونَهُ؟ فَيَقُولُونَ: السَّاقُ، فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ، فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ، وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ كَيْمَا يَسْجُدَ، فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا" رواه البخاريُّ.

أيّها المسلمون!

ورؤيةُ اللهِ — جلّ وعلا — في الجنةِ لا يمنعُ منها إلا رداءُ الكبرياءِ على وجهِه — تباركَ وتقدَّس -، كما قال النبيُّ ﷺ: «جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا، وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا، وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ» رواه مسلمٌ. وكشفُ ذلك الحجابِ بيّنه رسولُ اللهِ ﷺ في قولِه " إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ - عَزَّ وَجَلَّ - " ثم تلا رسولُ اللهِ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ رواه مسلمٌ. وسأل أبو رزينٍ — رضي اللهُ عنه — رسولَ اللهِ ﷺ، فقال:: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَرَى اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ وَمَا آيَةُ ذَلِكَ فِي خَلْقِهِ؟ قَالَ: «يَا أَبَا رَزِينٍ، أَلَيْسَ كُلُّكُمْ يَرَى الْقَمَرَ مُخْلِيًا بِهِ؟»، قَالَ: قُلْتُ:

بَلَى، قَالَ: «فَاللهُ أَعْظَمُ، وَذَلِكَ آيَةٌ فِي خَلْقِهِ» رواه ابنُ ماجه وحسنه الألبانيُّ.

أوَ ما سمعتَ مناديَ الإيمانِ يخـ ـبرُ عن منادِي جنةِ الحيوانِ
يا أهلَها لكمُ لدى الرحمنِ وعـ ـدٌ وهو منْجِزُه لكم بضَمانِ
قالوا أمَا بيضْتَّ أوجُهَنا كذا أعمالَنا أثقلتَ في الميزانِ
وكذاك قد أدخَلتَنا الجنّاتِ حيـ ـن أجرْتَنا منْ مدخلِ النِّيرانِ
فيقولُ عندي موعدٌ قد آنَ أن أعطِيكُموهُ برحمتِي وحنانِي
فيرَوْنَه من بعدِ كشفِ حجابِه جهراً رَوى ذا مسلمٌ ببيانِ
وإذْ رآه المؤمنون نسُوا الذي هم فيه ممّا نالتِ العينانِ
فإذا توارَى عنهمُ عادُوا إلى لذاتِهم من سائرِ الألوانِ
فلهمْ نعيمٌ عند رؤيتِه سوى هذا النعيمِ فحبَّذا الأمرانِ
أوَ ما سمعتَ سؤالَ أعرفِ خلقِه بجلالِه المبعوثِ بالقرآنِ
شوقاً إليه ولذةَ النظرِ التي بجلالِ وجهِ الربِّ ذي السلطانِ
فالشوقُ لذةُ روحِه في هذه الـ ـدنيا ويومَ قيامةِ الأبدانِ
تلتذّ بالنظرِ الذي فازتْ به دونَ الجوارحِ هذه العينانِ
واللهِ ما في هذه الدُّنيا ألذُّ من اشتياقِ العبدِ للرحمنِ
وكذاك رؤيةُ وجهِه سبحانَه هي أكملُ اللذاتِ للإنسانِ

عبادَ اللهُ!

إن لأهـلِ الجنـةِ موعـداً كلَّ جمُعةٍ يـروْن فيه ربَّهـم، يقـولُ ابنُ مسعودٍ — رضي اللهُ عنه -: "إن اللهَ يـبرزُ لأهـلِ الجنـةِ في كلِّ جمُعةٍ في كثيبٍ من كافورٍ أبيضَ" رواه الدارَقُطنيُّ وصححه شيخُ الإسلامِ.وأفضلُهم منزلـةً مَن يُكـرَم برؤيـةِ ربِّه مرتيـنِ كلَّ يومٍ، كما قال رسولُ اللهِ — ﷺ —: "إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً لَمَنْ يَنْظُرُ فِي مُلْكِهِ أَلْفَ سَنَةٍ، وَإِنَّ أَفْضَلَهُمْ مَنْزِلَةً لَمَنْ يَنْظُرُ فِي وَجْهِ رَبِّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - فِي كُلِّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ" رواه الطبريُّ وصحَّحه الحاكمُ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
وبعدُ، فاعلموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنون!

إن للظفَر برؤيـةِ اللهِ — تعالى — سبلاً أبانَها الوحيُ المصونُ، فمَن رام إدراكَ ذاكَ النعيـمَ فلْيسلكْ تلك السُّبُلِ. وأجلُّ هـذه السبلِ توحيدُ اللهِ وطلبُ الوسيلةِ إليه بالعملِ الصالحِ، كما قال جلّ شأنُه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾، قال عبدُاللهِ بنُ المباركِ: "مَن أراد النظرَ إلى وجهِ خالقِه، فليعملْ صالحاً، ولا يشركْ به أحداً". وحين يعبدُ العبدُ ربَّه بمقامِ الإحسانِ؛ بأنْ يعبدَ اللهَ كأنه يراه فإن لم يكنْ يراه فإنه يراه، ويُحسِنَ إلى عبادِه بكفِّ الشرّ عنهم وبذلِ الخيرِ لهم؛ فإنه موعودٌ بالنظرِ إلى ربِّه، كما قال سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾. وشدةُ الحرصِ على صلاتيْ الفجرِ والعصرِ وسيلةٌ للفوزِ بتلكَ النظرةِ، قال جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ — رضي اللهُ عنه -: "كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَظَرَ إِلَى القَمَرِ لَيْلَةً - يَعْنِي البَدْرَ -، فَقَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ، لاَ تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لاَ تُغْلَبُوا عَلَى صَلاَةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾"، قَالَ إِسْمَاعِيلُ — أحدُ رواةِ الحديثِ -: «افْعَلُوا؛ لاَ تَفُوتَنَّكُمْ» رواه البخاريُّ. والتبكيرُ

إلى صلاةِ الجمُعةِ من سُبلِ إدراكِ ذاكَ النعيمِ، قال عبدُاللهِ بنُ مسعودٍ — رضي اللهُ عنه -: "«سَارِعُوا إِلَى الْجُمُعَةِ؛ فَإِنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - يَبْرُزُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ فِي كُلِّ يَوْمِ جُمُعَةٍ فِي الْكُثُبِ مِنْ كَافُورٍ أَبْيَضَ، فَيَكُونُونَ فِي الدُّنُوِّ مِنْهُ عَلَى قَدْرِ مُسَارَعَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا إِلَى الْجُمُعَةِ، فَيُحْدِثُ لَهُمْ مِنَ الْكَرَامَةِ شَيْئًا لَمْ يَكُونُوا رَأَوْهُ فِيمَا خَلَا»، وكَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ لَا يَسْبِقُهُ أَحَدٌ إِلَى الْجُمُعَةِ — رواه الدارَقُطنيُّ وصحَّحه شيخُ الإسلامِ، وقال: "مثلُ هذا لا يُقالُ بالرَّأي، وإنما يُقالُ بالتّوقيفِ" -. والجؤارُ إلى الكريمِ — سبحانَه - بطلبِ ذاكَ النعيمِ من أعظمِ سبلِ دَرَكِه؛ فقد كان ذا هِجّيرى النبيّ ﷺ ي دعائه؛ فقد كان من عظيمِ سؤلِه: "وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ" رواه النّسائيّ وصحّحه الحاكمُ.

أيّها الأحبة!

إن من سمَتْ نفسُه بطلبِ رؤيةِ وجهِ اللهِ — سبحانَه -، وكَلَفَتْ روحُه بالاشتياقِ إليه؛ تنزّه عمّا قد يحولُ بينه وبين ذاكَ النعيمِ، ولم يُسلمْ قيادَه لضلالِ عقيدةٍ تنفي رؤيةَ وجهِ اللهِ أو تحرّفُه عن حقيقتِه، ولم يعُدْ أسيراً لنظرةٍ محرّمةٍ قد تحرمُه لذةَ النظرِ إلى ربِّه جزاءً من جنسِ ما عملَ.

الفِرْدَوْسُ

إنّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مضلّ له، ومن يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ.... ﴾.

أيّها المؤمنون!

إنّ من أربَى مقاماتِ النفسِ وأجلّها قدراً وأرفعِها ذكراً وأنفعِها عملاً مقامَ الهمّةِ العليّ، وذاكَ أنْ يكونَ محطُّ نظرِ المرءِ في الخيرِ أعلاهُ؛ فلا يرتضي المفضولَ مع قدرتِه على الفاضلِ، ولا يقنعُ بقليلِه وقد أمكنَه الكثيرُ، سمتْ نفسُه عن التُّرهاتِ والسّفاسفِ؛ فلم تقنعْ بما دونَ النجومِ.

ولم أرَ في عيوبِ الناسِ نقصًا كنقصِ القادرينَ على التّمامِ

هكذا تجدُه مترقِّياً في سُلّمِ السموِّ ممتثلاً محبةَ مولاهُ؛ إذْ يقولُ الرسولُ ﷺ: "إنّ اللهَ تعالى يحبُّ معاليَ الأمورِ وأشرافَها" رواه الطبرانيُّ، وصحّحه الألبانيُّ. وما زالتْ به الهمّةُ في الصُّعُد حتى انتهتْ به إلى طلبِ خيرِ النُّزلِ؛ فكانتِ الجنةُ مَطلبَه، ومُنتهى أملِه، والهمّةُ تحدوهُ إلى الظَّفَرِ بأعلى منازلِها، حينَ جعلَ الفردوسَ نُصبَ العينِ وقبلةَ القلبِ ومَهوى الفؤادِ.

معاشرَ الإخوةِ!

الفـردوسُ أشـرفُ منازلِ الجنةِ، وأعلـى درجاتِهـا، وخيرُ نعيمِهـا؛ فليس فوقَه إلا عـرشُ الرحمـنِ، مـن الفـردوسِ تتفجّـرُ أنهارُ الجنـةِ، وليس المَنبـعُ كالمجرَى، يقـولُ النبـيُّ ﷺ: "إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ، وَأَعْلَى الجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ" رواه البخـاريُّ. ولمـا أُصِيبَ حَارِثَةُ يَوْمَ بَدْرٍ وَهُوَ غُلاَمٌ، جَاءَتْ أُمُّهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ عَرَفْتَ مَنْزِلَةَ حَارِثَةَ مِنِّي، فَإِنْ يَكُنْ فِي الجَنَّةِ أَصْبِرْ وَأَحْتَسِبْ، وَإِنْ تَكُ الأُخْرَى تَرَى مَا أَصْنَعُ، فَقَالَ: «وَيْحَكِ، أَوَهَبِلْتِ، أَوَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ، إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّهُ فِي جَنَّةِ الفِرْدَوْسِ» رواه البخـاريُّ، وفي روايـةِ الترمـذيِّ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أُمَّ حَارِثَةَ إِنَّهَا جِنَانٌ فِي جَنَّةٍ، وَإِنَّ ابْنَكِ أَصَابَ الْفِرْدَوْسَ الأَعْلَى، وَالْفِرْدَوْسُ رَبْوَةُ الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُهَا وَأَفْضَلُهَا»، والفـردوسُ موطـنُ الأنبيـاءِ في الجنـةِ، فقـد دعـا ابـنُ مسـعودٍ والنبـيُّ ﷺ يسـمعُه فقـال: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ إِيمَانًا لاَ يَرْتَدُّ، وَنَعِيمًا لاَ يَنْفَدُ، وَمُرَافَقَةَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ فِي أَعْلَى جَنَّةِ الْخُلْدِ" رواه أحمدُ وصحّحه ابنُ حِبانَ. والفردوسُ نـزلُ أعـدّه اللهُ للأصفيـاءِ بيدِه، فقـد سـأل موسـى عليـه السـلامُ ربَّـه عـن أعلـى أهـلِ الجنـةِ منزلـةً، فقـال اللهُ سبحانَه: "أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ" رواه مسلمٌ.

أيّها الأحبةُ!

إنّ طريقَ تحصيلِ الفردوسِ قد أبانَه اللهُ جلّ وعلا في صدرِ سورةِ "المؤمنونَ" في ستِّ خصالٍ تتحققُ في المؤمنِ، وتغدو صفةً غالبةً في حياتِه، يُلحظُ فيها مُراعاةُ العلاقةِ مع اللهِ والنفسِ والخَلقِ.

أُولَى هذه الصفاتِ: الخشوعُ في الصلاةِ:

يقولُ اللهُ تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ﴾، فقلوبُهم في صلاتِهم حاضرةٌ، وجوارحُهم ساكنةٌ، وطرفُهم للهِ منكسرٌ، استشعرُوا قربَ مولاهُم، ونظرَه إيّاهم، وعلمَه بسرائرِهم، ومردَّهم إليه؛ فذلّتْ نفوسُهم له، واطْمأنّتْ قلوبُهم بذكرِه، وكانتْ قرةُ عينِهم في وقوفِهم بالصلاةِ بين يديْ خالقِهم، فلا لذةَ تعدلُ تلكَ اللذةَ التي بها تحمَّلوا مفارقةَ الرغباتِ واصطَّبروا على طولِ القيامِ، ولو تفطّرتِ الأقدامُ.

وثاني صفاتِ ورثةِ الفردوسِ: الإعراضُ عن اللّغوِ:

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾، فليس لهم تعاملٌ مع اللّغوِ والعبثِ الذي لا فائدةَ منه إلا بالإعراضِ أيّاً كان هذا اللغوُ؛ فِعلاً أو قولاً أو موقفاً أو مكاناً أو موقعاً أو قناةً، فالهمّةُ العاليةُ ترفعُهم عن غشيانِ هذه التُّرَّهاتِ، وتمنعُهم من الوقوفِ عندَها إلا فيمَا يجِمّون أنفسَهم بما لا مأخذَ فيه؛ لتنشطَ في الخيرِ؛ فقد قال وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ: "إِنَّ فِي حِكْمَةِ آلِ دَاوُدَ: حَقٌّ عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ لَا يَغْفَلَ عَنْ أَرْبَعِ سَاعَاتٍ، سَاعَةٍ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَسَاعَةٍ يُحَاسِبُ

فِيهَا نَفْسَهُ، وَسَاعَةٍ يُفْضِي فِيهَا إِلَى إِخْوَانِهِ الَّذِينَ يُخْبِرُونَهُ بِعُيُوبِهِ، وَيَصْدُقُونَهُ عَنْ نَفْسِهِ، وَسَاعَةٍ يُخَلِّي بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ لَذَّاتِهَا فِيمَا يَحِلُّ وَيَجْمُلُ، فَإِنَّ هَذِهِ السَّاعَةَ عَوْنٌ عَلَى هَذِهِ السَّاعَاتِ، وَإِجْمَامٌ لِلْقُلُوبِ". هذا حالُهم مع اللّغوِ، فكيف بحالِهم مع الحرامِ؟!

وثالثُ صفاتِ ورثةِ الفردوسِ: التّزْكِيَةُ:

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾، زكّوا نفوسَهم من سفاسفِ الأخلاقِ ودَناءاتِ النفوسِ وأمراضِها، وأدُّوا زكاةَ أموالِهم طيِّبةً بها نفوسُهم؛ فكانتْ زكاتُهم زكاتَهم.

ورابعُ صفاتِ ورثةِ الفردوسِ: حفظُ الفروجِ:

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾ حفِظوا العَوْراتِ بالسِّترِ والعفَّةِ، فلم تُرَ ولم تُلمَسْ إلا بما أباحَ اللهُ في النِّكاحِ والتَّسرِّي، ولم يُبهَروا بمفاتنِ المُوضاتِ التي دارَ قُطْبُ رحَاها على حَسْرِ الغطاءِ عن سِترِ ما أوجبَ اللهُ سِترَه، وجعلُوا بينهم وبين الفواحش حمىً مانعاً من الاقترابِ فضلاً عن الوُلوجِ فيها حينَ غضُّوا أبصارَهم عن رؤيةِ ما حرَّمَ عليهم.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ وكفَى، وصلاةً وسلامًا على رسولِه المُصطَفى، وبعدُ:

أيّها المسلمون!

وخامسُ صفاتِ الفردوسِ: رعايةُ الأمانةِ والعهدِ:

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾، فهؤلاءِ الأبرارُ رُعاةُ الأمانةِ والعهودِ، سواءً كانتْ مع اللهِ سبحانَه أو مع الخلقِ، فكلُّ ما أوجبَه اللهُ على العبدِ أمانةٌ يأتمنُه عليها وإنْ كانتْ غُسلَ جنابةٍ أو استنجاءً من حدثٍ أو إفصاحًا عن عِدَّةٍ، وهكذا تتّسعُ دائرةُ الأمانةِ؛ لتشملَ تعاملَ الخلقِ مع بعضِهم؛ فتُصانَ أماناتُ الأموالِ والأسرارِ والحقوقِ. وكذلك تُرعى العهودُ والمواثيقُ التي يعقدُها العبدُ مع ربِّه جلّ وعلا أو مع خلقِه، فيُوفَى النذرُ، وتُصدّقُ التوبةُ، ويُعطَى الأجيرُ أجرَه قبل جفافِ عرَقِه، ويُنصحُ في الوَظيفةِ، ويُنفَّذُ العقدُ دونَ غشٍّ أو تأخيرٍ.

هذا، وإنّ رعايةَ أولئكَ الأبرارِ للأمانةِ والعهودِ مطَّردَةٌ ثابتةٌ لا تتغيّرُ بخيانةِ مَن تعامَلوا معه، مُمتَثلينَ في عهودِهم أمرَ اللهِ إذْ يقولُ: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾، وفي أماناتِهم قولَ النبيِّ ﷺ: "أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ" رواه أبو داودَ وصحّحه ابنُ حِبانَ والحاكمُ.

وسادسُ الصّفاتِ وهو مرتبطٌ بأولِّها: المحافظةُ على الصّلاةِ:

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾، فيرقُبونَ في صلاتِهم الوقتَ والشروطَ والأركانَ والواجباتِ، ويأتونَ بالنّوافلِ ترقيعاً للخَللِ وجبراً للنَّقصِ، فلهم مع الصّلاةِ وصفانِ لا تتمُّ الصَّلاةُ إلا بهما؛ الخشوعُ والمحافظةُ.

وبعدُ، معشرَ الإخوةِ!

هذا نُزلُ الفردوسِ، وتلكَ سبلُ تحقُّقِه، ألا فلْنصدقِ العزمَ في الطلبِ، ولْنتوكلْ على اللهِ في الوصولِ، ولْنجاهدْ أنفسَنا في مُلازمةِ تلكَ الخِصالِ؛ فمَن جاهدَ هُدي ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

آكلةُ الديانةِ

إن الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا، وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مضلّ له، ومَن يضللْ فلا هاديَ له،وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعد، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم... ﴾

أيّها المؤمنون!

صيانةُ الأصولِ شأنُ العقلاءِ، وتضييعُها أمارةُ سَفَهٍ بلجاءُ. ذاك عُرْفُ الناسِ في أمرِ دُنياهم الفَانِي؛ كيف بأمرِ الديانةِ التي عليها مَعقَدُ الجزاءِ يومَ الدينِ؟! والنُّزلِ عند ربِّ العالمين؟! فالدينُ أعزُّ ما حِيزَ، وأعظمُ ما رُعِي، وأوجبُ ما نُمّي. وذاك يسْتدعِي من المؤمنِ يقظةً في تبصّرِ مُفسداتِ دينِه ومُنقصاتِه، وسعيَه في حمايتِه عنها، وتخليصِه منها. ألا وإن أشدَّ هذه المفسداتِ فتكاً في ربيعِ الديانةِ النّضِر، وأمضَّها استئصالاً لحيائِها، وإذهابِ بهائها، آفتانِ وَصَفَ النبيُّ ﷺ شؤمَ إفسادِها لدينِ ذي الدينِ بتشبيهٍ حسيٍّ، يقشعرُّ البدنُ من بالغِ خطرِه، وتذرِفُ العينُ من جليلِ أثرِه؛ كيف بضعيفِ الديانةِ؟! يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ المَرْءِ عَلَى المَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ» رواه أحمدُ والترمذي وقال: حسن صحيح، وفي روايةِ البزّارِ: "مَا ذِئْبَانِ ضَارِيَانِ فِي حَظِيرَةٍ يَأْكُلانِ وَيُفْسِدَانِ بِأَضَرَّ فِيهَا مِنْ حُبِّ الشَّرَفِ وَحُبِّ الْمَالِ فِي دِينِ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ"، وعند أبي يعلى: «مَا ذِئْبَانِ ضَارِيَانِ

جَائِعَانِ فِي غَنَمٍ افْتَرَقَتْ، أَحَدُهُمَا فِي أَوَّلِهَا، وَالْآخَرُ فِي آخِرِهَا، بِأَسْرَعَ فَسَادًا مِنِ امْرِئٍ فِي دِينِهِ يُحِبُّ شَرَفَ الدُّنْيَا وَمَالَهَا». يا للهِ! فتكٌ عريضٌ في خزانةِ العملِ الصالحِ بآفةِ الشَّرَهِ في حبِّ المالِ والجاهِ، فاقَ فتكَ ذئبينِ ضامرينِ تعاقَبا في أغنامٍ وَديعةٍ حُجِرت في حظيرةٍ خليَّةٍ من الرِّعاءِ؛ فلم تُنصَر بقوةٍ! أو تنعمْ بهربٍ! وما سببُ ذاك الفتكِ إلا ما حواه الشَّرهُ من شرٍّ مستطيرٍ، يعمَى به القلبُ، وتحتوشُه الأهواءُ؛ ويَرِقُّ الدينُ، ويُستباحُ الحرامُ، وتُؤثَرُ حظوظُ النفسِ، ويُتكلّفُ التأويلُ لإضفاءِ المشروعيّةِ في ذلك كلِّه؛ فيظلُّ المفتونُ سادراً في غَيِّه، لا يلوي على حقٍّ، ولا يرْعوِي عن باطلٍ، والآكلةُ تفري دينه وهو لا يشعر!

أيّها المسلمون!

إن الشَّرهَ في طلبِ المالِ والجاهِ، وشدةَ الحرصِ عليهما، والكلَفَ بهما طمعٌ يسترقُّ القلبَ؛ فيكونُ لهما عبداً رقيقاً، ولكلِّ سبب يُفضِي لهما. ولذا قيلَ: "الطمعُ غَلٌّ فِي الْعُنُق، قيدٌ فِي الرِّجل، فَإِذا زَالَ الغَلُّ من الْعُنُق زَالَ الْقَيْد من الرِّجل". وقال عمرُ بنُ الخطّابِ — رضي اللهُ عنه -: "الطمعُ فقرٌ، واليأسُ غِنىً، وَإِن أحدكُم إِذا يئسَ من شيءٍ اسْتغْنى عَنهُ"، وَقَالَ: "مَا شَيْءٌ أَذْهَبُ لِعُقُولِ الرِّجَالِ مِنْ الطَّمَعِ"، وإن بلغَ ما بلغَ؛ فقد قال كعبُ الأحبارِ — رحمه اللهُ -: "الصَّفَا الزُّلْزُلُ الَّذِي لَا تَثْبُتُ عَلَيْهِ أَقْدَامُ الْعُلَمَاءِ الطَّمَعُ"، وسُئلَ: مَا يُذْهِبُ الْعِلْمَ مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ بَعْدَ أَنْ عَلِمُوهُ؟ قَالَ: الطَّمَعُ، وَطَلَبُ الْحَاجَاتِ إِلَى النَّاس.

أطعتُ مَطامِعي فاستعْبدتْني وَلَو أَنِّي قنِعتُ لَكُنْتُ حرًّا

عبادَ اللهِ!

إنما يُذَمُّ الحرصُ في طلبِ المالِ، ويكونُ له شؤمُ الأثرِ، إن كان بمبالغةٍ وهمٍّ غالبٍ على الفكرِ. قال ابنُ رجبٍ — رحمه اللهُ -: "ولو لم يكنْ في الحرصِ على المالِ إلا تضييعُ العمرِ الشريفِ الذي لا قيمةَ له، وقد كان يمكّنُ صاحبَه اكتسابَ الدرجاتِ العُلى، والنعيمَ المقيمَ، فضيّعَه بالحرصِ في طلبِ رزقٍ مضمونٍ مقسومٍ، لا يأتي منه إلا ما قُدِّر وقُسِم، ثم لا ينتفعُ به، بل يتركُه لغيرِه، ويرتحلُ عنه، ويبقى حسابُه عليه، ونفعُه لغيرِه؛ فيجمعُ لمَن لا يحمدُه، ويقْدمُ على مَن لا يعذرُه؛ لكَفاه بذلك ذمّاً للحرصِ" أهـ.

لَا تَحْسُدَنَّ أَخَا حِرْصٍ عَلَى سَعَةٍ وَانْظُرْ إِلَيْهِ بِعَيْنِ الْمَاقِتِ الْقَالِي
إِنَّ الْحَرِيصَ لَمَشْغُولٌ بِشِقْوَتِهِ عَلَى السُّرُورِ بِمَا يَحْوِي مِنْ الْمَالِ

قيلَ لبعضِ الحكماءِ: إن فلاناً جمعَ مالاً، قال: هل جمعَ عمراً ينفقُه فيه؟ قالوا: لا، قال: ما جمعَ شيئاً!. وإن تمادى الشَّرهُ في المالِ حتى أوْلجَ صاحبَه مساربَ الحرامِ؛ كسباً له، وإنفاقاً فيه، ومنعاً من الحقوقِ، فقد استحكمَ الحرصُ، وجثَمَ على القلبِ الشحُّ، وذاكَ ما لا يجتمعُ معه الإيمانُ، فقد قال رسولُ اللهِ ﷺ: "لَا يَجْتَمِعُ الشُّحُّ وَالْإِيمَانُ فِي قَلْبِ عَبْدٍ أَبَدًا" رواه النّسائيُّ وصحّحه الألبانيُّ. وذاك سببُ هلاكِ الأممِ، يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: «اتَّقُوا الظُّلْمَ؛

فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ؛ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ؛ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ» رواه مسلمٌ. فأيُّ بقاءٍ للدينِ إن وصل المرءُ لهذا الدركِ؟!

أيّها الإخوةُ في اللهِ!

لئن كان هذا شؤمُ الحرصِ المذمومِ على المالِ؛ فشؤمُ الحرصِ على الجَاهِ والاستعلاءِ على الناسِ بالرِّياساتِ والمناصبِ ابتغاءَ الشّرفِ أشدُّ وأنكى؛ إذِ المالُ يُبذلُ في طلبِها. قال شدّادُ بنُ أوْسٍ - رضي اللهُ عنه -: "يا بقايَا العربِ! إنّ أخوفَ ما أخافُ عليكم الرياءُ، والشّهوةُ الخفيّةُ"، قيل لأبي داودَ: ما الشهوةُ الخفيّةُ؟ قال: حبُّ الرئاسةِ. وقال سفيانُ الثوريُّ - رحمه اللهُ -: "رأيناهم يزهَدون في الطّعامِ والشّرابِ واللّباسِ، فإذا نُوزعَ أحدُهمُ الرئاسةَ نَاطَحَ نِطاحَ الكِباشِ". وذاك الحرصُ مانعٌ من صلاحيّةِ تولّيها، والتوفيقِ فيها؛ فقد قال رسولُ اللهِ ﷺ: "إنا لا نولّي أمرَنا هذا مَن سألَه، أو حرصَ عليه" رواه البخاريُّ ومسلمٌ. والعلوُّ حاملٌ صاحبَه على الكبرِ، والظلمِ، وحبِّ المدحِ، وطلبِ الشُّهرةِ، وأيُّ بقاءٍ لدينٍ معها؟! يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾. وأقبحُ أنواعِ هذا العلوِّ أن يطلبَ المرءُ الجاهَ بالأمورِ الدينيّةِ؛ كالعلمِ، والعبادةِ، والدعوةِ، والجهادِ، والصدقةِ؛ فإن أهلَها أولُ مَن تُسعّرُ النارُ بهم يومَ القيامةِ، يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: "إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى

اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ! وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ؛ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ؛ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ! وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ؛ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ؛ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ؛ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ! وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ؛ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ" رواه مسلمٌ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصّلاةُ والسّلامُ على رسولِ اللهِ.

أيّها المؤمنون!

بإدرَاكِ معاقدِ الذمِّ في طلبِ المالِ والجاهِ يُعرفُ ما لا يُذَمُّ منها، وذلك بأن يحرصَ المرءُ في المالِ على الحلالِ دونَ سؤالِ مخلوقٍ أو استشرافٍ وتطلُّعٍ، كما قال رسولُ اللهِ ﷺ: «مَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا المَالِ وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلاَ سَائِلٍ فَخُذْهُ، وَإِلَّا فَلاَ تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ» رواه البخاريُّ ومسلمٌ، ويطلبَ طِيبَ الذكرِ عند الخلقِ بما أباحَ اللهُ، ويرومَ الولايةَ؛ طلباً للإصلاحِ، ونفعِ الناسِ، دونَ بُغيةِ العلوِّ، أو الشّهرةِ، ومنافَسةِ الآخَرينَ، كما سأله الخليلُ — عليه السلامُ — بقولِه: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾، ويوسفُ — عليه السَّلامُ — بقولِه: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾. وحتى يسلمَ المرءُ من تلك الآفتَيْنِ، ولا يختلطَ عليه أمرُ ما يُمدَحُ منها وما يُذَمُّ؛ فإن عليه أن يُنعمَ النظرَ في شؤمِ عُقباها، وفضلِ العافيةِ منها، وأن يجاهدَ النّفسَ في طلبِ السّلامةِ منها، وتنقِيَةِ النيةِ من شوائبِها، ويحاسبَها محاسبةَ الشّريكِ الصَّحيحِ الشَّحيحِ فيما تأتي وتذرُ، وأن يلهجَ بسؤالِ اللهِ النجاءَ منها، ويُدمنَ التفكُّرَ في الدارِ الآخرةِ التي جعلَها اللهُ للذينَ لا يريدُونَ علوّاً في الأرضِ ولا فساداً، وأن يأتيَ بالأعمالِ التي تكسِرُ سَوْرةَ النفسِ في الكَلَفِ بالمالِ والجاهِ، كالصّدقةِ، وخدمةِ الفقراءِ، والقيامِ بشأنِهم، ومُجالسةِ ذوي المسكنَةِ، وتركِ فاخرِ الثِّيابِ

أحيانـًا، وحمـلِ المتاعِ عـن الخـادمِ في أوقـاتٍ، والبعـدِ عـن أسـبابِ الشُّـهرةِ؛ فـذا سـبيلُ النّجـاةِ، والمعصـومُ مَـن عصمَـه اللهُ.

أمـران مفتَرِقـانِ لسـتَ تراهما　　　　يتشَـوَّفانِ لخلطـةٍ وتـلاقِ
طلبُ المعادِ مع الرِّياسةِ والعُلَى　　　　فدعِ الـذي يفْنَـى لمَا هـو باقِ

الاستغفارُ للمؤمنين

إنّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مضلّ له، ومَن يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ...﴾.

أيّها المؤمنون!

إنّ من أبْينِ الربحِ العظيمِ نيلَ المؤمنِ الأجرَ الكبيرَ بالعملِ اليسيرِ؛ فذاكَ من جُللِ حُللِ التّوفيقِ التي يَهدي بها اللهُ مَن سبقتْ له منه الحُسنَى. وإنّ من تلكَ الصّالحاتِ الباقياتِ ما أرشدَ اللهُ إليه أنبياءَه، ودأبتْ عليه ملائكتُه المُسبّحةُ بحمدِهِ، وغدا هِجِّيرَ المؤمنين؛ إذْ قال تعالى آمراً خليلَه المصْطَفى — عليه من ربِّه الصّلاةُ والسّلامُ –، وأمتُه داخلةٌ في خطابِهِ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾. هذا الاستغفارُ الإيمانيُّ العامُّ دعا به نوحٌ — عليه السلامُ — إذْ قال: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾، ودعا به إبراهيمُ — عليه السلامُ — قائلاً: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾، وهو الدّعاءُ الدائبُ لملائكةِ الرحمنِ الحاملةِ لعرشِه والمُقرَّبينَ حولَه، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ

شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾. وذلكَ الاستغفارُ أمارةُ الاتّباعِ الصّحيحِ لخُطَى السّلفِ الصالحِ، كما قال سبحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾. وما فتئَ النبيُّ ﷺ ممتثِلاً أمرَ ربِّه باستغفارِه لأهلِ الإيمانِ بكافَّةِ شرائحِهم أحياءً وأمواتًا؛ إذْ كان يدعو في صلاتِه للميِّت قائلاً: "اللهمَّ اغفرْ لحيِّنا، وميِّتنا، وصغيرِنا، وكبيرِنا، وذكرِنا وأُنثانا، وشاهِدِنا وغائِبِنا" رواه أبو داودَ وصحَّحه ابنُ حبَّانَ والحاكمُ.

أيّها المسلمون!

إنَّ الاستغفارَ للمؤمنينَ أعظمُ معروفٍ يُسدى لهم؛ لتضمُّنِه طلبَ اللهِ لهم بمحوِ سيئاتِهم وسترِهم دونَ هتكٍ. وهي أعظمُ دعوةٍ يُدعَى لهم بها؛ إذْ هي الدعوةُ الوحيدةُ التي أُمرَ النبيُّ ﷺ أنْ يدعوَ بها للمؤمنينَ، كما قرَّرَ ابنُ تيميةَ. وبركةُ ذلكَ الاستغفارِ عظيمةٌ عظيمةٌ! إذْ يُرجَى أنْ يحظَى ذلكَ المستغفرُ بإجابةِ دُعائِه واستغفارِ الملكِ له بعددِ أولئكَ المؤمنينَ! ملايينُ الدّعواتِ في بضْعِ ثوانٍ! ولا نُكَارةَ في ذلكَ؛ إذْ فضلُ اللهِ واسعٌ، وعطاؤه غدْقٌ، لا يحدُّه تصوُّرُ أو حِسبةُ بشرٍ، يقولُ النبيُّ ﷺ: "دعوةُ المرءِ المسلمِ لأخيهِ بظَهرِ الغيبِ مُستجابةٌ، عند رأسِه ملَكٌ موكَّلٌ كلّما دعا لأخيهِ بخيرٍ، قال الملَكُ الموكَّلُ به: آمينَ ولكَ بمثلٍ" رواه مسلمٌ؛ ولذا قال الشَّعبيُّ: "ما من دعوةٍ أحبُّ إلى اللهِ - عزَّ وجلَّ - من أنْ أقولَ: اللهمَّ اغفرْ للمُؤمنينَ والمُؤمناتِ الأحياءِ منهم والأمواتِ؛ فإنّي أرجو

أنْ يردَّ اللهُ عليه بكلِّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ في بطنِ الأرضِ أو على ظهرِها". وسأل ابنُ جُريجٍ عطاءَ بنَ أبي رَباحٍ: أستغفرُ للمؤمنين والمؤمناتِ؟ قال: نعمْ، قد أُمرَ النبيُّ ﷺ بذلكَ؛ فإنّ ذلكَ الواجبُ على الناسِ، قال اللهُ لنبيِّه ﷺ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، قلتُ: أفتدَعُ ذلكَ في المكتوبةِ أبداً؟ قال: لا، قلتُ: فبمَن تبدأُ، بنفسِكَ أم بالمُؤمنينَ؟ قال: بل بنفسِي، كما قال اللهُ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾. قال ابنُ القيمِ: " الجميعُ مشتركونَ في الحاجةِ، بل في الضَّرورةِ إلى مغفرةِ اللهِ وعفوِه ورَحمتِه؛ فكما يحبُ أنْ يستغفرَ له أخوهُ المسلمُ كذلكَ هو أيضا ينبغِي أن يستغفرَ لأخيهِ المسلمِ؛ فيصيرَ هِجِّيراهُ ربِّ اغفرْ لي ولوالديَّ وللمُسلمينَ والمُسلماتِ وللمُؤمنينَ والمُؤمناتِ، وقد كان بعضُ السّلفِ يستحبُّ لكلِّ أحدٍ أنْ يداومَ على هذا الدعاءِ كلَّ يومٍ سبعينَ مرةً؛ فيجعلَ له منه وِرداً؛ لا يُخِلُّ به، وسمعتُ شيخَنا — يقصدُ ابنَ تيميةَ - يذكرُه، وذكرَ فيه فضلاً عظيماً لا أحفظُه، وربَّما كان من جملةِ أوْرادِه التي لا يخلُّ بها، وسمعتُه يقولُ: إنَّ جعْلَه بين السجدتيْنِ جائزٌ. فإذا شهدَ العبدُ أنَّ إخوانَه مُصَابونَ بمثلِ ما أُصيبَ به، مُحتاجونَ إلى ما هو مُحتاجٌ إليه؛ لم يمتنعْ من مساعدتِهم إلا لفرْطِ جهلٍ بمغفرةِ اللهِ وفضلِه، وحقيقٌ بهذا أنْ لا يُساعَدَ؛ فإنّ الجزاءَ من جنسِ العملِ".

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصّلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.

أيّها المؤمنونَ!

والاستغفارُ للمؤمنينَ يسلّمُ القلبَ من الدّغلِ والحسدِ، وتأملْ كيف قرنَ تُبّاعَ السّلفِ بين طلبِ المغفرةِ للمُؤمنينَ وطلبِ تنقيَةِ اللهِ قلوبَهم من داءِ الغلِّ العُضالِ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾. وكما أنّ ذلك الاستغفارَ مَطهرةٌ لقلبِ صاحبِه؛ فإنّه جالبٌ لمحبةِ المؤمنينَ، ومُروِّضُ شماسَ نفوسِهم؛ وذاك ما أرشدَ اللهُ إليه نبيَّه ﷺ في طريقِ تأليفِ قلوبِ المؤمنينَ وانعطافِها له إذْ يقولُ: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾. وذلك الاستغفارُ أمارةُ الانتفاعِ بالعلمِ الدّالِّ على إرادةِ اللهِ الخيرَ بصاحبِه، كما قال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾. وحتى يُؤتي ذلكَ الاستغفارُ هذه الثّمارَ؛ فإنه لا بدَ من مُراعاةِ أدبِ الدعاءِ؛ من حضورِ القلبِ، والمداومةِ والإلحاحِ، والانكسارِ للهِ، والابتعادِ عن الحوائلِ المانعةِ من الإجابةِ.

وإذا كان العبدُ مأموراً بالاستغفارِ للمؤمنينَ والمؤمناتِ بالقولِ؛ فمن لازمِ

ذلكَ أن يصدِّقَ الاستغفارَ العملُ؛ فيكونَ ناصحًا لهم؛ يحبُّ لهم من الخيرِ ما يحبُّ لنفسِه، ويكرهُ لهم من الشرِّ ما يكرهُ لنفسِه، ويحثُّهم على الخيرِ، وينهاهُم عن الشرِّ، ويعفو عن معايبِهم ومساوِيهم، ويحرصُ على اجتماعِهم اجتماعًا تتألّفُ به قلوبُهم، ويزولُ ما بينهم من الأحقادِ المُفضيَةِ للمُعاداةِ والشّقاقِ؛ فإنه بالائتلافِ تقلُّ الذنوبُ، وبالافتراقِ تكثرُ الشرورُ والمعاصِي؛ وبذلكَ يتطابقُ الاستغفارُ لأهلِ الإيمانِ مع لوازمِه؛ فلا يتناقَضُ أو يتشوّهُ.

التثبيتُ القرآنيُّ في الأزماتِ

إنّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مضلّ له، ومَن يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ... ﴾.

أيّها المؤمنونَ!

في معاصيفِ الفتنِ، وأزمنةِ البلاءِ، ومع موْجاتِ الأزماتِ المتواليةِ تعظُمُ الضرورةُ إلى تبصّرِ دربِ النّجاةِ والاستمساكِ بحبلِها المنقذِ من تلك المهالكِ؛ إذْ من شأنِ هذه الفتنِ الاضطِّرابُ، وتبدّلُ الحقائقِ والتباسُها، وحيرةُ العقولِ، وإعجابُ كلِّ ذي رأيٍ برأيِه، وزلةُ الأقدامِ بعد ثبوتِها، وحوَرُها بعد كوَرِها. وقد جلّى رسولُ اللهِ ﷺ دربَ النّجاةِ وحبلَها العاصمَ من النُّكوصِ عن الهدايةِ والميلِ بعد الاستقامةِ بالاعتصامِ بكتابِ اللهِ؛ إذْ يقولُ في خطبةِ وَداعِه: "قد تركتُ فيكم ما لن تضلُّوا بعده إنِ اعتصمتُم به؛ كتابَ اللهِ" رواه مسلمٌ. فما سرُّ التثبيتِ القرآنيِّ للمؤمنينَ وقتَ الفتنِ؟ وما السبيلُ إلى ذلك الاعتصامِ المنجّي بإذنِ اللهِ — تعالى-؟

أيّها المسلمونَ!

إنَّ من حِكَمِ إنزالِ القرآنِ ومقاصدِه الكبرى تثبيتَ المؤمنين، سيّما وقتَ

الشدائدِ والمحنِ، يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾. تلكُمُ الحقيقةُ الكُبرى قد انطوتْ عليها نفوسُ الصّحابةِ الكرامِ حين جعلوا كتابَ اللهِ عُدَّتهم في معالجةِ الفتنِ والأزماتِ، وزادَهم في تخطّي قِفارِها. عبّر عن ذلك الحالِ سالمٌ مَوْلى أبي حُذيْفةَ — رضي اللهُ عنه — حين أخذ رايةَ المُسلمينَ بعد مقتلِ زيدِ بنِ الخطّاب — رضي اللهُ عنه — في معركةِ اليمامةِ، فقال المسلمون: يا سالمُ، إنّا نخافُ أن نؤتَى من قِبَلِكَ، فقال: بئسَ حاملُ القرآنِ أنا إنْ أُتيتُم من قِبَلِي (رواه الحاكمُ).

أيّها المؤمنون!

في الأزماتِ تضطَّرب القلوبُ؛ ولن تجدَ رابطًا لسكونِها وطُمأنينتِها سوى القرآنِ الذي وصَفه مُنزِّله — جلَّ وعلا - بالقولِ الثَّقيلِ: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾. وهو الذِّكرُ الحكيمُ الذي تطمئنُّ به القلوبُ؛ ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾. قال ابنُ القيمِ: "وكان شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ - رحمه اللهُ - إذا اشْتدّتْ عليه الأمورُ قرأ آياتِ السكينةِ. وسمعتُه يقولُ في واقعةٍ عظيمةٍ جرتْ له في مرضِه، تعجزُ العقولُ عن حملِها - من محاربةِ أرواحٍ شيطانيّةٍ، ظهرتْ له إذْ ذاكَ في حالِ ضعفِ القوةِ - قال: فلما اشتدّ عليَّ الأمرُ، قلتُ لأقاربِي ومَن حولي: اقرَؤوا آياتِ السكينةِ، قال: ثم أقلعَ عنِّي ذلكَ الحالِ، وجلستُ وما بي قلبةٌ. وقد جرّبتُ أنا أيضًا قراءةَ هذه الآياتِ عند اضطِّرابِ القلبِ بما يردُ عليه؛ فرأيتُ لها تأثيراً عظيمًا في سكونِه وطُمأنينتِه". وملاحظةُ مقصدِ

الامتحانِ بالفتنِ قد يعْزبُ استحضارُه؛ فلا يَرى العبدُ في بلائه إلا الحزنَ والرّهقَ والظّلمةَ، وفي القرآنِ جلاءُ حقيقةِ المحَنِ والابتلاءِ؛ وأنّها تمحيصٌ للمؤمنِ لا إهلاكُه؛ ليقوَى إيمانُه، وتُرفَعَ درجاتُه، ويزدادَ قُربًا من ربِّه، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾، واستبصارُ حالِ الابتلاءِ عُدةٌ على الصبرِ عليه وتخطّيه بسلام. والقرآنُ خيرُ رحمةٍ وبَلسمٍ مؤنسٍ لوحشةِ البلاءِ؛ إذْ هو رباطٌ وثيقٌ ممدودٌ بين العبدِ وخالقِه، ومَن كان اللهُ مؤنسَه فلا وحشةَ عليه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، كما أنّ فيه الزّادَ الإلهيَّ والعونَ الربانيَّ في تخطّي عناءِ رحلةِ البلاءِ؛ من حثٍّ على الاستعانةِ بالصبرِ والصلاة: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾، خاصةً قيامَ الليل: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾، وما حَواهُ من إرشادٍ للدعاءِ المُناسبِ في الأزماتِ الخاصّةِ والعامّةِ؛ ممّا كان ويكونُ به الانفراجُ والظفْرُ: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۖ﴾، ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢٥٠ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِۗ﴾. وفي القرآنِ صورٌ لتثبيتِ اللهِ للمؤمنينَ وقتَ الأزماتِ بشيءٍ من مخلوقاتِه وجندِه، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾؛

ألـم يرسـلِ الملائكـةَ ﴿فَثَبِّتُـواْ ٱلَّذِيـنَ ءَامَنُـواْۚ﴾، وأنـزلَ المطـرَ؛ ﴿وَيُثَبِّـتَ بِـهِ ٱلْأَقْـدَامَ﴾، وأطلـقَ سـببَ فرَجِـه للمؤمنيـنَ وإنِ اسـتحكَمتْ عليهـم أزمـةُ تسـلّطِ الكافريـنَ فقـال: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَـأْتِيَ بِٱلْفَتْـحِ أَوْ أَمْـرٍ مِّـنْ عِنـدِهِۦ﴾.

عبادَ اللهِ!

والقـرآنُ أُنـسٌ للمُسـتَوحِش مـن غُربـةِ الابتـلاءِ بربطِـه بسَـلَفِه السـابقينَ مـن الأنبيـاءِ؛ والائتِسـاءِ بهـؤلاءِ العظمـاءِ مـن أبلـغِ أسـبابِ العـزاءِ والثّبـاتِ: ﴿وَكُلًّا نَّقُـصُّ عَلَيْـكَ مِـنْ أَنۢبَـآءِ ٱلرُّسُـلِ مَـا نُثَبِّـتُ بِـهِۦ فُـؤَادَكَۚ وَجَـآءَكَ فِي هَـٰذِهِ ٱلْحَـقُّ وَمَوْعِظَـةٌ وَذِكْـرَىٰ لِلْمُؤْمِنِـينَ﴾. كما أنّ القرآنَ رِباطٌ وثيقٌ للعبدِ بفلَكِ العبوديّـةِ العظيـمِ الـذي لـم يشـذّ منه إلا الأشْـقياءُ الضّعفـاءُ: ﴿أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَـن فِي ٱلسَّـمَٰوَٰتِ وَمَـن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّـمْسُ وَٱلْقَمَـرُ وَٱلنُّجُـومُ وَٱلْجِبَـالُ وَٱلشَّـجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِـيرٌ مِّـنَ ٱلنَّـاسِۖ﴾؛ فهـل يشـعرُ المؤمـنُ بالوَحشـةِ والاضطّـراب واللهُ مؤنسُـه، والأنبياءُ أسوتُه، وهـذا الخَلقُ العظيـمُ مسبّحٌ للهِ معه؟! ومـن إينـاسِ القـرآنِ العظيـمِ للمؤمـنِ حـالَ بلائـه أن ينقلَـه مـن الرؤيـةِ الضيقـةِ للواقـعِ المحزنِ المحسـوسِ إلـى رَحابـةِ الظـنّ الحسَـنِ بربّـه؛ إيمانـاً بنفـوذِ المشـيئةِ الإلهيّـةِ والرحمـةِ الربانيّـةِ الواسـعةِ التـي لا يصمـدُ أمامَهُـما شـيءٌ وإنْ عظُـمَ. والقـرآنُ سَـلوةٌ رَحْبـةٌ؛ توسّـعُ علـى المؤمـنِ ضيـقَ حـالِ الدّنيـا برَحابـةِ ذكـرى الآخـرةِ؛ حيـنَ يذكـرُ المؤمـنُ وهـو فـي غَمـرةِ بلائـه أنّ غمسـةً واحـدةً فـي الجنـةِ تُنسـيه كلَّ شـقاءٍ ذاقَـه فـي الدّنيـا، وأنّ غمسـةً فـي نـارِ جهنّـمَ تُنسِـي الفاجـرَ كلّ نعيـمِ الدّنيـا وملاذّهـا! وذلـكَ — لعَمـرُ اللهِ — مـن أعظـمِ مـا يسـكُبُ الثبـاتَ فـي قلـبِ المؤمـنِ زمـنَ البـلاءِ، خاصّـةً إن

تيقّنَ أنّ القرآنَ عزاءٌ لكلّ فائتٍ من الدّنيا؛ مالٍ، أو صحةٍ، أو زوجٍ، أو ولدٍ، أو منصبٍ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾. هكذا غدا القرآنُ زاداً للمؤمنينَ في بلائِهم وشِدّتِهم، ويا بُؤسَ مَن فقدَ هذا الزادَ!

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصّلاةُ والسّلامُ على رسولِ اللهِ.
أمّا بعدُ، فاعلمُوا أنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ....

أيّها المؤمنونَ!

وبركةُ القرآنِ لا حدّ لها، سيّما في وقتِ الشّدّةِ والمحنِ؛ فرُبَّ آيةٍ كانتْ بلسمًا لجراحٍ وآلامٍ لا يُداويها إلا القرآنُ، وهل كان ألمٌ في التاريخِ أعظمَ من مُصابُ المسلمينَ بموتِ النبيِّ ﷺ؟! لمّا ماتَ النبيُّ ﷺ خرج أبو بكرٍ — رضي اللهُ عنه– وعمرُ بنُ الخطّابِ — رضي اللهُ عنه – يكلمُ الناسَ، فقال: اجلسْ يا عمرُ، فأبى عمرُ أن يجلسَ، فأقبلَ الناسُ إليه، وتركُوا عمرَ، فقال أبو بكرٍ: "أمّا بعدُ، فمَن كان منكم يعبدُ محمداً، فإنّ محمداً ﷺ قد ماتَ، ومن كان منكم يعبدُ اللهَ؛ فإنّ اللهَ حيٌّ لا يموتُ، قال اللهُ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ إلى قولِه ﴿ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾، فنشجَ الناسُ يبكونَ، قال ابنُ عباسٍ — رضي اللهُ عنهُما–: واللهِ لكأنّ الناسَ لم يعلموا أنّ اللهَ أنزلَ هذه الآيةَ حتى تلاها أبو بكرٍ، فتلقّاها منه الناسُ كلّهم، فما أسمعُ بشراً من الناسِ إلا يتْلوها" رواه البخاريُّ.

أيّها المسلمونَ!

وحتى يكونَ القرآنُ لنا عُدّةً في البلاءِ والأزماتِ؛ فلا بدّ لنا من تعاهُدِه؛

بجعلِ وِردٍ يوميٍّ منه وإنْ قلّ؛ نتلُوه، ونتفهّم آياتِه، ونعملُ بأوامرِه، وننْتَهي عن زواجرِه، وندعو بأدعيتِه، ونحرّكُ به القلوبَ عند تلاوتِه واستماعِه، ونستَشفِي به من الأمراضِ الحسِّيّةِ والمعنويّةِ، ونتبصّرُ مآلاتِه في الحوادثِ. وخيرُ سُبلِ تعلّمِ القرآنِ تقسيمُه على آياتٍ قليلةٍ؛ فهي أدْعَى للثَّباتِ والتَّثبيتِ، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾، وأنْ تكونَ دراستُه بفهمِ السّلَفِ الصّالحِ من خلالِ مصنّفاتِهم السابقةِ والحديثةِ. قال عمرُ - رضي اللهُ عنه -: "تعلّموا القرآنَ خمساً خمساً؛ فإنّ جبريلَ - عليه السلامُ - نزل بالقرآنِ على النبيّ ﷺ خمساً خمساً" رواه البيْهقيُّ في الشُّعَب، قال عليُّ بنُ بكارٍ: "قال بعضُ أهلِ العلمُ: مَن تعلّمَ خمساً خمساً؛ لم ينسهْ".

الاستغناء بالقرآن

الحمدُ للهِ الذي نزّلَ الفرقانَ على عبده ليكونَ للعالمين نذيراً، وأودعَ فيه من بركاته خيراً وفيراً، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له لم يزلْ بعباده خبيراً بصيراً، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه أرسله للمؤمنين بشيراً، صلى اللهُ عليه وعلى آله وصحبِه وسلَّمَ تسليماً كثيراً.

أما بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ...﴾.

أيها المؤمنون!

الافتقارُ من أوجهِ الضَّعفِ الجِبلِّيِّ الذي فُطِرَ عليه البشرُ، وذاك ما يجعلُهم يَسْعَوْنَ في سدِّه بطلبِ الغنى جَهْدَهم. وقد تباينتْ طرائقُهم في ذلك الاستغناءِ؛ بناءً على اختلافِ همومِهم، واستحضارِهمُ الغايةَ من الوجودِ وذِكْرَ الآخرةِ. فكان مسلكُ الكثيرِ في طلبِ الغنى مفضياً إلى عكسِ مقصودِهم؛ إذ كان الفقرُ قارّاً في القلبِ ومنظرُه لا يغيبُ عن العينِ وإنْ مَلَكَ صاحبُه دنيا عريضةً، فكان حالُهم كحالِ الظامئِ الذي يرومُ الارتواءَ من ماءِ البحرِ؛ فلا يزيدُه إلا عطشاً. هذا، وإنّ للإيمان تميّزاً في استغناءِ أهلِه حين سما بهم عن حضيضِ حطامِ الدنيا الذي تنافسَ أهلُها في طلبِ الاستغناءِ به؛ فلم يزدْهم إلا فقراً؛ فعاشَ أهلُ الإيمانِ بذلك الاستغناءِ النقيِّ حقيقةَ الغنى الذي لا يَفنى وإنْ كانوا من عَرَضِ الدنيا مُعْدَمين.

عبادَ اللهِ!

إنّ من أعظمِ مقوماتِ الغنى الإيمانيِّ الاستغناءَ بالقرآنِ العظيمِ الذي يُبْصِرُ به المؤمنُ حقيقةَ الغنى؛ فيستشعرُ عظيمَ نعمةِ اللهِ عليه باصطفائه لوراثةِ كتابِه، واستغناءَه به عن ذلِّ الحاجةِ إلى الناسِ، وسلوَّه عن شقاءِ التطلُّعِ لما في أيديهم، فضلاً عن حسدِهم والبغيِ عليهم. وذاك ما أرشدُ اللهُ نبيَّه ﷺ إلى لزومِ جادَّتِه في سيرِه إليه وتخطِّيه عقابيلَ الدنيا المغريةَ بسلوٍّ وسلام؛ إذ أمَرَهُ بالاستغناءِ بالقرآنِ حين استغنى غيرُه بالمالِ والمتاعِ، فقالَ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾؛ فالقرآنُ خيرُ رزقٍ يُمْنَحُ لعبدٍ، وماذا عسى أنْ يكونَ رزقٌ يُدانيه في الخيريةِ والبقاءِ؟! وذاك ما يَقْصِرُ العينَ عن التطلعِ إلى المكاثرةِ في زخرفِ الدنيا أو المنافسةِ فيها، ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾. وبهذا الغنى القرآنيِّ فاقتِ الآيةُ منه خيرَ المالِ بِعَدِّها؛ فكانت عزاءَ النبيِّ ﷺ لفقراءِ أصحابه مِن أهلِ الصُّفَّةِ، قالَ عقبةُ بنُ عامرٍ -رضيَ اللهُ عنه-: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ، فَقَالَ: "أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ[1]، فِي غَيْرِ إِثْمٍ وَلاَ قَطْعِ رَحِمٍ؟" فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ! نُحِبُّ ذَلِكَ، قَالَ: "أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمُ أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثٌ

(١) الناقة الكوماء: عظيمة السنام، وهي من أنفس مال العرب.

خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أعدادِهِنَّ من الإبلِ؟!" رواه مسلمٌ. وبغنى القرآنِ طابَ النكاحُ حين كان خيرَ ما يُبذلُ في مهورِ النساءِ إنْ عُدِمُ المالُ، قالَ سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ السَّاعِدِيُّ -رضيَ اللهُ عنه-: جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَهَبُ لك نفسي، فنظرَ إليها رسولُ اللهِ ﷺ، فَصَعَّدَ النَّظَرَ فِيهَا وَصَوَّبَهُ، ثُمَّ طَأْطَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَأْسَهُ، فَلَمَّا رَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّهُ لَمْ يَقْضِ فِيهَا شَيْئًا، جَلَسَتْ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فقالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ بِهَا حَاجَةٌ فَزَوِّجْنِيهَا، فقَالَ: "فَهَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ؟"، فقَالَ: لَا، وَاللهِ! يَا رَسُولَ اللهِ! فقَالَ: "اذْهَبْ إِلَى أَهْلِكَ، فانظر هل تَجِدُ شَيْئًا؟ "، فَذَهَبَ، ثُمَّ رَجَعَ، فقَالَ: لَا، واللهِ! ما وجدتُ شَيْئًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "انظر ولو خاتمٌ مِنْ حَدِيدٍ"، فَذَهَبَ، ثُمَّ رَجَعَ، فقَالَ: لَا، والله! يا رسول الله! ولا خاتمٌ مِنْ حَدِيدٍ، وَلَكِنْ هَذَا إِزَارِي، -قَالَ سَهْلٌ: مَا لَهُ رِدَاءٌ-؛ فَلَهَا نِصْفُهُ، فقَالَ رَسُولُ اللهِ: "مَا تَصْنَعُ بِإِزَارِكَ؛ إِنْ لَبِسْتَهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا مِنْهُ شَيْءٌ، وَإِنْ لَبِسَتْهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْكَ مِنْهُ شَيْءٌ؟!"، فَجَلَسَ الرَّجُلُ، حَتَّى إِذَا طَالَ مَجْلِسُهُ قَامَ، فَرَآهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُوَلِّيًا، فَأَمَرَ بِهِ فَدُعِيَ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ: " مَاذَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ؟ "، قال: معي سورةُ كذا وكذا؛ عَدَّدَهَا، فقَالَ: "تَقْرَؤُهُنَّ عَنْ ظَهْرِ قَلْبِكَ؟"، قَالَ: نعم، قَالَ: "اذهبْ؛ فقدْ مَلَّكْتُهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ" رواه مسلمٌ. وبهذا الاستغناءِ القرآنيِّ كانت خصيصةُ أهلِ الإيمانِ الذين تميّزوا بها عن غيرِهم، فقدْ حَمَلَ جمْعٌ من العلماءِ المحققين قولَ رسولِ اللهِ ﷺ -فيما رواه البخاريُّ-: "لَيْسَ منَّا مَنْ لَمْ يتغنَّ بالقرآنِ" على ذلك الاستغناءِ، قال الإمامُ أبو عبيدٍ القاسمُ بنُ سلَّامٍ: "لَا يَنْبَغِي لحاملِ الْقُرْآن أَنْ يرى أحداً من أهلِ الأَرْضِ أغنى مِنْهُ

وَلَو مَلَكَ الدُّنْيَا بِرَحْبِها"، وقال بعضُ السلفِ: "مَن قَرَأَ الْقُرْآنَ فَرَأى أَنَّ أحداً أُعْطِيَ أفضلَ مِمَّا أُعْطِيَ؛ فقد عظَّمَ صَغِيراً، وَصَغَّرَ عَظِيماً". وكَانَ ابنُ مسعودٍ -رضيَ اللهُ عنه- يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَيَمُرُّ بِالْآيَةِ، فَيَقُولُ لِلرَّجُلِ: «خُذْهَا؛ فَوَاللهِ لَهِيَ خَيْرٌ مِمَّا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ»، وكان يقول: "مَن قرأ آلَ عمرانَ فهو غنيٌّ". وكَانَ رَجُلٌ يُكْثِرُ غَشَيَانَ بَابِ عُمَرَ بنِ الخطابِ -رضيَ اللهُ عنه- طالباً المالَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: اذْهَبْ فَتَعَلَّمْ كِتَابَ اللهِ -تَعَالَى-، فَذَهَبَ الرَّجُلُ ففقَدَهُ عُمَرُ، ثُمَّ لَقِيَهُ فَكَأَنَّهُ عَاتَبَهُ، فَقَالَ: وَجدتُ فِي كِتَابِ اللهِ مَا أَغْنَانِي عَنْ بَابِ عُمَرَ!

عبادَ اللهِ!

إنَّ للقرآنِ خاصيةً تُكسِبُ صاحبَه الغنى الحقيقيَّ وإنْ كان مُعْدَماً من الدنيا؛ وذاك بما أودعَه اللهُ من الخيرِ والبركةِ التي لا تفْنى ولا تنقصُ، بل تزيدُ وتَفيضُ؛ فبالقرآنِ هناءُ الدنيا؛ إذ به انشراحُ الصدرِ، وطمأنينةُ القلبِ، وتسكينِ الرَّوْعِ، وذهابُ الهمِّ، وعلاجُ الألمِ، وإذهابُ الحزنِ، وتحقُّقُ البصيرةِ التي تُدْرَكُ بها حقائقُ الأقدارِ، وهل يُرادُ من الاستغناءِ إلا هذا؟! ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾. ويقولُ النبيُّ ﷺ: «إِذَا أَصَابَ أَحَدَكُمْ هَمٌّ ، أَوْ حَزَنٌ فَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ ، إِنِّي عَبْدُكَ ، وَابْنُ عَبْدِكَ، وَابْنُ أَمَتِكَ ، وَفِي قَبْضَتِكَ ، نَاصِيَتِي فِي يَدَيْكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ:

أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي ، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي ، وَذَهَابَ هَمِّي» . قَالَ: «فَمَا قَالَهُنَّ عَبْدٌ قَطُّ إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَ حُزْنِهِ فَرَحًا». قَالُوا: أَفَلَا نَتَعَلَّمُهُنَّ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «بَلَى، فَإِنَّهُ يَنْبَغِي لِكُلِّ مُسْلِمٍ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ» رواه أحمدُ وصحَّحَه الألبانيُّ. ولاستشعارِ قَدْرِ العلمِ الذي يُكْسِبُه القرآنُ صاحبَه لذةُ غنىً لا يَعْدِلُها كلُّ ملاذِّ الدنيا، ولأجلِها صُبِرَ على الفقرِ والتغرُّبِ وتعبِ البدنِ، وكان محلَّ الاغتباطِ، قال تعالى: ﴿أَوَ لَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةً وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾، ويقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: "لَا حَسَدَ إِلَّا في اثنتين: رجلٌ علمه اللهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النهار، فسمعَه جارٌ له فقال: ليتني أوتيتُ مثلَ ما أوتيَ فلانٌ، فعملتُ مثلَ ما يَعملُ، ورجلٌ آتاه اللهُ مالاً فهو يُهْلِكُه في الحقِّ، فقالَ رجلٌ: ليتني أوتيتُ مثلَ ما أوتي فلانٌ، فعملتُ مثلَ ما يَعملُ " رواه البخاريُّ. وملازمةُ القناعةِ التي تطيبُ بها الحياةُ، والاصطبارُ على إبقائها من أسرارِ الغنى القرآنيِّ؛ إذ هو منبعٌ لها وباعثٌ عليها. خَرَجَ الإمامُ المزنيُّ مِنْ بَابِ جَامِعِ الْفُسْطَاطِ مُعَلِّقًا نَعْلَيْهِ وَقَدْ أَقْبَلَ قرينٌ له في العلمِ ثريٌّ فِي مَوْكِبِهِ، فَبَهَرَهُ مَا رَأَى مِنْ حَالِهِ وَحُسْنِ هَيْبَتِهِ، فَتَلَا قَوْلَهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ﴾، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ بَلَى؛ أَصْبِرُ وَأَرْضَى، وَكَانَ مُقِلًّا -رَحْمَةُ اللهُ عَلَيْهِ-.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.

أما بعدُ، فاعلموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ ...

أيها المؤمنون!

ولئن كان غنى القرآنِ الدنيويُّ عظيماً؛ فماذا عساه أنْ يكونَ في الآخرةِ؟! بركةٌ تَفيضُ وتمتدُّ إلى أبويْ صاحبِ القرآنِ الحافظِ له العاملِ به، يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: "إِنَّ الْقُرْآنَ يَلْقَى صَاحِبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَنْشَقُّ عَنْهُ قَبْرُهُ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ[1]، فَيَقُولُ لَهُ: هَلْ تَعْرِفُنِي؟ فَيَقُولُ: مَا أَعْرِفُكَ، فَيَقُولُ: أَنَا صَاحِبُكَ الْقُرْآنُ الَّذِي أَظْمَأْتُكَ فِي الْهَوَاجِرِ وَأَسْهَرْتُ لَيْلَكَ، وَإِنَّ كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ، وَإِنَّكَ الْيَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تِجَارَةٍ؛ فَيُعْطَى الْمُلْكَ بِيَمِينِهِ، وَالْخُلْدَ بِشِمَالِهِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، وَيُكْسَى وَالِدَاهُ حُلَّتَيْنِ لَا يُقَوَّمُ لَهُمَا أَهْلُ الدُّنْيَا، فَيَقُولَانِ: بِمَ كُسِينَا هَذَا؟ فَيُقَالُ: بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا الْقُرْآنَ. ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: اقْرَأْ وَاصْعَدْ فِي دَرَجِ الْجَنَّةِ وَغُرَفِهَا، فَهُوَ فِي صُعُودٍ مَا دَامَ يَقْرَأُ، هَذًّا كَانَ، أَوْ تَرْتِيلًا" رواه أحمدُ وحسَّنَه ابنُ كثيرٍ. بتلك المآثرِ الدنيويةِ والأخرويةِ فاقَ إغناءُ القرآنِ كلَّ غنى، بل لا ذِكْرَ للغِنى سواه، وكان لاستشعارِ ذلك الغنى والاصطباغِ بحُلَّتِه أثرُه الوضيءُ الراسخُ على أهلِه المستغنين به؛ إذ كان ذاك حاملاً لهم على الزهدِ في الدنيا وإنزالِها منزلتَها

(١) الشحوب: تغيّر اللون.

التي أنزلَها اللهُ -تعالى- وإنْ طَلبوا منها ما طَلبوا، ومَلَكوا من زهرتِها ما مَلَكوا؛ فلم تفتنْهم، ولم تطغْهم؛ وذاك ما جعلَ الإمامَ أحمدَ يأسى على حالِ مَن تعلَّمَ القرآنَ وفتَنَتْهُ الدنيا؛ إذ يقولُ: "عَزِيزٌ عَلَيَّ أَنْ تُذِيبَ الدُّنْيَا أَكْبَادَ رِجَالٍ وَعَتْ صُدُورُهُمْ الْقُرْآنَ!"؛ فكيف بحالِ مَن جعلَ القرآنَ عوضًا عن عَرَضٍ من الدنيا خسيسٍ؟! وعاشَ بهذا الاستغناءِ القرآنيِّ أهلُه القائمون به أباةً كِرامًا وإنْ أقْفَروا من حطامِ الدنيا؛ فلم يَذِلُّوا لأهلِها، أو يُعْطُوا الدَّنِيَّةَ في دينِهم، أو يشتروا بآياتِ اللهِ ثمنًا قليلاً. قال عبدُاللهِ الليثيُّ: "لَا يَنْبَغِي لِمَنْ أَخَذَ بِالتَّقْوَى وَالْوَرَعِ أَنْ يُذَلَّ لِصَاحِبِ الدُّنْيَا". وكَانَتْ للعالِمِ معمرِ بنِ سليمانَ النخعيِّ حَاجَةٌ إِلَى بَعْضِ أهلِ الدنيا، فَقِيلَ لَهُ: لَوْ أَتَيْتَهُ فَكَلَّمْتَهُ، فقال: قَدْ أَردتُ إِتْيَانَهُ، ثُمَّ ذَكَرْتُ الْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ؛ فَأَكْرَمْتُهُمَا عَنْ ذَلِكَ.

يَقُولُونَ لِي فِيكَ انْقِبَاضٌ وَإِنَّمَا ... رَأَوْا رَجُلًا عَنْ مَوْقِفِ الذُّلِّ أَحْجَمَا
أَرَى النَّاسَ مَنْ دَانَاهُمْ هَانَ عِنْدَهُمْ ... وَمَنْ لَزِمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أُكْرِمَا
وَلَمْ أَقْضِ حَقَّ الْعِلْمِ إنْ كَانَ كُلَّمَا ... بَدَا طَمَعٌ صَيَّرْتُهُ لِي سُلَّمَا
وَمَا كُلُّ بَرْقٍ لَاحَ لِي يَسْتَفِزُّنِي ... وَلَا كُلُّ مَنْ فِي الْأَرْضِ أَرْضَاهُ مُنْعِمَا
إذَا قِيلَ هَذَا مَنْهَلٌ قُلْتُ قَدْ أَرَى ... وَلَكِنَّ نَفْسَ الْحُرِّ تَحْتَمِلُ الظَّمَا
وَلَمْ أَبْتَذِلْ فِي خِدْمَةِ الْعِلْمِ مُهْجَتِي ... لِأَخْدِمَ مَنْ لَاقَيْتُ لَكِنْ لِأُخْدَمَا
أَأَشْقَى بِهِ غَرْسًا وَأَجْنِيهِ ذِلَّةً ... إذًا فَاتِّبَاعُ الْجَهْلِ قَدْ كَانَ أَحْزَمَا
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ ... وَلَوْ عَظَّمُوهُ فِي النُّفُوسِ لَعُظِّمَا
وَلَكِنْ أَذَلُّوهُ فَهَانَ وَدَنَّسُوا ... مُحَيَّاهُ بِالْأَطْمَاعِ حَتَّى تَجَهَّمَا

التماسُ الرِّضا

الحمدُ للهِ الكبيرِ المتعالِ، ذي العزّةِ والكبرياءِ والكمالِ، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ ذو القهرِ والجلالِ، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلى اللهُ وسلمَ عليه وعلى كافّةِ الصّحبِ والآلِ.

أمّا بعدُ، فاتّقوا اللهَ — عبادَ اللهِ -، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ... ﴾.

أيّها المؤمنونَ!

من أشقّ مَراهقِ النّفسِ، وأبيَنِها جلاءً لإيمانِ القلبِ وامتحانِ خبره حالُ تقاطُعِ مَراضِي اللهِ مع مَراضِي الخلقِ وتعارُضِها وتقديمِ إحدَاها على الأُخرى، سيّما مع مَن يُخافُ ويُرتجَى؛ فذاكَ موضعٌ يُمتحَنُ فيه صدقُ الإيمانِ، كما قال اللهُ — تعالى -: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾. فلْنتبصرْ حقيقيَّةَ تلكَ المراضِي، وعاقبتَها التي تُفضِي إليها؛ لنعلمَ أيَّ الرِّضاءيْنِ أوْلى بالالتِماسِ والطّلبِ والمُصابرةِ. كتبَ معاويةُ بنُ أبي سفيانَ — رضي اللهُ عنهما- إلى عائشةَ أمِّ المؤمِنينَ — رضي اللهُ عنها - أنِ اكتُبي إليّ كتابا تُوصِيني فيه، ولا تُكثري عليَّ، فكتبتْ عائشةُ إلى مُعاويةَ: سلامٌ عليكَ. أمّا بعدُ، فإنّي سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «مَنِ التمَسَ رضاءَ اللهِ بسَخَطِ الناسِ كفاهُ اللهُ مُؤنةَ الناسِ، ومَنِ التمسَ رضاءَ الناسِ بسَخطِ اللهِ وكّلَه اللهُ إلى الناسِ. والسّلامُ عليكَ» رواه الترمذيُّ وصحّحه الألبانيُّ، وفي روايةِ ابنِ حِبّانَ في صحِيحِه: "مَنِ

التمسَ رضَى اللهِ بسَخَطِ الناسِ رضِيَ اللهُ -تعالى- عنه وأرضَى الناسَ عنه، ومَنِ التمسَ رِضَا الناسِ بسَخَطِ اللهِ سَخِطَ اللهُ عليه وأسْخَطَ عليه الناسَ".

أيّها المسلمونَ!

اختَلفتِ الغاياتُ؛ فتَبايَنَتِ النّتائجُ والثِّمارُ. حين كان طلبُ العبدِ مرضَاةَ ربِّه الغايةَ، واحتملَ في سبيلِها مساخطَ الخلقِ ونِفارَهم وسوءَ فعالِهم؛ كان اللهُ وليَّه الذي علّقَ رجاءَه فيه؛ فما خابَ فيه ذلكَ الرجاءُ؛ إذْ فازَ برضاهُ، وكان من آثارِ ذلكَ الرّضا الربانيِّ أنْ كفاهُ مشقّةَ مُخالفةِ الخلقِ، وأعانَه على تخطّي تلك العقبةِ الكأداءِ التي طالمَا أضلّت جِبّلاً كثيراً من الناسِ، مع ما غمرَ به روحَ ذاكَ الرّضيّ من استغناءٍ وطُمأنينَةٍ وانشراحٍ؛ فلا تذلُّه حاجةٌ إلى أولئكَ السّاخطينَ، ولا تبرّحُه آلامُ مباينتِهم وجهلِهم، وما ينتظرُه من عُقبَى الظهورِ عليهم والنصرِ، وانقلابِ بُغضِهم له محبةً، وتحوُّلِ نِفارِهم إلى قربٍ وتودُّدٍ، وذيوعِ لسانِ الصّدقِ له وطِيبِ الثّناءِ عليه في المجالسِ التي طالمَا مُلئتْ بسبِّه والنّيْلِ من عرضِه. كلُّ ذلك إنما كان بسببِ وِلايةِ اللهِ له حينَ آثَرَ مرضاتِه على مَرضاةِ خلقِه، وكان لسانُ حالِه كما قال القائلُ:

فليتَكَ تحْلو والحياةُ مَريرةٌ ... وليتَكَ ترضَى والأنامُ غِضَابُ
وليتَ الذي بيني وبينَكَ عامرٌ ... وبيني وبين العالمينِ خرابُ
إذا صحّ منكَ الوُدُّ فالكلُّ هيّنٌ ... وكلُّ الذي فوق التُّرابِ تُرابُ

عبادَ اللهِ!

وبالضّـدِّ مـن ذلـكَ إنْ آثـرَ العبـدُ مَراضِـي الخلـقِ علـى رِضَـا الخالـقِ؛ تعجُّـلاً لسـرابِ حظْـوةٍ لاحَ لـه عندَهـم، أو اسـتبقاءً لجاهِـه مـن أنْ يهتـزَّ لديهـم، أو كان دافعُـه حميّـةً جاهليّـةً، أو غالبتْـه العاطفـةُ في مُسـايرتِهم في أهوائِهـم — فـإنّ اللهَ يعاملُـه بنقيـضِ قصدِه حيـنَ سَـخِطَ عليـه. وكان مـن آثـارِ ذلـكَ السّـخَطِ أنْ وكّلَـه اللهُ إلـى مَـن آثـرَ رِضَاهـم؛ فمزَّقتْه أغراضُهـم المُتَشَاكِسَـةُ المتقلّبـةُ التي لا تتناهَـى؛ فلـه في كلِّ يـومٍ وجهٌ يصانـعُ بـه مَـن يلتمِسُ رِضَـاه، ثـم ينقـضُّ ذلـكَ الحـالُ بضـدِّه؛ تبعـاً لِرضـا مَـن آثـرَ رضَـاه، ولا بُـدّ يومـاً مـن سَـخَطِه عليـه؛ لِمَـا اسـتقرّ في الفِطَـرِ مـن سـقوطِ مكانـةِ المتملِّـقِ مـن الأعْيُـنِ ومهانتِـه في القلـوبِ حتـى عنـدَ مَـن آثـرَ رِضاهـم. يقـولُ ابـنُ القيـمِ: "وقـد جـرتْ سـنّةُ اللهِ – التـي لا تبديـلَ لهـا – أنّ مَـن آثـرَ مرضـاةَ الخلـقِ علـى مرضاتِـه: أن يُسـخِطَ عليـه مـن آثـرَ رِضـاه، ويخذلَـه مـن جهتِـه، ويجعـلَ مِحْنتَـه علـى يَدَيْـه؛ فيعـودَ حامـدُه ذامّـاً، ومَـن آثَـرَ مرضاتَـه سـاخطاً؛ فـلا علـى مقصـودِه منهـم حصـلَ، ولا إلـى ثـوابِ مَرضـاةِ ربِّـه وصـلَ. وهـذا أعجـزُ الخلـقِ وأحمقُهـم. هـذا مـع أنّ رضَـا الخلـقِ لا مقـدورَ، ولا مأمـورَ، ولا مأثـورَ؛ فهـو مسـتحيلٌ، بـل لا بُـدّ مـن سـخَطِهم عليـكَ. فـلأنْ يسْـخطوا عليكَ وتفـوزَ برضـا اللهِ عنـكَ أحـبُّ إليـكَ وأنفـعُ لـكَ مـن أن يسْـخُوا عليـكَ واللهُ عنـكَ غيـرُ راضٍ". قـال بعـضُ السّـلفِ: "لَمُصانَعـةِ وجـهٍ واحـدٍ أيسـرُ عليـكَ مـن مصانعـةِ وجـوهٍ كثيـرةٍ؛ إنّـك إذا صانعـتَ ذلـكَ الوجـهَ الواحـدَ كفـاكَ الوجـوهَ كلَّهـا". وقـال الشـافعيُّ: "رضَـا النـاسِ غايـةٌ لا تُـدْركُ؛ فعليـكَ بالأمـرِ الـذي يصْلحُـكَ فالزمْـه، ودعْ مـا سـواهُ فـلا تعانِـه؛ فإرضـاءُ الخلـقِ لا مقـدورَ ولا مأمـورَ، وإرضـاءُ الخالـقِ

مقدورٌ ومأمورٌ". وقال رجلٌ لعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ: "عليكَ بما يبقَى لك عند اللهِ؛ فإنّه لا يبقَى لكَ ما عند الناسِ".

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ على رسولِ اللهِ.

أمّا بعدُ، فاعلمُوا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ !

إنّ سبيلَ إيثارِ مَراضِي اللهِ على مَراضِي الخلقِ إنّما يكونُ بعِمارةِ القلبِ بالإيمانِ، وذكرِ عاقبةِ ذلكَ الإيثارِ في الدّنيا والآخرةِ، ومَلَاكُ ذلكَ — كما قال ابنُ القيمِ -: "أمرانِ: الزهدُ في الحياةِ والثّناءُ؛ فما ضعُفَ مَن ضعُفَ، وتأخّرَ مَن تأخّر إلا بحبِّه للحياةِ والبقاءِ، وثناءِ الناسِ عليه، ونَفرتِه من ذمِّهم له. فإذا زَهِدَ في هذيْنِ الشيئيْنِ، تأخّرتْ عنه العوارِضُ كلُّها". ولا تَلازُمَ بين إيثارِ المَراضِي الربّانيّةِ والقسوةِ مع الخلقِ وسوءِ الخُلقِ معهم والغِلظَةِ في القولِ؛ فقد كان النبيُّ ﷺ أقومَ الناسِ بحقِّ ربِّه وإيثارَ مَراضِيه وكان أحسنَ الناسِ خُلقاً، وألينَهم عَريكةً، وأعفَّهم قولاً، وألينَهم تعامُلاً، لكنَ ذلكَ ما دعاه يوماً إلى تلمُّس رضا الخَلقِ إنْ كان في إرضائِهم سخَطُ الخالقِ.

الخبيئةُ الصالحةُ

الحمدُ للهِ الباطنِ الظّاهرِ، عالمِ البادي والساترِ، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ المولى الناصرُ والعظيمُ القاهرُ، وأشهدُ أنّ محمداً عبده ورسولُه الطاهرُ، صلى اللهُ عليه وعلى صحبِه وسلمَ تسليماً كثيراً إلى يومِ بلْوِ السرائرِ.

أمّا بعدُ، فاتّقوا اللهَ — عبادَ اللهِ -، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ... ﴾.

أيّها المؤمنونَ!

إنْ سألتُم عن أعظمِ عملٍ يلقَى به العبدُ ربَّه، ويُكسبُه قُربَه ووُدَّه، وتكونُ به العبادةُ ثقيلةً في الميزانِ؛ فذلكُم الإخلاصُ الذي لأجلِه خُلقتِ الدّنيا ودرَجَ عليها الثّقلانِ. قال اللهُ — تعالى -: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾. وأجلُّ سبيلٍ للوصولِ لهذا المقامِ العزيزِ اتّخاذُ الخبايَا من صالحِ العملِ؛ وذلك بأنْ تكونَ هذه الصالحاتُ سراً بين العبدِ وربّه؛ قد سلِمتْ وصمةَ الابتداعِ وملاحظةَ الخَلقِ وآفةَ العُجبِ. وذلكَ ما انعقدَ عليه علمُ السلفِ الصالحِ، وبه كانت وِصاتُهم، يقولُ الزبيْرُ بنُ العوّامِ — رضيَ اللهُ عنه -: «مَن استطاعَ منكم أن يكونَ له خِبءٌ من عملٍ صالحٍ فليْفعلْ»، وقال عبدُ اللهِ بنُ داودَ: "كَانُوا يستحبُّون أَن يَكُونَ للرجلِ خَبيئةٌ من عملٍ صَالحٍ لا تعلمُ بِهِ زوجتُه، ولا غيرُها"، يقولُ الحسنُ البصريُّ: "إنْ كانَ الرَّجُلُ لَقَدْ جَمَعَ الْقُرْآنَ وَمَا يَشْعُرُ

بِـهِ النَّـاسُ، وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَقَـدْ فقُـه الْفِقْـهَ الْكَثِيـرَ وَمَـا يَشْـعُرُ بِـهِ النَّـاسُ، وَإِنْ كَانَ الرَّجُـلُ لَيُصَلِّـيَ الصَّـلَاةَ الطَّوِيلَـةَ فِـي بَيْتِـهِ وَعِنْـدَهُ الـزُّوَّرُ وَمَـا يَشْـعُرُونَ بِـهِ. وَلَقَـدْ أَدْرَكْنَا أَقْوَامًا مَا كَانَ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ عَمَلٍ يَقْدِرُونَ أَنْ يَعْمَلُوهُ فِي السِّرِّ، فَيَكُونُ عَلَانِيَـةً أَبَـدًا"، وقـال أبـو حـازمٍ: «اكْتُـمْ حَسَـنَاتِكَ كَمَـا تَكْتُـمُ سَيِّئَاتِكَ».

أيّها المسلمونَ!

السـرائرُ مـدارُ الأعمـالِ؛ ولـذا كان عليهـا الابتـلاءُ يـومَ هتْـكِ الأسـتارِ: ﴿يَـوْمَ تُبْـلَى ٱلسَّرَآئِـرُ﴾، والخبيئـةُ الصّالحـةُ أرجاهـا جـزاءً وأعظمُهـا ثوابـًا؛ فقـد قـال النبيُّ ﷺ لبلالٍ — رضيَ اللهُ عنه -: «يَا بِلَالُ حَدِّثْنِي بِأَرْجَى عَمَلٍ عَمِلْتَهُ فِي الإِسْلَامِ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ دَفَّ نَعْلَيْكَ بَيْـنَ يَـدَيَّ فِي الجَنَّـةِ»، قَـالَ: مَـا عَمِلْـتُ عَمَـلًا أَرْجَى عِنْدِي: أَنِّي لَـمْ أَتَطَهَّـرْ طَهُـورًا، فِـي سَـاعَةِ لَيْـلٍ أَوْ نَهَـارٍ، إِلَّا صَلَّيْـتُ بِذَلِـكَ الطُّهُـورِ مَـا كُتِـبَ لِـي أَنْ أُصَلِّـيَ" رواه البخـاريُّ ومسـلمٌ. قـال ابـنُ حِبـانَ: "قطْـبُ الطاعـاتِ للمرءِ في الدّنيا هـو إصلاحُ السـرائرِ، وتـركُ إفسـادِ الضمائرِ". وبالخَبيئـةِ الصالحـةِ الرفعـةُ ووضـعُ القَبـولِ؛ قـال عُثْمَـانُ بْـنُ عَفَّـانَ — رضـي اللهُ عنـه -: «لَـوْ أَنَّ عَبْدًا دَخَلَ بَيْتًا فِي جَوْفِ بَيْتٍ فَأَدْمَنَ هُنَاكَ عَمَلًا أَوْشَكَ النَّاسُ أَنْ يَتَحَدَّثُوا بِـهِ، وَمَا مِنْ عَامِلٍ يَعْمَلُ إِلَّا كَسَاهُ اللهُ رِدَاءَ عَمَلِهِ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَـرًّا فَشَـرٌّ»، وقـال ابـنُ مسـعودٍ — رضـيَ اللهُ عنـه -: «أَسِـرُّوا مَـا شِـئْتُمْ، مَـنْ أَسَـرَّ سَـرِيرَةَ خَيْـرٍ أَلْبَسَـهُ اللهُ رِدَاءَهَـا، وَمَـنْ أَسَـرَّ سَـرِيرَةَ شَـرٍّ أَلْبَسَـهُ اللهُ رِدَاءَهَـا»، وذكـرَ الإمـامُ أحمـدُ بـنُ حنبـلٍ يومـًا ابـنَ المباركِ فقـال: "مـا رفعَـه اللهُ إلا بخبيئـةٍ كانـتْ لـه"، وقـال ابـنُ الجـوْزيُّ: "واللهِ، لقـد رأيـتُ مَـن يكثـرُ الصـلاةَ والصـومَ والصمـتَ، ويتخشّـعُ في

نفسِه ولباسِه، والقلوبُ تنبو عنه، وقدْرُه في النّفوسِ ليس بذاكَ! ورأيتُ من يلبسُ فاخرَ الثيابِ، وليس له كبيرُنفلٍ، ولا تخشّعٍ، والقلوبُ تتهافتُ على محبَّتِه، فتدبرتُ السببَ؛ فوجدتُه السريرةَ!". والخبيئةُ الصالحةُ من أقوى أسبابِ تفريجِ الكربِ؛ وذاك ما تشِي به حادثةُ أهلِ الغارِ؛ ففي خَتمِها من روايةِ القضاعيِّ قولٌ مرويٌّ عن رَسُولِ اللهِ ﷺ: « مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ خَبِيئَةٌ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ فَلْيَفْعَلْ ». وبالخبيئةِ الصالحةِ دركُ حلاوةِ الطاعةِ والتلذُّذُ بها، قال بشرُ بنُ الحارثِ: «لَا يَجِدُ حَلَاوَةَ الْآخِرَةِ رَجُلٌ يُحِبُّ أَنْ يَعْرِفَهُ النَّاسُ». والخبيئةُ الصالحةُ سببٌ لحسنِ الخاتمةِ، يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ» رواه البخاريُّ ومسلمٌ، وذكر الحافظُ عبدُ الحقِّ الإشبيليُّ أَنّ رجلاً من الْمُنهمِكينَ فِي الْفسادِ مَاتَ فِي نواحِي الْبَصْرَةِ، فَلم تَجِدِ امْرَأَتُه مَن يعينُها على حملِ جنازَته؛ إِذْ لم يدرِ بهَا أحدٌ من جِيرَانِه؛ لِكَثْرَة فسْقِه، وتحامِي النَّاس لَهُ. فاستأجرتِ امْرَأَته حمّالَيْنِ يحملونَه إِلَى الْمصلّى، فَمَا صلّى عَلَيْهِ أحدٌ! فَحَمَلُوهُ إِلَى الصَّحرَاءِ ليَدفنوه بهَا، وَكَانَ بِالْقربِ من الْمَوضعِ جبلٌ فِيهِ رجلٌ من الزُّهَّادِ الْكِبَارُ ، فَنزل ذَلِك الزَّاهِدُ للصَّلَاةِ عَلَيْهِ؛ فانتشرَ الْخَبَرُ فِي الْبَلَدِ، وَقَالُوا: نزلَ فلَانٌ ليُصَلِّي على فلَانٍ؛ فَخرجَ النَّاسُ فصلّوا عَلَيْهِ مَعَ الزَّاهِدِ وَجعلُوا يتعجبّون من صلَاتِه عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُم: إِنِّي قيل لي فِي الْمَنَام: " انْزِلْ إِلَى الْموضعِ الْفُلَانِيّ ترى فِيهِ جَنَازَةَ رجلٍ لَيْسَ مَعهَا أحدٌ إِلَّا امْرَأَته فصلِّ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ مغْفُورٌ لَهُ"؛ فَزاد تعجُّبُ النَّاسِ، فاستدْعَى الزَّاهِدُ زَوجته فَسَأَلَهَا عَن ذَلِك وَكَيف كَانَت سيرتُه؟ فَقَالَت:

كَانَ كَمَا سَمِعتَ؛ كَانَ طولَ النَّهَارِ فِي الماخُورِ مشتغلاً بِشربِ الْخمرِ، فَقَالَ: انظري، هَل تعرفينَ لَهُ شَيْئا من أَفعَالِ الْخَيْرِ؟ قَالَتْ: لَا وَاللهِ، إِلَّا أَنَّه كَانَ يفِيقُ فِي كلّ يَوْمٍ من سُكرِه عِنْدَ صَلَاةِ الصُّبْحُ فيبدِّلُ ثِيَابَه وَيتوَضَّأُ وَيُصلّي الصُّبْحَ ثمَّ يعودُ إِلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ فيشتغلُ بشُربِه ولهوِه، وَكَانَ لَا يَخْلُو بَيتُه من يَتِيمٍ أَو يتيميْنِ يفضّلُه على وَلَدِه، وَكَانَ يفِيق فِي أَثْنَاء سكره فيبكي وَيَقُولُ: إِلهِي، أَيَّ زَاوِيَةٍ من زَوَايَا جَهَنَّمَ تُرِيدُ أَنْ تملأَها بِهَذَا الْخَبيثِ يَعْنِي نَفسَه؟! ودمعةُ الخشْيةِ الخفيّةِ سببٌ لاستِظْلالِ العبدِ في ظلِّ اللهِ — سبحانَه — يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه كما جاء في الصحيحَيْنِ.

أيّها الأحبَّةُ!

إنَّ قدْرَ الشيءِ بقدْرِ ما حلّ فيه، والمعنَى الذي جعلَ اللهُ بهِ للخبيئَةِ الصالحةِ هذا القدرَ العليَّ صفاءُ حقِّ اللهِ فيها بالتوحيدِ والإخلاصِ والصدقِ؛ فلم يكنْ للنَّفسِ ولا للخلقِ حظّ فيها؛ ولذا عظُمتْ عند اللهِ وإنْ دقّتْ في ميزانِ المادةِ والبشَرِ. يقولُ ذو النُّونِ: "لَمْ أَرَ شَيْئًا أَبْعَثَ لِطَلَبِ الْإِخْلَاصِ مِنَ الْوَحْدَةِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا خَلَا لَمْ يَرَ غَيْرَ اللهِ، وَإِذَا لَمْ يَرَ غَيْرَ اللهِ لَمْ يُحَرِّكْهُ إِلَّا حُكْمُ اللهِ، وَمَنْ أَحَبَّ الْخَلْوَةَ فَقَدْ تَعَلَّقَ بِعَمُودِ الْإِخْلَاصِ، وَاسْتَمْسَكَ بِرُكْنٍ كَبِيرٍ مِنْ أَرْكَانِ الصِّدْقِ". وقال أيوبُ السّختيانيُّ: "واللهِ! ما صدق عبدٌ إلا سرَّه ألا يُشعرَ بمكانِه".

وإذا أظهرتَ شيئًا حسَنًا	فليكنْ أحسنَ منهُ ما تُسِرّ
فمسِرُّ الخيرِ موسومٌ به	ومُسِرُّ الشّرِّ موسومٌ بشرّ

هذا، ولا يُستثنَى من أولويّةِ إخفاءِ العبادةِ إلا ما وردَ تشريعُها فعلاً في العلَنِ كصلاةِ الجماعةِ والحجِّ، أو كان في إظهارِها مصلحةٌ راجحةٌ على مصلحةِ الإسرارِ وأمِنَ صاحبُها من آفةِ الرِّياءِ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
وبعدُ، فاعلمُوا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنون!

من رامَ سلوكَ جادَّةِ الصدقِ المُفضيةِ لدَوْحاتِ البرِّ فليلُذْ بسرائرِ الصّالحاتِ، مُستصحِبًا في تذليلِ عِقباها تدبُّرَ معاني الإخلاصِ، وتَذَكُّرَ فضلِ عبادةِ السرّ وإخفاءِ الطّاعةِ، والادّراعَ بالمُجاهَدةِ وتقليلَ العملِ في عينِه، واستشعارَ فضلِ اللهِ عليهِ وتقصيرِه في حقِّ ربِّه، والإلحاحَ بالدعاءِ أنْ يبلِّغَه اللهُ نُزلَ الصِّديقينَ، ومطالعةَ أخبارِ أهلِ السرائرِ الصالحةِ؛ فينالَ من حبِّهم أو شَبَهِهم ما يُدْنيه من حالِهم أو يذْكي جَذوةَ الإخلاصِ في قلبِه؛ فيكونَ من المخبتينَ. وللقومِ في ذلكَ أخبارٌ وأسرارٌ؛ قال عبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ: "كان الحسنُ إذا أمرَ بشيءٍ كان من أعملِ الناسِ بهِ، وإذا نَهى عن شيءٍ كان من أتركِ الناسِ لهُ، ولم أرَ أحداً قطُّ أشبهَ سريرةٍ بعلانيَةٍ منهُ". وقال محمدٌ بنُ واسعٍ: «إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَبْكِي عِشْرِينَ سَنَةً وَامْرَأَتُهُ مَعَهُ لَا تَعْلَمُ بِهِ»، وصَامَ دَاوُدُ بنُ أَبي هندٍ أَرْبَعِينَ سَنَةً لَا يَعْلَمُ بِهِ أَهْلُهُ، وَكَانَ خَرَّازًا يَحْمِلُ مَعَهُ غَدَاءَهُ مِنْ عِنْدِهِمْ فَيَتَصَدَّقُ بِهِ فِي الطَّرِيقِ وَيَرْجِعُ عَشِيًّا فَيُفْطِرُ مَعَهُم. وكان ابنُ المباركِ يضعُ اللِّثامَ على وجهِه في الجهادِ؛ لئلّا يُعرفَ. وكَانَ أَيُّوبُ السختيانيُّ فِي مَجْلِسٍ فَجَاءَتْهُ عَبْرَةٌ فَجَعَلَ يَمْتَخِطُ وَيَقُولُ: مَا أَشَدَّ الزُّكَامِ. وحاصرَ مَسلمةُ حصنًا فندبَ الناسَ إلى نقْبٍ منهُ، فما دخلَه

أحدٌ، فجاء رجلٌ من عرضِ الجيشِ فدخلَه ففتحَه اللهُ عليهم، فنادَى مَسلمةُ: أينَ صاحبُ النّقبِ؟ فما جاءه أحدٌ، فنادَى: إني قد أمرتُ الأذنَ بإدخالِه ساعةَ يأتِي، فعزمتُ عليه إلّا جاءَ. فجاء رجلٌ فقال: استأذِنْ لي على الأميرِ، فقال له: أنتَ صاحبُ النَّقبِ؟ قال: أنا أخبرُكم عنه. فأتَى مَسلمةَ فأخبرهُ عنه، فأذنَ لهُ فقال له: إنّ صاحبَ النقْبِ يأخذُ عليكم ثلاثـاً: ألّا تُسوّدوا اسمَه في صحيفةٍ إلى الخليفةِ، ولا تأمرُوا له بشيءٍ، ولا تسألُوه ممّن هو، قال: فذاكَ لهُ، قال: أنا هوَ. فكان مَسلمةُ لا يصلي بعدَها صلاةً إلا قال: اللهمّ اجعلنِي مع صاحبِ النَّقبِ. وكان عبدُ الغنيِّ المقْدسيُّ يصلي من الليلِ وَيَحْمِلُ في ليلِه مَا أَمكنَه إِلَى بيُوتِ الأَرَامِلُ وَاليتَامَى سرّاً.

الدُّنيا بين همّين

الحمدُ للهِ معزِّ مَن أطاعَه ومولاهُ، ومذلِّ مَن عصاهُ وعاداهُ، نحمدُه على ما أولاهُ، ونستعينُه على ما يرضاهُ، ونستغفرُه ممّا يقلاهُ. وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ، وأشهدُ أنّ محمداً رسولُه ومجتباهُ، صلى اللهُ وسلمَ عليه وعلى آلِه وصحبِه ومَن استنّ بهداهُ.

أمّا بعدُ، فاتّقوا اللهَ — عبادَ اللهُ -، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ...﴾.

أيّها المؤمنونَ!

الدّنيا حاضنةُ البَشرِ، ومُستودَعُ الأعمالِ، وقنطرةُ الآخرةِ. والبصيرةُ في حالِها، والنّظرُ في طرائقِ التعامُلِ معها، وتفقّدُ مواقعِ السيرِ فيها والمصيرِ الذي ستؤولُ إليهِ، من أعظمِ المعارفِ التي تَهدي إلى حسنِ العيشِ فيها، وحوْزِ مغانمِها، والعافيةِ من عَنائها وشؤمِها. ولا بصيرةَ تَهدي لذلكَ سوى هدْي خالقِها وخالقِ الأنامِ الدّارجينَ عليها القائلِ: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾. هذا وإنّ الهمّ هو قُطبُ الرّحى الذي عليهِ تدورُ أعمالُ الدنيا؛ فهو قائدُها الذي يُنْهِضُها، وموجِّهُها الذي يدلّها، وسائقُها الذي يحدُوها؛ فالمرءُ بهمّه وهمَّته. والناسُ في الدنيا بين همّين، قد أوضحَ النبيُّ ﷺ كُنْهَهما وأثرَهما على أهلِهما في الحديثِ الصّحيحِ الذي رواهُ ابنُ ماجه وغيرُه إذْ يقولُ: «مَنْ

كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ — وفي روايةٍ: "أكبرَ همّه"، وفي أخرى: "نيّتَه" - فَرَّقَ اللهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ. وَمَنْ كَانَتِ الْآخِرَةُ نِيَّتَهُ جَمَعَ اللهُ لَهُ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ».

كلٌّ قد عملَ، وربَّما استَوتْ صورُ الأعمالِ، لكنْ تباينتِ النوايا والهمومُ — وهيَ أساسُ العملِ وأصلُه-فتباينَ الحالُ والعاقبةُ، والعيشُ والثمرةُ؛ والجزاءُ من جنسِ العملِ، ولا يظلمُ ربُّنا أحداً.

أيّها المسلمونَ!

إنّ من عِظَمِ المُصابِ ونِكايةِ البؤسِ تغلغُلَ الدنيا في القلبِ، واستحواذَها عليهِ، وكونَها أكبرَ همّه، والنيةَ التي تبعثُ على العملِ أو تُقعِدُ عنه دونَ حُسبانٍ للآخرةِ؛ فإنْ تكلمَ أو سكتَ أو أعطَى أو منعَ أو غدا أو راحَ أو عاشرَ أو هجرَ أو وافقَ أو خاصمَ أو مدحَ أو ذمَّ أو رجا أو خافَ؛ فإنّما ذلكَ لأجلِ الدّنيا. وذلكَ الحالُ مُنذرٌ بنكدٍ يغشَى حياةَ اللّاهثِ، ويكدّرُ صفوَها من حيثُ أرادَ بفِعَالِه الأُنْسَ بها والاستقرارَ؛ وهل يكونُ أنْسٌ واستقرارٌ والشَّملُ ضائعٌ والفقرُ بين العينيْنِ؟!.

"مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ فَرَّقَ اللهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ": فأمرُ هذا المفتونِ وشملُه الذي به تجتمعُ دنياهُ من مالٍ وولدٍ ورحمٍ قد تبدّدَ بتفريقِ اللهِ — عزّ وجلّ — جزاءَ ما ضيّعَ من أمرِه؛ فالنُّفرةُ والفُرقةُ والتنازُعُ والقطيعةُ فيهم فاشيةٌ وربَّما كانوا في بيتٍ واحدٍ. بل إنّ ذلكَ التفريقَ يمتدُّ إلى حياةِ المفتونِ الخاصّةِ؛ فلَربّما حُرِمَ

لـذةَ الرّاحـةِ ونعمـةَ الاسـتقرارِ النفسـيِّ حيـنَ تَـتراءَى بيـن ناظرَيْـه في مهْجعِـه أو في مُستراحِه بيـن أسـرتِه مخـاوفُ تقلُّـبِ الحـالِ وحسـرةُ فـواتِ الفرصـةِ. فعلـى قـدرِ مَـا خـلا قلبُـه مـن هـمّ الآخـرةِ ابْتُلي بهـمّ الدُّنْيَـا، وَلَـو امتـلأ مـن هـمّ الآخـرةِ لـم يُعـذَبْ بهمومِ الدُّنْيَا . وأنْكى حـالاتِ التّفريقِ إذا انفرطَ عِقدُ مَلاكِ أمرِه مـن بيـن يديْـه، وفـرّط في التهيُّـؤِ للقـاءِ ربِّـه، وهجـم عليـه المـوتُ مفلِسـًا هالـكـًا في وادٍ مـن أوديـةِ همـومِ الدنيـا المتشـعِّبةِ، كمـا قـال اللهُ — تعالـى -: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾، ويقـول النبيُّ ﷺ: « مَـنْ تَشَـعَّبَتْ بِـهِ الْهُمُـومُ فِـي أَحْـوَالِ الدُّنْيَـا لَـمْ يُبَـالِ اللهُ فِـي أَيِّ أَوْدِيَتِهَـا هَلَـكَ » رَوَاهُ ابْـنُ مَاجَـه وصحّحـه الألبـانيُّ.

عبادَ اللهِ!

والفقـرُ المـلازمُ عُقبَـى تشرُّبِ القلـبِ الدّنيـا: "وجعـلَ فقـرَه بيـن عينيْـه"، وذلـكَ الفقـرُالذي لا غِنى معه وإنْ ملـكَ صاحبُـه الدّنيـا بأسْـرِها؛ لِأَنَّ حَاجَـةَ الرَّاغِـبِ فِيهَـا لَا تَنقَضِـي؛ لِغَلَبَـةِ الْحِـرْصِ عَلَيْـهِ، وَالتَّأَسُّـفِ عَلَـى فَـوْتِ مَـا لَـمْ يُقَـدَّرْ لَـهُ. دنيـاه عِطَـاشٌ؛ كُلَّمَـا ازْدَادَ منهـا شَـرَابًا ازْدَادَ فيهـا عَطَشًـا؛ فنفْسُـه قفـرٌ مـن القناعـةِ؛ إذِ الفقـرُ بـادٍ بيـن عينيْـه دومـًا؛ فمتـى تبصرُ عينـاه الغِنـى؟! ونظـرةٌ لا تتجـاوزُ المفاقـرَ لا ترعَـى حقوقـًا، ولا توفّـي ذِممـًا، ولا تطّـردُ في طريقـةٍ؛ فالتلـوّنُ والبخـلُ والشّـرهُ والكـذبُ واكتسـابُ المـالِ الحـرامِ وبَخْـسُ الحقـوقِ وكتمانُهـا وإذلالُ النفـسِ

لأهلِ الدّنيا واسترضَاؤهم على حسابِ الديانةِ من مصابِ تلك النظرةِ — عافانا اللهُ منها -. ومع شدةِ الحرصِ وقصيِّ الاهتمامِ لم يصِبْ ممّا سعى في إدراكِه إلا قدْرَ ما كتبَ اللهُ لهُ: "وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ"؛ شُغِلَ بِمَا لَا يَجْرِي، وَتَعِبَ فِيمَا عنه لَا يُغْنِي، فازدادت الدُّنْيَا عَنْهُ بُعْداً؛ لِأَنَّهُ لَا يُصِيبُ مِنْهَا إِلَّا الْمَقْدُورَ، وَالْمَقْدُورُ لَا يُغْنِيهِ وَإِنْ كَثُرَ؛ تَعَبُ طَلَبٍ، وخَيْبَةُ تَعَبٍ.

أيّها المسلمونَ!

وإيتاءُ اللهِ — سبحانَه — ثوابَ الدنيا وحسنَ ثوابِ الآخرةِ جزاءٌ لمَن كانتِ الآخرةُ أكبرَ همّه، وكان شهودُها حاضراً في غالبِ دنياه، حينَ كان يرعَى الحِلَّ والحرمَ، ويخشَى الحسابَ بين يديْ مولاه فيما يُقبل عليه من الأعمالِ والأقوالِ وما يَذرُ، وله فيها نيّةٌ صالحةٌ على بَصيرةٍ من هدىً ورجاءِ ثوابٍ. ومن ثوابِ الدّنيا التي لا تهنأُ إلا به اجتماعُ الهمِّ وانتظامُ الشملِ، وذلكَ لا يكونُ إلا لمَن كانتِ الآخرةُ غالبةٌ همَّه: "مَنْ كَانَتِ الْآخِرَةُ نِيَّتَهُ جَمَعَ اللهُ لَهُ أَمْرَهُ"؛ فلا تُشتّتُه الهمومُ، ولا تفرّقُه الضِّياعُ، ولا تفنّدُه الأحزانُ، ولا يفتنُه المالُ والولدُ عن طاعةِ ربِّه، بل يجمعُ اللهُ لهُ ذلكَ وإنْ تناءتْ أماكنُها وتباينتْ طرائقُها، ويورثُه رفقًا وحسنَ تدبيرٍ في مُعاملاتِه، فينقادُ له أمرُه مذلّلاً مسخَّراً حينَ جعل الآخرةَ همّه الأولَ، مع رفعةِ الدّرجاتِ بها، ومُضاعفةِ الحسناتِ، كما قال اللهُ — تعالى -: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾. وتلكَ من كفايةِ اللهِ أهلَ الآخرةِ همَّ الدّنيا، يقولُ النبيُّ ﷺ: «مَنْ جعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا هَمَّ آخِرَتِهِ كَفَاهُ اللهُ هَمَّ دُنْيَاهُ». رَوَاهُ ابْنُ مَاجَه وصحّحه الألبانيُّ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.

وبعدُ، فاعلمُوا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

وغِنى القلبِ من أرفعِ نعيمِ الدّنيا وأمنعِه؛ إذِ الدّنيا لا تطيبُ إلا به. وذلكَ النعيمُ حسنةٌ من تغليبِ همّ الآخرةِ : "وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ"؛ قَنوعٌ بما رزقَه اللهُ، غنيٌّ بما آتاه. وهذا هو الغِنَى حقيقةً وإنْ كان مُلْكُ صاحبِه قليلاً، كما قال النبيُّ ﷺ: «لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ، وَلَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ» رواه البخاريُّ ومسلمٌ. ومن شأنِ هذه القناعةِ قوةُ التوكّلِ على اللهِ، وحسنُ الظنِّ به، والثَّباتُ على المبادئِ، والاطمئنانُ، وعزةُ النفسِ، وتركُ التطلُّعِ لما في أيدي الناسِ، وعدمُ حسدِهم؛ فيطيبُ بذلكَ العيْشُ، وتهنأ الحياةُ، كما قال اللهُ — تعالى -:﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾، قال الحسنُ البصريُّ — رحمهُ اللهُ -: "هي القَناعةُ".

عبادَ اللهِ!

وتيسُّرُ أسبابِ الرزقِ وهناءُ طلبِه وإتيانُه ببركةٍ فِي رَاحَةٍ وخلوّ بالٍ من ثمارِ تقديمِ همّ الآخرةِ على الدّنيا: "وأتتْه الدّنيا وهي راغمةٌ"، تَأْتِيهِ مِنْ غَيْرِ كلَفٍ بها؛ إذْ قَلَّ مَا يُؤْتَى طِلَابُهَا إِلَّا بِجَهْدٍ وَطَلَبٍ لَهَا حَثِيثٍ، فَإِذَا جَاءَتْ مِنْ غَيْرِ

تعلُّقٍ فَكَأَنَّهَا جَاءَتْ رَاغِمَةً صَاغِرَةً ذَلِيلَةً. وتلك كَرامةٌ من اللهِ لمَن لم تكنِ الدّنيا أكبرَ همّه ولا مبلغَ علمِه.

ومَن أرادَ أن يعرفَ نفسَه من أيّ الفريقيْنِ هوَ؛ فلْينظرْ فيما يغلبُ على حالِه: ما يفكّرُ فيهِ ويتمنّاه، ويُفرحُه ويُحزنُه، و يُغضبُه ويُرضِيه، وما يؤثّر تأثيراً مباشراً في قراراتِه.

وبعد — معشرَ الإخوةِ — هذه هُمومُ أهلِ الدّنيا، وما تؤولُ بهم في حياتِهم؛ فأبصِروا همّكم في صُبحِكم ومسائِكم، وكونوا من ذَوي الهمّ الأُخْرويِّ؛ تظفَروا بنعيمِ الدّنيا والآخرةِ.

الذينَ يخشوْنَ ربَّهم بالغيبِ

الحمدُ للهِ عالمِ السرِّ والعَلانيةِ، أحاط علمُه بكلِّ خافيةٍ، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له عمّ برُّه كلَّ ناحيةٍ، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلى اللهُ وسلمَ عليه وعلى آلِه وصحبِه أهلِ الفرقةِ الناجيةِ.

أمّا بعدُ، فاتّقوا اللهَ –عبادَ اللهِ–، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ... ﴾.

أيّها المؤمنونَ!

للإيمانِ مَحَكَّاتٌ يُختبرُ فيها صِدقُه، ومن أدقِّ تلكَ المَحكَّاتِ خَلوةُ المرءِ عن أعينِ الخَلقِ مع دنوِّ الحرامِ وتيسُّرِه وأمنِه من عواقبِه في الدّنيا؛ فذاكَ –لعَمْرُ اللهِ– موطنُ اختبارٍ شديدٍ شديدٍ؛ به تَبينُ قوةُ الإيمانِ ومدى صدقِه، قال الحسنُ البصريُّ: "الإيمانُ إيمانُ مَنْ خشيَ اللهَ بالغيبِ"، وقال الشافعيُّ: "أعزُّ الأشياءِ ثلاثةٌ: الجودُ من قِلَّة، والوَرعُ في خَلوة، وكلمةُ الحقِّ عند من يُرجى ويُخاف". ولا يَعْصِمُ المرءَ من الاجتراءِ على مُقارفَةِ ذنوبِ الخَلواتِ إلا حاجزُ خشيةِ الغيبِ من اللهِ حين تعمرُ القلبَ وتملؤهُ تلكَ الخشيةُ التي جمعتْ بين الخوفِ من اللهِ والحياءِ منهُ والعلمِ بقدرتِه وعزّتِه وجَبروتِه واطِّلاعِه ومراقبتِه واستواءِ الغيبِ والشَّهادةِ في علمِه، ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾. فذلك العلمُ –كما قال ابنُ رجبٍ– هو السببُ المُوجِبُ

لخشيةِ اللهِ في السرِّ، فإنَّ مَنْ عَلِمَ أنَّ اللهَ يراهُ حيثُ كان، وأنَّه مُطَّلعٌ على باطنِه وظاهرِه، وسرِّه وعلانيتِه، واستحضرَ ذلكَ في خَلواتِه؛ أوجبَ له ذلكَ تركَ المعاصِي في السِّرِّ، وإلى هذا المعنى الإشارةُ في القرآنِ بقولِه - عزّ وجلّ -: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾. كتب ابنُ السَّماك الواعظُ إلى أخٍ له: "أمّا بعدُ، أُوصيكَ بتقوى الله الذي هو نَجيُّكَ في سريرتِك، ورقيبُك في علانيتِك؛ فاجعلِ اللهَ من بالِك على كُلِّ حالِكَ في ليلِك ونهارِك، وخفِ اللهَ بقدْرِ قُربِه منكَ، وقُدرتِه عليكَ، واعلمْ أنَّك بعينِه؛ ليس تَخرُجُ من سلطانِه إلى سلطانِ غيرِه، ولا من مُلكِه إلى مُلكِ غيرِه؛ فليَعْظُمْ منه حَذَرُك، ولْيكثرْ منه وَجَلُكَ. والسلامُ".وقال بعضُهم: "ابنَ آدم، إنْ كنتَ حيثُ ركبتَ المعصيةَ لم تَصْفُ لك مِن عينٍ ناظرةٍ إليك، فلما خلوتَ باللهِ وحدَه صَفَتْ لك معصيتُهُ، ولم تستحِ منه حياءَك من بعضِ خلقِه، ما أنتَ إلا أحدُ رجليْنِ: إنْ كنتَ ظننتَ أنَّه لا يراكَ، فقد كفرتَ، وإنْ كنتَ علمتَ أنَّه يراكَ فلم يمنعْك منه ما منعكَ مِن أضعفِ خلقِه لقد اجترأتَ عليه".

أيّها المسلمونَ!

إن خشيةَ اللهِ — تعالى- في الغيبِ من أعظمِ خصالِ التّقوى ومظاهرِها التي تدلُّ على حقيقتِها، كما قال —تعالى-:﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٨ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾. وتلكَ الخشيةُ من أعظمِ أسبابِ المغفرةِ العظيمةِ التي بها تُورثُ الجنةُ، قال —تعالى-: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ

ﭐلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾. وخشيةُ الغيبِ من أجلّ ما يليّنُ القلبَ؛ فتُجدي فيه النُّذرُ، وتنفعُه الذكرى أبلغَ نفعٍ، قال —تعالى-: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾. وخشيةُ اللهِ بالغيبِ أعظمُ حاملٍ للعبدِ على المحافظةِ على الطاعاتِ الواجبةِ والمُستحبةِ، ومحاسبةِ النفسِ، وتذكُّرِ سوالفِ الذنوبِ، والاستغفارِ منها، وعدمِ الغفلةِ عنها؛ وذاكَ ما يَكْسِرُ العبدَ، ويوجبُ له الإنابةَ إلى طاعةِ موْلاه؛ ليكونَ ممّن شَمِلَهُمُ اللهُ برحمتِه، وأوجبَ لهم دخولَ جنتِه، والنظرَ إلى وجهِه الكريمِ، آمناً من الفزعِ الأكبرِ، سالماً من كُرَبِ يومِ الدينِ، كما قال —تعالى-: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ٣١ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ ٣٢ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ٣٣ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ٣٤ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾. وبخشيةِ الغيبِ الدائمةِ أو الغالبةِ يحققُ العبدُ أعظمَ مراتبِ الدينِ مرتبةَ الإحسانِ؛ وذلكَ بأنْ يَعْبُدَ العبدُ ربَّه كأنهُ يراهُ، وذاكَ سببُ توقِّيه كبائرَ الإثمِ والفواحشَ إلا اللممَ، كما قال أهلُ العلمِ. وخشيةُ الغيبِ أكثرُ الأسبابِ الموجبةِ للاستظلالِ بظلِّ عرشِ اللهِ يومَ لا ظلَ إلا ظلُّه، كما قال النبيُّ ﷺ: "سبعةٌ يظلّهمُ اللهُ في ظلِّه يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه"، وذَكَرَ منهم: "ورجلٌ دَعَتْه امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجمالٍ، فقال: إني أخافُ اللهَ"، "ورجلٌ ذَكَرَ اللهَ خالياً ففاضتْ عيناه" رواه البخاريُّ ومسلمٌ. وبتلكَ الخشيةِ تُنالُ محبةُ اللهِ — جلّ وعلا-، يقولُ النبيُّ ﷺ: "«ثَلَاثَةٌ يُحِبُّهُمُ اللهُ: رَجُلٌ أَتَى قَوْمًا فَسَأَلَهُمْ بِاللهِ وَلَمْ يَسْأَلْهُمْ لِقَرَابَةٍ كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ فَمَنَعُوهُ، فَتَخَلَّفَ رَجُلٌ بِأَعْقَابِهِمْ، فَأَعْطَاهُ سِرًّا؛ لَا يَعْلَمُ بِعَطِيَّتِهِ إِلَّا اللهُ وَالَّذِي أَعْطَاهُ، وَقَوْمٌ

سَارُوا لَيْلَهُمْ حَتَّى إِذَا كَانَ النَّوْمُ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِمَّا يُعْدَلُ بِهِ، فَوَضَعُوا رُؤوسَهُمْ فَقَامَ رَجُلٌ يَتَمَلَّقُنِي وَيَتْلُو آيَاتِي، وَرَجُلٌ كَانَ فِي سَرِيَّةٍ فَلَقُوا العَدُوَّ، فَهُزِمُوا، فَأَقْبَلَ بِصَدْرِهِ حَتَّى يُقْتَلَ أَوْ يُفْتَحَ لَهُ» رواه الترمذيُّ وصحّحه. وبخشيةِ الغيبِ يَنْصَحُ المرءُ في عملِه، ويجتهدُ في أداءِ الحقوقِ العامّةِ والخاصّةِ، حدّثتْ فاطمةُ بنتُ عبدِالملكِ زوجةُ الخليفةِ الراشدِ عمرَ بنِ عبدِالعزيزِ أنّها دخلتْ عليه فإذا هو جالسٌ في مُصَلّاه مُعْتَمِداً يدَه على خدِّه، سائلةً دموعُه على لحيتِه، فقالت: يا أميرَ المؤمنين، الشيءُ حَدَثَ؟ قال: يا فاطمةُ، إني تقلّدتُ أمرَ أمةِ محمدٍ ﷺ أحمرِها وأسودِها، فتفكّرتُ في الفقيرِ الجائعِ، والمريضِ الضائعِ، والغازي المجهودِ، والمظلومِ المقهورِ، والغريبِ الأسيرِ، والشيخِ الكبيرِ، وذي العيالِ الكثيرِ والمالِ القليلِ، وأشباهِهم في أقطارِ الأرضِ وأطرافِ البلادِ؛ فعلمتُ أنّ ربّي سيسألُني عنهم يومَ القيامةِ، وإنّ خَصْمي دونَهم محمدٌ؛ فخشيتُ أن لا يثبتَ لي حُجةٌ عند خصومتِه؛ فرحمتُ نفسي؛ فبكيتُ! وبخشيةِ الغيبِ تزكو النفسُ وتصفو، وتسلمُ من الحسدِ والغشِّ، وتَمْحَضُ النصحَ لمَن استشارَها، ويُصْقَلُ الفِكْرُ، ويُوَفَّقُ للرأي الصائبِ، كما قال عمرُ -رضي اللهُ عنه-: "شاوِرْ في أمرِك مَن يخشوْن ربَّهم بالغيب".

عبادَ اللهِ!

لِخشيةِ اللهِ في الغيبِ سرٌ عجيبٌ في إلقاءِ المحبةِ لصاحبِها في القلوبِ، قال ابنُ رجبٍ: "تقوى اللهِ في السرِّ هو علامةُ كمالِ الإيمانِ، وله تأثيرٌ عظيمٌ في إلقاءِ اللهِ لصاحبِه الثناءَ في قلوبِ المؤمنينَ...قال أبو الدرداءِ: "لِيَتَّقِ أحدُكم أنْ

تلعنَه قلوبُ المؤمنينَ وهو لا يشعرُ، يخلو بمعاصي اللهِ، فيُلْقي اللهُ له البغضَ في قلوبِ المؤمنينَ"... ومِنْ أعجبِ ما رُوي في هذا ما رُوي عن أبي جعفرَ السائحِ قال: كان حبيبٌ أبو محمدٍ تاجراً يَكْرِي الدراهمَ، فمرَّ ذات يومٍ، فإذا هو بصبيانٍ يلعبون، فقال بعضُهم لبعضٍ: قد جاء آكِلُ الرِّبا، فنكّس رأسَه، وقال: يا ربِّ، أفشيتَ سرِّي إلى الصبيانِ، فرجعَ فجمعَ مالَه كُلَّه، وقال: يا ربِّ إنِّي أسيرٌ، وإني قد اشتريتُ نفسي منكَ بهذا المالِ فأعتقْني، فلمّا أصبحَ، تصدَّقَ بالمالِ كلِّه وأخذَ في العبادةِ، ثم مرَّ ذاتَ يوم بأولئكَ الصّبيانِ، فلما رأوْه قال بعضُهم لبعضٍ: اسكُتوا؛ فقد جاء حبيبٌ العابدُ، فبكى وقال: يا ربّ، أنتَ تذمّ مرَّةً وتحمَدُ مرَّةً، وكلُّه مِن عندِك".

الخطبة الثانية

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أمّا بعدُ، فاعلمُوا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنون!

إن خشيةَ الغيبِ باستشعارِ مراقبةِ اللهِ، واليقينِ باستواءِ الغيبِ والشَّهادةِ في علمِه، ومراعاةَ ذلكَ حالَ الخَلوةِ مِن ألزمِ ما يجبُ تعاهُدُه في النفسِ، والمحاسبةُ عليهِ، وتذكيرُ الغيرِ به؛ فذاكَ من أعظمِ الحقِّ الذي يُتواصَى به؛ ليَسلمَ الجميعُ من الخَسارِ، خاصةً في هذا الزّمنِ الذي سَهُلَ فيه الخَلوةُ بالحرامِ. ولئن عَلَتْ درجةُ تلك الخشيةِ، وصَعُبَ منالُها؛ فإنّ سُلَّمَ المجاهدةِ والتعويدِ يُوصِلُ الصادقين لها بإعانةِ الله، سيّما مع إدمانِ سؤالِ اللهِ تحقيقَها، قال ابنُ شيخِ الحزّاميّين: "عَوِّدْ نفسَك - أيّها الأخُ - بالحياءِ مِن اللهِ -عزّ وجلّ-، ولو ساعةً من نهارٍ، ثمّ عُدْ إلى أشغالِكَ ومَهماتِك، ثم عُدْ واحفظْ تلكَ الساعةَ واكْتمْ هذه المعاملةَ بينكَ وبين موْلاك؛ لا تحدِّثْ أحداً بأنّك تعملُ مِثلَ هذا؛ فيُخشى أنْ ينطفئَ نورُ المراقبةِ من قلبِك، ولا تزالُ كذلكَ تتعوّدُ هذا ساعةً بعدَ ساعةٍ حتى يبقى الحياءُ من اللهِ طبيعةً فيك". وكان من دعاءِ النبيِّ ﷺ: "وأسألُك خشيتَك في الغيبِ والشهادةِ" رواه أحمدُ وصحّحه ابنُ حِبانَ والحاكمُ.

إذا ما خَلَوْتَ الدَّهرَ يوماً فلا تَقُلْ خَلوتُ ولكِـنْ قُلْ عَلَـيَّ رَقِيبُ
ولا تَحْسَـبَنَّ الله يَغْفُـلُ سَـاعةً ولا أنَّ مـا يَخْفَـى عَلَيْـهِ يَغِيـبُ

العقوباتُ الخفيّةُ

إنَّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، منْ يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومنْ يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ...﴾.

أيُّها المؤمنون!

لِغايةِ العبوديةِ أوجدَ اللهُ -سبحانه- الثَّقَلين، وسخَّرَ لهم الكونَ وما حواه، قال -تعالى-: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، وجَعَلَ ذلك الكونَ متَّسِقاً مع تلك الغايةِ؛ قياماً بوظيفتِها التعبديّةِ، وتذكيراً بها، ودِلالةً على استحقاقِ اللهِ لها، قال -تعالى-: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ﴾. ولتحقيقِ العبوديةِ سَاقَ -سبحانه- العبادَ بالوعدِ لمَن حقَّقَها، والوعيدِ لمَن أخْفرَها، وجَعَلَ العقوباتِ زاجراً عن مخالفةِ تلك الغايةِ، ونوّعَ تلك العقوباتِ طرائقَ قِدَداً؛ دنيويةً وأُخرويةً، حسيةً ومعنويةً، وكان أخطرَ تلك العقوباتِ العقوبةُ الخَفِيّةُ التي لا تُرى، ولا يَشْعُرُ بها العاصي، ولا يُبْصرُ معها آثارَ ذنبِه؛ فَيَسْدُرُ في غيِّه، ولا يَلْوِي عنه حتى يُفْضيَ به إلى هُوَّةٍ سحيقةٍ مِن الهلاكِ. قال ابنُ القيِّمِ: "فالذنبُ لا يخلو مِن عقوبةٍ ألبتةَ، ولكنْ لِجهلِ العبدِ لا

يشعُرُ بما فيه مِن العقوبةِ، لأنه بمنزلةِ السكرانِ والمخدَّرِ والنائمِ الذي لا يشعرُ بالألمِ. فتَرَتُّبُ العقوباتِ على الذنوبِ كتَرَتُّبِ الإحراقِ على النارِ، والكَسْرِ على الانكسارِ، والغرقِ على الماءِ، وفسادِ البدنِ على السمومِ، والأمراضِ على الأسبابِ الجالبةِ لها. وقدْ تُقارِنُ المضرَّةُ الذنبَ وقد تتأخرُ عنه، إمّا يسيراً وإمّا مدةً، كما يتأخرُ المرضُ عن سببِه أنْ يُقارنَه. وكثيراً ما يقعُ الغلطُ للعبدِ في هذا المقامِ ويذنبُ الذَّنْبَ فلا يَرى أثرَه عَقِبَه، ولا يدري أنه يعملُ عملَه على التدريجِ شيئًا فشيئًا، كما تعملُ السمومُ والأشياءُ الضارةُ حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ. فإنْ تدارَكَ العبدُ نفسَه بالأدويةِ والاستفراغِ والحِمْيةِ، وإلا فهو صائرٌ إلى الهلاكِ، هذا إذا كان ذنْبًا واحداً لم يَتَدارَكْه بما يزيلُ أثرَه؛ فكيفَ بالذنْب على الذنْب كلَّ يومٍ وكلَّ ساعةٍ؟! واللهُ المستعانُ". وقال ابنُ الجَوزيِّ: "ولَعمري، إنَّ أعظمَ العقوبةِ ألّا يدرِي بالعقوبةِ!".

عبادَ اللهِ!

إنَّ أخطرَ عقوباتِ الذنْبِ الخَفِيَّةِ نسيانُ اللهِ عبدَه، وتَرْكُهُ دون مَددٍ ربانيٍّ أو ملائكيٍّ، بل يُخْلِي بينه وبين نفسِه وشيطانِه وأعوانِه، وهنالك الهلاكُ الذي لا يُرجى معه نجاةٌ -كما قال ابنُ القيمِ-، قال اللهُ -تعالى-: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾. ومن آثارِ ذلكَ النسيانِ على العاصي -وهو مِن خَفِيِّ العقابِ- تزيينُ سوءِ عملِه في عينِه، وإمعانُه في ارتكابِ الخطايا، وإلْفَتُها، واستسهالُها، وتَفَتُّحُ أبوابِها له وتسهيلُها عليه، فيتّسعُ نطاقُها، ويَخِفُّ وَقْعُ حيائِه منها لِيجاهرَ بها؛ فيزدادَ سوادُ مَن يُضِلُّهم حاملاً أوزارَهم مع وزرِه

الـذي أنْقَضَ ظهـرَه، ويغيـبُ عنه ذكـرُ التوبـةِ، وتنصرفُ نفسُه عـن الطاعـةِ، كمـا قـال -تعالـى-: ﴿فَـإِن تَوَلَّـوۡاْ فَٱعۡلَـمۡ أَنَّمَـا يُرِيـدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُـم بِبَعۡـضِ ذُنُوبِهِـمۡۗ﴾، ومِثْلُ هـذا قَلَّ أن يوفَّقَ للتوبـةِ، وهـو مِن عفوِ اللهِ بعيدٌ؛ وهـذا -لَعَمْرُ اللهِ- عيـنُ الهـلاكِ والخسـارِ، قـال النبـيُّ ﷺ: "كلُّ أمتي مُعافَى إلا المجاهريـنَ، وإنَّ مـن المجاهـرةِ أن يعمـلَ الرجـلُ بالليـلِ عمـلاً، ثـم يُصْبِـحُ وقـد سـترَه اللهُ عليـه، فيقـولُ: يـا فـلانُ، عَملـتُ البارحـةَ كـذا وكـذا، وقـد بـاتَ يسـترُه ربُّـه، ويُصْبِـحُ يَكْشِفُ سترَ اللهِ عنه " رواه البخاريُّ ومسلمٌ. ومِن شـديدِ عقابِ الذنـوبِ الخفيِّ الطبْعُ على القلبِ؛ فيَسْوَدُّ، ويَعمَى، ولا يبصرُ إلا ما يهوى؛ ويَغُورُ مِن قلبه مـاءُ الغيرةِ، وتَذْبُلُ فيه جذوةُ تعظيمِ الشعائرِ والحُرُماتِ؛ فيَسْهُلُ على الشيطانِ قيادُه، ويُسِيمه مراتـعَ العطـبِ، قـال النبـيُّ ﷺ: "تُعرَضُ الفتنُ على القلوبِ كالحصيرِ عُـوُدًا عُـوُدًا، فـأيُّ قلبٍ أُشْرِبَها، نُكِتَ فيه نُكْتةُ سوداءُ، وأيُّ قلـبٍ أَنْكَرهـا، نُكتَ فيـه نكتـةٌ بيضـاءُ، حتـى تصيـرَ علـى قلبيْـن، علـى أبيـضَ مِثـلِ الصَّفـا[١]؛ فـلا تضـرُّه فتنـةٌ مـا دامـتِ السـماواتُ والأرضُ، والآخـرُ أسـودُ مُرْبَادًا[٢] كالكُوزِ[٣] مُجَخِّيـًا[٤] لا يَعْـرِفُ معروفـًا، ولا يُنكـرُ منكـراً، إلا مـا أُشـربَ مِـن هـواه" رواه مسـلمٌ.

أيّها المسلمون!

وقسـوةُ القلـبِ مِـن خطيـرِ العقوبـةِ الخفيّـةِ، قـال مالـكُ بـنُ دينـارٍ: "إنَّ للهِ عقوبـاتٍ

(١) الصفا: الحجر الأملس.
(٢) المرباد: المتكدِّر بين البياض والسواد.
(٣) الكوز: الكأس.
(٤) مجخيًا: مقلوبًا.

في القلوبِ والأبدانِ: ضَنْكًا في المعيشةِ، ووَهَنًا في العبادةِ، وما ضُرِبَ عبدٌ بعقوبةٍ أعظمَ مِن قسوةِ القلبِ". والقسوةُ متى حلَّتْ في القلبِ مَنَعَتْه الادِّكارَ والاتِّعاظَ؛ فلا يتأثَّرُ بالآياتِ إنْ تُلِيَتْ، ولا يتّعظُ بالأحداثِ وإنْ وقعتْ عليه أو رآها عَيانًا؛ كما قال —تعالى-: ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ فالاتّعاظُ إنّما يكونُ بنورِ الخشيةِ الذي ترحّلَ مِن القلبِ حين قسا، قال -تعالى-: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾. وغالبًا ما تكونُ قسوةُ القلبِ حاملةً على الكِبْرِ وعدمِ الانقيادِ للحقِّ؛ وذاكَ مِن أعظمِ موانعِ الانتفاعِ بالآياتِ، كما قال —تعالى-: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾. ومِن خَفيِّ العقوبةِ أنَّ حُجُبَ الذنوبِ تُحِلُّ الوحشةَ في قلبِ العاصي؛ فيستشعرُها في علاقتِه مع ربِّه، ومع خَلْقِه، كما أنَّ حُجُبَ الذنوبِ مغناطيسٌ يَجْذِبُ إلى القلبِ شَتاتَ المخاوفِ والأوهامِ، كما قال —تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾؛ خوفٌ من المرضِ، أو الرزقِ، أو العدوِّ، أو المستقبلِ، بل خوفٌ لا يُعْلَمُ سببُه.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أمّا بعدُ، فاعلموا أنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنون!

ومن العقوباتِ الخفيةِ للذنوبِ -كما قال أهلُ العلم- قلةُ التوفيقِ، وفسادُ الرأي، وسوءُ الاختيارِ للنَّفْسِ، وخفاءُ الحقِّ، وإضاعةُ الوقتِ، ومنْعُ إجابةِ الدعاءِ، وحرمانُ لذةِ المناجاةِ الربّانيةِ، ومَحْقُ البركةِ في الرزقِ والعمرِ، وحرمانُ العلمِ، ونسيانُ حفظِ القرآنِ، والخذلانُ، ولباسُ الذلِ، وإهانةُ العدوِّ، وضيقُ الصدرِ، والابتلاءُ بقُرناءِ السوءِ الذين يفسدون القلبَ ويضيّعون الوقتَ، وطولُ الهمِّ والغمِّ، وضَنْكُ المعيشةِ، وكَسْفُ البالِ، وتعسُّرُ الأمورِ، وتنغيصُ الحلالِ، والنُّفْرةُ وإلقاءُ البغضاءِ لصاحبِها في قلوبِ الخلْقِ، والتّثاقلُ عن الطاعةِ، وحرمانُ حلاوتِها. ومِن أعظمِ العقوباتِ خفاءً وأشدِّها خطراً أنْ يُستدرَجَ العبدُ بالنّعمِ وثناءِ الكاذبين مع إمعانِه في لُجّةِ العصيانِ حتى يقفَ على شفيرِ الخاتمةِ، وتَحُلُّ بساحتِه رسلُ الموتِ؛ فيقدمُ على ربِّه بالوزرِ غيرَ معذورٍ ولا منيبٍ، كما قال -تعالى-: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾. بكى سفيانُ الثوريُّ ليلةً إلى الصباحِ، فلما أصبحَ قيل له: كلُّ هذا خوفًا مِن الذنوبِ؟ فأخذَ تبْنةً مِن الأرضِ، وقال: الذنوبُ أهونُ مِن هذا، وإنما أبكي مِن خوفِ سوءِ الخاتمةِ.

قال ابنُ القيم: "وهذا مِن أعظمِ الفقهِ: أنْ يخافَ الرجلُ أن تخذلَه ذنوبُه عند الموتِ؛ فتحُوُلُ بينه وبين الخاتمةِ الحُسنى".

عبادَ اللهِ!

إنَّ خفاءَ العقوبةِ يُوجِبُ على العبدِ أنْ يكونَ مُرْهَفَ الحِسِّ، يَقِظَ الضميرِ تُجاهَ الذنوبِ وعقابِها؛ وذلك يُحَتِّمُ عليه أنْ يكونَ شديدَ التحرُّزِ من مُواقعةِ المآثمِ، وإنْ وَقَعَ فيها —وهو لا بدَّ واقعٌ- بادرَ باستصلاحِ الزللِ وغَسْلِ الحُوُبَةِ بطهورِ ماءِ التوبةِ النّصوحِ وإدمانِ الاستغفارِ، وألا يغرَّه إبطاءُ العقوبةِ أو خفاؤها؛ فإنما يُبادِرُ بالعقوبةِ مَن يخافُ الفَوْتَ، وسلطانُ اللهِ غالبٌ، وكيدُه متينٌ.

العِوَضُ الربانيُّ

إنّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مُضلّ له، ومَن يضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ...﴾.

أيّها المؤمنونَ!

الكدَرُ قدَرُ اللهِ في صفوِ الدّنيا ونعيمِها؛ فأفراحُها ولَذائذُها مَشوبةٌ بالنّقصِ أو التّركِ؛ كي لا يرضَى العبادُ بالدّنيا، ويطْمئنّوا بها؛ ويصِيروا إلى الآخرةِ خاسرينَ. ومن لُطفِ اللهِ بعبادِه ورحمتِه أنْ جعلَ لهم عِوَضاً من كلِّ فائتٍ، وعزاءً من كلِّ مفقودٍ، وجبراً من ناقصٍ إنْ هم فقِهوا عِوَضَه الربانيَّ وأتَوْا بآدابِه؛ فذاك الجزاءُ والعِوَضُ أثرُ رحمةِ الرحيمِ ولطفِه، وجَبْرِ الجبّارِ لانكسارِ القلوبِ، وإحسانِ المُحسنِ للخلقِ، وكرمِه لهم. وجَرَتْ عادةُ اللهِ التي لا تتبدّلُ في خلْقِهِ أنّ مَن تركَ شيئاً للهِ - عزّ وجلّ -، أو أخذ منه محبوباً لَهُ واحتسبَ ؛ عوّضَه اللهُ خيراً ممّا تركَ أو فقدَ. يقولُ النبيُّ ﷺ: "إنّك لن تدعَ شيئاً للهِ - عزّ وجلّ - إلا بدّلكَ اللهُ به ما هو خيرٌ لكَ منه" رواه أحمدُ وصحّحه الألبانيُّ على شرطِ مسلمٍ. وقال ابنُ عمرَرضيَ اللهُ عنهُ : "ما تركَ عبدٌ أمراً، لا يتركُه إلا للهِ إلا عوّضَه اللهُ منه ما هو خيرٌ له منهُ في دينِه ودُنْياه". وقال ابنُ سيرينَ: "سمعتُ

شُرَيْحًا يحلفُ بالله: ما تركَ عبدٌ للهِ شيئًا؛ فوجدَفقْدَهُ".

أيّها المسلمون!

إنّ فقهَ العِوضِ الربّانيِّ يُورثُ العبدَ ثقةً بالخَلَفِ، وقوةً في التحمّلِ، وعزاءً وسلوةً ورضًا، كما أنّ هذا الفقهَ يوسّعُ مداركَ العبدِ، ويبصّرُه بلطفِ اللهِ له وإغداقِه الفضلَ عليهِ وإنْ فَقَدَ ما فقدَ أو تركَ ما تركَ؛ وذلكَ أنّ هذا العوَضَ يأتي على أنماطٍ شتّى؛ كلُّها أفضلُ ممّا تركَ أو فقدَ، ولا ينحصرُ ذلكَ العوضُ في خَلَفِ الشيءِ المفقودِ أو المتروكِ بعينِه أو جنسِه، بل منه ما يكونُ عِوضًا دنيويًا مباركًا؛ محسوسًا أو غيرَ محسوسٍ، ومنه ما يكونُ أُخرويًا، وذلك خيرُ أنواعِ العوضِ، وكلُّه خيرٌ؛ إذْ ذاكَ العوضُ من الخيرِ الكثيرِ الذي أخفاه اللهُ في مكروهاتِ النفوسِ، كما قال سبحانَه: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾. قال ابنُ القيمِ: "وقولُهم: "مَن تركَ للهِ شيئًا؛ عوّضَه اللهُ خيراً منه" حقٌّ، والعِوضُ أنواعٌ مختلفةٌ، وأجلُّ ما يُعوَّضُ به الأنسُ باللهِ، ومحبتُه، وطمأنينةُ القلبِ به، وقوتُه، ونشاطُه، وفرحُه، ورضاه عن ربِّه تعالى".

أيّها المؤمنون!

ومن تُحفِ العوضِ الربَّانيِّ الذي قد يُغفلُ عنهُ مع ألمِ المصيبةِ وإغراقِ النفوسِ بالماديّاتِ والمحسوساتِ - زيادةُ الإيمانِ وثباتُ القدمِ على صراطِ هدايتِه، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ

إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾. ومنها ما يُفرِغُ اللهُ بهِ على قلبِ عبدِه من زادِ الصبرِ الذي لا يَنفدُ خيرُه ولا يُحصرُ أجرُه، قال عمرُ بنُ عبدِالعزيزِ: "ما أنعمَ اللهُ على عبدٍ نعمةً، فانتزعَها منه، فعاضَه مكانَ ما انتزعَ منه الصبرَ، إلا كان ما عوّضَه خيراً ممّا انتزَعَ منه"، ثم قرأ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾. عُزّي عِياضُ بنُ غنمٍ في موتِ ابنِه عقبةَ، فقال: وكيف لا أصبرُ وقد كان في حياتِه زينةَ الحياةِ الدّنيا، وهو اليومَ من الباقياتِ الصّالحاتِ؟! وعزى أحدُ الصالحينَ أخاهُ في موتِ ابنِه، فقال: عوّضكَ اللهُ منه ما عوّضَه منكَ، أي: عوّضَه اللهُ منكَ ما هو خيرٌ منكَ؛ وهو جوارُ ربِّه، وعوّضَكَ منه ما هو خيرٌ منه؛ وهو ثوابُ ربِّه. والرّضا والسرورُ والقناعةُ كنوزٌ عظيمةٌ من كنوزِ العِوَضِ الربَّانيِّ، قال عبدُ اللهِ بنُ عمرَ الكوفيُّ: "كان عندنا بالكوفةِ رجلٌ قد خرجَ عن دُنيا واسعةٍ، وتعبّدٍ. وكان الفُضَيْلُ بنُ عِياضٍ بالكوفةِ في أيامِه. فقدِمَ عبدُاللهِ بنُ المُباركِ، فقال له الفُضَيلُ: إنَّ ها هُنا رجلاً من المتعبِّدينَ قد خرجَ عن دُنيا؛ فامضِ بنا إليه ننظرْ عقلَه، فجاؤوا إليهِ وهو عليلٌ وعليه عباءةٌ وتحتَ رأسِه قطعةُ لبنةٍ، فسلّم ابنُ المباركِ عليهِ، ثم قال: يا أخِي، بلغَنا أنّه ما تَرَك عبدٌ شيئًا للهِ إلا عوّضَه اللهُ ما هو أكثرُ منه، فما عوّضكَ؟ قال: الرِّضا بما أنا فيه، فقال ابنُ المباركِ: حسبُكَ! وقاما على ذلك". وكان عمرُ بنُ عبدِالعزيزِ يقولُ: "أصبحتُ وما لي سرورٌ إلا في مواضعِ القَضاءِ والقدَرِ". ومن أجلِّ ما يعوّضُ اللهُ به عبدَه أن يُفتحَ له بسببِ مُصابِه أو حاجتِه المفقودةِ أو المطلوبةِ من الأُنسِ به ولذَّةِ مُناجاتِه ودعائِه ما يكونُ نعيمًا معجّلاً له مع ما يُدَّخرُ من عاجلِ العوَضِ وآجلِه، يقولُ شيخُ

الإسلامِ: "فمن تمامِ نعمةِ اللهِ على عبادِه المؤمنينَ أنْ ينزِلَ بهم الشدَّةَ والضرَّ وما يلجِئُهم إلى توحيدِه، فيدْعُونه مخلِصينَ له الدينَ، ويرْجونَه؛ لا يرْجون أحداً سواهُ، وتتعلّقُ قلوبُهم به؛ لا بغيرِه؛ فيحصلُ لهم من التوكُّل عليه، والإنابةِ إليه، وحلاوةِ الإيمانِ وذوْقِ طعمِه، والبراءةِ من الشركِ ما هو أعظمُ نعمةً عليهم من زوالِ المرضِ والخوفِ أو الجدْبِ، أو حصولِ اليسرِ وزوالِ العسرِ في المعيشةِ؛ فإنَّ ذلكَ لذَّاتٌ بدنيّةٌ ونِعَمٌ دُنيويّةٌ، قد يحصلُ للكافرِ منها أعظمُ ممّا يحصلُ للمؤمنِ. وأمّا ما يحصلُ لأهلِ التوحيدِ المخلصينَ للهِ الدينَ فأعظمُ من أنْ يعبّرَ عن كُنْهِه مقالٌ، أو يستحضرَ تفصيلَه بالٌ، ولكلِّ مؤمنٍ من ذلكَ نصيبٌ بقدرِ إيمانِه؛ ولهذا قال بعضُ السلفِ: يا بن آدمَ! لقد بُورِكَ لك في حاجةٍ أكثرتَ فيها من قرعِ بابِ سيّدِك، وقال بعضُ الشُّيوخِ: إنّه لَيكونُ لي إلى اللهِ حاجةٌ، فأدْعوه، فيفتحُ لي من لذيذِ معرفتِه وحلاوةِ مُناجاتِه ما لا أحبُّ معه أنْ يعجِّلَ قضاءَ حاجَتي؛ خشيةَ أنْ تنصرفَ نفسِي". قال سفيانُ بنُ عيَيْنةَ: "مرَّ محمدُ بنُ عليٍّ بمحمدِ بنِ المنكَدرِ، فقال: ما لي أراكَ مغموماً؟ فقالَ أبو حازمٍ: ذلكَ لدَيْنٍ قد فدحَه! قال محمدُ بنُ عليٍّ: أَفُتِحَ لهُ في الدعاءِ؟ قال: نعمْ، فقال: لقد بُورِكَ لعبدٍ من حاجةٍ أكثرَ فيها دعاءَ ربِّه، كائنةً ما كانتْ".

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصّلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أمّا بعدُ، فاعلَموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

ومن ألْزمِ ما يجبُ فقهُه في العِوَضِ الربَّانيِّ العلمُ بالشُّروطِ التي بها يُنالُ العِوَضُ الربانيُّ في المتروكاتِ والمفقوداتِ، ومن أهمِّ تلكَ الشروطِ: الإخلاصُ للهِ في تركِ ما أَمَرَ اللهُ بتركِه، واليقينُ بوعدِ اللهِ في حصولِ العِوضِ، وملازمةُ الصبرِ في انتظارِ الفرجِ، وعدمُ اليأسِ واستطالةُ المدةِ. قال مورقٌ العجليُّ: "قد دعوْتُ اللهَ بحاجةٍ منذُ أربعينَ سنةً، فما قضَاها لي؛ فما يئستُ منها".

عبادَ اللهِ!

إنَّ في اللهِ عزاءً من كلِّ مصيبةٍ، وخلَفًا من كلِّ هالكٍ، ودرَكًا من كلِّ فائتٍ؛ فباللهِ ثِقوا، وإيّاه فارْجُوا؛ فإنّ المُصابَ مَن حُرِمُ الثوابَ. فاللهُ — سبحانَه - يعوِّضُ عن كلِّ شيءٍ ما سواهُ، ولا يعوِّضُ منه شيءٌ، ويُغني عن كلِّ شيءٍ، ولا يُغني عنه شيءٌ، ويمنعُ من كلِّ شيءٍ، ولا يمنعُ منه شيءٌ، ويُجيرُ من كلِّ شيءٍ، ولا يُجيرُ منه شيءٌ؛ فكيف يَستغنِي العبدُ عن طاعةِ مَن هذا شأنُه طرْفةَ عينٍ؟!

من كلِّ شيءٍ إذا ضيَّعتَه عِوَضُ ... وليس في اللهِ إنْ ضيَّعتَ من عوضِ

المُستظلّون السبعةُ

إنّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِأنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مضلّ له، ومَن يضللْ فلا هاديَ له،وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ...﴾.

أيّها المؤمنون!

نعيشُ هذهِ الأيامَ فترةَ صيفٍ قائظٍ، يقرُبُ فيه حرُّ الهجيرِ من ذُروةِ السنامِ، وبات من شديدِ الأمرِ وزعجِه وسببِ السقمِ والهَلَك البروزُ في شمس القائلةِ والإضحاءُ تحتَها دونَ غطاءٍ أو وسيلةِ تبريدٍ، مع ما بينَ الأرضِ والشمسِ من مسافةٍ شاسِعةِ البُعدِ وما يفصلُ بينَهما من حوائلَ. وذلك الحالُ يشدُّ المؤمنَ للتفكُّرِ في يومٍ تُدنى فيه الشمسُ من رؤوسِ الخلائقِ قدرَ مِيلٍ، وقد حفيَتْ أقدامُهم، وعَريتْ أبدانُهم،وحَسرتْ رُؤوسُهم، وبلغَ بهم العَرقُ مبلغَ الإلجام، وهم ينتظرونَ فصلَ ربِّ العالمينَ. في ذلكَ اليومِ يُعدَمُ الظلُّ؛ فليس ثَمَّ إلا ظلُّ ربِّ العزّةِ والجلالِ، لا يَستظِلُّ فيه إلا من سبقتْ له الحُسْنى من ربِّه؛ فتَقبَّلَ منه صالحةً أوجبتْ له الزُّلفَى لديهِ؛ كرماً منه —سبحانَه- وفضلاً.

عبادَ اللهِ!

ومن تلكَ الصالحاتِ سبعُ خِلالٍ طيِّبةٌ، متعددةُ المشاربِ، متحدةُ المعنَى،

مَن عمِلَ بواحدةٍ منها نَعِمَ بالاستظلالِ في ظلِّ اللهِ يومَ القيامةِ يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه، بيّنها رسولُ اللهِ ﷺ في قولِه: "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَدْلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللهِ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ" رواه البخاريُّ ومسلمٌ.

أيُّها المؤمنون!

تلكُمْ سبعةُ أوصافٍ تضمُّ خلقًا لا يعلمُهم إلا اللهُ —عسى اللهُ أن يجعلَنا منهم –، تنوعتْ صورُها؛ فليس فيها مشتبهانِ، غيرَ أنّ معناها متطابقٌ؛ فالمعنَى الجامعُ بينها: إخلاصُ العملِ للهِ ومجاهدةُ النفوسِ ومخالفةُ الهوى وكمالُ العبادةِ؛ فكان دونَ أدائِها صبرٌ وتحمّلُ شدةٍ واصطبارٌ على لظَى المجاهدةِ، أثابَهم اللهُ بها ظلاً يوم تَناهي وهجِ الشمسِ؛ إذِ الجزاءُ من جنسِ العملِ.

أمّا أُولى هذه الصفاتِ: فالعدلُ في الولايةِ، "إمامٌ عادلٌ" قد استوَى الناسُ في عدلِه؛ فذلكَ من أحبُّ العبادِ إلى اللهِ؛ لعظيمِ أثرِه في الناسِ؛ فالناسُ على دينِ ملوكِهم يَصلحون بصلاحِهم؛ لذا قُدِّم ذكرُه، وصارَ من أقربِ الناسِ نزُلاً عند اللهِ في مجلسِ منبرٍ عن يمينِ الرحمنِ، كما صحّ بذلكَ الخبرُ؛ جزاءً لتوفيتِه واجبَ الإمارةِ، ومجاهدتِه نوازعَ أهواءِ الدّنيا إذْ أقبلتْ إليه ودعتْه إلى نفسِها فقال: إنّي أخافُ اللهَ ربَّ العالمينَ. وَأَحْسَنُ مَا فُسِّرَ بِهِ الْعَادِلُ: أَنَّهُ الَّذِي يَتَّبِعُ

أَمْرَ اللهِ بِوَضْعِ كُلِّ شَيْءٍ فِي مَوْضِعِهِ مِنْ غَيْرِ إِفْرَاطٍ وَلَا تَفْرِيطٍ. وإنّ هذا الفضلَ ليُرجى لكُلِّ مَنْ وَلِيَ شَيْئًا مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ فَعَدَلَ فِيهِ، كالقضاءِ والوَزارةِ والإدارةِ ومسؤوليةِ الأبِ.

وثاني الأوصافِ: الطاعةُ فترةَ الشبابِ، "وشابٌ نشأ في طاعةِ اللهِ"؛ فكانتِ الطاعةُ وصفًا غالبًا لمرحلةِ العمرِ بينَ الطُّفولةِ والشَّيْخوخةِ، تلك المرحلةُ التي يقوَى فيها داعِي الشَّهوةِ ونوزاعُ الهوى؛ كما قيلَ: الشبابُ شُعبةٌ من الجنونِ، فإذا ما انخلعَ الشابُّ من رَبقتِها، وسلمَ من شرِّها، وتجافَى لطاعةِ ربِّه مع قوةِ الصّارفِ، عوِّض هذا الجزاءَ؛ لعظَمِ البلاءِ، وكمالِ الطاعةِ للهِ.

وثالثُ الأوصافِ: تعلُّقُ القلبِ بالمسجدِ: "ورجلٌ قلبُه معلَّقٌ بالمساجدِ"، وفي روايةِ مالكٍ: "إذا خرجَ مِنْهُ حَتَّى يعودَ إِلَيْهِ"، فهو يحبُّ المسجدَ ويألفُه لعبادةِ اللهِ فِيهِ، فإذا خرجَ مِنْهُ تعلّقَ قلبُه بِهِ حَتَّى يرجعَ إِلَيْهِ؛ فكأنّما قلبُه قنديلٌ قد عُلِّق في المسجدِ. وهذا إنما يحصلُ لمَن ملكَ نفسَه وقادَها إلى طاعةِ اللهِ فانقادتْ لَهُ؛ فإنّ الهوى إنّما يدعو إلى محبةِ مواضعِ الهوى واللَّعبِ، إمّا المباحُ أو المحظورُ، ومواضعِ التجارةِ واكتسابِ الأموالِ، فلا يَقصِرُ نفسَه عَلَى محبةِ بقاعِ العبادةِ إلا مَن خالفَ هواهُ، وقدّمَ عَلِيهِ محبةَ مولاهُ؛ فكان ممّن كَمُلَ له عمارةُ المساجدِ بالصّلواتِ الخمسِ واستحقَّ مدحَ اللهِ في قولِه: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ۝٣٧ لِيَجْزِيَهُمُ

ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ .

ورابعُ الأوصافِ: تصفيةُ المحبةِ للهِ: "وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ"، فالمتحابّانِ فِي اللهِ جاهدا نفسيْهما فِي مخالفةِ الهوى حَتَّى صار تحابُّهما وتوادُّهما فِي اللهِ من غيرِ غرَضٍ دنيويٍّ يشُوبُه، وهذا عزيزٌ جداً؛ إذِ الهوى داعٍ إلى التحابِّ فِي غيرِ اللهِ؛ لمَا فِي ذَلِكَ من طَوْعِ النفسِ أغراضَها من الدّنيا. ولن يتحابّا فِي اللهِ حَتَّى يجتمعَا فِي الدُّنيا فِي ظلِّ اللهِ المعنويِّ، وَهُوَ تأليفُ قلوبِهما عَلَى طاعةِ اللهِ وإيثارِ مرضاتِه وطلبِ مَا عندَه؛ فلهذا اجتمَعا يومَ القيامةِ فِي ظلِّ اللهِ الحسيِّ. ومدارُ هذه المحبَّةِ على طاعةِ اللهِ التي اجتمَعا عليها حالَ الحياةِ وافترَقا عليها حالَ الموتِ؛ وبهذا وفَّيا المحبةَ كمالَها. وضابتُها - كما قال أهلُ العلمِ -: ألا تزيدَ ببرِّ الدّنيا ولا تنقصَ بإساءتِها.

وخامسُ الأوصافِ: العفَّةُ عن الفاحشةِ مع تيسُّرِها وقوةِ داعِيها: "وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ "،فالداعيةُ إلى الفاحشةِ امرأةٌ جميلةٌ رفيعةُ القدرِ في الدّنيا، والمانعُ من إجابتِها خوفُ اللهِ، الذي تواطَأَ عليه قلبُ ذلكَ العفيفِ وقولُه؛ فكان لسانُ حالِه ومقالِه واعظًا لتلك المرأةِ؛ علّها أن ترعويَ عن غيّها، وتثوبَ إلى رُشدِها؛ فنال بتلكَ العفَّةِ الكاملةِ الناشئةِ عن خوفِ ربِّه ورضاهُ؛ فأظلَّه في ظلِّه.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ. وبعدُ:
فاعلموا أنّ أحسنَ...

أيّها الإخوةُ في اللهِ:

وخامسُ أوصافِ مَن يظلُّهمُ اللهُ في ظلِّه يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه: إخفاءُ الصدقةِ، "وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ"، ذاكَ رَجُلٌ تصدقَ بصدقةٍ قليلةٍ كانتْ أو كثيرةً، فاجتهدَ فِي إخفائِها غايةَ الاجتهادِ حَتَّى لَمْ يعلمْ بِهِ إلا اللهُ، وضُرِبَ المثلُ لذلك الإخفاءِ عَلَى طريقِ المُبالغةِ: "حَتَّى لا تعلمَ شمالُه مَا تنفقُ يمينُه". وهذا دليلُ قوةِ الإيمانِ والاكتفاءِ باطِّلاعِ اللهِ عَلَى العبدِ وعلمِه بِهِ، وفيه مخالفةٌ للهوى ومجاهدةٌ للنفسِ؛ فإنّها تحبُّ إظهارَ الصدقةِ والتمدَّحَ بِهَا عِنْدَ الخلقِ، فيُحتاجُ فِي إخفاءِ الصَّدقةِ إلى قوةٍ شديدةٍ تُخالفُ هوى النفسِ، يقولُ النَّبِيُّ ﷺ: "لَمَّا خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْأَرْضَ، جَعَلَتْ تَمِيدُ، فَخَلَقَ الْجِبَالَ، فَأَلْقَاهَا عَلَيْهَا فَاسْتَقَرَّتْ، فَتَعَجَّبَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ خَلْقِ الْجِبَالِ، فَقَالَتْ: يَا رَبِّ، هَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ الْجِبَالِ؟ قَالَ: نَعَمْ، الْحَدِيدُ. قَالَتْ: يَا رَبِّ، هَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ الْحَدِيدِ؟ قَالَ: نَعَمْ، النَّارُ قَالَتْ: يَا رَبِّ، هَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: نَعَمْ، الْمَاءُ. قَالَتْ: يَا رَبِّ، فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ الْمَاءِ؟ قَالَ: نَعَمْ، الرِّيحُ. قَالَتْ: يَا رَبِّ، فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ الرِّيحِ؟ قَالَ: نَعَمْ، ابْنُ آدَمَ يَتَصَدَّقُ بِيَمِينِهِ

يُخْفِيهَا مِنْ شِمَالِهِ" رواه أحمدُ وحسّنه ابنُ حجرٍ. هكذا يكونُ كمالُ الصدقةِ. ولا يُستحسَنُ إظهارُها إلا فيمَا ظهرتْ مصلحةُ إظهارِه.

وسابعُ الأوصافِ: البكاءِ من ذكرِ اللهِ حالَ الخَلوةِ: "وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ"، فهذا رَجُلٌ يخشَى اللهَ فِي سرِّه، ويراقبُه فِي خَلوتِه، وذلكَ كمالُ الخشيةِ. وأفضلُ الأعمالِ خشيةُ اللهِ فِي السرِّ والعلانيةِ. وخشيةُ اللهِ فِي السرِّ إنَّما تصدرُ عَن قوةِ إيمانٍ ومجاهدةٍ للنفسِ والهوى؛ فإنَّ الهوى داعٍ لاقترافِ ذنوبِ الخَلَواتِ؛ ولذا قيلَ: إنّ من أعزِّ الأشياءِ الورعَ فِي الخَلوةِ. وذكرُ اللهِ حالَ الخَلوةِ يشملُ ذكرَ قوَّتِه وبطشِه وعقابِه واطِّلاعِه والحياءَ منه؛ وينشأُ من ذلكَ بكاءُ الخوفِ. ويكونُ ذلكَ الذكرُ ذكراً لألطافِه ونعمتِه ورحمتِه وبرِّه؛ وينشأ من ذلكَ بكاءُ الشَّوقِ والرّجاءِ. وكلُّها مشمولةٌ في معنى الحديثِ وفضلِه. ولا يُشترَطُ في هذا الذّكرِ نطقُ اللسانِ، بل يكفي ذكرُ القلبِ، وإنْ تَواطأ اللسانُ معه فخيرٌ ضُمّ لخيرٍ.

هذا، وإنَّ الفضلَ الواردَ في الحديثِ لا يُحصرُ في الرجلِ؛ فالمرأةُ لها ما له فيهِ إلا في الولايةِ العُظمَى و تعلُّقِ القلبِ في المسجدِ؛ إذْ ليستْ من أهلِها شرعًا.

أيّها الأخُ!

هذه سبعةٌ من أسبابِ الاستظلالِ بظلِّ اللهِ، وثَمّ غيرُها، فاظفرْ بواحدةٍ منها تفزْ بذلكَ الظلِّ يومَ الحرِّ الشديدِ، وإنْ علتْ همَّتُك فاضربْ فيها بأكثرَ من سهمٍ؛ فتلكَ تجارةٌ رابحةٌ وفضلٌ مدَّخرٌ ليومٍ شديدِ الفاقةِ.

المُفلسُ

الحمدُ للهِ جادَ بالجزلِ، وأسبغَ الفضلَ، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ الحكمُ العدلُ، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلّى اللهُ وسلمَ عليه وعلى آلِه وصحبِه ذوي المناقبِ والمُثلِ.

أمّا بعدُ، فاتّقوا اللهَ — عبادَ اللهِ –، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ... ﴾.

أيّها المؤمنونَ!

الإسلامُ بصيرةٌ تستَجْلي الغياهبَ، ونورٌ يصحّحُ الأفكارَ والتّصوراتِ، ورَشادٌ يحفظُ الحقوقَ، وأفقٌ يوسِّعُ النظرَ والإدراكَ؛ حتى في الألفاظِ المنطوقةِ؛ لتُصرَفَ في مكانِها الحقِّ، وتُضفَى على الوصفِ الصحيحِ. ومن القضايا التي أبانَ الوحيُ حقيقتَها قضيَّةُ الإفلاسِ، عبرَ أسلوبِ المُحاورةِ العلميّةِ الهادئةِ التي دراتْ بين النبيِّ ﷺ وأصحابِه — رضي اللهُ عنهم — والمبدوءةِ بتساؤلٍ يسترعِي الانتباهَ والاهتمامَ، ويستخرجُ المعلومةَ الخاطئةَ وتُستبدَلُ بالصّحيحة؛ إرساءً لها وترسيخًا. تساءلَ فيه النبيُّ ﷺ عن حقيقةِ المُفلسِ، فأجابوه بمَا هو دارجٌ في نظرِ الناسِ وإدراكِهم ممّا لا يجاوزُ حدَّ الدّنيا، ثم صحّح هذا المفهومَ، ووسّعَ تلك النظرةَ والمداركَ. فقد رَوى مسلمٌ في صحيحِه عن أبي هريرةَ — رضي اللهُ عنه –، أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «أتدرونَ ما المفلسُ؟» قالوا: المفلسُ فينا مَن لا درهمَ له ولا متاعَ، فقال: «إنَّ المفلسَ من أمّتي يأتِي يومَ

القيامةِ بصلاةٍ، وصيامٍ، وزكاةٍ، ويأتِي قد شتمَ هذا، وقذفَ هذا، وأكلَ مالَ هذا، وسفكَ دمَ هذا، وضربَ هذا، فيُعطَى هذا من حسناتِه، وهذا من حسناتِه، فإنْ فَنيتْ حسناتُه قبل أنْ يُقضَى ما عليه أُخذَ من خطاياهُم فطُرحَتْ عليهِ، ثم طُرحَ في النارِ».

أيّها المسلمونَ!

إنَّ الآخرةَ دارُ الجزاءِ وتوفيةِ الحقوقِ واستردادِ المظالمِ، وهي مرصدُ المفاليسِ؛ حين يقْدِمون بجُلَلٍ من الصالحاتِ: صلاةٍ، وصيامٍ، وزكاةٍ، وغيرِها ممّا هو دونَها في الفضلِ، في يومٍ تشحُّ النفوسُ بالحسنةِ وإن كانتْ أمّاً؛ فيروْن ثوابَ تلكَ القرُباتِ تُرَحَّلُ من سجلِّ حسناتِهم إلى صُحُفِ مَن ظلمُوهُم وبخَسوهم حقَّهم؛ فيذَّكَّرُ النَّصبَ الذي بذلَهُ والوقتَ الذي كابدَه والمالَ الذي أنفقَه ومفارقتَه اللذائذَ لأجلِ عملِ تلكَ الصالحاتِ، وباتَ ينتظرُ ثوابَها في يومٍ تعزُّ فيه الحسنةُ، ويراها بحسرةِ المرائرِ قد ذهبتْ لغيرِه بسببِ ظلمِه له. وتزدادُ تلكَ الحسرةُ إنْ فَنيَتْ حسناتُه، فتُنقَلُ سيئاتُ المظلومِ إلى صحيفتهِ مع عدمِ مباشرَتِه لها؛ فيُحاسَبُ عليها كما لو كانَ عاملاً لها. وتزدادُ تلكَ الحسرةُ حسَراتٍ حين تَفنَى الحسناتُ وتبقَى السيئاتُ؛ فيُؤمَرُ به إلى النارِ! والعيَاذُ باللهِ! كان يؤمِّلُ ثوابَ عملِه الصالحِ، فأفلسَ منه، وتحمّلَ وِزرَ غيرِه، وأُدخلَ النارَ. هذا هو الإفلاسُ الحقُّ الذي تتمُّ به الخَسارةُ، ولا يمكنُ فيه التداركُ! لا إفلاسُ المالِ الذي يقطعُ عناءَه الموتُ، وقد يعقبُه يسارٌ.

عبادَ اللهِ!

إنّ المتأملَ في أسبابِ الإفلاسِ التي ذكرَها النبيُّ ﷺ يراها دائرةً على سببٍ واحدٍ وإن تنوّعتْ صورُه؛ ذلكُم هو الاعتداءُ على حقوقِ الخلقِ وظلمِهم؛ "شتمَ هذا، وقذفَ هذا، وأكلَ مالَ هذا، وسفكَ دمَ هذا، وضربَ هذا". وما ذاكَ إلا أنَّ حقوقَ الخلقِ قائمةٌ على المشاحّةِ؛ فإن عفَوْا، وإلا فما ثمّ إلا القصاصُ في الآخرةِ، وإنْ كانَ ذلكَ في العَجْماواتِ، يقولُ النبيُّ ﷺ: «لتؤدُّنَّ الحقوقَ إلى أهلِها يومَ القيامةِ، حتى يُقادَ للشاةِ الجَلحَاءِ، من الشاةِ القَرناءِ» رواه مسلمٌ. والقَصاصُ بين البَشَرِ في الآخرةِ في الحسناتِ والسيِّئاتِ؛ أخذاً وإعطاءً، في يومٍ تظهرُ فيه السرائرُ، وتنطقُ الجوارحُ، ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾، ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾، ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾.

أيّها المؤمنونَ!

إنَّ الدُّنيا دارُ اختبارٍ، وحقوقُ الخلقِ ميْدانُ ابتلاءٍ، ومن أعظمِ ما يحملُ على خفرِها والاستخفافِ بأدائِها إهمالُ محاسَبَةِ النفسِ وغيابُ استحضارِ الحسابِ الأخرويِّ؛ وذاكَ ما حملَ الطُّغاةَ على العتُوِّ والبغْيِ على العبادِ كما قالَ اللهُ عن فرعونَ وجندِه: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾. والاغترارُ بالقوّةِ والقدرةِ والأمنِ من المحاسبةِ الدنيويَّةِ من أسبابِ الاستخفافِ بالحقوقِ، كتبَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ إلى بعضِ عمّالِه: "أمّا بعدُ، فإذا دعتْك قدرتُك على الناسِ إلى ظلمِهم فاذكرْ قدرةَ اللهِ

عليكَ وفناءَ ما تؤتِي إليهم وبقاءَ ما يؤْتُونَ إليكَ، والسلامُ". والتّعويلُ على العفوِ والمُسامحةِ دونَ استحضارِ كزازةِ النُّفوسِ سيّما يومَ شُحِّ الحسناتِ في القيامةِ من أسبابِ بخْسِ الناسِ أشياءَهم. وهكذا، ذرائعُ التأويلِ الفاسدِ تحملُ المُفلسينَ على تقحُّمِ درَكَاتِ الظلمِ. وفي يومِ القيامةِ تتكشَّفُ تلك الذرائعُ عن فسادِها، ويبدو المستورُ، وتسقطُ أقنعةُ التأويلاتِ، ويبوءُ أهلُها بشؤْمِ عُقباها. وللمخالَطِ والصاحبِ بالغُ الأثرِ في حفظِ حقوقِ الخلقِ واستلابِها؛ فالمرءُ على دينِ خليلِه؛ فلينظرْ أحدُكم مَن يخالِلُ. كم كانت بعضُ مجالسِ الأصحابِ ومجموعاتِ محادثاتِهمُ الهاتفيّةِ شؤماً على أصحابِها بما لاكتْ فيها ألسنُهم وأصابعُهم أعراضَ الخَلقِ بالغِيبَةِ والاستهزاءِ؟! وكم كانتْ بعضُ شراكاتِ الأصحابِ سبباً في أكلِ أموالِ الناسِ بالباطلُ؟! وكم كانتْ آراءُ بعضِ الأصحابِ حاملاً على إزهاقِ النفوسِ بالباطلِ؟!

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ وحدَه، والصّلاةُ والسّلامُ على مَن لا نبيَّ بعدَه.
وبعدُ، فاعلمُوا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهُ...

أيّها المؤمنون!

وحتى يسلمَ المرءُ من مغبَّةِ الإفلاسِ في الآخرةِ؛ فإنّ واجبًا عليهِ أنْ يكونَ يقظًا تجاهَ حقوقِ الخلقِ، مرهفَ الإحساسِ نحوَها وإنْ كانتْ من البهائمِ؛ أَلَمْ تعذَّبِ امرأةٌ في النارِ بسببِ ظلمِها هرَّةً؛ لم تُطعمْها، ولم تُطلقْها لتأكلَ من خَشاشِ الأرضِ؟! كتب محمدُ بنُ واسعٍ إلى رجلٍ من إخوانِه: "من محمدٍ بنِ واسعٍ إلى فلانِ بنِ فلانٍ، سلامٌ عليكَ، أمّا بعدُ، فإنِ استطعتَ أنْ تبيتَ حينَ تبيتُ وأنتَ نقيُّ الكفِّ من الدمِ الحرامِ، خميصُ البطنِ من الطعامِ الحرامِ، خفيفُ الظهرِ من المالِ الحرام فافعلْ، فإنْ فعلتَ فلا سبيلَ عليكَ؛ ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ﴾. والسلامُ عليكَ". واستحضارُ حسابِ القيامةِ عاصمٌ بإذنِ اللهِ من الإفلاسِ. كلّمَ رجلٌ الخليفةَ الرّاشدَ عمرَ بنَ عبدِالعزيزِ يوما حتى أغضبَه، فهمَّ به عمرُ ثم أمسكَ نفسَه، وقال للرجلِ: "أردتَ أن يستفزَّني الشيطانُ بعزَّةِ السّلطانِ، فأنالَ منك ما تنالُه منِّي غدا؟ قمْ - عافاكَ اللهُ -؛ لا حاجةَ لنا في مُقاولتِك".

والاستحلالُ من المظالمِ في الدنيا خيرٌ من قَصاصِها في الآخرةِ، يقولُ النبيُّ ﷺ: «مَن كانَ عنده مَظلَمةٌ لأخيهِ فلْيتحلَّلْه منها؛ فإنّه ليس ثَمَّ دينارٌ ولا

درهمٌ، من قبل أنْ يُؤخذَ لأخيهِ من حسناتِه، فإنْ لم يكنْ له حسناتٌ أُخذَ من سيئاتِ أخيه فطُرحتْ عليه» رواه البخاريُّ. ومعاملةُ الخلقِ بالعفوِ والصّفحِ - مع التوقِّي من ظلمِهم والسعيِّ في استحلالِهم - من أسبابِ السلامةِ من مَغبَّةِ الإفلاسِ، يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ﴾. قال ابنُ القيمِ: "اللهُ - عزَّ وجلّ - يعاملُ العبدَ في ذنوبِه بمثلِ ما يعاملُ به العبدُ الناسَ في ذنوبِهم".

هذا هو الإفلاسُ، وسببُه، وسبلُ الوقوعِ فيه، وطرقُ النجاةِ من شؤْمِه؛ فاللهمّ سلّمْ سلّمْ!

المنعُ الربانيُّ

إنَّ الحمدَ لله؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، منْ يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومنْ يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ... ﴾.

أَيّها المؤمنون!

من أشقِّ الأمورِ على النفسِ أن تَكْلَفَ بأمرٍ دنيويٍّ ظانةً نفعَه لها، وربطَ سعادتِها به، ولحوقَ الحزنِ بفواتِه، فيطولَ طلبُها له، وسعيُها إليها، وتعلُّقُها به، مع سؤالِ اللهِ تحقيقَه، بل ربما كان سؤالَ إلحاحٍ يستحيي المخلوقُ من ردِّه؛ فكيف بالكريمِ —سبحانه- الذي لا يعجزُه شيءٌ؛ إذ كلُّ شيءٍ عليه هيِّنٌ، وخزائنُه ملْأَى؟! ومع هذا فإنَّ اللهَ يمنعُ العبدَ منه؛ فما حقيقةُ هذا المنعِ؟ وما حِكَمُه؟ وما نظرةُ المؤمنِ إزاءَ ذلك المنعِ؟ وما أثرُ تلك النظرةِ الإيمانيةِ؟ إنَّ فِقْهَ المنعِ الربانيِّ من أشرفِ العلومِ التي قد تَعْزُبُ عن القلوبِ، سيّما في حالِ طغيانِ المادةِ والأثرةِ، وما جُبِلَتْ عليه النفوسُ من حُبِّ العاجلةِ، وفطرةِ العجلةِ، وغلبةِ الهوى والجهلِ والظلمِ، وسنةِ التشبُّهِ بالغالبيةِ. وذاك العلمُ الشريفُ مما تُرفعُ به درجةُ العبدِ عند مولاه، وتكونُ به بصيرةُ الأمورِ على حقيقتِها، مع ما يَنْعَمُ به العبدُ من صلاحِ الحالِ وهناءِ العيشِ والأجرِ الجزيلِ المدَّخرِ يومَ الدِّينِ.

عبادَ اللهِ!

إنَّ العطاءَ والمنعَ الدنيويَّ لا يُبنى عليه معيارُ محبةِ اللهِ عبدَه أو بغضِه له، وإنما يُعرفُ ذلك الحبُّ والبغضُ بالعطاءِ الدينيِّ ومنعِه، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ١٦ كَلَّاۖ﴾، ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾، وقال النبيُّ ﷺ: "إنَّ اللهَ يعطي الدنيا من يحبُّ ومن لا يحبُّ، ولا يعطي الإيمانَ إلا من يحبُّ"رواه أحمدُ وصحّحه الحاكمُ والبيهقيُّ والذهبيُّ. إنّ منعَ اللهِ قَدَرٌ مُحْكَمٌ قد جرى به القلمُ قبلَ خلْقِ الخليقةِ؛ فلا معطيَ لما مَنَعَ وإن اجتمعَ على الإعطاءِ كلُّ الخلقِ وكان بعضُهم لبعضٍ ظهيراً، وقد كان النبيُّ ﷺ يجذِّرُ هذه العقيدةَ في قلوبِ أمَّتِه مذكِّراً بها كلَّ صلاةٍ بعد رفعِه من ركوعِه وبعد فراغِه من صلاتِه قائلاً —كما صحَّ عنه -: "اللهمَّ لا مانعَ لما أعطيتَ، ولا مُعطيَ لما منعتَ". غيرَ أنَّ هذا المنعَ الربانيَّ عطاءٌ غَدِقٌ من وجهٍ لا يبصرُه إلا من فَقُهَ عن اللهِ أمرَه، وارتوتْ نفسُه بالرّضا عن أقدارِه، ولم تكنْ نظرتُه للحوادثِ حبيسةَ واقعِ ذي قُطْرٍ محدودٍ وزمنٍ محدودٍ، كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾. قال سفيانُ الثوريُّ: "لَقِيتُ أَبَا حَبِيبٍ الْبَدَوِيَّ، فَقَالَ لِي: يَا سُفْيَانُ، مَنْعُ اللهِ لَكَ عَطَاءٌ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ يَمْنَعُكَ مِنْ غَيْرِ بُخْلٍ وَلَا عَدَمٍ، وَلَكِنْ نَظَرًا لَكَ، وَاخْتِبَارًا" قال ابنُ الجوزيِّ: "تفكرتُ في (هذا القولِ)؛ فرأيتُه كلامَ مَن قد عرفَ الحقائقَ". فمِن جُلَلِ عطايا المنعِ خفايا اللُّطْفِ؛ إذ لربّما كان في إعطاءِ النفوسِ ما تهوى

هلاكُها، قال ابنُ مسعودٍ —رضي اللهُ عنه-: "إنَّ العبدَ لَيَهِمُّ بالأمرِ من التجارةِ والإمارةِ حتى يُيَسرَ له، فينظرُ اللهُ إليه فيقولُ للملائكةِ: اصرفوه عنه، فإنّه إنْ يسَّرتُه له أدخلتُه النارَ، فيصرفُه اللهُ عنه، فيظلُّ يتطيرُ يقولُ: سبقني فلانٌ! دهاني فلانٌ! وما هو إلا فضلُ اللهِ -عزَّ وجلَّ-". وقال ابنُ القيمِ: "وليَعلمْ أنَّ إجابةَ اللهِ لسائليه ليست لكرامةِ السائلِ عليه، بل يسألُه عبدُه الحاجةَ فيقضيَها له، وفيها هلاكُه وشِقْوتُه، ويكونُ قضاؤه له مِن هوانِه عليه، وسقوطِه من عينِه، ويكونُ منعُه منها لكرامتِه عليه ومحبتِه له، فيمنعُه حمايةً وصيانةً وحفظاً لا بُخْلاً، وهذا إنما يفعلُه بعبدِه الذي يريدُ كرامتَه ومحبتَه، ويعاملُه بلطفِه، فيظنُّ بجهلِه أنَّ اللهَ لا يحبُّه ولا يكرمُه، ويراه يقضي حوائجَ غيرِه، فيُسِيءُ ظنَّه بربِّه"، فـ" إذا رأيتَ سِرْبَالَ الدنيا قد تقلَّصَ عنك؛ فاعلمْ أنه لَطَفَ بك؛ لأنَّ المنعِمَ لم يقبضْه بُخلاً أن يتمزَّقَ، ولكنْ رفقاً بالساعي أنْ يتعثَّرَ". وقال الحسنُ البصريُّ: " لا تكرهْ الملمّاتِ الواقعةَ، والبلايا الحادثةَ؛ فلَرُبَّ أمرٍ تكرهُه فيه نجاتُك، ولَرُبَّ أمرٍ ترجوه فيه عَطَبُك".

وقد يَهْلِكُ الإنسانُ من بابِ أَمْنِهِ ... ويَنْجو بإذْنِ اللهِ مِن حيثُ يَحْذَرُ

أيها المسلمونَ!

وجزالةُ الخَلَفِ الربانيِّ مِن فَيْضِ عطايا منعِه الكريمِ؛ فما مَنَعَ إلا ليُعطيَ عطاءً يفوقُ ما مَنَعَ، قال ابنُ القيمِ: "ولا يَمنعُ عبدَه حقاً هو للعبدِ؛ فيكونُ بمنعِه ظالماً له؛ بل إنما مَنَعَه؛ ليتوسَّلَ إليه بمحابِّه؛ ليَعبُدَه، ولِيتضرَّعَ إليه،

ويتذلـلَ بيـن يديـه، ويتملَّقَـه، ويعطيَ فقـرَه إليـه حقَّـه، بحيـثُ يَشـهدُ في كل ذرةٍ مـن ذراتِـه الباطنـةِ والظاهـرةِ فاقـةً تامَّـةً إليـه على تعاقـبِ الأنفـاسِ، وهـذا هـو الواقـعُ في نفسِ الأمـرِ، وإن لـم يَشـهدْهُ العبـدُ، فلـم يمنـعِ الـربُّ عبـدَه مـا العبـدُ محتـاجٌ إليـه؛ بخـلاً منـه، ولا نقصـاً مـن خزائنِـه، ولا استئثاراً عليـه بمـا هـو حقٌّ للعبـدِ؛ بـل مَنَعَـه؛ ليَـرُدَّه إليـه، وليُعِـزَّه بالتذلـلِ لـه، وليغنيَـه بالافتقـارِ إليـه، وليجبُـرَه بالانكسـارِ بيـن يديـه، وليذيقَـه بمـرارةِ المنـعِ حـلاوةَ الخضـوعِ لـه، ولـذةَ الفقـرِ إليـه، وليُلْبِسَـه خِلْعَـةَ العبوديـةِ، ويولِّيَـه بعزلِـه أشـرفَ الولايـاتِ، وليُشْـهِدَه حِكمتَـه في قدرتِـه ورحمتَـه في عزتِـه، وبـرَّه ولطفَـه في قَهْـرِه، وأنَّ منعَـه عطـاءٌ، وعزلَـه توليـةٌ، وعقوبتَـه تأديـبٌ، وامتحانَـه محبـةٌ وعطيـةٌ، وتسـليطَ أعدائِـه عليـه سـائقٌ يسـوقُه بـه إليـه... فهـو سـبحانه أعلـمُ بمواقـعِ الفضـلِ، ومحـالِّ التخصيـصِ، ومحـالِّ الحرمـانِ، فبحمـدِه وحكمتِـه أعطـى، وبحمـدِه وحكمتِـه حَـرَم، فمَـن ردَّه المنـعُ إلـى الافتقـارِ إليـه، والتذلـلِ لـه، وتملُّقِـه؛ انقلـبَ المنـعُ في حقِّـه عطـاءً، ومَـن شَـغَلَهُ عطـاؤه، وقَطَعَـهُ عنـه؛ انقلـبَ العطـاءُ في حقّـه مَنْعـاً، فـكلُّ مـا شَـغَلَ العبـدَ عـن اللهِ فهـو مشـؤومٌ عليـه، وكلُّ مـا ردَّه إليـه فهـو رحمـةٌ بـه". "فهكـذا الـربُّ —سـبحانه- لا يمنـعُ عبـدَه المؤمـنَ شـيئاً مـن الدنيـا إلا ويؤتيـه أفضـلَ منـه وأنفـعَ لـه، وليـس ذلـك لغيـرِ المؤمـنِ؛ فإنَّـه يمنعُـه الحظَّ الأدنـى الخسيسَ، ولا يرضـى لـه بـه؛ ليعطيَـه الحظَّ الأعلـى النفيسَ، والعبـدُ -لجهلِـه بمصالـحِ نفسِـه وجهلِـه بكـرمِ ربِّـه وحكمتِـه ولطفِـه- لا يعـرفُ التفـاوتَ بيـن مـا مُنِـع منـه وبيـن مـا ذُخِـر لـه، بـل هـو مُولَـعٌ بحـبِّ العاجـلِ وإنْ كان دَنيئـاً، وبِقلَّـةِ الرغبـةِ في الآجـلِ وإنْ كان عليّـاً، ولـو أنْصـفَ العبـدُ ربَّـه -وأنّـى لـه بذلـك- لَعَلِـمَ أنَّ فضْلَـه عليـه فيمـا مَنَعَـه مـن الدنيـا ولذاتِهـا ونعيمِهـا أعظـمَ مـن فضلِـه عليـه

فيما آتاه من ذلك". وقد يكونُ ذلك المنعُ استعتاباً وتنبيهاً إلهياً للعبدِ؛ كيما يصحِّحَ مسيرَه إلى اللهِ، ويُقْلِعَ عن الذنبِ الذي به مُنِعَ العطاءَ، كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ﴾، يقولُ ابنُ القيمِ: " يا مستفْتِحاً بابَ المعاشِ بغير إقْلِيدِ التقوى، كيف توسِّعُ طريقَ الخطايا وتشكو ضِيقَ الرزقِ؟!... المعاصي سَدٌّ في بابِ الكسبِ، وإنَّ العبدَ لَيُحْرَمُ الرزقَ بالذنبِ يُصِيبُه".

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أما بعدُ، فاعلموا أن أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيها المؤمنونَ!

قد شبَّهَ أهلُ العلمِ مَنْعَ اللهِ عبدَه المؤمنَ بفَلَّاحٍ خبيرٍ غَرَسَ جَنَّةً، وتعاهدَها بالسَّقْي والإصلاحِ حتى أثمرتْ أشجارُها، فأقبلَ عليها يَفْصِلُ أوصالَها، ويَقْطَعُ أغصانَها؛ لِعلمِه أنَّها لو خُلِّيَتْ على حالِها لم تَطِبْ ثمرتُها، حتى إذا التحمتْ بها واتَّحدتْ، وأعطتْ ثمرتَها؛ أقبلَ بقَلْمِها وقَطْعِ أغصانِها الضعيفةِ التي تُذْهِبُ قوَّتَها، ويُذيقَها ألَمَ القطعِ والحديدِ لمصلحتِها وكمالِها؛ لِتَصْلُحَ ثمرتُها أنْ تكونَ بحضرةِ الملوكِ، ثمَّ لا يَدَعُها ودواعيَ طبعِها من الشربِ كلَّ وقتٍ، بل يُعَطِّشُها وقتاً، ويسقيها وقتاً، ولا يتركُ الماءَ عليها دائماً وإن كان ذلك أنضرَ لورقِها وأسرعَ لنباتِها، ثمَّ يَعْمَدُ إلى تلك الزينةِ التي زُيِّنَتْ بها من الأوراقِ فيُلقي عنها كثيراً منها؛ لأنَّ تلك الزينةَ تَحُولُ بين ثمرتِها وبين كمالِ نضجِها واستوائِها، كما في شجرِ العنبِ ونحوِه؛ فهو يقْطَعُ أعضاءَها بالحديدِ، ويُلقي عنها كثيراً من زينتِها؛ وذلك عينُ مصلحتِها، فلو أنَّها ذاتُ تمييزٍ وإدراكٍ كالإنسانِ لتَوَهَّمَتْ أنَّ ذلك إفسادٌ لها وإضرارٌ بها، وإنما هو عينُ مصلحتِها.

عبادَ اللهِ!

إنَّ فِقْهَ المنعِ الربانيِّ ظلالٌ وارِفٌ في هجيرِ آلامِ الحرمان وتباريحِه؛ يَمتدُّ نفعُه لِيَمْلأَ القلبَ؛ فيفيضَ بالطمأنينةِ والسكينةِ والرضا، ونبذِ الحسدِ، والتطلُّعِ لما في أيدي الناسِ، كما أنه يفتحُ للنفوسِ بابَ أملٍ رحيباً؛ يُنَدِّي جفافَ الحالِ برُوَاءِ الرحمةِ التي يرجوها العبدُ من ربِّه، كما أنَّ فِقْهَ المنعِ الربانيِّ قوةٌ تَضُخُّ في القلبِ ثباتَ شموخٍ وعزٍ أمامَ عواصفِ الأقدارِ، ورُعُونَاتِ النَّفْسِ التي طالما أذلَّتْها وأَذهبتْ كرامتَها في طلبِ ما تَهوى واستبقائِه وإنْ كان فيه غضبُ الله ومنَّةُ الخَلْقِ وإزْرَاؤهم. وفِقْهُ ذلك المنعِ يُكسِبُ القلبَ حساسيةً مُرْهَفَةً نحوَ الذنوبِ التي قد تكونُ سبباً فيه؛ فيدعوه ذلك للإنابةِ واستقالةِ العِثَارِ؛ وحسْبُكم بمنعٍ يكونُ سبباً لظَفَرِ العبدِ بمحبةِ مولاه للتائبينَ. وخيرُ ما يجْنيه العبدُ من فِقْهِ ذلك المنعِ تحقيقُ غايةِ التوحيدِ التي لأجْلِها خُلِقَ، والعيشُ بصفاءِ العقيدةِ، والنظرُ للدنيا بمنظارِها الصافي، وتعلُّقُه الدائمُ بالمعطي المانعِ الذي بيدِه ملكوتُ كلِّ شيءٍ؛ إذ لا معطيَ لما مَنَعَ، ولا مانعَ لما أَعطى، وحُسْنُ ظنِّه بعطاءِ ربِّه —وإنْ مَنَعَ- عزاؤه مِن كلِّ فائتٍ؛ فلا يلبثُ أنْ يَرى ببصيرةِ ذلك الفِقْهِ عظيمَ نعمةِ اللهِ بذلك المنعِ لُطْفاً وخَلَفاً وتنبيهاً حين رآه مَن حُرِمَ البصيرةَ إهانةً وحرماناً جافّاً لا عِوضَ معه، فضلاً عن أنْ يكونَ كرامةً وعطاءً خيراً مما مُنِعَ!

المؤلماتُ الثمانيةُ

إنَّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، من يهدِه اللهُ فلا مضلّ له، ومن يضللْ فلا هاديَ له وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ...﴾.

أيّها المؤمنون!

أدعيةُ النبيِّ ﷺ من جوامعِ كلِمِه؛ تحوي أوْعبَ سؤلِ الخيرِ وأوسعَ العوَذِ من الشرِّ، في وَجازةِ لفظٍ وجَزالةِ معنى. والاستعاذةُ نوعٌ من تلكَ الأدعيةِ التي كان النبيُّ ﷺ يلهجُ بها؛ ليجيرَه اللهُ — تعالى — ممّا استعاذَه، ويصونَه. يقولُ ابنُ القيمِ: " مَدارُ المُستعاذاتِ على الآلامِ وأسبابُها. ولمّا كان الشرُّ هو الآلامُ وأسبابُها؛ كانتِ استعاذاتُ النبيِّ ﷺ جميعُها مدارُها على هذيْنِ الأصليْنِ؛ فكلّ ما استعاذَ منه أو أمرَ بالاستعاذةِ منه فهو إمّا مؤلمٌ، وإمّا سببٌ يُفضِي إليه ". هذا، وإنّ ممّا كان النبيُّ ﷺ يدأبُ على الاستعاذةِ منه، ويُكثرُ - ثمانيَ مؤلِماتٍ؛ تُضعفُ القلبَ، وتوهِنُ عزمَه، وتفتُّ في عضُدِ الطاعةِ، وتُكسِفُ العقلَ، وتأكلُ نضارةَ النفسِ، وتعيقُ الهممَ، وتثبّطُ عن عليِّ الأمور، وتعكّرُ صفوَ الحياةِ، وتؤثّرُ سلباً على الآخرةِ، وقلَّ أن يخلوَ زمنٌ منها. فما تلكَ المؤلماتُ الثمانيةُ؟ يقولُ أنسُ بنُ مالكٍ — رضي اللهُ عنه -: كُنْتُ أَخْدُمُ

رَسُولَ اللهِ ﷺ كُلَّمَا نَزَلَ، فَكُنْتُ أَسْمَعُهُ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ وَالحَزَنِ، وَالعَجْزِ وَالكَسَلِ، وَالبُخْلِ وَالجُبْنِ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ» رواه البخاريُّ. استعاذَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَهُمَا قَرِينَانِ، وَمِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَهُمَا قَرِينَانِ، فَإِنَّ تَخَلُّفَ كَمَالِ الْعَبْدِ وَصَلَاحِهِ عَنْهُ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ لِعَدَمِ قُدْرَتِهِ عَلَيْهِ؛ فَهُوَ عَجْزٌ، أَوْ يَكُونَ قَادِرًا عَلَيْهِ، لَكِنْ لَا يُرِيدُ؛ فَهُوَ كَسَلٌ. وَيَنْشَأُ عَنْ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ فَوَاتُ كُلِّ خَيْرٍ، وَحُصُولُ كُلِّ شَرٍّ. وَمِنْ ذَلِكَ الشَّرِّ تَعْطِيلُهُ عَنِ النَّفْعِ بِبَدَنِهِ، وَهُوَ الْجُبْنُ، وَعَنِ النَّفْعِ بِمَالِهِ، وَهُوَ الْبُخْلُ. ثُمَّ يَنْشَأُ لَهُ بِذَلِكَ غَلَبَتَانِ؛ غَلَبَةٌ بِحَقٍّ، وَهِيَ غَلَبَةُ الدَّيْنِ، وَغَلَبَةٌ بِبَاطِلٍ، وَهِيَ غَلَبَةُ الرِّجَالِ، وَكُلُّ هَذِهِ الْمَفَاسِدِ ثَمَرَةُ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ. والاستعاذةُ منها استحماءٌ باللهِ منها ومن جميعِ أسبابِها التي تُفضِي إليها.

أيّها المؤمنون!

الهمُّ حزنٌ يعلَّقُ بتوقعِ السوءِ في المستقبلِ، ونظرةٌ سوْداويّةٌ للقادمِ؛ تسدُّ الأفقَ الّلاحبَ أمام ناظرِ المهمومِ. وهو أولُ مُستعاذٌ منه في ذلكَ الدعاءِ النبويِّ؛ لعظيمِ ضررِه، وشدةِ خطرِه. فقد عدّه أميرُ المؤمنينَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ — رضي اللهُ عنه — أشدَّ مخلوقاتِ اللهِ إذْ يقولُ: "«أَشَدُّ خَلْقِ رَبِّكَ عَشَرَةٌ: الْجِبَالُ، وَالْحَدِيدُ يَنْحَتُ الْجِبَالَ، وَالنَّارُ تَأْكُلُ الْحَدِيدَ، وَالْمَاءُ يُطْفِئُ النَّارَ، وَالسَّحَابُ الْمُسَخَّرُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ يَحْمِلُ الْمَاءَ، وَالرِّيحُ تُقِلُّ السَّحَابَ، وَالْإِنْسَانُ يَتَّقِي الرِّيحَ بِيَدِهِ، وَيَذْهَبُ فِيهَا لِحَاجَتِهِ، وَالسُّكْرُ يَغْلِبُ الْإِنْسَانَ، وَالنَّوْمُ يَغْلِبُ السُّكْرَ، وَالْهَمُّ يَمْنَعُ النَّوْمَ، فَأَشَدُّ خَلْقِ رَبِّكَ الْهَمُّ» رواه الطبرانيُّ ورجالُه ثقاتٌ

كما قال الهيثميُّ.

يا صاحبَ الهـمِّ إنَّ الهمَّ منفرجٌ أبشـرْ بخيـرٍ كأنْ قد فـرّجَ اللهُ
اليـأسُ يقطـعُ أحيانـًا بصاحبِه لا تيأسـنَّ فـإنَّ الصـانعَ اللهُ
إذا ابتُليـتَ فثـقْ بـاللهِ وارضَ به إنّ الذي يكشـفُ البلوى هو اللهُ

وأكثرُ همومِ المستقبلِ أوهامٌ، ينسجُها الشيطانُ والمرجِفونَ، فإذا حلّ ذلكَ المتوقَعُ بَدَا عافيةً وسهالةً. فلا تهتمَّ إلا بحاضرِك، واستعدَّ لمستقبلِكَ على الوجهِ المأمورِ؛ تجدِ الطُمأنينةَ.

إذا مـا كان عندِي قـوتُ يـومٍ طرحـتُ الهـمّ عنّـي يا سـعيدُ
ولـم تخطـرْ همـومُ غـدٍ ببالِي لأنّ غـداً لـه رزقٌ جديـدُ

أيّها المسلمون!

والحـزنُ المستعاذُ منه ألـمٌ يعصِرُ الفـؤادَ مـن أمـرٍ قـد وقـعَ في الحاضـرِ أو الماضي؛ فصُورُ المآسِي السّالفةِ جاثمـةٌ في قلـبِ المحزونِ؛ لا تفـارقُ فكـرَه. كأنّما حشرَ نفسَه في خندقِها، وأوثـقَ رِباطَه بقيادِها؛ فصارَ أسيرَ أحزانِها وإنْ تناءَى زمانُها. وذاك ممّا نَهى اللهُ عنه بقولِه: ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾؛ إذ الحزنُ لا يدفعُ شراً، ولا يجلبُ خيراً. بل الحزنُ ضرٌّ يتسلطُ به الشيطانُ على العبد؛ فلا شيءَ أحبُّ إليه من حزنِ المؤمنِ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾. قيلَ لحكيمٍ: الحزنُ أشدُّ أم الخوفُ؟ فقال: بل

الحـزنُ، وإنّمـا صـارَ الخـوفُ مكروهـاً؛ لمَـا فيـه مـن الحـزنِ، وكمـا أنّ السـرورَ غايـةُ كلّ محبـوب؛ فكذلـك الحـزنُ غايـةُ كلّ مكـروهٍ. ولا حـزنَ لمؤمـنٍ كان اللهُ معـهُ، ﴿لَا تَحۡـزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَـاۖ﴾.

عبادَ اللهِ!

والعجز ضعفُ قدرةٍ عن أداءِ الطاعةِ وتحمُّلِ المصائبِ والقيامِ بالمصالحِ. وبفقدِه يكونُ الغيابُ عن دوائرِ التأثيرِ والفاعليّةِ، والعيشُ على هامشِ الحياةِ، ويكـونُ صاحبُه على النـاسِ كَلًّا. ولـذا استعاذَ النبيُّ ﷺ بـاللهِ من الهِرمِ وسوءِ الكِبرِ. قـال حكيمٌ: "العجزُ مقرونٌ بـه الشّـقاءُ، والحـزمُ موكّلٌ بـه النّجـاءُ. وثمـرةُ الحزمِ السـلامةُ، وثمرةُ العجزِ الندامـةُ". والكسـلُ أقبـحُ مـن العجـزِ؛ إذْ هـو تـركٌ للمعاليِـي مـع وجـودِ القـدرةِ التـي حُرمَهـا العاجـزُ؛ فالكسـلانُ قـادرٌ غيـرُ مُريـدٍ، والعاجـزُ غيـرُ قـادرٍ وإنْ كان مُريـداً.

أيّها المسلمون!

والجبنُ ضعفٌ يعتري القلبَ؛ فيستكنّ الخوفُ فيه، وتترحَّلُ منه الشجاعةُ. ومـا عيشُ الكرامـةِ إن ترحّلـتِ الشـجاعةُ؟! فـلا يقـوَى الجبانُ علـى الـذَّودِ عـن الحِمـى، ومقارعـةِ العِـدى، ومطالبـةِ الحقـوقِ، ولا يقـدرُ علـى الجهـادِ والأمـرِ بالمعروفِ والنّهيِ عن المنكرِ. وتلْقَى صاحبَه ضعيفَ التوكُّلِ على اللهِ في طلبِ الـرزقِ والنصرِ والحفظِ؛ فكيف بما زادَ عـن ذلـكَ؟! ومـا قيمـةُ عيشِ المـرءِ إن بلغَ حالُـه هـذا المبلغَ؟! وهكـذا أثرُ البخلِ على الحياةِ، حينَ انكفأ البخيلُ على

خُويْصتِه، واختزلَ العطاءَ الذي لا تقومُ الحياةُ إلا ببذلِه في دائرةٍ ضيّقةٍ لا تتجاوزُ حدودَ المصالحِ الشخصيّةِ؛ فضنّ بالنّعمِ، ومنع تعدّي نفعِها؛ فتلفَاه ضنيناً بمالِه، أو علمِه، أو جاهِه. وما علمَ المحرومُ أنّ زكاةَ تلك المِنَنِ ونماءَها كامنٌ في الإنفاقِ منها والجودِ. يقولُ شيخُ الإسلامِ: "لَا تَتِمُّ رِعَايَةُ الْخَلْقِ وَسِيَاسَتُهُمْ إلَّا بِالْجُودِ الَّذِي هُوَ الْعَطَاءُ، وَالنَّجْدَةُ الَّتِي هِيَ الشَّجَاعَةُ. بَلْ لَا يَصْلُحُ الدِّينُ وَالدُّنْيَا إلَّا بِذَلِكَ".

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
وبعدُ، فاعلَموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنون!

وضَلعُ الدَّيْنِ اعوجاجُ ثقلٍ يَميلُ بصاحبِه عَنِ الاسْتِواءِ والاعْتِدَال؛ حينَ يغدو الديْنُ غالبًا على المدينِ؛ فلا يستطيعُ وفاءَه. وذلك من أشدِّ المؤلماتِ. وكان يقالُ: "الدَّيْن همٌّ بالليلِ، وذلٌّ بالنهارِ" و "حرّيّةُ المسلمِ كرامتُه، وذلُّه دَيْنُه، وعذابُه سوءُ خُلقِه". ولسانُ حالِ مَن غلبَه الدّيْنُ:

ألا ليتَ النَّهارَ يعودُ ليلاً فإنَّ الصُّبحَ يأتي بالهمومِ
حوائجُ ما نُطيقُ لها قضاءً ولا دفعًا وروعاتُ الغريمِ

قال أَبو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ —رضي اللهُ عنه -: "دَخَلَ رَسُولُ الله ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، يُقَالُ لَهُ: أَبُو أُمَامَةَ، فَقَالَ: «يَا أَبَا أُمَامَةَ، مَا لِي أَرَاكَ جَالِسًا فِي الْمَسْجِدِ فِي غَيْرِ وَقْتِ الصَّلَاةِ؟»، قَالَ: هُمُومٌ لَزِمَتْنِي، وَدُيُونٌ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «أَفَلَا أُعَلِّمُكَ كَلَامًا إِذَا أَنْتَ قُلْتَهُ أَذْهَبَ الله – عَزَّ وَجَلَّ – هَمَّكَ، وَقَضَى عَنْكَ دَيْنَكَ؟»، قَالَ: قُلْتُ: بَلَى، يَا رَسُولَ الله، قَالَ: "قُلْ إِذَا أَصْبَحْتَ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَأَعُوذُ

بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ، وَقَهْرِ الرِّجَالِ"، قَالَ: فَفَعَلْتُ ذَلِكَ، فَأَذْهَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَمِّي، وَقَضَى عَنِّي دَيْنِي" رواه أبو داود وحسنه عبدالقادر الأرناؤوطُ.

أيّها الإخوةُ في اللهِ!

وغلبةُ الرجالِ وقهرُهم بإذاقتِهم الظلمَ الذي لا يستطِيعونَ دفعَه ورفعَه من أمضّ الأمورِ وقعًا على نفوسِ المؤمنينَ، وأنْكاها. فالأنَفةُ والعزُّ من مُقتضياتِ الإيمانِ وخِلالِ أهلِه، كما قال اللهُ - تعالى -: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾، قَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ: "كَانَ الْمُؤْمِنُونَ يَكْرَهُونَ أَنْ يَسْتَذِلُّوا، وكانوا إذا قدرُوا عفَوْا". وبالاستِعاذةِ باللهِ من هذا القهرِ يُصرَفُ أو يرفعُ؛ ويكونُ به تبدُّلُ الحالِ.

اللهمّ إنّا نعوذُ بكَ من الهمِّ والحَزَنِ، والعجزِ والكسلِ، والجُبنِ والبخلِ، وضَلَعِ الدّينِ وقهرِ الرجالِ.

النّفسُ المُطْمئنّةُ

الحمدُ للهِ خلقَ النفسَ فسوّاها، وألهمَها فُجورَها وتقْوَاها، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له ربُّ الخلائقِ ومَولاها،وأشهدُ أنّ محمداً أزْكى البريّةِ وأتْقاها، صلى اللهُ وسلمَ عليه وعلى آلِه وصحبِه ما بزَغَتْ شمسٌ بضُحاها.

أمّا بعدُ، فاتّقوا اللهَ — عبادَ اللهِ —، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ... ﴾

أيّها المؤمنونَ!

طِيبُ حالِ النفسِ إنّما يكونُ بقدْرِ ما قامَ فيها من طُمأنينَةٍ، تَسكُبُ فيها السكينةَ والهدوءَ والاستقرارَ. وذاكَ الحالُ أبلغُ حالٍ تصلُ النفوسُ إليه. فما حقيقةُ تلكَ الطُّمأنينةُ؟ وما أثرُها على النفسِ؟ وما سبلُ تحصيلِها؟

النفسُ المطمئنةُ — كما قال ابنُ القيمِ - نفسٌ قد سكنتْ إلى ربِّها وطاعتِه وأمرِه وذكرِه، ولم تسكنْ إلى ما سواهُ، فقد اطْمأنّتْ إلى محبّتِه وعبوديّتِه وذكرِه، واطْمأنّتْ إلى أمرِه ونهيِه وخبرِه، واطْمأنّتْ إلى لقائِه ووَعدِه، واطْمأنّتْ إلى التّصديقِ بحقائقِ أسمائِه وصفاتِه، واطْمأنّتْ إلى الرّضى به ربّا، وبالإسلامِ دينا، وبمحمدٍ رسولا، واطْمأنّتْ إلى قضائِه وقدَرِه، واطْمأنّتْ إلى كفايتِه وحسْبِه وضمانِه، فاطْمأنّتْ بأنّه وحدَه ربُّها وإلهُها ومعبودُها ومليكُها ومالكُ أمرِها كلِّه، وأنّ مرجعَها إليه، وأنّها لا غِنى لها عنه طَرْفةَ عينٍ!

أيّها المسلمونَ!

متى حلّتِ الطُّمأنينَةُ في رُبوعِ القلبِ ترقّى صُعُداً في معراجِ الإيمانِ السامقِ، كما قال اللهُ — تعالى -: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾. وبالطّمأنينةِ اطِّرادُ العبوديّةِ وغدقُ الخيرِ في معاصيفِ الحياةِ ومباهجِها، يقولُ النبيُّ ﷺ: «عجباً لأمرِ المؤمنِ، إن أمرَه كلَّه خيرٌ، وليس ذاكَ لأحدٍ إلا للمؤمنِ، إن أصابتْه سراءُ شكَرَ، فكان خيراً لهُ، وإنْ أصابتْه ضراءُ، صبرَ فكان خيرا له» رواه مسلمٌ. وبطُمأنينةِ القلبِ استجلاءُ الحقائقِ عندَ اشتباهِ الأمورِ، يقولُ النبيُّ ﷺ: "الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَاطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي الْقَلْبِ، وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ" رواه أحمدُ وحسّنه النوويُّ. وطُمأنينَةُ النفسِ وسكينتُها تُكسبُ القلبَ القوةَ والشجاعةَ وتُرشدُ إلى حسنِ التصرُّفِ في أحلكِ الظروفُ، كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾. بل تهديهِ تلكَ الطُّمأنينةُ إلى قولِ الحكمةِ والصوابِ، كما قال ابنُ عباسٍ — رضي اللهُ عنهُما -: "كنّا نتحدثُ أنّ السكينةَ تنطقُ على لسانِ عمرَ وقلبِه". والطُّمأنينةُ غِنىً متى حلَّ في القلبِ لم يفتقرْ أبداً، قال حاتمٌ

الأصمُّ: "التوكُّلُ طُمأنينةُ القلبِ بموعودِ اللهِ تعالى، فإذا كنتَ مُطْمَئنا بالموعودِ استغْنيْتَ غنىً؛ لا تفتقرُ أبداً". وبتلكَ الطُّمأنينةِ تطيبُ الحياةُ وتزدَانُ ويطيفُ بها السرورُ وإنْ برّحتْها الآلامُ، يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ٢٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ﴾، قال ابنُ عبَّاسٍ: "فرحٌ وقرةُ عينٍ". قال يَحيَى بنُ معاذٍ: "لم أجدْ السرورَ إلا في ثلاثِ خِصالٍ: التنعُّمُ بذكرِ اللهِ، واليأسُ من عبادِ اللهِ، والطُّمأنينةُ إلى موعودِ اللهِ — يعني: في الرزقُ -". ومُنتَهى الفرحِ الدنيويِّ للنفسِ المُطمئنّةِ يكونُ ساعةَ الاحتضارِ المريحِ حين يقالُ لها — كما جاء في حديثِ البراءِ بنِ عازبٍ -: "أُخرُجِي أيّتها الرُّوحُ المطْمئنةُ! أُخرُجي إلى مغفرةٍ من اللهِ ورضوانٍ؛ فتخرجُ تسيلُ كما تسيلُ القطرةُ من فِيِّ السِّقاءِ" رواه الحاكمُ وصحّحه ابنُ القيمِ. وما تزالُ تحفُّ البشائرُ تَتوالَى على رحابِ تلكَ النفسِ المطمئنةِ حتى تُبَشرَ بالرِّضا من اللهِ عليها وبرضاها عن جزاءِ اللهِ يومَ الدينِ لها وهي ترجعُ إلى الأجسادِ التي عمرتْها بالعبادةِ في الدّنيا لتساقَ وفودُ المتقينَ إلى الرحمنِ وجنتِه، ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ٢٨ فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدْخُلِي جَنَّتِي﴾.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصّلاةُ والسّلامُ على رسولِ اللهِ.

وبعدُ، فاعلمُوا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنون!

إنّ لبلوغِ غايةِ الطُّمأنينةِ الساميةِ سبلاً تُفضي إليها، قد أوضحتْها النصوصُ، ورغّبَتْ في سلوكِها. ومن تلكَ السبلِ لزومُ ذكرِ اللهِ الذي به توْجلُ القلوبُ، والصبرِ الجميلِ على المُصابِ، وإقامةِ الصّلاةِ على ما شرعَ اللهُ، والسخاءِ بالنّفقةِ الواجبةِ والمستحبَّةِ. وذاكَ ما رغّبَ اللهُ إليهِ في قولِه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ - وهم المُطمئنّونَ كما فسّرهُ جمعٌ من السّلفِ - ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾. والصدقُ سبيلٌ قويمٌ لحلولِ الطُّمأنينةِ في القلبِ، كما قال النبيُّ ﷺ: "«دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ؛ فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ وَإِنَّ الْكَذِبُ رِيبَةٌ» رواه الترمذيُّ وصحّحه.

امتحانُ اليقينِ

الحمدُ للهِ الغالبِ على أمرِه، الحكيمِ في قدَرِه، الصادقِ في وعدِه وخبرِه، أحكمَ كلَّ شيءٍ خلْقاً، وأحصى كلَّ شيءٍ عدداً، وأحاطَ بكلِّ شيءٍ علماً. وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه أرسخَ الخلقِ يقيناً وأقومَهم ديناً، صلى اللهُ عليه وعلى آلِه وصحبِه وسلمَ تسليماً.

أمّا بعد، اتّقوا اللهَ — عبادَ اللهِ -، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ... ﴾.

أيّها المؤمنون!

إنّ ألزمَ ما يجبُ على المؤمنِ تفقُّدُه وتعاهدُه أثناءَ معاصيفِ الفتَنِ وتجهّمِ البلاءِ مدى يقينِ قلبِه بالحقِّ الذي قامتْ شواهدُ صدقِه وباتَ مطْمئناً به؛ إذْ من شأنِ تلك الخطوبِ والفتنِ امتحانُ ذلك اليقينِ، وبلوُ خبرِه، وزَعزعَةُ ثباتِه؛ ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ﴾، ويبينُ الصدقُ من الزَّيفِ؛ فذاكَ من أجلِّ مقاصدِ الابتلاءِ، ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾. هذا وإنّ تواردَ الشُّبُهاتِ من أشدِّ مواطنِ امتحانِ اليقينِ بثوابتِ أحكامِ الشَّرعِ المطهّرِ، وشمولِه، وصلاحيتِه، ونصوصِه المعصومةِ، وحَمَلتِه الأمناءِ؛ ممّا يثيرُه الشيطانُ في النفوسِ، أو ينفثُه أولياؤه من شياطينِ الإنسِ والجنِّ، سيّما في هذا العصرِ الذي سهُلَ فيه

التّواصلُ مع العالـمِ، وذابتْ فيه كثيرٌ من القيودِ، وضَعفَ فيه الرسوخُ العلميُّ، وكثرَ فيه رؤوسُ الجهلِ والمَفتُونونَ وعليمو اللسانِ؛ فإن شُبَهَ هؤلاءِ فتنةٌ أيُّما فتنةٍ للقلوبِ إنْ كان فيها مرضُ الشكِّ أو داءُ القسوةِ، بخلافِ قلوبِ أهلِ العلمِ والإيمانِ، كما قال تعالى: ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ٥٣ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾. وكذلكَ فإنّ من مواطنِ امتحانِ اليقينِ بالثّقةِ بوعدِ اللهِ ونصرِه وحكمتِه حالَ ظهورِ أهلِ الباطلِ وانكسارِ أهلِ الحقِّ، وعند حصولِ القدَرِ المؤلمِ ووقوعِ المصائبِ، وعند تفاوُتِ الأرزاقِ.

أيّها المسلمونَ!

إنّ اليقينَ بَرْدُ نعيمٍ؛ يعمرُ قلبَ مَن أكرمَه اللهُ به؛ فهوَ الزّادُ المغذِّي لذلكَ القلبِ بالإيمانِ والعملِ الصّالحِ، يقولُ الحسنُ البصريُّ: "صدقَ اللهُ ورسولُه! باليقينِ طُلِبتِ الجنّةُ، وباليقينِ هُربَ من النارِ، وباليقينِ أُدِّيتِ الفرائضُ، وباليقينِ صُبِرَ على الحقِّ". واليقينُ نورٌ مشرقٌ يفتحُ للبصيرةِ رَحابةَ الانتفاعِ بالقرآنِ وآياتِ الكونِ، كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾، ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾. وجمالُ الشريعةِ وإتقانُ نظْمِها لا يتبدّى إلا بمنظارِ اليقينِ، ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾. واليقينُ مركبُ التوكلِ الذلولُ الذي يكونُ به الظفرُ بالبُغيةِ، ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ

عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾. وهو كذلكَ سبيلُ الغِنَى الحقيقيُّ الذي لا يصلُ إليه همُّ الفقرِ أو وهْمُه، قيل لأبي حازمٍ: ما مالُك؟ قال: الثقةُ بما في يدِ اللهِ - عزّ وجلّ -،والإياسُ عمّا في أيدي الناسِ. وقال ابنُ رجبٍ: "فمَن حقّقَ اليقينَ؛ وَثِقَ باللهِ في أمورِه كلِّها، ورضيَ بتدبيرِه لهُ، وانقطعَ عن التعلُّقِ بالمخلوقينَ رجاءً وخوفًا، ومنعَه ذلكَ من طلبِ الدنْيا بالأسبابِ المكروهةِ. ومَن كان كذلكَ كان زاهداً في الدُّنيا حقيقةً، وكان من أغْنى الناسِ، وإن لم يكنْ له شيءٌ من الدُّنيا، كما قال عمارٌ: كفَى بالموتِ واعظًا، وكفى باليقينِ غنًى، وكفى بالعبادةِ شُغلاً". واليقينُ زادُ الصبرِ الذي لا ينفدُ؛ ولذا كان أهلُ اليقينِ هم أعظمُ الناسِ ثباتًا أمامَ الفتنِ والخطوبِ؛ لمَا فاقوا به غيرَهم من الصبرِ والثّقةِ بحسنِ العاقبةِ، قال ابنُ عبّاسٍ — رضيَ اللهُ عنهما -: "حسبُنا اللهُ ونعمَ الوكيلُ، قالها إبراهيمُ - عليه السلامُ - حين أُلقيَ في النارِ، وقالَها محمدٌ ﷺ حينَ قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾" رواه البخاريُّ. يقولُ ابنُ تيميةَ: "ولا يمكنُ العبدَ أن يصبرَ إنْ لم يكنْ له ما يطمئنُّ به، ويتنعمُ به، ويغتذِّي به؛ وهو اليقينُ". وقال أبو حازمٍ: "كيف أخافُ الفقرَ، ولمَوْلايَ ما في السمواتِ والأرضِ وما فيهما وما تحتَ الثّرَى؟!". وما أعجبَ تلك العبارةَ التي كتبَها بائعُ فاكهةٍ عاميٌّ على عربتِه التي تُقلّ بضاعتَه، إذْ كتبَ فيها: "كيف أخافُ الفقرَ وأنا عبدُالغنيِّ"! وبهذا صار أهلُ اليقينِ منْ أهلُ العلمِ هم أئمةُ الناسِ وقادتُهم في الحقِّ، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾؛ فبالصبرِ واليقينِ تُنالُ الإمامةُ في الدينِ. وعليه،

فلا عجبَ أنْ كان اليقينُ موطنَ راحةٍ وسرورٍ وقرّةِ عينٍ لا تنقطعُ، يقولُ ابنُ مسعودٍ — رضيَ اللهُ عنه -: "إنّ اللهَ بقِسطِه وعدلِه جعلَ الرّوْحَ والفرحَ في اليقينِ والرضا، وجعل الهمّ والحزنَ في الشكِّ والسُّخطِ". قال عمرُ بنُ عبدِالعزيزِ: "ما تركتْني هذه الدعواتُ ولي سرورٌ في غيرِ مواقعِ القضاءِ والقدَرِ؛ اللهمّ رضّني بقضائِكَ، وبارِكْ لي في قدرِكَ؛ حتى لا أحبّ تعجيلَ ما أخرتَ، ولا تأخيرَ ما عجلتَ". ويقولُ عبدُالقادرِ الجيلانِيّ: "تردُ عليَّ الأثقالُ الكثيرةُ، ولو وُضعتْ على الجبالِ تفسّختْ، فأضعُ جنبِي على الأرضِ، وأقولُ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾، ثم أرفعُ رأسِي وقد انفرَجَتْ عنّي".

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ وحدَه، والصلاةُ والسلامُ على مَن لا نبيَ بعدَه. أمّا بعدُ، فاعلمُوا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

إنّ اليقينَ نُزُلٌ عليّ، يُكرمُ اللهُ ببلوغِه مَن أحبَّ مِن عبادِه. وقد جعلَ لهذا النُزُلِ مِعراجاً يوصلُ إليه، وإنّ العلمَ هو ذلكَ المعراجُ. ومنبعُ ذلكَ العلمِ الوحيُ المعصومُ من الكتابِ والسنةِ وما بثّه اللهُ من آياتِ الكونِ والنفسِ والآفاقِ؛ إذ كيف يتسرّبُ للنفسِ ريْبٌ والكونُ شاهدٌ للخالقِ بالوحدانيّةِ والقدرةِ وخلودِ المُلكِ والشّرعةِ، كما أنّه شاهدٌ على فناءِ الخلقِ وما يملِكونَ، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾. ويقينُ العلمِ إنّما يكونُ بالعملِ به، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ۝٦٦ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝٦٧ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾. ولا يسلمُ معراجُ اليقينِ إلا بإزاحةِ واردات الشياطينِ ودفعِ خواطرِ السوءِ النفسيّةِ. قال ابنُ القيمِ: "وقال لي شيخُ الاسلامِ - رضي اللهُ عنه - وقد جعلتُ أوردُ عليه إيراداً بعد إيرادٍ: لا تجعلْ قلبَك للإيراداتِ والشُّبهاتِ مِثْلَ الإسفنجةِ، فيتشرّبَها؛ فلا ينضحُ إلا بها، ولكنِ اجعلْه كالزُّجاجةِ المصمّتةِ؛ تمرُّ الشُّبهاتُ بظاهرِها، ولا تستقرُّ فيها؛ فيراها بصفائه، ويدفعُها بصلابتِه، وإلا فإذا أَشربتَ قلبَك كلَّ شبهةٍ

تمـرُّ عليه صـار مقَـرّاً للشـبهاتِ -أو كمـا قـال -. فمـا أعلـمُ أنّـي انتفعـتُ بوصيـةٍ في دفـعِ الشّـبُهاتِ كانتفاعِـي بذلـكَ". والدعـاءُ خيـرُ مـا يَسـتحفظُ بـه العبـدُ يقينَـه، وقد كان من ثابتِ المطالـبِ النبويّـةِ سؤالُ اليقينِ الـذي بـه تهونُ مصائـبُ الدّنيا. ومـا أحرانـا و نحـنُ نواجـهُ حربـاً ضَروسـاً تُشـنُّ علـى يقينـاتِ الشـرعِ وثوابتِـه أنْ ندمـنَ الجـؤارَ لربِّنـا بـأنْ يسـلِّمَ يقينَنـا ويزيـدَه، ومـا أحْـرى أهـلَ العلـمِ أنْ ينشَـطوا في مواجهـةِ تلـكَ الحـربِ بسـلاحِ النَّصـرِ الـذي لا يُهـزمُ ولا يَثلـمُ؛ بالبيـانِ والثَّبـاتِ والتّثْبيـتِ.

انتصاراتُ رمضانَ

الحمدُ للهِ ذِي القوةِ والجبروتِ، والقهرِ والملكوتِ، قديرٍ فما شيءٌ عليه يفوتُ، عليمِ الحالِ بالجهرِ والسُّكوتِ والظُّهورِ والخُفوتِ، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه الحيُّ الذي لا يموتُ، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلى اللهُ وسلمَ عليه وعلى آلِه وصحبِه ذَوي اليُمنِ والقنوتِ.

أمّا بعدُ، فاتّقوا اللهَ —عبادَ اللهِ- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ... ﴾.

أيّها المؤمنونَ!

تلمُّسُ المِنَحِ واستبصارُ الفضائلِ سبيلٌ للظَّفرِ وحياطةِ المغانمِ، ورمضانُ منحةٌ ربانيّةٌ تحملُ في طياتِها صنوفَ البرِّ والخيراتِ. ومن مفرداتِ تلكَ المِنحِ: تنزّلُ النصرِ فيهِ؛ فللنَّصرِ مع رمضانَ اقترانٌ قدَريٌّ وثيقُ الارتباطِ ترتَّبتْ فيه النتائجُ على الأسبابِ بأمرِ اللهِ سبحانه.

معشرَ الصائمين!

أيامُ رمضانَ مآثرٌ لعزِّ الأمةِ المعقودِ وأملِها المنشودِ؛ ففي هذا الشَّهرِ من ثاني سنيّ الهجرةِ النبويَّةِ فرضَ اللهُ الجهادَ على الأمةِ مع افتراضِ شَعيرةِ الصِّيامِ؛ فكان رمضانُ موسمَ نصرٍ للمسلمينَ على امتدادِ التّاريخِ حين شهدتْ أيامُه الخالدةُ معاركَ خاضَها المسلمونَ مع الأعداءِ على تنوُّعِ دياناتِهم واختلافِ أقطارِهم وتفاوُتِ عددِهم وعُدتِهم، أكرمَ اللهُ فيها أولياءَه بالنصرِ

المبينِ، فكانـتْ تلـكَ المواقـعُ الرمضانيّـةُ فيصـلاً في تاريـخِ الأمـةِ ونقطـةَ تحـوُّلٍ في مسيرتِها و اتّسـاعِ رُقعتِهـا وشـامةً في جبيـنِ عزِّهـا وهامـةِ هيْبتِهـا؛ ففـي رمضـانَ مـن السـنةِ الثانيـةِ كان يـومُ الفرقـانِ حيـنَ انتصـرَ المسـلمونَ علـى كفـارِ قريـشٍ في غَـزوةِ بـدرٍ، وفي رمضـانَ مـن السـنةِ الثامنـةِ كان فتـحُ مكـةَ، وفي رمضـانَ مـن السـنةِ الثالثـةَ عشْـرةَ كانـت موقعـةُ البُوَيـبِ مـع الفـرسِ علـى يـدِ الصحابـيِّ المُثنَّـى بـنِ حارثـةَ — رضـيَ اللهُ عنـه –، وفي رمضـانَ مـن السـنةِ الخامسـةَ عشْـرةَ كانـت معركـةُ القادسـيَّةِ الشـهيرةِ بقيـادةِ الصحابـيِّ سـعدِ بـنِ أبـي وقَّـاصٍ — رضـيَ اللهُ عنـه –، وفي رمضـانَ عـامَ ثـلاثٍ وخمسـينَ اسـتعادَ المسـلمونَ جزيـرةَ رودِسَ علـى يـدِ القائـدِ جنـادةَ بـنِ أبـي أميـةَ بأمـرِ الخليفـةِ الصحابـيِّ معاويـةَ بـنِ أبـي سـفيانَ — رضـيَ اللهُ عنهُمـا –، وفي رمضـانَ مـن عـامِ ثلاثـةٍ وتسـعينَ فُتحـتِ الأندلـسُ علـى يـدِ القائـدِ طـارقِ بـنِ زِيـادٍ، وفي رمضـانَ مـن السـنةِ الرابعـةِ والتّسـعينَ افتُتحـتْ بـلادُ الهنـدِ والسّـندِ علـى يـدِ القائـدِ الشـابِّ محمـدِ بـنِ القاسـمِ، وفي رمضـانَ مـن عـامِ مِائتيـنِ وثلاثـةٍ وعشـرينَ كان فتـحُ عموريَّـةَ المشـهورُ، وفي رمضـانَ مـن عـامِ مِائتيـنِ وأربعـةٍ وسـتينَ فُتحـتْ مدينـةُ سرقوسـةَ في جزيـرةِ صقليّـةَ الأوربيّـةِ، وفي رمضـانَ مـن عـامِ خَمسـمِائةٍ وثلاثـةٍ وثمانيـنَ كان تحريـرُ مدينـةِ صِفـد مـن قبضـةِ الـرومِ علـى يـدِ القائـدِ صـلاحِ الديـنِ الأيُّوبـيِّ، وفي رمضـانَ مـن عـامِ سِـتمِائةٍ وثمانيـةٍ وخمسـينَ كانـت هزيمـةُ المَغـولِ في معركـةِ عيْـنِ جَالـوتَ، وفي رمضـانَ مـن عـامِ سِـتمِائةٍ وسـتةٍ وسـتينَ كان فتـحُ أنطاكيـةَ، وفي رمضـانَ مـن عـامِ سِـتمِائةٍ وثلاثـةٍ وسـبعينَ افتُتحَـتْ أَرمِينيـا الصُّغـرَى، وفي رمضـانَ مـن عـامِ سَـبعمِائةٍ واثنيـن كُسـرتْ شَـوكةُ المَغـولِ في معركـة شـقحب،وفي رمضـانَ مـن عـامِ سَـبعمِائةٍ وواحـدٍ وتسـعينَ فُتحـتْ بـلادُ

البوسنةِ والهَرسكِ على يدِ القائدِ العثمانيِّ السلطانِ مرادٍ، وفي رمضانَ من عام ثَمانِمائةٍ وتسعةٍ وثمانينَ فُلّ حدُّ الروسِ على يدِ العثمانيينَ في واقعةِ القِرمِ.

معشرَ الصائمينَ!

إنَّ المتأملَ في أسبابِ إنزالِ اللهِ نصرَه لعبادِه يجدُ أنّها فضلٌ من اللهِ أفاضَه على أوليائِه حين انتصرُوا على نفوسِهم؛ فكانوا مُؤهَّلينَ لتنزُّلِ النصرِ عليهم، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾. وفي رمضانَ يكونُ الانتصارُ على النفوسِ أقوى ما يكونُ؛ انتصارٌ على الرِّياءِ وملاحظةِ الخلقِ بتصفيةِ العملِ للخالقِ ابتداءً بتبيِّتِ نيةِ الصوْمِ، يقولُ الرسولُ ﷺ: «لَا صِيَام لمن لم يبيِّتِ الصّيامَ من اللَّيْلِ» رواه النَّسائيُّ وصحّحه الدارَقُطنيُّ، وانتصارٌ على الشياطينِ بالتّصفيدِ وتضيّيقِ مجاريهم بالصِّيامِ، يقولُ الرسولُ ﷺ: «إِذَا جَاءَ رَمَضَانُ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ، وَصُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ» رواه مسلمٌ، وانتصارٌ على الشَّهواتِ التي كثيراً ما يكونُ داعِيها الفرْجَ والبطنَ واللسانَ، يقولُ الرسولُ ﷺ: "يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَأَكْلَهُ وَشُرْبَهُ مِنْ أَجْلِي" رواه البخاريُّ ومسلمٌ، ويقولُ الرسولُ ﷺ: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالعَمَلَ بِهِ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ» رواه البخاريُّ، وانتصارٌ على الشحِّ والبخلِ والأثَرةِ، يقولُ ابنُ عبَّاسٍ — رضيَ اللهُ عنهما-: "«كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ القُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدُ بِالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ»

رواه البخاريُّ ومسلمٌ، وانتصارٌ على سوءِ الخُلقِ، يقولُ الرسولُ ﷺ : "الصِّيَامُ جُنَّةٌ فَلاَ يَرْفُثْ وَلاَ يَجْهَلْ، وَإِنِ امْرُؤٌ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ مَرَّتَيْنِ" رواه البخاريُّ ومسلمٌ، وانتصارٌ بالاجتماعِ وعدمِ التفرُّقِ، يقولُ الرسولُ ﷺ : "«الصَّوْمُ يَوْمَ تَصُومُونَ، وَالفِطْرُ يَوْمَ تُفْطِرُونَ، وَالأَضْحَى يَوْمَ تُضَحُّونَ» رواه الترمذيُّ وقال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ»، وصحّحه الألبانيُّ، وانتصارٌ بالاعتزازِ بالإسلامِ وخلعِ ربقةِ التقليدِ المهينِ، يقولُ الرسولُ ﷺ : «فَصْلُ مَا بَيْنَ صِيَامِنَا وَصِيَامِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَكْلَةُ السَّحَرِ» رواه مسلمٌ. ويُضافُ لهذه الانتصاراتِ أنّ رمضانَ وقتُ تنزُّلِ القرآنِ،﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾، والقرآنُ من أعظمِ ما يجاهَدُ به الكافرونَ كما قال اللهُ —تعالى-: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾، كما أنَّ رمضانَ شهرُ الصبرِ، والنصرُ قرينُه، يقولُ الرسولُ ﷺ : "اعلمْ أنَّ النصرَ مع الصبرِ" رواه أحمدُ وصحّحه الألبانيُّ، وفي رمضانَ الأدعيةُ التي لا تُردُّ، يقولُ الرسولُ ﷺ : «ثَلَاثَةٌ لَا تُردُّ دعوتُهم: الصَّائِمُ حَتَّى يفطرَ، وَالْإِمَامُ الْعَادِلُ، والمظلومُ» رواه الترمذيُّ وحسّنه وصحّحه ابنُ خُزيمةَ وابنُ حِبانَ؛ فلأجلِ ذا غدا رمضانُ من أعظمِ مواسمِ نصرِ المؤمنينَ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصّلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ، وبعدُ:

فاعلمُوا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

معشرَ الصائمينَ!

وإمعانـاً في حسـنِ الظـنِّ بـاللهِ وامتـداداً لعوائـدِ نصـرِه الرمضـانيِّ، فإنـا نترقـبُ مخايلَ تنزُّلِ نصرِ الله على أهلِ الإسلامِ في هذا الشهرِ الكريمِ بدعواتِ ملايينِ الصائمينَ القائمينَ وبزوغِ شمسِ السُّنَّةِ الحاكمةِ؛ ليكونَ ذلك النصرُ حلقةً من سلسلةِ انتصاراتِ رمضانَ؛ التي تُثبتُ أن طريقَ تنزُّلِ النصرِ الإلهيّ الوحيدِ للأمةِ إنّما يكونُ بانتصارِها على ذاتِها حينَ تستقيمُ على صراطِ اللهِ المستقيمِ، الذي يظلُّ رمضانُ أقوى محطةِ تزَوُّدٍ للسيرِ فيهِ. أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾.

إنزالُ الحوائجِ

الحمدُ للهِ قاضِي الحاجاتِ، جزيلِ الهِباتِ، سبَّحتْ له الأرضُ والسماواتُ، وخضعتْ لسلطانِه الكائناتُ، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ شهادةَ موقنٍ يرجو بها الثباتَ، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلى اللهُ وسلمَ عليه وعلى آلِه وصحبِه ذَوي الفضلِ والمَكرماتِ.

أمّا بعدُ، فاتّقوا اللهَ — عبادَ اللهِ -، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ... ﴾.

أيّها المؤمنون!

الضعفُ قدَرٌ جِبلِّيٌّ؛ فطرَ اللهُ عليه الناسَ، وابتلاهُم به؛ لينظرَ به استشْعارَهم حقيقةَ هذا الضعفِ، وتيقّنَهم عظيمَ فاقتِهم إلى ربِّهم؛ ليستكِينوا له، ويكونَ على ربِّهم معوّلُهم وأملُهم؛ فصار ذلك سبيلاً للترقِّي في دَرَجِ الإيمانِ، وعلوِّ النُّزُلِ عند ربِّ العالمينَ، مع ما يصاحبُ ذلك من سبلِ تذليلِ المَعاسِرِ التي لا يَحلُّ عقالَها إلا اللهُ. وكما قد كان ذلك الضعفُ مرقاةً لأولئكَ الموفَّقينَ؛ فقد غدا بلاءً على آخرينَ وضِعةً؛ إذْ راموا تخطِّيَه بعلائقِ المخلوقينَ مع غيابِ جانبِ الاستعانةِ باللهِ؛ فازدادُوا ضَعفًا على ضعفِهم، وما أغْنى عنهم وَهاءُ بيتِ العَنكبوتِ. هذا، وإنَّ حالَ الحاجةِ أعظمُ ما يجلّي ذلك الضَّعفَ البشريَّ، فما نبأُ إنزالِها وطريقُ سدّها؟ وما مؤدّى ذلك الإنزالِ ومُنتهَى ذلك الطريقِ؟ يقولُ النبيُّ ﷺ: "مَن نزلتْ به فاقَةٌ، فأنزلَها بالنّاسِ؛ لم تُسدَّ فاقتُه، ومَن نزلتْ

به فاقةٌ، فأنزلَها باللهِ؛ فيوشِكُ اللهُ له برزقٍ عاجلٍ أو آجلٍ" رواه الترمذيُّ، وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ. إنَّ هذا النبأَ النبويَّ المعصومَ قد حوَى في ثَنَايا بيانِه أصنافَ الناسِ في طلبِ قضاءِ حاجتِهم أيّـًا كانتْ، وأنّ تعامُلَهم فيها دائرٌ بينَ إنزالَيْنِ؛ لا ثالثَ لهما؛ إنزالٍ للحاجةِ باللهِ — سبحانَه -، وإنزالٍ للحاجةِ بالخَلقِ؛ وذلكَ من خلالِ ما يقومُ في القلبِ من توجّهٍ وركونٍ وتعلقٍ؛ إمّا باللهِ ربِّ العالمينَ، وإمّا بالخَلقِ المساكينِ. ولربَّما تشابهتْ صوَرُ سبلِ طلبِ قضاءِ الحاجةِ، ولكنّ البوْنَ شاسعٌ بين معانيها؛ وأين يكونُ التعلُّقُ بالخلقِ من التعلُّقِ بالخالقِ؟!

أيّها المسلمون!

إن تعلُّقَ القلبِ بالخلقِ في قضاءِ الحاجةِ مُؤْذِنٌ بحالٍ نكدٍ لا يكونُ لقضاءِ الحاجةِ فيه معنىً — هذا إن قُضيتْ - ؛ فإنَّ من تعلَّق بشيءٍ وكَّله اللهُ إليه. ومن شؤمِ التعلُّق بالخلقِ الخُذلانُ، وتعسُّرُ الأمرِ؛ والتذلُّلُ لهم، والهَوَانُ عليهم، واسترضَاؤهم على حسابِ الدينِ والقيَمِ، واستثقالُ الناسِ لطالبِ الحاجةِ منهم وإنْ خفَّتْ. هذا حالُ البشرِ مع مَن أنزلَ حاجتَه عندهم؛ وذا ممّا يَبعدُ معه قضاؤهم حاجتَه، "مَن نزلتْ به فاقةٌ، فأنزلَها بالناسِ؛ لم تُسدَّ فاقتُه"، وإن قضَوْها فقد لا يُبارَكُ له فيها — سيّما إنْ كانتْ بإلحاحٍ وهم لها كارهونَ -، وقد تكونُ حسرةً عليه، مفتِّحةً أبوابَ حاجاتٍ أخْرى لا تسدُّ؛ فكأنّ حاجتَه الأولى لم تسدّ، ناهيكَ عن قدْرِ ما نقصَ من عُبوديّتِه للهِ، وأعظِمْ به من خَسارٍ! وكفى بحاجةٍ شؤمًا أنْ تكونَ مُنقِصةً لقدْرٍ عند الخالقِ

والخَلقِ! قال ابنُ القيمِ: "أعظمُ الناسِ خُذلانـًا مَن تعلقَ بغيرِ اللهِ؛ فإنّ ما فاتَه من مصالحِه وسعادتِه وفلاحِه أعظمُ ممّا حصلَ له ممّن تعلَّقَ به، وهو معرّضٌ للزّوالِ والفَواتِ. ومَثلُ المتعلِّقِ بغيرِ اللهِ كمَثلِ المستَظلِّ من الحرِّ والبردِ ببيتِ العنكبوتِ، وأوهنِ البيوتِ".

عبادَ اللهِ!

إنَّ إنزالَ الحاجةِ باللهِ — عزّ وجلّ -؛ بتيقّنِ الافتقارِ إليهِ، وكمالِ كفايتِه، وأنّه لا قاضيَ للحوائجِ إلا هوَ — سبحانَه -، وقيامِ التوكُّلِ الصحيحِ في القلبِ، وتفويضِ الأمرِ للموْلَى، وحسنِ الظنِّ به، والثِّقةِ بحسنِ اختيارِه، والاطمئنانِ لحُكمِه، وانتظارِ الفرَجِ، وعدمِ الاستعجالِ، وملازمةِ الدعاءِ مع بذلِ الأسبابِ المشروعةِ دونَ تعلُّقٍ بها أو ركونٍ إليها — إنَّ ذلكَ هو الطريقُ الأقومُ في نجاحِ المطالبِ، كما أنَّه هو السبيلُ الوحيدُ في دَرَكِ الحاجاتِ وقضائِها وحلولِ البركةِ فيها، وتبديلِها بخيرٍ منها إنْ كانتِ الخيَرةُ في غيرِها، "مَن نزلتْ به فاقةٌ، فأنزلَها باللهِ؛ فيوشكُ اللهُ له برزقٍ عاجلٍ أو آجلٍ". وتأمّلوا — رحِمَكمُ اللهُ — التعبيرَ النبويَّ الجامعَ: "فيوشكُ اللهُ له برزقٍ عاجلٍ أو آجلٍ"؛ فلم يحصرِ العطاءَ الربانيَّ بقضاءِ تلكَ الحاجةِ المُنزلَةِ، بل هو رزقٌ مطلَقٌ نافعٌ للعبدِ بحسنِ اختيارِ اللهِ له في نوعِه ووقتِه! فقد يكونُ ذلكَ الرزقُ قضاءً لتلكَ الحاجةِ بعينِها، وقد يكونُ بالاستغناءِ عنها — والاستغناءُ عن الشيءِ خيرٌ من الاستغناءِ به -. وقد تكونُ تلكَ الحاجةُ سبيلاً لبابٍ من الخيراتِ عظيمٍ، يقولُ شيخُ الإسلامِ: "فمِن تمامِ نعمةِ اللهِ على عبادِه المؤمنينَ أن يُنزلَ بهم الشدةَ والضُّرَّ وما يلجِئُهم إلى

توحيدِه، فيدعونَه مخلصينَ له الدينَ، ويرجُونَه؛ لا يرجُونَ أحداً سواهُ، وتتعلَّقُ قلوبُهم به؛ لا بغيرِه؛ فيحصلُ لهم من التوكُّلِ عليهِ، والإنابةِ إليهِ، وحلاوةِ الإيمانِ وذوْقِ طعمِه، والبراءةِ من الشركِ ما هو أعظمُ نعمةً عليهم من زَوَالِ المرضِ والخوفِ أو الجَدبِ، أو حصولِ اليسرِ وزوالِ العُسرِ في المعيشةِ؛ فإنَّ ذلكَ لذاتٌ بدنيّةٌ ونعمٌ دنيويَّةٌ، قد يحصلُ للكافرِ منها أعظمُ ممّا يحصلُ للمؤمنِ. وأمّا ما يحصلُ لأهلِ التوحيدِ المخلصينَ للهِ الدينَ فأعظمُ من أنْ يُعبّرَ عن كنهِه مقالٌ، أو يستحضرَ تفصيلَه بالٌ، ولكلِّ مؤمنٍ من ذلكَ نصيبٌ بقدرِ إيمانِه؛ ولهذا قال بعضُ السَّلفِ: يا بنَ آدمَ! لقد بورِكَ لك في حاجةٍ أكثرتَ فيها من قرْعِ بابِ سيدِك، وقال بعضُ الشُّيوخِ: إنّه لَيكونُ لي إلى اللهِ حاجةٌ، فأدعوهُ، فيفتحَ لي من لذيذِ معرفتِه وحلاوةِ مُناجاتِه ما لا أحبُّ معه أن يعجِّلَ قضاءَ حاجتِي؛ خشيةَ أنْ تنصرفَ نفسِي". قال سفيانُ بنُ عيَيْنةَ: "مرَّ محمدُ بنُ عليٍّ بمحمدِ بنِ المنكدرِ، فقال: ما لي أراكَ مغموماً؟ فقال أبو حازمٍ: ذلك لدَيْنٍ قد فدحَه، قال محمدُ بنُ عليٍّ: أفُتحَ له في الدعاءِ؟ قال: نعم، فقال: لقد بورِكَ لعبدٍ من حاجةٍ أكثرَ فيها دعاءَ ربِّه، كائنةً ما كانتْ".

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصّلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أمّا بعدُ، فاعلمُوا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

إنَّ إنزالَ الحاجةِ باللهِ — سبحانَه —، وقصْرَ طلبِها منهُ توحيدٌ خالصٌ وإيمانٌ رفيعٌ؛ يرفعُ منزلةَ العبدِ عند ربِّه وعند خَلقِه، قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ: " فأعظمُ ما يكونُ العبدُ قدْراً وحُرمةً عند الخَلقِ إذا لم يحتَجْ إليهم بوجهٍ من الوُجوهِ، فإنْ أحسنتَ إليهم مع الاستغناءِ عنهم؛ كنتَ أعظمَ ما يكونُ عندَهم، ومتى احتجتَ إليهم - ولو في شربةِ ماءٍ - نقصَ قدرُكَ عندَهم بقدْرِ حاجتِك إليهم، وهذا من حكمةِ اللهِ ورحمتِه؛ ليكونَ الدينُ كلُّه للهِ، ولا يُشرَكُ به شيءٌ ". فالعزُّ معقودٌ بالافتقارِ إلى اللهِ، وإنزالِ الحاجةِ بهِ، والاستغناءِ عن خلقِه. وتُحَفُ الخيرِ مسوقةٌ لكل مَن أنزلَ حاجتَه باللهِ؛ ثباتًا على المبادئِ، واطِّراداً في المنهجِ السويِّ، وتفاؤلاً يملأ قلبَ ذلكَ الموفَّقِ وإنِ ادلَهمّتْ في وجهِه الخطوبُ، وعزيمةً لا تنثني قناتُها أمام مطارقِ الصِّعابِ في دربِ بذلِ الأسبابِ، وإعذاراً للخَلقِ حين لا يقدّر الله قضاءَ الحاجةِ على أيدِيهم؛ إذْ لا مانعَ لِما أعطَى، ولا معطيَ لما منعَ. قال محمدُ بنُ واسعٍ لقُتيْبةَ بنِ مُسلمٍ: إنِّي أتيتُك في حاجةٍ رفعتُها إلى اللهِ قبلكَ، فإنْ أذنَ اللهُ فيها قضيتَها وحمِدناك، وإنْ لم يأذنِ اللهُ فيها لم تقضِها وعذرْناك.

أنزلـتُ بالحُـرِّ إبراهيـمَ مسـألةً   أنزلتُـها قبـلَ إبراهيـمَ باللــهِ
فإنْ قضَى حاجتِي فاللــهُ يسَّـرَها   هــو المقدِّرُهــا والآمــرُ النَّاهِــي
إذا أبــى اللهُ شــيئًا ضــاقَ مذهبُه   عن الكبيرِ العريضِ القدْرِ والجاهِ

إنّما أشكُو بثِّي وحُزْني إلى اللهِ

الحمدُ للهِ سامعِ كلِّ شكوى، ورافعِ كلِّ بَلوى، يعلمُ السِّرَّ وأخفى. وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، له الأسماءُ الحسنَى والصفاتُ العُلى، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلّى اللهُ وسلمَ عليه وعلى آلِه وصحبِه أولِي الأحلامِ والنُّهى. أمّا بعدُ، فاتّقوا اللهَ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ...﴾.

أيّها المؤمنونَ!

البشرُ دائرُونَ بينَ ضَعفٍ فطريٍّ وكَبَدِ ابتلاءٍ؛ وغالباً ما يفوقُ البلاءُ تحمّلَهم، ولا يُطيقونَ كتمانَه؛ فيتّخذونَ الشَّكْوى متنفَّساً لِما انطوى في دواخلِهم من همّ وألمٍ، كما قال القائلُ:

ولا بُدّ من شكوَى إلى ذِي مروءةٍ يواسيكَ أو يسلِّيكَ أو يتوجَّعُ

ولما كانَ توحيدُ اللهِ غايةَ الخَلقِ، وإفرادُهُ بالعبادةِ والتوجُّهُ مقصدَ الوجودِ؛ جعلَ اللهُ الشكْوَى للخلقِ مباينةً للشكوى إليهِ في الحقيقةِ والأثرِ؛ فشكوى المخلوقِ إلى المخلوقِينَ شكْوى أرحمِ الراحمينَ إلى مَن لا يرحمُ، رأى بعضُهم رجلاً يشْكو إلى آخرَ فاقةً وضرورةً، فقال: يا هذا، تشْكو مَن يرحمُك إلى مَن لا يرحمُك؟! ثم أنشدَ:

وإذا عَرتْك بليَّةٌ فاصبرْ لها صبرَ الكريمِ فإنّه بك أعلمُ
وإذا شكوتَ إلى ابنِ آدمَ إنّما تشكو الرحيمَ إلى الذي لا يَرحمُ

والشَّكوى إلى المخلوقينَ شكوى عاجزٍ إلى عاجزينَ مثلِه؛ قد أرهقتْهم همومُهم وأعيتْهم؛ فكان لهم منها شغلٌ عن سماعِ همومِ الآخرينَ. وما تزالُ منزلةُ الشاكِي عندَهم في ضِعةٍ ومَهانةٍ، ومجلسُه عندهم ثقيلٌ، وحديثُه معهم مَكروهٌ. والشَّكوى إلى اللهِ، وبثُّ الهمّ له ضدٌ من ذلكَ كلِّه؛ إذْ شَكوى المخلوقِ إلى ربِّه توحيدٌ خالصٌ؛ قد حوَى اليقينَ بأنَّ الأمرَ للهِ، وأنّه القادرُ على كشفِ الضُّرِّ وتبديلِ الحالِ، وأنّه السميعُ القريبُ المجيبُ، وأنّ ما عداهُ عاجزٌ. والشكوَى إلى اللهِ — سبحانَه — ضَراعةٌ، وذلٌّ، وانكسارٌ، وطلبٌ بلسانِ الحالِ. وتلكَ الشَّكوى من قبيلِ الصبرِ الجميلِ الذي وعدَ به يعقوبُ — عليه السلامُ — ربَّه حين فقَد ابنَه يوسفَ — عليه السلامُ — فقال: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾، ولما ازدادَ بلاؤهُ بفقدِ ابنِه الآخرِ بثَّ شكواهُ إلى ربِّه قائلاً: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، وما أخرجتْه تلكَ الشَّكوى عن الصبرِ الجميلِ، بل كانتْ لبِنةً من لبِناتِ بُنيانِه المُحكَمِ. والشكوَى إلى اللهِ من مجامعِ التوكُّلِ عليهِ، وحُسنِ الظنِّ به، وتوقُّعِ الخيرِ منه؛ وذلكَ الظنُّ من أشْرفِ العلومِ الربانيّةِ التي لا يمُنّ اللهُ بها إلا على خاصَّةِ خلقِه، كما قال يعقوبُ — عليه السلامُ — إثرَ بثِّ شكواهُ: ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾، قال قَتادةُ: "ذُكِر لنا أنَّ نبيَ اللهِ يعقوبَ لم ينزلْ به بلاءٌ قطُّ إلا أتى حُسْنُ ظنّه باللهِ من ورائِه". قال رجلٌ لمعروفٍ الكرخيِّ: أوصِني، قال: "توكَّلْ على اللهِ؛ حتى

يكونَ جليسَك، وأنيسَك، وموضعَ شكواكَ". وتلكَ الحقائقُ التي حوتْها الشَّكوى إلى اللهِ أسبابٌ ترفعُ العبدَ إلى أرفعِ المقاماتِ؛ فهل بعد ذا تكونُ شكْوى لغيرِ اللهِ؟! من هنا قَصَرَ الأنبياءُ مَشكاهُم إلى اللهِ، يقولُ شيْخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ: "فالأنبياءُ وأتباعُ الأنبياءِ إنّما كانوا يشتكون إلى اللهِ، وله يدْعونَ، ويتضرَّعون، وإليه يرغَبون، وبهذا أمرَ اللهُ رسولَه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾". وليس من الشكوى للخلقِ إخبارُهم بالحالِ المؤلمِ مع عدمِ الاعتراضِ والتّسخُّطِ؛ لوُرودِه عن الأنبياءِ - عليهمُ الصلاةُ والسلامُ -. وإنَّ عيشاً مع شكاوَى الأنبياءِ لربِّهم مع تنوُّعِها؛ بينَ العمومِ والخصُوصِ، ومطالبِ الدُّنيا والآخرةِ؛ لَيُنْبِي عن ما قامَ في قلوبِهم من إعظامِ الرغبةِ رُغمَ مرارةِ الآلامِ وجثومِ الغمومِ؛ فكانتْ تلكَ الشَّكاوى بلسمَ شفاءٍ لتلكَ المعاناةِ؛ هذا إبراهيمُ - عليه السلامُ - يبثُّ شكواه لربِّه: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾، وهذه شكوَى زكريا - عليه السّلامُ -: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ۝٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا﴾، وشكا أيوبُ - عليه السلامُ - ضُرَّه إلى ربِّه قائلاً: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، ويونُسُ - عليه السلامُ - بثّ شكواه لربِّه حبيساً في بطنِ حوتٍ في لجّةِ البحرِ، ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ

ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وموسى — عليه السلامُ — بثّ إلى ربِّه شكوى الطُّغيانِ الفرْعوْنيِّ فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾. وما أبلغَ شكوى محمدٍ ﷺ لربِّه حين أمَّضه تكذيبُ المشركين وإيذاؤهم! فبثَّ نفثةَ المصدور إلى ربِّه قائلاً: "اللهمّ إليك أشكو ضعفَ قوّتي، وقلةَ حيلتِي، وهَوانِي على الناسِ، أرحمَ الراحمينَ، أنت أرحمُ الراحمينَ، إلى مَن تكِلنِي، إلى عدوٍّ يتجهمُني أو إلى قريبٍ ملَّكتَه أمري، إنْ لم تكن غضبانَ عليَّ فلا أُبالِي، غيرَ أن عافيتَك أوسعُ لي، أعوذُ بنورِ وجهِك الذي أشرقتْ له الظلماتُ، وصلَحَ عليه أمرُ الدّنيا والآخرةِ، أنْ تنْزلَ بي غضبَك أو تُحِلَّ عليَّ سخطَكَ، لك العُتبى حتى ترضى، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بك" (رواه الطبرانيُّ والضياءُ في مختارته الصحيحةِ). قال ابنُ القيمِ: "فالشَّكوى إليه سبحانَه لا تُنافي الصبرَ الجميلَ، بل إعراضُ عبدِه عن الشَّكوى إلى غيرِه جملةً، وجعلُ الشكْوى إليه وحدَه هو الصبرُ. واللهُ — تعالى - يَبتلي عبدَه؛ ليسمعَ شكواه وتضرُّعَه ودعاءَه، وقد ذمّ سبحانَه مَن لم يَتضرَّعْ إليه ولم يستكنْ له وقتَ البلاءِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾. والعبدُ أضعفُ من أن يتجلَّدَ على ربِّه، والربُّ — تعالى - لم يُردْ من عبدِه أن يتجلدَ عليه، بل أرادَ منه أن يستكينَ له، ويتضرعَ إليه، وهو تعالى يمقتُ مَن يشكُوه إلى خلقِه، ويحبُّ مَن يشكُو ما به إليه، وقيل لبعضِهم: كيف تشْتكي إليهِ ما ليس يخفَى عليهِ؟ فقال: ربِّي يرضَى ذلَّ العبدِ إليه".

الخطبة الثانية

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أمّا بعدُ، فاعلمُوا أنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

إنَّ في قصْرِ العبدِ شكْواه على مولاهُ دونَ أحدٍ سواهُ أنساً باللهِ، وقرباً؛ حينَ يخلو العبدُ بمولاهُ مناجياً؛ مظهراً فقرَه وضعفَه، عارضاً حاجتَه، متبرِّئاً مِن حولِه، معْظِماً رغبتَه في خالقِه، مفلساً ممّا عداهُ، بلسانٍ مُنكسرٍ وإن كان بلهجةٍ عامّيةٍ؛ فذلكُم الانكسارُ أفضلُ حالٍ للعبدِ، وأقربُ مظِنةٍ لإجابةِ شكوَاه. أوصَى عالِماً تلامذتَه قائلاً: كلِّموا اللهَ كثيراً، وكلِّموا الناسَ قليلاً، قالوا: كيف نكلمُ اللهَ كثيراً؟ قال: اخْلُوا بمناجاتِه، اخْلُوا بدعائه. وفي ذلكَ الأنسِ والقربِ والمناجاةِ والتوكُّلِ حلاوةٌ تفوقُ كلَّ لذةٍ، وتعوِّضُ عن كلِّ فائتٍ، وتُنْسي مرارةَ الألمِ، وتقوّي القلبَ أمامَ زلازلِ المحَنِ، وتخزمُ وساوسَ الشيطانِ وأوهامَه، قال بعضُ السلفِ: "إنه لتكونُ لي حاجةٌ إلى اللهِ، فأسألُه إيّاها، فيَفتحُ عليَّ من مناجاتُه، ومعرفتِه، والتذلُّلِ له، والتملُّقِ بين يديْه ما أحبُّ معه أن يؤخِّر عنِّي قضاءها؛ وتدومَ لي تلكَ الحالُ". وقال أحدُهم: "مَن أرادَ أنْ يكونَ أقوى الناسِ؛ فليتوكَّلْ على اللهِ"، وقال السريُّ السقطيُّ: "من اشتغلَ بمُناجاةِ اللهِ؛أورثتْه حلاوةُ ذكرِ اللهِ — تعالى - مرارةَ ما يُلقي إليه الشيطانُ". وإذا تقرّر عظيمُ الفرقِ بينَ الشكوَى للمخلوقِ والشكوى للخالقِ؛ حقيقةً وأثراً؛ أدركْنا

سرَّ تأثُّرِ الفاروقِ — رضيَ اللهُ عنهُ — الذي وصفهُ أبو رافعٍ — رضيَ اللهُ عنه – بقولِه: "إنّي يومـًا مع عمرَ في صلاةِ الصبحِ، وهو يقرأُ السورةَ التي فيها يوسفُ، وأنا في آخرِ الصفوفِ الرجالِ ممّا يلي النساءَ، وكان جهيرَ القراءةِ، فلمّا مرّ بهذه الآيةِ: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، فبكى حتى انقطعتْ قراءتُه، وسمعتُ نشيجَه".

انوِ الخيرَ

إنَّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِهِ اللهُ فلا مضلّ له، ومَن يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ... ﴾.

أيها المؤمنون!

لِوصَايا العلماءِ الربانيّينَ إنِ اسْتُوصوا وزنٌ ومعنىً؛ لانبعاثِها من فهمٍ عميقٍ للشَّريعةِ، وجمعِها خصالاً من الخيرِ ضافيةً، ومعرفةِ ما يناسبُ حالَ المُستوصِي وما يُصلحُ شأنَه، خاصّةً إنْ كان من خاصّةِ العالِمِ وذرِّيتِه. ومن تلكَ الوَصايا أنّ عبدَ اللهِ بنَ الإمامِ أحمدَ بنَ حنبلٍ قال لأبِيه يوماً: أوصِنِي يا أبتِ، فقال: "يا بُنيَّ، انوِ الخيرَ؛ فإنَّك لا تزالُ بخيرٍ ما نويتَ الخيرَ". النيةُ أصلُ العملِ، ورُوحُه؛ فلا عبرةَ بالعملِ وإنْ كثُرَ ما دامتِ النيّةُ مفارقةً له؛ إذِ القَبولُ والثوابُ معقودٌ عليها، ومَقرونٌ بها، كما قال النبيُّ ﷺ: "إنّما الأعمالُ بالنياتِ، وإنّما لكلِّ امرئٍ ما نَوى" رواه البخاريُّ ومسلمٌ. وذاكَ ما جعلَ بعضَ أهلِ العلمِ يقررُ أنّ نيةَ المؤمنِ خيرٌ من عملِهِ؛ لكونِها سابقةً عليهِ، وأنّ عملَه لا يصحُّ إلا بها.

عبادَ اللهِ!

نيـةُ الخيـرِ، وإرادةُ تحصيلِـه، ودوامُ التفكيـرِ بـه، وتعاهُـدُ النفسِ بتذكُـرِه بوصلـةٌ هاديـةٌ لخزائـنِ الخيـرِ، وصاحـبُ تلـكَ النيـةِ لا يـزالُ محفوفـًا بالخيـرِ ببركـةِ نيتِـه؛ " فإنَّـك لا تـزالُ بخيـرٍ مـا نويـتَ الخيـرَ". ومـن أعظـمِ الخيـرِ الـذي تسـوقُه تلـكَ النيـةُ لصاحِبِهـا صـلاحُ القلـبِ الـذي عُمِّـرَ بنيّـةِ الخيـرِ ومـا زالَ ذاكـراً لهـا؛ إذِ النيـةُ عمـلُ القلـبِ. وصـلاحُ القلـبِ صـلاحٌ للجوارحِ؛ فالقلـبُ مِلـكُ البـدنِ، والأعضـاءُ جنـودُه، فـإذا طـابَ الملِـكُ طابـتْ جنـودُه، وإذا خبُـثَ الملِـكُ خبُثَـتْ جنـودُه، كمـا قـال النبـيُّ ﷺ: "ألا إنَّ في الجسـدِ مضغـةً إذا صلَحـتْ صلَـح الجسـدُ كلُّـه، وإذا فسـدتْ فسـدَ الجسـدُ كلُّـه؛ ألا وهـيَ القلـبُ" رواه البخـاريُّ ومسـلمٌ. ولازمُ صـلاحِ القلـبِ والبـدنِ تـرْكُ مـا يُـذَمُّ مـن الأعمـالِ القلبيّـةِ والبدنيّـةِ التـي لا تجتمـعُ ونيـةَ السـوءِ؛ فنيّـةُ الخيـرِ – إنْ رسـخَتْ في القلـبِ وتُعوهِـدتْ — صِـدْقٌ طـاردٌ لإرادةِ السـوءِ التـي هـي أسـاسُ فعلِـه. يقـولُ شـيخُ الإسـلامِ ابـنُ تيميـةَ: "ولهـذا كان بعـضُ المشـايخِ إذا أمـرَ بعـضَ متّبعيـهِ بالتوبـةِ، وأحـبَّ ألَّا ينفـرَه، ولا يشـعِّبَ قلبَـه؛ أمـرَه بالصّـدقِ". ونيـةُ الخيـرِ مـن أعظـمِ سبلِ تيسُّـرِ فعـلِ الخيـرِ علـى صاحبِـه، كمـا قـال النبـيُّ ﷺ: "مَـن أخـذ أمـوالَ النـاسِ يريـدُ أداءهـا؛ أدّى اللهُ عنـه، ومَـن أخذَهـا يريـدُ إتلافَهـا؛ أتلفَـه اللهُ " رواه البخـاريُّ. ومـا تـزالُ أنهـارُ الحسـناتِ بتلـكَ النيـةِ دافقـةً علـى صاحبِهـا بالأجـورِ، قـال رسـولُ اللهِ ﷺ: "مَـن هـمَّ بحسـنةٍ، فلـم يعملْهـا؛ كتبهـا اللهُ لـه عنـده حسـنةً كاملـةً، فـإنْ هـو هـمّ بهـا، فعملَهـا؛ كتبَهـا اللهُ لـه عنـده عشـرَ حسـناتٍ إلـى سَـبعِمِائةِ ضعـفٍ إلـى أضعـافٍ كثيـرةٍ" رواه البخـاريُّ ومسـلمٌ. بـل

يبلغُ مسلمٌ بتلكَ النيةِ أجرَ الفاعلِ لها، كما قال النبيُّ ﷺ: "إنّما الدُّنيا لأربعةِ نفرٍ؛ عبدٍ رزقَه اللهُ مالاً وعلماً فهو يتّقي فيه ربَّه، ويصلُ فيه رحمَه، ويعلمُ للهِ فيهِ حقاً؛ فهذا بأفضلِ المنازلِ، وعبدٍ رزقَه اللهُ علماً ولم يرزقْه مالاً فهو صادقُ النيةِ يقولُ: لو أنَّ لي مالاً لعملْتُ بعملِ فلانٍ؛ فهوَ بنيّتِه؛ فأجرُهما سواءٌ..." رواه الترمذيُّ، وقال: حسنٌ صحيحٌ. قال زيدُ بنُ أسلمَ: "كان رجلٌ يطوفُ على العلماءِ، يقولُ: مَن يدلُّني على عملٍ لا أزالُ منه للهِ عاملاً؛ فإنّي لا أُحبُّ أنْ تأتيَ عليَّ ساعةٌ مِنَ الليلِ والنَّهارِ إلاَّ وأنا عاملٌ للهِ - تعالى -، فقيلَ له: قد وجدتَّ حاجتَكَ؛ فاعملِ الخيرَ ما استطعتَ، فإذا فترْتَ، أو تركتَه فهُمَّ بعملِه؛ فإنَّ الهامَّ بعملِ الخيرِ كفاعلِه". وبنيّةِ الخيرِ تصيرُ العاداتُ والمُباحاتُ طاعاتٍ؛ يُثابُ عليها العبدُ، وتعلو بها درجتُه، قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ: "فالمؤمنُ إذا كانتْ له نيّةٌ، أتتْ على عامّةِ أفعالِه، وكانتْ المُباحاتُ من صالحِ أعمالِه؛ لصَلاحِ قلبِه ونيّتِه"، يقولُ النبيُّ ﷺ: "إنّك لن تُنفقَ نفقةً تبتَغِي بها وجهَ اللهِ، إلا ازددتَ بها درجةً ورفعةً، حتى الُّلقمةَ تضعُها في فِيِّ امرأتِك" رواه البخاريُّ ومسلمٌ. وبنيةِ الخيرِ يكونُ العزاءُ من كلِّ فائتٍ بأحسنِ العوَضِ ومغفرةِ الذنوبِ وإنْ عظُمتْ، قال اللهُ — تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾. وبنيةِ الخيرِ تكونُ الطمأنينةُ وقتَ اشتدادِ الكروبِ والمخاوفِ، يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ﴾. وبسريرةِ نيةِ الخيرِ يجعلُ اللهُ القَبولَ لأهلِها في الأرضِ، قال المسيبُ بنُ رافعٍ: "ما من رجلٍ يعملُ حسنةً في سبعِ

أبياتٍ إلا أظهرَها اللهُ"، قال: "وتصديقُ ذلكَ كتابُ اللهِ - تعالى -: ﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أمّا بعدُ، فاعلَموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

ونيّـةُ الخيـرِ إخـلاصٌ؛ يُستنزَلُ بـه التوفيـقُ مـن اللهِ، قـال بعـضُ السـلفِ: "مـا نـزلَ مـن السـماءِ أعـزُّ مـن التوفيـقِ، ولا صعـدَ مـن الأرضِ أعـزُّ مـن الإخـلاصِ". ونيةُ الخيرِ خيرُ مصفٍّ للقلبِ من كدَرِ الغلِّ والحسدِ؛ إذْ هو إخلاصٌ ونصحٌ للمسلمينَ صادقٌ، يقولُ النبيُّ ﷺ: "ثلاثٌ لا يَغُلُّ عليهنّ قلبُ مسلمٍ؛ إخلاصُ العملِ للهِ، والنصيحةُ للمسلمينَ، ولزومُ جماعتِهم؛ فإنَّ دعوتَهم تحيطُ من ورائِهم " رواه الشافعيُّ وصحَّحه الألبانيُّ. ونيّةُ الخيرِ من إرادةِ الآخرةِ، ولإرادةِ الآخرةِ ثمارٌ ثلاثٌ طيبةٌ؛ كلُّ واحدةٍ تفوقُ متعَ الدّنيا قاطبةً؛ اجتماعُ الهمّ وعدمُ تفرُّقِه، وغِنى القلبِ، وتسهّلُ أمور الدّنيا وأرزاقِها، يقولُ النبيُّ ﷺ: "مَن كان همّه الآخرةَ؛ جمعَ اللهُ شملَه، وجعلَ غناه في قلبِه، وأتتْه الدّنيا وهي راغمةٌ، ومَن كانتْ نيّتُه الدّنيا؛ فرّقَ اللهُ عليه ضَيْعتَه، وجعلَ فقرَه بينَ عينيْه، ولم يأتِه من الدّنيا إلا ما كُتبَ له" رواه أحمدُ وصحّحه ابنُ حِبانَ.

تلكُم — يا عبادَ اللهِ — غيضٌ من فيضِ بركاتِ نيّةِ الخيرِ؛ وهي معقدُ تجارةِ العلماءِ، كما قالَ زيدُ بنُ ثابتٍ — رضيَ اللهُ عنهُ -: "يسرُّني أنْ يكونَ لي في كلِّ شيءٍ نيةٌ"؛ فانووا الخيرَ؛ فإنّكم لا تزالُونَ بخيرٍ ما نويتُم الخيرَ.

أولئكَ يسارعونَ في الخيراتِ

إنّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مضلّ له، ومَن يضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ... ﴾.

أيّها المؤمنون!

الدّنيا مُزدرعُ الأعمالِ، ومِضمارُ تنافسِ الخيراتِ، ينالُ لذَّ فوْزِها المسارعونَ؛ فما حقيقةُ تلك المسارعةِ؟ وما وزنُها عند اللهِ — جلّ وعلا –؟ ومتى تتأكدُ؟ وما أسبابُ دركِها؟

إنّ المسارعةَ في الخيرِ مبادرةٌ للبرِّ، وعَجَلةٌ محمودةٌ إليه، يقودُها حبٌّ للهِ — جلّ وعلا –، وخوفٌ منه، ورجاءٌ فيهِ، من حين يسنحُ ذلكَ الخيرُ؛ لتبيِّنه، وحسنِ عاقبتِه،؛ وذا ما أرشدَ إليه النبيُّ ﷺ بقولِه: "التؤدةُ في كلِّ شيءٍ إلا في عملِ الآخرةِ" رواه أبو داودَ وصحّحه الحاكمُ ووافقه الذهبيُّ. فإقامةُ الصلاةِ أولَ وقتِها، والتبكيرُ إلى الجمعةِ، ومبادرةُ الزكاةِ بالإيتاءِ حين دورانِ حوْلِها، وتعجيلُ الفطرِ بغروبِ الشمسِ، والتعجُّلُ للحجِّ والعمرةِ، والهرعُ في التوبةِ من الخطَايا واستحلالُ المظالمِ، والسبقُ في قضاءِ الدَّيْنِ عند الوجْدِ، والحضورُ بدايةَ وقتِ الوظيفةِ — صورٌ للمسارعةِ في الخيراتِ وفقَ حقيقةِ العبوديّةِ

الشاملةِ كافةَ جوانبِ الحياةِ، كما قال اللهُ — تعالى -: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾.

أيّها المسلمون!

إنّ للمسارعةِ في الخيرِ حَظوةً عند المولى — جلّ وعلا -؛ تجعلُ المؤمنَ يقفُ إزاءَها متدبراً لحالِه، ساعياً في كمالِه. فهي سببٌ لرضا ربِّه عنه، كما قال موسى — عليه السلامُ -: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾، وظَفِرَ بذلك الرضا السابقونَ من المهاجرينَ والأنصارِ والتابعونَ لهم بإحسانٍ. وتلكَ المسارعةُ سبيلٌ لغفرانِ الذنوبِ، كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وكان ذا مطمعَ سحرةِ فرعونَ حينَ آمنوا: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. والجنةُ جزاءُ مَن سارعَ في الخيرِ: ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾. وليس دخولُ الجنةِ جزاءَ المسارعةِ فحسب، بل هو دخولُ صفوٍ وهناءٍ؛ من غيرِ حسابٍ، ولا عذابٍ؛ فقد قرأ النبيُّ ﷺ قولَ اللهِ — تعالى -: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ﴾، وقال: "الذينَ سبقُوا؛ فأولئكَ الذينَ يدخلونَ الجنةَ بغيرِ حسابٍ" رواه أحمدُ بأسانيدَ أحدُ رجالِها رجالُ الصحيحِ — كما قال الهيثميُّ -. والمسارعةُ في الخيراتِ سببٌ لإجابةِ الدعاءِ؛ فقد ذكرَ اللهُ — سبحانَه — إجابتَه دعاءَ نبيّه إبراهيمَ ولوطٍ ونوحٍ وأيوبَ ويونسَ

وزكريا — عليهمُ الصلاةُ والسلامُ —؛ وأنَّ مسارعتَهم في الخيرِ أولُ أسبابِ تلكَ الإجابةِ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾. والمسارعةُ من أسبابِ تفاوُتِ ثوابِ العملِ الصالحِ، كما قال اللهُ — تعالى -: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ﴾، ويقولُ النبيُّ ﷺ: « مَنِ اغْتَسَلَ يَوْمَ الجُمُعَةِ غُسْلَ الجَنَابَةِ ثُمَّ رَاحَ، فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ، فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ، فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشًا أَقْرَنَ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ، فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الخَامِسَةِ، فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَيْضَةً، فَإِذَا خَرَجَ الإِمَامُ حَضَرَتِ المَلائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ » رواه البخاريُّ. والمسارعةُ سبيلٌ لنيلِ السعادةِ؛ فقد فسّرَ ابنُ عباسٍ — رضي اللهُ عنهما — قولَه تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ بسبقِ السعادةِ لهم. والمسارعةُ شعارُ الصالحينَ على مَرِّ الزمانِ، يقولُ اللهُ — تعالى — عن مؤمنِي أهلِ الكتابِ: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾. فلا غروَ أنْ أمَرَ اللهُ — سبحانَه - بها في غيرِ ما آيةٍ وقد بوّأها هذا القدرَ العليَّ. وذاك مشعرٌ بنفاسَةِ التحصيلِ وفدحِ الخَسارِ، وتنبيهٌ لما يعرضُ لها من المشاغلِ والصّوارفِ، يقولُ خالدُ بنُ معدانَ: "إذا فُتحَ لأحدِكم بابُ خيرٍ فليسرعْ إليهِ؛ فإنّه لا يدرِي متى يُغلقُ عنهُ".

عبادَ اللهِ!

ولئنْ كان الإغـراءُ بالمسـارعةِ في الخيـرِ عامّـًا في الأحـوالِ؛ فـإنّ ذلـكَ يتأكـدُ حالَ اشتدادِ داعي الحاجةِ، ومُواتاةِ الفُرصِ التي تمتازُ بالقلّةِ وسرعةِ الانقضاءِ؛ قال رسولُ اللهِ ﷺ لرجلٍ وهو يعظُهُ: "اغتنمْ خمسـًا قبلَ خمسٍ: شبابَك قبل هَرمِكَ،وصحتَـكَ قبل سَـقمِك، وغنـاكَ قبلَ فقـرِكَ، وفراغَـكَ قبل شُـغلِكَ، وحياتَـك قبلَ موتِـكَ" رواه الحاكـمُ وقـال صحيـحٌ علـى شـرطِهما، وأوصى الشـافعيُّ أحمـدَ بـنَ صالـحٍ فقـال: "تعبّـدْ مـن قبـلِ أن تـرأسَ؛ فإنّـك إنْ تـرأسْ لـم تقـدرْ أن تتعبـدَ".

بَـادِرْ شَـبَابَكَ أَنْ تَهْرَمَـا وَصِحَّةَ جِسْمِكَ أَنْ تَسْـقَمَا
وَأَيَّامَ عَيْشِـكَ قَبْلَ الْمَمَاتِ فَمَا قَصْرُ مَنْ عَاشَ أَنْ يَسْلَمَا
وَوَقْـتُ فَرَاغِـكَ بَـادِرْ بِـهِ لَيَالِي شُغْلِكَ فِـي بَعْضِ مَا
فقـدِّر فـكلُّ امـرئٍ قـادمٍ على علمِ ما كـان قـد قدّمَا

وتتأكـدُ المسـارعةُ في مواسـمِ الخيـرِ كرمضـانَ والجمعـةِ وعشـرِ ذِي الحجَّـةِ والسَّـحَرِ، وهكـذا عنـد إقبـالِ الفتـنِ، يقـولُ رسـولُ اللهِ ﷺ: «بَـادِرُوا بِالْأَعْمَـالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا» رواه مسلمٌ. وتتأكّدُ المسارعةُ حالَ تقدُّمِ السنِّ وبلوغِ الكبَرِ، يقولُ ابنُ الجوزيِّ: "مَن علمَ قربَ الرحيلِ عن مكةَ، استكثرَ من الطوافِ، خصوصًا إن كانَ لا يؤمِّلُ العودَ؛ لكبرِ سنِّه، وضعفِ قوّتِه.

فكذلـكَ ينبغِـي لمَـن قاربَـهُ سـاحلُ الأجـلِ بعلـوِّ سـنِّه أن يبـادرَ اللحظـاتِ، وينتظرَ الهاجـمَ بمـا يصلُـحُ لـهُ".

أيّها المسلمون!

وثَمّـةَ أمـورٌ أربعـةٌ تنشـأُ عنهـا المسـارعةُ في الخيـرِ: الإشـفاقُ مـن خشـيةِ اللهِ، والإيمانُ بآياتِه الشرعيّةِ والحسيّةِ، وتركُ الإشراكِ به شِركًا أكبرَ أو رياءً يخالجُ العملَ الصالحَ، ودوامُ ذكرِ الرجوعِ إلى اللهِ — جلّ وعلا -، ومتى ما حلّتْ هذه المعاني في قلبِ المؤمنِ؛ فلا تسلْ عن مُسارعتِه في الخيرِ؛ إذِ الغايةُ سامقةٌ، والحادي سائقٌ، والصارفُ مدفوعٌ، يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصّلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
وبعدُ، فاعلمُوا أنَ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

إنّ في نبأِ مُسارعِي الخيراتِ سَوْقًا للنفوسِ لاقتفاءِ الأثرِ والسموِّ في تحصيلِ المنزلةِ، ومن غُررِ تلكَ الأخبارِ ما روى البخاريُّ عن عُقْبَةَ — رضيَ اللهُ عنهُ -، قَالَ: صَلَّيْتُ وَرَاءَ النَّبِيِّ ﷺ بِالْمَدِينَةِ العَصْرَ، فَسَلَّمَ، ثُمَّ قَامَ مُسْرِعًا، فَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ إِلَى بَعْضِ حُجَرِ نِسَائِهِ، فَفَزِعَ النَّاسُ مِنْ سُرْعَتِهِ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ، فَرَأَى أَنَّهُمْ عَجِبُوا مِنْ سُرْعَتِهِ، فَقَالَ: «ذَكَرْتُ شَيْئًا مِنْ تِبْرٍ (قطعَ ذهبٍ من الصدقةِ) عِنْدَنَا؛ فَكَرِهْتُ أَنْ يَحْبِسَنِي؛ فَأَمَرْتُ بِقِسْمَتِهِ». وقال عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ — رضي اللهُ عنه -: "مَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَنَا مَعَهُ وَأَبُو بَكْرٍ، عَلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَهُوَ يَقْرَأُ، فَقَامَ فَتَسَمَّعَ قِرَاءَتَهُ، ثُمَّ رَكَعَ عَبْدُ اللهِ، وَسَجَدَ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "سَلْ تُعْطَهْ، سَلْ تُعْطَهْ"، قَالَ: ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَالَ: "مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ، فَلْيَقْرَأْهُ مِنَ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ". قَالَ: فَأَدْلَجْتُ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ؛ لِأُبَشِّرَهُ بِمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَ: فَلَمَّا ضَرَبْتُ الْبَابَ - أَوْ قَالَ: لَمَّا سَمِعَ صَوْتِي - قَالَ: مَا جَاءَ بِكَ هَذِهِ السَّاعَةَ؟ قُلْتُ: جِئْتُ؛ لِأُبَشِّرَكَ بِمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَ: قَدْ سَبَقَكَ أَبُو بَكْرٍ، قُلْتُ: إِنْ يَفْعَلْ؛ فَإِنَّهُ سَبَّاقٌ بِالْخَيْرَاتِ، مَا اسْتَبَقْنَا خَيْرًا قَطُّ إِلَّا سَبَقَنَا إِلَيْهَا أَبُو بَكْرٍ" رواه أحمدُ وصحّحه أحمدُ شاكر. ولما التقَى المسلمونَ بالكافرينَ يومَ

بدرٍ قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّموَاتُ وَالْأَرْضُ»، فقال عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللهِ، جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّموَاتُ وَالْأَرْضُ؟! قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: بَخٍ بَخٍ! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟» قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، إِلَّا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، قَالَ: «فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا»، فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، قَالَ: فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ رواه البخاريُّ. وقال سفيانُ الثوريُّ: "عَمْرُو بنُ قَيْسٍ هُوَ الَّذِي أَدَّبَنِي؛ عَلَّمَنِي قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ وَالفَرَائِضَ، وَكُنْتُ أَطْلُبُه فِي سُوْقِه، فَإِنْ لَمْ أَجِدْه، فَفِي بَيْتِهِ، إِمَّا يُصَلِّي، أَوْ يَقْرَأُ فِي المُصْحَفِ؛ كَأَنَّهُ يُبَادِرُ أَمراً يَفُوْتُه، فَإِنْ لَمْ أَجِدْه وَجَدْتُه فِي مَسْجِدٍ قَاعِداً يَبْكِي، وَأَجِدُه فِي المَقبَرَةِ يَنُوحُ عَلَى نَفْسِهِ". وكان أبو بكرٍ النّهشليُّ صالحًا يثِبُ إلى الصلاةِ في مرضِه ولا يقدرُ؛ فيُقالُ له، فيقولُ: أبادرُ طيَّ الصحيفةِ، وكذا قال الجُنَيدُ حينَ كان يقرأُ القرآنَ لحظةَ خروج روحِه. وقال أبو الحسنِ الجرّاحيُّ: "ما جئتُ إبراهيمَ بنَ حمّادٍ إلا وجدتُه يقرأُ أو يصلِّي". وقال حمادُ بنُ سلَمَةَ: "ما أتينا سليمانَ التيميَّ في ساعةٍ يطاعُ اللهُ — عزّ وجلّ — فيها إلا وجدْناه مُطيعًا؛ إنْ كان في ساعةِ صلاةٍ وجدْناه مصلّيًا، وإن لم تكنْ ساعةَ صلاةٍ وجدْناه إما متوضِّئًا، أو عائداً مريضًا، أو مشيّعًا لجنازةٍ، أو قاعداً في المسجدِ؛ فكنّا نرى (نظنُّ) أنه لا يحسنُ يعصي اللهَ — عزّ وجلّ —".

وبعدُ - أيّها الموفَّقُ -، هذا فقهُ المسارعةِ في الخيراتِ؛ فشمّرْ عن ساعدِ الجدِّ، واجتهدْ في سبلِ الخيرِ، خاصّةً فيما يُفتحُ لك فيه.

أيُّ دعوةٍ كان يدعو بها النبيُّ ﷺ أكثرَ؟

إنَّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مُضلّ له، ومَن يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ... ﴾.

أيّها المؤمنونَ!

دعَواتُ النبيِّ ﷺ كنوزٌ ثرّةٌ من منائحِ الخيرِ الجزالِ؛ حقُّها أن تُدرسَ، وتُحفظَ، ويُناجَى بها المولَى القريبُ كما كان خليلُه ﷺ يناجِيه بها؛ فهوَ العليمُ بربِّه، وبخزائنِ فضلِه، وجزيلِ عطائِه، وهو الذي أُوتِيَ جوامعَ الكَلِمِ في بلاغِه ودُعائِه، وأُعطِيَ مفاتحَ الفصيحِ التي فاقَ بها بُلَغاءَ العربِ قاطبةً، وهو الذي بلغَ في الأدبِ مع ربِّه وخشيتِه مبلغَ الذُّروةِ. وله ﷺ من تلكَ الأدعيةِ نخبةٌ؛ يكثرُ من مناجاةِ ربِّه بها، ومن تلكَ النُّخبةِ دعاءٌ عظيمٌ كان أكثرَ دعاءٍ يدعو به النبيُّ ﷺ؛ لعِظَمِ ما حَوى من مسائلِ الخيرِ ومصارفِ الشرِّ في الدُّنيا والآخرةِ، والأدبِ مع ربِّه — جلَّ وعلا - . سأل قَتادةُ خادمَ رسولِ اللهِ ﷺ أنسَ بنَ مالكٍ — رضي اللهُ عنهُ -: أيُّ دعوةٍ كان يدعو بها النبيُّ ﷺ أكثرَ؟ قال: كان أكثرُ دعوةٍ يدعو بها يقولُ: "اللهمّ آتِنا في الدّنيا حسنةً، وفى الآخرةِ حسنةً، وقِنا عذابَ النارِ" رواه مسلمٌ. هكذا تصدَّرتْ هذه الدعوةُ صدارةَ الكثرةِ في سُلَّمِ

الأدعيـةِ النبويّـةِ، وسـجلتْ مشـهدَ الحضـورِ في المُناجـاةِ النبويّـةِ، وكانـت الدعـوةُ المحفوظـةُ لـه ﷺ بيـن الركنيْـنِ في طوافِـه، بـل قـال الإمـامُ ابـنُ القيـم: "كان لا يدعُـه، وإن دعـا بدعـاءٍ أردفَـه إيّـاه". فمـا سـرُّ تلـكَ الحفَـاوةِ النبويّـةِ بهـذه الدعـوةِ؟

أيّها المسلمونَ!

هـذه الدعـوةُ دعـوةٌ نـوّهَ اللهُ -سبحانه- بهـا في كتابِـه، وجعلَهـا شـعارَ ثنـاءٍ لمَـن سـاقَ لـه نعيـمَ الدّنيـا والآخـرةِ بعـد أن بيّـنَ مطالـبَ مَـنْ تملكـتِ الدّنيـا رغائبَـه ودعـاءَه الـذي يطلبُهـا بـهِ، كمـا قـال تعالـى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ۝٢٠٠ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝٢٠١ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾. قـال الإمـامُ ابـنُ كثيـرٍ: "فجمعـتْ هـذه الدعـوةُ كلَّ خيـرٍ في الدّنيـا، وصرفـتْ كلّ شـرٍّ؛ فـإنّ الحسـنةَ في الدّنيـا تشـملُ كلَّ مطلـوبٍ دنيـويٍّ؛ مـن عافيـةٍ، ودارٍ رحبـةٍ، وزوجـةٍ حسـنةٍ، ورزقٍ واسـعٍ، وعلـمٍ نافـعٍ، وعمـلٍ صالـحٍ (وهـي أجـلُّ حسـناتِ الدّنيـا كمـا قـال ابـنُ القيـمِ)، ومركـبٌ هنـيءٌ، وثنـاءٌ جميـلٌ، إلـى غيـرِ ذلـكَ ممّـا اشـتملتْ عليـه عبـاراتُ المفسـرينَ، ولا منافـاةَ بينهـا؛ فإنّهـا كلّهـا مندرجـةٌ في الحسـنةِ في الدّنيـا. وأمّـا الحسـنةُ في الآخـرةِ؛ فأعلـى ذلـكَ دخـولُ الجنـةِ، وتوابعُـه مـن الأمـنِ مـن الفـزعِ الأكبـرِ في العرَصَـاتِ، وتيسـيرُ الحسـابِ وغيـرُ ذلـكَ مـن أمـورِ الآخـرةِ الصالحـةِ. وأمـا النجـاةُ مـن النـارِ، فهـوَ يقتضِـي تيسـيرَ أسـبابه في الدّنيـا؛ مـن اجتنـابِ المحـارمِ والآثـامِ، وتـركِ الشُّـبُهاتِ والحـرامِ". وقـال ابـنُ سـعديٍّ: "والحسـنةُ المطلوبـةُ في الدّنيـا يدخـلُ

فيها كلُّ ما يحسنُ وَقْعُهُ عند العبدِ؛ من رزقٍ هنيءٍ واسعٍ حلالٍ، وزوجةٍ صالحةٍ، وولدٍ تقرُّ به العينُ، وراحةٍ، وعلمٍ نافعٍ، وعملٍ صالحٍ، ونحوِ ذلكَ من المطالبِ المحبوبةِ والمباحةِ. وحسنةُ الآخرةِ هي السلامةُ من العقوباتِ؛ في القبرِ، والموقفِ، والنارِ، وحصولُ رضا اللهِ، والفوْزُ بالنعيمِ المقيمِ، والقربُ من الربِّ الرحيمِ. فصار هذا الدعاءُ أجمعَ دعاءٍ وأكملَه، وأوْلاه بالإيثارِ؛ ولهذا كان النبيُّ ﷺ يكثرُ من الدعاءِ به، والحثِّ عليه". وعلى هُدى الإكثارِ سارَ الصحابةُ الأطهارُ، قال عطاءٌ: "طافَ عبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ - رضي اللهُ عنهُ - فاتّبعهُ رجلٌ ليسمعَ ما يقولُ، فإذا هو يقولُ: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ حتى فرغَ، فقال له الرجلُ: أصلحكَ اللهُ! اتّبعتُكَ فلم أسمعْك تزيدُ على كذا وكذا، فقال: أوَليس ذلكَ كلَّ الخيرِ؟! (رواه الطبرانيُّ في الدعاءِ). قيلَ لأنسِ بنِ مالكٍ — رضي اللهُ عنه -: إنَّ إخوانَك أتوْك من البصرةِ؛ لتدعوَ اللهَ لهم، قال: اللهمّ اغفرْ لنا، وارحمْنا، وآتِنا في الدّنيا حسنةً، وفي الآخرةِ حسنةً، وقِنا عذابَ النارِ، فاسْتزادُوه؛ فقال مثلَها، فقال: إنْ أوتيتُم هذا؛ فقد أُوتيتُم خيرَ الدّنيا والآخرةِ (رواه البخاريُّ في الأدبِ المُفردِ وصحّحه الألبانيُّ)، و كان إذا أرادَ أنْ يدعوَ بدعوةٍ دعا بها، وإذا أرادَ أنْ يدعوَ بدعاءٍ دعا بها فيهِ (رواه أحمدُ). قال حبيبُ بنُ صهبانَ: "سمعتُ عمرَ بنَ الخطّابِ وهو يطوفُ حولَ البيتِ وليس له هِجِّيرى (أي: دأبٍ وعادةٍ) إلا هؤلاءِ الكلماتُ: ﴿ربّنا آتِنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرةِ حسنةً وقِنا عذابَ النارِ﴾" (رواه ابنُ أبي شيبةَ). وكان ابنُ مسعودٍ — رضي اللهُ عنهُ — يعلّمُ الناسَ أنْ يدعوا بهذه الدعوةِ قُبيلَ السلامِ في الصّلاةِ (رواه ابنُ أبي شيْبةَ).

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أمّا بعدُ، فاعلمُوا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

وحسنةٌ أخرى تُضَمُّ لحسنةِ جِماعِ الخيرِ في تلكَ الدعوةِ العظيمةِ؛ تلكُمْ حسنةُ أدبِ العبوديّةِ اللائقِ بمقامِ مُناجاةِ الربِّ الكريمِ؛ وذلكَ من خلالِ ما حوتْه تلكَ الدعوةُ العظيمةُ من إطلاقِ الاختيارِ للعلمِ الإلهيِّ والرِّضا بهِ دونَ تحديدٍ من العبدِ أو اعتراضٍ. إنَّ هذا التعليمَ الإلهيَّ لهذه الدعوةِ والتطبيقَ النبويَّ الملازمَ لها يحدِّدانِ لمَن يكونُ الاتِّجاهُ، ويقرِّرانِ أنّه مَن اتّجهَ إلى اللهِ وأسلمَ لهُ أمرَه، وتركَ للهِ الخيَرةَ، ورضيَ بما يختارُه لهُ اللهُ؛ فلنْ تفوتَه حسناتُ الدّنيا، ولا حسناتُ الآخرةِ.

أيّها المسلمون!

ولئنْ كانتِ الحاجةُ إلى هذا الدعاءِ ماسةً في عمومِ الأحوالِ؛ فإنّ الحاجةَ إليه ألزمُ حالَ الابتلاءِ وخفاءِ العاقبةِ؛ وذلكَ لعجلةِ العبدِ، وجهلِه، وقصورِ علمِه، وخفاءِ مآلاتِ الأمورِ وعواقبِها عليه. قال أنسٌ — رضيَ اللهُ عنهُ -: عاد رسولُ اللهِ ﷺ رجلاً من المسلمين، قد خفَتَ (أي: ضعفَ)، فصار مثلَ الفرخِ، فقال له رسولُ اللهِ ﷺ: هل كنتَ تدعو بشيءٍ أو تسألُه إيّاه؟ قال: نعمْ، كنتُ

أقولُ: اللهمّ ما كنتَ معاقبَني به في الآخرةِ فعجّلْه لي في الدّنيا، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: سبحانَ اللهِ! لا تُطيقُه -أو لا تستطيعُه-، ألا قلتَ: اللهمّ آتِنا في الدّنيا حسنةً، وفي الآخرةِ حسنةً، وقِنا عذابَ النارِ، قال أنسٌ: فدعا اللهَ لهُ، فشفاهُ (رواه مسلمٌ).

اللهم إني أسألُك من رحمتك وفضلك

إنَّ الحمدَ لله؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، منْ يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومنْ يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه.

أما بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ... ﴾.

أيُّها المؤمنونَ!

من جمالياتِ هدايةِ السيرةِ النبويةِ، وعُمَدِ معالمِ أُسْوتِها ذلكمُ التجسيدُ النبويُّ الواقعيُّ للهدى الربانيِّ في مباشرةِ ماجرياتِ الحياةِ وخوضِ عُبابِ أحداثِها، باطِّرادِ مسلكِ الاستقامةِ في دقيقِ الأمرِ وجليلِه، دون غلوٍّ أو جفاءٍ، حتى غدتْ تلك السيرةُ ضياءً ينيرُ للسالكين دربَهم، وحبلاً متيناً موصلاً لهم بالعروةِ الوثقى التي مَن استمسكَ بها نجا وهُدي إلى صراطٍ مستقيمٍ وعاشَ الحياةَ الكريمةَ، سيما في مواقفِ ابتلاءِ الشدةِ ومواطنِ اضطرابِ النفوسِ. وفي موقفِ إملاقٍ طالما كان للنفسِ فيه مَجْزَعٌ كان النبيُّ بإيمانِه ﷺ -كعادتِه- طَوْداً ثابتاً على قاعدةِ العبوديةِ، متَّخذاً ذلكمُ الحالَ لَبِنةً قويةً في بناءِ التعلقِ بربِّه الكريمِ وحُسْنِ ظنِّهِ به، وإمداداً له في تغذيةِ السيرِ إليه وتخطِّي عقابيلَ الدنيا دون هلعٍ أو جزعٍ، والقناعةِ بما قسمَ اللهُ من رزقٍ. روى ذلك الموقفَ عبدُاللهِ بنُ مسعودٍ -رضيَ اللهُ عنه-، فقال: ضَافَ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَرْسَلَ إِلَى أَزْوَاجِهِ يَبْتَغِي

عِنْدَهُـنَّ طَعَامًـا، فَلَـمْ يَجِـدْ عِنْـدَ وَاحِـدَةٍ مِنْهُـنَّ، فَقَـالَ: «اللهُـمَّ إِنِّـي أَسْـأَلُكَ مِـنْ فَضْلِـكَ وَرَحْمَتِـكَ؛ فَإِنَّـهُ لَا يَمْلِكُهَـا إِلَّا أَنْـتَ»، فَأُهْدِيَـتْ إِلَيْـهِ شَـاةٌ مَصْلِيَّـةٌ، فَقَـالَ: «هَـذِهِ مِـنْ فَضْـلِ اللهِ، وَنَحْـنُ نَنْتَظِـرُ الرَّحْمَـةَ» رواه الطبرانيُّ وصحَّحه الألبانيُّ.

عبادَ اللهِ!

بيتُ النبيِّ ﷺ مَهْوى أفئدةِ مَن أصابَه الجَهْدُ، ورامَ إصابةَ القِرى. واستضافتُه ﷺ أولئك نتاجُ كرمِه الأصيلِ وسخاءِ روحِه وتعبُّدِه ربَّه بأدبِ الضيافةِ الواجبِ الذي يحملُ عليه الإيمانُ باللهِ واليومِ الآخرِ. ولربما أضافَ وبيتُه قَفْرٌ مِن نُزُلِ الضيافةِ؛ إذ لا طعامَ فيه، فكان يَعْرِضُ تلك الضيافةَ على أصحابِه مرغِّبًا في المنافسةِ فيها بأسلوبِ السؤالِ والدعاءِ بالرحمةِ الحاملِ في طياتِه رضاه عن القابلِ، وجزيلَ أجرِه، وتحليتَه بوسامِ شرفِ استضافةِ ضيفِ رسولِ ﷺ حين يقولُ: "مَنْ يضيفُ هذا -رحمه اللهُ-؟"، فكانوا يبادِرون إلى قبولِها وإنْ كان ذلك على حسابِ طعامِ الزوجةِ والصبيةِ والبياتِ على جوعٍ. هكذا كان كرمُه وكان تطبُّعُه على نبْذِ التكلُّفِ وِفقَ أمْرِ ربِّه له بذلك وإذاعتِه أمامَ العالمين إذ يقولُ: (قل ما أسألُكم عليه من أجرٍ وما أنا من المتكلفين)؛ فلم يكنْ ﷺ يردُّ موجوداً، أو يتكلَّفُ مفقوداً. ولما أضافَ القادمَ استعلمَ زوجاتِه عن قِرىً يُطْعِمُ به ضيفَه جائزتَه، فوردَه نبأُ زوجاتِه أجمعَ ألا قِرى عندهنّ؛ حينها رفعَ حاجتَه إلى مَن لا تُحجبُ دونه الحوائجُ، ولا يؤودُه إسداؤها أيّاً كانت، مُجيِّراً تلك الحاجةَ قُرْبةً تُدْنيه من ربِّه حين يسألُه قضاءَها؛ فيعزُّ بها عند مولاه حين عَزَّ على غيره بعفتِه واغتنى؛ إذ لم يعلِّقْ على أحدٍ سوى ربِّه حاجتَه؛ وأغنى

الناسِ عن الناسِ مَن أفردَ اللهَ بحاجتِه، فدعا ربَّه مستَمْنِحًا فضلَه ورحمتَه التي لا يملِكُها أحدٌ سواه، ولم يستقلَّ تلك الدعوةَ وإنْ كانت في طعامٍ يكفي منه القليلُ، وحصولُه يكونُ بأدنى مجهودٍ، سيما وأنه رسولُ اللهِ وكلٌّ يَخطِبُ شرفَ تلبيةِ حاجتِه؛ إذ التعبدُ بالدعاءِ وإظهارُ الافتقارِ إلى اللهِ وطلبُ الزلفى لديه هو المقصودُ وإن كان طلبُ الطعامِ وسيلتَه، فعِظَمُ المقصودِ لا يتضاءَلُ بصغرِ صورةِ وسيلتِه، كما قال بعضُ السلفِ: "لِيسألْ أحدُكم ربَّه حتى في إصلاحِ شِسْعِ نعلِه"، وقال آخرُ: "إنِّي لأسأل اللهَ -تَعَالَى- حوائجي فِي صَلَاتِي حَتَّى الْملحَ لأهلي". فسألَ ربَّه من ينبوعِ العطاءِ المباركِ الذي لا يَنفدُ، ممتثِلاً أمرَه إذ يقولُ: (واسألوا اللهَ مِن فضلِه)، فسألَه فضلَه ورحمتَه التي لا يملكها أحدٌ سواه؛ فهما الأمانُ الرابحُ من الخسارِ، كما قالَ تعالى: ﴿فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾، وبهما العصمةُ الربانيةُ مِن تسلطِ الشيطانِ وإضلالِه ووساوسِه، قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾، وبها تكونُ تزكيةُ النفوسِ، كما قال تعالى: (وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)، وحُقَّ لها أنْ تكونَ أعظمَ مفروحٍ به حين فاقتْ نعيمَ الدنيا أجمعَ؛ ذلكمُ أمرُ الله وشرْعُه، قال تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾.

أيها المسلمون!

إنّ سعةَ فضلِ اللهِ لَتغمرُ حاجةَ الخلقِ قاطبةً؛ دينيِّها ودنيويِّها، خاصِّها وعامِّها؛

فإنْ طلبَه عبدٌ فإنما يطلبُ العطاءَ الغدقَ الذي لا ينفدُ مِن أكرمِ الأكرمين؛ إذ الفضلُ توفيقُ هدايةٍ لصراطِ اللهِ المستقيمِ، وإعانةٌ عليه بسدِّ الحاجةِ ومباركةِ الرزقِ والعافيةِ، كيف إنِ اقترنتْ به الرحمةُ الإلهيةُ التي أَوْعبتِ الوجودَ حتى عمّتِ البهائمَ المعجمةَ، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، ويقولُ النبيُّ ﷺ: "إنّ اللهَ خَلَقَ يومَ خلق السماواتِ والأرضَ مائةَ رحمةٍ، كلُّ رحمةٍ طباقُ ما بين السماءِ والأرضِ، فجعل منها في الأرضِ رحمةً؛ فبها تعطفُ الوالدةُ على ولدِها، والوحشُ والطيرُ بعضُها على بعضٍ، فإذا كان يومُ القيامة أكمَلَها بهذه الرحمةِ" رواه مسلمٌ؟! كيف إنْ كان طالبُ الرحمةِ مِن أهلِ الإحسانِ الذين أحسنوا عبادةِ ربِّهم وأحسنوا معاملةَ خلْقِه؟! فللرحمةُ مع المحسنين قُربٌ وحظٌّ لا كغيرِهم، كما قال -سبحانه-: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وذلك في رحمةِ الدنيا الواحدةِ، وأعظمُ الحظِّ وأوفرُه مُدَّخَرٌ لهم في الرحماتِ الأخرويةِ التسعةِ والتسعين. وتحقُّقُ فضلِ اللهِ ورحمتِه للعبدِ إنما يكونُ بمقدارِ تمسُّكِه بالإسلامِ والسنةِ؛ فهما معينُ فضلِ اللهِ ورحمتِه، ومنهما تتفجرُ أنهارُ الخيراتِ، قال ابنُ القيِّم: "وَقَدْ دَارَتْ أَقْوَالُ السَّلَفِ عَلَى أَنَّ فَضْلَ اللهِ وَرَحْمَتَهُ هِيَ الْإِسْلَامُ وَالسُّنَّةُ، وَعَلَى حَسَبِ حَيَاةِ الْقَلْبِ يَكُونُ فَرَحُهُ بِهِمَا، وَكُلَّمَا كَانَ أَرْسَخَ فِيهِمَا كَانَ قَلْبُهُ أَشَدَّ فَرَحًا، حَتَّى إِنَّ الْقَلْبَ لَيَرْقُصُ فَرَحًا إِذَا بَاشَرَ رُوحَ السُّنَّةِ أَحْزَنَ مَا يَكُونُ النَّاسُ، وَهُوَ مُمْتَلِئٌ أَمْنًا أَخْوَفَ مَا يَكُونُ النَّاسُ". وما إنْ دعا رسولُ اللهِ ﷺ تلك الدعوةَ المجابةَ إلا ويأْذَنُ اللهُ بتنزُّلِ ثمرةٍ من فضلِه حين طرَقَ بابَ النبيِّ ﷺ طارقٌ حاملٌ بين يديه شاةً قد أُحسِنَ شِواؤُها مُهداةً لرسولِ اللهِ ﷺ؛ فقرَّتْ عينُ النبيِّ ﷺ بها،

وقدَّمَها ضيافةً لضيفِه وطعامـًا لأهلِه، رادًّا الفضلَ لمِن بيدِه وحدَه الفضلُ؛ ممتثِلاً أمرَه إذ يقول: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾، قائلاً: "هَـذِهِ مِنْ فَضْلِ اللهِ"؛ إقرارٌ بالنعمةِ والعطاءِ الذي ليس للعبدِ يدٌ فيه، أو في استحقاقِ مكافأتِه، وإنما هو تفضُّلٌ ربانيٌّ مَحْضٌ كريمٌ من ربٍّ كريمٍ، وذلك شعارُ الشكرِ الذي به يَرضى اللهُ عن عبدِه، ويبارِكُ له في عطائه، وتكونُ به الزيادةُ، ويَصْبَغُ العبدَ بماءِ الحياءِ من ربِّه أنْ يراه قد اتخذَ نعمتَه سببًا في عصيانِه، أو كانت هذه النعمةُ صادّةً له عن سبيلِ ربِّه.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.

أما بعدُ، فاعلموا أنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ ...

أيها المؤمنون!

وحسنُ ظنِّ النبيِّ ﷺ بربِّه مِلْأَ جَنانِه حين سأَلُ ربَّه، كيف وقد رأى أثَرَ ظنِّه الحسنِ بربِّه رأيَ عينٍ؛ إذ رأى من فضلِ ربِّه إهداءَ الشاةِ المَصْلِيَّةِ في وقتِ جوعٍ وضيافةٍ وخلوِّ أبياتِه من الطعامِ، فكان ظنُّه باللهِ قد بلغَ الذُّرى حين رجا رحمتَه الكبرى التي باتَ منتظراً لها داعياً بها قائلاً: "هَذِهِ مِنْ فَضْلِ اللهِ، وَنَحْنُ نَنْتَظِرُ الرَّحْمَةَ"؛ رحمةَ المغفرةِ ودخولِ الجنةِ والظفرِ بالوسيلةِ التي لا يَنالها من الخلقِ إلا واحدٌ، كما قال ﷺ: "إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاَةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِي الْوَسِيلَةَ؛ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الوسيلةَ حلَّتْ له الشفاعةُ" رواه مسلمٌ.

عبادَ اللهِ!

إنَّ العيشَ بذلك المنهجِ الذي كان النبيُّ ﷺ يطبِّقُه واقعاً حياتياً مطَّرِداً في معاشِه، ويمارسُه حلاً ناجعاً في معالجةِ مصاعبِ الحياةِ إنْ كَبُرتْ أو صَغُرَتْ؛ من بلاغِ الدعوةِ ونصرةِ الدينِ وإقامةِ الدولةِ حتى ضيافةِ الضيفِ وتحصيلِ

لقمةٍ تَسُدُّ الجوعَ؛ بربطِ أحداثِها بغايةِ الوجودِ؛ وهي تحقيقُ العبوديةِ لله، وانضواءِ الأحداثِ تحت حُكْمِه وسلطانِه ، ونشأتُها من حكمتِه، والاستعانةُ به -سبحانه- في تخطِّي عِقَابها؛ إنْ في سراءَ شُكْراً، أو في ضراءَ صَبْراً، بإظهارِ الافتقارِ وإدمانِ الدعاءِ وسؤالِ اللهِ فضلَه ورحمتَه- إنَّ ذلك هو العصمةُ من الزيغِ والنكوصِ عن اقتفاءِ الصراطِ المستقيمِ والرضوخِ لضغطِ الواقعِ، وسبيلُ الهناءِ بالعيشِ وإن كان صاحبُه مُعْدَمًا حين رضيَ عن ربِّه وقَنِعَ بعطائه، وحبلُ ظنِّه الحَسَنِ بربِّه ورجائه الجميلِ وثيقٌ ممدودٌ؛ لا تُوهِنُهُ الشدائدُ، فضلاً عنْ أنْ تقْطعَه! فتحرَّرَ بسلوكِ ذلك المنهجِ النبويِّ مِن رِقِّ الطمعِ في الخلقِ والأُسارِ بقيودِ مِنِنِهم واسترضائهم على حسابِ الدِّينِ والقِيَمِ، قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ: " وَكُلَّمَا قَوِيَ طَمَعُ الْعَبْدِ فِي فَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ وَرَجَائِهِ لِقَضَاءِ حَاجَتِهِ وَدَفْعِ ضَرُورَتِهِ قَوِيَتْ عُبُودِيَّتُهُ لَهُ وَحُرِّيَّتُهُ مِمَّا سِوَاهُ؛ فَكَمَا أَنَّ طَمَعَهُ فِي الْمَخْلُوقِ يُوجِبُ عُبُودِيَّتَهُ لَهُ؛ فَيَأْسُهُ مِنْهُ يُوجِبُ غِنَى قَلْبِهِ عَنْهُ، كَمَا قِيلَ: اسْتَغْنِ عَمَّنْ شِئْتَ تَكُنْ نَظِيرَهُ، وَأَفْضِلْ عَلَى مَنْ شِئْتَ تَكُنْ أَمِيرَهُ، وَاحْتَجْ إلَى مَنْ شِئْتَ تَكُنْ أَسِيرَهُ. فَكَذَلِكَ طَمَعُ الْعَبْدِ فِي رَبِّهِ وَرَجَاؤُهُ لَهُ يُوجِبُ عُبُودِيَّتَهُ لَهُ، وَإِعْرَاضَ قَلْبِهِ عَنْ الطَّلَبِ مِنْ غَيْرِ اللهِ، وَالرَّجَاءُ لَهُ يُوجِبُ انْصِرَافَ قَلْبِهِ عَنْ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ؛ لَا سِيَّمَا مَنْ كَانَ يَرْجُو الْمَخْلُوقَ وَلَا يَرْجُو الْخَالِقَ".

بمَنْ يَستغيثُ العبدُ إلا بربِّه ... ومَن للفتى عند الشدائدِ والكَرْبِ
ومَن مالكُ الدنيا ومالكُ أهلِها ... ومَن كاشفُ البلوى على البُعْد والقُرْبِ
ومَن يدفعُ الغمّاءَ وقتَ نزولِها ... وهل ذاك إلا مِن فعالِك يا ربِّي

تزكيةُ النفسِ

إن الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ مَن شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مضلّ لهُ، ومَن يضللْ فلا هاديَ لهُ، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعد، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ...﴾.

أيّها المؤمنونَ!

النظرُ في الآياتِ سبيلٌ للبصيرةِ والادّكارِ، وقائدٌ للإيمانِ واليقينِ، وطريقٌ لامتلاءِ الجَنانِ بتعظيمِ المَولى وقدرِه قدرَه. ومن أعظمِ الآياتِ التي أمرَ اللهُ — جلّ وعلا — بالتفكُّرِ فيها والنّظرِ إلى عجيبِ صُنعِها نفوسُنا التي بين جنبيْنا. يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، ويقولُ — سبحانَه -: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمۗ﴾. بل جعلَ — سبحانَه — التأمُّلَ في تلكَ النفوسِ دليلاً موصّلاً لاستقرارِ التوحيدِ في القلوبِ، يقولُ — عزّ وجلّ -: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ﴾. ولذا كانَ العلمُ بما يصلحُ هذه النفوسَ أعظمَ العلمِ وأجدرَه بالطّلبِ والإيعابِ؛ فالمرءُ بنفسِه؛ يرتفعُ و بها يَخفضُ، يشقَى بها ويسعدُ، يَصلحُ بها ويَفسدُ، يحيا بها ويموتُ. هذا، وإنَّ أعظمَ ما يُصلحُ النفوسَ تزكيتُها؛ حين تُطهّرُ من دنسِ الأخلاقِ ورجسِ الذنوبِ وتُحلّى بزَكيّ السجَايا وصالحِ العملِ؛ فيزدادُ خيرُها

ويذهبُ شرُّها؛ إذْ ما جُبلتْ عليه من السوءِ أكثرُ ممّا جُبلتْ عليه من الخيرِ؛ ولذا كانتْ أعدى الأعداءِ، وكان الجهادُ الحقيقيُّ معها، يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: «المُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ» رواه الترمذيُّ وقال: حسنٌ صحيحٌ.

أيّها المسلمونَ!

إنّ تزكيةَ النفوسِ من كُبرى مقاصدِ الرسالاتِ الإلهيّةِ وبعْثِ الرسلِ، فقد قال اللهُ — تعالى — لموسى — عليهِ السلامُ -: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾، وقال سبحانَه: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، ويقولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ» رواه أحمدُ وصحّحه الحاكمُ على شرطِ مسلمٍ ووافقهُ الذهبيُّ. وتزكيةُ النفسِ سبيلُ فلاحِها وسلامتِها من عُقبى الخيْبةِ، كما أكدّه الموْلى — جلّ وعلا — بأحدَ عشرَ قَسَماً: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾. وبتلكَ التزكيةِ يُذاقُ طعمُ الإيمانِ، يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: "ثلاثٌ مَن فعلَهنّ فقد طَعِمَ طَعْمَ الإيمانِ" وذكرَ منها: "وزكّى نفسَه" رواه الطبرانيُّ وصحّحه الألبانيُّ. ودرجاتُ الجنةِ العُلَى جزاءُ مَن تزكّى، يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ

ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ۝٧٥ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾، وقد بيّنَ النبيُّ ﷺ علوَّ ذلكَ النُّزلِ في قوْلِه: «إِنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ العُلَى لَيَرَاهُمْ مَنْ تَحْتَهُمْ كَمَا تَرَوْنَ النَّجْمَ الطَّالِعَ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ، وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ مِنْهُمْ وَأَنْعَمَا» رواه الترمذيُّ وحسّنه وصحّحه الألبانيُّ.

عبادَ اللهِ!

إنّ زكاةَ النفسِ منّةٌ يُكرمُ اللهُ – سبحانَه – بها مَن سبقتْ له الحُسنى لديه؛ تفضُّلاً ورحمةً لا استحقاقاً، يقولُ اللهُ – سبحانَه –: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾. وإنّ طلبَ المكلّفِ تلك المنّةِ فرضٌ لازمٌ عليهِ، وذلكَ بفعلِ ما تزكو به نفسُه من الأعمالِ التي شرعَ اللهُ – جلّ وعلا –. وأعظمُ تلكَ الأعمالِ توحيدُ اللهِ سبحانَه؛ فالتوحيدُ أعظمُ ما تُزكّى به النفوسُ، والشركُ أقبحُ ما تَنْجُسُ به، يقولُ اللهُ – تعالى –: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: التوحيدَ. والصلاةُ من خيرِ ما تزكّى به النفسُ، خاصةً المكتوباتِ، يقولُ النبيُّ ﷺ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟» قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ، قَالَ: «فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ؛ يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا» رواه البخاريُّ ومسلمٌ واللفظُ لهُ. والصدقةُ الواجبةُ والمُستحبّةُ من سبلِ تزكيةِ النفسِ، يقولُ اللهُ – تعالى –: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾. وغضُّ البصرِ عن رؤيةِ الحرامِ ممّا تزكو به النّفسُ، يقولُ اللهُ – سبحانَه –: ﴿قُل

لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾. والدعاءُ سببٌ قويٌّ لحصولِ التزكيةِ؛ فقد كان النبيُّ ﷺ يدعو بهذهِ الدعواتِ ويعلِّمُها أصحابَه: "اللهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا" رواه مسلمٌ. ومراقبةُ اللهِ — جلّ وعلا — واستحضارُ قربِه ممّا تُزكّى بهِ النفوسُ، بل فسّرَ النبيُّ ﷺ تزكيةَ النفسِ به؛ فقد سألَه رجلٌ: وما تزكيةُ النفسِ؟ فقال: أن يعلمَ أنّ اللهَ عزّ وجلّ معهُ حيثُ كان" رواه الطّبرانيُّ وصحّحه الألبانيُّ. ومحاسبةُ النفسِ سبيلٌ لتزكيتِها، يقولُ ابنُ القيمِ: "إِنَّ زَكَاتَهَا وَطَهَارَتَهَا مَوْقُوفٌ عَلَى مُحَاسَبَتِهَا؛ فَلَا تَزْكُو وَلَا تَطْهُرُ وَلَا تَصْلُحُ أَلْبَتَّةَ إِلَّا بِمُحَاسَبَتِهَا. قَالَ الْحَسَنُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "إِنَّ الْمُؤْمِنَ - وَاللهِ - لَا تَرَاهُ إِلَّا قَائِمًا عَلَى نَفْسِهِ: مَا أَرَدْتُ بِكَلِمَةِ كَذَا؟ مَا أَرَدْتُ بِأَكْلَةٍ؟ مَا أَرَدْتُ بِمَدْخَلِ كَذَا وَمَخْرَجِ كَذَا؟ مَا أَرَدْتُ بِهَذَا؟ مَا لِي وَلِهَذَا؟ وَاللهِ لَا أَعُودُ إِلَى هَذَا. وَنَحْوُ هَذَا مِنَ الْكَلَامِ". فَبِمُحَاسَبَتِهَا يَطَّلِعُ عَلَى عُيُوبِهَا وَنَقَائِصِهَا، فَيُمْكِنُهُ السَّعْيُ فِي إِصْلَاحِهَا". والتوبةُ إلى اللهِ والإنابةُ إليهِ جادةُ التزكيةِ، يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. يقولُ شيخُ الإسلامِ: "وَكَذَلِكَ تَرْكُ الْمَعَاصِي؛ فَإِنَّهَا بِمَنْزِلَةِ الْأَخْلَاطِ الرَّدِيئَةِ فِي الْبَدَنِ، وَمِثْلُ الدَّغَلِ فِي الزَّرْعِ، فَإِذَا اسْتَفْرَغَ الْبَدَنُ مِنَ الْأَخْلَاطِ الرَّدِيئَةِ كَاسْتِخْرَاجِ الدَّمِ الزَّائِدِ تَخَلَّصَتْ الْقُوَّةُ الطَّبِيعِيَّةُ وَاسْتَرَاحَتْ فَيَنْمُو الْبَدَنُ، وَكَذَلِكَ الْقَلْبُ إِذَا تَابَ مِنَ الذُّنُوبِ كَانَ اسْتِفْرَاغًا مِنْ تَخْلِيطَاتِهِ حَيْثُ خَلَطَ عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا، فَإِذَا تَابَ مِنَ الذُّنُوبِ تَخَلَّصَتْ قُوَّةُ الْقَلْبِ وَإِرَادَاتُهُ لِلْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَاسْتَرَاحَ الْقَلْبُ مِنْ تِلْكَ الْحَوَادِثِ الْفَاسِدَةِ الَّتِي كَانَتْ فِيهِ".

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.

وبعدُ، فاعلمُوا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

والتّزكيةُ وصفٌ خفيّ استأثرَ اللهُ — سبحانَه — بعلمِ حقيقتِه؛ فلا يُجزَمُ بتزكيةِ مخلوقٍ مهما بلغَ في تُقاه، يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾، قال ابْنُ مَسْعُودٍ — رضي اللهُ عنه -: "إِنَّ الرَّجُلَ لَيَغْدُو مِنْ بَيْتِهِ وَمَعَهُ دِينُهُ، فَيَأْتِي الرَّجُلَ لَا يَمْلِكُ لَهُ وَلَا لِنَفْسِهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا فَيَقُولُ: وَاللهِ! إِنَّكَ كَيْتَ وَكَيْتَ!! وَيَرْجِعُ إِلَى بَيْتِهِ وَمَا مَعَهُ مِنْ دِينِهِ شَيْءٌ" ثُمَّ قَرَأَ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ...﴾ الْآيَةَ، وأَثْنَى رَجُلٌ عَلَى رَجُلٍ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «وَيْلَكَ! قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ، قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ» مِرَارًا، ثُمَّ قَالَ: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَادِحًا أَخَاهُ لاَ مَحَالَةَ، فَلْيَقُلْ: أَحْسِبُ فُلاَنًا، وَاللهُ حَسِيبُهُ، وَلاَ أُزَكِّي عَلَى اللهِ أَحَدًا، أَحْسِبُهُ كَذَا وَكَذَا، إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُ» رواه البخاريُّ ومسلمٌ. بل كرهَ أهلُ العلمِ أن يُسمّى المرءُ باسمٍ فيه تزكيةٌ له كمؤمنٍ وزكيٍّ وإيمانٍ وصلاحِ الدينِ، قال مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ عَطَاءٍ — رحمه اللهُ -: سَمَّيْتُ ابْنَتِي بَرَّةَ، فَقَالَتْ لِي زَيْنَبُ بِنْتُ أَبِي سَلَمَةَ — رضي اللهُ عنهما -: «إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَهَى عَنْ هَذَا الِاسْمِ، وَسُمِّيتُ بَرَّةَ»، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ، اللهُ أَعْلَمُ بِأَهْلِ الْبِرِّ مِنْكُمْ» فَقَالُوا: بِمَ

نُسَـمِّيهَا؟ قَـالَ: « سَـمُّوهَا زَيْنَـبَ » رواه مسـلمٌ.

وبعـدُ — معشـرَ الإخـوةِ — فهـذا بيـانٌ لحقيقـةِ تزكيـةِ النفسِ وثمارِها ووسـائلِها وما يُمنعُ فيها؛ فالله اللهَ بتلكَ التزكيةِ؛ فإنّما الفلاحُ بها.

وأجمـلُ حـالٍ بلغتَ بـه كمالاً وعـزّاً بإمكـانيةٍ
جهـادٌ لنفسِـك تسـمو به وحرصُـك دومًا علـى تزكيةٍ

توكّلُ الأرزاقِ

إنّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، من يهدِه اللهُ فلا مضلّ لهُ، ومَن يضللْ فلا هاديَ لهُ، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لهُ، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ ... ﴾.

أيّها المؤمنونَ!

همُّ الرزقِ همٌّ يلازمُ الأنامَ؛ يُنشّأ عليه الصغيرُ، ويهرَمُ عليه الكبيرُ، وتغصُّ بخبره وتباثِّ تباريحِه المجالسُ ومواقعُ التّواصُلِ. وذلكَ من سنّةِ الكَبَدِ التي خُلقَ الإنسانُ فيها. وكان لذلك الهمِّ بالغُ الأثرِ في تبايُنِ سبلِ بحثِ الخلقِ عن مظانِّ الأرزاقِ، مع ما صاحبَها من شؤمِ تنكُّبِ الهدْيِ الربانيِّ في ذلكَ؛ حين يتملّكُ الهمُّ قلبَ صاحبِه؛ فيسوءُ ظنُّه بربِّه، ويبخلُ بالحقِّ، ويعتدِي على الخَلقِ، وتخيّمُ سحبُ اليأسِ القاتمةُ على سماءِ فؤادِه العليلِ إن قُدِرَ عليه رزقُه. هذا وقد أرشدَ الرزّاقُ الكريمُ لسببٍ عظيمٍ من أسبابِ الرزقِ، مضمونِ الأثرِ، حلوِ الثّمرِ، ويصلُحُ به حالُ الدّنيا والآخرةِ؛ وذلكَ ما بيّنَه رسولُ اللهِ ﷺ بقولِه: "لو أنّكم كنتُم توكّلونَ على اللهِ حقَّ توكُّلِه لرُزقتُم كما يُرزَقُ الطيرُ؛ تغدو خِماصًا (أي: جياعًا)، وتروحُ بِطانا (أي: شباعًا)" رواه الترمذيُّ وقال: "حسنٌ صحيحٌ". يا لَروعةِ هذا المثلِ اليوميِّ المُقنعِ لمَن تأمّلَه؛ حين تُرى هذه الطيورُ سابحةً كلَّ يومٍ في جوِّ السماءِ تبحثُ عن رزقِها الذي خبّأه اللهُ لها؛ تُبصرُ العيونُ

ذلكَ المشهدَ، ولكنّ القلوبَ قد لا تدركُ السرَّ الذي أحرزتْ به تلكَ الطيورُ الصامتةُ رزقَها؛ ذلكُم هو التوكلُ على اللهِ حقَّ توكُّله. وقد سئلَ الإمامُ أحمدُ عن حقيقةِ ذلكَ التوكُّلِ الذي يجلبُ اللهُ به الرزقَ؛ فقال: "أنْ يتوكَّلَ على اللهِ؛ ولا يكونَ في قلبِه أحدٌ من الآدميّينَ يطمعُ أن يجيئَه بشيءٍ، فإذا كان كذلكَ كان اللهُ يرزقُه، وكان متوكِّلاً"، وذلكَ الرزقُ من كفايةِ الله المتوكلينَ عليهِ، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾، وجزاءُ حسنِ ظنِّ المتوكِّل به، واللهُ عند ظنِّ عبدِه بهِ، وفيضٌ من محبتِه لأهلِ التوكُّلِ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾. وليس ذاكَ التوكُّلُ مَدعاةً لتركِ الأسبابِ، بل مباشرتُها من حسنِ التوكُّلِ وتمامِه؛ إذْ هو ابتغاءٌ لفضلِ اللهِ ورزقِه، يحدوه حسنُ ظنٍ واعتقادٌ أنّ رزقَ الله من عطائه الذي لا يسوقُه حرصُ حريصٍ، ولا يمنعُه كراهيةُ كارهٍ.

أيّها المؤمنونَ!

إنّ التوكُّلَ في طلبِ الرزقِ راحةٌ معجَّلةٌ في الدّنيا؛ إذْ أنعمُ العيشِ عيشُ المتوكِّلينَ. أوصَى عامرُ بنُ عبدِالله ابنيْ عمٍ لهُ فقال: "فوِّضا أمرَكما إلى اللهِ؛ تستَريحَا"؛ وذلكَ أنّ القلبَ إذا اعتقدَ اختصاصَ اللهِ بالرزقِ وانتفاءه ممّا عداهُ، وأنّ اللهَ أقربُ مَن دُعي، وأجودُ من سُئلَ، وأجزلُ مَن أعطى، وأقدرُ مَن ملَكَ — استسلمَ لهُ، وانقطعَ رجاؤه فيما عداهُ، وطفقَ يلتمسُ الأسبابَ بطمأنينةٍ ويقينٍ؛ ذلكَ أنّ السببَ لا يستقلُّ بالأثرِ إلا إنْ شاءَ اللهُ ذلكَ. فهل يمكنُ لليأسِ والحزنِ والهَلَعِ أن يجدَ دربـاً على ذلكَ القلبِ؟! شكا رجلٌ إلى إبراهيمَ بنِ أدهمَ كثرةَ عيالِه، فقال له إبراهيمُ: "يا أخي، انظرْ كلَّ مَن في منزلِك

ليس رزقُه على اللهِ فحوِّلْه إلى منزِلي"، فسكتَ الرجلُ. والعبادةُ تصفو حين يباشرُ التوكلُ قلبَ صاحبِه؛ فلا يحملُه استبطاءُ الرزقِ على تعجُّلِ الحرامِ، أو يقنّطُه من رحمةِ اللهِ التي يرجُوها، قال رسولُ اللهِ ﷺ: "إنّ روحَ القدُسِ نفثَ في رَوْعِي: إنّ نفسا لا تموتُ حتى تستكملَ رزقَها؛ فاتّقوا اللهَ وأجمِلوا في الطلبِ، ولا يحملنّكم استبطاءُ الرزقِ أنْ تطلُبوه بمعاصي اللهِ؛ فإنّ اللهَ لا يُدرَكُ ما عندهُ إلا بطاعتِه" رواه البزّارُ وحسّنه الألبانيُّ. وقال عبدُ اللهِ بنُ إدريسَ: "عجبتُ ممّن ينقطعُ إلى رجلٍ، ويدَعُ أن ينقطعَ إلى مَن له السماواتُ والأرضُ". والكرامةُ والعزُّ شِعارُ عيشِ المتوكِّلِ على ربِّه في رزقِه وإن كان قليلَ ذاتِ اليدِ؛ ليقينِه أنّ اللهَ وحدَه هو الرزاقُ وأنَّ ما عداهُ فقيرٌ مرزوقٌ كائنًا مَن كانَ. قال بعضُ الأمراءِ لأبي حازمٍ: ارفعْ إليّ حاجتَك، قال: هيهاتَ هيهاتَ! رفعتُها إلى مَن لا تُحجَزُ الحوائجُ دونَه؛ فما أعطانِي منها قنِعتُ، وما زوى عنّي منها رضيتُ".

وكيف يبلغُ رجاءُ المخلوقِ في قلبِ المتوكلِ وقد عمَر قلبَه اليقينُ بسِعةِ خزائنِ ربِّه الرزّاقِ القائلِ في الحديثِ القدْسيِّ الذي رواه مسلمٌ: "يا عبادي لو أن أوّلَكم وآخرَكم وإنسَكم وجنَّكم قاموا في صَعيدٍ واحدٍ فسألونِي فأعطيتُ كلَّ إنسانٍ مسألتَه، ما نقصَ ذلكَ ممّا عندي إلا كما يُنقِصُ المِخْيَطُ إذا أُدخلَ البحرَ". وكيف يطمحُ المتوكلُ في عطاءِ المخلوقِ النَّكدِ المتبوعِ بالمنِّ والضَّجَرِ وإظهارِ الفقرِ وقد استقرَّ في وجدانِه سخاءُ يدِ الخالقِ بالعطيّةِ وهناؤها ومحبةُ المولى سؤالَه النّوالَ، قال رسولُ اللهِ ﷺ: "يدُ اللهِ ملأى لا تُغيضُها (أي: تنقصُها) نفقةٌ، سحّاءُ (أي: دائمةُ العطاءِ) الليلَ والنهارَ. أرأيتُم ما أنفقَ منذُ خلقَ السماءَ والأرضَ؛ فإنّه لم يغِضْ ما في يدِه" رواه البخاريُّ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ. وبعد:

أيّها المؤمنونَ!

إنّ بركةَ التوكُّلِ على اللهِ في طلبِ الرزقِ تفيضُ على المتوكِّلِ قوةً في نفسِه، وتفاؤلاً يغمرُ قلبَه، حينَ يعتري الضّعفُ واليأسُ والطمعُ قلبَ مَن عَرى قلبُه منها، مع ما وعدَ اللهُ به المتوكِّلَ من سوْقِ الرزقِ له والغِنَى. قال محمدُ بنُ عليِّ بنِ الحُسينِ: «الغِنَى والعزُّ يجولانِ في قلبِ المؤمنِ، فإذا وصلا إلى مكانٍ فيه التوكُّلُ أوطَناه».

يجولُ الغنَى والعزُّ في كلِّ موْطنٍ ... ليسْتوطِنا قلبَ امرئٍ إنْ توكَّلا

هذه بعضُ ثمارِ التوكلِ على اللهِ في طلبِ الأرزاقِ؛ فهل يعلّقُ مخلوقٌ بعد ذا أملَه في رزقِه على مخلوقٍ مثلِه؟! وهل يبقَى للقلبِ مطمعٌ في غيرِ المَوْلى الكريمِ؟! ألا ما أحرَانا بالتذكيرِ بهذه القضيةِ المسلَّمةِ ونحنُ نرى الدّنيا آخذةً بشعابِ قلوبِنا التي تقطّعتْ أوصالُها تعلُّقًا بالخلقِ في أمرٍ لا يقدرُ عليه سوى اللهِ! وأنباءُ نُدرةِ فرصِ العملِ وقلّةِ ذاتِ اليدِ والدخلِ المحدودِ والتخويفِ من المستقبلِ الاقتصاديِّ أصمّتْ أسماعَنا وسوّدتْ مساطرَنا! ذكر القرطبيُّ أنّ قومًا زرعوا زرعا فأصابتْه جائحةٌ فحزِنوا لأجلِه، فخرجتْ عليهم أعرابيّةٌ فقالتْ: ما لي أراكم قدنكّستم رؤوسَكم، وضاقتْ صدورُكم، هو ربُّنا والعالِمُ

بنا، رِزقُنا عليه يأتِينا به حيثُ شاءَ! ثم أنشأتْ تقولُ:

لو كانَ في صخرةٍ في البحرِ راسيةٍ ... صَمّا مُلملَمةٍ مَلسَا نواحِيها
رزقٌ لنفسٍ بَرَاها اللهُ لانْفَلقت ... حتى تؤدِّي إليها كلَّ ما فيها
أو كان بين طباقِ السّبعِ مسلكُها ... لسهّلَ اللهُ في المَرقَى مراقيها
حتى تنالَ الذي في اللّوحِ خُطَّ لها ... إن لم تنلْه وإلا سوف يأتيها

﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

حُبُّ المساكينِ

إنَّ الحمدَ لله؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومَنْ يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ... ﴾.

أيّها المؤمنونَ!

المساكينُ فئةٌ من المجتمعِ كثيراً ما يُغْفَلُ عنهم، ولا يُحْفَلُ بهم، ولا يُؤْبَهُ لهم مع أنَّ الشرعَ قد أقامَ لهم وزناً، ورفعَ لهم شأناً؛ جعلَ النبيَّ المجتبى ﷺ يسألُ اللهَ -تعالى- أن يرزقَه حبَّهم، وأن يحيِيَه حياتَهم، ويميتَه مماتَهم، ويحشرَه معهم؛ فقدْ علّمَه اللهُ في رؤيا منامٍ دعاءً؛ كان كثيراً ما يَضْرَعُ إلى ربِّه به قائلاً: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ، وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ، وَإِذَا أَرَدْتَ فِي النَّاسِ فِتْنَةً فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ" رواه الترمذيُّ وقال: حسنٌ صحيحٌ. وكان من دعائِه: "اللهمَّ أَحْيِنِي مسكيناً، وأَمِتْنِي مسكيناً، واحْشُرنِي في زُمْرَةِ المساكين". رواه الترمذيُّ وصحّحه الحاكمُ والألبانيُّ. وكان يوصي بهم أصحابَه وأمّتَه مِن بَعْدِهم؛ محبةً وأداءً لِحَقِّهم؛ قال أبو ذرٍ -رضي اللهُ عنه-: "أمرني خليلي ﷺ بحبِّ المساكينِ، والدُّنُوِّ منهم" رواه أحمدُ وصحّحه الألبانيُّ. وقدْ وَرِثَ التوصيةَ بها وامتثالَها السلفُ الصالحُ، كَتَبَ سفيانُ الثوريُّ

إلى بعضِ إخوانِهِ: "عليكَ بالفقراءِ والمساكينِ والدنوِّ منهمُ؛ فإنَّ رسولَ الله ﷺ كانَ يسأل ربَّه حبَّ المساكينِ".

عبادَ اللهِ!

إنَّ المسْكَنَةَ التي وَقَرَتْ في قلوبِ أولئكَ المساكينِ، وبها تواضعوا للحقِّ والخَلْقِ، وَسَمَوْا بها عنْ دَنَسِ التجبُّرِ والكِبْرِ والأَشَرِ والبَطَرِ هي السببُ الذي رفعَ اللهُ به منزلتَهم، وطيّبَ حياتَهم، ورُزقوا به حُسْنَ الخاتمةِ وكَرَمَ الوِفَادةِ على اللهِ يومَ الدِّينِ. ومِن شأنِ تلك المسكنةِ إن قرَّتْ في القلبِ أن يَنْعَمَ صاحبُها بسرعةِ قَبولِ الحقِّ مِمَّنْ جاءَ به كائناً مَن كان؛ لسلامةِ قلبِه مِن موانعِ القَبولِ التي تَصُدُّ عن اتباعِ الحقِّ؛ ولذا كان غالبُ أتباعِ الأنبياءِ مِن المساكينِ، كما قال هِرَقْلُ لأبي سُفيانَ: "وسألتُك: أشرافُ الناسِ اتَّبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرتَ أن ضعفاءهم اتَّبعوه، وهم أَتْبَاعُ الرُّسلِ" رواه البخاريُّ. وقبولُ الحقِ أعظمُ ما يَصْلَحُ به القلبُ؛ ولذا غَلَبَ الصلاحُ في حال المساكينِ القابلين للحق، بل ربما بلغَ صلاحُهم درجةَ الوَلايةِ الخفيّةِ التي لو أقسمَ صاحبُها على ربِّه لَأَبَرَّهُ وإن كان مَغْموراً في المجتمعِ مُحْتَقَراً، كما قال النبيُّ ﷺ: "ألا أخبرُكم بأهلِ الجنةِ؟ كلُّ ضعيفٍ متَضَعَّفٍ، لو أقسمَ على الله لَأَبَرَّهُ" رواه البخاريُّ ومسلمٌ. وزادَ مِن جمالِ قلوبِ أولئك المساكينِ قلةُ الاكتراثِ بما فاتَ مِن مُتَعِ الدنيا حين كان الصلاحُ في التعاملِ والحديثِ والخُلُقِ وإطابةِ المَطْعَمِ عِوَضاً لما فاتَ منها، كما قال النبيُّ ﷺ: "أربعٌ إذا كُنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا؛ حفظُ أمانةٍ، وصِدْقُ حديثٍ، وحُسْنُ خَليقةٍ، وعِفَّةُ

طُعْمَةٍ " رواه أحمدُ وصحّحه الألبانيُّ. وبذا كان المساكينُ هم أكثرَ أهلِ الجنةِ، كما قال النبيُّ ﷺ: " قمتُ على بابِ الجنةِ، فكان عامةُ مَن دَخَلَها المساكينَ " رواه البخاريُّ ومسلمٌ. وربما -على نُدْرَةٍ- دَخَلَ في زُمْرَةِ أولئك المساكينِ ذَوُو المنصبِ واليَسارِ حين لازمتْ المسكنةُ والتواضعُ قلوبَهم، ولم تَفْتِنْهم الدنيا، أو تَحْمِلْهم على الكِبْرِ والبَطَرِ كالأنبياءِ والخلفاءِ الراشدين الذين خُتموا بعمرَ بنِ عبدِالعزيزِ. كما أن فُقْدانَ متاعِ الدنيا لا يُكْسِبُ صاحبَه وَصْفَ المسكنةِ إن كان في قلبهِ كِبْرٌ وبطرٌ وجبروتٌ.

أيها المسلمون!

إنَّ محبةَ المساكينِ فيضٌ من الخيرِ دفّاقٌ؛ إذ تُوجِبُ إخلاصَ العملِ للهِ -عزَّ وجلَّ-؛ لأنَّ الإحسانَ إليهم لمحبَّتهم لا يكونُ إلا للهِ -عز وجل-؛ إذ نفعهُم في الدنيا لا يُرجَى غالبًا، فأمّا مَن أَحسنَ إليهم؛ لِيُمْدَحَ بذلكَ فما أَحَسَنَ إليهم حُبًّا لهم، بل حبًّا لأهلِ الدُّنيا، وطلبًا لمدحِهم له بحبِّ المساكينِ. ومحبةُ المساكينِ تُوجِبُ صلاحَ القلبِ وخشوعَهِ؛ شكى رجلٌ إلى رسولِ اللهِ ﷺ قَسْوةَ قلبهِ، فقال له: "إنْ أحببتَ أن يلينَ قلبُكَ؛ فأَطْعِمِ المسكينَ، وامْسحْ رأسَ اليتيمِ" رواه أحمدُ وحسّنه الألبانيُّ. والمَرْءُ إنْ أحبَّ المساكينَ جالسَهم وأَنِسَ بهم؛ وذاكَ يُكْسِبُه الرضا برزقِ اللهِ -عزّ وجلّ-، وتَعْظُمُ عنده نعمةُ اللهِ -عزّ وجلّ- عليهِ؛ بنظرهِ في الدنيا إلى مَن دونَه؛ فتَطِيبُ حياتُه، ويَسْعَدُ، بينما كثيراً ما تُوجِبُ مُجالسةُ الأغنياءِ التَّسَخُّطَ بالرزقِ، ومَدَّ العينِ إلى زِينتهم وما هم فيه، قالَ عونُ بنُ عبدِاللهِ: «صَحِبتُ الأغنياءَ، فلمْ يكن أحدٌ أطولَ غمٍّ مِنِّي؛

فإنْ رأيتُ رجلاً أحسنَ ثياباً مني، وأطيبَ ريحاً مني؛ غَمَّني ذلك، فصحبتُ الفقراءَ؛ فاسْتَرَحْتُ ». كما أنّ هذه المحبةَ والمجالسةَ تَنْفِي الكِبْرَ مِن القلب، وتُلْزِمُهُ سكينةَ التواضعِ وملاحتَه. وكذلك، فإنَّ النصرَ وبَرَكَةَ الرزقِ قَرِينَا تلك المحبةِ وما تُوجِبُه، قال رسولُ اللهِ ﷺ: "ابْغُونِي الضعفاءَ؛ فإنما تُرْزَقُون وتُنْصَرُون بضعفائكم" رواه أبو داودَ وحسَّنه النوويُ، وقال عليٌ — رضي اللهُ عنه -: "يا أهلَ التَّمْرِ، أَطْعِمُوا المساكينَ؛ يُرْبُ كَسْبُكم". وإجابةُ دعواتِ صالحي المساكينِ مِن أرجى ما تكونُ إجابتُه، فطُوبى لِمَن أحبَّهُ المساكينُ وخَصُّوهُ بدعائهم، لا سيّما في الغَيْبِ! كان بعضُ قادةِ الفتحِ الإسلاميِّ لا يَغْزُو إلا بعدَ دعاءِ الصلحاءِ والمساكينِ واستفتاحِهم؛ رجاءَ إجابةِ دعائهم. ومحبةُ المساكينِ وخدمتُهم مِن أعظمِ الذُّخْرِ المُدَّخَرِ ليوم الدِّين، قال وَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ: "اتخذوا اليدَ عند المساكينِ؛ فإنَّ لهم يومَ القيامةِ دولةً"، وقال الفُضيلُ بنُ عياضٍ: "مَن أرادَ عِزَّ الآخرةِ؛ فليكنْ مجلسُهُ مع المساكينِ".

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أما بعدُ، فاعلموا أن أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيها المؤمنون!

إن محبةَ المساكينِ طاقةٌ إيمانيةٌ، ومَخْزَنُ رحمةٍ يُحَرِّكُ المرءَ لإسْداءِ النفعِ إليهِم بما يمكنُ مِن منافعِ الدينِ والدنيا؛ وذاك يقتضي البحثَ عنهم، وتَلَمَّسَ حاجتِهم؛ لِتُقضى. كان للخليفةِ الراشدِ عمرَ بنِ عبدِالعزيزِ منادٍ ينادي كلَّ يومٍ: أين الغارمون؟ أين الناكحون؟ أين المساكينُ؟ أين اليتامى؟ وقَدِمَ عليه بعضُ أهلِ المدينةِ، فجعلَ يُسائلُه عن أهلِ المدينةِ، فقال: ما فَعَلَ المساكينُ الذين كانوا يَجْلسون مكانَ كذا وكذا؟ قال: قد قاموا منه -يا أميرَ المؤمنينِ-، قال: فما فَعَلَ المساكينُ الذي كانوا يجلسون في مكانِ كذا وكذا؟ قال: قد قاموا منه، وأغناهمُ اللهُ، قال: وكان في أولئك المساكينِ مَنْ يَبيعُ كَبَبَ الخيطِ للمسافرين، فالْتَمَسَ ذلك منهم بعدُ، فقالوا: قد أغنانا اللهُ عن بيعه بما يُعْطينا عمرُ. ومما تَقْضيه تلك المحبةُ التَّقَرُّبُ إلى المساكينِ ومجالستُهم ومؤانستُهم وإكرامُهم ونُصْرَتُهم، وأضعف ذلك رَحْمَتُهم، كان عليُّ بنُ أبي طالبٍ - رضي اللهُ عنه - في أيامِ خلافتِهِ يُعَظِّمُ أهلَ الدِّينِ ويحبُّ المساكينَ، ومرَّ ابنُهُ الحسنُ- رضي اللهُ عنه- على مساكينَ يأكلونَ، فدَعَوْهُ فأجابهُم، وأكلَ معهُم، وتلا: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾، ثمَّ دعاهمْ إلى منزلِهِ فأَطْعَمَهم وأَكْرَمَهمُ، وكان ابنُ عمرَ

لا يأكلُ غالبًا إلا معَ المساكينِ، وكانَ يقُولُ: لعلَّ بعضَ هؤلاءِ أن يكونَ ملِكًا يومَ القيامةِ! وجاءَ مسكينٌ أعمى إلى ابنِ مسعودٍ وقد ازدحَمَ الناسُ عندَهُ فنادَاهُ: يا أبا عبدِالرحمنِ، آويتَ أربابَ الخَزِّ واليَمَنِيَّةِ، وأَقْصَيْتَنِي لأجلِ أنِّي مسكينٌ؟! فقالَ له: ادْنُهْ، فلم يزلْ يُدْنِيهِ حتى أجلسهُ إلى جانبهِ أو بِقُرْبهِ، وكان سفيانُ الثوريُّ يُعَظِّمُ المساكينَ ويَجْفُو أهلَ الدنيا؛ فكانَ الفقراءُ في مجلسِهِ همُ الأغنياءُ، والأغنياءُ همُ الفقراءُ. وقال سليمانُ التيميُّ: "كنَّا إذَا طلبنَا عِلْيَةَ أصحابِنا وجدْناهُم عندَ الفقراءِ والمساكينِ".

خبايا الخلواتِ

الحمدُ للهِ الذي يعلمُ السِّرَّ وأخفى، وإليه مُنتهى كلِّ شَكوى، قدَّر فهدى، وأخرجَ المَرعى، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه له الحمدُ في الآخرةِ والأولى، وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه ذا الخشيةِ الكُبرى والشفاعةِ العُظمى، صلى اللهُ وسلمَ عليه وعلى آلِه وصحبِه أولي المكارمِ والنُّهى.

أمّا بعدُ، فاتّقوا اللهَ عبادَ اللهِ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ...﴾

أيّها المؤمنونَ!

إنّ للعبدِ مقاماتٍ بين يديْ مولاهُ، يُمتحنُ فيها الإيمانُ، وتُبلى بها السرائرُ، وتَبينُ عندَها التّقوى، وتَعظُم بها الأجورُ والأوزارُ. وإنّ من أشدِّ تلك المقاماتِ امتحانـًا مقامَ الخَلوةِ، وغيابَ العبدِ عن ملاحظةِ العيونِ إلا عينَ الخالقِ جلّ وعلا. تلكَ الحالُ هي المحكُّ لتحقيقِ التّقوى؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٨ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾. حالٌ رَفعَتْ أقوامـًا، ووضَعتْ آخرينَ. وللقومِ فيها أخبارٌ وأسرارٌ. فمنهم موفَّقون استحضروا مراقبةَ اللهِ لهم، وأيقنوا باستواءِ السرِّ والعلنِ في علمِه: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ٩ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾، فكانتْ خَلوتُهم لهم مَزادةَ برٍّ، ورِفعةَ درجةٍ، وتنوعَ قربةٍ.

يقولُ الإمامُ مالكٌ: "كَانَ النَّاسُ يُحِبُّونَ الْخَلْوَةَ وَالانْفِرَادَ"، ويقولُ أبو بكرٍ الورّاقُ: "وَجَدْتُ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فِي الْخَلْوَةِ وَالْعُزْلَةِ، وَوَجَدْتُ شَرَّهُمَا فِي الْكَثْرَةِ وَالِاخْتِلَاطِ".

معشرَ الإخوةِ!

الخَلوةُ عند الصالحينَ موطنُ محاسبةِ النفسِ واستصلاحِ عيبِها، فقد عنّفَ عمرُ بنُ الخطابِ -رضي اللهُ عنهُ- أحدَ رعيّتِه، ثم دخلَ بيتَه فافتتحَ الصلاةَ، فصلّى ركعتينِ، ثم جلسَ، فقال: "يا بنَ الخطابِ، كنتَ وضيعاً فرفعَك اللهُ، وكنتَ ضالاً فهداكَ اللهُ، وكنتَ ذليلاً فأعزّكَ اللهُ، ثم حملَكَ على رقابِ المسلمينَ، لجأ رجلٌ يستعدِيكَ فضربتَه، ما تقولُ لربِّك غداً إذا أتيتَه؟"، يقولُ الأحنفُ بنُ قيسٍ: فجعلَ يعاتبُ نفسَه معاتبةً ظننتُ أنّه من خيرِ أهلِ الأرضِ. رواه ابنُ عساكرَ. وسأل فَيْضُ بْنُ إِسْحَاقَ الْفُضَيْلَ عَنْ قَوْلِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾، قَالَ: «الْمُنِيبُ الَّذِي يَذْكُرُ ذَنْبَهُ فِي الْخَلْوَةِ فَيَسْتَغْفِرُ مِنْهُ». وفي الخَلواتِ لذةُ المناجاةِ، يقولُ مسلمُ بنُ يسارٍ: «مَا تَلَذَّذَ الْمُتَلَذِّذُونَ بِمِثْلِ الْخَلْوَةِ بِمُنَاجَاةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»، ويقولُ محمدُ بنُ يوسفَ: "مَنْ أَرَادَ تَعْجِيلَ النِّعَمِ فَلْيُكْثِرْ مِنْ مُنَاجَاةِ الْخَلْوَةِ". ودمعةُ الخشيةِ في الخَلوةِ سببٌ للاستظلالِ بظلّ اللهِ سبحانَه يومَ القيامةِ، يقولُ الرسولُ ﷺ: "سبعةٌ يظلُّهمُ في ظلّه يومَ لا ظلّ إلا ظلُّه"، ومنهم: "رجلٌ ذكرَ اللهَ خالياً ففاضتْ عيناهُ". رواهُ البخاريُّ ومسلمٌ. وصدقةُ الخَلوةِ أحْرى ما يكونُ قبولُها، كان عليةُ بنُ زيدٍ رجلاً من أصحابِ النبيّ ﷺ، فلمّا حضّ على الصدقةِ جاء

كلّ رجلٍ منهم بطاقتِه وما عندَه، فقال عليةُ بنُ زيدٍ: اللَّهمّ إنه ليس عندي ما أتصدّقُ به، اللَّهمّ إني أتصدّقُ بعرضِي على مَن ناله من خلقِكَ، فأمر رسولُ اللهِ ﷺ مناديًا، فنادى: أين المتصدقُ بعِرضِه البارحةَ؟ فقام عليةُ، فقال: قد قُبلتْ صدقتُك. رواه ابنُ مردويه والبيهقيُّ في الشُّعبِ بنحوِه وله شاهدٌ صحيحٌ كما قال الحافظُ. وتلاوةُ القرآنِ في الخَلوةِ من أعظمِ ما يصلحُ القلبَ ويوفِّقُ لحسنِ الختام، لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا بَكْرِ بْنَ عَيَّاشٍ الْوَفَاةُ بَكَتْ أُخْتُهُ، فَقَالَ: لَا تَبْكِ؛ انْظُرِي إِلَى تِلْكَ الْخِزَانَةِ أَوِ الزَّاوِيَةِ الَّتِي فِي الْبَيْتِ قَدْ خَتَمَ أَخُوكِ فِي هَذِهِ الزَّاوِيَةِ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ أَلْفَ خَتْمَةٍ. والحياءُ من اللهِ من خصالِ المتقينَ في خَلوتِهم، فقد سأل معاويةُ بنُ حيدةَ -رضي اللهُ عنهُ- رسولَ اللهِ ﷺ، فقال: يَا رَسُولَ اللهِ، عَوْرَاتُنَا مَا نَأْتِي مِنْهَا وَمَا نَذَرُ؟ قَالَ: «احْفَظْ عَوْرَتَكَ إِلَّا مِنْ زَوْجَتِكَ أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ»، فَقَالَ: الرَّجُلُ يَكُونُ مَعَ الرَّجُلِ؟ قَالَ: «إِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا يَرَاهَا أَحَدٌ فَافعَلْ»، قُلْتُ: وَالرَّجُلُ يَكُونُ خَالِيًا، قَالَ: «فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ يُسْتَحْيَا مِنْهُ»:". رواه الترمذيُّ وحسنه. والعلمُ أنيسُ الخَلوةِ، يقولُ معاذُ بنُ جبلٍ -رضي الله عنه-: "تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ؛ فَإِنَّ تَعْلِيمَهُ لِلَّهِ خَشْيَةً وَطَلَبَهُ عِبَادَةٌ، وَمُذَاكَرَتَهُ تَسْبِيحٌ وَالْبَحْثَ عَنْهُ جِهَادٌ، وَتَعْلِيمَهُ لِمَنْ لَا يَعْلَمُهُ صَدَقَةٌ، وَبَذْلَهُ لِأَهْلِهِ قُرْبَةٌ؛ لِأَنَّهُ مَعَالِمُ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَمَنَارُ سُبُلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَهُوَ الْأُنْسُ فِي الْوَحْشَةِ وَالصَّاحِبُ فِي الْغُرْبَةِ وَالْمُحَدِّثُ فِي الْخَلْوَةِ، وَالدَّلِيلُ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَالسِّلَاحُ عَلَى الْأَعْدَاءِ، وَالزَّيْنُ عِنْدَ الْأَخِلَّاءِ"رواه ابنُ عبدِالبرِّ. والصلاةُ شعارُ الصالحينَ في خَلواتِهم، يقولُ الرسولُ ﷺ: "عَلَيْكُمْ بِالصَّلَاةِ فِي بُيُوتِكُمْ، فَإِنَّ خَيْرَ صَلَاةِ الْمَرْءِ فِي بَيْتِهِ، إِلَّا الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ". رواه مسلمٌ. كَانَ شَدَّادُ بْنُ

أَوْسٍ إِذَا دَخَلَ فِرَاشَهُ كَانَ فِي فِرَاشِهِ بِمَنْزِلَةِ الْقَمْحَةِ فِي الْمِقْلَاةِ عَلَى النَّارِ وَكَانَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنَّ النَّارَ مَنَعَتْ مِنِّي النَّوْمَ، فَيَقُومُ إِلَى الصَّلَاةِ فَيُصَلِّي حَتَّى يُصْبِحَ، وَكَانَ صِلَةُ بْنُ أَشْيَمَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى يَأْتِيَ الْفِرَاشَ حَبْوًا أَوْ زَحْفًا. وجمالُ أعمالِ الصَّالحينَ في خَلوتِهم اقترانُها بالإخلاصِ بها إنِ انفكتْ من العُجبِ؛ وذلك من أجلِّ مقاصدِها يقولُ ذو النونِ: «لَمْ أَرَ شَيْئًا أَبْعَثَ لِلْإِخْلَاصِ مِنَ الْوَحْدَةِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا خَلَا لَمْ يَرَ غَيْرَ اللهِ، فَإِذَا لَمْ يَرَ غَيْرَ اللهِ لَمْ تُحَرِّكْهُ إِلَّا خَشْيَةُ اللهِ، وَمَنْ أَحَبَّ الْخَلْوَةَ فَقَدْ تَعَلَّقَ بِعَمُودِ الْإِخْلَاصِ وَاسْتَمْسَكَ بِرُكْنٍ كَبِيرٍ مِنْ أَرْكَانِ الصِّدْقِ».

أيّها المؤمنونَ!

بتقوى اللهِ في الخَلوةِ تتحقَّقُ المغفرةُ والأجرُ الكبيرُ، يقولُ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾، وبها يكسبُ العبدُ محبةَ مولاهُ، يقولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ، الْغَنِيَّ، الْخَفِيَّ». رواه مسلمٌ. وبهذه الخَصلةِ يرتفعُ قدْرُ العبدِ عند الخَلقِ، وتُوضعُ له المهابةُ، يقولُ الإمامُ أحمدُ: ما رفعَ اللهُ ابنَ المباركِ إلا بخبيئةٍ بينهُ وبين اللهِ. ويقولُ ابنُ القيمِ: "جَرَتْ عَادَةُ اللهِ الَّتِي لَا تُبَدَّلُ وَسُنَّتُهُ الَّتِي لَا تُحَوَّلُ: أَنْ يُلْبِسَ الْمُخْلِصَ مِن الْمَهَابَةِ وَالنُّورِ وَالْمَحَبَّةِ فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ وَإِقْبَالِ قُلُوبِهِمْ إِلَيْهِ مَا هُوَ بِحَسَبِ إِخْلَاصِهِ وَنِيَّتِهِ وَمُعَامَلَتِهِ لِرَبِّهِ، وَيُلْبِسَ الْمُرَائِي اللَّابِسُ ثَوْبَيْ الزُّورِ مِن الْمَقْتِ وَالْمَهَانَةِ وَالْبَغْضَاءِ مَا هُوَ اللَّائِقُ بِهِ؛ فَالْمُخْلِصُ لَهُ الْمَهَابَةُ وَالْمَحَبَّةُ، وَلِلْآخَرِ الْمَقْتُ وَالْبَغْضَاءُ". كَانَ حَبِيبٌ أَبُو مُحَمَّدٍ تَاجِرًا يَكْرِي الدَّرَاهِمَ، فَمَرَّ ذَاتَ يَوْمٍ،

فَإِذَا هُوَ بِصِبْيَانٍ يَلْعَبُونَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: قَدْ جَاءَ آكِلُ الرِّبَا، فَنَكَّسَ رَأْسَهُ، وَقَالَ: يَا رَبِّ، أَفْشَيْتَ سِرِّي إِلَى الصِّبْيَانِ، فَرَجَعَ فَجَمَعَ مَالَهُ كُلَّهُ، وَقَالَ: يَا رَبِّ إِنِّي أَسِيرٌ، وَإِنِّي قَدِ اشْتَرَيْتُ نَفْسِي مِنْكَ بِهَذَا الْمَالِ فَأَعْتِقْنِي، فَلَمَّا أَصْبَحَ تَصَدَّقَ بِالْمَالِ كُلِّهِ وَأَخَذَ فِي الْعِبَادَةِ، ثُمَّ مَرَّ ذَاتَ يَوْمٍ بِأُولَئِكَ الصِّبْيَانِ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: اسْكُتُوا فَقَدْ جَاءَ حَبِيبٌ الْعَابِدُ، فَبَكَى وَقَالَ: يَا رَبِّ أَنْتَ تَذُمُّ مَرَّةً وَتَحْمَدُ مَرَّةً، وَكُلُّهُ مِنْ عِنْدِكَ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ وحدَه، والصلاةُ والسلامُ على مَن لا نبيَ بعدَه، وبعد:
فاعلمُوا...

أيّها المؤمنونَ!

وثَمّتَ قومٌ شقَوْا بالخَلواتِ، فكانوا إذا خلَوْا بمحارمِ اللهِ انتهكوها مغترينَ بستر اللهِ وحلمِه، حدّثَ عنهم رسولُ اللهِ ﷺ، فقال: «لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا، فَيَجْعَلُهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا»، قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللهِ صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: «أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللهِ انْتَهَكُوهَا». رواه ابنُ ماجه وصحَّحه البوصيريُّ. وذنوبُ الخَلواتِ المستمَرُّ عليها سببُ الانتكاسِ وسوءِ الختامِ، يقولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ». رواه البخاريُّ ومسلمٌ. يقول ابنُ رجبٍ: "إنَّ خاتمةَ السُّوءِ تكونُ بسببِ دسيسةٍ باطنةٍ للعبدِ لا يطّلعُ عليها الناسُ، إمّا من جهةِ عملٍ سيئٍ ونحوِ ذلكَ، فتلكَ الخَصلةُ الخفيّةُ توجبُ سُوءَ الخاتمةِ عند الموتِ". وفي هذا العصرِ الذي سهُلتْ فيه الخَلوةُ بالمعصيةِ وكثُرتْ عبرَ أجهزةٍ تقنيّةٍ لا تتعدّى حجمَ الكفِّ تصنعُ وتنقلُ شراً مستطيراً لا عاصمَ منه إلا

اللهُ، وجبَ زرعُ وتعاهُدُ وازعِ الخوفِ من اللهِ ومحبتِه والحياءِ منهُ واستحضارِ مراقبتِه في نفوسِنا ومَن ولّانا اللهُ أمرَه أو كُلِّفنا بنُصحِه والمبادرةِ بالتوبةِ حالَ الزللِ وإنْ تعدّدَ عسى اللهُ أنْ يحفظَنا ممّا يسخطُه ويرزقَنا خشيتَه في الغيبِ والشهادةِ.

وإذا خَلوْتَ بريبَةٍ في ظُلمةٍ ... والنفسُ داعيةٌ إلى الطغيانِ
فاستحي منْ نظرِ الإلهِ وقلْ لها ... إنّ الذي خلقَ الظلامَ يرانِي

ذكرى الدار

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، قيومِ السمواتِ والأرضين، إلـهِ الأولينَ والآخِرين، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ مالكُ يومِ الدين، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلى اللهُ عليه وعلى آلِه وصحبِه وسلّمَ تسليماً كثيراً إلى يومِ الدينِ.

أمّا بعدُ، فاتقوا اللهَ –عبادَ اللهِ–، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ... ﴾.

أيّها المؤمنون!

الإيمانُ أعظمُ منحةٍ ربانيةٍ يَسعَدُ بها العبدُ في دنياه؛ وذلك بما حواه الإيمانُ من أركانٍ لا تستقيمُ الحياةُ إلا باليقينِ بها، واستحضارِها في تفاصيلِ أحداثِها التي لا تقومُ إلا عليها، ولا تَصلُحُ إلا بها. ومِن الدعائمِ التي لا يُشادُ صرْحُ الإيمانِ إلا بها الإيمانُ بأخبارِ غَيْبِ اليومِ الآخرِ ممّا وردَ ذكرُه في نصوصِ الوحيِ المعصومِ. إنَّ الإيمانَ باليومِ الآخرِ، واستشعارَ قربِه، والعيشَ باستصحابِ ذكراه في هذه الحياةِ خصيصةُ حظْوةٍ اصطفى اللهُ بها أنبياءَه ومَن سبقتْ له الحسنى، كما قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾؛ وما التذكيرُ بذلك الاجتباءِ الربانيِّ إلا تنويهٌ بعظيمِ بركتِه على حياةِ العبدِ، وفوزِه برضا اللهِ وجنتِه؛ إذ بذلك الإيمانِ والذكرى يُرزقُ المؤمنُ بصيرةَ التوفيقِ في التعاملِ مع الدنيا وأهلِها؛ صحةً للنظرِ، وحُسْناً في التقديرِ، وانضباطاً لميزانِ المعاملةِ

واطِّرادِه؛ فلا يُعظِّمُ ما حقَّرَه اللهُ، ولا يُحقِّرُ ما عظَّمَه؛ إذ ميزانُه ربانيٌّ أخرويٌّ راسخٌ؛ لا يتأرجحُ مع مصالحِ الدنيا، ويَنْخدعُ ببهرجِها؛ يَزِنُ الدنيا وما حَوَتْهُ بوزنِ جناحِ البعوضةِ الذي هو ميزانُ اللهِ لها، قال البَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-: أُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِثَوْبٍ مِنْ حَرِيرٍ، فَجَعَلُوا يَعْجَبُونَ مِنْ حُسْنِهِ وَلِينِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَمَنَادِيلُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فِي الجَنَّةِ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا» رواه البخاريُّ، وقال: "إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ القِيَامَةِ، لاَ يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ" رواه البخاريُّ ومسلمٌ.

عبادَ الله!

وذكْرُ الآخرةِ خيرُ ضابطٍ وموجِّهٍ لهمّةِ المرءِ واهتماماتِه والتي تنشأُ منها الأعمالُ، وتُبنى عليها المواقفُ، وعليها يكون معوَّلُ القبولِ بمدى ما تحققَ فيها من رَعْيِ شرْطيِ الإخلاصِ والاتباعِ الذي كان الإيمانُ باليومِ الآخرِ أعظمَ حاملٍ عليه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۖ﴾، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾. وذكرُ الآخرةِ بوصلةٌ تهدي لطريقِ الرشدِ، ودافعٌ للتزودِ بخيرِ الزادِ زادِ التقوى، وانتخابِ أعالي خصالِها أجراً، وسوْطٌ يُضربُ به القلبُ الشاردُ؛ وتلكم جادةُ الشرعِ في حَفْزِ النفوسِ للخيرِ وقمْعِها عن الشرِّ؛ إذ كثيراً ما يُقرَنُ الأمرُ والنهيُ بالإيمانِ باليومِ الآخرِ،

كما قال تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، وقال النبيُّ ﷺ: "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ " رواه البخاريُّ ومسلمٌ. وبذكرِ الآخرةِ تنفتحُ بصيرةُ القلبِ نحوَ الحقائقِ، وتؤثِّرُ فيه العِبرُ؛ وذاك من أسبابِ يقظةِ الشعورِ الضابطِ للهمّةِ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ﴾.

أيّها المسلمون!

وباستحضارِ ذكرى الآخرةِ تُزَمُّ الأفعالُ والمواقفُ بلجامِ الضبطِ الربانيِّ واستشعارِ رقابةِ الحفيظِ العليمِ وحسابِه المُحصي مثاقيلَ الذَّرِ، وتَرْسُخُ قدمُ الثباتِ على جادّةِ الحقِ والصبرِ عليه، ولا تُسْتَفَزُّ باستخفافِ المبْطلين، وتسخو النفسُ بأداءِ الحقوقِ لأهلِها في اطرادٍ من وازعٍ إيمانيٍّ وسُموٍّ أخلاقيٍّ؛ فلا الغنى يُلْهيها، ولا القدرةُ تُطغيها، ولا الشحُّ يمنعُها، ولا الطمعُ يدفعُها، ولا تموُّجاتُ الظروفِ والمصالحِ تغيّرُ مبادئَها وكريمَ أخلاقِها، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾. وطالما كان النبيُّ ﷺ يصبِّرُ أصحابَه على مشاقِّ الحياةِ وظلمِ الفجرةِ بذكرى الدارِ الآخرةِ، فقد كان يقولُ لأصحابِه: "إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً شَدِيدَةً، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوُا اللهَ وَرَسُولَهُ ﷺ عَلَى الحَوْضِ" رواه البخاريُّ ومسلمٌ، وحينما مرَّ بعمارِ بنِ ياسرٍ وأهلِه -رضي اللهُ عنهم- وهم يُعذَّبون، قال: «أبشروا آلَ

عمارٍ، وآلَ ياسرٍ؛ فإنَّ موعدَكم الجنةُ» رواه الحاكمُ وقال: صحيحٌ على شرطِ مسلمٍ، ووافقَه الذهبيُّ. وذكرُ الآخرةِ عاصمٌ من طيشِ التصرفِ بالجرأةِ على ظلمِ العبادِ ببهرجِ القدرةِ؛ فقدْ صَدَّ نسيانُ الآخرةِ آلَ فرعونَ عن سبيلِ الهدى، وحَمَلَهم على الاستكبارِ والطغيانِ، كما قال تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾، وما علمُوا أنّ لتلك المظالمِ كَرَّةً وطالباً عند اللهِ يومَ الدينِ، قالت فاطمةُ بنتُ عبدِالملكِ زوجُ عمرَ بنِ عبدِالعزيزِ: "دخلتُ يوماً عليه وهو جالسٌ في مُصّلّاه واضعاً خدَّه على يدِه ودموعُه تسيلُ على خديْه، فقلتُ: مالَك؟ فقال: ويحكِ يا فاطمةُ، قد وُلِّيتُ من أمرِ هذه الأمةِ ما وُلِّيتُ، فتفكَّرتُ في الفقيرِ الجائعِ، والمريضِ الضائعِ، والعاري المجهودِ، واليتيمِ المكسورِ، والأرملةِ الوحيدةِ، والمظلومِ المقهورِ، والغريبِ والأسيرِ، والشيخِ الكبيرِ، وذي العيالِ الكثيرِ والمالِ القليلِ، وأشباهِهم في أقطارِ الأرضِ وأطرافِ البلادِ، فعلمتُ أنَّ ربّي -عزَّ وجلَّ- سيسألُني عنهم يومَ القيامةِ، وأنَّ خَصمي دونَهم محمدٌ ﷺ، فخشيتُ أن لا يثبتَ لي حجةٌ عند خصومتِه، فرحمتُ نفسي فبكيتُ". وكتبَ إلى بعضِ عمّالِه: "إذا دعَتْكَ قدرتُك على الناسِ إلى مظلمةٍ؛ فاذكرْ قدرةَ اللهِ عليك، ونفادَ ما تأتي إليهم، وبقاءَ ما يأتونَ إليك".

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أما بعدُ، فاعلموا أن أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنون!

وبذكرِ الآخرةِ تطيبُ الحياةُ، ويهنأُ العيشُ، وتُشْهَرُ الكرامةُ؛ إذِ الطمأنينةُ تملأُ القلبَ، وغنى القناعةِ يتربَّعُ عرشَه؛ فلا يبقى فيه سُخْطٌ على مفقودٍ، أو تعلُّقٌ بموجودٍ، أو يُذلُّ بحاجةٍ، فضلاً عن أنْ يَحِلَّ فيه داءُ الحسدِ والتطلعِ إلى ما في يدِ الغَيرِ، أو يُقادَ بخِطامِ التفريطِ بالقيمِ وشراءِ الكرامةِ بُغْيةَ لَعَاعَةٍ من دنيا، قال أبو الدرداءِ — رضي اللهُ عنه-: "مَن أكثرَ ذِكرَ الموتِ قلَّ حسدُه وبغيُه". وآلامُ جراحِ الدنيا ومصابِها تُضمَّدُ ببلسمِ ذكرِ الآخرةِ، وضيقُ الحالِ يُوَسَّعُ بتلك الذكرى، يقولُ النبيُّ ﷺ: "أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ؛ فَمَا ذَكَرَهُ عَبْدٌ قَطُّ وَهُوَ فِي ضِيقٍ إِلَّا وَسَّعَهُ عَلَيْه" رواه ابنُ حبانَ في صحيحِه وحسَّنه الألبانيُّ. فذكْرُ الآخرةِ أُفقٌ رَحْبٌ في النظرِ للواقعِ المُرِّ والسلوِّ عنه؛ فلا يبقى المؤمنُ حبيسَ واقعٍ محدودٍ بالفناءِ، كلا، بل نظرُه ممتدٌّ لما وراء ذلك الواقعِ حيث حقيقةُ الحياةِ هناك، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾، وذاك ممّا أدركَه عقلاءُ الجاهليةِ بفطَرِهم، قال أبو عمرِو بنِ العلاءِ: "كان رجلٌ من العربِ في الجاهليةِ إذا رأى رجلاً يَظلمُ ويعتدي يقول: فلانٌ لا يموتُ سويّا! فيروْن ذلك، حتى مات رجلٌ ممّن قال ذلك

فيه، فقيل له: مات فلانٌ سوياً! فلم يقبلْ حتى تتابعتِ الأخبارُ، فقال: إنْ كنتم صادقين؛ فإنَّ لكم داراً سوى هذه تُجازونَ فيها. وذكرُ الآخرةِ يُرَكِّزُ الاهتمامَ، ويَجمعُ الشتاتَ، ويرتِّبُ الأولوياتِ، وتُساقُ به الدنيا، ويُبارَكُ عيشُها، ويُيسرُ أمرُها؛ وذاك مِن أسرارِ طيبِها وبركتِها بتلك الذكرى، يقولُ النبيُّ ﷺ: "مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ، فَرَّقَ اللهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ كَانَتِ الْآخِرَةُ نِيَّتَهُ، جَمَعَ اللهُ لَهُ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ" رواه ابنُ ماجه وصحَّحَه البوصيريُّ. وبعدُ؛ فتلك بعضٌ مِن ثمارِ ادِّكارِ الآخرةِ في الدنيا؛ ضبطاً للنظرِ، والتقديرِ، والهمةِ، والتصرفِ، وهناءِ العيش وبرَكتِه؛ فأصْبِحوا وأمْسُوا وهمُّ الآخرةِ معكم؛ تَطِبْ لكم دنياكم وآخرتُكم.

ذكرى الاحتضارِ

الحمدُ للهِ المتفرِّدِ بالبقاءِ، ذي المجدِ والثناءِ، والعظمةِ والكبرياءِ، أحمدُه على الآلاءِ، وأستعينُه على البلاءِ، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ فاطرُ الأرضِ والسماءِ، وجاعلُ النورِ والظلماءِ، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه إمامُ الحنفاءِ، وسيدُ الأولياءِ، صلى اللهُ وسلمَ عليه وعلى آلِه وصحبِه ومَن نهِجَ نهجَهم وأحسنَ الاقتفاءَ.

أمّا بعدُ، فاتّقوا اللهَ — عبادَ اللهِ –، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ... ﴾.

أيّها المؤمنونَ!

الدّنيا ساعاتٌ محدودةٌ، وأنفسٌ معدودةٌ، سريعًا ما تمضِي وتنقضِي، أيامٌ مراحلُ؛ كلُّ مرحلةٍ تسلِّمُنا لأختِها حتى نقفَ على شفيرِ دارٍ وعتبةٍ أُخرى، وتحِلُّ بنا ساعةٌ لن نستقدمَ عنها ولن نستأخرَ؛ إنّها ساعةُ الاحتضارِ، ونزولِ الموتِ، وخروجِ الروحِ، ووداعِ الدّنيا، واستقبالِ الآخرةِ. وصفَها اللهُ وصفًا تنخلعُ له القلوبُ وتَذرفُ به الدموعُ فقال: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾، وقال: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، وقال: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ﴾.

أيّها المسلمونَ!

الاحتضارُ سكَراتٌ ذاتُ كَربٍ شديدٍ، تغشّتِ النبيَّ ﷺ، فجعلَ يُدخِلُ يدَه في ركوةِ ماءٍ ويمسحُ بها وجهَه الشريفَ ويقولُ: "لا إلهَ إلا اللهُ؛ إنّ للموتِ لسكراتٍ" رواه البخاريُّ. وَصَفَ هذه السكراتِ كعبُ الأحبارِ — رحمَهُ اللهُ - حين سألهُ عمرُ بنُ الخطابِ — رضي اللهُ عنهُ — فقال: "حدثْنا عن الموتِ"، فقال كعبٌ: "نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، غُصْنٌ كَثِيرُ الشَّوْكِ أُدْخِلَ فِي جَوْفِ رَجُلٍ، فَأَخَذَتْ كُلُّ شَوْكَةٍ بِعِرْقٍ، ثُمَّ جَذَبَهُ رَجُلٌ شَدِيدُ الْجَذْبِ، فَأَخَذَ مَا أَخَذَ، وَأَبْقَى مَا أَبْقَى" رواه ابنُ أبي شيبَةَ. وقال عمرُو بنُ العاصِ — رضي اللهُ عنه -: "«عَجَبًا لِمَنْ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ وَعَقْلُهُ مَعَهُ كَيْفَ لَا يَصِفُهُ؟! »، فَلَمَّا نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ، قَالَ لَهُ ابْنُهُ عَبْدُ اللهِ: فَصِفْ لَنَا الْمَوْتَ وَعَقْلُكَ مَعَكَ، فَقَالَ: «يَا بُنَيَّ، الْمَوْتُ أَجَلُّ مِنْ أَنْ يُوصَفَ، وَلَكِنِّي سَأَصِفُ لَكَ مِنْهُ شَيْئًا، أَجِدُنِي كَأَنَّ عَلَى عُنُقِي جِبَالُ رَضْوَى، وَأَجِدُنِي كَأَنَّ فِي جَوْفِي شَوْكَ السِّلَاحِ، وَأَجِدُنِي كَأَنَّ نَفْسِي تَخْرُجُ مِنْ ثَقْبِ إِبْرَةٍ» رواه الحاكمُ. وقال سفيانُ الثوريُّ: "ما من موطنٍ من المواطنِ أشدَّ عليَّ من سكرةِ الموتِ؛ أخافُ أن يشددَ علي، فأسألَ التخفيفَ، فلا أُجابُ؛ فأفتنَ". ومن شدةِ لحظةِ الاحتضارِ هولُ المطلعِ بعدَها، قال ابْنُ عَبَّاسٍ — رضي اللهُ عنهما - دَخَلْتُ عَلَى عُمَرَ — رضي اللهُ عنه - حِينَ طُعِنَ، فَقُلْتُ: أَبْشِرْ بِالْجَنَّةِ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - أَسْلَمْتَ حِينَ كَفَرَ النَّاسُ، وَجَاهَدْتَ مَعَ رَسُولِ اللهِ حِينَ خَذَلَهُ النَّاسُ وَقُبِضَ رَسُولُ اللهِ وَهُوَ عَنْكَ رَاضٍ وَلَمْ يَخْتَلِفْ فِي خِلَافَتِكَ اثْنَانِ وَقُتِلْتَ شَهِيدًا فَقَالَ: «أَعِدْ عَلَيَّ» فَأَعَدتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: «وَالَّذِي

لَا إِلَهَ غَيْرُهُ لَوْ أَنَّ لِي مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ صَفْرَاءَ وَبَيْضَاءَ لَافْتَدَيْتُ بِهِ مِنْ هَوْلِ الْمَطْلَعِ!» رواهُ ابنُ أبي شيبةَ وصحّحه ابنُ حبانَ. وبكى الحسنُ البصريُّ عند موتِه، وقال: "نفسٌ ضعيفةٌ، وأمرٌ مهولٌ عظيمٌ؛ إنّا للهِ وإنّا إليه راجِعونَ". ولما نزل الْمَوْتُ بِسُلَيْمَانَ التَّيْمِيّ قيل لَهُ: أبشرْ؛ فقد كنتَ مُجْتَهداً فِي طاعةِ اللهِ - تَعَالَى -، فَقَالَ: لَا تَقولُوا هَكَذَا؛ فَإِنِّي لَا أَدْرِي مَا يَبْدُو لي من اللهِ - عزّ وَجلّ -؛ فَإِنَّهُ يَقُولُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾. قال المزنيُّ: "دخلتُ على الشافعيِّ في علَّتِه التي مات فيها، فقلتُ: كيف أصبحتَ؟، فقال: أصبحتُ من الدنيا راحلاً، ولإخواني مفارقاً، ولكأسِ المنيَّة شارباً، ولسوءِ أعمالي مُلاقياً، وعلى اللهِ — تعالى — وارداً؛ فلا أدري: روحي تصيرُ إلى الجنةِ؛ فأهنِّيها؟ أو إلى النارِ فأعزِّيها؟ ثم بكى، وأنشأ يقولُ:

ولما قسَا قلبِي وضاقتْ مذاهبِي ... جعلتُ الرَّجا مني لعفوِك سُلّما
تعاظَمَني ذنبِي فلمّا قرنتُه ... بعفوِكَ ربّي كان عفوُك أعظَمَا
ومازلتَ ذا عفوٍ عن الذنبِ لم تزلْ ... تجودُ وتعفو منه وتُكرِما

عبادَ اللهِ!

ومن شدةِ ساعةِ الاحتضارِ ختمُ الأعمالِ بها، والبعثُ عليها، يقولُ رسولُ الله ﷺ: "إنّما الأعمالُ بخواتيمِها" رواه البخاريُّ، ويقولُ: "يُبعثُ كلُّ عبدٍ على ما ماتَ عليهِ" رواه مسلمٌ. وذاكَ ما أزعجَ قلوبَ الصالحينَ، بَكَى سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ لَيْلَةً إِلَى الصَّبَاحِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ قِيلَ لَهُ: كُلُّ هَذَا خَوْفًا مِنَ الذُّنُوبِ؟ فَأَخَذَ تِبْنَةً مِنَ

الْأَرْضِ، وَقَالَ: الذُّنُوبُ أَهْوَنُ مِنْ هَذَا، وَإِنَّمَا أَبْكِي مِنْ خَوْفِ سُوءِ الْخَاتِمَةِ. قال ابنُ القيمِ — رحمَه اللهُ -: "وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْفِقْهِ: أَنْ يَخَافَ الرَّجُلُ أَنْ تَخْذُلَهُ ذُنُوبُهُ عِنْدَ الْمَوْتِ، فَتَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَاتِمَةِ الْحُسْنَى".

أيّها الإخوةُ في اللهِ!

في ساعةِ الاحتضارِ تنقشعُ الغشاوةُ، وتنجلي الحقائقُ التي طالمَا غيّبتْها الدّنيا بملاذِّها وسكْرِها؛ ولذا باتتْ وصايا المحتضرينَ من نفيسِ القولِ، وعميقِ معناه، وبالغِ عظاتِه؛ لصدورِها من صدقِ نفسٍ وثَقبِ نظرٍ. وبتأملِ تلكَ الوَصايا يُلحظُ دورُها على ثلاثةِ أمورٍ غالبًا:

الأولُ: الاستعدادُ للموتِ:

لَمَّا نَزَلَ بعامرِ بنِ عبدِاللهِ الْمَوْتُ بَكَى ثُمَّ قَالَ: «لِمِثْلِ هَذَا الْمَصْرَعِ فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَغْفِرُكَ مِنْ تَقْصِيرِي وَتَفْرِيطِي، وَأَتُوبُ إِلَيْكَ مِنْ ذُنُوبِي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْت »، ثُمَّ لَمْ يَزَلْ يُرَدِّدُهَا حَتَّى مَاتَ. وقال عبدُالعزيز بنُ أبي روادَ: "دخلتُ على المُغيرةِ بنِ حكيمٍ في مرضِه الذي مات فيهِ، فقلتُ: أوصِني، قال: اعملْ لهذا المضطَّجَعِ". ودخل رجالٌ على محمدِ بنِ واسعٍ وهو يحتضرُ، فقال: "يا إخوتاهُ! هَبوني وإيّاكم سألْنا اللهَ الرجعةَ، فأعطاكُموها ومنعَنِيها؛ فلا تخسَروا أنفسَكم!".

وثاني الأمورِ التي تدورُ عليها وصايا المحتضَرينَ: الندمُ على عدمِ الازديادِ من الخيرِ:

بَكَى أبو هريرةَ — رضي اللهُ عنه - فِي مَرَضِهِ، فَقِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ فَقَالَ: «أَمَا إِنِّي لَا أَبْكِي عَلَى دُنْيَاكُمْ هَذِهِ، وَلَكِنِّي أَبْكِي عَلَى بُعْدِ سَفَرِي، وَقِلَّةِ زَادِي، وَإِنِّي أَمْسَيْتُ فِي صَعُودِ مَهْبَطَةٍ عَلَى جَنَّةٍ وَنَارٍ، لَا أَدْرِي إِلَى أَيَّتِهِمَا يُؤْخَذُ بِي». ولما حضرتْ معاويةَ بن أبي سفيان الوفاةُ قال: أقعِدوني، فأُقعد، فجعل يسبِّحُ اللهَ — تعالى — ويذكرُه، ثم بكى، وقال: تذكرُ ربَّك - يا معاويةُ - بعد الهَرمِ والانحطاطِ! ألا كان هذا وغصنُ الشبابِ نضِرٌ ريانُ؟! وبكى حتى علا بكاؤه، وقال: يا ربِّ، ارحمِ الشيخَ العاصي ذا القلبِ القاسي! اللهمّ أقِلِ العثرةَ! واغفرِ الزَّلةَ! وجُد بحلمِك على من لا يرجو غيرَك ولم يثقْ بأحدٍ سواكَ! وَلمّا حضرتْ مُحَمَّدَ بنَ سِيرِينَ الْوَفَاةُ بَكَى، فَقِيلَ لَهُ: مَا يُبكيكَ؟ فَقَالَ: أبْكِي لتفريطِي فِي الْأَيَّامِ الخاليةِ، وَقلةِ عَمَلي للجنةِ الْعَالِيَةِ، وَمَا ينجِّيني من النَّارِ الحاميَةِ. هذا قيلُهم ونزُلُهم في التُّقى عليٌّ؛ فما قيلُ المُسرفينَ أمثالِنا؟!

والأمرُ الثالثُ: بيانُ حقيقةِ الدّنيا:

كان الخليفةُ عبدُالملكِ بنُ مرْوانَ في مرضِ الموتِ فقال: ارفَعونِي، فرفعوه حتى شمَّ الهواءَ، وقال: يا دُنيا، ما أطيبَك! إنّ طويلَك لقصيرٌ، وإنّ كثيرَك لحقيرٌ، وإنّا كنّا بكِ لفي غُرورٍ. ولمّا حضرتِ الخليفةَ المأمونَ الوفاةُ أمرَ بحلّ دابتِه، ففُرِشَ لهُ، فاضطَّجعَ عليه، ووضع الرمادَ على رأسِه، وجعل يقولُ: يا مَن لا يزولُ ملكُه، ارحمِ اليومَ مَن قد زال ملكُه. وقال الخليفةُ أبو جعفرَ

المنصورُ عند احتضارِه لوزيرِه الربيعِ: يا ربيعُ، هذا السلطانُ، لا سلطانُ مَن يموتُ. ودخل رجلٌ على الأميرِ عبدِاللهِ بنِ طاهرٍ وهو يَحتضِرُ فقال: السلامُ عليكَ أيّها الأميرُ، فقال: لا تسمِّني أميراً، وسمِّني أسيراً. ولما احتضَر الخليفةُ الواثقُ جعل يرددُ:

الموتُ فيه جميعُ الناسِ مشتركٌ ... لاسُوقةٌ منهمُ يبقى ولا ملِكُ
ما ضرّ أهلَ قليلٍ في تفارُقِهم ... وليس يُغني عن الأملاكِ ما ملكوا

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.

وبعدُ، فاعلمُوا أن أحسنَ الحديثِ...

أيّها المؤمنون!

إنّ لساعةِ الاحتضارِ أعمالاً تُشرعُ، تحسنُ بها الخاتمةُ، وتزكو بها المِيتةُ، ومن تلك الأعمالِ: الاستعدادُ لذلك المضطَّجَعِ بالعملِ الصالحِ، والتحرُّزِ من المَظالمِ والمآثمِ، ومُداومةِ التوبةِ وتجديدِها. قال القَعقاعُ بنُ حكيمٍ: "قد استعدَدتُّ للموتِ منذُ ثلاثينَ سنةً"، واحتُضِر بعضُ الصَّالِحينَ فَبَكَتِ امْرَأَتُه، فَقَالَ: مَا يُبكيكِ؟ قَالَت: عَلَيْكَ أبْكِي، قَالَ: إن كنتِ باكيةً فابكي على نَفسِك، فَأَمَّا أَنا فقد بَكَيْتُ على هَذا الْيَوْمِ مُنْذُ أَرْبَعِينَ سنةً. وبسالفِ الاستعدادِ بالصالحاتِ يحبُّ المؤمنُ لقاءَ ربِّه، يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ»، قَالَتْ عَائِشَةُ أَوْ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ: إِنَّا لَنَكْرَهُ المَوْتَ، قَالَ: « لَيْسَ ذَاكِ، وَلَكِنَّ المُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ المَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللهِ وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ؛ فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ وَأَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللهِ وَعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ؛ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ وَكَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ » رواه البخاريُّ ومسلمٌ. و عند نزولِ الموتِ يُغلَّبُ الرجاءُ على الخوفِ، ويُحسّنُ الظنُّ باللهِ — تعالى-، يقولُ النبيُّ ﷺ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللهِ الظَّنَّ» رواه مسلمٌ،

ودخل عَلَى رجلٍ وَهُوَ فِي النَّزْعِ فَقَالَ: «كَيفَ تجدُك؟» فَقَالَ: أجدُني أَخَافُ ذُنُوبِي، وَأَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّي، فَقَالَ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسلم: «مَا اجْتمعَا فِي قلبِ عبدٍ فِي هَذَا الموطنِ إِلَّا أعطَاهُ اللهُ مَا رجَا وأمّنَه مِمَّا يخَافُ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَقَالَ النَّوَوِيّ: إِسْنَادُه جيدٌ. والتلفُّظُ بشهادةِ التوحيدُ نطقاً وتلقيناً خيرُ أعمالِ الختامِ، يقولُ النبيُّ ﷺ: "لقِّنوا موْتاكُم: لا إلهَ إلا اللهُ" رواه مسلمٌ، ويقولُ: "مَن كان آخرُ كلامِه من الدّنيا لا إلهَ إلا اللهُ دخلَ الجنةَ" رواه أبو داودَ وصحّحه الحاكمُ.

ذكرى الوباءِ

إنّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مضلّ له، ومَن يضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ... ﴾.

أيّها المؤمنونَ!

إنّ ممّا لا يصحُّ الإيمانُ إلا بتحقيقِه الاعتقادَ بأنّ كلّ ما يجري في الكونِ من خيرٍ ومُصابٍ إنّما هو قدَرٌ من اللهِ نافذٌ؛ عَلِمَه اللهُ، وكتبَه في اللّوحِ المحفوظِ، وشاءَ وقوعَه، وخَلَقَه؛ فلا رادَّ لِمَا قضى، ولا مانعَ لِمَا أعطى. يقولُ اللهُ -تعالى-: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾. وقال النبيُّ ﷺ: "كتبَ اللهُ مقاديرَ الخلائقِ قبل أن يخلقَ السماواتِ والأرضَ بخمسينَ ألفَ سنةٍ" رواه مسلمٌ. ومقاديرُ اللهِ -سبحانَه- جاريةٌ وِفقَ حكمتِه البالغةِ وقدرتِه النافذةِ، وإنْ بدا في ظاهرِها الضَّررُ والألمُ. هذا، وإنّ من جملةِ هذه المقاديرِ التي يبتلِي اللهُ بها عبادَه الأوبئةَ والأمراضَ التي يتّسعُ نطاقُها في الأرضِ ويعمّ زمانًا أو مكانًا؛ فإنّ للهِ فيها حِكمًا بالغةً ينبغي للمرءِ أن يستحضرَها حين

معايشتِه هذا البلاءَ؛ لينعمَ من خلالِ هذا الاستحضارِ بنعمةِ اللهِ عليه من تفتيحِ بصيرتِه، ويَقَظةِ ضميرِه، وانكسارِ قلبِه، وطمأنينةِ إيمانِه؛ بل زيادتِه وتمتينِه وصلابتِه حين اختلّت موازينُ مَنْ خفَّ الإيمانُ في قلبِه أو انعدمَ، وتملّكَ الذعرُ وجدانَه، وأرجفَ في الناسِ، وتوارى عن قلبِه استحضارُ عقيدةِ الإيمانِ بالقضاءِ والقدرِ وشعيرةُ المحاسبةِ.

عبادَ اللهِ!

إنّ في تقديرِ الأوبئةِ إظهاراً لعظيمِ قدرةِ اللهِ وقهرِه، كما أنّ فيها تجليةً لهوانِ الخَلقِ وشدّةِ افتقارِهم وضعفِ حيلتِهم؛ حين أرعبَ فيروسٌ لا يُرى إلا بالمكبّراتِ المجهريّةِ دُولاً كان لسانُ حالِها يقولُ: مَن أشدُّ مِنّا قوةً! فلم يغنِ عنها تفوُّقُها الطبيُّ ولا العسكريُّ ولا السياسيُّ ولا الاقتصاديُّ شيئًا، وباتتْ تتسوّلُ مساعدةَ الغيْرِ في مكافحةِ الوباءِ! وفي هذه الأوبئةِ نُذرُ الاستعتابِ الإلهيِّ؛ ليراجعَ الناسُ علاقتَهم بربِّهم، ويحاسبُوا أنفسَهم عن مدى قيامِها بأمرِه، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. وصار هذا الوباءُ لأهلِ الإيمانِ كفارةً وطُهراً ورفعةَ درجةٍ ومرضاةَ إلهٍ، بينما غدا على غيرِهم وبالاً وعذاباً وسُخطاً ربّانياً، قالتْ عائشةُ — رضي اللهُ عنها -: سألتُ رسولَ اللهِ ﷺ عن الطاعونِ، فأخبرَني: «أنّه عذابٌ يبعثُه اللهُ على مَن يشاءُ، وأنّ اللهَ جعلَه رحمةً للمؤمنينَ؛ ليس من أحدٍ يقعُ الطاعونُ، فيمكثُ في بلدِه صابراً مُحتسباً، يعلمُ أنّه لا يصيبُه إلا ما كتبَ اللهُ له؛ إلا كان له مثلُ أجرِ شهيدٍ»

رواه البخاريُّ ومسلمٌ، يقولُ ابنُ القيمِ: "وأكثرُ هذه الأمراضِ والآفاتِ العامّةِ بقيةُ عذابٍ عُذِّبتْ به الأممُ السالفةُ، ثم بقيتْ منها بقيةٌ مُرْصَدَةٌ لمن بقيتْ عليه بقيّةٌ من أعمالِهم؛ حُكماً قسْطاً، وقضاءً عدلاً، وقد أشار النبيُّ ﷺ إلى هذابقولِه في الطاعونِ: «إنّه بقيّةُ رجزٍ أو عذابٍ أُرسلَ على بني إسرائيلَ»".

أيّها المسلمونَ!

إنَ لزومَ المنهجِ الشرعيِّ في التعامُلِ مع بلاءِ الوباءِ من ألْزمِ ما يجبُ العنايةُ به؛ علماً، وعملاً، وتواصياً، وتذكيراً؛ إذ إنّ مَنْ قدّر البلاءَ بحكمتِه هو القادرُ على دفعِه ورفعِه بقدرتِه ورحمتِه، وهو المرشدُ لطريقِ التعامُلِ معه والنجاةِ من شرِّه. ومن أهمِّ معالمِ ذلكُم الطريقِ ملءُ القلبِ بزادِ التوكُّلِ على اللهِ وحسنِ الظنِّ به، واستشعارِ رحمتِه وحفظِه، وتسليمِ الأمرِ لحسنِ اختيارِه؛ فإنّ لذلكَ بالغَ الأثرِ في دفعِ البلاءِ ورفعِه، والصبرِ عليهِ، وحسنِ عاقبتِه. وتجديدُ التوبةِ، والاعترافُ بالذنبِ، والانكسارُ بين يدي المولى، والرجوعُ إلى طاعتِه، وتصحيحُ المسارِ إليه، وإظهارُ شَعيرةِ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المنكرِ من أعظمِ ما يرفعُ البلاءِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ۝٤٢ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾. واللّهجُ بدعاءِ اللهِ — سبحانَه -، وتسبيحِه، والضَّراعةِ إليه من أعظمِ ما يرفعُ اللهُ به البلاءَ؛ إذْ فيه خالصُ التوحيدِ من التبرُّؤِ من الحوْلِ البشريِّ وصدقِ التعلُّقِ بالحوْلِ الربانيِّ، قال الشافعيُّ: "لم أرَ أنفعَ للوباءِ من التسبيحِ". والصبرُ

والاحتسابُ زادٌ عظيمٌ لتخطِّي البلاءِ والظفْرِ بغنيمتِه. والأخذُ بالأسبابِ الوقائيّةِ والعلاجيّةِ دونَ تعلُّقٍ بها من معالمِ التعامُلِ الشرعيِّ مع الأوبئةِ؛ فقد ثبتَ النهيُ النبويُّ عن إيرادِ الصّحيحِ على ذِي المرضِ المُعدي، وعن دخولِ الأرضِ الموْبوءةِ وخروجِ أهلِها منها؛ لئلا ينتشرَ الوباءُ، كما ثبتَ الإرشادُ النبويُّ بالتحصُّنِ بالأورادِ والأذكارِ الشرعيّةِ، والمعالجةُ بالرُّقيةِ المشروعةِ والصدقةِ. وتثبيتُ الناسِ، وتطمينُهم، وعدمُ الإرجافِ فيهم وبثِّ الشائعاتِ، وأخذُ الأمر واستقاءُ المعلوماتِ من أهلِها المختصِّينَ المعروفينَ من معالمِ التعامُلِ الشرعيِّ مع الأوبئةِ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أمّا بعدُ، فاعلمُوا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

إنّ ممّا ينبَغي استحضارُه في بلاءِ الوباءِ حسنَ التفكُّرِ الذي به ينيبُ العبدُ إلى ربِّه؛ وذلكَ باستشعارِ عظيمِ نعمةِ عافيتِه؛ فذلكَ من أعظمِ ما يدفعُ العبدَ إلى حفظِ تلك النِّعمةِ واستدراكِ ما فاتَ منها أو نقصَ. وأن يتفكرَ في تعامُلِ البشرِ الهائلِ مع ذلكَ المُصابِ الدنيويِّ الفاني، ثم يقارنَ ذلك التعاملَ بتعامُلِهم مع مُصابِ الدينِ الباقي؛ لينظرَ أيَّ التعامليْنِ كان أكثرَ عند البشرِ حضوراً وهمّاً، وأيَّها كان أكثرَ عند اللهِ حثّاً وعزماً. كما أنّ من سموِّ التفكُّرِ في بلاءِ الوباءِ أن يسموَ به فكرُ النفوسِ عن دارِ الغرورِ والأسقامِ إلى التفكُّرِ والشوقِ إلى دارِ الخلودِ والسلامِ، حين ينادي أهلَها مُنادِيها - كما قال النبيُّ ﷺ: "ينادي منادٍ: إنّ لكم أن تصِحُّوا؛ فلا تسقَموا أبداً، وإنّ لكم أن تَحيَوْا؛ فلا تَموتوا أبداً، وإنّ لكم أن تشبُّوا؛ فلا تهرَموا أبداً، وإنّ لكم أن تنعَموا؛ فلا تبْأَسوا أبداً" رواه مسلمٌ؛ فلا يكونُ زخرفُ هذه الدنيا وحسنُ زهرتِها -مع ما يعتريه من تنغيصِ المصائبِ وسرعةِ انقضاءِ اللّذاتِ - مُنسياً العبدَ الاستعدادَ للدارِ الباقيةِ التي بها ثِواؤه السرمديُّ الأبديّ.

راحةُ التوكلِ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، كافي المتوكِلينَ، وقيُّومِ السمواتِ والأرَضينَ، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ مالكُ يومِ الدينِ، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلى اللهُ عليه وعلى آله وصحبه وسلّمَ تسليماً كثيراً إلى يوم الدينِ.

أمّا بعدُ، فاتقوا اللهَ –عبادَ اللهِ–، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ... ﴾.

أيّها المؤمنون!

الاستقرارُ النفسيُّ وطمأنينةُ القلبِ حاجةٌ فطريةٌ جُبِلتْ عليها النفوسُ، وتعظمُ تلك الحاجةُ إن أُزعجَتْ تلك النفوسُ بهمومِ مخاوفِ المستقبلِ من فقرٍ ومرضٍ وتسلّطِ عدوٍّ وفشلٍ، وطافتْ عليها غمومُ أحزانِ الماضي من استذلالٍ وفقدانِ محبوبٍ وتحوّلِ نعمةٍ. هذا وإنّ الذي خَلَقَ النفوسَ وعَلِم أدواءَها قد أبان لها سبيلَ النجاةِ من تلك الآفاتِ المُهلكةِ؛ وذلك بأنْ جعلَ التوكلَ عليه وتفويضَ الأمرِ إليه والرّضا بما يقضيه أعظمَ سببٍ مضمونٍ يتحققُ به الاستقرارُ النفسيُّ وطمأنينةُ القلبِ وراحتُه وفرحُه، وتلك غايةُ الأنامِ ومُناهم. قال عبدُاللهِ بنُ مسعودٍ –رضي اللهُ عنه–: "إن اللهَ –عزَّ وجلَّ– بقسطِه وعدلِه جعل الرَّوْحَ والراحةَ والفرحَ في الرضا واليقينِ، وجعل الهمَّ والحزنَ في السَّخطِ والشكِّ". رأى عامرُ بنُ عبدِالله ابنيْ عمِّه قد اعتراهما همٌّ؛ فأوصاهما قائلاً: "فوِّضا أمرَكما إلى اللهِ؛ تستريحا". نعم، بذلك التفويضِ والتوكلِ الذي

حقيقتُه الثقةُ بالله وحسنُ الاعتمادِ عليه تكونُ راحةُ القلبِ وطمأنينتُه مهما أحدقتْ به المخاوفُ وأجلبتْ عليه الأحزانُ؛ فما سرُّ اقترانِ راحةِ القلبِ وطمأنينتِه بتوكلِّه على اللهُ؟

أيّها المسلمون!

إنّ راحةَ التوكلِ جزاءُ حسنِ الظنِّ بالله؛ وفي حسنِ الظنِّ باللهِ راحةُ القلوب، والتوكلُ جماعُ حسنِ الظنِّ بالله، سيّما مع تعسُّرِ الظروفِ وانعدامِ الأسباب الحسيّةِ، قال الخُرَيبي: "أرى التوكلَ حسنَ الظنِّ بالله -عزّ وجلّ-"، وقال إبراهيمُ بنُ شيبانَ: "حسنُ الظنِّ باللهِ هو اليأسُ عن كلِّ شيءٍ سوى اللهِ -عز وجل-"، واللهُ عند ظنِّ عبدِه به. ومِن جزاءِ ظنِّ المتوكلِ الحُسْنَ بربِّه أنْ جعلَ كفايتَه الربانيةَ المطلقةَ جزاءَ توكُّله، كما قال اللهُ -تعالى-: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾؛ أي: كافيه، قال بعضُ السلفِ: "جَعَلَ اللهُ -تعالى- لكلِّ عملٍ جزاءً مِن جنسِه، وجعل جزاءَ التوكلِ عليه نفْسَ كفايتِه لعبده، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾، ولم يقل: نؤْتِه كذا وكذا من الأجرِ، كما قال في الأعمالِ، بل جعل نفْسَه -سبحانه- كافيَ عبدِه المتوكلِ عليه وحسبَه وواقيَه؛ فلو توكّلَ العبدُ على اللهِ -تعالى- حقَّ توكُّلِه وكادَتْه السمواتُ والأرضُ ومَن فيهنَّ لَجعلَ له مخرجاً من ذلك، وكفاه، ونَصَرَه"، وهل بعدَ كفايةِ الله كفايةٌ؟! وهل يبقى مع كفايةِ الله خوفٌ وحزنٌ؟! قال عليٌّ -رضي اللهُ عنه-: "يا أيها الناسُ، توكَّلوا على الله، وَثِقُوا به؛ فإنّه يكفي ممّن سواه". قال أبو قدامةَ الرمليُّ: قرأ رجلٌ هذه الآيةَ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى

﴿ٱلْحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾، فأقبلَ عليَّ سليمانُ الخوّاصُ، فقالَ: يا أبا قدامةَ، ما ينبغي لعبدٍ بعد هذه الآيةِ أن يَلجأَ إلى أحدٍ غيرِ اللهِ في أمرِه، ثمّ قال: انظرْ كيف قال اللهُ -تبارك وتعالى-: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾، فأعلمَك أنه لا يموتُ، وأن جميعَ خلقِه يموتون، ثم أمَرَك بعبادتِه، فقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦۚ﴾، ثم أَخْبرَك بأنّه خبيرٌ بصيرٌ، ثم قال: واللهِ يا أبا قدامةَ، لو عامَلَ عبدٌ اللهَ بحسنِ التوكلِ، وصِدْقِ النيةِ له بطاعتِه؛ لاحتاجتْ إليه الأمراءُ فمَن دُونهم، فكيف يكونُ هذا محتاجًا، وموئلُه وملجؤُه إلى الغنيِّ الحميدِ؟!». جاء رجلٌ إلى الربيع بنِ عبدِ الرحمنِ، فسألَه أن يُكلِّم الأميرَ في حاجةٍ له، فبكى الربيعُ، ثم قال: أيْ أخي، اقصدْ إلى اللهِ في أمرِك تجدْه سريعًا قريبًا، فإني ما ظاهرتُ أحداً في أمرٍ أريدُه إلا اللهَ -عزّ وجلّ-، فأجدُه كريمًا قريبًا لمن قصَده وأراده وتوكلَ عليه. ومن صورِ الكفايةِ الربانيّةِ التي يُكْرِمُ اللهُ بها عبدَه المتوكلَ كفايةُ الهمِّ مهْما بلغ -والهمُّ أعظمُ ما يُوهِنُ المرءَ ويحزنُه ويهدُّ قُوَّتَه-، قال بعضُ السلف: "أيُّ حالٍ أكبرُ من حالِ المطيعِ لله، والمتوكلِ عليه؛ كفاه اللهُ بتوكُّلِه عليه الهمَّ، وأعْقبَه الراحةَ". وتحصيلُ الغنى الحقيقيِّ بالقناعةِ من كفايةِ اللهِ المتوكلَ وراحةِ قلبه، قال سليمانُ الخواصُ: "رأيتُ جوامعَ الغنى في التوكلِ"، وسُئِل أبو حازمٍ: ما مالُك؟ فقال: "خيرُ مالي ثقتي بالله —تعالى-، وإياسي ممّا في أيدي الناسِ". ومن شأنِ ذلك الغنى عِزُّ جَنابِ صاحبِه وكرامتِه على الناس، والعزُّ من دواعي الفرحِ والراحةِ، قال الحسنُ البصريُّ: "العزُّ والغنى يَجُولانِ في طلبِ التوكُّلِ، فإذا ظَفِرا أَوْطَنا". واستشعارُ المتوكلِ المعيّةَ الربانيةَ تُكْسِبُه

الأُنْسَ بـالله وقَصْدَه بالشكوى؛ وذاك مِن أجلِّ بواعثِ راحةِ القلبِ وطمأنينتِه وسلوةِ شكواه؛ وهو ما سرّى به النبيُّ ﷺ حُزْنَ أبي بكرٍ — رضي اللهُ عنه- حين رأى أقدامَ المشركينَ وهما في الغارِ قائلاً: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، أوصى معروفٌ الكرْخيُّ رجلاً قائلاً: "توكلْ على اللهِ -عزّ وجلّ- حتى يكونَ هو معلِّمَك وموضعَ شكواكَ؛ فإنّ الناسَ لا ينفعونك ولا يضرونك". وفي التوكلِ طمأنينةٌ تغشى القلبَ وتَرْبُطُ عليه، وتجعلُه أسكنَ وأوثقَ ما يكونُ وإن هجمتْ عليه جيوشُ الهمومِ، كما قال موسى — عليه السلامُ-حين ظَنَّ بنو إسرائيلَ أن فرعونَ وجندَه مُدْرِكُوهم، فقال: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، قال شقيقُ بنُ إبراهيمَ: "التوكلُ طمأنينةُ القلبِ بموعودِ اللهِ -عزّ وجلّ-". والتوكلُ يُكْسِبُ القلبَ قوةً إزاءَ كلِّ مزعجٍ يهددُ أمنَه؛ وذاك سرٌّ من أسرارِ اقترانِ توكلِ القلبِ براحتِه، قال أحدُ السّلفِ: "مَنْ أحبَّ أن يكونَ أقوى الناسِ؛ فليتوكلْ على اللهِ —تعالى-". قال الأصمعيُّ: "مررتُ بأعرابيّةٍ في الباديةِ في كُوخٍ، فقلتُ لها: يا أعرابيةُ، مَن يؤنِسُك ههنا؟ قالت: يؤنسُني مؤنسُ الموْتى في قبورِهم، قلتُ: فمن أين تأكلين؟ قالت: يُطعمني مُطْعِمُ الذرَّةِ وهي أصغرُ مني!".

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أما بعدُ، فاعلموا أن أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المسلمون!

ومن أسرارِ إكسابِ التوكلِ المتوكلَ الرَّوْحَ والراحةَ تعلُّقُه بجَناب الحيِّ الذي لا يموتُ حين تعلّقَ غيرُه بمَن يَفْنَى ويموتُ، قال شقيقٌ البلخيُّ: "لكلِ واحدٍ مقامٌ، فمتوكِّلٌ على مالِه ومتوكلٌ على نفسِه، ومتوكلٌ على لسانِه، ومتوكلٌ على سيفِه، ومتوكلٌ على سلطنتِه، ومتوكلٌ على اللهِ -عزّ وجلّ-، فأمّا المتوكلُ على اللهِ -عزّ وجلّ- فقدْ وَجَدَ الاسترواحَ؛ نوَّهَ اللهُ به، ورفع قدرَه، وقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾، وأمّا مَن كان مُسترِوحًا إلى غيره يوشكُ أن ينقطعَ به؛ فيَشقى". وضَبْطُ التوكلِ تعامُلَ صاحبِه مع الأسبابِ المشروعةِ المأمورِ باتخاذها من أسبابِ طمأنينةِ القلب وراحتِه؛ وذلك حين يتعاملُ المرءُ معها على أنّها أسبابٌ لا تنفعُ إلا بإذنِ مَن توكلَ عليه؛ فيباشرُها دون ركونٍ لها أو اعتقادٍ فيها وإنْ عَظُمتْ، ولا يحتقرُ منها سببًا مشروعًا وإن بَدا يسيراً؛ فقدْ غيّرَ اللهُ مجرى أمّةٍ بدعوةِ رجلٍ واحدٍ؛ إذ تعلّقُه بمَن بيده ملكوتُ كلِّ شيءٍ وأمْرُه بالكافِ والنونِ؛ فأنّى لقلبِ المتوكِّلِ وقد تربّعَ عرشُ التوكلِ فيه أن تتسربَ لقلبِه ظُلمةُ اليأسِ، أو يتملَّكَهُ وِثاقُ القُنوط، أو تأْسِرَه خياراتٌ محددةٌ، أو يفتَّ في عضُدِه نكوصُ الناكصينَ، أو تستخِفُّه عجلةُ المُرتابينَ، أو

يحزنَه هُزْءُ المستهزئين.

ذلكمْ —يا عبادَ الله–وَمْضٌ مِن سَنا راحةِ التوكلِ وهناءِ عيشِ أهلِه وإن بلغتْ بهمُ الكروبُ المنتهى؛ فتوكَّلُوا على مَن توكّلَ عليه المتوكِّلون قَبْلكم؛ فإنّه -جلّ ثناؤه- لا يَكِلُ متوكلاً عليه إلى غيرِه.

رضيتُ بما قَسَمَ اللهُ لي ... وفوَّضتُ أمرِي إلى خالقِي

فقدْ أحسنَ اللهُ فيما مضى ... ويُحْسِنُ إن شاءَ فيما بقِي

رِزْقُ الطيرِ

إنَّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، من يهدِه اللهُ فلا مضلّ له، ومَن يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعد، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ...﴾.

أيّها المؤمنون!

التفكُّرُ في خلقِ اللهِ، والتأملُ في بديعِ صنعِه وإحكامِ تدبيرِه من أجلِّ مُغذِّياتِ الإيمانِ ومقوِّياتِه؛ حين يكونُ ذلكَ العالَمُ المحسوسُ المشهودُ دالاً على الغيبِ الموعودِ. ومن بديعِ خلقِ اللهِ الذي حثَّ على التأمُّلِ فيه الطيرُ المسبِّحةُ بحمدِه؛ ففي خلقِها وتدبيرِها عجائبُ تدلُّ على وَحدانيَّةِ خالقِها وإحكامِ تدبيرِه. ومن القضايا الجديرَةِ بطُولِ التأمُّلِ والتفكُّرِ والاعتبارِ هدايةُ اللهِ الطيرَ في طلبِ رزقِه ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾؛ إذْ غدتِ الطيرُ مضربَ المثَلِ على هناءِ الرزقِ، وتيسُّرِه، وبركتِه؛ إذْ لم يُرَ طيرٌ مُطْلَقٌ قد هلكَ جوعًا، أو لم يُصبْ رزقُه يومًا؛ تغدو خِماصًا، وتروحُ بِطانًا، وللضَّعَفَةِ منها شأنٌ عجيبٌ! قال مكحولٌ: "كان من دعاءِ داودَ -عليه السلامُ-: يا رازقَ الغُرابِ النعّابُ (النعيبُ صوتُ الغرابِ) في عشِّه؛ وذلك أنّ الغرابَ إذا فقسَ عن فراخِه فقسَ عنها بِيضًا، فإذا رآها كذلك نفرَ عنها، فتفتحُ أفواهَها، فيرسلُ

اللهُ عليها ذبابـًا يدخلُ أفواهِها، فيكونُ ذلكَ غذاءً لها حتى تسودّ، فإذا اسودّتِ انقطعَ الذبابُ عنها، فعاد الغرابُ إليها فغذّاها".

أيّها المؤمنون!

إنّ من الهدايةِ الربانيَّةِ للطيرِ في رزقِها أنّها لا تخشى الفاقةَ والفقرَ؛ إذْ هي لا تحملُ إلا همّ رزقِها اليوميّ، وللمستقبلِ رزقُه الذي تكفَّلَ اللهُ به.

أحسِنِ الظَّنَّ بِرَبٍّ عوَّدَك ... حسنًا أمسى وَسوّى أوَدَك

إِنّ رَبًّا كَانَ يَكْفِيك الَّذِي ... كَانَ بالْأَمْسِ سيكفيكَ غدكَ

وذلكَ سببٌ من أسبابِ هناءِ العيشِ، كما قال النبيُّ ﷺ: "مَن أصبحَ منكم آمنًا في سربِه، معافًى في جسدِه، عنده قوتُ يومِه؛ فكأنّما حيزَتْ له الدّنيا" أي: جُمعتْ له الدّنيا (رواه الترمذيُّ وحسّنه الألبانيُّ). قال أبو حازمٍ: "إنّما بيني وبين الملوكِ يومٌ واحدٌ، أمّا أمسِ فلا يجِدونَ لذَّتَه، وأنا وإيّاهم من غدٍ على وجَلٍ؛ وإنّما هو اليومُ، فما عسى أن يكونَ اليومُ؟!". قال صلةُ بنُ أشيمَ: "طلبتُ المالَ من وجهِه، فأعيانِي إلا رزقَ يومٍ بيومٍ؛ فعرفتُ أنّه قد خِيرَ لي". ولا يعنِي ذلكَ تركُ الاحتياطِ للمستقبلِ، كلا، بل الشأنُ في حملِ الهمّ، لا بذلِ السببِ. ومن هدايةِ اللهِ الطيرَ حسنُ توكُّلِها على ربِّها في طلبِ رزقِها، بل غدتْ مَضرِبَ المثلِ في ذلكَ، كما قال النبيُّ ﷺ: "لو أنّكم تتوكّلون على اللهِ حقّ توكّلِه، لرزقَكُم كما يرزقُ الطيرَ، تغدُو خِماصًا (أي: جياعًا)، وتروحُ بِطانًا (أي: شِباعًا)" رواه أحمدُ وحسّنه البغويُّ. والتوكُّلُ الحقُّ الذي وقَرَ في قلبِ

الطيرِ يقينُه ألّا رازقَ له إلا اللهُ، وإفلاسُه ممّا سواه؛ وذاكَ سببٌ لا يخيبُ معه طلبُ الرزقِ أبداً. سئل الإمامُ أحمدُ: أيَّ شيءٍ صدق المتوكلُ على اللهِ -عزّ وجلّ-؟ قال: أن يتوكلَ على اللهِ، ولا يكونَ في قلبِه أحدٌ من الآدميينَ يطمعُ أن يجيئَه بشيءٍ، فإذا كان كذلكَ؛ كان اللهُ يرزقُه، وكان متوكلاً. والسَّعيُ في طلبِ الرزقِ بصدقِ التوكلِ دون ضجَرٍ أو كسلٍ من هدايةِ اللهِ الطيرَ في طلبِ رزقِها، وذلك السعيُ لا يكادُ يخيبُ معه أملٌ أوعملٌ، وإن فاتَ فإنّما فاتَ لما هو خيرٌ وأبركُ. قال الأحنفُ بنُ قيسٍ لرجلٍ أوصاهُ: "إياكَ والكسلَ والضجرَ! فإنّك إذا كسَلتَ لم تؤدِّ حقاً، وإذا ضجَرتَ لم تصبرْ على حقٍّ". وبالصبرِ والصدقِ الذي تمثّلُه الطيرُ يُساقُ الرزقُ ويبارَكُ، قال الأشجُّ الصّيدلانيُّ: مرّ بي رجلٌ فرأى قلّةَ الناسِ عندي وكثرتَهم عند غيري، فقال: أتريدُ أن تكثرَ مبايعتُك ويحسنَ حالُك؟ قلتُ: نعم، فقال: أصدقْ واصبرْ سنةً؛ فإنّ الصدقَ يستحْيي لنفسِه أن يبطئَ عنكَ أكثرَ من سنةٍ، ففعلتُ، فكثرَ زحامُ الناسِ عند حانوتِي. ثم مرّ بي فرأى كثرةَ الناسِ عندي فقال: احذرْ، ولا تتّكلْ على ما وهّمتَهم من الصدقِ فتدعوكَ نفسُك إلى ضَعفِ ربحِك اليومَ، فإنّك إن عدتَ إلى الكذبِ عاد عليك الكسادُ، فلم أزلْ قابلاً لوصيّتِه. والتبكيرُ في طلبِ الرزقِ من هدايةِ اللهِ الطيرَ، وهو من أسبابِ بركةِ الرزقِ، رُويَ عن صخرٍ الغامديِّ -رضي اللهُ عنه-، أن النبيَّ ﷺ قال: "اللهمّ باركْ لأمتِي في بُكورِها"، قال: وكان رسولُ اللهِ ﷺ إذا بعثَ سريَّةً بعثَها أوّلَ النهارِ"، وكان صخرٌ تاجراً، فكان لا يبعثُ غِلمانَه إلا من أوّلِ النهارِ؛ فكثرَ مالُه حتى كان لا يدري أين يضعُه (رواه أحمدُ والترمذيُّ وحسّنه).

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.

أمّا بعدُ، فاعلمُوا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

ومن هدايةِ اللهِ الطيرَ في طلبِ رزقِه أنْ ألزمه القناعةَ التي يحققُ بها كفايتَه؛ والتي سَلِمَ بها من مُنازعةِ الغيرِ، وتطلُّعِه لما في يدِه، والتعدِّي على حقِّه، وبات بها الطيرُ مَضرِبَ مثلٍ في صفاءِ القلبِ ولينِه وحريَّتِه، كما قال النبيُّ ﷺ: "يدخلُ الجنةَ أقوامٌ، أفئدتُهم مثلُ أفئدةِ الطيرِ" رواه مسلمٌ. والراحةُ قرينُ تلكَ القناعةِ التي عبّرَ عنها شقيقٌ البلخيُّ بقولِه: "إذا أردتَّ أن تكونَ في راحةٍ؛ فكلْ ما أصبتَ، والبسْ ما وجدتَّ، وارضَ بما قضَى اللهُ عليكَ". وحين يخلو القلبُ من تلكَ القناعةِ فإنه يتلطّخُ بوَضَرِ الغلِّ والحسدِ، ويقيَّدُ بوَثاقِ الذلّ الملازمِ للطّامعِ الجاشعِ. ومن هدايةِ اللهِ الطيرَ في الرزقِ وتسخيرِه قيامُها على شأنِ صغارِها الضِّعافِ، بل قد يمتدُّ ذلك الإحسانُ إلى ضعافِ المخلوقاتِ من غيرِ جنسِها، كما حكى غيرُ واحدٍ شاهداً لها، قال أحدُ الصالحينَ: رأيتُ على الدجلةِ نخلتيْنِ إحداهُما رطِبةٌ عليها رُطَبٌ والأخرى يابسةٌ، ورأيتُ طيراً يأخذُ الرُّطَبَ ويضعُه في رأسِ اليابسةِ، فصعدتُّ إليها، فرأيتُ حيَّةً عمياءَ والطيرُ يأخذُ الرُّطَبَ ويضعُه في فمِها.

عباد الله!

إنّ في هدايـةِ اللهِ الطيـرَ في رزقِـه عـبرةً بالغـةً للنـاسِ في أرزاقِهـم التي باتَـتْ أكثرَ اهتمامِهـم وحديـثِ نفوسِـهم ومجالسِـهم وسـببِ نِزاعِهـم؛ ليأخـذوا مـن تلـك الهِدايـةِ الربانيّـةِ مـا تطيـبُ بـه الأرزاقُ، ويهنـأُ بـه العيـشُ كمـا هـو حـالُ الطيـرِ في رزقِـه؛ إذ لفّـه العيشُ بهـمِّ الـرزقِ اليوميّ، وصـدقُ التوكلِ على اللهِ، والسعيُ الـذي لا يعْتريـهِ ضجَرٌ أو كسلٌ، واهتبالُ أوقـاتِ البكـورِ، ولـزومُ القناعـةِ، والقيـامُ بشـأنِ الضعيـفِ. وجمـالُ ذلـك وواسِـطةُ عِقـدِه حسـنُ الظـنِّ بـاللهِ —جـلّ شـأنُه-، قـال العُمَـريُّ: "يابـن آدمَ، الطيـرُ لا يـأكلُ رغْـداً، ولا يخبـئُ لغـدٍ، وأنـت تـأكلُ رغْـداً، وتخبـئُ لغـدٍ؛ فأحسـنتِ الطيـرُ الظـنَّ بـاللهِ، وأسـأتَ ظنَّـك بـاللهِ".

فكيـف تخافُ الفقـرَ واللهُ رازقٌ ... فقد رزقَ الطيرَ والحوتَ في البحرِ

معالمُ في الدَّيْن

إنَّ الحمدَ لله؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، منْ يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومنْ يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه.

أما بعدُ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ...﴾.

أيّها المؤمنونَ!

تفكَّرَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ -رضي اللهُ عنه- يوماً: أيُّ المخلوقاتِ أقوى؟ فقال: "أشدُّ خلْقِ ربِّكَ عشرةٌ: الجبالُ، والحديدُ يَنْحَتُ الجبالَ، والنارُ تأكلُ الحديدَ، والماءُ يُطفئُ النارَ، والسحابُ المسخَّرُ بين السماءِ والأرضِ يحمِلُ الماءَ، والريحُ تُقِلُّ السحابَ، والإنسانُ يتقي الريحَ بيده ويذهبُ فيها لحاجته، والسُّكْرُ يغلِبُ الإنسانَ، والنومُ يغلبُ السُّكْرَ، والهمُّ يمنعُ النومَ؛ فأشدُّ خلْقِ ربِّك الهمُّ" رواه الطبرانيُّ وقال الهيثميُّ: رجالُه ثقاتٌ، فالهمُّ أشدُّ ما يَفْتِكُ بصحةِ المرءِ ورُشْدِه؛ ولذا كان النبيُّ ﷺ يستعيذُ باللهِ منه دوماً، قال أنسُ بنُ مالكٍ - رضي اللهُ عنه -: " كنتُ أخدمُ النبيَّ ﷺ إذا نزلَ، فكنتُ أسمعُه كثيراً يقولُ: "اللهمَّ إني أعوذُ بك من الهمِّ، والحزنِ، والعجزِ، والكسلِ، والبخلِ، والجبنِ، وضَلَعِ الدَّيْنِ، وقهْرِ الرجالِ" رواه البخاري. والهمومُ تتنوعُ وتختلفُ، وهَمُّ الدَّيْنِ من أشدِّها وطأةً، وبذا سارَ المَثَلُ لدى العربِ إذ قالوا: "لا همَّ

إلا هـمُّ الدَّيـن"، و"الدَّيـنَ ولـو درهمـًا (أي: احـذر)"، وكان مـن جَـزْلِ وصايـا الحكمـاءِ قولُهـم: "الدَّيْنُ يُنْقِصُ مـن الدِّيـنِ والحَسَـبِ"، و: "الدَّيْـنُ هـمٌّ بالليـل، ومَذَلَّـةٌ بالنهـارِ"، و: "إياكـم والدَّيْـنَ! فإنَّ أوَّلَـه هَـمٌّ، وآخـرَه حـرْبٌ"، و: "الدَّيْنُ رِقٌّ؛ فليختـرْ أحدُكـم أيـن يضـعُ رِقَّـه"، و: "حريـةُ المسلـمِ كرامتُـه، وذِلُّـه دَيْنُـه، وعذابُـه سـوءُ خُلُقِـه"، وبـثَّ أحدُهـم معاناتِـه مـع الدَّيْـن شـعراً فقـالَ:

ألا ليـتَ النهارَ يعودُ يومـًا فـإنَّ الصبـحَ يـأتي بالهمومِ
حوائـجُ مـا نطيقُ لهـا قضاءً ولا دفعـًا وروعـاتُ الغريمِ

عبادَ اللهِ!

إنَّ الشريعةَ الغراءَ تحرِصُ غايةَ الحرصِ على إبقاءِ كرامةِ المؤمنِ، وسلامةِ ذمتِه مـن حقـوقِ الخَلْقِ؛ ولـذا رهَّبـتْ في الدَّيْـنِ وشـدَّدتْ تشـديداً بالغـًا؛ يجعلُ المـرءَ لا يجـرؤُ عليـه إلا فيمـا لا بـدَّ منـه وإن يُسِّـرتْ لـه وزُيِّنـتْ في دعايـاتِ المصـارفِ ودُورِ التمويـلِ والتقسيطِ؛ إذ جعـلَ الإسـلامُ الدَّيْـنَ مانعـًا مـن مغفـرةِ الذنـبِ وإنْ كانـت الخاتمـةُ شـهادةً في سبيلِ اللهِ. قـام رسـولُ اللهِ ﷺ في أصحابِـه، فذَكَـرَ لهـم أنَّ الجهـادَ في سبيلِ اللهِ والإيمـانَ بـاللهِ أفضـلُ الأعمـالِ، فقـامَ رجـلٌ فقـال: يـا رسـولَ اللهِ، أرأيـتَ إنْ قُتلـتُ في سـبيلِ اللهِ؛ تُكفَّـرُ عنـي خطايـايَ؟ فقـالَ رسـولُ اللهِ: "نعـم، إنْ قُتلـتَ في سبيلِ اللهِ وأنـت صابـرٌ محتسـبٌ مقبـلٌ غيـرُ مدْبِـرٍ"، ثـم قـال رسـولُ اللهِ ﷺ: "كيـف قلـتَ؟"، قـال: أرأيـتَ إنْ قتلـتُ في سـبيلِ اللهِ أتكفَّـرُ عنـي خطايـايَ؟ فقـال رسـولُ اللهِ: "نعـم، وأنـت صابـرٌ محتسـبٌ مقبـلٌ غيـرُ مدبـرٍ

إلا الدَّيْنَ؛ فإنَّ جبريلَ -عليه السلامُ- قال لي ذلك" رواه مسلمٌ. بل ذلك من أعظمِ الذنوبِ بعد الكبائرِ، يقولُ الرسولُ ﷺ: "إنَّ أعظمَ الذنوبِ عند اللهِ أنْ يلْقاه بها عبدٌ بعد الكبائرِ التي نهى اللهُ عنها أنْ يموتَ رجلٌ وعليه دَيْنٌ لا يَدَعُ له قضاءً" رواه أحمدُ وأبو داودِ وسكتَ عنه. والدَّيْنُ مما قد يعاقَبُ عليه في القبرِ؛ قال جابرُ بنُ عبدِاللهِ -رضيَ الله عنهما-: توفيِّ رجلٌ فغسلناه وكفَّناه وحنَّطناه، ثم أتينا به رسولَ اللهِ ﷺ ليصليَ عليه، فقلنا: تصلي عليه؟ فخَطا خطوةً ثم قال: "أعليه دَيْنٌ؟ " قلنا: ديناران، فانصرفَ، فتحمَّلَهما أبو قتادةَ، فأتيناه، فقال أبو قتادةَ: الديناران عليّ، فقال رسولُ اللهِ: "قد أوفى اللهُ حقَّ الغريمِ، وبَرِئَ منهما الميتُ؟ قال: نعم، فصلّى عليه، ثم قال بعد ذلك بيومين: "ما فعل الديناران؟ " قلت: إنما مات أمسِ، قال: فعاد إليه من الغدِ فقال: قد قضيتُها، فقال رسولُ اللهِ: الآن بَرَدَتْ جِلدتُه" رواه أحمدُ وصححه الحاكمُ وحسَّنه المنذريُّ. ونفْسُ المؤمنِ حَبْسَى عن الكرامةِ حتى يُقضى دَيْنُه، يقولُ الرسولُ ﷺ: "نفْسُ المؤمنِ معلَّقةٌ بديْنه حتى يُقضى عنه" رواه الترمذي وحسَّنه البَغويُّ. وقضاءُ الديونِ في الآخرةِ بالحسناتِ والسيئاتِ، يقولُ النبيُّ ﷺ: "من مات وعليه ديْنٌ فليسَ بالدينارِ والدرهمِ، لكنْ بالحسناتِ والسيئاتِ" رواه أحمدُ وصححه الألبانيُّ. ودخولُ الجنةِ معلَّقٌ بقضاءِ الدَّيْنِ، قال محمدُ بنُ عبدِاللهِ بنِ جحْشٍ - رضيَ الله عنهما-: كان رسولُ ﷺ قاعداً حيث توضعُ الجنائزُ، فرفع رأسَه قِبلَ السماءِ، ثم خفضَ بصرَه، فوضعَ يدَه على جبهتِه، فقال: "سبحانَ اللهِ! سبحان الله! ما أُنزِلَ من التشديدِ!"، قال: فعرفنا وسكتنا حتى إذا كان الغدُ سألتُ رسولَ اللهِ ﷺ فقلنا: ما التشديدُ الذي نَزَلَ؟ قال:

"في الدَّيْنِ، والذي نفسي بيدِه لو قُتِلَ رجلٌ في سبيلِ اللهِ، ثم عاش، ثم قُتل، ثم عاش، ثم قُتل، وعليه دَيْنٌ؛ ما دخل الجنةَ حتى يُقضى دَيْنُه" رواه النسائيُّ وصححه الحاكمُ وحسَّنه الألبانيُّ. وقال أبو هريرةَ - رضي اللهُ عنه -: "مَن كان عليه دَيْنٌ، فأيسرَ به، فلم يقضْه؛ فهو كآكلِ السُّحْتِ" رواه عبدُالرزاقِ. وكلُّ ذلك مما جعل النبيَّ ﷺ على كمالِ شفقتِه ورحمتِه يَدَعُ الصلاةَ على الميتِ إن كان عليه دَيْنٌ قبل أن يَكثُرَ المالُ في الدولةِ الإسلاميةِ ليكونَ السدادُ منه.

أيها المسلمون!

إنّ المتأملَ للهدي الإسلاميِّ الشاملِ جوانبَ الحياة في تعاملِه مع الدَّيْنِ يجدُ الدواءَ الناجعَ لهذا الداءِ؛ دفعًا له قبل وقوعِه، ورفعًا له بعد الوقوعِ، وحسْمًا لأثرِه عند الوفاءِ وبعدَه. أما الإجراءاتُ الوقائيةُ المانعةُ من الدَّيْنِ، فهيَ التحذيرُ منه، وبيانُ خطرِه كما تقدَّمَ، ومِن حَسَنِ الاحترازِ الاقتصادُ وحُسْنُ التدبيرِ، كما قال تعالى: (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا)؛ إذ أكثرُ الديونِ تُصْرَفُ في الكمالاتِ، وذلك يستلزمُ ضبطَ النفقةِ وحُسْنَ تقسيمِها، وعدمَ الانصياعِ لبَهْرجِ الدعايةِ والتقليدِ، والتخلصَ من العاداتِ السيئةِ وإنْ جرى بها عملُ فئامٍ في المجتمعِ، وعدمَ مجاراتِهم في عاداتِهم المباحةِ إنْ لم تُطَقْ كُلْفتُها. ومَن حَسَنِ التدبيرِ إبقاءُ جزءٍ من المالِ -ولو قلَّ-؛ تحسبًا للظروفِ الطارئةِ، كما كان هديَ النبيِّ ﷺ؛ إذ يقولُ: "لو كان لي مِثلُ أحدٍ ذهبًا ما يسرني ألا يَمُرَّ عليَّ ثلاثٌ وعندي منه شيءٌ، إلا شيئًا أَرْصُدُه لدَيْنٍ" رواه البخاريُّ. وتلمُّسُ أسبابِ بركةِ

الـرزقِ الـواردةِ في نصـوصِ الشـرعِ عمـادٌ في كفايتـه وإنجائـه مـن رِقِّ الدَّيْـنِ. وتربيـةُ المـرءِ نفسَـه وأهلَـه على عـدمِ الاسـتجابةِ لرغبـاتِ النَّفْـسِ في تحقيـقِ كلِّ مـا تشـتهي والقناعـةِ بمـا رُزِقـوا مِـن جـوادِّ حُسْـنِ الاقتصـادِ، فقـد مـرَّ جابـرُ بـنُ عبـدِاللهِ علـى عمـرَ بـنِ الخطـابِ -رضـي اللهُ عنهـم- بلحـمٍ قـد اشـتراه بدرهـمٍ، فقـال لـه عمـرُ: مـا هـذا؟ قـال: اشـتريتُ بدرهـمٍ، قـال: كلمـا اشـتهيتَ شـيئًا اشـتريتَه! رواه ابـنُ أبـي شـيبةَ. ومـا عولـجَ طمـعٌ بمثْـلِ يـأسٍ.

إذا غـلا شـيءٌ علـيَّ تركتُـه فيكـونُ أرخصَ ما يكـونُ إذا غلا

عبادَ اللهِ!

وقـد تُلجـئُ المـرءَ حاجـةٌ إلـى الاسـتدانةِ؛ فـإنِ ابْتُلـيَ بهـا فعليـه الصـدقُ في نيـةِ الوفـاءِ والعـزمِ عليـه؛ فصـدْقُ تلـك النيـةِ والعزيمـةِ ركـنُ الوفـاءِ، يقـولُ النبـيُّ ﷺ:"من أخـذَ أمـوالَ النـاسِ يريـدُ أداءَهـا؛ أدَّى اللهُ عنـه، ومـن أخذَهـا يريـدُ إتلافَهـا؛ أتلفَـه اللهُ" رواه البخـاريُّ ومسـلمٌ. وروى النسـائيُّ وابـنُ حبـانَ في صحيحِـه مرفوعـًا: "مـا مـن أحـدٍ يـدانُ دَيْنـًا يعلـمُ اللهُ أنـه يريـدُ قضـاءَه إلا أدَّى اللهُ عنـه في الدنيـا". وبهـذه النيـةِ يُعـانُ المـرءُ في قضـاءِ دَيْنِـه، كمـا قـال رسـولُ اللهِ ﷺ: "إنَّ اللهَ مـع الدائـنِ حتـى يقضـيَ دَيْنَـه مالـم يكـن فيمـا يكـرهُ اللهُ" رواه الدارمـيُّ وحسّـنه المنـذريُّ وابـنُ حَجَـرٍ. وصـدْقُ هـذه النيـةِ لا يكـونُ إلا بفعـلِ الأسـبابِ الممكنـةِ في السـدادِ وإن كانـت قليلـةً لا تفـي بالدَّيْـنِ، ومـن تلـك الأسـبابِ: توثقـةُ الدَّيْـنِ، وكتابتُـه في الوصيـةِ – والوصيـةُ حينئـذٍ واجبـةٌ –، وإعطـاءُ المديـنِ الدائـنَ المـالَ الفائـضَ عـن حاجتِـه وإن كان

قليلاً. ومنها: الاقتصادُ في النفقةِ؛ ليفْضُلَ ما يكونُ به السدادُ، وقد كان هذا منهجَ الصحابةِ في قضاءِ الدَّيْنِ، كما فَعَلَ جابرُ بنُ عبدِالله وعبدُالله بنُ الزبيرِ في ديونِ أبيهما، كما روى البخاريُّ. وحُسْنُ الظنِّ باللهِ والاستعانةُ به من أجلِّ ما يُستجلَبُ به العونُ الإلهيُّ ورزقُه وقضاؤه الديونَ؛ فاللهُ عند ظنِّ عبدِه به. أوصى الزبيرُ بنُ العوامِ ابنَه عبدَالله -رضي اللهُ عنهما- بقضاءِ دَيْنِه، وقال له: "يا بُنيَّ، إنْ عجزتَ عنه في شيءٍ فاستعنْ عليه بمولايَ"، فقال له: "يا أبةِ، مَن مولاك؟ " فقال: "اللهُ "، قال عبدُالله: "فوالله ما وقعتُ في كربةٍ من دَيْنِه إلا قلتُ: يا مولى الزبيرِ، اقضِ عنه دَيْنَه؛ فيقضيه " رواه البخاري. وإدمانُ الدعاءِ من أعظمِ أسبابِ تيسيرِ الوفاءِ، سيما دعوةُ المكروبِ التي دعا بها يونسُ -عليه السلامُ- وهو في بطنِ الحوتِ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ودعا بها محمدٌ ﷺ: "لا إلهَ إلا اللهُ العظيمُ الحليمُ، لا إلهَ إلا اللهُ ربُّ العرشِ العظيمِ، لا إلهَ إلا اللهُ ربُّ السماواتِ والأرضِ وربُّ العرشِ الكريمِ" رواه البخاريُّ ومسلمٌ. ولزومُ الاستغفارِ مما يُقضى به الدَّيْنُ؛ يقولُ النبيُّ ﷺ: "من لزمَ الاستغفارَ؛ جعلَ اللهُ من كلِّ همٍّ فرجاً، ومن كلِّ ضيقٍ مخرجاً، ورزقَه من حيث لا يَحتسبُ" رواه أبو داودَ وسكتَ عنه. واللَّهجُ بالحَوْقَلَةِ من أسبابِ تنزُّلِ الإعانةِ الربانيةِ التي يكونُ بها قضاءُ الدَّيْنِ، قال مكحولٌ: "من قال: لا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ، ولا ملجأَ من اللهِ إلا إليه؛ كشفَ اللهُ عنه سبعين باباً من الضُّرِّ أدناهنَّ الفقرُ" رواه الترمذيُّ وصححه الألبانيُّ. هذا وإنَّ لقضاءِ الدَّيْنِ أدعيةً خاصةً مأثورةً، منها ما روى أبو داودَ وسكتَ عنه أنَّ النبيَّ ﷺ دخل ذاتَ يومٍ المسجدَ فإذا هو برجلٍ من الأنصارِ يقال له أبو أُمامةَ، فقال:

يا أبا أمامةَ، ما لي أراك جالساً في المسجدِ في غيرِ وقتِ الصلاةِ؟ فقال: همومٌ لزمتني وديونٌ، يا رسولَ اللهِ، قال: أفلا أعلِّمُكَ كلاماً إذا أنت قلتَه أذهبَ اللهُ -عزَّ وجلَّ- همَّك وقضى عنك دينَك؟ قال: قلتُ: بلى، يا رسولَ الله، قال: "قلْ إذا أصبحتَ وإذا أمسيتَ: اللهمَّ إني أعوذُ بك من الهمِّ والحَزَنِ، وأعوذُ بك من العجزِ والكسلِ، وأعوذُ بك من الجبنِ والبخلِ، وأعوذُ بك من غلبةِ الدَّيْنِ وقهْرِ الرجالِ"، قال: ففعلتُ ذلك؛ فأذهبَ اللهُ -عزّ وجلّ- همّي، وقضى عني دَيْني. ومنها ما رواه أحمدُ والترمذيُّ وصححه الحاكمُ وحسّنه الألبانيُّ أنّ عليَّ بنَ أبي طالبٍ -رضي اللهُ عنه- قال لرجلٍ جاء يطلبُ أنْ يعينَه في دَيْنه: ألا أعلِّمُك كلماتٍ علمنيهنَّ رسولُ اللهِ ﷺ لو كان عليك مثلُ جبلِ صَبيرٍ (من ضخامِ جبالِ اليمنِ) دَيْناً لأدّاه اللهُ عنك، قل: "اللهمَّ اكفني بحلالِك عن حرامِك، وأغنني بفضلِك عمّن سواك". ومنها ما رواه الطبرانيُّ وجوّده المنذريُّ وحسَّنَه الألبانيُّ أنّ النبيَّ ﷺ قال لمعاذٍ -رضي اللهُ عنه-: ألا أعلِّمُك دعاءً تدعو به لو كان عليك مثلُ جبلِ أحدٍ دَيْناً لأدّاه اللهُ عنك، قل يا معاذُ: اللهمَّ مالكَ الملكِ، تؤتي الملكَ من تشاءُ، وتنزعُ الملكَ ممن تشاءُ، وتُعزُّ من تشاءُ، وتُذلُّ من تشاءُ، بيدك الخيرُ، إنك على كلِّ شيءٍ قديرٌ، رحمنَ الدنيا والآخرةِ ورحيمَهما، تعطيهما من تشاءُ، وتمنعُهما من تشاءُ، ارحمني رحمةً تُغنيني بها عن رحمةِ مَن سواك".

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أما بعدُ، فاعلموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ ...

أيها المؤمنون!

ومما ينبغي للمدينِ رعيُه الحرصُ على أسبابِ الرزقِ، كبِرِّ الوالدين وصلةِ الأرحامِ والإحسانِ إلى الضعفاءِ وسؤالِ البركةِ، وأن يسعى في توسيطِ الوجهاءِ للشفاعةِ في إسقاطِ الدينِ أو بعضِه إنْ عجزَ عنه أو شقَّ عليه، روى البخاريُّ أنّ جابرَ بنَ عبدِاللهِ -رضي اللهُ عنهما- أَخبرَ أنَّ أباه قُتلَ يومَ أحدٍ شهيداً، وقال: وعليه دَيْنٌ، فاشتدَّ الغرماءُ في حقوقِهم، فأتى النبيُّ ﷺ فسألَهم أنْ يقبلوا تمرَ حائطي (بستاني)، ويحللوا أبي فأبوا، فلم يعطِهم النبيُّ ﷺ حائطي، وقال: سنغدو عليك، فغدا علينا حين أصبحَ، فطافَ في النخلِ ودعا في ثمرِها بالبركةِ، فجَدَدتُّها، فقضيتُهم، وبقيَ لنا من ثمرِها".

وإذا حلَّ الدَّيْنُ فإنّ الإسلامَ قد حضَّ على حُسْنِ وفائه؛ وذلك بأدائه في موعدِه المحددِ، والزيادةِ عليه كَرَماً من المدينِ دون طلبٍ من الدائنِ أو شرْطٍ، فعن أبي هريرةِ – رضي اللهُ عنه – أنّ رجلاً أتى النبيَّ ﷺ يتقاضاه بعيراً، فقال النبيُّ ﷺ: أعطوه، فقالوا: ما نجدُ إلا سِنّاً أفضلَ من سِنِّه، فقال الرجلُ: أوْفيتَني -أوفاك اللهُ-، فقال رسولُ اللهِ: "أعطوه؛ فإنَّ مِن خيارِ الناسِ أحسنَهم قضاءً" رواه البخاري. بهذا التعاملِ الراقي يُحسَمُ همُّ الدَّيْنِ، وينقلبُ محمدةً لمُوفيه.

هـذا، ولْيحـذرِ الدائـنُ مَـن أنْ يَحمِلَـه حـبُّ المـالِ والجشـعُ علـى اسـتغلالِ ظـروفِ النـاسِ وحاجتِهـم؛ فيتخـذَ إقراضَهـم سُـلَّمـًا للتربُّـحِ، ولْيعلـمْ أنَّ الدَّيْـنَ إحسـانٌ وإرفـاقٌ؛ فـلا يُلوِّثَنَّـهُ بالحـرامِ كالرِّبـا والتحايـلِ عليـه. ولْيحـرصْ علـى عـدمِ تفويـتِ فضيلـةِ إنظـارِ المديـنِ، وإسـقاطِ الدَّيْـنِ أو بعضِـه؛ فقـد تجـاوزَ اللهُ عن مذنـبٍ مسرفٍ كان يُنْظِرُ المعسرين، ويتجاوزُ عنهم كما روى البخـاري. ولا يَحْمِلنَّه طلبُ حقِّه على فُجْرِ الخصومةِ، كأنْ يَقاضيَ مدينَه وهو يعلمُ عسرتَه، أو يدعوَ على وَلدِه وذويه إنْ مَطَلَه حقَّه، أو يتلفَّظَ عليهم أمامَ الناسِ. ولْيتذكرْ ترحُّمَ النبيِّ ﷺ لمن كان سَمْحًا في قضائه كما روى البخاري.

زيغُ القلوبِ

الحمدُ للهِ ذي الطَّولِ والإنعامِ،والبِرِّ والإتمامِ؛ عمّ جودُه الأنامَ، ووسِع عفوُه الآثامَ، قيُّومٌ لا ينامُ، عدلٌ لا يَضيمُ ولا يُضامُ، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له المؤمنُ السلامُ، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلى اللهُ عليه وسلمَ وعلى آلِه وصحبِه الكرامِ.

أمّا بعدُ، فاتّقوا اللهَ أيّها المؤمنون، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ... ﴾.

أيّها المسلمون!

القلبُ من عجيبِ صنعِ الخالقِ، وحسنِ إبداعِه، تلكَ المُضغَةُ التي حواها جوفُ ابنِ آدمَ؛ فكانتْ مَلِكًا لسائرِ بدنِه، يصلُحُ بصلاحِها، ويفسَدُ بفسادِها، توجهُه وتمنعُه، تخفضُه وترفعُه، تضرُّه وتنفعُه، تفرِّقُه وتجمعُه، حجمٌ صغيرٌ وأثرٌ كبيرٌ، يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: "أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ" رواه البخاريُّ ومسلمٌ. يقولُ أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: "الْقَلْبُ مَلِكٌ وَلَهُ جُنُودٌ، فَإِذَا صَلُحَ الْمَلِكُ صَلُحَتْ جُنودُهُ، وَإِذَا فَسَدَ الْمَلِكُ فَسَدَتْ جُنودُهُ"، ولذا كان محطَّ نظرِ الربِّ جلَّ وعلا والأعمالِ الناشئةِ عنه، يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: "إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُم" رواه مسلمٌ. ومن هنا وجبَ على المرءِ أن يُعنَى بصلاحِ قلبِه، وأن يتفقدَ أحوالَه؛ إذْ لا نجاةَ يومَ الدينِ إلا بالقلبِ السليمِ.

معشرَ الإخوةِ!

القلبُ كثيرُ التقلُّبِ والآفاتِ؛ فما سُمِّي قلباً إلا لكثرةِ تقلُّبِه، والآفاتُ التي تغْشاهُ شتَّى،ألَا وإنّ أخطرَ هذه الآفاتِ مرضُ الزَّيْغ الذي يعني الميلَ والانحرافَ عن الحقِّ والشكَّ فيه بعد الثَّباتِ واليقينِ. إن الزَّيْغَ داءٌ جِدُّ خطيرٍ، إذْ به يرتكسُ القلبُ، ويَحورُ بعد كورِه، وتزِلُّ الأقدامُ بعد ثبوتِها، ويُنقضُ الغزلُ من بعد القوّةِ أنكاثاً. وأشدُّ ما يكونُ الزَّيغُ خطراً إن زاغَ العالِمُ ومَن يُقتدى به؛ لكثرةِ مَن يتبعُه،مع ما قد يُلَبِّسُ به زيغَه من الحقِّ،قال زِيَادُ بْنُ حُدَيْرٍ: قَالَ لِي عُمَرُ: «هَلْ تَعْرِفُ مَا يَهْدِمُ الْإِسْلَامَ؟» قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَ: «يَهْدِمُهُ زَلَّةُ الْعَالِمِ، وَجِدَالُ الْمُنَافِقِ بِالْكِتَابِ، وَحُكْمُ الْأَئِمَّةِ الْمُضِلِّينَ». رواه الدارميُّ.

هذا، وإنّ لداءِ الزّيغِ أعراضاً وعلاماتٍ، يجملُ العلمُ بها؛ لتُجتنبَ حالَ السلامةِ، ويُعالَج القلبُ حالَ وجودِها، فمِن تلك العلاماتِ: اتِّباعُ المُتشابهِ من نصوصِ الوحيِ التي في دلالتِها اشتباهٌ وتركُ الواضحِ الذي لا اشتباهَ فيه، كما قال اللهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾، ويقولُ النبيُّ ﷺ: "فَإِذَا رأيتَ الَّذِينَ يتَّبِعُون مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ"رواه البخاريُّ، ومن علاماتِ زَيْغِ القلبِ: الشكُّ في ثوابتِ الدينِ ومُحكماتِه؛ فقد فسَّر تَرجُمانُ القرآنِ ابنُ عبَّاسٍ –رضي اللهُ عنهما– قولَ اللهِ تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ﴾ بأنَّهم أهلُ الشكِّ، ومن علاماتِ الزَّيغ: تبدُّلُ الآراءِ الشرعيّةِ بمعزلٍ عن الأدلةِ المُعتَبرةِ، يقولُ حُذَيفةُ –رضي اللهُ عنه–: "مَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَعْلَمَ أَصَابَتْهُ الْفِتْنَةُ أَمْ لَا فَلْيَنْظُرْ

فَإِنْ كَانَ يَرَى حَرَامًا مَا كَانَ يَرَاهُ حَلَالًا، أَوْ يَرَى حَلَالًا مَا كَانَ يَرَاهُ حَرَامًا، فَقَدْ أَصَابَتْهُ الْفِتْنَةُ" رواه الحاكمُ وصحّحه على شرطِ الشيخَيْنِ ووافقه الذهبيُّ.

أيّها المؤمنونَ!

زيغُ القلوبِ داءٌ مَبدؤه المرءُ، لمّا تلبسَ بأسبابِ الزّيغِ أزاغَ اللهُ قلبَه، ولا يظلمُ ربُّك أحداً، ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، ومن أهمِّ أسبابِ الزّيغِ: الانهماكُ في الدنيا ونسيانُ الآخرةِ وضَعفُ الإيمانِ بها: كما قال اللهُ —تعالى-: ﴿وَلِتَصۡغَىٰٓ إِلَيۡهِ أَفۡـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾، قال ابنُ عبَّاسٍ في تفسيرِها: ولِتزيغَ إليه قلوبُهم. ونسيانُ الآخرةِ أعظمُ سببٍ للطُّغيانِ، ألم يقلِ اللهُ عن فرعونَ وجنودِه: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ﴾. والكبرُ والإعراضُ عن الحقِّ من أسبابِ زَيغِ القلوبِ كما قال اللهُ —تعالى-: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾، ومن أسبابِ زَيغِ القلوبِ:الاسترسالُ مع وساوسِ الشيطانِ وعدمُ قطعِها، ولذا كان من علاماتِ يَقَظةِ القلبِ سرعةُ تبصُّرِه عند وقوعِ زيْغٍ فيه كما قال اللهُ —تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ(١) مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾أي: يعرفونَ أنّهم في غَيٍّ وحينئذٍ يستغفرون اللهَ تعالى. ومن أسبابِ الزيغِ مصاحبةُ الزائغينَ من المُبتدِعَةِ والمَفتونينَ والاستئناسُ بهم والدخولُ في مواقعِهم والنظرُ إلى برامجِهم وقراءةُ كتبِهم، يقولُ عمرُو بنُ

(١) أي: زيغٌ.

قيسٍ: "لا تجالسْ صاحبَ زَيغٍ فيزيغَ قلبُك"، فالقلوبُ ضعيفةٌ، والشُّبهُ خطّافةٌ، والمعصومُ مَن عصمَه اللهُ. ومن أسبابِ الزيغِ: تركُ شيءٍ من سنةِ النبيِّ ﷺ، يقولُ اللهُ تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾، يقولُ أبو بكرٍ الصديقُ رضي اللهُ عنه: "لستُ تاركا شيئا كان رسولُ اللهِ ﷺ يعملُ به إلا عملتُ به، وإنِّي لأخشى إنْ تركتُ شيئًا من أمرِه أن أَزيغَ" رواه ابنُ بطّةَ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِه وصحبِه الهداةِ.

أما بعد، فاعلموا أن أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ ...

معشرَ المؤمنينَ!

بتجنُّبِ أسبابِ المرضِ تحصلُ الوقايةُ بأمرِ اللهِ، والأدواءُ تُعالَجُ بأضدادِها، والوقايةُ خيرٌ من العلاجِ، وإن ثمةَ أموراً تقي القلبَ من داءِ الزّيغِ، وتعالجُه حالَ وقوعِه بأمرِ اللهِ. جماعُ هذه الأمورِ: الرسوخُ في العلمِ المتلقّى من الأدلةِ الشرعيةِ وأهلِه الراسخينَ الذينَ من أبرزِ صفاتِهم: ردُّ المتشابهِ من النصوصِ إلى المُحكَمِ الواضحِ، والاطِّرادُ في المنهجِ والمبادئِ التي قامتْ على أصولٍ ثابتةٍ، والخشيةُ، وذكرُ الموتِ والدارِ الآخرةِ، والتواضعُ للخَلقِ والحقِّ، والعملُ بالعلمِ، وخوفُ الزّيغِ، ولزومُ عتبةِ الدعاءِ ألا يُزيغَ اللهُ قلوبَهم؛ فكان شعارُهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾،"يا مقلبَ القلوبِ ثبتْ قلوبَنا على طاعتِك، يا مصرِّفَ القلوبِ صرِّفْ قلوبَنا إلى طاعتِك". ذاكُم — عبادَ اللهِ — داءُ زيْغِ القلوبِ، وعلائمُه، وأسبابُه، وطريقُ الوقايةِ منه وعلاجِه.

سيّدُ الاستغفارِ

إنّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مُضلّ له، ومَن يضللْ فلا هاديَ له،وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعد، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ ...﴾.

أيّها المؤمنون!

الضَّعْفُ جِبلَّةُ البشرِ، والقَدَرُ الحكيمُ الذي يدورُونَ في فلكِه، كما قال اللهُ — تعالى -: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾. وذلك شاملٌ لأوجُهِ الضعفِ كلِّها؛ ضعفِ الخِلقَةِ، والقدرةِ، والعلمِ، والهمِّ، والعزمِ؛ ليبقى العبادُ في حالٍ دائمٍ من الاضطِّرارِ والافتقارِ إلى مولاهم؛ فلا يطغَوْا أو يحيدُوا عن صراطِه المستقيمِ، وإن زلّتْ بهم قدمٌ فسريعًا ما تكونُ إلى هذا الصراطِ فَيْأتُهم. ومن رحمةِ الرحيمِ — سبحانَه — بهؤلاءِ الضَّعَفةِ، وجبرِ الجبارِ لضعفِهم أن ذلّلَ الكونَ الواسعَ الشديدَ لخلقِه الضِّعافِ، وهداهم لاستغلالِه فيما يصلحُ شأنَهم، كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وقال على لسانِ كليمِه موسى — عليه السلامُ - : ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾، وشرع لهم أسبابًا بها يستدرِكُون الزّللَ والمآثمَ التي اقترَفوها بجهلِهم وضعفِ إرادتِهم — وذلك — لَعَمْرُ اللهِ —

أخطرُ أنـواعِ الضعـفِ وأشـدُّها على الإنسـانِ -، كمـا قـال تعالـى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيـدُ أَن يَتُـوبَ عَلَيۡكُـمۡ وَيُرِيـدُ ٱلَّذِيـنَ يَتَّبِعُـونَ ٱلشَّـهَوَٰتِ أَن تَمِيلُـواْ مَيۡـلًا عَظِيمًـا ٢٧ يُرِيـدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّـفَ عَنكُـمۡۚ وَخُلِـقَ ٱلۡإِنسَـٰنُ ضَعِيفًـا﴾. هـذا، وإنّ مـن أعظـمِ تلـك الأسـبابِ الاسـتغفارَ الـذي رُتِّبَـتْ عليـه المغفـرةُ، وحُشـدتْ لـه الفضائـلُ، وتنوعـتْ فيـه الصِّيـغُ.

أيّها المسلمون!

ذُروةُ سِـنامِ الاسـتغفارِ، وأفضـلُ أنواعِـه، وسـيِّدُه المقـدَّمِ الأنجـحِ في الظَّفـرِ بالبُغْيـةِ، مـا روا ه البخاريُّ عـن شَـدَّادِ بـنِ أَوْسٍ - رَضِـيَ اللهُ عَنْـهُ - عَـنِ النَّبِـيِّ ﷺ أنـه قـال: "سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُـمَّ أَنْـتَ رَبِّـي لاَ إِلَـهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِـي وَأَنَـا عَبْدُكَ، وَأَنَـا عَلَـى عَهْـدِكَ وَوَعْـدِكَ مَـا اسْـتَطَعْتُ، أَعُـوذُ بِـكَ مِـنْ شَـرِّ مَـا صَنَعْـتُ، أَبُـوءُ لَـكَ بِنِعْمَتِـكَ عَلَـيَّ، وَأَبُـوءُ لَـكَ بِذَنْبِـي؛ فَاغْفِـرْ لِـي؛ فَإِنَّـهُ لاَ يَغْفِـرُ الذُّنُـوبَ إِلَّا أَنْـتَ". وإنَّمـا انفـردَ هـذا الاسـتغفارُ بالسيادةِ؛ لتضمُّنِـه محـضَ العبوديـةِ وآدابَهـا وجمـاعَ معـاني التوبـةِ؛ فَفِيـهِ الْإِقْـرَارُ لِلَّـهِ وَحْـدَهُ بِالْإِلَهِيَّـةِ وَالْعُبُودِيَّـةِ، وَالِاعْتِـرَافُ بِأَنَّـهُ الْخَالِـقُ، وَالْإِقْـرَارُ بِالْعَهْـدِ الَّـذِي أَخَـذَهُ عَلَيْـهِ، وَالرَّجَـاءُ بِمَـا وَعَـدَهُ بِـهِ، وَالِاسْـتِعَاذَةُ مِـنْ شَـرِّ مَـا جَنَـى الْعَبْـدُ عَلَـى نَفْسِـهِ، وَإِضَافَـةُ النَّعْمَـاءِ إِلَـى مُوجِدِهَـا، وَإِضَافَـةُ الذَّنْـبِ إِلَـى نَفْسِـهِ، وَرَغْبَتُـهُ فِـي الْمَغْفِـرَةِ، وَاعْتِرَافُـهُ بِأَنَّـهُ لَا يَقْـدِرُ أَحَـدٌ عَلَـى ذَلِـكَ إِلَّا اللهُ — سـبحانه -.

أيّها الإخوةُ في اللهِ!

لما كان مقامُ الاستغفارِ مقامَ طلبٍ من اللهِ — سبحانه — وثناءٍ عليه افتُتِح بأبلغِ أسلوبٍ جاء به القرآنُ في مثلِ هذه المناسبةِ كما قال ابنُ القيمِ — رحمه اللهُ -، إذْ كان الطلبُ بإقرارِ العبدِ بربوبيةِ اللهِ — جلّ وعلا — بقولِه: "اللهمّ أنت ربِّي"، ودعائه باسمِ الربِّ الذي يحملُ في معانيه قدرتَه وإحسانَه وتربيتَه عبدَه وإصلاحَ أمرِه؛ ولذا كان غالبُ دعاءِ الأنبياءِ مصدَّراً باسمِ الربِّ، كدعاءِ إبراهيمَ — عليه السلامُ — بقولِه: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾. والثناءُ إنما كان بالألوهيةِ: "لا إلهَ إلا أنت"، المثبتةِ انْفِرَادَ الربِّ بِالْإِلَهِيَّةِ المتضمنةِ كَمَالَ عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وما يجبُ له من الصفاتِ العُلَى والأسماءِ الحُسنَى وأنَّه المستحقُّ للعبادةِ وحدَه لا شريكَ له. ثمَّ كان اعترافُ المستغفرِ بخلقِ اللهِ له؛ فهو الذي خلقَه وأوجدَه ولم يكنْ شيئًا: "خلقتَني"؛ فهو حقيقٌ بأن يتولَّى تمامَ الإحسانِ إليه بمغفرةِ ذنوبِه، كما ابتدأ الإحسانَ إليه بخلقِه. ولزومُ العبدِ قدْرَه، وإظهارُه فقرَه بعبوديتِه عند سؤالِ ربِّه ممّا يرفعُه عند مولاهُ ويُدْني إجابةَ سُؤلِه: "وأنا عبدُك". والعبوديّةُ غايةُ إيجادِ الخَلقِ، وهي أشرفُ وصفٍ أُطلِق على عبدٍ؛ ولذا أضفاه اللهُ — سبحانه — على نبيِّه في أشرفِ الأمْكنةِ والأحوالِ فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾، وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾. ومن لازمِ العبوديّةِ للهِ الوفاءُ بعهدِه ووعدِه، ولا وفاءَ إلا بثباتِ الحياةَ كلِّها: "وأنا على عهدِك ووعدِك"، أي: مقيمٌ ثابتٌ. والوفاءُ

بعهدِ اللهِ يكونُ بامتثالِ أمرِه واجتنابِ نهيِّه، والوفاءُ بوعدِه يكونُ بالجزمِ بصدقِه وعدمِ تخلُّفِه، كاليقينِ بوعدِ اللهِ نصرَ المؤمنين وثوابَ الطائعين؛ فالعبدُ يسيرُ بين قيامِه بعهدِ اللهِ إليه وتصديقِه بوعدِه. ولمّا كان الضعفُ سمةً للمخلوقِ قَيَّد هذا الوفاءَ بالاستِطاعةِ التي هي مَناطُ التكليفِ: "ما استطعتُ"؛ أي: إنّما أقومُ بذلك بحسَبِ استِطاعتِي، لا بحسَبِ ما ينبغي لك وتستحقُّه عليَّ. وصنائعُ الشرِّ من لازمِ جهلِ الإنسانِ وظلمِه الذي لا يُسْلَمُ من ضَرِّه إلا بالاستعاذةِ باللهِ: "أعوذُ بك من شرِّ ما صنعتُ"؛ فاستِعاذتُه باللهِ التجاءٌ إليه وتحصُّنٌ به وهروبٌ إليه من المستَعَاذِ منه، كما يَتحصَّنُ الهاربُ من العدوّ بالحصنِ الذي ينجِّيه منه. واعترافُ العبدِ بنعمةِ مولاهُ عليه من أسبابِ رضاهُ عنه وتجاوُزه عن زِلّتِه سيّما إن قرنَه باعترافِه بذنبِه، "أبوءُ لك بنعمتِك عليّ": اعترافٌ بإنعامِ المُنعمِ على وجهِ الخضوعِ له والذلِّ والمحبةِ، وذلك هو أصلُ الشُّكرِ كما قال ابنُ القيمِ. وقد اقترن اعترافُ العبدِ بنعمةِ اللهِ عليه باعترافِه بتقصيرِه في حقِّه: "وأبوءُ بذنبي"؛ فمن اللهِ الإحسانُ، ومن العبدِ العصيانُ، والعارفُ يسيرُ إلى اللهِ بين مُشاهدةِ المنَّةِ ومُطالعةِ عيبِ النفسِ والعملِ. قال بعضُ أهلِ العلمِ: "ينبَغي للعبدِ أن تكونَ أنفاسُه كلُّها نفَسَيْن: نفسًا يَحمدُ فيه ربَّه، ونفسًا يستغفرُه من ذَنْبِه". لَحِقَ بكرُ بنُ عبدِاللهِ المزنِيُّ — رحمه اللهُ - حَمَّالًا عَلَيْهِ حِمْلُهُ وَهُوَ يَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ، قَالَ: فَانْتَظَرْتُهُ حَتَّى وَضَعَ مَا عَلَى ظَهْرِهِ، وَقُلْتُ لَهُ: مَا تُحْسِنُ غَيْرَ ذَا؟ قَالَ: بَلَى، أُحْسِنُ خَيْرًا كَثِيرًا: أَقْرَأُ كِتَابَ اللهِ، غَيْرَ أَنَّ الْعَبْدَ بَيْنَ نِعْمَةٍ وَذَنْبٍ؛ فَأَحْمَدُ اللهَ عَلَى نَعْمَائِهِ السَّابِغَةِ، وَأَسْتَغْفِرُهُ لِذُنُوبِي، فَقَال بكرٌ: الْحَمَّالُ أَفْقَهُ مِنْ بَكْرٍ". والإقرارُ بالنِّعمةِ والذَّنبِ طريقٌ

لتمامِ العبوديّـةِ وسـلامتِها مـن الآفـاتِ، يقـولُ شـيخُ الإسـلامِ — رحمَـه اللهُ -:
"ومتـى شَـهِدَ العبـدُ هذيْـن الأمريْـنِ اسـتقامتْ لـه العبوديَّـةُ، وتَرقَّـى في درجـاتِ المعرفـةِ والإيمـانِ، وتصاغَـرتْ إليـه نفسُـه، وتواضَـعَ لربِّـه. وهـذا هـو كمـالُ العبوديّـةِ، وبـه يَـبرأُ مـن العُجْـبِ والكِبْـرِ وزينـةِ العمـلِ".

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.

وبعدُ، فاعلموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنون!

وبعد ثناءِ العبدِ على مَولاه وتذلّله بين يديْه بإقرارِه بنعمتِه عليه مع تقصيرِه في حقِّه، يسألُه مغفرةَ كلِّ ذنوبه السالفةِ التي لا يستطيعُ مغفرتَها غيرُ الغفورِ — سبحانه -: "فاغفرْ لي؛ فإنَّه لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنت"؛ مغفرةٌ يتجاوزُ اللهُ بها عن ذنوبِ العبدِ بسترٍ ومحوِ أثرٍ، وهذه غايةُ الاستغفارِ ولُبابُ قصدِه.

عبادَ اللهِ!

وسيدُ الاستغفارِ من الأذكارِ المطلقَةِ المُستحبَّةِ التي يُستغفَر اللهُ بها في عمومِ الأوقاتِ، غيرَ أنّ استحبابَه يتأكّدُ أدبارَ الصلواتِ؛ لقولِ النبيِّ ﷺ: «سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ إِذَا انْصَرَفَ أَحَدُكُمْ مِنْ صَلَاتِهِ أَنْ يَقُولَ » وذكره. رواه البزّارُ وقال: "هَذَا الْإِسْنَادُ مِنْ أَحْسَنِ إِسْنَادٍ يُرْوَى عَنْ شَدَّادٍ وَأَشَدِّهِ اتِّصَالًا عَنْهُ". وكذلك، فإنّ من المواضعِ التي يتأكّدُ فيها استحبابُه وقتَ أذكارِ الصباحِ التي تكونُ بعد الفجرِ وأذكارِ المساءِ التي تكونُ بعد العصرِ. وجزاءُ مَن قال سيدَّ الاستغفارِ دخولُ الجنةِ إن كان موقنًا بما تضمَّنَه هذا الذكرُ يقينًا لا يعتريهِ جهلٌ ولا شكٌّ ولا ريبٌ، كما قال النبيُّ ﷺ: "سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لاَ إِلَهَ

إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي؛ فَاغْفِرْ لِي؛ فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ " قَالَ: «وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ» رواه البخاريُّ.

وبعدُ — معشرَ الإخوةِ — هذا فقهُ سيدِ الاستغفارِ الذي أمرَ النبيُّ ﷺ بتعلُّمِه؛ لعظيمِ معناهُ وجزيلِ فضلِه إذْ يقولُ: "تعلّموا سيدَ الاستغفارِ" رواه النَّسائيُّ في الكُبرى وقال البوصيريُّ: رواتُه ثقاتٌ. فاحفظُوه والزَموا الدعاءَ به، وعلِّموه صِبيانكم وذَويكُم؛ فإنّه غنيمةٌ وبركةٌ.

شُؤْمُ العقوقِ

الحمدُ للهِ البَرِّ الغفورِ، شارحِ الصدورِ، وميسِّرِ الأمورِ، قضى بالإحسانِ في أمرِه المقدورِ، وأوْجبَ الوفاءَ لكلِّ ذي منَّةٍ مشكورٍ، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ الحقُّ الشكورُ، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه ذا الخُلقِ القويمِ والوفاءِ المبرورِ، صلى اللهُ وسلم عليه وعلى آلِه وصحبِه إلى يومِ النشورِ.

أمّا بعدُ، فاتقوا اللهَ — عبادَ اللهِ –، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ... ﴾.

أيّها المؤمنونَ!

الإسلامُ دينُ الوفاءِ؛ إذْ هو شرعُ مَن لا أوفَى ذمةً منه، ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ﴾. وكلّما ازداد معروفُ المحسنِ عظُم واجبُ الوفاءِ له، وقَبُحَ تنكّرُ إحسانِه. ولا منّةَ بعد منّةِ المَولى — جلّ وعلا — تفوقُ منّةَ الوالديْنِ؛ ومن هنا فَحُشَ شؤمُ عقوقِهم، وكان العربُ في جاهليّتِهم يعدُّون العقوقَ ثُكْلَ مَن لم يُثكَلْ؛ فعقوقُ الوالديْنِ ثانِي أكبرِ الكبائرِ بعد الشركِ باللهِ؛ فقد قال النَّبِيُّ ﷺ: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟ » ثلاثًا، قَالُوا: بَلَى، يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ...» رواه البخاريُّ ومسلمٌ، يقولُ الفُضَيلُ بنُ عياضٍ — رحمَه اللهُ –: «فَوْقَ كُلِّ فُجُورٍ فُجُورٌ، حَتَّى يَعُقَّ وَالِدَيْهِ». والعقوقُ سببٌ لحلولِ سَخَطِ الجبَّارِ بصاحبِه، يقولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "رِضَاءُ اللهِ فِي رِضَاءِ الْوَالِدِ وَسَخَطُ اللهِ في سَخَطِ الوالِدِ" رواه ابنُ حِبّانَ وصحّحه. ومِن سَخَطِ اللهِ — سبحانَه — على

العاقِّ لعنُه، يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: "لَعَنَ اللهُ مَنْ عَقَّ وَالِدَيْهِ" ثلاثًا، رواه أحمدُ وصحّحه الحاكمُ ووافقه الذهبيُّ. والعاقُّ مقطوعٌ من رحمةِ اللهِ بقطيعتِه أعظمَ رحمٍ أُمِرَ بوصلِها، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِنَّ اللهَ خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهُمْ قَامَتِ الرَّحِمُ، فَقَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ مِنَ الْقَطِيعَةِ، قَالَ: نَعَمْ، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟ قَالَتْ: بَلَى، قَالَ: فَذَاكِ لَكِ" رواه البخاريُّ ومسلمٌ. وأعظمُ السّخَطِ وأفدحُ القطعيةِ الحرمانُ من دخولِ الجنةِ؛ وذلكَ وعيدٌ يُهدَّدُ به العاقُّ، يقولُ النبيُّ ﷺ: "لا يدخلُ الجنةَ عاقٌّ، ولا مُدمِنُ خمرٍ، ولا مكذّبُ بقَدَرٍ" رواه أحمدُ وحسّنه البوصيريُّ والألبانيُّ، قال يونسُ بنُ عُبيدٍ — رحمه اللهُ -: «يُرْجَى لِلْمُرَهَّقِ (الفاسدِ) بِالْبِرِّ الْجَنَّةُ، وَيُخَافُ عَلَى الْمُسْلِمِ بِالْعُقُوقِ النَّارُ». والعقوقُ — أيّها المسلمونَ — من موانعِ قَبولِ العملِ الصالحُ، جَاءَ رجلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، شهِدتُّ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّك رَسُولُ اللهِ، وَصليتُ الْخمسَ، وَأديتُ زَكَاةَ مَالِي، وَصُمتُ رَمَضَانَ؟ فَقَالَ النَّبي ﷺ: "من مَاتَ على هَذَا كَانَ مَعَ النَّبيين وَالصدِّيقينَ وَالشُّهَدَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَكَذَا وَنصبَ أصبعَيْه مَا لم يعقَّ وَالِدَيْهِ" رواه أحمدُ والطبرانيُّ بإسنادٍ صحيحٍ كما قال المنذريُّ. وعقوبةُ العقوقِ معجَّلةٌ في الدنيا، يقولُ الرسولُ ﷺ: «بَابَانِ مُعَجَّلَانِ عُقُوبَتُهُمَا فِي الدُّنْيَا: الْبَغْيُ، وَالْعُقُوقُ» رواه الحاكمُ وصحّحه ووافقه الذهبيُّ. والعقوقُ من أسبابِ سوءِ الخاتمةِ — والعياذُ باللهِ -، قال أبو إِسْحَاقَ الْفَزَارِيُّ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ الْمُبَارَكِ: "يَا أَبَا عَبْدِالرَّحْمَنِ، كَانَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِنَا جَمَعَ مِنَ الْعِلْمِ أَكْثَرَ مِمَّا جَمَعْتَ وَجَمَعْتُ، فَاحْتُضِرَ، فَشَهِدْتُهُ، فَقِيلَ لَهُ: قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَيَقُولُ: لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَهَا، ثُمَّ تَكَلَّمَ، فَيَتَكَلَّمُ. قَالَ ذَلِكَ مَرَّتَيْنِ. فَلَمْ

يَزَلْ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى مَاتَ فَسَأَلْتُ عَنْهُ، فَقِيلَ: كَانَ عَاقًّا بِوَالِدَيْهِ؛ فَظَنَنْتُ أَنَّ الَّذِي حرمَه كَلِمَةَ الْإِخْلَاصِ عُقُوقُه بِوَالِدَيْهِ". والعقوقُ أبلغُ حاملٍ للوالدِ على الدعاءِ على ولدِه؛ ودعاؤه في ذلكَ الحالِ مقطوعٌ بإجابتِه؛ كما قالَ النبيُّ ﷺ: «ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لَا شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الْوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ» رواه الترمذيُّ وحسّنه وصحّحه ابنُ حِبانَ. وتلك الدعوةُ من ذلكَ القلبِ المكلومِ من أسبابِ الهلاكِ، يقولُ الحسنُ البصريُّ — رحمَه اللهُ -: "دعاؤه عليه استئصالُه". روى ابنُ قُدامةَ في كتابِ التّوّابينَ عن الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ: "بَيْنَا أَنَا أَطُوفُ مَعَ أَبِي حَوْلَ الْبَيْتِ فِي لَيْلَةٍ ظَلْمَاءَ وَقَدْ رَقَدَتِ الْعُيُونُ وَهَدَأَتِ الأَصْوَاتُ إِذْ سَمِعَ أَبِي هَاتِفًا يَهْتِفُ بِصَوْتٍ حَزِينٍ شَجِيٍّ، وَهُوَ يَقُولُ:

يَا مَنْ يُجِيبُ دُعَا الْمُضْطَرِّ فِي الظُّلَمِ ... يَا كَاشِفَ الضُّرِّ وَالْبَلْوَى مَعَ السَّقَمِ
قَدْ نَامَ وَفْدُكَ حَوْلَ الْبَيْتِ وَانْتَبَهُوا ... وَأَنْتَ عَيْنُكَ يَا قَيُّومُ لَمْ تَنَمِ
هَبْ لِي بِجُودِكَ فَضْلَ الْعَفْوِ عَنْ جُرْمِي ... يَا مَنْ إِلَيْهِ أَشَارَ الْخَلْقُ فِي الْحَرَمِ
إِنْ كَانَ عَفْوُكَ لا يدركُه ذو سَرَفٍ ... فَمَنْ يَجُودُ عَلَى الْعَاصِينَ بِالْكَرَمِ

قَالَ: فَقَالَ أَبِي: يَا بُنَيَّ! أَمَا تَسْمَعُ صَوْتَ النَّادِبِ لِذَنْبِهِ الْمُسْتَقِيلِ لِرَبِّهِ؟ الْحَقْهُ فَلَعَلَّ أَنْ تَأْتِيَنِي بِهِ. فَخَرَجْتُ أَسْعَى حَوْلَ الْبَيْتِ أَطْلُبُهُ فَلَمْ أَجِدْهُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى الْمَقَامِ وَإِذَا هُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي، فَقُلْتُ: أَجِبِ ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَوْجَزَ فِي صَلاتِهِ وَاتَّبَعَنِي. فَأَتَيْتُ أَبِي فَقُلْتُ: هَذَا الرَّجُلُ يَا أَبَتِ. فَقَالَ لَهُ

أَبِي: مِمَّنِ الرَّجُلُ؟ قَالَ: مِنَ الْعَرَبِ، قَالَ: وَمَا اسْمُكَ؟ قَالَ: مُنَازِلُ بْنُ لاحِقٍ، قَالَ: وَمَا شَأْنُكَ وَمَا قِصَّتُكَ؟ قَالَ: وَمَا قِصَّةُ مَنْ أَسْلَمَتْهُ ذُنُوبُهُ وَأَوْبَقَتْهُ عُيُوبُهُ؛ فَهُوَ مُرْتَطِمٌ فِي بَحْرِ الْخَطَايَا. فَقَالَ لَهُ أَبِي: عَلَيَّ ذَلِكَ فَاشْرَحْ لِي خَبَرَكَ. قَالَ: كُنْتُ شَابًّا عَلَى اللَّهْوِ وَالطَّرَبِ لا أُفِيقُ عَنْهُ، وَكَانَ لِي وَالِدٌ يَعِظُنِي كَثِيرًا وَيَقُولُ: يَا بُنَيَّ! احْذَرْ هَفَوَاتِ الشَّبَابِ وَعَثَرَاتِهِ! فَإِنَّ لِلَّهِ سَطَوَاتٍ وَنَقَمَاتٍ مَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ، وَكَانَ إِذَا أَلَحَّ عَلَيَّ بِالْمَوْعِظَةِ أَلْحَحْتُ عَلَيْهِ بِالضَّرْبِ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمٌ مِنَ الأَيَّامِ أَلَحَّ عَلَيَّ بِالْمَوْعِظَةِ فَأَوْجَعْتُهُ ضَرْبًا فَحَلَفَ بِاللهِ مُجْتَهِدًا لَيَأْتِيَنَّ بَيْتَ اللهِ الْحَرَامِ فَيَتَعَلَّقُ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ وَيَدْعُو عَلَيَّ، فَخَرَجَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْبَيْتِ فَتعَلَّقَ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ، وَأَنْشَأَ يَقُولُ:

يَا مَنْ إِلَيْهِ أَتَى الْحُجَّاجُ قَدْ قَطَعُوا ... عُرْضَ الْمَهَامِهِ مِنْ قُرْبٍ وَمِنْ بُعْدِ
إِنِّي أَتَيْتُكَ يَا مَنْ لا يُخَيِّبُ مَنْ ... يَدْعُوهُ مُبْتَهِلا بِالْوَاحِدِ الصَّمَدِ
هَذَا مُنَازِلُ لا يَرْتَدُّ عَنْ عُقُقِي ... فَخُذْ بِحَقِّيَ يَا رَحْمَانُ مِنْ وَلَدِي
وشِلَّ مِنْهُ بِحَوْلٍ مِنْكَ جَانِبَهُ ... يَا مَنْ تَقَدَّسَ لَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَلِدِ

قَالَ: فَوَاللهِ، مَا اسْتَتَمَّ كَلامَهُ حَتَّى نَزَلَ بِي مَا تَرَى، ثُمَّ كَشَفَ عَنْ شِقِّهِ الأَيْمَنِ فَإِذَا هُوَ يَابِسٌ. قَالَ: فَأُبْتُ وَرَجَعْتُ وَلَمْ أَزَلْ أَتَرَضَّاهُ وَأَخْضَعُ لَهُ وَأَسْأَلُهُ الْعَفْوَ عَنِّي إِلَى أَنْ أَجَابَنِي أَنْ يَدْعُوَ لِي فِي الْمَكَانِ الَّذِي دَعَا عَلَيَّ. قَالَ: فَحَمَلْتُهُ عَلَى نَاقَةٍ عُشَرَاءَ وَخَرَجْتُ أَقْفُو أَثَرَهُ حَتَّى إِذَا صِرْنَا بِوَادِي الأَرَاكِ طَارَ طَائِرٌ مِنْ شَجَرَةٍ فَنَفَرَتِ النَّاقَةُ فَرَمَتْ بِهِ بَيْنَ أَحْجَارٍ فَرَضَخَتْ رأسه فمات فدفنته

هُنَاكَ وَأَقْبَلْتُ آيِسًا وَأَعْظَمُ مَا بِي مَا أَلْقَاهُ مِنَ التَّعْيِيرِ أَنِّي لا أُعْرَفُ إلا بِالْمَأْخُوذِ بِعُقُوقِ وَالِدَيْهِ. قَالَ الْحَسَنُ: وَكَانَ أَبِي يَقُولُ لَنَا: احْذَرُوا دُعَاءَ الْوَالِدَيْنِ! فَإِنَّ فِي دُعَائِهِمَا النَّمَاءَ وَالانْجِبَارَ وَالاسْتِئْصَالَ وَالْبَوَارَ.

والعقوقُ — يا عبادَ اللهِ — محرّمٌ مع كلِّ والدٍ وإن كانَ مُشركًا يجهدُ في حملِ ولدِه على الشركِ أو كان مقصِّراً في حقِّ ولدِه، كما قال اللهُ — تعالى -: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَاۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًاۖ﴾. قَالَ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ لِابْنِهِ: "إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ رَضِيَنِي لَكَ فَحَذَّرَنِي فِتْنَتَكَ، وَلَمْ يَرْضَكَ لِي فَأَوْصَاكَ بِي. يَا بُنَيَّ، خَيْرُ الْآبَاءِ مَنْ لَمْ تَدْعُهُ الْمَوَدَّةُ إِلَى الْإِفْرَاطِ، وَخَيْرُ الْأَبْنَاءِ مَنْ لَمْ يَدْعُهُ التَّقْصِيرُ إِلَى الْعُقُوقِ". والعقوقُ خَصلةُ لؤمٍ يجمُل بها تركُ صحبةِ أهلِها، قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: لَا تُصَادِقْ عَاقًّا؛ فَإِنَّهُ لَنْ يَبَرَّكَ وَقَدْ عَقَّ مَنْ هُوَ أَوْجَبُ حَقًّا مِنْكَ عَلَيْه.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.

وبعدُ، فاعلموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنون!

وعقوقُ الوالديْنِ يصدقُ على كلِّ سوءِ أدبٍ معهما في فعلٍ أوقولٍ، أو مُخالفةٍ لأمرِهما المُباحِ الذي لا يشقُّ ولا يضرُّ، سواءٌ كان ذلكَ بمُباشرةِ الولدِ للعقوقِ أو تَسبُّبِه فيه، كما لو سبَّ والدَيْ غيرِه فسبَّ والدَيْه، فقد قال النبيُّ ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟! قَالَ: «يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ» رواه البخاريُّ ومسلمٌ. وأقلُّ درجاتِ العقوقِ التأفُّفُ الواردُ في قولِ اللهِ — تعالى -: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾، قال بعضُ العلماءِ: «لَوْ عَلِمَ اللهُ شَيْئًا مِنَ الْعُقُوقِ أَدْنَى مِنْ "أُفٍّ" لَنَهَى عَنْ ذَلِكَ»؛ وتلكَ الدرجةُ جعلتْ أهلَ العلمِ يدْرِجون في شؤمِ العقوقِ تحديقَ البصرِ إلى الوالديْنِ ورفعَ الصوتِ عليهما وتقدُّمَ المشيِّ بينهما ومناداتَهما بالاسمِ المجرَّدِ والوصفِ الذي لا ينِمُّ عن تقديرٍ وذكرَ المعروفِ إليهما، فكيف بالتكبُّرِ والإهانةِ والهُجرانِ والاعتداءِ والحرمانِ؟! ومِن أعْلى دركاتِ العقوقِ خطراً ما دفع الوالدَ السويَّ على بثِّ شكواه لموْلاه — جلّ وعلا - من عقوقِ ولدِه، سيّما إن حملَه ذلكَ على البكاءِ كمَداً، قَالَ كَعْبُ الأحبارِ — رحمَه اللهُ -: "أَجِدُ فِي كِتَابِ اللهِ أَنَّهُ إِذَا دَعَاهُ فَلَمْ يُجِبْهُ فَقَدْ عَقَّهُ،

وَإِذَا أَلْجَأَهُ إِلَى أَنْ يَدْعُوَ عَلَيْهِ وَيَبْكِيَ إِلَى اللهِ مِنْهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ فَقَدْ عَقَّهُ كُلَّ الْعُقُوقِ"، وسُئِلَ عُبيدُ بنُ جُريجٍ — رحمَه اللهُ -: مَا الْعُقُوقُ فِيمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى مُوسَى؟ قَالَ: «إِذَا أَمَرَ الْوَالِدُ وَلَدَهُ بِشَيْءٍ فَلَمْ يُطِعْهُ فَقَدْ عَاقَّهُ، وَإِذَا الْوَالِدُ اشْتَكَى إِلَى اللهِ مَا يَلْقَى مِنْ وَلَدِهِ فَقَدْ عَاقَّهُ الْعُقُوقَ كُلَّهُ». ويزدادُ قبحُ العقوقِ سوءاً إن صدرَ من وَلدٍ له وَلدٌ، تقولُ العربُ الجاهليةُ في أمثلتِها: "كيف يَعَقُّ والداً من قد وَلَدَ؟!". والعقوقُ يمكنُ السلامةُ من شؤمِه إن وقعَ، وذلك بحكمةِ الوالدِ ورحمتِه، كما قال بعضُ العلماءِ: «رَحِمَ اللهُ وَالِدًا أَعَانَ وَلَدَهُ عَلَى بِرِّهِ»، قَالُوا: كَيْفَ؟ قَالَ: «يَقْبَلُ إِحْسَانَهُ، وَيَتَجَاوَزُ عَنْ إِسَاءَتِهِ». قال ابنُ سعديٍّ: "فعلى الوالدين أن يعينوا أولادَهم على برِّهم؛ بأنْ يوطِّنوا أنفسَهم على شكرِ ما جاء منهم من البرِّ اليسيرِ، ويغضوا النظرَ عن التقصيرِ والتفريطِ الكثيرِ؛ فما اسْتُجْلِبَ البرُّ والصلاحُ بمثل هذه الحالِ، ولا صفتْ حياةٌ عن الخللِ الواقعِ من أولادِهم والإخلالِ إلا بالتساهلِ معهم وتمشيةِ الأحوالِ. وعلى الأولاد أن يتحمّلوا من والديهم ما قصروا به من حقوقِهم، وأن يحتسبوا ببرِّهم وجهَ اللهِ وثوابَه؛ ليهون عليهم ما يلقونه من شراسةِ أخلاقِهم، فهذه الطريقةُ أقومُ الحالاتِ لصالحِ الأمورِ، فمن لم يقنعْ إلا بحقِّه كلِّه؛ فاتَه كلُّه، ومن اكتسبَ البرَّ القليلَ، وغضَّ النظرَ عن النقصِ الكثيرِ؛ فقد أراحَ واستراحَ، واغتبطَ في كلِّ أحوالِه". أمّا علاجُ العقوقِ الناجعُ من قِبَلِ العاقِّ فالتوبةُ والإحسانُ إلى الوالديْنِ أحياءً وأمواتاً، يقولُ الأوزاعيُّ — رحمَهُ اللهُ -: "بَلَغَنِي: أَنَّه مَنْ عَقَّ وَالِدَيْهِ فِي حَيَاتِهِمَا، ثُمَّ قَضَى دَيْنًا إِنْ كَانَ عَلَيْهِمَا، وَاسْتَغْفَرَ لَهُمَا، وَلَمْ يَسْتَسِبَّ لَهُمَا كُتِبَ بَارًّا".

كـــم جـــرَّ بـــرُّ الوالدَيـــ ن فوائـــداً للمـــرء جمَّهْ
منهـــا رضـــا اللهِ الـــذي يكفِي الفتى ما قد أهمَّهْ
وأخـــو العقـــوقِ كميّتٍ قد صار في الأحياءِ رُمهْ
والكلبُ أحســنُ حالةً منهُ وأحفظُ منهُ ذمَّـــــهْ

طريقُ التوفيقِ

الحمدُ للهِ الوليِّ الحميدِ، ذي العرشِ المجيدِ، والأمرِ الرشيدِ. وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ العليُّ الشهيدُ، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلّى اللهُ عليه وعلى آلِه وصحبِه وسلمَ التسليمَ المزيدَ.

أمّا بعدُ، فاتّقوا اللهَ – عبادَ اللهِ –، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ...﴾.

أيّها المؤمنون!

التوفيقُ نِشدةُ الحصيفِ وغايةُ طلبِه؛ حين تُسدَّدُ خُطاهُ، ويُهدى إلى سبيلٍ قويمٍ يصيبُ القصدَ بأقربِ طريقٍ وأيسرِه. ولمّا كان التوفيقُ محضَ منّةٍ من اللهِ؛ صار طلبُه ورجاءُ حصولِه مقصوراً عليه – سبحانَه –، كما قال نبيُّ اللهِ شعيبٌ – عليه السلامُ –: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾. وسبيلُ اللهِ في التوفيقِ بلجاءُ قويمةٌ مضمونةُ النتائجِ، يُبينُها قولُ اللهِ – تعالى –: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾. ذلكُم السبيلُ هو الصدقُ؛ طريقُ التوفيقِ الإلهيِّ والتسديدِ الربانيِّ والعونِ الرحمانيِّ؛ فليس للعبدِ شيءٌ أنفعُ من صدقِ ربِّه في جميعِ أمورِه؛ إذْ متى ما سلكَ جادَّتَه؛ أفضَتْ به إلى فياضِ الخيرِ، وانتهتْ به إلى جناتِ الخلودِ. قال رسولُ اللهِ ﷺ: «إنّ الصدقَ يهْدِي إلى البرِّ، وإنّ البرَّ يهْدي إلى الجنةِ» رواه البخاريُّ ومسلمٌ. قال ابنُ القيمِ: "ليس للعبدِ شيءٌ أنفعُ من صدقِه ربَّه في جميعِ أمورِه مع صدقِ العزيمةِ؛فيصدقُه في عزمِه وفي فعلِه.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾. فسعادتُه في صدقِ العزيمةِ وصدقِ الفعلِ؛ فصدقُ العزيمةِ جمعُها وجزمُها وعدمُ الترددِ فيها، بل تكونُ عزيمةً لا يشوبُها ترددٌ ولا تلوُّمٌ. فإذا صدقتْ عزيمتُه بقيَ عليه صدقُ الفعلِ، وهو استفراغُ الوُسعِ وبذلُ الجهدِ فيه، وأن لا يتخلفَ عنه بشيءٍ من ظاهرِه وباطنِه. فعزيمةُ القصدِ تمنعُه من ضعفِ الإرادةِ والهمّةِ، وصدقُ الفعلِ يمنعُه من الكسلِ والفُتورِ. ومَن صدقَ اللهَ في جميعِ أمورِه صنعَ اللهُ له فوقَ ما يصنعُ لغيرِه. وهذا الصدقُ معنىً يلتئمُ من صحةِ الإخلاصِ وصدقِ التوكلِ؛ فأصدقُ الناسِ مَن صحَّ إخلاصُهُ".

عبادَ اللهِ!

إنّ توفيقَ الصادقينَ هدايةٌ من اللهِ لهم، ورحمةٌ منه بهم، وفضلٌ منهُ عليهم؛ يُنْبيكَ عن هذا وشيُ أخبارِهم. فمِن غُرَرِ أولئك الأبرارِ النَّفرُ الثلاثةُ الذينَ قصَّ النبيُّ ﷺ نبأَ احتجازِ صخرةِ الغارِ لهم، فقالوا — كما روى البخاريُّ في صحيحِه -: "إنَّه - يا هؤلاءِ — لا ينجِّيكُم إلا الصدقُ؛ فلْيدعُ كلُّ رجلٍ منكم بما يعلمُ أنّه قد صدق فيه! "؛ فدعا أحدُهم ببرِّه والديْه، والآخرُ بعفَّتِه عن الحرامِ بعد قدرتِه وشغَفِه، والثالثُ بأمانته وتيسُّرِ كتمانِه الحقَّ وإغرائِه؛ فكان جزاءُ صدقِهم فرجَ اللهِ لهم بانفلاقِ الصخرةِ! وذكرَ رسولُ اللهِ ﷺ: "رجلاً من بني إسرائيلَ، سأل بعضَ بني إسرائيلَ أن يسلِّفَه ألفَ دينارٍ، فقال: ائْتِني بالشُّهداءِ أُشهِدُهم، فقال: كفى باللهِ شهيدا، قال: فأْتِني بالكفيلِ، قال: كفى باللهِ كفيلا، قال: صدقتَ، فدفعَها إليه إلى أجلٍ مسمَّى، فخرجَ في البحرِ فقضى حاجتَه، ثم

التمسَ مَركبا يركبُها يقدُمُ عليهِ للأجَلِ الذي أجَّله، فلم يجدْ مَركبا، فأخذ خشَبةً فنقرَها، فأدخلَ فيها ألفَ دينارٍ وصحيفةً منه إلى صاحبِه، ثم زجَّجَ موضعَها، ثم أتى بها إلى البحرِ، فقال: اللهمَّ إنَّك تعلمُ أنِّي كنتُ تسلَّفتُ فلانا ألفَ دينارٍ، فسألَني كفيلا، فقلتُ: كفى باللهِ كفيلا، فرضيَ بكَ، وسألَني شهيدا، فقلتُ: كفى باللهِ شهيدا، فرضيَ بك، وأنِّي جَهدتُّ أن أجدَ مَركبا أبعثُ إليه الذي له فلم أقدرْ، وإني أستَودعَكَها، فرمى بها في البحرِ حتى وَلجَتْ فيه، ثم انصرفَ وهو في ذلكَ يلتمسُ مَركبا يخرجُ إلى بلدِه، فخرجَ الرجلُ الذي كان أسلفَه، ينظرُ لعل مَركبا قد جاء بمالِه، فإذا بالخشَبةِ التي فيها المالُ، فأخذَها لأهلِه حطبا، فلمّا نشرَها وجد المالَ والصحيفةَ، ثم قدِم الذي كان أسلفَه، فأتى بالألفِ دينارٍ، فقال: واللهِ ما زلتُ جاهدا في طلبِ مَركبٍ لآتيَك بمالِك، فما وجدتُ مَركبا قبل الذي أتيتُ فيه، قال: هل كنتَ بعثتَ إليَّ بشيءٍ؟ قال: أخبرُك أنِّي لم أجدْ مَركبا قبل الذي جئتُ فيه، قال: فإنّ اللهَ قد أدَّى عنك الذي بعثتَ في الخشبةِ، فانصرفْ بالألفِ الدينارِ راشدا" رواه البخاريُّ. وروى شدّادُ بنُ الهادِ — رضيَ اللهُ عنه - أنّ رجلا من الأعرابِ جاء إلى النبيِّ ﷺ فآمنَ به واتّبعه، ثم قال: أهاجرُ معك، فأوصى به النبيُّ ﷺ بعضَ أصحابِه، فلما كانتْ غزوةٌ غنمَ النبيُّ ﷺ سَبْيا، فقسَّم وقسَمَ له، فأعطى أصحابَه ما قسَم له، وكان يرعَى ظهرَهم، فلمّا جاء دفَعُوه إليه، فقال: ما هذا؟ قالوا: قَسْمٌ قسمَه لك النبيُّ ﷺ، فأخذَه فجاء به إلى النبيِّ ﷺ، فقال: ما هذا؟ قال:قسمتُه لك»، قال: ما على هذا اتَّبعتُك، ولكنّي اتّبعتُك على أن أُرمَى إلى هاهُنا، وأشار إلى حلقِه بسهْمٍ، فأموتَ فأدخلَ الجنةَ فقال: «إن تصدقِ اللهَ يصدُقْك»، فلَبِثوا قليلا

ثم نهَضوا في قتالِ العدوِّ، فأُتِيَ به النبيَّ ﷺ يُحمَلُ قد أصابَه سهمٌ حيثُ أشار، فقال النبيُّ ﷺ: «أهوَ هوَ؟!» قالوا: نعم، قال: «صدَقَ اللهَ فصدَقَه»، ثم كفَّنه النبيُّ ﷺ في جُبَّةِ النبيِّ ﷺ، ثم قدَّمه فصلَّى عليه، فكان فيما ظهر من صلاتِه: «اللهمّ هذا عبدُك خرج مهاجرا في سبيلِك، فقُتل شهيداً؛ أنا شهيدٌ على ذلك» رواه النَّسائيُّ وصحَّحه الألبانيُّ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
وبعدُ، اعلمُوا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنون!

إنّه لا وصولَ للتوفيقِ إلا بذَلُولِ الصّدقِ. وإنّ الصّادقَ لن يعدمَ من التوفيقِ إحدى حسْنَيَيْه؛ ظفْرٍ بما أرادَه من الخيرِ، أو حصولِ ثوابِ ذاكَ الخيرِ كمَن حقّقه وظفَرَ به. ذاكَ فضلُ اللهِ! ومَن ذا الذي يحيطُ فضلَه؟! يقولُ النبيُّ ﷺ: «من سأل اللهَ الشهادةَ بصدقٍ، بلّغَه اللهُ منازلَ الشهداءِ، وإن ماتَ على فراشِه» رواه مسلمٌ. وعن أنسِ بنِ مالكٍ - رضيَ اللهُ عنه -، أن رسولَ اللهِ ﷺ رجع من غزوةِ تَبوكٍ فدَنا من المدينةِ، فقال: «إنّ بالمدينةِ أقواما، ما سِرتُم مَسيرا، ولا قطعتُم واديا إلا كانوا معكم»، قالوا: يا رسولَ اللهِ، وهمْ بالمدينةِ؟! قال: «وهمْ بالمدينةِ؛ حبَسَهم العذرُ» رواه البخاريُّ. وحين ذكر النبيُّ ﷺ أصنافَ الناسِ في الدّنيا ذكر منهم: "وعبدٍ رزقَه اللهُ علما، ولم يرزقْه مالا؛ فهو صادقُ النيّةِ يقولُ: لو أنّ لي مالا لعملتُ بعملِ فُلانٍ؛ فهو بنيَّته؛ فأجرُهما سواء" رواه الترمذيُّ وقال: حسنٌ صحيحٌ.

ذاكُم — معشرَ المؤمنينَ — طريقُ التوفيقِ؛ فاصدُقوا ربّكم في طلبِ هدايتِه، وصلاحِ ذريّاتِكم، ونشرِ دينِكم، وعزِّ أمّتِكم، ودحرِ أعدائكم؛ تروْا من ربِّكم خيراً ممّا ظننتُم وقدّمتُم! أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

عبرةُ انصرامِ عامٍ

الحمدُ للهِ ذي الجَلالِ والإكرامِ، والطَّوْلِ والإنعامِ. قضى على الدّنيا بالانصرامِ، وتفرَّدَ بالبقاءِ والدوامِ. وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ الملكُ السّلامِ، وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه صفوةَ الأنامِ، صلى اللهُ وسلمَ عليه وعلى آلِه وصحبِه الكرامِ.

أمّا بعدُ، فاتّقوا اللهَ — عبادَ اللهِ –، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ...﴾.

أيّها المؤمنون!

سنَّةُ اللهِ في الدّنيا ألا يعلوَ شيءٌ إلا وُضِعَ، ولا يطولَ إلا قُطعَ؛ كيلا يركنَ الأنامُ إلى سرابِ الدّنيا ويطْمئنُّوا بها، مع أنَّ لها في كلِّ حينٍ نذيراً؛ تتفصّى عُرى يومِها مع أُفولِ كلّ شمسٍ، وينقضِي أمَدُها بمُواراةِ كلِّ رَمْسٍ. ساعاتٌ بها الأيامُ تُقطَعُ، وأيامٌ تمضِي بها السنونَ، وسنونَ يُختمُ بها العمرُ. وها نحنُ اليومَ نقفُ على حافَّةِ الختامِ لعامٍ مضى، ونستقبلُ في الغدِ غُرّةَ عامٍ جديدٍ.

ولئنْ كان لتصرُّمِ الأعوامِ ميزانٌ لدى تجّارِ الدّنيا؛ تُجْردُ فيه الأرباحُ والخسائرُ مع فناءِ الدّنيا وقلّةِ متاعِها؛ فإنّ لها ميزانـاً عند تجّارِ الآخرةِ؛ تُوقفُ النفسُ فيه على محكِّ المحاسبةِ، والنَّظرِ لما قدمتْ لغدٍ، واستدراكِ الفائتِ من العمرِ، والتأمُّلِ في عِبَرِ الأيامِ. فالأيامُ عِبَرٌ للمُدَّكرينَ، وعِظاتٌ للمعتَبرينَ، ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾. وممّا حوتْه الأيامُ من

عِبَرٍ — وما أجلَّ عبرَها! — تُقلَّبُ الأحوالُ؛ عزيزٌ يُذلُّ ويُعَزُّ ذليلٌ، غنيٌّ يَفتقرُ ويغتنِي فقيرٌ، صحيحٌ يَمرضُ ويَصحُّ مريضٌ، أمْنٌ يَعقبُ خوفًا وخوفٌ يَعقبُ أمنًا، صغيرٌ يكبرُ، ويضعفُ قويٌّ، يُبادُ مُلكٌ ومُلكٌ يُشادُ، ظالمٌ يُسلّطُ وجبّار يُقصَمُ، ضالٌّ يُهدى ويَضلُّ مهتدٍ، دارٌ تُهنّأ بمولودٍ وأخرى تُعزَّى بمفقودٍ، شتاءٌ ثم صيفٌ، عسرٌ ثم يُسرٌ. أحوالٌ مختلفةٌ دالّةٌ على حكمةٍ إلهيّةٍ بالغةٍ وقدرةٍ ربانيّةٍ غالبةٌ، تتلاشى إزاءَها كلُّ قُوى الأرضِ قاطبةً، وتَحارُ العقولُ في الإحاطةِ بأسرارِها. وذاكَ ما يجعلُ المؤمنَ شديدَ الوُثوقِ بربِّه؛ راكنًا إلى قوّتِه، راضيًا بحُكمِه، لا تتملَّكُه الأوهامُ، ولا تُزعْزعُه المخاوفُ، ولا تُزعجُه الأراجيفُ، ولا يُقعدُه اليأسُ. له مع كلِّ كُربةٍ فألٌ. وحسنُ ظنِّه بمولاه يُدني فَرَجَه مع كلِّ ضائقةٍ. وتوكُّلُه على ربِّه ذَلُولُه الذي لا يكْبو في مَهَامِهِ البلاءِ وسوابلِ الأرزاقِ. يقودُه تقلُّبُ حالِ الدُّنيا إلى عدمِ الاطمئنانِ بها وقصْرِ النّظرِ عليها والمخاصمةِ لأجلِها وإن حاز القناطرَ؛ إذْ ليستْ له وطنًا، ولا يُعرفُ لها ثباتٌ. قيلَ لعليّ بنِ أبي طالبٍ — رضي اللهُ عنه —: صفْ لنا الدنيا، قال: وما أصفُ لكم من دارٍ! مَن صحَّ فيها سَقمَ، ومَن سَقمَ فيها ندمَ، ومَن افتقرَ فيها حزنَ، ومن استغْنى فيها فُتنَ، في حلالِها الحسابُ، وفي حرامِها النارُ.

أيّها المسلمونَ!

ومِن عبرِ صَرْمِ الأيامِ تجليةُ قِصرِ الدُّنيا بأفراحِها وأتراحِها، يقولُ اللهُ — تعالى —: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ١١٣ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ

تَعْلَمُـونَ﴾. ومـاذا كان وصفُ أنعمِ أهلِها لنعيمِها ووصفُ أبأسِـهم لبُؤسِـها؟! يقولُ الرسولُ ﷺ: "يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ. وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ" رواه مسلمٌ. ومع أنّ الدنيا قصيرةٌ إلا أنّها مُزدَرعُ الآخرةِ ووعاءُ عملِها؛ وذاكَ ما جعل ساعتَها رأسَ مالِها؛ فضَنّ بها الأكياسُ أن تضيعَ في غيرِ نفعٍ. يقولُ حمّادُ بنُ سلمةَ: " ما أتينا سليمانَ التيميَّ في ساعةٍ يُطاعُ اللهُ فيها إلا وجدناه مطيعـًا: إنْ كان في ساعةِ صلاةٍ وجدناه مُصلّيـًا، وإن لم تكنْ ساعةَ صلاةٍ وجدناه إمّا متوضِّئـًا، أو عائداً مريضـًا، أو مشيّعـًا لجنازةٍ، أو قاعداً في المسجدِ؛ فكنّا نُرى أنه لا يُحسنُ أن يعصيَ اللهَ — عزّ وجلّ —". ويحلّلُ عارفٌ عُمْرَ ابنِ الستينَ عامـًا قائلاً: " ومن الغبنِ العظيمِ أن يعيشَ الرجلُ ستينَ سنةً ينامُ ليلَها فيذهبُ النصفُ من عمرِه لغواً، وينامُ سُدُسَ النهارِ راحةً فيذهبُ ثلثاه، ويبقى له من العمرِ عشرونَ سنةً. ومن الجهالةِ والسّفاهَةِ أن يُتلِفَ الرجلُ ثُلُثَيْ عمرِه في لذةٍ فانيةٍ، ولا يُتلفُ عمرَه بسهرٍ في لذةٍ باقيةٍ عند الغنيِّ الوفيِّ الذي ليس بعديمٍ ولا ظَلومٍ.

عبادَ اللهِ!

إنّ طولَ العمرِ لا يزيدُ المؤمنَ إلا خيراً، يقولُ سعيدُ بنُ جبيرٍ: "إن بقاءَ

المؤمـنِ كلَّ يـوم غنيمـةٌ لأداءِ الفرائـضِ والصلـواتِ ومـا يرزقُـه اللهُ مـن ذكـرِه". سئل النبيُّ ﷺ: أيُّ المؤمـنِ خيـرٌ؟ قـال: "مَـن طـال عمـرُه، وحسُـنَ عملُـه"، قيـلَ: فـأيُّ النـاسِ شرٌّ؟ قـال: "مَـن طـال عمـرُه، وسـاء عملُـه" رواه الترمـذيُّ وقـال: حسـنٌ صحيـحٌ. ولـذا كان السـلفُ الصالـحُ يتأسّفون عند موتِهـم علـى انقطـاعِ الأعمـالِ عنهـم بالمـوتِ، فقـد بكـى معـاذٌ — رضـي اللهُ عنـه — عنـد موتِـه وأبـدى سـببَ بكائِـه قائـلاً: "إنّما أبكي على ظمأِ الهواجرِ، وقيامِ ليلِ الشتاءِ، ومُزاحمـةِ العلمـاءِ بالرُّكَـبِ". وحيـنَ سـئلَ يزيـدُ الرقاشـيُّ عـن سـببِ بكائِـه عنـد موتِـه قـال: "أبكـي علـى مـا يفوتُني مـن قيـامِ الليـلِ وصيـامِ النهـارِ"، ثـم بكـى وقـال: "مَـن يصلِّـي لـك يـا يزيـدُ؟! ومَـن يصـومُ؟! ومَـن يتقـربُ لـك بالأعمـالِ الصالحـةِ؟! ومَـن يتـوبُ لـك مـن الذنـوبِ السـالفةِ؟! مَـن ذا الـذي يُرضـي ربَّـك بعـد المـوتِ؟! "ثـم يقـولُ: "أيّهـا النـاسُ! ألا تبكـونَ علـى أنفسِـكم باقـيَ حياتِـكم؟! يـا مَـنِ المـوتُ موعـدُه! والقـبرُ بيتُـه! والثّـرى فراشُـه! والـدودُ أنيسُـه! وهـو مـع هـذا ينتظـرُ الفـزعَ الأكـبرَ، كيـف تكـونُ حالُـه؟!".

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
وبعدُ، فاعلمُوا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنون!

إنّ الأيامَ تُدْني الآخرةَ؛ فالأجلُ مغيّبٌ يقرّبُه صرمُ الليالي، قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: "مَنْ كَانَتِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامُ مَطَايَاهُ، سَارَتْ بِهِ وَإِنْ لَمْ يَسِرْ".

وَمَا هَذِهِ الْأَيَّامُ إِلَّا مَرَاحِلُ ... يَحُثُّ بِهَا دَاعٍ إِلَى الْمَوْتِ قَاصِدُ
وَأَعْجَبُ شَيْءٍ - لَوْ تَأَمَّلْتَ - أَنَّهَا ... مَنَازِلُ تُطْوَى وَالْمُسَافِرُ قَاعِدُ

وَقَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ لِرَجُلٍ: كَمْ أَتَتْ عَلَيْكَ؟ قَالَ: سِتُّونَ سَنَةً، قَالَ: فَأَنْتَ مُنْذُ سِتِّينَ سَنَةً تَسِيرُ إِلَى رَبِّكَ يُوشِكُ أَنْ تَبْلُغَ، فَقَالَ الرَّجُلُ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، فَقَالَ الْفُضَيْلُ: أَتَعْرِفُ تَفْسِيرَهُ؟ تَقُولُ: أَنَا لِلَّهِ عَبْدٌ وَإِلَيْهِ رَاجِعٌ، فَمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ لِلَّهِ عَبْدٌ، وَأَنَّهُ إِلَيْهِ رَاجِعٌ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ، وَمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مَسْئُولٌ، وَمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ مَسْئُولٌ، فَلْيُعِدَّ لِلسُّؤَالِ جَوابًا، فَقَالَ الرَّجُلُ: فَمَا الْحِيلَةُ؟ قَالَ يَسِيرَةٌ، قَالَ: مَا هِيَ؟ قَالَ: تُحْسِنُ فِيمَا بَقِيَ يُغْفَرُ لَكَ مَا مَضَى، فَإِنَّكَ إِنْ أَسَأْتَ فِيمَا بَقِيَ، أُخِذْتَ بِمَا مَضَى وَبِمَا بَقِيَ. وَقَالَ دَاوُدُ الطَّائِيُّ: إِنَّمَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ مَرَاحِلُ يَنْزِلُهَا النَّاسُ مَرْحَلَةً مَرْحَلَةً حَتَّى يَنْتَهِيَ ذَلِكَ

بِهِمْ إِلَى آخِرِ سَفَرِهِمْ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تُقَدِّمَ فِي كُلِّ مَرْحَلَةٍ زَادًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا، فَافْعَلْ، فَإِنَّ انْقِطَاعَ السَّفَرِ عَنْ قَرِيبٍ، وَالْأَمْرُ أَعْجَلُ مِنْ ذَلِكَ، فَتَزَوَّدْ لِسَفَرِكَ، وَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ مِنْ أَمْرِكَ، فَكَأَنَّكَ بِالْأَمْرِ قَدْ بَغَتَكَ. وقَالَ الْحَسَنُ: لَمْ يَزَلِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ سَرِيعَيْنِ فِي نَقْصِ الْأَعْمَارِ، وَتَقْرِيبِ الْآجَالِ، هَيْهَاتَ قَدْ صَحِبَا نُوحًا وَعَادًا وَثَمُودًا وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا، فَأَصْبَحُوا أَقْدَمُوا عَلَى رَبِّهِمْ، وَوَرَدُوا عَلَى أَعْمَالِهِمْ، وَأَصْبَحَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ غَضَّيْنِ جَدِيدَيْنِ، لَمْ يُبْلِهِمَا مَا مَرَّا بِهِ، مُسْتَعِدَّيْنِ لِمَنْ بَقِيَ بِمِثْلِ مَا أَصَابَا بِهِ مَنْ مَضَى.

إِنَّا لَنَفْرَحُ بِالْأَيَّامِ نَقْطَعُهَا ... وَكُلُّ يَوْمٍ مَضَى يُدْنِي مِنَ الْأَجَلِ

فَاعْمَلْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ الْمَوْتِ مُجْتَهِدًا ... فَإِنَّمَا الرِّبْحُ وَالْخُسْرَانُ فِي الْعَمَلِ

عُدَّةُ الشَّدائِدِ

الحمدُ للهِ الذي جعلَ مع كلِّ عُسرٍ يُسراً، وقرن مع كلِّ صبرٍ نصراً، مَلَك قهراً، وقدّرَ أمْراً، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ سراً وجهراً، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه أشرفَ البريَّةِ قدراً وأرفعَهم ذكراً، صلى اللهُ وسلمَ عليه وعلى آلِه وصحبِه طرّا.

أمّا بعد، أيّها المؤمنون!

أوصِيكُم ونفسِي بما وصّى اللهُ به الأوّلينَ والآخرينَ ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾.

معشرَ المؤمنينَ!

لا تخْلو الحياةُ من كدَرٍ، ولا تصْفو من بلاءٍ، يتجاذبُها الفرَحُ والتَّرحُ، والإقبالُ والإدبارُ، تحلو مرّةً، ومرّةً تجْفو، لا تدومُ على حالٍ، ولا تستقيمُ على طريقةٍ. وإنَّ أشدَّ مرارتِها بُؤساً وأبشعَ شرابِها كأساً حالُ المُصابِ والأسى ممّا لا يملكُ المرءُ معه دَفعاً ولا رَفعاً؛ ذلك الحالُ الذي فيه يتملَّكُ الحزنُ النفوسَ، ويجثِمُ عليها اليأسُ،وتشعرُ بالعجزِ؛ فتسوَدُّ النظرةُ، وتخورُ العزيمةُ،وتعْشو البصائرُ عن تبصُّرِ مِنَح المِحَنِ، وتضلُّ عن سبُلِ النَّجاةِ والسُلوانِ إلا إنْ تمسّكتْ بخَصلةٍ هي أشدُّ ما تكونُ محتاجةً إليها. خَصلةٍ تشبّثَ بها الأنبياءُ والمؤمنون الصادقون وقتَ الشدائدِ وادلِهامِّ الخطُوبِ فقادتْهم إلى

النظرةِ الإيجابيّةِ والتفاؤلِ وانتظارِ الفَرَجِ وحُسنِ التدبيرِ وتبدُّلِ الحالِ، خَصلةٍ لها في ميزانِ الشرعِ القدْرُ المُجلّى والقدَحُ المُعلّى؛ تلكُم الخَصلةُ هي حسنُ الظنِّ باللهِ عزّ وجلَّ التي تعني الثقةَ باللهِ والاستكفاءَ به وتوقّعَ الخيرِ منه مع مباشرةِ الأسبابِ المشروعةِ في تحصيلِ النّفْعِ ودفْعِ الضُّرِّ.

أيّها المسلمون!

إنّ حسنَ الظنِّ باللهِ من كبرى العباداتِ وعظيمِ الطاعاتِ، يقولُ الرسولُ ﷺ: «إِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ بِاللهِ تَعَالَى مِنْ عِبَادَةِ اللهِ» رواه الحاكمُ وصحّحه على شرطِ مسلمٍ ووافقَه الذهبيُّ. وإنَّما اعتلى حسنُ الظنِّ المقامَ العليَّ في رُتبِ العبادةِ؛ لتجسيدِه توحيدَ اللهِ وتطبيقِه فعلاً؛ ففي حسنِ الظنِّ باللهِ اليقينُ بعلمِ اللهِ وحكمتِه وقدرتِه ورحمتِه وفضلِه وكرمِه وقهرِه وعفوِه ومنّتِه وقيوميّتِه وقوّتِه وعزّتِه؛ وفيه الإقرارُ بأُلوهيّتِه ورُبوبيّتِه وأسمائِه وصفاتِه، وفي حسنِ الظنِّ باللهِ تحقيقُ التوكُّلِ وحسنِ الرجاءِ، يقولُ داودُ بنُ عبدِاللهِ: "أَرَى التَّوَكُّلَ حُسْنَ الظَّنِّ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ". وفي حسنِ الظنِّ باللهِ الوثوقُ به والاطمئنانُ إليه، يقولُ يحيى بنُ معاذٍ: "أَوْثَقُ الرَّجَاءِ رَجَاءُ الْعَبْدِ رَبَّهُ، وَأَصْدَقُ الظُّنُونِ حُسْنُ الظَّنِّ بِاللهِ". وفي حسنِ الظنِّ باللهِ إقرارٌ بضعفِ العبدِ وعجزِه عن إدراكِ مصالحِه إن لم يكنْ عونٌ من اللهِ له، وفي حسنِ الظنِّ باللهِ قطعُ الرجاءِ بالخلائقِ، يقولُ إبراهيمُ بنُ شَيْبانَ: "حُسْنُ الظَّنِّ بِاللهِ هُوَ الْيَأْسُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سِوَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ". بهذا صار حسنُ الظنِّ باللهِ من جَليلِ العملِ وعُمَدِ الصالحاتِ، يقولُ عبدُاللهِ بنُ مسعودٍ رضي اللهُ عنه: "«وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا أُعْطِيَ عَبْدٌ مُؤْمِنٌ شَيْئًا خَيْرًا مِنْ حُسْنِ

الظَّنِّ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ لَا يُحْسِنُ عَبْدٌ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ الظَّنَّ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ظَنَّهُ؛ ذَلِكَ بِأَنَّ الْخَيْرَ فِي يَدِهِ». ومن كرامتِه على اللهِ أن جعل جزاءَه من جنسِه، فهناء العطاءِ بحسنِ الظنِّ والرَّجاءِ، يقولُ الرسولُ ﷺ: "يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: " أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي" " رواه البخاريُّ ومسلمٌ. قال حَيَّانُ أَبو النَّضرِ: خَرَجْتُ عَائِدًا لِيَزِيدَ بْنِ الْأَسْوَدِ فَلَقِيتُ وَاثِلَةَ بْنَ الْأَسْقَعِ وَهُوَ يُرِيدُ عِيَادَتَهُ فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَى وَاثِلَةَ بَسَطَ يَدَهُ وَجَعَلَ يُشِيرُ إِلَيْهِ فَأَقْبَلَ وَاثِلَةُ حَتَّى جَلَسَ فَأَخَذَ يَزِيدُ بِكَفَّيْ وَاثِلَةَ فَجَعَلَهُمَا عَلَى وَجْهِهِ فقَالَ لَهُ وَاثِلَةُ: كَيْفَ ظَنُّكَ بِاللهِ؟ قَالَ: ظَنِّي بِاللهِ وَاللهِ حَسَنٌ، قَالَ: فَأَبْشِرْ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺيَقُولُ: "قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: "أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي إِنْ ظَنَّ خَيْرًا وإن ظن شراً" "رواه ابنُ حِبانَ في صحيحِه.

فلا تظنَّنَّ بربِّك ظنَّ سوءٍ فإنَّ اللهَ أوْلَى بالجميلِ

هذا، وإنَّ السبيلَ لتحقيقِ حسنِ الظنِّ باللهِ سبحانَه إنّما يكونُ بالعلمِ باللهِ وبأسمائِه وصفاتِه ومعرفةِ مُوجِبِ حمدِه وحكمتِه.

أيّها المؤمنون!

لئنْ كانتِ الحاجةُ إلى حسنِ الظنِّ باللهِ في عمومِ الأحوالِ ففي حالِ الشدائدِ واحتلاكِ الخطوبِ تعظُمُ الحاجةُ وتتأكّدُ؛ ولذا كانَ ذلكَ الظنُّ زادَ الأنبياءِ حالَ الكربِ؛ فهذا إبراهيمُ عليه الصلاةُ والسلامُ لمّا أُلقيَ في النارِ قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، وموسى عليهِ الصّلاةُ والسلامُ لمّا انحصر مع قومِه بين

بحرٍ مُتلاطمٍ وعدوٍّ غاشمٍ قال: ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾، ويعقوبُ عليه الصلاةُ والسلامُ لمّا افتقدَ فلْذتَيْ كبِدِه قال: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾،وكان قولُ طالوتَ وجُندِه لمّا برزوا لجالوتَ وجُندِه الذينَ فاقوهم عدداً وعُدّةً كما أخبرَ اللهُ عنهم: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، ولمّا هُدّدَ رسولُ اللهِ ﷺ وأصحابُه بتألُبِ الناسِ عليهم قالوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، ولمّا عرضَتْ لهم فِي حفرِ الْخَنْدَقِ صَخْرَةٌ لَا تَأْخُذُ فِيهَا الْمَعَاوِلُ اشْتكَوْا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ جاءَ فَأَخَذَ الْمِعْوَلَ فَقَالَ: "بِسْمِ اللهِ"، فَضَرَبَ ضَرْبَةً فَكَسَرَ ثُلُثَهَا وَقَالَ: "اللهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ السَّاعَةَ"، ثُمَّ ضَرَبَ الثَّانِيَةَ فَقَطَعَ الثُّلُثَ الْآخَرَ، فَقَالَ: "اللهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسٍ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قَصْرَ الْمَدَائِنِ أَبْيَضَ"، ثُمَّ ضَرَبَ الثَّالِثَةَ وَقَالَ: "بِسْمِ اللهِ "، فَقَطَعَ بَقِيَّةَ الْحَجَرِ، فَقَالَ: "اللهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا السَّاعَةَ" رواه أحمدُ وحسّنه ابنُ حجرٍ. بل حسنُ الظنِّ باللهِ عبادةٌ واجبةٌ متأكّدةُ الوجوبِ في أشدِّ الساعاتِ ساعةَ الاحتضارِ وخروجِ الرُّوحِ، كما قال رسولُ اللهِ ﷺ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللهِ الظَّنَّ» رواه مسلمٌ، وهل بعد الموتِ من شدائدِ الدُّنيا شِدّةٌ؟! حضر عَبْدُ الْأَعْلَى التَّيْمِيُّ إلى جارٍ لَهُ قَدْ حَضَرَهُ الْمَوْتُ: "أَيَا فُلَانٍ، لِيَكُنْ جَزَعُكَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ أَكْثَرَ مِنْ جَزَعِكَ مِنَ الْمَوْتِ، وَأَعِدَّ لِعَظِيمِ الْأُمُورِ حُسْنَ الظَّنِّ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ".

أيّها المؤمنونَ!

إنَّ حسنَ الظنِّ باللهِ حالَ الشَّدائِدِ من أدقِّ صفاتِ الإيمانِ، كما أنَّ سوءَ الظنِّ في تلكَ الحالِ من علاماتِ النِّفاقِ ومرضِ القلبِ، وذلكَ ما أبانَه اللهُ سبحانَه في غَزاةِ الأحزابِ إذْ قال عن المؤمنينَ: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾، وقال عن المنافقينَ: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ وكفى، وصلاةً وسلامـًا على رسولِه المصْطفَى.

وبعد، فاعلمُوا أنَّ أحسنَ الحديثِ...

أيّها المسلمونَ!

إنّ لحسنِ الظنِّ باللهِ حالَ الشَّدائدِ أثراً حسيّاً إيجابيّاً في النظرةِ للكوارثِ وحسنِ التعامُلِ معها؛ فمن آثارِ حسنِ الظنِّ باللهِ حالَ الشَّدائدِ: قوةُ القلبِ وثباتُه وشجاعتُه، يقولُ ذو النونِ: "ثَلَاثَةٌ مِنْ أَعْلَامِ حُسْنِ الظَّنِّ بِاللهِ: قُوَّةُ الْقَلْبِ، وَفُسْحَةُ الرَّجَاءِ فِي الذِّلَّةِ، وَنَفْيُ الْإِيَاسِ بِحُسْنِ الْإِنَابَةِ"، كَانَ أَنُوشِرْوَانُ يَكْتُبُ إِلَى مَرَازِبَتِهِ (قوادِ الجيش): عَلَيْكُمْ بِأَهْلِ الشَّجَاعَةِ وَالسَّخَاءِ؛ فَإِنَّهُمْ أَهْلُ حُسْنِ الظَّنِّ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ. ومنها: انشراحُ الصدرِ، يقولُ ابنُ القيمِ: "إِنَّهُ لَا أَشْرَحَ لِلصَّدْرِ، وَلَا أَوْسَعَ لَهُ بَعْدَ الْإِيمَانِ مِنْ ثِقَتِهِ بِاللهِ وَرَجَائِهِ لَهُ وَحُسْنِ ظَنِّهِ بِهِ"، وقال بعضُ أهلِ العلمِ: "مَنْ رُزِقَ حُسْنَ الظَّنِّ بِاللهِ أُفِيدَ الرَّاحَةَ"، ومنها: التفاؤلُ وعدمُ اليأسِ؛ فيباشرُ المرءُ الأسبابَ بنشاطٍ متلمّساً فرجَ مَن بيدِه مفاتحُ الفرجِ، كلما سُدَّ في وجهِه بابٌ بحثَ عن آخرَ دونَ يأسٍ أو إحباطٍ، ومنها: الثباتُ على المبادئِ والصبرِ عليها؛ فلا مساومةَ عند أهلِ الظنِّ الحسَنِ بربِّهم على المبادئِ والثوابتِ ولا تمييعَ عندهم لها؛ إذْ رجاءُ حسنِ العاقبةِ مانعٌ من استعجالِ تبدُّلِ الحالِ بما حرّمه اللهُ، ومنها: دوامُ الإلحاحِ بالدعاءِ، فكلّما قويَ ظنُّه الخيرَ بربِّه انطلق لسانُه بطلبِه. ومَن كان قويَّ القلبِ منشرحَ الصدرِ

عظيمَ التفاؤلِ ثابتَ المبادئِ باذلاً الأسبابَ المشروعةَ في دفعِ الشدائدِ مِلحاحًا في الدعاءِ كان جديراً بتبديلِ اللهِ لحالِه؛ وتلكَ ثمرةٌ لحسنِ ظَنِّه بربِّه. فيا أيّها المهمومُ يا أيّها المظلومُ يا أيّها المريضُ يا أيّها المسحورُ يا أيّها الأسيرُ يا أيّها العقيمُ يا أيّها المعقوقُ يا أيّها الفقيرُ يا أيّها المحزونُ يا أيّها الغريبُ يا أيّها المجاهدُ يا أيّها المصلحُ يا أيّها المسؤولُ أحسنُوا الظنّ بمولاكُم؛ فلن تجنُوا إلا ما ظننتُم، واجعَلوا لسانَ حالِكُم قولَ القائلِ:

وإنِّـي لأرْجو اللهَ حتـى كأنّني   أرى بجميلِ الظنِّ ما اللهُ صانعُ

عزاءُ المرضِ

إنّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، من يهدِه اللهُ فلا مضلّ له، ومَن يضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ... ﴾.

أيّها المؤمنون!

الإيمانُ بَرَكةُ خيرٍ تطيفُ بالمؤمنِ وتغمرُه، تقارنُه في عُسْره ويُسره، وسرّائِه وضرّائه؛ فهو يتقلَّبُ في أعطافِ الخيرِ مهْما كانت حالُه ما دام بعُروةِ الإيمانِ مُستمسِكاً، يقولُ النبيُّ ﷺ: "عجباً لأمرِ المؤمنِ! إنَّ أمرَه كلّه خيرٌ، وليس ذاكَ لأحدٍ إلا للمؤمنِ؛ إنْ أصابتْه سراءُ شكرَ، فكان خيراً له، وإنْ أصابتْه ضراءُ، صبرَ فكان خيراً له" رواه مسلمٌ. وإنّ من بركةِ الإيمانِ التي يَخِفُّ بها وقْعُ المصائبِ على العبدِ، وتقْوَى بها نفسُه على الصّبرِ والرِّضا حتى يتخطّاه البلاءُ وقد حازَ من غُنْمه نصيباً وافراً -أن يفتحَ بصيرتَه للتعرُّفِ على ما انطوَى عليه تقديرُ اللهِ البلاءَ عليه من خيرٍ ونِعمٍ، واستشعارِه عظيمَ منّتِه عليه بتقديرِه؛ فاللهُ بحكمتِه وعلمِه ورحمتِه لم يقدِّرْ بلاءَه على عبدِه المؤمنِ ليُهلكَه أو يُحزنَه أو يرهقَه؛ بل قدَّره لغاياتٍ عظيمةٍ لا يهتَدِي إلى استشعارِها وادّكارِها إلا مَنْ مَنَّ اللهُ عليه ببصيرةِ الإيمانِ. هذا، وإنّ من أشقِّ البلاءِ وأشدِّه أن يُبتلَى العبدُ

بمرضِ الجسدِ ونقصِ العافيةِ، سيّما إن كان المرضُ ذا خطرٍ وطالَ وقتُه ولم يُعرَفْ له علاجٌ؛ ممّا يجعلُ التذكيرَ بنعمِ اللهِ فيه من ألزمِ ما يجبُ التذكيرُ به. قال ابنُ القيمِ: "وأمّا انتفاعُ القلبِ والرُّوحِ بالآلام والأمراضِ فأمرٌ لا يحسُّ به إلا مَن فيه حياةٌ؛ فصحَّةُ القلوبِ والأرواحِ موقوفةٌ على آلامِ الأبدانِ ومشاقِّها، وقد أُحصيَتْ فوائدُ الأمراضِ؛ فزادتْ على مائةِ فائدةٍ".

عبادَ اللهِ!

إنّ اللهَ برحمتِه جعل المرضَ من أعظمِ أسبابِ تطهيرِ العبدِ من السيِّئاتِ، يقولُ النبيُّ ﷺ: "ما من مسلمٍ يصيبُه أذىً من مرضٍ، فما سواهُ إلا حطَّ اللهُ به سيئاتِه، كما تحطُّ الشجرةُ ورقَها" رواه البخاريُّ ومسلمٌ واللفظُ له. وسأل سعدُ بنُ أبي وقَّاصٍ —رضي اللهُ عنه- رسولَ اللهِ ﷺ: أيُّ الناسِ أشدُّ بلاءً؟ فقال: "الأنبياءُ، ثم الأمثلُ فالأمثلُ، فيُبتَلى الرجلُ علي حسبِ دينِه، فإن كان رقيقَ الدِّينِ ابتُليَ على حسبِ ذاكَ، وإن كان صُلْبَ الدِّين ابتُليَ على حسبِ ذاك"، قال: "فما تزالُ البلايا بالرجلِ حتى يمشيَ في الأرضِ وما عليه خطيئةٌ" رواه أحمدُ وصحّحه أحمدُ شاكرٌ. قال قيسُ بنُ عبّادٍ: «ساعاتُ الوجعِ يذهبْنَ بساعاتِ الخطَايَا»، وقال الحسنُ البصريُّ: "كانوا يرجونَ في حُمَّى ليلةٍ كفارةً لما مضى من الذنوبِ"؛ فكيف بمرضٍ عُضالٍ يمتدُّ زمنُه؟! وكما أن المرضَ مَطهرةٌ للذنبِ فهو مَرقاةٌ يُعْلي اللهُ بها عبدَه المريضَ إلى المنزلةِ العليا التي لا يبلغُها بعملِه، يقولُ النبيُّ ﷺ: "إنّ العبدَ إذا سبقتْ له من اللهِ منزلةٌ، لم يبلغْها بعملِه ابتلاه اللهُ في جسدِه، أو في مالِه، أو في ولدِه، ثم صبّره على ذلكَ حتى

يبلِّغَه المنزلةَ التي سبقتْ له من اللهِ تعالى" رواه أبو داودَ وصحّحه الألبانيُّ. ولعِظَمِ جزاءِ الآخرةِ للمرضَى الصابرين يودُّ أهلُ العافيةِ أنْ لو كانوا مكانَهم وأنّ أجسادَهم قُرضتْ بالمقاريضِ، يقولُ النبيُّ ﷺ: "يودُّ أهلُ العافيةِ يومَ القيامةِ حين يُعطَى أهلُ البلاءِ الثوابَ لو أنّ جلودَهم كانتْ قُرضتْ في الدّنيا بالمقاريضِ". رواه الترمذيُّ وحسّنه الألبانيُّ. ولئنْ تباعدتِ العافيةُ عن المريضِ فإنّ اللهَ أقربُ ما يكونُ منه؛ لانكسارِ المريضِ وضعفِه، واللهُ جبارٌ يجبُرُ كسرَ القلوبِ، يقولُ ابنُ القيمِ: "وتأملْ قولَ النبيِّ ﷺ فيما يَروي عن ربِّه -عزَّ وجلَّ- أنَّه يقولُ يومَ القيامةِ: " يا بنَ آدمَ، استطعمتُك فلم تطعمْني، قال: يا ربِّ، كيف أطعمُك وأنت ربُّ العالمينَ؟ قال: استطعمَك عبدي فلانٌ فلم تطعمْه، أمَا لو أطعمتَه لوجدتَّ ذلكَ عندي، ابنَ آدم، استسْقيتُك فلم تَسقِني، قال: يا ربِّ، كيف أَسقيكَ، وأنت ربُّ العالمينَ؟ قال: استسْقَاك عبدي فلانٌ فلم تَسقِه، أمَا لو سقيتَه لوجدتَّ ذلكَ عندي، ابنَ آدمَ، مرضتُّ فلم تعُدْنِي، قال: يا ربِّ، كيف أعودُك، وأنت ربُّ العالمينَ؟ قال: أمَا إنّ عبدي فلانا مرضَ فلم تعُدْه، أمَا لو عُدتَّه لَوجدتَّنِي عنده "، فقالَ في عيادةِ المريضِ: "لوجدتَّني عنده"، وقال في الإطعامِ، والإسقاءِ: "لوجدتَّ ذلكَ عندي"؛ ففرّقَ بينهما؛ فإنّ المريضَ مكسورُ القلبِ ولو كان مَن كان، فلا بُدّ أن يكسرَه المرضُ، فإذا كان مؤمنًا قد انكسرَ قلبُه بالمرضِ كان اللهُ عنده". ولذا فإنّ المريضَ مستجابُ الدعوةِ، كيف وقد اجتمعَ له سببانِ عظيمانِ من أسبابِ إجابةِ الدعاءِ؛ الاضطِّرارُ والانكسارُ مع قربِ اللهِ منه. قال عبدُاللهِ بنُ أبي صالحٍ: دخلَ علي طاوسُ وأنا مريضٌ، فقلتُ: يا أبا عبدِ الرحمنِ، ادعُ لي، قالَ: ادعُ لنفسِك؛ فإنّه

يجيبُ المضطَّرَّ إذا دعاه. ومن لُطفِ اللهِ الملحوظِ الذي لا يكادُ يخلو منه عبدُه المؤمنُ ورحمتِه وعلمِه بضعفِه حالَ شدَّتِه أن يُنزلَ عليه السكينةَ والطُّمأنينةَ، ويكرمَه بحسنِ الظنِّ فيه وحسنِ التوكُّلِ عليه، ويفتحَ عليه من لذةِ مناجاتِه واستشعارِ قربِه ما يكونُ بلسماً لجراحِه وتسكيناً لألمِه، بل قد تغلبُ تلك اللذةُ ألمَ المرضِ؛ فيرضَى ببلائِه من جهةِ إفضائِه إلى محابِّ اللهِ —سبحانَه– وإن كرهَهُ من جهةِ تألُّمِه به، يقولُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ: "فمن تمامِ نعمةِ اللهِ على عبادِه المؤمنينَ أن يُنزلَ بهم الشدَّةَ والضُّرَّ وما يُلجئُهم إلى توحيدِه فيدعونَه مخلصينَ له الدينَ، ويرجونَه؛ لا يرجونَ أحداً سِواه، وتتعلقُ قلوبُهم به؛ لا بغيرِه؛ فيحصلُ لهم من التوكلِ عليه والإنابةِ إليه وحلاوةِ الإيمانِ وذوْقِ طعمِه والبراءةِ من الشركِ ما هو أعظمُ نعمةً عليهم من زوالِ المرضِ والخوفِ أو الجدْبِ أو حصولِ اليُسرِ وزوالِ العسرِ في المعيشةِ؛ فإنّ ذلك لذاتٌ بدنيَّةٌ ونعمٌ دنيويَّةٌ قد يحصلُ للكافرِ منها أعظمُ ممّا يحصلُ للمؤمنِ، وأمّا ما يحصلُ لأهلِ التوحيدِ المخلصينَ للهِ الدينَ فأعظمُ من أن يعبِّرَ عن كُنهِه مقالٌ أو يَستحضرَ تفصيلَه بَالٌ، ولكلِّ مؤمنٍ من ذلكَ نصيبٌ بقدْرِ إيمانِه؛ ولهذا قال بعضُ السلفِ: "يا بنَ آدمَ، لقد بُوركَ لك في حاجةٍ أكثرتَ فيها من قرعِ بابِ سيدِك"، وقال بعضُ الشيوخِ: "إنّه ليكونُ لي إلى اللهِ حاجةٌ، فأدعُوه، فيفتحَ لي من لذيذِ معرفتِه وحلاوةِ مناجاتِه ما لا أحبُّ معه أن يُعجَّلَ قضاءُ حاجتِي؛ خشيةَ أن تنصرفَ نفسِي".

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أمّا بعدُ، فاعلمُوا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

وفي المرضِ يرِقُّ قلبُ العبدِ، وتدمعُ عينُه، وتُسلُّ سخيمتُه، وتصغرُ الدنيا في عينِه، وتصفو للناسِ نفسُه، بل تسْخو ويذهبُ شحُّها، وتجودُ بالصدقةِ يدُه، ويعظمُ برُّه وإحسانُه. والمرضُ واعظٌ صامتٌ بليغٌ؛ كثيراً ما تؤثِّرُ مواعظُه في العبدِ؛ فيترقّى في درجاتِ العبوديّةِ بالتوبةِ والإنابةِ والصبرِ والرِّضا والدعاءِ وحُسنِ الظنِّ باللهِ والتوكّلِ عليه والحزنِ على فَواتِ الطاعةِ التي منعَه المرضُ من أدائِها؛ فيحظَى بأجرِ الفاعلِ لها. غيرَ أنّ من جديرِ التنبيهِ في لحظاتِ المرضِ أنّها من مواضعِ الضعفِ التي كثيراً ما ينفذُ الشيطانُ على قلبِ العبدِ من خلالِها؛ حتى يخرجَه من ذلكَ البلاءِ بالخسارِ التامِّ أو نُقصانِ الثوابِ؛ حين يجعلُ نظرَ العبدِ في مرضِه لا يتجاوزُ مواضعَ الألمِ مغْفلاً إيّاه عن استشعارِ الفضائلِ؛ فيتسلطُ عليه بتأييسِ الشفاءِ، واستبعادِ إجابةِ الدعاءِ، والتقنيطِ من رحمةِ اللهِ، والتعلُّقِ بالأسبابِ الحسيَّةِ، بل بالأوهامِ والمحرَّماتِ والشركيَّاتِ، ويَجلِبُ عليه بسلاحِ التَّحزينِ والتَّخويفِ من المستقبلِ الذي يُغرقُ الشيطانُ في رسمِ تفاصيلِه المظلمةِ في عينِ العبدِ ممّا يَعْلقُ بشأنِه أو شأنِ أولادِه وضيْعتِهم؛ حتى يحملَ العبدَ على إظهارِ الجزَعِ والسَّخَطِ بالشَّكوى

والتَّصرُّفـاتِ الدَّالـةِ علـى انعـدامِ الصـبرِ أوالتعلُّـقِ بغيـرِ اللهِ في شـفائه والتـي لا يبقَـى معهـا مـن غنيمـةِ البـلاءِ شـيءٌ؛ وذاكَ مـا يسـتدْعِي يقظـةَ المؤمـنِ وحـذرَه مـن وسـاوسِ الشـيطانِ، فضـلاً أن يسترسـلَ معهـا، وأن يُكثـرَ الاسـتعاذةَ بـاللهِ منـه، قـال اللهُ في الحديـثِ القدسـيِّ: "إذا ابتَلَيْـتُ عبـدي المؤمـنَ، فلـم يشـكِنِي إلـى عـوّادِه؛ أطلقتُـه مـن أسـاري، ثـم أبدلُـه لحمـاً خيـراً مـن لحمِـه، ودمـاً خيـراً مـن دمِـه، ثـم يسـتأنفُ العمـلَ" رواه البيهقـيُّ في الشُّـعبِ وجـوّدَ إسـنادَه العراقـيُّ.

إذا أبْقتِ الدّنيا على المرءِ دينَه فمـا فاتَه منهـا فليـس بضَائرِ

الاستشفاءُ بالصدقةِ

الحمدُ للهِ بارئِ النَّسَمِ، وشافي السقمِ، عَمَّ خيرُه الأممَ، ووسعَ عفوُه الكبائرَ واللَّمَمَ، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ الواحدُ الحَكَمُ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلى اللهُ وسلمَ عليه وعلى آله وصحبِه ذويْ المكارمِ والشِّيَمِ.

أما بعدُ، فاتقوا اللهَ —عبادَ اللهِ-. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ...﴾.

أيها المؤمنون!

إنَّ للصدقةِ عند اللهِ شأناً عليّاً أنْ كانت موضعَ تقبُّلِه بيمينه، وتنميتِه إياها لصاحبِها حتى غدتْ من وزنِ تمرةٍ مفردةٍ إلى حجمِ الجبلِ الأشمِّ من الحسناتِ، يقولُ النبيُّ ﷺ: "مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلاَ يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، وَإِنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَل" رواه البخاريُّ ومسلمٌ. هذا وإن من عجيبِ شأنِها أنْ جعلَها اللهُ من أسبابِ شفاءِ الأسقامِ، وبلسمَ تخفيفِ الآلامِ، ورحابةَ آفاقِ أملٍ وتنديةِ حالٍ لمَن مسَّه الضُرُّ. وذاك ما وردَ به عمومُ الدليلِ وخصوصُه، وجرَتْ عليه سنةُ اللهِ في الخليقةِ، وأدركَه أهلُ البلاءِ بالتَّجرُبةِ. يقولُ الرسولُ ﷺ: "داوُوا مرضاكم بالصدقةِ" رواه أبو الشيخِ وحسَّنه الألبانيُّ والمناويُّ بشواهدِه. قال الفقيهُ ابنُ مفلحٍ: "وجماعةٌ من أصحابِنا وغيرِهم يفعلون هذا، وهو حسنٌ، ومعناه صحيحٌ". والصدقةُ من صنائعِ المعروفِ التي يَصْرِفُ اللهُ بها البلاءَ قبل

وقوعِه، ويرفعُه بها إنْ وقعَ، قال النبيُّ ﷺ: "صنائعُ المعروفِ تَقِي مَصارِعَ السوءِ، والآفاتِ، والهلكاتِ" رواه الحاكمُ وصححه الألبانيُّ. وإذا كان تأثيرُ الصدقةِ بالغًا في رفعِ البلاءِ الكونيِّ العامِّ، كالكسوفِ والخسوفِ وما في حكمها من الأوبئةِ والزلازلِ؛ فكيف لا يكونُ له أثرٌ في داءٍ أنزلَه اللهُ على جسدِ آدميٍّ، يقول رسولُ اللهِ ﷺ: "إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ مِنْ آيَاتِ اللهِ، وَإِنَّهُمَا لَا يَنْخَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ، وَلَا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَكَبِّرُوا، وَادْعُوا اللهَ، وَصَلُّوا، وَتَصَدَّقُوا" رواه مسلمٌ. قال الصنعانيُّ: "الصدقةُ تدفعُ البلاءَ، والأمراضُ منها؛ فالصدقةُ دافعةٌ لها، وهي أنفعُ الأدويةِ". والصدقةُ إحسانٌ تتحققُ به معيةُ اللهِ للمحسنين التي لا يَصمُدُ أمامَها رهقٌ ولا شدةٌ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾. وجزاءُ صدقةِ المرضِ من جنسِ عملِها؛ إذ كانت من المريضِ رحمةً، وتفريجَ كربةٍ، وإدخالاً للسرورِ على نفس مَنْ تصدَّقَ عليه؛ فكان جزاؤها رحمةً من اللهِ تَنْزِلُ على دائه، وتفريجًا لكربتِه، وإذهابًا لتَرَحِه وإبدالَه فرحًا؛ كِفاءَ إحسانِه؛ إذ ليس للإحسانِ عند اللهِ جزاءٌ إلا الإحسانَ، كما قال سبحانه: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾. وعلى ذلك بَنَى بعضُ العلماءِ فِقْهَ قولِه ﷺ في الحُمّى — فيما رواه البخاريُّ ومسلمٌ-: "الحُمَّى من فَيْحِ جهنمَ؛ فأبْرِدُوها بالماءِ"؛ وأنّ مِن وحي دلالتِها استحبابَ الصدقةِ بالماءِ عن المريضِ المحمومِ، وفي معناه كلُّ مريضٍ. وغدَتْ رؤيةُ الصدقةِ في المنامِ رمزاً لعَبْرِها بشفاءِ السقمِ وذهابِ البأسِ، كما قال علماءُ التعبيرِ. وطَفَحَتْ بتصديقِ أثرِ الصدقةِ في زوالِ البأسِ أو تخفيفِه تجاربُ أهلِ البلاءِ. قال ابنُ القيمِ: "فإنّ للصدقةِ تأثيراً عجيباً في دفعِ أنواعِ البلاءِ، ولو كانت من فاجرٍ

أو من ظالمٍ، بل من كافرٍ! فإنّ اللهَ -تعالى- يدفعُ بها عنه أنواعًا من البلاءِ، وهذا أمرٌ معلومٌ عند الناسِ خاصّتِهم وعامّتِهم، وأهلُ الأرضِ كلُّهم مُقِرُّونَ به؛ لأنهم جرَّبوه". وقال المناويُّ: "فأَمَرَ (النبيُّ ﷺ) بمداواةِ المرضى بالصدقةِ، ونبّه بها على بقيةِ أخواتِها من القُرَبِ كإغاثةِ ملهوفٍ وإغاثةِ مكروبٍ، وقد جرّبَ ذلك الموفَّقون؛ فوجدوا الأدويةَ الروحانيةَ تفعلُ ما لا تفعلُه الأدويةُ الحسيةُ، ولا يُنْكِرُ ذلك إلا مَن كَثُفَ حجابُه".

أيها المسلمون!

إنّ تأثيرَ الصدقةِ في مداوةِ الأوصابِ يأخذُ صوراً متنوعةً وِفْقَ ما تقتضيه حكمةُ اللهِ وقدَرُه المُبْرَمُ؛ فقد تكونُ سبباً في البُرْءِ التامِّ وحلولِ العافيةِ السابغةِ، وهذا كثيرٌ مشهورٌ. قال بعضُ أهلِ العلمِ: "الصدقةُ أمامَ الحاجةِ سنةٌ مطلوبةٌ مؤكَّدَةٌ، والخَوَاصُّ يقدِّمونَها أمامَ حاجاتِهم إلى اللهِ؛ كحاجتِهم إلى شفاءِ مريضِهم، لكنْ على قدْرِ البليَّةِ في عِظَمِها وخِفَّتِها، حتى أنهم إذا أرادوا كشفَ غامضٍ بذلوا شيئًا لا يطَّلعُ عليه أحدٌ، وكان ذوو الفهمِ عن اللهِ إذا كان لهم حاجةٌ يريدون سرعةَ حصولِها كشفاءِ مريضٍ يأمرون باصطناعِ طعامٍ حسنٍ بلحمِ كبشٍ كاملٍ، ثم يدعون له ذوي القلوبِ المنكسرةِ قاصدين فداءَ رأسٍ برأسٍ، وكان بعضُهم يرى أنْ يُخْرِجَ من أعزِّ ما يملكُه، فإذا مرِضَ له مَن يَعِزُّ عليه تصدقَ بأعزِّ ما يملكُه من نحوِ جاريةٍ أو عبدٍ أو فرسٍ؛ يتصدقُ بثمنِه على الفقراءِ من أهلِ العفافِ". قال أبو بَكْرٍ الْخَبَّازِيُّ: "مَرِضْتُ مَرَضًا خَطِرًا، فَرَآنِي جَارٌ لِي صَالِحٌ فَقَالَ: اسْتَعْمِلْ قَوْلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "دَاوُوا مَرْضَاكُمْ

بِالصَّدَقَـةِ"، وَكَانَ الْوَقْـتُ صيفًـا، فَاشْـتَرَيْتُ بِطِّيخًـا كَثِيـرًا، وَاجْتَمَـعَ جَمَاعَـةٌ مِـنَ الْفُقَـرَاءِ وَالصِّبْيَـانِ، فَأَكَلُـوا، وَرَفَعُـوا أَيْدِيَهُـمْ إِلَـى اللهِ -عَزَّ وَجَـلَّ- وَدَعَـوْا لِـي بِالشِّـفَاءِ؛ فَـوَاللهِ مَـا أَصْبَحْـتُ إِلَّا وَأَنَـا فِي كُلِّ عَافِيَـةٍ مِـنَ اللهِ -تَبَـارَكَ وَتَعَالَـى-!". وسَـأَلَ رَجُلٌ الإمـامَ عبدَالله بـنَ المباركِ فقـال: يَـا أَبَا عَبْدِالرَّحْمَـنِ، قُرْحَـةٌ خَرَجَـتْ فِي رُكْبَتِي مُنْذُ سَبْعِ سِنِينَ، وَقَـدْ عَالَجْـتُ بِأَنْـواعِ الْعِلَاجِ، وَسَـأَلْتُ الْأَطِبَّـاءَ فَلَـمْ أَنْتَفِـعُ بِـهِ، قَـالَ: اذْهَـبْ فَانْظُـرْ مَوْضِعًـا يَحْتَـاجُ النَّـاسُ إِلَـى الْمَـاءِ فَاحْفُـرْ هُنَـاكَ بِئْـرًا؛ فَإِنِّـي أَرْجُـو أَنْ تَنْبُـعَ هُنَـاكَ عَيْـنٌ، وَيُمْسِـكُ عَنْـكَ الـدَّمُ، فَفَعَـلَ الرَّجُـلُ فَبَـرِئَ. وقـال ابنُ الحـاجِّ: " وَقَـدْ وَقَـعَ لِـي مَعَ بَعْضِ الْأَطِبَّـاءِ أَنَّـهُ كَانَ يَتَـرَدَّدُ إِلَـيَّ فِـي مَـرَضٍ كَانَ بِـي وَيَصِـفُ أَشْـرِبَةً وَأَدْوِيَـةً يُنْفَـقُ فِيهَـا نَفَقَـةٌ جَيِّـدَةٌ، فَطَـالَ الْأَمْـرُ عَلَـيَّ، فَقَطَعْتـه، وَعَوَّضْـتُ مَوْضِـعَ تِلْـكَ النَّفَقَـةِ خُبْـزًا أَتَصَـدَّقُ بِـهِ بِنِيَّـةِ امْتِثَـالِ السُّـنَّةِ فِـي دَفْـعِ ذَلِـكَ الْمَـرَضِ؛ فَمَـا كَانَ إِلَّا قَلِيـلٌ وَفَـرَّجَ اللهُ عَنِّـي، وَحَصَلَـتْ الْعَافِيَـةُ!". وقـد يكـونُ أثـرُ صدقـةِ المـرضِ في إجابـةِ الدعـاءِ والانتفـاعِ بالرقيـةِ؛ حيـن يجتمـعُ سـببُ الاضطـرارِ مـع سـببِ إحسـانِ التصـدقِ. قَـالَ الْبَيْهَقِيُّ:"وَفِـي هَـذَا الْمَعْنَـى حِكَايَـةُ قُرْحَـةِ شَـيْخِنَا الْحَاكِـمِ أَبِـي عَبْـدِ اللهِ -رَحِمَـهُ اللهُ-، فَإِنَّـهُ قَـرِحَ وَجْهُـهُ وَعَالَجَـهُ بِأَنْـواعِ الْمُعَالَجَـةِ فَلَـمْ يَذْهَـبْ وَبَقِـيَ فِيـهِ قَرِيبًـا مِـنْ سَـنَةٍ، فَسَـأَلَ الْأُسْـتَاذَ الْإِمَـامَ أَبَـا عُثْمَـانَ الصَّابُونِـيَّ أَنْ يَدْعُـو لَـهُ فِـي مَجْلِسِـهِ يَـوْمَ الْجُمُعَـةِ فَدَعَـا لَـهُ، وَأَكْثَـرَ النَّـاسُ فِي التَّأْمِيـنِ، فَلَمَّـا كَانَـتِ الْجُمُعَـةُ الْأُخْـرَى أَلْقَـتِ امْـرَأَةٌ فِـي الْمَجْلِـسِ رُقْعَـةً بِأَنَّهَـا عَـادَتْ إِلَـى بَيْتِهَـا، وَاجْتَهَـدَتْ فِـي الدُّعَـاءِ لِلْحَاكِـمِ أَبِـي عَبْـدِاللهِ تِلْـكَ اللَّيْلَـةَ، فَـرَأَتْ فِـي مَنَامِهَـا رَسُـولَ اللهِ ﷺ كَأَنَّـهُ يَقُـولُ لَهَـا: قُولُـوا لِأَبِـي عَبْـدِاللهِ: يُوسِّـعُ الْمَـاءَ عَلَـى الْمُسْـلِمِينَ، فَجِئْـتُ بِالرُّقْعَـةِ إِلَـى الْحَاكِـمِ أَبِـي عَبْـدِاللهِ، فَأَمَـرَ بِسِـقَايَةِ الْمَـاءِ بُنِيَـتْ عَلَـى بَـابِ دَارِهِ، وَحِيـنَ

فَرَغُـوا مِـنَ الْبِنَـاءِ أَمَـرَ بِصَـبِّ الْمَـاءِ فِيهَـا وَطُرِحَ الْجَمَـدَ (الثلـج) فِـي الْمَـاءِ، وَأَخَـذَ النَّـاسُ فِـي الشُّـرْبِ، فَمَـا مَـرَّ عَلَيْـهِ أُسْـبُوعٌ حَتَّـى ظَهَـرَ الشِّـفَاءُ، وَزَالَـتْ تِلْـكَ الْقُرُوحُ، وَعَـادَ وَجْهُـهُ إِلَـى أَحْسَـنِ مَـا كَانَ، وَعَـاشَ بَعْـدَ ذَلِـكَ سِـنِين".

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أما بعدُ، فاعلموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيها المؤمنون!

وقد يكونُ أثرُ صدقةِ المرضِ في انشراحِ صدرِ المريضِ، وتقويةِ قلبِه بالتوكلِ، وإشراقِ نفسِه بنورِ حسنِ الظنِّ باللهِ -تعالى-، والتلذذِ بمناجاتِه، والتَّرَوُّحِ بانتظارِ فرجِه، والسلوِّ باحتسابِ أجرِ البلاءِ؛ فتُذْهِبُ حلاوةُ الرضا والأملِ مرارةَ الألمِ وإنْ وقَعَ الرَّهَقُ، وذاك من شأنِ الصدقةِ، وهو مقصودُ العافيةِ. قال رسولُ اللهِ ﷺ: "مَثَلُ البَخِيلِ وَالمُنْفِقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ مِنْ ثُدِيِّهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا، فَأَمَّا المُنْفِقُ فَلاَ يُنْفِقُ إِلَّا سَبَغَتْ أَوْ وَفَرَتْ عَلَى جِلْدِهِ، حَتَّى تُخْفِيَ بَنَانَهُ وَتَعْفُوَ أَثَرَهُ، وَأَمَّا البَخِيلُ فَلاَ يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئًا إِلَّا لَزِقَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا، فَهُوَ يُوَسِّعُهَا وَلاَ تَتَّسِعُ" رواه البخاريُّ. قال ابنُ القيمِ: "والمتصدقُ كلما تصدَّقَ بصدقةٍ انشرحَ لها قلبُه، وانفسحَ بها صدرُه، فهو بمنزلةِ اتساعِ تلك الجُبَّةِ عليه، فكلما تصدقَ اتَّسعَ، وانفسحَ، وانشرحَ، وقويَ فرحُه، وعَظُمَ سرورُه. ولو لم يكن في الصدقةِ إلا هذه الفائدةُ وحدَها؛ لكان العبدُ حقيقاً بالاستكثارِ منها، والمبادرةِ إليها". وذكرَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ: "أَنَّ كَثِيرًا مِنْ الْمَرْضَى أَوْ أَكْثَرُ الْمَرْضَى يَشْفُونَ بِلَا تَدَاوٍ، لَا سِيَّمَا فِي أَهْلِ الْوَبَرِ وَالْقُرَى وَالسَّاكِنِينَ فِي نَوَاحِي الْأَرْضِ؛ يَشْفِيهِمْ اللهُ بِمَا خَلَقَ فِيهِمْ

مِنْ الْقُوَى الْمَطْبُوعَةِ فِي أَبْدَانِهِمْ الرَّافِعَةِ لِلْمَرَضِ، وَفِيمَا يُيَسِّرُهُ لَهُمْ مِنْ نَوْعِ حَرَكَةٍ وَعَمَلٍ أَوْ دَعْوَةٍ مُسْتَجَابَةٍ أَوْ رُقْيَةٍ نَافِعَةٍ أَوْ قُوَّةٍ لِلْقَلْبِ وَحُسْنِ التَّوَكُّلِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأَسْبَابِ الْكَثِيرَةِ غَيْرِ الدَّوَاءِ".

يا مَن بُليتَ مِن الرحمنِ بالسَّقَمِ — وبِتَّ ليلَك مكلوماً فلمْ تَنَمِ
قمْ وابذلِ المالَ في الخيرات محتسِباً — وداوِ نفسَك وادعُ اللهَ ذا الكرمِ
شفاءُ سُقمِك في مالٍ تجودُ به — فجُدْ بمالِك إنَّ اللهَ لمْ يَنَمِ

عبادَ اللهِ!

وحتى يكونَ للصدقةِ حُسْنُ الأثرِ في الاستشفاءِ؛ فلابُدَّ من ملاحظةِ الإخلاصِ فيها واليقينِ؛ بأنْ يكونَ المُبتغى بها وجهَ اللهِ ورحمتَه التي يكونُ بها إنزالُ شفائِه وإذهابُ بأسِه، وأنْ يكونَ القلبُ مُفْعَماً بصدقِ نفعِها حين جعلَ اللهُ ذلك من خصيصتِها بما قَرَّرَتْهُ الأدلةُ، وألا يستعجلَ المرءُ رؤيةَ نفعِها، وأنْ تكونَ من الحلالِ الطيِّبِ؛ إذ لا يَقبلُ اللهُ إلا طيباً. هذا، وإنَّ من أدبِ صدقةِ المرضِ اللازمِ أن يلتزمَ المرءُ بألا تزيدَ صدقتُه في مرضِه الذي من شأنِه أنْ يكونَ سبباً غالباً في الموتِ — وهو ما يسمِّيه العلماءُ المرضَ المَخُوفَ-عن ثلثِ مالِه، وألا تكونَ لوارثٍ. وما عداه من المرضِ فالأمرُ فيه أسهلُ شريطةَ ألا يترتبَ عليها تضييعُ مَن تلزمُه نفقتُه، أو يقعُ منه حيفٌ على من يلزمُه العدلُ في عطائه.

عبادَ اللهِ!

إذا كان هذا علوَّ قدْرِ الصدقةِ حالَ المرضِ؛ فكيف إذاً يكونُ قدْرُها حالَ الصحةِ؟! جاءَ رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْرًا؟ قَالَ: "أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَى الفَقْرَ، وَتَأْمُلُ الغِنَى، وَلاَ تُمْهِلُ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ، قُلْتَ لِفُلاَنٍ كَذَا، وَلِفُلاَنٍ كَذَا وَقَدْ كَانَ لِفُلاَنَ" رواه البخاري ومسلم.

غنيمةُ الوعدِ الإلهيِّ

الحمدُ للهِ الذي له ملكُ السمواتِ والأرضِ وهو على كلِّ شيءٍ قديرٍ، الذي أحسنَ كلَّ شيءٍ خلَقه؛ فأحكمَ المبدأَ والمصيرَ، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ العليمُ الخبيرُ، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه البشيرَ النذيرَ، صلى اللهُ وسلمَ عليه وعلى آلِه وصحبِه إلى يومِ النُّشورِ.

أمّا بعد، فاتّقوا اللهَ — عبادَ اللهِ -، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ... ﴾.

أيّها المؤمنون!

وعودُ اللهِ — جلّ شأنُه — كنوزٌ مزبورةٌ في ثنايا القرآنِ والسنةِ، تشملُ ما يُصلِحُ حالَ الفردِ والمجتمعِ، وما تعظمُ الحاجةُ إليه في الدُّنيا والآخرةِ؛ من الرَّغيفِ إلى الفِردوْسِ. ومَن استقرأ وعْدَ اللهِ — تعالى — في كتابِه وما ورد على لسانِ رسولِه ﷺ هالَهُ وفرةُ تلك الوعودِ، وكثرةُ التَّفريطِ فيها؛ فالرزقُ والنصرُ وإجابةُ الدعاءِ والشفاءُ والاستخلافُ والكِفايةُ والسّعادةُ والهِدايةُ والأمنُ غاياتٌ ساميةٌ طَموحةٌ قد كَفلتْها وعودُ اللهِ — سبحانَه -، وغيرُها كثيرٌ. وأسمى تلكَ الغاياتِ الفوزُ بدخولِ الجنةِ والنَّجاةِ من السَّعيرِ، وذاك أكثرُ ما وعدَ به عبادَه المُتَّقينَ.

أيّها المسلمونَ!

إنَّ تلكَ الوعودَ الإلهيَّةَ قد امتازتْ بالحقيقةِ التي لا امْتراءَ فيها ولا خُلْفَ،

والمَكِنةُ التي بها القدرةُ على الظَّفرِ؛ إذ هي عهدُ مَن لا أوْفى ذمةً منه، وخبرُ مَن لا أصدقَ منه، وحُكمُ مَن لا أحكمَ منه، وعطاءُ مَن لا أجزلَ عطاءً منه، ورحمةُ مَن لا أرحمَ منه، وقدرةُ مَن لا أقدرَ منه، الذي له ملكُ السمواتِ والأرضِ وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ؛ ممّا يجعلُ التفقُّهَ في تلك الوعودِ، والسعيَ في إدراكِها أجلَّ ما أعملَ المؤمنُ فيها فكرَه، ووجّه إليها همَّه، وأشغلَ به وقتَه. وملازمةُ ذلكَ النَّهجِ مؤذنٌ بقوةِ عَلاقةٍ مع اللهِ — سبحانَه –، واستقامةٍ على صراطِه، وحسنِ توكُّلٍ عليه. كما أنَّه حاملٌ على جميلِ الاصطِبارِ، ومانعٌ من اليأسِ واستعجالِ النتائجِ؛ لبيانِ العاقبةِ التي جلّاها ذلكَ الوعدُ الذي لا يُخلَفُ. وهو كذلك مُكسِبٌ المؤمنَ عزةً ورفعةً ومَنَعةً؛ لا تذلُّه الحاجةُ، ولا تكسرُه قوةُ العدوِّ وبطشُ الطُّغاةِ، ولا يستخِفّنّه الذينَ لا يوقِنُون؛ إذْ إنَّه يركنُ حين ركنَ غيرُه إلى مخلوقٍ إلى ربِّه الخالقِ القويِّ، ويأْرِزُ حين أرزَ غيرُه إلى المادةِ إلى ربِّه القاهرِ الغنيِّ؛ فالناسُ من حولِه يتخبَّطونَ في عالمٍ ماديٍّ محدودٍ مقهورٍ، وذاكَ قد تَسامَى؛ إذْ أوى إلى ركنِ ربِّه الشديدِ. وما دونَ اللهِ دونٌ، ومع اللهِ تطيبُ الحياةُ؛ فأنَّى لمن كان اللهُ معه أن يُقهرَ، أو يُذلَّ، أو يستكينَ.

أيّها الإخوةُ في اللهِ!

إن وعدَ اللهِ حقٌّ؛ لا يتخلفُ، ولا يتبدَّلُ، ولكنْ دون تحقُّقِه شروطٌ؛ لا بدّ من اجتماعِها، وموانعُ؛ لا بدّ من انتفائِها. فإنْ لم يقعْ وعدُ اللهِ — جلّ وعلا –؛ فإنّ مردَّ ذلك لانتفاءِ شرطٍ، أو وجودِ مانعٍ. وثَمّةَ شروطٌ ثلاثةٌ، ينبغي رعيَها؛ للظَّفَرِ بغنيمةِ الوعدِ الإلهيِّ:

أوَّلُها: اليقينُ الجازمُ بصدقِ الوعدِ الإلهيِّ وتحقُّقِه؛ تأملْ في قيلِه — عزّ وجلّ -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾، ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، ﴿وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾، ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾، ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾. آياتٌ قاطعةُ الدلالةِ على حتمية وقْعِ وعدِ اللهِ، وإنِ اشتدَّ الكربُ، وتفاقمَ الخَطبُ، وتوارتْ أسبابُ الحسِّ. وذلك اليقينُ ممّا امتازَ به أهلُ الإيمانِ في مواقفِ اللأواءِ والضَّنكِ؛ فكان ذاك ميعادُ تنزُّلِ وعدِ اللهِ، يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا﴾. وذلكَ اليقينُ أقوى دافعٍ للاصطبارِ، وتحمُّلِ المشاقِّ؛ للظفرِ بالوعدِ الإلهيِّ. قَالَ زُهَيْرُ بْنُ نُعَيْمٍ: "إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِشَيْئَيْنِ: الصَّبْرِ وَالْيَقِينِ، فَإِنْ كَانَ يَقِينٌ وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ صَبْرٌ لَمْ يَتِمَّ، وَإِنْ كَانَ صَبْرٌ وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ يَقِينٌ لَمْ يَتِمَّ "، وَقَدْ ضَرَبَ لَهُمَا أَبُو الدَّرْدَاءِ مَثَلًا، فَقَالَ: مَثَلُ الْيَقِينِ وَالصَّبْرِ مَثَلُ فَدَّادِينَ (مُزارعين) يَحْفِرَانِ الْأَرْضَ، فَإِذَا جَلَسَ وَاحِدٌ جَلَسَ الْآخَرُ"، و قال شيخُ الإسلامِ: "وَلَا يُمْكِنُ الْعَبْدُ أَنْ يَصْبِرَ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَا يَطْمَئِنُّ بِهِ، وَيَتَنَعَّمُ بِهِ، وَيُغْتَذَى بِهِ؛ وَهُوَ الْيَقِينُ".

وثاني شروطِ الظفرِ بالوعدِ الإلهيِّ: الصدقُ في طلبِ الوعدِ؛ عزيمةً، وفعلاً. يقول ابنُ القيمِ: "لَيْسَ للْعَبد شَيْءٌ أَنْفَعُ من صدقِه ربَّه فِي جَمِيع أُمُوره مَعَ صدقِ الْعَزِيمَةِ؛ فيصدقُه فِي عزمه، وَفِي فعلِه، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾. فسعادتُه فِي صدقِ الْعَزِيمَةِ وَصدقِ

الْفِعْلِ، فَصدقُ الْعَزِيمَةِ: جمعُهَا، وجزمُها، وعدمُ التَّرَدُّدِ فِيهَا؛ بل تكونُ عَزِيمَةً لَا يشوبُها تردُّدٌ، وَلَا تلوّمٌ. فَإِذا صدقتْ عزيمتُه بَقِيَ عَلَيْهِ صدقُ الْفِعْلِ؛ وَهُوَ استفراغُ الوسعِ، وبذلُ الْجَهدِ فِيهِ، وَأَن لَا يتخلّفَ عَنهُ بِشَيْءٍ من ظَاهره وباطنِه. فعزيمةُ الْقَصْدِ تَمنعُهُ من ضعفِ الإرادةِ والهمّةِ، وَصدقُ الْفِعْلِ يمنعُهُ من الكسلِ والفتورِ. وَمَن صدقَ اللهَ فِي جَمِيعِ أُمُورِه صنع اللهُ لَهُ فوق مَا يصنعُ لغيرِه. وَهَذَا الصدْقُ معنىً يلتئمُ من صحّةِ الْإِخْلَاصِ وَصدقِ التوكّلِ؛ فَأَصدقُ النَّاسِ مَن صحّ إخلاصُه وتوكّلُه". روى شَدَّادُ بْنُ الْهَادِ: أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَعْرَابِ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ، ثُمَّ قَالَ: أُهَاجِرُ مَعَكَ، فَأَوْصَى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ بَعْضَ أَصْحَابِهِ، فَلَمَّا كَانَتْ غَزْوَةٌ غَنِمَ النَّبِيُّ ﷺ سَبْيًا، فَقَسَمَ وَقَسَمَ لَهُ، فَأَعْطَى أَصْحَابَهُ مَا قَسَمَ لَهُ، وَكَانَ يَرْعَى ظَهْرَهُمْ، فَلَمَّا جَاءَ دَفَعُوهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟، قَالُوا: قِسْمٌ قَسَمَهُ لَكَ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَخَذَهُ فَجَاءَ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قَالَ: «قَسَمْتُهُ لَكَ»، قَالَ: مَا عَلَى هَذَا اتَّبَعْتُكَ، وَلَكِنِّي اتَّبَعْتُكَ عَلَى أَنْ أُرْمَى إِلَى هَاهُنَا، وَأَشَارَ إِلَى حَلْقِهِ بِسَهْمٍ، فَأَمُوتَ فَأَدْخُلَ الْجَنَّةَ، فَقَالَ: «إِنْ تَصْدُقِ اللهَ يَصْدُقْكَ»، فَلَبِثُوا قَلِيلًا ثُمَّ نَهَضُوا فِي قِتَالِ الْعَدُوِّ، فَأُتِيَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ يُحْمَلُ قَدْ أَصَابَهُ سَهْمٌ حَيْثُ أَشَارَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَهُوَ هُوَ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «صَدَقَ اللهَ فَصَدَقَهُ»، ثُمَّ كَفَّنَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي جُبَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَدَّمَهُ فَصَلَّى عَلَيْهِ، فَكَانَ فِيمَا ظَهَرَ مِنْ صَلَاتِهِ: «اللَّهُمَّ هَذَا عَبْدُكَ خَرَجَ مُهَاجِرًا فِي سَبِيلِكَ، فَقُتِلَ شَهِيدًا؛ أَنَا شَهِيدٌ عَلَى ذَلِكَ» رواه النَّسائيُّ وصحّحه الألبانيُّ.

وثالثُ شروطِ دركِ الوعدِ الإلهيِّ: الصبرُ وعدمُ الاستعجالِ، يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾؛

فطريقُ المؤمنينَ الواصلينَ المُمسكينَ بحبلِ اللهِ هو طريقُ الصبرِ والثقةِ واليقينِ، مهما يطُلْ هذا الطريقُ، ومهما تحتجبْ نهايتُه وراء الضبابِ والغيومِ. هكذا كان رسولُ اللهِ ﷺ يربِّي أصحابَه وهو يراهم يرزَحونَ تحت وطْأةِ عذابِ الكفارِ الشديدِ وليس له يدٌ في نُصرتِهم. قال خَبَّابُ بْنُ الأَرَتِّ – رضي اللهُ عنه-: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ؛ فَقُلْنَا: أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ أَلاَ تَدْعُو لَنَا؟ فقَالَ: «قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ، يُؤْخَذُ الرَّجُلُ، فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ، فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ، مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لاَ يَخَافُ إِلَّا اللهَ، وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ» رواه البخاريُّ. فوقتُ تحققِ وعدِ اللهِ غيبٌ؛ لا يعلمُه إلا هوَ –سبحانه-، يقدِّرُ تنزُّلَه بعلمٍ وحكمةٍ ورحمةٍ متى ما أرادَ، وليس للعبدِ إلا السعيُّ والتسليمُ وارتقابُ وقوعِ الوعدِ.

عبادَ اللهِ!

وبإدراكِ هذه الشروطِ الثلاثِ تُعلمُ الموانعُ التي تُعيقُ تحقُّقَ وعدِ اللهِ؛ وذلك باختلالِ اليقينِ، وضعفِ الصدقِ، والاستعجالِ، والإصرارِ على الذنبِ الذي قد يمنعُ حصولَ الوعدِ، كما مَنَعَ المالُ الحرامُ تحققَ وعدِ إجابةِ الدعاءِ وإن أُتي بأسبابِ الإجابةِ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.

أيّها المؤمنونَ!

إنّ للموقنينَ بوعدِ اللهِ — سبحانَه — مواقفَ، تحيا بذكرِها القلوبُ، ويقوى بها اليقينُ، وتزولُ عن النفسِ حجبُ اليأسِ والقنوطِ. ومن غُررِ تلك الأخبارِ ما روى أنسُ بنُ مالكٍ — رضي اللهُ عنه -؛ قال: غَابَ عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ عَنْ قِتَالِ بَدْرٍ، فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ المُشْرِكِينَ، لَئِنِ اللهُ أَشْهَدَنِي قِتَالَ المُشْرِكِينَ لَيَرَيَنَّ اللهُ مَا أَصْنَعُ»، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ، وَانْكَشَفَ المُسْلِمُونَ، قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلاَءِ - يَعْنِي أَصْحَابَهُ -، وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلاَءِ، - يَعْنِي المُشْرِكِينَ - ثُمَّ تَقَدَّمَ»، فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ: «يَا سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ، الجَنَّةَ - وَرَبِّ النَّضْرِ - إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ»، قَالَ سَعْدٌ: فَمَا اسْتَطَعْتُ - يَا رَسُولَ اللهِ - مَا صَنَعَ، قَالَ أَنَسٌ: فَوَجَدْنَا بِهِ بِضْعًا وَثَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ أَوْ طَعْنَةً بِرُمْحٍ، أَوْ رَمْيَةً بِسَهْمٍ، وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ وَقَدْ مَثَّلَ بِهِ المُشْرِكُونَ، فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إِلَّا أُخْتُهُ بِبَنَانِهِ، قَالَ أَنَسٌ: "كُنَّا نُرَى أَوْ نَظُنُّ أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَشْبَاهِهِ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ" رواه البخاريُّ ومسلمٌ. وقال أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ — رضي اللهُ عنه -: "وجدْنا الغِنى في اليقينِ". وقال مُحَمَّدُ بْنُ قُدَامَةَ: "لَمَّا احْتُضِرَ بِشْرُ بْنُ مَنْصُورٍ قِيلَ لَهُ: أَوْصِ بِدَيْنِكَ، قَالَ: أَنَا أَرْجُو

رَبِّي لِذَنْبِي؛ أَفَلَا أَرْجُوهُ لِدَيْنِي؟! فَلَمَّا مَاتَ قَضَى عَنْهُ دَيْنَهُ بَعْضُ إِخْوَانِه". وغلا السعر وقتًا، فجاء قوم أبا حازم، فقَالُوا لَهُ: "يَا أَبَا حَازِمٍ، أَمَا تَرَى؟ قَدْ غَلَا السِّعْرُ، فَقَالَ: وَمَا يَغُمُّكُمْ مِنْ ذَلِكَ؟! إِنَّ الَّذِي يَرْزُقُنَا فِي الرُّخْصِ هُوَ الَّذِي يَرْزُقُنَا فِي الْغَلَاءِ". وقال سفيانُ الثوريُّ لمحمدِ بنِ محمدٍ: لَا أَقُومُ حَتَّى تُحَدِّثَنِي، قَالَ لَهُ: أَنَا أُحَدِّثُكَ، وَمَا كَثْرَةُ الْحَدِيثِ لَكَ بِخَيْرٍ. يَا سُفْيَانُ، إِذَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْكَ بِنِعْمَةٍ فَأَحْبَبْتَ بَقَاءَهَا وَدَوَامَهَا؛ فَأَكْثِرْ مِنَ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ عَلَيْهَا؛ فَإِنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - قَالَ فِي كِتَابِهِ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وَإِذَا اسْتَبْطَأْتَ الرِّزْقَ، فَأَكْثِرْ مِنَ الِاسْتِغْفَارِ؛ فَإِنَّ اللهَ - تَعَالَى - قَالَ فِي كِتَابِهِ: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾، يَا سُفْيَانُ، إِذَا حَزَبَكَ أَمْرٌ مِنْ سُلْطَانٍ أَوْ غَيْرِهِ، فَأَكْثِرْ مِنْ: "لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ"؛ فَإِنَّهَا مِفْتَاحُ الْفَرَجِ، وَكَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ، فَعَقَدَ سُفْيَانُ بِيَدِهِ، وَقَالَ: ثَلَاثٌ، وَأَيُّ ثَلَاثٍ! قَالَ جَعْفَرٌ: عَقِلَهَا - وَاللهِ - أَبُو عَبْدِ اللهِ، وَلَيَنْفَعَنَّهُ اللهُ بِهَا".

فتنةُ القلبِ

إنّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مضلّ له، ومَن يضللْ فلا هاديَ له،وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعد، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ... ﴾.

أيّها المؤمنون!

القلبُ أشرفُ الأعضاءِ، وسلطانُها الآمرُ، وقائدُها المؤثِّرُ. وألْزَمُ ما ينبغِي رعيُه في ذلكَ القلبِ ورقبُه حالُه حين تُعرضُ له فِتنُ الشُّبهاتِ والشهواتِ؛ وذلكَ ممّا لا بُدَّ له من ملاقاتِه. وقد أبانَ النبيُّ ﷺ ذاكَ الحالَ بقولِه فيما رَوى مسلمٌ في صحيحِه عن حُذيفةَ بنِ اليمانِ — رضيَ اللهُ عنهما - : «تُعرضُ الفتنُ على القلوبِ كالحصيرِ عُوداً عُوداً، فأيُّ قلبٍ أُشربَها، نُكتَ فيه نُكتةٌ سَوْداءُ، وأيُّ قلبٍ أنكرَها، نُكتَ فيه نُكتةٌ بيضاءُ، حتى تصيرَ على قلبيْنِ؛ على أبيضَ مثلِ الصَّفا؛ فلا تضُرُّه فتنةٌ ما دامتِ السماواتُ والأرضُ، والآخرُ أسودُ مِرْبادّاً كالكُوزِ، مُجَخِّياً، لا يعرفُ معروفاً، ولا يُنكرُ مُنكراً، إلا ما أُشربَ من هواه». هكذا جلّى النبيُّ ﷺ بجامعِ الكَلِمِ المبيَّنِ بالمثالِ المحسوسِ تلك القضيةَ الجوهريَّةَ المِفصليَّةَ؛ من خلالِ بيانِ طريقةِ عرْضِ الفتنِ على القلوبِ، وكيفيةِ استقبالِ القلوبِ لها، وأثرِ ذلك الاستقبالِ عليها.

أيّها المسلمون!

إن الفتنَ بشقّيْها – فتنِ الشّهواتِ، وفتنِ الشُّبهاتِ، وهي أخطرُ – تقبلُ على القلبِ، وتُعرَض مُزَيَّنةً له؛ امتحانًا لإيمانِه، وبلوًّ خبرِه، عرضًا متواليًا؛ فتنةً تتبَعُ فتنةً، بتكرارٍ وعوْدةٍ؛ سعيًا للالتصاقِ به والإحاطةِ، كالتصاقِ الأعوادِ بالحصيرِ وإحاطتِها به؛ مما ينشأ عنه في مدافعةِ القلبِ ضيقٌ وشدةٌ لا تنفكُّ منها فتنةٌ. وحالُ القلوبِ عند عرضِ الفتنِ عليها أحدُ حالَيْن: تشرّبٌ وقَبولٌ، وردٌّ وإنكارٌ. والفتنُ مَركَبُ الشيطانِ الذي من خلالِه يُجلِبُ على القلبِ، فإنْ كان الإيمانُ لم يرسخْ في القلبِ، ولم يتمكنْ منه؛ فإنَّه يتزلزلُ للفتنةِ، ويضعُفُ أمامها؛ فيقبلَها ويتشرّبَها، وتمازجُه، وتحلُّ فيه، ويتأثرُ بها. كلما تشرّبَ فتنةً نُقطَ فيه نُقطةٌ سوداءُ، وبقدرِ ذلك التشرّبِ تكونُ ظلمةُ القلبِ واسودادُه، فلا يزالُ هكذا حتى يعمّه السوادُ من جميعِ جوانبِه، كحالِ مصباحِ الزجاجةِ الصافيةِ؛ فإنّها تضيءُ من جميعِ جهاتِها، فلو صادفَ جانبًا منها دُخَانٌ، وتكرّرَ عليها، ولم يُمطْ عنها؛ فإنّ ذلكَ المَوضعَ يسودّ، ولو كان ذلكَ في جميعِ أجزائِها لأظلمتْ من سائرِ نواحِيها. فإذا كثرَ السَّوادُ واستحكمَ على القلبِ، وغالَبَ صفاءَ فطرتِه؛ اربدّ، وتكدّرَ لونُه، وحين ذاك تنتكسُ فطرتُه، وينضُبُ منه الهُدى، ويندّ عنه، ولا تؤثِّرُ فيه المواعظُ والعِبَرُ، كحالِ الماءِ مع الكأسِ المقلوبِ؛ فلا يبقَى منه شيءٌ، ولا يدخلُه شيءٌ، والعياذُ باللهِ. ويُبتلَى بآفتيْنِ خطيرتيْنِ تدلانِ على موتِ القلبِ ومسخِه؛ بذهابِ ماءِ حياتِه؛ الآفةُ الأولى: اشتباهُ المعروفِ وخفاءُ وجهِه مع وضوحِه، والآفةُ الثانيةُ: استحكامُ الهوى وتحكّمُه وتحكيمُه؛ حتى لا يقبلَ ذلك القلبُ المظلمُ من الحقِّ إلا ما وافقَ

هواهُ، وذاك الحالُ البائسُ هو حالُ مَن زُيّنَ له سوءُ عملِه فرآه حَسناً، وذلك أحطُّ درَكَاتِ الضَّلالِ، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾، وابتُليَ بتبدُّلِ الآراءِ، وتناقُضِ المواقفِ دون دليلٍ أو بَصيرةٍ، كما قال أعلمُ الصحابةِ بالفتنِ حُذَيفةُ بنُ اليمانِ — رضي اللهُ عنهما — إثرَ روايتِه حديثَ فتنةِ القلبِ السابقِ: "فمَن أحبَّ منكم أن يعلمَ أصابتْه الفتنةُ أم لا؟ فلْينظرْ فإنْ رأى حراماً ما كان يراهُ حلالاً، أو يرى حلالاً ما كان يراهُ حراماً؛ فقدأصابتْه الفتنةُ"[1]. إنّ أسى تلك النهايةِ إنّما كان بإهمالِ مُعالَجةِ انحرافِ البدايةِ؛ حين عُرضتِ الفتنُ على القلبِ، وزُيّنتْ، ولم يتعاملْ معها التعامُلَ الشرعيَّ الحاسمَ لمادَّتِها والعاصمَ من شرِّها؛ فكيف بمَن كان معافىً منها، وأبى إلا الاستشرافَ إليها؛ فأردتْه صريعاً غَرِقاً في لُجَجِ موجِها الحالكِ؟!

أيّها المؤمنون!

وأمّا إنْ كان القلبُ مطمئناً بالإيمانِ، راسخاً رسوخَ الشُّمِّ الرواسي، وماءُ الإيمانِ الطّاهرِ يملأُ أركانَ الجَنانِ؛ فإنّ الفتنَ تَزيدُ ذلك القلبَ قوةً، وثباتاً، وبَصيرةً، ونوراً؛ وذلك أنّ الفتنةَ إذا قابلتِ القلبَ المؤمنَ سدّ منافذَها، وأبغضَها وأنكرَها. يستثيرُه إيمانُه، وتستجيشُه تَقواهُ بالفزعِ إلى ربِّه، والحياءِ من خالقِه — سبحانه —؛ كيف عرضَ له مثلُ ذلك؟ أو خطرَ في فكرِه؟ واعتذرَ من ضعفِ

(١) كما جاء في رواية ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٤٧٤)، ورواه الحاكم مفرداً دون باقي الرواية في مستدركه (٤/ ٥١٤) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

جبلَّتِه البشريَّةِ، كما قال يوسفُ — عليه السلامُ -: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ حالتُه تلكَ كالغَسلِ والتَّنقيةِ لقلبِه، لا سيّما في المَنفذِ الذي رامتِ الفتنةُ الولوجَ على قلبِه منه؛ إذ تُنقطُ فيه نُقطةٌ بيضاءُ مع كلِّ فتنةٍ مردودةٍ؛ فيكونُ ذلك المنفَذُ القلبيُّ أشدَّ بياضًا من باقي القلبِ كلِّه، وهكذا تكثرُ النقَطُ البيضاءُ بإنكارِ الفتنِ من شَهواتٍ وشُبهاتٍ حتى تغطِّيَ مساحةَ القلبِ كلِّه، فيكونَ كحجرِ الصَّفا الأملسِ الصلبِ الذي لا تعلَقُ به عالقةٌ، ولا تؤثّرُ فيه عاديةٌ طيلةَ الحياةِ الباقيةِ بقاءَ السماءِ والأرضِ؛ له بصيرةٌ ثاقبةٌ، ونورُ سراجٍ ساطعٌ؛ لا يأتيه الشيطانُ من جهةٍ إلا رآه، ولا يتحركُ ناهضًا إليه إلا لحِظَه ورأى مسالكَه والأسبابَ التي يجعلُها سلالمَ للوصولِ إلى قلبِه؛ فلا تضرُّه حينئذٍ فتنةٌ ما دام هذا حالُه. ويتأكَّدُ ذلك الدَّفعُ والإنكارُ في بدءِ وُرودِ الفتنِ، كما جاء عند الحاكمِ بإسنادٍ صحّحه على شرطِ البخاريِّ ومسلمٍ ووافقَه الذهبيُّ أنّ النبيَّ ﷺ قال: «تُعرضُ فتنةٌ على القلوبِ، فأيُّ قلبٍ أنكرَها نُكتتْ في قلبِه نُكتةٌ بيضاءُ، وأيُّ قلبٍ لم ينكرْها نُكتتْ في قلبِه نُكتةٌ سوداءُ، ثم تُعرضُ فتنةٌ أخرى على القلوبِ، فإنْ أنكرَها القلبُ الذي أنكرَها في المرةِ الأولى نُكتتْ في قلبِه نكتةٌ بيضاءُ، وإنْ لم ينكرْها نُكتتْ نُكتةٌ سوداءُ، ثم تُعرضُ فتنةٌ أخرى على القلوبِ، فإنْ أنكرَها الذي أنكرَها في المرَّتيْنِ الأولَيَيْنِ اشتدَّ وابيضَّ وصَفَا؛ ولم تضرُّه فتنةٌ أبداً، وإن لم ينكرْها في المرَّتيْنِ الأولَيَيْنِ اسودَّ وارتدَّ ونكَسَ؛ فلا يعرفُ حقاً، ولا ينكِرُ مُنكَراً».

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أمّا بعدُ، فاعلمُوا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنون!

إن إنكارَ القلبِ للفتنِ، وبغضَه لها، وسلامتَه منها، سواءً كانت فتنةً أو شهوةً أو شُبهةً؛ إنّما يكفي بمعرفتِه الحقَّ معرفةً كليَّةً وإنْ كانتِ المعرفةُ التفصيليَّةُ أبلغَ في ذلكَ الإنكارِ والبُغضِ؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾، يقولُ ابنُ سعديٍّ في هدايةِ هذه الآيةِ: "وفي هذه الآيةِ وما بعدها دليلٌ على قاعدةٍ شريفةٍ؛ وهو أنّ ما قامتِ الأدلَّةُ على أنَّه حقٌّ، وجزمَ به العبدُ من مسائلِ العقائدِ وغيرِها؛ فإنَّه يجبُ أن يجزمَ بأنَّ كلَّ ما عارضَه فهو باطلٌ، وكلَّ شبهةٍ توردُ عليه فهي فاسدةٌ، سواءً قدرَ العبدُ على حلِّها أم لا؛ فلا يوجبُ له عجزُه عن حلِّها القدحَ فيما علمَه؛ لأنَّ ما خالفَ الحقَّ فهو باطلٌ، قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾. وبهذه القاعدةِ الشرعيةِ تنحلُّ عن الإنسانِ إشكالاتٌ كثيرةٌ يوردُها المتكلِّمون ويرتِّبُها المنطقيُّون، إنْ حلَّها الإنسانُ فهو تبرُّعٌ منه، وإلا فوظيفتُه أن يبيِّنَ الحقَّ بأدلتِه، ويدعو إليه".

عباد الله!

ومنْ رحمةِ اللهِ بعبادِه أن هيَّأ لهم ما يمْحونَ به تلكَ النُّقطَ السوداءَ الناشئةَ

من تشربِ الفتنِ ومقارفةِ الزّللِ من قلوبِهم بمَمْحاةِ التوبةِ والاستغفارِ؛ حتى لا يعلوَ الرانُ عليها؛ فتنتكِسَ، وحتى تعودَ القلوبُ على أصلِ نقائِها وصفائِها وطهارتِها، يقولُ النبيُّ ﷺ: "إنّ العبدَ إذا أخطأ خطيئةً نُكتتْ في قلبِه نُكتةٌ سوداءُ، فإذا هو نزعَ واستغفرَ وتابَ سقلَ قلبُه، وإن عاد زيدَ فيها حتى تعلوَ قلبَه، وهو الرانُ الذي ذكرَ اللهُ: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾" رواه الترمذيُّ، وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

فتنةُ النظرِ التِّقنيِّ

الحمدُ للهِ الذي أحاطَ بكلِّ شيءٍ علماً، وأحصى كلَّ شيءٍ عدداً، يعلمُ السِّرَّ وأخْفَى، والجهرَ والنَّجوى، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، له الأسماءُ الحُسنَى والصِّفاتُ العُلَى، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه المُصطَفى، صلّى اللهُ وسلمَ عليه وآلِه وصحبِه ومَن لأثَرِه اقْتفَى.

أمّا بعدُ، فاتّقوا اللهَ — عبادَ اللهِ –، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ... ﴾.

أيّها المؤمنونَ!

محكٌّ شديدٌ يُمتحَن فيه الإيمانُ، وتُبلَى السَّريرةُ، وتَبينُ الخشيةُ؛ ذلكم مَوطنُ تيسُّرِ الحرامِ، وقوةُ الدَّاعي إليه، وخفائه عن أعيُنِ البشرِ، وأمنِ المُحاسبةِ الدنيويَّةِ والفضيحَةِ وهَتكِ السِّترِ. فذلكُم — لعَمرُ اللهِ — بلاءٌ شديدٌ؛ يظهرُ فيه صدقُ التّقوى وكمالُ الخوفِ مِن الجليلِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءً وَذِكۡرًا لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٤٨ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾، وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٍ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾، يقولُ الشافعيُّ: "أشدُّ الأعمالِ ثلاثةٌ؛ الجودُ من قلَّةٍ، والورَعُ من خَلوةٍ، وكلمةُ الحقِّ عند من يُرجَى ويُخافُ". ألا وإنّ من تلكَ الفتنِ التي عمّتْ وسهُلتْ طوفانَ المناظرِ المُحرّمةِ المنقولةِ والمُتداولةِ عبرَ

أجهزةِ الاتِّصالِ التقَنيِّ والتي ليس بينها وبين الملاحَظِ سوى مسيسِ الأصابعِ!

إنّ فتنةَ النّظرِ في ظلِّ الانفتاحِ الإعلاميِّ، وكيدِ إضلالِ الأعداءِ الدائبِ، وحَمِئةِ نشاطِ تجَّارِ الرَّذيلةِ، وتسلُّطِ الشيطانِ الرَّجيمِ، وتزيينِ النفْسِ الأمّارةِ بالسُّوءِ وضَعفِها، كلَّ ذلكَ يُوجِبُ وقفةَ المُحاسبةِ والتّذكيرِ؛ للنَّجاةِ من ذاكَ الشرِّ المسْتطِيرِ والإنجاءِ! والمعصومُ مَن عصمَه اللهُ.

أيّها المسلمونَ!

إنّه لا نجاةَ للعبدِ من تلكَ الفتنةِ إلا بإنجاءِ موْلاهُ؛ وذاكَ ما أرشدَ إليه عبادَه في التّعاملِ مع فتنةِ النظرِ بأيِّ طرفٍ كانتْ وبأيِّ وسيلةٍ زُخرفتْ؛ حينَ قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾؛ ذلكُم دواءُ خالقِ النفسِ العالمِ بما يُصلحُها وما يضرُّها. ولمّا كان الغضُّ من قَبيلِ فَطْمِ النَّفسِ عن شَهَواتِها - سيَّما إنْ طالَ إرسالُ الطَّرْفِ وبلغ حدَّ الإدمانِ -؛ صار الصبرُ والمُجاهدةُ سبيلَ تذليلِه؛ بإعانةِ اللهِ الصابرينَ، ووعدِه المجاهدينَ هدايةَ السُّبلِ، "ومَن يتصبّرْ يصبّرْه اللهُ". وتعاهُدُ تعظيمِ اللهِ في القلبِ، والحياءُ منه من أعظمِ ما يحجزُ عن رؤيةِ الحرامِ، وهكذا استحضارُ اطِّلاعِه وقربِه. سأل الجُنيدَ رجلٌ: بمَ يُستعانُ على غضِّ البصرِ؟ فأجابَ: بعلمِكَ أنّ نظرَ اللهِ أسبقُ من نظرِكَ إليه. والإكثارُ من النَّوافلِ جُنّةٌ إلهيَّةٌ عاصمةٌ من زَيْغِ البصرِ وطُغيانِه، كما قال اللهُ — تعالى — في الحديثِ القدْسيِّ الصَّحيحِ: "وما يزالُ عبدِي يتقرَّبُ إليَّ بالنَّوافلِ حتى أحبَّه، فإذا أحببتُه: كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به، وبصرَه الذي يبصرُ به". والإخلاصُ خلاصٌ للعبدِ من لطْخِ الفحشاءِ ومقدماتِها — ورائدُها

النظرُ -، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾. وإقامُ الصّلاةِ مَنهاةٌ عن الفواحشِ ووسائلِها، كما قال جلّ وعزّ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾. وتذكّرُ الشهاداتِ الثلاثةِ حاجزٌ عن تسريحِ المُقَلِ في مَراتعِ الحرام؛ فالأرضُ تشهدُ يومَ تحدِّثُ أخبارَها، والكرامُ الكاتبونَ يشهدونَ، والعينُ تنطقُ بالشَّهادةِ يومَ العرضِ حين يُخرسُ اللسانُ، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، وشهادةُ اللهِ أكبرُ شهادةٍ، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾. وأعظمُ وسائلِ السّلامةِ من تلك الفتنةِ التحرزُ الوقائيُّ والتحوُّطُ المُسبَقُ؛ إذْ مَن حامَ حولَ الحِمَى أوْشكَ أن يقعَ فيه؛ وذلكَ بألّايقربَ المرءُ مواقعَ المناظرِ المُحرَّمةِ الثابتةِ والمُتحركةِ، الحقيقيةِ والمرسومةِ، ولا ينساقَ وراء الفُضولِ ومحبةِ الاستِطلاعِ، ولا يختليَ بجهازِ الاتِّصالِ خاصّةً مع طولِ التَّصفُّحِ دون تحديدِ هدفٍ مُثمرٍ؛ فتلك الخَلوةُ الطَّويلةُ العاريةُ عن الهدفِ أسنحُ فرصةٍ شيطانيّةٍ لإيقاعِ العبدِ في حَوْبةِ النظرِ وشَرَكِ حبائلِه. وتجديدُ التوبةِ، وتعاهدُها خيرُ علاجٍ لخائنةِ العينِ الذي كثيراً ما يقارفُه العبدُ، ويغدو سبباً لمُباغضَةِ ذلك المنكرِ، وهجرِ ذكرِه والحنينِ إليه؛ وذلك من أسرارِ تعقيبِ الأمرِ بالتوبةِ بعد الأمرِ بغضِّ البصرِ، كما قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾، كما قرّرَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ. وانكسارُ العبدِ بين يَديْ مَوْلاهُ، وضَراعتُه إليه بأنْ يقيَه تلك الفتنةَ، وأن يصرفَ عنه كيدَها اعتصامٌ بحبلٍ ربّانيٍّ متينٍ؛ وَقَى به اللهُ نبيَّه يوسفَ — عليه السلامُ — حين جأر إليه طالباً نجاتَه من كيدِ النِّسوةِ،

مُظهِراً ضعفَه واستكانتَه فقال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ٣٣ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾. وقد كان من دعاءِ النبيِّ المعصومِ ﷺ: "اللهمّ إني أعوذُ بك من شرِّ سمعي، ومن شرِّ بصَري، ومن شرِّ نفسي، ومن شرِّ منيي". رواه أبو داودَ وصحّحه الحاكمُ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصّلاةُ والسّلامُ على رسولِ اللهِ.
أمّا بعدُ، فاعلمُوا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

وفي ظلِّ هذا الانفتاحِ التِّقَنيِّ، وعدمِ القدرةِ على التحكُّمِ فيه، مع قيامِ الحاجةِ له؛ فإنّ مسؤوليّةَ الوليِّ تعظُمُ في حفظِ مَن ولّاه اللهُ أمرَهم من فتنةِ النظرِ؛ وذلكَ بزرعِ الوازعِ الإيمانيِّ في قلوبِهم وتعاهُدِه، وجعلِهم يرَوْن القدوةَ مّتمثِّلةً فيه، وتخوُّلِهم بذكرِ قبحِ هذا المنكرِ وأثرِه السيءِ في القلبِ والفكرِ ومآلِه الذي لا يُعلمُ مداه، وتنويعِ الوسائلِ في ذلكَ، واستحفاظِ اللهِ لهم من شرِّ تلك الفتنةِ؛ إذْ ودائعُ اللهِ المستَحفظَةُ أماناتٌ لا تضيعُ. وتعظمُ المسؤوليةُ أكثرَ مع أولئكَ الصّغارِ الذين قصُرَ إدراكُهم؛ وذلك بضبطِ إعطائهم الأجهزةَ التِّقنيَّةَ من خلالِ تحديدِ الوقتِ، والمواقعِ التي يدخلُونَها، وعدمِ اختلائِهم بها. وكذلكَ فإنّ المجتمعَ مُطَالَبٌ بمحاربةِ هذا المُنكرِ، والتّواصي بإنكارِه، وألا يكونَ المرءُ سبباً لنشرِ تلكَ المناظرِ وإرسالِها؛ بُغيةَ الإضحاكِ أو السُّخريةِ؛ فلربَّما كان ذلك فتنةً زرعتْ في القلوبِ البلاءَ وجرّتْ لمُرسلِها آثامَ مَن نظرَ أو فُتنَ! وهكذا يجبُ إنكارُ ذلك في مجموعاتِ التَّواصلِ بالأسلوبِ المناسبِ، وألّا تكونَ المُجاملةُ سببَ سكوتٍ عن إنكارِ ذلك المنكرِ، فضلاً عن التعليقِ عليه بحروفِ الضَّحكِ وعلاماتِه،وألّا تكونَ كثرةُ الإمساسِ مبلِّدةٌ للإحساسِ؛

فـاللهُ أحـقُّ أن يُخشَـى وأن يُتَّقَـى!

إذا مـا خلـوتَ الدَّهرَ يومـا فلا تقلْ   خَلَـوْتُ ولكـنْ قـلْ علـيّ رقيـبُ
ولا تحسـبنَّ اللهَ يغفَـلُ سـاعةً   ولا أنّ مـا يَخْفَـى عليـه يغيـبُ

وقَانا اللهُ شرّ تلكَ الفتنةِ! وسلّمَنا وذريّاتِنا وأهلينا ومُجتمعِنا من كيدِها!

فرحُ اللهِ بالتائبِ

الحمدُ للهِ عظيمِ الإحسانِ، واسعِ الغُفرانِ، خالقِ الإنسانِ، ومعلمِ البيانِ. وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ الواحدُ الديَّانُ، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلّى اللهُ وسلمَ عليه وعلى آلِه وصحبِه والتابعينَ لهم بإحسانٍ.

أمّا بعدُ، فاتّقوا اللهَ – عبادَ اللهِ –، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ... ﴾.

أيّها المؤمنونَ!

مَثَلٌ يهزُّ الوِجدانَ، وتقشعرُّ له الجلودُ، وتسيلُ به الدموعُ السواجِمُ. يظهرُ به عظيمُ فرحِ مالكِ الملوكِ بتوبةِ عبدِه المملوكِ؛ قال رسولُ اللهِ ﷺ: "لَله أشدُّ فرحا بتوبةِ عبدِه حين يتوبُ إليهِ من أحدِكم كان على راحلتِه (وفي رواية: بعيرٍ) بأرضِ فَلاةٍ مُهلِكةٍ فنام فانفلتتْ منه وعليها طعامُه وشرابُه، فاستيقظَ وقد ذهبتْ فطلبَها حتى أدركَه العطشُ؛ فأيِّسَ منها، فقال: أرجعُ إلى مكانِي الذي كنتُ فيه فأنامَ حتى أموتَ! فأتى شجرةً فاضطَّجع في ظلِّها، ووضعَ رأسَه على ساعدِه ليموتَ؛ قد أيِّسَ من راحلتِه فبيْنا هو كذلكَ إذا هو بها قائمةٌ عنده، فأخذَ بخِطامِها ثم قال من شدَّةِ الفرحِ: اللهمّ أنت عبدِي وأنا ربُّك؛ أخطأ من شدَّة الفرحِ –؛ فاللهُ أشدُّ فرَحا بتوبةِ العبدِ من هذا براحلتِه وزادِه" هذه رواياتُ مسلمٍ في صحيحِه وللبخاريِّ بعضُها.

عبادَ اللهِ!

تفصيلُ النبيِّ ﷺ أحداثَ ذاكَ المثلِ، وسردُ وقائعِه، وحكايةُ مشاهدِه؛ تحملُ على عظيمِ استشعارِه، والتأثرِ بعبَرِه. إذْ حكَى حالَ ذاكَ المُنقطِعِ في أرضٍ دَوِيَّةٍ مُهلِكةٍ؛ لا أنيسَ فيها، ولا جليسَ، ولا داعٍ، ولا مجيبَ، ولا زادَ، ولا دابةَ غيرَ ما كان يستصحبُه من بعيرٍ عليه طعامُه وشرابُه؛ فسببُ الحياةِ البادي معلَّقٌ بتلكَ الرّاحلةِ وما تحملُ. حتى إذا ما أضْناهُ المَسيرُ وتنقيلُ الخُطى أخلدَ إلى الأرضِ، وأناخَ راحلتَه، وبات في سُباتٍ عميقٍ، والتَّعبُ قد تملّكَ جسدَه حتى ما شعُرَ بقيامِ دابتِه وندّها عنه وصوتُ ثوْرتِها وتخَلخُلِ مَتاعِها يُوقِظُ النائمَ! لكنّ استغراقَه في النّومِ حجبَ عنه ذلكَ وتباعدَ به خَطْوُها. وحين انتبَهَ إذْ بالجَلَلِ يصدمُه! راحلتُه ومعيشتُه قفرٌ بين يديْه! وأنّى له بها في تلكَ الأرضِ الدويَّةِ والدّابّةُ بهيمةٌ تهيمُ فيها! ومع ذا انطلقَ باحثًا عنها بحثَ الحياةِ، ولم يهتدِ سبيلاً إليها، وفُوهُ قد جفَّ من الظمأِ؛ حتى كَلَّ المسيرَ، وأيقنَ بالموتِ، واختارَ مكانَ فِراقِ الراحلةِ ليكونَ مكانَ فِراقِ الدّنيا، واستظلَّ بفيءِ الشّجرةِ اتّقاءَ وهَجِ الشمسِ، واتّخذَ النومَ وهَجعتَه سبيلاً لإزالةِ الرَّهَقِ وإرهاصًا لمعالجةِ سَكَراتِ الموتِ جرَّاءَ فُقدانِ الطّعامِ والشرابِ والناقلِ من تلكَ الهَلَكةِ. وبيْنا هو يُصارعُ الآلامَ، وزَعَجَ الخواطرِ، ومخاييلُ الموتِ تتراءَى له وتبدو ماثلةً أمام عينيْه، واليأسُ بالنّجاةِ ودرَكِ الراحلةِ قد استحوَذَ على خَلَده؛ إذْ بتلك الراحلةِ الذاهبةِ التي أعْياهُ بحثُها وتعلّقتْ آمالُه بها تقفُ على رأسِه وعليها الطّعامُ والشّرابُ كما ذهبتْ لم ينقُصْ منها شيءٌ؛ فما ظنُّكم

بشعورِه؟! هل تفِي العبارةُ بالتعبيرِ؟! وهل يحيطُ الوصفُ بالمشاعرِ؟! صوّرَ النبيُّ ﷺ حالَ ذاكَ الرجلِ الذي يَطيفُ السرورُ في نواحيهِ ويملأ جوّانيَه بصيغةِ شكرِه التي اضطّربتْ فيها الكلماتُ؛ وصار عُذراً في عدمِ مؤاخذتِه بسوءِ لفظِه؛ لشدَّةِ فرحِه: "اللهمّ أنت عبدِي، وأنا ربُّك!".

عبادَ اللهِ!

إنَّ هذا الفرحَ الغامرَ بوجدانِ الرجلِ راحلتَه وزادَه في تلكَ المفازَةِ يتقاصَرُ— وللهِ المثلُ الأعلَى – عن فرحِ الغنيِّ القويِّ العليِّ الوليِّ مالكِ المُلكِ أرحمِ الراحمينَ ديَّانِ يومِ الدينِ بتوبةِ عبدِه الذّليلِ الضّعيفِ الفقيرِ الكَسيرِ. " فاللهُ أشدُّ فرحا بتوبةِ العبدِ من هذا براحلتِه وزادِه". قال ابنُ القيمِ: "هذا الفرحُ له شأنٌ لا ينبَغي للعبدِ إهمالُه والإعراضُ عنه، ولا يطّلعُ عليه إلا مَن له معرفةٌ خاصّةٌ باللهِ وأسمائه وصفاتِه وما يَليقُ بعزِّ جلالِه". إذا تاب مُقرّاً بذنبِه، نادماً عليه، عازماً ألا يعودَ إليه، مُستحِلاً لمَن ظلمَه، وأقبل على ربِّه؛ حين علم أنّه لا يأخذُ بالذنبِ، ولا يغفرُه إلا هوَ سبحانَه. وماذا سيصنعُ اللهُ بعبدِه التائبِ وهذا فرحُه به؟! لا تزالُ تُحَفُ المَولى العظيمةُ تُقبِلُ على ذلك التائبِ المُنيبِ؛ محبَّةٌ إلهيّةٌ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾، وغُفرانٌ للذنوبِ، وإدخالٌ للجنةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾. بل وتبديلٌ للسيئاتِ بالحسناتِ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ

وَءَامَـنَ وَعَمِـلَ عَمَـلًا صَٰلِحًـا فَأُوْلَٰٓئِـكَ يُبَـدِّلُ ٱللَّهُ سَـيِّـَٔاتِهِمْ حَسَـنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُـورًا رَّحِيمًـا﴾. فهل يأسرُنا بعد ذلكَ ذنبٌ، يحولُ بينَنا وبينَ حوْزِ تلكَ التُّحَفِ؟!

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
وبعدُ، فاعلموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

إنّ فرحَ اللهِ — تعالى — بتوْبةِ عبدِه فرحٌ حقيقيٌّ أثبتَه رسولُه ﷺ؛ لا يُشْبِهُ فرحَ المخلوقينَ؛ فـ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾. وفرحُه — تعالى — بتوبةِ عبدِه مع كمالِ غِنَاه — سبحانَه -عنه واستحقاقِ عبدِه جزاءَ جنايتِه مِن كرمِه سبحانَه ورحمتِه بعبدِه، كيف وهو أرحمُ به من نفسِه وأمِّه؟! ولكنّ العبدَ هو مَن يحرمُ نفسَه تلكَ الرحمةَ بإعراضِه عن موْلاه إعراضًا يوجبُ سَخَطَه!

وقفتُ ببابِكَ يا خالقِي أُقلُّ الذنوبَ على عاتقِي
أجرُّ الخَطَايَا وأشْقى بها لهيبًا من الحُزْنِ في خافِقِي
يسوقُ العبادُ إليكَ الهُدى وذنبِي إلى بابِكم سائقِي
أتيتُ ومالي سوى بابِكم طريحًا أُناجيكَ يا خالِقِي
ذنُوبيَ أشكو وما غيرَها أقضَّتْ ناميَ من مُقْلتِي
أعاتبُ نفسِي أمَا هزَّها بكاءُ الأحبَّةِ في سَكْرَتِي

أمَا هزَّها المــوتُ يأتِي غداً وما في كِتَابِي ســوى غفلَتِي
أمَــا هزَّها من فــراشِ الثَّرى ظـلامٌ تَزيــدُ بــه وَحْشَــتِي
ندمــتُ فجئــتُ لكــمْ تائبـاً تُســابقُنِي بالأسَــى حسْرتِي
أتيــتُ ومَا ليْ ســوَى بابِكم فــإنْ تطْرَدَنِّــي فــوا ضَيْعتِي

مَن بوركَ له في شيءٍ فلْيلزمْه

إنَّ الحمدَ لله؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، منْ يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومنْ يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه.

أما بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ... ﴾.

أيَّها المؤمنونَ!

إنّ من سماتِ الشريعةِ الغَرَّاءِ عنايتَها بشأنِ الإيجابيةِ ذاتِ العملِ المثمرِ، ورعايتَها أسبابَها الدالةَ عليها والموصلةَ لها، والذي يأتي في مُقَدَّمِها فتوحُ اللهِ التي يفتحُ بها على العبدِ أبوابَ الخيرِ في الدينِ والدنيا، ويُبارِكُ له فيها؛ فيرى فيها التيسيرَ والتوفيقَ والإعانةَ والنتائجَ الطيبةَ، دون أنْ تُكدَّرَ بمقارفةِ الحرامِ، أو تكونَ سبباً في الإعراضِ ونسيانِ الدارِ الآخرةِ. إنّ ذلكمُ الفتحَ الربانيَّ المباركَ قد نال من عنايةِ الشرعِ ووصيةِ السلفِ الصالحِ وتصديقِ تجاربِ العقلاءِ ما جعلَه محلَّ وصيةٍ بالملازمةِ والمثابرةِ وعدمِ المبارحةِ؛ لغدقِ عطائه، وحسنِ عاقبتِه، وهناءِ عيشِه، وسهولةِ مراسِه، ومواءمتِه سنةَ تيسيرِ اللهِ خلْقَه لما خُلِقوا له. يقولُ النبيُّ ﷺ: "مَنْ أَصَابَ مِنْ شَيْءٍ؛ فَلْيَلْزَمْهُ" رواه ابنُ ماجه وحسَّنه العراقيُّ. وقال عمرُ بنُ الخطابِ -رضي اللهُ عنه-: "مَن كان له رزقٌ في شيءٍ؛ فليلزمْه"، وقال بعضُ السلفِ: "مَن بورك له في شيءٍ؛ فليلزمْه"، وقال آخرُ:

"إذا فُتح لأحدِكم رزقٌ من بابٍ؛ فليلزمْه حتى يتغيرَ أو يتنكَّرَ"، وقال بعضُهم: "أيُّ موضعٍ رأيتَ فيه وَفْقًا؛ فأقمْ"، وقال بعضُهم: "مَن خُضِّرَ له في شيءٍ؛ فليلزمْه"، وقال إبراهيمُ النخعيُّ: "كان يُكره للرجلِ إذا رُزِقَ في شيءٍ أنْ يرغبَ عنه"، وقال القاضي أبو يعلى: "ويُستحب إذا وجدَ الخيرَ في نوعٍ من التجارةِ أنْ يلزمَه"، وقال أحدُ الحكماءِ: "مِن علامةِ إقامةِ الحقِّ —سبحانه- لك في الشيءِ إدامتُه إياك فيه مع حصولِ النتائجِ".

عبادَ اللهِ!

إنّ من حكمةِ اللهِ ورحمتِه بعبادِه أنْ فاوتَ بينهم في القدراتِ والاهتماماتِ والفتوحِ والأرزاقِ؛ تحقيقًا لسنَّةِ تسخيرِهم لبعضٍ وتكميلِهم بعضًا، كما قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّاۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾، وإظهاراً لمزيةِ الاصطفاءِ والاجتباءِ إنْ كان الفتحُ في بابِ طاعةٍ يحبُّ اللهُ إقامةَ عبدِه في رحابِها وملازمةِ عتبَتِها. وقد أدركَ أهلُ العلمِ تلك الحكمةَ الربانيةَ والسنةَ الإلهيةَ؛ فكان إدراكُهم لما فتحَ اللهُ عليهم به من أبوابِ الخيرِ، وملازمتُهم له من خصائصِ بركتِهم واتساعِ نفعِهم وبقائه ونمائه. يقولُ النبيُّ ﷺ:"مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللهِ، نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ: يَا عَبْدَ اللهِ هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلاَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ

الصَّدَقَةِ "، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي -يَا رَسُولَ اللهِ-! مَا عَلَى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ كُلِّهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ» رواه البخاريُّ ومسلمٌ، قال ابنُ عبدِالبَرِّ: "وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنَ الْفِقْهِ وَالْفَضَائِلِ... أَنَّ أَعْمَالَ الْبِرِّ لَا يُفْتَحُ فِي الْأَغْلَبِ لِلْإِنْسَانِ الواحدِ في جميعِها، وَأَنَّ مَنْ فُتِحَ لَهُ فِي شَيْءٍ مِنْهَا حُرِمَ غيرَها في الأغلبِ، وأنَّه قد تُفتح في جميعِها لِلْقَلِيلِ مِنَ النَّاسِ، وَأَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- مِنْ ذَلِكَ الْقَلِيلِ". كَتَبَ عبدُاللهِ العُمَرِيُّ العابدُ إلى الإمامِ مَالِكٍ يَحُضُّهُ إِلَى الِانْفِرَادِ وَالْعَمَلِ، وَيَرْغَبُ بِهِ عَنِ الِاجْتِمَاعِ إِلَيْهِ فِي الْعِلْمِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ مَالِكٌ: "إِنَّ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- قَسَّمَ الْأَعْمَالَ كَمَا قَسَّمَ الْأَرْزَاقَ؛ فَرُبَّ رَجُلٍ فُتِحَ لَهُ فِي الصَّلَاةِ وَلَمْ يُفْتَحْ لَهُ فِي الصَّوْمِ، وَآخَرَ فُتِحَ لَهُ فِي الصَّدَقَةِ وَلَمْ يُفْتَحْ لَهُ فِي الصِّيَامِ، وَآخَرَ فُتِحَ لَهُ فِي الْجِهَادِ وَلَمْ يُفْتَحْ لَهُ فِي الصَّلَاةِ. وَنَشْرُ الْعِلْمِ وَتَعْلِيمُهُ مِنْ أَفْضَلِ أَعْمَالِ الْبِرِّ، وَقَدْ رَضِيتُ بِمَا فَتَحَ اللهُ لِي فِيهِ مِنْ ذَلِكَ، وَمَا أَظُنُّ مَا أَنَا فِيهِ بِدُونِ مَا أَنْتَ فِيهِ، وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ كِلَانَا عَلَى خَيْرٍ، وَيَجِبُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا أَنْ يَرْضَى بِمَا قُسِّمَ لَهُ. وَالسَّلَامُ". قال ابنُ السبكيِّ: "وهكذا رأينا مَن لزمَ باباً من الخيرِ؛ فُتِحَ عليه -غالباً- منه؛ ولذلك يقولُ أهلُ الطريقِ: إنّ مَن فُتح عليه في ذِكرٍ ينبغي أنْ يلزمَه؛ فإنَّ منه يتوالى عليه الخيرُ". قِيلَ لِعَبْدِاللهِ بنِ مسعودٍ -رضي اللهُ عنه-: إِنَّكَ لَتُقِلُّ الصَّوْمَ؟ قَالَ: «إِنَّهُ يُضْعِفُنِي عَنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ». قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ: "وقد يكونُ العملُ المفضولُ أفضلَ بحسبِ حالِ الشخصِ المعيَّنِ؛ لكونِه عاجزاً عن الأفضلِ، أو لكونِ محبتِه ورغبتِه واهتمامِه

وانتفاعِه بالمفضولِ أكثرَ؛ فيكونَ أفضلَ في حقِّه؛ لما يقترنُ به من مزيدِ عملِه وحبِّه وإرادتِه وانتفاعِه، كما أنّ المريضَ ينتفعُ بالدواءِ الذي يشتهيه ما لا ينتفعُ بما لا يشتهيه وإنْ كان جنسُ ذلك أفضلَ. ومن هذا الباب صار الذكرُ لبعضِ الناسِ في بعضِ الأوقاتِ خيراً من القراءةِ، والقراءةُ لبعضِهم في بعضِ الأوقاتِ خيراً من الصلاةِ، وأمثالُ ذلك؛ لكمالِ انتفاعِه به، لا لأنه في جنسِه أفضلُ".

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أما بعدُ، فاعلموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيها المؤمنون!

ولئن كان هذا فقهَ السلفِ الصالحِ للفتحِ الربانيِّ في أمور الدينِ علماً وعبادةً ودعوةً؛ فكذلك هو فقهُهم فيما يَفتحُ اللهُ على العبدِ في أمورِ الدنيا من الأرزاقِ والأخلاقِ، فكان حقيقاً بالملازمةِ والاقتصارِ عليه دونَ إضافةٍ إنْ كانت تلك الإضافةُ تؤثِّرُ سلْباً عليه حتى يُرى تغيُّرٌ في وجوه برَكتِه. روى ابنُ ماجه بسندٍ ضعيفٍ أن نافعاً قال: كنتُ أُجَهِّزُ إلى الشامِ وإلى مصرَ، فكان اللهُ يَرزقُ خيراً كثيراً، فجهّزتُ إلى العراقِ فلم يرجعْ رأسُ مالي، فدخلتُ على عائشةَ -رضي اللهُ عنها-، فقالت: يا بُنيَّ، الزمْ تجارتَك؛ فإني سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: "إذا فُتح لأحدِكم رزقٌ من بابٍ؛ فليلزمْه". قال الحارثُ بنُ يعقوبَ: "كنتُ عند سهلِ بنِ سعدِ الساعديِّ -رضي اللهُ عنه-، فقال رجلٌ عنده: أنا الضعّافُ؛ اشتريتُ كذا وكذا، وبعتُ بكذا وكذا، اشتريتُ بكذا، وبعتُ بربحِ كذا، فقال له سهلٌ: اشترِ وتوكلْ؛ فإنّ الفائزَ مَن بوركَ له". وكان عبدُالله الدَّيْرانيُّ مِن أزهدِ أهلِ زمانِه، وجعَلَ الصيدَ دَأَباً له، فلا يأكلُ ولا يلبسُ إلا منه، فقيل له: يا شيخَ، إنك كبرتَ وقلَّ بصرُك، والناسُ يرونَ أنْ يُتْحِفوك بما يغنيك عن الصيدِ، فقال: لا واللهِ لا أفعلُ ولا أرضى؛ فلولا الصيدُ وملازمتُه لم أَصِلْ إلى ما أنا فيه

مِن هذا الأمرِ، وقد رزقني ربي الرزقَ الحلالَ والعملَ الصالحَ، وقد قيل: "مَن بورك له في شيءٍ؛ فليلزمْه". وقال ابنُ عثيمينَ: "فالمهمُّ أنّ الإنسانَ ينبغي له أنْ يحافظَ على العملِ، وألا يتكاسلَ، وألا يدعَه، بل يستمرُّ على ما هو عليه. وإذا كان هذا في العبادةِ فهو -أيضًا- في أمورِ العادةِ؛ فينبغي ألا يكونَ للإنسانِ كلَّ ساعةٍ وجهةٌ، وكلَّ ساعةٍ فكرٌ، بل يستمرُّ ويبقى على ما هو عليه ما لم يتبينْ الخطأُ، فإنْ تبيّنَ الخطأُ فلا يُقِرُّ الإنسانُ نفسَه على خطأٍ، لكنْ ما دامَ الأمرُ لم يتبينْ فيه الخطأُ؛ فإنّ بقاءَه على ما هو عليه أحسنُ، وأدلُّ على ثباتِه، وعلى أنه رجلٌ لا يخطو خطوةً إلا عَرَفَ أين يضعُ قدمَه وأين ينزعُ قدمَه. وبعضُ الناسِ لا يهتمُّ بأمورِ العادةِ، فتجدُ كلَّ يومٍ له فكرٌ، وكلَّ يومٍ له نظرٌ، وهذا يفوّتُ عليه الوقتَ، ولا يستقرُّ نفسُه على شيءٍ؛ ولهذا يُروى عن عمرَ بنِ الخطابِ -رضي اللهُ عنه- أنه قال: "مَن بورك له في شيءٍ؛ فليلزمْه"؛ كلمةٌ عظيمةٌ، يعني: إذا بورك لك في شيءٍ، أيَّ شيءٍ يكونُ؛ فالزمْه ولا تخرجْ عنه مرةً هنا ومرةً هنا؛ فيضيعَ عليك الوقتُ ولا تبني شيئًا". وقال ابنُ سعديٍّ:"العاقلُ يسعى في طلبِ الرزقِ بما يَتَّضِحُ له أنه أنفعُ له وأجدى عليه في حصولِ مقصودِه، ولا يتخبطُ في الأسبابِ خبْطَ عَشْواءَ؛ لا يَقَرُّ له قرارٌ، بل إذا رأى سببًا فُتِحَ له به بابُ رزقٍ؛ فليلزمْه، ولْيثابرْ عليه، ولْيُجْمِلْ في الطلبِ؛ ففي هذا بركةٌ مجرَّبةٌ".

وبعدُ؛ فتلك بصيرةُ برَكةٍ لعطاءٍ مثمرٍ في الدينِ والدنيا؛ فلنتشبَّثْ بها؛ لِننعمَ بهنائِها وخيرِها.

فقهُ القَبولِ

الحمدُ للهِ البَرِّ الواسعِ، الخافضِ الرافعِ، للدعاء سامعٌ، وللبلاء مانعٌ، وأشهدُ ألا إلـهَ إلا اللهُ المُقيتُ الجامعُ، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه صلّى اللهُ وسلّمَ عليه وعلى آلِه وصحبِه وعلى كلِّ بَرٍّ وخاشعٍ.

أمّا بعدُ، فاتّقوا اللهَ — عبادَ اللهِ -، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ... ﴾.

أيّها المسلمونَ!

دِقَّةُ النظرِ وصحةُ الفَهمِ وسدادُ إدراكِ المَقاصدِ ولُبابِ الأعمالِ من أعظمِ مِنَحِ المَوْلى للعبدِ؛ إذْ به تَعْلَقُ همّتُه بأساسِ كلِّ عملٍ ومقصودِه؛ فلا ينشغلُ بالصُّورِ عن الحقائقِ، والوسائلِ عن المَقاصدِ. ومن أجلِّ ما تبرزُ فيه هذه القضيةُ قَبولُ الأعمالِ من اللهِ — جلّ وعلا -؛ فذاكَ ما تعلّقتْ به هِمَمُ الصّالحينَ؛ إذْ هو مقصودُ العملِ وغايتُه التي لأجلِها نصَبوا واجتهَدوا. وهو ما كان يلهجُ بطلبِه الخليلُ وابنُه إسماعيلُ — عليهما السلامُ — حين كانا يرفعانِ قواعدَ الكعبةِ ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، وهو ما كانتْ — أيضاً — تسألُه امرأةُ عِمرانَ حين نذرتْ حملَها خادماً لبيتِ اللهِ المقدّسِ ﴿رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾. يقولُ عليٌّ — رضيَ اللهُ عنه -: «كُونُوا لِقَبُولِ الْعَمَلِ أَشَدَّ اهْتِمَامًا بِالْعَمَلِ؛ فَإِنَّهُ

لَـنْ يُقْبَـلَ عَمَـلٌ إِلَّا مَـعَ التَّقْـوَى. وَكَيْـفَ يَقِـلُّ عَمَـلٌ يُتَقَبَّـلُ؟ كَانُـوا بِـاللهِ عَالِمِيـنَ وَلِعِبَادِهِ نَاصِحِينَ»، ويقولُ ابنُ دينارٍ: "الخوفُ على العملِ أنْ لا يُتقبّلَ أشدُّ من العملِ"، وقال فَضالةُ بنُ عُبيدٌ: "لأنْ أكونَ أعلمُ أنّ اللهَ قد تَقبّلَ منّي مثقالَ حبّةٍ من خَردَلٍ أحبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها؛ لأنّ اللهَ يقولُ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾". فبالقَبولِ المسبوقِ برحمةِ اللهِ تُكفرُ السيئاتُ، وتُمحَى الخَطَايا، وتُرفعُ الدّرجاتُ، وتكونُ الزُّلفَى، ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾.

معشرَ المؤمنينَ!

إنّ ممّا انعقدَ عليه اعتقادُ السّلفِ الصالحِ أنّ القَبولَ فضلٌ من اللهِ — سبحانَه— يُفيضُه على مَن سبقتْ له منه الحُسنَى؛ إذِ الطّاعةُ لا تُوجبُ بذاتِها لصاحبِها ثوابًا على اللهِ، يقولُ الرسولُ ﷺ: "لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الجَنَّةَ " قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: "لاَ، وَلاَ أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا" رواه البخاريُّ ومسلمٌ. وهذا القَبولُ أمرٌ غيبيٌّ قد أخفاه اللهُ؛ رحمةً بعبادِه؛ كيْما يجدُّوا ويجتهدُوا في القُرَبِ وإتقانِها، ويخشَوْا ردَّها؛ فلا يخالجُهم إعجابٌ واتكالٌ بقَبولٍ يُقعِدُهم عن تطلّبِ الكمالِ وبذْلِ المزيدِ. وقد كان هذا منهجَ السّلفِ الصالحِ في صالحاتِهم، يقولُ عبدُ العزيزِ بنُ أبي روادٍ: "أدركتُهم يجتهدون في العملِ الصالحِ، فإذا فعلُوه وقعَ عليهمُ الهمُّ: أيُقبَلُ منهم أم لا؟". ومع أنّ القَبولَ أمرٌ غَيْبيٌّ، إلا أنّ له علاماتٍ يُظَنَّ من خلالِها- دونَ جزمٍ - القَبولُ والردُّ. ومن تلك العلاماتِ التي ذكرَها أهلُ العلمِ وقام عليها الدليلُ: الرِّضَى عن اللهِ — سبحانَه -؛ فلا يُعترَضُ على

حكمِه أو يُتبرَمُ من قدَرِه، فالقَبولُ من رضَى اللهِ عن العبدِ، ولا يرضَى اللهُ إلا على مَن رضيَ عنه، وهم أهلُ الجنةِ الذينَ يقولُ عنهم: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾. ومن العلاماتِ: التوفيقُ لعملٍ صالحٍ مُستقبَلٍ، وذلك من زيادةِ الحُسنِ والهُدى لمَن عملَ الصالحاتِ، كما قال اللهُ -تعالى-: ﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ﴾، وقال: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ﴾، وسئلَ الحسنُ: ما علامةُ الحجّ المبرورِ؟ فقال: أن يرجعَ العبدُ زاهداً في الدّنيا، راغباً في الآخرةِ. ومن علاماتِ القَبولِ: استجابةُ الدعاءِ، كما أجابَ اللهُ دعاءَ أصحابِ الغارِ حين توسّلوا إليه بصالحِ أعمالِهم. ومن علاماتِ قَبولِ العملِ الصالحِ: راحةُ النفسِ وطيبُ العيشِ، كما قال اللهُ -سبحانه-: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ﴾، أي: في الدّنيا،﴿ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾. ومن علاماتِ القَبول: حُبُّ الناسِ، ففي الصّحيحَيْنِ يقولُ النَّبيُّ ﷺ: "إِذَا أَحَبَّ اللهُ العَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحْبِبْهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي الأَرْضِ"، والقَبولُ: المودّةُ. ومن علاماتِ القَبولِ -معشرَ الأحبةِ-: استقلالُ العملِ وصِغرُه في عيْنِ صاحبِه واستشعارُ تقصيرِه، كما قال -تعالى-: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾. يقولُ ابنُ القيمِ -رحمَه اللهُ تعالى-: "عَلَامَةُ قَبُولِ عَمَلِكَ احْتِقَارُهُ وَاسْتِقْلَالُهُ، وَصِغَرُهُ فِي قَلْبِكَ؛ حَتَّى إِنَّ الْعَارِفَ لَيَسْتَغْفِرُ اللهَ عُقَيْبَ طَاعَتِهِ. وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ

إِذَا سَلَّمَ مِنَ الصَّلَاةِ اسْتَغْفَرَ اللهَ ثَلَاثًا. وَأَمَرَ اللهُ عِبَادَهُ بِالِاسْتِغْفَارِ عُقَيْبَ الْحَجِّ. وَمَدَحَهُمْ عَلَى الِاسْتِغْفَارِ عُقَيْبَ قِيَامِ اللَّيْلِ. وَشَرَعَ النَّبِيُّ ﷺ عُقَيْبَ الطُّهُورِ التَّوْبَةَ وَالِاسْتِغْفَارَ. فَمَنْ شَهِدَ وَاجِبَ رَبِّهِ وَمِقْدَارَ عَمَلِهِ وَعَيْبَ نَفْسِهِ لَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنَ اسْتِغْفَارِ رَبِّهِ مِنْهُ، وَاحْتِقَارِهِ إِيَّاهُ، وَاسْتِصْغَارِهِ".

أيّها المؤمنونَ!

إنّ أَلْزَم ما يجبُ الحرصُ عليه والعنايةُ به معرفةُ شروطِ قَبولِ العملِ التي بها تُدركُ أسبابُ الردِّ؛ فيجتهدَ المؤمنُ في تحصيلِ الشروطِ، ويَحذرُ أسبابَ الردِّ. وشروطُ قَبولِ العملِ ثلاثةٌ: الأوّلُ: الإيمانُ: يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾، وسألت عائشةُ — رضيَ اللهُ عنها — رسولَ اللهِ ﷺ قالتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: "لَا يَنْفَعُهُ؛ إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ" رواه مسلمٌ. والثاني: الإخلاصُ للهِ المُنافِي للرِّياءِ والعُجبِ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ" رواه مسلمٌ، وذلك هو العملُ الطيّبُ الذي لا يقبلُ اللهُ إلا إيّاه، كما قال رسولُ اللهِ — ﷺ: "إنّ اللهَ طيبٌ لا يقبلُ إلا طيبًا" رواه مسلمٌ. والثالثُ: موافقةُ العملِ لهدْي النبيِّ ﷺ، يقولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» رواه مسلمٌ؛ ومن هنا وجبَ على المؤمنِ ألا يتقربَ بقُربةٍ إلا بعد تحقُّقِه من مُوافقتِها للشّرعِ المُطهّرِ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ حقَّ حمدِه، والصلاةُ والسّلامُ على رسولِه وعبدِه.
وبعدُ، فاعلمُوا أنّ أحسنَ الحديثِ...

أيّها المسلمونَ!

و ثَمّتَ أسبابٌ تجعلُ القُربةَ أرْجى ما يكونُ قَبولُها، ومنها: التّقوى، كما قال اللهُ —تعالى -: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، وبِرُّ الوالديْنِ سببٌ لقَبولِ الطاعةِ، يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾. والخوفُ من عدمِ قَبولِ القربةِ استشعاراً بقُصورِها -لا قنوطًا من رحمةِ اللهِ — من أسبابِ قَبولِها، تقولُ عائشةُ — رضيَ اللهُ عنها - سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾؛ قَالَتْ عَائِشَةُ: أَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟ قَالَ: "لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا تُقْبَلَ مِنْهُمْ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾" رواه الترمذيُّ وصحّحه

الألبانيُّ. وسؤالُ اللهِ القَبولَ وخَتمُ ذلك السؤالِ باسميْ "السميعِ العليمِ" من أسباب القَبولِ، كما أجابَ اللهُ دعاءَ خليلِه وابنِه وزوْجِ عِمرانَ عليهمُ السلامُ.

أيّها المؤمنونَ!

الحذرَ الحذرَ ممّا يمنعُ قَبولَ العملِ، وذلك باختلالِ أحدِ شروطِه، أو ملابستِه أحدَ الموانعِ، ومنها: المنُّ والأذَى، يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾، ومنها: أكلُ الحرامِ، فقد ذكرَ رسولُ اللهِ ﷺ فيما رواه مسلمٌ مَن تلبّسَ بأسبابِ إجابةِ الدعاءِ، ومع ذلك حُرِم الإجابةَ بأكلِ الحرامِ؛ "ومَطعمُه حرامٌ ومَشربُه حرامٌ وغُذِّيَ بالحرامِ؛ فأنّى يُستجابُ له!"، ومنها: التّكاسلُ في أداءِ الصلاةِ، والقيامُ بالعبادةِ على وجهِ الكراهيةِ والتّبرُّم، يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾.

معشرَ الأحبةِ!

هذا هو فقهُ القَبولِ: معرفةً لحقيقتِه، وثمرتِه، وعلاماتِه، وشروطِه، وأسبابِه، وموانعِه. وذلكُم أوْلى ما يوجّه المرءُ همّته بفقهِه وتطبيقِه؛ ليفتحَ اللهُ له أبوابَ القَبولِ، ويهديَه الصراطَ المُستقيمَ.

لعلّهم يضّرّعونَ

إنّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مضلّ له، ومَن يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ...﴾.

أيّها المؤمنونَ!

الاستكانةُ للهِ والضَّراعةُ له انكسارٌ بالغٌ يتملّكُ العبدَ تجاهَ خالقِه؛ به يتذلّلُ خاشعاً بين يديْ ربِّه، ويتمَسْكَنُ خاضعاً لجلالِه، ويُدمنُ دعاءَه والجُؤارَ إليه، وتشتدُّ رغبتُه فيما عنده، ويعظُمُ افتقارُه إليه. وذلكَ هو الغايةُ من تقديرِ وقوعِ البلاءِ، كما قال سبحانَه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾. فالاستكانةُ والضّراعةُ مقياسٌ ربَّانيٌّ دقيقٌ لانتفاعِ العبدِ بالبلاءِ أو إخفاقِه فيه؛ وذلكَ من خلالِ ما تحقَّقَ فيه من استكانةٍ وضَراعَةٍ. فبالاسْتكانةِ والضّراعَةِ يغدو البلاءُ نعمةً على أهلِه حينَ كان سبباً لتجديدِ إيمانِهم، وتكفيرِ سيئاتِهم، وقُربِهم من ربِّهم، وتقويةِ صلتِهم به، وفوزِهم بغنيمةِ التوبةِ وإقالةِ العثَارِ؛ وتحققَ بها من الشكرِ والإيمانِ ما رفعَ اللهُ به كُرَبَ البلاءِ، كما قال سبحانَه: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾. ومن صورِ تحقُّقِ هذه الحقيقةِ القرآنيّةِ ما ذكرَه المؤرخونَ من

وقـوعِ وبـاءٍ عـامٍّ عـامَ سَـبْعَمِائةٍ وتسـعةٍ وأربعيـنَ للهجـرةِ بمصـرَ والشـامِ، وأخـذَ فيهـمُ المـوتُ مـدّةً وكثـرةً، فاجتمـعَ النـاسُ بصبيانِهـم في المسـاجدِ، وتضرّعـوا إلـى اللهِ تعالـى، وضجّـوا بالدعـاءِ، وتابُـوا إليـه مـن ذنوبِهـم، وتحالَلُـوا، وأقبلـوا علـى العبـادةِ، وذبَحـوا أبقـاراً وأغنامـاً كثيـرةً للفقـراءِ، فصـار الوبـاءُ والفنـاءُ يتناقـصُ كلّ يـومٍ حتـى زالَ بالجملـةِ.

وربّما كانَ مكروهُ الأمورِ إلى ... محبوبِها سـبباً ما مِثلُه سببُ

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أمّا بعدُ، فاعلمُوا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المسلمونَ!

إنّ من أبْينِ علاماتِ الشّقاءِ ألا يزيدَ البلاءُ صاحبَه إلا بُعداً عن ربِّه، وقسوةً في قلبِه، وإمعاناً في غيّه، وتزييناً لسوءِ عملِه، خاصّةً إنْ بدّلَ اللهُ البلاءَ رخاءً ووالَى بعده النِّعمَ استدراجاً؛ فتلكَ مظِنّةُ أخذٍ بعذابٍ ربّانيٍّ شديدٍ مفاجِئٍ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ (والبأساءُ هي شدةُ الفقرِ والضيقُ في المعيشةِ، والضّراءُ هي الأسقامُ والعِلَلُ العارضَةُ في الأجسامِ كما قال ابنُ جريرٍ) لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ۝٤٢ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٤٣ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ۝٤٤ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٥﴾. وقال النعمانُ بنُ بشيرٍ – رضيَ اللهُ عنه –: «إنّ الهَلَكَةَ كلَّ الهَلَكَةَ أنْ تعملَ عملَ السوءِ في زمانِ البلاءِ» رواه ابنُ أبي شَيبة. ومِن هنا وجبَ على المؤمنِ أنْ يكونَ مُرهفَ الشُّعورِ نحوَ البلاءِ، حيَّ القلبِ في تخطِّيهِ بإنابةٍ تُرضِي عنه مَوْلاهُ، ودعاءٍ يكْشفُ به بلوَاهُ.

قَوَامُ العيشِ

الحمدُ للهِ ذي المِنَنِ والعطاءِ، جزيلِ الثناءِ، واسعِ الآلاءِ، قضى على الدّنيا الفناءَ وتفرّدَ بالبقاءِ، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له ذو العظمةِ والكبرياءِ والمجدِ والحياءِ، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه خِيرةَ الأنبياءِ، صلّى اللهُ وسلمَ عليه وعلى آلِه وصحبِه الأوفياءِ.

أمّا بعدُ، فاتّقوا اللهَ — عبادَ اللهِ —، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ...﴾.

أيّها المسلمونَ!

الدّنيا زهرةٌ فاتنةٌ، وبريقٌ أخّاذٌ، وزينةٌ ومتاعٌ، جمّلها اللهُ لأهلِها؛ فتنةً واختباراً، واستخلافًا و إعماراً. حذَّرَهم من الركونِ إليها، والاطمئنانِ بها؛ فهي دارُ غرورٍ وعبورٍ وتزوّدٍ ومَسيرٍ. هذا، وإنّ من أعظمِ مُصابِ المرءِ فيها أن تكونَ أكبرَ همِّه ومَبلغَ علمِه ومحطَّ نظرِه؛ عندها يرتكِسُ ميزانُ عملِه، ويُخذَلُ في أعظمِ شأنِه؛ إذْ يعمِّرُ ما لا يَسكنُ، ويجمعُ لما لا يبْقى،ويُنفقُ فيما لا يدومُ، فيذهبُ عمرُه سُدىً، وتكونُ حياتُه همَلاً، وفي ذلكَ خرابُ دارِه يومَ التّغابُنِ. ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾؛ لذا وجبَ أن تقَدَّرَ قدْرَها وتنْزِلَ نُزُلَها بلزومِ القناعةِ وقطعِ علائقِ الطّمعِ؛ فأطيبُ العيشِ القناعةُ، وأنكَدُ العيشِ الجشَعُ. ومن أعظمِ سُبلِ تحصيلِ هذه القناعةِ إدراكُ قَوامِ عيشِ الدّنيا الذي لا تصلُحُ إلا به، ولا تقومُ إلا عليه، فيكونُ ما زادَ

عنه فضلاً لا يضرُّ عدمُه، ولا تشقى النفوسُ بالتَّحسُّرِ على فَواتِه، أو المُشاحَنةِ عليه.

هذا، وإنّ قِوامَ عيشِ الدّنيا وقُطبَ رحَى نعمتِها ما أبانَه رسولُ اللهِ ﷺ في قولِه: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا» رواه الترمذيُّ وقال: حسنٌ غريبٌ وحسّنه الألبانيُّ.

عبادَ اللهِ!

هذه النِّعمُ الثلاثُ رأسُ نعَمِ الدّنيا للمؤمنِ بعد إيمانِه، إن توفّرتْ لعبدٍ في يومٍ فكأنّما حازَ جميعَ الدُّنيا ذلك اليومَ ولم يفُتْه منها شيءٌ. وتأمَّلوا — رحمَكُم اللهُ — قولَه ﷺ: "مَن أصبحَ"؛ لِتدرِكوا قِصرَ وقتِ تبصُّرِ هذه النِّعَمِ الذي ما تجاوزَ مداه اليومَ الواحدَ؛ ممّا يجْعلُ المؤمنَ في فألٍ دائمٍ دون اكتراثٍ بما يخبِّئُه غيبُ المستقبلِ؛ فمَنْ كفاه يَومَهُ سيكفيه غدَه.

أحسِنِ الظنَّ بمَن قد عوَّدكَ ... كلَّ إحسانٍ وسوّى أوَدكَ
إنّ ربًّا كان يكفيكَ الذي ... كان بالأمسِ سيكفيكَ غدَكَ

أما أُوْلى هذه النعمِ وأَولاها: فأمانُ السِّرْبِ؛ حينَ يأمنُ المرءُ على نفسِه وأهلِه ومَسكنِه وطريقِه؛ فتلكَ مساربُ المرءِ. وفي أمنِ المساربِ هناءُ نعمِ الدُّنيا الباقيةِ؛ فلا لذةَ ولا طيبَ عيشٍ إن فُقِدَ الأمنُ؛ ولأجلِ ذا قدّمَه الخليلُ — عليه السلامُ — على الطعامِ حين سألَ ربَّه فقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا

ءَامِنًا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾. وأساسُ استتبابِ الأمنِ الإيمانُ والعملُ الصّالحُ، كما قال اللهُ — عزّ وجلّ —: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾. وحِفظُ نعمةِ الأمنِ بحفظِ أسبابِه، وذلكَ واجبُ الجميعِ كُلاً حسبَ قدرتِه.

والنعمةُ الثانيةُ — أيّها المسلمونَ —: عافيةُ البدنِ، وتلكَ العافيةُ أجزَلُ ما أُعطِيَ العبدُ بعد الإيمانِ واليقينِ، كما قال رسولُ اللهِ ﷺ: «اسْأَلُوا اللهَ العَفْوَ وَالعَافِيَةَ، فَإِنَّ أَحَدًا لَمْ يُعْطَ بَعْدَ اليَقِينِ خَيْرًا مِنَ العَافِيَةِ» رواه الترمذيُّ وصحّحه الحاكمُ، وكان ذلك السؤالُ ممّا يلهجُ به رسولُ اللهِ ﷺ كلّ صباحٍ ومساءٍ، يَقُولُ ابنُ عمرَ — رضي اللهُ عنهما —: لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَعُ هَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ حِينَ يُمْسِي وَحِينَ يُصْبِحُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَتِي» رواه أبو داودَ وصحّحه ابنُ حِبانَ. وحفظُ نعمةِ العافيةِ بتجنُّبِ أسبابِ المرضِ والرّدى؛ فلا يُؤكَلُ ولا يُشربُ إلا النافعُ بقدرِه، ولا يُتعرضُ لما يضرُّ البدنَ من هواءٍ أو شعاعٍ أو عينِ حاسدٍ، ولا تُتركُ الأذكارُ والأورادُ اليوميّةُ، ولا تُعطَّلُ الرياضةُ اللازمةُ لحفظِ صحةِ الجسمِ.

وأمّا النعمةُ الثالثةُ — معشرَ الإخوةِ —: فتحصيلُ قُوتِ اليومِ والليلةِ: وذلك بأنْ يجدَ المرءُ طعامًا من وجهٍ حلالٍ يكفيهِ ويكفي مَن يمونُه مدةَ أربعٍ

وعشرينَ ساعةً؛ فذاكَ قوتُ اليومِ، الذي إنْ عُدمَ حلّ بلاءُ الجوعِ. وذاكَ ما كان يتعوَّذُ منه رسولُ اللهِ ﷺ؛ يقولُ أبو هُرَيْرَةَ، كَانَ مِنْ دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُوعِ، فَإِنَّهُ بِئْسَ الضَّجِيعُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخِيَانَةِ، فَإِنَّهَا بِئْسَتِ الْبِطَانَةُ» رواه أبو داودَ وصحّحه ابنُ حِبان. وحِفظُ نعمةِ وَفرةِ الطعامِ والشرابِ بشُكرِها وحمْدِ اللهِ عليها وعدمِ الإسرافِ فيها وحُسنِ تصريفِ ما بقِيَ منها.

أيّها المؤمنونَ!

ما كان لهذه النعمِ أن تعتليَ سلّمَ رُتَبِ النعمِ بعد الإيمانِ إلا لعظيمِ مسيسِ الحاجةِ إليها، وفَداحةِ خطرِ فقْدِها أو تحوُّلِها. سَلُوا الخائفَ عن أعظمِ أمانيهِ، سَلُوا أهلَ الخوفِ ماذا يَنشدونَ، سَلُوا السَّقيمَ عن أعظمِ أمانيهِ، سَلوا المرضَى ماذا يتمنّوْن، سَلوا الجائعَ عن أعظمِ أمانيهِ، سَلوا أهلَ المجاعةِ ماذا يطلبونَ. إنّ جوابَهم يكمنُ في تحصيلِ ما فقَدوه من أمنٍ وعافيةٍ وسدِّ جوْعَةٍ ورمقٍ. وذلك يُنبينا عن جزيلِ ما أنعمَ اللهُ به علينا وعظيمِ تقصيرِنا في شكرِ هذه النعمِ؛ فلا ينسينَّا غمرُ النعمِ شكرَ مُسديها والاعترافَ بالعجزِ عن شكرِها؛ ولا تُبَلِّدُ كثرةُ إمساسِنا لها واجبَ إحساسِنا بها، ولا يحملنَّنا التحسرُ على مفقودِها على نسيانِ موجودِها. روى مسلمٌ في صحيحِه: أنّ رجلاً سأل عبدَاللهِ بنَ عمرٍو — رضي اللهُ عنهما — فقال: أَلَسْنَا مِنْ فُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ؟ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ: «أَلَكَ امْرَأَةٌ تَأْوِي إِلَيْهَا؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «أَلَكَ مَسْكَنٌ تَسْكُنُهُ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَأَنْتَ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ»، قَالَ: فَإِنَّ لِي خَادِمًا، قَالَ: «فَأَنْتَ مِنَ الْمُلُوكِ».

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ وكفى، والصلاةُ والسلامُ على رسولِه المُصطفَى.

وبعدُ، فاعلَموا أنّ أحسنَ الحديثِ...

أيّها المؤمنونَ!

بتبصُّرِ قِوامِ العيشِ حين تُدرَكُ هذه النعمُ الثلاثُ تتحققُ القناعةُ، ويطيبُ العيشُ، وتسكنُ النفسُ، وتشعرُ بالغِنى، وتَطلبُ ما زادَ عن ذلك بسَخاوةٍ وعدمِ تطلُّعٍ، ولا تتحسرُ على ما لم يُقدّرْ لها، ويُباركُ لها فيما أُعطيتْ، وتَجِدُّ لما خُلقتْ لأجلِه. فإنْ فقد امرؤٌ شيئاً من ذلكَ القِوام فلْيجهدْ في النظرِ إلى مَن هو أسوأُ منه حالاً؛ فلن يعدمَ واجداً؛ فتلك نظرةُ القناعةِ، كما أرشدَ إليها النبيُّ ﷺ في قولِه: «انْظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ» رواه مسلمٌ، ولْيصبرْ — إن لم يرضَ — بما قدّرَ اللهُ له، ولْيُحسنْ ظنَّه بربِّه في تبديلِ حالِه؛ فاللهُ عند ظنِّ عبدِه به، ولْيجهدْ في حفظِ أربعٍ لا يضرُّه معها ما فاتَه من الدّنيا، يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: "أربعٌ إذا كنَّ فيكَ فلا عليك ما فاتكَ من الدّنيا: حفظُ أمانةٍ، وصدقُ حديثٍ، وحسنُ خليقةٍ، وعفَّةٍ في طُعمةٍ" رواه أحمدُ والطبرانيُّ وحسَّنه المنذريُّ والألبانيُّ.

معركةُ الشيطانِ

إنّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مضلّ له، ومن يضللْ فلا هاديَ له،وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ...﴾...

أيّها المؤمنونَ!

عداءُ الشيطانِ للبشرِ عداءٌ يستوعبُ زمنَ الحياةِ؛ من حينِ قدّرَ اللهُ وجودَ البشرِ إلى أن لا يبقَى على البسيطةِ منهم أحدٌ. عداءٌ تاريخيٌّ موغلُ القِدمِ، خبيثُ الهدفِ، جَلِدُ الحيلةِ، شرسُ التربُّصِ، متنوِّعُ الوسائلِ، وخيمُ العاقبةِ. جلّى الوحيُ المعصومُ تلك المعركةَ بتفاصيلِها الدقيقةِ؛ فهلُمّوا إلى سابغاتٍ من النصوصِ؛ كيْما نقفَ من خلالِها على حقائقِ تلك المعركةِ، وسُبلِ الظفَرِ فيها.

إنّ ابتداءَ العداءِ الشيطانيِّ سابقٌ خلقَ البشرِ؛ فقد روى مسلمٌ في صحيحِه أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «لما صوّرَ اللهُ آدمَ في الجنةِ تركَه ما شاءَ اللهُ أن يتركَه، فجعل إبليسُ يَطيفُ به؛ ينظرُ ما هو، فلمّا رآه أجوفَ عرفَ أنّه خلَق خلقاً لا يتمالكُ». وحين أمرَ اللهُ — سبحانَه — الملائكةَ بالسجودِ لآدمَ — عليه السلامُ— وتأبّى إبليسُ عن السجودِ وتكبّرَ، وكان جزاؤه اللعنَ والإبعادَ؛ صرّحَ بالعداوةِ

للبشريّةِ قاطبةً، وقطعَ اللعينُ على نفسِه العهدَ المؤكّدَ بإضلالِهم جهدَه، ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾. فالعلاقةُ بينه وبين بني البشرِ علاقةُ عداءٍ ألدّ؛ لا تقبلُ المهاودةَ، ولا الغفلةَ، ولا الإهمالَ، كما قال اللهُ — تعالى -: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾. يجدِّدُ الشيطانُ ذلك العداءَ مع كلِّ مولودٍ من حين يخرجُ من بطنِ أمهِ، كما قال النبيُّ ﷺ: «ما من بَني آدمَ مولودٌ إلا يمسُّه الشيطانُ حين يُولَدُ؛ فيستهلُّ صارخًا من مسِّ الشيطانِ، غيرَ مريمَ وابنِها» رواه البخاريُّ، وفي لفظٍ له: «كلُّ بني آدمَ يطعنُ الشيطانُ في جنبَيْه بإصبعِه حين يُولدُ، غيرَ عيسى ابنِ مريمَ، ذهب يطعنُ فطعنَ في الحجابِ».

هذا، وقد جعلَ الشيطانُ لنفسِه في معركتِه ضدَّ البشريَّةِ غايةً عُظمَى محددةً تُرامُ من وراءِ الإغواءِ والإضلالِ، أبانَها اللهُ — جلّ وعلا — في قولِه: ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾. وله في الوصولِ إلى تلكَ الغايةِ الخبيثةِ مساربُ تُفضِي إليها. ومن أعظمِ تلكَ الدروبِ المُهلِكةِ: هاويةُ الكفرِ والشركِ، وهي أعظمُ ما ظفرَ به الشيطانُ من العبدِ؛ إذ لا أملَ في النّجاةِ معها إن ميتَ عليها. ثمّ يلي ذلكَ مسربُ البدَعِ المضلَّةِ المُجافيةِ لصراطِ اللهِ المستقيمِ. يقولُ سفيانُ الثوريُّ: "البدعةُ أحبُّ إلى إبليسَ من المعصيةِ؛ لأنّ المعصيةَ يُتابُ منها، والبدعةُ لا يُتابُ منها". ومَسربُ المعاصِي والذنوبِ وإيقاعُ العبادِ في وحلِها من سبُلِ تحقيقِ غايةِ الشيطانِ العُظمى في إضلالِ البشريّةِ، كما قال اللهُ — تعالى -: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن

تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. ومسربٌ آخرُ يتمثّلُ في الصدِّ عن سبيلِ اللهِ والعوْقِ عن طاعتِه، كما قال النبيُّ ـ ﷺ إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ: تُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ؟! فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ، فَقَالَ: تُهَاجِرُ وَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ؟! وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِي الطِّوَلِ، فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ، فَقَالَ: تُجَاهِدُ؛ فَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالْمَالِ، فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ، فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ، وَيُقْسَمُ الْمَالُ؟! فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ... » رواه النّسائيُّ وصحّحه الألبانيُّ. فإنْ قويَ العبدُ على الطاعةِ فتحَ عليه بابَ إفسادِها بالوسوسةِ والتلبيسِ؛ ليخرجَ منها خِلو الأجرِ. وهو مع ذلكَ لا يتركُ فرصةً يُلحقُ من خلالِها الضّررَ بالآدميِّ إلا وفعلَها، كالمُشاركةِ في الولدِ، والمنزلِ، والطعامِ، ولو أنْ يكدِّرَ نومَه ويحزنَه بالأحلامِ المُزعجةِ.

أيّها المسلمونَ!

إنّ للشيطانِ وسائلَ تجذبُ البشرَ إلى مساربِ إضلالِه، اختارَ تلكَ الوسائلَ ونوّعَها بما يناسبُ طبعَهم وطبيعتَهم؛ ليخرجَ بأكبرِ حصيلةٍ منهم في نارِ الجحيمِ معه. ومن أعظمِ تلك الوسائل: تزيينُ الباطلِ؛ إذْ لو أمرَ بالسوءِ صُراحاً لمَا أطاعَه إلا قلّةٌ. ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾. وهل نفذَ إلى حملِ آدمَ وزجِّه على الأكلِ من الشجرةِ إلا بالتَّزيينِ ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾؟! وما زالَ ذلك التزيينُ ذَلولَ الشيطانِ في إضلالِ العبادِ، وقد ورِثَه عنه أولياؤه من شياطينِ الإنسِ والجنِّ على مرِّ

الزمانِ والمكانِ، ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾؛ فسَمُّوا تمييعَ البراءةِ من المشركينَ تعايُشاً، والرِّبا فائدة، والخَنا متعةً، والخمرَ شراباً روحياً، وقرارَ المرأةِ في بيتِها بطالةً!

والإفراطُ والتفريطُ وسيلتانِ لا يُبالي الشيطانُ بأيِّها ظفَرَ من العبدِ بها؛ إذْ كلاهما ضلالٌ عن صراطِ اللهِ المستقيمِ. وله حدْسٌ قويٌّ في اختيارِ أيِّهما أنجعَ؛ فإنْ رأى من العبدِ كسلاً وبُعداً عن الطاعةِ زادَه من ذلكَ وفتحَ له بابَ الرجاءِ الكاذبِ وطمّعَه في عفوِ اللهِ ورحمتِه، وإنْ رأى منه تَشميراً في الطّاعةِ حضّه على المزيدِ ممّا لم يشرِّعْه اللهُ وأيّسَه من رحمةِ اللهِ وقَبولِه؛ ليدخلَه في دائرةِ الغُلوِّ.

عبادَ اللهِ!

والأماني من أبلغِ وسائلِ الشيطانِ في الإغواءِ؛ فله مع العبادِ أمانٍ معسولةٌ، ومواعيدُ كاذبةٌ؛ كيْما يوقعَهم في شَرَكِ الضَّلالِ، كما قال اللهُ - تعالى -: ﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾. يمنّي الشابَّ بالسَّدَرِ في الغَيِّ والتمتُّعِ بزهرةِ الشبابِ وأنّ بابَ التوبِ مُشرَعٌ عند بلوغِ سنِّ الكهولةِ! ويمنّي المستثمرَ بأنّ الصفقةَ الحرامَ نادرةُ الوجودِ وستُغنيكَ عن غيرِها وبابُ التوبةِ مفتوحٌ وربُّك غفورٌ رحيمٌ!

واستغلالُ مواطنِ الضعفِ البشريِّ ولحظاتِه من أقوى وسائلِ الشيطانِ في الإضلالِ؛ إذْ ينفذُ من خلالِ هذه المواطنِ على العبدِ؛ فيحملَه على فعلِ ما لا تُحمدُ عقباه أو تركِه. فالغضبُ والخوفُ واليأسُ والطمعُ والحزنُ والشكُّ

والفرحُ مواطنُ ضعفٍ بشريٍّ يعظمُ عملُ الشيطانِ فيها؛ فربَّما حمَلَه غضبُه على النُّطقِ بكلمةِ الكفرِ أو قتلِ النفسِ المعصومةِ أو تخريبِ عرشِه الزوجيِّ بكلمةِ الطَّلاقِ، وربَّما دعاه الخوفُ إلى الشركِ بتعليقِ تعاويذَ لا تنفعُ ولا تضرُّ، وربَّما حدَاه اليأسُ إلى تركِ الدّعوةِ والأمرِ بالمعروفِ، وربَّما حضّه الطمعُ إلى موالاةِ أعداءِ اللهِ، وربّما قاده الحزنُ إلى الانتحارِ، وربّما أسلمَه الشكُّ إلى قَطيعةِ الرحِمِ، وربَّما أزَّه الفرحُ إلى الوقوعِ في السَّرفِ والتبذيرِ. والانتباهِ لتلكَ المواضعِ، واليَقَظةِ فيها، والتخَلُّصِ من ضغطِها بالصبرِ والنظرِ للعاقبةِ من ألْزمِ ما ينْبغِي للعبدِ رَعيُه.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
وبعدُ، فاعلمُوا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المسلمون!

وكما أبانَ اللهُ — سبحانَه — هذا العداءَ الشيطانيَّ الصائلَ الهائلَ فقد أبانَ وسائلَ قمعِه ودَحرِه؛ إذْ كيدُ الشيطانِ مهْما بلغَ فإنّه ضعيفٌ، ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾. ومن الأسلحةِ التي يُحاربُ بها هذا العدوُّ الشيطانيُّ: لزومُ العبوديّةِ لله والتوكُّل عليه، كما قال اللهُ — تعالى -: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ۝١٠٠﴾. والاستعاذةُ باللهِ من الشيطانِ عاصمٌ من كيدِه، كما قال اللهُ — تعالى -: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾. وتلك الاستعاذةُ النابعةُ من افتقارٍ وعلمٍ من أعظمِ ما يتحققُ به العبادةُ والتوكلُ في مقارعةِ الشيطانِ، كما قال اللهُ — تعالى -: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾. والإخلاصُ للهِ جُنةٌ حاميةٌ في هذه المعركةِ، كما أخبرَ اللهُ عن إبليسَ: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾. وقطعُ الطريقِ على الشيطانِ بعدمِ الاسترسالِ معه في خطواتِه التي يُدرِّج العبدَ فيها إلى قعرِ

الدّركاتِ من أعظم ما يعصِمُ من شرِّه، كما قال اللهُ – سبحانَه –: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾. وإنْ وقعَ في حبائلِه – ولا بدّ من ذلكَ –، فعليه المبادرةُ بإصلاحِ زلّه بالتوبةِ النَّصوحِ واللّهجِ بالاستغفارِ، كما قال اللهُ – تعالى –: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾.

مَن تُصلِّي عليهم الملائكةُ

إنّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا. مَن يهدِه اللهُ فلا مضلّ له، ومَن يضللْ فلا هاديَ له. وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ...)

أيّها المؤمنونَ!

من أعظمِ الأدعيةِ نفعاً، وأبلغِها أثراً، وأرجاها قَبولاً ظفرُ العبدِ بصلاةِ الملائكةِ المسبِّحةِ بحمدِ ربِّها عليه؛ إذْ هي دعوةُ كرامٍ بررةٍ، لم يُثنهم عن طاعةِ ربِّهم انقطاعٌ، أو فتورٌ، أو مللٌ طرفةَ عيْنٍ، ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾. وباتَ من برهانِ إجابةِ دعاءِ أولئكَ المقربينَ إغراءُ الشَّرعِ المكلفينَ بأعمالِ خيرٍ رتّب عليها دعاءَ الملائكِ لفاعلِها، وتنفيرُه إيّاهم عن بعضِ الأفعالِ المُشينةِ بلعنِ الملائكِ فاعلَها كالكفرِ الواردِ في قولِ اللهِ — تعالى -: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾، وامتناعُ الزوجةِ عن الفراشِ من غيرِ بأسٍ كما قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ، فَأَبَتْ أَنْ تَجِيءَ، لَعَنَتْهَا المَلائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ» رواه البخاريُّ ومسلمٌ، والإشارةِ إلى المسلم بحديدة، كما قال النبي – صلى الله

عليه وسلم -: «مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَلْعَنُهُ، حَتَّى يَدَعَهُ وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ» رواه مسلمٌ.

أيّها المسلمونَ!

إنّ صلاةَ الملائكةِ على المؤمنينَ تنظِمُ في عِقدِها طلبَ تحقيقِ ثلاثِ غاياتٌ هي: المغفرةُ، والرحمةُ، والتوبةُ، وتلكُم أهمُّ ما يفتقرُ إليه العبادُ، وأخرى رابعةٌ حسنةٌ: دعوةُ خيرٍ من مثلِ ما دعا به العبدُ لأخيهِ. يقولُ النبيُّ ﷺ: "الْمَلَائِكَةُ يُصَلُّونَ عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ الَّذِي صَلَّى فِيهِ؛ يَقُولُونَ: اللهُمَّ ارْحَمْهُ، اللهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللهُمَّ تُبْ عَلَيْهِ" رواه مسلمٌ. فالعبدُ يتقلّبُ بين حاليْنِ؛ خيرٍ يرجوه، وشرٍ يحذرُه. والرحمةُ جماعُ ما يُسألُ من خيرٍ، والسيئاتُ جِماعُ ما يُحذَرُ من شرٍ ممّا يُرفعُ بالمغفرةِ سابقُه، ويُدفعُ بالتوبةِ لاحقُه؛ فتحصلُ بهما وقايةُ العبدِ من شؤمِ الذنوبِ. وفي صلاةِ الملائكةِ على العبدِ الثناءُ عليه، والتنويهُ بالعملِ الذي أكسبَه صلاتَهم. وبصلاةِ الملائكةِ على العبدِ يُنقلُ من دركِ الشقاوةِ إلى ذُرى السعادةِ، ومن غياهِبِ ظلماتِ الجهلِ والضَّلالِ إلى سَبحاتِ نورِ الهُدى والإيمانِ واليقينِ ثباتاً وزيادةً. يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

أيّها الإخوةُ في اللهِ!

إنَّ شرفَ الحظوةِ بصلاةِ الملائكةِ على العبدِ يدركُ بمعرفةِ سببِه ممّا وردتِ

النصوصُ بثبوتِه، والقيامِ به. ومن تلكَ الأعمالِ التي حازَ العلماءُ سهبَ فضلِها تعليمُ الناسِ الخيرَ ، يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرَضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيْرَ» رواه الترمذيُّ وقال: حسنٌ صحيحٌ. ولا رتبةَ فوقَ رتبةِ مَنْ تشتغلُ الملائكةُ وجميعُ الخلقِ بالصلاةِ عليه إلى القيامةِ! ونيْلُ تلكمُ البركةِ مرجوٌّ لمن علّم غيرَه خيراً، أو دلّه عليه، أو حذّره من شرٍ وإنْ لم يبلغْ شأوَ العلماءِ.

والبقاءُ في المُصلّى وانتظارُ الصلاةِ من أسبابِ صلاةِ الملائكةِ على العبدِ مالم يُحْدِثْ أو يخرجْ من مُصلاهُ، يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: "المَلاَئِكَةُ تُصَلِّي عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ، مَا لَمْ يُحْدِثْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، لاَ يَزَالُ أَحَدُكُمْ فِي صَلاَةٍ مَا دَامَتِ الصَّلاَةُ تَحْبِسُهُ، لاَ يَمْنَعُهُ أَنْ يَنْقَلِبَ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا الصَّلاَةُ" رواه البخاريُّ، وروى أحمدُ بإسنادٍ حسّنه ابنُ المدينيِّ أنّ النبيَّ ﷺ قال : " مَن صلّى الفجرَ ثُمَّ جلسَ فِي مُصلاه صلّتْ عَلِيهِ الملائكةُ، وصلاتُهم عَلِيهِ: اللهمّ اغفرْ لَهُ، اللهمّ ارحمْه، ومن ينتظرِ الصلاةَ صلتْ عَلِيهِ الملائكةُ، وصلاتُهم عَلِيهِ: اللهمّ اغفرْ لَهُ، اللهمّ ارحمْه". والمرأةُ تنالُ هذا الفضلَ بمُكوثِها طاهرةً في مُصلّاها المنزليِّ. والصلاةُ في الصفِّ الأوّلِ من أسبابِ صلاةِ الملائكةِ على العبدِ، يقولُ الرسولُ ﷺ: «إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الصَّفِّ الْأَوَّلِ» رواه ابنُ ماجه وصحّحه البوصيريُّ. وكلّما تقدمَ المصلي في الصفوفِ ازدادَ رجاءُ فضلِ صلاةِ الملائكةِ عليه، قال الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ- رضي اللهُ عنه -: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَخَلَّلُ الصُّفُوفَ مِنْ نَاحِيَةٍ إِلَى نَاحِيَةٍ، يَمْسَحُ مَنَاكِبَنَا وَصُدُورَنَا، وَيَقُولُ: «لَا تَخْتَلِفُوا؛ فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ». وَكَانَ يَقُولُ: «إِنَّ

اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الصُّفُوفِ الْمُتَقَدِّمَةِ» رواه النّسائيُّ وصحّحه الألبانيُّ. والصلاةُ يمينَ الصفِّ في صلاةِ الجماعةِ سببٌ لصلاةِ الملائكةِ على العبدِ، يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: "إنّ اللهَ وملائكتَه يصلّون على ميامِنِ الصفوفِ" رواه أبو داودَ وحسّنه ابنُ حجرٍ. وذاكَ ما كان يحرصُ الصحابةُ — رضيَ اللهُ عنهم — عليهِ، يقولُ البراءُ بنُ عازبٍ — رضيَ اللهُ عنهُ -: "كُنَّا إِذَا صَلَّيْنَا خَلْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَحْبَبْنَا أَنْ نَكُونَ عَنْ يَمِينِهِ، يُقْبِلُ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ، قَالَ: فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «رَبِّ قِنِي عَذَابَكَ يَوْمَ تَبْعَثُ - أَوْ تَجْمَعُ — عِبَادَكَ » رواه مسلمٌ. وسدُّ الفُرَجِ ورَصُّ الصفوفِ في الصلاةِ من أسبابِ صلاةِ الملائكةِ على العبدِ، يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الَّذِينَ يَصِلُونَ الصُّفُوفَ» رواه أحمدُ وصحّحه الحاكمُ على شرطِ مسلمٍ ووافقَه الذهبيُّ. وأكلُ السَّحورِ سببٌ لصلاةِ الملائكةِ على العبدِ، يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: "إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يصلّون على المتسحِّرين" رواه أحمدُ وصحّحه ابنُ حِبانَ وحسّنه الألبانيُّ. وعيادةُ المريضِ سببٌ لصلاةِ الملائكةِ على العبدِ، فقد عَادَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - رضي اللهُ عنهم -، فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ: أَعَائِدًا جِئْتَ أَمْ زَائِرًا؟ قَالَ: لَا، بَلْ جِئْتُ عَائِدًا، قَالَ عَلِيٌّ: أَمَا إِنَّهُ مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَعُودُ مَرِيضًا إلا خَرَجَ مَعَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، كُلُّهُمْ يَسْتَغْفِرُ لَهُ، إِنْ كَانَ مُصْبِحًا حَتَّى يُمْسِيَ، وَكَانَ لَهُ خَرِيفٌ فِي الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مُمْسِيًا خَرَجَ مَعَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، كُلُّهُمْ يَسْتَغْفِرُ لَهُ حَتَّى يُصْبِحَ، وَكَانَ لَهُ خَرِيفٌ فِي الْجَنَّةِ. رواه أحمدُ وأبو داودَ من غيرِ قصةٍ وصحّحه الألبانيُّ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.

وبعدُ، فاعلمُوا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

ومن أسبابِ صلاةِ الملائكةِ على العبدِ صيامُه عند قومٍ يأكلونَ، فقد دخلَ النبيُّ ﷺ على أمِّ عمارةَ — رضي اللهُ عنها - فَقَدَّمَتْ إِلَيْهِ طَعَامًا، فَقَالَ: «كُلِي»، فَقَالَتْ: إِنِّي صَائِمَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الصَّائِمَ تُصَلِّي عَلَيْهِ المَلَائِكَةُ إِذَا أُكِلَ عِنْدَهُ حَتَّى يَفْرُغُوا»، وَرُبَّمَا قَالَ: «حَتَّى يَشْبَعُوا» رواه الترمذيُّ وقال: حسنٌ صحيحٌ. والصلاةُ على النبيِّ ﷺ من أسبابِ صلاةِ الملائكةِ على العبدِ، يقولُ عليه الصلاةُ والسلامُ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ لَمْ تَزَلِ الْمَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَيْهِ مَا دَامَ يُصَلِّي عَلَيَّ، فَلْيُقْلِلْ مِنْ ذَلِكَ الْعَبْدُ أَوْ لِيُكْثِرْ» رواه أحمدُ وحسّنه المنذريُّ بشواهدِه.

أيّها المسلمونَ!

وثَمَّةَ دعوةٌ أحرى ما تكونُ إجابتُها بتأمينِ الملَكِ عليها وأنْ ينالَ الداعي مثلُها، وتلك هي دعوةُ المسلمِ لأخيهِ في ظهرِ الغيبِ، يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: "مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يَدْعُو لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ، إِلَّا قَالَ الْمَلَكُ: وَلَكَ بِمِثْلٍ" رواه مسلم، وفي رواية له: "مَنْ دَعَا لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ، قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ:

آمِيـنَ، وَلَـكَ بِمِثْـلٍ".

فدونكُـم — معشـرَ الإخـوةِ — سبلَ دَرَكِ الخيرِ حيـنَ تصلي عليكـمُ الملائكـةُ المكرّمـون بفعـلِ أحـدِ هـذه الخصـالِ العشْـرِ، ومـن زاد زِيـدَ في صلاتِـه.

هلْ تريدُ بيتًا في الجنةِ

الحمدُ للهِ الوليِّ الحميدِ، المبدئِ المعيدِ، الفعالِ لما يريدُ، ذِي العرش المجيدِ، والأمرِ الرشيدِ، وأشهدُ ألا إلهَ إلا الربُّ المجيدُ، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه خيرَ العبيدِ، صلى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وصحبِه وسلمَ التسليمَ المزيدَ.

أمّا بعدُ، فاتّقوا اللهَ — عبادَ اللهِ -، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾

أيّها المؤمنونَ!

المساكنُ منحةٌ من اللهِ سابغةٌ؛ تُؤوي الخلقَ، وتُكِنُّ من الهجيرِ والزمهريرِ، ومخلدُ الراحةِ والمطعمِ وشؤونٍ شتّى، وإن كان قوامُها صُوفًا أو وبراً، ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ﴾. ويجمُل المسكنُ باتّساعِه؛ فذاكَ من سعادةِ المرءِ في دنياهّ، كما قال النبيُّ ﷺ: «مِنْ سَعَادَةِ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِي الدُّنْيَا: الْجَارُ الصَّالِحُ، وَالْمُنْزِلُ الْوَاسِعُ، وَالْمَرْكَبُ الْهَنِيءُ» رواه الحاكمُ وصحّحه ووافقه الذهبيُّ. ويزدادُ ذاك الحسنُ بجمالِ أثاثِه وتزويقِه، وملاكُ الحسنِ حوْزُ المرءِ له وامتلاكُه. وتلكَ مُنى خلقٍ كثيرٍ، ومبعثُ كدّهم وكدَحِهم ولَغَبِهم كما هو حالُ أهلِ الدّنيا في بيوتِهم؛ عسرُ مِلكٍ، ونَصَبُ بناءٍ، وعيبُ إنشاءٍ، وغلاءُ سعر، ورهَقُ إشرافٍ، وقِصَرُ استمتاعٍ، بل لربَّما شُيِّدَ ولم يُنزَلْ، وذلك من

الكَبَدِ الذي خُلقَ الإنسانُ فيه. أحوالٌ تُزجي المؤمنَ ليسموَ في تطلّبِ منازلِ الجنةِ التي مايزتْ منازلَ الدّنيا بيُسرِ التملُّكِ، وراحةِ البناءِ، وقدرةِ الجميعِ على الثَّمنِ، والخلودِ السَّرْمَديِّ، وتمامِ الرِّضَى.

أيّها المسلمونَ!

إنّ بيوتَ الجنةِ من نعيمِها الذي أعدّه اللهُ لأهلِها؛ فهي مبنيَّةٌ من نعيمٍ لأهلِ النَّعيمِ في دارِ النّعيمِ، يقولُ الرسولُ ﷺ: «إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ، طُولُهَا سِتُّونَ مِيلًا، لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمِ الْمُؤْمِنُ فَلَا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا» رواه مسلمٌ. قد جلاّ رسولُ اللهِ ﷺ بناءَ تلكَ المساكنِ إثرَ سؤالِ أصحابِه عن بناءِ الجنةِ فقال: "لَبِنةٌ من فِضَّةٍ، ولَبِنةٌ من ذهبٍ، مِلاطُها (ما تُسوّى به الأشياءُ وتُسطّحُ) مِسْكٌ أَذْفَرُ (شديدُ الرائحةِ)، وحَصْباؤها اللؤلؤُ والياقوتُ، وترابُها الزّعفرانُ" رواه ابنُ أبي شَيْبَةَ وحسّنه البوصيريُّ.

وبناؤها اللّبِنَاتُ من ذهبٍ وأُخرى فِضّةٌ نوْعانِ مُحتلفانِ
وقُصورُها من لؤلؤٍ وزَبَرْجَدٍ أو فِضّةٍ أو خالصِ العِقيانِ
وكذاكَ من درٍّ وياقوتٍ به نُظِمَ البناءُ بغايةِ الإتْقانِ
والطينُ مسكٌ خالصٌ أو زَعْفرا نُ جَا بِذا أثرانِ مَقْبولانِ
ليسا بمختلفين لا تنكرهما فهما الملاط لذلك البنيان

أيّها الأخُ المُبارَكُ!

هلا ساءلتَ نفسَك عن دَرَكِ بيوتِ الجنةِ وسُبُلِ الظَّفْرِ بها؟ فإن للفوزِ بها أسباباً قد ثبتتْ بها النُّصوصُ. ومن أهمِّ هذه الأسبابِ: الإيمانُ والتّقوى، يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾، ويقول: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾. هذا جزاءُ الإيمانِ والتّقوى، أمّا مَن ضيّعَ ذلكَ فإنّ الحِرمانَ جزاؤه؛ إذْ سيُحرَمُ المنزلَ الذي أُعدّ له في الجنةِ إنْ هو آمنَ، يقولُ الرسولُ ﷺ عن الكافرِ: "ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: هَذَا كَانَ مَنْزِلَكَ لَوْ آمَنْتَ بِرَبِّكَ، فَأَمَّا إِذْ كَفَرْتَ بِرَبِّكَ فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَبْدَلَكَ بِهِ هَذَا، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنَ النَّارِ" رواه ابنُ أبي عاصمٍ وصحّحه الألبانيُّ.

عبادَ اللهِ!

والصّبرُ من سُبُلِ الفوزِ ببيوتِ الجنةِ، كما قال اللهُ — تعالى -: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ۝٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾. قال أبو سِنانٍ: دَفَنْتُ ابْنِي سِنَانًا، وَأَبُو طَلْحَةَ الخَوْلَانِيُّ جَالِسٌ عَلَى شَفِيرِ القَبْرِ، فَلَمَّا أَرَدْتُ الخُرُوجَ أَخَذَ بِيَدِي، فَقَالَ: أَلَا أُبَشِّرُكَ يَا أَبَا سِنَانٍ؟ قُلْتُ: بَلَى، فَقَالَ: حَدَّثَنِي الضَّحَّاكُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَرْزَبٍ، عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: "إِذَا مَاتَ وَلَدُ العَبْدِ

قَالَ اللهُ لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ، فَيَقُولُ اللهُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ" رواه الترمذيُّ وابنُ حِبانَ وحسّنه الألبانيُّ. والدعاءُ من أجلِّ طُرُقِ نيلِ منازلِ الجنانِ، كما أخبرَ اللهُ — تعالى — عن آسيَةَ بنتِ مُزاحمٍ زوجِ فرعونَ: ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾، قال أبو هريرةَ — رضيَ اللهُ عنه -: "إِنَّ فِرْعَوْنَ أَوْتَدَ لِامْرَأَتِهِ أَرْبَعَةَ أَوْتَادٍ فِي يَدَيْهَا ورجلَيْهَا، فكان إِذَا تَفَرَّقُوا عَنْهَا أَظَلَّتْهَا الْمَلَائِكَةُ (وفي روايةٍ: "ظلّلتْها الملائكةُ")، فَقَالَتْ: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾، قَالَ: فَكَشَفَ لَهَا عَنْ بَيْتِهَا فِي الْجَنَّةِ " رواه أبو يَعلَى وصحّحه ابنُ حجرٍ والألبانيُّ. ومن أسبابِ نَيْلِ بيوتِ الجنةِ ملازمةُ السننِ الرّواتبِ؛ وهي ركْعَتانِ قبلَ الفجرِ وأربعٌ قبلَ الظُّهرِ واثنتانِ بعدَها واثنتانِ بعد المغربِ والعشاءِ، روى النُّعْمَانُ بْنُ سَالِمٍ، عَنْ عَمْرِو بْنِ أَوْسٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي عَنْبَسَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ، فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ بِحَدِيثٍ يَتَسَارُّ إِلَيْهِ (أي: يُسرّ به)، قَالَ: سَمِعْتُ أُمَّ حَبِيبَةَ تَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ صَلَّى اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، بُنِيَ لَهُ بِهِنَّ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ»، قَالَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ: " فَمَا تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ "، وَقَالَ عَنْبَسَةُ: «فَمَا تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ أُمِّ حَبِيبَةَ»، وَقَالَ عَمْرُو بْنُ أَوْسٍ: «مَا تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ عَنْبَسَةَ»، وَقَالَ النُّعْمَانُ بْنُ سَالِمٍ: «مَا تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ عَمْرِو بْنِ أَوْسٍ» رواه مسلمٌ. وصلاةُ الضُّحى أربعُ رَكعاتٍ بسَلامَيْنِ من أسبابِ تحصيلِ بيوتِ الجنةِ، يقولُ الرسولُ ﷺ: "مَن صلّى الضُّحى أربعًا، وقبلَ الأولى أربعًا (أي: الظُّهرِ)، بُني له بيتٌ في الجنةِ"

رواه الطبرانيُّ وحسَّنه الألبانيُّ. وقيامُ الليلِ من أسبابِ الظفرِ ببيوتِ الجنةِ سيَّما إنْ صاحَبَه حسنُ خُلقٍ وإحسانٌ إلى الخَلقِ، يقولُ النبيُّ ﷺ: "«إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا»، فَقَالَ أَبُو مَالِكٍ الْأَشْعَرِيُّ: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «لِمَنْ أَطَابَ الْكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَبَاتَ قَائِمًا وَالنَّاسُ نِيَامٌ» رواه الحاكمُ وصحّحه على شرطِ الشيخيْنِ ووافقَه الذهبيُّ. ومن سبلِ الفوزِ ببيوتِ الجنةِ الإتيانُ بآدابِ النومِ الواردةِ في قولِ النبيِّ ﷺ: "إِذَا اضْطَجَعَ الرَّجُلُ فَتَوَسَّدَ يَمِينَهُ، ثُمَّ قَالَ: اللهُمَّ إِلَيْكَ أَسْلَمْتُ نَفْسِي، وَفَوَّضْتُ إِلَيْكَ أَمْرِي، وَأَلْجَأْتُ إِلَيْكَ ظَهْرِي، وَوَجَّهْتُ إِلَيْكَ وَجْهِي، رَهْبَةً مِنْكَ، وَرَغْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، وَبَاتَ عَلَى ذَلِكَ بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ، أَوْ بُوِّئَ لَهُ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ" رواه أحمدُ وسكتَ عنه ابنُ حجرٍ وأصلُه في صحيحِ البخاريِّ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
وبعدُ، فاعلَموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيُّها المؤمنونَ!

ومن أسبابِ الفوزِ ببيوتِ الجنةِ بناءُ المساجدِ، يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ بَنَى مَسْجِدًا لِلَّهِ بَنَى اللهُ لَهُ فِي الْجَنَّةِ مِثْلَهُ» رواهُ مسلمٌ، وعند أحمدَ: «مَنْ بَنَى لِلَّهِ مَسْجِدًا وَلَوْ مِثْلَ مِفْحَصِ قَطَاةٍ (موضع بَيْضِها)، بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ»؛ وذلكَ دالٌّ على ترتُّبِ هذا الأجرِ الجزيلِ لمَن بنى مسجداً صغيراً أو كبيراً، أو أسهمَ فيه، أو دلّ عليه. وتركَ المِراءَ والجدلَ وإنْ كان مُحِقاً، والصدقُ في الحديثِ وإنْ كان مازحاً، وحسنُ الخُلُقِ من أسبابِ نيْلِ منازلِ الجنةِ، كما قال النبيُّ ﷺ: «أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ (أي: ما حولَها) لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ» روا أبو داودَ وحسّنه الألبانيُّ. وقراءةُ سورةِ الإخلاصِ عشْرَ مراتٍ طريقٌ للفوزِ بقصرٍ في الجنَّةِ، يقولُ النبيُّ ﷺ: "مَن قرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى يختمَها عشْرَ مرَّاتٍ بنى اللهُ له قصراً في الجنةِ". رواه أحمدُ وحسّنه الألبانيُّ. فهذه اثناعشَرَ سبباً لبناءِ بيوتِ الجنةِ.

أيُّها الإخوةُ في اللهِ!

هـذا عـرضٌ لعَقـارِ الجنةِ، وثمنُـه؛ فأيـن المسـتثمرونَ؟ السِّـلعةُ غاليـةٌ، والثمـنُ يسـيرٌ، والحاجـةُ ماسّـةٌ، والفـرَصُ وافـرةٌ، والعمـرُ قصيـرٌ، والربـحُ مضمـونٌ، وخُسـارةُ التضييـعِ فادحـةٌ؛ فالوحَـى الوحَـى! والبِـدارَ البِـدارَ!

فَحَـيّ عَلَـى جَنَّـاتِ عَـدْنٍ فَإنهَا مَنَازِلُكَ الأولَى وَفِيهَا المُخَيّمُ
وَلكِنَّنَـا سَـبْيُ العَـدُوِّ، فَهَـلْ تَرَى نَعُـودُ إلَـى أَوْطَانِنَا وَنُسَلَّـمُ
وقـد زعمـوا أن الغريـبَ إذا نأَى وشـطّت بـه أوطانُه فهو مؤلَـمُ
وأيُّ اغـترابٍ فـوقَ غُربتِنـا التي لها أضحـتِ الأعداءُ فينـا تحكّمُ
فما ظفـرَتْ بالوصلِ نفـسٌ مَهينةٌ ولا فـازَ عبـدٌ بالبَطالـةِ يَنعَـمُ

وألْحِقْني بالصّالحينَ

إنّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مضلّ له، ومَن يضللْ فلا هاديَ له،وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ...﴾.

أيّها المؤمنونَ!

الصّلاحُ نعمةٌ ربانيّةٌ سابغةٌ، يهبُها مِن عبادِه مَن سبقتْ له منه الحُسنى. ومتى ظَفرَ العبدُ بذلكَ الهناءِ فإنّ بحارَ المِنَنِ وسوابلَ مُزَنِه تَفيضُ عليه بالعطاءِ الغدْقِ والصبِّ الطَّيِّبِ ممّا لا يُحاطُ عدّه أو يُحصرُ وصفُه. فلا نعمةَ تعدِلُ نعمةَ الصّلاحِ؛ ولذا كان لِزامًا على كلِّ مكلَّفٍ أنْ يَسألَ ربَّه إيّاها سبعَ عشْرةَ مرةً كلَّ يومٍ وليلةٍ؛ حينَ يستهْديهِ صراطَ المُنعِمِ عليهم من النبيينَ والصديقينَ والشهداءِ والصالحينَ وحسُنَ أولئكَ رَفيقًا. يطلبونها من موْلاهم حينَ علِموا أنّها اجتباءٌ ربّانيٌّ وفضلٌ إلهيٌّ؛ لا يُوجبُه عملٌ ولا استحقاقٌ، كما قالَ تعالى: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾. وكان الأنبياءُ يطلبونَها بلسانِ الذلِّ والافتقارِ لموْلاهم، كما دعا إبراهيمُ ويوسفُ — عليهما الصلاةُ والسلامُ -: ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾. ولم تقفْ همَّتُهم في ذلكَ الخيرِ على حدودِ النفسِ، بل سمتْ ليشملَ نعيمُ الصلاحِ ذريَّتَهم، كما دعا

إبراهيمُ — عليه السلامُ — على كِبَرِ سنٍّ وعُقْمِ زوجٍ فقال: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾. وطموحُ إيمانِ الصادقينَ يكسرُهم لربِّ العالمينَ أنْ يُدخلَهم مع القومِ الصّالحينَ: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

أيّها المسلمون!

إنّ للصلاحِ ثماراً يانعةَ المنظرِ حُلْوةَ المخْبرِ، تبدأُ مع العبدِ حينَ يغدو صالحـًا، وتبقَى مِدْرارةً عليهِ بعد موتِه، ويَحظَى بالجزاءِ العظيمِ عليها يومَ الدينِ. فولايةُ اللهِ للعبدِ بقدْرِ صلاحِه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، ومَنْ كان اللهُ وليَّه فما ترَوْنه صانعـًا به؟! والعبدُ الصالحُ في حفظٍ من اللهِ ومَنَعَةٍ غدتْ مثلاً يُنشَدُ، فقد كان من دعاءِ النبيِّ ﷺ عند نوْمِه: "باسمِك ربِّ وضعتُ جَنْبي وبكَ أرفعُه، إنْ أمسكتَ نفسِي فارحمْها، وإنْ أرسلتَها فاحفظْها بما تحفظُ به عبادَك الصالحينَ" رواه البخاريُّ ومسلمٌ. وما يزالُ لطفُ اللهِ بالعبدِ الصالحِ حفيّـًا حتى ما يراهُ في منامِه أو يُرى له، كما قال النبيُّ ﷺ: "إنَّه لم يبقَ من مُبَشِّراتِ النبوةِ إلا الرؤيا يراها العبدُ الصالحُ أو تُرى له" رواه مسلمٌ. والعبدُ الصالحُ بَشَرٌ؛ يضعُفُ ويهفو، والتوبةُ أرجَى ما يكونُ قَبولُها إنْ قارنتِ الصلاحَ، كما قال تعالى: ﴿إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا﴾. ويالَهناءِ العبدِ الصالحِ حين تصعدُ ملايينُ دعواتِ المُصلِّينَ المكرورةِ بطلبِ السلامةِ له كلَّ يومٍ وليلةٍ خمسَ مراتٍ على الحدِّ الأدنى، يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: "إذا جلسَ أحدُكم في الصلاةِ،

فلْيقلْ: "التَّحيّاتُ للهِ، والصّلواتُ، والطَّيباتُ، السلامُ عليك أيّها النبيُّ ورحمةُ اللهِ وبركاتُه، السلامُ علينا، وعلى عبادِ اللهِ الصالحينَ، فإذا قالَها، أصابتْ كلَّ عبدٍ صالحٍ في السماءِ والأرضِ" رواه مسلمٌ. وهذا من أسبابِ عدمِ انقطاعِ أجرِ الصالحينَ بعد موتِهم، كما قال اللهُ — تعالى -: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾. والصّلاحُ مَركَبٌ يُدخلُ اللهُ به العبدَ عالمَ رحمتِه التي وَسعتْ كلَّ شيءٍ وتنتهي بهم إلى جنةِ النَّعيمِ، كما قال تعالى: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾. والصّلاحُ سببُ وراثةِ الأرضِ وتمكُّنِ الملكِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾. وبركةُ صلاحِ الولدِ تَنالُ والدَه الميِّت، كما قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: " إذا ماتَ ابنُ آدمَ انقطعَ عملُه إلا من ثلاثٍ" وذكرَ منها: " أو ولدٍ صالحٍ يدعو له " رواه مسلمٌ. وكذلكَ فإنّ بركةَ صلاحِ الوالدِ يُرجَى نوالُها للولدِ، كما قال تعالى على لسانِ الخضرِ — عليه السلامُ -: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾. بل قد تمتدُّ تلكَ البركةُ إلى الغيرِ، يقول محمدُ بنُ المنْكدِرِ: «إنّ اللهَ - عزّ وجلّ - ليحفظُ بحفظِ الرجلِ الصالحِ ولدَه وولدَ ولدِه ودويرتَه التي فيها والدويراتِ حولَه فما يزالونَ في حفظٍ من اللهِ - عزّ وجلّ — وسِتر». والموتُ للعبدِ الصالحِ مُستراحٌ حين كان لغيرِه فَجيعةً وحزنًا، قال أبو قَتادةَ — رضي اللهُ عنه -: كنّا مع رسولِ اللهِ ﷺ يوما فمُرَّ عليه بجنازةٍ فقال: "مُستريحٌ ومُستراحٌ منه". قال: قُلنا: أيْ

رسولَ اللهِ، ما مُستريحٌ؟ ومُستراحٌ منه؟ قال: "العبدُ الصالحُ يستريحُ من نصَبِ الدّنيا وهمِّها إلى رحمةِ اللهِ، والعبدُ الفاجرُ يستريحُ منه العبادُ والبلادُ والشَّجرُ والدوابُّ" رواه مسلمٌ وهذا لفظُ أحمدَ. وفي ساعةِ الموتِ تكونُ بشارةُ الجنةِ للعبدِ الصالحِ، كما قال تعالى: ﴿وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أمّا بعدُ، فاعلَموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنون!

إنّ بنيانَ الصلاحِ الشامخِ يقومُ على رُكنيْنِ اثنيْنِ؛ القيامِ بحقِّ اللهِ، والقيامِ بحقِ الخَلقِ. ويأتي في مُقدَّمِ حقوقِ اللهِ الإيمانُ، واتباعُ القرآنِ، والصلاةُ، والأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكرِ، والمُسارعةُ في الخيراتِ، كما قال تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾. وكذلك التوبةُ، كما قال تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا۟ صَـٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾. وهكذا التواضعُ وهضمُ النفسِ في حقِّ اللهِ وعدمُ تزكيتِها، تأمّلوا دعاءَ إبراهيمَ ويوسفَ — عليهما السلامُ -: ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ﴾؛ يالَروعةِ الافتقارِ! يطلبونَ من ربِّهم إلحاقَهم في موكبِ الصالحينَ وهم روّادُه وأئمتُه! قال مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ عيسى الْعُبْرِيُّ: "كُنْتُ أَسْمَعُ جَدِّي فِي السَّحَرِ يَبْكِي وَيَقُولُ: تُرَجِّحُ بِي الأَمَانِي، وَخَلِيلُهُ إِبْرَاهِيمُ -عَلَيْهِ السَّلامُ- يَقُولُ: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾! وَيَبْكِي". وشأنُ الصالحينَ رعايةُ حقوقِ الخلقِ والسلامةُ من ظلمِهم وبخسِهم حقَّهم، كما قالَ العبدُ الصالحُ لموسى — عليه

السلامُ — حين تعاقدَ معه على استئجارِه نظيرَ إنكاحِه ابنتَه؛ فطمأنَه على وَفائه حقَّه قائلاً: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الذينَ يعرفونَ حقَّ الخلقِ ويوفُّونَه.

أيّها المؤمنون!

اظفَروا بالصّلاحِ ما دام العمرُ باقيًا؛ فإنّ طلبَ استدراكِه بعد الموتِ أمنيةُ الخاسرينَ؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

والوزنُ يومئذٍ الحقُّ

الحمـدُ للهِ مقـدّرِ الآجـالِ، ومُحصـي الأعمـالِ، إليـه المـآلُ، وبيـده النـوالُ، وأشـهدُ ألا إلـهَ إلا اللهُ العليـمُ المتعـالِ، وأشـهدُ أنّ محمـداً عبـدُه ورسـولُه، صلـى اللهُ وسـلمَ عليـه وعلـى كافّـةِ الصحـبِ والآلِ.

أمّا بعدُ، فاتّقوا اللهَ — عبادَ اللهِ — ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ...﴾.

أيّها المؤمنونَ!

مِن أخـصِّ سـماتِ العقـلِ والفطنـةِ الاسـتعدادُ لعظائـمِ الأمـورِ التـي لا بُـدّ مـن ورودِهـا؛ وذلـكَ بمعرفـةِ حقيقـةِ الأمـرِ، والتـزوُّدِ لاجتيـازِه بسـلامٍ. ألا وإنّ أشـدَّ الكُـرَبِ وأحلكَهـا خطَـراً مشـهدُ اليومِ الآخرِ بأهوالِـه المُفزِعـةِ وأحوالِـه المُزعِجَـةِ، ﴿وَنُفِـخَ فِي ٱلصُّـورِ فَصَعِـقَ مَن فِي ٱلسَّـمَٰوَٰتِ وَمَـن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَـآءَ ٱللَّهُۖ﴾. مبدأُ تلكَ المشاهدِ الْبَعْثُ وَالنُّشُورُ، ثُـمَّ الْمَحْشَـرُ، ثُـمَّ الْقِيَامُ لِـرَبِّ الْعَالَمِيـنَ، ثُـمَّ الْعَـرْضُ عليه، ثُـمَّ تَطَايُرُ الصُّحُفِ وَأَخْذُهَـا بِالْيَمِينِ وَأَخْذُهَـا بِالشِّـمَالِ، ثُمَّ السُّـؤَالُ وَالْحِسَـابُ، ثُـمَّ الْمِيـزَانُ. هـذا وإنّ مـن أشـدِّ تلـك الشـدائدِ لحظـةَ توفيـةِ الموازيـنَ التـي لا طريـقَ لمعرفـةِ نبئِهـا الغيبـيِّ إلا بنصـوصِ الوحْـي. يقـولُ اللهُ — تعالـى –: ﴿وَنَضَـعُ ٱلْمَوَٰزِيـنَ ٱلْقِسْـطَ لِيَـوْمِ ٱلْقِيَٰمَـةِ فَـلَا تُظْلَـمُ نَفْـسٌ شَـيْـًٔاۖ وَإِن كَانَ مِثْقَـالَ حَبَّـةٍ مِّـنْ خَـرْدَلٍ أَتَيْنَـا بِهَـاۗ وَكَـفَىٰ بِنَـا حَـٰسِبِينَ﴾، وعَـنْ عَائِشَـةَ — رضـي اللهُ عنهـا – أَنَّهَـا ذَكَـرَتِ النَّـارَ فَبَكَـتْ، فَقَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: «مَـا يُبْكِيـكِ؟»

قَالَـتْ: ذَكَرْتُ النَّارَ فَبَكَيْتُ، فَهَلْ تَذْكُرُونَ أَهْلِيكُمْ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ؟ فَقَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: "أَمَّا فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ فَلَا يَذْكُرُ أَحَدٌ أَحَدًا: عِنْدَ الْمِيزَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَيَخِفُّ مِيزَانُـهُ أَوْ يَثْقُلُ، وَعِنْدَ الْكِتَابِ حِيـنَ يُقَالُ: ﴿هَـآؤُمُ ٱقْـرَءُواْ كِتَٰبِيَـهْ﴾ حَتَّى يَعْلَمَ أَيْـنَ يَقَـعُ كِتَابُـهُ أَفِي يَمِينِهِ أَمْ فِي شِمَالِهِ أَمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ، وَعِنْدَ الصِّـرَاطِ إِذَا وُضِعَ بَيْـنَ ظَهْـرَيْ جَهَنَّـمَ" رواه أبـوداودَ وسكتَ عنه. ولعـلّ ذلـكَ مـن أسـبابِ حضـورِ النبيِّ ﷺ هـذه المواطـنَ؛ شـفيعـًا لأمتِه؛ فقـد سـأل أنـسُ بـنُ مالـكٍ — رضي اللهُ عنه — رسولَ اللهِ ﷺ أَنْ يَشْـفَعَ لِـه يَـوْمَ القِيَامَـةِ، فَقَـالَ: «أَنَا فَاعِـلٌ»، قَـالَ: قُلْـتُ: يَـا رَسُـولَ اللهِ، فَأَيْـنَ أَطْلُبُـكَ؟ قَـالَ: «اطْلُبْنِي أَوَّلَ مَا تَطْلُبُنِي عَلَـى الصِّـرَاطِ». قَـالَ: قُلْـتُ: فَـإِنْ لَـمْ أَلْقَـكَ عَلَـى الصِّـرَاطِ؟ قَـالَ: «فَاطْلُبْنِي عِنْدَ المِيزَانِ». قُلْـتُ: فَـإِنْ لَـمْ أَلْقَـكَ عِنْـدَ المِيـزَانِ؟ قَـالَ: «فَاطْلُبْنِي عِنْـدَ الحَـوْضِ؛ فَإِنِّـي لَا أُخْطِـئُ هَـذِهِ الثَّـلَاثَ المَـوَاطِـنَ» رواه الترمـذيُّ وقـال: «هَـذَا حَدِيـثٌ حَسَـنٌ غَرِيـبٌ" وصحّحه الألبـانيُّ.

عباد الله!

بالحسـابِ تُقـرَّرُ الأعمـالُ بخيرِهـا وشـرِّها، وبالميزانِ يكـونُ إظهـارُ مقـدارِ تلـكَ الأعمـالِ وصحفِهـا المسُـطَّرةِ ووزنِ كلِّ عامـلٍ؛ ليقـعَ الجـزاءُ بعـد ذلـكَ. ﴿وَٱلْـوَزْنُ يَوْمَئِـذٍ ٱلْحَـقُّ فَمَـن ثَقُلَـتْ مَوَٰزِينُـهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِـكَ هُـمُ ٱلْمُفْلِحُـونَ ۝٨ وَمَـنْ خَفَّـتْ مَوَٰزِينُـهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِـكَ ٱلَّذِيـنَ خَسِـرُوٓاْ أَنفُسَـهُم بِمَـا كَانُـواْ بِـَٔايَٰتِنَـا يَظْلِمُـونَ﴾. فـإن سـألتَ عـن صفـاتِ هـذا الميـزانِ، فإنّـه ميـزانٌ حقيقـيٌّ حسـيٌّ واحـدٌ لكنّـه عظيمُ الخَلـقِ والسـعةِ، لـه كِفتـانِ ولسـانٌ. علـى هـذا انعقـدَ إجمـاعُ السّـلفِ الصّـالـحِ، وأثبتـوه في مصنفـات اعتقـادِهـم. يقـولُ النَّبِـيُّ ﷺ: "يُوضَـعُ الْمِيـزَانُ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ فَلَـوْ

وُزِنَ فِيهِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ لَوَسِعَتْ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبِّ، لِمَنْ يَزِنُ هَذَا؟ فَيَقُولُ اللهُ — تعَالَى -: لِمَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِي، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ!" رواه الحاكمُ وصحّحه عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ ووافقه الذهبيُّ، ورُوِي أَنَّ دَاوُدَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - سَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يُرِيَهُ الْمِيزَانَ، فَلَمَّا رَآهُ غُشِيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ: إِلَهِي، مَنْ ذَا الَّذِي يَقْدِرُ بِمَلْءِ كِفَّةِ حَسَنَاتِهِ؟! فَقَالَ: "إِذَا رَضِيتُ عَنْ عَبْدِي مَلَأْتُهَا بِتَمْرَة". وهو ميزانٌ دقيقٌ يخفُّ بمثقالِ حبةِ الخردلِ أو يرجُحُ، يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾، يقولُ ابنُ مسعودٍ — رضي اللهُ عنه -: " إِنَّ الْمِيزَانَ يَخِفُّ بِمِثْقَالِ حَبَّةٍ، أَوْ يَرْجُحُ". ومن هنا عظمَ وجلُ الصالحينَ؛ فعن عائشةَ - رضي اللهُ عنها —: أَنَّ رَجُلًا قَعَدَ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ لِي مَمْلُوكِينَ يُكَذِّبُونَنِي وَيَخُونُونَنِي وَيَعْصُونَنِي، وَأَشْتُمُهُمْ وَأَضْرِبُهُمْ فَكَيْفَ أَنَا مِنْهُمْ؟ قَالَ: «يُحْسَبُ مَا خَانُوكَ وَعَصَوْكَ وَكَذَّبُوكَ وَعِقَابُكَ إِيَّاهُمْ، فَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِمْ كَانَ كَفَافًا، لَا لَكَ وَلَا عَلَيْكَ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ دُونَ ذُنُوبِهِمْ كَانَ فَضْلًا لَكَ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ فَوْقَ ذُنُوبِهِمْ اقْتُصَّ لَهُمْ مِنْكَ الْفَضْلُ». قَالَ: فَتَنَحَّى الرَّجُلُ فَجَعَلَ يَبْكِي وَيَهْتِفُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "أَمَا تَقْرَأُ كِتَابَ اللهِ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] الآيَةَ ". فَقَالَ الرَّجُلُ: وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا أَجِدُ لِي وَلَهُمْ شَيْئًا خَيْرًا مِنْ مُفَارَقَتِهِمْ، أُشْهِدُكَ أَنَّهُمْ أَحْرَارٌ كُلُّهُمْ. رواه الترمذيُّ وصحّحه الألبانيُّ. وعن بحدل الشاميّ عن أبيهِ - وَكَانَ صَاحِبًا لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ

الْعَزِيزِ -قَالَ: "رَأَيْتُ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَلَى الْمِنْبَرِ يَتْلُو هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ حَتَّى خَتَمَهَا فَمَالَ عَلَى أَحَدِ شِقَّيْهِ يَرِيدُ أَنْ يَقَعَ".

أهلَ الإيمانِ!

بالميزانِ تبينُ المقاديرُ، ويكونُ الجزاءُ. والذي جاءتْ به النصوصُ وانعقدَ عليه إجماعُ السلفِ الصّالحِ أنّ الثّقلينِ في الميزانِ قسمانِ: كافرونَ ومؤمنونَ؛ فأمّا الكافرونَ فلا ثقلَ لهم في الميزانِ؛ إذ غدتْ أعمالُهم بشركِهم هباءً منثوراً؛ فلا يُقامُ لهم يومَ القيامةِ وزنٌ. وأمّا المؤمنون، فهم على ثلاثِ طبقاتٍ:

الطَّبَقَةُ الْأُولَى: قَوْمٌ رَجُحَتْ حَسَنَاتُهُمْ بِسَيِّئَاتِهِمْ — ولو بحسنةٍ واحدةٍ -، فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ وَلَا تَمَسُّهُمُ النَّارُ أَبَداً- نسألُ اللهَ من فضلِه-.

والطَّبَقَةُ الثَّانِيَةُ: قَوْمٌ تَسَاوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ وَتَكَافَأَتْ؛ فَقَصُرَتْ بِهِمْ سَيِّئَاتُهُمْ عَنِ الْجَنَّةِ وَتَجَاوَزَتْ بِهِمْ حَسَنَاتُهُمْ عَنِ النَّارِ، وَهَؤُلَاءِ هُمْ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ؛ الَّذِينَ ذَكَرَ اللهُ -تَعَالَى - أَنَّهُمْ يُوقَفُونَ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يُوقَفُوا، ثُمَّ يُؤْذَنُ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ.

والطبقةُ الثالثةُ: قَوْمٌ لَقَوُا اللهَ تَعَالَى مُصِرِّينَ عَلَى كَبَائِرِ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَمَعَهُمْ أَصْلُ التَّوْحِيدِ، فَرَجُحَتْ سَيِّئَاتُهُمْ بِحَسَنَاتِهِمْ، فَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ النَّارَ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ إِلَى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ إِلَى حِقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ

فَوْقَ ذَلِكَ، حَتَّى إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُحَرَّمْ مِنْهُ عَلَى النَّارِ إِلَّا أَثَرُ السُّجُودِ؛ فقد حَرَّمَ اللهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ يَأْذَنُ اللهُ — تَعَالَى - بِالشَّفَاعَةِ فِيهِمْ لِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ - ﷺ- وَلِغَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ بَعْدِهِ وَالْأَوْلِيَاءِ وَالْمَلَائِكَةِ وَمَنْ شَاءَ اللهُ أَنْ يُكْرِمَهُ، فَيَحِدُّ لَهُمْ حَدًّا فَيُخْرِجُونَهُمْ، ثُمَّ يَحِدُّ لَهُمْ حَدًّا فَيُخْرِجُونَهُمْ، ثُمَّ هَكَذَا؛ فَيُخْرِجُونَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ وَزْنُ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ ثُمَّ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ نِصْفُ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ، ثُمَّ بُرَّةٌ، ثُمَّ خَرْدَلَةٌ، ثُمَّ ذَرَّةٌ، ثُمَّ أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ إِلَى أَنْ يَقُولَ الشُّفَعَاءُ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا خَيْرًا. وَيُخْرِجُ اللهُ -تَعَالَى - مِنَ النَّارِ أَقْوَامًا لَا يَعْلَمُ عِدَّتَهُمْ إِلَّا هُوَ بِدُونِ شَفَاعَةِ الشَّافِعِينَ، وَلَمْ يُخْلَدْ فِي النَّارِ أَحَدٌ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ؛ وَلَوْ عَمِلَ أَيَّ عَمَلٍ من الذنوبِ سوى الشركِ، وَلَكِنْ كُلُّ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ أَعْظَمَ إِيمَانًا وَأَخَفَّ ذَنْبًا كَانَ أَخَفَّ عَذَابًا فِي النَّارِ وَأَقَلَّ مُكْثًا فِيهَا وَأَسْرَعَ خُرُوجًا مِنْهَا، وَكُلُّ مَنْ كَانَ أَضْعَفَ إِيمَانًا وَأَعْظَمَ ذَنْبًا كَانَ بِضِدِّ ذَلِكَ وَالْعِيَاذُ بِاللهِ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
وبعدُ، فاعلَموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المسلمونَ!

لئنْ كانَ الميزانُ يرجُحُ بحبةِ الخردلِ، فإن ثمَّةَ أعمالاً هي أثقلُ ما تكونُ في الميزانِ، وأهمُّ هذه الأعمالِ التوحيدُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الخَلَائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ، فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ"، قَالَ: «فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كَفَّةٍ وَالبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ؛ فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ» رواه الترمذيُّ وحسَّنه وصحّحه الحاكمُ على شرطِ مسلمٍ ووافقَه الذهبيُّ. ومنها: التسبيحُ والتحميدُ، قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: "الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ " رواه مسلمٌ، ويقولُ: ""كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ، سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ" رواه البخاريُّ ومسلمٌ. ومنها: حسنُ الخُلُقِ،

يقـولُ النَّبـيُّ ﷺ: «مَـا مِـنْ شَـيْءٍ أَثْقَـلُ فِـي الْمِيـزَانِ مِـنْ حُسْـنِ الْخُلُـقِ» رواه داودَ وصحّحه ابـنُ حِبانَ وابـنُ حجرٍ. ومنهـا: مـا وردَ في قـولِ النبيِّ - رَسُـولِ اللهِ ﷺ: «بَخٍ بَخٍ! - وَأَشَارَ بِيَدِهِ بِخَمْسٍ - مَا أَثْقَلَهُنَّ فِي الْمِيزَانِ!: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّـهِ، وَلَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَالْوَلَـدُ الصَّالِـحُ يُتَوَفَّى لِلْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فَيَحْتَسِبُهُ» رواه أحمـدُ وصحّحـه ابـنُ حِبـانَ وحسّـنه البـزّارُ. ومنهـا: اتِّبـاعُ الحـقِّ ومخالفـةُ الهـوى، يقـولُ أبـو بكـرٍ الصِّديـقُ — رضـي اللهُ عنـه -: "إِنَّمَـا ثَقُلَـتْ مَوَازِيـنُ مَـنْ ثَقُلَـتْ مَوَازِينُهُ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ بِاتِّبَاعِهِـمْ فِي الدُّنْيَـا الْحَقَّ، وَثِقَلِهِ عَلَيْهِـمْ، وَحُقَّ لِمِيزَانٍ أَنْ لَا يُوضَـعَ فِيـهِ إِلَّا الْحَقُّ أَنْ يَكُـونَ ثَقِيـلًا، وَإِنَّمَـا خَفَّـتْ مَوَازِيـنُ مَـنْ خَفَّـتْ مَوَازِينُهُ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ بِاتِّبَاعِهِـمْ فِـي الدُّنْيَـا الْبَاطِـلَ، وَخِفَّتِـهِ عَلَيْهِـمْ، وَحُـقَّ لِمِيـزَانٍ أَلَّا يُوضَـعَ فِيـهِ إِلَّا الْبَاطِـلُ أَنْ يَخِـفَّ" رواه ابـنُ أبـي شَـيبةَ.

وجَعلنِي مُبارَكـًا

الحمـدُ للهِ ذِي النعـمِ الغـزارِ، والعطـاءِ المـدرارِ، ملِـكٌ قهـارٌ، ورحيـمٌ غفّـارٌ . وأشـهدُ ألا إلـهَ إلا اللهُ عظيـمُ الاقتـدارِ، وغافـرٌ الأوزارَ. وأشـهدُ أنّ محمـداً عبـدُه ورسـولُه سـيّدَ الأخيـارِ، صلـى اللهُ وسـلمَ عليـه وعلـى آلِـه وصحبِـه الأطهـارِ.

أمّا بعدُ، فاتّقوا اللهَ - عبادَ اللهِ -، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ...﴾.

أيّها المسلمون!

أمجـادُ المـرءِ تاريـخٌ يسـطّرُ بمِـدادِ المآثـرِ وصحـفِ المعـروفِ. وذلـكَ ممّـا لا يقـاسُ بمضيّ سنيّه؛ فلربّمـا حـازَ المجـدَ مـن لـم يُعمَّـرْ، ولربّمـا فـاتَ المجـدُ المعمّـرَ. وأجلـى موضِـحٍ لذلـكَ سـيرةُ رسـولِ اللهِ ﷺ مـع الرسـالةِ حيـنَ دامَ وقتُهـا ثلاثـةً وعشـرينَ عامـًا، بينمـا امتـدّ خيرُهـا وعـمّ إلـى أن يـرثَ اللهُ الأرضَ ومَـن عليهـا. وتعاقـبَ علـى سـلالةِ ذلـكَ المجـدِ التليـدِ أقـوامٌ حُفِظـتْ مآثرُهـم في سـجلِّ لسـانِ الآخريـنَ الصـادقَ؛ فـكان منهـم الفاتـحُ الـذي امتـدّتْ بفتوحِـه رقعـةُ الإسـلامِ وارتعـبَ بصوْلتِـه العِـدى، وكان منهـم العالِـمُ الـذي تناقـلَ علمَـه الأجيـالُ، وسـارت بمؤلّفِـه الرُّكبـانُ، وكان منهـم مَـن حُفظـتِ الأمـةُ في مدلهـمِّ خَطبِهـا بصَـدعِ بيانِـه ورُشـدِ دعوتِـه، وكان منهـم صاحـبُ الفِكَـرِ الخيِّـرةِ التـي أنتجـتْ مشـاريعَ نفـعٍ في ميادينِ الجهـادِ والتّعليـمِ والسياسـةِ والإعـلامِ والاقتصـادِ والتِّقنيـةِ، وكان منهـم المربُّـون الصّادقـون لأولئـكَ الأخيـارِ؛ فكانـوا خِيـاراً مـن خيـارٍ.

أيها المؤمنون!

إنّ سرَّ ذلكَ المجدِ الذي لا يقومُ إلا عليه ولا يصحُّ إلا به فيضُ منّةِ اللهِ - سبحانَه - على مَن أحبَّ مِن خَلقِه حينَ جعلَهم مباركينَ؛ فكان اليُمْنُ محتفًّا بأقوالِهم وفعالِهم ومواقفِهم؛ فعظُمَ نفعُها وبرُّها، وخُلِّد ذكرُها. وذاكَ ما أخبرَ اللهُ عن نبيِّه عيسى - عليه الصلاةُ والسلامُ - بقولِه: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾. فالبركةُ إنّما تكونُ من اللهِ - جلّ وعلا -؛ فمَن باركَ اللهُ فيه فهو المبارَكُ. ومن صورِ بركةِ ذلكَ المبارَكِ: نفعُ الناسِ، وتعليمُهم الخيرَ، وأمرُهم بالمعروفِ، ونهيُهم عن المنكرِ، وقضاءُ حوائجِهم. أولئكَ الأخيارُ كالغيثِ الهانئِ الهاطلِ على الأرضِ اليبَسِ؛ حيثُ وقَعوا نفَعوا، وإنْ غابُوا فُقِدوا، غنيمةَ مَن صَحِبوا، وعزاءَ مَن قَصَدوا، ينضَحون برشحِ المعروفِ، ويضوّعون عبيرَ الصنائعِ، حماةُ مجتمعٍ، وبُناةُ حضارةٍ، وشُداةُ مروءةٍ، ينشِدون الرَّشَد، ويسدُّونَ الخَلَلَ، فلِلهِ ما أحسنَ مآثرَهم! وما أطيبَ مخابرَهم!

أيّها المؤمنونَ!

إنّ من شريفِ العلمِ إدراكَ أسبابِ نيلِ العبدِ البركةَ من اللهِ - سبحانَه -؛ ليباركَ اللهُ في فعالِه وقولِه. وإنّ أقوى هذه الأسبابِ الإيمانُ باللهِ، قال عبدُاللهِ بنُ عمرَ - رضيَ اللهُ عنهما -: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لاَ يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَإِنَّهَا مَثَلُ المُسْلِمِ، فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ؟» فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ البَوَادِي، قَالَ عَبْدُ اللهِ: وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، فَاسْتَحْيَيْتُ، ثُمَّ قَالُوا: حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «هِيَ النَّخْلَةُ» رواه البخاريُّ ومسلمٌ. قال أهلُ العلمِ:

"وَشَبَّهَ النَّخْلَةَ بِالْمُسْلِمِ فِي كَثْرَةِ خَيْرِهَا، وَدَوَامِ ظِلِّهَا، وَطِيبِ ثَمرِهَا، وَوُجُودِهِ عَلَى الدَّوَامِ؛ فَإِنَّهُ مِنْ حِينِ يَطْلُعُ ثَمرُهَا لايزالُ يُؤْكَلُ مِنْهُ حَتَّى يَيْبَسَ. وَبَعْدَ أَنْ يَيْبَسَ يُتَّخَذُ مِنْهُ مَنَافِعُ كثيرةٌ مِنْ خَشَبِهَا وَوَرَقِهَا وَأَغْصَانِهَا، فَيُسْتَعْمَلُ جُذُوعًا وَحَطَبًا وعصِيًّا وَمَخَاصِرَ وَحُصْرًا وَحِبالًا وَأَوَانِي وَغَيْرَ ذَلِكَ، ثُمَّ آخِرُ شَيْءٍ مِنْهَا نَوَاهَا، وَيُنْتَفَعُ بِهِ عَلَفًا لِلْإِبِلِ، ثُمَّ جَمَالُ نَبَاتِهَا، وَحُسْنُ هَيْئَةِ ثَمرِهَا؛ فَهِيَ مَنَافِعُ كُلُّهَا وَخَيْرٌ وَجَمَالٌ، كَمَا أَنَّ الْمُؤْمِنَ خَيْرٌ كُلُّهُ مِنْ كَثْرَةِ طَاعَاتِهِ، وَمَكَارِمِ أَخْلَاقِهِ، وَمواظبته عَلَى صَلَاتِهِ وَصِيَامِهِ وَقِرَاءَتِهِ وَذِكْرِهِ وَالصَّدَقَةِ وَالصِّلَةِ وَسَائِرِ الطَّاعَاتِ وَغَيْرِ ذَلِك".

والصدقُ - يا عبادَ اللهِ - بشقَّيه: صدقِ النيةِ بالإخلاصِ وصدقِ العملِ بالاجتهادِ، من أسبابِ تفضُّلِ اللهِ على عبدِه بالبركةِ، فعَنْ شَدَّادِ بْنِ الْهَادِ - رضي اللهُ عنه -أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَعْرَابِ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ، ثُمَّ قَالَ: أُهَاجِرُ مَعَكَ، فَأَوْصَى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ بَعْضَ أَصْحَابِهِ، فَلَمَّا كَانَتْ غَزْوَةٌ غَنِمَ النَّبِيُّ ﷺ سَبْيًا، فقَسَمَ وَقَسَمَ لَهُ، فَأَعْطَى أَصْحَابَهُ مَا قَسَمَ لَهُ، وَكَانَ يَرْعَى ظَهْرَهُمْ، فَلَمَّا جَاءَ دَفَعُوهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟، قَالُوا: قسْمٌ قَسَمَهُ لَكَ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَخَذَهُ فجَاءَ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قَالَ: « قَسَمْتُهُ لَكَ »، قَالَ: مَا عَلَى هَذَا اتَّبَعْتُكَ، وَلَكِنِّي اتَّبَعْتُكَ عَلَى أَنْ أُرْمَى إِلَى هَاهُنَا، وَأَشَارَ إِلَى حَلْقِهِ بِسَهْمٍ، فَأَمُوتَ فَأَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَقَالَ: «إِنْ تَصْدُقِ اللهَ يَصْدُقْكَ»، فَلَبِثُوا قَلِيلًا ثُمَّ نَهَضُوا فِي قِتَالِ الْعَدُوِّ، فَأُتِيَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ يُحْمَلُ قَدْ أَصَابَهُ سَهْمٌ حَيْثُ أَشَارَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « أَهُوَ هُوَ؟ » قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: « صَدَقَ اللهَ فَصَدَقَهُ »، ثُمَّ كَفَّنَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي جُبَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَدَّمَهُ فَصَلَّى عَلَيْهِ، فَكَانَ فِيمَا ظَهَرَ مِنْ صَلَاتِهِ

(دعائه): «اللَّهُـمَّ هَـذَا عَبْـدُكَ خَـرَجَ مُهَاجِـرًا فِي سَـبِيلِكَ فَقُتِـلَ شَـهِيدًا، أَنَـا شَـهِيدٌ عَلَـى ذَلِـكَ » رواه النّسائيُّ وصحّحه الحاكمُ والألبانيُّ. والمبادرةُ واهتِبالُ الفرصِ وحسنُ استغلالِها ممّا تُنالُ به البركةُ، قال صَخْرُ الغَامِدِيُّ - رضي اللهُ عنه -: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا»، قَالَ: وَكَانَ إِذَا بَعَثَ سَرِيَّةً أَوْ جَيْشًا بَعَثَهُمْ أَوَّلَ النَّهَارِ. وَكَانَ صَخْرٌ رَجُلًا تَاجِرًا، وَكَانَ إِذَا بَعَثَ تِجَارَةً بَعَثَهُمْ أَوَّلَ النَّهَارِ، فَأَثْرَى وَكَثُرَ مَالُه. رواه أبو داودَ وحسّنه الترمذيُّ وصحّحه ابنُ حِبانَ.

لَيْسَ فِي كُلِّ سَاعَةٍ وَأَوَانِ … تَتَهَيَّا صَنَائِعُ الْإِحْسَانِ
فَإِذَا أُمْكِنْتَ فَقَدِّمْ فِيهَا … حَذَرًا مِنْ تَعَذُّرِ الْإِمْكَانِ

والإصرارُ على العملِ الحسنِ ومُصابرةُ مكارهِه ممّا تحصلُ به البركةُ، يقولُ اللهُ - تعالى -: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾. ونفعُ الناسِ من أسبابِ تحصيلِ البركةِ، يقولُ اللهُ - تعالى -: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾. ومن أسبابِ تحلّي العبدِ بالبركةِ حكمتُه في الفعلِ والقولِ بعملِ المناسبِ في المكانِ المناسبِ والزمنِ المناسبِ بالأسلوبِ المناسبِ، يقولُ اللهُ - تعالى -: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ﴾. وقد تكمُنُ البركةُ في كلمةٍ أو فعلٍ يستقلُّه العبدُ، يقولُ النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُهُ اللهُ بِهَا دَرَجَاتٍ» رواه البخاريُّ.

فلا تحتقــرْ عالَمــًا أنــتَ فيه ولا تجحــدِ الآخــرَ المُنتَظَرَ
وخــذْ لك زادَيْنِ: من ســيرةٍ ومــن عمــلٍ صالــحٍ يُدَّخرْ
وكُنْ في الطريقِ عفيفَ الخُطَا شريفَ السّــماعِ، كريمَ النّظرْ
ولا تخــلُ مــن عمــلٍ فوقَه تعــشْ غيرَ عبــدٍ، ولا مُحتقَرْ
وكــنْ رجــلاً إن أتَــوْا بعدَه يقولــونَ: مــرَّ وهــذا الأثــرْ

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ وكفى، والصلاةُ والسلامُ على رسولِه المُجتَبى.

وبعدُ، فاعلَموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها الإخوةُ في اللهِ!

ليس من لازمِ البركةِ رؤيةُ الثمرةِ، ولا العلمُ بالعاملِ، بل ربَّما كان تمامُ البركةِ في خمولِ ذكره، ودرْسِ اسمِه، وتأخُّرِ الثمرِ بعد وفاتِه؛ ليسلَمَ العملُ من آفةِ العُجْبِ المُحبطةِ أو المُنقِصةِ. عَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -، قَالَ: "هَاجَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَبْتَغِي وَجْهَ اللهِ، فَوَجَبَ أَجْرُنَا عَلَى اللهِ، وَمِنَّا مَنْ مَضَى، أَوْ ذَهَبَ، لَمْ يَأْكُلْ مِنْ أَجْرِهِ شَيْئًا، كَانَ مِنْهُمْ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ، قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ، لَمْ يَتْرُكْ إِلَّا نَمِرَةً كُنَّا إِذَا غَطَّيْنَا بِهَا رَأْسَهُ خَرَجَتْ رِجْلاَهُ، وَإِذَا غُطِّيَ بِهَا رِجْلاَهُ خَرَجَ رَأْسُهُ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ: «غَطُّوا بِهَا رَأْسَهُ، وَاجْعَلُوا عَلَى رِجْلِهِ الإِذْخِرَ»، أَوْ قَالَ: «أَلْقُوا عَلَى رِجْلِهِ مِنَ الإِذْخِرِ»، وَمِنَّا مَنْ قَدْ أَيْنَعَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ؛ فَهُوَ يَهْدِبُهَا" رواه البخاريُّ ومسلمٌ.

معشرَ المؤمنينَ!

بركةُ ذلكَ المُبارَكِ سببُ نماءِ حسناتِه وإنْ صرَمَ الموتُ سنيّهُ؛ ولَعَمرُ اللهِ! إنّ ذلكَ لمِن خيرِ المآثرِ وأشرفِ المكاسبِ. وبضدِّ ذلكَ شؤماً من لم يقطعِ الموتُ زيادَ سجلِّ سيئاتِه؛ إذْ كان ترؤسُّه في الشرِّ ودعوتُه إليه سببَ إضلالِ الناسِ وإفسادِ دينِهم أو دُنياهُم ؛ فكان له وزرُ مَن تبِعَه أو ظلمَه.

وصيةُ جبريلَ - عليه السلامُ -

إنّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مضلّ له، ومَن يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ...﴾.

أيّها المؤمنونَ!

لوصايا الرسُلِ وزنٌ وحسنٌ؛ إذْ هيَ حقائقُ محفوفةٌ بصدقِ المحبةِ وكمالِ الشّفقةِ والعلمِ وجليِّ البيانِ. وإنّ من أبلغِ تلكَ الوصايا عظةً ونفعاً ما أوصَى به جبريلُ - عليه السلامُ - رسولَنا محمداً ﷺ بِمَا رواه الطبرانيُّ وصحّحه الحاكمُ وحسَّنه الهيثميُّ حيثُ يقولُ: "يا محمدُ! عِشْ ما شِئتَ؛ فإنّك ميّتٌ. وأحببْ مَن شِئتَ؛ فإنّكَ مفارقُه. واعمل ما شِئتَ؛ فإنّك مجزيٌّ به. يا محمدُ! شرفُ المؤمنِ قيامُ الليلِ، وعزُّه استغناؤه عن الناسِ". وصيّةٌ موجَزةُ اللفظِ،غَدِقةُ المعنَى، مَن وعَاها ورعَاها أفضتْه لعيشَةٍ هنيّةٍ وميتةٍ سويَّةٍ ومَردٍّ غيرَ مُخْزٍ ولا فاضِحٍ. فما تلكَ الوَصايا؟ وما مبلغُ أثرِها في الدّارَيْنِ؟

"يا محمدُ! عشْ ما شئْتَ؛ فإنّكَ ميّتٌ": حقيقةٌ وُجِدتِ الدُّنيا عليها مُذْ أنْ دبّ فيها الخَلقُ إلى أن يفنَوْا؛ فكان الموتُ نهايةَ مَطافِ كلِّ دارجٍ عليها، إنْ طال عمرُه أو قَصُرَ، أو عظُمَ قدْرُه أو حقُرَ؛ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾

هـو المـوتُ ما منـهُ مـلاذٌ ومهربُ   متـى حُطَّ ذا عـن نعشِـه ذاكَ يركَبُ

روى البخـاريُّ ومسـلمٌ - واللفـظُ لمسـلمٍ - أنّ رسـولَ اللهِ ﷺ قـال: "جَاءَ مَلَكُ الْمَوْتِ إِلَى مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ -، فَقَالَ لَهُ: أَجِبْ رَبَّكَ، قَالَ: فَلَطَمَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَيْنَ مَلَكِ الْمَوْتِ فَفَقَأَهَا، قَالَ: فَرَجَعَ الْمَلَكُ إِلَى اللهِ - تَعَالَى - فَقَالَ: إِنَّكَ أَرْسَلْتَنِي إِلَى عَبْدٍ لَكَ لَا يُرِيدُ الْمَوْتَ، وَقَدْ فَقَأَ عَيْنِي، قَالَ: فَرَدَّ اللهُ إِلَيْهِ عَيْنَهُ، وَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى عَبْدِي، فَقُلْ: الْحَيَاةَ تُرِيدُ؟ فَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْحَيَاةَ فَضَعْ يَدَكَ عَلَى مَتْنِ ثَوْرٍ، فَمَا تَوَارَتْ يَدُكَ مِنْ شَعْرَةٍ، فَإِنَّكَ تَعِيشُ بِهَا سَنَةً، قَالَ: ثُمَّ مَهْ؟ قَالَ: ثُمَّ تَمُوتُ، قَالَ: فَالْآنَ مِنْ قَرِيبٍ، رَبِّ أَمِتْنِي مِنَ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، رَمْيَةً بِحَجَرٍ".

عباد الله!

إنّ العيشَ في الدّنيا باستحْضارِ ذاكَ المصيرِ المحتومِ يحملُ على التّخفُّفِ منها، وعدمِ الرُّكُونِ لها أو الاطمئنانِ بها، ويدعو إلى تقصيرِ الأملِ فيها وتعظيمِ الرَّغبةِ في الآخرةِ؛ فلا تكونُ الدُّنيا لمَن هذا حالُه أكبرَ همّ أو مبلغَ علمٍ وإن عُمّرَ فيها وملَكَ فيها ما ملكَ. وبذا أوْصى النبيُّ ﷺ ابنَ عمرَ - رضي اللهُ عنهما - حينَ أخذَ بمَنكِبِه، وقال: "عشْ في الدّنيا كأنّكَ غريبٌ، أو عابرُ سبيلٍ"؛ فكانَ ابنُ عمرَ يقولُ: "إذا أمْسيتَ فلا تنتَظرِ الصّباحَ، وإذا أصبحْتَ فلا تَنتظرِ المساءَ، وخُذْ من صحّتكَ لمرضِكَ، ومن حياتِك لموتِك" رواه البخاريُّ. قال الحسنُ البصريُّ: "كانَ مَن كان قبلَكُم يقرِّبونَ هذا الأمرَ - أي: الموتَ -؛ كان أحدُهم يأخذُ ماءً لوُضُوئه، ثم يتنحّى لحاجتِه؛ مخافةَ أن يأتيَه أمرُ اللهِ وهو على غيرِ

طَهارةٍ، فإذا فرغَ توضّأ". وثَمَرُ تلكَ الذّكرى أبانَه الدقاقُ إذْ يقولُ: "مَن أكثرَ ذكرَ الموتِ أُكرمَ بثلاثٍ: تعجيلِ التوبةِ، وقَناعةِ القلبِ، ونشاطِ العبادةِ. ومَن نسيَ الموتَ عُوقبَ بثلاثٍ: تسويفِ التوبةِ، وتركِ الرضا بالكَفافِ، والتكاسلِ عن العبادةِ".

أيّها المسلمونَ!

وحقيقةٌ أخرى فُطرَتْ عليها الدّنيا، جلّتها وصيةُ جبريلَ - عليه السلامُ -: "وأحببْ مَن شِئتَ؛ فإنّكَ مفارقُه"؛ فهي - بالإضافةِ لِقِصَرِها - دارُ فُراقٍ بينَ الأحبةِ؛ " وأحببْ مَن شئتَ": نفسَك، ولدَك، زوجَك، والدَك، شبابَك، مالَك، جاهَك، عشيرتَك؛ لا بُدّ من الفراقِ؛ وما ذاكَ إلا زَعَجٌ للخلقِ؛ لئلا تغرَّهم؛ فتغيبَ عنهم الآخرةُ، ويصبحُوا خاسرينَ. وحين رأى أهلُ الإيمانِ ألا بقاءَ لمحابّهم فيها؛ سعَوْا جاهدينَ لاستصحابِها في دارِ الخلودِ؛ فكان أهلُهم من أنفَسِ تلكَ المحابِّ؛ فاجتهدُوا في محضِهم النُّصْحَ والإرشادَ، والاصطِبارَ عليه؛ كيْما يدخلوا معهم دائرةَ الإيمانِ التي يُلْحِقُ اللهُ أهلَها ببعضِهم، كما قال اللهُ - تعالى -: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾. وهكذا حملَهم حبُّ المالِ على أن يُقدِّموه أمامَهم؛ ليَنعمُوا ببرِّه وذُخرِه، فعن عائشةَ - رضيَ اللهُ عنها -: "أنّهم ذبَحوا شاةً، فتصدّقوا بها كلِّها إلا الكَتِفَ، فقال النبيُّ ﷺ: ما بقيَ منها؟ فقالتْ عائشةُ: ما بقيَ منها إلا كتفُها، قال: بقيَ كلُّها غيرَ كتفِها" رواه أحمدُ والترمذيُّ وصحّحه. وقال عبدُاللهِ بن الشخيرِ - رضيَ اللهُ عنه -: "أَتيتُ النَّبيَّ

ﷺ وهُوَ يقْرَأُ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، قَالَ: "يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي، مَالِي، قَالَ: وَهَلْ لَكَ - يَا ابْنَ آدَمَ - مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟ " رواه مسلمٌ. ودخل رجلٌ على أبي الدرداءَ - رضيَ اللهُ عنه - فلم يجدْ في بيتِه كثيرَ متاعٍ، فقال له: أينَ متاعُكم يا أبا الدرداءِ؟ فقال: إنّ لنا بيتًا نوجِّهُ إليه صالحَ متاعِنا. وفي استحضارِ سنّةَ الفراقِ سلوةٌ وعزاءٌ؛ وذاكَ من أسرارِ شرعِ الاسترجاع عند المُصابِ الذي بشّرَ اللهُ - سبحانه - أهلَه؛ فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾، ويقولُ النبيُّ ﷺ: " إِذَا مَاتَ وَلَدُ العَبْدِ قَالَ اللهُ لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ، فَيَقُولُ اللهُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ" رواه الترمذيُّ وابنُ حبانَ في صحيحِه.

أيّها المسلمونَ!

وثَمّةَ حقيقةٌ ثالثةٌ كُبرى من حقائقِ الدُّنيا؛ ذلكُم أنها دارُ عملٍ يكونُ به الجزاءُ يومَ الدينِ، "واعملْ ما شئتَ؛ فإنّك مجزيٌّ به"؛ فاليومَ عملٌ ولا حسابٌ، وغداً حسابٌ ولا عملٌ، يُقالُ لأهلِ الجنةِ: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ويُقالُ لأهلِ النارِ: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾. ومَن استقرّ في رُوعِه هذه الحقيقةُ لم يفرطْ في استغلالِ لحظاتِ عمرِه بالخيرِ. سُئلَ حاتمُ الأصمُّ: علامَ بنيتَ علمَك؟ قال: على أربعٍ:

على فرضٍ لا يؤدِّيه غيرِي؛ فأنا مشغولٌ به، وعلمتُ أنّ رِزْقي لا يجاوزُني إلى غيرِي؛ فقد وثِقتُ به، وعلمتُ أنِّي لا أخْلو من عينِ اللهِ طرفةَ عينٍ؛ فأنا منه مستحٍ، وعلمتُ أنّ لي أجلاً يبادرُني؛ فأبادرُه. وقال حمّادُ بنُ سلمةَ: "ما أتيْنا سليمانَ التيْميَّ في ساعةٍ يُطاعُ اللهُ - عزَّ وجلّ - فيها إلا وجدناه مُطيعًا؛ إنْ كان في ساعةِ صلاةٍ وجدْناه مصلِّيًا، وإنْ لم تكنْ ساعةَ صلاةٍ وجدْناه إما متوضِّئًا، أو عائداً مريضًا، أو مشيِّعًا لجنازةٍ، أو قاعداً في المسجدِ؛ فكنّا نُرى (نظنُّ) أنّه لا يحسِنُ يعصي اللهَ - عزّ وجلّ -".

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.

أيّها المؤمنونَ!

وفي وصيةِ جبريلَ - عليه السلامُ - تصحيحٌ لمفهومِ الشرفِ الذي ضلَّ طريقَه فئامٌ ظنُّوه في الجاهِ والمالِ والنَّسبِ؛ وسريعًا ما بانَ سرابُ ظنِّهم؛ إذْ بدا زيْفُه في العزْلِ والافتقارِ وسوء عزاءِ الجاهليّةِ. "يا محمدُ! شرفُ المؤمنِ قيامُ الليلِ" ذاكُم الشرفُ الحقُّ الذي امتازَ به أهلُ الإيمانِ؛ ركعةٌ واحدةٌ في سُدْفةِ الليلِ البهيمِ يُنالُ بها ذلكَ الشرفُ الذي أخْفى اللهُ جزاءَ أهلِه بما تقرُّ به عيونُهم يومَ الحسابِ، ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾. ووصفَ عمرُو بنُ ذرٍّ حالَ أولئكَ الشرفاء قائلاً: "لمّا رأى العابِدونَ الليلَ قد هجمَ عليهم، ونظَروا إلى أهلِ الغفلةِ قد سكَنوا إلى فُرُشِهم، ورجَعوا إلى ملاذِّهم من النومِ؛ قامُوا إلى اللهِ فرحينَ مُستبشِرينَ بما قد وهبَ لهم من حسنِ عادةِ السَّهرِ وطولِ التهجُّدِ؛ فاستَقبَلوا الليلَ بأبدانِهم، وباشَروا الأرضَ بصِفاحِ وجوهِهم، فانقضى عنهم الليلُ وما انقضتْ لذَّتُهم من التلاوةِ، ولا ملّت أبدانُهم من طولِ العبادةِ؛ فأصبحَ الفريقانِ وقد ولّى عنهمُ الليلُ بربحٍ وغَبنٍ؛ أصبحَ هؤلاءِ قد ملّوا النومَ والراحةَ، وأصبح هؤلاءِ مُتطلِّعينَ إلى مجيءِ الليلِ للعادةِ؛ فشتّان بين الفريقَيْنِ!".

عبادَ اللهِ!

والعـزُّ شـعارُ كلِّ شـريفٍ، ولا أشـرفَ مـن مؤمـنٍ. وفي تلـكَ الوصيّـةِ العظيمـةِ بيـانٌ لجادّتِـه البلجـاءِ؛ ألا وهـيَ الاسـتغناءُ عـن النـاسِ، "وعـزُّه اسـتغناؤه عـن النـاسِ". وذاكَ مـا كان النبيُّ ﷺ يُوصِـي أصحابَـه بـه: "ولا تسْـألوا النـاسَ شـيئًا"؛ فـكان السّـوْطُ يسـقطُ مـن فـوقِ بعيـرِ أحدِهـم؛ فمـا يسـأَلُ أحـداً أنْ يُناولَـه إيّـاه، وقـال: "مـن يكفـلُ لـي ألا يسـألَ النـاسَ شـيئًا؛ وأتكفَّـلُ لـه بالجنـةِ؟" رواه أبـو داودَ وصحّحـه النـوويُّ. وبـذا تغـدُو تلـكَ القناعـةُ الراسـخةُ أصـلَ العـزِّ الـذي يقـومُ عليـه، والمَعيـنَ الـذي يغْتَـذي بـه. وإن ألْجَأَتْـه حاجـةٌ لطلـبِ النـاسِ؛ فبلسـانِ العزِّ ينطـقُ ويطلـبُ. جاء محمدُ بنُ واسعٍ ساعياً في حاجةٍ عندَ أحدِ الوُجَهاءِ، فقال: جئتُـك في حاجـةٍ كنـتُ أنزلتُهـا عنـدَ اللهِ قبـلَ أنْ أنزلَهـا عنـدكَ، فـإنْ يـأذنْ لـك في قضائِهـا قضيتَهـا وكنـتَ مشـكوراً، وإن لـم يـأذنْ لـم تقضِهـا وكنـتَ معـذوراً.

وبعدُ - إخوةَ الإسلامِ -، هـذا غيْـضٌ من فيْضٍ تلكَ الوصيةِ الجليلةِ؛ فتشبَّثُوا بعُرَاهـا؛ فثـمّ نعيـمُ الدّنيا والآخرةِ.

وظيفةُ بلاءِ الوباءِ(١)

إنّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مضلّ له، ومَن يضللْ فلا هاديَ له،وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ... ﴾.

أيّها المؤمنونَ!

قدَّرَ اللهُ بحكمتِه البالغةِ وقضائه النافذِ أنِ ابتلَى أهلَ الأرضِ بهذا الوباءِ العامِّ المُسمَى بـ"كُورُونا"؛ والذي مُنِعوا به ما اعتَادوه من خروجٍ ومُخالطةٍ، بل وشهودِ فرائضِ اللهِ في مساجدِه. وما زالَ لطفُ اللهِ بعبادِه ينزلُ حتى بدأتِ الأمورُ ترجعُ رُوَيْداً إلى عوائدِها، واستبْشرَ أهلُ الإيمانِ بفتحِ بيوتِ اللهِ للمصلينَ، والأملُ معقودٌ في المَوْلى الرحيمِ أنْ يرفعَ هذا الوباءَ برحمتِه كما قدّرَ وقوعَه بحكمتِه، وأنْ يجعلَ عاقبتَه خيراً.

عبادَ اللهِ!

إنّ للمؤمنِ مع البلاءِ شأناً متميِّزاً، لا كشأنِ غيرِه معه؛ إذْ يعيشُ ذلكَ المؤمنُ لحظاتِ البلاءِ والإيمانُ يملأُ قلبَه بأنّ اللهَ - سبحانَه - هو وحدَه مَن

(١) أول خطبة جمعة بعد رفع المنع عن إقامة الجمعة بسبب وباء كورونا.

قدّره بحكمةٍ، وقضاه لمقصدٍ، وحدّ وقتَه بأمدٍ لا يتخطّاه البلاءُ، ﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾. وباتَ من مهمِّ شأنِ ذلكَ المؤمنِ رعيُ وظيفةِ البلاءِ؛ بأداءِ ما يحبُّه اللهُ ويَرضاه زمنَ البلاءِ؛ من شَعيرَةِ المحاسبةِ، والاستغفارِ، والضَّراعةِ، والاستكانةِ، والصّبرِ، والاحتسابِ، والتوكُّلِ على اللهِ - سبحانه - وحسنِ الظنِّ فيه. قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾، ويقولُ النبيُّ ﷺ: «عجباً لأمرِ المؤمنِ؛ إنّ أمرَه كلَّه خيرٌ، وليس ذاكَ لأحدٍ إلا للمؤمنِ؛ إنْ أصابتْه سرَّاءُ شكرَ؛ فكان خيراً له، وإن أصابتْه ضرّاءُ، صبرَ؛ فكان خيراً له» رواه مسلمٌ. قال سعيدُ بنُ وهبٍ: دخلتُ مع سلمانَ الفارسيِّ - رضيَ اللهُ عنه - على صديقٍ له نعودُه، فقال: "إنّ اللهَ - عزّ وجلّ - إذا ابتلَى عبدَه المؤمنَ بشيءٍ من البلاءِ ثم عافاه كان كفارةً لما مضَى، ومُستعتَباً فيما بقيَ وإنّ الفاجرَ إذا أصابَه اللهُ - عزّ وجلّ - بشيءٍ من البلاءِ، ثم عافاه كانَ كالبعيرِ عقلَه أهلُه ثم أطْلَقوه؛ لا يدري فيمَا عقلُوه، ولا فيمَا أطلَقوه". ودخلَ عبدُ الأعلَى التيميُّ على جارٍ له قد حضرَه الموتُ، فقال له: "أيَا فُلانٍ، أعدَّ لعظيمِ الأمورِ حُسنَ الظنِّ باللهِ - عزّ وجلّ -".

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أمّا بعدُ، فاعلَموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

ومن وظائفِ المؤمنِ في لحظاتِ ابتلاءِ الوباءِ أنْ يأخذَ بالأسبابِ التي ثبتَ نفعُها في الوقايةِ منه ؛ ممّا يقرِّرُه أهلُ الخبرةِ والاختِصاصِ، الذينَ أوْصُوا وما زالوا يُوصُون ويؤكِّدونَ على تقليلِ المُخالطةِ، والحرصِ على التّباعدِ الاجتماعيِّ، وارتداءِ الكِمامَاتِ؛ والذي ظهرَ بفضلِ اللهِ أثرُها الإيجابيُّ في التخفيفِ من انتشارِ الوباءِ، كما ظهرَ الأثرُ السلبيُّ بالإخلالِ بذلكَ من قِبَلِ البعضِ بعد رفعِ الحظرِ الكُلِّيِّ. كما أنّ من وظائفِ البلاءِ الواجبةِ الشكرَ والدعاءَ لمَن أسْهمَ في علاجِ الوباءِ وتخفيفِ آثارِه من الجهاتِ الصحيّةِ والأمنيّةِ وغيرِها ومن أهلِ الإحسانِ الذينَ جادُوا بأموالِهم وجَهدِهم في تخفيفِ وقْعِ البلاءِ وآثارِه على مَن مسَّهم ضرُّه.

عبادَ اللهِ!

ألَا وإنّ من مُهمِّ الوظائفِ حالَ البلاءِ أنْ يضرعَ المؤمنُ لربِّه القديرِ بالإنابةِ والدعاءِ أنْ يرفعَ اللهُ هذا الوباءَ برحمتِه وقُدرتِه التي لا يُعجزُها شيءٌ في الأرضِ ولا في السماءِ؛ فلا كاشفَ للضُّرِّ إلا هوَ، ولا منجّيَ من الكربِ إلا هوَ. وكذلكَ

من مَهامِّ وظائفِ البلاءِ عَقدُ العزمِ على تصحيحِ المسارِ إلى اللهِ بعد كشفِ الضُّرِّ؛ وألا يحملَ الفرحُ بكشفِه نسيانَ الشُّكرِ ونِسبةَ النّعمةِ لغيرِ ربِّها الذي أسْدَاها؛ إذْ من خطيرِ الأمرِ، وأسبابِ فَجْأةِ العذابِ السُّدورُ في الآثامِ بعد كشفِ الكروبِ، كما قال اللهُ - سبحانه -: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٤٣ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾.

من وحي الفَسِيلةِ

إنَّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، منْ يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومنْ يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه.

أما بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ... ﴾.

أيُّها المؤمنونَ!

الإيجابيةُ والعملُ المثمرُ في الحياةِ من أخصِّ سِماتِ الإسلامِ التي ربّى عليها أهلَه في أصولِه وأدقِّ فروعِه، وصبغَ حياتَهم بها تحت أيِّ ظرفٍ كانوا وفي أيِّ حالٍ وُجِدوا. وقد صاغَ النبيُّ ﷺ تلك الحقيقةَ الكبرى بمثالٍ بَلَغَ الغايةَ في الوصفِ والبيانِ إذ يقولُ: "إنْ قَامَتِ السَّاعةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُم فَسِيلةٌ، فَإنْ استَطاعَ أنْ لَا تَقُومَ حَتى يَغرِسَهَا؛ فَليَغرِسْهَا" رواه أحمدُ وصححه الضياءُ المقدسيُّ. الزمنُ زمنُ فَجْأةٍ واضطّرابٍ وأهوالٍ؛ إذ هو قيامُ الساعةِ، وذهولُ المُرضعةِ عمّا أَرضعتْ، ووضْعُ ذاتِ الحمْلِ حملَها، ورؤيةُ الناسِ سُكارى وما هم بسُكارى، ولكنَّ عذابَ اللهِ شديدٌ. ونتيجةُ العملِ متواريةٌ عن النظرِ، بل هي إلى البُعدِ أقربُ؛ إذِ الغَرْسُ فسيلةُ نخلٍ صغيرٍ يتطلبُ نموُّها أعواماً، فضلاً عن ضمانِ ثمرتِها، والساعةُ قد حانَ مُرْساها. ومع تلك الأحداثِ المُفزعةِ التي لا حدَثَ أشدَّ منها في الدنيا، وطولِ زمنِ النماءِ، وعدمِ ضمانِ الإثمارِ

جاء التوجيهُ النبويُّ بالعطاءِ والعملِ المثْمِرِ: "فليغرسْها"؛ فما وحيُ ذلك الأمرِ الرشيدِ؟ وما فحوى إرشادِه الحكيمِ؟

عبادَ اللهِ!

إنَّ عطاءَ العملِ المثمرِ، واستمرارَه-وإنْ قَلَّ -مقصدٌ في الشرعِ أصيلٌ؛ إذ يحملُ في ثنايا معانيه العظامِ تحقيقَ استخلافِ اللهِ البشريةَ في عِمارةِ الأرضِ واستصلاحِها، قيل لعثمانَ بنِ عفانَ -رضي اللهُ عنه-: أتغرسُ بعدَ الكِبَرِ؟ قال: لَأَنْ تُوافيني الساعةُ وأنا من المصلحينَ، خيرٌ من أنْ توافيني وأنا من المفسدين. وقيل لشيخٍ كبيرٍ يغرسُ فسيلةً: أتُرى أنْ تأكلَ مِن ثمرِها؟ فقال: لا، ولكنني وجدتُّ أرضَ اللهِ عامرةً؛ فأحببتُ أن لا تَخْرَبَ على يدي. وفي ذلك العطاءِ الإيجابيِّ الدائمِ بَذْرُ الأجورِ ودوامُها، قيل لأبي الدرداءِ -رضي اللهُ عنه-وهو يغرسُ: أتغرسُ بعد الكِبَرِ، وأنت شيخٌ، وهي لا تُطْعِمُ إلا بعد عشرينَ سنةً أو ثلاثين؟! فقال: وما عليّ أنْ يكونَ الأجرُ لي والهناءُ لغيري؟ ومن المعاني العظيمةِ التي تنطَوي على مباشرةِ العملِ المثمرِ دون التعلُّقِ بالنتيجةِ تحقيقُ التوكلِ على اللهِ، وتفويضُ الأمرِ له، وحُسْنُ الاستسلامِ لتدبيرِه، والاطمئنانُ لحسنِ رعايتِه؛ وتلك -لَعَمْرُ اللهِ- أبلغُ ما يبارِك اللهُ به العملَ، ويُعْظِمُ به ثمرتَه. وبالتركيزِ على العملِ النافعِ دون ربطِه بالنتيجةِ تتوارى حظوظُ النفْسِ؛ إذْ ليس لها نصيبٌ يزاحِمُ نيةَ الخيرِ؛ فيبارِكُ اللهُ ذلك العملَ بطيبِ نيةِ صاحبِه. وفي ذلك العملِ المثمرِ سلامةٌ من داءِ الأَثَرَةِ والأنانيةِ التي لا يعيشُ أصحابُها إلا في فَلَكِ مصالحِهم وما يؤولُ إليها، وأولئك القومُ الانتهازيون من أشقى ما تعاني

البشريةُ أثرتَهم وسلبيتَهم. والعملُ المثمرُ طاردٌ لداءِ العجزِ والكسلِ الذي كان النبيُّ ﷺ كثيراً ما يستعيذُ باللهِ منه؛ لعظيمِ شؤمِه على الفردِ والمجتمعِ. كما أن في التركيزِ على العملِ المثمرِ دون التعلقِ بنتيجتِه بيانـًا لعظيمِ ما وَقَرَ في قلبِ صاحبِه من فَأْلٍ بالخيرِ وتوقّعِ حصولِه؛ فلا تُحَطِّمُ صرحَ عزمِه الشامخِ معاولُ اليأسِ وتثبيطُ المُحْبَطين وفواجعُ الواقعِ. كما أن هذا العملَ المثمرَ -وإنْ قلَّ- اتباعٌ لهُدى السنةِ الربانيةِ في بذلِ الأسبابِ التي بها يكونُ حصولُ النتائجَ بأمرِ اللهِ -سبحانه-. وتلك الإيجابيةُ جَذوةُ برَكةٍ من حماسٍ، سريعًا ما يَقتبسُ سناها المقتدون؛ ليسلكوا سبيلَ العطاءِ الذي يَنعَمُ به المجتمعُ، ويقوى، ويرتفعُ به الإثمُ عن الأمةِ حين قامت الكفايةُ بأولئك الغارسين الباذلين، وتلك من المآثرِ التي تُكتبُ في سجلِّ الآثارِ الدائمِ أجرُها؛ ممّا يجعلُ اللهُ بها لسانَ الصدقِ لأولئك العاملين المُخلصين. قال الألبانيُّ: " ولا أدلَّ على الحضِ على الاستثمارِ من هذه الأحاديثِ الكريمةِ...؛ فإنّ فيه ترغيبًا عظيمًا على اغتنامِ آخرِ فرصةٍ من الحياةِ في سبيلِ زرعِ ما ينتفعُ به الناسُ بعد موتِه؛ فيجري له أجرُه، وتُكتبُ له صدقتُه إلى يومِ القيامةِ". قال داودُ بنُ أبي داودَ: قال لي عبدُ اللهِ بنُ سلامٍ -رضي اللهُ عنه-: "إنْ سمعتَ بالدجالِ قد خرجَ وأنت على وَدِيَّةٍ (وهي النخلةُ الصغيرةُ) تغرسُها؛ فلا تعجلْ أنْ تُصلحَه فإن للناسِ بعد ذلك عيشًا" رواه البخاريُّ في الأدبِ المُفْردِ وصححَه الألبانيُّ. وأخذَ معاويةُ بنُ أبي سفيانَ -رضي اللهُ عنهما- في إحياءِ أرضٍ وغَرْسِ نخلٍ في آخرِ عمرِه، فقيل له فيه، فقال: ما غرستُه طمعًا في إدراكِه، بل حملني عليه قولُ الأسديِّ:

ليس الفتى بفتىً لا يُستضاءُ به ... ولا يكونُ له في الأرضِ آثارُ

فالعملُ المثمرُ عطاءٌ لا يقيّدُه العمرُ، ولا يقطعُه تجهُّمُ الحالِ، قال عمارةُ بنُ خزيمةَ بنِ ثابتٍ: سمعتُ عمرَ بنَ الخطابِ -رضي اللهُ عنه- يقولُ لأبي: ما يَمنعُك أنْ تغرسَ أرضَك؟ فقال له أبي: أنا شيخٌ كبيرٌ أموتُ غداً، فقال له عمرُ: أَعْزِمُ عليك لتَغْرِسنَّها، فلقد رأيتُ عمرَ بنَ الخطابِ يغرسُها بيدِه مع أبي. وفي إرشادِ غرْسِ الفسيلةِ عند قيامِ الساعةِ تنبيهٌ لأهلِ الإيمانِ ألا يشغلنّهم عن العملِ للدينِ ونُصرتِه شاغلٌ؛ إذ ليس بعد قيامِ الساعةِ شاغلٌ، ومع ذا فالعطاءُ النافعُ لا يَقِفُ بها وإنْ كان دنيوياً يسيراً؛ فكيف إذا كان العطاءُ من أمرِ الدِّينِ؟! قَالَ أَبُو ذَرٍّ -رضي الله عنه-: "لَوْ وَضَعْتُمُ الصَّمْصَامَةَ (أي: السيفُ القاطعُ) عَلَى هَذِهِ - وَأَشَارَ إِلَى قَفَاهُ -، ثُمَّ ظَنَنْتُ أَنِّي أُنْفِذُ كَلِمَةً سَمِعْتُهَا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قَبْلَ أَنْ تُجِيزُوا عَلَيَّ لَأَنْفَذْتُهَا»، وسُئلَ عبدُاللهِ بنُ المباركِ: إلى متى تطلبُ العلمَ؟ فقال: لعل الكلمةَ التي فيها نَجاتي لم أسمعْها بعدُ، وقِيلَ له: لَوْ قِيلَ لَكَ: لَمْ يَبْقَ مِنْ عُمُرِكَ إِلَّا يَوْمٌ مَا كُنْتَ صَانِعًا؟ قَالَ: كُنْتُ أُعَلِّمُ النَّاسَ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.

أما بعدُ، فاعلموا أن أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيها المؤمنون!

إنَّ اهتبالَ فُرَصِ الحياةِ في العطاءِ النافعِ ونشرِ الخيرِ مهما كان الحالُ -ولو في آخرِ لحظاتِ العمرِ أو عند اشتدادِ الكروبِ- سنةٌ دَرَجَ عليها الأنبياءُ -عليهم الصلاةُ والسلامُ-، وورَّثوها لمَن وراءهم؛ فهذا نبيُّ اللهِ نوحٌ -عليه السلامُ- ما فَتِئَ داعياً ابنَه حتى حالَ بينهما الموجُ فكان من المُغرَقين، ويوسفُ- عليه السلامُ- ما مَنَعَه قيدُ السجنِ الظالمِ من نشرِ دينِ اللهِ بين السجناءِ والإحسانِ إليهم، وموسى -عليه السلام- لم تمنعْه غربتُه واشتدادُ همِّه ورهقُ سفرِه من الإحسانِ إلى المرأتين الضعيفتين حين سقى لهما، ولما جاءه ملَكُ الموتِ يستأذنُه في قبضِ رُوحِه؛ سأل ربَّه أن يُدْنيَه من الأرضِ المقدّسةِ التي كتبَها لبني إسرائيلَ؛ لتكونَ المسافةُ بينها وبينه قَدْرَ ما يُرمى الحجرُ؛ بُغيةَ تحصيلِ ثوابِ السعيِ في دخولِها وهو في آخرِ رَمَقٍ في حياتِه، كما وردَ في الصحيحين، ورسولُنا محمدٌ ﷺ ما زال مكرِّراً الوصيةَ بالصلاةِ والرفقِ بالمماليكِ وهو يعالِجُ سكراتِ الموتِ، كما صحَّ عنه. وقد وَرِثَ تلك السنةَ أتباعُهم؛ ومنهم غلامُ الأخدودِ حين أَرشدَ الملكَ الظالمَ إلى طريقةِ قتلِه الذي يرومُ من ورائها إسلامَ قومِه بعد عَجَزِه عن قتْلِه مِراراً؛ وذلك بجمعِهم وجهرِ الملِكِ بذِكْرِ

اسمِ اللهِ عند إطلاقِه سهمَ القتلِ قائلاً: "باسمِ ربِّ هذا الغلامِ"، فلمّا مات ضجَّ الناسُ قائلين: "آمنَّا بربِّ الغلامِ! آمنا بربِّ الغلامِ! آمنا بربِّ الغلامِ!"، فاستشاطَ غضبُ هذا الجبّارِ؛ فأمر بتحريقِهم في أخاديدَ من نارٍ، ولم يرتددْ منهم أحدٌ سوى امرأةٍ ذاتِ صبيٍّ تَلَكَّأَتْ؛ خوفاً عليه، فنطقَ في لحظةِ عمرِه الأخيرةِ ولم يَثْنِه هولُ البلاءِ عن أعظمِ العطاءِ قائلاً: "يا أمَّه، اصبري؛ فإنك على الحقِّ"، كما روى مسلمٌ في صحيحِه. وعلى سَنَنِ أولئك الأخيارِ دَرَجَ الصحابةُ الأطهارُ -رضي اللهُ عنهم-؛إذ كان عطاؤهم للدِّينِ مِدْراراً لا يوقفُه إلا الموتُ في سبيلِه. روى ابنُ إسحاقَ في سِيَرِه أنَّ النبيَّ ﷺ بعد غزوةِ أحدٍ أَمَرَ مَن يأتيه بخبرِ سعدِ بنِ الربيعِ -رضي اللهُ عنه-: أفي الأحياءِ هو أمْ في الأمواتِ؟ فقال رجلٌ من الأنصارِ: أنا أنظرُ لك -يا رسولَ اللهِ- ما فعلَ، فنظرَ فوجدَه جريحاً في القتلى، به رَمَقٌ، فقال له: إنَّ رسولَ اللهِ أمرني أنْ أنظرَ له: في الأحياءِ أنت أم في الأمواتِ؟ قال: فأنا في الأمواتِ؛ فأبلغْ رسولَ اللهِ عني السلامَ، وقل له: إنَّ سعدَ بنَ الربيعِ يقولُ: جزاك اللهُ عنا خيرَ ما جزى نبياً عن أمتِه، وأبلغْ قومَك عني السلامَ وقل: إنَّ سعدَ بنَ الربيعِ يقولُ لكم: إنه لا عذرَ لكم عند اللهِ إنْ يُخْلَصْ إلى نبيِّكم ومنكم عينٌ تَطْرُفُ، ثم لم يَبْرَحْ حتى مات -رضي اللهُ عنه-. والمتأملُ لمآثرِ السلفِ الصالحِ الباقي نفعُها يَجِدُ أنَّ أغلبَها كان زمنَ محنٍ وفتنٍ وبلاءٍ، ومع ذا فإن الأحداثَ لم تشغلْهم عن البناءِ والعطاءِ واستدامةِ النفعِ وبركتِه، بل ظَلَّ نفعُ عطائِهم باقياً، بل ونامياً؛ ما يزيدُه كَرُّ الأعوامِ إلا أَلَقاً ونفعاً، بينما ذهبتْ تلك الأحداثُ والفواجعُ أدراجَ الرياحِ، ولم يبقَ منها إلا الذِّكْرُ والذِّكرى. وبكلِ حالٍ فـ" دقيقةٌ باقيةٌ في العمرِ هي أملٌ كبيرٌ في رحمةِ اللهِ".

ومضاتٌ في تربيةِ الأولادِ

الحمـدُ للهِ معطـي الجزيـلِ، ومُظهـرِ الجميـلِ، وأشـهدُ ألا إلـهَ إلا اللهُ الواحـدُ الجليـلُ، وأشـهدُ أن محمـداً عبـدُه ورسـولُه الخليـلُ، للشـرِّ نابـذٌ وللخيـرِ دليـلٌ، صلـى اللهُ وسـلمَ عليـه وعلـى آلِـه وصحبِـه ومَـن اقتفـى نهجَهـم علـى السـبيلِ.

أما بعدُ، فاتقوا اللهَ —عبادَ اللهِ-، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ...﴾

أيّها المؤمنون!

الذريـةُ عطـاءٌ مـن اللهِ كريـمٌ؛ يُمتحَـنُ بـه إيمـانُ المـرءِ؛ شُـكراً، وصـبراً، وقيامـاً بواجـبِ المسـؤوليةِ التي قلّدَهـا اللهُ عنـقَ كلِّ والـدٍ؛ فهـو عطـاءٌ مسـؤولٌ، كمـا قـال النبيُّ ﷺ: "كُلُّكُـمْ رَاعٍ فَمَسْـؤولٌ عَـنْ رَعِيَّتِـهِ؛ فَالأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسـؤولٌ عَنْهُـمْ، وَالرَّجُـلُ رَاعٍ عَلَـى أَهْـلِ بَيْتِـهِ وَهُـوَ مَسْـؤولٌ عَنْهُـمْ، وَالمَـرْأَةُ رَاعِيَـةٌ عَلَـى بَيْـتِ بَعْلِهَـا وَوَلَـدِهِ وَهِـيَ مَسْـؤولَةٌ عَنْهُـمْ، وَالعَبْـدُ رَاعٍ عَلَـى مَـالِ سَـيِّدِهِ وَهُـوَ مَسْـؤولٌ عَنْـهُ، أَلاَ فَكُلُّكُـمْ رَاعٍ وَكُلُّكُـمْ مَسْـؤولٌ عَـنْ رَعِيَّتِـهِ" رواه البخاريُّ ومسلمٌ. ووعْـيُ هـذه المسـؤوليةِ، واستشـعارُ حسـابِها بيـن يـدي العليـمِ الخبيـرِ خيـرُ مـا يَحمِـلُ الوالـدَ على القيامِ بها، وتحمّـلَ رَهَقِهـا الـذي فـاقَ كلَّ رَهَـقٍ، سيّما في عصرِ بـروزِ الشـبُهاتِ ورواجِ الشـهواتِ ودنـوِّ الشـرورِ وترهُّـلِ الـترفِ وتصـدُّرِ التافهيـن وخفـوتِ القـدواتِ وانشـغالِ الوالـدِ بأعبـاءِ تحصيـلِ سُـبلِ المعيشـةِ، خاصـةً إنْ شـحّتْ؛ ممّـا لا يزيـدُ رهـقَ التربيـةِ إلا شـدةً وعنـاءً. غيـرَ أنَّ مِـن رحمـةِ اللهِ وسـنتِه في

عبادِهِ المؤمنين أنْ يُنْزِلَ عليهم مع البلاءِ ما يُسرِّي عنهم، ويُعينُ عليه، ويخففُ من وطْأتِه؛ ويُشعرُهم بضعفِهم وعظيمِ فقرِهم وحاجتِهم إليه، فيوسعُ عليهم رحابةَ فضاءِ الرجاءِ عند ضيقِ أسبابِ الأرضِ أو انعدامِها أو ضعفِها، ويباركُ تلك الأسبابَ، أو يُحدِثُ غيرَها، كما باركَ ضربةَ العصا لتفلقَ بحراً متلاطماً؛ إنجاءً لموسى —عليه السلام– وقومِه، وإغراقاً للظالمين، وكان ذا منهجَ الأنبياءِ في الأزماتِ؛ إذ يبلغُ تفاؤلُهم ذراه عندما يبلغُ البلاءُ ذراه؛ فليس بعد الشدةِ إلا الفرجُ، وليس بعد اشتدادِ حُلْكَةِ الليلِ إلا انبلاجُ الفجرِ؛ فالقيامُ بمسؤوليةِ التربيةِ حسبَ الوسعِ، واستصحابُ عظمِ جزائِها، واستجداءُ اللهِ إعانتَه وتوفيقَه، والصبرُ لحكمِه ضمانةٌ لتخطّي عنائِها بأجرٍ موفورٍ، وبراءةِ ذمةٍ، وحُسنِ عاقبةٍ، وطمأنينةٍ تملأُ فؤادَ الوالدِ وإنْ فتَّنَه مرارةُ انحرافِ ولدِه وأوحشَه سيلُ الفتنِ الهادرُ.

عبادَ اللهِ!

إنَّ مسؤوليةَ التربيةِ تحمِلُ الوالدَ على الأخذِ بالأسبابِ الممكنةِ التي تُفضي بأمرِ اللهِ إلى رُشدِ الولدِ وصلاحِه، وأساسُها الذي تقومُ عليه تعبُّدُه لربِّه بتربيةِ ولدِه وتوكلُّه عليه؛ حين فوَّضَ أمرَه إليه، واثقاً بإعانتِه وحُسنِ تدبيرِه، وملازماً أدبَ الصبرِ لحكمِه، وانتظارِ فرجِه، متبرئاً مما سوى اللهِ؛ فإنَّ لهذِه الركيزةِ الراسخةِ أكبرَ الأثرِ في مباركةِ اللهِ لأيِّ جُهدٍ تربويٍّ مبذولٍ من الوالدِ. وأعظمُ ذلك الجهدِ ملازمتُه عَتَبَةَ الدعاءِ المضمونِ إجابتُه بقولِ رسولِ اللهِ ﷺ: "ثلاثُ دعواتٍ مستجاباتٌ لا شكَّ فيهنَّ: دعوةُ الوالدِ، ودعوةُ المسافرِ،

ودعوةُ المظلومِ" رواه أبو داودَ وحسّنه الألبانيُّ. قال مجاهدٌ: "دعوةُ الوالدِ لا تُحجبُ دونَ اللهِ — عزَّ وجلَّ —". والدعاءُ عدةُ الأنبياءِ والصالحين في تربيةِ أولادِهم، فقد دعا إبراهيمُ — عليه السلامُ – قائلاً: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾، ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾، وكان النبيُّ ﷺ يدعو قائلاً: "اللهمَّ باركْ لنا في أسماعِنا، وأبصارِنا، وقلوبِنا، وأزواجِنا، وذرياتِنا" رواه أبو داودَ وصحّحه الألبانيُّ، وكان يُعَوِّذُ الحسنَ والحسينَ، ويقولُ: "إنَّ أباكما كان يُعَوِّذُ بها إسماعيلَ وإسحاقَ: أعوذُ بكلماتِ اللهِ التامةِ، من كلِّ شيطانٍ وهامةٍ، ومن كلِّ عينٍ لامَّةٍ" رواه البخاريُّ. شكى أبو معشرٍ ابنَه إلى طلحةَ بنِ مُصَرِّفٍ، فقالَ: استعنْ عليه بهذه الآيةِ: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾، وكان للفُضَيلِ بنِ عياضٍ ابنٌ اسمُه عليٌّ، وكان يدعو له قائلاً: "اللهمَّ إني اجتهدتُ أنْ أؤدِّبَ علياً، فلم أقدرْ على تأديبِه؛ فأدِّبْهُ أنت لي"، فاستجابَ اللهُ دعاءَه، وأصلَحَ ابنَه، ومات عليٌّ باكياً وهو يستمعُ القرآنَ! وتَجسُّدُ القدوةِ في استقامةِ الوالدِ من أعظمِ ما يُجِلُّهُ في عينِ ولدِه، ويدفعُه نحوَه، ويُدْنيه منه، ويعودُ بالأثرِ الحَسَنِ عليه، كما كان عبادُ الرحمنِ يَجْأرونَ إلى اللهِ بإبلاغِهم نُزَلَ الاقتداءِ الرفيعَ، ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾. واهتبالُ سنيِّ الولدِ الأولى من عمرِه– إذ العُودُ ليّنٌ طيّعٌ، سيّما زمنَ الفتنِ واضطّرابِ المفاهيمِ –في زرعِ العقيدةِ الصحيحةِ، والأخلاقِ الحسنةِ، والقيمِ الحقّةِ من ضرورةِ الاعتصامِ بالكتابِ والسنةِ بفهمِ السلفِ الصالحِ، والتحلّي بخُلقِ الصبرِ والعفةِ والشجاعةِ والعدلِ؛

إذ هي أصولُ الأخلاقِ التي يتفرّعُ منها غيرُها -كما قال ابنُ القيم-، والتذكيرُ بقوةِ الحقِّ وبقائِه وإن قلَّ أهلُه وضَعْفِ الباطلِ وزوالِه وإن كَثُرَ أهلُه من ألزمِ ما يلزمُ تعاهدُه في نفوسِ الناشئةِ؛ إذ هو أساسٌ راسخٌ يُشادُ عليه البناءُ التربويُّ، وغالبًا ما يعودُ إليه الولدُ وإنِ انحرفَ زمنًا؛ وبه يُعْلَمُ فَدْحُ جنايةِ الوالدِ على صغيرِه إنْ أهملَه بدايةَ عمرِه، وتركَه صيْداً مهملاً لفتنِ الأجهزةِ الالكترونيةِ وأيدي المفسدين والعابثين والتافهين، ثم عادَ يشكو فسادَه وعقوقَه بعدما كَبُرَ! واستغلالُ الوالدِ مُجرياتِ الحياةِ وأحداثِها في تربيةِ ولدِه، وتخوُّلُه بالموعظةِ الحسنةِ، وإحسانُ اختيارِ زمنِها، وتقصيرُ وقتِها، والاكتفاءُ بالإشارةِ إن أغنتْ عن العبارةِ، وجودةُ ضربِ المثلِ لتقريبِ المعنى بالأمرِ المحسوسِ، والتدليلُ عليه بالدليلِ المقنِعِ، والتذكيرُ بضرورةِ الاعترافِ بالخطأِ، ودوامُ تجديدِ التوبةِ، وكثرةُ الاستغفارِ -كلُّ ذلك مما يُسهِمُ في توعيةِ الولدِ، وبناءِ جوانبِ الخيرِ فيه، وحفظِها، وترميمِ ما تصدَّعَ منها.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أما بعدُ، فاعلموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيها المؤمنون!

وحتى تُؤتي التربيةُ ثمارَها؛ فإنه لا بدَّ للوالدِ من بناءِ علاقةٍ متميزةٍ مع أهلِ بيتِه؛ وذلك بأن يكونَ قريباً منهم؛ ليفتحوا له قلوبَهم، ويبثُّوا له همومَهم وما يعانونه في حياتِهم؛ لئلا يلجؤوا في بثها لمن لا تؤمَنُ غائلتُه؛ فيندمَ ولاتَ حينَ مَنْدَمٍ. وسبيلُ ذلك القربِ أن يلازمَ الوالدُ خَصْلَةَ الرفقِ واللطفِ مع أهل بيتِه؛ فتلك أمارةٌ لإرادةِ اللهِ الخيرَ لأهلِ بيتِه، كما قال النبيُّ ﷺ: ""يا عائشةُ، ارفقي؛ فإنّ اللهَ إذا أراد بأهلِ بيتٍ خيراً دلَّهم على بابِ الرفقِ" رواه أحمدُ وصحّحه الألبانيُّ. ومما يقضيه خُلقُ الرفقِ أن تكونَ للوالدِ عادةٌ في إهداءِ ما يحسنُ وإن قلَّ، وأنْ يتباسطَ في حديثِه مع أهلِ بيتِه، ويمازحَهم، ويشاركَهم لهوَهم المباحَ واهتماماتِهم وإن بدتْ هامشيةً، ويستشيرَهم مُظْهِراً احترامَه لرأيِهم، وإعجابَه لصوابِهم، دون مُصادمةٍ، أو تسفيهٍ، أو رفعِ صوتٍ، وإن أخطأ بادرَ بالاعتذارِ، وإن أخطؤوا عليه بادر بالصفحِ إن اعتذروا، وأن يلازمَ الصبرَ في احتمالِ نفارِهم وزلاتِهم، وأن يجعلَ لهم وقتاً كافياً في الجلوسِ الإيجابيِّ معهم دون انشغالٍ بجهازٍ أو إظهارٍ للتبرُّمِ والمللِ؛ متحدثاً إليهم، ومُحسناً الإنصاتَ لهم. وليس من بابِ الرفقِ تركُ تعويدِهم المسؤوليةَ، وإغداقُ العطاءِ بما يصلُ إلى الترفِ؛

بـل ذاك سـببٌ لفسـادِ الخُلُـقِ وضَعْـفِ الشـخصيةِ. قـال زيـدُ بـنُ عليٍّ لابنِـه: "يـا بُنـيّ، إنَّ اللهَ لـم يَرْضَـك لـي فأوصـاك بـي، ورضينـي لـك فحَذَّرنيـك. واعلـمْ أنَّ خيرَ الآباءِ للأبناءِ من لـم يَدْعُـهُ الحـبُّ إلى التفريـطِ، وخيرُ الأبناءِ للآباءِ مَن لـم يَدْعُـهُ التقصيرُ إلى العقـوقِ".

وبعدُ-معشرَ الآباءِ والأمهاتِ-، استعينوا باللهِ في عبادةِ التربيةِ، وأدمنوا الدعاءَ لفلذاتِ الأكبادِ، واصبروا على مرارةِ الجَهْدِ وبطءِ النتيجةِ أو خفوتِها، وكونوا قدواتِ خيرٍ لهـم، باذليـنَ وسْعَكم في استصلاحِهم وكسْبِ قلوبِهـم؛ وثِقُـوا بـأن اللهَ لـن يضيعَ جهدَكـم؛ إذ لا جزاءَ للإحسانِ عنده إلا الإحسانُ.

وكانَ أبوهُما صالحًا

إنّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مضلّ له، ومَن يضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ...﴾.

أيّها المؤمنونَ!

صلاحُ الولدِ قُرَّةُ عينِ الوالدِ، ومُنى نفسِه حينَ يغدو صلاحُ ولدِه ابنًا كان أو بنتًا بركةً عليه؛ يتفيَّأُ ظلالَها، وينعمُ برَوْحِها، ويرجو برَّها وذُخْرَها في الدّاريْنِ. وطفقَ ذلك الوالدُ الموفَّقُ متلمِّسًا أسبابَ صلاحِ ولدِه؛ ليظفرَ بتلكَ النِّعمةِ الربانيَّةِ السابغةِ. هذا، وقد أشارَ القرآنُ الكريمُ إلى أنَّ صلاحَ الوالدِ -أبًا كان أو أمًّا -الذي بهِ يرعَى حقَّ ربِّه وحقَّ الخَلْقِ سببٌ غالبٌ يصلحُ اللهُ به الولدَ، ويحيطُه بكَلاءَةٍ منه وإحسانٍ، كما قال تعالى حاكيًا عن الخضرِ —عليه السلامُ- في بيانِ سببِ إصلاحِه جدارَ اليتيمَيْنِ الذي أرادَ أنْ ينقضَّ فأقامَه إذْ يقولُ: ﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾، قال ابنُ عبّاسٍ —رضيَ اللهُ عنهما-: "حُفِظا بصلاحِ أبيهِما"، قال القرطبيُّ: "ففيهِ ما يدلُّ على أنّ اللهَ —تعالى- يحفظُ الصالحَ

في نفسِه وفي ولـدِه وإنْ بعُدوا عنه"، وقـال ابـنُ كثيـرٍ: "فيـه دليـلٌ علـى أنّ الرجـلَ الصالـحَ يُحفظُ في ذرِّيتِـه، وتشـملُ بركـةُ عبادتِـه لهـم في الدُّنيـا والآخـرةِ، بشـفاعتِه فيهـم ورفـع درجتِهـم إلـى أعلـى درجـةٍ في الجنـةِ لتقـرَّ عيْنُـه بهـم، كمـا جـاء في القـرآنِ ووَردتِ السُّـنةُ بـه". وقـد فقُـهَ السـلفُ تلـكَ الهدايـةَ الربانيّـةَ؛ فـكان ممّـا يحتسِـبونه في طاعتِهـم لربِّهـم ابتغـاءَ صـلاحِ أولادِهـم، قـال سعيدُ بـنُ المُسيِّـبِ لابنِـه: يـا بُنـيّ، لأزيـدنَّ في صلاتِـي مـن أجلِـكَ رجـاءَ أن أُحفـظَ فيـك، وتـلا هـذه الآيـةَ: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَـا صَٰلِحًـا﴾، وقـال عمرُ بنُ عبدِ العزيـزِ: "مـا مِـن مؤمـنٍ يمـوتُ إلا حفظَـه اللهُ في عَقِبِـه وعقِـبِ عَقبِـه"، وقـال محمـدُ بـنُ المُنْكـدِرِ: «إنَّ اللهَ -عـزّ وجـلّ- لَيَحفـظَ بحفـظِ الرجـلِ الصّالـحِ ولـدَه وولـدَ ولـدِه ودويرتَـه التـي فيهـا والدويـراتِ حولَـه؛ فمـا يزالـونَ في حفـظٍ مـن اللهِ -عـزّ وجـلّ- وسِـترٍ". قالـت الحكمـاءُ: "إذا كان الرجـلُ طاهـرَ الأثـوابِ، كثيـرَ الآدابِ، حسـنَ المذهـبِ؛ تـأدّب بأدبِـه وصلُـحَ لصلاحِـه جميـعُ أهلِـه وولـدِه".

رأيـتُ صـلاحَ المـرءِ يصلِـحُ أهلَـه ويُفسـدُهم ربُّ الفسـادِ إذا فسـد
يُعظَّـمُ في الدُّنيـا لفضـلِ صلاحِـه ويُحفظُ بعد الموتِ في الأهلِ والولد

عبادَ اللهِ!

إنّ إكـرامَ اللهِ الوالـدَ الصالـحَ بصـلاحِ ولـدِه هبـةٌ ربانيّـةٌ جاريـةٌ علـى سُـنةِ اللهِ في مُجـازاةِ المُحسـنِ بإحسـانٍ فائـقٍ مـن جنـسِ مـا عمـلَ، كمـا قـالَ تعالـى: ﴿هَـلۡ جَـزَآءُ ٱلۡإِحۡسَـٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَـٰنُ﴾. وصـلاحُ ذلـك الوالـدِ حِفـظٌ حَفِـظَ بـه ربَّـه؛

فحَفِظَه ربُّه في ولدِه حين أصلحَ قلبَه الذي هو بين أُصْبَعَيْنِ من أصابعِه، كما قال النبيُّ ﷺ: "احفظِ اللهَ يحفظْك" رواه الترمذيُّ وقال: حسنٌ صحيحٌ. وصلاحُ الولدِ من ولايةِ اللهِ لعبدِه الصالحِ في دُنْيَاهُ وآخرتِه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾. وصلاحُ الوالدِ يَنظِمُ في عِقدِه أعمالاً يحبُّها اللهُ، قد رتَّبَ عليها حصولَ الأثرِ الحسنِ في صلاحِ الولدِ؛ إذْ من سماتِ الوالدِ الصالحِ لزومُ التّقوى والقولِ السّديدِ المستقيمِ، قال السَّيْبانيُّ: كنَّا بالقُسْطنْطِينيّةِ أيّامَ مَسلمةَ بنِ عبدِ الملِكِ، وفينا ابنُ مُحيريزٍ وابنُ الدَّيلميِّ وهانئُ بنُ كُلثومٍ، فجعلْنا نتذاكرُ ما يكونُ في آخرِ الزمانِ، فضِقْتُ ذرعًا بما سمعتُ، فقلتُ لابنِ الدَّيلميِّ: يا أبا بشرٍ، بودِّي أنّه لا يُولدُ لي ولدٌ أبدًا! فضربَ بيدِه على مَنْكبي وقال: يا بنَ أخي، لا تفعلْ؛ فإنّه ليستْ من نَسَمةٍ كتبَ اللهُ لها أن تخرجَ من صُلبِ رجلٍ إلا وهيَ خارجةٌ إنْ شاءَ، وإنْ أبَى، ألا أدلُّكَ على أمرٍ إنْ أنتَ أدركتَه نجّاكَ اللهُ منه، وإنْ تركتَ ولدَكَ من بعدِك حفظَهم اللهُ فيك؟ قلتُ: بلى! قال: فتَلا عند ذلكَ هذه الآيةَ: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾. والوالدُ الصالحُ ذو توكُّلٍ على ربِّه في استصْلاحِ ولدِه، وشجرةُ التوكُّلِ لا تخيبُ ثمرتُها؛ إذْ فيه كفايةُ المَوْلى، وليس بعد اللهِ أحدٌ، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾، كان الفُضَيلُ بنُ عِيَاضٍ يناجِي موْلاه بلسانِ التوكُّلِ وحالِه في تأديبِ ابنِه عليٍّ قائلاً قال: "اللهمّ إنِّي اجتهدتُ أن أؤدبَ عليّاً، فلم أقدرْ على تأديبِه؛ فأدبْه أنتَ لي"؛ فكان من خيرِ العُبّادِ الصُّلحاءِ. ومن لوازمِ توكُّلِ الوالدِ حسنُ ظنِّه بربِّه، واللهُ لا يخيِّبُ من تقرَّبَ إليه وأحسنَ فيه ظنّاً؛ إذْ هو عند ظنِّ عبدِه به.

والدعاءُ عمادُ الوالدِ في استصلاحِ ولدِه؛ لعلمِه بكرامةِ الدعاءِ على اللهِ، وحيائِه من عبدِه إذْ مدّ يديْه يسألُه أن يردّهما صفراً، كيف وهو والدٌ مُكرَّمٌ بالدعاءِ المُجابِ، وصالحٌ أرجَى ما يكونُ دعاؤه مجاباً؟! والدعاءُ أبلغُ ما طلبَ به الأنبياءُ صلاحَ أولادِهم، كما سألَ إبراهيمُ -عليه السلامُ- ربَّه فقال: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾. وذلك الدعاءُ من أعظمِ ما يُعينُ به اللهُ الوالدَ في استصلاحِ ولدِه، شكى أبو معشرٍ ابنَه إلى طلحةَ بنِ مصرفٍ، فقال: استعنْ عليه بهذه الآيةِ: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ﴾. والوالدُ الصالحُ دائماً ما يستحفظُ ربَّه وديعتَه، وهل ثَمَّ وديعةٌ أغلى من الولدِ؟! قال ابنُ عمرَ -رضيَ اللهُ عنهما-: أخبرَنا رسولُ اللهِ ﷺ أنّ "لقمانَ الحكيمَ كان يقولُ: إنّ اللهَ إذا استُودِعَ شيئاً حفظَه" رواه أحمدُ وصحّحه أحمدُ شاكرٌ. والوالدُ الصالحُ ذو مكسبٍ طيِّبٍ، نما من طيبِ مَطعمِه جسدُ ولدِه، والبلدُ الطيِّبُ يخرجُ نباتُه بإذنِ ربِّه. قال ابنُ شوذبَ: "لمّا أرادَ عبدُ العزيزِ بنُ مرْوانَ أن يتزوجَ أمَّ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ قال لقيّمِه: اجمعْ لي أرْبَعَمِائةِ دينارٍ من طيِّبِ مالي؛ فإنِّي أريدُ أنْ أتزوجَ إلى أهلِ بيتٍ لهم صلاحٌ، قال فتزوجَ أمَّ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ"، وأنجبتْ له خامسَ الخلفاءِ الراشِدينَ. وقال أحمدُ بنُ حفصٍ: دخلتُ على إسماعيلَ والدِ أبي عبدِ اللهِ (الإمامِ البخاريِّ) عند موتِه، فقال: لا أعلمُ من مالي درهماً من حرامٍ، ولا درهماً من شُبْهَةٍ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصّلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أمّا بعدُ، فاعلَموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المسلمونَ!

ومن أبرزِ أسبابِ صلاحِ الولدِ بصلاحِ والدِه ما جَبلَ اللهُ عليه قلبَ الولدِ من محبةِ والدِه الذي ازدادَ وازدانَ بالقَبولِ الذي جعلَه اللهُ في القلوبِ نحوَ عبادِه الصالحينَ، وأكرمَهم بحسنِ الخُلقِ الذي لا صلاحَ إلا به، ورأى ذلك الولدُ من حينِ وعى حالَ والدِه الصالحِ ثابتاً على جادَّةِ الاستقامةِ؛ لا يخالفُ عملُه فيها قولَه، وذلك الاطِّرادُ في القُدوةِ والثباتِ عليها وصفٌ لا يمكِنُ أن ينفكَّ عنه وصفُ الصّلاحِ بحالٍ. والقُدْوةُ الصالحةُ من أعظمِ ما يؤثِّرُ في الولدِ ويوجِّهُه؛ إذْ دلالةُ الفعلِ أبلغُ من دلالةِ القولِ وأوْضحُ، قال عتبةُ بنُ أبي سفيانَ لمؤدِّبِ ولدِه: "ليكنْ أولَ إصلاحِك بنيَّ إصلاحُك نفسَك؛ فإنّ عيونَهم معقودةٌ بعينِك، فالحسَنُ عندهم ما استحسنتَ، والقبيحُ عندهم ما استقبحْتَ".

لئنْ كان صلاحُ الوالدِ سبباً غالباً في صلاحِ ولدِه، إلّا أنّ اللهَ قد يؤخِّرُ صلاحَ الولدِ أو يمنعُ منه، كما كان من ولدِ نوحٍ -عليه السلامُ-؛ حكمةً منه سبحانَه، وحظوةً للوالدِ الصّالحِ؛ كيْما يرتقيَ في درجاتِ العبوديّةِ بالصبرِ والدعاءِ وملازمةِ حسنِ الظنِّ باللهِ وعدمِ اليأسِ من رَوْحِه رغمَ شدةِ البلاءِ عليه بانحرافِ ولدِه؛ إضافةً إلى عظيمِ تكفيرِ السيئاتِ بذلكَ الابتلاءِ المُرهقِ؛

إذْ همُّ الولدِ من أشدِّ الهمومِ وقعًا على الوالدِ، يقولُ النبيُّ ﷺ: "إنّ العبدَ إذا سبقتْ له من اللهِ منزلةٌ، لم يبلغْها بعملِه ابتلاهُ اللهُ في جسدِه، أو في مالِه، أو في ولدِه، ثم صبّره على ذلك حتى يُبلغَه المنزلةَ التي سبقتْ له منَ اللهِ تعالى" رواه أبو داودَ وصحّحه الألبانيُّ. فاللهمَّ إنّا نسألُك صلاحًا تصلِحُ به ذريَّاتِنا!

القصص

البلاءُ المبينُ

الحمدُ للهِ جاعلِ الفرجِ قرينَ بلائه، وضامنِ الزَّيْدِ بشكرِ عطائه، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له في صفاتِه وأسمائه، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلى اللهُ وسلمَ عليه وعلى آلِه وصحبِه وأوليائه.

أمّا بعدُ، فاتّقوا اللهَ — عبادَ اللهِ -، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ... ﴾.

أيّها المؤمنونَ!

حينَ يُختزَلُ مُسمّى "الأمةِ" في رجلٍ، وتكونُ له بذلكَ الشهادةُ من اللهِ — تعالى -؛ فإنّ لذلكَ الدلالةَ البيِّنةَ على عظمةِ ذلكَ الرجلِ واستقامةِ منْهجِه وإمامتِه في الخيرِ وتكامُلِ شخصيّتِه، وفيه الحثُّ على سبرِ سيرتِه واقْتفاءِ أثرِه واستلهامِ عِبَرِه، وأنّ ذلكُم سبيلُ سلامةٍ للأمةِ وطريقٌ لخيْريّتِها وسُؤدُدِها. وهذا ما نعتَ به اللهُ خليلَه إبراهيمَ — عليه السَّلامُ — في قولِه: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ﴾، وأمرَ خليلَه محمداً ﷺ باتّباعِ ملّتِه، فقال: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾. ومن صُوَرِ اتِّباعِ الملَّةِ درسُ الحياةِ والمواقفِ. ألا وإنّ من أشدِّ مواقفِ الخليلِ بلاءً وعِبرَةً نبأَ ذبحِ ابنِه البكرِ إسماعيلَ — عليهما السلامُ -. فحينَما أنْجى اللهُ خليلَه من نارِ قومِه، وكان له الفلجُ والغَلَبَةُ، وباءَ قومُه بالسّفَلِ والخَسارِ، ورأى إصرارَهم على الكفرِ والعِنادِ، ولم تكنْ أرضُهم مكاناً صالحاً للدّعوةِ — آذنَهم بهجرتِه،

ومُفارقتِه ديارَهم، ومتاركتِه ملّتَهم، وحُسْنُ ظنِّه بربِّه ملأ جَنانَه أنْ سيهْديَه: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾. وقتَها توجّه إلى ربِّه بضَراعةٍ وابتهالٍ طالباً منه الولدَ الصالحَ مع كِبَرِ سنِّه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، دعا اللهَ أن يهبَ له أَوْلَادًا مُطِيعِينَ ينتفعُ بهم في حياته وبعد مماته عوَضًا عَنْ قَوْمِهِ وَعَشِيرَتِهِ الَّذِينَ فَارَقَهُم، فجاءته البشرى من الله بإجابةٍ فوق سؤلِه؛ إذْ بشّره ببكرِه غلاماً حليماً، فهو غلامٌ سيبلغُ الحُلُمَ ويتحلّى بالحِلمِ المُتضمِّنِ الصبرَ وحسنَ الخلُقِ وسعةَ الصدرِ والعفوَ عن الجاني؛ غلامٌ من نوعٍ فريدٍ. هكذا جاءتْهُ البِشارةُ: وحيداً، مُهاجِراً، مُنقطِعاً، غريباً، كبيراً، بل طاعناً في السنِّ.

معشرَ المؤمنينَ!

ارتحلَ الخليلُ ببكْرِه إسماعيلَ وأمِّه هاجرَ — عليهمُ السّلامُ — إلى مكةَ، وكان الخليلُ يتعاهدُ أسرتَه بالزيارةِ وتفقُّدِ الحالِ، حتى نشأ الغلامُ وترَعْرعَ وشبَّ عن الطّوْقِ وأطاقَ مَا يَفْعَلُهُ أَبُوهُ مِنَ السَّعْيِ وَالْعَمَلِ، وتلك سنٌ يكونُ فيها الولدُ — غالباً - أحبَّ ما يكونُ لوالدَيْه؛ قد ذهبتْ مشقَّتُه، وأقبلتْ منفعتُه، كيف وهو بِكْرُ والدِه الطاعنِ في السنّ والمُتحلِّي بكريمِ السَّجايا؟! وفي مَنامٍ من مناماتِ النُّبوةِ — ورُؤاهم فيها وحيٌ وحقٌّ — رأى الخليلُ أنّ اللهَ قد أمرَه بذبحِ غلامِه الزكيّ؛ امتحاناً لإيمانِه، وإثباتاً لخُلّتِه التي لا تقبلُ المشاركةَ أو المزاحمةَ؛ إذْ قد أَخذَ بكرُه شُعْبَةً مِنْ قَلْبِه فجَاءَتْ غَيْرَةُ الْخُلَّةِ تَنْتَزِعُهَا مِنْ قَلْبِ الْخَلِيلِ بهذا البلاءِ المُبينِ الذي تكونُ فيه نهايةُ حياةِ الضَّنى ذبحاً بيَدِ الوالدِ الذي شابَ عارضُه انتظاراً لمَجيئِه واكتحلتْ مُقلتُه بمنظرِ

شُبُوبِه واستَرْوحتْ نفسُه لطوْعِه ونفعِه. وقد وفّى إبراهيمُ الإيمانَ في ذلكَ البلاءِ؛ فلم يجزعْ أو يعترضْ أو يتلكأْ في الأمرِ أو يستأنِ انتظاراً للنّسخِ، كلّا، بل أذعنَ وانقادَ لأمرِ اللهِ بكلِّ طُمأنينةٍ وتسليمٍ. وسلكَ في عَرضِه الأمرَ الإلهيَّ على ابنِه أسلوبَ المُشاورةِ المسبَّبَ المؤدَّبَ المحسومَ؛ ليسهلَ عليه الأمرُ؛ فينقادَ إليه، وينالَ أجرَ الطاعةِ، ويتذوقَ حلاوةَ التسليم،ويظفرَ بالخيرِ الذي يرَاه هو أبقَى من الحياةِ وأقْنى كما هو حالُ أبيه المُبتَلَى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾؛ فجاء جوابُ الابنِ من نسْجِ تربيةِ أبيهِ وظنِّه؛ فكان برداً وسلاماً على فؤادِ والدِه المُطمئنِّ: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾: أدبٌ واحترامٌ ورَباطةُ جأشٍ بدتْ في كلماتِ الغلامِ حالَ الموقفِ المُزلزِل، والشيءُ من معدنِه لا يُستغرَب! ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾، فليس لك ولا ليَ خيارٌ من أمرِ اللهِ؛ طاعةٌ واستسلامٌ برضًى ويقينٍ، ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: أدبٌ مع اللهِ وتناسٍ لحظِّ النّفسِ واستشعارٌ لضعفِها؛ إذ رجا ألا يُخلفَ اللهُ ظنَّ أبيهِ فيه؛ لِيلقَاه مع أمرِ اللهِ صابراً لا جازعًا، راضيًا لا ساخطًا، مُحتسِبًا لا شاكيًا.

أيّها المسلمون!

وبعد تلكَ المُحاورةِ انتقلَ البلاءُ من الهمّ والقولِ إلى الفعلِ والتّنفيذِ، وانطلقَ الخليلُ بابنِه والسِّكينُ في يدِه؛ إذ لا مناصَ من إنفاذِ أمرِ اللهِ، كلاهما مُستسلِمٌ لمولاه، تنطقُ بالشَّهادةِ شَفَتاه؛ تقرُّبًا بالذبحِ عند الوالدِ، وختمًا للحياةِ عند الولدِ، واضطَّجعَ الولدُ بكلِّ تسليمٍ مُستقبِلاً الأرضَ بوجهِه بعد أنْ

أكبَّه والدُه حين طلبَ ابنُه ذلك منه؛ لئلّا يرى والدُه تقاسيمَ وجهِه الوضيءِ وهو يعالجُ سكراتِ الموتِ عند ذبحِه فيؤذيَه ذلكَ المنظرُ ويفتّرَه عن تنفيذِ أمرِ ربِّه. استحكمَ البلاءُ وصدقَ إيمانُ الخليلِ وابنِه؛ فها هُو يمضي فيكبُّ ابنَه على جبينِه استعداداً، والغلامُ يستسلمُ فلا يتحرَّكُ امتناعاً، وقد وصلَ الأمرُ إلى أنْ يكونَ عياناً. بذلك تمّ البلاءُ، وظهرتْ نتائجُه، وتحقّقتْ غاياتُه، ولم يعُدْ إلا الألمُ البدنيُّ والدمُ المسفوحُ والجسدُ الذَّبيحُ. واللهُ لا يريدُ أنْ يعذِّبَ عبادَه بالابتلاءِ، ولا يريدُ دماءهم وأجسادَهم في شيءٍ. متى خلَصوا له واستعدُّوا للأداءِ بكُلِّيَّاتِهم فقد أدّوْا وحققوا التكليفَ واجتازوا الامتحانَ بنجاحٍ. وبينا كان الخليلُ يُحِدُّ الشَّفرةَ نُوديَ بالفَرَجِ: ﴿أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾: هكَذا يصرفُ اللهُ عمَّنْ أطاعه الْمَكَارِهَ وَالشَّدَائِدَ، وَيجْعَلُ لَهُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا. قال ابنُ عباسٍ — رضيَ اللهُ عنهما -: "لَمَّا أَسْلَمَا مَا أُمِرَا بِهِ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَضَعَ وَجْهَهُ إِلَى الْأَرْضِ فَقَالَ إسماعيلُ: لَا تَذْبَحْنِي وَأَنْتَ تَنْظُرُ عَسَى أَنْ تَرْحَمَنِي فَلَا تُجْهِزُ عَلَيَّ، ارْبُطْ يَدَيَّ إِلَى رَقَبَتِي، ثُمَّ ضَعْ وَجْهِي عَلَى الْأَرْضِ. فَلَمَّا أَدْخَلَ يَدَهُ لِيَذْبَحَهُ فَلَمْ يَحُكَّ الْمُدْيَةَ حَتَّى نُودِيَ: ﴿أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾، فَأَمْسَكَ يَدَهُ وَرَفَعَ" رواه الحاكمُ وصحّحه على شرطِ الشّيْخَينِ ووافقَه الذهبيُّ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.

وبعدُ، فاعلمُوا أنّ أحسنَ الحديثِ...

عبادَ اللهِ!

هكذا شهدَ اللهُ للخليلِ بالصِّدقِ والنَّجاحِ في الامتحانِ والبلاءِ المُبينِ، وزاده كرامةً بفداءِ ابنِه بكبشٍ عظيمٍ حيثُ كان فداءً لإسماعيلَ — عليه السلامُ –، وعبادةً من جلَلِ العباداتِ، وسنةً دائمةً إلى يومِ الدِّينِ. وأفاضَ المَوْلَى على خليلِه خِلعةَ الذكرِ الجميلِ بين الخلائقِ؛ فكان أبَا الأنبياءِ، والأمةِ القانتَ، وأبا المسلمين، وصار ذكرُه لزامًا على كلِّ مصلٍّ في تحيَّاتِه، وجادَ عليه بالسّلامةِ المطلقةِ من كلِّ ما يسوءُ في الدّنيا والآخرةِ. وذلك جزاءُ مَن حقّقَ مقامَ الإحسانِ من المؤمنينَ في سرَّائه وبَلْوائه: نجاةٌ، وعِوَضٌ، وذكرٌ حسنٌ خالدٌ، وسلامةٌ في الدّنيا والآخرةِ. هذا مقامٌ من مقاماتِ صدقِ الخليلِ التي وفّاها؛ فلم يقدِّم على مُرادِ اللهِ فيها شيئًا وإنْ كانَ الأمرُ إزهاقَ غلامِه الوحيدِ. فأينَ حالُ الخليلِ في بلائه المُبينِ من حالِ مَن قدّمَ لذّةَ النومِ على الصّلاةِ؟ أو بهرَه بريقُ حرامِ المالِ فأقدمَ على بذلِه أو أخذِه؟ أو أخلدَ إلى الأرضِ متفصّيًا عن مُقارَعةَ الباطلِ وأهلِه؟ أو نازعَه حبُّ الزّوْجِ والولدِ فلبّى لهم ما هوَوْه من الغيِّ والمُنكَرِ؟ أو آثرَ الراحةَ فتركَ فريضةَ الحجِّ مع غِناه وقدرتِه؟

أتباعَ ملةِ الخليلِ!

إنّ أبلغَ عظَـةٍ تستلهمُها الأمـةُ مـن بـلاءِ الخليـلِ الـذي تتَّبعُ ملَّتَه والـذي تـرثُ نَسـبَه وعقيدتَـه هـي الاستسـلامُ لقـدَرِ اللهِ في حُلـوِ الحـالِ ومُـرِّه بطاعـةٍ وصـبرٍ ورضـىً وثقـةٍ، لا تتألّـى عليـه، ولا تَقَـدَّمُ بيـن يديْـه، وأنْ تـدركَ أنّ اللهَ لا يريـدُ أنْ يعذبَهـا بالابتـلاءِ ولا أنْ يؤذيَهـا بـه، إنّمـا يريـدُ أنْ تأتيَـه طائعـةً ملبِّيـةً، فـإذا عـرفَ منهـا الصدقَ في هـذا أعفاهـا مـن التضحيّـاتِ والآلامِ، واحتسبَها لهـا وفـاءً وأداءً، وقَبِـل منهـا وفدّاهـا، وأكرمَهـا كمـا أكـرمَ أباهـا.

معالم إصلاحية في نبأ بناء البيت

الحمدُ للهِ الذي جعلَ بيتَه مثابةً للناسِ وأمنـًا، وأَودعَ فيه مِن ذخائرِ البِرِّ حُسنىً ومعنى، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلى اللهُ عليه وسلّمَ وعلى آلِهِ وصحبِه، ورضيَ عنهم وعنّا.

أما بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ...﴾

أيها المؤمنون!

لبناءِ الكعبةِ البيتِ الحرامِ نبأٌ بالغُ العظةِ، حدّثَ به حَبْرُ الأمةِ وترجُمانُ قرآنِها ابنُ عباسٍ -رضيَ اللهُ عنهما- فيما روى البخاريُّ في صحيحِه؛ فقال: "أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ المِنْطَقَ مِنْ قِبَلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ، اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لِتُعَفِّيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةَ، ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ، حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ البَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ، فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى المَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ، وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا (نحو الشام، كما جاء في رواية ابن إسحاق)، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الوَادِي، الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلاَ شَيْءٌ؟! فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لاَ يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: آللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ نَعَمْ، قَالَتْ: إِذَنْ لاَ يُضَيِّعُنَا (وفي رواية: قالت: حسبي؛ رضيت بالله)، ثُمَّ رَجَعَتْ، فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ

الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لاَ يَرَوْنَهُ، اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ البَيْتَ، ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلاَءِ الكَلِمَاتِ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿ يَشۡكُرُونَ﴾" وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ المَاءِ، حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا فِي السِّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا، وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى، أَوْ قَالَ يَتَلَبَّطُ، فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ[1]، فَوَجَدَتِ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الأَرْضِ يَلِيهَا، فَقَامَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتِ الوَادِيَ تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَهَبَطَتْ مِنَ الصَّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الوَادِيَ رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا، ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الإِنْسَانِ المَجْهُودِ حَتَّى جَاوَزَتِ الوَادِيَ، ثُمَّ أَتَتِ المَرْوَةَ فَقَامَتْ عَلَيْهَا وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا»، فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى المَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا، فَقَالَتْ صَهٍ - تُرِيدُ نَفْسَهَا -، ثُمَّ تَسَمَّعَتْ، فَسَمِعَتْ أَيْضًا، فَقَالَتْ: قَدْ أَسْمَعْتَ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غِوَاثٌ، فَإِذَا هِيَ بِالْمَلَكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ (وفي روايةِ الطبريِّ بإسنادٍ حسنٍ —كما قال ابنُ حجرٍ: "فناداها جبريلُ فقال: من أنتِ؟ قالت: أنا هاجرُ أمُّ ولدِ إبراهيمَ، قال: فإلى مَن وَكَلَكُما؟ قالت: إلى اللهِ، قال: وَكَلَكُما إلى كافٍ"، فَبَحَثَ[2] بِعَقِبِهِ، أَوْ قَالَ بِجَنَاحِهِ، حَتَّى ظَهَرَ المَاءُ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا، وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنَ المَاءِ فِي سِقَائِهَا وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَ مَا تَغْرِفُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "يَرْحَمُ اللهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ - أَوْ قَالَ: لَوْ لَمْ تَغْرِفْ

---

(١) جاء في رواية الفاكهي أن عمره سنتان.

(٢) أي: حفر.

مِنَ المَاءِ -، لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا[١] "قَالَ: فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا، فَقَالَ لَهَا المَلَكُ: لاَ تَخَافُوا الضَّيْعَةَ، فَإِنَّ هَا هُنَا بَيْتَ اللهِ، يَبْنِي هَذَا الغُلاَمُ وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَهْلَهُ، وَكَانَ البَيْتُ مُرْتَفِعًا مِنَ الأَرْضِ كَالرَّابِيَةِ، تَأْتِيهِ السُّيُولُ، فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، فَكَانَتْ كَذَلِكَ حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمَ، أَوْ أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ جُرْهُمَ، مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كَدَاءٍ، فَنَزَلُوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ فَرَأَوْا طَائِرًا عَائِفًا[٢]، فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا الطَّائِرَ لَيَدُورُ عَلَى مَاءٍ، لَعَهْدُنَا بِهَذَا الوَادِي وَمَا فِيهِ مَاءٌ، فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا[٣] أَوْ جَرِيَّيْنِ فَإِذَا هُمْ بِالْمَاءِ، فَرَجَعُوا فَأَخْبَرُوهُمْ بِالْمَاءِ فَأَقْبَلُوا، قَالَ: وَأُمُّ إِسْمَاعِيلَ عِنْدَ المَاءِ، فَقَالُوا: أَتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكِ؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ، وَلَكِنْ لاَ حَقَّ لَكُمْ فِي المَاءِ، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَأَلْفَى ذَلِكَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُحِبُّ الإِنْسَ»، فَنَزَلُوا وَأَرْسَلُوا إِلَى أَهْلِيهِمْ فَنَزَلُوا مَعَهُمْ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِهَا أَهْلُ أَبْيَاتٍ مِنْهُمْ، وَشَبَّ الغُلاَمُ وَتَعَلَّمَ العَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ، وَأَنْفَسَهُمْ[٤] وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ، فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوَّجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ، وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَمَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ يُطَالِعُ تَرِكَتَهُ، فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ، فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ نَحْنُ بِشَرٍّ، نَحْنُ فِي ضِيقٍ وَشِدَّةٍ، فَشَكَتْ إِلَيْهِ، قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلاَمَ، وَقُولِي لَهُ: يُغَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ كَأَنَّهُ آنَسَ شَيْئًا، فَقَالَ: هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، جَاءَنَا شَيْخٌ

---

(١) أي: ظاهراً جارياً على الأرض.

(٢) الذي يتردد على الماء، ولا يتركه.

(٣) أي: رسولًا.

(٤) أي: كثرت رغبتهم فيه.

كَذَا وَكَذَا، فَسَأَلَنَا عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، وَسَأَلَنِي: كَيْفَ عَيْشُنَا؟ فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ، قَالَ: فَهَلْ أَوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلاَمَ، وَيَقُولُ: غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ، قَالَ: ذَاكِ أَبِي، وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أُفَارِقَكِ، الحَقِي بِأَهْلِكِ، فَطَلَّقَهَا، وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ أُخْرَى، فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ فَلَمْ يَجِدْهُ، فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ فَسَأَلَهَا عَنْهُ، فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ؟ وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ: نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ، وَأَثْنَتْ عَلَى اللهِ، فَقَالَ: مَا طَعَامُكُمْ؟ قَالَتِ: اللَّحْمُ، قَالَ: فَمَا شَرَابُكُمْ؟ قَالَتِ المَاءُ، قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالمَاءِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَبٌّ، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ دَعَا لَهُمْ فِيهِ». قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلاَمَ، وَمُرِيهِ يُثْبِتْ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ قَالَ: هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَتَانَا شَيْخٌ حَسَنُ الهَيْئَةِ، وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ، فَسَأَلَنِي عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا بِخَيْرٍ، قَالَ: فَأَوْصَاكِ بِشَيْءٍ، قَالَتْ: نَعَمْ، هُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلاَمَ، وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثْبِتَ عَتَبَةَ بَابِكَ، قَالَ: ذَاكِ أَبِي وَأَنْتِ العَتَبَةُ، أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَكِ، ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَإِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلًا لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيبًا مِنْ زَمْزَمَ، فَلَمَّا رَآهُ قَامَ إِلَيْهِ، فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الوَالِدُ بِالوَلَدِ وَالوَلَدُ بِالوَالِدِ، ثُمَّ قَالَ: يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ، قَالَ: فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ، قَالَ: وَتُعِينُنِي؟ قَالَ: وَأُعِينُكَ، قَالَ: فَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَا هُنَا بَيْتًا، وَأَشَارَ إِلَى أَكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا، قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالحِجَارَةِ وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ البِنَاءُ، جَاءَ بِهَذَا

الحَجَرِ[١] فَوَضَعَهُ لَهُ فَقَامَ عَلَيْهِ، وَهُوَ يَبْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الحِجَارَةَ، وَهُمَا يَقُولاَنِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، قَالَ: فَجَعَلاَ يَبْنِيَانِ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ البَيْتِ وَهُمَا يَقُولاَنِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾".

(١) مقام إبراهيم —عليه السلام-.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أما بعدُ، فاعلموا أنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ ...

أيها المؤمنون!

إنَّ مِن سابغِ عظاتِ نبأِ بناءِ البيتِ العتيقِ تلكمُ المعالمَ الكبرى ذاتَ الأثرِ البالغِ في مسيرةِ الإصلاحِ الفرديِّ والمجتمعيِّ، والتي يَجْدُرُ علمُها، وبثُّها، وامتثالُها؛ كيما تَسُودَ، وتُذاقَ بركتُها، ويُنْعَمَ ببرِّها. أُولى تلك المعالمِ إبرازُ عِظَمِ اليقينِ، وامتلاءِ القلبِ بحسنِ الظنِّ باللهِ، والاستسلامِ لأمرِه، فإنَّ تلك الأمورَ حين تجتمعُ تُفْضي إلى عاقبةٍ محمودةِ الأثرِ مضمونةِ النتائجِ؛ وذاك كان حالَ الخليلِ حين أَمَرَه اللهُ -سبحانه- بتَرْكِ ضعيفَينِ مِن أهلِه في وادٍ غيرِ ذي زرعٍ قَفْرٍ من الحياةِ والأنيسِ؛ فلجأَ إلى حبْلِ الدعاءِ المتينِ الذي لا يَخِيبُ مَن شدَّ به اليدَ، والذي هو عُدَّةُ المتيقِّنِ المُحْسنِ الظنَّ بربِّه والمستسلمِ لأمرِه؛ فكانت منه تلك الدعواتُ المسَطَّرَةُ في كتابِ اللهِ على مَسْمَعٍ مِن القريبِ المجيبِ -سبحانه-؛ فنَعِمَتْ بإجابتِها أممٌ لا يُحصى عدُّها إلى حينِ قيامِ الساعةِ. والعنايةُ بشأنِ القبولِ وتَوَخِّي سَبَبَيْه الإخلاصِ والمشروعيةِ مِن أَجلِّ مُصَحِّحاتِ مَسيرِ الإصلاحِ الراشدِ إلى اللهِ، وهو سِرُّ بَرَكةِ الأعمالِ وسببُ زكائِها؛ إذ هو الغايةُ منها؛ وذاك ما يَفيضُ به نبأُ البناءِ مِن المسيرِ إلى مكةَ وحتى وَضْعِ آخرِ لَبِنَةٍ، ولسانُ النبيَّيْنِ البانيَيْنِ -عليهما الصلاةُ والسلامُ- ما

فَتَرَ مُذْ وَضْعِ القواعدِ وحتى إتمامِ البناءِ الشاقِّ سِيّما على الشيخِ الطاعنِ في السنِّ-مفصِحٌ عمّا وقر في قلبيهما مِن هَمِّ القبولِ؛ إذ كانا يَلْهَجانِ بسؤالِ القبولِ الضَّارعِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾. ورعايةُ شأنِ الأسرةِ مِن أجلِّ اهتماماتِ الأنبياءِ -عليهم السلامُ- الإصلاحيةِ، وتَبْرُزُ مظاهرُ تلك العنايةِ مِن نبأِ البناءِ في استحفاظِ اللهِ لهم، وغرسِ التوحيدِ في قلوبِهم، وامتثالِ أمرِ اللهِ فيهم، والدعاءِ لهم، وتَفَقُّدِ أحوالِهم وإنْ استقلُّوا في الدُّوْرِ أو تناءتْ بهم البلدانُ، وحُسْنِ اختيارِ أزواجِهم، وملاطفتِهم، واحترامِهم، ومشاورتِهم، ومشاركتِهم أداءَ العباداتِ. ألا وإنَّ مِن أعظمَ معالمِ الصلاحِ العامِّ للناسِ قاطبةً في نبأِ بناءِ البيتِ تعظيمَ بيتِ اللهِ المحرَّمِ الذي جعلَه اللهُ قياماً للناسِ وأمْناً، كما قال -سبحانه-: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾، وجعلَ خرابَه علامةً كُبرى لقيامِ الساعةِ التي لا تقومُ إلا على شرارِ الخلْقِ، كما قال النبيُّ ﷺ: "لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لاَ يُحَجَّ البَيْتُ" رواه البخاريُّ، وذلك بعدَ هدمِه الذي أخبرَ عنه النبيُّ ﷺ بقولِه: "يُخَرِّبُ الكَعْبَةَ ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ مِنَ الحَبَشَةِ" رواه البخاريُّ ومسلمٌ. وإنما يكونُ تعظيمُه بتعلُّقِ قلوبِ المؤمنين به، وأَمِّهم له في نُسُكِ الحجِّ والعمرةِ، ورعايتِهم حرمتَه، وتذليلِ السُّبُلِ إليه، وتأمينِ أهلِه وقاصديه، وتطهيرِه للطائفين والقائمين والعاكفين والركَّعِ السجودِ؛ فذاك قدَرُ اللهِ الشرعيُّ فيه حين جعلَه مثابةً للناسِ؛ يشتاقون إليه كلّما فارقوه، وأمْناً لهم حين كان غيرُهم يُتَخَطَّفُ.

جعَلَ البيتَ مثابـاً لَهُمُ ليسَ منه الدهرَ يَقْضُون الوَطَرْ

وما هي من الظالمين ببعيد

إنَّ الحمدَ لله؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، منْ يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومنْ يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه.

أما بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ...﴾.

أيُّها المؤمنونَ!

قَصَصُ القرآنِ من تصريفِ آيِه التي حوتْ عِبرَ الادكارِ، وكشفتْ بمنظارِ اليقينِ مآلَ الحوادثِ التي كثيراً ما يتكررُ وقوعُها، ويُشبِهُ لاحقُها سابقَها ويُفضي إلى عاقبتِه. ونبأُ قومِ لوطٍ -عليه السلامُ- مما أفاضَ القرآنُ بذكرِه في عشرِ سورٍ من مَكيِّه ما بين بسطٍ واقتضابٍ؛ وما جعلَ اللهُ بقاءَ آثارِهم للناسِ على سبيلٍ مقيمٍ، كما جعلَ عِبرتَهم آياتٍ للمتوسمين إلا لعظيمِ مَسيسِ الحاجةِ إليه والانتفاعِ بعِبرتِه على تطاولِ السنين واختلافِ الأممِ. استوطنُ قومُ لوطٍ -عليه السلامُ- قريةَ سَدُومَ في أردنِ الشامِ آمنين راغدين، وبعثَ اللهُ إليهم نبيَّه لوطًا-عليه السلامُ-بعد إيمانِه لإبراهيمَ -عليه السلامُ- وهجرتِه معه إثْرَ إنجاءِ خليلِه من عذابِ الحريقِ؛ وآتاه اللهُ حُكْماً وفهْماً يفصلُ به النزاعَ بين الناسِ وعلماً كان فيه من الراسخين، فألفى قومَه قد اقترفوا من الفاحشةِ وعالنُوا بها ما لم يعرفْه أحدٌ من العالمين قَبْلَهم؛ إذ كانوا يأتون الرجالَ في أدبارِهم

علنًا أمام الناسِ تاركين ما خلقَ اللهُ لهم من أزواجِهم؛ في عدوانٍ سافرٍ على الموبقاتِ، وإسرافٍ قبيحٍ في الإجرامِ، وانتكاسٍ بَشِعٍ في الفطرِ والسَّوايا مع ما كانوا عليه من جريمةِ قطعِ الطريقِ وما كانوا يُظهرونه في مجالسِهمُ العامةِ ونواديهم من أفعالٍ يُستحيى مِن فعْلها اختلاءً! ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾؛ فكان نبيُّ اللهِ لوطٌ -عليه السلامُ- مع دعوتِه لهم إلى توحيدِ اللهِ وعبادتِه يُظْهِرُ بليغَ إنكارِه لفعلِهمُ الفاحشِ الشنيعِ بابتداعِهم له ومعالنتِهم به، مصرِّحًا ببغضِه وشدةِ كراهيتِه له، وواصفًا تلك الفاحشةَ باسمِها الشرعيِّ المنفِّرِ عنها، وواصفًا أهلَها بالعدوانِ والسرفِ والجهلِ والإفسادِ الذي تعدّى شرُّه وضرُّه إلى الغيرِ: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾، ﴿قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾، ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾، ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾، ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾؛ هكذا كانت دعوتُه لهم. وكان ردُّهم على دعوتِه قبيحًا من جنسِ فعلِهمُ القبيحِ؛ إذ كان جوابُهم دائراً بين دركاتِ السخريةِ به وبأهلِه وبدعوتِه، والاستخفافِ بعذابِ اللهِ الذي هدَّدَهم به، وتشكيكِهم فيه، واستبشاعِ طُهرِ الفطرةِ التي تأنَفُ من هذه الخبائثِ، والتهديدِ بالطردِ والإخراجِ من البلادِ بذريعةِ ذلك التعففِ، بل وصلَ الأمرُ إلى الأمرِ، وكلُّ واحدةٍ من تلك الجرائمِ مستوجبةٌ لأليمِ العقابِ؛ فكيف إذا اجتمعنَ؟! ﴿قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، ﴿قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾. فلما رأى عمايتَهم ولَجَّهم

في غيِّهم وما جابَهُوا به دعوةَ الحقِّ، ويَأِسَ بنبوتِه من استصلاحِهم، وعَلِمَ أنّ عذابَ اللهِ حائقٌ بهم، وأنَّ الدعاءَ بالنصرِ والنجاةِ أعظمُ التحصينِ؛ دعا ربَّه بنصرِه على قومِه وإنجائِه وأهلِه من شؤمِ عاقبةِ طغيانِهم قائلاً: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي مِمَّا يَعۡمَلُونَ﴾.

عبادَ اللهِ!

لما جَأَرَ لوطٌ -عليه السلامُ- بتلكمُ الدعواتِ المؤثِّرةِ فتحَ اللهُ لها بابَ السماءِ، وأرسلَ لإجابتِها وإنزالِ العذابِ بالمجرمينَ كرامَ ملائكتِه يقودُ موكبَهمُ الشريفَ جبريلُ الروحُ الأمينُ -عليه السلامُ-، وأوكلَ لهم مع هذه المهمةِ بشارةَ إبراهيمَ -عليه السلامُ- بالغلامِ الحليمِ وإخبارَه بحلولِ العذابِ الأليمِ بأولئك المجرمين، فجاء يُجادِلُ عنهم بحلْمِه وضراعتِه طالباً تأخيرَ العقوبةِ عنهم لعلهم يتوبون أو ينجوَ لوطٌ -عليه السلام- من ذلك العذابِ، فنهاه اللهُ عن ذلك، وأمرَه بالإعراضِ عن طلبِه؛ إذ قد أبرمَ اللهُ أمرَه، وأنفذَ قدرَه، ولا مبدلَ لكلماتِه: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾، ووعدَه بإنجاءِ لوطٍ وأهلِه إلا امرأتَه التي كفرتْ بربِّها ورضيتْ بقبيحِ فعلِ قومِها: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾. فلما حانتْ ساعةُ العذابِ، وحلّتْ ملائكةُ اللهِ المرسَلةُ ضيوفاً كراماً على لوطٍ -عليه السلام- على هيئةِ شبَّانٍ حِسانٍ، وكان قد بلغتِ الوقاحةُ بأولئك الأشقياءِ أنْ نهوه عن استضافةِ أحدٍ من الناسِ، قال رسولُ اللهِ ﷺ: "لَمَّا خَرَجَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ عِنْدِ إِبْرَاهِيمَ نَحْوَ قَرْيَةِ لُوطٍ وَأَتَوْهَا نِصْفَ النَّهَارِ، فَلَمَّا بَلَغُوا

نَهَرَ سَدُومٍ لَقَوُا ابْنَةَ لُوطٍ تَسْتَقِي مِنَ الْمَاءِ لِأَهْلِهَا - وَكَانَ لَهُ ابْنَتَانِ -، فَقَالُوا لَهَا: يَا جَارِيَةُ، هَلْ مِنْ مَنْزِلٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، مَكَانَكُمْ لَا تَدْخُلُوا حَتَّى آتِيَكُمْ، فَأَتَتْ أَبَاهَا، فَقَالَتْ: يَا أَبَتَاهُ، أَدْرِكْ فِتْيَانًا عَلَى بَابِ الْمَدِينَةِ مَا رَأَيْتُ وُجُوهَ قَوْمٍ هِيَ أَحْسَنُ مِنْهُمْ؛ لَا يَأْخُذُهُمْ قَوْمُكَ فَيَفْضَحُوهُمْ، وَقَدْ كَانَ قَوْمُهُ نَهَوْهُ أَنْ يُضِيفَ رَجُلًا حَتَّى قَالُوا: حَلَّ عَلَيْنَا فَلْيُضَيِّفِ الرِّجَالَ، فَجَاءَهُمْ وَلَمْ يُعْلِمْ أَحَدًا إِلَّا بَيْتَ أَهْلِ لُوطٍ، فَخَرَجَتِ امْرَأَتُهُ فَأَخْبَرَتْ قَوْمَهُ، قَالَتْ: إِنَّ فِي بَيْتِ لُوطٍ رِجَالًا مَا رَأَيْتُ مِثْلَ وُجُوهِهِمْ قَطُّ، فَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ (أي: يسرعون)، فَلَمَّا أَتَوْهُ قَالَ لَهُمْ لُوطٌ: "يَا قَوْمِ، اتَّقُوا اللهَ، وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي، أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رُشَيْدٌ؟! هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ مِمَّا تُرِيدُونَ"، قَالُوا لَهُ: أَوَ لَمْ نَنْهَكَ إِنْ تُضَيِّفَ الرِّجَالَ؟! قَدْ عَلِمْتَ أَنَّ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ، وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ، فَلَمَّا لَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُ مَا عَرَضَهُ عَلَيْهِمْ، قَالَ: "لَوْ أَنَّ لِيَ بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ"؛ يَقُولُ -صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ-: «لَوْ أَنَّ لِي أَنْصَارًا يَنْصُرُونِي عَلَيْكُمْ، أَوْ عَشِيرَةً تَمْنَعُنِي مِنْكُمْ؛ لَحَالَتْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ مَا جِئْتُمْ تُرِيدُونَهُ مِنْ أَضْيَافِي»، وَلَمَّا قَالَ لُوطٌ: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ بَسَطَ حِينَئِذٍ جِبْرِيلُ جَنَاحَيْهِ فَفَقَأَ أَعْيُنَهُمْ، وَخَرَجُوا يَدُوسُ بَعْضُهُمْ فِي آثَارِ بَعْضٍ عُمْيَانًا، يَقُولُونَ: النَّجَا النَّجَا، فَإِنَّ فِي بَيْتِ لُوطٍ أَسْحَرَ قَوْمٍ فِي الْأَرْضِ؛ فَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾، وَقَالُوا: "يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ؛ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ؛ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ، وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ؛ فَاتَّبِعْ آثَارَ أَهْلِكَ، يَقُولُ: ﴿وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾، فَأَخْرَجَهُمُ اللهُ إِلَى الشَّامِ، وَقَالَ لُوطٌ: "أَهْلِكُوهُمُ السَّاعَةَ"، فَقَالُوا: إِنَّا لَمْ نُؤْمَرْ إِلَّا بِالصُّبْحِ؛ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ؟ فَلَمَّا أَنْ كَانَ السَّحَرُ خَرَجَ لُوطٌ وَأَهْلُهُ

عَدَا امْرَأَتَـهِ؛ فَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُـوطٍۖ نَّجَّيۡنَـٰهُـم بِسَـحَرٍ﴾ رواه الحاكم وصحَّحه عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ ووافقه الذهبيُّ. هكذا كان اللقاءُ الأخيرُ بين لـوطٍ -عليه السلامُ- وقومِه، وهكذا كان إخبارُ الملائكةِ لـه بخطةِ النجاةِ؛ وذلك بـأنْ يَخرجَ بأهلِه من قريتِه وقتَ السَّحَرِ، آمِراً لهم بعدمِ الالتفاتِ إلى الوراءِ؛ حتى لا يصيبَهم العذابُ، وأنَّ امرأتَـه ستعصيه في أمرِه الأخيرِ كما عَصَتْهُ من قبلُ في الأمرِ الكبيرِ؛ فكانت مع الهالكين: ﴿قَالُـواْ يَٰلُـوطُ إِنَّـا رُسُـلُ رَبِّكَ لَـن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡـكَۖ فَـأَسۡرِ بِأَهۡلِـكَ بِقِطۡعٖ مِّـنَ ٱلَّيۡـلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَـدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَـكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَـا مَـآ أَصَابَهُـمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡـحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡـحُ بِقَرِيبٖ﴾.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أما بعدُ، فاعلموا أنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ ...

أيها المؤمنون!

امتثل لوطٌ -عليه السلامُ- وأهلُه أمْرَ اللهِ؛ فساروا سَحَراً ولوطٌ -عليه السلامُ- من ورائِهم متَّبِعًا أدبارَهم، فما إنْ بزغتِ الشمسُ مشرقةً إلا وشؤمُ عذابِ اللهِ الفظيعِ قد حلَّ بدارِ المجرمين، وحاقَ بهم ما كانوا فيه يَمْترون، وكان عذابًا شديداً لم تُعذَّبْ به أمةٌ قبلَهم؛ اجتمعَ فيه صيحةُ عذابٍ شديدةُ الصوتِ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾، وقلْبٌ للديارِ ونكْسُها بعد أنْ اقتُلعتْ ورُفعتْ سماءً كما انتكستْ فِطرُهم : ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾، وريحٌ حاصبٌ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾، ترجمُهم بحجارةٍ وطينٍ متصلِّبٍ مصفوفٍ متتابعٍ مسجَّلٍ على كل حَجَرٍ اسمَ صاحبِه الذي تحصبُه وإن كان خارجَ قريتِه: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾. وبهذا الاستئصالِ العذابيِّ الفظيعِ قُطِعُ دابرُ هذه الأمةِ الدَّنِسةِ الخبيثةِ، وفنى دارجُها، وعفتْ آثارُها، ولم ينجُ منه إلا بيتُ لوطٍ المؤمنُ، وأُهلِكَ مِن قومِه الذكورُ الفاعلون الخبائثَ والإناثُ الراضون بها، وقيل: المساحقون، ولم يبقَ إلا آثارُ العذابِ ظاهرةً في قريتِهم التي جعلها الله عبرةً؛ تُرى في طريق لا زال يسلكُه المسافرون، ويتناقلون خبرَه حتى الآن. ولمّا كان لكلِ قومٍ وارثٌ، ولكلِّ ساقطٍ

لاقطٌ وَرِثَ تلك النجاسةَ والانتكاسةَ قومٌ فاقوا فيها قومَ لوطٍ؛ إذ تبنَّى الدعوةَ لها والدفاعَ عنها ومحاربةَ مَن أنكرَها كياناتٌ دوليةٌ؛ قنَّنَتْ لها الأنظمةَ، وأضفتْ عليها الحمايةَ، ووسمتْها بمسمياتٍ؛ بُغيةَ تأنيسِها وتخفيفِ استبشاعِ الفِطَرِ لها، كمسمّى المثليةِ، وروَّجتْ لها الدعايةَ تحت ذريعةِ المظلوميةِ والشعاراتِ التي بلغتْ في دناءتِها أنْ زُجَّ بها في لعبِ الأطفالِ ورسومِهم المتحركةِ، وما سَلِمَ من تلك الدناءةِ شركاتٌ تجاريةٌ أعمى حبُّ المالِ فطرةَ ملّاكِها؛ فضلاً عن ترحُّلِ الرحمةِ من قلوبِهمُ الجشعةِ؛ فكانت من مروجيْ شعاراتِ الفاحشةِ ومُشيعِيها.

وكلُّ ذلك مُوجِبٌ على أهلِ الغيرةِ الإيمانيةِ - كلاً على حسبِ استطاعتِه - أنْ يَتبَنَّوْا منهجَ الإنكارِ النبويِّ المعصومِ الذي سنَّه نبيُّ اللهِ لوطٌ -عليه السلامُ-؛ من إعلانِ النكيرِ عليهم، والتحذيرِ والتنفيرِ منهم ومن فِعْلِهم، وتسميةِ فحشائِهم باسمِها الشرعيِّ الذي سمّاها اللهُ به، وعدمِ تقبل فكرةِ التعايشِ معها أو مع أصحابِها ممْسوخي الفِطَرِ، وإقامةِ حدِّ اللهِ عليهم الذي أجمعَ الصحابةُ -رضي اللهُ عنهم- على كونِه قتلاً - كما حكاه شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ وابنُ القيمِ - وإنِ اختلفوا في كيفيتِه؛ أخذاً بقولِ النبيِّ ﷺ: «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ؛ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ» رواه أحمدُ وصحَّحه ابنُ القيمِ على شرطِ البخاريِّ. ومن جليلِ جهادِ أولئك المجرمين توعيةُ الجيلِ بعظيمِ خطرِهم، والتخويفُ بنزولِ عذابِ اللهِ الشديدِ الذي عذّب به قومَ لوطٍ إنِ اتَّبعَ الظالمون آثارَ المجرمين أو رضوا فِعالَهم؛ ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾.

أنت مع من أحببتَ

إنَّ الحمدَ لله؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، منْ يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومنْ يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه.

أما بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ... ﴾.

أيّها المؤمنونَ!

في مجلسٍ نبويٍّ مَهيبٍ؛ تغْشَاه سكينةٌ إيمانيةٌ وارفةٌ، ويعلوه إجلالُ تعظيمٍ وقورٌ، كان الصحابةُ الأطهارُ -رضي اللهُ عنهم- يُشنِّفون مسامعَهم بعذْبِ حديثِ النبيِّ ﷺ، والمُقَلُ شاخصةً لِمَرآه الوضيءِ-إذ برجلٍ من الأعرابِ قد ملأَ الإيمانُ حشاشةَ قلبِه، قادتْهُ خُطى صدقِه حتى أفضتْ به ركائبُه إلى رحبْةِ ذلك المجلسِ النبويِّ الميمونِ، وأقبلَ بسؤالِه إلى النبيِّ ﷺ، والصحابةُ -بما علموا من كراهةِ اللهِ إثقالَ نبيِّه ﷺ بالمسائلِ وما قد تفضيه إلى العَنَتِ- كانوا يَهْتبلون مَقْدَمَ الأعرابِ من ذوي الحِجى والحكمةِ لسؤالِ لنبيِّ ﷺ؛ ليظفروا بجوابِه المعصومِ؛ ليَبْنُوا على أساسِه الراسخِ تصديقاً وعملاً يبرهنُ الإيمانَ، ويزدادوا به إيماناً مع إيمانِهم؛ جاء ذلك الأعرابيُّ مستفتياً عن حِينِ قيامِ الساعةِ قائلاً: يا رسولَ اللهِ، متى الساعةُ؟ وباتَ منتظِراً جواباً من النبيِّ ﷺ يكونُ على مِنْوالِ ما سألَ، لكنَّ النبيَّ ﷺ صَرَفَه إلى ما هو خيرٌ له وأجْدى؛

إذ عِلْمُ قيامِ الساعةِ غيبٌ اختصَّ به علامُ الغيوبِ. وكان أسلوبُ النبيِّ ﷺ في لفْتِ عنايةِ الأعرابيِّ بالأهمِّ من شأنِه ذاتَ الأسلوبِ السؤاليِّ الذي سلَكه في الاستعلامِ عن ميقاتِ الساعةِ قائلاً: " وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟ "؛ فالساعةُ آتيةٌ لا ريْبَ فيها، ولكنَّ الشأنَ في الرَّصَدِ لها وإعدادِ ذخائرِ الباقياتِ الصالحاتِ، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾، ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾. عادَ السؤالُ النبويُّ: "وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟" بالأعرابيِّ إلى دائرةِ الاهتمامِ الحقِّ باستقراءِ شُعَبِ الإيمانِ الذي حقَّقَها وما أرجى تلك الشُّعَبِ لديه؟ إذ بذلك الزادِ يكونُ المسيرُ إلى الدارِ الآخرةِ، وعليه يكونُ الجزاءُ يومَ الدينِ، فأعملَ الأعرابيُّ ميزانَ المراجعةَ لتلك الأعمالِ؛ لِينتخِبَ منها أرجا ذخائرِ عملِه الصالحِ؛ فلم يجدْ أنفعَ من صدقِ محبتِه للهِ ورسولِه ﷺ فقال: "يَا رَسُولَ الله، مَا أَعْدَدْتُ لَهَا كَبِيرَ صِيَامٍ، وَلاَ صَلاَةٍ، وَلاَ صَدَقَةٍ، وَلَكِنِّي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ!". فما ظنُّكم بردِّ النبيِّ ﷺ حين سمعَ الجوابَ المؤثِّرَ الذي فاهَ به لسانُ الأعرابيِّ وصدَّقَه حالُه؟ كان الجوابُ النبويُّ محلَّ عنايةٍ فائقةٍ مِن لَدُنِ الصحابةِ الكرامِ، وما فرحوا بشيءٍ كفرحِهم بذاك الجوابِ العظيمِ حين سمعوا رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ للأعرابيِّ: " فإنَّك مع مَن أحببتَ"! بهذا الأسلوبِ التأكيديِّ الصادرِ ممّن لا ﴿..يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾، فأرادوا الاستيثاقَ بشمولِ ذلك الفضلِ لكلِّ مَن صدَقَ اللهَ ورسولَه ﷺ في المحبةِ، فقالوا -كما في روايةِ البخاريِّ-: "ونحنُ كذلك؟ "فقال: "نعم"؛ عندها أطافَ بهم شعورُ الفرحِ بنعمةِ اللهِ، وعمَّهم من حبورِه سرورٌ لم يَنْعموا بعدَ الإسلامِ بمِثلِه حين وَعَوْا ذلك الجوابَ، وأدركوا

أبعادَه، وتحقّقوا شمولَه؛ فعلموا قدْرَ نفاستِه، وما يقتضيه ويترتبُ عليه؛ عبَّرَ عن ذلك الفرحِ مَن شَهِدَ تلك المحاورةَ ووعاها ورواها وطبّقَها ورَازَ قَدْرَ السرورِ البادي على مُحيا مَن حضرها ونفوسِ مَن بلغتْه، قال أنسٌ -رضي اللهُ عنه-: "فما فَرِحْنا- بعد الإسلامِ- فرحاً أشدَّ من قولِ النبيِّ ﷺ: "فإنك مع من أحببتَ"، وفي روايةِ البَزَّارِ: "فَمَا رأيتُ المسلمين فرحوا بشيءٍ بعد إسلامِهم أَشَدَّ فَرَحًا مِنْهُمْ بِقَوْلِه". وأما التطبيقُ فقد حكاه أنسٌ بقولِه -كما في روايةِ البخاريِّ-: "فأنا أحبُّ اللهَ ورسولَه، وأبا بكرٍ وعمرَ؛ فأرجو أنْ أكونَ معهم، وإن لم أعملْ بأعمالِهم". وفي روايةٍ أخرى للبخاريِّ: "فَأَنَا أُحِبُّ النَّبِيَّ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ بِحُبِّي إِيَّاهُمْ، وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِمِثْلِ أَعْمَالِهِم".

عبادَ اللهِ!

إنَّ التأملَ في زادِ التُّقى الذي أعدَّه ذلك الأعرابيُّ بين يدي الساعةِ وأقرَّه عليه النبيُّ ﷺ؛ لِيكونَ له ذخراً يومَ الدينِ، لَيدُلُّ على عظمِ شأنِ المحبةِ الصادقةِ للهِ ورسولِه ﷺ، وأنها ألزمُ ما يجبُ على المؤمنِ أن يوليَه عنايتَه في هذه الدنيا ويُديمَ عليها ميزانَ المحاسبةِ؛ لبلوغِها بصاحبِها علوَّ المنازلِ في الجنةِ التي لا يبلغُها بعملِه. تلك المحبةُ التي تتملَّكُ القلبَ؛ فلا يُقدِّمُ عليها في المحبةِ أحداً وإن كانت نفسَه التي بين جنْبيه، أو يعارضُها ببغضِ ما يحبُّه اللهُ ورسولُه ﷺ، أو حُبِّ ما يبْغضانه، أو تكونُ تلك المحبةُ دعوى جوفاءَ، وعاطفةً ذاتَ شعارٍ جيَّاشٍ لا يُبَرْهِنُ عليها شاهدُ العملِ والاتباعِ وموالاةِ أولياءِ اللهِ ومُعاداةِ

أعدائِه وعدمِ التشبُّهِ بهم فيما هو مِن شعائرِهم وخصائصِهم واستشعارِ النقصِ في وفاءِ حقِّ تلك المحبةِ والتألمِ عند مخالفةِ مُقتضاها، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، وقال عبدُاللهِ بنُ هشامٍ —رضي اللهُ عنه-: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لاَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ» فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الآنَ، وَاللهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الآنَ يَا عُمَرُ» رواه البخاريُّ. قال الحسنُ البصريُّ: " لا تغْترَّ بقولِك: " المرءُ مع مَن أحبَّ "؛ إنه من أَحَبَّ قوماً اتبعَ آثارَهم، ولن تلحقَ بالأبرارِ حتى تتبعَ آثارَهم، وتأخذَ بهديهم، وتقتديَ بسنتِهم، وتصبحَ وتمسيَ وأنت على منهاجِهم، حريصاً أن تكونَ منهم، وتسلكَ سبيلَهم، وتأخذَ طريقَهم، وإن كنتَ مقصِّراً في العملِ؛ فإنَّ مِلاكَ الأمرِ أنْ تكونَ على استقامةٍ، أما رأيت اليهودَ والنصارى وأهلَ الأهواءِ المُرْديةِ يحبونَ أنبياءَهم ليسوا معهم؛ لأنَّهم خالفوهم في القولِ والعملِ، وسلكوا غيرَ طريقتِهم؛ فصارَ مأواهم النارَ؟ نعوذُ باللهِ من النارِ".

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أما بعدُ، فاعلموا أن أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيها المؤمنون!

إنَّ نبأَ محبةِ الأعرابيِّ البليغَ لَيشي بعظيمِ ما فَقِهَهُ ذاك الأعرابيُّ من لوازمِ تلك المحبةِ التي تُوجبُ على العبدِ استشعارَ عظيمِ حقِّ اللهِ ورسولِه ﷺ؛ لعظيمِ مِنَّتِهما مما لا يَملِكُ العبدُ إزاءَها إلا الإذعانَ بالتقصيرِ في وفاءِ واجبِ الشكر وتيقُّنِ النقصِ؛ وذاك ما يزيدُه انكساراً بين يدي مولاه، وافتقاراً إليه، وحرصاً في السعي إلى مراضيه، ومبادرةً في استصلاحِ الزللِ واستقالةِ العِثارِ، وينفي عنه داءَ العُجْبِ وآفةَ مُراءاةِ الخلْقِ؛ وذاك ما أفصحَ عنه حالُ الأعرابيِّ وقِيلُه؛ إذ بَدا عليه انكسارٌ واستكانةٌ حكاها شاهدُ القصةِ وراويها كما حكى قولَه، قال أنسٌ — رضي اللهُ عنه—فيما رواه البخاريُّ-: "بَيْنَمَا أَنَا وَالنَّبِيُّ ﷺ خَارِجَانِ مِنَ المَسْجِدِ، فَلَقِيَنَا رَجُلٌ عِنْدَ سُدَّةِ المَسْجِدِ (وهي الظلال المُسقفةُ عند بابِ المسجدِ)، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟»، فَكَأَنَّ الرَّجُلَ اسْتَكَانَ، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَعْدَدْتُ لَهَا كَبِيرَ صِيَامٍ، وَلاَ صَلاَةٍ، وَلاَ صَدَقَةٍ، وَلَكِنِّي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، قَالَ: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ»، وفي روايةٍ لمسلم: "مَا أَعْدَدْتُ لَهَا مِنْ كَثِيرٍ أَحْمَدُ عَلَيْهِ نَفْسِي"، بل بلغتْ به الاستكانةُ والانكسارُ واستشعارُ عظيمِ حقِّ اللهِ وحقيقةُ افتقاره

إليـه أنْ تَقَـالَّ أعمالَـه حتـى أوْصلَهـا منزلـةَ العَـدَم، فقـال — كمـا جـاء في روايـةٍ للبخـاريِّ-: "لاَ شَـيْءَ، إِلَّا أَنِّـي أُحِـبُّ اللهَ وَرَسُـولَه ﷺ". فكانـت تلـك المحبـةُ واسـتكانتُها سـببَ رفعـةِ اللهِ لـه إلـى منـازلِ مَـن أَحـبَّ بشـهادةِ يقيـنِ نبويـةٍ حيـن قـالَ لـه النبـيُّ ﷺ: "فإنَّـك مع مَـن أحببتَ". قـال ابـنُ القيـمِ: "ومَقْـتُ النَّفْـسِ في ذاتِ اللهِ مـن صفـاتِ الصديقيـن، ويدنـو العبـدُ بـه مـن اللهِ —سـبحانه- في لحظـةٍ واحـدةٍ أضعـافَ أضعـافَ مـا يدنـو بـه بالعمـلِ"، "فمـن أرادَ اللهُ بـه خيـراً فَتَـحَ لـه بـابَ الـذلِ والانكسـارِ، ودوامِ اللَّجـأِ إلـى اللهِ —تعالـى-، والافتقـارِ إليـه، ورؤيـةِ عيـوبِ نفسِـه وجهلِهـا وعدوانِهـا، ومشـاهدةِ فضـلِ ربِّـه وإحسـانِه ورحمتِـه وجـودِه وبِـرِّه وغنـاه وحمـدِه". فاللهـمَّ اشـهدْ أنَّـا مـا أعْددنـا بيـن يـدي السـاعةِ كثيـرَ قُربـى سوى أنَّـا نحبُّـك ونحـبُّ رسـولَك ﷺ وأبـا بكـرٍ وعمـرَ والصحابـةَ الأطهـارَ الذيـن دَللتَنـا بسـؤالِهم ورواياتِهـم علـى ذُخْـرِ تلـك المحبـةِ؛ فاللهـم ارزقنـا صـدقَ المحبـةِ وألحقْنـا بمَـن أحببناهـم غيـرَ خزايـا ولا مفتونيـن!

لكنّي أَفقدُ جُلَيْبِيبًا

الحمدُ للهِ الباطنِ الظاهرِ، عالمِ مكنونِ السرائرِ، وأشهد ألا إلهَ إلا اللهُ العظيمُ القاهرُ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه النبيُّ الحاشرُ، صلى اللهُ وسلمَ عليه وعلى آله وصحبِه وعلى كلِّ بَرٍّ طاهرٍ.

أما بعدُ، فاتقوا اللهَ —عبادَ اللهِ-، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ... ﴾

أيها المؤمنون!

جليبيبٌ مولىً من الصحابةِ مغمورٌ، لم يُعرفْ إلا باسمِه المُفْرَدِ المجرَّدِ غيرَ منسوبٍ، وكان يعيشُ حياةً خافتةً من بريقِ الشهرةِ، بعيدةً عن حظوةِ الجاهِ؛ فلم يكن ممنْ يُؤْبَهُ لحضورِه إنْ حضرَ، ولا يُفتقدُ إن غابَ، وقد ابتلاه اللهُ بدمامةٍ في وجهِه، غيرَ أنَّ إيمانَه باللهِ ورسولِه ﷺ وصِدْقَ بذلِه وتضحيتِه كانت أسبابَ حظوةٍ له عندَ اللهِ؛ رَفَعَ بها قدْرَه، وخلَّدَ ذِكْرَه، وأجرى له بها أجراً غيرَ ممنونٍ، وغدتْ سيرتُه على وجيزِ سَرْدِها في دواوينِ الآثارِ برَكةً من بالغِ العظاتِ والعبرِ.

عبادَ اللهِ!

لم تكنْ أعباءُ النبوةِ وسياسةِ الخلْقِ تُشغُلُ النبيَّ ﷺ عن تلمُّسِ حاجةِ ذلك الرجلِ المغمورِ من أصحابِه والسعي في قضائِها؛ إذ قد رآه ذاتَ يومٍ فعَلمَ حاجتَه لزوجٍ يَسْكُنُ إليها ويأنسُ بها، فعرَضَ عليه الزواجَ، كما حدَّثَ أنسُ

بنُ مالكٍ —رضيَ اللهُ عنه- قائلاً: كَانَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يُقَالَ لَهُ: جُلَيْبِيبٌ، فِي وَجْهِهِ دَمَامَةٌ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ التَّزْوِيجَ، فَقَالَ: إِذًا تَجِدُنِي كَاسِدًا، فَقَالَ: «غَيْرَ أَنَّكَ عِنْدَ اللهِ لَسْتَ بِكَاسِدٍ» رواه أبو يعلى بإسنادٍ صحيحٍ. هكذا كان ظنَّه في نفسِه، وكان ظنَّه في الناسِ إنْ خَطَبَ منهم؛ إذ ليس فيه مَطْمَعٌ من دنيا يُغري الآخرين بتزويجِه. فما كان من رسولِ اللهِ ﷺ إلا أنْ جلّى له البصيرةَ في الميزانِ الذي يكون به بيانُ الأقدارِ وحقيقتِها؛ إذ ذاك ميزانُ اللهِ الدقيقُ في علْمِه ووزنِه، لا ميزانُ الناسِ الذي يتأرجحُ بالهوى ويطيشُ بالجهلِ؛ فلئنْ رآك الناسُ —يا جليبيبُ- كاسداً غيرَ مرغوبٍ فيك، فأنت لستَ كذلك عند اللهِ، بل أنت عند اللهِ غالٍ، وكَفاك شرفاً بذاك! ثم طَفِقَ النبيُّ ﷺ باحثاً له عن زوجةٍ من خيرةِ بيوتِ الأنصارِ تَليقُ بغلاءِ جليبيبٍ عند اللهِ، وكان للأنصارِ —رضي اللهُ عنهم- أدبٌ جمٌّ مع رسولِ اللهِ ﷺ في الزواجِ؛ كما أخبرَ عنهم أبو بَرْزَةَ الأسلميُّ —رضي اللهُ عنه- في نبأِ تزويجِ جليبيبٍ الذي رواه الإمامُ أحمدُ بإسنادٍ صحيحٍ إذ يقولُ: "كانتِ الأنصارُ إذا كان لأحدِهم أيّمٌ لم يزوِّجها حتى يعلَمَ هل للنبيِّ ﷺ فيها حاجةٌ؟ أم لا". فجاء النبيُّ ﷺ إلى بيتِ أنصاريٍّ كريمٍ، طالباً منه تزويجَه ابنتَه بأسلوبٍ جَعَلَ فيه حاجةَ جليبيبٍ حاجةَ نفسِه؛ إذ أنزلَه مِنْزَالَه، وعبّرَ عنها بلسانِه، فقالَ: "زَوِّجْنِي ابْنَتَكَ"، ففرِحَ الأنصاريُّ فرحاً لم يكنْ للتريثِ فيه مجالٌ؛ فتلك بُغْيَةٌ كان كلُّ ذي أيِّمٍ يتمنَّاها، فقال: نِعِمَّ وَكَرَامَةٌ -يَا رَسُولَ اللهِ- وَنُعْمَ عَيْنٍ! فقال النبيُّ ﷺ: "إِنِّي لَسْتُ أُرِيدُهَا لِنَفْسِي"، قَالَ: فَلِمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: "لِجُلَيْبِيبٍ"، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أُشَاوِرُ أُمَّهَا، فَأَتَى أُمَّهَا، فَقَالَ: رَسُولُ اللهِ ﷺ يَخْطُبُ ابْنَتَكِ، فَقَالَتْ: نِعِمَّ، وَنُعْمَةُ عَيْنِي، فَقَالَ:

إِنَّـهُ لَيْسَ يَخْطُبُهَـا لِنَفْسِـهِ، إِنَّمَـا يَخْطُبُهَـا لِجُلَيْبِيبٍ؟ فَقَالَـتْ: أَجُلَيْبِيبٌ؟! إِنِيْـه(١)! أَجُلَيْبِيبٌ؟! إِنِيْـه! أَجُلَيْبِيبٌ؟! إِنِيْـه! لا- لَعَمْرُ اللهِ-؛ لا نُزَوِّجُهُ! مَـا وَجَـدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَّا جُلَيْبِيبًـا وَقَـدْ مَنَعْنَاهَـا مِـنْ فُـلَانٍ وَفُـلَانٍ؟! هكـذا حُسِـمَ القـرارُ بأقـوى أدواتِ الرفضِ وألفاظِه ومسبِّباتِه، وكان حوارُ الأبِ والأمِ وقرارُهما على مَسْمعٍ من ابنتِهما التي خطبَها رسولُ اللهِ ﷺ لجليبيبٍ، فَلَمَّـا أَرَادَ الأب أَنْ يَقُـومَ لِيَأْتِـيَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَيُخْبِرَهُ بِمَـا قَالَـتْ أُمُّهَـا سألتِ الفتاةُ والديها: مَـنْ خَطَبَنِـي إِلَيْكُـمْ؟ فَأَخْبَرَتْهَـا أُمُّهَـا، فأجابتْهـا ابنتُهـا حديثـةُ السـنِّ جوابـاً يَنُـمُّ عـن قـدْرِ مـا وَقَـرَ في قلبِها من عظيمِ الأيمانِ واليقينِ والثقةِ باللهِ وحسنِ اختيارِه والاستسلامِ لأمرِه القاضـي بالاسـتجابةِ لأمـرِ رسـولِه ﷺ؛ إذ هنـاءُ الحيـاةِ ثَـمَّ، كمـا قـال -تعالـى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، مستشعرةً وخيمَ مخالفةِ الأمرِ النبويِّ وردِّه وإنْ كان أمرَ استحبابٍ لا أمرَ إلزامٍ يترتبُ على مخالفتِه الوعيدُ بالإثمِ والجزاءِ؛ فذاك مقتضى الإيمانِ، وشعارُ أهلِه الذي قال اللهُ فيهم: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾؛ وقدَّمتْ بين يدي جوابِ موافقتِها الدافعَ لقبولِها المبنيَّ على الإذعانِ المطلقِ لأمرِ رسولِ اللهِ ﷺ فَقَالَـتْ: أَتَرُدُّونَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَمْرَهُ؟! ادْفَعُونِي إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَإِنَّـهُ لَنْ يُضَيِّعَنِي، وفي رواية: أَتُرِيدُونَ أَنْ تَرُدُّوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَمْرَهُ؟ إِنْ كَانَ قَدْ رَضِيَهُ لَكُمْ، فَأَنْكِحُوهُ، فَكَأَنَّهَا جَلَّتْ

(١) كلمة تطلقها العرب في النفي الباتّ.

عَـنْ أَبَوَيْهَـا، وَقَـالَا: صَدَقْـتِ! فـكان مَنْطِقُهـا الإيمـانيُّ مـن نَسْـجِ مَنْطِـقِ هاجـرَ أمِّ إسـماعيلَ –عليهمـا السلامُ– حيـن قَفَّـى إِبْرَاهِيـمُ مُنْطَلِقًـا تاركَهمـا في وادٍ غيـرِ ذي زرعٍ، فَتَبِعَتْـهُ فَقَالَـتْ: يَا إِبْرَاهِيـمُ، أَيْـنَ تَذْهَـبُ وَتَتْرُكُنَـا بِهَـذَا الـوَادِي، الَّـذِي لَيْـسَ فِيـهِ إِنْـسٌ وَلاَ شَـيْءٌ؟ فَقَالَـتْ لَـهُ ذَلِـكَ مِـرَارًا، وَجَعَـلَ لاَ يَلْتَفِـتُ إِلَيْهَـا، فَقَالَـتْ لَـهُ: آللَّهُ الَّـذِي أَمَـرَكَ بِهَـذَا؟ قَـالَ نَعَـمْ، قَالَـتْ: إِذَنْ لاَ يُضَيِّعُنَـا (رواه البخـاري)، فمـا كان مـن والديْهـا المؤمنيْـن بعد سماعِهما ذكرى الإيمانِ إلا أنْ ثابا إلى قاعدةِ الاستسلامِ الإيمـانيِّ المطلقِ لأمرِ الشرعِ –والشيءُ من معدنِه لا يُستنكَرُ–؛ فلم يكـن لهمـا مـن أمرِهمـا خيـرةٌ مـع أمـرِ اللهِ وأمـرِ رسـولِه ﷺ، سيما ولغـةُ الوثـوقِ بـاللهِ التـي فاهـتْ بها ابنتُهمـا "لا يُضَيِّعُنِي" قـد نقشـتْ في قلبيْهمـا الثقـةَ بحسـنِ صنيـعِ اللهِ لهـا وجميـلِ مـا يَنتظِرُ تلـك الفتـاةَ المؤمنـةَ مـن حمْـدِ العاقبـةِ؛ إذ لا ضيعـةَ علـى مَـنْ وَكَلَ إلـى اللهِ شـأنَه واستسـلمَ لأمـرِه ؛ فـكان اللهُ حسبَه، فانطلـقَ أبوهـا إلـى رسـولِ اللهِ ﷺ مُخْبِراً إياه بموافقتِهم على ذلـك الـزواجِ الميمـونِ، قارنـاً رضاهـم برضـاه، قائـلاً: شـأنَك بهـا يـا رسـولَ اللهِ، إِنْ كُنْـتَ قَـدْ رَضِيتَـهُ فَقَـدْ رَضِينَـاهُ، قَـالَ رسـولُ اللهِ ﷺ: "فَإِنِّـي قَـدْ رَضِيتُـهُ"، فَزَوَّجَهَـا، فدعـا لهـا رسـولُ اللهِ ﷺ دعـوةً مجابـةً في الـرزقِ المبـاركِ الكثيرِ السـهلِ الـذي لا تعبَ فيـه، فقـال : "اللهُـمَّ صُـبَّ عَلَيْهَـا الْخَيْـرَ صَبًّـا، وَلَا تَجْعَـلْ عَيْشَـهَا كَـدًّا كَـدًّا"، وقـد رأى الأنصـارُ إجابـةَ تلـك الدعـوةِ فيهـا، قـال أنـسُ بـنُ مالـكٍ الأنصـاريُّ –رضـيَ اللهُ عنه–وهـو أحـدُ رواةِ الخبـر: "فَلَقَـدْ رَأَيْتُهَـا وَإِنَّهَـا لَمِـنْ أَنْفَـقِ ثَيِّـبٍ فِـي الْمَدِينَـةِ". وتولّـى رسـولُ اللهِ ﷺ ذلـك التزويـجَ، وزوَّجَ جليبيبـاً بتلك الفتـاةِ المؤمنـةِ، ونعمـتِ الأمّـةُ –كمـا نَعِـمَ الزوجـان– بذلـك الـزواجِ المبـاركِ الـذي تـولاه رسـولُ اللهِ ﷺ مـن حيـن كان فكـرةً حتـى اسـتوى علـى سـاقِ

البيتِ وحُسْنِ العِشْرةِ؛ فكان أساسُ بنيانِه تقوى من اللهِ ورضوانًا، والدعوةُ النبويةُ بصبِّ الخيرِ عليه تغشاه كلَّ حينٍ باليُمْنِ والبركةِ؛ فما ظنُّكم بذلك العرشِ الزوجيِّ السامي وهذا أساسُه ومادةُ بنيانِه ومجدداتُ أحداثِه؟!

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أما بعدُ، فاعلموا أنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ ...

أيها المؤمنون!

وما زالتْ شمسُ الإيمانِ مشرقةً على بيتِ جليبيبٍ وزوجِه -رضيَ اللهُ عنهما-، ومخزونُ التُّقى في قلبيْهما ينمو ويَعْظُمُ حتى دَنَتْ ساعةُ تمحيصٍ شديدٍ يَبِينُ فيها صدقُ الإيمانِ؛ وذلك حين آذَنَ مُؤْذِنُ النبيِّ ﷺ في المدينةِ بالنفيرِ إلى غزاةٍ تُرفَعُ فيها كلمةُ اللهِ؛ لتعلوَ في الوجودِ، ويُذْعِنَ لها العبيدُ، فكان جليبيبٌ أحدَ كُماةِ هذا النفيرِ إذ خرجَ تاركاً في المدينةِ زوجَه وحِبَّه لما هو أحبُّ إليه منها، ولا يَعلمُ أيكونُ بعد ذلك لقاءٌ بها أم هو الوداعُ الدنيويُّ المُفْضِي إلى نعيمِ الآخرةِ ولقائِها السرمديِّ؟ نَفَرَ جليبيبٌ ولمّا يزلْ ذِكْرُه مغموراً بين الناسِ غيرَ مأبوهٍ به غيرَ أنه عند اللهِ معلومٌ عزيزٌ، ولمّا حَمِيَ وَطيسُ المعركةِ كان جليبيبٌ كالأسدِ الهَصورِ في وَثَبَاتِ الفَتْكِ بأعداءِ اللهِ، وكانت تلك الغزاةُ نهايةَ أجلِه بخاتمةِ الحُسْنِ. روى مسلمٌ عن أبي برزةَ الأسلميِّ -رضيَ اللهُ عنه- أنَّه قال: فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْقِتَالِ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ؟» قَالُوا: نَعَمْ، فُلَانًا، وَفُلَانًا، وَفُلَانًا، ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ؟» قَالُوا: نَعَمْ، فُلَانًا، وَفُلَانًا، وَفُلَانًا، ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: «لَكِنِّي أَفْقِدُ جُلَيْبِيبًا، فَاطْلُبُوهُ» فَطُلِبَ فِي الْقَتْلَى، فَوَجَدُوهُ إِلَى جَنْبِ سَبْعَةٍ

قَدْ قَتَلَهُمْ، ثُمَّ قَتَلُوهُ، فَأَتَى النَّبِيُّ ﷺ فَوَقَفَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: «قَتَلَ سَبْعَةً، ثُمَّ قَتَلُوهُ؛ هَذَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ! هَذَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ!» قَالَ: فَوَضَعَهُ عَلَى سَاعِدَيْهِ لَيْسَ لَهُ إِلَّا سَاعِدَا النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: فَحُفِرَ لَهُ وَوُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَلَمْ يَذْكُرْ غَسْلًا. هكذا كان مسكَ ختامِ حياةِ جليبيبٍ —رضيَ اللهُ عنه-، عاشَ مغموراً في الأرضِ مشهوراً في السماءِ، ورَحَلَ بصمتٍ تاركًا في سيرتِه أبلغَ عظةٍ للمُؤْتَسين بأنَّ حُسْنَ الذِّكْرِ ما كان سماويًا ربانيًا وإنْ عاشَ صاحبُه مطموراً بين الناسِ، وأنَّ أثَرَ شجرةِ الصدقِ التي جُلِّلَتْ بسِرْبالِ الإخلاصِ الخفيِّ وسُقِيَتْ بمائه الصافي يبقى ويظهرُ ويتباركُ وإنْ رَحَلَ صاحبُه أو لم يُعْرَفْ، وأنَّ مِن خصيصةِ رشادِ الدعوةِ سَعَةَ قلبِ صاحبِها لِيشملَ في اهتمامِه بحثَ حاجةِ ذويْ المسْكنةِ والسعيَ في قضائِها؛ ائْتِساءً بالنبيِّ ﷺ إذ جعلَ مِن همِّه تزويجَ ذلك المولى المغمورِ، وتَفَقُّدَ حياتِه بعد وَضْعِ الحربِ أوزارَها، وقيامَه على تجهيزِه بعد استشهادِه حتى جَعَلَ ساعديْه المباركيْن سريراً لذلك الجثمانِ الطاهرِ ليُدَلّى دفينًا في رَمْسِه، قد مضى مشهوداً له مِن لدنِ النبيِّ ﷺ بشهادةٍ مكرَّرَةٍ بالثباتِ والاستقامةِ على المنهجِ القويمِ حياتَه المختومةَ بفوزِ الشهادةِ: "هَذَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ! هَذَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ!"؛ مبالغةً في اتحادِ طريقِهما واتفاقِهما في طاعةِ اللهِ تعالى -كما قال النوويُّ-. ولسانُ حالِ سيرتِه يَصْدَحُ بقلبِ كلِّ ناشدِ أسوةٍ بقولِ القائلِ:

وكانتْ في حياتِك لي عِظاتٌ ... وأنتَ اليومَ أوعظُ منكَ حيّا

حوارٌ نبويٌّ مع مُراهقٍ

الحمدُ للهِ الذي خلقَ النفسَ فسوّاها، وألْهمَها فُجورَها وتَقواها، مَنّ على مَن أحبَّ فزكّاها، وأسلمَ مَن شاءَ فدسّاها، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ شهادةَ توحيدٍ يُرجَى عُقباها، وأشهدُ أنّ محمداً خيرَ البريَّةِ وأزكاها،صلّى اللهُ عليه وعلى آلِه وصحبِه وسلمَ تسليماً مَزيداً؛ لا حدَّ لمُنتَهاها.

أمّا بعد، فاتّقوا اللهَ — عبادَ اللهِ -، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ... ﴾.

أيّها المؤمنون!

التغيّرُ سنّةُ اللهِ في خَلْقِ البَشرِ، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾. ولكلِّ مرحلةٍ عمريَّةٍ خصائصُ في التغيّرِ، أشدُّها وأخطرُها ما كان في مرحلةِ المُراهقةِ؛ بين فترةِ الطُّفولةِ والكُهولةِ؛ إذْ يعتري المراهقَ تغيُّراتٌ في الجسمِ والنفسِ والتَّصوُّرِ والمشاعرِ، تتَّسمُ بالاندفاعِ والتقلُّبِ والحَساسيةِ، ينشأُ عنها تصرُّفاتٌ يغلبُ عليها الاستهجانُ والحدَّةُ وعدمُ تقديرِ العواقبِ، قد تقلُّ أو تكثرُ. وقد قالتِ العربُ في أمثلتِها السائرةِ: الشبابُ شُعبةٌ من الجنونِ؛ وذاكَ ما يستدْعِي من المُربِّي والموجِّهِ الحكمةَ في استيعابِ تلكَ المرحلةِ، وحسنَ تفهّمِ أحوالِها، وسلامةَ أسلوبِ التوجيهِ فيها؛ كيما تمرَّ أيامُها بسلامٍ، وتغدوَ لَبناتِ بناءٍ في شخصيةِ هذا الشابِّ من ذكرٍ أو أُنثَى.

أيُّها المسلمونَ!

وفي رحابِ سُنّةِ نبيِّنا ﷺ الغرّاءِ حادثةٌ تُجلّي ما ينبغي أن يُعامَلَ به المُراهقُ، ويُعدَّلَ به شَطْحُ تصوُّرِه وسلوكِه بأرفقِ طريقٍ وأقومِه؛ فقد روى أبو أُمامةَ — رضيَ اللهُ عنه -: "أَنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ؛ فَزَجَرُوهُ، وَقَالُوا: مَهْ! مَهْ! فَقَالَ النبيُّ ﷺ: "ادْنُهْ"، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا، قَالَ: فَجَلَسَ، فقَالَ: "أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟" قَالَ: لَا وَاللهِ! جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: "وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ"، قَالَ: "أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟" قَالَ: لَا وَاللهِ، يَا رَسُولَ اللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: "وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ"، قَالَ: "أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟" قَالَ: لَا وَاللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: "وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ"، قَالَ: "أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟" قَالَ: لَا وَاللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: "وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ"، قَالَ: "أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟ "قَالَ: لَا وَاللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: "وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ"، قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: "اللهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ"، قَالَ: فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ" رواه أحمدُ وصحّحه الألبانيُّ. اللهُ أكبرُ! هكذا عالجَ رسولُ اللهِ ﷺ معضلةً يتطامَنُ عنها أكثرُ مشاكلِ المُراهقَةِ التي يئنّ المربُّونَ من حَمَأةِ وطأتِها، ويحْتارونَ في استصْلاحِها؛ مُجاهرَةً في رغبةِ مُقارفةِ الفاحشةِ أمامَ الملأ! بل واستئذانٍ لها! ممّا جعلَ أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ لا يُطيقونَ سماعَ ذلك؛ فابتدَرُوا الشابَّ بقوارعِ الإنكارِ، والأمرِ بالكفِّ عن الاسترسالِ في طلبِه المُشينِ. فكيفَ كان موقفُ أعظمِ مُربٍّ — بأبي هُوَ وأمّي - ﷺ؟!

أيّها الإخوةُ في اللهِ!

إنّ تفهّمَ مرحلةِ الفتى العمْريَّةِ ودوافعِ النَّزَقِ التي تؤزّه على فعلِ السوءِ باديةٌ في حُسنِ تعامُلِ النبيِّ ﷺ معه؛ إذْ إنّ فهمَ تلكَ الدوافعِ مؤذنٌ بالدّلالةِ على أرشدِ السُّبلِ لتقويمِها. وليس بين فهمِ الدوافعِ وقَبولِها اقترانٌ دائمٌ؛ فإنّ منها ما يُقبَلُ، وما يُعذَرُ فيه وإنْ لم يُقبلْ، وما لا يُعذرُ فيه ولا يُقبلُ؛ فلم يحملْ تفهّمُ النبيِّ ﷺ لنَزْوةِ الفتى على قَبولِها أو تسْويغِ العُذرِ لها، كلا، وإنّما سلكَ أسلوباً حكيماً في اجتِثاثِ جُذورِ الانحرافِ من قلبِ ذلكَ الفتَى؛ ممّا يجعلُ ذلك الأسلوبَ مُفزِعاً للمربِّينَ في تقويمِ سلوكِ مَن يُربُّونَهم من المُراهقينَ.

هذا، وإنّ من أهمِّ مَعالمِ هذا الأسلوبِ النبويّ تحلّيَه بالرِّفقِ واللينِ؛ إذِ الأمورُ تُعالَجُ بأضدادِها؛ فحين كانتْ طبيعةُ المراهقِ تتوقّدُ اندفاعاً وجرأةً، وغضبُه حاضرٌ، ورأيُه حادٌّ، وبصرُه كليلٌ؛ ناسبَ أنْ يُواجَه سلوكُه بهدوءٍ ولُطفٍ؛ لئلّا ينفُرَ، أو يعاندَ؛ فالرِّفقُ ما كان في شيءٍ إلا زَانَه، ولا نُزِعَ من شيءٍ إلا شَانَه، وإذا أرادَ اللهُ بأهلِ بيتٍ خيراً أدخلَ عليهمُ الرفقَ، ويعطي — سبحانَه— على الرفقِ ما لا يُعطِي على العنفِ، وما لا يعطِي على غيرِه. والاحترامُ، والتقديرُ، والإشعارُ بالرُّجولةِ للفتى، والأُنوثةِ للفتاةِ، واستقلالُ الكيانِ من أهمِّ ما يحتاجُه المراهقُ في التعامُلِ معه، وفي حلِّ مشاكلِه؛ وذاك ما يَفْعَمُ به تعامُلُ النبيِّ ﷺ مع ذلك الشابِّ. يتبدّى ذلكَ في إقبالِ النبيِّ ﷺ على الشابِّ، وطلبِه القربَ منه، والنظرِ إليه،وإعطائه الفرصةَ في إبداءِ آرائه، وعدمِ مُقاطعةِ حديثِه، وعدمِ الانشغالِ عنه، وتركِ تعنيفِه وتسفيهِ مَنطقِه واحتقارِ تفكيرِه، وحفاظِه

على صوْنِ الكرامةِ، وتنميةِ الثقةِ في نفسِ الشابِّ، وغَمرِه بمشاعرِ المحبةِ التي فاقتْ أفعالُها كلماتِها — مع أنّه يستأذنُه في فعلِ الفاحشةِ! -.

عبادَ اللهِ!

وفي إقبالِ الشابِّ على النبيِّ ﷺ مُصارحتِه له بهذا الأمرِ المُستقْبَحِ إشارةٌ إلى ما ينبغِي أنْ يكونَ عليه المُربِّي من قربٍ ممّن يُربِّيه وكسبٍ لثقتِه؛ ليكونَ موضعَ استشارتِه، وحلِّ مُشكلاتِه. وذاك القربُ يستَدْعِي من المربِّي أنْ يهيئَ له المُناخَ المناسبَ من نعومةِ أظفارِ مَن يُربِّيه؛ فمَن أهملَ مُصاحَبةَ ولدِه صغيراً لم يحفِل بقُربِه كبيراً، وقد قيلَ: "ولدُك رَيحانتُكَ؛ تشمُّها سبعًا، وخادمُك سبعًا، ثم هو عدوُّك أو شريكُك"، كما أنَّه يستدْعِي من المُربِّي أنْ يتزوّدَ بالمعارفِ التربويَّةِ والمهاراتِ والأخلاقِ الحسَنةِ واستشارةِ ذَوي الخبرةِ، وأن يُحْسِنَ مشاركةَ مَن يُربِّيه همَّه، وما يَحْسُنُ من مُتَعِهِ المُباحةِ، وأنْ يُبادرَه بالمصارحةِ التي تجعلُه موْضِعَ ثِقتِه وقُربِه؛ فلا يأنفُ من مُصارحتِه، وبثِّ الهمّ له؛ إذْ لا بُدّ له من موْضِعِ شَكوى وتوجيهٍ، إنْ لم يجدْ كفؤاً يسدُّها، وإلا اتَّخذَ مأفوناً يزيدُه غيّاً. والصبرُ عُدّةٌ لازمةٌ في عبادةِ التربيةِ، لا يُقطعُ كَأْدُ عقابِها إلا به، وذا ما تحلّى به النبيُّ ﷺ في احتواءِ الفتَى وتقويمِ سلوكِه؛ وذاكَ بادٍ بالمقارَنةِ بين تصرُّفِه وتصرُّفِ أصحابِه — رضيَ اللهُ عنهم -؛ ولن يظفرَ بالبُغيةِ إلا الصابرُ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
وبعدُ، فاعلمُوا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

والمتأمِّلُ في مُعالجَةِ النبيِّ ﷺ يجدُ أنّه اتّخذَ أسلوبَ الحوارِ الهادئِ مع هذا الشابِّ؛ وذاكَ ما يكادُ يُجمِعُ أهلُ التربيةِ على أنّه أنجَعُ السُبلِ في توجيهِ المراهقِ وتقويمِ سلوكِه. وممّا يُلحَظُ في حوارِ النبيِّ ﷺ اقتضابُ عباراتِه، وعدمُ استِطْرادِه، وعدمُ تسرُّعِه لتصحيحِ الحقائقِ؛ اختياراً للوقتِ المناسبِ؛ وذاك ما يتوافقُ مع طبيعةِ المُراهقِ، وهو ما أكّدتْه الأبحاثُ التربويّةُ. ومن معالمِ التوجيهِ النبويِّ للمُراهقِ الإقناعُ بالمُحاورةِ الهادِئَةِ في كلماتِها ولفظِها، واستثارةُ العواطفِ الجيّاشةِ التي تفيضُ بها نفسُ المُراهقِ، وتوظيفُها في معالجةِ سُلوكِه، وحسنِ تصويرِ قُبحِ فعلِه حينَ يُمارَسُ مع أحبِّ الناسِ إليه، واستصدارُ الأجوبةِ المكرّرةِ ذاتِ الإجابةِ المتّفقةِ المُنسجِمةِ مع التوجيهِ من المراهقِ نفسِه، والتّدرُّجُ فيها من الأقوى والأقربِ، وتعقيبُها بالتوجيهِ بأوضحِ عبارةٍ وأوجزِها وألْطفِها؛ حتى كأنّ تلكَ الأسئلةَ بأجوبتِها والتوجيهَ المُوالِي لها ضرباتُ فأسِ ماهرٍ مركّزةٌ على أصلِ شجرةٍ خبيثةٍ لم تصمُدْ أمام تلكَ الضرباتِ . هكذا كانَ إقناعُ النبيِّ ﷺ لهذا الشابِّ، وقد ختمَه بذلكَ الدعاءِ العظيمِ "اللهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ". فالتوجُّهُ إلى الربِّ الكريمِ

المالكِ قلبَ هذا الشابِّ بسؤالِ الخيرِ له — خاصَّةً ممّن دعاؤه مُجابٌ؛ ذلكُم الوالدُ من أمٍّ أو أبٍ، كما قال النبيُّ ﷺ: "ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لَا شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ الْوَالِدِ، وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ" رواه أبو داودَ وحسّنه الألبانيُّ — أرجَى أسبابِ فلاحِه، وبالغُ العَجَبِ من والدٍ سخّرَ دعوتَه المُجابةَ في الدعاءِ على ولدِه!

أيّها المسلمونَ!

هذا عبَقٌ من عبيرِ رسولِنا الكريمِ ﷺ في تربيةِ المُراهقِ، وغَيْضٌ من فيْضِ نميرِه الرَّقْرَاقِ، وأُسوتِه التي لا يعتريها زَلَلٌ. ألَا ما أحرَانا بلزومِ ذاكَ المَهْيَعِ الهنيءِ، والمَنْهلِ الرَّويِّ؛ فذاكَ أمرُ الوليِّ: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾.

لن تهتديَ أمةٌ في غيرِ منْهجِه ... مهما ارتضَتْ من بديعِ الرأيِّ والنُّظُمِ

خصومةُ المُثُلِ

إنّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، من يهدِه اللهُ فلا مضلّ له، ومَن يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ...﴾.

أيّها المؤمنونَ!

الخصومةُ العادلةُ عادةً ما يكونُ منبعُها أخذَ الحقِّ أو منعَه، فهل سمعتُم بخصومةٍ باعثُها دفعُ الحقِّ؟! روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي هريرةَ – رضيَ اللهُ عنه – قال: قال النبيُّ ﷺ: "اشترى رجلٌ من رجلٍ عقاراً له، فوجد الرجلُ الذي اشترى العقارَ في عقارِه جَرَّةً فيها ذهبٌ، فقال له الذي اشترى العقارَ: خذْ ذهبَك منّي، إنّما اشتريتُ منكَ الأرضَ، ولم أبتعْ منك الذهبَ، وقال الذي له الأرضُ: إنّما بعتُك الأرضَ وما فيها، فتحاكَما إلى رجلٍ، فقال: الذي تحاكَما إليه: ألكُما ولدٌ؟ قال أحدُهما: لي غلامٌ، وقال الآخرُ: لي جاريةٌ، قال: أنكِحُوا الغلامَ الجاريةَ وأنفِقُوا على أنفسِهما منه وتصَدّقا". اللهُ أكبرُ! ما أجلَّ تلكَ الخصومةَ! وما أجملَ ذلك الحكمَ!

أيّها المسلمونَ!

هكذا كان النبيُّ ﷺ يربّي أمتَه بأسلوبِ القَصصِ الحقِّ الماثِلِ واقعًا على

مُراعاةِ القِيَمِ الشرعيّةِ الساميةِ والنهوضِ بالمُثُلِ والمبادئِ العليَّةِ والعيشِ بها بينَ الخلائقِ؛ حتى خرَّجَ في مدةٍ لم تتجاوزْ رّبْعَ القرنِ جيلاً فريداً لم تعرفِ البشريّةُ له نظيراً في مُثُلِه وقِيَمه الجمعيّةِ والفرديّةِ، بعد أنْ كان يعيشُ ذلكَ الجيلُ في حضيضِ سفْحِ الجاهليّةِ الهابطِ فأخذَ بيَدِه مُتدرِّجًا حتى بوّأَه مكانَ قمّةِ الخيريّةِ السّامقةِ؛ مُستحقًّا بجَدارةٍ وصفَ الخيريّةِ المُطلَقةِ على سائرِ الأممِ كما قال اللهُ — تعالى - : ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾. ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾

أيّها المسلمونَ!

في نبأِ الخصومةِ المرويِّ تقديمٌ للقِيَمِ والمبادئِ الشرعيّةِ على المصالحِ؛ فلم يحملْ حبُّ المالِ الفطريُّ - مع كثرتِه "جرةُ ذهبٍ"، ويسرُ مأْخذِه، وخَفاءُ أمرِه، وسماحةُ الخَصمِ - على خَدشِ صفاءِ قِيمَةِ الأمانةِ وإطَابةِ المَطعمِ؛ وما ذاكَ إلا إبقاءً لغُنْمِ القيمةِ الباقي وإنْ كانَ على حسابِ غُنْمِ المصلحةِ الفانِي. وذا ما سما به الخَصمَانِ؛ حتى غدا نبؤُهما مثالاً تُربَّى عليه الأمّةُ من لدُنْ نبيِّها — عليه أزكى الصلاةُ والسلامُ —إلى أن يرثَ اللهُ الأرضَ ومَن عليها.

إنّ العيشَ بالقِيمِ والمبادئِ الشرعيّةِ وتمثُّلَها واقعًا عمليًّا مطّرداً في الحياةِ لَمِن أعظمِ ما يحمِلُ على التّقديرِ والاقْتداءِ؛ فتتّسعَ شريحةُ ذَوي المبادئِ في المُجتمعِ؛ وذاكَ من أبلغِ أسبابِ نهضةِ الأممِ. وانظروا كيف سرتْ بركةُ تلكَ القيَمِ في نفسِ القاضِي؛ فلمْ يلوِ على دائرةِ الحقوقِ، بل تعدّاها إلى أفقِ المُثُلِ؛

مسايرةً لأهلِها، وتوسيعاً لشريحةِ الشُّرفاءِ، سائلاً طرفي الخُصومةِ عن نسْليْهما ليُزوِّجَ ابنَ أحدِهما بابنةِ الآخرِ؛ إذِ ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾.

عبادَ اللهِ!

وما تزالُ بركةُ العيشِ بالقيَمِ الشّرعيّةِ تحطُّ ركائبَها في نزُلِ أهلِها الشُّرَفاءِ؛ فكانتْ خُصومةُ المُثُلِ التي ذكرَها النبيُّ ﷺ سبباً في زواجٍ مُبارَكٍ يَسيرٍ دونَ أنْ يتحمّلَ أصحابُه عناءَ البحثِ والسؤالِ وتوفيرِ المالِ. بل جعلَ اللهُ لهما ما يَتصدّقانِ به، والمرءُ في ظلِّ صدقتِه يومَ القيامةِ؛ فما ظنُّكم بظلِّ صدقةٍ تدومُ إلى يومِ الدِّينِ؟!

وبركةٌ أخرى تنشأُ من رِعايةِ القيَمِ الإسلاميّةِ حين يكونُ شعورُ صاحبِها مُرْهَفاً تِجاهَ حُقوقِ الآخرينَ،ويبقَى حذِراً من خَفرِ ذمَمِهم وغَمْطِ حقوقِهم؛ فتَسْخو نفسُه بالحقِّ الذي لها، وتدقّقُ في الحقِّ الذي عليها؛ فتسلمَ من الشُّحِّ والتطفيفِ. ولا سلامةَ منهما إلا بالأمانةِ والصدقِ والعدلِ، وتلكَ أخصُّ صفاتِ أهلِ الإيمانِ التي تمثلتْ في نبأِ الخُصومةِ. كتبَ محمدُ بنُ واسعٍ إلى رجلٍ من إخوانِه: " من محمدِ بنِ واسعٍ إلى فُلانِ بنِ فُلانٍ، سلامٌ عليكَ، أمّا بعدُ، فإنِ استطَعْتَ أنْ تبيتَ حينَ تبيتَ وأنتَ نقيُّ الكفِّ من الدمِ الحرامِ، خميصُ البطنِ من الطّعامِ الحرامِ، خفيفُ الظَّهرِ من المالِ الحرامِ فافعلْ، فإنْ فعلتَ فلا سبيلَ عليكَ؛ ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾. والسلامُ عليكَ".

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.

وبعدُ، فاعلَموا أنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

في نبأِ الرجليْنِ بيانُ حالِ أهلِ المُثُلِ وقتَ الخُصومةِ، والتي أدّتْ لحلِّ النِّزاعِ بطِيبِ نفسٍ واختصارِ جهدٍ وقلةِ وقتٍ؛ وذاك مَقصِدٌ من مقاصدِ الشَّرعِ الشريفِ. وحالُ ذيْنكَ الرَّجُليْنِ الشريفَيْنِ في خصومتِهم منهجٌ شرعيٌ ينبغي ارتسامُه حالَ الخلافِ والتّقاضِي ممّا لا يمكنُ فَكَاكُ المجتمعِ منه، والذي يمكنُ إبرازُه في الرغبةِ الجازمةِ في السّلامةِ من الظلمِ، والصدقِ في المُرافعةِ، والاستجابةِ لداعِي المحكَمةِ، والسماحةِ في التّقاضِي، والأدبِ في التّرافُعِ. ومتى ما خلتِ الخصومةُ من واحدٍ منها؛ فإنّ أمَدَها يطولُ، وهُوّةُ الشِّقاقِ تتّسِعُ، وتطْغَى على النفوسِ الشَّحْناءُ. وذاكَ ما ينطقُ به حالُ المحاكمِ المريرِ وللأسفِ!

أيّها المسلمون!

ذاكَ نبأُ أهلِ القِيمِ في خصامِهم؛ فكيف إذاً يكونُ حالُهم حالَ وِفاقِهم؟!

فتشبَّهوا إنْ لمْ تكُونوا مثلَهم   إنَّ التّشَبُّهَ بالكرامِ فلاحُ

يقالُ ذلكَ والأمةُ الإسلاميّةُ اليومَ بجراحِها وضعفِها وانقسامِها أحوجُ ما تكونُ إليه في الرجوعِ إلى قيمِ الهَدي الصّافي ومبادئِ الشرعِ الغرَّاءِ؛ لتعودَ لمَجدِها التّليدِ ومكانِها المرموقِ في عالمٍ اختلّتْ فيه الموازينُ وتربَّعتِ المصالحُ على عروشِه، فصارَ يركضُ لاهثًا خلفَ سرابِها الخالبِ وزُخرُفِها الفاتنِ! فهلمّ هلمّ إلى المعينِ العذبِ والنّبعِ الزُّلالِ!

﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

صبراً آلَ ياسرٍ

الحمدُ للهِ الذي وسِعَ كلَّ شيءٍ رحمةً وعلماً، وقدّرَ للبلاءِ مِنناً وحِكماً، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له معبوداً وحُكماً، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلّى اللهُ وسلمَ عليه وعلى آلِه وصحبِه دوماً.

أمّا بعدُ، فاتّقوا اللهَ — عبادَ اللهِ -. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ... ﴾

أيّها المؤمنونَ!

للثّباتِ في معاصيفِ رياحِ البلاءِ نبأٌ بليغٌ، تنسابُ عِبْرتُه بَرداً وصَفواً على أفئدةِ المؤمنينَ؛ تسليةً، وتقويةً، وتثبيتاً. سيَّما ما كان في أشدِّ مراحلِ البلاءِ وذلكَ ما قارنَ بِدْءَ رسالةِ الإسلامِ؛ إذِ الجاهليّةُ مُستحكِمةٌ، والمسلمونَ قلّةٌ مُستَضْعَفونَ، والدولةُ للكفرِ، وعداءُ أهلِه للإسلامِ وأهلِه شراسٌ، ومكرُهم كُبّارٌ؛ لا يرقُبونَ في مؤمنٍ إلًّا ولا ذمّةً. في تلكَ الحُقبةِ العصيبةِ تفاقمَ بلاءُ المؤمنينَ، واشتدَّ كربُهم، وكانَ آلُ ياسرٍ من أمضِّهم بلاءً وأقلِّهم حيلةً. بيتٌ عمّ الإيمانُ أهلَه، وخالطتْ بشاشتُه سُويْداءهم؛ فكانوا في سماءِ الثّباتِ أنجُماً للسائرينَ، وعلاماتٍ للمُهتدينَ.

أيّها المسلمونَ!

إنّ محبةَ اللهِ — سبحانَه — واصطفاءه لهذا البيتِ جعلَ ياسراً — رضيَ اللهُ عنه — يستوطنُ مكّةَ قبلَ انطلاقِ الرسالةِ المحمّديّةِ بعُقودٍ من السنينَ، بعد

أنْ قـدِمَ إليهـا باحثـاً مـع أخوَيْـه عـن أخٍ لهـم مفقـودٍ، فطـابَ لـه البقـاءُ فيهـا؛ وذاكَ مـا حـداه لمحالفـةِ سيِّدٍ مخزومـيٍّ مـن سـاداتِ قريـشٍ؛ ليتمكـنَ مـن الحيـاةِ آمنـاً مُطمئنـاً في ذلـكَ المجتمـعِ الجاهلـيِّ الـذي لا مـكانَ فيـه للضعفـاءِ، وتـزوّجَ موْلاتَـه سـميّةَ بنـتَ خيّـاطٍ؛ فأنجبَـتْ غلامـاً دَعَـواه عمـاراً. وعنـد بـزوغِ فجـرِ الإسـلامِ بـادرَ عمّـارٌ بالدخـولِ فيـه وعمـرُه قـد نـافَ الأربعيـنَ، وكانَ سـابعَ الدّاخليـنَ في الإسـلامِ، فبـادرَ بدعـوةِ والدَيْـه الطاعنيْـنِ في السـنِّ فأسـلمَا مـذْ دعاهُمـا دونَ تلكُّـؤٍ أو تباطُـؤٍ.

إخوةَ الإسلامِ!

طـارَ خـبرُ إسـلامِ آلِ ياسـرٍ إلـى بنـي مخـزومٍ؛ فاسْتشَـاطُوا غيْظـاً وحنَقـاً، وتقاسَـموا ليَرُدُّنَّهـم عـن الإسـلامِ أو ليورِدُنَّهـم مـواردَ الهَلكَـةِ. وكان لهـم ثـلاثُ سِياسَـاتٍ غالبـةٍ في التعامُـلِ مـع كلِّ داخـلٍ في الإسـلامِ مـن أهـلِ مكـةَ: اجتماعيّـةٍ، وتِجاريّـةٍ، وجنائيّـةٍ. قـال مـؤرِّخُ السيرةِ الإمـامُ مُحَمَّـدُ بْـنُ إسْـحَاقَ — رحمَـهُ اللهُ -: " وَكَانَ أَبُـو جَهْـلٍ الْفَاسِـقُ الَّـذِي يُغْـرِي بِهِـمْ فِـي رجـالٍ مـن قريـشٍ، إنْ سـمعَ برجـلٍ قَـدْ أَسْـلَمَ لَـهُ شَـرَفٌ وَمَنَعَـةٌ أَنَّبَـهُ وَخَـزَّاهُ؛ وَقَـالَ: تَرَكْـتَ دِيـنَ أَبِيـكَ وَهُـوَ خَيْـرٌ مِنْـكَ! لنسفّهنّ حِلْمَـك، ولنفلينَّ رَأْيَـكَ، وَلَنَضَعَـنَّ شَـرَفَكَ. وَإِنْ كَانَ تَاجِـرًا قَـالَ: وَاللهِ لَنُكْسِـدَنَّ تِجَارَتَـكَ، وَلَنُهْلِكَـنَّ مَالَـكَ. وَإِنْ كَانَ ضَعِيفًـا ضَرَبَـهُ وَأَغْـرَى بِـهِ ". وكان آلُ ياسـرٍ مـن فئـةِ الضَّعَفـةِ الذيـن لا حـولَ لهـم مـن الخَلـقِ ولا ناصـرَ؛ فتَسـلّطَ عليهـم الفجَـرةُ بأنكَـى العـذابِ، لـم يرحمُـوا شَـيْبَةَ الشـيخِ وضعـفَ المـرأةِ وإلْـفَ المَـوالِـي. سـألَ سـعيدُ بـنُ جُبَيـرٍ — رحمَـه اللهُ — ابـنَ عبـاسٍ — رضـيَ اللهُ عنهُمـا -: "أَكَانَ الْمُشْـرِكُونَ يَبْلُغُـونَ مِـنْ أَصْحَـابِ رَسُـولِ اللهِ ﷺ مِـنَ الْعَـذَابِ

مَـا يُعْـذَرُونَ بِـهِ فِـي تَـرْكِ دِينِهِـمْ؟ قَـالَ: نَعَـمْ وَاللهِ! إِنْ كَانُـوا لَيَضْرِبُـونَ أَحَدَهُـمْ وَيُجِيعُونَـهُ وَيُعَطِّشُـونَهُ حَتَّـى مَا يَقْدِرُ أَنْ يَسْتَوِيَ جَالِسًـا مِنْ شِـدَّةِ الضُّرِّ الَّـذِي بِـهِ حَتَّـى يُعْطِيَهُـمْ مَـا سَـأَلُوهُ مِـنَ الْفِتْنَـةِ، حَتَّـى يقولـوا لـه: الّـلاتُ والعُـزّى إلهـانِ مِـنْ دُونِ اللهِ؟ فَيَقُـولُ: نَعَـمْ! افْتِـدَاءً مِنْهُـمْ بما يَبْلُغُـونَ مِـنْ جُهْدِهِـمْ". وقَـالَ عبـدُاللهِ بـنُ مسعودٍ — رضـيَ اللهُ عنـه -: "إِنَّ أَوَّلَ مَـنْ أَظْهَـرَ إِسْـلاَمَهُ سَـبْعَةٌ: رَسُـولُ اللهِ ﷺ، وَأَبُـو بَكْـرٍ، وَعَمَّـارٌ، وَأُمُّـهُ سُـمَيَّةُ، وَصُهَيْـبٌ، وَبِـلاَلٌ، وَالْمِقْـدَادُ، فَأَمَّـا رَسُـولُ اللهِ ﷺ فَمَنَعَـهُ اللهُ بِعَمِّـهِ أَبِي طَالِـبٍ، وَأَمَّـا أَبُـو بَكْـرٍ فَمَنَعَـهُ اللهُ بِقَوْمِـهِ، وَأَمَّـا سَـائِرُهُمْ فَأَخَذَهُـمُ الْمُشْـرِكُونَ فَأَلْبَسُـوهُمْ أَدْرَاعَ الْحَدِيـدِ، وَأَوْقَفُوهُـمْ فِـي الشَّـمْسِ، فَمَـا مِـنْ أَحَـدٍ إِلَّا وَقَـدْ وَاتَاهُـمْ عَلَـى مَـا أَرَادُوا غَيْـرَ بِـلَالٍ، فَإِنَّـهُ هَانَـتْ عَلَيْـهِ نَفْسُـهُ فِـي اللهِ، وَهَـانَ عَلَـى قَوْمِـهِ، فَأَعْطُـوهُ الْوِلْـدَانَ فَجَعَلُـوا يَطُوفُـونَ بـه في شِـعَابِ مَكَّـةَ (وفي روايـة ابـنِ عسـاكرَ:"وجعلوا في عُنُقِـه حبْـلاً مـن ليـفٍ وأعطُـوه غِلمانَهـم فجعلـوا يجرُّونَـه بمكـةَ ويلعبـونَ بـه")، وَهُـوَ يَقُـولُ: أَحَـدٌ أَحَـدٌ" رواه أحمـدُ وصحّحـه الذهبيُّ. هكـذا كان تعذيبُ المُشـركينَ لآلِ ياسـرٍ: الزوجيْنِ وابنِهما عمّارٍ، حتى إذا جفّـتْ منهـم الحلـوقُ، ويبُسـتْ العُـروقُ، وتشـقّقتِ الجلـودُ، وسـالتِ الدمـاءُ — تركوهـم في ذلـكَ اليـومِ ليُعيدُوا معهـمُ الكَـرّةَ في غَـداةِ اليـومِ التّـالي. وكان النبيُّ ﷺيتعاهدُهـم بالزِّيـارةِ في محالِّ تعذيبِهـم مصبِّـراً ومثبّتـاً ومبشِّـراً مـن غيـرِ أنْ يدفـعَ عنهـم أذى المشـركينَ؛ إذْ ذاكَ مُسـتطاعُه. قـال عثمـانُ بـنُ عفـانٍ — رضـيَ اللهُ عنـه: "أَقْبَلْـتُ مَـعَ رَسُـولِ اللهِ ﷺ آخِـذًا بِيَـدِي نَتَمَشَّـى بِالْبَطْحَـاءِ، حَتَّـى أَتَـى عَلَـى أَبِيـهِ وَأُمِّـهِ وَعَلَيْـهِ (أي: عمـار) يُعَذَّبُـونَ، فَقَـالَ أَبُـو عَمَّـارٍ: يَـا رَسُـولَ اللهِ، الدَّهْـرَ هَكَـذَا؟ فَقَـالَ لَـهُ النَّبِـيُّ ﷺ: "اصْبِـرْ". ثُـمَّ قَـالَ: "اللَّهُـمَّ اغْفِـرْ لِآلِ يَاسِـرٍ، وَقَـدْ فَعَلْـتَ». رَوَاهُ

أَحْمَدُ وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصّحيحِ كما قال الهيثميُّ، وفي روايةِ الطبرانيِّ: «اصْبِرُوا آلَ يَاسِرٍ؛ مَوْعِدُكُمُ الْجَنَّةُ»، وفي روايةٍ أخرى له: «أَبْشِرُوا آلَ يَاسِرٍ؛ مَوْعِدُكُمُ الْجَنَّةُ» ورجالُ كلا الروايتيْنِ ثقاتٌ كما قالَ الهيثميُّ. لم يطُلْ بلاءُ ياسرٍ — رضيَ اللهُ عنه -؛ إذِ اختارَه اللهُ لجوارِه جرّاءَ عذابِ الكفَرةِ، وتبقّى عمارٌ وأمُّه يرسُفونَ في أتّونِ العذابِ بعد استشهادِ أبيهم زمنًا طويلاً. وفي ذاتِ يومٍ استطالَ الفاجرُ أبو جهلٍ سبّاً مُقْذِعًا في عِرْضِ العجوزِ الضعيفةِ سُميّةَ — رضيَ اللهُ عنها -، فأغلظتْ له القولَ، فتميّزَ الفجَرَةُ غيظًا بإهانةِ سيِّدِهم، فربطُوا إحدى رجليْها ببعيرٍ والأخرى بآخرَ فانبَرى شقيُّهم أبو جهلٍ — لعنَهُ اللهُ - بحَرْبَةٍ فضربَ قُبلَها؛ فماتتْ شهيدةً، وكانتْ أوّلَ شهيدةٍ في الإسلامِ. وهكذا ترحّلَ آلُ ياسرٍ في موْكبِ الشهداءِ دونَ نُكُوصٍ عن دينِهم الذي ارتضَاه اللهُ لهم، وتفرّدَ ابنُهم عمّارٌ بالعذابِ بعد أنْ فقدَ والدَيْه قُرةَ العينِ أمامَ ناظِريْه تحت حمَأةِ العذابِ من غيرِ قدرةٍ على نُصرتِهم. واشتدّ أذى المشركينَ عليه؛ حتى كان لا يعلمُ ما يقولُ، تارةً يُضربُ، وتارةً يُحرَقُ، وتارةً يُغرقُ، كلُّ ذلك إكراهًا ليرجعَ عن دينِه. وفي ذُروةٍ من تعذيبٍ وقع له بلاءٌ شديدٌ فاقَ كلَّ عذابٍ، حدّثَ عنه ابنُه محمدٌ قائلاً: " أَخَذَ الْمُشْرِكُونَ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ (وفي روايةِ ابنِ عساكرَ عن قَتادةَ: "فغطُّوْه في بئرِ ميمونٍ حتى أمْسى") فَلَمْ يَتْرُكُوهُ حَتَّى سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ، وَذَكَرَ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ ثُمَّ تَرَكُوهُ، فَلَمَّا أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَا وَرَاءَكَ؟» قَالَ: شَرٌّ يَا رَسُولَ اللهِ، مَا تُرِكْتُ حَتَّى نِلْتُ مِنْكَ، وَذَكَرْتُ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ، قَالَ: «كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟» قَالَ: مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ، قَالَ: «إِنْ عَادُوا فَعُدْ»" رواه الحاكمُ وقال: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ ووافقَه الذهبيُّ. وفي روايةِ ابنِ سعدٍ أَنَّ النَّبِيَّ -

ﷺ- لَقِيَ عَمَّاراً وَهُوَ يَبْكِي، فَجَعَلَ يَمْسَحُ عَنْ عَيْنَيْهِ، وَيَقُولُ: "أَخَذَكَ الكُفَّارُ، فَغَطُّوْكَ فِي النَّارِ، فَقُلْتَ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ عَادُوا فَقُلْ لَهُم ذَلِكَ". تلكُم — معشرَ المؤمنينَ — لمحةٌ من شدةِ بلاءِ آلِ ياسرٍ، وما قاسوه في سبيلِ الإيمانِ؛ فرضيَ اللهُ عنهم وأرضَاهم.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسّلامُ على رسولِ اللهِ.

وبعدُ، فاعلمُوا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

الإيمانُ هو المشهدُ الحاضرُ في بلاءِ آلِ ياسرٍ في كلِّ أجزائه؛ فبه كانَ حنَقُ المشركينَ ونكالُهم، ولأجلِه صبرَ المؤمنونَ، واختارُوا الموتَ على الحياةِ؛ استبقاءً له، وأملاً في ثوابِه؛ فكان ذاكَ سرَّ تثبيتِ اللهِ إيَّاهم، وبشارةَ النبيِّ ﷺ لهم. قال هرقلُ لأبي سُفيانَ محاوراً إيّاه عن دعوةِ النبيّ ﷺ: "سَأَلْتُكَ: أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمُ اتَّبَعُوهُ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ. وَسَأَلْتُكَ: أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ الإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ. وَسَأَلْتُكَ: أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ القُلُوبَ" رواه البخاريُّ. وإنّك لتعجبُ من أثرِ الإيمانِ حينَ يخالطُ القلبَ كيف يثبُتُ صاحبُه؛ مولىً مُستضعَفٌ في دارِ غُربةٍ، وطاعنٌ في السنِّ، وامرأةٌ عجوزٌ ضعيفةٌ، وعذابٌ يوميٌّ شديدٌ، والموتُ من ذلكَ العذابِ مُتوقَّعٌ وواقعٌ، ومع هذا يظلُّ بإيمانِه طوْداً شامخاً تندقُّ على جنَادلِه ضرباتُ الكفَرةِ دونَ أن تغيِّرَه أو تؤثِّرَ فيه. ولنفاسَةِ الإيمانِ غلا ثمنُه؛ وتلك حقيقةٌ استقرَّ عليها يقينُ آلِ ياسرٍ فاسْترخَصُوا في سبيلِه كلَّ نفيسٍ وإنْ كانتِ المُهَجُ. قال السَّرِيُّ بْنُ الْمُغَلِّسِ: "سَمِعْتُ كَلِمَةً انْتَفَعْتُ بِهَا

مُنْذُ خَمْسِينَ سَنَةً، كُنْتُ أَطُوفُ بِالْبَيْتِ بِمَكَّةَ، فَإِذَا رَجُلٌ جَالِسٌ تَحْتَ الْمِيزَابِ وَحَوْلَهُ جَمَاعَةٌ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ لَهُمْ: "أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ عَلِمَ مَا طَلَبَ هَانَ عَلَيْهِ مَا بَذَلَ"؛ فأينَ تشبّثُ آلِ ياسرٍ بإيمانِهم ممّن فرّطَ في حفظِ إيمانِه بصَفْقةِ سُحتٍ أونظرةِ إثمٍ أوكلمةِ فُجْرٍ. وفي بلاءِ آلِ ياسرٍ جلاءٌ لعزّةِ المؤمنِ وإنْ كانَ من حظِّ الدُّنيا مُعدَماً، أوصَى الحسنُ البَصريُّ — رحمَهُ اللهّ — رجلاً قائلاً: ""أَعِزَّ أَمْرَ اللهِ أَيْنَمَا كُنْتَ يُعِزَّكَ اللهُ". وبمثلِ هذه التضحيّاتِ الجسيمةِ — أيّها المؤمنونَ — صَلُبَ بناءُ أهلِ الإيمانِ، وغدَوْا قادرينَ على حملِ رسالتِه؛ حتى وصلَ إلينا الإسلامُ كاملاً نقيّاً كما شَرَعه اللهُ — جلّ وعلا — على أيْدي أولئكَ الصادقينَ. ألا فلْنعرفْ لأهلِ الفضلِ فضلَهم، ولْنحفظْ للصّحابةِ سابقتَهم، ولْنلهجْ بدعاءِ تابعِهم إحساناً: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

عِبرةُ أصحابِ الكهفِ

الحمدُ للهِ فاطرِ البرَايا، واهبِ العَطايا، عليمٍ بالخبَايا، عفُوٍّ للخَطَايا. وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه أصدقَ الخلقِ إيماناً وأنبلَهم سَجَايا، صلّى اللهُ وسلمَ عليه وعلى أصحابِه وأتْباعِه أزكى الصلاةِ والتَّحايا.

أمّا بعدُ، فاتّقوا اللهَ — عبادَ اللهِ — ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ... ﴾

أيّها المؤمنونَ!

الإيمانُ أعزُّ منّةٍ، وأجزلُ منحةٍ، وأهنأُ كَرامةٍ؛ فهو الحياةُ والنورُ والبصيرةُ، يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾؛ فلا حياةَ إلا به، ولا نورَ، ولا هدايةَ. مَن ذاقَ طعمَه لم يعتَضْ عنه وإنْ كانَ العِوضُ مُلكَ الدُّنيا بأسرِها؛ إذْ ليس للإيمانِ عِوضٌ. لأجلِه أُزهقتْ مُهجٌ، وبُذلتْ أموالٌ، وفُورِقتْ أوطانٌ، وعُودي أقاربُ، وهُجرتْ مألوفاتٌ ومُتعٌ، وباتَ نبأُ أهلِه الصادقينَ أعجبَ الخبرِ وأبلغَه عظةً وأثراً. ومِن تلكمُ الأنباءِ نبأُ فتيةِ الكهفِ الذي قصَّه اللهُ — سبحانَه — في كتابِه تفصيلاً بعد إجمالٍ. نبؤهم آيةٌ خارجةٌ عن العادةِ؛ فكانتْ عجباً، لكنّ في آياتِ اللهِ ما هو أعجبُ منها!

إنّهم فتيةٌ من الشبابِ ذوو قوّةٍ وعزيمةٍ، ما تجاوز عددُهم العشْرةَ وهم

إلى السبعةِ أقربُ، نشؤوا في مجتمعِ كفرٍ وطغيانٍ، ومنّ عليهم المنانُ بكرامةِ الإيمانِ، وزادَهم من هداهُ، وربطَ على قلوبهم بالثَّباتِ والطُّمأنينةِ في أتّونِ(١) ذلكَ المجتمعِ الكفْريِّ الظلومِ الذي لا يتعاملُ مع المؤمنِ إلا بالرَّجمِ أو الفتَنِ عن الدِّينِ؛ فقامُوا بالإيمانِ قوْلاً وفعلاً، ﴿فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا﴾؛ إقرارٌ بالرُّبوبيَّةِ والألُوهيّةِ؛ فهو الإلهُ الذي يُدعَى دونَ ما سواهُ، وأنّ صَرْفَ ذلكَ الدعاءِ لغيرِه ميلٌ عظيمٌ عن الحقِّ. ورأَوْا بنورِ التوحيدِ حَلَكةَ ظُلمةِ الشِّركِ التي اكتنفتْ قومَهم حين اتّخذوا آلهةً يدعونَها من دونِ اللهِ بغيرِ حجةٍ ولا بُرهانٍ؛ فكانتْ جنايةً تتقاصَرُ عنها كلُّ جنايةٍ؛ فلا ذنبَ أعظمُ من الشركِ؛ لأنّه أعظمُ الكذبِ المفترَى على اللهِ — جلّ وعلا -. ولما رأوْا ألا بدَّ لهم بإظهارِ إيمانِهم ومُقارعةِ قومِهم وخافوا الفتنةَ في دينِهم والبوْءَ بالخَسارِ بادروا في هجرةِ قومِهم؛ إذْ كانتْ هي السّبيلُ الأمثلُ لحفظِ الإيمانِ ونمائِه؛ لئلا يُحرَموا الفلاحَ. وتمخّضَ رأيُهم في طلبِ النجاءِ بعد اعتزالِهم قومِهم بإيوائِهم إلى كهفٍ يعرفونَه، يجتمِعون فيه ويعبدُونَ ربَّهم دونَ أنْ يراهم أحدٌ حتى يقضيَ اللهُ بفرجِ تغيّرِ الحالِ أو بتوفيّه إيّاهم من غيرِ افتتانٍ. وشأنُهم تضرّعٌ إلى اللهِ بسؤالِه رحمةً تحيطُهم وتهيئتَه لهم أسبابَ رُشدٍ تعصمُهم من الزَّللِ. وحسنُ ظنِّهم بربِّهم وهم يباشرونَ الهجرةَ إلى الكهفِ يملأ قلوبَهم: أنْ ينشُرَ لهم من رحمتِه؛ فلا يَضِيقون بالكهفِ، وأنْ يهيِّئ لهم في جميعِ أمورِهم رفقًا ويُسراً.

(١) الأتون: الموقد.

أيّها المسلمونَ!

كانتْ رحمةُ اللهِ وتيسيرُه تحيطُ بهؤلاءِ الفتيةِ حينَ اختارُوا كهفاً ذا بابٍ شماليٍّ تميلُ عن يمينِه الشمسُ إذا طلَعتْ، وإذا تضيَّفتْ للغروبِ تصيبُهم؛ فكانوا في جوْفِه الرَّحبِ. وتأمّلْ حفظَ اللهِ لهم وهم في رَحْبَةِ الكهفِ؛ إذْ جعلَ الشمسَ لا تصيبُهم إلا وقتاً يسيراً قبلَ الغروبِ حينَ يضعُفُ وهجُها؛ فينتفعونَ بها دونَ ضررٍ، والهواءُ يغشاهُم في تلكَ الرَّحبةِ، وضربَ على آذانِهم نَوْمةً استغرقتْ ثلاثَمِائةٍ وتسعَ سنينَ لو رآهم الرَّائِي لظنَّهم أيقاظاً؛ لانفتاحِ أعيُنِهم فلا تفسَدُ — كما قال المُفسِّرونَ –، وجعلَهم يتقلّبُونَ في نومِهم بينَ جنبِهم الأيمنِ والأيسرِ؛ لئلا يختلَّ توازُنُ الدمِ في أجسامِهم أو تأكلَ الأرضُ أجسادَهم واللهُ تعالى قادرٌ على حفظِهم من الأرضِ من غيرِ تقليبٍ لكنّه تعالى حكيمٌ؛ أرادَ أنْ تجريَ سنتُه في الكونِ، ويربطَ الأسبابَ بمسبِّباتِها. وكلبُهم باسطٌ ذِراعيْه عند البابِ للحراسةِ كأنّه لم ينمْ، وألقَى عليهمْ مهابةً تملأُ قلبَ رائيهم رُعباً فلا يملكُ إلا الفرارَ حينَ يراهم؛ وذاكَ ما أوجبَ بقاءَهم كلَّ هذه المدّةِ الطَّويلةِ دونَ أنْ يعثرَ عليهم أحدٌ مع قربِهم من المدينةِ. هكذا حِفْظُ اللهِ لمَن حفظَه.

معشرَ الإخوةِ!

وبعدَ أنْ تمَّ كتابُ النومِ أجلَه الذي دامَ ثلاثَمِائةٍ وتسعَ سنينَ دونَ أن يتغيرَ منهم شيءٌ أيقظَهمُ اللهُ جميعاً فدارَ حوارٌ بينهم في تحديدِ فترةِ نومِهم إثرَ سؤالِ أحدِهم إيّاهم عن تلكَ المدّةِ فمنهم مَن قال: يوماً أو بعضَ يومٍ، ومنهم مَن ردّ العلمَ بها إلى اللهِ. ثم اختارُوا أحدَهم؛ ليشتريَ لهم بعُملةٍ فضِّيةٍ

كانتْ معهم أطيبَ طعامٍ وألذَّه في المدينةِ، وأوصُوه بالحذرِ؛ فيلزمُ التلطُّفُ والتخفِّي في ذهابِه وشرائِه وإيابِه؛ لئلَّا يظهرَ أمرُهم، وذكرُوا محذورَ ظهورِ أمرِهم عند قومِهم، وأنّهم إذْ ذاكَ بين عذابيْنِ: رمي بالحجارةِ أو فتنةٍ بالدِّينِ ونكوصٍ عن الهُدى فلا يفلِحونَ إذاً أبداً. وهكذا لا يزالُ همُّ حفظِ إيمانِهم يعتملُ في نفوسِهم ويلازمُ أمورَ حياتِهم حتى في ما لا يقومُ أَوَدُهم إلا به. ومع كلِّ تلكَ الاحترازاتِ نفَذَ قدَرُ اللهِ؛ إذْ أعثرَ الناسَ على مكانِهم؛ لحكمةٍ أرادَها اللهُ؛ فاليقينُ بحقيقةِ وعدِ اللهِ وعدمِ تخلُّفِه - ومن ذلكَ وعْدُه بإنجاءِ أوليائِه من براثنِ أعدائِه - من مقاصدِ تقديرِ اللهِ لحادثةِ الكهفِ، وكذلكَ من مقاصدِها العلمُ واليقينُ بقيامِ الساعةِ وبعثِ الموْتى لها.

معشرَ المؤمنينَ!

وعندما عرفَ الناسُ مكانَ أهلِ الكهْفِ الذي ماتوا فيه وقعَ التّنازعُ بينَهم في الصّنيعِ بهم؛ فمنهم مَن رأى أنْ يُقامَ بُنيانٌ عليهم يُحمَوْن به ويكونُ أثراً من الآثارِ، ومنهم مَن رأى أنْ يُتّخذَ كهفُهم مسجداً، وكان ذلكَ رأيَ أهلِ الغلَبَةِ وهم أولو الأمرِ فيهم، وذاكَ ما نهى عنه رسولُ اللهِ ﷺ ولعنَ فاعلَه، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي مَرَضِهِ الَّذِي لَمْ يَقُمْ مِنْهُ: « لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ »، لَوْلاَ ذَلِكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ - أَوْ خُشِيَ - أَنَّ يُتَّخَذَ مَسْجِداً. رواه البخاريُّ ومسلمٌ؛ فالعواطفُ تُلجَمُ برِباطِ الشَّرعِ المعصومِ؛ فلا تحملُ محبةَ المخلوقِ على تعظيمِه وإنزالِه فوقَ قدْرِه.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ حقَّ حمدِه، والصلاةُ والسلامُ على رسولِه وعبدِه.

وبعدُ، فاعلمُوا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

إنّ من هدايةِ نبأِ فتيةِ الكهفِ استشعارَ قدرِ الإيمانِ، وأنّه رأسُ مالِ المرءِ الذي إنْ ضيَّعَه فاتَه الفلاحُ برمَّتِه. وفي ذلكَ النبأِ إرشادٌ لطرائقِ حفظِ الإيمانِ وتنميتِه التي من أهمِّها العلمُ الرَّاسخُ والصُّحبةُ الصالحةُ والخوفُ من النُّكوصِ واعتزالُ الفتَنِ والفرارُ بالدِّينِ وملازمةُ الدعاءِ وحُسنُ الظنِّ باللهِ. ومِن تلكَ الهداياتِ أنَّ مَن فرَّ بدينِه من الفتَنِ سلّمه اللهُ منها، وأنَّ مَن حرصَ على العافيةِ عافاه اللهُ، ومَن أوى إلى اللهِ آواهُ اللهُ، وجعلَه هدايةً لغيرِه، وأنّ مَن تحمّلَ الذلّ في سبيلِه وابتغاءَ مرضاتِه كانَ آخرَ أمرِه وعاقبتَه العزُّ العظيمُ من حيثُ لا يحتسبُ ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ﴾.

عِبرةُ التِّيهِ

الحمدُ للهِ واهبِ الآلاءِ، عظيمِ الثَّناءِ، تعالى في المجدِ والكبرياءِ، وابْتلى بالشِّدةِ والرخاءِ، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ ديّانُ يومِ الجزاءِ، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه إمامَ الحُنفَاءِ، ﷺ عليه وعلى آلِه وصحبِه الأوْفياءِ.

أمّا بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ...﴾.

أيّها المؤمنونَ!

إنّ أكثرَ قَصصِ القرآنِ كانتْ نبأً عن بَني إسرائيلَ قومِ موسى — عليه السلامُ-؛ ولعلّ سببَ ذلكَ: طولُ أمَدِ تلكَ الأمّةِ، وما أصابَها من انحرافٍ عن منهجِ اللهِ، وما رُزِئَتْ به من خُطُوبٍ واستطالةِ عِدَى ، وما سنّه اللهُ لهم من هُدى مُخْرِجٍ لهم من تلكَ التيهِ والأزماتِ، ممّا هو مشابِهٌ لحالِ أمةِ الإسلامِ؛ لتستوعبَ العِبرةَ، وتدركَ الخَللَ؛ فتعدلَ المسيرَ، وتستصلحَ الحالَ. وإنّ من أخبارِ القومِ التي قصّها اللهُ في كتابِه نبأَ فتحِ الأرضِ المُقدّسةِ؛ وذلكَ أنّ اللهَ كلّفهم بفتحِها، ووعدهم بالنصرِ بعد أنْ بدّل ضعفَهم قوّةً، واستعبادَهم تحرُّراً، وجعلَ فيهم الأنبياءَ، وآتاهم الملكَ، وآتاهم ما لم يؤتِه أحداً في زمانِهم، وأراهم مَصارعَ مَن كانوا يَسُومونَهم سوءَ العذابِ؛ فما برِحَ كَليمُه موسى — عليه السلامُ — يعدِّدُ عليهم تلك الأيادِي الرَّبَّانيَّةَ، ويُغريهم بالفتحِ الذي كتبَه اللهُ لهم حينَ يدخلونَ تلكَ البُقْعةَ، ويحذِّرُهم من مغبَّةِ النُّكوصِ عن تنفيذِ الأمرِ الإلهيِّ والارتدادِ

على العَقِبِ؛ وأنّ عُقبَى ذلكَ الخسارُ الذي لا مَربحَ معه؛ فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٠ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾. هذا قيلُه ولمّا يزلْ نصرُ اللهِ لهم ماثلاً على أرضِ مصرَ حين أوْرثَهم سُلطانَها إثرَ إهلاكِ طُغاتِها؛ فلا مُقارنةَ بين شَرسِ الفَراعِنةِ ومُغتَصِبي الأرضِ المُقدّسةِ، ولا مُقاربةَ بين مساحةِ حدودِ ذيْنَكَ القُطْرَيْن وعددِ أهلِها وعُدَّتَهم! كيف واللهُ قد وعدَ بالفتحِ وكتبَ الأرضَ لهم؟! لكنْ أنّى لمهزومِ النفسِ مَوّاتِ الإرادةِ أنْ يستروِحَ ريحَ النصرِ الزَّكِيِّ أو يَحْيا بمائِه.

أيّها المسلمونَ!

تجرّعَ نبيُّ اللهِ موسَى — عليه السلامُ — من قومِه غُصَصَ التمرُّدِ على التكاليفِ، والتحيّلِ لإسقاطِها؛ فمُذْ أنْ وجّهَ لهم الأمرَ بدخولِ الأرضِ المقدّسةِ بعد تقديمِه ذكرَ سالفِ النِّعَمِ اعتذرُوا بشدّةِ بطْشِ سكانِها وتفوُّقِ قوَّتِهم، وأنّ دخولَهم الأرضَ لن يكونَ إلا بعدَ خروجِ أولئكَ منها، هكذا يريدونَه نصراً رَخيصاً! لا ثمنَ له! ولا جهدَ فيه! نصراً مُريحاً يتنزّل عليهم تَنزُّلَ المنّ والسَّلْوى! ﴿إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾. وفي موطنِ الأزماتِ تتبدّى حقائقُ الإيمانِ النّاصعةُ؛ ويكونُ الثّباتُ بقدرِ ما قام منها في القلوبِ؛ فحينَ كعّ خُوَاةُ الإيمانِ وجبُنوا عن المُنازَلةِ برزَ كَميّانِ سَكَنَ الإيمانُ قلبيْهما، وملأ خوفُ اللهِ

فؤادَيْهما، ولم يعدْ لِما دونَ اللهِ هَيْبةٌ إزاءَ هذا الخوفِ الذي أنعمَ اللهُ به عليْهما؛ فاللهُ سبحانَه لا يجمعُ في قلبٍ واحدٍ بينَ مَخافتَيْنِ: مخافتِه - جلّ جلالُه - ومخافةِ الناسِ، والذي يخافُ اللهَ لا يخافُ أحداً بعدَه، ولا يخافُ شيئًا سواهُ - فطَفِقا مُشجِّعَيْن قومَهم على الدُّخولِ، وأنّ ما بينهم وبين دَرَكِ النصرِ إلا اقتحامُ بابِ المدينةِ، ﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ﴾، لَا يَهُولَنَّكُمْ عِظَمُ أَجْسَامِهِمْ؛ فَقُلُوبُهُمْ مُلِئَتْ رُعْبًا مِنْكُمْ؛ فَأَجْسَامُهُمْ عَظِيمَةٌ وَقُلُوبُهُمْ ضَعِيفَةٌ، فمتى دخلتُم على القومِ في عُقْرِ دارِهم انكسرتْ قلوبُهم بقدْرِ ما تُقَوّى قلوبُكم، وشعُرُوا بالهزيمةِ في أرواحِهم، وكُتبَ لكم الغَلبُ عليهم. ثم أوْصوهم مع بذْلِ السببِ بالتوكُّلِ على اللهِ وتفويضِ الأمرِ له؛ فإنّ مَن توكَّلَ على اللهِ كَفاه وآواه ونصَرهُ. لكنْ أنَّى حراكٌ لميِّتِ الهمَّةِ؛ فلم تحرِّكْ فيهم موْعظةُ كليمِ اللهِ ولا نُصحُ المؤمنَيْن شيئًا، بل لم يكتَفُوا بالجُبنِ حتى جمَعوا معه الوَقاحةَ: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾، هكذا في وَقاحةِ العاجزِ! «فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ»! فليس بربِّهم إذا كانتْ رُبوبيَّتُه ستكلِّفُهم القتالَ! «إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ»؛ لا نريدُ ملكًا، ولا نريدُ عزّاً، ولا نريدُ أرضَ الميعادِ، ودونَها لقاءُ الجبَّارِين!

أيّها الإخوةُ في اللهِ!

وبعد هذا الجُهدِ الجَهيدِ من نبيِّ اللهِ، وحين رأى إصرارَ قومِه على إيثارِ الدّعةِ والنُّكوصِ، توجهَ بالجؤارِ إلى اللهِ شاكيًا حالَه مع قومِه حين لم يتمثّلِ

الأمرَ إلا هو وأخوهُ هارونُ عليهما السلامُ، ودعا بالمُفاصَلةِ بينه وبينَ قومِه العُصاةِ، وأنْ ينْزلَ اللهُ فيهم من العذابِ ما تَقتضِيه حكمتُه؛ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾. فاستجابَ اللهُ لنبيِّه، وحكمَ بالجزاءِ العدلِ على الفاسقينَ: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾: قضَى بحرمانِهم من دخولِ الأرضِ المُقدّسةِ التي كان قد كتبَها لهم أربعينَ سنةً، مع ضَياعِهم في الأرضِ هذه المدةَ، ونهى نبيَّه موسى —عليه السلامُ— عن الحُزنِ على تلك العقوبةِ: ﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾؛ إذ مَهْمَا حَكَم عَلَيْهِمْ فَإِنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ، وما يعْقُبُ من خيرِ البلاءِ يخففُ بشعَ مرارتِه. وقد ذكرَ المفسِّرون أن تِيهَهم كان في صحراءَ، كلّما أَمْسَوْا من مَوضِعٍ للمسيرِ أصبحوا فيه، وإذا أَصْبحُوا أمسوْا على ذَلِك الْمَوضعِ، وَهَكَذَا كلَّ يَوْمٍ طِيلةَ مدةِ التِّيهِ. ولعلّ الحكمةَ في هذه العقوبةِ — كما قال جمهورُ المفسرينَ - أنْ يموتَ أكثرُ هؤلاء الذينَ قالوا هذه المقالةَ الصادرةَ عن قلوبٍ لا صبرَ فيها ولا ثباتَ، بل قد أَلِفَتْ الاستعبادَ لعدوِّها، ولم تكنْ لها هِمَمٌ ترقِّيها إلى ما فيه ارتقاؤها وعلوُّها، ولتظهرَ ناشئةٌ جديدةٌ صُلبةَ العودِ، تَعتبِرُ بالدرسِ، وتنشأُ في خشونةِ الصحراءِ وحريَّتِها، وتتربَّى عقولُهم على طلبِ قهرِ الأعداءِ، وعدمِ الاستعبادِ، والذلّ المانعِ من السعادةِ. وهكذا وقعَ بعد انقضاءِ فترةِ التِّيهِ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.

وبعدُ، فاعلَموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المسلمونَ!

إنّ ممّا أفصحَه نبأُ التِّيهِ أنّ الانتصارَ على النفوسِ جادّةُ الانتصارِ على الأعداءِ وعقبتُها الكؤودُ؛ وأنّ المهزومَ مَن هزمتْه نفسُه،فأقعدتْه همّتُه عن رِكابِ الطّاعةِ، وأخلدتْه إلى الأرضِ، والقَرارِ بحُطَامِ الدُّنيا، والرِّضا بالدُّونِ، وتركِ استعادةِ ما اغتُصبَ من الحقوقِ. وكذلك، فإنّ طولَ بلاءِ الأمةِ واشتدادَه مؤْذنٌ بصَقلِ قادةِ التغييرِ؛ فإنّهم من رَحِمِ الأزَماتِ يُولدونَ، وفي مستحلكِها يترَعرَعون. وبقدْرِ ما أبانَ نبأُ التّيهِ من خَواءِ إيمانِ قومِ موسى — عليه السلامُ — حين تأبّوْا عن التكاليفِ، وتفصّوْا من عُراها، أظهر حُسنَ ضدِّه من حالِ أصحابِ النبيِّ — ﷺ، ورضيَ عنهم -، كما قال أنسُ بنُ مالكٍ — رضيَ اللهُ عنه -: "لَمَّا سَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى بَدْرٍ خَرجَ فَاسْتَشَارَ النَّاسَ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ اسْتَشَارَهُمْ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ عُمَرُ، فَسَكَتَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: إِنَّمَا يُرِيدُكُمْ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَاللهِ لَا نَكُونُ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾، وَلَكِنْ وَاللهِ لَوْ ضَرَبْتَ أَكْبَادَهَا حَتَّى تَبْلُغَ بَرْكَ الْغِمَادِ لَكُنَّا مَعَكَ" رواه أحمدُ وصحّحه الألبانيُّ.

عِبرةُ السامريّ

إنّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مُضلّ له، ومَن يضلل فلا هاديَ له،وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ ...﴾.

أيّها المؤمنون!

رُزِئ بنو إسرائيلَ باستِضْعافِ العدوِّ حين تملّكَ أمرَهم، فسامَهم سوءَ العذابِ: يذبِّحُ أبناءَهم ويستَحْيي نساءَهم، في صورةِ مهانةٍ من ذلِّ الاستعبادِ ومرارةِ الاستبدادِ، حتى آذنَ اللهُ لصُبحِ العزِّ بالانبلاجِ، ولِلَيلِ الظُّلمِ بالأفُولِ؛ فأنقذَهم بنبيِّه موسى — عليه الصلاةُ والسلامُ -، ومكّنَ لهم في الأرضِ، وأورثَهم مُلكَ فرعونَ بعد أن أبْصَروا هلاكَه، وأتمّ اللهُ كلمتَه الحُسْنَى عليهم، ودمّرَ ما كان يصنعُ فرعونُ وقومُه وما كانوا يعرِشون . وما زالتْ نِعَمُ الرَّبِّ تتْرَى عليهم إذْ واعدَ كليمَه أربعينَ ليلةً؛ ليوتيَه التّوراةَ منهجاً لبني إسرائيلَ وهدايةً ونوراً، فعَجِل موسى للقاءِ ربِّه؛ طلباً لمرضاتِه، وخلّف أخاه هارونَ — عليه السلامُ — راعياً لقومِه وأوْصاه بالإصلاحِ والتَّجافي عن سبلِ المفسدينَ. وحينَما حضرَ موسى الوعدَ، وكلّمه ربُّه، وآتاه التَّوراةَ مكتوبةً في ألواحٍ متضمنةً موعظةَ كلِّ شيءٍ وتفصيلَه — أخبرَه بما حلّ بقومِه بَني إسرائيلَ بعدَه من فتنةِ

عبادةِ العجلِ بإضلالِ رجلٍ منهم اسمُه السامريُّ.

عبادَ اللهِ!

عادَ موسى — عليهِ السلامُ — من موْعدِ ربِّه والغضبُ يملأ جوْفَه؛ فلمّا أبصرَ حالَ قومِه هالَه منظرُ الشركِ الفظيعِ إذْ رآهم عاكِفينَ على عبادةِ جسدِ عجلٍ لا روحَ فيه ولا حياةَ، كافرينَ بنعمةِ موْلاهم واصْطِفائه لهم. وليس الخبرُ كالمعاينةِ؛ فألْقى الألواحَ من يدِه. وانطلقَ في مُعالجةِ هذا الدّاءِ الخطيرِ واقتلاعِ جُذورِه من قلوبِ قومِه التي أُشرِبتْ حبَّ هذا الصَّنمِ؛ فبدأ بقومِه الذينَ وقعَ منهم الفعلُ، ثم ثنّى بأخيهِ هارونَ القائمِ على شأنِهم، ثم ثلّثَ بسببِ الفتنةِ ومصدرِها السامريِّ. فشرعَ موبِّخاً قومَه ومذكِّراً لهم بعظيمِ منّةِ اللهِ عليهم بتساؤلٍ عن سببِ هذه الخَيْبةِ: أهوَ طُولُ فترةِ غيابِه عنهم؟ أم هوَ بُعدُهم عن زمنِ النبوَّةِ؟ وكِلَا هذَينِ الوقتَيْنِ قصيرُ الأمَدِ؛ لا يسوغُ به هذا الفعلُ القبيحُ. فليس ثمّ سببٌ إلا إرادةُ المُخَالَفةِ التي تُنزِلُ غضبَ اللهِ؛ فأخلفُوا وعدَ الاستقامةِ، ووصيَّةَ هارونَ؛ فلم يَرقُبوا غائباً، ولم يحترموا حاضراً. واعتَذَروا بعُذرٍ باردٍ من جنسِ قُبحِ فِعلِهم: أنّهم قد عبَدُوا العجلَ رغماً عنهم حينَ تأثّموا من بقاءِ حُليّ الأقباطِ لديْهم فألقُوها، فصنعَ منها السّامريُّ عجلاً له خُوَارٌ (صوتٌ)، فلما رأوْا هذا الغريبَ الذي صارَ له خُوَارٌ- بعدَ أنْ كانَ جماداً- ظنّوه إلهَ الأرضِ والسماواتِ، بل تمادَى بهم الغيُّ فخطّؤوا موسى في الذّهابِ لملاقاةِ ربِّه، وربُّهم حاضرٌ بينهم — تعالى اللهُ عن ظلمِهم علوّاً كبيراً-. وهذا من بَلادتِهم، وسخافةِ عقولِهم؛ أَفَلا يَرَوْنَه لا يراجعُهم ولو بكلمةٍ واحدةٍ، ولا

يملكُ لهم ضَرّاً ولا نفعاً، فالعادمُ للكمالِ والكلامِ والفِعالِ لا يستحقُّ أنْ يُعبدَ، بل هو أنقصُ من عابدِيه ذَوي التكلُّمِ والمَقدرةِ. وهكذا يُردِي الجهلُ صاحبَه في مَهامِه الحُمْقِ السَّحيقةِ؛ تأثّمُوا بحملِ الحُليّ؛ فاسْتَعاضُوا عنها بعبادةِ تمثالِ العجلِ!!

معشرَ المؤمنينَ!

وما زال غضبُ انتهاكِ حدودِ اللهِ يسيطرُ على موسى — عليه السلامُ — شفقةً على قومِه وتماماً في النُّصْحِ حتى أقبلَ على أخيهِ هارونَ مُمْسكاً لحيتَه ورأسَه يجرُّه إليه معاتباً إيّاه بتَرْكِ اللحاقِ به لإخبارِه بفتنةِ قومِه، فخاطبَه هارونُ —عليه السلامُ- بوَشِيجَةِ بنوّة الأمّ ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ﴾؛ ترقيقاً لقلبِه، وإلا فهوَ شقيقُه، طالباً منه الكفَّ عن زجرِه؛ لئلّا يشمتَ به أعداؤه، و لبراءتِه من معرّةِ التّقصيرِ، فقد وَعظَهم حين رأى شِركَهم، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى﴾، ولكنَّهم اسْتَضْعفوه وكادوا يقتلونَه، وخَشيَ بفُراقِه إيّاهم تفرقَهم وتشتُّتَ أمرِهم؛ فيَبوءَ بإثمِ مُخالفةِ أمرِ أخيهِ موسى؛ فقدّمَ المَفْسدةَ الدُّنيا على العلْيا . عندها أدركَ موسى — عليه السلامُ — نُصحَ أخيهِ وقيامَه بالأمرِ؛ فسألَ اللهَ أن يغفرَ له ولأخِيه وأنْ يُدخلَهم في رحمتِه. وهكذا، ما فتئَ نبيُّ اللهِ موسى — عليه السلامُ —في علاجِ فتنةِ قومِه حتى صمدَ للسامريِّ سببِ الفتنةِ وشرارتِها سائلاً إيّاه عن مُصابِه الذي فتنَ به بَني إسرائيلَ، فأجابَه أنّه رأى ما لم يرَ غيرُه حينَ أرسلَ اللهُ رسولَه جبريلَ — عليه السلامُ — لإغراقِ فرعونَ، فأخذَ من أثرِه قدْرَ قبْضةِ اليدِ، وحينما أتمّ

صوغَ الحُليّ على هيئةِ العجلِ رمى بتلكَ القبضةِ عليه فصاحَ العجلُ بخُوارِه؛ فتنةً من اللهِ واختباراً، أو كانَ ذلكَ الخوارُ صوتَ الهواءِ الخارجَ من فيِّ العجلِ بعدَ دخولِه مِن دُبُرِه. وقد حصلتِ الفتنةُ به.

أيّها الإخوةُ!

وبعدَ هذا التّحقيقِ الذي أجراه نبيُّ اللهِ موسى — عليه السلامُ — في جريمةِ عبادةِ العجلِ - تركَّزَتِ الإدانةُ على طرَفيْنِ: هم عبَدَةُ العِجْلِ من بَني إسرائيلَ وصانعُه السَّامريُّ، وحانَ وقتُ جزاءِ الافتراءِ على اللهِ الذي يحْوي غضبَ اللهِ على المُفتَري وضَرْبَه بالذِّلَّةِ في الدُّنيا. ومع فدَاحةِ الجريمةِ لم يقنِّطْهم اللهُ من رحمتِه، بل فتحَ لهم بابَ التوبةِ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾. عندها أيقنَ عُبَّادُ العجلِ بِعظَمِ الجَرِيرَةِ وبُعْدِ الضَّلالِ، وأسْقطَ في أيدِيهِم، وطَفِقُوا يلهَجُونَ باستغفارِ الأنبياءِ: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾. فأمرَهم نبيُّهم موسى — عليه السلامُ — بالتّوبةِ التي من لوازمِها قتلُ النفسِ بأنْ يقتلَ بعضُهم بعضاً كما قال اللهُ — تعالى -: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾. قَالَ الزُّهْرِيُّ: لَمَّا أُمِرَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِقَتْلِ أَنْفُسِهَا، بَرَزُوا وَمَعَهُمْ مُوسَى، فَاضْطَرَبُوا بِالسُّيُوفِ، وَتَطَاعَنُوا

بِالْخَنَاجِرِ، وَمُوسَى رَافِعٌ يَدَيْهِ، حَتَّى إِذَا أَفْنَوْا بَعْضَهُمْ، قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ، ادْعُ اللهَ لَنَا. وَأَخَذُوا بعَضُديْه يَسْنُدُونَ يَدَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ أَمْرُهُمْ عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى إِذَا قَبِلَ اللهُ تَوْبَتَهُمْ قَبَضَ أَيْدِيَهُمْ، بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ، فَأَلْقَوُا السِّلَاحَ، وَحَزِنَ مُوسَى وَبَنُو إِسْرَائِيلَ لِلَّذِي كَانَ مِنَ الْقَتْلِ فِيهِمْ، فَأَوْحَى اللهُ، جَلَّ ثَنَاؤُهُ، إِلَى مُوسَى: مَا يُحْزِنُكَ؟! أَمَّا مَنْ قُتِلَ مِنْكُمْ فَحَيٌّ عِنْدِي يُرْزَقُ، وَأَمَّا مَنْ بَقِيَ فَقَدْ قَبِلْتُ تَوْبَتَهُ. فسُرّ بِذَلِكَ مُوسَى، وَبَنُو إِسْرَائِيلَ. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ كما قال ابنُ كثيرٍ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ. وبعدُ:
فاعلمُوا أنّ أحسنَ الحديثِ...

أيّها المؤمنونَ!

وعقابُ السّامريِّ الذي تسبَّبَ في هذه الفِتنةِ من جنسِ جنايتِه: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾؛ فكَمَا أَخَذْتَ ومَسَسْتَ مَا لَمْ يَكُنْ أَخْذُهُ وَمَسُّهُ مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ، فَعُقُوبَتُكَ فِي الدُّنْيَا الطّردُ والإبعادُ وأَنْ تَقُولَ: "لَا مِسَاسَ"؛ أَيْ: لَا تَمَسَّ النَّاسَ وَلَا يَمَسُّونَكَ، عقوبةَ عزلٍ وإعلانَ دنَسِ المُدنسِ؛ فلا يقربُه أحدٌ ولا يقربُ أحداً. أمّا الموعدُ الآخرُ فهو موعدُ العقوبةِ والجزاءِ عند اللهِ — سبحانه -. ولم يبقَ من مشهدِ الجريمةِ إلا ذلكَ الصّنمِ المعبودِ، الذي حرّقَه موسى أمامَ نظرِ عُبّادِه المَفتُونينَ وذَرّاه رَماداً في اليمّ؛ حسماً لمادةِ الفتنةِ، وقطعاً لعلائِقِها في القلوبِ. وبذلكَ تنتَهي تلكَ الفتْنةُ العمياءُ على يدِ نبيِّ اللهِ وكَليمِه موسى — عليه السلامُ —في علاجٍ ناجعٍ يحملُ في ثَناياهُ الصبرَ على المَدعوِّينَ، والقُربَ منهم، ومتابعةَ أحوالِهم، واحتمالَ نكْستِهم، والحرصَ على دينِهم، وحسمَ موادِّ الشركِ ، وحسنَ تنقيحِ مَناطِ الخللِ، ومعرفةَ أسبابِه، ومناقشةَ أطرافِه، وتنقيَةَ المجتمعِ من رموزِ الفسادِ، وفتحَ بابِ التّوْبةِ لكلِّ مُذنبٍ، وعدمَ تقْنيطِه من رحمةِ اللهِ. وجلّتْ تلكَ القصةِ خطرَ تشرّبِ المَعاصِي وأنّ صاحبَها قلّ أنْ يرْعَويَ. وبَانَ بها عِظَمُ

سماحَةِ شريعةِ الإسلامِ التي من عظيمِ صُوَرِها يُسْرُ التّوبةِ وحصولُها بالنّدمِ خلافاً لِمَا عليه شريعةُ بَني إسرائيلَ.

عِبرَةُ أصحابِ الغارِ

إنّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مضلّ له، ومَن يضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ...﴾.

أيّها المؤمنونَ!

القَصصُ أسلوبٌ كان النبيُّ ﷺ يكثرُ استعمالَه في دعوةِ الناسِ وتوجيهِهم؛ وما ذاكَ إلا لحُسنِ إيضاحِه، وقوةِ تأثيرِه. وتَميَّزَ القصصُ النبويُّ بما تميَّزَ به صِنْوُه القرآنيُّ من صدقِ الثُّبوتِ، وفصاحةِ البيانِ، وبلاغةِ اللفظِ، واقتصارٍ على موطنِ الفائدةِ والعِبْرةِ. ومن تلكَ الأخبارِ نبأُ أهلِ الغارِ، روى البخاريُّ ومسلمٌ أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: "بَيْنَمَا ثَلَاثَةُ نَفَرٍ يَتَمَشَّوْنَ أَخَذَهُمُ الْمَطَرُ، فَأَوَوْا إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ، فَانْحَطَّتْ عَلَى فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ، فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْظُرُوا أَعْمَالًا عَمِلْتُمُوهَا صَالِحَةً لِلَّهِ، فَادْعُوا اللهَ تَعَالَى بِهَا، (وفي روايةٍ للبخاريِّ: "ادْعُوا اللهَ بِأَفْضَلِ عَمَلٍ عَمِلْتُمُوهُ")، لَعَلَّ اللهَ يَفْرُجُهَا عَنْكُمْ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: اللهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَامْرَأَتِي، وَلِي صِبْيَةٌ صِغَارٌ أَرْعَى عَلَيْهِمْ، فَإِذَا أَرَحْتُ عَلَيْهِمْ حَلَبْتُ، فَبَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ، فَسَقَيْتُهُمَا قَبْلَ بَنِيَّ، وَأَنَّهُ نَأَى بِي ذَاتَ يَوْمٍ الشَّجَرُ، فَلَمْ آتِ حَتَّى أَمْسَيْتُ، فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ

نَامَا، فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ، فَجِئْتُ بِالْحِلَابِ، فَقُمْتُ عِنْدَ رؤوسهما أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا، وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْقِيَ الصِّبْيَةَ قَبْلَهُمَا، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ (أي: يصيحونَ ببكاءٍ من الجوعِ)، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبَهُمْ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً، نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ، فَفَرَجَ اللهُ مِنْهَا فُرْجَةً، فَرَأَوْا مِنْهَا السَّمَاءَ، وَقَالَ الْآخَرُ: اللهُمَّ إِنَّهُ كَانَتْ لِيَ ابْنَةُ عَمٍّ أَحْبَبْتُهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ، وَطَلَبْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا (وفي رواية: فَامْتَنَعَتْ مِنِّي حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ)، فَأَبَتْ حَتَّى آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَتَعِبْتُ حَتَّى جَمَعْتُ مِائَةَ دِينَارٍ، فَجِئْتُهَا بِهَا، فَلَمَّا وَقَعْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا، قَالَتْ: يَا عَبْدَ اللهِ اتَّقِ اللهَ، وَلَا تَفْتَحِ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَقُمْتُ عَنْهَا، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً، فَفَرَجَ لَهُمْ، وَقَالَ الْآخَرُ: اللهُمَّ إِنِّي كُنْتُ اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقِ أَرُزٍّ (الفرق: مِكْيَالٌ يَسَعُ ثَلَاثَةَ آصُعٍ)، فَلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ قَالَ: أَعْطِنِي حَقِّي، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ فَرَقَهُ فَرَغِبَ عَنْهُ، فَلَمْ أَزَلْ أَزْرَعُهُ حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرِعَاءَهَا، فَجَاءَنِي فَقَالَ: اتَّقِ اللهَ وَلَا تَظْلِمْنِي حَقِّي، قُلْتُ: اذْهَبْ إِلَى تِلْكَ الْبَقَرِ وَرِعَائِهَا، فَخُذْهَا فَقَالَ: اتَّقِ اللهَ وَلَا تَسْتَهْزِئْ بِي! فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ، خُذْ ذَلِكَ الْبَقَرَ وَرِعَاءَهَا (وفي رواية:"كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنَ الإِبِلِ وَالبَقَرِ وَالغَنَمِ وَالرَّقِيقِ")، فَأَخَذَهُ فَذَهَبَ بِهِ (وفي روايةٍ: "فأخذه كلّه فاستاقه فلم يتركْ منه شيئًا")، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا مَا بَقِيَ، فَفَرَجَ اللهُ مَا بَقِيَ".

أيّها المسلمونَ!

إنّ إنجاءَ اللهِ أصحابَ الغارِ من ذلكَ الموتِ البطيءِ المحقّقِ من أعجبِ براهينِ توحيدِه وآثارِه؛ إذْ انقطعَ من المشهدِ كلُّ سببٍ حسيٍّ بيقينٍ استقرَّ في رُوُع هؤلاءِ النَّفرِ، ولم يبقَ إلا سببُ الإيمانِ بالغيبِ؛ فتشَبَّثُوا فيه بأنجحِ وسيلةٍ تُقضَى بها الحاجةُ حين توسَّلوا في ضَرَاعتِهم إلى مَن بيدِه تدابيرُ الكونِ — سبحانَه — بأرجَى عملٍ صالحٍ عمِلوه في غالبِ ظنِّهم؛ فكان به الفرجُ من اللهِ — جلّ وعلا -. والمعنى الجامعُ لعملِ هؤلاءِ على اختلافِ صُوَرِه: عِظَمُ العملِ في ذاتِه، وما أُشيدَ عليه من صدقٍ وإخلاصٍ، مع قوّةِ جاذبِ الهوَى، وشدَّةِ صارفِ الطاعةِ.

أمّا الأوّلُ، فكان راشداً في برِّه؛ إذِ البرُّ أوْسطُ أبوابِ الجنةِ، والجنةُ كامنةٌ تحتَ قدمِ الأمّهاتِ، ورِضَى الإلهِ في رِضَى الوالدِ، والسَّخَطُ في السَّخَطِ. تناهَى برُّ ذلكَ الموفَّقِ؛ فكان برُّ والديْه أرْجَى عملٍ لديْه، واختارَ من سالفِ برِّه ذُروتَه؛ إذْ كان له مع والديْه الطاعنَيْنِ سنّاً عادةٌ يوميةٌ في تغذيتِهما اللبنَ، يباشرُ كلَّ تفاصيلِها بنفسِه، ولا يقدِّمُ عليهما في أوَّليّةِ شُربِ ذلك اللبنِ نفساً ولا ولداً. وظلّ مُتعاهداً تلك السُّنةَ حتى مع قوّةِ جواذبِ تركِها؛ إذْ كان والداه نائمَيْنِ، والتّعبُ يكتنِفُه إثرَ رعايةِ بُهمِه، وبكاءُ صبيتِه يُصيخُ مَسمعَه وقد رآهم يتضوّرونَ جُوعاً عند قدَمَيْه وهو واقفٌ بقدَحِه عند رأسِ والدَيْه، وقِلّةُ ذاتِ يدِه باديةٌ من فحْوَى الخبرِ؛ ومع ذلكَ لم يُوقظْ والداً، أو يسقِ صبياً، أو يَجلسْ من قيامٍ، بل دام حالُه كذلكَ حتى تنفَّسَ الصبحُ بفَجْرِه، واستيقظَ الوالدان

فسقاهما اللبنَ بيدِه كما كان يسقِيهم، ولم يخْرِمْ عادةَ البرِّ في ذلكَ الموقفِ الشديدِ. وما إنِ استتمَّ مناجاتَه ربَّه بذلكَ العملِ الجليلِ إلا ويأمرُ المَوْلَى — سبحانَه — الصَّخْرةَ أنْ تنزاحَ عن فمِ الغارِ بقدْرِ الثلُثِ كما جاء في روايةٍ؛ فَرَأَوْا السَّفَر، لكنّهم لم يستطِيعوا الخروجَ.

عبادَ اللهِ!

وهكذا توالتْ مناجاةُ الضَّراعةِ بصالحِ العملِ الخفيِّ، وقَوِيَ رجاءُ بركتِه حين رأوْا أثرَ دعوةِ الأوّلِ بزوالِ ثُلُثِ الصخرةِ عن فُوَّهَةِ الغارِ؛ فتوسَّلَ الثاني إلى ربِّه بعفَّتِه عن الحرامِ في موضعٍ تعْسرُ فيه العفّةُ؛ إذْ قد تمكّنَ — بعد تربُّصٍ وتكرارٍ - ممّن علَّق هواهُ بها بعد أنْ ألْجأها الفقرُ إلى وحْلِ الزِّنا؛ فكانتْ منها الموعظةُ البليغةُ التي زَلزَلتْ الوجدانَ بذِكْرى تَقْوى الإلهِ وخَوْفِه ورعايةِ الحقِّ والرَّحمِ. روى الطبرانيُّ بإسنادٍ حسَنٍ كما قال الحافظُ: "أَنَّهَا تَرَدَّدَتْ إِلَيْهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ تَطْلُبُ مِنْهُ شَيْئًا مِنْ مَعْرُوفِهِ وَيَأْبَى عَلَيْهَا إِلَّا أَنْ تُمَكِّنَهُ مِنْ نَفْسِهَا، فَأَجَابَتْ فِي الثَّالِثَةِ بَعْدَ أَنِ اسْتَأْذَنَتْ زَوْجَهَا فَأَذِنَ لَهَا، وَقَالَ لَهَا: أَغْنِي عِيَالَكِ، قَالَ: فَرَجَعَتْ فَنَاشَدَتْنِي بِاللهِ فَأَبَيْتُ عَلَيْهَا؛ فَأَسْلَمَتْ إِلَيَّ نَفْسَهَا، فَلَمَّا كَشَفْتُهَا ارْتَعَدَتْ مِنْ تحتي، فَقلت: مَالك؟ قَالَتْ: أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ، فَقُلْتُ: خِفْتِيهِ فِي الشِّدَّةِ وَلَمْ أَخَفْهُ فِي الرَّخَاءِ فتَرَكْتُهَا"؛ تحركتْ في فؤادِه مشاعرُ الخوفِ من الجبّارِ — جلّ وعلا -، فانْتزعتْ من قلبِه جلْمدَ الصَّبابةِ، وفجّرتْ منه نابيعَ الرَّحمةِ؛ فقامَ عن الفاحشةِ لا يلْوي منها على شيءٍ، تاركًا لابنةِ عمِّه كلَّ ما سلمَها من مالٍ قد أضْناه جَمْعُهُ. وما إنِ انْقطعَ من دُعائه إلا وثُلثٌ

مـن الصَّخـرةِ ينحَـدِرُ عـن فـمِ الغـارِ بأمـرِ مَـن أجـابَ المضْطَّـرَ إذا دعـاهُ. ولكـنْ بقـيَ مـن حكمـةِ البـلاءِ مـا جعـلَ الصَّخـرَ مانعـاً خروجَهـم حتـى شـرعَ ثالثُهـم في مُناجاةِ القريـبِ المُجيـبِ — جلّ وعـلا -، فتوسّـلَ إليـه بأمانتِه حيـن سـمَتْ نفسُـه عـن شـحِّها وسـلمَ مـن وصْمـةِ منعِ الحقِّ أو بَخْسِـه مـع قدرتِـه عليـه وقـوَّةِ داعِيـه وكثـرةِ أهلِـه، وبـاتَ راعيـاً حـقَّ ذلـكَ الأجيـرِ بـل ومثمّـراً لـه حتـى تنامـتْ أجرتُـه مـن أرزٍ ذي تسـعةِ كيلـواتٍ إلـى قطيـعٍ كثيـرٍ مـن الرَّقيـقِ والغنـمِ والبقـرِ والإبـلِ، فجـاءه الأجيـرُ بعدمـا شـاخَ وكـبرَ طالبـاً أُجرتَـه، فمـا تلـكَّأ أو كتـمَ أو أنكـرَ أو بخَسَ أو طلبَ ردَّ الجميلِ، بـل دلّـه علـى أُجْرتِـه وخلَّـى بينـه وبينهـا بطيـبِ نفـسٍ، فظـنَّ الأجيـرُ أنّـه يسـخرُ بـه؛ لمّـا رأى السـماحةَ وكثـرةَ الأجْـرِ وتنوُّعَـه، حتـى أكّـد صاحبُـه أحقيتَـه بـه، فاستاقَه، ولـم يُبـقِ منـه شـيئاً. ومـا إنْ كَمُلـتْ تلـكَ الدعـوةُ إلا ويجـيءُ فـرجُ اللهِ — تعالـى — بانْشِـقاقِ الصَّخـرِ عـن فتحـةِ الغـارِ بتَوالِـي دعـواتِ الخَبَايـا الصالحـةِ. يقـولُ النُّعمـانُ بـنُ بشـيرٍ — رضـيَ اللهُ عنهمـا -: "لَكَأَنِّـي أَسْـمَعُ رَسُـولَ اللهِ - ﷺ— يَقُـولُ: «فَقَـالَ الْجَبَـلُ: طَـاقْ، فَفَـرَّجَ اللهُ عَنْهُـمْ، فَخَرَجُـوا»" رواه الطـبرانيُّ وحسَّـنه الحافـظُ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ وحدَه، والصلاةُ والسلامُ على رسولِه وعبدِه.
وبعدُ، فاعلَموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

في نبأِ أهلِ الغارِ إظهارٌ لشأْوِ العملِ الصالحِ سيَّما إنْ كان خفيّاً، وأنه سببٌ لتفريجِ الكُرَبِ ؛ ممّا يجعلُ الحصيفَ يُعِدُّ الخبيئةَ الصالحةَ التي تدَّخَرُ بين يدَي البلاءِ. وخبيئةُ الصِّدقِ خيرُ ما يُدَّخَرُ من الخَبايا، وهي أخلصُ الخَبَايا وأصوَبُها وأكثرُها مُنازعةً للْهوى وأسلمُها منه؛ فلَعَمْرُ اللهِ! لَلَصدقُ طوْقُ نجاةٍ في أمواجِ البلاءِ المُتلاطِمةِ. جاء في روايةِ الغارِ للبخاريِّ: "فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: إِنَّهُ وَاللهِ يَا هَؤُلاَءِ، لاَ يُنْجِيكُمْ إِلَّا الصِّدْقُ، فَلْيَدْعُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَا يَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ صَدَقَ فِيهِ"؛ فارْقُبِ الصدقَ في فعالِك وأقوالِك؛ فإنّه نجاةٌ لك في الدُّنيا والآخرةِ. والدعاءُ وقتَ البلاءِ من أعظمِ أسبابِ رَفعِه، خاصةً إنْ كانَ صاحبُه من أهلِ دُعاءِ الرخاءِ؛ فمَن عرفَ اللهَ في الرَّخاءِ عرفَه في الشِّدةِ. وفي هذا النبأِ تعظيمٌ لتلكَ الأعمالِ الصالحةِ التي توسَّلَ بها النَّفرُ الثلاثةُ: برِّ الوالدَيْن، والعفّةِ عن الحرام، وأداءِ الأمانةِ. وفي هذا تنبيهٌ لرعايتِها، والحذرِ من إخفارِ ذمَّتِها. وَمن هدْيِ نبأِ الغارِ أَنَّ تَرْكَ الْمَعْصِيَةِ يَمْحُو مُقَدِّمَاتِ طَلَبِهَا، وَأَنَّ التَّوْبَةَ تَجُبُّ مَا قَبْلَهَا، وأنَّ ضررَ الفقرِ يتعدَّى لارتكابِ الحرامِ وفشوِّه في المجتمعِ؛ ومِن هنا وجبَ على المجتمعِ قادةً ورعيّةً مكافحتُه بالتَّدابِيرِ التي شرعَها اللهُ.

عِبرةُ ذِي النُّونِ — عليه السلامُ -

الحمدُ للهِ مُجيبِ مَن دعاهُ، وناصرِ مَن أَمّه ورَجاه، منّ على مَنْ أحبَّ فهَداه واجتبَاه، وعدَلَ مع مَن شاءَ فأضلّه وقلَاه. وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ، وأشهدُ أنَّ محمداً رسولُه ومُصْطفَاه، صلّى اللهُ عليه وعلى آلِه وصحبِه وسلّمَ تسليماً لا حدَّ لمُنْتَهاهُ.

أمّا بعدُ، فاتّقوا اللهَ — عبادَ اللهِ -، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ... ﴾.

أيّها المؤمنونَ!

قَصصُ القرآنِ خبرٌ مُعجِزٌ، ومعنىً ثرٌّ؛ انعطفَ على عِبَرٍ، تصحِّحُ المفاهيمَ، وتُقوِّمُ المَسيرَ، وتُبوّئ المدّكرَ نزلَ السموِّ، ويرى بعينِ الاعتبارِ عُقبى الحوادثِ في الأفرادِ والأممِ، ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾. ومن عُيونِ هذا القَصَصِ نبأُ نبيِّ اللهِ ذِي النُّونِ يونُسَ — عليه الصلاةُ والسلامُ -، الذي عدّدَ اللهُ ذكرَه، وصرّفَ خبرَه. فقد بُعثَ لأهلِ نِينَوى من أرضِ المَوْصِلِ بالعراقِ، فدعاهُم إلى باحةِ العبوديَّةِ للهِ وعِزِّ توحيدِه، فأبَوْا عليهِ، وضَاقُوا ذَرْعاً بدعوتِه، ولَجُّوا في طغيانٍ يعْمَهونَ، وما زالَ داعياً لهم، وهم في إصرارٍ على الكفرِ، وعنادٍ عن قَبُول الحقِّ. فلما رأى ذلك الحالَ المُحزِنَ، وأمضّه طِعَانُ التكذيبِ والتّأبّي، وطولُ سنيّ الاصطبارِ؛ أنذرَهم بقارعةِ عذابٍ قريبٍ تحلُّ بساحتِهم؛ جرياً على سنَّة اللهِ في المكذّبينَ، ثم خرجَ

من بين أظْهُرِهِم حين تملّكه الغضبُ؛ لقاءَ ما لاقَى من عنَتِ قومِه. وحين رأى القومُ مخايلَ العذابِ قد تبدّتْ، وعايَنوا غيبَه شهادةً، وتحقّقَ لهم ما أنذرَهم به نبيُّهم، وظنُّوا أنّ الأمانَ قد ترحّلَ عنهم؛ استكَانُوا لربِّهم، وتضرَّعوا إليه مُنيبِينَ تائبينَ؛ فخرجُوا إلى الصحراءِ — كما قال أهلُ العلمِ - بأطفالِهم وأنعامِهم ومَواشِيهم، وجأَرُوا إلى الله بالدُّعاءِ والبُكاءِ، ورَغَتِ الإبلُ وفصلانُها، وخارتِ البَقَرُ وعِجلانُها، وثَغتِ الغنمُ وحملانُها، وبكى الرجالُ والنِّساءُ والوِلدانُ، ولَهَجُوا بمعَاقدِ الاستغفارِ بدموعِ التوبةِ ودعَواتِ الاضْطِّرارِ؛ فكانتْ ساعةً عظيمةً مَهولةً؛ العذابُ من فوقِهم، ونبيُّهم قد فارقَهم؛ عندها أنزلَ اللهُ رحمتَه، وكشفَ عنهم غُمّةَ العذابِ؛ فكانتْ هي القريةَ الوحيدةَ التي نجتْ من عذابِ اللهِ بعد تحقُّقِه، ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

عبادَ اللهِ!

كان نبيُّ اللهِ يونُسَ — عليه السلامُ — إبّانَ مُتاركَةِ قومِه أسِفًا؛ حتى ظنَّ ألّا ضيقَ ولا سجنَ أكبرُ ممّا هو فيه من أذَى التكذيبِ وضنْكِ العنادِ؛ فاستعْجَلَ الخروجَ قبل إذنِ اللهِ — سبحانَه -؛ فلامَه اللهُ على ذلكَ، وقدّرَ عليه ضِيقًا أشدَّ ممّا كان فيه. وذلكَ أنّه حينَ أزمعَ المُغادرةَ، اتّجهَ إلى شطِّ بحرٍ؛ لتقِلَه سفينةٌ مشحونةٌ بالرَّكبِ والمَتاعِ. وأثناءَ مخرِ السفينةِ لُجَّةَ البحرِ وهنتْ قُوى الفلكِ عن حملِ ما فيه؛ واحتارَ أهلُه في سبيلِ النَّجاءِ؛ فألجأَهم الاضْطِّرارُ لإلقاءِ

راكبٍ في البحرِ؛ كيْما ينجوَ الجميعُ، فقال نبيُّ اللهِ يونسُ — عليه السلامُ - فيما روى ابنُ أبي حاتمٍ عن ابنِ مسعودٍ — رضيَ اللهُ عنه - بسندٍ صحيحٍ كما قال ابنُ حجرٍ : "إِنَّ مَعَهُمْ عَبْدًا آبِقًا مِنْ رَبِّهِ (أي: هاربٌ)، وَإِنَّهَا لَا تَسِيرُ حَتَّى تُلْقُوهُ، فَقَالُوا: لَا نُلْقِيكَ - يَا نَبِيَّ اللهِ — أَبَدًا. قَالَ: فَاقْتَرِعُوا؛ فَخَرَجَ عَلَيْهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ؛ فَأَلْقَوْهُ؛ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ، فَبَلَغَ بِهِ قَرَارَ الْأَرْضِ، فَسَمِعَ تَسْبِيحَ الْحَصَى، فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ: أَن لَا إِلَه إِلَّا أَنْت، سبحانك؛ إِنِّي كنتُ من الظالمِينَ". فكان إلقاؤه — عليه الصلاةُ والسلامُ — في البحرِ طريقَ نجاةِ أهلِ المركبِ، كما كانَ طريقَ نجاةِ يونسَ — عليه السلامُ — من ملامةِ اللهِ — سبحانَه -له. وحين أُلْقِي في سدفةِ البحرِ اللُّجيِّ كانت عنايةُ اللهِ تحفُّه؛ إذِ التقمَه حوتٌ ضخمٌ دونَ كسرِ عظمٍ أو تمزيقِ لحمٍ، عندها أدركَ خطأَ ظنِّه، كما قالَ تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ أي: أن لن يُضيَّق عليه بأكثر ممّا وقعَ له من تكذيبِ قومِه، وليس المرادُ نفيَ قدرةِ اللهِ. وحين أحاطَه الكربُ، وتغشّاه خطبُه، نادى ربَّه بلسانِ الحالِ والمقالِ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. دعاءَ مضْطَّرٍ، محبوسٍ في جوفِ حوتٍ، تطيفُه ظلُماتٍ ثلاثٍ: ظلمةِ البحرِ والليلِ والحوتِ؛ فما كانَ حالُ هذه الدعوةِ؟ روى أنسٌ — رضيَ اللهُ عنه — عن رسولِ اللهِ ﷺ: "أَنَّ يُونُسَ النَّبِيَّ -عَلَيْهِ السَّلَامُ - حِينَ بَدَا لَهُ أَنْ يَدْعُوَ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ، قَالَ: "اللَّهُمَّ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، سُبْحَانَكَ، إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ". فَأَقْبَلَتْ هَذِهِ الدَّعْوَةُ تَحُفُّ بِالْعَرْشِ، فَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبِّ، صَوْتٌ ضَعِيفٌ مَعْرُوفٌ مِنْ بِلَادٍ غَرِيبَةٍ؟ فَقَالَ: أَمَا تَعْرِفُونَ ذَاكَ ؟ قَالُوا: لَا يَا رَبِّ، وَمَنْ هُوَ؟ قَالَ: عَبْدِي

يُونُسُ، قَالُوا: عَبْدُكَ يُونُسُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ يُرفَع لَهُ عَمَلٌ مُتَقَبَّلٌ، وَدَعْوَةٌ مُجَابَةٌ؟! قَالَ: نَعَمْ، قَالُوا: يَا رَبِّ، أَوَلا تَرْحَمُ مَا كَانَ يَصْنَعُ فِي الرَّخَاءِ؛ فتنجيَه مِنَ الْبَلَاءِ؟ قَالَ: بَلَى. فَأَمَرَ الْحُوتَ فَطَرَحَهُ فِي الْعَرَاءِ" رواه ابنُ أبي حاتمٍ بإسنادٍ يتقوّى بغيرِه كما قال ابنُ كثيرٍ. هكذا تصنعُ صالحاتُ الرخاءِ في مواطنِ الشدّةِ! ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾. وما زالتْ عنايةُ اللهِ تحفُّ نبيَّه يونسَ — عليه السلامُ -؛ إذْ طرحَه الحوتُ في عراءٍ قَفرٍ من الأشجارِ، وجسدُه مُنهَكٌ كهيئةِ الفرخِ الذي ليسَ عليه ريشٌ، كما قال ابنُ مسعودٍ — رضيَ اللهُ عنه -؛ فأنبتَ اللهُ له اليَقْطِينَ؛ وهو شجرةُ القرعِ التي تمتازُ بسرعةِ الإنباتِ، وجوْدةِ غذاءِ الثمرِ إنْ أُكلَ نيِّئًا أو مطبوخًا بلبِّه وقشرِه، وتظْليلِ ورقِه، ونعومتِه، وعدمِ قُربانِ الذبابِ لها — كما قال العلماءُ -، واستمرّ ذلكَ العطاءُ حتى غادرَ محلَّه.

وأنتَ بفضلٍ منكَ نجَّيتَ يونُسا — وقد باتَ في أضْعافِ حوتٍ لياليَا
فأنبتَّ يقطينًا عليه برحمةٍ — من اللهِ لولا اللهُ أصبحَ ضَاوِيا

وتوالَى غَدقُ الفيضِ الإلهيِّ على نبيِّه يونسَ — عليه السلامُ — بعد هذا البلاءِ؛ فتابَ عليهِ، واجتَباه، وجعلَه من الصالحينَ، وأرْجعَه اللهُ مسروراً إلى قومِه المؤمنينَ بعد أنْ تركَهم مُغاضِبًا مُشركِينَ؛ فدخلُوا جميعًا دينَ اللهِ الذي ارتضَاه لهم، وكانَ عددُهم يزيدُ على المِائَةِ ألفٍ؛ فكانت أمّتُه هي الأمّةُ الوحيدةُ التي آمنتْ قاطِبةً بنبيِّها، كما أنّها هي الأمةُ الوحيدةُ التي نجتْ من عذابِ اللهِ

بعد تحقُّقِه. أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرَّجيمِ: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾
إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ
ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ
إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً
مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ
إِلَىٰ حِينٍ﴾.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.

وبعدُ، فاعلمُوا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

في نبأِ يونسَ – عليه السلامُ – بشارةٌ لكلِّ مؤمنٍ مكروبٍ بالنجاءِ، ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فالإيمانُ عُدّةُ الشِّدَّةِ، وسبيلُ فرَجِها، ودنوُّ الفرجِ مقرونٌ بما حقّقَه المرْءُ من إيمانٍ . ومِن أرسَى دعائمِ الإيمانِ الذي يكونُ به الفرَجُ عملُ الصالحاتِ حالَ الرخاءِ، ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، ويقولُ النبيُّ ﷺ: "تعرّفْ إلى اللهِ في الرّخاءِ يعرفْكَ في الشِّدَّةِ" رواه الحاكمُ وصحّحَه على شرطِ الشَّيْخيْنِ. وأعظمُ تلكَ الصالحاتِ التي بها تتبدّدُ حنادِسُ الكُربِ عبادةُ الصلاةِ والدعاءِ، وهي ما نوّهَ اللهُ بذكرِها في خبرِ يونسَ – عليه السلامُ –؛ فقد فسّر ابنُ عباسٍ – رضيَ اللهُ عنهما – قولَه تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ بالصلاةِ حتى وهو في بطنِ الحوتِ، وقال ابنُ كثيرٍ: "وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ دُعَائِهِ: "يَا رَبِّ، اتخذتُ لَكَ مَسْجِدًا فِي مَوْضِعٍ لَمْ يَبْلُغْهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ"". وأمّا الدعاءُ؛ فحسْبُكُم أنّ الفرجَ قرينُ دعوةِ يونسَ – عليه السلامُ – وهو في بطنِ الحوتِ، بل هو سببٌ لاستجابةِ الدعاءِ بعامّةٍ، يقولُ النبيُّ ﷺ: "دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا

أَنْتَ، سُبْحَانَكَ، إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ" رواه الترمذيُّ وصحّحه الحاكمُ، سيّما إنِ استصحبَ الداعي بها حالَ الكَرْبِ، وأيقنَ بقربِ الربِّ وعلمِه، كما أيقنَ يونسُ — عليه السلامُ — بذلكَ والحوتُ يجوبُ به عمقَ البحارِ.

عباد الله!

وللدُّعاةِ عزاءٌ في خبرِ يونسَ — عليه السلامُ -؛ فلا يحملنّهم صدودُ الناسِ، وصدِّهم، وإعراضِهم على الضِّيقِ واليأسِ وتركِ الدَّعوةِ أو التَّخلِّي عن ثوابتِها؛ فربَّما كانتْ لحظةُ الاستجابةِ لحظةَ التركِ أو بعدَه، كما وقعَ ليونسَ — عليه السلامُ — مع قومِه. فنتائجُ الدعوةِ ليس إلى أهلِها، بل أمرُها إلى اللهِ، وليس على الدَّاعيةِ إلا البلاغُ المُبينُ.

القيمُ في خبرِ صاحبِ الجنتيْنِ

إنّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومَن يضللْ فلا هاديَ له،وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ...﴾.

أيّها المؤمنونَ!

القيمُ قضيّةُ منهجٍ ومصيرٍ، كلٌ يَنشدُها، وما كلٌ يُوفَّقُ لها. تفاوتتْ فيها النّظَراتُ، واختلفتْ فيها الرغباتُ، مَن طلبَها بهدايةِ المَوْلَى حازَها، ومن تنكَّبَ طريقَها فاتتْه وكان ما حصّلَه نقيضَ ما طلبَه. هذا، وقد أبانَ المَوْلى — جلّ وعلا — هذه القضيّةَ في خبرِ صاحبِ الجنّتيْنِ وصاحبِه؛ بيانًا لحقيقةِ القيمِ وزيْفِها، وأثرِهما على أصحابِهما، وعاقبةِ كلٍّ منهما. فقد أفاضَ اللهُ — سبحانَه — على أحدِهما ثراءً ماليًا تملّكَ به بستانينَ فيهما من أنواعِ الأشجارِ أجودُها؛ فأشجارُ العنبِ المختلفةِ وسطُها، والنخيلُ المتعدِّدُ محيطٌ بجَنَباتِها، وأصنافُ الزروعِ بينَهما، فحصلَ فيها من حُسْنِ المنظرِ وبهائِه ما يأخذُ باللُّبِّ ويُبهِجُ العينَ، وقد اجتمعَ مع روْعةِ المنظرِ جودةُ المظهرِ؛ فكان عطاؤها المثمرُ متضاعفًا، والماءُ العذبُ فيّاضٌ فيها؛ فلم ينقُصْها شيءٌ. وفي هذا المنظرِ المُبهِجِ والعطاءِ الغَدقِ اجتمعَ مالكُ الجنّتيْنِ بصاحبٍ له، ودار بينهما

حوارٌ ينمّ عن القيمِ التي وقرتْ نفسيْهما، وكانت قيمُ صاحبِ الجنّتيْنِ أرضيّةٌ لم تتجاوزِ المالَ والعَشيرَةِ، فقال لصاحبِه: أنا أكثرُ منكَ مالاً وأعزُّ نفراً، وذلك جهلٌ منه، وإلا، فأيُّ افتخارٍ بأمرٍ خارجيٍّ ليس فيه فضيلةٌ نفسيّةٌ، ولا صفةٌ معنويّةٌ، وإنّما هو بمنزلِه فخْرِ الصبيِّ بالأماني، التي لا حقائقَ تحتها؟! ثم لم يكفِه هذا الافتخارُ على صاحبِه، حتى حكمَ بجهلِه وظلمِه حين تملّكتِ الدُّنيا قلبَه واطمأنَّ بها وطُمستْ بصيرتَه؛ فظنّ مالَه باقياً سرمدياً وأنّ بساتينَه لا تفنَى ولا تَبيدُ، بل تمادَى في غَيِّه الغايةَ فأنكرَ القيامةَ إذْ حُجُبُ الدُّنيا المُسْتحْكمةُ أَنْسَتْه الرجوعَ إلى مَوْلاه، بل تعدّى في غيّه الغايةَ حين جعلَ قيامَ السّاعةِ احتمالاً إنْ وُجدَ فله فيها خيرٌ ممّا حصلَ له في الدُّنيا، ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾، وهذا لا يخْلو من أمريْنِ: إمّا أنْ يكونَ عالماً بحقيقةِ الحالِ، فيكونَ كلامُه هذا على وجهِ التهكُّمِ والاستهزاءِ؛ فيكونَ زيادةَ كفرٍ إلى كفرِه، وإمّا أنْ يكونَ هذا ظنَّه في الحقيقةِ؛ فيكونَ من أجهلِ الناسِ، وأبخسِهم حظّاً من العقلِ، فأيُّ تلازُمٍ بينَ عطاءِ الدّنيا وعطاءِ الآخرةِ، حتى يظنَّ بجهلِه أنّ مَن أُعطِيَ في الدّنيا أُعطِيَ في الآخرةِ؟! بل الغالبُ: أنّ اللهَ تعالى يَزْوي الدّنيا عن أوْليائِه وأصْفيائِه، ويوسِّعُها على أعدائِه الذينَ ليس لهم في الآخرةِ نصيبٌ. والظاهرُ أنّه يعلمُ حقيقةَ الحالِ، ولكنّه قال هذا الكلامَ على وجهِ التّهكُّمِ والاستهزاءِ، بدليلِ قولِه: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾؛ فإثباتُ ظلمِه دالٌّ على تمرُّدِه وعِنادِه. إنّه الغرورُ، يُخيِّلُ لذَوِي الجَاهِ والسلطانِ والمتاعِ والثَّراءِ: أنّ القيمَ التي يعامِلُهم بها أهلُ هذه الدّنيا الفانيةِ تظلُّ محفوظةً لهم حتى في الملأِ الأعْلَى!

أيّها المسلمونَ!

لمّا سمعَ المؤمنُ منطقَ الكفرِ الذي فاهَ به صاحبُه واجَهَهُ بالحقيقةِ دونَ غَبشٍ أو مُوارَبةٍ(١) قائلًا: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ۝٣٧ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ۝٣٨ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝٣٩ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۝٤٠ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾، هكذا تنتفِضُ قيمةُ الإيمانِ وعزَّتُه في النفسِ المؤمنةِ، فلا تُبالِي المالَ والنَّفَرَ ولا تُدارِي الغِنى والبَطَرَ، ولا تتلعْثَمُ في الحقِّ، ولا تجامِلُ فيه الأصحابَ. وهكذا يستشْعرُ المؤمنُ أنّه عزيزٌ أمام الجاهِ والمالِ، وأنّ ما عند اللهِ خيرٌ من أعراضِ الحياةِ، وأنّ فضلَ اللهِ عظيمٌ وهو طامعٌ في فضْلِه، وأنّ نِقْمةَ اللهِ جبّارةٌ وَشيكَةٌ أنْ تُصيبَ الغافلينَ المتبطِّرينَ. فذكّرَ المؤمنُ صاحبَه الكافرَ مراحلَ نشأتِه وتسويَتِه وعاقبةَ أمرِه وما آلَتْ به قيمُه الأرضيةُ الزائفةُ. أمّا هذا المؤمنُ فموحدٌ للهِ؛ يعبدُه، ويكفرُ بما عداه. هذه قيمتُه: التوحيدُ والإيمانُ، قالها مخبراً عن نفسِه، على وجهِ الشُّكرِ لربِّه، والإعلانِ بدينِه، عند وُرودِ المجادلاتِ والشُّبهِ، تلك القيمةُ التي تُملِي عليه رحمةَ الخلقِ بالتَّوجيهِ والدعوةِ، فأرشدَ صاحبَه إلى سببٍ يحفظُ اللهُ به نعمتَه، ويعيذُه من تحوُّلِها نقمةً عليه؛ حين يَنسِبُ الفضلَ لمَن أسْدى إليه الفضلَ سبحانَه، وذلك بقولِ

(١) الموارِبة: المكاتمة والمخادعة. ينظر: جمهرة اللغة (١/ ٣٣١).

يكـررُه ويعتقـدُ معنـاه كلّمـا دخـلَ بُسـتانَه: ﴿مَـا شَـآءَ ٱللَّهُ لَا قُـوَّةَ إِلَّا بِـٱللَّهِ﴾؛ فالأمـرُ أمـرُه، والقُـدْرةُ قدرتُـه؛ مـا شـاءَ كانَ ومـا لـمْ يشـأْ لـم يكـنْ، وأنّـه لا قـدرةَ ولا قـوةَ علـى الحفـظِ إلا مِـن القديـرِ الحفيـظِ — جـلّ وعـلا -. قيمـةُ الإيمـانِ التـي لا يَضيـرُ معهـا قلـةُ المـالِ والولـدِ أو انعدامُهمـا؛ فهـي الباقيـةُ ومـا عداهـا زائـلٌ آفِـلٌ، ومـا عنـد اللهِ خيـرٌ وأبْقَـى للذيـنَ آمَنـوا وعلـى ربِّهـم يتوكَّلـونَ، وذلـك مـا سـأل المؤمـنُ ربَّـه ورجـاهُ منـه . والإيمـانُ أكـبرُ حامـلٍ علـى حُسـنِ الظـنِّ بـاللهِ. وكمـا سـأَلَ ربَّـه أنْ يُؤتيَـه خيـراً ممـا ابْتلَـى بـه صاحبَـه سـألَه أن يُذهـبَ عـن صاحبِـه السـببَ الـذي أطغـاه وجـرّأَه علـى مـوْلاهُ؛ فيرسـلَ علـى جنَّتَيْـه عذابـًا مـن السـماءِ لا يسـتطيعُ دفْعَـه ولا رفْعَـه يصيّـرُ تلـكَ الجنّتَيْـن النَّضِرتَيْـنِ أرضـًا جَـرْدَاءَ مَلْسَـاءَ لا نبـتَ فيهـا تَزْلـقُ فِيهَـا الْأَقْـدَامُ وتعافُهـا المُقَـلُ، أو يُبيدُهـا بإذهـابِ مادَّتِهـا وهـي المـاءُ؛ فيكـونُ ماؤهـا غَائـِرًا مُنْقَطِعًـا ذَاهِبًـا في باطـنِ الأرضِ لَا تَنَالُـهُ الْأَيْـدِي ولا الـدّلاءِ ولا المَعَاولِ،فيكـونُ في حكـمِ المفقـودِ مع وجـودِه؛ إذْ لايمكـنُ طلبُـه. وإنّما دعـا علـى جنـةِ صاحبِـه؛ غضَبـًا لربِّـه؛ لكونِهـا غرّتْـه وأطْغتْـه، واطْمـأنّ إليهـا؛ علّـه يُنيـبُ، ويراجـعُ رُشـدَه، ويُبصـرُ في أمـرِه، وهكـذا يغْـدو المـالُ نِقمـةً علـى صاحبِـه إنْ كان سـبباً في طُغيانِـه، وسـبباً يُبيـحُ دعـاءَ الغيـرِ عليـهِ بالإزهـاقِ، خاصّـةً إنْ تجبَّـرَ بـه علـى المؤمنيـنَ، أو كانَ سـبباً في إضلالِهـم.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ، وعلى آلِه وصحبِه ومَن اهْتدَى بهُداه.

وبعدُ، فاعلمُوا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ ...

عبادَ اللهِ!

ومع تذكيرِ المؤمنِ صاحبَه وتخويفِه إيّاه بشؤمِ عاقبةِ فعلِه ودعائِه عليه بهذا الدعاءِ الذي تنخلعُ منه الأفئدةُ، إلا أنّ الرّانَ مستحكِمٌ على قلبِ ذلكَ المغرورِ؛ فلم تُجدِ فيه المواعظُ والقوارعُ، وظلَّ سادراً في غيِّه وظلمِه. وفجأةً ينقلُنا السِّياقُ القرآنيُّ من مَشهدِ النَّماءِ والازدهارِ إلى مشهدِ الدّمارِ. والبَوارِ ومن هيئةِ البَطَرِ والاستكبارِ إلى هيئةِ الندمِ والاستغفارِ. فلقد كانَ ما توقّعَه الرجلُ المؤمنُ أو دعا به؛ فقد حلَّ البلاءُ بساحِ المغرورِ، وأنزلَ الجبّارُ عذابَه المحيطَ على جنّتَيْه؛ فلم يَبقَ فيها إلا الخَواءُ واليَبَابُ؛ فأصبحَ يُصفِّقُ بيديْه الواحدةِ عَلَى الْأُخرَى وَيُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ظَهْرًا لِبَطْنٍ تَأَسُّفًا وَتَلَهُّفًا، عَلى مَا أَنْفَقَ فِيها من نفَقاتٍ طائلةٍ غيرَ الُّلغوبِ الذي أضْناه وَهُو يراها خاوِيَةً سَاقِطَةً عَلى عُرُوشِها وسُقُوفِهَا، ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾؛ فمُنِي بالحسرتيْنِ: حسرةِ ذهابِ المالِ وجُثومِ الفقرِ، وحسرةِ الشركِ باللهِ تعالى. ولم تنفعْه وقتَ نزولِ العذابِ قيمتُه التي تاهَ بها رَدحاً من الزمنِ من مالٍ أو عشيرةٍ؛ إذْ لم تنصرْه في وقتٍ هو أشدُّ الأوقاتِ حاجةً إليها حينَ لم يكنْ منتصِراً بنفسِه، ﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾. وفي ساعةِ الجزاءِ تَبينُ

نتيجةُ ولايةِ اللهِ لعبدِه أو عدمِها، ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾، فلا ثوابَ إلا ثوابُه، والعاقبةُ الحميدةُ لازمةٌ لمَن لازَمَ أمرَه.

معشرَ المؤمنينَ!

من وحيِّ نبإِ الجنتيْنِ يظهرُ أثرُ القيَمِ على أصحابِها؛ فالقيمةُ الحقَّةُ تكمنُ في الإيمانِ باللهِ وما حثَّ عليه، وفيضُ تلك القيمةِ غدقٌ في الدّنيا: تواضُعًا، وعزَّةً، وثباتًا على المبادئِ، وحسنَ ظنٍّ باللهِ، ورضىً بنوالِه، والآخرةُ خيرٌ وأبقَى. والقيَمُ الزّائفةُ ما جانبتْ ذلكَ الإيمانَ؛ فأفرزتْ أوْهامًا، وغروراً، وتكَبُّراً ربَّما قاد إلى جُحودِ النِّعمِ والسقوطِ في هُوّةِ الكفرِ السحيقِ التي قد يعسُرُ الخروجُ منها، وكانتْ تلكَ القيمةُ الزائفةُ سببَ الشَّقاءِ والخُذلانِ في الدّنيا، ولَعذابُ الآخرةِ أشقُّ، وما لهم من اللهِ من واقٍ.

عِبرةُ طالوتَ

الحمدُ للهِ ذِي الجبروتِ والسلطانِ، والتوفيقِ والامتنانِ، عظيمِ الشأنِ، واسعِ الإحسانِ، ما لم يشأْ لم يكنْ، وما شاء كانَ، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ الرحيمُ الرحمنُ، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه خيرَ بني الإنسانِ، صلّى اللهُ عليه وعلى آلِه وصحبِه والتابعينَ لهم بإحسانٍ.

أمّا بعدُ، فاتّقوا اللهَ — عبادَ اللهِ -، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ... ﴾.

أيّها المؤمنونَ!

الأيامُ دِولٌ يكرِّرُها التأريخُ، تتناظرُ فيها الصُّورُ، وتتشاكلُ فيها الأحداثُ، ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾. والحَصِيفُ ذو دِرايةٍ بالماضِي؛ ليقيسَ به الحاضرَ، ويَستَشْرفَ به المُستقبلَ.

اقـرؤوا التاريـخَ إذْ فيـه العِبَرُ ضلَّ قومٌ ليس يـدْرونَ الخَبَرَ

وإنّ خيرَ ما تسْتَقرئُ به الأحداثَ وتحلِّلُ به الحوادثَ كتابُ اللهِ الذي لا يأتِيه الباطلُ من بينِ يديْه ولا من خلفِه، تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ؛ فيقفُ المتدبِّرُ عند أخبارِه مُستلْهِماً منها العِبَرَ، ومتلمِّحاً عواقبَ الأحداثِ، فيُحسِنُ التعاملَ معها بمنهجِ الوحي؛ فلا تزِلُّ له قدمٌ، ولا يصيبُه يأسٌ، ولا يخنعُ لعدوٍّ، ثابتُ القلبِ، رابطُ الجأشِ، لا يهونُ ولا يستكِينُ. وإنّ من الأخبارِ التي حَوَاها القرآنُ

نبأَ طالـوتَ وجُنـدِه. وذلـكَ أنّ الظلـمَ مـسّ بَنـي إسـرائيلَ مـن بعـدِ وفـاةِ موسـى عليـه السـلامُ، وذَاقُـوا الهـوانَ؛ فاجتمـعَ رأيُ المـلإ مـن أهـلِ الحَـلِّ والعَقـدِ منهـمُ المنْفَرديـنَ عـادةً بالنّظـرِ في مصالـحِ الأمّـةِ العامّـةِ على اختيـارِ طريـقٍ للخـروجِ مـن أزمـةِ الـذلِّ والاسـتبدادِ التـي مُنُـوا بهـا، فاختـاروا طريـقَ الجهـادِ في سـبيلِ اللهِ بعـدَ أنْ رأوْه الطريـقَ الوحيـدَ في ذلـكَ. ولـم يكـنْ هـذا الاختيـارُ ضربـاً مـن العاطفـةِ، وفـورةً مـن الحمـاس، بـل هـو رأيٌ اختمـرَ في عقـولِ أولئـك المـلأِ، وكان ثمـرةَ الشـورى بينهـم؛ حتى غـدا الـرأيَ الجماعيَّ لأهـلِ الحَـلِّ والعَقـدِ، فصـاروا لنبيٍّ لهـم طالِبيـنَ منـه تعييـنَ القائـدِ الـذي ينـازلُ بهـم العـدوَّ الجاثـمَ علـى بلادِهـم المُسْـتوليَ علـى أموالِهـم المُفـرِّقَ بينهـم وبيـن ديارِهـم وأبنائِهـم؛ فيُجمـعُ بذلـك القائـدِ الشَّـعثُ، ويُوحَـدُ الصـفُّ، ولا تتفـرقُ بـه الآراءُ؛ إذِ الجهـادُ لا بُـدّ فيـه مـن قيـادةٍ مُوحّـدةٍ؛ لخطـورةِ افـتراقِ الآراءِ فيـه، فالمُنازَعـةُ طريـقُ الفشـلِ، ﴿وَلَا تَنَٰزَعُـواْ فَتَفۡشَـلُواْ وَتَذۡهَـبَ رِيحُكُـمۡۖ﴾.

معشرَ المؤمنينَ!

لمـا طلـبَ أولئـكَ المـلأُ ذلـكَ مـن نبيِّهـم سـألَهم مُتحقّقـاً عـن مـدى اسـتعدادِهم لهـذا التكليـفِ، فقـال ﴿هَـلۡ عَسَـيۡتُمۡ إِن كُتِـبَ عَلَيۡكُـمُ ٱلۡقِتَـالُ أَلَّا تُقَٰتِلُـواْۖ﴾، فعـرَضَ عليهـم العافيـةَ فلـم يقْبلُوهـا، واعتمَـدُوا علـى عزمِهـم، فقالـوا: مـا يحُـولُ بيننـا وبيـنَ الجهـادِ وقـد طُرِدْنـا مـن ديارِنـا وسُـبيتْ ذُريّاتُنـا، فلـو لـم يُفـرَضْ علينـا لـكانَ هـذا الطّـردُ عُـذْراً لنـا ، فكيـف إذا كانَ فرضـاً مـن اللهِ؟! وإنّمـا كانَ سـؤالُ نبيِّهـم لهـم؛ لعلمِـه أنّ شَـأْنَ الْأُمَـمِ الْمُتَنَعِّمَـةِ الْمَائِلَـةِ إِلَـى الدَّعَـةِ تمنّـي الْحَـرْبِ

أَوْقَاتَ الْأَنَفَةِ والحماس فَإِذَا حَضَرَتِ الْحَرْبُ كَعَّتْ وَانْقَادَتْ لِطَبْعِهَا، فالعِبرةُ بعواقبِ الأمورِ لا ببريقِ بَدئِها. وقد وقعَ ما ظنَّه ذلكَ النبيُّ، فحينَ افتُرِضَ الجهادُ عليهم نكَصَ أكثرُهم وجَبُنوا عن مُلاقاةِ العدوِّ. وهذه عادةٌ غالبةٌ على بني إسرائيلَ: نقضٌ للعهودِ، ونكوصٌ عن التكاليفِ، وتفرُّقٌ للكلمةِ، بل هي سمةٌ لبني البشرِ لا يغيِّرُها إلا التربيةُ الإسلاميةُ الجادّةُ. ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۚ﴾، محكٌّ تساقطَ فيه الأكثرُ، ولم يبقَ إلا القليلُ.

عبادَ اللهِ!

ثم أخبرَهم نبيُّهم أنّ اللهَ قد اختارَ منهم رجلاً فقيراً لم يكنْ من البيتِ الذي توارثَ أهلُه المُلكَ،واسمُه طالوتُ؛ ليكونَ الملِكَ عليهم والقائدَ لهم؛ فكان اختيارُه محكّاً آخرَ لتصفيةِ المُجاهدينَ؛ فتساقطَ به المُعترضُون على اصطفاءِ اللهِ وقدرِه حينَ قالوا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ﴾، هذه معاييرُ القيادةِ عندهم: التعصُّبُ الجاهليُّ، والثَّراءُ الماليُّ! فأبتْ نفوسُهم الانقيادَ للأمرِ الشرعيِّ، وكيف يُنصرُ مثلُ هذا؟!

أيّها الإخوةُ!

سعى نبيُّهم في تصحيحِ نظرةِ أولئكَ، وبيّن أنّ اصطفاءَ اللهِ طالوتَ في قيادةِ الموقفِ بما حباهُ به من صفاتٍ تظهرُ بها معادنُ الرجالِ وحِنْكتُهم في موطنِ القوةِ والبأسِ واتّخاذِ الرأيِّ الصائبِ بأسرعِ وقتٍ، فكانَ التفوُّقُ في القوةِ والعلمِ هو معيارُ الاختيارِ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ﴾؛ إذْ كيف يقودُ الجيشَ مَن اهترأ رأيُه، وضعُفتْ قوّتُه؛ فسكنتْ

نفوسُهم بهذا الإقناعِ العقليِّ الشرعيِّ، وازدادتْ سكينتُهم بأحقيّةِ طالوتَ بالقيادةِ حينَ رأوْا آيةً حسيّةً ظهرتْ بها بركةُ قيادتِه، وهي رجوعُ التابوتِ إثرَ ولايتِه المُلكَ بعد أنْ فقدُوه، فجاءتْ به الملائكةُ تحملُه بينَ السماءِ والأرضِ وهم ينظُرونَ إليه، وكانَ في هذا التّابوتِ السكينةُ والطُّمأنينةُ لهم حين رأوْه، وفيه بقيّةٌ من تركةِ آلِ نبيِّيْهم موسى وهارونَ عليهما السلامُ، عندها انقادُوا لطالوتَ، فسارَ بهم جيشًا لمُنازَلَةِ العدوِّ، ولمّا يزلِ التمحيصُ فيهم، فمرُّوا بنهرٍ، فقام طالوتُ فيهم قائلاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ﴾، امتحانٌ في الإرادةِ والصبرِ؛ إذْ كيف يصبرُ على الجهادِ مَن لم يصبرْ عن الشّرابِ ساعةً؟! والمتأمّلُ للابتلاءاتِ الثلاثِ السابقةِ يجدُها دائرةً مع النفسِ ولمّا يحنْ لقاءُ العدوِّ بعدُ. وفي ذلكَ دلالةٌ على أهميّةِ الانتصارِ على النفسِ، وأنّ المهزومَ مَن هزمتْه نفسُه فقيّدتْه بالذنبِ والدّعةِ والشّهوةِ وحظوظِها الدَّنيئةِ، كما قال رسولُ اللهِ ﷺ: «المُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ» رواه الترمذيُّ وقال: حسنٌ صحيحٌ. فظهرَ بامتحانِ الشُّربِ طاعةُ مَن تركَه، وأنّ طاعتَه فيما عَداه تُرتَجَى، وبَانَ عصيانُ الشَّاربِ الذي غلبتْه نفسُه، وأنّه حالَ الشدائدِ أكثرُ عصيانًا.

معشرَ الأحبةِ!

لمّا مرّ القليلُ من الذينَ ثَبتُوا بعد امتحانِ فرْضِ القتالِ بالنهرِ انهزمَ كثيرٌ منهم بامتحانِ الشُّربِ، فضَعُفتْ إرادتُهم وسقطَ أكثرُ هذا القليلِ، ﴿فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ﴾، ولم يتجاوزْ ذلكَ النهرَ إلا قليلٌ من قليلٍ من قليلٍ،

فكان عددُهم بِضعةَ عشرَ وثلاثَمِائةِ رجلٍ خلاصةُ مَن صقلَهم البلاءُ ومحّصتْهم الأحداثُ حينَ انتصَروا على نفوسِهم بامتثالِ أمرِ اللهِ ونهيِه، وذلكَ عِدَةُ المؤمنينَ في غَزاةِ بدرٍ، يقولُ البراءُ بنُ عازبٍ رضيَ اللهُ عنه: "كُنَّا نَتَحَدَّثُ: أَنَّ أَصْحَابَ بَدْرٍ ثَلاَثُ مِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ، بِعِدَّةِ أَصْحَابِ طَالُوتَ، الَّذِينَ جَاوَزُوا مَعَهُ النَّهَرَ، وَمَا جَاوَزَ مَعَهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ" رواه البخاريُّ.

عبادَ اللهِ!

وما زالَ البلاءُ بأولئكَ المؤمنينَ حتى برَزُوا لعدوِّهم جالوتَ وجنودِه، فرأَوْا قلةَ عددِهم وعُدَّتِهم وكثرتَها لدى عدوِّهم فقالوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ﴾، وما فتكَ بالجيوشِ شيءٌ أشدَّ من انهيارِ المعنوياتِ، وذلك من أصعبِ مواطنِ البلاءِ، فتفاوُتُ القُوَى ابتلاءٌ لا يصمدُ أمامَه إلا أهلُ الإيمانِ، عندها انبَرى أهلُ العلمِ قائمينَ بواجبِهم الذي لا ينحصرُ في الفَتْوى، فطَفِقوا يثبِّتون قلوبَ المؤمنينَ ويعلِّقونَها باللهِ، وذلكَ من أعظمِ ما يحتاجُه الناسُ وقتَ الأزماتِ واشتدادُ البلاءِ، كما قال اللهُ عنهم: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، فلستُم أوَّلَ هذه الفئاتِ ولا آخرَها، ما أنتم إلا حلقةٌ من هذه السلسلةِ المُباركةِ التي تلتوي على عنقِ العدوِّ؛ لتخنقَه وتُريحَ الكونَ منه.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ حقَّ حمدِه، والصلاةُ والسلامُ على رسولِه وعبدِه، وبعدُ:
فاعلمُوا...

أيّها المؤمنونَ!

وبعدَ النَّجاحاتِ المُتواليةِ في الابتلاءاتِ المتتاليةِ لهذه الكَوْكَبةِ المُختارةِ من المُجاهدينَ الأشاوسِ الذينَ تأهّلوا من خلالِها لِمُنازلةِ العدوِّ وصاروا أهلاً لتنزُّلِ نصرِ اللهِ عليهم ـ برزوا لجالوتَ وجنودِه، فاستَنْصَروا بخيرِ الناصرينَ، مُتخلِّصينَ من موانعِ تنزُّلِ نصرِه، آخذينَ بأسبابِ النصرِ، ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، تضرَّعوا إلى اللهِ سبحانَه حينَ علمُوا أنّ النصرَ منه وحدَه، ومَن طلبَه مِن غيرِه خُذِلَ به؛ فالقوةُ والعُدَّةُ والعَددُ والدّرايةُ أسبابٌ وبشائرُ لكنّ النصرَ من اللهِ وحدَه،﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. هكذا تربَّى طالوتُ وجنودُه، فطلَبُوا من اللهِ النُّصرةَ، ومَن ذا الذي دعاهُ ورجاهُ محسناً وخذلَه؟! تأمّلوا دعَواتِهم:﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾، فالنصرُ قرينُ الصبرِ كما قالَ النبيُّ ﷺ: "واعلمْ أنّ النصرَ مع الصبرِ" رواه أحمدُ وله طُرقٌ، ﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾، تعلُّقٌ باللهِ وتبرُّؤٌ من الحوْلِ وطلَبٌ للثّباتِ، كما كان النبيُّ ﷺ يفعلُ، يقولُ أنسُ بنُ مالكٍ رضيَ اللهُ عنه: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إذا غَزَا قَالَ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ عَضُدِي

وَنَصِيرِي، بِكَ أَحُولُ، وَبِكَ أَصُولُ، وَبِكَ أُقَاتِل". رواه أبو داودَ وصحّحَه الحاكمُ ووافقَه الذهبيُّ، ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، فالنصرُ على الكافرينَ جاء في آخرِ الدعاءِ؛ لأنّ ما قبلَه سببٌ لحصولِه وتأهيلٌ له؛ فاستجابَ اللهُ دعاءَهم، ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فأنزلَ عليهم نصرَه، وقتلَ داودُ عدوَّهم جالوتَ، وأعطاهُ المُلْكَ والنبوّةَ، فعادتِ الدارُ لأهلِها واسْتوْطَنُوها آمنينَ مطمئنّينَ، وطهّروها مِن رِجْسِ العدوِّ النَّجِسِ، وذلكَ ثمرةٌ من ثمارِ المُدافعةِ والجهادِ في سبيلِ اللهِ، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

في ظلالِ الهجرةِ

إنّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، من يهدِه اللهُ فلا مضلّ له، ومن يضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ...﴾.

أيّها المؤمنونَ!

في سيرةِ النبيِّ ﷺ عظةٌ وعِبْرةٌ وسلوةٌ؛ وذلكَ أنّها تجسيدٌ دقيقٌ مطّردٌ للاسْتِقامةِ على دينِ اللهِ — تعالى — كما أمرَ مع تقلّبِ ظروفِ الحياةِ والنفسِ والمجتمعِ؛ حزناً وفرحاً، وقوّةً وضعفاً، وأمناً وخوفاً، وإقبالاً وإدباراً. ومن محطّاتِ السِّيرةِ النّبويَّةِ ذاتِ الأثرِ الجليلِ في مسيرةِ الدعوةِ، وانتقالِها من الضَّعفِ والاستتارِ إلى القوةِ والجَهارِ، وبناءِ الدّولةِ والرجالِ - حادثةُ الهجرةِ؛ وذلكَ حين شرِقَ كفّارُ مكةَ بنورِ الدعوةِ المحمّديّةِ، وناصَبوها العداءَ، واستَطَالوا في أذيَّةِ أهلِها، وتآمَروا بخسَّةٍ على قتلِ نبيِّها — عليه الصلاةُ والسلامُ -؛ فلم تعُدْ مكةُ مكاناً صالحاً لاحتِضَانِ تلكَ الدعوةِ، ولمّا كان علوّ كلمةِ اللهِ، وارتفاعُ عزَّةِ الدينِ تأبيانِ أنْ يبقَى الإسلامُ حبيسَ قُطرٍ لا يُقامُ فيه للإسلامِ ولا لأهلِه وزنٌ وقيمةٌ؛ أَذنَ اللهُ لرسولِه ﷺ بالهجرةِ إلى المدينةِ بعد أنْ توطّدَ الإيمانُ في رُبُوعِها من خلالِ بيعتَيْ العقبةِ، وسِفارةِ مُصعبِ بنِ عُمَيرٍ —

رضيَ اللهُ عنه — الذي بعثَه النبيُّ ﷺ لأهلِ المدينةِ معلّماً ومُربِّياً، وانتقالِ الصَّحابةِ أفواجاً إليها. وكان الإذنُ الإلهيُّ للنبيِّ ﷺ بالهجرةِ عبرَ رؤيا رآها؛ فقال: "رأيتُ في المنامِ أنّي أهاجرُ من مكةَ إلى أرضٍ بها نَخلٌ، فذهب وَهْلي (أي: ظنِّي) إلى أنّها اليَمامةُ أو هجَر، فإذا هي المدينةُ يَثْرِبُ" رواه البخاريُّ ومسلمٌ. فلما جاء الإذنُ بالهجرةِ عمدَ النبيُّ ﷺ إلى بيتِ أبي بكرٍ — رضيَ اللهُ عنه -، تقولُ عائشَةُ — رضيَ اللهُ عنها — كما روى البخاريُّ في صحيحِه -: " فبيْنَما نحنُ يوماً جلوسٌ في بيتِ أبي بكرٍ في نحْرِ الظَّهيرةِ، قال قائلٌ لأبي بكرٍ: هذا رسولُ اللهِ ﷺ متقنّعاً، في ساعةٍ لم يكنْ يأتِينا فيها، فقال أبو بكرٍ: فداءً له أبي وأمِّي، واللهِ ما جاءَ به في هذه الساعةِ إلا أمرٌ، قالتْ: فجاء رسولُ اللهِ ﷺ فاستأذنَ، فأذنَ له فدخلَ، فقالَ النبيُّ ﷺ لأبي بكرٍ: أخرجْ مَن عندكَ»، فقالَ أبو بكرٍ: إنّما هم أهلُكَ، بأبي أنتَ يا رسولَ اللهِ، قال: «فإنِّي قد أُذنَ لي في الخروجِ»، فقال أبو بكرٍ: الصَّحابَةَ بأبي أنت يا رسولَ اللهِ؟ قال رسولُ اللهِ ﷺ: «نعَمْ» قال أبو بكرٍ: فخذْ - بأبي أنتَ يا رسولَ اللهِ - إحدى راحلتَيَّ هاتيْنِ، قال رسولُ اللهِ ﷺ: «بالثَّمنِ». قالت عائشةُ: فجهَّزْناهُما أحثَّ الجِّهازِ، وصنعْنا لهما سُفرةً في جرابٍ، فقطعتْ أسماءُ بنتُ أبي بكرٍ قطعةً من نطاقِها، فربطتْ به على فمِّ الجرابِ، فبذلكَ سُمِّيتْ ذاتَ النِّطاقَيْنِ. قالتْ: ثم لحِقَ رسولُ اللهِ ﷺ وأبو بكرٍ بغارٍ في جبلِ ثَورٍ".

أيّها المسلمونَ!

ومع ثقةِ النبيِّ ﷺ بنصرِ اللهِ له وحفظِه فقد باشرَ الأسبابَ المأمورَ بها؛ وذلكَ

أنَّه قد أعدَّ خُطّةً مُحكَمَةً من حينِ الخروجِ من مكةَ وحتى الوصولِ للمدينةِ. ومن معالمِ تلكَ الخُطّةِ التي أثبتَتْها دَوَاوِينُ السُّنةِ حسنُ انتخابِ الصّاحبِ، وخروجُهما ليلاً من الجهةِ الجنوبيَّةِ الغربيَّةِ لمكةَ؛ تمْويهاً لكفارِ قريشٍ الذينَ اتَّجهتْ أنظارُهم للجهةِ الشماليّةِ باعتبارِ موقعِ المدينةِ، واختفاؤهما في غارِ ثوْرٍ ثلاثةَ أيامٍ؛ ليخفَّ الطلبُ عليهما، واستئجارُهما دليلاً ماهراً خبيراً بمسالكِ الصّحراءِ؛ يأتيهما في الغارِ بعد ثلاثِ ليالٍ؛ ليقودَهما إلى المدينةِ، وتعيينُهما عبدَاللهِ بنَ أبي بكرٍ عيناً لهما في مكةَ؛ يوفّيهما خبرَ أهلِ مكةَ في الغارِ ليلاً بعد أنْ وعاهُ منهم نهاراً، ورَعْيُ مَوْلَى أبي بكرٍ عامرِ بنِ فُهَيرَةَ غنمَ أبي بكرٍ قُربَ الغارِ؛ لتُخفيَ بأقدامِها مواطئَ عبدِاللهِ بنِ أبي بكرٍ، وفي الليلِ يُريحُها في الغارِ؛ ليُطعَمَ النبيُّ ﷺ وأبو بكر من لحمِها ولبنِها.

أيُّها المؤمنونَ!

هُرعتْ قريشٌ بقَضِّها وقَضِيضِها حين علمتْ بمخرَجِ النبيِّ ﷺ باحثةً له؛ بُغيةَ اغتيالِه، ورسولُ اللهِ ﷺ وصاحبُه يعتجِلانِ الخُطَى نحوَ الغارِ؛ يمشي أبو بكرٍ عن يمينِه مرةً، ومرّةً عن شمالِه، ومرةً من أمامِه، ومرةً من خلفِه، فسألَه النبيُّ ﷺ عن ذلكَ، فقال: أذكرُ الرصدَ فأكونَ من أمامِك، وأذكرُ الطلبَ فأكونَ خلفَك، ومرةً عن يمينِك ومرةً عن يسارِك، لا آمنُ عليكَ. فلمّا وصلا الغارَ قال أبو بكرٍ: مكانَك - يا رسولَ اللهِ -؛ حتى أستبرئَ لك الغارَ، فلما اسْتبرَأَهُ كلّه قال: انزلْ — يا رسولَ اللهِ -. فمكثَا فيه حتى وصلَه الأعداءُ الطالبونَ، وطفِقوا يحُومونَ حولَه حتى سمعَ رسولُ اللهِ ﷺ وأبو بكرٍ أصواتَهم، فأشْفقَ أبو بكرٍ

على رسولِ اللهِ ﷺ وقالَ: يا رسولَ اللهِ، لو أنّ أحدَهم نظرَ إلى قدميْه أبصرَنا تحت قدميْه! فقال رسولُ اللهِ ﷺ بِلُغَةِ الواثقِ بربِّه الرّاكنِ إلى قوتِه وحفظِه: "يا أبا بكرٍ، ما ظنُّك باثنيْنِ اللهُ ثالثُهما؟!".

أيُّها المؤمنونَ!

حمى اللهُ نبيَّه ﷺ وصاحبَه من أنْ ينالَ منهم مَرَدَةُ الكفرِ، وخابتْ آمالُهم في الظفْرِ، ومضتْ ليالي الغارِ الثلاثُ العصيبةُ، وإذْ بالدّليلِ يقدُمُ إلى الغارِ براحلتَيْنِ ومعه الراعي ابنُ فُهَيْرَةَ؛ لينطلقَ ركْبُ الأربعةِ الميمونُ ميمّماً صوْبَ المدينةِ من طريقِ السَّاحلِ وعينُ اللهِ ترْعاهُم؛ فلم يعرِضْ لهم في طريقِهم ما يُذعرُهم كما أنّ أحداً لم يعرفْهم، سوى ما كان من سُرَاقَةَ بنِ مالكٍ الذي خرجَ مع وفودِ الكفرِ الباغينَ؛ إذْ أبصرَهم فعرفَهم وانطلقَ مُسْرعاً نحوَهم؛ فقيّضَ اللهُ القديرُ الأرضَ حاميةً لدينِه ورسولِه؛ ليُتمّ نورَه ولو كَرِهَ المشركونَ؛ فدعا عليه النبيُّ ﷺ فارتَطَمتْ به فرسُه وغاصتْ في الأرضِ الجلدِ إلى بطنِها، فقال: إني أُراكما قد دعوْتُما عليَّ، فادعوَا لي؛ فاللهَ لكما أنْ أردَّ عنكُما الطلبَ، فدعا له النبيُّ ﷺ فنجا، فجعلَ لا يلقَى أحداً إلا قالَ: قد كُفيتُكم ما هنا؛ فلا يلقَى أحداً إلا ردّه، وهكذا كانَ أوّلَ النهارِ جاهداً عليهِما، وغدا في آخرِه حارساً لهُما.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.

أيُّها المؤمنونَ!

هكذا مضتْ ساعاتُ الهجرةِ العصيبةِ بترقّبٍ وتربّصٍ والقلوبُ معلّقةٌ باللهِ، والمؤمنونَ في المدينةِ في شوقٍ ينتَظِرونَ مقْدمَ النبيِّ ﷺ؛ فكانُوا يَخرُجُونَ كلَّ يومٍ إلى الحَرَّةِ ينتَظِرونَ مقدَمَه، حتى إذا ما اشتدَّ الحرُّ رجَعوا إلى منازِلِهم! ولا عجبَ في ذلكَ؛ إذْ هو أحبُّ إليهم من أنفسِهم والدّنيا وما حَوتْه. وفي الإثنينِ ثاني عشرَ من ربيعِ الأولِ من العامِ الرابعِ عشرَ للبَعْثَةِ خرجُوا على عادتِهم ثم عادُوا بعد اشتدادِ الحرِّ، وصعدَ يهوديٌّ على أطمّ (حصنٍ مبنيٍّ بحجارةٍ) من آطامِ المدينةِ لبعضِ شأنِه، فرأى النبيَّ ﷺ وأصحابَه؛ فصاحَ بأعلى صوتِه: يا معشرَ العربِ! هذا جدُّكم الذي تنتَظِرونَ، فثارَ المسلمونَ إلى السِّلاحِ، فتلقّوْا رسولَ اللهِ ﷺ بظهرِ الحَرّة، وسُمعتِ الرّجةُ والتكبيرُ في بني عمرِو بنِ عوْفٍ، وكبّرَ المسلمون؛ فرَحـًا بقدومِه، وخرجوا للقائِه؛ فتلقّوْه والبِشرُ مِلءُ وجوهِهم، وحيّوْه بتحيّةِ النبوةِ، وكان مَن لم يرَ الرسولَ ﷺ من قبلُ يحيّي أبا بكرٍ؛ ظنّـًا منه أنّه النبيُّ ﷺ. وعندما اشتدّ الحرُّ قام أبو بكرٍ فأظلّ النبيَّ ﷺ بردائه؛ فعرَفوا النبيَّ ﷺ؛ فأحْدقُوا به مُطيفينَ حولَه، والسكينةُ تغشَاهُ، والوحيُ ينزلُ عليه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾، وصاحَ النِّساءُ والخدّامُ والغِلمانُ: جاء محمدٌ! جاء رسولُ اللهِ!

اللهُ أكبرُ! جاء محمدٌ! وجاوزَ عددُ المُستقْبِلينَ الخَمْسِمِائةِ، وقد صعدَ الرجالُ والنساءُ فوقَ البيوتِ، وتفرّقَ الغِلمانُ في الطُّرُقاتِ يُنادُونَ: يا محمدُ! يا رسولَ اللهِ! يا محمدُ! يا رسولَ اللهِ! حتى قال البَرَاءُ بنُ عازبٍ — وهو شاهدُ عَيَانٍ على الحدثِ -: "ما رأيتُ أهلَ المدينةِ فرِحوا بشيءٍ فرحَهم برسولِ اللهِ ﷺ". وبات الجميعُ يعرضُ ضيافةَ رسولِ اللهِ ﷺ في بيتِه حتى استقرّ به المقامُ في دارِ أبي أيُّوبٍ — رضيَ اللهُ عنه -. جوٌّ إيمانيٌّ مشحونٌ بمشاعرِ الفرَحِ الصادقِ بمقْدَمِ هذا النبيِّ وحِلِّه في دارِهم حينَ عرَفوا منّةَ اللهِ عليهم به؛ إذْ كانَ بأمرِ اللهِ هو المُنقِذُ لهم من شَفَا حُفرةِ النارِ، وضحّى من أجلِهم ومَن وراءَهم بنفسِه، وأذاقَها صنوفَ الألمِ؛ كيْما يبلّغَهم رسالةَ اللهِ الخالدةِ؛ ليَسعدُوا بها في الدّنيا والآخرةِ.

أيّها المسلمونَ!

إنّ استحضارَ الهجرةِ النبويّةِ، وربْطَها بسلسلةِ المحَنِ التي تجرّعَ مرارتَها رسولُ اللهِ ﷺ؛ لأجلِ إبلاغِ دينِ اللهِ للعالمينَ؛ لَمِن أبلغِ أسبابِ معرفةِ قدْرِه، وامتثالِ شَرعِه، والاعتزازِ بسُنّتِه، ونُصرَةِ دينِه، ونشرِ ملّتِه، وجهادِ أعدائِه، والاعتزازِ بتدوينِ الفاروقِ — رضيَ اللهُ عنه - التاريخَ بتلكَ الهجرةِ الخالدةِ والسّيْرِ على سنّتِه الراشِدةِ فيها.

لأتصدقنّ الليلةَ بصدقة

إنّ الحمدَ لله؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومن يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أما بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ... ﴾.

أيّها المؤمنونَ!

صدقةٌ ذاتُ نبأٍ عجيبٍ وعِبرتُها أعجبُ! رامَ صاحبُها بها صرحَ صدقٍ في سماءِ الخير؛ فكان مرادُ اللهِ أعظمَ ممّا أرادَ، وفاق خيرُ اختيارِ اللهِ —سبحانه- خيرَ اختيارِه. حدّثَ النبيُّ ﷺ عن نبأِ تلك الصّدقةِ المباركةِ، فقال: "قال رجلٌ: لأتَصَدَّقَنّ الليلةَ بصدقةٍ، فخرجَ بصدقتِه فوضعَها في يدِ زانيةٍ، فأصبَحوا يتحدثونَ تُصُدِّقَ الليلةَ على زانيَةٍ قال: اللهمَّ لك الحمدُ على زانيةٍ، لأتصدقنَّ بصدقةٍ، فخرج بصدقتِه فوضعها في يدِ غنيٍّ، فأصبحوا يتحدّثونَ: تُصُدِّقَ على غنيٍّ، قال: اللهمَّ لك الحمدُ على غنيٍّ، لأتصدقنّ بصدقةٍ، فخرجَ بصدقتِه فوَضَعَها في يدِ سارقٍ، فأصبحوا يتحدّثون: تُصُدِّقَ على سارقٍ، فقال: اللهمّ لك الحمدُ على زانيةٍ، وعلى غنيٍّ، وعلى سارقٍ، فأُتيَ فقيل له: أمّا صدقتُك فقد قُبِلَتْ، أمّا الزانيةُ فلعلها تستعفُ بها عن زناها، ولعلّ الغنيَّ يعتبرُ فينفقُ ممّا أعطاه اللهُ، ولعلّ السارقَ يستعفُّ بها عن سرقتِه" رواه البخاريُّ ومسلمٌ، واللفظُ لمسلمٍ.

عبادَ الله!

صدقةٌ مجهولةُ المقدارِ عند الخَلقِ، عظيمةُ القدرِ عند الخالقِ، بوَّأتْ صاحبَها مقعدَ الصدقِ؛ فتسامى في ذُرى البِرِّ حين مازَجَها ذلك الصدقُ مذْ أنْ كانت نيّةً جازمةً مؤكَّدةً؛ لا تردُّدَ فيها، وكانت خالصةً وافقتْ مُسمّاها الشرعيَّ ومعناه، وقد اجتهدَ صاحبُها في إخفائها؛ فاختارَ سُدْفَةَ الليلِ زمناً لإخراجِ صدقاتِه المتكررةِ، ولم يفتَّ في عَضُدِ إخلاصِه حديثُ الناسِ إذِ استغربوا وقوعَ تلكَ الصدقاتِ في يدِ مَن عُرفَ بعدمِ استحقاقِها وأظهروا نسبتَهم التقصيرَ إلى ذلك المتصدقِ؛ وما زادَه ذلك إلا لهْجاً بحمدِ اللهِ والثناءِ عليه في كلِّ مرةٍ حين قضَى بوقوعِ الصدقاتِ في يد أولئك؛ لحكمةٍ يعلمُها علاّمُ الغيوبِ، وتسليماً ورضا بقدَرِه؛ إذْ أقدارُه كلُّها جميلةٌ وإنْ بدا في ظاهرِها الألمُ ووقع منها ما يخالفُ مُرادَ العبدِ؛ فاكتفى بعلمِ العليمِ الخبيرِ، وقَصَرَ طمعَه في رضاه حينَ رجَاه قَبولَ صدقتِه، واستصْحبَ الصدقَ في بذلِ الجَهْدِ بُغْيَةَ تمامِ الصدقةِ؛ فتولّى بنفسِه في كلِّ مرةٍ إخراجَها والتماسَ مستحقِّها. وذَلولُ الصدقِ لا يكبو راكبُه؛ إذْ قادَ مركبُ الصدقِ ذلك المتصدقَ إلى منزلِ القَبولِ العليِّ، فأظهرَ اللهُ له قَبولَ صدقاتِه كلِّها في رؤيا حقٍّ؛ وذاك من لُطْفِ اللهِ بعبدِه الصادقِ؛ إذ يجبرُ كسْرَ قلبه بظنِّه طروءَ ما يُنْقِصُ أجرَه مع تمامِ اجتهادِه بما يُسَرِّي عنه حزنَه؛ فقد جاء في روايةِ الطبرانيِّ بعد ذِكْرِ وقوعِ الصّدقاتِ في يدِ أولئك وحديثِ الناسِ: "فساءَه ذلك، فأُتيَ في منامِه، فقيل: إنّ اللهَ -عزّ وجلّ- قد قَبِلَ صدقتَك". وما زال منبعُ بَرَكَةِ الصدقِ يَفيضُ غَدِقاً على ذلكَ المتصدقِ؛ فقد باركَ اللهُ صدقاتِه بعد أنْ

كانت مثارَ استغرابِ الناسِ ومحلَّ لَحاظِهم، فلم يقتصرْ نفعُها على مَن تُصُدِّقَ عليهم، بل عمَّ خيرُها المجتمعَ؛ إذْ كانت نقطةَ تحوُّلِ مساراتِ انحرافٍ طالما اصطَلى المجتمعُ بنارِها؛ حين كان أمنُه مهدَّداً بسارقٍ لا يأمنُ الناسُ على مالهم من بَوَائِقِه، وزانيةٍ أَغْوَتْ غيرَها، وشَقِيَ المجتمعُ بِنَتَنِ فحشائِها، وغنيٍّ شحيحٍ حُرِمَ المجتمعُ برَّه وخيرَه كما حُرِمتْ نفسُه نعيمَ ذلك البرِّ والخيرِ، وصارَ مثلاً يَقتدي به في الشحِّ كلُّ محرومٍ؛ فكأنّما كانت صدقاتُ ذلك البَرِّ الصادقِ رسائلَ تنبيهٍ مِن اللهِ لهم أنِ انْتَهُوا خيراً لكم وصَحِّحُوا مسارَكم؛ فإن مصيرَه مُفْضٍ إلى شَفيرِ الهاويةِ؛ فكانت هدايتُهم مقرونةً بتلك الصدقةِ التي لم يَدُرْ في خَلَدِ ذلك المتصدقِ أن تقعَ في يدِ أمثالِ هؤلاء، فَضْلاً عن أن تكونَ سبباً في هدايتِهم وذوقِ المجتمعِ برَّهم كما شَقِيَ مِن قبلُ بشرِّهم، ولئن وردَ نَقْلُ انتفاعِ السارقِ والزانيةِ والغنيِّ البخيلِ بصيغةِ الترجّي؛ فإن الترجّي في حقِ الله وسنةِ كرمِه حتمٌ ولزومٌ — كما قالَ أهلُ العلمِ -، وقد وردَ في بعضِ طُرُقِ الحديثِ تحقُّقُ تلك الهدايةِ؛ فكفَّ السارقُ، واستعفّتِ الزانيةُ، وسَخَتْ بالنفقةِ يدُ ذلك الغنيِّ البخيلِ، كما جاء في روايةِ الطبرانيِّ: "فأُتِيَ في منامِه فقيل: إنّ اللهَ -عز وجل- قد قَبِلَ صدقتَك، أمّا الزانيةُ فإنّها استعفّتْ بصدقتِك عن الزنا، وأما السارقُ فإنّه استعفَّ بصدقتِك عن السرقةِ، وأما الغنيُّ فإنه اعْتَبَرَ بصدقتِك"، بل عمَّ نفعُ تلك الصدقةِ وبركتُها رُقعةَ الوجودِ إلى قيامِ الساعةِ؛ إذ غَدَتْ بُرهاناً على بَرَكَةِ الصدقِ وإن قلَّ العملُ، ومَدعاةً إلى المبادرةِ الذاتيّةِ بالخيرِ والإيجابيّةِ في العطاءِ وسَخَاوَةِ النفسِ، ودليلاً على ما يؤولُ إليه شُؤمُ فُشُوِّ الفقرِ في المجتمعِ؛ إذْ كثيراً ما يكون خطراً مُهَدِّداً لأرضيّةِ أمْنِ

المجتمعِ واستقرارِه بتَصدُّعاتِ جرائمِ السرقاتِ والفواحشِ والبخلِ عن أداءِ الحقوقِ والانكفاءِ على المصلحةِ الذاتيةِ والأنانيةِ المَقيتةِ والتَّعَامي عن حوائجِ المُعْوِزِين؛ فلا يأمنُ الناسُ على أموالِهم وأعراضِهم وأخلاقِهم، كما أبانتْ تلك الصدقةُ المباركةُ عظيمَ أثرِ الإحسانِ وأهميةَ العملِ الخيريِّ في المجتمعِ ومَسِيسِ الحاجةِ إليه وأنّه أساسُ دعامةٍ في أمنِه واستقرارِه وبنائِه الذي لا يمكنُ قيامُه وبقاؤه إلا بذلك الحنوِّ والإحسانِ، وأن الأثرَ الطيّبَ لذلك لا يقفُ عند المحسِن والمحسَن إليه، ولا يتقيدُ بصورةِ الإحسانِ الأوليّةِ أو الظاهرةِ، بل ربما كان سبباً في فتحِ أبوابٍ من الخيرِ لم يُضْرَبْ لها توقّعٌ مِن حِسابٍ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أمّا بعدُ، فاعلَموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

إنّ صدقَ ذلك المتصدقِ كان هو المشهدَ الماثلَ المستصحَبَ في تفاصيلِ نبأِ صدقته والسرَّ الذي به تقبّلَ اللهُ تلك الصدقةَ وباركَها؛ قصْداً، واجتهاداً، ودلالةً على البرِّ، وبَرَكةَ أثرٍ وتأثيرٍ. إن شجرةَ الصدقِ ذاتُ أساسٍ راسخٍ، سريعًا ما تُخرجُ الثمرَ اليانعَ المباركَ الذي يدومُ ويزدادُ، قال ابنُ القيمِ: "ليس للعبدِ شيءٌ أنفعُ من صِدْقِه ربَّه في جميعِ أموره مع صدقِ العزيمةِ؛ فيصدقُه في عَزْمِه وفي فعلِه، قال -تعالى-: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾، فسعادتُه في صدقِ العزيمةِ وصدقِ الفعلِ؛ فصدقُ العزيمةِ جَمْعُها وجَزْمُها وعدمُ التردّدِ فيها، بل تكونُ عزيمةً لا يشُوبُها تردّدٌ ولا تَلَوّمٌ، فإذا صدقتْ عزيمتُه بقيَ عليه صدقُ الفعلِ؛ وهو استفراغُ الوُسعِ وبذْلُ الجَهْدِ فيه، وأن لا يتخلفَ عنه بشيءٍ من ظاهرِه وباطنِه؛ فعزيمةُ القصدِ تمنعُه من ضعفِ الإرادةِ والهمّةِ، وصِدْقُ الفعلِ يمنعُه من الكسلِ والفتورِ، ومَن صَدَقَ اللهَ في جميعِ أمورِه صنَعَ اللهُ له فوقَ ما يصنعُ لغيرِه. وهذا الصدقُ معنىً يَلْتَئِمُ مِن صحةِ الإخلاصِ وصدقِ التوكُّلِ؛ فأصدقُ الناسِ مَن صحَّ إخلاصُه وتوكلُه".

عبادَ اللهِ!

ذلكُم نبأُ تلكَ الصدقةِ الصادقةِ المباركةِ، وذاكُم شيءٌ من أثرِها؛ فاصدُقوا مع اللهِ ترَوْا منه فَيضًا من الخيرِ فوق ما تتوقّعونَ، ودفْعًا من غوائلِ الشرّ فوقَ ما تحذَرونَ. أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

وإذا الأمورُ تزاوجتْ ... فالصدقُ أكرمُها نَتاجَا
الصّدقُ يَعْقِدُ فوقَ رأسِ ... حليفِه بالصدقِ تاجَا
والصدقُ يَقْدَحُ زندَه ... في كلِّ ناحيةٍ سراجَا

مشهدُ حنانٍ

الحمدُ للهِ البَرِّ الرحيمِ، المَوْلَى الكريمِ، وسعتْ رحمتُه كلَّ شيءٍ وهو السميعُ العليمُ، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له ولا معينَ، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلّى اللهُ عليه وعلى آلِه وصحبِه وسلمَ أزكَى تسليمٍ.

أمّا بعدُ، فاتّقوا اللهَ — عبادَ اللهِ -، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ... ﴾.

أيّها المؤمنونَ!

في يوم من أيامِ المدينةِ النّبويّةِ الخالدةِ، وفي بيتٍ من بيوتاتِ أهلِها، وبيْنا أمٌّ مسكينةٌ أمضّها الجوعُ حينَ لم تجدْ رمَقًا تسدُّ به جوْعتَها ولا جوعةَ طفلتيْها اللتيْنِ تُرى مخاييلُ السغَبةِ على قسَماتِ وجهيْهِما الوضيءِ، فطَفقَتا تناشِدانِ حنانَ أمِّهما بنظراتٍ لا تملكُ الأمُّ معها إلا أنْ تبذلَ رُوحَها لئلّا تردّها حاسرةً كسيرةً؛ يناشِدْنَها بلُغةِ عيونِ الطُّفولةِ البريئةِ حينَ لم يقدرْنَ على التعبيرِ باللسانِ الفصيحِ غذاءً يسكنَّ به ضَوْرَ جوعِهما، فهُرعتِ الأمُّ باحثةً في بيتِها علّها أن تجدَ، ولكنّها لم تجدْ! فما كانَ منها إلا أنْ حملتْ طفلتيْها بذراعَيْها وظنُّها في فرجِ اللهِ حسَنٌ، وخرجتْ تبحثُ عن لقمةٍ تسدّ بها الجوعَ المتراكمَ، تنقّلُ الخُطَى الكليلةَ في أزقّةِ المدينةِ والجسدُ منْهَكٌ والجوعُ مُستعرٌ في الجوْفِ وبينَ الذّراعيْنِ، حتى انتهى بها المسيرُ إلى بيتِ أرحمِ الخَلقِ بالخَلقِ بيتِ محمدٍ ﷺ، ذاكَ النُّزُلُ الذي لا يردّ سائلاً، ولا يخيّبُ راجياً، ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ

رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. طرقتِ البابَ وكلُّها أملٌ ألا ترجعَ كما أتتْ، ولم يكنِ النبيُّ ﷺ حاضراً، ففتحتْ أمُّ المؤمنينَ عائشةُ بنتُ الصديقِ — رضيَ اللهُ عنها وعن أبيها — البابَ وإذ بها ترى الأمَّ الرؤومَ حاملةً طفلتيها وكان الحالُ أكثرَ إبلاغاً من المقالِ، فاستَطْعمتْها الأمُّ بُلْغَةً تُذهِبُ الجَوْعةَ، فما كان من عائشةَ — رضيَ اللهُ عنها — إلا أنْ هُرِعَتْ إلى البيتِ باحثةً عن طعامٍ، وبعد بحثٍ لم تجدْ إلا تمراتٍ ثلاثاً في بيتِ أكرمِ الخَلقِ على ربِّه؛ فجادتْ بها غيرَ آبهةٍ برِخَصِها وقلّتِها؛ لأنّها تتعاملُ مع الغنيِّ الوفيِّ الكريمِ الذي ﴿إِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾. أودعتْ عائشةُ هذه التمَراتِ الثلاثَ كفَّ تلكَ الأمِّ المسكينةِ، فكانت التمَراتُ هذه لتلكَ الأمِّ خيراً من الدُّنيا وما عليها. دفعتِ الأمُّ بتمرةٍ إلى كفِّ الطفلةِ، ودفعتِ التمرةَ الأخرَى للأخرَى، ورفعتِ الثالثةَ لفيها لتأكلَها، لكنّ الجوعَ لم يكنْ ليجعلَها تهنأ بتلكَ التمرةِ؛ إذِ الطفلتانِ أكلَتا تمرتيْهما ومدّتا كفيْهما الصّغيرتيْن إلى الأمِّ يسْتطْعمَانِها تمرتَها التي رفعتْها إلى فِيها؛ فما كان من الأمِّ إلا أنْ أنزلتِ التمْرةَ وشقّتْها نصْفَيْنِ وأعطتْ كلَّ طفلةٍ نصفاً وراحتْ طاويةً صابرةً على مَضَضِ الجوعِ؛ أبى حنانُها أنْ تسْتأثرَ بالتّمرةِ دونَ طفلتَيْها أو تُضارِعَهما فيها، وارتَضتْ ألَمَ الجوعِ فداءً لجوعِ الطّفلتيْنِ؛ إذْ ألَمُهما أشقُّ عليها من ألمِ نفسِها، وذاكَ حالُ الأمِّ الذي لا يُنكَرُ!

هي الأمُّ التي ضمّتْ بَنِيها		إلى أحشائِها ترجُو الثّوابَا

قفلتْ عائدةً تاركةً وراءها قصةً خلّدَها الرُّواةُ وعِبرةً للمدّكرينَ. فقد كان

ذاكَ المشهدُ يجري بتفاصيلِه أمامَ مَرأى أمِّ المؤمنينَ، حتى إذا جاء النبيُّ ﷺ أخبرتْه عائشةُ بالمَشْهدِ المؤثِّر العجيبِ؛ فجاء التعقيبُ النبويُّ لذاكَ المَشْهدِ المؤثِّر بشارةً لتلكَ الأمِّ وأملاً لكلِّ راحمٍ مُؤْثِرٍ إذْ قالَ — كما روى مسلمٌ في صحيحِه -: «إنَّ اللهَ قد أوجبَ لها بها الجنةَ، أو أعتقَها بها من النارِ»، وفي روايةِ أحمدَ: «إنّ اللهَ قد أوجبَ لها بها الجنةَ، وأعتقَها بها من النارِ».

امرأةٌ تحملُ بنتيْنِ ... بيَديْها كالعُصفُورَيْنِ
الجوعُ بدا في طَلْعتِها ... والهمُّ بدا في العيْنينِ
قد جاءتْ بيتَ رسولِ اللهِ ... دقتْ وانتَظرَتْ أنْ تلقَاه
وهو الغائبُ من أينَ تراهُ ... وهي الجَوْعى من يومينْ
فتحتْ عائِشةُ فرأتْها ... والبنْتان على كتفَيْها
ما تملكُه قد أعطتْها ... تمْراً لا يملأُ كفينِ
امرأةٌ جائعةٌ حُرّةٌ ... طعِمُ بنتيْها بمسَّرةٍ
لم يبقَ لها إلا تمرةٌ ... شقتْ تمرتَها نصْفيْنِ
أطْعمتِ التمْرةَ بنتيْها ... لم تأكلْ لم يبقَ لديْها
ومَضَتْ والبشرُ بعينيْها ... تحملُ أحلَى عُصْفوريْنِ
ورسولُ اللهِ وقد عَلِمَ ... بالأمرِ تعجّبَ وابتسمَ
من قلبِ المرأةِ كم رحمَ ... وسما من غيرِ جَناحيْنِ
أخبرَ لمّا سمعَ الخبرا ... أنّ الرحمنَ لها غفرا
والجنةُ موعدُها ثمرا ... من رحمتِها للبنْتيْن

اللهُ أكـبرُ! جنـةٌ عرضُـها السـمواتُ والأرضُ نالتْها تلـكَ الأمُّ بتمـرةٍ واحـدةٍ! لكـنْ يا للهِ كـم حـوتْ تلك التمـرةُ مـن قناطرِ الرحمـةِ والإخـلاصِ التـي ثقُلـتْ بها؛ فكانـتْ سبباً في فوزِها العظيـمِ! وأعطاها اللهُ خيراً من ظنِّها؛ إذْ كانـتْ ترجو بمخْرجِها مـن بيْتِها لقمـةً تسـدُّ جَوْعتَها وجَوْعـةَ ابنتيْهـا، وإذْ بها تفـوزُ بجنـةِ الخلـودِ! فما مقـدارُ هـذا الألـمِ والضَّنَى وقـد عاضَهـا اللهُ الجنـةَ! كما أنّ خبرَهـا غـدا سَلوةً لمـنِ ابتـلاهُ بذُرِّيـةِ الإنـاثِ فأحسـنَ تربيتَهـنّ فكـنّ لـه سِـتراً مـن النـارِ، قالـت عائشـةُ — رضـيَ اللهُ عنهـا -: جاءتْني امـرأةٌ، ومعهـا ابنتـانِ لهـا، فسـألتْني فلـم تجـدْ عنـدي شـيئا غيـرَ تمـرةٍ واحـدةٍ، فأعطيتُهـا إيّاهـا، فأخذتْهـا فقسَـمتْها بيـن ابنتيْهـا، ولـم تـأكلْ منها شيئا، ثـم قامـتْ فخرجـتْ وابنتاهـا، فدخـلَ علـيَّ النبيُّ ﷺ فحدّثتُـه حديثَهـا، فقـال النبيُّ ﷺ: «مَـنِ ابتُلِـي مـن البنـاتِ بشـيءٍ، فأحسـنَ إليهـنّ كـنّ لـه سِـترا مـن النـارِ» رواه مسـلمٌ. بـل البُشْـرَى ممتـدّةٌ لكلِّ راحـمٍ ضعيفـاً، يقـولُ النبـيُّ ﷺ: "الرّاحمـونَ يرحمُهـمُ الرحمـنُ، ارْحَمـوا مَـن في الأرضِ يرحمْكـم مَـن في السَّـماءِ" رواه الترمـذيُّ وقـال: حسـنٌ صحيـحٌ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.

وبعدُ، فاعلَموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

وحين نستصحبُ ذِكرَى رحمةِ الأطفالِ من خلالِ مشهدِ الأمِّ المُؤْثِرَةِ، وأنّها من أعظمِ أسبابِ تنزُّلِ رحمةِ اللهِ وأقربِها لدخولِ جنتِه، ونرى حالَ الأشقياءِ الذينَ نُزعتِ الرّحمةُ من قلوبِهم؛ فلم يرحَمُوا براءةَ الطفولةِ وطُهرَها، ونرى شَقاهُم قد امتدّتْ يدُه الآثمةُ بالعُدوانِ على أولئكَ الأطْهارِ بالتعنيفِ الأُسَريِّ والاعتداءِ الجنسيِّ والتسوُّلِ المنظَّم والعملِ الشَّاقِّ والإبادةِ الحربيَّةِ؛ ندركُ مدى نزعِ الرحمةِ من قلوبِ أولئكَ القُساةِ، وعِظَمِ البَوْنِ الشّاسعِ بين ظُلمِهم الطّاغِي ورحمةِ الإسلامِ الوارفةِ؛ إذِ الرحمةُ لا تُنزَعُ إلا من شقيٍّ كما أخبرَ النبيُّ ﷺ، ولئنْ كان الوعدُ بالجنةِ مرجوّاً للرُّحماءِ فإنّ الوعيدَ بالنارِ عتيدٌ لأولئكَ الأشقياءِ، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾، وما خُلقتِ النارُ إلا لإذابةِ القلوبِ القاسيةِ!

معالمُ تربويّةٌ في وصايا لقمانَ

الحمدُ للهِ ذِي النعَمِ الضّافيةِ، والآلاءِ الباقيةِ، عمّ علمُه كلَّ ناحيةٍ؛ فلا تخفَى عليه خافيةٌ، واستوى عنده السرُّ والعلانيةُ. وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ شهادةَ مُوقنٍ يرجو بها النّجاةَ من الحاميةِ، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه ذا الخُلقِ القويمِ والنفسِ الزّكيةِ،صلّى اللهُ وسلمَ عليه وعلى آلِه وصحبِه أولِي الألبابِ الثاقبةِ والهِمَمِ الساميةِ.

أمّا بعدُ، فاتّقوا اللهَ — عبادَ اللهِ -. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ...﴾

أيّها المؤمنونَ!

حكمةُ الوالدِ ورَشادُ رأيِه مِنحةٌ ربانيّةٌ من جُللِ السوابغِ، ورحمةٌ متجذِّرةُ العروقِ، وارفةُ الظلِّ، يَانعةُ الثمرِ، ينعمُ أهلُ البيتِ بحسنِ منظرِها وصفاءِ مخبرِها وطيبِ غلّتِها، ويأرزونَ إليها في استِلْهامِ الرُّشدِ وسدادِ النّظرِ وحُسنِ التّوجيهِ والتّعامُلِ الأمثلِ مع ظروفِ الحياةِ ومصاعبِها. وباتَ من نفيسِ القولِ ورائقِ عاقبتِه ما فاهتْ به أفواهُ أولئكَ الحُكماءِ من وصايا الأولادِ؛ إذْ قد اجتمعَ فيها كمالُ المحبةِ والنُّصحِ والعلمِ؛ فمِن القلبِ منبعُها، وعلى الصدقِ والقناعةِ والمعرفةِ والتّجرُبةِ مَبناها. وأحسنُ تلكَ الوصايا ما أودعَه اللهُ كتابَه المسطورَ، ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾. وذلكُم — يا رعاكُم اللهُ — نبأُ وصيّةِ لقمانَ الحكيمِ لابنِه التي

نعتَها العلماءُ بأنّها بالغةُ النفعِ جداً. وصيةٌ أخذتْ بمجَامعِ القلوبِ في جمالِ أسلوبِها وقوةِ مضمونِها؛ لتستبينَ من خلالِها رؤيةُ المربّي الرّاشدِ في أولادِه حين يُعِدُّهم صالحينَ في أنفسِهم مُصلحينَ في مجتمعِهم، وتلكَ غايةُ كلِّ أبٍ طَموحٍ يرجو ثوابَ ربِّه ويخْشى عقابَه.

أيّها المسلمونَ!

إنّ جمالَ أسلوبِ الخطابِ التربويِّ ممّا يحملُ على قَبولِه، وذاكَ ما سلكَه لقمانُ في وصيَّتِه لابنِه. ومن معالمِ هذا الأسلوبِ حسنُ مصاحبةِ الأبِ ولدَه؛ أخذاً من دلالةِ حالِ الموْعظةِ وتعدُّدُ الوصايا والاحترامُ الذي يعامِل به الوالدُ ولدَه حينَ خاطبَه — بتكرارٍ - بلُغَةٍ راقيةٍ تجمعُ بين الحنانِ والتلطُّفِ وعلاقةِ البنُوّة الخاصة: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾. وهذا خطابُ الأنبياءِ لأبنائهم في القرآنِ وإن كانوا مُخطِئينَ، بل كفرةً!. والإقناعُ سِمةٌ مطَّرِدةٌ في وصايا لقمانَ؛ فلا تجدُ فيها أمراً ولا نهيـًا إلا وهو مقرونٌ بأداةِ إقناعٍ متنوِّعةٍ، كذكرِ السَّببِ أو تصويرِه بصورةٍ حسيَّةٍ أو ضربِ المثالِ والتشبيهِ: ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٞ﴾ ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ﴾ ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾. ومِن بديعِ سَبْكِ تلكَ الوصايا حسنُ عَرضِها بصورةِ الموْعظةِ المتدرِّجِ فيها بتقديمِ الأهمِّ فالذي يليهِ ؛ إذْ قُدِّمَ حقُّ اللهِ المقرونُ بحقِّ الوالديْنِ ثم حقِّ النفسِ ثم حقِّ الغيْرِ. إنّ حسنَ المُصاحبةِ والإقناعِ وبراعةَ التوجيهِ من أخصِّ صفاتِ نجاحِ المربِّي وأسرارِ قَبولِ الولدِ نصيحتَه.

معشرَ المؤمنينَ!

إنّ تلكَ الوصايا قد جمعتْ أمَّهاتِ الحِكمِ التي يتفرّعُ منها غيرُها. ومضمونُ تلكَ الوصايا راجعٌ إلى إدراكِ وتحقيقِ غايةِ العبوديَّةِ التي لأجلِها خلقَ اللهُ الثقليْنِ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. وذلك بإعدادِ الفردِ المؤمنِ المُبارَكِ الذي يسعَى في تزكيةِ نفسِه ونجاةِ غيرِه؛ ومن هنا عَظُمَ أثرُها على الفردِ والمجتمعِ، وباتَ تعاهُدُ المُربِّي لها من أهمِّ ما يجبُ رعايتُه في تربيتِه ولَدَه.

أيّها المؤمنونَ!

إنّ أصولَ تزكيةِ النفسِ ممّا حوتْه تلكَ الوصيّةُ دائرةٌ بين صحّةِ المُعْتَقدِ ومراقبةِ اللهِ وبرِّ الوالديْنِ وإقامِ الصلاةِ وحسنِ الخُلقِ القائمِ على الصبرِ والتّواضُعِ والاعتدالِ في الفعلِ والقولِ. أمّا صحةُ المُعْتَقَدِ فهو مَلاكُ الأمرِ الذي به فلاحُ الدُّنيا والآخرةِ حينَ يُفرَدُ الخالقُ بالتوحيدِ؛ فلا يُعبدُ غيرُه، ولا يُشرَكُ معه؛ ولذا صُدِّرتِ الوصيّةُ به: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾. التوحيدُ تخليصٌ من رِقِّ عبوديّةِ العبادِ لعزِّ عبوديّةِ ربِّ العبادِ، وهو أكبرُ سببٍ لانشراحِ النفسِ وسعادتِها واطْمئنانِها، كما أنّه أعظمُ مُخلِّصٍ من وضَرِ الأوهامِ والمخاوفِ. ومن شأنِ ذلك أن تصفوَ الحياةُ به، وتفسدَ إنْ خلا منها. ثم تأتي الوصيّةُ بالوالدَيْنِ بعد الوصيةِ بالتوحيدِ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾، وصيةً وعهداً يُسأَلُ عن القيامِ بها،

وهل حفظَها أم لا؟ وصيةً لا تبرأُ عهدتُها إلا بالإحسانِ إليهما بالقولِ اللينِ، والكلامِ اللطيفِ، والفعلِ الجميلِ، والتواضُعِ لهما، وإكرامِهما وإجلالِهما، والقيامِ بمؤونتِهما، واجتنابِ الإساءةِ إليهما من كلِّ وجهٍ، بالقولِ والفعلِ. والسببُ الذي أوْجبَ البرَّ حسنُ الوفاءِ ومُقابلةُ الإحسانِ بالإحسانِ. وأيّ إحسانٍ يكافئُ إحسانَ الوالديْنِ؟! يقولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا يَجْزِي وَلَدٌ وَالِدًا، إِلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ» رواه مسلمٌ. ويبقى ذلكَ الواجبُ متحتِّمًا وإنْ كان الوالدانِ كافريْنِ مُلحّيْنِ على ولديْهما بالكفرِ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾. وإتْباعًا لقضيّةِ التوحيدِ الكبرى وتأكيداً عليها وتطبيقًا لها في الحياةِ نجدِ الوصيةَّ بمُراقبةِ اللهِ عبرَ تصويرِ لقمانَ الحسيِّ لعلمِ اللهِ وقدرتِه الذي أحاطَ بكلِّ شيءٍ علمًا؛ لعلمِه أنّ تلكَ المراقبةَ هي أعظمُ حافزٍ لفعلِ الطّاعاتِ وأمنعُ حاجزٍ عن مقارفةِ المآثمِ والإصرارِ عليها على مدى الزّمانِ واختلافِ المكانِ والحالِ ودنوِّ الحرامِ وبُعدِه وتيسُّرِه وتعسُّرِه: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾. إحاطةٌ بأصغرِ شيءٍ في الوجودِ ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ في جوفٍ مُصمَتٍ ﴿فِى صَخْرَةٍ﴾ أو مساحةٍ شاسعةٍ ﴿أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ومع ذلك ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ﴾؛ فلا تخفَى عليه، ولا تُعجزُه. وتأتي بعد ذلكَ الوصيَّةُ بالصلاةِ: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ إذْ هي رِباطُ ما بينَ العبدِ وربِّه، والعلامةُ الفارقةُ بين الإيمانِ والكفرِ، يقولُ الرسولُ ﷺ: «إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلَاةِ» رواه مسلمٌ، والناهيةُ عن السوءِ: ﴿وَأَقِمِ

ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾. ولم تكنْ وصيةُ لقمانَ بها إلا بلفظِ الإقامةِ: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ إذْ لا يظهرُ أثرُ الصلاةِ إلا بالإقامةِ الجامعةِ بين خشوعِ القلبِ والجوارحِ، لا الأداءِ الذي لا يتعدّى حركاتِ البدنِ الظاهرةِ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.

وبعدُ، فاعلمُوا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ ...

أيّها الإخوةُ في اللهِ!

وفي سياقِ وصايا لقمانَ نجدِ التربيةَ على نفعِ الآخرينَ وتركِ الأثَرَةِ؛ فليس من خُلقِ المؤمنِ الانكفاءُ على ما حازَه من فضلٍ وتركُ الآخرين في غيِّهم سادرينَ، بل لا بُدّ من أمرِهم بالخيرِ ونهيِهم عن ضدِّه: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾. وذاكَ طريقٌ غاصٌّ بالأذى والمَكارِه؛ لتعارُضِه مع رغَباتِ الناسِ وشهَواتِهم؛ ولذا لابُدّ من توطينِ النفسِ بحَسَنِ الأخلاقِ الذي تجمُلُ به ويكونُ صفةً راسخةً فيها، خاصّةً في موطنِ الدعوةِ والأمرِ بالمعروفِ والنّهْيِ عن المنكرِ؛ فلَعَمْرُ اللهِ! إنّ تلكَ الأخلاقَ من أعظمِ ما يحملُ على قَبولِ الدعوةِ والتوجيهِ. وفسادُ مَن لم يتحلَّ بها أكثرُ من صلاحِه. والمتأمِّلُ لتلكَ الأخلاقِ في وصيّةِ لقمانَ يجدُ أنّ أصولَها التي تنبعُ منها أكثرُ الصفاتِ الحميدةِ إنّما هي الصبرُ والتواضعُ واعتدالُ الأفعالِ والأقوالِ. وقُدِّم الصبرُ؛ لاقترانِ الإيمانِ به، يقولُ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنه: «الصَّبْرُ مِنَ الْإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ؛ مَنْ لَا صَبْرَ لَهُ لَا إِيمَانَ لَهُ» رواه اللالكائي، ومِن صخرِ الصبرِ تتفجرُ الخيراتُ: ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾، يقولُ عمرُ بنُ الخطابِ رضي اللهُ عنه: "وجدْنا خيرَ عيشِنا بالصبرِ". والصبرُ على

الدعوةِ وتحمّلُ الأذى فيها من المشاقِّ التي تُحتمَلُ بالعزيمةِ الصادقةِ: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

عبادَ اللهِ!

والتواضُعُ خُلقٌ يستجلبُ به العبدُ محبةَ المَوْلى. والناسُ مجبولةٌ على محبةِ صاحبِه، فالتَّواضُعُ نعمةٌ لا يُحسَدُ عليها. وتأمّلوا كيفَ رغّبَ لقمانُ ابنَه في التحلّي بهذه السجيّةِ: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾، نهاهُ عن الكبرِ والعُجبِ بمَلمحيْنِ يُفهَمُ بها ما عداها من صورِ الكبرِ والعُجْبِ، فمجرَّدُ إمالةِ الوجهِ وعُبوسِه تكبُّراً والمشيّ على الأرضِ إعجاباً وبطَراً كفيلٌ بحصولِ المَقتِ من اللهِ؛ إذْ بهذيْنِ التصرُّفيْنِ استُحِقَ وصفُ المختالِ الذي تكبّر بفعلِه والفَخورِ الذي تكبّرَ بقولِه. وختمَ لقمانُ وصيّتَه بإغراءِ ابنِه على لزومِ الاعتدالِ في الأفعالِ والأقوالِ فيما يكثرُ وقوعُه ويعظمُ أثرُه على المرءِ، وذلك بلزومِ أمريْنِ: السّكينةِ حالَ المشيِّ: لا عجلةً ولا تماوتاً. مِشيةٌ تدلُّ على الوَقارِ والعقلِ والهدفِ المحددِ، ولا تحملُ على أذى أو تضييعٍ لمقصودٍ. والأمرُ الآخرُ: القصدُ في القولِ: ففي الغضِّ من الصوتِ أدبٌ وثقةٌ بالنفسِ واطمئنانٌ إلى صدقِ الحديثِ وقوّتِه. وما يزعقُ أو يغلظُ في الخطابِ إلا سيءُ الأدبِ، أو شاكٌّ في قيمةِ قولِه أو قيمةِ شخصِه يحاولُ إخفاءَ هذا الشكِّ بالحدَّةِ والغِلظَةِ والصُّراخِ. وتأمّلوا في تنفيرِ لقمانَ ابنَه من رفعِ الصَّوتِ حينَ عقّبَ نهيَه عن ذلكَ بأنّ ذلكَ من صُنعِ الحَميرِ؛ فلا تليقُ مضارَعتُها في ذلك الصنيعِ.

وبعـدُ — معشـرَ المربيـنَ — دونكُـم وصايـا لقمـانَ العشـرَ: التوحيـدَ، بـرَ الوالديْنِ، مراقبةَ اللهِ، إقامَ الصلاةِ، الأمرَ بالمعروفِ والنهيَ على المنكرِ، الصبرَ على المصائـبِ، عـدمَ التكبُّـرِ والعُجـبِ، السكينةَ في المشـيِّ، غـضَّ الصـوتِ. تَعاهدُوهـا في أنفسِـكم؛ لتكونـوا قـدوةً لأولادِكـم، ثـم تعاهدُوهـا فيهـم تظْفـروا بتربيةٍ راشـدةٍ تقرُّ بها العيـنُ وتَـبرأُ بها الذِّممُ وتُبنَـى بها الأمـمُ وتقـودُ لمَـا وراءَهـا مـن خصـالِ الخيـرِ.

معالمُ من تربيةِ أمِّ سُلَيمٍ — رضيَ اللهُ عنها -

إنَّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شُرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مضلّ له، ومَن يضلل فلا هاديَ له،وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ...﴾

أيّها المؤمنونَ!

الأمُّ محضَنُ التربيةِ الأولُ الأصيلُ، وأساسُه الذي يقومُ عليه البناءُ، منها نشأ الوليدُ وتغذّى، وبتوجيهِها كان يسيرُ ويتربَّى؛ فكانتْ ألصقَ الناسِ به في مدارجِ الصِّبا، وأكلفَهم به في مراحلِ الحياةِ. وبات من غالبِ الأمرِ ورجائه صلاحُ حالِ الولدِ بحسنِ تربيةِ أمِّه.

مَنْ لي بتربيةِ النساءِ فإنَّها ... في الشرقِ علَّةُ ذلكَ الإخفاقِ
الأمُّ مدرسةٌ إذا أعدَدْتَها ... أعددتَّ شعباً طيّبَ الأعْراقِ
الأمُّ روْضٌ تعهّدهُ الحيا ... بالريّ أوْرقَ إيّما إيراقِ
الأمُّ أستاذُ الأساتذةِ الألَى ... شغلتْ مآثرُهم مدى الآفاقِ

هذا، وإنّ من أولئكَ الأمهاتِ اللائي تميزنَ بمنهجٍ في التربيةِ فريدٍ؛ أثمرَ وُلْداً أعزَّ اللهُ بهمُ الدينَ، وحفظَ بهمُ الملّةَ؛ فكانَ منهم أوعيةُ العلمِ، وكُماةُ الوَغى،

وتُرْجُ يَتْلونَ كتابَ اللهِ — الرُّميصاءَ: أمَّ سُلَيْمٍ بنتَ مِلحانٍ الأنصاريّةَ — رضيَ اللهُ عنها -؛ أمَّ أنسِ بنِ مالكٍ والبراءِ؛ زوجَ أبِي طلحةَ الأنصاريِّ — رضيَ اللهُ عنهم -. كانتْ من عقلاءِ النساءِ، وفُضْلَياتِهنّ. كان النبيُّ ﷺ بها أنِساً رحيماً، يتعاهدُها بالزيارةِ، ويَقيلُ في بيتِها، ويُمازحُ صِبيانَها، ويَطعمُ طعامَها، ويصلّي النافلةَ بأهلِ بيتِها. شهدَ لها بالجنةِ إذْ يقولُ: "رَأَيْتُنِي دَخَلْتُ الجَنَّةَ، فَإِذَا أَنَا بِالرُّمَيْصَاءِ؛ امْرَأَةِ أَبِي طَلْحَةَ" رواه البخاريُّ.

أيّها المسلمونَ!

لأمِّ سُلَيْمٍ — رضيَ اللهُ عنها — مَسلَكٌ حسنٌ في تربيةِ الولدِ وتقويمِه؛ يقومُ على مُراعاةِ السُّنَّةِ في عمومِ الأحوالِ؛ دونَ قصرٍ على حالِ الرخاءِ، بل كان نهجاً مطَّرِداً حتى في حالِ الكربِ والشدَّةِ، ومبتدأً منذ الولادةِ، يقولُ أنسُ بنُ مالكٍ — رضيَ اللهُ عنه -: مَاتَ ابْنٌ لِأَبِي طَلْحَةَ، مِنْ أُمِّ سُلَيْمٍ، فَقَالَتْ لِأَهْلِهَا: لَا تُحَدِّثُوا أَبَا طَلْحَةَ بِابْنِهِ حَتَّى أَكُونَ أَنَا أُحَدِّثُهُ، قَالَ: فَجَاءَ فَقَرَّبَتْ إِلَيْهِ عَشَاءً، فَأَكَلَ وَشَرِبَ، فَقَالَ: ثُمَّ تَصَنَّعَتْ لَهُ أَحْسَنَ مَا كَانَ تَصَنَّعُ قَبْلَ ذَلِكَ، فَوَقَعَ بِهَا، فَلَمَّا رَأَتْ أَنَّهُ قَدْ شَبِعَ وَأَصَابَ مِنْهَا، قَالَتْ: يَا أَبَا طَلْحَةَ، أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ قَوْمًا أَعَارُوا عَارِيَتَهُمْ أَهْلَ بَيْتٍ، فَطَلَبُوا عَارِيَتَهُمْ، أَلَهُمْ أَنْ يَمْنَعُوهُمْ؟ قَالَ: لَا، قَالَتْ: فَاحْتَسِبِ ابْنَكَ، قَالَ: فَغَضِبَ، وَقَالَ: تَرَكْتِنِي حَتَّى تَلَطَّخْتُ، ثُمَّ أَخْبَرْتِنِي بِابْنِي! فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «بَارَكَ اللهُ لَكُمَا فِي غَابِرِ لَيْلَتِكُمَا» قَالَ: فَحَمَلَتْ، قَالَ: فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ وَهِيَ مَعَهُ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَتَى الْمَدِينَةَ مِنْ سَفَرٍ لَا يَطْرُقُهَا

طُرُوقًا (أي: لا يدخلُها في الليل)، فَدَنَوْا مِنَ الْمَدِينَةِ، فَضَرَبَهَا الْمَخَاضُ فَاحْتُبِسَ عَلَيْهَا أَبُو طَلْحَةَ، وَانْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَ: يَقُولُ أَبُو طَلْحَةَ: إِنَّكَ لَتَعْلَمُ، يَا رَبِّ إِنَّهُ يُعْجِبُنِي أَنْ أَخْرُجَ مَعَ رَسُولِكَ إِذَا خَرَجَ، وَأَدْخُلَ مَعَهُ إِذَا دَخَلَ، وَقَدِ احْتَبَسْتُ بِمَا تَرَى، قَالَ: تَقُولُ أُمُّ سُلَيْمٍ: يَا أَبَا طَلْحَةَ، مَا أَجِدُ الَّذِي كُنْتُ أَجِدُ، انْطَلِقْ، فَانْطَلَقْنَا، قَالَ وَضَرَبَهَا الْمَخَاضُ حِينَ قَدِمَا، فَوَلَدَتْ غُلَامًا فَقَالَتْ لِي أُمِّي: يَا أَنَسُ، لَا يُرْضِعُهُ أَحَدٌ حَتَّى تَغْدُوَ بِهِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَلَمَّا أَصْبَحَ احْتَمَلْتُهُ، فَانْطَلَقْتُ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ فَصَادَفْتُهُ وَمَعَهُ مِيسَمٌ (آلةٌ يوسَم بها الحيوانُ)، فَلَمَّا رَآنِي قَالَ: «لَعَلَّ أُمَّ سُلَيْمٍ وَلَدَتْ؟» قُلْتُ: نَعَمْ، فَوَضَعَ الْمِيسَمَ، قَالَ: وَجِئْتُ بِهِ فَوَضَعْتُهُ فِي حِجْرِهِ، وَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِعَجْوَةٍ مِنْ عَجْوَةِ الْمَدِينَةِ، فَلَاكَهَا فِي فِيهِ حَتَّى ذَابَتْ، ثُمَّ قَذَفَهَا فِي فِيِّ الصَّبِيِّ، فَجَعَلَ الصَّبِيُّ يَتَلَمَّظُهَا، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «انْظُرُوا إِلَى حُبِّ الْأَنْصَارِ التَّمْرَ» قَالَ: فَمَسَحَ وَجْهَهُ وَسَمَّاهُ عَبْدَ اللهِ. رواه مسلمٌ، وجاء في روايةِ البخاريِّ: "فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ: فَرَأَيْتُ لَهُمَا تِسْعَةَ أَوْلاَدٍ كُلُّهُمْ قَدْ قَرَأَ القُرْآنَ (أي: حفِظُوه، وأخذُوا العلمَ)". والحرصُ على الولدِ من سماتِ منهجِ تربيةِ أمِّ سُلَيمٍ؛ فكانتْ فارغةً لتربيتِهم؛ لم تُسْلِمْها إلى أحدٍ غيرِها. لما خطبَها أبو طلحةَ كانتْ تقولُ: لا أتزوجُ حتى يبلغَ أنسٌ، ويجلسَ في المجالسِ، فيقولُ: جَزَى اللهُ أمِّي عنّي خيراً؛ لقد أحسنتْ وَلايتِي. وكانتْ ذاتَ حرصٍ على استغلالِ أوائلِ السنيّ ذاتِ البُصْمِ الغالبِ في بقيّ العمرِ، قال إِسْحَاقُ بنُ عَبْدِ اللهِ، عَنْ جَدَّتِهِ أُمِّ سُلَيْمٍ: أَنَّهَا آمَنَتْ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ. قَالَتْ: فَجَاءَ أَبُو أَنَسٍ وَكَانَ غَائِبًا، فَقَالَ: أَصَبَوْتِ؟! فَقَالَتْ: مَا صَبَوْتُ، وَلَكِنِّي آمَنْتُ. وَجَعَلَتْ تُلَقِّنُ أَنَسًا: قُلْ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ،

قُلْ: أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُوْلَ اللهِ، فَفَعَلَ، فَيَقُوْلُ لَهَا أَبُوهُ: لاَ تُفْسِدِي عَلَيَّ ابْنِي، فَتَقُوْلُ: إِنِّي لاَ أُفْسِدُهُ. ولحرصِها كانتْ تهتبلُ فرصَ تحصيلِ الخيرِ لبنيها الذين جعلتْهم من خاصّةِ شأنِها ومهمّهُ، قال أنسٌ: دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أُمِّ سُلَيْمٍ، فَأَتَتْهُ بِتَمْرٍ وَسَمْنٍ، قَالَ: «أَعِيدُوا سَمْنَكُمْ فِي سِقَائِهِ، وَتَمْرَكُمْ فِي وِعَائِهِ؛ فَإِنِّي صَائِمٌ»، ثُمَّ قَامَ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنَ البَيْتِ، فَصَلَّى غَيْرَ المَكْتُوبَةِ، فَدَعَا لِأُمِّ سُلَيْمٍ وَأَهْلِ بَيْتِهَا، فَقَالَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ لِي خُوَيْصَّةً، قَالَ: «مَا هِيَ؟»، قَالَتْ: خَادِمُكَ أَنَسٌ، فَمَا تَرَكَ خَيْرَ آخِرَةٍ وَلاَ دُنْيَا إِلَّا دَعَا لِي بِهِ، قَالَ: «اللَّهُمَّ ارْزُقْهُ مَالًا وَوَلَدًا، وَبَارِكْ لَهُ فِيهِ»، فَإِنِّي لَمِنْ أَكْثَرِ الأَنْصَارِ مَالًا، وَحَدَّثَتْنِي ابْنَتِي أُمَيْنَةُ: أَنَّهُ دُفِنَ لِصُلْبِي مَقْدَمَ حَجَّاجِ البَصْرَةَ بِضْعٌ وَعِشْرُونَ وَمِائَةٌ رواه البخاريُّ. وقال أنسٌ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْخُلُ بَيْتَ أُمِّ سُلَيْمٍ فَيَنَامُ عَلَى فِرَاشِهَا، وَلَيْسَتْ فِيهِ، قَالَ: فَجَاءَ ذَاتَ يَوْمٍ فَنَامَ عَلَى فِرَاشِهَا، فَأُتِيَتْ فَقِيلَ لَهَا: هَذَا النَّبِيُّ ﷺ نَامَ فِي بَيْتِكِ، عَلَى فِرَاشِكِ، قَالَ: فَجَاءَتْ وَقَدْ عَرِقَ، وَاسْتَنْقَعَ عَرَقُهُ عَلَى قِطْعَةِ أَدِيمٍ، عَلَى الْفِرَاشِ، فَفَتَحَتْ عَتِيدَتَهَا (صندوقٌ صغيرٌ تجعلُ المرأةُ فيه ما يعزُّ من متاعِها) فَجَعَلَتْ تُنَشِّفُ ذَلِكَ الْعَرَقَ فَتَعْصِرُهُ فِي قَوَارِيرِهَا، فَفَزِعَ (استيقظَ) النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «مَا تَصْنَعِينَ، يَا أُمَّ سُلَيْمٍ؟» فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، نَرْجُو بَرَكَتَهُ لِصِبْيَانِنَا، قَالَ: «أَصَبْتِ» رواه مسلمٌ. وحرْصُها كان يدفعُها لمُتابعةِ ولدِها متابعةَ المُوجِّهِ لا المحقّقِ، قال أنسٌ: "أَتَى عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَأَنَا أَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، قَالَ: فَسَلَّمَ عَلَيْنَا، فَبَعَثَنِي إِلَى حَاجَةٍ، فَأَبْطَأْتُ عَلَى أُمِّي، فَلَمَّا جِئْتُ قَالَتْ: مَا حَبَسَكَ؟ قُلْتُ بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ لِحَاجَةٍ، قَالَتْ: مَا حَاجَتُهُ؟ قُلْتُ: إِنَّهَا سِرٌّ، قَالَتْ: لَا تُحَدِّثَنَّ بِسِرِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَحَدًا" رواه البخاريُّ. وندركُ بهذا

الحوارِ التربويِّ الراقي متانةَ العَلاقةِ بين الأمِّ وابنِها وحُسنَها، الذي كان قَوامُها الصَّراحةَ والثقةَ المنضَبطةَ وتعزيزَ السلوكِ الإيجابيِّ واحترامَ الخُصوصيَّةِ والالتزامَ بنظامِ الضَّبطِ في المنزلِ.

أيّها الإخوةُ في اللهِ!

أمُّ سُليمٍ ذاتُ مشروعٍ تربويٍّ طَموحٍ ذي رؤيةٍ واضحةٍ، تخطِّطُ له، وتسعى لدَرَكِ ذُروةِ السِّنامِ فيه. وحينَ علمتْ ضرورةَ تعدُّدِ قنواتِ التّوجيهِ، وعِظَمَ أثرِ الخُلطَةِ والصُّحبةِ والقدوةِ في حياةِ الصغيرِ؛ سعتْ بربطِ ابنِها أنسٍ ملازمًا مَنْ أمَرَ اللهُ الأمةَ بالاقتداءِ به إذْ يقولُ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾، يقولُ أنسٌ: "أَخَذَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ بِيَدِي مَقْدَمَ النَّبِيِّ ﷺ الْمَدِينَةَ، فَأَتَتْ بِي رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا ابْنِي وَهُوَ غُلَامٌ كَاتِبٌ يخدمُك، قَالَ: فَخَدَمْتُهُ تِسْعَ سِنِينَ، فَمَا قَالَ لِي لِشَيْءٍ قَطُّ صَنَعْتُهُ: أَسَأْتَ، أَو: بِئْسَ مَا صَنَعْتَ" رواه أحمدُ؛ فما بالكُم بأثرِ مُخَالطةٍ يوميّةٍ لسيّدِ البشرِ زَهَاءَ عشرِ سنينَ؟!

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
وبعدُ، فاعلَموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

ومن معالمِ تربيةِ أمِّ سُليْمٍ — رضيَ اللهُ عنها — دوامُ التشجيعِ على الفعلِ الحسنِ والحثِّ عليه، يقولُ أنسٌ: "قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ وَأَنَا ابْنُ عَشْرٍ، وَمَاتَ وَأَنَا ابْنُ عِشْرِينَ، وَكُنَّ أُمَّهَاتِي يَحْثُثْنَنِي عَلَى خِدْمَتِهِ"رواه مسلمٌ. ومن معالمِها التربويّةِ التعويدُ على المسؤوليَّةِ الذي يبني الشخصيّةَ والعِصاميّةَ وينبذُ التدليلَ والبِطالةَ المفسدةَ للأخلاقِ؛ فقد كانتْ تعهدُ لابنِها أنسٍ مسؤوليةَ خدمةِ النبيِّ ﷺ، وإيصالِ الطَّعامِ إليه، ودعوتَه وأصحابَه للحضورِ في منزلِهم، والمشاركةِ في رعايةِ إخوتِه. روى البخاريُّ أنّ أنسًا — رضيَ اللهُ عنه — قال: "قَالَ أَبُو طَلْحَةَ لِأُمِّ سُلَيْمٍ لَقَدْ سَمِعْتُ صَوْتَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ضَعِيفًا، أَعْرِفُ فِيهِ الجُوعَ، فَهَلْ عِنْدَكِ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، فَأَخْرَجَتْ أَقْرَاصًا مِنْ شَعِيرٍ، ثُمَّ أَخْرَجَتْ خِمَارًا لَهَا، فَلَفَّتِ الخُبْزَ بِبَعْضِهِ، ثُمَّ دَسَّتْهُ تَحْتَ يَدِي وَلاَثَتْنِي بِبَعْضِهِ، ثُمَّ أَرْسَلَتْنِي إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: فَذَهَبْتُ بِهِ، فَوَجَدْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي المَسْجِدِ، وَمَعَهُ النَّاسُ، فَقُمْتُ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «آرْسَلَكَ أَبُو طَلْحَةَ؟» فَقُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «بِطَعَامٍ؟» فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِمَنْ مَعَهُ: «قُومُوا»، فَانْطَلَقَ وَانْطَلَقْتُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، حَتَّى جِئْتُ أَبَا طَلْحَةَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ:

يَا أُمَّ سُلَيْم، قَدْ جَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالنَّاسِ، وَلَيْسَ عِنْدَنَا مَا نُطْعِمُهُمْ؟! فَقَالَتْ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَانْطَلَقَ أَبُو طَلْحَةَ حَتَّى لَقِيَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو طَلْحَةَ مَعَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هَلُمِّي يَا أُمَّ سُلَيْمٍ، مَا عِنْدَكِ» فَأَتَتْ بِذَلِكَ الخُبْزِ، فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَفُتَّ، وَعَصَرَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ عُكَّةً فَأَدَمَتْهُ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِيهِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَقُولَ، ثُمَّ قَالَ: «ائْذَنْ لِعَشَرَةٍ» فَأَذِنَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا ثُمَّ خَرَجُوا، ثُمَّ قَالَ: «ائْذَنْ لِعَشَرَةٍ» فَأَذِنَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا ثُمَّ خَرَجُوا، ثُمَّ قَالَ: «ائْذَنْ لِعَشَرَةٍ» فَأَذِنَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا ثُمَّ خَرَجُوا، ثُمَّ قَالَ: «ائْذَنْ لِعَشَرَةٍ» فَأَكَلَ القَوْمُ كُلُّهُمْ وَشَبِعُوا، وَالقَوْمُ سَبْعُونَ أَوْ ثَمَانُونَ رَجُلًا".

وبعدُ، هذا غيْضٌ من فيضِ تربيةِ أمِّ سُليْمٍ؛ فأينَ المؤتَسُونَ؟

مِنْ وحيِ نبأ البقرةِ

إنّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مضلّ له، ومَن يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ... ﴾.

أيّها المؤمنون!

إنّ ممّا أفاضَ القرآنُ الكريمُ بذكرِه وتكرارِه بيانَ ما تأصّلَ في اليهودِ من ذميمِ الصفاتِ التي استحقُّوا بها لعنةَ اللهِ، وغضبَه، وتأذّنَه بأنْ يبعثَ عليهم إلى يومِ القيامةِ مَن يسومُهم سوءَ العذابِ. ولعلّ من أسرارِ ذلكَ الفيضِ والتكرارِ تنبيهَ المؤمنينَ لمسالكِ القومِ، ودلالتَهم على الأسسِ التي تقومُ عليها الشخصيّةُ اليهوديّةُ وتكوِّنها؛ لعلمِ اللهِ السابقِ المحيطِ بكيدِ أولئكَ الفجّارِ لأهلِ الإيمانِ من حينِ مبعثِ النبيِّ ﷺ إلى أنْ يقولَ الحجرُ والشجرُ: "يا مسلمُ! يا عبدَاللهِ! هذا يهوديٌّ ورائِي؛ فاقتلْه". ومن مذمومِ صفاتِ القومِ الموروثِ الْتوَاؤهم وعنادُهم، وتمرُّدُهم على الأوامرِ، وتلكُؤهم في تنفيذِها، وتثاقلُهم في أداءِ الحقوقِ، وانتحالُهم المعاذيرَ في التفصّي من التكاليفِ والعهودِ؛ كما أبانَه المَوْلى — جلّ وعلا — في غيرِ ما موضعٍ من القرآنِ الكريمِ، ومِن أسهبِ تلكَ المواضعِ ما تلاهُ اللهُ — سبحانَه - في نبإ البقرةِ التي جعلَ فيها

الدليلَ للاهتداءِ إلى القاتلِ الذي كادَ بخفاءِ معرفتِه أن يقعَ شرٌّ ذريعٌ ببني إسرائيلَ؛ لقوةِ اختلافِهم في تعيينِه. فأوْحى اللهُ إلى نبيِّه موسى — عليه الصلاةُ والسلامُ — أن يأمرَهم بذبحِ أيِّ بقرةٍ يُؤخذُ منها ما يُضربُ به المقتولُ فيحييَه اللهُ بقدرتِه؛ ليخبرَ عن قاتلِه؛ فالضرورةُ داعيةٌ للامتثالِ، والأمرُ في غايةِ اليُسرِ، فماذا صنَعوا حين أمرَهم؟ لم ينفكَّ عنهم قبحُ صفاتِهم وتمرُّدُهم حتى قابلوا أمرَ اللهِ بالسُّخريةِ قائلينَ لنبيِّهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾، هكذا بتهكُّمٍ وسُخريةٍ؛ إذْ هم نظروا إلى الأمرِ بعينِ طبعِهم، وخسَّةِ غايتِهم؛ فجاء جوابُ نبيِّهم الصاعقُ ليجيبَهُم عن ذاكَ المنطقِ السّافلِ، وليقدِّروا الأمرَ قدرَه قائلاً: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ الذين يهْزؤونَ في موضعِ الجِدِّ، ويتراخونَ عمّا أُمِروا بأخذِه بقوةٍ. وما زالَ طبعُهم الخبيثُ يعملُ عملَه؛ بُغيةَ تحرّي نسخَ الأمرِ الإلهيِّ، فتمحّلوا في الاستفصالِ والتشقيقِ عن نوعِ البقرةِ، فجاء الجوابُ عنتًا من جنسِ سؤالِهم المتعنّتِ أنّ البقرةَ ذاتُ سنٍّ متوسطٍ بين الكِبَرِ والصِّغرِ؛ فهل امتثلوا بعد بيانِ الأمرِ البيّنِ؟ كلا، بل ما زالوا لاجّين في عنادِ طبعِهم المُشينِ حين طلبوا من نبيِّهم سؤالَ ربِّه عن لونِ البقرةِ! وما أثرُ اللونِ في جلاءِ الأمرِ؟! هكذا هو العَنَتُ الإسرائيليُّ الذي عاملَهم اللهُ بمُقتَضاهُ؛ إذْ ضيَّقَ عليهم الخيارَ في اللونِ بعد السنِّ حينَ حصرَ البقرةَ في البقرِ الصُّفرِ شديدةِ الصُّفرةِ ذاتِ الحُسنِ والهيئةِ. وما ثابوا عن غيِّهم بعد هذا التهديدِ والتشديدِ؛ إذْ سألوا مزيدَ البيانِ بعد بيانِ الأمرِ البيّنِ زاعمينَ تشابُهَ البقرِ عليهم - وما ذاك السببُ الحقيقيُّ الذي يُوارونَ خلفَه رغبةَ العدولِ عن امتثالِ التكليفِ -؛ فجاء الجوابُ بتشديدٍ أشدَّ وخيارٍ أضيقَ؛ إذْ جعل امتثالَ الذبحِ إنّما يكونُ في بقرةٍ

صفراءَ متوسطةِ السنِّ سالمةٍ من العيبِ مرفّهةٍ؛ لم تذلَلْ للحراثةِ أو السِّقايةِ. فلمَّا رأوْا الأمرَ يزدادُ شدةً، ﴿قَالُواْ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّۚ﴾، وكأنّ ما سبقَ يدورُ في فلَكِ الباطلِ والعبثِ والشكِّ وِفقَ ما تُصوّرُه لهم نفوسُهم المريضةُ، ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾.

أيّها المسلمونَ!

هذا دأَبُ اليهودِ الغالبِ مع العهودِ الربانيّةِ التي جاءَ بها أنبياؤهم الذينَ أظهرُوا الإيمانَ بهم وتصديقَهم في قضايا مصيريّةٍ تتعلَّقُ بمصالِحِهم العامّةِ وفلاحِهم في الدُّنيا والآخرةِ؛ تمردٌ، وتلكّؤٌ، وكزازةُ نفسٍ لم تسخُ بالتسليمِ الواجبِ والإذعانِ للأمرِ الإلهيِّ. أيُرجَى مِن خِلْفةِ مَن هذا طبعُه أنْ يفيَ في عهدِه وميثاقِه مع البشرِ وهذا تمرُّدُ سلفِه الهالكِ مع عهدِ ربِّ البشرِ وميثاقِه، ولكلِّ قومٍ وارثٌ! إنّ القرآنَ يختصرُ لنا عناءَ التعرُّفِ على طباعِ القومِ بخبرٍ إلهيٍّ مُحْكَمٍ مثاني؛ لا يقبلُ النسخَ، والتأويلَ، ويأخذُ بأيْدِينا للتعامُلِ الأمثلِ معهم. وما تزالُ الأحداثُ ترسِّخُ يقينَ نبإِ الذكرِ الحكيمِ إنْ كنّا نعقلُ تلكَ الأنباءَ أو نعتبرُ بمصائرِ الأحداثِ. وها هي قضيةُ فلسطينَ شاهدٌ حيٌّ بينَ أيْدِينا على شَيْنِ طبيعةِ القومِ؛ عقودٌ مضتْ على موائدِ المفاوضاتِ وكان نَتاجُها دورانًا في حلقةٍ مفرْغةٍ؛ نهايةً من حيثُ كانتِ البدايةُ، بل كانَ سوءُ البدايةِ أخفَّ من سوءِ النهايةِ. أيُظَنُّ في قومٍ نكّاثي عهودٍ ربانيّةٍ، تلكّؤا في إنقاذِ مجتمعِهم بذبحِ بقرةٍ أنْ يفُوا بعهودٍ بشريّةٍ متعلِّقةٍ بالمسجدِ الأقْصَى وقُبّةِ الصخرةِ؟! أو يغيّرَ التطبيعُ سوءَ غدرِهم الشنيعِ؟! أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ﴾.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أمّا بعدُ، فاعلَموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

إنّ العجبَ لَيأخذُ بفكرِ المتأمّلِ حينَ يعقدُ المقارنةَ بين استقبالِ اليهودِ أمرَ نبيِّهم بذبحِ البقرةِ وتعامُلِهم معه وبينَ استقبالِ أبينا إبراهيمَ — عليه الصلاةُ والسلامُ — أمرَ ربِّه بذبحِ ابنِه وفلْذةِ كبدِه الذي أتاهُ بعدَ كِبَرِ سنٍّ ومَسيسِ حاجةٍ وأنْ تكونَ مِيتةَ الضَّنا بشَفرةِ الموتِ التي يحزُّ بها الأبُ رقبةَ ضَناه؛ فما تلكّأَ، ولا استفصلَ، أو تراخَى، بل عرضَ عزمةَ الامتثالِ على ابنِه قائلاً: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، وانتقلتْ تلكَ العزمةُ إلى فعلٍ لا تراجعَ فيه، ولا تردُّدَ؛ حين أضْجعَ ابنَه للذبحِ، واستقبلَ الابنُ بوجهِه الأرضَ؛ رحمةً بقلبِ أبيه المُبتلَى؛ لئلا يرى مُعالجتَه سكراتِ الموتِ؛ فتكونَ سبباً في عدمِ امتثالِ الأمرِ أو نقصانِه، أو تكونَ زيادةَ ألمٍ على آلامِ ذلكَ القلبِ الموجوعِ المفجوعِ؛ ليسجِّلَا - وبشهادةٍ ربانيّةٍ - نجاحَهما في تخطِّي ذلكَ البلاءِ المبينِ، بينَما سجلتْ تلكَ الشهادةُ الربانيّةُ إخفاقَ اليهودِ في امتثالِ الأمرِ الذي لا تُذكرُ شدَّتُه إزاءَ شدّةِ بلاءِ الخليلِ — عليه السلامُ —، ومع ذا يتبجّحونَ أنّهم أوْلى الناسِ به!

نصرُ عاشوراءَ

إنّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِهِ اللهُ فلا مضلّ له، ومَن يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ...﴾.

أيّها المؤمنونَ!

عاشوراءُ يومٌ ذو شأنٍ في الإسلامِ؛ إذْ جعلَه يوماً معظَّماً؛ أَنْجَى اللهُ فيه بَني إسرائيلَ من العذابِ المُهينِ، الذي عاشُوا لحظاتِه العصيبةَ متجرّعينَ فيها غُصَصاً من الذلِّ والاستعبادِ الذي سامَهم به طاغيةٌ تاهَ في طُغيانِه حتى قال: أنا ربُّكم الأعلَى! جعلَ ذلكَ الطاغيةُ من تلكَ الأمّةِ المستعبَدةِ طبقةً مُستَضعَفَةً؛ يذبِّحُ أبناءَها، ويُبقِي نساءَها في الخدمةِ والأعمالِ المُهينةِ، وظلُّوا على ذلكَ رَدْحاً من الزمنِ حتى أذنَ اللهُ لتلكَ الأمةِ المستضعَفةِ أن تكونَ الوارثةَ لمُلْكِ الطّاغيةِ، وأن يكونَ تَهاوي عرشِه على يدِ مَنْ ربّاه صغيراً في بيْتِهِ. فصولُ تلكَ المعاناةِ ولحظةُ الفرجِ سطّرَها القرآنُ في صفحاتِه حتى غدت أكثرَ قصصِه ذِكراً، وكان يومُ عاشوراءَ ختامَ ذلك الاستبدادِ، ونهايةَ تلكَ المعاناةِ.

أيّها المسلمونَ!

أرسلَ اللهُ — سبحانَه — كليمَه موسى — عليه السلامُ — إلى فرعونَ، وأمدّه

بالآياتِ الواضحاتِ الدالّة على صدقِ نبوّتِه، وكانَ من أجْلاها انقلابُ عصَاه ثعبانًا يبتلعُ ما ألقاهُ مهرةُ السّحَرةِ الذينَ جمعَهم فرعونُ من أنحاءِ المدائنِ، وكان ذلك بمشهَدٍ أُمَميٍّ من الناسِ محشورينَ؛ فأحقَّ اللهُ الحقَّ وأبطلَ كيدَ الكافرينَ، ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ عند ذلكَ جُنَّ جنونُ الطاغيةِ، وظنّ أنّ قوتَه لا يغلبُها قوةٌ، فتوعّدَ السّحَرةَ حين آمنوا بعقوبةِ المحاربينَ، كما توعّدَ أهلَ الإيمانِ بإجلائِهم عن بلادِهم، وأطلقَ ألسُنَ السوءِ فيهم مجيّشًا عليهم دهْماءه وجندَه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾، فأوْحى اللهُ إلى موسى أنْ يخرجَ بقومِه في جُنحٍ من الليلِ باتِّجاه البحرِ، وأخبرَه بأنّهم متّبَعونَ، وخرجَ فرعونُ بجندِه فأدركُوهم وقتَ شروقِ الشمسِ عند شطِّ البحرِ؛ فكانَ موسى — عليه السلامُ — وقومُه بين فكَّيْ كماشةٍ؛ بحرٍ مُتلاطمِ الموجِ أمامَهم، وعدوٍّ طاغٍ حانقٍ خلفَهم، عند ذلكَ أيقنَ قومُ موسى — عليه السلامُ — بالهلاكِ؛ فخاطبُوا نبيّهم قائلينَ: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾؛ فنفَى كليمُ اللهِ ظنَّهم نفيًا باتًّا؛ إذْ رأى ببصيرةِ الإيمانِ ما لا تراهُ العيونُ في الواقعِ، فقال بلُغةِ الواثقِ بربِّه الذي لا تزيدُه شدةُ الأحداثِ إلا طمأنينةً وسكينةً تملأ فؤادَه وتسدّدُ قولَه ورأيَه: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ إلى طريقِ النجاةِ، وما خابَ مَن أحسنَ بربِّه ظنًا؛ إذْ أوْحى اللهُ إليه أنْ يضربَ بعصاهُ البحرَ الهادرَ؛ فانفلقَ ذلكَ البحرُ عن اثنيْ عشَرَ طريقًا يبَسًا كالجبلِ الشامخِ، وأُمِرَ موسى — عليه السلامُ — وقومُه أنْ يسلكُوا تلكَ الطُّرقِ غيرَ خائفينَ من غرقٍ أو دركِ عدوٍّ. فلمّا رأى فرعونُ وجندُه تلكَ الطرقَ، ورأوْا موسى وقومَه وَالجِينَ لها؛ غرّهم بريقُ الواقعِ؛ إذْ ظنُّوا أنّهم قادِرونَ

عليه، ناسينَ الإلـهَ الحاكـمَ لـه والمتصرِّفَ فيه، غيـرَ مُعتبِريـنَ بآيـةِ انفلاقِ البحرِ وقد جرتْ أمـامَ أعيُنِهـم؛ إذْ صُرِفـتْ قلوبُهـم عـن الهُـدى بعد أنْ كذَّبـوا بآياتِـه حيـنَ أتتْهـم أولَ مـرّةٍ، فقادَهـم بريـقُ الواقـعِ إلـى مصرَعِهـم المشؤومِ المُتَـوارِي خلفَ ستارِ القدَرِ النّافذِ، حتى إذا تكاملَ خـروجُ السلامةِ لموسى — عليه السلامُ — وقومِه، وتوسّطَ طغـاةُ الجندِ وقائدُهـم البحرَ؛ أوْحَى اللهُ إلى البحرِ أنْ يرجعَ كما كانَ، ليُـريَ بَنـي إسـرائيلَ نهايـةَ هـذا الطُّغيـانِ الـذي أرهـقَ حياتَهـم؛ فكانـوا يـروْنَ أعداءهـم والأمـواجُ تتقـاذفُ بهـم رفعـًا وخفضـًا وقـد صـاروا جيَفـًا فيه. أمّا رأسُ الطُّغـاةِ فرعـونُ فقـد أفصـحَ عـن الحقيقـةِ التـي كانَ يكتمُهـا ظُلمـًا وعلـوّاً، وبـاتَ عمرَه محارِبـًا لها ولأهلِها حين رأى مصرعَ الغرقِ قائلاً: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، فلم يكُ إيمانُـه نافعـًا لـه بعـد معاينتِـه العـذابَ، وأمرَ اللهُ بتلكَ الجثّةِ العفِنةِ التي طالمَـا سـامتْ عبادَه سـوءَ العـذابِ أن تُقـذفَ على سِيفِ البحرِ؛ لتكـونَ لمَـن وراءه عِـبرةً على مرِّ الدهـورِ، ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾، وصـارتْ أرواحُ أولئكَ الفجـرةِ معذَّبةً منذُ ذلـكَ اليـومِ بعرضِهـا على النـارِ صبْحَ كلِّ يـومٍ ومساءَه، وأشـدُّ العـذابِ مُعـدٌّ لهـم يـومَ القيامـةِ كمـا قـالَ اللهُ — تعالـى -: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسّلامُ على رسولِ اللهِ.
أمّا بعدُ، فاعلَموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

إنّ نصرَ عاشُوراءَ ذكرَى لأمّةِ الإسلامِ بأسبابِ النّصرِ التي أرشدَ إليها موسى — عليه السلامُ — بني إسرائيلَ، والتي من خلالِ امتثالِها صاروا مُؤهّلينَ لتنزُّلِ النصرِ الإلهيِّ بعد أنْ غيَّروا من أنفسِهم وانتَصروا عليها. ومن أبرزِ تلك الأسبابِ التوكُّلُ على اللهِ، والاستعانةُ به، وملازمةُ الصبرِ الذي لا يأسَ معه ولا استكانةَ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ٨٤ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٥ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، وقالَ: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾. وإقامُ الصلاةِ من أعظمِ أسبابِ تنزُّلِ النصرِ وزوالِ الكَربِ، قال تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾. والدعاءُ بالنجاةِ وإهلاكُ الظالمينَ من سبُلِ تنزُّلِ نصرِ ربِّ العالمينَ، بل ربَّما أذنَ اللهُ بتنزّلِ نصرِه بدعوةِ رجلٍ صادقٍ، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي

ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾. والثقةُ بوعدِ اللهِ، وحسنُ الظنِّ فيه مع بذلِ الأسبابِ المُمكنةِ من أعظمِ أسبابِ تنزّلِ النصرِ، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾. وكلُّ تلكَ الأسبابِ من معالمِ الثباتِ على الاستقامةِ التي تخالفُ اتّباعَ سبيلِ الذينَ لا يعلمونَ حقيقةَ وعدِ اللهِ ونصرِه، كما أرشدَ اللهُ إليه نبيّيْه موسى وهارونَ — عليهما السلامُ — بعد دعْوتِهما إيّاه، فقال: ﴿فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أيّها المؤمنونَ!

إنّ يومَ عاشوراءَ لِنُصرةِ الإيمانِ ذكرى، وقد شُرِعَ صومُه شكراً، مع ما في الصِّيامِ من معنى الانتصارِ على النفوسِ، ورُتِّب على صيامِه أجرٌ عظيمٌ؛ روى ابنُ عباسٍ - رضيَ اللهُ عنهما - أنّ النبيَّ ﷺ لما قدِمَ المدينةَ، وجدَهم — أي: اليهودَ - يصُومونَ يومًا، يعنِي عاشوراءَ، فقالوا: هذا يومٌ عظيمٌ، وهو يومٌ نجّى اللهُ فيه موسى، وأغرقَ آلَ فرعونَ، فصامَ موسى شُكراً للهِ، فقالَ: « أنا أوْلى بموسى منهم »، فصامَه، وأمرَ بصيامِه (رواه البخاريُّ ومسلمٌ)، وقال — عليه الصلاةُ والسلامُ -: "صيامُ يومِ عاشوراءَ، أحتسبُ على اللهِ أنْ يكفرَ السنةَ التي قبلَه" (رواه مسلمٌ). وحرصَ النبيُّ على مخالفةِ صيامِ اليهودِ فيه؛ بصيامِ يومٍ قبلَه (رواه مسلمٌ).

هدايةُ مسجدِ الضِّرارِ

إنّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مضلّ له، ومَن يضللْ فلا هاديَ له،وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ...﴾.

أيّها المؤمنونَ!

النفاقُ ديانةٌ جوْفاءُ، قائمةٌ على الكذبِ والخداعِ والجبنِ والطمعِ، اتخذتْ من إظهارِ الإسلامِ سربالَ ، تمتنعُ به من عداءِ أهلِه، وتجعلُه غطاءً لحَراكِها العفِنِ في إلحاقِ الخَبالِ بالمسلمينَ بطرقِها الخفيّةِ ومكرِها الكبَّارِ؛ فكانتْ كالسُّوسِ النَّخِرِ الخَبءِ في أصولِ الشجرِ. ومِن هنا باتَ هذا الداءُ أعظمَ ما يواجهُ الأمةَ خطراً وفتكاً على مدَى الأزمانِ، كما قال اللهُ — تعالى -: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾. ولم يزلِ القرآنُ يعمِلُ فيهم سِياطَ الفضحِ ببيانِ صفاتِهم وكشفِ أساليبِهم المُلتويةِ في ضربِ الدينِ وأهلِه؛ ليُعرَفوا بالفعالِ ولحنِ الخطابِ؛ فلا يُشتبَهُ أمرُهم ولا يخفَى مكرُهم ولا يسْتشْرِي شرُّهم؛ فكان لذلكَ النصيبُ الأكبرُ في بيانِ القرآنِ سبيلَ المجرمينَ. هذا، وإنّ أوْفرَ سورةٍ جلّتْ خِلالَ هؤلاءِ القومِ سورةُ التوبةِ المسماةُ الفاضحةُ، يقولُ ابنُ عبّاسٍ — رضيَ اللهُ عنهما -: "تِلْكَ الْفَاضِحَةُ؛ مَا زَالَ يَنْزِلُ: ﴿وَمِنْهُمْ﴾

﴿وَمِنْهُمْ﴾؛ حَتَّى خِفْنَا أَلَّا تَدَعَ أَحداً"، وَقَالَ الْحَسَنُ: "كَانَ الْمُسْلِمُونَ يُسَمُّونَ هَذِهِ السُّورَةَ: "الْحَفَّارَةَ"؛ لِأَنَّهَا حَفَرَتْ مَا فِي قُلُوبِ الْمُنَافِقِينَ، فَأَظْهَرَتْهُ".

معشرَ المسلمينَ!

وممّا فضحتْه سورةُ التوبةِ من أساليبِ المنافقينَ التي ما بَرحتْ تُستهلَكُ لترويجِ باطلِهم أسلوبُ إقامةِ الشعاراتِ الإسلاميّةِ لاتخاذِها بِطانةً لأغراضِ الفسادِ والإفسادِ. وذلك منْ أعظمِ خصالِ النفاقِ العمليِّ: أن يعملَ الإنسانُ عملاً، ويُظهِرَ قصدَه الخيرَ به، وإنَّما عملَهُ؛ ليتوصَّلَ به إلى غرضٍ له سيِّءٍ قد أبطنَه؛ فيتمَّ له ذلكَ، ويتوصَّلَ بهذه الخديعةِ إلى غرضِه، ويفرحَ بمكرِه وخِداعِه وحَمدِ النَّاسِ له على ما أظهرَهُ. والحادي لانتهاجِ ذلكَ المسلكِ الخبيثِ أنفةُ النفوسِ من قَبولِ الباطلِ الصُّراحِ، ورواجُه عند كثيرٍ إن أُلبِسَ اللباسَ الشرعيَّ زوراً وبهتاناً. وذا مكمنُ الخطرِ وقطبُ رحاهُ. وقد عالجَ القرآنُ بمنهجِه المعصومِ تلكُمُ القضيةَ المِفصليةَ التي لا يزالُ أهلُ النفاقِ يمتَطُونَها على مرِّ العصورِ علاجاً ناجعاً يجتثُّ جذورَ الشرِّ ويُسقطُ قناعَ الخداعِ، وذلكَ من خلالِ خبرِ مسجدِ الضِّرارِ الذي عناهُ اللهُ — سبحانَه بقوْلِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ١٠٨ أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم

مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾. فقد كان أناسٌ من المنافقينَ من أهلِ قِباءٍ قد ابتنَوْا مسجداً إلى جنبِ مسجدِ قباءٍ، يريدونَ به المُضارّةَ والكفرَ وتفريقَ صفِّ المؤمنينَ، ويُعدُّونَه لمَن يرجونَه من المحاربينَ للهِ ورسولِه؛ ليكونَ لهم حِصناً عند الاحتياجِ إليه، فلما فرَغوا منه دعوْا رسولَ اللهِ ﷺ للصلاةِ فيه؛ فأنزلَ اللهُ — سبحانَه — هذه الآياتِ فاضحةً حقيقةَ ذلك المسجدِ ومرشدةً لأسلوبِ التعامُلِ معه. فظاهرُ الحالِ المؤكَّدِ بأيمانِ الكَذَبَةِ: مسجدٌ لإقامةِ ذكرِ اللهِ، وليس بعد المسجدِ شعارٌ شرعيٌّ! وحقيقتُه: كفرانُ دينِ اللهِ بالإضرارِ وتفريقُ الصَّفِّ وإعانةُ الأعداءِ. وإنّ أقبحَ ما يكتنفُ التعامُلَ تلوّنُ الحالِ والتحدثُ بلسانَيْنِ والإقبالُ بوجهين ولبسُ الحقِّ بالباطلِ، وذاك منهجُ المنافقينَ، يقولُ الرسولُ ﷺ: « إِنَّ شَرَّ النَّاسِ ذُو الوَجْهَيْنِ، الَّذِي يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ، وَهَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ » رواه البخاريُّ ومسلمٌ.

أيّها المسلمونَ!

كان طريقُ القرآنِ في مواجهةِ هذا الأسلوبِ النِّفاقيِّ القذرِ غايةً في الوضوحِ والحزمِ والقوةِ؛ فقد هَتكَ ستارَ المنافقينَ بإيضاحِ قصدِ بناءِ الضِّرارِ الذي أَحْدثوه؛ والمتمثّلِ بمَضارَّةِ المؤمنينَ من خلالِ تفريقِ جماعتِهم ومُمَالأةِ عُداتِهم. وكان ذلك طليعةَ العلاجِ، والحقيقةَ التي انبثقَ منها منهجُ التعامُلِ؛ فلا مجالَ لإحسانِ الظنِّ، واستخدامِ اللغةِ الرماديّةِ في فضحِ خُططِ المنافقينَ

المُفسِدةِ التي أظهروا حقيقتَها بفعالِهم ولُحونِ كلِمِهم. يقولُ اللهُ — تعالى -: ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾، قال أهلُ العلمِ: قَولُ الإِنْسانِ وفعلُه دليلٌ على نِيَّتِه، والفعلُ أصدقُ القولِ.

وَلَحَنْتِ لَحْنًا فِيهِ غِشٌّ وَرَابَنِي صُدُودُكِ تُرْضِينَ الْوُشَاةَ الْأَعَادِيَا

فالشعاراتُ لا تغيّرُ الحقائقَ وإن رُوِّجتْ بالألقابِ الشرعيّةِ، والقولُ لا يغلبُ الفعلَ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ۝١١ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ﴾. وتَرْكُ شهودِ مشاريعِ ضرارِ المنافقينَ - بعد فضحِ أمرِها - من أقوى ما يُردَعونَ به، ويُرتابُ به بناؤهم: ﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ﴾؛ إذْ لربَّما أضفَى حضورُ الرسولِ ﷺ وصلاتُه لشعارِ الغدرِ حقيقةً يُفتن بها الناسُ، ويُروَّجُ بها الباطلُ. كما أنّ الواجبَ عند القدرةِ والتّمكينِ إزالةُ بناءِ الضِّرارِ وإراحةُ الوجودِ منه بعدما انجلتْ حقيقتُه وتميّزَ أهلُه، وذاك ما فعلَه النبيُّ ﷺ؛ حسمًا لمادةِ الفتنةِ، وإخماداً لجَذوتِها، ودكًّا لمعاقلِها. وسيكونُ ذلك البناءُ عند إزالتِه سريعَ التّداعِي والسقوطِ ذاهبَ الأثرِ كما ينهارُ الرملُ بوَكْزةِ القبضةِ؛ لتأسيسِه على أرضِ النفاقِ الهشَّةِ المُفضيةِ بصاحبِها لقعرِ الجحيمِ، ولن يبقى لذلكَ البناءِ المهدومِ بقيةٌ إلا ريبةً قابعةً في قلبِ مَن بناه حين تشرّبَ زُعافَ النِّفاقِ فكُمِدَ فؤادُه بغيظِه وحزنِه؛ فلا تزالُ تلك الريبةُ دنسًا في قلبِه حتى ينقطعَ بالموتِ جزاءَ ظلمِه. واللهُ لا يهدي القومَ الظالمينَ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ وحدَه، والصلاةُ والسلامُ على مَن لا نبيَّ بعدَه.
وبعدُ، فاعلَموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

أسلوبُ مسجدِ الضِّرارِ ما يزالُ يُسلَكُ في صورٍ شتّى تُلائمُ ارتقاءَ الوسائلِ الخبيثةِ التي يتخذُها أعداءُ هذا الدينِ؛ تُتَّخَذُ في صورةِ نشاطٍ ظاهرُه للإسلامِ وباطنُه لسحقِ الإسلامِ، أو تشْويهِه، وتمييعِه! وتُتَّخذُ في صورةِ حريّةِ الرأيِ والإبداعِ الفكريِّ وإنْ أدّى إلى سبِّ الربِّ — جلّ وعلا — والأنبياءِ المصطَفَيْنَ والهُزءِ بالدينِ وحمَلَتِه! وتُتَّخذُ في صورةِ إظهارِ الرحمةِ وعدمِ تشويهِ صورةِ الإسلامِ بتعطيلِ حدِّ رجْمِ الزاني المُحصَنِ وقتلِ المرتدِّ! وتُتَّخذُ في صورةِ الدِّفاعِ عن المرأةِ والمطالبةِ بحقوقِها والسّعيِ في إغنائِها والقصدُ من وراءِ ذلكَ تغييرُ هُويّةِ المجتمعِ بانفلاتِ وضعِ المرأةِ فيه ومعارضتِها للقيودِ الشرعيّةِ! وتُتّخذُ في صورةِ المُخالفةِ البيِّنةِ المعنونِ عليها شعارُ بـ"الضوابطِ الشرعيّةِ"! وتُتّخَذُ في صورةِ إضفاءِ اسمِ إحدى أمهاتِ المؤمنينَ على مؤتمرٍ تغريبيٍّ مشبوهٍ! وتُتَخذُ في صورةِ تجديدِ الدينِ وإعادةِ قراءةِ النصِّ بُغيةَ التحريفِ! وتُتخَذُ في صورةِ الاجتهادِ من غيرِ أهلِه وإنْ خالفَ الإجماعَ أو كان أخذاً بالقولِ الشاذِّ واتّباعاً مطَّرداً للرُّخَصِ؛ مما يُظنُّ به اتّباعُ الهوى. في صُورٍ لا تتناهَى، جِماعُها: ظاهرُ حقٍ أريدَ به باطلٌ؛ ممّا يحتِّمُ كشفَها، وإنزالَ اللافتاتِ الخادعةِ عنها، وبيانَ

حقيقتِها للناسِ وما تُخفيهِ وراءها. ولنا أسوةٌ في كشفِ مسجدِ الضِّرارِ على عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ بذلكَ البيانِ القويِّ الصريحِ.

وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ

الحمدُ للهِ مجيبِ مَن دَعاه، وراحمِ مَن رَجَاه، أغاثَه حين ناداه، وأحبَّه واجتباه. وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ، لا ربَّ سواه، ولا نعبدُ إلا إيَّاه. وأصلّي وأسلمُ على رسولِه ومصْطَفاه محمدُ بنُ عبدِاللهِ، وعلى آلِه وصحبِه ومَن اقتَفى هُداه.

أمّا بعدُ، فاتقوا اللهَ - عبادَ اللهِ -، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ .. ﴾.

أيُّها المؤمنونَ!

إنْ ذُكرَ للبلاءِ صبرٌ فذاك صبرُ أيوبَ - عليه السلامُ -؛ مَضربِ مثلٍ، وسلوةِ مُبتلَى، ورجاءِ مكروبٍ، وذكرى عابدٍ، ورحمةِ أرحمِ الراحمينَ. ذاكَ ما أخبرَ عنه اللهُ — سبحانَه — بقولِه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًاۚ﴾. فكيف كانَ حالُه؟ وكيف رُفع بلاؤه؟ قدّر اللهُ بحكمتِه ورحمتِه على نبيِّه أيوبَ — عليه السلامُ — من البلاءِ ما أذهبَ عنه أهلَه ومالَه وعافيةَ بدنِه؛ فلم يبقَ له من أعضائه صحيحٌ إلا قلبَه ولسانَه، وقد كان من أنعمِ الناسِ عيْشًا. وهو مع ذلك الفَقدِ والابتلاءِ صابرٌ، محتسبٌ، راضٍ عن ربِّه، ذاكرٌ له صُبحَه ومساءه. واشتدتْ معاقدُ البلاءِ عليه وتنوَّعتْ، وزادَ شدّتَه شدّةً تطاولُ السنينَ، وتسلطُ الشيطانِ عليه بالنُّصبِ والعذابِ الحسيِّ والنفسيِّ، وتنكّرُ الناسِ، واستثقالُهم له القريبينَ منهم والبعيدينَ، حتى عافَه الجليسُ، وأوحشَ منه الأنيسُ، ولم يبقَ له وفيًا من مجتمعِه الذي ذاقَ خيرَه وبرَّه إلا زوجتُه المؤمنةُ التي كانتْ ترْعاه وتعرفُ

سـالفَ معروفِـه عليهـا، وأخَـوان كانـا مـن أخـصِّ النـاسِ بـه، قـال رسـولُ اللهِ ﷺ: "إِنَّ أَيُّـوبَ نَبِيَّ اللهِ ﷺ لَبِثَ فِي بَلائِهِ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ سَنَةً؛ فَرَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ إِلا رَجُلَيْنِ مِنْ إِخْوَانِهِ كَانَا مِنْ أَخَصِّ إِخْوَانِهِ؛ كَانَا يَغْدُوَانِ إِلَيْهِ وَيَرُوحَانِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: تَعْلَمُ! وَاللهِ لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْبًا مَا أَذْنَبَهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ! قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: مُنْذُ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ سَنَةً لَمْ يَرْحَمْهُ اللهُ؛ فَيَكْشِفَ مَا بِهِ؟!" (رواه ابنُ حِبانَ والحاكمُ وصحّحاه). وتلك سنّةُ اللهِ الغالبةُ في أصفيائه، كما قال النبيُّ ﷺ: "أشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياءُ، ثم الأمثلُ فالأمثلُ، يُبتلَى الرجلُ على حسْبِ دينِه، فإنْ كانَ دينُه صُلبا اشتدَّ بلاؤه وإن كان في دينِه رقةٌ ابتُلِي على حسْبِ دينِه، فما يبرحُ البلاءُ بالعبدِ حتى يتركَه يمشي على الأرضِ ما عليه خطيئةٌ" (رواه الترمذيُّ وقال: حسنٌ صحيحٌ).

أيّها المؤمنون!

ما كان بلاءُ أيوبَ — عليه السلامُ — من هوانِه على ربِّه، وما كانتْ شدَّتُه إمعانًا في إيذائه، كلا، بل هي رحمةُ أرحمِ الراحمينَ؛ يكسرُ بها قلبَ عبدِه حين يُشعرُه بضعفِه وفقرِه إليه، ويكونُ من أقربِ الناسِ منه، واللهُ — سبحانَه — عند المنكسرةِ قلوبُهم لأجلِه. ولا كسرةَ ككسرةِ قلبِ المريضِ ؛ ولذا قال اللهُ — تعالى — في الحديثِ القدْسيِّ الذي رواه مسلمٌ: "أمَا علمتَ أنّ عبدي فلانا مرضَ فلم تعُدْه، أمَا علمتَ أنك لو عُدتَه لوجدتَّني عنده؟". وصار هذا البلاءُ مَطهرةً للذنوبِ، ومَرقاةً لأعلَى الدرجاتِ، يقولُ النبيُّ ﷺ: «ما من مسلمٍ يُشاكُ شوكةً، فما فوقها إلا كُتبتْ له بها درجةٌ، ومُحيَتْ عنه بها خطيئةٌ»

(رواه مسلمٌ). وغدا بلاءُ أيوبَ — عليه السلامُ — ذكرى لكلِّ عابدٍ معتبرٍ، يعلمُ أنّ اللهَ قد يبتلي أولياءه ومَن أحبَّ من عبادِه في الدّنيا بضروبٍ من البلاءِ في نفسِه وأهلِه ومالِه، من غيرِ هوانٍ به عليه، ولكن اختباراً منه له؛ ليبلغَ بصبرِه عليه واحتسابِه إيّاه وحسنِ يقينِه منزلتَه التي أعدّها له تبارك وتعالى من الكرامةِ عنده.

أيّها المسلمونَ!

ولمّا كان للبلاءِ وقتُه الذي قدّرَه اللهُ ممّا تتحققُ به الغايةُ منه، وتكاملتْ أيامُه؛ هيّأ اللهُ للفرجِ سببَه؛ وهدى نبيَّه أيوبَ — عليه السلامُ — لمناجاتِه بدعاءِ المُنكَسِرِ المتأدِّبِ مع ربِّه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، يقولُ ابنُ القيمِ: "جمعَ في هذا الدعاءِ بين حقيقةِ التوحيدِ، وإظهارِ الفقرِ والفاقةِ إلى ربِّه، ووجودِ طعمِ المحبةِ في المُتَملَّقِ له، والإقرارِ له بصفةِ الرحمةِ وأنَّه أرحمُ الراحمينَ، والتوسُّلِ إليه بصفاتِه — سبحانَه -، وشدةِ حاجتِه وهو فقرُه. ومتى وجدَ المُبتَلَى هذا كشفَ عنه بلواه. وقد جُرِّبَ أنّه مَن قالَها سبعَ مراتٍ - ولا سيّما مع هذه المعرفةِ - كشفَ اللهُ ضرَّه". وتأملْ أدبَه مع ربِّه حين لم ينسبِ الضرَّ إلى اللهِ — سبحانَه — مع أنّه هو المقدّرُ له، وكيف عرّضَ برفعِ البلاءِ ولم يصرّحْ به؛ تأدُّباً مع ربِّه. بعد الصبرِ والدعاءِ وحسنِ الظنِّ باللهِ وتوقُّعِ الفرجِ أذنَ اللهُ — سبحانه — للبلاءِ أنْ يُرفعَ؛ فأوْحى إلى نبيِّه أيوبَ — عليه السلامُ — أنْ يقومَ من مَقامِه، وأن يضربَ الأرضَ برجلِه. ففعلَ فأنبعَ اللهُ عيناً، وأمرَه أن يغتسلَ منها؛ فأذهبَ جميعَ ما كانَ في بدنِه من الأذى،

ثـم أمـرَه فضربَ الأرضَ في مكانٍ آخرَ؛ فأنبعَ له عينـاً أخرى، وأمرَه أن يشـربَ منهـا؛ فأذهبتْ مـا كان في باطنِه من السوءِ؛ وتكاملتِ العافيةُ ظاهـراً وباطنـاً، كما قـال تعالـى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾. قال رسولُ اللهِ ﷺ: "كَانَ (أيـوبُ عليـه السـلامُ) يَخْـرُجُ لِحَاجَتِـهِ، فَـإِذَا قَضَـى حَاجَتَـهُ أَمْسَـكَتِ امْرَأَتُـهُ بِيَدِهِ حَتَّى يَبْلُغَ، فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَبْطَأَ عَلَيْهَا فَأَوْحَى اللهُ إِلَى أَيُّوبَ فِي مَكَانِـهِ أَنِ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَـذَا مُغْتَسَلٌ بَـارِدٌ وَشَـرَابٌ، فَاسْـتَبْطَأَتْهُ فَتَلَقَّتْـهُ وَأَقْبَلَ عَلَيْهَـا قَدْ أَذْهَبَ اللهُ مَا بِهِ مِنَ الْبَلَاءِ وَهُوَ أَحْسَنُ مَـا كَانَ، فَلَمَّـا رَأَتْـهُ قَالَـتْ: أَيْ بَارَكَ اللهُ فِيكَ هَلْ رَأَيْتَ نَبِيَّ اللهِ هَذَا الْمُبْتَلَى؟ وَاللهِ عَلَى ذَلِكَ مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَشْبَهَ بِهِ مِنْكَ إِذْ كَانَ صَحِيحًا، قَالَ: فَإِنِّي أَنَا هُوَ، قَالَ: وَكَانَ لَهُ أَنْدَرَانِ (وعاءان) أَنْـدَرٌ لِلْقَمْـحِ وأَنْـدَرٌ لِلشَّـعِيرِ، فَبَعَـثَ اللهُ سَـحَابَتَيْنِ، فَلَمَّـا كَانَـتْ أَحَدُهُمَـا عَلَـى أَنْدَرِ الْقَمْحِ أَفْرَغَتْ فِيهِ الذَّهَبَ حَتَّى فَاضَ وَأَفْرَغَتِ الْأُخْرَى فِي أَنْدَرِ الشَّعِيرِ الْـوَرِقَ (الفضـة) حَتَّـى فَـاضَ" (رواه الحاكـمُ وقـال: هـذا حديـثٌ صحيـحٌ علـى شـرطِ الشـيْخَين ولـم يخرجَّـاه، ووافقَـه الذهبـيُّ). وروى البخـاريُّ أن رسـولَ اللهِ ﷺ قـال: «بَيْنَمَـا أَيُّـوبُ يَغْتَسِـلُ عُرْيَانًـا، خَـرَّ عَلَيْـهِ رِجْـلُ جَـرَادٍ مِـنْ ذَهَـبٍ، فَجَعَـلَ يَحْثِـي فِـي ثَوْبِـهِ، فَنَـادَاهُ رَبُّـهُ: يَـا أَيُّـوبُ، أَلَـمْ أَكُـنْ أَغْنَيْتُـكَ عَمَّـا تَـرَى؟ قَـالَ: بَلَـى يَـا رَبِّ، وَلَكِـنْ لاَ غِنَـى لِـي عَـنْ بَرَكَتِـكَ». هـذه عافيـةُ أرحـمِ الراحميـنَ أيـوبَ — عليـه السـلامُ — في بدنِـه ومالِـه. أمـا عافيتُـه في أهلِـه الذاهبيـنَ، فقـد عوّضـه اللهُ عنهـم ضِعفيْـنِ في العـددِ، كمـا قـالَ سـبحانَه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
وبعدُ، فاعلَموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

في بلاءِ أيوبَ — عليه السلامُ — سلوةٌ لكلِّ مُبتلَىً، وبيانٌ لمنهجِ التعامُلِ مع البلاءِ؛ وذلكَ أنّ المؤمنَ مَنهيٌّ عن تمنِّي البلاءِ. وإنْ وقعَ فليس له إلا الصبرُ بأنْ يحبسَ القلبَ عن الجزعِ، واللسانِ عن الشكْوى، والجوارحِ عن إظهارِ التَّسخُطِ. وليثقْ بقربِ الفرَجِ له، وأنّ اختيارَ اللهِ له خيرٌ من اختيارِه لنفسِه. وليلحَّ على ربِّه بالدعاءِ وطلبِ الفرجِ؛ فاستخراجُ عبوديّةِ الدعاءِ من أجلِّ مقاصدِ البلاءِ. مرَّ محمدُ بنُ عليٍّ بمحمدِ بنِ المنكدرِ قال: ما لي أراكَ مغموماً؟ فقال أبو حازمٍ: ذلك لِدَيْنٍ قد فدَحه؛ قال محمدُ بنُ عليٍّ: أفُتحَ له في الدعاءِ؟ قال: نعم، فقال: لقد بُوركَ لعبدٍ من حاجةٍ أكْثرَ فيها دعاءَ ربِّه كائنةً ما كانتْ. قال أبو الدرداءِ: "مَن يكثرْ قرعَ البابِ يوشكْ أنْ يُفتحَ له، ومَن يكثرِ الدعاءَ يوشكْ أنْ يُستجابَ له". وفي بلاءِ أيوبَ — عليه السلامُ — أملٌ يلوحُ سناهُ بينَ جهامِ البلاءِ المتلبِّدِ؛ فلا تأسرُ لحظةُ شدّتِه الحاضرةُ أملَ الفرجِ المتيَقنَ الذي يعقبُه؛ فما بعد العُسرِ إلا اليُسرُ، وما بعد الشدّةِ إلا الفرجُ، ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾. وفرجُ اللهِ — سبحانَه — بحرٌ لا تحيطُ الظنونُ بمسارِبِ ورودِه؛ فبلاءٌ ممضٌّ طاولتْ أيامُه ثمانيَ عشرةَ

سنةً رفعه اللهُ بحركةِ قدم! وفي ضراعةِ أيوبَ — عليه السلامُ — تجليةٌ لأعظمِ ما يخففُ وطأةَ البلاءِ؛ وذلك باستشعارِ قربِ المولى — جلّ وعلا -، وتذكُّرِ

دنوِّ رحمتِه وكريمِ لُطفِه. دخلَ محمدُ بنُ المنكدرِ على عونِ بنِ عبدِ اللهِ في مرضِه؛ فلمّا رأى محمدٌ وجَعَه ترَقْرَقَتْ عيناه بالدُّموعِ حتى دمعَتا؛ فكشفَ عونٌ وجهَه فقال: ما شأنُك يا أبا عبدِ اللهِ؟ قال: رأيتُ شكواكَ، قال: "حسْبي ربِّي – عزَّ وجلَّ –؛ هو عُدّتي لكلِّ كُربةٍ؛ وصاحِبي عند كلِّ شدةٍ؛ ووليِّي في كلِّ نعمةٍ". وتلمَّحُ عُقبى الأجرِ وحسنِ العاقبةِ بلسمٌ يُداوَى به ألمُ البلاءِ، قال رسولُ اللهِ ﷺ: «يودُّ أهلُ العافيةِ يومَ القيامةِ حينَ يُعطَى أهلُ البلاءِ الثوابَ لو أنّ جلودَهم كانتْ قُرضتْ في الدُّنيا بالمقاريضِ» (رواه الترمذيُّ وحسَّنه الألبانيُّ). وفي بلاءِ أيوبَ — عليه السلامُ — ذكرى لكلِّ عابدٍ أنّ الصبرَ والاستكانةَ والثباتَ والتواضعَ للهِ — سبحانَه — حالَ الأزماتِ أسبابٌ يُتنزَّلُ بها رحمةُ أرحمِ الراحمينَ؛ لتكونَ العاقبةُ الفرجَ والمخرجَ والراحةَ.

يا مَوْلَى الزُّبيْرِ

إنّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مضلّ له، ومَن يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ...﴾

أيّها المؤمنونَ!

إنّ لأخبارِ الصادقينَ المعلَّقةِ قلوبُهم باللهِ وقعًا في النفوسِ، وأثراً في الائتساءِ، وسلوةً في التعزِّي، ورفعًا في الهمَّةِ. ومن غُررِ تلكَ الأخبارِ التي جلّتْ متانةَ التعلُّقِ باللهِ، ورجاءَه فيما يَدْهمُ المرءَ من خَطْبٍ، وحسنَ عاقبةِ أمرِه؛ سيّما إنْ كانَ هذا الأمرُ ممّا له ارتباطٌ بأخطرِ القضايا؛ وهي حقوقُ الخَلقِ - ما رواه البخاريُّ في صحيحِه من نبإ دَيْنِ الزُّبَيرِ بنِ العوَّامِ — رضيَ اللهُ عنه — الذي خلّفَه بعد وفاتِه، وعهِدَ لابنِه عبدِاللهِ — رضيَ اللهُ عنه — وفاءَه، وكانتْ تَركتُه لا تفي بسدادِ تلكَ الديونِ لولا إعانةُ اللهِ وبركتُه. قال عبدُاللهِ بنُ الزُّبيرِ: "لمّا وقفَ الزبيرُ يومَ الجملِ دعاني، فقمتُ إلى جنبِه، فقالَ: "يا بُنيَّ، إنّه لا يُقتلُ اليومَ إلا ظالمٌ أو مظلومٌ، وإنّي لا أُراني إلا سأُقتلُ اليومَ مظلومًا، وإنَّ من أكبرِ همِّي لَدَيْني، أَفَترى يُبقي دَيْنُنا من مالِنا شيئًا؟ فقال: يا بُنيّ، بعْ مالَنا، فاقضِ ديني. وأوْصَى بالثُّلُثِ وثلُثِ الثُّلثِ لبَني عبدِ اللهِ بنِ الزُّبيرِ إنْ فضُلَ بعد قضاءِ

الدَّيْـنِ شـيءٌ. قـال عبـدُاللهِ: فجعـلَ يوصِينِـي بدَيْنِـه، ويقـولُ: «يـا بُنـيَّ، إنْ عجـزتَ عنه في شـيءٍ، فاستعنْ عليه مـولايَ»، قـال: فـوَاللهِ مـا دريـتُ مـا أرادَ حتى قلتُ: يـا أبـةِ، مَـن مـوْلاكَ؟ قـال: «اللهُ!»، قـال: فـوَاللهِ مـا وقعـتُ في كُربـةٍ مـن دَيْنِـه، إلا قلـتُ: يـا مَوْلـى الزُّبيـرِ، اقـضِ عنـه ديْنَـه، فيقْضيَـه، فقُتِـلَ الزبيـرُ - رضـيَ اللهُ عنـه -، ولـم يـدعْ دينـاراً ولا درهمـاً إلا أرَضيـنَ، منهـا الغابـةُ، وإحـدى عشْـرةَ داراً بالمدينـةِ، وداريْـن بالبصـرةِ، وداراً بالكُّوفـةِ، وداراً بمصـرَ. قـال: وإنّمـا كان دَيْنُـه الـذي عليـه، أنّ الرجـلَ كانَ يأتِيـه بالمـالِ، فيسْـتودعَه إيّـاه، فيقـولُ الزبيـرُ: «لا، ولكنّـه سـلفٌ؛ فإنّـي أخشَـى عليـه الضَّيْعـةَ»، ومـا ولِـيَ إمـارةً قـطّ ولا جبايـةَ خـراجٍ، ولا شـيئاً إلا أنْ يكـونَ في غـزوةٍ مـع النبـيِّ ﷺ، أو مـع أبـي بكـرٍ، وعمـرَ، وعثمـانَ - رضـيَ اللهُ عنهـم -. قـال عبـدُ اللهِ بـنُ الزبيـرِ: فحسـبتُ مـا عليـه مـن الدَّيْنِ،فوجدتُـه ألفـيْ ألـفٍ ومِائَتَـيْ ألـفٍ (مليونيْـنِ ومِائَتَـيْ ألـفٍ)، فلقـيَ حكيـمُ بـنُ حـزامٍ عبـدَاللهِ بـنَ الزبيـرِ، فقـال: يـا بـنَ أخِـي، كـمْ على أخـي مـن الدَّيْـنِ؟ فكتَمـه، فقـالَ: مِائَـةَ ألـفٍ، فقـال حكيـمٌ: واللهِ مـا أُرى أموالَكـم تسـعُ لهـذه، فقـال لـه عبـدُ اللهِ: أفرأيتُـك إن كانـتْ ألفـيْ ألـفٍ ومِائتَـي ألـفٍ؟! قـال: مـا أُراكـم تُطيقـونَ هـذا، فـإنْ عجزتُـم عـن شـيءٍ منـه فاسـتَعينوا بـي. قـالَ عبـدُاللهِ: وكان الزبيـرُ اشْـترى الغابـةَ بسـبعينَ ومِائَـةِ ألـفٍ، فباعَهـا عبـدُاللهِ بألـفِ ألـفٍ وسـتِ مِائَـة ألـفٍ، ثـم قـامَ: فقـالَ مَـن كان لـه علـى الزبيـرِ حـقٌّ، فلْيوافِنـا بالغابـةِ، فأتـاه عبـدُ اللهِ بـنُ جعفـرَ، وكانَ لـه علـى الزبيـرِ أرْبـعُ مائـةِ ألـفٍ، فقـال لعبـدِ اللهِ: إنْ شـئتُم تركتُهـا لكـم، قـال عبـدُ اللهِ: لا، قـال: فـإن شـئتُم جعلتُموهـا فيمـا تؤخّـرونَ إنْ أخّرتُـم؟ فقـال عبـدُ اللهِ: لا، قـال: فاقْطَعـوا لـي قطعـةً، فقـال عبـدُ اللهِ: لـكَ مِـن هاهُنـا إلـى هاهُنـا، فبـاعَ منهـا فقضَـى دينَـه فأوْفـاه،

وبقـيَ منهـا أربعـةُ أسـهمٍ ونصـفٌ، فقـدمَ علـى معاويـةَ، وعنـدَه عمـرُو بـنُ عثمـانَ، والمنـذرُ بـنُ الزبيـرِ، وابـنُ زمعـةَ، فقـالَ لـه معاويـةُ: كـم قوِّمـتِ الغابـةُ؟ قـال: كلُّ سـهمٍ مائـةُ ألـفٍ، قـال: كـم بقـيَ؟ قـال: أربعـةُ أسـهمٍ ونصـفٌ، قـال المنـذرُ بـنُ الزبيرُ: قد أخذتُ سـهماً بمائةِ ألـفٍ، وقال عمرُو بـنُ عثمانَ: قد أخذتُ سـهماً بمائـةِ ألـفٍ، وقـال ابـنُ زمعـةَ: قـد أخـذت سـهماً بمائـة ألـف، فقـال معاويـة: كـم بقـي؟ فقـال: سـهم ونصـف، قـال: قـد أخذتـه بخمسـينَ ومائـةِ ألـفٍ، وبـاعَ عبدُ اللهِ بـنُ جعفرَنصيبَـه مـن معاويـةَ بسـتِ مائـةِ ألـفٍ. فلمـا فـرغَ ابـنُ الزبيـرِ مـن قضـاءِ ديْنِـه، قـال بنـو الزبيـرِ: اقسِـمْ بيننـا ميراثَنـا، قـال: لا، واللهِ لا أَقسِـمُ بينكـم حتـى أنـادي بالموسـمِ (الحـجِّ) أربـعَ سـنينَ: ألَا مَـن كان لـه علـى الزبيـرِ دَيْـنٌ فليأتِنـا فلْنقضِـه، فجعـلَ كلَّ سنةٍ ينـادي بالموْسـمِ، فلمّـا مضـى أربـعُ سنينَ قسّـمَ بينهـم، فكانَ للزبيرِ أربعُ نسوةٍ، ورفعَ الثُّلثَ، فأصابَ كلُّ امرأةٍ ألفَ ألفٍ ومِائتـا ألـفٍ، فجميعُ مالِـه خمسـونَ ألـفَ ألـفٍ ومِائتـا ألـفٍ".

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أمّا بعدُ، فاعلمُوا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

أرأيتُم كيف يعامِلُ اللهُ عبادَه الصادقينَ حين يُنزلونَ حوائجَهم عنده، ويُقْصِرونَ آمالَهم فيه، ويتوكّلونَ عليه، ويُحسِنونَ ظنَّهم فيه، ويبذُلونَ وُسعَهم في بذلِ أسبابِ قضاءِ الحوائجِ. ذلكُم كان صدقَ الزبيرِ في توكُّلِه على ربِّه، وصدقَه مع خَلقِه؛ إلزاماً لنفسِه بردِّ أموالِهم؛ ضماناً بالدَّيْنِ مع كونِها وديعةً لا تُضمَنُ، وتثبيتاً لها، وعهداً بوفائِها، وتوصيةً مكررةً بها حتى آخرِ حياتِه، وإرشاداً لما يمكنُ أنْ تُوفَّى به من أموالِه التي غنَمها في سبيلِ اللهِ صافيةِ الحِلِّ. وهكذا كان ظنُّ الزبيرِ بربِّه وموْلاه الذي ادَّخره له سنداً وعوناً في قضاءِ دَيْنِه، وأرشدَ ابنَه إلى اللجءِ إليه إنِ اعتراه كربٌ في قضاءِ هذا الديْنِ، وقد وعى الابنُ تلكَ الوَلايةَ الربانيّةَ، والقدرةَ التي لا يُعجزُها شيءٌ، والقربَ الإلهيَّ لمَن اتّخذَه وكيلاً؛ فكان لَهَجُ جؤارِه في ملمّاتِ قضاءِ ديْنِ أبيهِ: "يا موْلَى الزبيرِ، اقضِ ديْنَه!"، وسريعاً ما لبّى المولَى نداءه، وأجابَ طِلبتَه؛ فأنزلَ بركتَه على تلكَ العقاراتِ والرباعِ؛ وإذْ بأثمانِها تتضاعفُ العشراتِ في وقتٍ وجيزٍ، ويقيّضُ لبيعِها البائعَ الأمينَ والمشتريَ الوفيَّ السَّمْحَ؛ فبلغتِ الأثمانُ خمسينَ مليوناً ومِائتيْ ألفٍ بإذنِ موْلى الزبيرِ؛ فقُضيتْ تلك الديونُ التي طالما أرّقتْ

همّ الزبيرِ، وأُخرجَ ثُلثُ المالِ الذي أوْصى به ورجا دَيْمومَةَ أجرِه بعد موتِه، وفاضَ المالُ بعد ذلكَ؛ ليُنتَظَرَ فيه أربعُ سنواتٍ علّ طالباً أنْ يظهرَ، والمالُ ما زالَ رابياً؛ لتكونَ القِسمةُ بعد التأكُّدِ من خلوِّ الدائنينَ على يدِ الابنِ البارِّ الأمينِ الواصلِ؛ فكان أقلُّ نصيبٍ لوارثٍ مليونَ ومائتيْ ألفَ نصيبِ الزوجةِ الواحدةِ من الزوجاتِ الأربعِ. ولا عجبَ في ذلكَ؛ هكذا كانَ ظنُّ الزبيرِ في ربِّه، وهكذا كان صدقُه معه ومع خَلقِه! قال النبيُّ ﷺ: "يقولُ اللهُ — تعالى -:أنا عندَ ظنِّ عبدِي بي، وأنا معه إذا ذكرَني" رواه البخاريُّ ومسلمٌ، وفي روايةٍ لمسلمٍ: "وأنا معه إذا دعانِي"، ويقولُ: "مَن أخذَ أموالَ الناسِ يريدُ أداءها أدّى اللهُ عنه، ومَن أخذَ يريدُ إتلافَها أتلفَه اللهُ" رواه البخاريُّ.

توبةٌ صادقةٌ

إنّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مضلّ له، ومَن يضللْ فلا هاديَ له،وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ ...﴾.

أيّها المؤمنونَ!

بينَا كانَ النبيُّ ﷺ جالسًا بين أصحابِه في مجلسٍ إيمانيٍ مَهيبٍ، والصحبُ الكرامُ يشنّفُونَ أسماعَهم بحلْوِ خطابِه، وقلوبُهم بالإيمانِ تُغذّى، إذْ أقبلتْ عليهمُ امرأةٌ تحملُ من الهمِّ وقراً ناءَ القلبُ عن حملِه، وضاقتْ الدُّنيا عن احتوائِه أونسيانِه. سارتْ بخُطًى وئيدةٍ إلى الرحمةِ المُهداةِ إذْ أيقنتْ أنّ في اتّباعِه الخلاصَ من النكدِ، وتفريجِ الكربِ. أمّتْه وليس في خَلَدِها إلا تفريجُ كربتِها. خطّتْ حتى انتهتْ إلى النبيِّ ﷺ طالبةً سماعَ بثّها وقد علتِ المجلسَ مهابةٌ وتغشّاه السكونُ قائلةً: "يا رسولَ اللهِ! إنّي قد زنيتُ؛ فطهّرْنّي". تملّكَها تعظيمُ خالقِها، واستشعارُ ذنبِها؛ فلم تعري لما عداهما بالاً، ولم تضربْ له حسابًا. فما كانَ من النبيِّ الرحيمِ ﷺ إلا أنْ ردّها؛ علّها أنْ تستترَ بسِترِ اللهِ أو تكونَ جنايتُها لم تبلغِ الحدَّ؛ فذهبتْ ونارُ الألمِ تحرقُ فؤادَها المنكسرَ. ولم يزلْ استعظامُ ذنبِها يقلقُها، ويَطيفُ بها، حتى غدتْ من الغدِ إلى النبيِّ

ﷺ في مجلسِه مع أصحابِه، وتجاسرتْ على سؤالِه عن سببِ ردِّه لها البارحةَ وقد أتتْ بما يوجبُ الحدّ ببيّنتيْنِ؛ تكفي إحداهُما في إثباتِه؛ الإقرارِ والحملِ، فقالتْ: "يا رسولَ اللهِ! لمَ تردّني؟ لعلكَ أنْ تردّني كما رددتَّ ماعزاً؛ فواللهِ إنّي لحُبلَى". تحلفُ اليمينَ المؤكَّدَةَ؛ لتنفيَ أيَّ احتمالٍ يُدرأُ به الحدُّ. لا تريدُ إلا التطهُّرَ من وضَرِ هذا الذنبِ وإنْ كان السبيلُ إزهاقَ الروح! فلمّا رأى النبيُّ ﷺ عزمتَها قال: «ارجعِي حتى تلدِي»؛ إذْ حياةُ الجنينِ محترمةٌ؛ لا تُخترمُ بجنايةِ أمِّه، ولعلَّها تلوذُ بسِترِ اللهِ الضّافِي حينَ منّ عليها بالتوبةِ، فرجعتْ أدراجَها والألمُ يعصرُ قلبَها ونارُ الندمِ لم يخبُؤْ أوَارُها. وما زالتْ تعدُّ الأيامَ وكأنّها في بطءِ سيرِها أعوامٌ؛ تبغي الفرَجَ بالحدِّ، حتى وضعتْ صبيّها، ولم تنتظرْ غيرَ وضعِه؛ فحملتْه في لَفافة تؤمُّ النبيَّ ﷺ حتى وضعتْه بين يديْه تطلبُ منه إنجازَ عِدتِه قائلةً: "هذا قد ولدتُّه"؛ فطهِّرني. أشهرٌ وعزيمةُ التطهُّرِ صُلبةٌ ما ألانتْها مرورُ الليالِي والأيامِ كما لم تُنسِها ألمَ ذنبِها. فقال لها النبيُّ ﷺ: «اذهبِي فأرْضِعيه حتى تفطُميه»؛ رحمةً بهذا الصغيرِ، ولعلّ هذه المُنيبةَ تلوذُ بسِترِ اللهِ وعفوِه. فما كانَ منها إلا أنْ انصاعتْ لأمرِ رسولِ اللهِ ﷺ وما راجعتْه في أمرِه. انطلقتْ بصبيِّها تحملُه بينَ يديْها تنتظرُ فطامَه ليحينَ الموعدُ وتنعمَ بالراحةِ. وما زالتْ تُرضِعُ صبيَّها ويحويه حجرُها وتقلّبُه بالرعايةِ يداها لكنّ ألمَ الذنبِ لم يخفتْ ومنظرُ الصبيِّ البريءِ يُزيدُ شدّتَه شِدةً. حتى إذا استتمَّ الصبيُّ الرِّضاعَ واستغْنى عن لبنِ أمِّه بالغذاءِ حملتْه وكِسرةُ خبزٍ في يدِه؛ برهاناً على فَطْمِه واكتفائِه، وكأنّ الأرضَ تُطوَى لها وهي فرِحةٌ باقترابِ موعدِ إقامةِ التّطهيرِ بالحدِّ. اللهُ أكبرُ! ما أعظمَ الصدقَ! وما أبلغَ أثرَه وعِبرَه! جاءتْ النبيَّ ﷺ والصبيُّ معها

وكِسرةُ الخبزِ في يدِه قائلةً: "هذا - يا نبيَّ اللهِ - قد فطمتُه، وقد أكلَ الطعامَ" فما بقيَ إلا أنْ تُطهِّرَني؛ فأنجزْ لي ما وعدتَّني! عجباً لها ولشأنِها! أيُّ إيمانٍ وقرَ في قلبِها؟! وأيُّ خشيةٍ حلتْ في فؤادِها؟! وأيُّ تعظيمٍ استقرَّ في جَنانِها؟! فلمّا رأى النبيُّ ﷺ إصرارَها، وكانتِ الحدودُ طُهرةً لأصحابِها؛ دفعَ بالصبيِّ إلى أحدِ الأنصارِ لرعايتِه. أمّا الأمُّ فقد سمتْ روحُها لمنازلِ الرضا، وغابتْ في مشهدِه عن نوازعِ النفسِ وجواذبِ الدُّنيا؛ إذْ فرحُ التوبِ قد عمّرَ قلبَها الطّاهرَ كما قد عمّره تعظيمُ الذنبِ؛ فأسلمتْ نفسَها الطاهرةَ لنبيِّ اللهِ ﷺ؛ ليقيمَ عليها حدَّ اللهِ -تعالى- ولسانُ حالِها: إنْ كانتْ روحِي ثمناً لرضا ربِّي؛ فليُعجِّلْ بها؛ فهيَ أرخصُ ما تكونُ.

فليتكَ تحلو والحياةُ مريرةٌ | وليتكَ ترضَى والأنامُ غِضابُ
وليتَ الذي بيني وبينكَ عامرٌ | وبيني وبينَ العالمينَ خرابُ
إذا صحّ منك الوِدُّ فالكلُّ هيّنٌ | وكلُّ الذي فوقَ التُّرابِ ترابُ

أمرَ النبيُّ ﷺ بإقامةِ الحدِّ على هذه التائبةِ المحْصَنةِ؛ فحُفرَ لها حفرةٌ إلى صدرِها، وشُدَّتْ عليها ثيابُها، وأُحضِرتِ الحجارةُ، وهي ترى كلَّ ذلكَ وما ثناها ذلك عن طلبِها الحدَّ قيدَ أنملةٍ، فأُنزلتْ الحفرةَ وبدأ الصحابةُ في رجمِها؛ تطبيقاً لحدِّ اللهِ الذي يقولُ فيه: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾. ورحمةُ الحدودِ ربانيّةٌ تفوقُ رحمةَ العواطفِ البشريّةِ، فالرحمةُ كلُّ الرحمةِ في إقامتِها متى ما تحقّقَ شرطُها

وانتفَى مانعُها؛ رحمةً للمحدودِ، ورحمةً للمجتمعِ. عن عُبادةَ بنِ الصامتِ، قال: "أخذَ علينا رسولُ اللهِ ﷺ كما أخذَ على النساءِ: أنْ لا نشركَ باللهِ شيئا، ولا نسرقَ، ولا نزنيَ، ولا نقتلَ أولادَنا، ولا يعضَه (يرميه بالكذبِ) بعضُنا بعضا، فمَن وفّى منكم فأجرُه على اللهِ، ومَن أتى منكُم حدا، فأقيمَ عليه، فهو كفارتُه، ومَن سترَه اللهُ عليه، فأمرُه إلى اللهِ، إنْ شاءَ عذّبَه، وإنْ شاءَ غفرَ له" رواه مسلمٌ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
وبعدُ، فاعلَموا أنّ خيرَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

ولمّا بدأ الصحابةُ — رضيَ اللهُ عنهم — يرجُمون هذه التائبةَ بالحجارةِ حدَّ الزاني المُحصَنِ والنبيُّ الرحيمُ ﷺ ينظرُ إليهم إذْ أقبلَ خالدُ بنُ الوليدِ — رضيَ اللهُ عنه — بحجرٍ فرمى رأسَها فتنضَّحَ الدمُ على وجهِ خالدٍ فسبَّها، فسمعَ نبيُّ اللهِ ﷺ سبَّه إيَّاها، فقالَ: « مهْلاً يا خالدُ! فوَالذي نفسِي بيدِه لقد تابتْ توبةً لو تابَها صاحبُ مُكْسٍ (المُكْسُ: الضرائبُ التي تؤخَذُ ظُلماً) لغُفِرَ له » اللهُ أكبرُ شهادةٌ نبويّةٌ مؤكّدةٌ باليمينِ على مغفرةٍ ربانيَّةٍ ما أبقتْ من ذنبِ المرأةِ شيئاً وما ذرتْ. وهل وُجدتْ توبةٌ أفضلُ من أنْ جادتْ بنفسِها للهِ تعالى؟ فالتائبُ لا يعيَّرُ بذنبِه؛ إذِ التائبُ من الذنبِ كمَن لا ذنبَ له. وأمرَ النبيُّ ﷺ بها فغُسِّلتْ، وكُفنتْ وصلّى عليها. هكذا كانَ مسكُ الختامِ لحياةِ هذه المرأةِ الطاهرةِ — رضيَ اللهُ عنها وأرضاها -، وهكذا كان ذنبُها الذي أحسنتْ علاجَه بالتوبةِ سبباً في فوزِها العظيمِ برضوانِ اللهِ ومغفرتِه.

وكانتْ في حياتِكَ لي عظاتٌ ... وأنت اليومَ أوعظُ منك حيّا

كانتْ حياةُ تلكَ الصحابيّةِ الجليلةِ عِبرةً لكلِّ ذِي ذنبٍ — وكلُّنا كذلكَ-

: أنّ النفوسَ جُبلتْ على ضعفٍ، وأنّها مُعرَّضةٌ للزَّللِ ولو كانَ ذلكَ في خيرِ القرونِ، وأنَّ خيرَ الخطائينَ التوّابونَ؛ فلايأسرنّك الشيطانُ بذنبٍ، أو يؤيّسْك من توبةٍ؛ فبادرْ بالإنابةِ قبلَ حلولِ الأجلِ، وإيّاكَ إيّاك أنْ تحتقرَ الجِنايةَ؛ فقد يكونُ العطَبُ من ذلك الاحتقارِ. ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

عبرةُ ابنيْ آدمَ

الحمدُ للهِ الذي له الحمدُ في الأولى والآخرةِ، ذي الآلاءِ الباطنةِ والظاهرةِ، أحمدُه حمدَ مُستزِيدٍ ليأجرَه، وأستغفرُه من ذنوبِ آتيةٍ وغابرةٍ، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ ذو الحكمةِ الباهرةِ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه ذا الخُلقِ العظيمِ والشريعةِ الطاهرةِ، صلى اللهُ وسلّمَ عليه وعلى آلهِ وصحبِه ذوي النفوسِ الزاكيةِ والوجوهِ الناضرةِ.

أما بعدُ، فاتقوا اللهَ - عبادَ اللهِ- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ... ﴾.

أيّها المسلمونَ!

ما أجلَّ قَصصَ القرآنِ! وما أعظمَ وقْعَها في نفوسِ المتفكرين! ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَـٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾، أخبارُ حقٍّ؛ لا تحتملُ ريبةً، أو يعتريها خطأٌ، أو يَشينها إسهابٌ وتكرارٌ، زُبِرَتْ عظةً وعبرةً لمَن تدبَّرَها؛ فكان آخذاً بهَدْيها ودَلِّها. ومن تلك القصصِ والأخبارِ نبأُ ابنيْ آدمَ - عليه السلامُ - الذي أمرَ اللهُ نبيَّه ﷺ بتلاوتِه على الأممِ؛ لمسيسِ حاجتِها إلى عبرتِه، فَهُما ابنا لآدمَ من صُلبِه تقرَّبا للهِ — سبحانه — من ماليْهما بما يقرِّبُهما إليه، فقبِلَ اللهُ — سبحانه — قُربانَ أحدِهما ولم يَقبلْ قربانَ الآخرِ، وكان القَبولُ وعدمُه ممّا أَظْهرَ اللهُ أمْرَه وعَلِماه، فتحركتْ نفسُ مَن رُدَّ قربانُه على أخيهِ مُظْهِراً امتعاضَه مِن أمرِ اللهِ - جلَّ وعلا -؛ إذْ كيف يُقبلُ

قربانُه ويُردُّ قرباني؟! فبيّنَ الابنُ الصالحُ سببَ القَبولِ الذي بمعرفتِه يتجلّى الضدُّ؛ فقال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، فلوْ أصْلحتَ ما بينكَ وبينَ مولاكَ لأصلحَ اللهُ ما بينك وبينه، فلم تردعْه تلك الموعظةُ البليغةُ عن غيِّه، بل لم يَزَلِ الحسدُ يَعْتَمِلُ في نفسِه حتى سهَّلَتْ له نفسُه الشرِّيرةُ موبقةَ القتلِ الحرامِ، فصرّحَ بنيَّةِ الإقدامِ على القتلِ بصيغةِ التأكيدِ الشديدةِ: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾، يقتلُ مَن؟! أخاه الشقيقَ! وبسببِ ماذا؟ تنافسٌ في الطاعةِ! نستجيرُ باللهِ من طمسِ البصيرةِ واستحكامِ الغَرورِ!

معشرَ الإخوةِ!

لما رأى الابنُ الصالحُ مَخايلَ الشرِّ باديةً من أخيه، وتبدَّتْ منه عزيمةُ القتلِ بالقولِ المؤكَّدِ وبَسْطِ اليدِ لقتلِه؛ وَعَظَه موعظةً أخرى؛ علَّه يرعوي عن غيِّه ويثوبُ إلى رُشْدِه مبيِّنًا له قدرتَه على الدفاعِ ودفعِ الصائلِ وردِّ القتلِ بالقتلِ، فلم يكن جبانًا أو عاجزاً، بل كان أقوى منه كما قال عبدُاللهِ بنُ عمروٍ —رضيَ اللهُ عنهما-، ولكنَّ خوفَه من اللهِ حالَ دونَ ذلكَ، ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وزادَ إبلاغًا في الموعظةِ حينَ جلّى له مَغبَّةَ القتلِ وشؤمَه فقالَ: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي﴾، فترجعَ إلى اللهِ مأزوراً بإثمِ قتلي وآثامِكَ الأخرى، وتستحقَ دخولَ النارِ جزاءَ ظلْمِك؛ فالنارُ مثوى الظالمينَ! فهل ارْعوَى بتلكَ المواعظِ التي تنخلعُ لها القلوبُ حين تجرّدَ قلبُه عن ذِكرِ وَشيجةِ الرحِمِ؟ كلا، بعد هذا التذكيرِ البليغِ والعظةِ والمسالَمةِ والتحذيرِ والتخويفِ غلبتْه نفسُه

الأمّارةُ بالسوءِ؛ إذ زيّنتْ له قتْلَ أخيه ليُطْفِئَ ضِرامَ نارِ الحسدِ المشتعلةِ في قلبِه الظَّلومِ؛ فأجهزَ على شقيقِه قاتِلاً إيّاه في جريمةٍ هي أُولى جرائمِ القتلِ في تاريخِ البشريّةِ،وسنَّ موبقةَ سفْكِ الدمِ الحرامِ، وباءَ بالخسارِ الذي حَكَمَ به ربُّ العالمينَ عليه، ﴿فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾؛ خَسِرَ نفسَه؛ فأَوْرَدَها مواردَ الهلَكةِ، وخسرَ أخاه؛ إذْ فَقَدَ الناصرَ والرفيقَ، وخسرَ دنياه؛ فما تَهْنَأُ لقاتلٍ حياةٌ؛ إذْ لا يزالُ المؤمنُ في فسحةٍ من دينِه ما لم يُصِبْ دماً حراماً، وخسرَ آخرتَه؛ فباءَ بإثمِه الأولِ وإثمِه الأخيرِ. وبعد ارتكابه الجريمةَ احتارَ ما يصنعُ بجثةِ أخيه المُجَنْدَلَةِ بينَ يديْه الآثمتَيْنِ؟ إذْ لعلّه أولُ مَن ماتَ من بَنِي آدمَ كما ذكرَ أهلُ العلمِ، ومَثُلَتْ له سوْأةُ جريمتِه النكراءِ في صورتِها الحسيةِ؛ صورةِ الجثّةِ التي فارقتْها الحياةُ، وباتتْ لحماً يسري فيه العفنُ، فهي سوأةٌ لا تُطيقُها النفوسُ،وفي أثناءِ عيشِه في ملاحظةِ هذا المنظرِ، وحيرتِه في التصرُّفِ بعَثَ اللهُ غراباً بجوارِ غرابٍ ميتٍ، والقاتلُ ينظرُ إلى هذين الغُرابيْن وجثةُ أخيه بين يديْه وعورتُه قد بَدَتْ لم تُوارَ، فأبصرَ الغرابَ يحفرُ الأرضَ ليضعَ أخاه الميتَ فيها ويهيلَ عليه الترابَ بعد ذلك، عندها أقرَّ القاتلُ بعظيمِ جنايتِه وعجزِه عن إدراكِ درجةِ الغرابِ في حُسْنِ تصرُّفِه بمواراتِه بدنَ أخيهِ قائلاً: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ الذين لا ينفعهمُ الندمُ شيئاً؛ لأمرٍ يعْلَمُه اللهُ، وإلا فالندمُ توبةٌ كما قال النبيُّ ﷺ فيما رواه ابنُ ماجه وصحّحه ابنُ حِبانَ والحاكمُ؛ فَعَلاه اللهُ ندامةً بعد خسرانٍ، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

أيّها المؤمنونَ!

إنّ هذا النَّبأَ القرآنيَّ يَشِي بعِظَمِ شأْنِ القَبولِ؛ إذْ هو ثمرةُ العملِ، فليس المعوَّلُ في الأعمالِ إلا عليه؛ فلا الصورةُ ولا الكثرةُ تُغني إنْ لم يَجُدِ اللهُ على عبدِه بالقَبولِ، قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ — رضيَ اللهُ عنه -: "كونوا لقَبولِ العملِ أشدَّ اهتماماً بالعملِ؛ فإنّه لن يُقْبَلَ عملٌ إلا مع التقوى، وكيف يَقِلُّ عملٌ يُتَقَبَّلُ؟!". وطريقُ القَبولِ الأوحدُ تحقيقُ التقوى؛ ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ يقولُ اللهُ —تعالى- في شأنِ الأضاحي: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾. يقولُ أبو الدرداءِ — رضيَ اللهُ عنه — " لَأَنْ أستيقنَ أنَّ اللهَ قد تقبّلَ مني صلاةً واحدةً أحبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها؛ إنّ اللهَ يقولُ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾". والخوفُ من اللهِ - تعالى - أعظمُ حاجزٍ عن غِشيانِ المعاصِي؛ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ فما منعَه من مُقابلةِ القتلِ بالقتلِ إلا خوفُه من اللهِ. تأمّلوا قولَ اللهِ - تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾؛ لِتدركوا أنّ مخافةَ اللهِ لجامٌ للعبدِ؛ يَثْنيهِ عن المعصيةِ وإنْ سَهُلَ طريقُها وقَوِيَ داعيها وانتفى مانعُها. رَاودَ رجلٌ امرأةً، فقالت: ألا تستحي؟! فقال: ما يرانا إلا الكواكبُ، فقالت: وأين مُكَوْكِبُها؟! ومَن حقّقَ مقامَ الخوفِ من الجليلِ أكرمَه بوراثةِ الجنانِ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أمّا بعدُ، فاعلمُوا أنّ أحسنَ الحديثِ...

أيّها الإخوةُ في اللهِ!

وفي نبإ ابنيْ آدمَ إشارةٌ إلى عظيمِ خطرِ الاستجابةِ لنوازعِ الشرِّ في النفسِ؛ وضرورةِ التيقُّظِ لمثيراتِها التي تقودُ لمراتعِ الهلاكِ والذي يجيءُ الحسدُ في مُقَدَّمِها؛ إذْ حقيقتُه الاعتراضُ على قدَرِ اللهِ، والطعنُ في حكمتِه، فمبدأُ معصيةِ الابنِ القاتلِ كان مبدأَ معصيةِ إبليسَ الذي كان سببَ طَرْدِ أبيه من الجنةِ حين أغواه، فكان داءُ الحسدِ كامناً في قلبه؛ ما تطهّر منه، حتى حرّكَ كوامنَ الشرِّ في نفسِه الأمّارةِ بالسوءِ، فزينتْ له موبقةَ القتلِ؛ فتقحَّمها؛ فكان من الخاسرين النادمين.

عبادَ اللهِ!

إنّ من أعظمِ المصائبِ وفوادحِ الأوزارِ التي أفصحَ عنها نبأُ ابنيْ آدمَ أن يكونَ المرءُ رأساً في الشرِّ؛ يَسُنُّ سننَه؛ فيتبعَه عليه خَلقٌ حامِلاً أوزارَهم فيما تبِعُوه مع وزرِه الذي أنقضَ ظهرَه، يقولُ الرسولُ ﷺ: «مَن سنَّ في الإسلامِ سنةً حسنةً، فله أجرُها، وأجرُ مَن عملَ بها بعده، مِن غيرِ أنْ ينْقصَ من أجورِهم شيءٌ، ومن سنَّ في الإسلام سنةً سيئةً، كان عليه وزرُها ووزرُ مَن عملَ بها من

بعـدِه، مـن غيـرِ أن ينقصَ من أوزارِهـم شيءٌ» رواه مسلمٌ، ولابـنِ آدمَ القاتـلِ من ذلك أسوأُ نصيبٍ وأفدحُه، يقولُ النبيُّ ﷺ: "لا تُقْتَلُ نفسٌ ظلمـاً إلا كانَ على ابـنِ آدمَ الأولِ كِفْـلٌ مـن دمِها؛ وذلـك لأنّـه أولُ مَـن سـنَّ القتـلَ" رواه البخـاريُّ. قال الغزاليُّ:"طُوبى لِمَن إذا ماتَ ماتتْ معه ذنوبُه، والويلُ الطويلُ لِمَن يموتُ وتبقى ذنوبُه مائةَ سنةٍ ومائتي سنةٍ أو أكثرَ؛ يُعذَّبُ بها في قبرِه، ويُسألُ عنها إلى آخرِ انقراضِها!".

ألا أُريكَ امرأةً مِن أهلِ الجنةِ؟

إنَّ الحمدَ لله؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، منْ يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومنْ يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ...﴾.

أيُّها المؤمنونَ!

من أعظمِ مشاهدِ الإيمانِ وقْعاً في النفسِ أنْ ترى دارجاً على الأرضِ ومَقْعَدُ الصدقِ في الجنةِ له مكتوبٌ بخبرٍ يقينٍ مِن النبيِّ ﷺ؛ فظلَّ منتظِراً أيامَ أجلِه أن تنصرِمَ بآلامِها وأحزانِها وكدرِها؛ فيلقى ربَّه؛ ليوفيَه ثوابَه، ويزيدَه من فضلِه، ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾. وفي ذاتِ يومٍ كان ابنُ عباسٍ -رضيَ اللهُ عنهما- وتلميذُه عطاءُ بنُ أبي رباحٍ يَسْلُكان طريقاً مِن طرقِ مكةَ، وإذْ بابنِ عباسٍ يَستثيرُ تطلُّعَ عطاءٍ وهمَّتَه حين فَجَأَهُ بسؤالٍ بالغِ التأثيرِ؛ ذي خبرٍ وعُمْقٍ أَثَرٍ؛ تناقلَتْهُ الرُّواةُ، ودوَّنَتْه المحابرُ، واقتفى هداه الراشدون، وتسلّى بعزائه المبْتلَوْن، فقال: "ألا أُريك امرأةً من أهلِ الجنةِ؟"؛ فمَن تلك المرأةُ؟ وما خبرُها؟ وما العملُ الذي أُكرمتْ به حتى استحقتْ وِراثةَ الجنةِ ولمّا تزلْ باقيةً في عِدادِ الأحياءِ؟ قالَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ: قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ: أَلاَ أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: هَذِهِ المَرْأَةُ السَّوْدَاءُ، أَتَتِ

النَّبِـيَّ ﷺ فَقَالَـتْ: إِنِّـي أُصْـرَعُ، وَإِنِّـي أَتَكَشَّـفُ؛ فَـادْعُ اللهَ لِـي، قَـالَ: «إِنْ شِـئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُعَافِيَكِ»، فَقَالَتْ: أَصْبِرُ، فَقَالَتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللهَ لِي أَنْ لاَ أَتَكَشَّفَ، فَدَعَا لَهَا (رواه البخاريُّ ومسلمٌ).

عبادَ اللهِ!

إنَّ أَلَمَ البلاء قد أمضَّ تلك المرأةَ الضعيفةَ، ونغَّص عليها عيشَها، فكانت تغيبُ عن الوعي حين يدْهمُها داءُ الصَّرَعِ؛ فلا تدري ما يكونُ حالُها معه سوى علمِها بتكَشُّفِها حين تُفِيقُ؛ فطفِقتْ تبحثُ عن سببٍ يرفعُ اللهُ به عنها هذا البلاءَ الذي طالما أرهقَها؛ وعلمتْ أَنَّ التَّدَاوِيَ بِالدُّعَاءِ مَعَ الِالْتِجَاءِ إِلَى اللهِ أَنْجَعُ الأسبابِ وَأَنْفَعُها إن قُرِنَ بِأَمْرَيْنِ: أَحَدُهُمَا مِنْ جِهَةِ الْعَلِيلِ؛ وَهُوَ صِدْقُ الْقَصْدِ، وَالْآخَرُ مِنْ جِهَةِ الْمُدَاوِي؛ وَهُوَ تَوَجُّهُ قَلْبِهِ إِلَى اللهِ، وَقُوَّتُهُ بِالتَّقْوَى وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللهِ -تَعَالَى-؛ فانطلقتْ إلى رسولِ اللهِ ﷺ أكرمِ الخلقِ على اللهِ، وأرحمِهم بخلقِ اللهِ؛ ذي الدعوةِ المجابةِ والمقامِ المحمودِ، مُخْبِرَةً — دون جزعٍ أوتسخُّطٍ - عن بلائها؛ صَرَعًا وتكشُّفًا، طالبةً منه أن يدعوَ اللهَ لها بعافيةٍ يَرفعُ بها بلاءَها؛ لِعلمِها ألّا كاشفَ للضرِّ سواه، ولا سامعَ للشكوى إلا إيّاه، وأنه أرحمُ بعبدِه المؤمنِ من نفسِه وأمِّه الشفيقةِ، ولمّا رأى النبيُّ ﷺ قوةَ تعلُّقِها بربِّها؛ وكان الحريصَ على أمتِه، والأبَ الرحيمَ لها، ومَنْ يُحِبُّ لهم أسمى المنازلِ في الخيرِ؛ أرشدَها بأسلوبٍ تَخْييريٍّ إلى ما هو خيرٌ لها من العافيةِ ونعيمِ الدنيا قاطبةً؛ بين أنْ تختارَ العافيةَ التي ينزِلُها الشافي — سبحانه- عليها بدعوةِ النبيِّ ﷺ المجابةِ دون ضمانِ عُقْبى الجنةِ وبين أن تصبرَ على مُرِّ

هذا البلاءِ مع ضمانِ دخولِ الجنةِ؛ «إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُعَافِيَكِ»؛ فاختارتْ – دون تلكؤٍ أو تَوانٍ – مرارةَ الصبرِ على البلاءِ على حلاوةِ العافيةِ ما دامَ أنَّ رضا الله لها بالجنةِ هو الجزاءُ! وكانَ تَذَكُّرُ ذلك الجزاءِ بَلْسَماً تُداوي بها تباريحَ بلائِها، وعزاءً يقوّي عزمَها في تخطّي أيامِ البلاءِ المحدودةِ في علمِ اللهِ على ذَلولِ الصبرِ الذي لا يَكْبُو صاحبُه، قائلةً —كما في روايةِ أحمدَ-: "لا، بل أصبرُ"، بهذا الأسلوبِ الباتِّ النابعِ من يقينٍ وتصديقٍ ورجاءٍ لما قاله النبيُّ ﷺ. بل إنَّ دخولَ الجنةِ الذي وعدَها النبيُّ ﷺ -إنْ صبرتْ- دخولٌ أوَّليٌّ؛ لا يُسبقُ بحسابٍ ولا عذابٍ، كما جاء في روايةِ ابنِ حبانَ في صحيحِه -وقال عنها الألبانيُّ: "حسنٌ صحيحٌ"- أنَّ النبيَّ ﷺ قال لها بعد طلبِها الدعاءَ منه: "إنْ شئتِ دعوتُ اللهَ لكِ؛ فشفاكِ، وإنْ شئتِ فاصبري ولا حسابَ عليكِ"، فقالت: بل أصبرُ ولا حسابَ عليَّ. وذاك السموُّ الإيمانيُّ كان شأنَ الصحابةِ — رضي اللهُ عنهم-؛ فقد كانوا لا يَنْكِصُونَ عن فِعْلِ ما تكفَّلَ اللهُ لصاحبِه بالجنةِ، أو يتردَّدُون فيه، ولا يُخاطِرون بتركِه، قال أبو هُرَيْرَةَ —رضي اللهُ عنه-: جَاءَتِ الْحُمَّى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتِ: ابْعَثْنِي إِلَى آثَرِ أَهْلِكَ عِنْدَكَ، فَبَعَثَهَا إِلَى الْأَنْصَارِ، فَبَقِيَتْ عَلَيْهِمْ سِتَّةَ أَيَّامٍ وَلَيَالِيهِنَّ، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، فَأَتَاهُمْ فِي دِيَارِهِمْ، فَشَكَوْا ذَلِكَ إِلَيْهِ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْخُلُ دَارًا دَارًا، وَبَيْتًا بَيْتًا، يَدْعُو لَهُمْ بِالْعَافِيَةِ، فَلَمَّا رَجَعَ تَبِعَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْهُمْ فَقَالَتْ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنِّي لَمِنَ الْأَنْصَارِ، وَإِنَّ أَبِي لَمِنَ الْأَنْصَارِ؛ فَادْعُ اللهَ لِي كَمَا دَعَوْتَ لِلْأَنْصَارِ، قَالَ: «مَا شِئْتِ، إِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُعَافِيَكِ، وَإِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ»، قَالَتْ: بَلْ أَصْبِرُ، وَلَا أَجْعَلُ الْجَنَّةَ خَطَرًا! (رواه

البخاريُّ في الأدبِ المفردِ وصحَّحَه الألبانيُّ). ويا لِهناءِ بُشرى أهلِ الإيمانِ -إنِ ابْتُلُوا بالأمراضِ وصبروا -بمِثْلِ ثوابِ تلك المرأةِ الصابرةِ؛ دخولٍ للجنةِ بلا حسابٍ ولا عذابٍ، قال ابنُ هُبَيْرَةَ: "في هذا الحديثِ ما يدُلُّ على مَن ابتُلي بمثلِ ما ابتليتْ به هذه المرأةُ، فصَبَرَ كما صبرتْ؛ كان له مثلُ ما وعدَها رسولُ اللهِ ﷺ؛ لأنه علّلَ دخولَ الجنةِ بصبرها؛ فاختارتِ الصبرَ، فاقتضى مفهومُ الخِطَابِ أنَّ كلَّ مَن كانت حالُه مثلَ حالِها، وصَبَرَ مُختاراً للصبرِ على العافيةِ؛ رُجِيَ له مِن فضْلِ اللهِ -عزَّ وجلَّ -ما رُجيَ لها". وإنّما يتحققُ الصبرُ على البلاءِ بحبْسِ النَّفْسِ عن المكروهِ، وعَقْدِ اللسانِ عنِ الشكوى إلا للهِ —سبحانه-، والمكابدةِ في تحمُّلِه، واليقينِ بنفاذِ قَدَرِ الله بوقوعِه، واشتمالِه على الحكمةِ والرحمةِ وإن لم يدركْها، وانتظارِه فَرَجَه، وتلك حقيقةُ الصبرِ الواجبةُ التي تَظْهَرُ فيها الصورةُ الحقَّةُ للعبوديةِ والتسليمِ لأمرِ اللهِ.

أيَا فارجَ الهمِّ عن نُوحٍ وأسْرتِه ... وصاحبِ الحوتِ مولى كلِّ مكروبِ
وفالقَ البحرِ عن موسى وشيعتِه ... ومُذْهِبَ الحُزْنِ عن ذي البيتِ يعقوبِ
وجاعلَ النارِ لإبراهيمَ باردةً ... ورافعَ السُّقْمِ عن أوصالِ أيوبِ
إنَّ الأطباءَ لا يُغْنُونَ عن وَصَبٍ ... أنت الطبيبُ طبيبٌ غيرُ مَغْلُوبِ

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.
أما بعدُ، فاعلموا أن أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيها المؤمنون!

ولِحشْمةِ العِفَّةِ مع هذا البلاءِ نبأٌ ذو عِبرةٍ؛ وذلك أنَّها -رضي اللهُ عنها- جعلت تَكَشُّفَ بعضِ بدنِها الذي يَغْلِبُها عليه الصرعُ قَسِيماً له في معاناةِ البلاءِ التي طلبتْ من النبيِّ الدعاءَ برفْعِه؛ "إِنِّي أُصْرَعُ، وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ؛ فَادْعُ اللهَ لِي"، بل جعلتْ معاناةَ التكشُّفِ أشقَّ رَهَقاً مِن رَهَقِ الصرعِ حين عَدَلَتْ عن طلبِ دعاءِ النبيِّ ﷺ برفعِ المرضِ، ولمْ يَنْثَنِ عن طلبِ دعائه بألا تتكشَّفَ مع قيامِ عُذْرِها القاهرِ، وضَعْفِ داعي النظرِ إلى ما يَظهرُ منها إبَّانَ صَرَعِها مع تقدُّمِ سِنِّها، وأقرَّها النبيُّ ﷺ على ذلك؛ تقديماً لحقِّ اللهِ -جلَّ وعلا- على حقِّ المخلوقِ، وقياماً به، وإبقاءً له؛ فكان مِن شأنِها -كما ذكرَ أهلُ العِلْمِ- في رعايةِ حقِّ ربِّها بسِتْرِ بدنِها حين تَحُسُّ بِبُدُوِّ الصرعِ مِن مَسِّ الجانِّ النَّجِسِ أنْ تَذْهَبَ إلى الكعبةِ، وتتعلَّقَ بأستارِها، أو تُلازِمَ دَرَجَها؛ كيما يَبتعدَ عنها مَسُّ الشيطانِ الرِّجْسِ بقداسةِ المكانِ، روى البخاريُّ في صحيحِه عن عطاءٍ أنه رأى أمَّ زُفَرَ تلك (وهو اسمُها) امرأةً طويلةً سوداءَ، على سِتْرِ الكعبةِ. هذا حالُها مع حِشمةِ العفافِ وقيامِ العذرِ وضَعْفِ داعي النَّظَرِ؛ فكيف بمَن تتعمَّدُ كشْفَ ما أمرَ اللهُ بسترِه، وتصويرَه، ونشرَه دونما عذرٍ سوى بُغيةِ الشُّهْرةِ، واتباعِ الهوى

وخطواتِ الشيطانِ؛ فتَبُوءَ بإثمِها، وإثْمِ من تبِعَها في غيِّها، وإثم مَن أطلقَ بصرَه فيه ونَشَرَه، وآثامِ مَن فُتِنَ بذلك مِن بَشَرٍ ودَهْرٍ لا يَعْلَمُ حَدَّ المنتهى فيه إلا اللهُ!

قال الغزاليُّ: "طُوبى لِمَن إذا ماتَ ماتتْ معه ذنوبُه، والويلُ الطويلُ لِمَن يموتُ وتبقى ذنوبُه مائةَ سنةٍ ومائتي سنةٍ أو أكثرَ؛ يُعذَّبُ بها في قبرِه، ويُسألُ عنها إلى آخرِ انقراضِها".

تَوَلَّوْا وأعينُهم تفيضُ مِن الدمعِ

إنَّ الحمدَ لله؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومَنْ يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعدُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ... ﴾.

أيّها المؤمنونَ!

مَشْهَدُ الصدقِ أبلغُ المشاهدِ خبراً، وأوقعُها أثراً؛ لِمَا جعلَ اللهُ للصدقِ من خصيصةِ القَبولِ، والنفاذِ إلى عمقِ المشاعرِ، والتأثيرِ فيها. وقد حوى القرآنُ الكريمُ من مشاهدِ الصدقِ ما بلغَ الذُّرى، وصحَّ أنْ يُضرَبَ به المثلُ؛ وذلك حين كان الصدقُ هو الحاملَ لأصحابِه في تفديةِ الدينِ بالنفسِ والنفيسِ، فأتوْا راغبين المشاركةَ في ساعةِ عسرةٍ من جهادِ النبيِّ ﷺ أعداءَ اللهِ! خلّدَ القرآنُ ذِكرَ ذلك الموقفِ باقياً إلى أنْ يرثَ اللهُ الأرضَ ومَن عليها؛ وفاءً لأهلِه الصادقين، وأسوةً لمن وراءهم من المقتدِين، وإبرازاً لخصيصةٍ لا يُشادُ صرْحُ الدينِ إلا بها. سُطِّرَ ذلك الموقفُ في سورةِ التوبةِ الفاضحةِ سوأةَ النفاقِ وتلوُّنَ أهلِه ومخالفةَ سرائرِهم لما يُبْدون، وجاء ختْمُها مُسَطِّراً خصالَ الصادقين، ووضيءَ مواقفِهم، وأَمْرَ اللهِ عبادَه بالدخولِ في معيَّتِهم، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾. ومن تلك المواقفِ موقفُ البكّائين الذين

نـوّهَ اللهُ بذكرِهـم بقولـه: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩١ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾؛ وذلـك أنَّ اللهَ أمَـرَ نبيَّـه ﷺ بالمسيرِ إلـى تبـوكَ؛ لتأديـبِ عادِيَـةِ الـرومِ وأحلافِهـا حيـن رامـت القضـاءَ علـى الدولـةِ الإسـلاميةِ الناشـئةِ بالمدينـةِ، وكان ذلـك في وقـتِ عُسْـرةٍ مـن حـالٍ، وشـدَّةٍ مـن قَيْـظٍ، ويَنْعَـةٍ مـن ثمـرٍ، وبُعْـدٍ في المسـافةِ، فاسـتحثَّ النبـيُّ ﷺ أصحابَـه علـى المشـاركةِ في هـذا الواجـبِ بإعـدادِ الجيـشِ والانضمـامِ إلـى كتيبتِـه الباسـلةِ؛ فأسـفرتْ مواقفُهـم عـن عظيـمِ مـا وَقَـرَ في قلوبِهـم مـن إيمـانٍ وصـدقٍ؛ فسَـخَتْ نفوسُـهم بالإقـدامِ، وجـادتْ بالعطـاءِ مـن نفيـسِ المـالِ؛ وكان مـن أولئـك الـبررةِ الصادقيـن نفـرٌ لـم تسـعفْهمُ القـدرةُ الماليـةُ علـى المشـاركةِ، ولـم يتركْهـم داعـي الصـدقِ لائذيـن بالعـذرِ، مسـترْوحين لإذنِ اللهِ لهـم، فجـاؤوا إلـى النبـيِّ ﷺ طالبيـن حِمْلانَـه إيّاهـم؛ بُغيـةَ نيـلِ شـرفِ الاسـتجابةِ للهِ ورسـولِه والـذَّوْدِ عـن حِمـى الديـنِ وإن كان الكِفـاءُ زهـوقَ الـروحِ وإتـلافَ المُهـجِ، فأبـدى لهـمُ النبـيُّ ﷺ اعتـذارَه؛ لعـدمِ مـا يجـدُ مـن ثمـنِ ذلـك الحمـلانِ الـذي مـا بَلَـغَ —في قـولِ كثيـرٍ مـن المفسـرين- قيمـةَ النَّعْـلِ التـي تَقـي الأقـدامَ في رحلـةِ الجهـادِ المُضْنيـةِ، قـال إبراهيـمُ بـنُ أدهـمَ: "مـا سـألوه الخيـلَ، مـا سـألوه إلا النعـالَ!"، فمـا إنْ لامسـتْ كلمـةُ الاعتـذارِ النبـويِّ المسـببِ مسـامعَهم إلا وسـرى مفعـولُ الصـدقِ في أبدانِهـم سـريانَ الـروحِ في البـدنِ، وكان غامـراً لهـا؛ فاسـتدرَّ منهـمُ المدامـعَ إذِ امتـلأتِ المحاجـرُ بالدمـعِ، فهَمَـى بمـرْأىً ومسـمَعٍ مـن العليـمِ

الخبيرِ —سبحانه-فيّاضاً مُنْهمِراً على الوُجُناتِ، كفيضِ الماءِ النابعِ من العينِ الجاريةِ، وهم يحاولون بتوليةِ الظهورِ مواراةَ دموعِهم عن عينِ النبيِّ الرحيمِ ﷺ؛ كي لا يُؤذى بمشهدِ الدمعِ الفياضِ؛ فيزيدوا ألمَه ألمَاً وهو الأبُ الشفيقُ عليهم، مكتفين باطِّلاعِ علامِ الغيوبِ على ما قامَ في قلوبِهم من شاهدِ الصدقِ الذي كان انهمارُ الدمعِ أحدَ دلائلِه، مبْدين حُزْنَهم ألّا يجدوا ما يقدمونه من نفقةٍ يُسْهمون بها في إعدادِ جيشِ العُسرةِ أو المشاركةِ في جندِه الكُماةِ؛ فكان العوضُ من اللهِ خيرَ جابرٍ لانكسارِ قلوبِهم بذلك الفقدانِ حين نفى عنهم حرَجَ التخلُّفِ ومعرَّتَه، وحال دون لحوقِ العقوبةِ بهم، وإذا سقطَ الحرجُ عنهم، عادَ الأمرُ إلى أصلِه؛ وهو أنَّ مَن نوى الخيرَ، واقترنَ بنيَّتِه الجازمةِ سَعْيٌ فيما يقدرُ عليه، ثم لم يَقدِرْ؛ فإنه يُنَزَّلُ منزلةَ الفاعلِ التام، وأسبغَ عليهم سابلةَ الثناءِ الربانيِّ الخالدِ المُسَطَّرِ في كتابِه العظيمِ؛ تتلوه الشِّفاهُ، وتُنْصِتُ لوقْعِه المسامعُ، ويحرِّكُ القلوبَ مشهدُ الدموعِ فيه. قال ابنُ إسحاقٍ: "أتى سبعةٌ من الأنصارِ إلى رسولِ اللهِ ﷺ في جيشِ العُسرةِ - وهي غزوةُ تبوكَ — فاستحملوه، وهم سالمُ بنُ عميرٍ، وعُلبةُ بنُ زيدٍ، وأبو ليلى عبدُالرحمنِ بنُ كعبٍ، وعمرُو بنُ الحُمامِ بنِ الجَمُوحِ، وعبدُاللهِ بنُ المغفَّلِ، وهَرمُ بنُ عبدِاللهِ، والعِرباضُ بنُ ساريةَ الفزاريُّ، وكانوا أهلَ حاجةٍ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: "﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾" فلقيَ يامينُ بنُ عمرٍو أبا ليلى وعبدَاللهِ بنَ مغفَّلٍ وهما يبكيان، فقال: ما يبكيكما؟ فقالا: جئنا رسولَ اللهِ ﷺ؛ ليحملَنا، فلم نجدْ عنده ما يَحملُنا، وليس عندنا ما نتقوّى به على الخروجِ، فأعطاهما ناضِحاً (بعيراً) له،

فارتحلاه، وزوَّدَهما شيئًا من لَبَنٍ. وأما علبةُ بنُ زيدٍ، فخرجَ من الليلِ، فصلّى من ليلتِه ما شاءَ اللهُ، ثم بكى وقال: اللهمَّ! إنك قد أَمرتَ بالجهادِ، ورغَّبتَ فيه، ثم لم تجعلْ عندي ما أتقوّى به، ولم تجعلْ في يدِ رسولِك ما يَحملُني عليه، وإني أتصدقُ على كلِ مسلمٍ بكلِ مظْلمةٍ أصابني بها في مالٍ أو جسدٍ أو عِرْضٍ، ثم أصبحَ مع الناسِ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: "أين المتصدقُ هذه الليلةَ؟ "، فلم يقمْ أحدٌ، ثم قال: "أين المتصدقُ؟ فليَقُمْ"، فقام إليه فأخبرَه، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: "أبشرْ؛ فوالذي نفْسُ محمدٍ بيده، لقد كُتِبتْ في الزكاةِ المُتقبَّلةِ!" وصححه الألبانيُّ.

عبادَ اللهِ!

إنَّ مشهدَ الصدقِ في نبإ البكّائين مفْصِحٌ عن سرِّ بركةِ عملِ الصحابةِ — رضي اللهُ عنهم-في نُصرةِ الدينِ؛ إذ كان الصدقُ عمادَه وساقَه الذي عليه يقومُ، والصدقُ خيرُ أعمالِ العبدِ؛ فإذا بلغتِ القلوبُ؛ فلا يضيرُ ألّا تتحركَ الأقدامُ. قال ابنُ القيمِ: "ليس للعبدِ شيءٌ أنفعُ من صدْقِه ربَّه في جميعِ أمورِه مع صدقِ العزيمةِ؛ فيصدقُه في عزمِه وفي فعلِه. قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾. فسعادتُه في صدْقِ العزيمةِ وصدْقِ الفعلِ؛ فصدْقُ العزيمةِ جمْعُها وجزْمُها وعدمُ التردُّدِ فيها، بل تكونُ عزيمةً لا يشوبُها ترددٌ ولا تلوُّمٌ. فإذا صدقتْ عزيمتُه بقيَ عليه صدقُ الفعلِ، وهو استفراغُ الوسعِ وبذْلُ الجهدِ فيه، وأن لا يتخلفَ عنه بشيءٍ من ظاهرِه وباطنِه. فعزيمةُ القصدِ تمنعُه من ضَعفِ الإرادةِ والهمَّةِ، وصدْقُ الفعلِ يمنعُه من الكسلِ

والفُتورِ. ومَن صَدَقَ اللهَ في جميعِ أمورِه صنَعَ اللهُ له فوق ما يَصنعُ لغيرِه. وهذا الصدقُ معنىً يلتئمُ من صحةِ الإخلاصِ وصدقِ التوكلِ؛ فأصدقُ الناسِ مَن صحَّ إخلاصُه وتوكلُه".

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.

أما بعدُ، فاعلموا أنّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ...

أيّها المؤمنونَ!

والصدقُ خيرُ هادٍ لأعمالِ البرِّ الهاديةِ إلى طريقِ الجنةِ، يقولُ النبيُّ ﷺ: "عليكم بالصدقِ؛ فإنَّ الصدقَ يهدي إلى البرِّ، وإنَّ البرَّ يهدي إلى الجنةِ، وما يزالُ الرجلُ يصدقُ ويتحرّى الصدقَ حتى يُكتبَ عند اللهِ صِدِّيقًا، وإيَّاكم والكذبَ؛ فإنَّ الكذبَ يهدي إلى الفجورِ، وإنَّ الفجورَ يهدي إلى النارِ، وما يزالُ الرجلُ يكذبُ ويتحرّى الكذبَ حتى يُكتبَ عند الله كذَّابًا" رواه مسلمٌ. وأبانَ صدْقُ موقفِ البكَّائين —رضي اللهُ عنهم- أنَّ استشعارَ المؤمنِ هَمَّ نُصرةِ الدينِ، وإبصارَه ما يحسنُه، وبَذْلَ ما في وسْعِه لنصرتِه مِن خيرِ ما يَنْصرُ به الدينَ، وبمثْلِ هذه الروحِ انتصرَ الإسلامُ، وبمثْلِ هذه الروحِ عزَّتْ كلمتُه؛ فلننظرْ أين نحن مِن هؤلاء، ولْننظرْ أين روحُنا من تلك الأخيارِ، ثم لنطلبِ النصرَ والعزةَ إنِ استشعرنا من أنفسنا بعضَ هذه المشاعرِ، وإلا فلْنسددْ ولْنقاربْ، واللهُ المستعانُ. وأفصحَ نبأُ البكَّائين عن عظيمِ ما قام في قلوبِ الصحابةِ — رضي اللهُ عنهم- من حرصٍ على العملِ الصالحِ، وحزنِهم على فواتِ الطاعةِ والبكاءِ عليها وإن كانوا معذورين بتركِها. قال ابنُ رجبٍ: "قال بعضُ العلماءِ: هذا —واللهِ- بكاءُ الرجالِ! بكوْا على فقدِهم رواحلَ يتحمَّلون
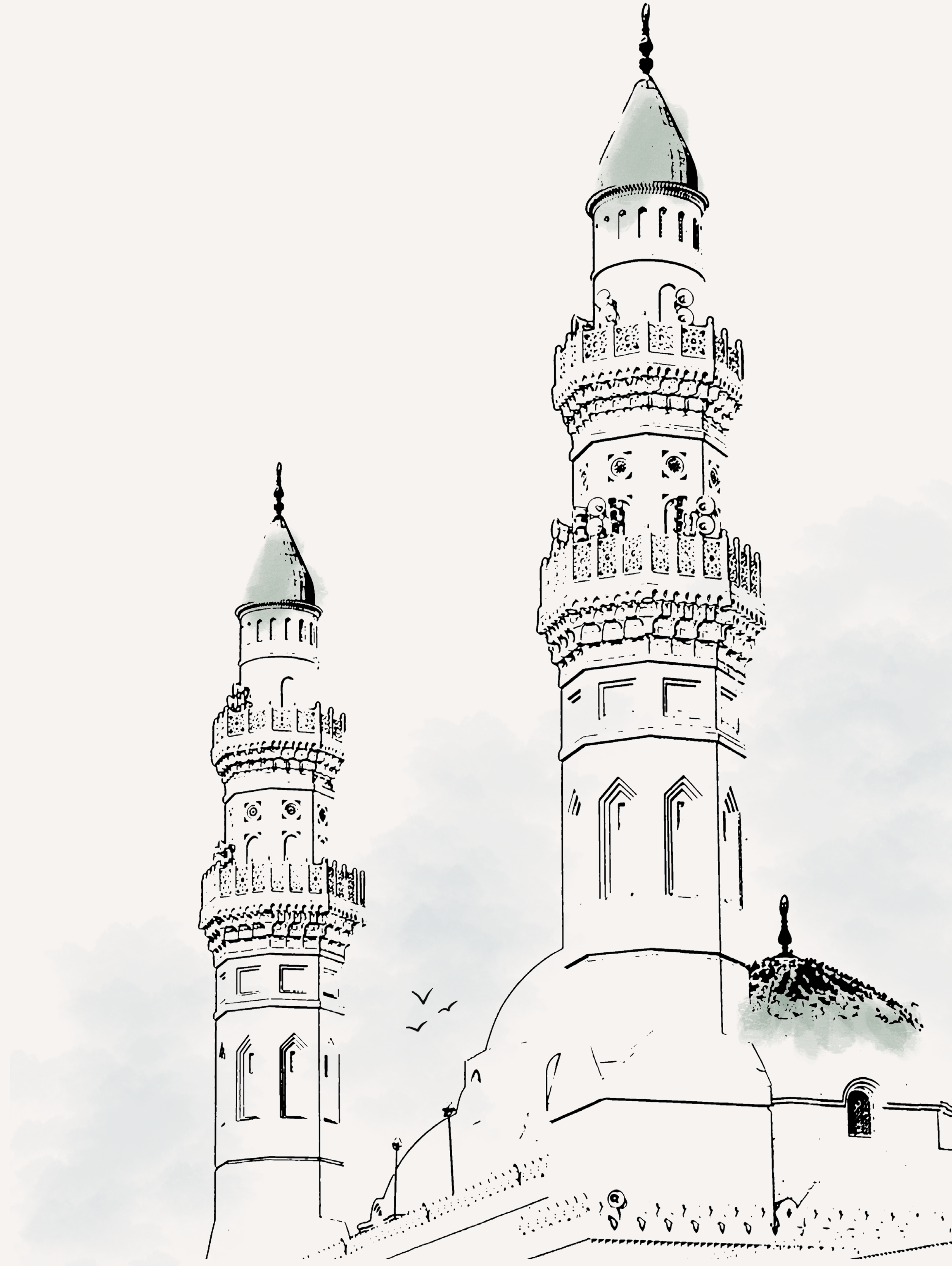
عليها إلى الموتِ في مواطنَ تُراقُ فيها الدماءُ في سبيلِ اللهِ، وتُنْزعُ فيها رؤوسُ الرجالِ عن كواهلِها بالسيوفِ، فأما مَن بكى على فقْدِ حظِّه من الدنيا وشهواتِه العاجلةِ، فذلك شبيهٌ ببكاءِ الأطفالِ والنساءِ على فقْدِ حظوظِهمُ العاجلةِ". قال العزُّ بنُ عبدِالسلامِ: "الحُزْنُ على فواتِ الطاعةِ من ثمرةِ حبِّها والاهتمامِ بها؛ لأنَّ المرءَ لا يَحْزنُ إلا على ما عزَّ عليه".